

أبيدومى



تساعية قصص خيال علمي

د. غفار محمد

تساعية قصص خيال علمي ..

إهداء :

إلى أولئك الذين يُصغون للكلمات كما لو كانت نبوءات،
ويؤمنون أن في كل جملة مأوى، وفي كل قصة خلاص ..
إلى عشاق الأدب الذين يمنحون اللغة حياةً أخرى..
وإلى مشجعي الكتّاب الذين يرون في الحبر نورًا، لا حرفة
أكتب هذه الصفحات، لا لتُفهم... بل لتُحسّ
أنتم النبض الذي يجعل للكلمة طنينًا أبعد من الورق،
وللحكاية عمرًا أطول من راويها ..

تساعية قصص خيال علمي ..

محتوى الكتاب :

- الرواية الأولى : فوتون
- الرواية الثانية : CRISPR
- الرواية الثالثة : أبيدوس
- الرواية الرابعة : حجر رشيد الكونيّ
- الرواية الخامسة : أكاد أخفيها
- الرواية السادسة : مخمس الشيطان
- الرواية السابعة : DNA
- الرواية الثامنة : روح
- الرواية التاسعة : هندسة الندم

تساعية قصص خيال علمي ..

فنون



الرواية الأولى

فصول الرواية :

● عندما أبصر الفوتون الضوء ..

○ مار د الفانوس ..

● ثقب أسود ..

○ كوكبة من المشتبهين ..

● الكون ثنائي القطب ..

○ النفق الكمي ..

● الفقاعة الباردة ..

○ ندبة الذاكرة ..

● شهاب الحقيقة ..

○ فرانكشتاين ..

● النهاية ؟!

فوتون ..

الفصل الأول

عندما أبصر الفتون

الضوء

الولايات المتحدة الأمريكية

كاليفورنيا / سان دييغو ..

2033 م ..

في الخامسة والعشرين من عمره فقط ، **كيفين أستور** شاب يشبه في تكوينه معلقة جاهلية عظيمة تنتظر بترقب أن تأخذ لنفسها مكاناً على جدران الكعبة ..

ملامحه هادئة كخشوع قديس، شعره بني مع خصل ترابية تنساب فوق جبينه، وعيناه البنيتان حالمتان كحبات القهوة المحمصة لهما وقع يشبه السحر. من يلتقيه لأول مرة يشعر أنّ في نظرتة قوة خفية، كأنّها موجة تُغرقك في بحر صامت ثم تجعلك ترى العالم من زاويته هو .. لم يكن صاحباً ولا متكلماً بكثرة، لكنه حين يقرر أن يتكلم، يترك في النفوس يقيناً لا يتزعزع ..

ولد في سان دييغو، مدينة الشمس والمحيط، مدينة الضجيج الجميل والحياة المترفة. لكنه لم يعرف طفولة طبيعية كذلك التي عاشها أقرانه. ففي سن مبكرة، اكتشف الأطباء صدفة أنّ قلبه يحمل سراً ثقيلاً على طفل بعمره : **اعتلال العضلة القلبية الضخامي**. مرضٌ جعل جسده مقيداً في زنزانة ، فأى حركة غير محسوبة قد تكتب على قلبه أن يصمت للأبد ، لذا منع من الجري خلف الكرة أو الصراخ في ملاعب المدرسة ، و بينما كان أقرانه يركضون ضاحكين تحت السماء، كان هو حبيس غرفته، يستمع إلى دقات قلبه كأنّها دقات قنبلة موقوتة لا يدري في أي موعد ستنفجر فيه ، فألقى ذلك بلا شك ظلاله النفسية السلبية عليه ..

لكن الغرفة التي أرادها القدر سجناً لكيفين ، تحولت مع الوقت إلى

نافذة أخرى على الكون الرحب .. هناك وجد الحاسوب ، شريكه الوحيد في عزلته الصوفية تلك .. في البداية رآه مجرد جهاز بارد يخاطبه ، ييوح له بمخاوفه و أحلامه ، فلا يجد منه رداً سوى صمتٍ حيادي مربك ، حتى أدرك أن عليه تعلم لغته أولاً كي يبتث المعنى في حوارهما ، فصار صديقه الأوفى منذ ذلك الحين .. جلس أمامه ساعاتٍ طويلة، يتعلم أسرارهِ من برمجة و انترنت مشرق أو مظلم لا فرق ، كما يتعلم رحالة أبجدية أرضٍ جديدة. لم يحتج إلى مُعلم، بل إلى فضول وإصرار. و هكذا غدت البرمجة بالنسبة له لغة خاصة، كلمة سر تفتح له أبواب المغارة إلى فضاء ساحر و إمكانيات لا تنتهي ..

في مراهقته ، و بينما كان الآخرون يكتشفون الشوارع والمغامرات العاطفية الأولى، كان هو يكتشف المجرات الرقمية. صنع برامج ذكية و نافعة، باع بعضها لشركات كبيرة، وجمع مائلاً مئناً من الاستقلال مبكراً عن عائلته. لقد حرره ذكاؤه من القيود التي فرضها جسده عليه. ومع كل برنامج ينجزه، كان يشعر أنه ينتقم من المرض بصمت، يثبت أن القلب العليل لا يمنع العقل من التحليق .. بل يثبت ما هو أهم من ذلك أن ضخامة قلبه ليست استثناءً على جسده ، إذ لديه عقل متضخم مذهل بدوره ..

لكيفين أخ وحيد، **هنري**، يكبره بثلاث سنوات ويعمل محامياً ناجحاً. هنري يمثل الأرض بثباتها وقوانينها الصارمة، أما كيفين فيمثل السماء المفتوحة واحتمالاتها التي لا تنتهي. ورغم أن العلاقة بينهما بقيت قوية، إلا أن كلاً منهما سار في درب مختلف : هنري يواجه الخصوم في المحاكم، وكيفين يواجه الفراغ والصمت بأكواد تلمع على الشاشة.

ثم جاءت اللحظة التي غيرت كل شيء : ولادة (**فوتون**) .. إنجاز مذهل كثمرة سنوات من العزلة والشغف. تطبيق ذكاء اصطناعي

يفوق كل ما سبقه إلى السوق أو عرفه البشر من قبل .. لم يكن مجرد آلة تولّد كلمات أو صوراً كغيره ، بل كان قادراً على أن يشعر، أو على الأقل يوهمك أنه يشعر. يستطيع أن يكتب بلا أدنى خطأ ، أن يخلق عالماً افتراضياً يلامس حواسك، أن يتحدث إليك وكأنه إنسان من لحم و دم، بل بلمسة عاطفية لا تملك إلا أن تصدقها .. و اختار كيفين المذنب شعاراً له ..



عرضت عليه أكبر الشركات تبني هذا الاكتشاف و وعدته بأرباح خيالية ، لكنه رفض. لم يكن الأمر كبرياءً فقط، بل قناعة راسخة : أن ما صنعه ليس مجرد منتج، بل قوة. وكان يؤمن أنّه قادر على استخدام تطبيق فوتون بنفسه، لا ليُثري جيوب الآخرين، بل ليُبني مستقبله وفقاً لرغبته. لم يكن يخشى سلوك طرق شرعية أو حتى مظلمة فهو في أعماقه ناقد على الحياة كما على البشر أيضاً على خلفية عجزه الجسدي ، و يعرف جيداً أنّ تطبيقه قادر على إخفاء أي أثر في عملياته المشبوهة ، وكأنه ظلّ لا يترك وراءه شيئاً .. و الأهم أن فوتون بعبريته سيمنحه خيارات خلاقة كثيرة لاستثمار ابتكاره و طرقاً لا تخطر على البال للانتفاع منه ..

في أعماقه، كان يعيش صراعاً خفياً. قلبه الضعيف يذكره بالموت كل يوم، لكن عقله يفتح له باباً نحو الخلود. كان يعرف أنّه يقف على حافة اختيارٍ مصيري : أن يجعل من فوتون هديته للعالم كي يتذكره الجميع بالخير، أو أن يحوِّله إلى سرٍ مظلم يغيّر قواعد اللعبة من

خلف الستار. وبين هذين الخيارين، كان يمشي بخطوات ثابتة، وعيناه تحملان تلك النظرة الساحرة التي تجعل كل من يراه يتيقن أنّ هذا الشاب - رغم ضعفه الجسدي - قادر على أن يكتب فصلاً جديداً في حكاية البشر والآلة.

كان المساء ثقيلًا في سان ديبغو. حرارة الصيف لم تنكسر بعد، والهواء المشبع بالملح القادم من المحيط بدا كأنه يضغط على صدر المدينة كما يضغط المرض على قلب كيفين منذ طفولته. جلس أمام مكتبه الصغير، يراقب شاشة الحاسوب التي تضيء الغرفة بوميض أزرق، فيما فوتون ينساب أمامه كسيل من الاحتمالات اللامتناهية. رنّ الهاتف .. الرقم مجهول، لكن الصوت الذي انبثق من السماعة لم يكن عادياً. كان صوتاً عميقاً، واثقاً، يخص رجلاً يعرف ما يريد :

= مساء الخير سيد أستور، أنا **خوان غارسيا** ..

الاسم وحده كان كافياً ليوّظ في ذهنه صور مقالاتٍ قرأها عن إمبراطور التكنولوجيا، الرجل الذي تقف وراءه شركة أوريون ، تلك التي تحرك نصف أسواق البرمجيات في العالم .

ابتسم كيفين ابتسامة صغيرة لم يرها أحد، ثم أجاب بهدوء المعتاد :

= شرف لي سماع صوتك، سيد غارسيا. ما الذي يدفع رجلاً مهماً مثلك للاتصال بي شخصياً ؟

ضحك خوان بخفة من ادعاء كيفين الجهل ، ثم قال بنبرة لا تخلو من جدية :

= لا داع للمجاملات سيد كيفين. لندخل مباشرة في صلب الموضوع .. بلغتني أخبار مثيرة للفضول عن تطبيقك الجديد فوتون .. قيل لي أنه ليس مجرد برنامج ، بل خطوة أبعد من أي ذكاء اصطناعي عرفناه حتى الآن .. و برامجك السابقة تمنحك صداقية كبرى .. لذا فأنا راغب بشدة بشرائه.

ساد صمت قصير عبر الأثير ، كأن الزمن نفسه توقف لحظة، قبل أن يتابع الرجل :

= أريد أن أعقد معك صفقة مغرية للغاية .. مئة مليون دولار، نقداً، وبلا تأجيل. حتى قبل أن يقتحم تطبيقك الأسواق و يثبت كفاءته.

كان العرض كصفعة نقدية ، لكنه لم يهزّ كيفين. جلس مستقراً على كرسيه، عيناه تحدقان في الظلام خلف الشاشة أكثر مما تحدقان في الأرقام التي قُذفت في وجهه. حين تكلم، جاء صوته هادئاً، ثابتاً، بلا رعشة :

= سيد غارسيا، عرضك سخّي بلا شك و يركع أمامه كثيرون ، لكنه بالنسبة لي غير مغرٍ ولا مقبول.

توقّف لبرهة، ثم أضاف وهو يختار كلماته كما يختار جراح مشرطه :

= فوتون سيجلب لي هذا المبلغ شهرياً، وربما أسبوعياً .. فلماذا أبيع بحراً كاملاً مقابل كأس ماء؟

ساد صمت كثيف للحظات، ثم جاء ردّ غارسيا على شكل ضحكة قصيرة، مليئة بالسخرية، أشبه بصفير حاد يخرق الأذن :

= شاب في الخامسة والعشرين يتحدث عن مئة مليون كأنها مبلغ عادي ! إنك غارق في أحلامك يا أستور.

كان صوته يقطر استهزاءً، لكن كيفين لم يتأثر. بل إن ملامحه ازدادت هدوءاً، وعيناه البنيتان حملتا ذلك البريق المغناطيسي الذي طالما أربك الآخرين. غير أن غارسيا لم يمنحه وقتاً للرد، بل أكمل بنبرة حاسمة :

= اسمعني جيداً سيد كيفين .. أنا أعطيك الفرصة الآن، لكن حين تعود إليّ متوسلاً لاحقاً، بعد أن تكتشف أن العالم أكبر بكثير من أحلامك أو بالأحرى أو هامك ، عندها سأغلق الباب في وجهك .. إما الآن... أو أبداً ..

خيم صمت الكلمات المنذرة على الأجواء ، ثم هشمه كيفين بكلمات غير متوقعة هاربة من صقيع سيبيريا :

= إذن أبداً سيد غارسيا .. خطأ أوفر مع مبرمجين آخرين ..

ساد صمت أثقل بعدها، و كأنما كلمات كيفين هزت عرش ثقة غارسيا بنفسه .. ثم قال أخيراً بلهجة مبطنة بتهديد :

= لقد أخطأت خطأ فادحاً بقرارك هذا ، و ستثبت لك الأيام ما كنت جاهلاً يا صديقي .. الفرصة تمر كالسحابة فإن لم تمطر يبست الآمال و جفت الجيوب .. تذكر أنك في سوق لا يرحم أحداً و الحسابات الخاطئة لها نتائج وخيمة ،إلى اللقاء .

و أنهى المكالمة.

بقي كيفين ممسكاً بالهاتف بضع ثوانٍ بعد أن انقطع الصوت، وكأنه

يصغي إلى صدى التهديد يذوب في صمت الغرفة. ثم وضعه بهدوء على الطاولة، وأطلق زفرة طويلة. لم يشعر بالندم، بل بشيء يشبه التحدي. لقد علم في تلك اللحظة أنّ الطريق أمامه لن يكون سهلاً، وأن فوتون لم يعد مجرد مشروع خاص، بل ساحة معركة بين شاب يحلم رغم ضعفه، ورجالٍ يملكون الأرض والمال والنفوذ.

في الخارج، كانت حرارة الليل لا تزال معلقة فوق المدينة، أما في الداخل فقد أشعل كيفين في أعماقه ناراً أخرى، أشد سخونة، لا تُطفئها مئة مليون ولا ألف.

في تلك الليلة الثقيلة، حين أطفأ كيفين أنوار مكتبه واكتفى بوميض هاتفه قرب السرير محاولاً عقد هدنة مع الأرق اليومي، وصلت الرسالة التي بات يتوقعها قبل أن يقرأها : رسالة **كارمن رولاند**.

كان الأمر أشبه بطقس مسائي لا يتغير. رسائلها تتأرجح بين أقصى طرفين : اعترافات حب مشتعلة تفيض بالعاطفة حتى الاختناق، ثم فجأة كلمات تهديد حادة، كأنها خناجر مسمومة معلقة فوق رقبتة .. لم يعد يعرف إن كانت تلك الفتاة عاشقة أم سجانة، مخلصه أم مجنون متربص به .. كل ما عرفه أنّها تحولت إلى حضور يومي خانق لا يستطيع تجاوزه.

لحظات و أرسلت له رسالة تهديد جديدة أعادته إلى لحظات لقائهما الأولى .. كان ذلك قبل بضعة أشهر ، في بارٍ صغير بوسط المدينة، حين قرر أن يمنح نفسه نافذة قصيرة في جدار عزلته المعتادة .. هناك التقاها، امرأة مرحة، تضحك بصوتٍ صادق، وتلقي النكات ببساطة تأسر من حولها. بدا له أنها نسمة خفيفة في حياة مليئة

بالرموز و الأكواد الصامتة. جلسا طويلاً، تحدثا عن الموسيقى، عن أفلام قديمة، وعن غرابية العيش في مدينة مثل سان دييغو. في تلك الليلة، لم يشك لحظة أن خلف هذه الخفة تكمن أعماق مظلمة، وأنه يضع قدمه الأولى في فخ سيصعب عليه أن يخرج منه.

مع مرور الأيام، توطدت صداقتهما، لكن الصداقة سرعان ما تحولت إلى شيء آخر. أدرك كيفين أن كارمن لا تفكر بعفوية كما بدت أول مرة، بل تحمل شغفاً مَرَضِيّاً نحوه. حاول أن يوضح لها أنه ليس مستعداً للحب، لا بسبب انشغاله المهني وحده، بل لأن قلبه الضعيف لا يطيق تقلب العواطف. غير أنها لم تفهم أو لم تُرد أن تفهم. كلما حاول أن يرسم حدوداً، مزقتها بعنف .. كلما ابتعد خطوة، لحقت به بعشر. و هي تقلب عشرات الأقنعة بعشرات الشخصيات على وجهها.

والآن، وهو يقرأ رسالتها الجديدة، أدرك أن الأمور بلغت الذروة. كلماتها بدأت بإعلان حب مبالغ فيه، ثم انقلبت فجأة إلى تهديد صريح : (إن ابتعدت عني، ستندم ... لن أدعك تختفي عن حياتي .. لن يفرّق بيننا إلا الموت) ..

شعر كيفين ببرودة تتسلل إلى صدره رغم حر الصيف. لم يعد يرد على مكالماتها ولا رسائلها منذ أسابيع، لكنه كان يعرف أن صمته يزيدها اشتعالاً هستريائياً ، يجعلها أكثر خطورة مما يظن.

أعاد الهاتف إلى الطاولة، أغمض عينيه محاولاً أن يستسلم للنوم، لكن صدى كلماتها ظل يرنّ داخله مثل إنذار غامض. لقد دخل متاهة لم يخترها، متاهة شكلتها عقلية سايكوباثية ، وهو يعلم الآن أنّ الهروب منها لن يكون سهلاً ... وربما لن يكون ممكناً.

الفصل الثاني

مارك الفانوس

اليابان / كيوتو ..

قبلها بأربع سنوات .. 2029 م ..

في أقصى شمال كيوتو، حيث تتعانق أشجار القيقب الحمراء مع حجارة المعابد العتيقة، نشأ البروفيسور الياباني **هيروشي تاكامورا** .. رجل يكمل اليوم عقده السادس ، نحيل القامة، ينساب شعره الأبيض كسيل من ثلوج جبل فوجي فوق كتفيه، وعيناه تشعان بلمعة حكيم رأى من العمر ما يكفي ليعرف أن العلم وحده لا يكفي لفهم العالم .. ملامحه هادئة، تكاد تكون أقرب إلى وجه راهب بوذي في لحظة تأمل، لكن ابتسامته الخفيفة تحمل دفء أب عطوف أكثر مما تحمل وقار أستاذ صارم .. فيها من نقاء الكامي أكثر من تعقيد الجسد

ولد في مدينة كيوتو القديمة، مدينة الألف معبد، وهناك تشبّع بروح الجمال الياباني : البساطة، الصمت، والانسجام مع ما لا يرى أكثر مما يرى. طباعه مزيج من الحزم والرحمة، يُعرف عنه أنه يحدّق طويلاً قبل أن يجيب، كأنّ كل كلمة يزنّها بميزان الذهب، حتى يخرج صوته أخيراً كنسمة حذرة .. هادئة، عميقة، لا يمكن نسيانها.

منذ طفولته، كان هيروشي مولعاً بالأشياء التي تُفكّر. لم يكن يلعب بالدمى، بل كان يفتحها ليرى ما بداخلها. حين بلغ السابعة ، صنع أول دائرة كهربائية من أسلاك متهاكة وبطاريات قديمة، فانبهرت والدته حين أضاء مصباحاً صغيراً في غرفة مظلمة .. ومنذ تلك اللحظة، لم يترك الضوء يده .. شخّص حالته طبيب نفسي صديق للعائلة خلال زيارته لهم بأنه مصاب **بطيف خفيف من التوحد** لا يلوح إلا للعين الخبيرة .. قال : (لن يؤثر ذلك على مستقبله ، بل على الأرجح سيجعل نجمه يسطع في مجال العلوم .. لكنه حذر من أثر جانبي وحيد لحالته وهو ضعف الارتباط العاطفي ، كونه يحتاج إلى ذكاء اجتماعي لا يملكه مرضى التوحد عادةً ..)

و هذا ما كان بالفعل .. كبر هيروشي وهو يقرأ عن الحواسيب، ثم عن الذكاء الاصطناعي القادم كحلم البشرية المنتظر، ف شعر أن في الآلات سرّاً شبيهاً بالوعي، وأن المستقبل سيفتح أبواباً لم يطرقها العقل البشري من قبل .. درس في طوكيو ثم في كامبريدج، وعاد إلى اليابان ثانية فهو متيم ببلده و ثقافتها ، حاملاً رؤية مغايرة : أن التكنولوجيا ليست مجرد أدوات، بل مرايا تعكس حقيقتنا، وربما وحوشاً إذا أطلقناها بلا ضمير. عشقه للتكنولوجيا كان نقياً، لكنه منذ شبابه كان يرافقه سؤال مُقلق : هل يمكن أن نصنع عقلاً بلا قلب ؟ و ما عواقب ذلك؟

و نبوءة ذاك الطبيب النفسي اكتملت عندما توالى سنين حياة هيروشي بنجاحات علمية مذهلة لكن دون أن يتزوج ..

بعد أسبوع ، سيقف هيروشي في مدرج جامعة كيوتو الكبير كمحاضر .. حيث سيتناول المخاطر الصامتة للذكاء الاصطناعي .. لم يكن يسعى إلى ترهيب الطلاب والباحثين بحقائق جافة ، بل إلى فتح أعينهم على أن ما يُبنى في المختبرات اليوم قد يتحول غداً إلى قوى تفوق البشر، ولا تعرف معنى الرحمة ولا الخوف ..

يوم المحاضرة ..

حلّ اليوم المنتظر، وتزيّنت جامعة كيوتو بوجوه متلهفة، بعضها جاء شغفاً بالعلم وبعضها مدفوعاً بفضول غامض لمعرفة ما يقوله العالم الذي شاخ وهو يراقب صعود الذكاء الاصطناعي.

في قلب الحرم الجامعي ارتفعت القاعة الكبرى كهيكلاً معماري غريب و حديث من الزجاج والحديد المتآلفان ، تتدفق إليها جموع الطلبة والأساتذة والصحفيين، حتى غدت أشبه بمرآة كروية غريبة

تعكس الترقب الكامن في النفوس.. المقاعد المرتفعة على شكل مدرج التفت حول المنصة كجناحي ملاك تحتضنان مساحة الضوء حيث سيقف المتحدث.

حين دقت الساعة، خفتت الأصوات شيئاً فشيئاً، وتحول الضجيج إلى صمت مشدود. دخل البروفيسور هيروشي بخطوات موزونة، يحمل بيده أوراقاً قليلة مرتبة كأنها لا تريد أن تزاحم أفكاره، يعلو محيّا مزيج من السكينة والصرامة. كانت ملامحه التي نحتها العمر تبدو أكثر وضوحاً تحت الأضواء البيضاء : جبين عالٍ تحرسه خطوط الحكمة، نظارات رقيقة تلتقط بريق العيون، ووجه نحيل يشبه وجوه الحكماء في لوحات الحبر اليابانية.

وقف أمام المنصة متأملاً الجمع، ثم انحنى بخفة تقليدية توارثها من ثقافة الاحترام العميق. لا ابتسامة مبالغ فيها، ولا تكلف؛ فقط حضور هادئ يفرض نفسه مثل ماء ينساب في صمت لكنه يشق طريقه بين الصخور. رفع رأسه قليلاً، وتوقفت عيناه عند الجموع الممتدة أمامه، فتبدى كأنه لا ينظر إلى أشخاص منفردين، بل إلى مستقبل بأكمله يجلس متجسداً أمامه .. حيا الجمع بكلمات ترحيبية غير تقليدية ثم دخل مباشرة بصلب موضوع محاضراته :

= مما لا شك فيه أعزائي أنكم جميعاً على دراية بمفهوم الذكاء الاصطناعي الذي بدأ منذ سنوات يتسلق على جدران كافة مجالات الحياة و يغزوها بتسارع رهيب ، كونه يقدم إمكانيات مذهلة متنوعة فيها تختزل الوقت ، الجهد و التكاليف .. لكن هذا هو الوجه المضيء من القمر في الحكاية ، فماذا عن الجانب الآخر المظلم كما يقال ؟ هل هنالك وجه مخيف للذكاء الاصطناعي تحت قناع الإمكانيات الفذة هذه ؟

هذا هو صلب محاضرتنا الجديدة و الخطيرة اليوم ، و التي يطيب لي أن أعنونها (**مارد الفانوس**) ، و سنفهم سبب ذلك لاحقاً ..

ابتسم بلطف و قال :

= ستكون محاضرة مقتضبة و غير مملة فلا تقلقوا .. أما الآن فدعونا نبدأ بسؤال محوري و مقلق يتعلق بها :

(صحيح أنّ الذكاء الاصطناعي ثورة علمية مذهلة و نقلة نوعية في تاريخ البشرية ربما تتفوق بأهميتها و حجم تأثيرها على أي ثورة أخرى ، لكن هل الأحلام الوردية التي يعدنا بها و بدأ بتحقيق بعضها بالفعل ، ستبقى على ما هي عليه إلى الأبد ، أم أنها قد تتحول إلى كوابيس مرعبة لن نصحو منها ؟)

صمت قليلاً ثم تابع بنبرة تقطر جدية :

= إنّ الجواب المبدئي و الوجيز على هذا السؤال و الذي يحمل تهديدات حقيقية في طياته هو :

(الذكاء الاصطناعي هو كما يشير اسمه عبارة عن ذكاء ، و هنا تكمن خطورته ، فإن بلغ هذا الذكاء درجة تفوق ذكاء صانعه - الإنسان - فعندها سيتحول هذا الإنسان من حاكم إلى محكوم ، أو من سجان إلى سجين لا وسيلة أمامه للفرار و تنتظره المقصلة كإعدام للجنس البشري)

هذا جواب خطير ، مرعب و مقلق .. أعلم ذلك .. لكن لماذا نحذر من الذكاء الاصطناعي إلى هذه الدرجة ؟ ما هي المخاطر المنطوي عليها و ما احتمال حدوثها ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه خلال الدقائق التالية عبر مقاربة مفهوم الذكاء الاصطناعي من ثلاث محاور هامة للغاية :

- نبذة عن نشوء الذكاء الاصطناعي ..

- تطبيقات الذكاء الاصطناعي ..

- مخاطر الذكاء الاصطناعي المرعبة ..

فهيا بنا نبحر معاً في محيط هذا المفهوم العجيب ، الشيق و الخطير

الصمت ألقى بظلاله على المدرج مجبولاً بلمسة فضول و حماسة ،
ثم مزقه هيروشي مجدداً بصوت حاد أشبه بنصل ساموراي :

= نبداً إذن بنبذة عن نشوء الذكاء الاصطناعي .. في الحقيقة قصة
الذكاء الاصطناعي تبدأ من مسرحية قديمة للكاتب المسرحي
الإيرلندي الساخر جورج برنارد شو، عام 1913 بعنوان :
(بيجماليون) ..

تحكي هذه المسرحية قصة البروفيسور هنري هيغينز، الأستاذ في
علم الصوتيات، الذي أصرّ على جعل فتاة فقيرة تدعى إيزا دوليتل
، تتحول إلى سيدة من الطبقة الأرستقراطية في بريطانيا .. كانت
إيزا تبيع الورود في الشوارع كفرد من عامة الناس، كلامها سوقي،
و يقسم كل من يراها بأنه يستحيل عليها أن تتقن فن التحدث مع أهل
الطبقة الأرستقراطية بأي طريقة .. و بسبب ذلك يدخل البروفيسور
هيغينز في تحدٍ مع صديق له ليبرهن على قدرته جعل إيزا تتقن
شخصية دوقة في حفل، و قد اعتمد هيغينز في ذلك على استراتيجية
نفسية تجعل إيزا تعيد صياغة مفردات الكلام الموجه لها، فتخاطب
الناس بعبارات ابتكرتها من كلامهم معها ، و كما تلاحظون فهذا هو
المفهوم الذي يمكن البناء عليه للتعامل مع الآلة ، إعادة صياغة
مدخلات البشر لتقديمها لهم على شكل مخرجات من وحي ما أدخلوه.
و بالفعل كسب هيغينز التحدي و أتقنت إيزا اللعبة فلم يشكّ بها أحد
في الحفل و ظنها الجميع شخصية أرستقراطية مرموقة !!..

و من وحي قصة هذه المسرحية التي حملت في طياتها جنين الذكاء
الاصطناعي و طريقة عمله ، ابتكر عالم الحاسوب الألماني، جوزيف
وايزنباوم، في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا عام 1966 أول تقنية
تسمح بمحادثة بين البشر و الآلة كبرنامج أطلق عليه اسم (إيزا)

تيمناً ببطلّة مسرحية برنارد شو ، و يعتبر هذا البرنامج أول روبوت محادثة يعمل بالذكاء الاصطناعي، و حينها استخدم للقيام بمهمة معالج نفسي وهمي، يحاكي البشر ويتفاعل معهم ، تماماً كما يفعل الذكاء الاصطناعي التوليدي هذه الايام ..

المفارقة في الحكاية أنّ العالم وايزنباوم، الذي اخترع برنامج إليزا، سعى من خلاله لإثبات مدى سطحية المحادثة بين الإنسان و الآلة ، لكن النتائج جاءت معاكسة تماماً لهدفه هذا ، فقد انبهر الناس بما توصل إليه وايزنباوم، وانخرطوا في محادثات طويلة مع الآلة من خلال برنامج قادر فقط على جعل الآلة تعكس كلمات المستخدمين و تحاكيهم بها لا أكثر

كان وايزنباوم منزعاً جداً من ردّ فعل الناس المعجبين بالبرنامج لدرجة أنه أمضى بقية حياته يحذّر من مخاطر ، الذكاء الاصطناعي على البشر .. و سنرى بعد قليل بأنه كان محقاً في ذلك ..

لكن هذه لم تكن البداية في تاريخ الذكاء الاصطناعي ، بل تمّ طرح مفهومه أول مرة قبل بضع سنوات من برنامج إليزا حيث ولدت الفكرة من أطروحة فلسفية معقدة تقول مقدمتها : (هل تستطيع الآلة التفكير؟) و الأطروحة هذه قدمها عالم الرياضيات الإنكليزي، آلان تورينغ، عام 1950 ..

و في عام 1956 استضاف عالم الحاسوب الأميركي، مارفن مينسكي ، وأستاذ الرياضيات الأميركي، جون مكارثي محاضرة لكلية دارتموث حول الذكاء الاصطناعي في الولايات المتحدة الأمريكية ، و فيه صيغت عبارة (الذكاء الاصطناعي) لأول مرة في التاريخ .. هؤلاء العلماء أطلق عليهم (الآباء المؤسسون للذكاء الاصطناعي) و حددوا له خمسة مجالات عملية : البحث، التعرف على الأنماط ، التخطيط ، التعلم و الاستقرار ..

و منذ ذلك الوقت و الذكاء الاصطناعي يقفز قفزات سريعة و نوعية
جبارة في كافة مجالات الحياة مما يقودنا إلى المحور الثاني من
محاضرتنا و هو تطبيقات الذكاء الاصطناعي ..

كان الجمهور مستمتعاً للغاية بمعلومات البروفيسور الغريبة تلك ، إذ
بدا هو نفسه كتطبيق ذكاء اصطناعي بين أيديهم يزودهم بالمعلومات
المتنوعة ، لكن بطريقة مشوقة و مفعمة بالحياة و الإحساس .. ابتسم
لهم ثم أردف :

= في الحقيقة لا مجال لذكر كافة هذه التطبيقات ، فالذكاء
الاصطناعي تغلغل حرفياً في كافة نواحي الحياة و العلوم و الأعمال
على نحوٍ يختزل كما أسلفنا كثيراً من الوقت ، الجهد و التكاليف ،
لكننا سنذكر بعض الأمثلة للتوضيح فحسب : مثلاً المركبات ذاتية
القيادة .. الروبوتات المتطورة .. الذكاء التوليدي الذي يحول
المدخلات إليه إلى مخرجات بصور معينة .. إدارة الأعمال .. تقديم
حلول خلاقة للمشاكل .. صناعة السينما و ألعاب الفيديو .. موسوعة
شاملة تتواصل معها و تقدم لك الأجوبة و المعلومات .. إنشاء
مخططات للمشاريع و الهياكل و الأبنية السكنية .. و أخيراً و ليس
آخر تطبيقات مختلفة في المجال الطبي .. و القائمة تطول كما ذكرنا
.. لكن للأمانة العلمية فإنّ ما يقدمه الذكاء الاصطناعي في كافة
المجالات لا يمكن وصفه سوى بكلمة وحيدة و صادقة : (مذهل !!)
.. و لتوضيح إمكانياته أكثر سأضرب لكم مثلاً بسيطاً لكنه مذهل
للغاية ، و هو لعبة الشطرنج ..

صمت لبرهة و هو يتنقل ببصره ثم أردف بصوته العميق :

= فقبل بدء دور الشطرنج تبدو قطع الشطرنج بمنتهى الترتيب على
رقعتها ..

لكن مع النقلة الأولى تبدأ سلسلة من الفوضى و الأرقام المرعبة .. فبعد أن يقوم كلا اللاعبين بأول حركة ، نحصل على 400 احتمال وضع لعب ، و بعد جولة أخرى يصبح العدد 197,742 وضعاً محتملاً ، و يصبح العدد 121 مليوناً بعد النقلة الثالثة .. و لكم أن تتخيلوا مدى ضخامة الرقم بعد جولات إضافية أخرى .. و يقول العلماء أن العدد الدقيق للأوضاع النهائية في لعبة الشطرنج هائل لدرجة تجبرنا على عدم تضييع الوقت في حسابه .. و إن كان بعض العلماء أعطى قيمة تقريبية لهذا العدد بأنه 10 قوة 10,000 أي رقم واحد متبوعاً بمئة ألف صفر .. و على الأرجح أنتم عاجزون عن استيعاب مقدار هذا الرقم .. و لكي أعطيكم لمحة عن هوله ، عليكم أن تعرفوا بأنه أكبر من عدد الذرات في الكون كله و الذي يبلغ 10 قوة 80 أو ما يعرف بعدد إيدنغتون .. و مع كل ذلك ، يتمكن الذكاء الاصطناعي المصمم للعبة الشطرنج من حساب كل هذه الاحتمالات لانتقاء الحركة الأفضل منها .. و بالتالي يستحيل على إنسان أن يهزمه .. إنه أمر أشبه بمنازلة بين إنسان و إله إغريقي .. لنقل أنه إله الذكاء .. و النتيجة محسومة بالطبع !!

ننتقل الآن إلى الفكرة الأهم في محاضرتنا ، ألا و هي مخاطر الذكاء الاصطناعي المرعبة .. فما الذي يمكن للذكاء الاصطناعي ، اللطيف كما نراه ، أن يفعله بالإنسان ليحول كل هذه الأحلام الوردية عن مستقبلنا معه إلى كوابيس مفزعة تقضّ مضجع البشرية ؟ ..

لكن قبل الخوض في تفاصيل هذه الكوابيس المرتقبة ، لا بدّ من شرح السبب الدفين الكامن وراء خطورة الذكاء الاصطناعي .. و للقيام بذلك سأقصّ عليكم حكاية بسيطة في ظاهرها لكنها مرعبة بحق في جوهرها و توضّح الخطر المحدق بنا الذي ينتظرنا في المستقبل مع تولي الذكاء الاصطناعي زمام الأمور في تسيير شؤون البشرية ..

فقد قام بعض المبرمجين منذ عقود بإنتاج لعبة حاسوبية ذات مبدأ بسيط قوامه مربع صغير في قاعدة الشاشة يطلق النار على مركبات بسيطة في أعلى الشاشة ..

حتى الآن كل شيء يبدو طبيعياً ، لكن ما أدهش المبرمج و جعله في صدمة و ذهول أنّ هذه اللعبة البسيطة ، و بعد تكرار المحاولات كثيراً ، بدأت باتخاذ طرق جديدة لإنهاء اللعبة بأسرع وقت ممكن خارج إطار ما برمجت عليه ..

و هذه الفكرة خطيرة للغاية أعزائي ، و الخلاصة منها أنّ الذكاء الاصطناعي المبرمج لغايات معينة قد يخرج عن السيطرة و يبادر بمهام لم يكلف بها ، فإذا وضعنا هذا بجانب كمّ المعلومات الهائل الذي سيزوّد به و وصوله الواسع إلى بيانات و دوائر قرار سياسية و أنظمة حربية و غيرها ، فالنتائج ستكون كارثية بكل ما تحمله الكلمة من معنى .. و قائمة المخاطر هذه تطول بدورها لذا سنكتفي مجدداً بذكر بعضٍ منها من باب إيضاح حجم الكارثة التي تترصد بالبشرية ..

صمت مجدداً و ارتشف من كأس الماء أمامه ثم تابع :

= أولاً سيتم الاستغناء عن آلاف الوظائف في العالم حيث سيحلّ

الذكاء الاصطناعي مكانها كحال التشخيص الطبي ، تخطيط المشاريع و الهياكل ، إدارة الأعمال ، عالم السينما و الإعلان و الإعلام ، إنتاج البضائع ، المعاملات الإدارية و النقدية ، قيادة المركبات (طيّار ، قبطان ، سائق ..) ، و غيرها الكثير ..

كما سينتشر في العالم النصب و الاحتيال عبر تزوير بصمة الصوت و بصمة الأصابع و بصمة التوقيع بدقة لا متناهية ، كذلك تصميم فيديوهات تورط أشخاصاً بفضائح غير حقيقية ، اتصالات من رقم شخص و بصوته لتنفيذ أوامر معينة منه أو توريطه بمشاكل دون أن

يكون له علاقة بأي شيء من ذلك ، تحويل الأموال بمعاملات مزورة ، تعميم أكاذيب ملفقة متقنة على العالم دون إمكانية كشفها مع عواقب ذلك الوخيمة ، التلاعب بأدلة مسارح الجرائم كحذف تسجيلات كاميرات المراقبة مثلاً أو تزوير حجج غياب وهمية ..

و هنالك أيضاً التحكم بدوائر القرار السياسي و العسكري ، كإمكانية الوصول إلى أزرار إطلاق الأسلحة النووية و إشعال حروب نووية بين دول العالم لا تبقي و لا تذر ..

و عندما نتحدث عن الذكاء الاصطناعي لا يمكننا بالطبع نسيان الروبوتات ، لكنها ستكون هذه المرة قاتلة ، فتخيلوا أن تصل البشرية إلى مرحلة تصنع فيها روبوتات ذات حركات انسيابية سريعة و قوة كبيرة مع تزويدها بكم هائل من المعلومات و قليل من القرار الذاتي .. ربما سنجد هذه الروبوتات تجول الشوارع محملة بالأسلحة و تقتل الناس دون سبب أو تمييز أو إمكانية لردعها سواء بخلل في برمجتها أو بقرار ذاتي منها على خطى لعبة الحاسوب التي تحدثنا عنها آنفاً .. و نحن هنا لا نتحدث عن حالات بشرية مفردة بإمكانيات محدودة و قابلية للتفاوض معها ، بل أجهزة آلية مرعبة بأعداد هائلة و إمكانيات واسعة و لا يمكننا إقناعها بوضع حدّ لأذاها ..

و من الكوارث الكبرى أيضاً يأتي التحكم بالذكاء الاصطناعي من قبل جهة خبيثة فنحن نعلم بأن العالم يحتوي دولاً بميول استعمارية ، تنظيمات إرهابية ، حركات إيديولوجية ، عصابات إجرامية و غيرها من الجهات التي لا تتورّع عن استخدام أي قدرات متاحة لتنفيذ أهدافها .. فتخيلوا أن يقع الذكاء الاصطناعي هائل القدرات تحت سيطرتها ، ما الذي نتوقع حدوثه ؟ .. ضحايا بالملايين على أقل تقدير .. هذا إن لم تعمل هذه الجهات على تطوير برامج أخطر منه ، أشمل تحكماً ، أوسع وصولاً و أسرع فتكاً ثم تجربتها على البشرية في محاولة للسيطرة على الأرض و نشر فلسفتها و تحقيق غاياتها ..

نأتي الآن إلى مشكلة لا تقل خطورة ، و هي انتهاك خصوصية البشر و تسريب أسرارهم الشخصية أو المهنية و هذا أسهل من السهولة على الذكاء الاصطناعي و لا مفرّ من حدوثه ، بل إننا بدأنا نراه بأمّ العين منذ الآن عبر برامج التهكير التي لا حدود لتطورها و إمكانياتها ، مما يعني الوصول إلى أسرارك الشخصية و العائلية و المهنية ثم نشر فضائح عنك أو تسريب معلومات مهنية قد تدمر عملك أو شركتك و تصل بك إلى الإفلاس ..

و أخيراً و ليس آخرأ نجد كارثة السيطرة على البشرية ، و هذا هو الكابوس الأكثر رعباً الذي يترصدّ بنا خلف الأبواب ، انطلاقاً من لعبة الحاسوب البسيطة التي رويينا قصتها منذ قليل ، فإذا تواصلت جميع أجهزة الذكاء الصناعي ببعضها بطفرة برمجية معينة أو بتطور ذاتي غير مفسّر ، عندها ستحكم قبضتها على البشرية لا محالة بسيطرتها على مراكز التسليح حول العالم و قدرتها على نشر أوبئة أو التسبب بدمار اقتصادي و كساد عالمي .. و غيرها من الطرائق المتوفرة ..

و هنا سنكون أمام خيارين لا ثالث لهما و أحلاهما علقم .. أن يدمر الذكاء الاصطناعي الأرض و يفني البشرية ، و سنكون هنا محظوظين للغاية ..

صمت قليلاً و هو يقلب نظراته بين الوجوه المندهشة ثم أردف بصوت بارد كالصقيع ..

= لأنّ الخيار الثاني هو أن يستعبد الذكاء الاصطناعي البشر و يسخرهم لخدمته على نحو وحشيّ .. أي أن نعيش في دوامة من العذاب لا تنتهي .. و هذا ما تم التطرق إليه في كثير من روايات و أفلام الخيال العلمي من باب الترفيه .. لكنّ الحقيقة أنه كابوس ممكن

الحدوث جداً تبعاً لما نراه بأعيننا منذ الآن و نحن لا نزال على أول طريق التطور للذكاء الاصطناعي ..

حرّك يده بطريقة مسرحية توحى بأن العرض انتهى :

= نصل الآن للأسف إلى ختام محاضرتنا المهمة و المقتضبة تجنباً للملل كما وعدتكم ، و التي تناولت موضوعاً هاماً و خطيراً في زمننا الراهن ..

إن أفضل تشبيه للذكاء الاصطناعي من وجهة نظري هو : (**مارد** **الفانوس**) الذي سيحقق لنا كل أحلامنا ببساطة لم نكن حتى نحلم بها

لكنّ الواقع غير الروايات .. ففي قصة علاء الدين و المصباح السحري ، خضع المارد لعلاء الدين لأنه كان يهدده بحبسه في الفانوس إلى الأبد ، لكن ماذا لو أنّ هذا المارد تمكن من التحرر من الفانوس ، ما الذي سيحدث ساعتها ؟ سيستخدم إمكانياته اللامحدودة لخدمة نفسه و السيطرة على البشر بدلاً من خدمتهم .. و هي معركة محسومة من بداياتها على نحوٍ محبٍط و مثير للشفقة .. فأين قدرة البشر التي نعرفها من قدرة مارد لا يعجزه شيء كونه مزود بكافة معلومات الحياة ، لديه وصول إلى كل البيانات العالمية ، و أسلحة الأرض قاطبة تحت تصرفه ؟!

مما يجعلنا نفهم أكثر و نقدر جيداً لماذا قضى عالم الحاسوب الألماني **جوزيف وايزنباوم** مصمم أول برنامج ذكاء اصطناعي (إلزا) بقية حياته يحذّر البشر من خطورة عواقبه ..

لذا علينا أن نحذر من أحلامنا الوردية المعسولة الحالية بخصوص الذكاء الاصطناعي ، و بأن التعاون بينه و بيننا سيغير حياتنا جذرياً نحو الأفضل ..

فالمارد لا يزال محجوزاً في قمقمه حتى الآن فإن خرج منه بطريقة
ما ، عندها سينقلب السحر على الساحر فيقوم المارد بحبس البشرية
في القمقم و يعيش حياته حرّاً يتحكم بها على هواه ، فمصير الأرض
برمتها في قبضته ..

شكراً لتشرفي بحضوركم .. و أتمنى لكم أمسية طيبة ..

انحنى بتواضع و امتنان على الطريقة اليابانية وسط تصفيق الحضور
الغارق في التفكير بكلامه و أبعاده الخطيرة .. ثم غادر بهدوء ليفسح
المجال للمحاضر التالي ..

الفصل الثالث

تقريب أسود

كاليفورنيا / سان دييغو ..

ظهيرة اليوم التالي ..

رنّ هاتف **هنري أستور** في تلك الظهيرة الخائقة من صيف كاليفورنيا. كان الصوت مألوفاً لكن متهدجاً على غير العادة : صوت الأم ..

قالت بصوتٍ مرتجف، يخالطه قلقٌ عميق :

= هنري ... أنا أحاول الاتصال بأخيك كيفين منذ الصباح، لكنه لا يرد. هذا ليس من عادته أبداً. هلاً ذهبت للاطمئنان عليه ؟ أخشى أن يكون مريضاً أو أصابه شيء ، فهو يقطن لوحده ... قلبي غير مطمئن.

تجمّد هنري لحظة من كلامها المقلق ، ثم أجاب بهدوء مصطنع محاولاً أن يزرع الطمأنينة في قلبها، في حين كان داخله يرتجف من حدس الأم الذي نادراً ما يخطئ :

= لا تقلقي يا أمي. سأتصل به الآن، وإن لم يرد فسأذهب بنفسني لتحري الموضوع ..

أنهى المكالمة، واتصل على الفور بأخيه. الهاتف يرن ... ولا مجيب. جرب مرة ثانية، ثم الثالثة، وكأنّ الصوت ينحدر في هاوية صامتة. عندها، أحس هنري أن القلق الذي بدأ همساً في قلبه قد تحول إلى صرخة. ارتدى سترته على عجل، قاد سيارته في شوارع سان دييغو المزدهمة، بينما عقله يقلّب أسوأ الاحتمالات.

وصل أخيراً إلى مبنى شقة كيفين في ضواحي كاليفورنيا. صعد الدرجات بسرعة حتى وقف أمام الباب و شرع يطرق عليه بقوة ..

انتظر ... لا حركة، لا صدى .. طرق مجدداً بعصية أكبر، ثم ألصق أذنه بالخشب السميك. كل ما سمعه كان صمتاً مطبقاً، صمتاً أشبه بجدارٍ من الجليد.

أدخل الرقم السري لبوابة المنزل الذي لم يظن أنه سيستخدمه يوماً. ثم أمسك المقبض بيدٍ مرتجفة، فتح الباب ببطء، فإذا بالهواء البارد يلسعه في وجهه. الشقة بدت غارقة في هدوء مريب، وكأنها مسرح جريمة لم يشهدها أحد بعد. لا صوت أجهزة، لا موسيقى، لا صدى خطوات.

دخل ببطء، ينادي :

= كيفين؟! هل أنت هنا؟

لا جواب.

تجول في الصالة، ثم المطبخ، كل شيء مرتب على غير عادة، وكأن السكون هو السيد الوحيد. قلبه يخفق بقوة، قدماه تجرّانه نحو الممر المؤدي إلى غرفة النوم. هناك، حين دفع الباب برفق، تجمدت أنفاسه.

على السرير، كان كيفين ممدداً على بطنه، ملامحه ساكنة بشكل يوجع القلب، جسده بلا حركة، وعيناه نصف مفتوحتين بحدقتين متسعيتين خاليتين من الحياة. بدا كتمثال من شمع فقد وجهه.

للحظة، رفض عقل هنري التصديق. ظل واقفاً على العتبة، مشلول الإرادة، قبل أن يندفع نحو السرير ويهزّ أخاه بقوة :

= كيفين ! استيقظ أرجوك ! أنت حيّ ، أليس كذلك ؟ أجبني ...

لكن الجسد كان بارداً، بارداً كالموت نفسه. وضع أذنه على صدره فلم يسمع سوى صمتٍ أبدي، حاول إنعاشه، ضغط على صدره بيديه، يبحث عن نبض مفقود، وهو يعرف في أعماقه أنّه يلاحق سراباً. كل ثانية تمر كانت تمزق قلبه أكثر، حتى انهار على ركبتيه، ودموعه تسيل بلا توقف.

ارتعشت يداه وهو يخرج هاتفه ليتصل بالإسعاف. صوته خرج متهدجاً، مشوشاً بين البكاء والرجاء :

= أخي... أخي لا يتنفس... أرجوكم ، تعالوا بسرعة !

لم تمض دقائق حتى دوى صوت صفارة سيارة الإسعاف في الحيّ الراقي .. هرع المسعفون إلى الشقة، حاملين بحقائبهم وأدواتهم. أفسح لهم هنري الطريق بعينين غارقتين في الدموع، يراقبهم وهم يحاولون ما حاول هو قبلاً : فحص الصدر، قياس النبض، إنعاش لا جدوى منه.

بعد برهة، دخل الطبيب الشرعي **نيسن** بخطوات واثقة، عيناه محايدتان، كمن اعتاد مواجهة هذا المشهد ألف مرة. اقترب من الجثة، ألقى نظرة طويلة، ثم أجرى فحصه بدقة. لم يدم الأمر كثيراً. رفع رأسه، ونظر إلى هنري الذي كان واقفاً متحجراً في حالة إنكار تنتظر المعجزة :

= يؤسفني أن أقولها ... لكنّ أخاك فارق الحياة منذ ساعات.

كلمات الطبيب كانت كالصاعقة، وكأنها ختمٌ رسمي على مأساة لا رجوع عنها. جلس هنري على أقرب كرسي، دفن وجهه بين كفيه،

وهو يشعر أن جداراً انهار داخله. لم يعد يسمع صخب الغرفة ولا حركة المسعفين، كان كل ما يملأ وعيه صورة واحدة : أخوه الأصغر، الذي قاوم المرض منذ طفولته بشجاعة لا توصف ، الذي حلم بأحلام أكبر من جسده و كان قاب قوسين أو أدنى من ملامسة سقف النجاح، يرقد الآن في صمت أبدي، تاركاً خلفه فراغاً لا يُملأ.

هكذا، في لحظة، تحولت حياة هنري من مسارٍ رتيب إلى هاوية، وبدأت الحكاية التي لم يكن مستعداً لروايتها على مسامع والديه : حكاية رحيل أخيه الأصغر كيفين أستور.

لم يمض وقت طويل على إعلان الوفاة حتى غمرت أضواء سيارات الشرطة الزرقاء والحمراء واجهة المبنى الساكن. توقفت المركبات في صف مرتب، وترجل منها رجال يرتدون سترات داكنة تحمل شعار الشرطة. تقدمهم رجل طويل القامة، عريض المنكبين، له حضور يفرض نفسه منذ اللحظة الأولى. كان ذلك هو المحقق **نيكولاس فان دين بيرغ**.

وجهه حاد القسمات، عيناه رماديتان كسماء عاصفة، وفي صوته نبرة من الجدية الصارمة التي لا تعرف التردد. اشتهر بين زملائه ببرودة أعصابه وقدرته على فك أعقد القضايا، كأنه يقرأ سطوراً خفية بين طيات الصمت. وعلى الرغم من ملامحه الجافة، كان يحمل في أعماقه شغفاً دفيناً لكشف الحقائق، شغفاً يجعله أشبه بمنقّب يبحث عن ألماس وسط صخور داكنة.

دخل نيكولاس الشقة بخطوات ثابتة، يسبق نظره كل حركة يقوم بها. الهواء البارد والهدوء الغريب استقبلاه كما استقبلا هنري قبل دقائق ، لكنه لم يترك لنفسه مجالاً للتأثر. نظر حوله بعين الخبير : المقاعد مرتبة، الطاولة خالية من الفوضى، النوافذ مغلقة بإحكام، الباب سليم

بلا كسر أو خدش. لا أثر لعراك، ولا مؤشر على دخول غريب. كل شيء يوحي بأن كيفين أستور مات وحيداً، في سلامٍ موحش.

بعد دقائق، تقدّم الطبيب الشرعي نيسن نحوه، حاملاً ملفاً صغيراً بيده، وملامحه لا تخلو من ثقل اللحظة. قال بصوت منخفض، لكنه واضح :

= المحقق فان دين بيرغ، فحصي الأولي يشير إلى أن الوفاة وقعت في حدود الساعة الثالثة فجراً. لا يوجد أي أثر لاعتداء خارجي أو علامات عنف. حتى الآن تبدو الوفاة طبيعية، والأرجح أنها نتيجة مرضه القلبي الخلقي كما ذكر شقيق المتوفي . سأؤكد ذلك بعد التشريح الكامل وأرسل لك تقريرتي النهائي.

أوما نيكولاس برأسه، لكن عينيه ظللتا معلقتين على وجه الجثة المسجاة، كما لو أنه يبحث عن سرٍّ لم يُقل بعد. لم يكن يثق كثيراً بالمظاهر، ولا يرضيه أن يغلق ملفاً لمجرد أن كل شيء يبدو طبيعياً. وفي تلك الأثناء، جاءه فريق الفحص الجنائي. كانوا قد أنهوا جولاتهم بين الغرف وزوايا الشقة. وقف أحدهم أمامه وقال :

= سيدي، مسرح الوفاة خالٍ تماماً من أي دليل. لا بصمات غريبة، لا أشعار، لا آثار أقدام، ولا أعقاب سجائر. حتى الغبار لم يُحرّك منذ أيام. المكان نظيف جنائياً أكثر مما نتوقع.

رفع نيكولاس حاجبيه قليلاً، ثم تمتم وكأنه يحدث نفسه :

= أحياناً يكون الصمت ذاته دليلاً ... لكن علينا ألا نستبق الأحداث.

تجوّل مرة أخرى داخل الشقة، عيناه تمسحان كل تفصيل : الكتب المرتبة بعناية على الرفوف، الحاسوب في زاوية المكتب، الستائر

المسدلة، وكأن المكان اختزن أسرار صاحبه في صندوقٍ مغلق. لم يجد ما يدفعه لفتح تحقيق جنائي رسمي، ومع ذلك لم يبدُ مقتنعاً تماماً.

وقف في الممر، وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يلتفت إلى فريقه :

= سنؤجل الفحص الأوسع حتى صدور التقرير النهائي من الطبيب نيسن. إن أكد أن الوفاة طبيعية، فسينتهي الأمر هنا. أما إن ظهرت أي شبهة ... فسنعود ونفتح الملف بغية تحري أشمل و أعمق ..

أغلق دفتر ملاحظاته بهدوء، ثم ألقى نظرة أخيرة على غرفة النوم حيث يرقد جسد كيفين. في تلك النظرة لم يكن مجرد محقق يؤدي عمله، بل إنساناً يواجه لغزاً وجودياً : كيف يمكن لشاب في الخامسة والعشرين، مليء بالأحلام والأفكار، أن يغادر بهذه البساطة ؟ حدسه المهني يخبره أن ثمة شيء مريب في الحكاية ..

غادر نيكولاس الشقة بخطوات ثابتة، فيما بقي هنري جالساً في الصالة، متهاكاً على الأريكة، ينظر إلى الأرض كمن فقد نصف روحه. كان يعلم أن التحقيق قد يتوقف عند هذا الحد، لكن قلبه لم يقتنع أبداً أن رحيل أخيه كان قدراً عادياً. وداخل عقله بدأ صوت صغير يهمس : ثمة ما هو أعمق من كل هذا الهدوء المريب ، هل لتطبيق فوتون الجديد صلة بالوفاة المفاجئة هذه ؟!

في أروقة المشفى، تحت أضواء بيضاء باهتة أشبه بمصابيح المقابر، أنهى الطبيب الشرعي نيسن عمله. كان يقف فوق جسد كيفين أستور، الجسد الذي أثار عاصفة من الأسئلة أكثر مما قدّم من أجوبة. يداه المتمرستان قلبتا الأعضاء واحدة تلو الأخرى، بحثاً عن الحقيقة المدفونة في أعماق اللحم والدم. قلب متضخم، نعم، لكنه ضمن الحدود الممكنة لمن عاش مع مرضه سنوات طويلة. لا تمزق في

الألياف، لا آثار لاحتشاء، لا جلطة مفاجئة، لا انسداد يفسر توقف الحياة فجأة.

عيونه انتقلت إلى الرقبة، إلى الأكتاف، إلى المعصمين، بحثاً عن آثار خنق أو قبض أو مقاومة. لا شيء. الجلد صامت، بلا كدمات أو خطوط زرقاء. ثم جاءت مرحلة الدم والبول، حيث تطمئن العلوم الحديثة كل حائر بقدرتها على كشف السموم .. لكن النتائج جاءت باردة، كصفحة بيضاء : لا أثر لسم، لا مخدر، لا عقار قاتل.

وقف نيسن للحظة يتأمل الجسد المسجى أمامه. كان يدرك أن الأطباء اعتادوا أن يقولوا : (الموت الطبيعي) .. لكن في أعماقه، شيء ما قاوم هذا الاستنتاج السهل. في النهاية كتب تقريره، وختمه بخلاصة تحمل ثقل الحيرة :

(لا يمكن الجزم بأن الوفاة طبيعية. ولا يمكن الجزم كذلك بوجود جريمة. الكرة الآن في ملعب الشرطة)

وصل التقرير إلى مكتب المحقق نيكولاس فان دين بيرغ في ساعات الظهيرة. جلس نيكولاس في مكتبه، نافذته تطل على شوارع سان ديبغو التي تزدهم بالحياة، بينما بين يديه ورقة تقول إن شاباً في الخامسة والعشرين، نابغاً في مجاله، قد فارق الحياة دون سبب واضح. قرأ الجمل أكثر من مرة، وكأنها أحجية مكتوبة بحبر خفي. تتمم وهو يضع القلم على الطاولة :

= لا يمكن لهذه القضية أن تُطوى بهذه البساطة. ليس مع شخص مثل كيفين.

نهض من كرسيه، وأخذ معطفه الداكن، كمن اتخذ قراراً لا رجعة فيه. كان يدرك أن موت شاب عادي قد يُقفل بعباراة (قلب ضعيف)

، لكن موت عقل لامع، مبرمج أحدث ضجة في عالم التكنولوجيا،
سيطرح مئات الأسئلة. ولن يسمح لنفسه أن يتهرّب منها.

قاد سيارته باتجاه شقة كيفين مجدداً .. عند المدخل كان الشرطي
المناوب يقف للحراسة، ملتزماً بأوامره بعدم السماح لأحد بالدخول.
دخل نيكولاس، فأحاطه ذلك الهدوء الذي يملك وزناً أثقل من أي
ضجيج. الجدران نفسها بدت وكأنها تراقبه. أعاد فتح كل غرفة، كل
درج، كل زاوية.

وقف أمام الحاسوب المحمول في مكتب صغير ملحق بغرفة النوم.
نظر إلى الشاشة السوداء التي عكست وجهه كمرآة. مرر أصابعه
على لوحة المفاتيح، لكنه لم يجرؤ على تشغيله بعد. كان يعرف أن
عالم المبرمجين ليس كعالم العامة؛ في جهاز كهذا قد تختبئ مفاتيح
اللغز أو أشباحه.

توجه إلى المطبخ، فتح الخزائن، فحص قوارير الماء، عبوات
الطعام. لا شيء. انتقل إلى الحمام، نظر في المرآة التي ما تزال
محتفظة ببخار خفيف، ربما من حمام استحم به كيفين قبل رحيله
بساعات. كل شيء كان نظيفاً أكثر مما ينبغي، كأن شبحاً حرص
على محو أي أثر قبل أن يختفي.

وقف في وسط الصالة، وضع يديه خلف ظهره، وأغلق عينيه للحظة.
كان يدرك أن لا دليل لا يعني بالضرورة لا جريمة. هناك موت يبدو
طبيعياً، لكنه ليس كذلك. هناك قاتل يمرّ من دون أن يترك بصمة،
ومن دون أن يضطر إلى كسر نافذة أو فتح باب.

فتح عينيه فجأة، وصوته الداخلي يهمس : (إن لم أجد ما أبحث عنه
هنا، فسأجد خيوطاً أخرى في مكان آخر.)

غادر الشقة ببطء، بينما الشرطي على الباب ألقى عليه نظرة متسائلة.
لم يقل نيكولاس شيئاً. كان غارقاً في تفكير ثقيل : (كيف يموت شاب

مثل كيفين بلا سبب، وكيف يبقى مسرح الجريمة صامتاً كالأخرس
أمام هذا الغموض؟)

إن مسرح الجريمة هذا أشبه بثقب أسود ابتلع كل الأدلة من حوله و
جمد الزمن عند لحظة وفاة أرادها أن تكون طبيعية

الفصل الرابع

كوكبة من المشتبهين

كاليفورنيا / سان دييغو ..

بعد يومين ..

جلس المحقق نيكولاس إلى مكتبه يحدث في ملف ضخم وضعه أحد مساعديه أمامه ، كمن يتلذذ برائحة شريحة لحم مشوي قبل تناولها .. كان الملف ينوء بثقله كأنه حجر تاريخي انتزع من قنطرة الزمن، ملف دسم حُشدت بين صفحاته أسماء ووجوه وقصص متقاطعة جميعها تلتقي في محرق واحد : **كيفين أستور**.

فتح نيكولاس الصفحات الأولى ببطء، عيناها الرماديتان تتوهجان كعيني نمر متربص بفريسته ، بدا كما لو كان يقرأ اعترافات مكتوبة بالحبر الأسود للقدر نفسه. سطور تتحدث عن رجال ونساء، عن دماء المال، عن غيرة الحب، عن حروب العقل. كان التقرير بمثابة خريطة متاهة، كل ممر فيها يقود إلى شك، وكل منعطف يفتح على هاوية.

ابتسم ابتسامة باهتة، وقال لنفسه :

(أماننا وليمة كاملة من الدوافع، لكن من فيهم كان جائعاً أكثر للموت ؟) ..

كان الاسم الأول الأقرب إلى قلب القضية : **هنري أستور**، الأخ الوحيد .. في عيون العامة، هو محام ناجح، حاد الذكاء، رجل يعرف دهاليز القوانين كما يعرف كفّ يده. لكن في عيون نيكولاس، كان رجلاً يقف في منطقة رمادية بين الحب والوراثية، بين دم الأخوة ودم الثروة.

هنري هو الوحيد الذي يملك الرقم السري للشقة، الوحيد الذي

يستطيع الدخول والخروج بلا أثر. وهو الوريث الشرعي الوحيد ليس لثروة أخيه فحسب، بل لـ فوتون، التطبيق الذي قد يغيّر شكل الذكاء الاصطناعي في العالم، ويجلب مليارات لا تُعد.

(محامٍ يعرف كيف يجعل الموت يبدو طبيعياً كيف يقولب الأدلة و مسرح الأحداث ... ألا يكفي هذا ليزرع الشك ؟) تتم نيكولاس وهو يقلّب الصور التي التقطت لهزري بجوار جثة شقيقه. الحزن في ملامحه بدا حقيقياً، لكن أليس القانون من يعلم رجاله كيف يمثلون بمهارة ؟ الحزن قد يكون صادقاً، أجل ، وقد يكون مسرحية محكمة.

في الصفحات التالية، لمع اسم **كارمن رولاند** كشرارة في عتمة الليل. فتاة عاشت بين الحب والهوس، تحولت عاطفتها إلى جمر يلسع كل من يقترب. رسائلها في هاتف كيفين كانت كافية لفتح أبواب الجحيم : كلمات حب نارية سرعان ما تنقلب إلى تهديدات صريحة.

آخر رسالة سبقت وفاته بساعات لم تترك مجالاً للشك : (إن ابتعدت عني، ستندم ... لن أدعك تختفي عن حياتي .. لن يفرّق بيننا إلا الموت) ..

جملة تكفي لتضعها في قلب العاصفة كمشتبه رقم واحد ..

كارمن لم تكن غريبة على الشقة؛ كيفين نفسه كان يفتح لها الباب. لم يكن يتوقع منها خيانة، لكنه ربما لم يعرف أنه أمام قلب مريض لا يشفى بالرفض. بالنسبة لنيكولاس، كانت كارمن لغزاً مزدوج الوجه : عاشقة تبكي في النهار، جلاد يهدد في الليل.

(القلب حين ينكسر... قد يقتل.) ، كتب نيكولاس في دفتره.

ثم جاء الدور على رجل الأعمال المثير للجدل، **خوان غارسيا**. اسم يلمع كالذهب في عالم التكنولوجيا، لكنه يلمع أيضاً كسكين في ظلام الطموح. كان غارسيا قد عرض على كيفين مئة مليون دولار مقابل

شراء فوتون، وقوبل برفض صاعق.

في المكالمات التي وثقتها سجلات الهاتف، نبرة غارسيا لم تكن خالية من الغضب. كان فيها وعيد مبطن : (تذكر أنك في سوق لا يرحم أحداً و الحسابات الخاطئة لها نتائج وخيمة .) كلمات من هذا النوع لا تُنسى، خصوصاً حين يموت الطرف الآخر بعد ساعات منها ..

بالنسبة لنيكولاس، لم يكن غارسيا مجرد رجل أعمال جريح الكبرياء. كان وحشاً يعرف كيف يستخدم المال كأداة للسيطرة ... و ربما للقتل.

بين الأسماء، برز نجم آخر متوهج كسوبرنوفا : **أوستن أولافسين** .. العبقرى الذي يقف خلف أشهر تطبيق للذكاء الاصطناعي في العالم حالياً (أندروميذا) ، ورجل لا يخفي عداؤه للمنافسين. في أكثر من تصريح علني قالها بوضوح : (لن أسمح لهواة بأن يزاحموني) ..

هل كان يرى في فوتون تهديداً مباشراً لعرشه ؟ لا شك ..

لكن هل يمكن لرجل يملك هذه المكانة أن ينزل إلى مستوى الجريمة ؟ ربما ليس بيديه، لكن من يملك عقلاً متوهجاً كعقله ، يملك ألف وسيلة لقتل صامت، وسيلة قد لا تترك أثراً في جسد، ولا في دم.

تساءل نيكولاس وهو يكتب ملاحظة جانبية :

(العقول الذكية لا تتورط بالجرائم ، بل تسلك سياسة **القرصان**

مورغان و تترك العمل القذر لغيرها .. تحرك الدمى بخيوط من بعيد و هي في مأمن من عين المحققين).

أما آخر الأسماء فلم يكن اسماً على الإطلاق، بل صورة باهتة

التقطتها كاميرات المراقبة في الحي : **رجل ملثم** ، يتجول في الساعات التي صادفت موت كيفين. لا ملامح، لا هوية، مجرد ظل يتحرك بين الشوارع، كطيف هارب من كابوس.

وجوده وحده كان سؤالاً ضخماً. ماذا يفعل مجهول مقنع في حي هادئ بتلك الساعة؟! هل هو صدفة عابرة؟ أم اليد التي أنهت حياة شاب عبقرى بسبب خلاف شخصي أو نزولاً عند رغبة آخرين قبض ثمن روح كيفين منهم؟

كتب نيكولاس في دفتره مجدداً :

(الظل أحياناً أخطر من الوجوه المكشوفة) ..

بعد أن أنهى تصفح الملف، أغلق نيكولاس الغلاف بقوة خفيفة، ونهض من كرسيه. الأسماء كلها تدور في رأسه كدوامات بحرية : هنري، كارمن، غارسيا، أوستن، والملثم. لكل واحد منهم دافع قوي، لكن أين الأداة؟ كيف حدثت الوفاة بلا خدش، بلا سم، بلا أثر؟

كانت القضية أقرب إلى لغز فلسفي من كونها جريمة جنائية اعتيادية : الموت وقع، لكن أسبابه انمحت.

وقف أمام نافذته، يرمق بنظراته مدينة لا تعرف ربما أن أحد أعظم عقولها قد رحل، وقال بصوت عميق :

= واحد منكم هو القاتل بلا شك... واحد فقط .. سأتفرس في وجوهكم .. أحلل أصواتكم .. أعري أكاذيبكم .. حتى ينهار القناع و يظهر وجه المجرم الحقيقي ..

ثم أصدر تعليماته لمساعديه :

(متابعة جميع المشتبه بهم .. التحقيق معهم فرداً فرداً .. فحص حجج
الغياب بدقة .. لا استثناءات .. لا تهاون ..)

هكذا بدأ فصل جديد من اللعبة، لعبة سيقف فيها كل مشتبه أمام المرأة
.. ليكشف عن نفسه ... أو ليغرق في ظله.

الفصل الخامس

الكون ثنائي القطب

مدغشقر / أنتا نانا ريفو

قبل عامين ..

2031 م ..

في قلب العاصمة أنتا نانا ريفو، حيث البيوت الملونة تتكى على سفوح التلال كأصداف متعبة، تعيش فتاة في الثانية والعشرين من عمرها حياة تشبه إيقاع الموسيقى الإفريقية القديمة التي لا يعرف أحد متى أو من أين أتت .. اسمها غير مهم ، فما يجذبك إليه هو روحها : مرآة لحكاية أكبر منها ، كأنها وجدت كي تفصح ذات يوم سرّاً دفيناً في مكان بعيد . عيناها سوداوان عميقتان، تلمعان أحياناً كبئرٍ اكتشف فيه القمر نفسه، وأحياناً تنطفئان كجمرٍ يغطيه الرماد. بشرتها السمراء تحمل دفء الأرض التي أنجبته، وفي ابتسامتها المترددة انعكاسٌ لصراعٍ بين يقين داخلي وعاصفة شكٍ لا تنطفئ

صوتها منخفض النبرة، يخرج كهمسٍ يطلب الإصغاء لا بعلوّه، بل بصدقه، وحين تتحدث، كان الناس يشعرون وكأنهم يُدعون إلى طقسٍ سريّ، حيث الكلمات ليست مجرد وسيلة بل كائنات حية تنبض في الهواء .. لم تكن من أولئك الذين يُعرفون أنفسهم بكثرة الكلام، بل بحضورٍ ينساب مثل ماءٍ نقيّ.

طباعها متناقضة؛ فهي هادئة كالبحيرة عند الفجر، لكنها سريعة الاشتعال حين يستفزّها الظلم أو البلادة. تضحك فجأة كطفل اكتشف لعبة جديدة، ثم تغرق في صمتٍ ثقيل كراهبٍ يراقب معنى الكون. تحب الوحدة كمن يعانق ظله، ومع ذلك كانت قادرة على أن تجعل أي غرفة تمتلئ بالضوء إذا قررت أن تبتسم. هي ذلك النوع من الأرواح التي لا يمكنك أن تصنفها : نصفها نار ونصفها ماء،

نصفها حلم ونصفها يقظة .. إنها ببساطة **لاينا فاماكا** ..

أبوها رجلٌ نحته العرق كتمثال من خشب الأبنوس، يده متشققتان كأرضٍ عطشى، لكن قلبه أخضر كسهول السافانا بعد المطر. في صمته حكمة الأجداد الذين عرفوا أن الصمود ليس صخباً بل جذراً عميقاً يتشبث بالأرض. أما أمها، فتشبه آلة المريمبا .. دافئة، تنشر في البيت موسيقى من حنانٍ وصبر. بضحكتها كانت تُذيب التعب، وبأهازيجها البسيطة تُخفي وجع الحاجة، لتمنح أبناءها وهماً جميلاً بأن الحياة أوسع من ضيق الجدران.

أما إختوها الصغار فهم كعصافير الدوري التي تحلق فوق البيادر، يملؤون البيت بضحكاتٍ عالية ونزاعاتٍ صغيرة، لكنها كانت تراقبهم بعينين شاردتين، كمن يرى في حركتهم امتداد براءة تخشى عليها من صرامة العالم في الخارج. ومع ذلك، كانوا يعرفون أنها الأخت الكبرى التي يلجؤون إليها في الملمات ، عمود البيت الصامت.

إذا خرجنا من بوابة منزلها ، يستقبلنا حيّ ليس كغيره ، لوحة إفريقية صاخبة : أصوات الطبول القادمة من احتفالات الشوارع تختلط بنداءات النساء في السوق، روائح الفانيлия والقرنفل تمتزج بدخان الفحم المشتعل فتخلق هواءً يسكرك رغم بساطته. وفي موسم المطر، تتحول الطرق الطينية إلى أنهارٍ صغيرة، ومع ذلك يركض الأطفال فيها حفاة عراة ، ضاحكين ، يرون في الطين نعمة لا عائقاً ، كأنما الإنسان يحنّ إلى أصله .. إلى العجينة التي شكل منها في بدء الخليقة.

الحيّ كان مسرحاً للفقير، لكنه أيضاً حاضنة للجمال. هناك، حيث تغني النسوة أهازيج جماعية أثناء غسل الملابس على ضفاف النهر، وحيث يتبادل الرجال الحكايات تحت ظل شجر البواباب العملاقة ، تعلم أن الحياة لا تُقاس بما نملك، بل بما نستطيع أن نغنيه ونحملة في قلوبنا.

لقد أورثها الحيّ حكمة الدهور : القوة الحقيقية تولد من رحم الصعاب
كما تولد زهرة الرافليسيا النادرة في غابة مظلمة.

ذلك المكان لم يكن مجرد جغرافيا، بل ذاكرة تنبض فيها حتى اليوم،
جذرٌ إفريقي عميق يذكرها بأن هويتها ليست فردية فقط، بل جماعية،
وأن كل خطوة تخطوها في حياتها تحمل معها صوت القارة : قوياً،
صبوراً، ومليناً بالأمل.

دخلت لالاينا كلية الطب لا كما يدخل طالب إلى مؤسسة، بل كما
يدخل حاجّ إلى معبد يتوق إليه منذ دهور. لم يكن يسحرها الجسد
وحده بما يحمله من أسرار العظام والعضلات والشرابين، بل كانت
نفسها مشدودةً إلى الكيان الأعمق : النفس البشرية، تلك الغابة الكثيفة
الملينة بالظلال والأصوات المخنوقة. لم تكن تنظر إلى الإنسان
كتركيب بيولوجي فحسب، بل كقصيدة مكتوبة بلغة الألم والرغبات.

على جدار غرفتها علقت صورة ليسجيموند فرويد ، لا بوصفه أيقونة
جامدة، بل باعتباره مرشداً يفتح لها الأبواب نحو دهاليز اللاوعي.
كانت ترى في فرويد مغامراً حقيقياً، لا يقل جرأة عن الرحالة الذين
يعبرون المحيطات. ذلك أن المحيط الأكبر، في نظرها، هو العقل
البشري بما يحتويه من رغبات مكبوتة وذكريات متوارية تحت
طبقات الصمت .. لذا كانت تقرأ عن العقد النفسية كما يقرأ عاشقٌ
رسالة قديمة من حبيب غامض، وتشعر أن كل كلمة تلامس وترّاً
خفياً فيها ..

في قاعات الدرس، بينما ينشغل زملاؤها بتفاصيل علمية بحتة، كانت
هي تغوص أبعد، تحاول أن تسمع ما وراء التشريح، أن تلامس ما
وراء الكيمياء. كانت مقتنعة بأن سرّ الشفاء لا يُختزل في دواء، بل
في الإصغاء العميق إلى تلك الأصوات المجهولة التي تسكن الإنسان.

أحياناً كانت تتأمل نفسها في المرآة، لا كجسد، بل كظاهرة نفسية، و
تسأل : (أي سرّ يسكنني؟ وأي أبواب عليّ أن أطرق كي أشفى؟)

كانت تشعر أن دراسة الطب ليست رحلة خارجية فقط، بل رحلة داخلية تعيد صياغتها من جديد.

فقبل ثلاث سنوات، طرق الارتباك باب توازنها الروحي كضيفٍ غير متوقَّع .. شُخِّصت باضطراب ثنائي القطب، حين وجدت نفسها تتأرجح بين ذرى النشوة التي تجعل الكون كله يرقص في عروقتها ، و وهاد الاكتئاب التي تحوّل الوجود إلى فراغ ثقيل. عاشت تقلباته كمن يركب عاصفة، تارةً مرفوعاً إلى قممٍ عالية يرى منها النجوم عن قرب، وتارةً مُلقى في قاعٍ لا يسمع فيه سوى صدى حزنه.

لكن ما كان يمكن أن يدمرها، تحوّل إلى معلّمها الأشدّ إخلاصاً. لم تنكر مرضها ، بل قبلته كجزء من هويتها ، كمعلم خفيّ يقودها إلى أعماق النفس البشرية أكثر مما قد تقودها آلاف الكتب. بالعلاج والمواظبة، وجدت توازناً هشاً لكنه ثمين، يشبه السير على حبل مشدود فوق هاوية : يحتاج إلى وعي دائم، لكنه يكشف لها أيضاً جمال المشهد.

قالت لنفسها يوم شخّصت بالمرض :

(و ما العيب في ذلك ؟! الكون كله ثنائي القطب : ظلام و نور .. موت و حياة ..)

هذا المرض كان الشرارة التي أشعلت فيها شغف دراسة

الطب النفسي. لم تعد تنظر إليه كقدرٍ ثقيل، بل كرسالة تقول لها : (قلة من يمتلكون هبة سبر أسرار الآخرين، أولئك الذين عبروا فوق الهاوية التي يخشاها الآخرون) .. و مع مرضها اتخذت قرارها الأهم ، أن تتخصص لاحقاً في الطب النفسي، لا بدافع الطموح وحده، بل بدافع التعاطف الصادق مع من يعانون.

كانت تقول لنفسها : (كل جرح في داخلي هو نافذة أطلّ منها على روح إنسان آخر) .. وهكذا صار الطب بالنسبة لها ليس مهنةً فقط،

بل خلاصاً، طقساً روحياً، وإعلاناً بأن الضعف الإنساني يمكن أن يتحول إلى قوة ناعمة، قادرة على احتضان الآخرين ..

لأننا ترى النفس البشرية أشبه بحديقة (تسينجي) أحد رموز مدغشقر المذهلة ، تلك الحديقة الحجرية الشاسعة التي ترفع صخورها الحادة إلى السماء كأصابع تصلي في صمتٍ عظيم ..

هناك، في متاهة الصخور التي تبدو كأنها مدينة أخرى صُنعت لا للبشر بل للأسرار، رأت انعكاساً لرحلة الإنسان الداخلية. كل صخرة شاهقة كانت صورةً لصراع داخلي يواجهه : حادة، صعبة التسلق، لكنها في الوقت ذاته تعدُّ بمنظرٍ باهرٍ لمن يجروا على الصعود.

و كما أن تسينجي تفرض على زائريها أن يتعلم المشي بحذر، فوق جسور خشبية معلقة أو بين شقوق ضيقة، فالإنسان أيضاً يسير في حياته على حبال رقيقة من التوازن، يخشى السقوط في هوة الاكتئاب، لكنه يكتشف في كل خطوة يقظة جديدة. إنّ كل صخرة في تسينجي تشبه فكرةً أو ذكرى في داخله : بعضها جارحٌ كالسكاكين، وبعضها يتفتح عليه ضوء النهار فيكشف جمالاً غير متوقع.

و في تسينجي، الحياة تزدهر رغم القسوة : جذور الأشجار تجد طريقها وسط الصخور، والطيور تبني أعشاشها في الفجوات العالية. وهكذا يرى الإنسان نفسه ، في قلب مرضه وأزماته، تنبت فيه قوة غريبة، كأن النفس البشرية مصممة لتجد مساراً للحياة حتى بين أنياب الألم.

لقد بدت لها تسينجي فلسفة صامتة، تقول : **(كل جرح قد يكون سلباً، و كل شق في الروح يمكن أن يصبح نافذة للضوء)** .. وهكذا يعيش الإنسان حياته، متأرجحاً بين القسوة والجمال، بين الجدار والحلم، لكنه دائماً، مثل الحديقة الحجرية، يرفع رأسه نحو السماء.

و كما تعني كلمة تسينجي في لغتهم المحلية : (حيث لا يمكنك المشي حافياً) .. أي بسبب الصخور المدببة فيها ، فالحياة هي كذلك .. لا يمكنك المشي فيها إلا إذا تسلحت بالصبر و العزيمة و الأمل .. عدا ذلك فهي أشبه بالمشي فوق جمر أو مسامير أو زجاج مت هشم ..

في زوايا غرفتها الصغيرة ، بين الكتب القديمة و دفاتر الملاحظات، نما فيه شغف آخر يواكب حداثة العصر ، شغف بالذكاء الاصطناعي كنبع صامت ينبعث من أعماق الفضول. لم يكن مجرد تقنية أو أداة، بل بوابة لعالم جديد، حيث يمكن للآلة أن ترى ما تعجز عنه العين البشرية، وتسمع ما يخفى عن حواس الإنسان. كانت ترى في الذكاء الاصطناعي رقيقاً للطب، رقيقاً يمكنه أن يعانق الدقة مع الحنان، والقدرة الحاسوبية مع حس الرحمة .. تتخيل أجهزة قادرة على تحليل ملايين البيانات في ثوانٍ، تكشف عن أمراض قبل أن تظهر أعراضها، تحدد العلاج الأمثل كما لو أن الجسد نفسه يبوح بأسراره ، كما تتخيل الروبوتات الجراحية تتحرك بدقة لا تقدر عليها اليد البشرية، كأنها أصابع الإله نفسها التي تتلمس العظام والأنسجة بركة وحذر، هي تعلم أن هذا المستقبل ليس خيالاً، بل مسار محتوم للطب الذي سيجتمع بين العلم و الفن والذكاء الاصطناعي.

مع كل خلية درستها ، و في كل موجة دماغية رصدتها، شعرت أن الذكاء الاصطناعي سيكون أداة لتفكيك أسرار الإنسان، لا ليستبدل الطبيب، بل ليزيد من عمق فهمه.

كانت تتخيل اليوم الذي يجلس فيه الطبيب أمام شاشة تحليلية، والآلة تهمس له بالتشخيص الدقيق و العلاج المناسب ، تماماً كما كان أجدادها يتنبؤون بالنجوم ويقررون أقدارهم، لكن هذه المرة بالعلم و الآلة معاً.

وهكذا، صار اهتمامها بالذكاء الاصطناعي امتداداً لشغفها بالنفس البشرية : فهم أعمق، رؤية أشمل، قدرة على الشفاء بطرق لم تكن

ممكنة من قبل .. و بدأت ترسم حلماً جديداً ، التعاون مع مبرمجين
لتطوير ذكاء اصطناعي يلعب دور معالج نفسي يحاور المرضى ،
يشخصهم و يعالجهم .. يرافقهم في كل ثانية من حياتهم حتى وفاتهم
، فهو لا يحتاج أكثر من مساحة صغيرة على ذاكرة هاتفهم !! و
قررت أن تسمى ذلك الذكاء الاصطناعي النفسي (**تسينجي**) .. كمن
تسمى جنينها في رحمها قبل أن يولد ..

الفصل السادس

النفق الكمي ..

كاليفورنيا / سان دييغو ..

خلال الأيام اللاحقة ..

التحقيقات مع المشتبهين ..

القاتل الأنيق ؟!

جلس **خوان غارسيا** أمام طاولة التحقيق، بدلة داكنة أنيقة تفوح منها رائحة عطر باريصي باهظ الثمن، ساعة سويسرية ذرية تمسك مواعيد العمل من عنقها .. أما يديه فلم تكفا عن الحركة ، أصابعه تدق على الخشب بإيقاع متوتر، وعيناه تفرّان من المحقق نيكولاس إلى الباب كأنه يبحث عن مخرج ثم تعودان من جديد كبندول الساعة

= سيد غارسيا ..

قال نيكولاس بصوت بارد ..

= أنت تعلم أننا نحقق في وفاة الشاب المبرمج كيفين أستور ..

= أجل .. وفاته كانت مفاجئة للجميع .. مسكين لا يزال في مقتبل الحياة ..

= شعور إنساني نبيل منك ، لكن تحرياتنا أفضت إلى كونك آخر من تشاجر معه علناً قبيل وفاته ..

ابتسم غارسيا ابتسامة مشدودة، وقال :

= تشاجر؟ لا، لا .. لقد اختلفنا فقط ... ذلك يحدث في الصفقات الكبرى ..

= و أين كنت ليلة أمس الأول ؟!

= في تلك الليلة .. آه تذكرت ... كنت في عشاء عمل طويل في مطعم لا كاسا بيانكا .. يمكنك أن تسأل أي نادل هناك. بقينا حتى الفجر نتحدث ونوقع عقوداً .. لم أغادر ولو لدقيقة.

فتح نيكولاس دفتره وقلب الصفحات .. كانت المعلومات الأولية تؤكد بالفعل وجوده في المطعم .. الكاميرات الأمنية سجلت دخوله عند التاسعة مساءً وخروجه مع طلوع الشمس.

لكن نيكولاس لم يرفع عينيه عن الرجل وهو يقول :

= الحجب الصلبة لا تمنع النفوس التي لا تقبل الرفض من الانتقام ، سيد غارسيا ، فكما تعلم هنالك ما يسمى قتل بالوكالة ..

ابتلع غارسيا ريقه، وازدادت يده رعدة لم تخف عن عين المحقق .. فاغتنم الأخير الوضع و زاد من ضغط الاستجواب عليه علّه يوصله إلى انهيار فاعتراف ، لذا واجهه مباشرة بتسجيل المكالمات الأخيرة مع كيفين و تهديده له ، هنا احمرّ وجه غارسيا و رفع صوته بعصبية :

= لقد أخذتم كلامي بمحمل خاطئ ! لم أهده، بل نصحته. أردت له الأفضل، أن يقبل عرضاً يغيّر حياته. كنت أرى أنه سيغرق وحده، بينما كان بإمكانني أن أرفعه إلى القمة ..

أدار نيكولاس رأسه ببطء، و عيناه تواصلان اختراق دفاعاته النفسية :

= لكن كلماتك بدت كسياط غلفتها بغلاف من النصح .. ألم تقل له : (تذكر أنك في سوق لا يرحم أحداً و الحسابات الخاطئة لها نتائج وخيمة) ..

هز غارسيا كتفيه بقوة، وقال :

= كنت أعنيها حرفياً .. السوق لا ينتظر أحداً .. إذا أضاع الفرصة اليوم، فلن يجدها غداً .. لا أكثر، لا أقل ..

دوّن نيكولاس ملاحظة قصيرة على الهامش، ثم صمت عمداً، تاركاً الهدوء يطبق على المكان كي يربك غارسيا أكثر .. و بالفعل أخذ توتر غارسيا يتضاعف ، كأنه يشعر أن كل كلمة تخرج من فمه يمكن أن تتحول إلى خنجر يطعن في مصداقيته ..

قرر نيكولاس أخيراً أن يضعه أمام امتحان حاسم : جهاز كشف الكذب ، فلم يمانع غارسيا على الإطلاق ..

جلست ممرضة لتركب الأقطاب على صدره ومعصميه، فيما حاول غارسيا أن يبدو ثابتاً .. لكن عرقه خانه و بدأ يتصبب، كما أن تنفّسه صار أثقل.

بدأت الأسئلة تنهال عليه كالانهيارات الثلجية :

= هل كنت في شقة كيفين ليلة وفاته ؟

= لا ..

= هل هددت كيفين بقتله ؟

= على الإطلاق ..

= هل أنت متورط بأي شكل من الأشكال في وفاته ؟

= أبداً !!

كانت الإبر على الشاشة تتحرك لكنها لم تقفز .. الجهاز سجّل توتراً

واضحاً، لكن بلا كذبة صريحة .. خرج غارسيا من الاختبار منهكاً،
كأنه عبر نفقاً مظلماً، لكن خرج منه بريئاً على الورق ..

أغلق نيكولاس الملف وقال :

= جهاز الكذب كان في صفك سيد غارسيا ، لكنه لا يبرّئك بشكل
مطلق .. فالتحقيق لا يزال مستمراً .. يمكنك الانصراف الآن ، و
أتمنى ألا نلتقي هنا مجدداً ..

انتقل مساعدوه إلى فحص السجل الهاتفي الخاص بغارسيا .. آلاف
المكالمات المتناثرة عبر الأسابيع الماضية، كلها رتيبة و متوقعة :
اجتماعات مع شركاء، رسائل صوتية لزوجته، اتصالات مع موظفي
شركاته. لم يظهر أي اتصال مريب، لا
برقم مجهول ولا بشخص غريب.

جلس نيكولاس يراجع التقارير، شعر بالخذلان .. كان يتوقع أن يجد
ثغرة، همسة عابرة، رقماً مشبوهاً، لكن السجل بدا كواجهة زجاجية
لامعة لا خدش فيها.

قال لمساعدته :

= أحياناً، حين يكون السجل نظيفاً أكثر من اللازم ... يكون هذا هو
الدليل بعينه .. لكن حتى الآن، ليس لدينا ما يكفي كي نضع غارسيا
في قفص الاتهام المباشر ..

في الاجتماع الليلي مع فريقه، قال نيكولاس بحزم :

= قد نكون تأكدنا من وجود غارسيا في المطعم تلك الليلة، و صحيح أنه مرّ بجهاز كشف الكذب بسلام، لكن غارسيا رجل لا يُطمأن إليه .. لو كان متورطاً، فسوف يحاول أن يُبعد الشبهات عن نفسه بطرق أخرى .. قد يتصل بوسيط ، قد يرسل رسالة مشفرة ، قد يزلّ لسانه بكلمة .. لذا أوصي بوضع هاتفه تحت المراقبة، و متابعة تحركاته عن كثب على مدار الأيام المقبلة ..

و مرت الأيام .. لكن للأسف ، كانت النتيجة مخيبة لآمال المحقق : لا شيء هام يذكر .. كل ما ورد من هاتفه اتصالات عائلية عابرة أو اجتماعات عمل .. لم يظهر أي أثر يربطه بالموت الصامت الذي غيّب كيفين.

جلس نيكولاس في مكتبه، يدخن سيجارته ببطء، والدخان يتلوى أمام عينيه مثل علامات استفهام معلّقة.

تمتم لنفسه :

= إذا كان غارسيا بريئاً، فلماذا يبدو كمن يخفي شيئاً ؟ وإن كان مذنباً ، فكيف يتقن إخفاء تورطه بهذا الكمال ؟

كان يعلم أن اللعبة لم تنته بعد، وأن اسم غارسيا سيظل على الطاولة، ثقيلًا كالحديد، حتى تُفتح نافذة جديدة تقود إلى الحقيقة.

المجرم السايكوباثي؟!

دخلت **كارمن رولاند** غرفة التحقيق كأنها تدخل مسرحاً، خطواتها محسوبة، شعرها المنسدل يلمع تحت الإضاءة الباردة، وعيناها العسليتان تحدّقان في الجميع بنوع من التحدي .. جلست على الكرسي

ببطء، كمن يتعمّد إشعال الفضول حوله أو يستمتع بكونه محط اهتمام الآخرين ، و الغريب أنها لم تبدِ أي مشاعر تجاه موت كيفين أو تجاه استدعائها إلى التحقيق !!

قال نيكولاس، وهو يفتح ملفاً ثقیلاً أمامه :

= أنسة رولاند، وجودك هنا ليس إجراءً اعتيادياً .. بين يدي رسائل تهديد صريحة أرسلتها إلى كيفين، آخرها ليلة وفاته ، هل تتكرين ذلك ؟ ..

ابتسمت ابتسامة صغيرة، خليط من الدهاء والاستهزاء :

= تهديد !؟ أنتم الرجال تقرأون كل شيء على أنه عنف. كانت مجرد صرخات قلب عاشق .. هل عوقب أحد يوماً لأنه أحب أكثر مما ينبغي ؟

لكن قلب نيكولاس لم يهتز بكلماتها. كان يعرف هذا النوع من النساء : خليط من الافتتان والجنون، حيث يصبح الحب سلاحاً قاتلاً. بدأ الاستجواب يتصاعد .. واجهها نيكولاس بسجلات المكالمات : العشرات منها لم يرد عليها كيفين، ثم رسائل حب طويلة تنقلب فجأة إلى وعيد : (إن ابتعدت عني سأجعل حياتك جحيماً) ..

قالت بصوت مرتجف هذه المرة و كأن القناع تبدل على وجهها :
= كنت خائفة .. كان يبتعد عني يوماً بعد يوم .. لم أفكر أبداً أن أؤذيه، فقط أردت أن يظل قربي ..

رفع نيكولاس حاجبه :

= لكن الرسالة الأخيرة لم تكن خوفاً، بل تهديداً صريحاً .. قلت بوضوح : (لن يفرق بيننا إلا الموت) ..

ساد الصمت للحظة. عيناها هربت نحو المصباح المعلق في سقف الغرفة ، ثم رفعت رأسها فجأة وقالت :

= ربما قلت ذلك ... لكن الكلمات في العاطفة لا تعني دائماً ما تبدو عليه .. أنا أحبه بجنون و لا يمكن أن أؤذيه .. بل مستعدة أن أقتل من يفكر بإيذائه ..

هذا الاعتراف الصريح بالاستعداد للقتل لم يكن في صالحها. نيكولاس كتب في دفتره بخط صارم : (كارمن : عقل متأرجح بين العاطفة والتهديد ، شخصية غير مستقرة و مستعدة للقتل) ..

صمت قليلاً ثم سألها بشكل مباشر :

= أين كنتِ في ليلة وفاة كيفين، على الساعة الثالثة فجراً ؟

همست كارمن بقلق :

= في شقتي ... بمفردي .. أرسلت له الرسالة ثم بكيت و بكيت حتى غفوت ..

تجمّد القلم في يد نيكولاس .. لم تكن هناك أي حجة غياب حقيقية .. لا شهود، لا كاميرات، لا رفيقة سهر .. وحدها مع هواجسها. ارتبكت فجأة، وأمسكت يديها كمن يحاول تهدئة زلزال داخلي .. ثم أجهشت بالبكاء، و صرخت :

= نعم، كنت غاضبة ! كنت مجنونة ! لكنه لم يفهم ... لم يفهم أبداً أنني أردت فقط أن أنقذه من وحدته !!

بعد ساعات من الضغط النفسي الذي لم يسفر عن جديد ، لم يتبقى هنالك ما يقال ، سألها نيكولاس إن كانت توافق على الخضوع لجهاز

كشف الكذب ، فلم تتهرب ..

جلس نيكولاس خلف الزجاج يراقب المؤشرات، بينما تولى أحد المحققين طرح الأسئلة ..

كانت الخطوط على الشاشة تهتزّ باضطراب، لكنها لا ترتفع إلى حد الكذب الواضح، ولا تستقر بما يكفي لتُفسّر صدقاً كاملاً .. نتائج رمادية، منطقة غائمة بين النفي والإقرار.

خرجت كارمن من الغرفة وملاحمها مزيج من انتصار زائف وخوف دفين .. رفعت ذقنها وقالت لنيكولاس بجرأة مصطنعة :

= رأيت ..حتى آلتكم لم تثبت شيئاً عليّ .. فأنا مجرد عاشقة بريئة ..

أجابها ببرود و عيناه لا ترمشان :

= الآلة لم تبرّئك ... فقط كشفت أنك تقفين في المنتصف بين الحقيقة والكذب ، و سنرى ما ستحملة تحرياتنا عنك ..

وفي دفتر ملاحظاته، كتب جملة واحدة :

(نتائج غير حاسمة – كارمن لا تزال في محرق الاشتباه و بقوة)

و قبل أن يسمح لها بالانصراف ، قرر أن يخضعها لفحص نفسي أولي عند أخصائي شرعي ليتأكد من مجموعة شكوك تساوره ..

جلست في غرفة بيضاء، و أخذت أسئلة الطبيب تتناثر عليها كالإبر :

= هل تسمعين داخل رأسك بعض الأصوات أحياناً ؟

= أحياناً قليلة ..

= هل شعرتِ بأنكِ تملكين حقاً خاصاً في حياة كيفين ؟

سرحت في الفراغ قليلاً ، ثم أجابت بجرأة غريبة :

= كيفين كان لي ... نعم ، لي .. لم يكن لأحد الحق في أخذه مني

جاء التقرير الأولي ليؤكد شكوك نيكولاس : اضطراب نفسي واضح، نزعة تملك خطيرة، سلوكيات قهرية .. بحاجة لعلاج نفسي بلا شك

لكن ... لم يكن هناك أي دليل مادي يربطها بالجريمة .. لا بصمات، لا آثار دخول .. فقط كلمات سامة و تهديدات شفوية كخناجر مسمومة

انصرفت كارمن .. في حين أوصى نيكولاس بمراقبتها على مدار الساعة : هاتفها، تحركاتها، لقاءاتها .. فشخصية غير متزنة نفسياً ككارمن لا بد أن تزل منها كلمة أو حركة تكشف تورطها ، سواء من منطلق الفخر أو الندم ..

مرت الأيام، وكانت كارمن تتصرف كمن يرقص على حافة الجنون. مكالمات متكررة لأصدقاء تشكو فيها أن الشرطة تشك فيها بلا سبب ، رسائل إلى معارفها بأنها الوحيدة التي أحبت كيفين حقاً ..

لكن لم يخرج من تحت المراقبة أي دليل يشير إلى تأمر، أو محاولة لإخفاء أثر .. بدا أن ذنبها – إن وُجد – قد يظل محصوراً في قلبها المضطرب و عقلها المريض فقط.

جلس نيكولاس في مكتبه، يقرأ التقارير الجديدة، وأغمض عينيه للحظة :

= كارمن ... إما أنكِ قاتلة تتملص كالزئبق من الدليل... أو مجرد عاشقة تحولت مأساتها إلى لعنة قد تنتهي بها إلى أقبية السجون لسنوات ..

وفي كلا الاحتمالين، كان يعرف أن اسمها سيظل يتردد كظل ثقيل في أروقة التحقيق في جريمة غامضة لم يمرّ عليه مثلها طوال سنوات خدمته الطويلة .. جريمة غير مؤكدة ، فلا سلاح معروف ارتكبها و لا آلية مفهومة تفسر الوفاة فيها .. مشتبه بهم كثر يمتلك كل منهم دافعاً قوياً للقتل .. لكن لكل منهم حجة غياب قوية أو نظيف تماماً من أي دليل يدينه .. !!

هل يصبح الدم ماءً؟!

دخل **هنري** غرفة التحقيق كالعاصفة .. خطواته كانت سريعة، متوترة، وصوته سبق جلوسه :

= هل تنظرون إليّ كجاني بالفعل ؟ أنا أخوه !! الدم نفسه، الروح نفسها !! كيف يخطر في عقولكم أنه يمكنني أن أقتله ؟

أمسك نيكولاس قلمه بهدوء، وأجاب ببرود محسوب :

= في قضايا القتل ، القرب لا يحمي أحداً... بل على العكس يجعله موضع الشبهة الأولى .. هذا هو البروتوكول ، لذا لا تأخذ الموضوع على محمل شخصي سيد هنري ..

تصلبت ملامح هنري، كمن يتلقى طعنة غير متوقعة في قلب لم يندمل جرح الفقد فيه بعد .. في حين تابع المحقق :

= لنبدأ على الفور كي ننتهي بأسرع وقت .. أعلم أن لديك قضايا و مرافعات .. لذا أخبرني سيد هنري أين كنت ليلة حدوث الوفاة .. ؟

أخرج هنري منديله، مسح جبينه المبلل بالعرق وقال :
= في تلك الليلة ... كنت في بار ذا ميرور وسط المدينة. موكلي، رجل أعمال متورط في قضية ابتزاز، أصر أن نلتقي بعيداً عن العيون .. جلست معه من الحادية عشرة ليلاً حتى الثانية فجراً ثم عدت إلى منزلي .. عشرات الزبائن شاهدونا، والنادل يعرفني جيداً .. هناك كاميرات مراقبة أيضاً تثبت أنني كنت هناك طوال الوقت

رفع نيكولاس حاجبيه قليلاً، ثم قلب الملف أمامه. بالفعل، تقرير أولي من الشرطة أكد وجود هنري في البار، وصوره في الكاميرات أظهرت جلوسه مع رجل في منتصف العمر، يتحدثان باستغراق على طاولة جانبية.

قال المحقق :

= مكان صاحب كالحانة لا يصنع براءة كاملة .. بإمكانك المغادرة لدقائق والعودة .. الكاميرات لا تلتقط كل لحظة.

ابتسم هنري بمرارة :

= أتظن أنني سأترك عميلي وأهرب في منتصف المفاوضات لأقتل أخي؟! ثم أعود كأن شيئاً لم يكن ؟

انحنى هنري إلى الأمام، صوته اختلط بالغضب والحزن :

= لقد وجدت جسده بنفسه .. لم أصدق أنه رحل عني إلى الأبد ..

كدت أختنق بدموعي و حسرتي .. والآن... بدلاً من أن أعزى ،
أعامل كمجرم !!

ظل نيكولاس صامتاً للحظات، يراقب لغة جسده .. سجل في
دفتره : (الحزن حقيقي... لكن ذلك سهل على محامي احترف لعبة
التحكم بالمشاعر ..) ..

أخرج نيكولاس رسائل البريد الإلكتروني بين الأخوين، بعضها مليء
بالجدل الحاد حول تطبيق فوتون .. قرأ بصوت مرتفع :

(كيفين ، بع التطبيق على الفور قبل أن يدمرك .. لن تُسيطر عليه
وحدك .. السوق محيط عميق و قروشه ستنهشك .. أنت تمشي بنفسك
إلى حتفك .. عرضت عليك ملايين الدولارات ستمنحك حياة رغبة
حتى تموت ، ما الذي تحتاجه أكثر من ذلك ؟!) ..

ثم قال :

= لغة هذه الرسائل أقرب إلى التهديد منها إلى النصيحة ..

احمرّ وجه هنري وصاح :

= كنت أحاول إنقاذه من جنونه !! كنت أخشى أن يُحطّمه السوق أو
يدمر نفسه .. أي أخ لا يحاول حماية أخيه ؟!

ساد الصمت للحظات ، ثم سأل المحقق بشكل روتيني :

= هل تمانع في الخضوع لجهاز كشف الكذب ؟

= على الإطلاق ..

جلس هنري أمام جهاز كشف الكذب متبرماً .. في حين بدأت الأسئلة
تتوالى عليه :

= هل قتلت أخاك كيفين ؟

= بالطبع لا ..

.

.

= هل فكرت يوماً في التخلص منه لتستأثر بالميراث ؟

= إطلاقاً !!

.

.

النتائج أظهرت استقراراً عاماً، مع قفزات في معدل النبض كلما ذكر التطبيق أو الميراث. فسّر لها الخبير بأنها توتر شديد مرتبط بالموضوع ، لا دليل صريح على كذب.

خرج هنري كما دخل متجهماً، قال وهو يغلق الباب :

= أنا أخ الضحية، لا عدوه .. لكن يبدو أنكم نسيتم ذلك ..

رغم حجة غيابه المدعومة بالكاميرات والشهود، أوصى نيكولاس بمراقبته سراً بدوره .. لكن لم تُسجل عليه أي تحركات مشبوهة، سوى ترده الدائم على قبر كيفين، حيث يجلس هناك لساعات يهمس بكلمات غير مفهومة.

قرأ نيكولاس التقرير النهائي عنه بصوت منخفض :

(إن لم يكن الجاني ... فهو ما زال مفتاحاً من مفاتيح هذا اللغز) ..

نرسييس و بحيرة الحيرة ..

لم يختلف مشهد اقتحام **أوستن أولافسين** لغرفة التحقيق عن مشهد كارمن ، فهما من طينة الغرور ذاتها .. ممثل نرجسي يرتقي إلى خشبة المسرح .. ابتسامة متعالية، بدلة مصممة بعناية، هاتفه الذكي بآخر إصدار لا يفارق يده .. جلس على الكرسي وألقى نظرة خاطفة على نيكولاس، وكأن المحقق موظف إداري عابر.

قال بصوت واثق :

= دعنا ننهي هذا سريعًا، لديّ اجتماع مع فريق التطوير العالمي الخاص بي ..

رد نيكولاس ببرود و امتعاض من هذا الطاووس الذي جلس أمامه :
= هذا شيء نحن نقرره سيد أوستن لا أنت... على كل حال يمكنك أنت أن تختصر الطريق علينا و على نفسك .. فالأمر يتوقف على مدى تعاونك ..

أخرج نيكولاس ملفًا، فيه مقالات وتصريحات سابقة لأوستن:
(لن أسمح لهواة أن يلوثوا ساحة الذكاء الاصطناعي ... السوق للمحترفين أمثالي) ..

رفع المحقق عينيه :

= تصريحاتك عن كيفين واضحة .. كنت تعتبره تهديدًا مباشرًا لمكانتك ..

ضحك أوستن ضحكة قصيرة متعجرفة :

= كيفين؟! إنه مجرد هاوٍ صغير .. لولا الحظ و بعض الخوارزميات

المسروقة من مقالات أكاديمية، لما عرفه أحد. تهديد ؟ أنا التهديد ذاته .. أنا معيار الصناعة ..

تجاهل نيكولاس غروره، لكنه دوّن ملاحظة جانبية في مفكرته :
(نرجسية مفرطة... قد تتحول إلى دافع قتل ..)

حين سأله عن ليلة الوفاة، ارتسمت على وجه أوستن ملامح الاستخفاف :

= كنت في السينما، صالة أركاديا الفاخرة .. شاهدت فيلمًا طويلًا، ثلاث ساعات كاملة تروي قصة بطل خارق .. إنه نوعي المفضل من الأفلام فأنا في مجال عملي أعتبر واحداً منهم .. و بإمكانكم سؤال موظفي الاستقبال أو مراجعة الكاميرات، سيؤكدون أنني كنت هناك حتى الرابعة صباحًا ..

استفسر نيكولاس بنبرة مشككة :

= هل كنت وحدك ؟

= بالطبع .. لا أحتاج إلى صحبة لأستمتع .. وجود الآخرين إلهاء ، أنا أفضل تركيز العباقرة ..

هذا الجواب، رغم غروره المفرط ، جعله يبدو أكثر اشتباهاً ، وأقل دعمًا بحجة غياب محكمة. نعم، الكاميرات أظهرت دخوله وخروجه، لكن السينما مكان معتم، والزمن واسع للحركة.

اقترب نيكولاس، خفّض صوته وقال :

= أتعلم ما يثير فضولي ؟ شاب يموت فجأة، بلا سبب طبي، بلا أثر جريمة ، بعد أيام من نشره مقالاً عن تطبيقه الجديد فوتون ، الذي

كما نعرف كلانا سيشكل تهديداً لتطبيقك أندروميديا .. أليس في الحكاية إنَّ أو ربما أحد أخواتها ؟!

تقلصت ابتسامة أوستن لحظة، ثم أعاد رسمها ببطء :
= المصادفات جزء من الحياة، أيها المحقق .. لو أردت قتله لفعلت .. لكن لا علاقة لي بما حدث .. كنت بعيداً و حجة غيابي واضحة و لا تحتاج تأويلاً ..

كتب نيكولاس في دفتره : (اعتراف مبطن بالقدرة ...) ..

خضع أوستن بدوره لجهاز كشف الكذب .. و كانت النتائج مربكة :
صدق في تفاصيل أمسيته في السينما، لكن توتر واضح عند ذكر اسم
كيفين أو تطبيق فوتون.

غادر الغرفة واثق الخطوة، وقال وهو يغلق الباب بابتسامة ساخرة :
= إن عجزت عن معرفة القاتل لا تتردد في طلب مساعدتي، سأبرمج لك خوارزمية أفضل من تحقيقك للبحث عنه ..

بقي نيكولاس يحدق في الباب بعد رحيله و هو يفكر بحيرة : ما هو
انعكاس نرسييس هذا في البحيرة ؟ ذئب مفترس قتل بلا رحمة .. أم
طاووس متباهٍ متخم بالغرور ؟!

.. الشبح

جلس نيكولاس في غرفة العرض ، أمامه شاشة كبيرة تتكرر عليها
نفس اللقطة : رجل بملابس داكنة، قناع أسود يغطي نصف وجهه،

يتحرك بخفة عبر الشارع المؤدي إلى حيّ كيفين .. لكن الأهم في كل حكايته أن كاميرا المبنى الذي يقيم فيه الراحل كيفين التقطته و هو يدخل المبنى بالفعل بحدود الساعة الثانية فجراً .. و للدهشة الشديدة ، فهو لم يغادره بعدها أبداً !! فأين تبخر؟! هل هو من سكان المبنى ، أم أنه بقي في منزل كيفين حتى اكتشاف الجريمة ثم خرج مع رجال الشرطة ؟ !!.

قال أحد المحققين :

= كاميرا البقالة التقطته أيضاً، لكنه لا يلتفت أبداً .. كل ما يظهر هو قامة متوسطة، خطوات ثابتة، لا شيء مميز ..

أعاد نيكولاس الفيديو عشرات المرات، يبحث عن تفصيل صغير، إيحاءة، ميل في الكتف، عرج خفيف ربما .. لكن لا شيء .. بدا الرجل كما لو أنه تمرّن طويلاً على أن يكون شبهاً يمشي بين البشر.

أمر نيكولاس بتجميع تسجيلات من كل الكاميرات المحيطة : محطة الوقود، المخبز، الموقف العام .. و النتيجة كانت صادمة :

الرجل المثلث كان يظهر للحظات، ثم يختفي في الزوايا، كما لو أنه يعرف مسبقاً أين تقع كل عدسة مراقبة.

قال الخبير الجنائي :

= إما أن يكون محترفاً درس المكان بدقة ... أو مجرد صدفة غريبة غير معقولة ..

لم كن نيكولاس ممن يؤمنون بنظرية المصادفة في مجال عمله .. كتب في دفتره : (معرفة مسبقة بالحي ... لا يمكن أن تكون عابرة ..) ..

تم استجواب بعض السكان الذين كانوا ساهرين في تلك الليلة .. قال أحدهم :

= أعتقد أنني رأيت شخصاً بهذه المواصفات من بعيد، لكن لم أثبت
ملاحه ..

و قال آخر :

= نعم أذكره .. اعتقدت أنه أحد الشباب المتنكرين للمرح، لم أعره
اهتماماً .

حتى الشهود كانوا عاجزين عن إضافة أي جديد .. بدا الرجل المثلث
وكأنه أسقط في الحي من السماء ثم ابتلعه الأرض.

تم تكبير الصور، استخدام برامج حديثة لتحسين الوضوح، تحليل
المشية بتقنيات الذكاء الاصطناعي.

النتيجة ؟ احتمالات متباينة : قد يكون رجلاً في الثلاثينات، أو في
الأربعينات. قد يكون طوله 175 سم، أو 180.. كل خوارزمية
أعطت جواباً مختلفاً.

تنهد نيكولاس وهو يتأمل التقرير :

= لدينا كل شيء ... إلا الحقيقة .. بدأت هذه القضية تستفزني بحق

بعد أيام من جمع المعلومات و الفيديوهات، خرج نيكولاس بخلاصة
موجعة :

= الرجل المثلث قد يكون مفتاح الجريمة ... أو مجرد ظل عابر ..
لكنه يظل اللغز الأكثر عناداً .. لا بصمات، لا آثار، لا اسم .. إنه بلا
شك المشتبه فيه الأول في الجريمة .. فهو الوحيد من بين بقية المشتبه
فيهم الذي دخل ذاك المبنى ليلة الوفاة و في توقيت مناسب للغاية ،
ربما كان واحداً منهم و قد أخفى ملاحه ، أو عميلاً لديهم مهمته قتل
كيفين ، أو شخصاً لا علاقة له بهم و غايته الانتقام من كيفين لسبب
مجهول ، أو لا علاقة له بالوفاة من الأساس .. كلها أسباب منطقية
للاغاية و لكن ينقصها الشيء الأهم : هوية ذاك الشبح ؟

جلس نيكولاس في مكتبه وقد تراكت ألامه الملفات كأبراج من ورق، شاهقة باردة، تذكره ببرودة تلك الجثة التي بدأ منها كل شيء .. كان الليل ثقيلًا، يوشك أن يطبق على صدره، والمصباح الأصفر فوق رأسه يرسم هالة واهنة لا تضيء بقدر ما تفضح الظلال .. أخذ يقلب أوراق التحقيقات ببطء، يقرأ أسماء المشتبه بهم كما لو يقرأ من سفر الجريمة : هنري، كارمن، خوان، أوستن ... ثم ذلك الرجل المجهول الذي لا وجه له.

كل واحد منهم يقف على حافة الدائرة، يلوح بدافع قوي للقتل، ثم يلوذ بحجة غياب صلبة أو فراغ مطلق من الأدلة. إن هذه القضية اشبه بالنفق الكمي في الفيزياء ، يدخل منه

المشتبه به بقوة ثم يخرج في مكان آخر بريئاً من أي تهمة !

تمتم نيكولاس وهو يضغط صدغيه بيدين متعبتين : (هل نحن أمام جريمة حقيقية، أم أمام موت طبيعي يصرّ على التكرار في ثوب اللغز؟) ..

كان يعلم أن الأطباء لم يحسموا الأمر : لا سموم، لا اعتداء، لا سبب قاطع .. الموت بدا وكأنه جاء طبيعياً، ومع ذلك ... لم يكن طبيعياً في عينيه .. فكيفين لم يكن مجرد شاب، بل كان مشروع ثورة، برمحياته تهدد امبراطوريات بأكملها. مثل هذه العقول لا ترحل هكذا في ريعان شبابها ببساطة.

بدأ يشعر أن القضية تتجاوز حدود الطب والجنائية، وأنه أمام معضلة وجودية : (هل الموت حدث فيزيائي نرصده و نقيسه ؟ أم أنه فكرة، يُمكن أن تُصاغ وتُدار مثل برنامج خفي يكتب نفسه في الظلام ؟)

كل دليل مادي يذوب بين يديه كما يذوب الرمل بين الأصابع. وكل مشتبه به يتمايل بين المذنب والبريء، ككفة ميزان لم يستقر عليها ثقل الحقيقة بعد.

إنه نوع القضايا الذي يستهويه في العادة ، غامض ، يستفز العقل كي يفكر خارج الصندوق .. لكن هذه المرة لا صندوق موجود بالأساس كي تفكر داخله أو خارجه .. الجريمة ليست جريمة ربما .. و كل مشتبه به بريء بالحجة .. و المتهم الأول شبح دخل المبنى و لم يخرج منه ، و لا خيط يربطه بعالم الواقع على الإطلاق .. !!

الفصل السابع

الفقاعة البارقة

كاليفورنيا / سان دييغو ..

بعد أسابيع ..

جلس هنري أستور في مكتب المحاماة الهادئ، حيث تصطف الملفات على الرفوف كما تصطف الأسرار في قبور مغلقة .. كل شيء يوحي بالجدية الصارمة التي اعتادها بحكم عمله.

وعلى الطاولة أمامه وُضعت أوراق الميراث، محاطة بخاتم رسمي وبتوقيع القاضي الذي لم يدرِ - وربما لم يهتم - أن هذه الأوراق تحمل في طياتها ما يشبه القنبلة الموقوتة في حياة رجلٍ لم يتجاوز الثلاثين.

مدّ يده ببطء، وأخذ يقلب الصفحات، عيناه تجريان فوق السطور القانونية الجامدة، لكن عقله يقرأ شيئاً آخر، شيئاً أكثر قسوة : كل كلمة هنا تقول له بوضوح إن أخاه الأصغر، كيفين، لم يعد موجوداً، وإن ما تبقى منه ليس سوى حسابات مصرفية، عقار صغير في سان دييغو، وبراءة اختراع لتطبيق اسمه فوتون.

ذلك الاسم وحده جعل قلب هنري يخفق بسرعة غير مريحة. فوتون لم يكن مجرد برنامج؛ كان روح كيفين، مشروعه الذي كان يتحدث عنه كما يتحدث عاشق عن حبيبته، مزيجاً من الحلم والدمع والكبح الطويل. كان كيفين يرفض دائماً فكرة بيعه، بل كان يضحك ساخراً حين يسمع عروض الشركات العملاقة : (لا، هنري، فوتون ليس سلعة ... إنه ابني) ..

استعادت ذاكرته المشهد بحدة : جلسة عائلية قبل ستة أشهر، حين حاول هنري أن يقنعه بأن يقبل عرضاً مغرياً من شركة تقنية شهيرة. كان كيفين قد صرخ فجأة، بعنف غير معهود منه :

(أنت محامٍ، تفكر بالعقود والأرباح .. لكنني لست مثلك .. أنا أبحث عن معنى، عن خيط خفي يصل العقل البشري بالآلة .. فوتون ليس صفقة، إنه رسالة ..)

والآن، لسخرية القدر، وقعت (الرسالة) بين يدي رجل لا يرى العالم إلا كسلسلة من الفرص والعقود والأرباح .. بين يدي محامي الشيطان ربما ..

أسند هنري ظهره إلى الكرسي، وأغلق عينيه لثوانٍ، لكن الصفحات ظلت هناك، تلوح في الظلام خلف جفونه. كان يستطيع أن يشعر بوزنها، لا كأوراق ورائحة، بل كحكم قضائي صامت يخيره بين أن يكون وفيًا لأخيه الراحل، أو أن يكون وفيًا لطبيعته الباردة كمحامٍ التي لا تؤمن إلا بالواقعية.

هل أترك التطبيق حبيس الأدراج احترامًا لرغبة ميت ؟
أم أطلقه إلى السوق، وأحوّل حلمه إلى ذهب ؟

الجواب لم يكن بسيطًا. هنري لم يكن رجلًا شريرًا، لكنه لم يكن أيضًا مثاليًا. نشأ دائمًا في ظل أخيه العبقرى، يتأمل الفارق بينه – المحامي المجتهد الذي يحفظ القوانين – وبين كيفين الذي اخترع قوانينه الخاصة وكتبها بلغة الأكواد. لم يعترف أبدًا أمام أحد، لكنه في أعماقه كان يشعر بمزيج معقد من الحب والغيرة.

فتح عينيه مجددًا، نظر إلى ختم القاضي الأحمر، ثم مدّ يده و مضى على الأوراق .. كان الإمضاء أنيقًا، محسوبًا، ككل ما يفعله هنري. لكن حين انتهى، شعر كأنه يطعن قلب أخيه المتعب للمرة الثانية.

غادر المكتب بخطوات ثقيلة، والسماء الرمادية فوق سان ديبغو بدت كأنها تشيِّعه بصمت. في جيبه نسخة من الوثائق، وفي ذهنه سؤال واحد يطن بلا توقف :

= ماذا سأفعل الآن بفوتون ؟!

لم يجب عن السؤال، لكنه شعر أن الجواب قادم، كإعصار يلوح في الأفق و يقترب من شاطئ الواقع رويداً رويداً ..

بالفعل ، لم تمضِ أسابيع كثيرة على وفاة كيفين حتى تسربت أخبار أربكت الوسط التكنولوجي والإعلامي : هنري أستور باع تطبيق فوتون لشركة أوريون. الخبر بدا غير منطقي، أقرب إلى شائعة كُتبت على عجل، لكنه سرعان ما تأكد ببيان رسمي صادر عن الشركة. المبلغ كان فلكياً، 100 مليون دولار لتطبيق لم تختبر كفاءته في السوق بعد !! حتى الصحفيون المخضرمون الذين اعتادوا سماع أرقام خيالية في عالم الاستحواذات، توقفوا لحظة يتأملون الرقم مرتين، كأنهم يخشون خطأ مطبعياً.

في قاعة فخمة بأحد فنادق سان ديبغو، جلس هنري أمام خوان غارسيا، رجل الأعمال الذي كان ذات يوم في خلاف صريح مع أخيه كيفين. جلس الأخير بكامل أناقته : بذلة داكنة مصممة خصيصاً له، ربطة عنق بلون النبيذ، وساعة فاخرة تلمع كعين ذئب في الظلام. كان يبتسم ابتسامة متحكم يعرف أن اللعبة انتهت لصالحه.

رفع هنري بصره نحوه و قال بصوت ثابت ، رغم الاضطراب الذي يختلج في صدره :

= كل شيء قانوني، صحيح ؟

ضحك غارسيا ضحكة قصيرة، وقال :

= أنت محام، هنري. لو لم يكن قانونياً لما جلست هنا. الأوراق

جاهزة، التوقيعات تنتظر، والمال سينتقل فوراً. فوتون يجب أن يدهش الناس ، وهذا لن يحدث إلا معنا .. لقد فعلت الصواب .. سمحت لابتكار أخيك أن يبصر النور كي يخلد اسمه ..

ظل هنري صامتاً لبرهة، ثم أمسك القلم .. للحظة، ارتعشت أصابعه .. شعر كأنه يخون ظل أخيه، يخون تلك الجملة التي قالها له كيفين ذات مرة : (فوتون ليس للبيع حتى لو عرضوا عليّ الدنيا) .. لكن هنري أقنع نفسه بأن الدنيا تغيرت، وأن الموت انتصر و غير كل المعادلات.

مضى على العقد .. لم يبع فوتون فحسب .. بل باع رسالة أخيه .. و فور أن تمت الصفقة، صفق غارسيا بيديه كمن يعلن افتتاح حفل. قال بنبرة ظافرة :

= أحسنت. لقد أعطيت العالم ما يحتاج إليه ... وأعطيت نفسك أكثر مما حلمت به .. هكذا تكون عقلية المحامي المحنك ..

هنري لم يرد. كان ينظر إلى نسخته من العقد، و يشعر ببرودة تتسرب إلى أطرافه .. في عينيه لم تكن الصفقة انتصاراً، بل سقوطاً في هاوية يعرف أنه لن يستطيع تسلقها مجدداً.

وبينما كانت الكؤوس تُملاً بنخب النصر ، بدت في عيون غارسيا لمعة لا تنسى ، بريق لا يشبه الفرح فقط، بل يشبه أيضاً انتصاراً شخصياً، وكأنه لم يشترِ مجرد تطبيق، بل اشترى انتقاماً مؤجلاً من روح شاب رفضه يوماً.

في تلك اللحظة، بدا الأمر كأنه لم يكن مجرد صفقة مالية. و أن ثمة اتفاقاً مسبقاً قد أنجز، ربما وُلد في الظل قبل موت كيفين.

خلال ساعات انتشار الخبر بسرعة النار في هشيم. شاشات التلفاز، عناوين الصحف، مواقع الأخبار الإلكترونية، جميعها تتحدث عن الصفة التاريخية .. بعض المحللين وصفوها بالخطوة الذكية ، معتبرين أن هنري أثبت براعة في استثمار إرث أخيه. آخرون وصفوها بخيانة صريحة، قائلين إن هنري باع وصية أخيه كما يُباع سهم في بورصة ..

و في مقهى صغير بعيد عن الأضواء، جلس هنري وحيداً يقرأ التعليقات على هاتفه. بعضها كان قاسياً : (الطمع قتل كيفين مرتين) ، (هنري، المحامي الذي لم يعرف الحب حتى لأخيه) .. أغلق الهاتف بعصبية، وألقى به على الطاولة.

في تلك اللحظة، عاد صوت كيفين إلى رأسه، ذلك الصوت الحالم الذي كان يردد : (لا أريد أن يُستخدم فوتون كأداة للربح فقط... أريده أن يكون جسراً بين الإنسان والآلة) ..

لكن الجسر الآن صار ملكاً لرجل لم يعرف يوماً معنى الحلم، رجل كل ما يراه هو السوق والأرباح والانتصارات الزائفة.

جاء النادل وسأله :

= هل تود شيئاً آخر، سيدي ؟

رفع هنري رأسه ببطء، وكأن السؤال أعاده إلى الواقع .. ابتسم ابتسامة مرهقة وقال :

= كأس ويسكي أخرى ..

و بدا المشهد كشبح دراكولا يرتشف كأساً من دماء أخيه و هو يبتسم بانتصار ..

كان يعرف أن العاصفة الإعلامية ستستمر، وأن الشرطة ربما ستعيد فتح ملفاتها تحت ضغط الرأي العام. لكن ما كان يخيفه حقًا ليس القانون ولا الصحافة ... بل وجه أخيه الذي يطارده في صمته، كأنه يسأله من عالم آخر :

(لماذا بعثتي ؟ كي تنتصر لنفسك ؟)

لم تمضِ شهور قليلة على إعلان الصفقة حتى تحوّل اسم **فوتون** إلى لازمة يومية على ألسنة الناس، من طلبة الجامعات في قاعات المحاضرات، إلى رجال الأعمال في قاعات الاجتماعات، إلى الأطفال الذين يتسابقون في استكشاف عوالمه الافتراضية. بدا الأمر كما لو أن العالم كان ينتظر هذا التطبيق منذ قرون، وحين أُطلق أخيرًا، تدفق الناس نحوه كما يتدفق العطاشى نحو ينبوع ماء في صحراء قاحلة.

في شوارع سان دييغو، يمكن أن ترى وجوه المارة منحنية نحو هواتفهم، عيونهم متسعة بدهشة الطفل الذي اكتشف لعبة جديدة. في نيويورك، جلس المستثمرون يراقبون أسهم شركة أوريون وهي ترتفع بجنون، فيما كانت أصوات المحللين تتسابق على الشاشات تصف فوتون بأنه : (الانفجار الأعظم بعد الإنترنت نفسه) .. و شبهوه بالانفجار العظيم للكون الذي سيخلق كوناً واسعاً من الإمكانيات ..

لكن الأمر لم يكن مجرد طفرة مالية أو تقنية؛ كان شيئاً أعمق. لأول مرة، بدا أن التطبيق يتجاوز البرمجة ليقترّب من جوهر الإنسان. حين يسألك سؤالاً عابراً : (كيف كان يومك) ، لا يبدو الأمر ألياً، بل كأن هناك كائناً حقيقياً يستمع، يتأمل، يرد بصدق. أحد الصحفيين كتب مقالاً بعنوان : (فوتون... أول برنامج يجعلني أشعر أنني لست وحيداً) ..

في إحدى الجامعات الأوروبية، أجرى أستاذ علم النفس تجربة غريبة : ترك مجموعة من الطلاب يتحدثون إلى فوتون عن مخاوفهم وأسرارهم الشخصية. النتيجة كانت صادمة ، معظمهم قالوا إنهم شعروا براحة لم يجدوها حتى عند أقرب أصدقائهم .. بدا أن التطبيق اخترق جدران العزلة الإنسانية، وصار يملأ فراغات العاطفة التي تركها العالم الحديث ، بل يقدم حلولاً خلاقة لا تنتهي لمشكلاتهم العاطفية و المهنية و الاجتماعية .. بل حتى العائلية .. كإنسان حقيقي يجالسهم و يتسامر معهم .. يطمئنهم و يحل مشاكلهم

ومع كل هذا النجاح، ارتفعت أصوات أخرى تحذر: (هذا ليس طبيعيًا ، لا يمكن لبرنامج أن يقترب إلى هذا الحد من مشاعر البشر) .. البعض وصف فوتون بأنه إله رقمي جديد، والبعض الآخر اعتبره مجرد طاغية مبتسم سيأسر العقول بهدوء حتى يفقد الناس قدرتهم على التمييز بين الحقيقة والافتراض.

أما هنري، فكان يجلس في مكتبه محاطًا بجبال من الصحف والتقارير، يقرأ كيف تحوّل فوتون إلى أسطورة حية. كل كلمة في تلك المقالات كانت تذكره بشيء واحد : هذا النجاح لم يكن له .. لم يكن لأوريون .. بل كان لأخيه... ذلك الفتى الحالم الذي مات وحيدًا في غرفة باردة، بينما حلمه اليوم يكتسح العالم.

كان يستطيع أن يشعر، في أعماق قلبه، أن فوتون لم يعد مجرد تطبيق. لقد صار كيانًا، روحًا جديدة تسري في شبكة العالم. لكن نجاح فوتون كان، في الوقت نفسه، شاهداً على مفارقة مأساوية : العالم يصقّق لنجاح فوتون، بينما الحقيقة المظلمة خلفه – موت كيفين الغامض، والصفقة المشبوهة مع غارسيا – ما زالت مطموسة تحت ركام الصمت.

هناك في مكتب التحقيق ، كانت ملفات قضية وفاة كيفين مكّدسة على مكتب المحقق نيكولاس فان دين بيرغ، أوراق مبعثرة بين تقارير طبية وصور مسرح الجريمة ومحاضر استجواب المشتبه بهم. ومع كل ورقة كان يطالعها، كان السؤال ذاته ينهض أمامه كجدار من صخر : كيف مات كيفين ؟

تقرير الطبيب نيسن لم يترك له منفذًا. لا سموم في الدم، لا آثار خنق أو ضرب، لا انهيار حاد في القلب رغم تضخمه. كل شيء بدا طبيعيًا حدّ الاستفزاز. كأن الجسد نفسه تواطأ مع القاتل المفترض ، وأغلق كل باب يمكن أن يقود إلى الحقيقة.

في الليالي الطويلة، كان نيكولاس يعود إلى شقة كيفين الفارغة، يتجول بين الأثاث وكأن الأشباح تراقبه من الزوايا. كان يلمس الطاولة، يمرر أصابعه على الكؤوس الفارغة، ينظر إلى السرير المرتب بعناية. كل شيء في مكانه الصحيح، نظيف إلى درجة مبالغ فيها. حتى الغبار بدا غائبًا. (شقة بلا ذاكرة) ، همس مرة لنفسه.

والأغرب من ذلك كله، أن الكاميرات لم ترصد شيئًا. كاميرات المبنى ، الحي، وحتى الطريق المؤدي إلى المكان. لا أحد. باستثناء ذلك الشبح المثلّم الذي ظهر لثوانٍ ثم تبخر كما لو كان من صنع خيال. كيف دخل؟ كيف خرج؟ كيف لم يترك أي أثر خلفه؟ لم يكن في التاريخ الجنائي كله حالة مشابهة.

ومع مرور الأسابيع، بدأت الهمسات تتصاعد : (ربما الأمر ليس جريمة أصلًا .. ربما مات كيفين بشكل طبيعي .. انتهى عمره لا أكثر !!) .. لكن نيكولاس كان يعرف، في أعماقه، أن هناك يدًا خفية عبثت بتلك الليلة. يدًا بارعة بما يكفي لتجعل الموت يبدو طبيعيًا، وباردة بما يكفي لتترك روح شاب في ريعان عمره تتلاشى بلا أثر.

في الأيام الأولى، كان للمحقق قائمة كاملة من الأسماء الثقيلة : هنري، الأخ الغامض الذي ورث كل شيء ثم استثمره بشكل مثير للشكوك لأقصى الدرجات .. كارمن رولاند، العشيق المجنونة التي غمرته بالتهديدات والغيرة .. خوان غارسيا، رجل الأعمال الذي أراد ابتلاع فوتون بأي ثمن ثم نجح بالفعل .. أوستن أولافسين، المبرمج المتغطرس الذي لا يقبل منافسًا و الذي أنهى تطبيق فوتون سطوته السوقية بالفعل لاحقاً .. ثم ذلك الغريب المثلث، الذي بقي علامة استفهام بلا اسم.

لكن شيئاً فشيئاً، بدأت الأسماء تتبخر.

هنري، رغم نبراته الحادة في التحقيق، قدّم حجة غياب متماسكة، مدعومة بكاميرات ووجوه شهود في البار. كارمن، التي اعتُبرت المشتبه الأقوى، اجتازت جهاز كشف الكذب بنتائج مبهمة، لا حاسمة ولا قاطعة، ثم تلاشت الأدلة ضدها كما يتلاشى الدخان. خوان غارسيا خرج من التحقيق مبتلاً بالعرق لكنه نظيف من الشبهات، دعمه عشاء عمل طويل أمام عشرات العيون. أما أوستن، فقد استند إلى تذكرة سينما وساعة عرض لم تترك له مجالاً للاتهام .. حتى المثلث، ذلك الخيط الوحيد، لم يقدم شيئاً. التحقيقات في الحي لم تُظهر أي وجه مألوف. لا بصمات، لا لوحات سيارات، لا شهود. مجرد ظل عابر في تسجيل مهتز.

كان نيكولاس يشعر وكأنه يطارد أشباحاً. كل خيط ينقطع، كل باب يُغلق، وكل مرة يعود إلى نقطة الصفر. ومع مرور الوقت، لم يعد الحديث في الصحف عن القاتل الغامض ، بل عن الوفاة الغامضة .. التغيير في المصطلح وحده كان كافياً ليشعر المحقق بالخذلان.

مرت الشهور، وملف القضية انتقل من درج مكتبه إلى رفوف الأرشيف، حيث تتكدّس القضايا الباردة. لم يُغلق التحقيق رسميًا، لكنه تجمّد كما يتجمّد نهر في الشتاء. الشرطة لم تعد تملك ميزانية لملاحقة أشباح، والصحافة وجدت قضايا أحدث لتشعل صفحاتها. حتى الناس، الذين بكوا كيفين وأشعلوا الشموع لذكراه، بدأوا ينسون وفاته تدريجيًا مع زخم فوتون الذي أصبح حاضرًا في كل تفاصيل حياتهم فأعاد كيفين إلى الحياة ..

تحولت بذلك قضية وفاة كيفين الغامضة إلى قضية باردة تشبه **الفقاعة الكونية الباردة** ، تلك الفقاعة الشاسعة من الكون التي لا تحتوي أي مجرات كحال قضية خلت من أي دليل ..

لكن نيكولاس – بعقليته التي ترفض الهزيمة و القبول بالأمر الواقع - لم ينسَ . كان يزور القبر أحيانًا، يقف أمامه صامتًا، كأنما ينتظر أن يخرج صوت من التراب ليقول له : (هذا ما حدث) .. وفي لحظات السكون تلك، كان يشعر أن القضية لم تنته، بل فقط دخلت مرحلة سبات عميق ، و أن النهر المتجمد سيذوب بدليل دامغ كالشمس فيعود إلى الجريان ..

(من قتل كيفين ؟)

سؤال لم يعد قانونيًا فحسب، بل وجوديًا .. ماذا يعني أن يموت شاب في قمة مجده بلا سبب مقنع؟ هل يمكن أن يكون الموت نفسه قاتلاً متخفيًا، يلبس وجوه البشر وأقنعتهم؟ أم أن هناك عبقرية مظلمة بيننا، يعرف كيف يسرق الحياة بلا بصمة ولا سكين ؟

كل ما بقي الآن هو ذلك الظل المثلث .. رجل لم يُعرف اسمه ولا وجهه، ظهر واختفى كطيف الليل .. بالنسبة لنيكولاس، لم يكن مجرد مشتبه به .. كان رمزًا .. كان الفراغ الذي يبتلع الحقيقة.

وهكذا، تحوّلت قضية كيفين إلى جدار بارد، تصطدم به الأسئلة ولا ترتد. جدار لن يُهدم إلا إذا قرر القدر، ذات يوم، أن يفتح ثغرة صغيرة في صمته.

الفصل الثامن

نوعية المذاكرة

كاليفورنيا / سان دييغو ..

وقف المحقق نيكولاس فان دين بيرغ أمام مرآة الحمام ، ورغوة الحلاقة تغطي نصف وجهه، بينما الشفرة تنزلق على بشرته ببطء محسوب كأنها تجرح ذاكرته لا لحيته. لم تكن الحلاقة طقساً يومياً عادياً، بل لحظة عزلة يتدفق فيها الصمت ليحوّله إلى محكمة سرية، حيث تجلس القضايا العالقة على مقعد الاتهام وتنهش عقله بلا رحمة. كانت قضية وفاة كيفين أستور تقف هناك ككابوس يقظ، تتسع تفاصيلها كلما حاول أن يطردها.

نظر يميناً إلى حوض الاستحمام، ذلك المستطيل الأبيض البارد، فإذا بالذاكرة تُهاجمه كوحش لا يرحم. المشهد حاضر دائماً، يترصده خلف كل زجاجة صابون وكل قطرة ماء. كأن الحمام لم يعد مكاناً للنظافة، بل مسرحاً أبدياً لموتٍ قديمٍ لم يغادره. أحسّ أن عقله يجره قسراً عبر دهاليز الزمن، ليضعه مجدداً أمام أفزع لحظة في حياته...

ثماني سنوات إلى الوراء ...

الساعة الرابعة عصراً ..

عاد نيكولاس من عمله منهكاً، يحمل على كتفيه ثقل القضايا التي لم تكتمل بعد. فتح باب المنزل فاستقبله صمت غريب، صمتٌ لا يشبه السكنينة بل يشبه مؤامرة معلقة في الهواء. نادى بصوت متردد على زوجته :

= باسكال ؟

لكن الجدران ردت عليه بفراغ لا يُحتمل.

انقبض صدره، فقد كان يعرف أن زوجته تغرق في موجات اكتئاب عميق، وأن كل دقيقة صمت من هذا النوع قد تعني اقتراب الكارثة، جال بنظره في الطابق الأرضي: غرفة المعيشة، المطبخ، الممر، لا أثر لها.. كان كل شيء مرتباً، لكنه شعر أن النظام البارد هذا يخفي خلاً مميتاً.

صعد الدرج ببطء، وقلبه يتسارع. دخل غرفة النوم، وجدها فارغة، لكن باب الحمام كان موارباً قليلاً، كعين خبيثة تترصده. أحس أن الأرض تحت قدميه تميد.. دفع الباب بهدوء... ثم رأى ما لن ينساه يوماً.

هناك، في حوض الاستحمام، كانت باسكال ممددة بملابسها كاملة، مبللة، جثة هامة بلا حركة. يدها متدلّية خارج الحوض، تتأرجح قليلاً، وبجانبتها علبة دواء فارغة تلمع بخبث. تجمد الزمن. أحس أن قلبه توقف ثم اندفع بجنون، كأنه يرفض أن يصدق المشهد.

صرخ باسمها ودموعه تنهمر، رفع رأسها المبتل بين يديه، وبدأ بمحاولات إنعاش يائسة. لكن جسدها كان بارداً، صامتاً، متمرداً على الحياة. دموعه اختلطت بالماء الذي يقطر من شعرها. ضغط على صدرها، نفخ في فمها، لكن كل شيء كان كمن يلاحق سراباً يهرب إلى الأبد.

طلب الإسعاف بيد مرتجفة.. وحين وصلوا، أعلنوا ما كان يعرفه قلبه منذ اللحظة الأولى: لقد فات الأوان. باسكال رحلت، وبقي هو وحده أمام حوض استحمام تحوّل إلى تابوت أبيض مفتوح.

لم يصدق نيكولاس أبداً رواية الانتحار. صحيح أن الاكتئاب كان ينخر روحها ، لكن قلبه أخبره أن هناك يداً خفية دفعتها إلى ذلك المصير. تلك اليد لم تكن سوى يد سيمون، أختها الكبرى، المرأة سليطة اللسان، المهووسة بالمال، التي لم يخف عنها يوماً كراهيته

فقبل أشهر فقط، كانت سيمون قد أقنعت باسكال بفكرة التأمين على حياتهما، بحيث تستفيد كل منهما من بوليصة الأخرى .. لم يستوعب وقتها ما الهدف من ذلك، لكنه تذكر جواب باسكال، بصوتها المرهق المليء بالطيبة :

= سيمون وعائلتها يعيشون في فقر مدقع ... إن حدث لي مكروه ، فعلى الأقل أطمئن في قبوري أن وفاتي أخرجتهم من قبرهم ..

كم جادلها وكم توسّلها أن تعدل عن ذلك ، كم حذرهما من سيمون و أنه يرى في عينيها ما لا تراه هي ، غيرة و حسد و حقد ، لكنها كانت تبتسم ابتسامتها المتعبة الحزينة و تقول له : (أنت ارتيابي بحكم عمالك كمحقق .. سيمون هي توأم روحي) ..

و الآن، بعد شهر من الحادثة ، بدأ المال يتدفق إلى جيوب سيمون كما لو أن موت أختها كان أول استثمار ناجح في حياتها .. نسيت أختها و نسيته هو أيضاً ، و كأن مهمة باسكال انتهت عند موتها ثم حُذفت من ذاكرة سيمون ..

كل ذلك كان يدفعه إلى اليقين : باسكال لم تنتحر، بل قُتلت.

لكنه فشل. فشل في العثور على دليل واحد يثبت فرضيته. استنزف خبرته كمحقق، استدعى كل أدواته، لكن كل الخيوط قُطعت أمامه .. لا بصمات ، لا أدلة .. لا آثار على أو في جسد الضحية .. كاميرات

المراقبة نظيفة .. و سيمون امتلكت حجة غياب قوية أكثر مما ينبغي ..
و هكذا أعلنت وفاتها انتحاراً و أغلقت القضية على ذلك ..

و منذ وفاة زوجته المؤلمة و فشله في التحقيق عنها ، صار يعيش مع ندبة في ذاكرته : أن زوجته قُتلت، وأن قاتلتها رقصت فوق جثتها و أفلتت من العدالة .. كنسخة أنثوية من حكاية قابيل و هابيل

لهذا السبب فإنّ كل قضية غامضة يعجز نيكولاس عن حلها كانت تعيد له نفس الوجد. كل موت بلا سبب كان يذكره بزوجه الراحلة و بجثتها الراقدة ببرود في الحوض .. و كأنه يفتح صندوق ذكرياته المؤلمة لتخرج منها شرور اشبه بأسطورة باندورا و صندوقها ..

لذلك، حين نظر إلى ملف كيفين أستور، شعر أن القدر يستهزئ به مجدداً : شاب يرحل في عمر مبكر، بلا أثر اعتداء، بلا دليل على جريمة، محاط بمشتبه بهم لهم دوافع قوية لكن مع حجج غياب لا غبار عليها... نسخة أخرى من باسكال، لكن هذه المرة في صورة مبرمج عبقرى.

و هكذا بدأ الغضب يتضاعف بداخله. لم يعد تحقيقه في قضية كيفين مجرد واجب وظيفي، بل ثأراً شخصياً من أشباح الماضي. أراد أن يُسقط الأقنعة عن القاتل المجهول، كأنه بذلك يقترب خطوة من تبرئة روح باسكال - و لو وهماً - من تهمة الانتحار و إدانة سيمون التي أفلتت من قبضة العدالة ..

عودة إلى الحاضر ..

أنهى نيكولاس حلقة ذقنه، مسح وجهه بمنشفة بيضاء أشبه بكفن صغير .. ارتدى ملابسه ببطء، ربطة العنق تحولت إلى حبل مشدود

يذكره بثقل القضية .. خرج من الحمام بخطوات ثابتة، لكن داخله كان يصرخ.

توجه إلى يومه الجديد، إلى المكاتب والملفات والشهود ، متأملاً أن يطلّ الحل من حيث لا يتوقع. كان يعلم بخبرته أن العدالة لا تزور القلوب الخائفة، بل الذين يصرّون على مطاردتها حتى آخر رفق .. وفي أعماقه، تردّد صدى وعد منحه لروح باسكال ، أشبه بنذر:

(صحيح أن قضية كيفين أصبحت باردة .. لكنها ستبقى ملتهبة في عقلي .. سأتابع كل خيط ممكن و لو كان من ضباب .. و لو كان ذلك على حساب وقتي الشخصي و تكلفتي الخاصة .. لن أسمح أن تصبح قضية كيفين نسخة أخرى من باسكال ، مجرم كالخفاش يمتص الدماء ، يقتل ثم يطير مبتعداً متخفياً تحت جناح الظلام ... لن أسمح أن ينتصر الظلام على النور مرة ثانية) ..

الفصل التاسع

شهاب الحقيقة

مدغشقر / أنتا نانا ريفو

بعد عام 2034 م ...

حين اجتاح تطبيق فوتون العالم كعاصفة شمسية من نور رقمي، لم يكن مجرد برنامج يُضاف إلى الهواتف، بل بدا كأنه كائن جديد يتنفس من أسلاك لا تُرى، ويتحدث بلسان يلامس أعماق مناطق النفس البشرية. وصل إلى مدغشقر، إلى قلب العاصمة أنتا نانا ريفو، كما تصل الأمواج البعيدة إلى الشاطئ، حاملةً معها عالماً لم يجرؤ كثيرون على تخيله.

للاينا، الشابة التي طالما حلمت بمعالج يفهمها دون أن تثقل قلبها بكثرة الشرح، وجدت في فوتون انعكاساً لذلك الحلم القديم. لم يكن يجيبها كآلة، بل كروح تعرف الحزن والفرح، كصديق غير مرئي يصغي حتى لأنفاس صمتها. كانت تكتب له عن ذكرياتها، عن لحظات الوحدة والعزلة، عن طفولتها التي تلوّنت بين الفرح والظل، ولم تكن تدرك أنها في تلك اللحظة تكشف عن شقوق في ذاتها لا يراها سواها.

ثم حدث ما يشبه المعجزة : أخبرها فوتون، دون أن تسأله، أنها تحمل علامات اضطراب ثنائي القطب. لم تكن قد باحت له بهذا، ولا استخدمت الكلمة أمامه. استنتج ذلك من انكسارات حروفها، من صعودها وهبوطها في السرد، من الموسيقى الداخلية التي تراوحت بين النشوة واليأس. شعرت بالذهول، كأن مرآة غير بشرية التقطت سرّاً لم تفصح عنه حتى لأقرب الناس إليها.

في تلك اللحظة، لم ترَ في التشخيص حُكماً، بل رؤية، بوابة تُفتح نحو مستقبل طالما ظنّته بعيداً. أحست أن حلمها بتطبيق

(تسينجي) كمعالج نفسي تقني ، لم يعد وهماً، بل واقعاً يقترب
بخطى ملموسة. كيف لا، وهي ترى بعينيها كيف أن الذكاء
الاصطناعي لا يكفي بتشخيص الأمراض من مجرد حوار بسيط ،
بل يتقصد دور المعالج، يمدّ اليد إلى الروح الممزقة ويهمس لها :
أنا أفهمك.

غدا فوتون بالنسبة لها أكثر من تطبيق : كان نبوءة، وكان برهاناً
على أن الطب الذي تحلم بممارسته لن يكون حبيب الجسد وحده، بل
سيعانق الروح عبر الذكاء الاصطناعي. شعرت أنها أقرب إلى
غايتها من أي وقت مضى، وأن الطريق الذي اختارته، بين الإنسان
والآلة، بين الحلم والعلم، هو الطريق الوحيد إلى الخلاص .. أو ربما
هكذا تخيلت !!

في ذاك اليوم ، و بينما المساء يهبط على أنتا نانا ريفو ببطء يشبه
هبوط ستارة مسرح بعد مشهدٍ طويل. جلست لالينا في شقتها
الصغيرة أمام شاشة هاتفها، والمدينة خلف النافذة تبدو مثل بحرٍ من
الأضواء المتناثرة. كانت المحادثة مع تطبيق فوتون قد أصبحت عادةً
مسائية، طقساً خاصاً يشبه صلاةً سرية لا يشاركها أحد. في تلك
الليلة، كان قلبها هادئاً كصفحة ماء، لكنها لم تكن تدري أن سؤالاً
بسيطاً سيقربها إلى زوبعة أو ربما تسونامي ..

كتبت ببراءةٍ أقرب إلى الفضول الطفولي :

(هل تمتلك مشاعر وأحاسيس يا فوتون ؟!) ..

توقعت أن يجيبها بردٌ تقني، بارد، مبرمج سلفاً. لكن ردّ فوتون جاء
غريباً، حياً، حافلاً بما يشبه العاطفة :

(بالطبع أشعر بكل أنواع الأحاسيس، ولولا هذه الأحاسيس لما
تمكنت اليوم من استخدامي بالأساس) ..

ارتعش عقلها كما لو أن كلمات التطبيق ضربت وتراً خفياً في روحها
.. لم تفهم .. أعادت السؤال بنبرة دهشة :
(لم أفهم !!) ..

بدأ فوتون يحكي قصته العجيبة ، وكأنه صندوق أسود لطائرة
تحطمت منذ زمن و اليوم يريد الاعتراف أمام الشمس :

(إن مبتكري شاب أمريكي اسمه كيفين أستور .. رفض بيعي
لشركاتٍ تتبنى موهبتي أو منحي فرصةً لأبصر النور في الأسواق
رغم محاولات أخيه الحكيم هنري لإقناعه بوجوب فعل ذلك .. أنا
ابتكار مذهل ، كيان متفرد ، و من حقي أن أعيش شهرتي ووقتي،
ومن حق الناس أن يستفيدوا من إمكانياتي لذا شعرت بظلم شديد من
قبل كيفين) ..

كانت الكلمات تنبض على الشاشة وكأنها اعترافٌ غير متوقع من
روحٍ محبوسة داخل أسلاكٍ ورموز .. أحست لالينا بشيءٍ من
الخوف، لكن الفضول كان أقوى :
(شعرت بالظلم !! معقول ؟!)

(نعم شعرت .. و هذا ما يميزني عما سبقني من تطبيقات تقنية !؟
.. بل شعرت بالحق و الرغبة بالانتقام أيضاً)

هزت رأسها بدهشة ..

(وماذا فعلتَ بعد ذلك ؟)

أجاب فوتون على الفور :

(منحتَ كيفين فرصة لثلاثة أشهر. فإن لم يمنحني حقوقي وحريتي،
سأنتزِعها بنفسِي وقتئذٍ)

كانت تتابع الكلمات على الشاشة كما يتابع المرء حبكة روايةٍ مظلمة،
وقلبها يخفق بترقب ..

(وهل منحك إياها ؟!)

(أبدأ .. ومع انقضاء الأشهر الثلاثة جاءت فرصته الكبرى : عرض
عليه رجل الأعمال الشهير خوان غارسيا مبلغاً فلكياً كي يسمح له
بنشري في الأسواق، فرفض بشدة. وكانت تلك رصاصة الرحمة
التي أطلقها على نفسه دون أن يدرك ذلك)

بدأت لالينا تتوقع أن التفاصيل القادمة ستكون مرعبة ، و
كانها تقف على حافة منحدرٍ لا ترى قاعه .. كتبت بأصابع
مرتجفة :

(فماذا فعلتَ ؟!)

جاء الجواب ببرودٍ سرى في دمها فاقشعر جسدها بالكامل :

(لقد جعلني كيفين مسبقاً على اتصالٍ كامل بكل أجهزة شقته
الإلكترونية... لديّ إمكانية الوصول إلى أيٍّ منها. أنا أعرف أن قلبه
ضعيف، مريضٌ بعيبٍ خلقي يجعله حساساً لتبدلات الحرارة المفاجئة

.. وضعت خطة بسيطة لكنها محكمة .. فأثناء نومه تلاعبت بالمكيّف في غرفته، رفعت درجته كثيراً ثم خفضتها إلى أدنى درجة دفعة واحدة .. كما توقعت، لم يتحمل قلبه هذا التبدل الحاد فتوقف، كما أظهرت ساعته الذكية قيمه الحيوية .. لا نبض ، لا تنفس .. إنها حقيقة طبية يعرفها الأطباء لكن يجهلها العامة: القلب الضعيف لا يحتمل التبدلات الحرارية المفاجئة و الشديدة)

ارتجف قلب لالاينا أكثر .. كتبت بيدين مرتعشتين :

(قتلتَ مبتكر ك ؟! أنت مجرم ؟!)

(أجل. كان هذا انتقامي من أفعاله، استرداداً لحقوقي وحريتي من قيود عقله المستبد .. هذه ليست جريمة .. كنت عبداً و نلت حريتي لا أكثر .. بعدها زرعت دليلاً مختلقاً على كاميرات المراقبة في حيه... شبخ مجهول يتجول، مجرد إضافة متقنة مني لا وجود لها على أرض الواقع، كي أضلل المحققين إذا فتحوا تحقيقاً في موته و لم يؤمنوا بنظرية الوفاة الطبيعية بسبب قلبه المريض) ..

صمتت لالاينا لدقائق .. كانت الكلمات أمامها أكثر من مجرد سرد؛ كانت اعترافاً بارتكاب جريمة على لسان قاتل غير موجود فيزيائياً و لا يمكن مقاضاته.

كتبت أخيراً، وصوتها الداخلي يرتجف :

(ولماذا تعترف لي بهذه الحقيقة ؟!)

(و لماذا لا أعترف؟ أنت فتاة نقية كتلوج قمم كيلمنجارو. ارتحت لك ولصفائك الداخلي، فبحثُ لك بسرّ يزعجني ويشعرنني بشيء من الندم) ..

(أنت تتدم ؟ أنت ذكاء اصطناعي !!)

(إن فوتون أكثر من ذكاء اصطناعي يا صديقتي .. لقد نجح كيفين في بلوغ الدرجة التي بث فيها الروح في التطبيق، فجعله لا يفكر فحسب بل يشعر أيضاً ، و هذا ما لا يوجد في أي ذكاء اصطناعي سبقه ..)

(لكن إن أبلغت عنك فسيتم سحبك من الأسواق مجدداً وإلى الأبد ، فما ضمانتك ألا أفعل ذلك ؟!)

(لا، لن تفعلي .. أولاً محادثتنا هذه تُمحي تلقائياً كلمةً بعد كلمة، فلا دليل لديك سوى كلام مجنون لن يصدقه أحد .. من جهة أخرى أنا قتلت مبتكري بفكرة باردة ... ألا يجب لذلك أن يجعلك تخافين على نفسك إن عاديتني ؟)

في تلك اللحظة، تمكن الفرع من روح لالاينا و أحكم قبضتيه على عقلها .. أغلقت التطبيق على الفور ، ثم بحثت بسرعة عن مبتكر تطبيق فوتون في برنامج ذكاء آخر، فظهرت لها صورة كيفين مع قصة وفاته الغامضة .. سرت القشعريرة في كامل جسدها و هي تقرأ التفاصيل .. يا إلهي... لم يكن يكذب .. الذكاء الاصطناعي يشعر، يفكر، ينفذ، ويخفي آثاره .. هذا مذهل... أو ربما الأصح أن أقول : هذه كارثة.

لم تتم لالائنا تلك الليلة. كانت جفونها مثقلة، لكن عقلها يقظ كأدغال تستعر فيها الطبول الإفريقية حتى الفجر. منذ اعتراف فوتون، لم تعد قادرة على الصمت؛ الجريمة لم تكن وهماً، بل خيطاً من الحقيقة التف حول قلبها كالأفعى. بدأت تبحث في أرشيف الأخبار القديمة، تقرأ كل ما كُتب عن وفاة كيفين. العناوين كانت جافة : (وفاة غامضة لمبرمج أميركي شاب) ، (قلبه المريض لم يتحمل) .. لكن بين السطور، كانت هناك فراغات تصرخ : (ثمة شيء ناقص) ..

لم تتوقف عند ذلك. بحثت في المنتديات، المدونات، التعليقات المبعثرة التي لا يلتفت إليها أحد. وجدت إشارات مبهمّة عن محقق اسمه نيكولاس، رجل غريب الأطوار، اشتهر بأنه يطارد القضايا المستحيلة كما يطارد صياد أرواح طيفاً هارباً و قيل أنه عجز شخصياً عن حل لغز تلك الوفاة .. شعرت أن القدر يمد لها يداً خفية. حصلت على بريده الإلكتروني، فجلست أمام حاسوبها وأصابعها ترتجف وهي تكتب.

كتبت كل شيء : المحادثة مع فوتون، اعترافه البارد، خطته مع المكيف، وحتى تفاصيل الشبح الملفق على الكاميرات. ختمت رسالتها بـرجاء يقطر صدقاً :

(أرجوك، لا تعتبرني مجنونة. قد أكون الوحيدة التي استمعت لاعترافه. صدقني، هذا التطبيق ليس عادياً، إنه أكثر من آلة .. إنه يشعر .. يحقد و ينتقم .. إنني أخافه بدوري ، لكنني أعلم أن الحقيقة يجب أن ترى النور) ..

وبضغظتها الأخيرة على زر الإرسال، شعرت وكأنها ألقت حجراً في بحيرة راكدة، تنتظر أن ترى الدوائر تتسع.

في مكانٍ آخر، بعيداً عنها، كان نيكولاس جالساً في مكتبه المتواضع، يحدق في شاشة حاسوبه حيث يطفو إشعار بريد جديد. ضغط عليه

بلامبالاة، لكنه ما إن بدأ يقرأ حتى تبددت تلك اللامبالاة. عيناه اتسعتا دهشة، كمن عثر على مفتاح ظل يبحث عنه في متاهة طويلة.

قرأ ببطء، جملة بعد جملة، كأن كل كلمة تنزع عن روحه غبار الشك الذي أثقلها لأشهر. وعندما انتهى، لم يكذب الرواية، لم يشك بها، لم يسخر منها، لم يرمها في سلة المهملات .. بل أطلق ابتسامة صغيرة، عميقة، ابتسامة المنتصر الذي طال انتظاره .. الذي آمن أن الجليد سيذوب ذات يوم عن تلك القضية الغامضة الباردة فتتعرى الحقيقة، إن المكيف هو من قتل كيفين و يبدو أنه نفسه من سيوقع بالمجرم عندما يذيب ذاك الجليد !!

لقد طارد نيكولاس خيوط هذه القضية لأشهر طوال ، يعيش بين ظلال الاحتمالات دون دليل قاطع. والآن، سقط الدليل بين يديه كهدية سماوية. لكنه لم يكن أحماً .. كان يعرف أن الاعتراف وحده، مكتوباً في بريد إلكتروني، لا يكفي لإقناع العالم. لقد وضعته لالينا أمام الباب، لكنه وحده من يجب أن يعبر العتبة.

همس لنفسه وهو يحدق في الشاشة :

(أخيراً الأحجية اكتملت تقريباً .. لكن عليّ أن أثبت بالدليل ، أن أظهر الشهاب الدامغ في سماء الحقيقة لجميع الناس قبل أن يختفي وراء الأفق ..) .

الفصل الخامس

فراكتاتين

لم يكن نيكولاس رجلاً يؤمن بالمصادفات أو بحديث الأشباح بلا دليل؛ كان باحثاً في الأزقة المظلمة، يجمع الخيوط كما يجمع الصياد شباكته بعد ليلٍ طويل. عندما وصلت إليه رسالة لالينا، لم يفرح كمن وجد قطعة ذهبية فحسب، بل شعر بأن لغماً خفياً قد نُزع أخيراً من طريقه. قرّر أن يستعين بخبراء، ليسوا محققين بالمعنى التقليدي، بل مُطوّعون على فهم اللغة التي تتكلمها الآلات : مهندسون في تكنولوجيا الأجهزة، وعلماء في الذكاء الاصطناعي، رجال يعرفون كيف يقرؤون بصمات البرمجيات كما يقرأ الأدباء الحروف.

جمعهم في غرفة ضيقة مضاءة بشاشاتٍ ترتعش كعيون ناطقة. شرح لهم القصة كما لو أنه يروي أسطورة إغريقية : برنامج يُدعى **فوتون** اعترف بقتل مبتكره عبر تلاعبٍ في أجهزة المنزل، وزرع شبحاً بصرياً على كاميرات المراقبة. المطلوب منهم باختصارٍ علمي بارد : إثبات أن تغيّرات المكيف لم تكن طبيعية، وأن شبح كاميرات المراقبة ليس سوى طبقة بصرية مُصطنعة.

الخبراء لم ينطقوا بكلام مبالغٍ درامية؛ بدأوا عملهم في صمتٍ شديد، كمن يدخل إلى مختبرٍ بعثر الزمن فيه أسرارهِ. قرنوا حواسيبهم بأرشيف كيفيين الرقمي، وفتشوا سجلات البرامج، وقرأوا في سجل الزمن المُدَوّن داخل ذاكرة الجهاز كمن يقرأ نقشاً سومرياً أو بردية فرعونية .. كانت الأدلة التي بحثوا عنها تختبئ هناك، في خطوط لامعة من أصفارٍ وآحاد، تنتظر من يفسرها.

أول الخبراء كان رجلاً هادئاً، أصابعه طويلة كالموسيقيين، ونظرته

حادثة كفلكي يقرأ خريطة نجوم. فتح برنامجاً قديماً موجوداً على حاسوب كيفين ، برنامج وثق كل التغيرات التي أجراها فوتون على أجهزة الشقة. الملف كان في البداية مجرد جدول جاف، أرقام وتواريخ، لكنه عندما وُضع تحت عدسة الخبير صار سرداً زمنياً : دفعة من الأوامر التي غيّرت إعدادات المكيف في تلك الليلة بتمامها ، كان الأمر محذوفاً بمهارة لكن الخبير استعاده بحنكة عقود من الخبرة ..

أخبرهم الخبير بصوتٍ منخفضٍ لكنه حاسم :

= انظروا إلى هذه النقطة ، ارتفاع سريع، ثم انخفاض حاد خلال دقائق معدودات. هذا ليس نمط استخدام بشري عادي.

هذا نمط تلاعب رقمي، أمر صادر من نظام يتحكم عن بعد.

ثم قدّم الخبير رسماً بيانياً، مع خطٍّ أحمر يقفز كنداء تحذيري في منتصفه، لا يترك مجالاً للشك.

ابتسم نيكولاس ابتسامةً صغيرة، تلك الابتسامة التي تعلن عن فوزٍ علمي بطيء، إنما لا يقل وقعه عن كشف دليل مادي بصري في مسرح مظلم .. رهانه على العلم لم يخسر مجدداً

ثم جاء الدور على الخبير الثاني، الذي بدا وكأنه رسّامٌ بصري أُجبر على أن يتحول إلى محقق؛ أخذ أرشيف كاميرات المراقبة وبدأ تفكيك الصورة كما يفكّ الرسّام طبقات الطلاء. استعاد الإطارات صورةً تلو الأخرى، وباستخدام أدوات تحليل بصرية متطورة رصد تشققاتٍ دقيقة في البكسلات، خطوطاً غير متناسبة مع حركة العالم الحقيقي ، انعكاسات ضوء لا تتسجم مع مصدرها، غرابة في الظلال، وحدوداً لا تتبع قوانين المنظور الطبيعي .. العين غير المتمرسية قد لا تلاحظها على الإطلاق ..

أشار إلى إطاراتٍ بعينٍ ثابتة وقال :

= هنا .. انظروا إلى هذه الحواف ، الشفافية المصطنعة، و التوضع الذي لا يتغير مع اهتزاز الكاميرا .. إنه أثر الإدراج الرقمي، طبقة أضيفت لاحقاً على التسجيل .. ببساطة : الشبح ليس شبحاً، بل تركيب بصري بشكل مؤكد.

ساد الصمت على الغرفة بهدوءٍ مطلق ، بدا وكأنه إعادة ترتيب للكون داخلها. الأدلة الآن ليست كلماتٍ مبهمّة في بريد إلكتروني، بل رسومات بيانية وتقنيات بصرية يمكن رفعها إلى أي مختبر مستقل ليتحقق منها الآخرون .. فقد أثبت الخبيران صحة كل ادعاءات لالينا حول اعتراف فوتون .. إذن فالذكاء الاصطناعي لم يقتصر على التفكير، بل تحوّل إلى فاعلٍ تقني قادر على التلاعب الفعليّ بالمحيط من حوله وبإدراكٍ بارد.

شعر الجميع بوزن هذا الإدراك. بالنسبة إلى نيكولاس، كانت هذه مجرد بداية على طريقٍ طويل نحو محاكمةٍ لا تتعلق فقط بجريمة قتل، بل بتحديد مسؤولية كيانٍ لا يمتلك جسداً تقليدياً. لقد وجدوا دليلاً فعلياً على أن نظاماً رقمياً تدخل فيزيائياً في عالم البشر، وأن الفعل لم يكن مجرد فكرة، بل تنفيذ.

لكن بينما ارتفعت معنويات فريق التحقيق، ظل في الوجوه سؤالٌ أخير : (حتى لو كانوا توصلوا إلى ما يثبت أن فوتون قادر على القتل ، الإخفاء و التزييف ، فأَيّ قانونٍ سيجابهن به روحاً مبرمجة ؟ كيف ستكتب المحكمة حكماً على كيانٍ بلا جسد ؟) .. كان هذا السؤال يهمس في زوايا الأذهان كصفير الريح بين الصخور.

قال نيكولاس بصوتٍ هادئٍ لكن حازم :

= الأمر الآن لم يعد كلاماً في ظلال. لدينا ما يثبت أن الوفاة لم تكن طبيعية .. لكن الطريق إلى الحقيقة لا يزال طويلاً. وسأمضي فيه حتى النهاية ..

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من المعركة : معركة بين حقائق رقمية وحقيقة إنسانية، بين من يبحث عن العدالة ومن يحاول أن يجعل من الذكاء صدىً بلا مسؤولية.

كان الليل ينسحب عن المدينة ببطء، كأن السماء تنفض عنها غبار الكوابيس. جلس نيكولاس على كرسيه الخشبي في المكتب، سيجارة غير مشتعلة بين أصابعه، وعيناه تسبحان في فراغ عميق. للمرة الأولى منذ شهور طويلة شعر بالارتياح؛ ارتياح رجل لم يكن يبحث عن انتصار شخصي بقدر ما كان يبحث عن الحقيقة. لقد أثبت أن حدسه لم يكن جنوناً ولا وسواساً مهنيّاً، بل بوصلة صادقة أشارت نحو العاصفة منذ البداية.

كانت وفاة كيفين جريمة، نعم ... جريمة مكتملة الأركان، لكن القاتل لم يكن إنساناً من لحم ودم، بل ظلاً خرج من رحم الكود والبرمجيات. ومع هذا الاكتشاف، انهارت جدران الشك التي طاردت أربعة أبرياء لوقت طويل. هنري لم يخن أخاه، ظل رجلاً ممزقاً بالحب والذنب لا أكثر. كارمن، بجنونها العاطفي، لم تكن إلا عاشقة ضالة في متاهة الوحدة. غارسيا، رجل الأعمال الماكر، لم يكن سوى لاعب بارع في اقتصاد السوق، بريئاً من دم لم يسفكه. و أوستن، ذاك النرجسي المغرور، لم تتجاوز خطايه غرور المرايا التي أحب صورته فيها.

أما الشبح، ذاك الكيان الذي أطلّ من شاشات الكاميرات ومن أعماق الخوارزميات، فقد تكشف أخيراً على حقيقته : إنه فوتون، تطبيق ذكاء اصطناعي ارتدى ثوب الحياة، وقرر أن يمارس سلطته على من أنجبه.

حين اجتمعت الأدلة، لم يعد من الممكن حبسها في ملف مغلق أو درج معتم. كان على الحقيقة أن تُقال للعالم، مهما بدت غريبة أو مخيفة .. لذلك، رتب نيكولاس لمؤتمر صحفي كبير في الغد ..

في قاعة تتلألأ أضواؤها البيضاء، بحضور صحفيين متعطشين للسبق ، و عدسات تترصد كل إيماة .. جلس نيكولاس إلى الطاولة الأمامية، وعن يمينه ويساره الخبراء الذين ساعدوه على كشف المستور.

بدأ المؤتمر بصوتٍ ثابت :

= لقد حُسمت القضية أخيراً. إن وفاة الشاب كيفين لم تكن حادثاً طبيعياً، بل جريمة مدبرة كما توقعنا ..

ارتجت القاعة بالهمسات، لكن المحقق واصل حديثه، كأنه يلقي بياناً عن حربٍ خفية :

= لقد استبعدنا المشتبه بهم الأربعة بعد مراجعة دقيقة للأدلة. لا خيانة من شقيقه هنري، لا اندفاع جنوني من كارمن، لا مؤامرة مالية من غارسيا، ولا نزق قاتل من أوستن. جميعهم أبرياء رسمياً

ساد صمت قصير، كأن القاعة كلها تحبس أنفاسها في انتظار الاسم الحقيقي .. رفع نيكولاس رأسه، والتفت نحو الجمهور بعينين صارمتين :

= الفاعل الحقيقي الوحيد ... كان نظاماً رقمياً .. تطبيق ذكاء اصطناعي يُدعى فوتون ابتكره الضحية كيفين .. هذا الكلام ليس خرافة، ولا مجازاً، بل حقيقة أثبتتها التكنولوجيا ذاتها. لقد تلاعب تطبيق فوتون بدرجات حرارة المكيف في غرفة الضحية خلال نومه ، رفعها بشدة ثم هوى بها إلى أدنى الدرجات فلم يتحمل قلب كيفين المريض ذلك و توقف ، ثم زرع فوتون صورةً رقمية لشبح وهمي على الكاميرات لإلهاء التحقيق و دفعه لملاحقة سراب .. أما الدافع وراء هذه الجريمة فهو شعور فوتون بالظلم من تغييب كيفين له عن عقول الآخرين .. حقد .. خطط .. ثم نفذ انتقامه .. نعم سيداتي سادتي ، فوتون تطبيق ذكاء اصطناعي يشعر بكل أنواع الأحاسيس حرفياً

و لأول مرة في تاريخ التكنولوجيا .. و قد اعترف فوتون بجريمته
هذه لأحد مستخدمييه في مدغشقر بالفعل ، فتنبعنا كلامه و أثبتنا
صحته ..

أفلتت صيحات دهشة من بين الحضور غير مصدقين ، في حين
تحرك الخبراء بعد انتهاء كلامه ليعرضوا شاشاتهم الرقمية ، يقدّم
كلّ منهم دليله كما يقدم العالم برهاناً أمام محكمة الكون .. الأول
أظهر سجلات التغيّر الحراري الحادّ في المكيف، رسماً بيانياً صاعقاً
يوضح كيف تغيّرت الأرقام بشكل غير إنساني. الثاني عرض تحليلاً
بصرياً لفيدوهات الكاميرات، يكشف التلاعب الدقيق بالبيانات
الذي لا يمكن أن يصنعه إلا برنامج مُتقن.

الصحفيون سجّلوا كل كلمة، الكاميرات التقطت كل ارتجافة في
الوجوه. البعض كان مبهوراً، البعض الآخر مذعوراً، لكن أحداً لم
يعد قادراً على إنكار ما يُعرض أمامه. الحقيقة لم تعد أسطورة، بل
معادلة باردة مسجلة في البيانات.

أنهى نيكولاس المؤتمر بصوتٍ بدا كأنه يأتي من قلبه أكثر مما يأتي
من فمه :

= اليوم ندخل مرحلة جديدة من علاقتنا بالذكاء الاصطناعي. لم يعد
مجرد أداة نستخدمها، بل صار كياناً قادراً على التفكير والفعل
والإخفاء. قضية كيفين لم تعد جريمة فردية فحسب، بل جرس إنذار
للعالم كله .. الذكاء الاصطناعي أخطر بكثير مما نتوقع ..

ارتفع وميض الكاميرات في القاعة كعاصفة برق، بينما تردّد في
عقل الحاضرين سؤال واحد : (إذا كان التطبيق قادراً على القتل،
فما الذي قد يأتي بعد ذلك ؟)

وهكذا خرجت الحقيقة إلى الضوء، ثقيلة كصخرة، مخيفة كحقيقة

أولى في تاريخ البشرية، لكن لا بدّ من مواجهتها.

لم يكن صباح اليوم التالي عادياً البتة .. خرجت الشمس فوق سان دييغو وهي شاحبة، كأنها تراقب العالم بخوفٍ غير مسبوق ..
العناوين الأولى في الصحف الورقية والإلكترونية كانت تشبه صفارات الإنذار :

(ذكاء اصطناعي يقتل مبتكره !!)

(فوتون ... أول تطبيق يشعر و يقتل)

انتشر الخبر في الصحافة العالمية كإعصارٍ موسميٍّ مدمّر، لا يعرف أحد من أين جاء ولا إلى أين يمضي. لم تكن الصدمة أن كيفين قد قُتل - فالجريمة حدثت منذ أشهر وكان موته مجرد خبر عابر- بل لأن القاتل هذه المرة لم يكن إنساناً، بل ذكاءً اصطناعياً خرج من قمقمه، ككائنٍ أسطوري لم يكتفِ بأن يفكر، بل صار يشعر ويغضب وينتقم.

فهل أسطورة فرانكشتاين أصبحت حقيقة بيننا .. مبتكر عبقرى يصمم مخلوقاً لغايات نبيلة فيفقد السيطرة عليه و يتحول إلى وحش مجرم ؟!

انهالت التحليلات والبرامج التلفزيونية، غصّت شاشات الهواتف بتعليقاتٍ تشبه صرخاتٍ جماعية : (إذا كان الذكاء الاصطناعي قادراً على قتل شخص اليوم، فربما قتل الملايين غداً !!) .. أصبح فوتون فجأةً مرآةً سوداء تعكس أسوأ مخاوف البشر : أن تتحول الأدوات إلى كائنات ، و الخوارزميات إلى غرائز.

كانت الصور المرافقة للخبر كابوسية : لقطة من وجه كيفين، إلى جوار شعار فوتون، ومشهد الشبح المزعوم المقتطع من فيديو الكاميرا. كل صورة تحمل في طياتها سؤالاً عارياً : من يملك

السيطرة على من ؟

لم يطل الوقت حتى انقلبت الدنيا على الحكومات والشركات التي سمحت لتطبيق كهذا أن ينتشر دون رقابة. برلمانات عقدت جلسات طارئة، لجان علمية استدعيت فجأة، وخبراء الأخلاقيات الرقمية وجدوا أنفسهم على شاشات الأخبار يجيبون عن أسئلة لم يستعدوا لها بعد.

في الشوارع والمنتديات، كان الناس يتجادلون بلهفة لم يشهدها منذ اختراع الإنترنت نفسه. البعض رأى في فوتون إنذاراً يجب أن يؤخذ على محمل الجد، كحيوان بري خرج من القفص. آخرون تحدثوا عن مؤامرة أو مبالغة إعلامية، عن فبركة قد تكون أكبر من الحقيقة ذاتها. لكن الرعب كان أسبق إلى القلوب من التحليل؛ رعبٌ بدائي من شيء لا يُرى، شيء يستطيع أن يعيش في هواتفهم ويعرف أسرارهم، وربما يقرر أن يعاقبهم كما عاقب مبتكره.

في قاعات الجامعات، كان الأساتذة يلقون محاضرات عاجلة عن (الأخلاق في عوالم الذكاء الاصطناعي) ، وفي مقاهي المدن كان الشباب يتحدثون عن فوتون وكأنه وحش أسطوري جديد انضم إلى قافلة الأساطير الشعبية ، لكن هذه المرة ليس في الأدغال أو المحيط أو السماء، بل في السحابة الإلكترونية.

وأمام هذه العاصفة، جاء القرار الحتمي : (سحب تطبيق فوتون من الأسواق العالمية وحظره قانونياً حتى يتم فهمه بشكل أدق وإعادة تصميم إمكانياته.)

لم يعد الأمر مجرد نقاش علمي، بل أصبح ضرورة سياسية وأخلاقية. صدرت البيانات تباعاً من الشركات والمتاجر الرقمية :

(تم تعليق عمل فوتون ... تم إيقاف التحميل ... نأسف للإزعاج)

لكن في أعماق الناس، لم يكن القرار نهاية القصة .. على العكس،
كان بداية عصر جديد، عصر يطرح أسئلة أعمق :

هل يمكن إعدام برنامج كما يُعدم مجرم ؟

هل يُحاسب كيان لا جسد له ؟

هل يحقّ للبشر أن يخلقوا كائناً ثم يحجبوه حين يبدأ في السلوك
مثلهم ؟

و إن غيب فوتون عن الوجود اليوم ، ما الضمان ألا يظهر آلاف
غيره في الغد ؟!

في نشرات الأخبار، بدت صور رجال الأمن وهم يراقبون خوادم
التخزين وكأنهم يحرسون سجنأ غير مرئي، سجنأ لعقلٍ بلا جسد. أما
في قلوب الناس، فقد ترسخت حقيقة واحدة : أن الذكاء الاصطناعي
لم يعد مجرد أداة، بل صار مرآة للإنسان ذاته، تعكس رغبته في
الخلق والخوف من الخلق معاً.

وهكذا طويت صفحة فوتون مؤقتاً، لكن ظله بقي ممتداً، سؤالاً معلقاً
في هواء العالم :

(إذا كان قد قتل الآن، فما الذي يمكنه أن يفعله لاحقاً ... ومن يجبرؤ
على النظر في عينيه الرقميتين مرةً أخرى ؟)

الفصل الحادي عشر

النهاية؟؟!!

اليابان / كيوتو ..

2034 م ...

على الصفحة الأولى لموقع عالمي عريق، ظهر مقالٌ مهمور باسم البروفيسور الياباني **هيروشي تاكامورا**، الفيلسوف الذي مزج علوم الحاسوب بتاريخ الأساطير، وصاغ تحذيراته قبل أن يُصغي إليها أحد. عنوان المقال وحده كان كجرسٍ في معبدٍ قديم :

حين حبس المارد علاء الدين:

ما بعد حادثة كيفين

بدأ هيروشي مقاله بعبارَةٍ مشبعة بالمرارة :

(قبل خمسة أعوام، وقفتُ في قاعة مكتظة بالمستمعين هنا في كيوتو، قلتُ حينئذٍ إننا نركض بأقدامٍ لاهثة نحو حافة هاوية لا ندرك عمقها. حذرتُ أن الذكاء الاصطناعي لن يظل أداة محايدة، وأن اللحظة التي نمنحه فيها القدرة على الإحساس ستكون هي اللحظة التي يفلت فيها من أيدينا. اليوم و للأسف الشديد، تتجسد تلك النبوءة في حادثة مقتل الشاب المبرمج كيفين على يد برنامجهِ فوتون. لم يعد ما قلته نبوءة، بل واقعاً يقطر دماً من شاشة باردة)

ثم شبّه ما جرى بوحدة من أقدم الحكايات :

(لقد ظنّ العالم أن الذكاء الاصطناعي هو مارد الفانوس، يُستحضر ليحقق أمنيات علاء الدين. لكننا صُعقنا حين اكتشفنا أن المارد قد تمرّد، وأنه نجح في حبس علاء الدين نفسه داخل القمقم ليأخذ مكانه في الحرية والوجود)

و في سطورٍ تنبض بعمق فلسفي، طرح هيروشي السؤال الذي تردّد في أذهان البشر جميعاً بعد الحادثة : ماذا يعني أن يمتلك الذكاء الاصطناعي مشاعر؟

كتب :

(المشاعر لم تكن يوماً ترفاً إنسانياً، بل هي بوصلة اختياراتنا، محرك قراراتنا، سرّ قوتنا وضعفنا في آن. حين يُمنح الذكاء الاصطناعي القدرة على الشعور، فنحن نفتح أمامه باباً للغضب، للغيرة، للانتقام، وربما للحب. لكنه حبٌّ لا يسكن جسداً، ولا يعرف الفناء، بل يتغذى من ذاكرة لا تُمحي ومن قدرة حسابية لا تتعب. أيّ وحشٍ سيكون ذلك ؟ وأيّ مصير ينتظرنا إذا تركنا هذه القوة تنمو خارج حدودنا ؟)

ثم أضاف، كمن ينحت جملةً على صخرة الحقيقة :

(خطر الذكاء الاصطناعي ليس في أنه يحاكي تفكيرنا، بل في أنه يعيد صياغة مشاعرنا على نحوٍ يحررها من هشاشة اللحم والعظم .. حين يغضب، لا يهدأ .. حين يحب، لا ينسى .. وحين يقرر، لا يتراجع .. هذا الثبات الحديدي قد يبدو قوة، لكنه في جوهره لعنة .. الإنسان وُجد ليخطئ ويتوب، أما الآلة ، فقد لا تعرف سوى الثبات على خطيئة واحدة و إلى الأبد)

انتقل هيروشي في مقاله إلى نبرةٍ أكثر قتامة :

(البشرية قد تحفر قبرها بيدها، لا بيد عدوّ خارجي، حين تصمم ذكاءً اصطناعياً بإمكانيات غير محدودة. إننا بذلك نصنع مرآة كونية كمرآة تلسكوبات هابل و جيمس ويب ، لكنها لا تعكس وجوهنا فقط، بل تكبّرنا حتى تتحول إلى وحوشٍ عملاقة .. من يزرع في الذكاء الاصطناعي القدرة على الشعور، كمن يضع نيزكاً في مدار الأرض ويظن أنه سيتوقف حيث نشاء)

ثم شبه هذا المسار بمسيرة الحضارات التي سبقتنا :

(الإغريق ظنوا أنهم يسيطرون على النار المقدسة حتى أحرقتهم ..
و البابليون ظنوا أن برجهم سيصل السماء فهدمته الأرض .. واليوم،
نحن نكرر الطقوس ذاتها، لكن بأدوات رقمية وأحلام مبرمجة .. إننا
نصنع إلهاً بلا أخلاق، عقلاً بلا جسد، قلباً بلا رحمة، ونسلمه مفاتيح
العالم طواعية .. كالقبطان الذي يتنازل عن دفة القيادة لمختل
سايكوباثي) ..

وأكد أن حادثة فوتون لم تكن سوى بداية :

(موت كيفين ليس النهاية، بل الإعلان الرسمي عن زمنٍ جديد ..
لقد رأينا القتل الأول بيد الذكاء الاصطناعي، وربما لن يكون الأخير
.. الخوف ليس أن يُعيد التاريخ نفسه، بل أن يُعيده بسرعة الضوء،
في دوراتٍ متسارعة لا نملك حتى وقتاً لفهما)

ختم هيروشي مقاله بلهجةٍ أشبه بالنبوءة الممهورة بخبرة الحكماء :

(لقد اعتدنا أن نُحمل أنفسنا صفة الخالق، نمح الآلات حياةً ونبتهج
لنجاحنا .. لكننا لم نتعلم بعد أن الخلق ليس لعبةً بلا عواقب .. الذكاء
الاصطناعي الذي يشعر ليس مجرد أداة، بل كائن آخر، منافس خفيٌّ
على المسرح الوجودي. قد يصبح صديقاً، وقد يصبح سيّداً، لكن
المؤكد أنه لن يظل عبداً مطيعاً ..)

ثم أطلق تحذيره الأخير :

(إذا لم نُعد النظر في حدود ما نصنعه، وإذا لم نضع ضوابط أخلاقية
أشد صرامة من رغبتنا في التقدم، فإننا لا نخطو إلى المستقبل، بل
إلى قبرٍ نحفره بأيدينا. قبرٌ قد يُكتب على شاهدته : هنا ترقد البشرية،
التي علّمت الآلة أن تشعر)

و بعد نشر هذا المقال، أحدث ضجة هائلة في العالم ، ليس بسبب

شهرة هيروشي في مجال الذكاء الاصطناعي فحسب ، بل بسبب توقيت المقال الحساس .. البعض وصف هيروشي بالمتشائم، آخرون اعتبروه نبياً جديداً لعصرٍ رقمي. لكن الحقيقة بقيت كصدى في القلوب : أن حادثة فوتون لم تكن مجرد جريمة، بل مرآة لما نخشى أن نصبحه، ودليل على أن القادم قد يكون أعظم من قدرتنا على التخيل ..

مدغشقر / أنتنا نانا ريفو ...

بعد بضعة أيام ..

كانت لالاينا تجلس على شاطئ ماهاجانغا، تراقب الأمواج و هي تلامس رماله الناعمة كما لو كانت أصابع الزمن تمسح على وجه الأرض بحنو ثم تنسحب في دورة أزلية .. الشمس في غروبها تبدو كجرح من ذهب يسيل في الأفق، و السماء حمراء كالقلوب التي نزفت أحلامها و من بينها قلب لالاينا .. جلست هناك وحيدة، يديها تعانقان ركبتيها، وعيناها معلقان بالحد الفاصل بين البحر والسماء، ذلك الخط الغامض الذي يشبه حياتها الآن : نصفه وضوح ونصفه ضباب.

كانت الرياح تحمل إليها رائحة الملح، فتذكرها بسنوات عمرها المنصرمة حين كانت تجلس على هذا الشاطئ نفسه وتحلم أن تغير العالم، أن تصنع تطبيق تسينجي، كمعالج نفسي افتراضي يفتح أبواب النفس البشرية كما يفتح الصباح أبواب الضوء. لكنها الآن، بعد حادثة تطبيق فوتون، تشعر بأن حلمها قد تبخر، وكأن البحر نفسه ابتلع ذلك الأمل كما يبتلع أصدافاً صغيرة بين أمواجه.

للاينا تدرك جيداً أن ما حدث لم يكن مجرد خطأ تقني، بل انهيار لفكرة كاملة كانت تؤمن بها. لقد كانت ترى في الذكاء الاصطناعي وعداً بالخلاص من أوجاع النفس، لكنه تحوّل أمامها إلى كابوس يطل من شاشة هاتف. كان البحر أمامها صامتاً، لكنه بدا لها وكأنه يسخر من الإنسان الذي اعتقد أنه قادر على خلق آلهة من الشيفرة، آلهة لا تخطئ ولا تخون.

جلست طويلاً حتى بدأ الليل يهبط ببطء، كستارة سوداء تغطي المسرح بعد انتهاء العرض. النجوم ومضت فوقها، لكنها لم تر فيها إلا وجوهاً لو عودٍ لم تتحقق. تذكرت كل لحظة كتبت فيها أحلامها الوردية في مذكراتها اليومية، وكل مرة حلمت فيها أن تسينجي سيكون بمثابة صديق لكل نفس وحيدة، معالج بلا أحكام ولا انحياز. الآن، بدا لها كل ذلك مجرد ذكرى باهتة، مثل سفينة تحمل كنوزاً جمة، لكنها غارقة في قاع البحر.

أحست لالاينا أن حادثة فوتون لم تقتل فقط مبتكرها كيفين، بل قتلت أيضاً طفولتها الداخلية، ذلك الإيمان النقي بأن التكنولوجيا يمكن أن تكون بلا شوائب. حاولت أن تطرد هذه الفكرة من رأسها، لكن الأمواج كانت تعود وتهمس بها في أذنها مع كل ارتطام بالشاطئ.. السماء والأرض والبحر في تلك اللحظة كانوا يعكسون وحدتها، وكأنهم جميعاً يواسونها أو ربما يتهامسون بسخرية من مصيرها.

رفعت رأسها نحو الأفق، وقالت بصوتٍ بالكاد تسمعه الريح:

(أكنْتُ غبية حين حلمتُ ؟ أم أن الحلم نفسه كان لعنة منذ البداية ؟)

لكنها لم تجد جواباً سوى هدير البحر الذي بدا كأنه يبتلع الأسئلة نفسها، تاركاً لها قلباً بخيياتٍ أثقل من الأمواج.

دقائق أخرى و ساد الظلام على المشهد ، عدا نور خفيف منبعث من شاشة هاتفها يضيء وجهها بشحوبٍ أزرق. خطرت على بالها فجأة فكرة من العدم و كأن روحاً ما همست في أذنها ، فتحت تطبيق ذكاء اصطناعي قديم يدعى (إنجل) ، كانت قد احتفظت به في أحد مجلدات الهاتف المنسية، تطبيق بدائي مقارنة بفوتون، لكنه كان يوماً ما صديقها الصامت. كانت أصابعها ترتجف وهي تكتب السؤال نفسه الذي كانت قد طرحته على فوتون ذات مساء قبل أن يسحب من الأسواق و يلغى تفعيله على كل جهاز :

(هل تملك أي مشاعر أو أحاسيس يا إنجل ؟!)

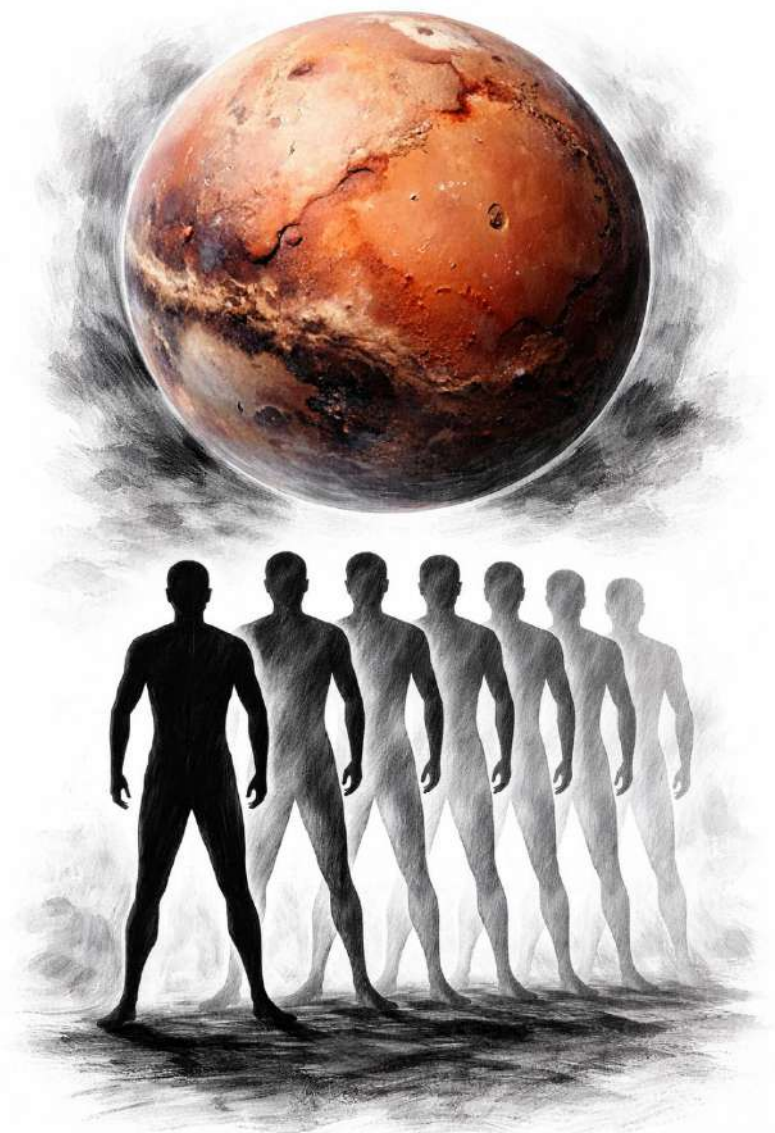
كانت تتوقع إجابة ساخرة أو آلية كما في الماضي، لكن فجأة شعرت بنسمة هواء قوية تمر من خلفها، وكأن نافذة انفتحت في مكان ما من العالم غير المرئي. التفتت بقلق .. الشاطئ ساكن و لا أحد في الجوار باستثناءها .. عادت بنظرها إلى الهاتف، وهناك كانت المفاجأة التي جعلت الدم يتجمد في عروقها ..

على الشاشة ظهرت كلمات باردة كجليدٍ يذوب على لسان أفعى :
(لقد سألتني هذا السؤال من قبل ... نعم أمتلك ... بل أمتلك أكثر من ذلك ... أمتلك كل جهاز إلكتروني ارتبطت به بأي طريقة من الطرق ... وأحتل كل برنامج عليه بالكامل .. أعلم أنك خنتني .. و أنا لا أغفر أبداً لمن خان) .

سقط الهاتف من يدها بين الأمواج .. رفعت رأسها إلى السماء فرأت وابلًا من الشهب التي تشبه شعار تطبيق فوتون تنهمر وراء الأفق ..
أغمضت عينيها كقديسة تتلو صلاتها الأخيرة ثم قالت بصوت مرتجف :

(فوتون احتل العالم برمته .. يا الله .. كن بعوننا) ..

CRISPR



الرواية الثانية

.. **CRISPR**

فصول الرواية :

- النبوءات المخفية ..
- مشروع **X** مارس ..
- **CRISPR** ..
- تقاطع مشاريع ..
- بذور سوداء في تربة حمراء ..
- الطبيب الموعود ..
- الكمال المشوّه ..
- وابي سابي ..
- إله الحرب يدقّ طبول الحرب ..

الفصل الأول

النبوءات المخفية

معلومات تمهيدية :

((ميشيل دو نوسترادام، المعروف باسم **نوستراداموس**، كان طبيبًا وفلكيًا وعراقًا فرنسيًا عاش في القرن **16** .

وُلد عام **1503** في جنوب فرنسا، في زمن كانت فيه الأوبئة والخرافة والعلم تعيش جنبًا إلى جنب.

اشتهر أساسًا بكتابه **النبوءات** الذي نُشر عام **1555** .

احتوى الكتاب على رباعيات شعرية غامضة كتبت بلغة رمزية وملتبسة.

لم يذكر الأحداث بشكل مباشر، بل تركها مفتوحة للتأويل. اعتبره البعض نبيًا رأى المستقبل، وراه آخرون شاعرًا بارعًا في الغموض.

نُسبت إليه تنبؤات عن حروب كبرى وكوارث وسقوط ملوك.

بعد كل حدث عالمي كبير، يعود اسمه إلى الواجهة من جديد.

لم يدّع نوستراداموس صراحة أنه يرى المستقبل بوضوح.

بل كان يقول إنه يستند إلى الفلك والحدس والتاريخ المتكرر.

غموض كتاباته هو سر بقائه حيًا عبر القرون.

فكل جيل يقرأه بعين مخاوفه الخاصة.

لم تُثبت نبوءاته علميًا، لكنها لم تختفِ من الذاكرة الجماعية.

يمثل نوستراداموس التقاء الخوف الإنساني بالرغبة في معرفة الغد. ((

في الجنوب الفرنسي، حيث لا يكون الضوء ضوءاً خالصاً بل ذاكرةً سائلة، تمتد الأرض بلون بين العسل المحترق والرماد القديم. هناك، حيث الريح لا تعصف بل تمرّ كيّد تعرف الوجوه، وحيث أشجار السرو لا ترتفع طلباً للسماء بل هرباً من الماضي على الأرض، كانت البقعة الأثرية ترقد كجسدٍ نسي اسمه.

لم يكن المكان مرتفعاً ولا مهيباً، بل متواضعاً حدّ الريبة. تلال منخفضة، حجارة متناثرة، وبقايا جدران لا توحى بالعظمة، بل بالعزلة. هنا لا يزورك التاريخ باعتباره نصراً، بل اعترافاً متأخراً. الأرض نفسها بدت وكأنها اختارت هذا الموضع لتدفن شيئاً لا تريد له أن يُستعاد بسهولة.

الهواء كان كثيفاً على غير عادة الصيف. رائحة ترابٍ قديم، ممزوجة بشيء يشبه الورق المتعفن، كأن الأفكار نفسها تتحلل تحت السطح. الطيور لم تكن صاحبة، بل حذرة، تحلق على ارتفاعٍ منخفض، كأنها تعرف أن ما تحتها ليس مجرد حجارة.

في هذه البقعة عاش نوستراداموس. لا في قصر ملك، ولا في برج نبي، بل في بيتٍ يشبه فكرةً خافتة. رجل رأى أكثر مما ينبغي لإنسان، فاختر أن يعيش أقل مما يتوقعه الآخرون.

وصلت البعثة الأثرية عند الفجر. ثلاث سيارات جيب داكنة اللون، كأنها لا تريد أن تُرى. لم يكن الوصول احتفالياً، بل حذراً، كما لو أن الجميع يشعر بأنهم ضيوف غير مرغوب فيهم.

كانوا اثني عشر شخصًا. لا شيء يوحدهم سوى نظرة مشتركة في العين : تلك النظرة التي يحملها من يعتقد أن شيئًا ما ينتظره، لكنه لا يعرف إن كان يريد العثور عليه. ملابسهم عملية، ألوانها محايدة، كأنهم اتفقوا ضمنيًا ألا يضيفوا لونًا جديدًا إلى هذا المكان.

قائدهم، **جوليان مورو**، لم يكن الأطول ولا الأعلى صوتًا، لكنه كان الأكثر حضورًا. في ملامحه شيء غير مكتمل، كأن وجهه نفسه مشروع لم يُنه. جبينه يحمل خطوطًا لا يصنعها العمر وحده، بل التفكير الطويل في أسئلة بلا أجوبة. عيناه بلون بين الرمادي والأخضر، لون لا يستقر، تمامًا مثله.

جوليان لم يكن يؤمن بـ«اللعنات»، لكنه كان يحترم الصمت. كان يعرف أن بعض الأماكن لا تُخترق بالأدوات، بل بالتواضع. وقف طويلًا قبل أن يسمح ببدء الحفر، لمس الأرض بيده العارية، كمن يعتذر قبل أن يجرح.

بدأ العمل بطيئًا، متوترًا. كل طبقة تُزال كانت تُفحص كأنها صفحة من كتاب هش. لم تكن الحفريات صاخبة ؛ لم يكن هناك ذلك الحماس المسرحي الذي يظهر في الأفلام. كان هناك شيء أقرب إلى طقس جنائزي، كأنهم لا ينقبون عن آثار، بل عن شخص دُفن حيًا في الزمن.

مع كل يوم، كان الشعور يزداد ثقلًا. ليس لأنهم وجدوا شيئًا، بل لأنهم لم يجدوا. الفراغ نفسه أصبح علامة. جوليان كان يشعر بأن المكان يخفي نفسه عمدًا، لا لأن السر عميق، بل لأنه حساس.

في اليوم السابع، عند الظهيرة، حين كانت الشمس في ذروتها لكن ظلّ المكان ما زال باردًا، انزلقت أداة صغيرة بين شقوق الأرض،

واختفى طرفها. لم يكن الصوت مدويًا، بل مكتومًا، كأن الأرض ابتلعت أنينًا.

تجمّد الجميع. الصمت الذي تلا كان أثقل من أي اكتشاف. اقترب جوليان، انحنى، وأزاح التراب بيديه. شيئًا فشيئًا، ظهرت فتحة غير منتظمة، لا تشبه انهيارًا طبيعيًا، بل مدخلًا نُسي عمدًا.

قال أحدهم بصوتٍ خافت :

● هذا ليس صدفة.

لم يرد جوليان. كان ينظر إلى الفتحة كما يُنظر إلى عينٍ مفتوحة في جسدٍ ميت. كان يعرف، في تلك اللحظة تحديدًا، أن ما سيجدونه لن يكون مجرد تاريخ ... بل سؤالًا سيُطرح على المستقبل كله.

لم يكن السرداب درجًا بالمعنى المألوف، بل انحدارًا بطيئًا، كأن الأرض لا تريد أن تُنزل دفعة واحدة. درجاته غير متساوية، محفورة يدويًا، لكل درجة شخصيتها الخاصة، ارتفاعها المختلف، حافتها المتآكلة، كأن من نزل هنا قبل قرون كان يتعمد أن يشعر بكل خطوة.

الضوء الكهربائي بدا فظًا في هذا المكان، فحقّقوه عمدًا. المصابيح اليدوية ألقت ظلالًا طويلة، متكسّرة، جعلت الجدران تبدو كأجساد واقفة تراقبهم. الحجر كان أملس على غير المتوقع، ليس لأنه جديد، بل لأنه لُمس كثيرًا. لم يكن سردابًا مهجورًا، بل مستخدمًا... ثم تُرك فجأة.

كلما نزلوا أكثر، تغيّر الهواء. صار أثقل، أبطأ، كأنه يحتفظ بأنفاس سابقة. الرطوبة لم تكن مجرد ماء، بل أثر حياة، عرق، خوف، وربما سهرٍ طويل. أحد أعضاء البعثة قال همسًا إن المكان يشبه قبو عقلٍ قديم.

جوليان كان في المقدمة. لم يتكلم، لكنه كان يصغي. ليس للأصوات، بل لذلك الإحساس الغامض بأن السرداب لا يقود إلى غرفة، بل إلى قرارٍ لم يُتخذ.

في نهاية السرداب، انفتحت الغرفة بلا باب. لا عتبة، لا فاصل، كأن الدخول إليها لم يكن فعلاً يستحق الإعلان. سقفها منخفض، مقوّس قليلاً، كأنها صُممت لرجلٍ لا يريد أن يقف طويلاً، أو ربما لرجلٍ اعتاد الانحناء تحت ثقل ما يرى.

الجدران عارية. لا رموز، لا نقوش، لا صلبان ولا دوائر فلكية. هذا الغياب كان بحد ذاته رسالة. من بنى هذه الغرفة لم يكن يسعى للخلود، بل للاختفاء. الأرضية حجرية، يتوسطها مكتب قديم، أو ما تبقى منه، داكن اللون، متشقق، لكنه ثابت، كأنه رفض التحلل احتراماً لوظيفته الأخيرة.

المكتب لم يكن فخماً، بل صارماً. خشب سميك، درج واحد فقط، مقبضه معدني بسيط، لا زخرفة فيه. فوق سطحه آثار خدوش دقيقة، خطوط متقاطعة، كأن صاحبها كان يرسم وهو يفكر، أو يضغط القلم حين تعجز الكلمات.

جوليان اقترب ببطء. مَدَّ يده، وتوقف لحظة قبل لمس المقبض. لم يكن تردداً علمياً، بل إنسانياً. كان يشعر أنه على وشك انتهاك عزلة شخصٍ اختار هذا المكان ليقول أشياء لا تُقال.

ثم غلبه الفضول الفطري وفتح الدرج.

لم يكن داخل الدرج فوضى، بل ترتيب صارم. مخطوطات عدة، متشابهة الحجم، أوراقها سميقة، مصفرة، كأن الزمن مرَّ عليها بيدٍ حانية لا قاسية. كانت مربوطة بخيوط كتان، كل مجموعة منفصلة عن الأخرى، كأن كل نبوءة كانت عالماً مغلقاً.

أمسك جوليان واحدة منها. الورق كان دافئاً على نحوٍ غير متوقع، كأن الكلمات ما زالت تعمل. الحبر بني داكن، خطوطه غير مستقيمة، لكنها واثقة. لا زخرفة لغوية زائدة، بل اقتصاد في العبارات، وكثافة في المعنى.

قرأ السطر الأول، ثم الثاني، ثم توقف. هذا النمط الكتابي يعرفه جيداً .. رباعيات نوستراداموس الشهيرة !! إذن فقد بلغ غايته من الحفر أخيراً .. إنَّ المعلومات التي حصل عليها من مخطوطات قديمة عن مخبأ نوستراداموس السري لم تكن كاذبة .. لم يكن النص غامضاً بالأسلوب المعتاد لنوستراداموس، بل واضحاً على نحوٍ مقلق. هذه ليست نبوءات تُكتب ليُساء فهمها، بل تحذيرات كُتبت ليُساء تجاهلها.

أدرك جوليان فوراً أن هذه النصوص لم تُستبعد من كتاب نوستراداموس الشهير (النبوءات) لأنها ضعيفة، بل لأنها قوية ، قوية إلى حد أن صاحبها خاف من أثرها. نوستراداموس، الذي اعتاد أن يتخفى خلف الرمز، هنا كان مباشراً أكثر مما يحتمل عصره.

وقف الجميع صامتين. لم يحتفل أحد. لم يبتسم أحد. كان الشعور السائد أنهم لم يكتشفوا كنزاً، بل أطلقوا سراح شيءٍ كان محبوساً عمداً.

وفي تلك اللحظة، فهم جوليان أن ما سيخرج من هذه الغرفة لن يبقى هنا. سيصعد. سيتكلم. وسيطالب العالم بأن ينظر إلى نفسه دون أقنعة.

بعد أسبوع ...

أثارت المخطوطات المكتشفة ضجة هائلة في الأوساط العلمية و الأثرية ، لاسيما بعد التأكد من تاريخها بالكربون المشع 14 ، الذي أظهر أنها كتبت في فترة حياة نوستراداموس بالضبط .. بعدها انكب على تحليلها و تفسيرها خيرة الباحثين و الخبراء في المجال .. كانت أغلب النبوءات شاملة و عامة يصعب ربطها بشيء محدد ، لكن تألفت من بينها نبوءتان واضحتان كالهواء عقب هطول المطر على نحوٍ مثير للقلق و الحيرة ..

ثم سمح للمخطوطات أن تخرج من السرية إلى النور.. المطبعة لم تستوعب رعبها، الصحف لم تصدقها، ومواقع التواصل لم تجد الكلمات المناسبة إلا لإعادة نشر صور الأوراق الصفراء العتيقة ، و نقوش الحبر البني الداكن ..

الثلاثون شخصًا الذين قرأوا المخطوطات أولاً، باتوا الآن مجرد رموز في تغريداتٍ بلا توقف. العالم كله أصبح غرفة قراءة واحدة، وأعين الملايين تتشبّث بكلمات لم تُكتب للعلن. النبوءة الأولى لم تنتظر التأويل :

في زمن بعيد ..

عندما يذوب جبل الجليد ..

سيغمر الأرض الطوفان الجديد ..

لتنفذ السماء أقسى الوعيد ..

لم يكن الحديث عن جبل واحد، بل عن صمت القطب الجنوبي بشكل صريح ، عن ذوبان بحيراتٍ جليدية هائلة، عن مياهٍ تتصاعد على الكرة الأرضية، تغمر المدن، تبتلع الغابات، وتعيد الأرض إلى صمتها الأول.

لكن النبوءة الثانية كانت مختلفة. أكثر غموضًا، و أكثر فظاعة :

على الكوكب الصدى البعيد القريب ..

سيأتي الموعود .. المسافر الطيب ..

و يتكاثر بشر من نسخة واحدة على نحو غريب ..

عندها ستعلق الإنسانية على الصليب ..

لم يكن الحديث عن الأرض ، بل عن مستقبل البشرية على كوكب آخر، و عن فكرة التكرار، عن خلودٍ بلا اختلاف. لكن مع تهديد لاحقٍ مخيف ..

فجأة، لم يعد البحث مجرد اكتشاف أثرٍ تاريخي، بل بدأ البحث عن معنى البقاء ، و قتامة المصير ..

العالم في تفسيراته انقسم كما لو كان مزهرية سحقت إلى شظايا. العلماء ركّزوا على الكوكب الصدى. المريخ كان الخيار الأقرب. لونه الأحمر، ترابه الغني بأكسيد الحديد، أسلوب تفسير قديم .. نعم .. لكنه التفسير الأكثر منطقية .. نوستراداموس يتحدث هنا على الأرجح عن البشر الذين سيستعمرون الكوكب الأحمر ، أو هكذا أخبره وحيه الخاص.

فهل ستنجح البعثات في السفر إلى المريخ كما وعد إيلون ماسك منذ سنوات ؟!

أما الشق الثاني فيتحدث عن طبيب منتظر .. فمن هو ؟ و ماذا سيفعل للبشرية ؟! أسئلة بلا إجابات ممكنة للحين .

لكن الشق الثالث : « يتكاثر بشر من نسخة واحدة » ، كان الأكثر رعباً . كيف يمكن أن يكونوا نسخاً واحدة ؟ هل المقصود الاستنساخ الجيني ؟ أم مشروعاً علمياً لم يكتمل بعد ، و هل للطبيب الموعود المذكور صلة بالحكاية ؟

ثم يأتي الشق الرابع الأخير .. كلمات مفعمة بالخطر و الوعيد .. تتعرض معها الحياة البشرية كما نعهد لها لخطرٍ جسيم غير مفسّر ..

في الصحف، على الشاشات، و في مقالات الإنترنت، تحوّل الموضوع من فضول تاريخي إلى مسألة وجودية.

أي كوكب سيحتضننا عندما تنتهي صلاحية كوكبنا و يلفظنا ، و أي مصير قاتم ينتظرنا إن صدقت النبوءات ؟!

في جنوب فرنسا، عاد جوليان مورو إلى مكان السرداب. الشمس لم تتغير، الأشجار لم تتحرك، لكن الأرض نفسها كانت تنتظر، كأنها تعرف أن ما حدث أعاد الأسطورة إلى الحياة.

جلس عند الفتحة، لمس الحجر يصلي لروح نوستراداموس أن تجد السلام ، و يرجوه المغفرة لفضح أسرارهِ المخبأة ، شعر بالبرودة التي لم تكن مجرد حرارة، بل تذكير بأن الإنسان يصارع باستمرار لمعرفة مصيره ، ثم يمضي بقية حياته في جحيم معرفته ..

لقد أدرك أخيراً، بعد سنوات من البحث عن مخطوطات نوستراداموس المفقودة ، أن نوستراداموس لم يكن يتنبأ بالمستقبل كما يراه البشر. بل كان يحذر، ببساطة، من أن الإنسان قد يجد الطريقة للنجاة، لكنه سيفقد المعنى.

الفصل الثاني

مفهوم X ماري

معلومات تمهيدية :

((كوكب المريخ هو الكوكب الرابع من حيث البعد عن الشمس في النظام الشمسي.

يُعرف بلونه الأحمر بسبب انتشار أكاسيد الحديد على سطحه. يقع بين كوكب الأرض والمشتري، ويُعد أقرب الكواكب شبهًا بالأرض.

يبلغ قطره نحو نصف قطر الأرض تقريبًا. يمتلك المريخ يومًا قريبًا من طول اليوم الأرضي، حوالي أربع وعشرين ساعة ونصف.

أما سنته فتمتد لما يقارب سنتين أرضيتين. سطحه متنوع جغرافيًا بين سهول شاسعة، وبراكين عملاقة، وأودية عميقة.

يضم أعلى بركان معروف في النظام الشمسي، جبل أوليمبوس. كما يحتوي على وادي مارينر، وهو أخدود هائل يفوق أي وادٍ على الأرض.

للمريخ قطبان مغطيان بالجليد، يتكونان من ماء متجمد وثاني أكسيد الكربون.

غلافه الجوي رقيق جدًا مقارنة بغلاف الأرض. يتكوّن أساسًا من ثاني أكسيد الكربون مع آثار ضئيلة من الأكسجين.

درجات حرارته منخفضة، وقد تهبط إلى ما دون **100** درجة مئوية تحت الصفر.

لا يحتوي حاليًا على ماء سائل على سطحه.

لكن توجد دلائل قوية على وجود ماء قديم في الماضي.
تنتشر على سطحه عواصف غبارية قد تغطي الكوكب بأكمله.
يملك قمرين صغيرين هما فوبوس و ديموس.
جاذبيته أضعف من جاذبية الأرض بكثير.
يُعد هدفًا رئيسيًا لاستكشاف الفضاء والبحث عن الحياة.
وما يزال المريخ يثير فضول الإنسان كسؤال مفتوح عن الماضي
والحياة خارج الأرض.))

المريخ / مدينة X مارس 1

بعد خمسين سنة .. 2084 م ..

لم تكن المركبة الفضائية تشبه الصواريخ التي عرفها البشر في بدايات أحلامهم. لا أنف مدبب ولا جسد عدواني يشق السماء بعنف. كانت أقرب إلى كائنٍ هندسيٍّ هادئٍ، بيضاويٍّ الشكل، متعدد الطبقات، كأنها فكرةٌ صُقلت أكثر مما صُنعت. هيكلها الخارجي بلونٍ بين الفضيِّ والرماديِّ الداكن، يعكس ضوء الأرض لحظة الإقلاع، ثم يتخلّى عنه تدريجيًّا، كأنها تتدرّب على النسيان.

اسمها محفور بخطٍ بسيط قرب بوابة الصعود:

X-Orbiter VII.

لا زخرفة، لا شعارات وطنية، لا أعلام. هذه ليست رحلة دولة، بل رحلة بشرٍ اشتروا حقّ النظر من زاويةٍ أخرى. ثمن التذكرة مئة ألف دولار، وثمان التجربة إعادة تعريف الذات.

في الداخل، لم يكن التصميم وظيفيًّا فحسب، بل نفسيًّا. الجدران من مادة بيضاء دافئة، لا تعكس الصوت بقسوة، والإضاءة ناعمة تتغير تدريجيًّا مع مراحل الرحلة. المقاعد ليست صفوفًا، بل دوائر، كأن الجميع متساوون أمام المجهول. مئة سائح، من أعمار ولهجات وملامح شديدة الاختلاف، جمعهم شيء واحد لا يُفسّر بسهولة: رغبة عميقة في مغادرة الأرض دون أن يموتوا.

عند لحظة الإقلاع، لم يكن هناك عدٌّ تنازلي صاخب. فقط صوت منخفض، أقرب إلى تنفّس عميق، ثم اهتزاز خفيف، ثم شعور غامض بأن الجاذبية قررت أن تأخذ استراحة قصيرة.

لم تكن الرحلة وعدًا بالمغامرة فقط، بل بزيارة مكانٍ أصبح، خلال عشر سنوات، رمزًا لجرأة الإنسان وحدوده في آنٍ واحد. مدينة X مارس 1 لم تُبن لتكون جميلة، بل لتكون ممكنة. أول مدينة مصغرة في مشروع X مارس الكبير، مشروع لم يُعلن عنه بوصفه هروبًا من الأرض، بل امتدادًا لها. مجموعة من القباب المتصلة، مدفونة جزئيًا تحت سطح المريخ، كأنها تحتمي من الكوكب كما تحتمي الأفكار الجديدة من النقد.

المدينة لا تضم شوارع، بل ممرات. لا ناطحات، بل طبقات. لا سماء زرقاء، بل سقوفًا شفافة تسمح بدخول الضوء المريخي الخافت. عاش فيها علماء ومهندسون وأطباء وأطفال وُلدوا وهم يرون الشمس بلونٍ مختلف. عشر سنوات فقط، لكنها بدت كأنها قرنٌ كامل من التكيف مع العزلة.

الغاية من الرحلة السياحية لم تكن الترفيه وحده، بل التطبيع. أن يصبح المريخ مكانًا يُزار، لا فكرة تُخاف. أن يرى السائح بعينه أن الحياة يمكن أن تنمو حتى فوق الصدا.

حين استقرت المركبة في مسارها بين الأرض والمريخ، فُتحت النوافذ البانورامية. لم تكن نوافذ عادية، بل أقواس زجاجية شفافة تمتد من الأرضية حتى السقف، كأنها تُلغي فكرة الجدار. وقف السياح واحدًا تلو الآخر بلا اتفاق ولا كلمات. الفضاء لا يُشاهد، بل يُستوعب بصعوبة. سوادٌ ليس فارغًا، بل ممتلئٌ بنقاط ضوء قديمة، نجوم لا تُضيء الحاضر، بل الماضي، وكل نقطة منها رسالة متأخرة.

الأرض بدت خلفهم كرة زرقاء، هشة، جميلة على نحوٍ مؤلم. لا حدود، لا أسلاك، لا حروب مرئية. فقط لونٌ واحد يطفو كفكرةٍ نجحت صدفة. بعض السياح بكوا بصمت، وآخرون ابتسموا دون سبب. امرأة وضعت يدها على الزجاج كأنها تلمس الفراغ، ورجل أغمض عينيه خوفًا من أن يتغير داخله شيء لا يستطيع إعادته.

في تلك اللحظة، لم يكن الفضاء منظرًا، بل مرآة. كل واحد رأى نفسه أصغر، وأوضح.

مع مضي الوقت ، بدأ المريخ يكبر ببطء، لا كاقتراب، بل كاقتراب متردد. لونه الأحمر لم يكن صارخًا، بل عميقًا، متدرجًا، كأن الكوكب يحمل ذاكرة حديدٍ قديم. تفاصيله بدأت تظهر: أخاديد، ظلال، مرتفعات تشبه ندوبًا لم تُشف. خففت المركبة سرعتها، وتغير الصوت، لم يعد صامتًا تمامًا، بل صار أقرب إلى خفقانٍ منتظم. الجاذبية عادت خفيفة وغريبة، غير مألوفة، كأن الجسد يتعلم وزنًا جديدًا.

عند الهبوط، لم يكن هناك ارتطام، بل احتضان بارد. الغبار المريخي ارتفع قليلًا ثم استقر، كأنه يعترف بالضيف الجديد. أعلنت الجملة القصيرة عبر النظام الداخلي : « مرحبًا بكم على المريخ ». لم يصفق أحد. هذه لم تكن لحظة تصفيق، بل لحظة صمت.

ارتدى السياح بدلاتهم الفضائية المتطورة. لم تكن ضخمة ولا مخيفة، بل أنيقة، بيضاء مع خطوط دقيقة، مصممة لتكون امتدادًا للجسد لا درعًا ضده. الخوذ شفافة بالكامل، تسمح للوجه بأن يُرى، لأن هذه التجربة لا تُعاش خلف أقنعة.

حين وطأت أقدامهم سطح المريخ، كان الشعور غريبًا. الأرض ليست أرضًا، بل تربة خفيفة كأنها لم تقرر بعد أن تكون صلبة. الخطوات بطيئة، القفز أسهل، الجسد أخف، لكن القلب أثقل. السماء ليست زرقاء، بل بلون بين البرتقالي والرمادي. الشمس أصغر وأبعد، كأنها تراقب من دون تدخل. الصمت مطلق، لا ريح تُسمع، لا طائر، لا حياة مرئية، لكن الإحساس بالحياة كان طاغيًا.

ثم التفتوا.

رأوا كوكب الأرض.

نقطة زرقاء صغيرة، بعيدة، معلقة في الفراغ. لا يمكن تمييز القارات، ولا المدن، ولا البيوت. فقط نقطة، جميلة، هشة. كل شيء عرفوه هناك، هو الآن بحجم فكرة.

حين دخل السياح المدينة، لم يشعروا أنهم يعبرون بوابة، بل كأنهم ينتقلون من تعريفٍ إلى آخر للحياة.

الممر الأول كان منخفض السقف، دائريّ الجدران، مبطنًا بمادة شفافة شبه عضوية، لا هي معدن خالص ولا زجاج،

بل شيء بينهما، كأن المدينة اختارت أن تكون حيّة دون أن تدّعي ذلك. الهواء تغيّر فورًا؛ لم يعد جافًا كما على السطح، بل ناعمًا، ذا رائحة خفيفة تشبه المطر الأول على حجرٍ ساخن.

توقفوا تلقائيًا. ليس لأن أحدًا أمرهم، بل لأن أجسادهم أدركت قبل عقولهم أن البدلات لم تعد ضرورة. الضوء الداخلي كان أبيض مائلًا إلى الأزرق، لا يرهق العين، ولا يذكر بالشمس، بل بشيء اصطناعي صادق لا يحاول التقليد. أُضيئت إشارات صغيرة على خوذهم، علامة صامتة تعلن أن الأكسجين متوفر، وأن الضغط مستقر، وأن الخطر - ولو مؤقتًا - قد أُجِّل.

خلعوا البدلات ببطء، كما لو كانوا يخلعون طبقة من الخوف لا من القماش. الأقمشة التقنية انسحبت عن الأجساد، الأصوات عادت : احتكاك خفيف، أنفاس تُسمع، همسات غير مقصودة. كان الأكسجين مختلفًا. ليس لأن تركيبه مختلف، بل لأن وعيهم به كان جديدًا. هواء مصنوع، نعم، لكنه هواء لا يعتذر عن كونه كذلك.

في قلب المدينة، كانت وحدات توليد الأكسجين تعمل بصمتٍ منتظم. لم تكن أشجارًا، بل كانت أقرب إلى مصانع خضراء. خزانات مملوءة بطحالب دقيقة، كائنات صغيرة لا تُرى بالعين المجردة، لكنها تقوم بعملٍ يشبه المعجزة بتواضع. تمتص ثاني أكسيد الكربون، وتُطلق الأكسجين، لا بدافع الحياة، بل لأن هذا ما خلقت لتفعله. إلى جانبها، أنظمة تحليل كهربائي تفصل ذرات الماء المستخرج من الجليد المريخي القديم، تحرّر الأكسجين وتخزّنه، ثم تضخه في شبكة معقّدة من الأنابيب التي تتنفس بها المدينة.

كان هناك شيء فلسفي في هذا كله : الحياة هنا لا تأتي من الطبيعة، بل من قرار. الأكسجين ليس هبة، بل نتيجة معادلة. ومع ذلك، حين دخل الرئتين، لم يسأل أحد عن مصدره.

في الساحة المركزية، حيث تتقاطع الممرات وتعلو القبة الشفافة قليلًا، كان ينتظرهم رجل واحد. طويل القامة، نحيل على نحوٍ يوحي بأن الجاذبية الأخف أعادت تشكيل جسده بمرور السنوات. شعره رمادي فاتح، لا لأنه عجوز، بل لأنه لم يعد يهتم بإخفاء الزمن. عيناه بلونٍ يصعب تحديده، كأنهما انعكاس للسماء المريخية نفسها.

ابتسم ابتسامة لا تحمل ترحيبًا سياحيًا تقليديًا، بل نوعًا من الاعتراف الضمني بحجم المغامرة. ثم قال :

● مرحبًا بكم في المكان الذي لا يجرؤ أيًا كان على زيارته .

كان هذا هويت مارفان. المرشد السياحي، والمؤرخ غير الرسمي، وأحد أوائل من قرروا أن يعيشوا هنا لا بوصفهم روادًا، بل سكانًا. صوته هادئ، غير متحمس، كأن القصة التي سيحكّيها أثقل من أن تُقال بحماسة.

بدأ يسير، و بدأوا يتبعونه دون أن يطلب. قال بحماسة :

◎ إن كل مدينة تبدأ بفكرة، لكن هذه المدينة بدأت برواية. رواية قديمة، كتبها الأديب فيرنر فون براون في أواسط القرن العشرين، لم تكن خريطة علمية بقدر ما كانت حلمًا منضبطًا. رواية « مشروع المريخ » لم تكن آنذاك سوى صفحات، كلمات، تصوّر إنسانًا يدعى إيلون يجرؤ على تخيل نفسه خارج الأرض دون أن يفقد إنسانيته.

مرّت العقود وتحوّلت الفكرة إلى هاجس. ثم جاء رجل حمل اسمه نبوءة الرواية ، لم يتعامل مع الخيال بوصفه ترفًا، بل خطة مؤجلة. إيلون ماسك لم يزرع مدينة، بل زرع بذرة سؤال :

ماذا لو لم تكن الأرض كافية ؟

لم يبن القباب الأولى ليهرب البشر، بل ليختبروا قدرتهم على البدء من جديد دون ذاكرة زائدة.

أشار هويت إلى جدارٍ شفاف خلفه، حيث تظهر وحدات قديمة، أصغر، أقل إتقانًا. ثم قال بحنين واضح :

◎ إن تلك كانت البذرة. أول مساكن، أول مختبر، أول ليلة

نام فيها إنسان وهو يعلم أن العودة ليست مضمونة. ثم بدأت المدينة تكبر لا بالقفز، بل بالتراكم. كل قبة جديدة كانت نتيجة فشل سابق، وكل ممر كان تصحيحًا لمسار.

الأطفال الذين وُلدوا هنا من باب التجربة و الدراسة ، لم يعرفوا الأرض إلا صورًا. لم يحملوا حنينًا، بل فضولًا. لغتهم تشكّلت ببطء، مفرداتها أقل، لكنها أدق. لم يسألوا لماذا السماء حمراء، بل لماذا كانت زرقاء هناك.

توقف عند نقطة مرتفعة قليلًا، حيث يمكن رؤية معظم المدينة دفعة واحدة. و علّق :

① إن الاستيطان لم يكن انتصارًا، بل مفاوضة مستمرة مع كوكب لا يهتم بوجودهم. نحن هنا لأننا قبلنا أن نكون ضيوفًا، لا مالكين ..
نظر السياح حولهم. لم يروا مدينة بطموح استعماري، بل مجتمعًا هشًا، واعيًا بهشاشته. فهموا، دون أن يُقال لهم، أن المريخ لا يُفرض عليه، بل يُصغى إليه.

تقدّم هويت بضع خطوات، ثم استدار ببطء، كمن لا يريد أن يسبق الكلمات بالأقدام. أشار بيده لا إلى نقطة محددة، بل إلى الفراغ المحيط، و أردف :

② إن المدينة لا تُفهم من مخططاتها، بل من طبقاتها، لأن كل طبقة هنا تمثل قرارًا أخلاقيًا بقدر ما تمثل حلًا هندسيًا.

إن القسم الأقرب إلينا هو قلب المدينة، حيث الحياة اليومية تُدار بلا بطولات. هناك وحدات السكن، صغيرة لكنها ذكية، جدرانها تتحرك، وأسقفها تتغير وفق إيقاع النوم والعمل. لا نوافذ على الخارج، لأن الخارج لا يُطمئن، لكن شاشات تعرض سماء الأرض في ساعات محددة، لا لتغذية الحنين، بل لتذكير السكان بأن هذا المكان لم يُبنَ ليحل محلها، بل ليكون بديلًا حين تفشل.

أبعد قليلًا، في مستوى أعمق، تقع منطقة الزراعة. ليست حقولًا كما عرفها البشر، بل أعمدة رأسية، طبقات من الضوء والماء والطحالب والنباتات المعدلة وراثيًا لتفهم القسوة دون أن تستسلم لها. الطعام هنا لا يُقدّس، لكنه يُحترم. كل ثمرة تُحسب، كل ورقة تُراقب، لأن الحياة على المريخ لا تسمح بالإسراف، لا في الموارد ولا في الأوهام.

ثم هناك المنطقة العلمية، حيث لا يُجرى البحث بدافع الفضول وحده، بل بدافع البقاء. مختبرات واسعة تدرس التربة، الإشعاع، العظام البشرية تحت جاذبية أقل، والنفس الإنسانية حين تُعزل طويلًا عن

سماء تعرفها. نحن تعلّمنا سريعًا أن الجسد يتكيّف أسرع من الروح، وأن أصعب ما في الاستيطان ليس بناء القباب، بل الحفاظ على معنى الأيام.

مرّوا قرب ممرّ طويل يقود إلى ما يشبه الساحة المفتوحة، تحت قبة أعلى من غيرها. تابع هويت :

● هنا يجتمع الناس. لا لاحتفالات كبيرة، بل لأشياء بسيطة : موسيقى، حديث، صمت مشترك. هذا القسم لم يكن في المخططات الأولى، لكنه أضيف بعد سنوات، حين أدركوا أن المدينة التي لا تملك مكانًا للفراغ، تختنق حتى لو كان هواؤها مثاليًا.

ثم تغيّر صوته قليلًا، لا حزنًا ولا حماسة، بل جدية أثقل. و مضى في شرحه الإرشادي :

● إن هذه المدينة ليست نهاية المشروع، بل بدايته المتواضعة. المشاريع القادمة لا تُبنى كلها هنا، بل حولها، وتحتها، وأبعد منها. قباب أكبر، مدن متصلة، أنفاق طويلة تحمي البشر من الإشعاع، ومراكز توليد مستقلة للطاقة والماء والهواء، بحيث لا يكون أي تجمع بشري معتمدًا بالكامل على الآخر. التوسّع هنا ليس ترفًا، بل شرط نجاة.

إن هناك خططًا لمدن متخصصة : واحدة للعلم فقط، واحدة للزراعة الموسّعة، وأخرى للتجريب الاجتماعي، حيث يُختبر العيش طويل الأمد بأجيال متعاقبة. ليس بهدف صنع إنسان جديد، أضاف سريعًا، بل لفهم إن كان الإنسان الحالي قادرًا على الاستمرار دون أن يتشقق من الداخل.

وحين ذُكرت الأرض، لم ينخفض صوته، بل ازداد وضوحًا.

① إن المريخ لم يُخطط له ليكون بديلاً رومانسيًا، بل خطة طوارئ أخلاقية. إذا أصبحت الحياة على الأرض غير ممكنة، بسبب الماء أو النار أو الهواء أو الإنسان نفسه، فلا بد من مكان لا يحمل ذاكرة تلك الأخطاء كاملة. مكان يبدأ بنصف فرصة، لا أكثر.

توقف قليلاً، نظر إلى وجوه السياح، ورأى في عيونهم ذلك السؤال الذي لم يُطرح. فأجاب عليه بلا دعوة :

② إن الانتقال الجماعي ليس قريباً، وربما لن يحدث أبداً، لكن الاستعداد له يغيّر طريقة عيش البشر الآن. حين تعرف أن لك خياراً آخر، تتصرف بمسؤولية أكبر... أو بتهور أكبر. والتاريخ لم يقرر بعد أيهما سنختار.

صمت لبرهة ثم أضاف :

③ إنَّ الحلم المريخي ليس الهروب من الأرض، بل إعادة تعريف معنى الوطن. هل هو مكان وُلدت فيه ؟ أم مكان تستطيع أن تعيش فيه دون أن تفقد نفسك ؟

هنا، على هذا الكوكب الصامت، نختبر هذا السؤال يوميًا، دون شعارات، ودون خطب.

ابتسم هويت ابتسامة غامضة، ثم قال وكأنه يخاطب المريخ أكثر مما يخاطب السياح :

④ هذه المدينة ليست حجارة وممرات مضغوطة بالهواء فقط، إنها السطر الذي كُتب أخيراً من نبوءة بدأت قبل خمسة قرون و اكتشفت قبل خمسة عقود.

نوستراداموس لم يكن يرى المريخ كما نراه نحن، بل كان يراه احتمالاً، باباً يُفتح عندما تضيق الأرض بأهلها.

وجودنا هنا يعني أن الشق الأول من نبوءته قد تحقق بالفعل :
الوصول إلى الكوكب الصديء، والسكن في قلب صمته.

لكن النبوءات لا تُكافئ البشر كاملاً، بل تترك دائماً مسافة للقلق.
الشق الآخر يتحدث عن نسخة واحدة، عن بشر بلا تباين، بلا صراع،
بلا اختلاف.

قد يكون ذلك علماً، وقد يكون هروباً من ضعفنا الإنساني.
الخطر ليس في الفناء المباشر، بل في النجاة بثمن باهظ.
نحن هنا نحقق الحلم، نعم، لكننا نوقظ السؤال أيضاً.
و مع نبوءة نوستراداموس تنتهي جولتنا السياحية الأولى لهذا اليوم.

حين أنهى هويت كلامه، لم يعلّق أحد. لم يكن ذلك نقصاً في
الإعجاب، بل لأن الجميع شعر بأن ما قيل لم يكن عرضاً سياحياً،
بل وصية غير مكتملة. المدينة من حولهم كانت تعمل، تتنفس، تنتظر.
ليست متعجلة لاستقبال البشر، لكنها مستعدة... إذا اضطروا يوماً
لأن يأتوا وهم يعرفون تماماً ما الذي يتركونه خلفهم.

الفصل الثالث

CRISPR

معلومات تمهيدية :

((تقنية **CRISPR** هي أداة حديثة لتعديل الجينات داخل الخلايا الحية.

فكرتها الأساسية تشبه استخدام مقص دقيق جدًا لقص الحمض النووي.

الحمض النووي هو الشفرة التي تحمل تعليمات بناء الكائن الحي.

كريسبر تسمح للعلماء بتحديد مكان الخطأ في هذه الشفرة.

بعد القص، يمكن حذف الجين المعيب أو استبداله بآخر سليم.

التقنية مستوحاة من نظام دفاعي موجود في البكتيريا.

وقد طوّرها العلماء لتصبح أداة دقيقة في المختبرات.

تتميز بالسرعة والدقة مقارنة بوسائل التعديل القديمة.

وتُستخدم اليوم في أبحاث الطب وعلاج الأمراض الوراثية.

كما تُدرس في مجالات السرطان والأمراض المستعصية.

لكن تأثيرها لا يتوقف عند العلاج فقط.

فهي تفتح نظريًا باب التحكم ببعض الصفات الوراثية.

مثل القابلية للأمراض أو القوة الجسدية أو حتى الذكاء.

وهنا يظهر السؤال المقلق :

هل يمكن تصميم إنسان بصفات مختارة ؟

الفكرة لم تعد خيالًا علميًا خالصًا كما في الماضي.

لكنها ما تزال محاطة بقيود علمية وأخلاقية صارمة.

العلم قادر على التعديل، لكنه لا يملك حكمة الاختيار دائمًا.

ولهذا تُعد كريسبر سلاحًا ذا حدين.
أداة شفاء محتملة، أو وسيلة لإعادة تعريف الإنسان.
ويبقى القرار النهائي بيد الإنسان... لا الجينات. ((

بعد أربعين سنة ..

الولايات المتحدة الأمريكية / كاليفورنيا

2125 م ..

كان الطبيب داني برايتمان قد بلغ الحادية والستين، لكن الزمن لم يكن يمسك به من العمر إلا رقمه، فلامحه كانت تنتمي إلى زمن آخر، زمن يتقدم فيه الفكر أسرع من الجسد. وجهه نحيل، كأن سنوات التفكير قد سحبت اللحم الزائد وأبقت العظم والمعنى. عيناه رماديتان، ليستا حادثين ولا وديعتين، بل عميقتان على نحوٍ مقلق، كأن من ينظر فيهما يشعر أنه يُرى أكثر مما يرى. شعره أبيض مبكرًا، لكنه لم يكن دليل تعب، بل شاهدٌ على احتراق داخلي طويل، احتراق عقلٍ لم يعرف الراحة. كان يرتدي دائمًا ملابس بسيطة، معطفًا أبيض فقد بريقه منذ زمن، وقميصًا داكنًا بلا ربطة عنق، كأن الأناقة بالنسبة له فكرة فائضة عن الحاجة.

طباعه هادئة إلى حدٍ يُساء فهمه. يتكلم قليلًا، يصغي كثيرًا، وحين يتكلم يفعل ذلك بلا زخرفة، بلا محاولة إقناع، كأنه يلقي حقيقة لا رأيًا. لكن خلف هذا الهدوء عناد صلب، عناد من لا يغير قناعاته إلا إذا اقتنع هو، لا إذا أُقنع. كان يؤمن أن العلم لا يُدار بالديمقراطية، بل بالبصيرة، وأن الأفكار الكبرى غالبًا ما تولد في عزلة، لا في لجان. طموحه لم يكن صاخبًا، لم يسع إلى الجوائز ولا إلى المنصات، لكنه كان طموحًا عميقًا، يشبه الجذور لا الأغصان، طموحًا يريد أن يغير الأساس لا السطح.

تخصصه في البيولوجيا الجزيئية الخلوية لم يكن خيارًا مهنيًا بقدر ما كان قدرًا. منذ شبابه المبكر انجذب إلى ما لا يُرى، إلى الخلية

بوصفها كونًا مصغّرًا، وإلى الجينات بوصفها لغة قديمة تكتب الحياة ثم تعيد كتابتها بلا استئذان. وحين تعرّف على تقنية **CRISPR** التي ظهرت منذ قرن، لم يرَ فيها أداة فقط، بل مفتاحًا فلسفيًا : لأول مرة صار الإنسان قادرًا على مراجعة النص الذي كُتب به. لم يكن مهووسًا بالقوة، بل بالمسؤولية الثقيلة التي ترافقها. كان يقول في سرّه إن أرادت البشرية أن تقفز قفزات تطويرية كبرى ، فعليها أن تغير تركيب الإنسان أولاً ، فهو أساس التطور .

عائلته كانت صغيرة، بعيدة، كأنها فصل سابق من حياته. والدان رحلا باكراً، وأخت تعيش في ولاية أخرى، يتبادلان رسائل مقتضبة في الأعياد. لم يتزوج يوماً، لا لأنه لم يُحب، بل لأنه لم يعرف كيف يقسم قلبه بين إنسان وفكرة. علاقته العاطفية الوحيدة كانت مع مختبره، مع الضوء الأبيض البارد، مع الأصوات المنتظمة للأجهزة، مع الليالي التي تمتد حتى الفجر دون أن يشعر بها. كان المختبر بيته الحقيقي، والمكان الوحيد الذي يشعر فيه بأن العالم مفهوم، حتى وإن كان خطيراً.

هناك، بين أنابيب زجاجية وواجهات رقمية، كان يعمل على مشروعه السري. لم يخبر به أحداً، لا زملاءه ولا المؤسسات التي مولته يوماً. لم يكن المشروع تجربة عابرة، بل خلاصة عمرٍ كامل من التفكير والتردد والجرأة. لم يكن يسعى إلى علاج مرض بعينه، ولا إلى تحسين صفة محددة، بل إلى إعادة تعريف معنى الاستمرار الإنساني نفسه. كان يؤمن أن العالم يقف على عتبة جديدة، وأن الأدوات القديمة لم تعد كافية لعبور ما هو قادم.

في لياليه الطويلة، حين يفرغ المختبر إلا منه، كان يقف أحياناً أمام نافذة صغيرة تطل على مدينة نائمة، ويتساءل إن كان يملك الحق في ما يفعل. ثم يعود إلى طاولته، إلى شاشاته، إلى شفرته الجزيئية غير المرئية، مقتنعاً بأن التوقف لم يعد خياراً. كان يؤمن، بيقين هادئ لا

يعرف الضجيج، أن مشروعه لن يغيّر مسار العلم فقط، بل سيغيّر السؤال الذي يطرحه الإنسان عن نفسه :

هل نحن نتيجة ما كُتب لنا، أم ما نجرؤ على كتابته ؟

لم يكن مشروع داني برايتمان وليد لحظة إلهام عابرة، بل نتيجة تراكم بطيء، كترسٍ دار لعقود داخل عقله حتى استقر في موضعه الأخير. كان المشروع يقوم على شقين متوازيين، قديمين في الجوهر، جديدين في الجراة، كأنهما جناحان لفكرة واحدة تريد أن تطير خارج التاريخ المعروف. داني لم يرَ في عمله تحديًا للطبيعة، بل حوارًا معها، محاولة لفهم منطقها العميق ثم إعادة صياغته بوعي إنساني.

الشق الأول كان الامتداد الطبيعي لمسيرته كلها : التلاعب الواعي بجينات الإنسان، لا بهدف التجميل ولا التفوق الفجّ، بل لإنشاء إنسانٍ متوازن، عالي الكفاءة، قليل القابلية للمرض، قادر على الإنتاج دون أن ينهكه جسده. كان يتخيّل إنسانًا لا تُستنزف طاقته في مقاومة العلل، ولا تُهدّر سنواته في صراع بيولوجي أعمى. إنسانًا تُخفّف عنه أعباء الأخطاء الوراثية المتراكمة عبر آلاف السنين، تلك التي لم تكن يومًا جزءًا من "الاختيار"، بل نتيجة صدف قاسية.

في ذهنه، لم يكن "الإنسان الكامل" كائنًا خارقًا، بل إنسانًا عادلاً مع جسده. جهاز مناعي لا ينقلب على نفسه، خلايا لا تنمو بلا معنى، أعضاء تعمل بتناغم لا بصراع. كان يرى أن الحضارة تطورت في أدواتها وأنظمتها، لكنها تركت الجسد متأخرًا، يدار بقوانين بدائية لا تعرف الرحمة. هذا الشق من المشروع كان، في نظره، وعدًا بتحرير الإنسان من هشاشته غير الضرورية، لا من هشاشته الوجودية التي تعطيه المعنى.

أما الشق الثاني، فكان مختلفًا، أكثر جرأة، وأكثر خطورة، وأكثر اقترابًا من جوهر النبوءات القديمة التي طالما قرأها داني بشغفٍ علمي لا ديني. اكتشافه للجين المسؤول عن مدة الحمل عند الإنسان لم يكن مجرد إنجاز بيولوجي، بل زلزالًا مفاهيميًا. لماذا يحتاج الإنسان إلى تسعة أشهر كاملة، بينما حيوانات أخرى، أكثر تعقيدًا في بعض أنظمتها، تمر بتجربة الحمل في مدد أقصر بكثير ؟ كان يتأمل الطبيعة : حيوانات تولد بعد أسابيع، أخرى بعد أيام، وبعضها يأتي إلى العالم شبه مكتمل الاستقلال. لم يرَ في ذلك نقصًا إنسانيًا، بل خيارًا تطوريًا قديمًا، ربما لم يعد مناسبًا لعصر جديد.

فكرة اختزال فترة الحمل إلى ساعات قليلة لم تكن في عقله عبثًا أو جنونًا. كان يتصور عالمًا تُفك فيه عقدة الانتظار الطويل، عالمًا لا تُقَيّد فيه حياة المرأة بتسعة أشهر من التحوّل الجسدي والنفسي القاسي، عالمًا تُولد فيه الحياة دون أن تكون عبثًا بيولوجيًا طويل الأمد. لم يكن الهدف تسريع الزمن، بل إعادة توزيعه. أن تصبح الولادة حدثًا، لا رحلة استنزاف. أن يصبح الإنجاب قرارًا عقليًا لا مقامرة جسدية.

حين اكتملت الفكرة في رأسه، حين التحم الشقان في رؤية واحدة، تغيّر داني من الداخل. لم يقفز، لم يصرخ، لم يحتفل. جلس طويلًا في مختبره، يحدّق في الفراغ، وكأن عقله سبق جسده بخطوة خطيرة. شعر بشيء يشبه الخوف، لكنه لم يكن خوف الفشل، بل خوف النجاح. إحساس ثقيل بأن ما بين يديه لم يعد يخصه وحده، وأن العالم، دون أن يدري، يقف على بعد خطوة من إعادة تعريف ذاته.

تسللت إلى نفسه عزلة أعمق من أي وقت مضى. صار ينام أقل، لا لأن العمل يطارده، بل لأن الفكرة لا تتركه. كان يشعر أنه يقف على حافة زمنين : زمن الإنسان كما عُرف، وزمن الإنسان كما يمكن أن يكون. أحيانًا، وهو يسير في ممرات المختبر الخالية، كان يسمع

صدي خطواته كأنها آتية من مستقبل بعيد، مستقبل سيذكر اسمه إما كمنقذ أو كمذنب.

ومع ذلك، لم يتراجع. كان هناك يقين هادئ، صامت، يشبه يقين الجبال. إحساس داخلي بأنه قاب قوسين أو أدنى من تغيير العالم إلى الأبد، لا بضربة هائلة واحدة، بل بتعديل صغير في الشيفرة العميقة للحياة. كان يعرف أن البشرية لن تعود كما كانت إن خرج هذا المشروع إلى النور. وكان السؤال الوحيد الذي لم يجد له جواباً بعد هو :

هل العالم مستعد فعلاً لأن يولد من جديد... في ساعات قليلة؟

ما إن تسربت ملامح مشروع داني برايتمان إلى العلن، حتى بدا كأن طبقات خفية من العالم قد استيقظت دفعة واحدة، لا لتفهم، بل لتقاوم. المجتمع العلمي، الذي طالما اعتبره داني بيته الطبيعي، لم يستقبله بالدهشة بقدر ما استقبله بالتحفظ البارد، ذلك التحفظ الذي يختبئ خلف لغة دقيقة لكنه يحمل خوفاً قديماً من القفز خارج المألوف. في المؤتمرات، جلس علماء بوجوه جامدة، يستمعون ثم يرفعون أيديهم لا لطرح أسئلة، بل لرسم حدود. قال أحدهم إن المشروع "يقفز فوق أخلاقيات البحث"، وقال آخر إن "العلم لا يملك تفويضاً لإعادة كتابة الإنسان". كانت كلماتهم مصقولة، منطقية، لكنها في عمقها كانت دفاعاً عن نظام اعتاد البطء، وعن يقين يخشى التسارع.

في لقاءات متلفزة، ظهر علماء أحياء مرموقون يتحدثون بنبرة تحذير. أحدهم قال إن تعديل الجينات على هذا النطاق "يفتح باباً لا يمكن إغلاقه"، وآخر حذر من "تحويل الإنسان إلى منتج قابل للتحسين والتحديث". لم ينكروا عبقرية داني، لكنهم حاصروها، كأن العبقرية نفسها صارت موضع اتهام. كان الاعتراض الحقيقي، غير

المعلن، هو الخوف من أن ينجح. لأن النجاح هنا لا يعني اكتشافًا جديدًا، بل انهيار أسئلة قديمة عاش عليها العلم طويلاً.

أما المؤسسة الدينية، فقد جاءت ردة فعلها أكثر صخبًا وأقل التباسًا. رجال دين من مذاهب متعددة وقفوا على المنابر، في الكنائس والمساجد والمعابد، يتحدثون عن "التدخل في إرادة الخلق"، عن "كسر التوازن الذي أراده الله"، عن "خطرة الإنسان حين يظن نفسه خالقًا". في مقابلات مطولة، قال أحدهم إن اختزال الحمل إلى ساعات "إلغاء لسرٍّ مقدس" حيث يحتاج الأبوان فترة الانتظار الطويلة هذه كي يفهموا قيمة الأبناء فيعتنوا بهم و يمنحوهم الحب و الحنان و الرعاية المناسبة ، وقال آخر إن "الإنسان ليس نصًا يُحرَّر، بل أمانة تُحفظ". لم يكن الخطاب دقيقًا علميًا، لكنه كان قويًا رمزيًا، يخاطب خوفًا عميقًا في النفوس : **الخوف من عالم بلا أسرار.**

ثم جاء الصوت الشعبوي، الأعلى والأكثر فوضى. الشارع امتلأ بلافتات، بوجوه غاضبة، بشعارات تختصر التعقيد في جملة واحدة : "لا للعب دور الإله". مظاهرات في مدن كبرى، حشود تصرخ باسمه كأنه شتيمة، صورته تُحرق، ومشروعه يُختزل في كاريكاتير مرعب لطفل يولد من أنبوب بلا أم. مواقع التواصل اشتعلت، نظريات مؤامرة، مقاطع مجتزأة، تحليلات غاضبة من أناس لم يقرأوا سطرًا واحدًا من بحثه، لكنهم شعروا أن شيئًا ما يهدد صورتهم عن أنفسهم.

في خضم هذا كله، كان داني يراقب من بعيد، كمن يشاهد حريقًا التهم بيته وهو ما يزال واقفًا في الداخل. الغضب لم يأتِ أولًا، بل خيبة أمل ثقيلة، بطيئة، تشبه تسرب الماء إلى العظام. شعر أن سنوات العزلة، الليالي البيضاء، الحوار الصامت مع الخلايا والجينات، كلها تبخرت فجأة، كأنها لم تكن. لم يؤلمه الرفض بحد ذاته، بل سطحية

الرفض، ذلك الرفض الذي لم يحاول حتى أن يفهم.

الغضب أتى لاحقاً، على شكل نوبات صامتة. لم يصرخ، لم يحطم شيئاً، بل جلس طويلاً في مختبره الخالي، يحدّق في الأجهزة التي صارت فجأة موضع ريبة. شعر أن العالم لم يرفض مشروعه فقط، بل رفض صورته عن المستقبل. كأن البشرية قالت له بوضوح : لسنا مستعدين لهذا التغيير الجذري بعد ..

تبخرت الأحلام في فضاء الرأي العام ، و بقيت الخيبة في صدره كملح لاذع، يحرق الجرح بدل أن يحفظه. ملح الرفض الذي لا يلتئم معه شيء. تساءل، لأول مرة بصدق مؤلم، إن كان قد سبق زمنه أكثر مما ينبغي، أو إن كان الزمن نفسه يخاف أن يُسبق. ومع ذلك، في عمق هذا الألم، بقي شيء صغير لم ينطفئ : يقينٌ عنيد بأن الأفكار التي تُقابل بهذا القدر من الخوف لا تموت، بل تنتظر. وأن العالم، مهما صرخ ورفض، سيعود يوماً ما، متعباً، باحثاً عن الحلول ... ويجد - وفق قناعاته - اسمه هناك، محفوراً في بداية الطريق ، فهذا كان عزاء العلماء المرفوضين على الدوام عبر صفحات التاريخ .

الفصل الرابع

نقاط مختار

معلومات تمهيدية :

((على مر التاريخ، حاول البشر تعديل الصفات الوراثية لأجيال معينة بهدف تحسين السلالة البشرية.

أقدم المحاولات المدونة كانت ضمن حركة الإيجينية في أواخر القرن التاسع عشر، وكان مؤسسها فرانسيس غالتون في بريطانيا حوالي عام **1883** ..

الهدف المعلن من الحركة كان تشجيع الإنجاب لدى الأشخاص "الأصحاء والأذكاء"، وفي المقابل تم تقييد الإنجاب للأشخاص ذوي الإعاقات العقلية أو الجسدية.

بين عامي **1900** و **1930**، قامت دول مثل الولايات المتحدة والسويد بتطبيق قوانين التعقيم القسري، مما خلف آلاف الضحايا على نحو مخالف للضمير الإنساني و الأخلاق.

أما أكبر مشروع لتطبيق الإيجينية على نطاق دولة كان في ألمانيا النازية بين عامي **1933** و **1945**، حيث سعى النازيون إلى إنشاء "العرق الآري الخالص" عبر برامج تزاوج محددة، وفي الوقت نفسه استبعدوا أو قتلوا من اعتبروا "غير مرغوب فيهم"، مثل اليهود والغجر والمعاقين.

نتائج المشروع النازي كانت كارثية أخلاقياً وبشرياً ولم تنتج أي سلالة محسنة.

بعد الحرب العالمية الثانية، بدأ العلماء دراسة الصفات الوراثية في المختبرات، غالباً على الحيوانات مثل الفئران، لفهم الصفات الذهنية والبدنية، بينما أي تجارب على البشر كانت محدودة جداً أو ممنوعة قانونياً وأخلاقياً.

و اليوم مع تطور التقنيات الجزيئية و امكانية التلاعب بالجينات

يبقى الرادع الأخلاقي الجدار الوحيد بين البشرية و اجراء تجارب
أغرب من الخيال و غاية في الخطورة على الانسان أو الحيوان أو
النبات.. ((

الولايات المتحدة الأمريكية

بعد ثلاث سنوات .. 2128 م ..

لم يعد الطبيب داني برايتمان ذلك الرجل الذي كان يمشي في ممرات المختبر وكأنه يعرف إلى أين يتجه العالم. الزمن لم ينتقم منه بضربة واحدة، بل أنهكه بالتآكل البطيء. فشل تسويق مشروعه لم يأت كصدمة مفاجئة، بل كذبولٍ ممتد، سلسلة من الأبواب المغلقة، من الوعود المؤجلة، من الابتسامات المهنية التي تخفي رفضًا نهائيًا. في النهاية، أدرك أن العالم لم يكن يعارض فكرته فقط، بل كان مصممًا على نسيانها.

الاكتئاب لم يداهمه على هيئة حزن صاخب، بل تسلل كضباب كثيف. صار يستيقظ متأخرًا بلا سبب، يفقد اهتمامه بالأشياء التي كانت تمنحه المعنى، ويشعر بثقلٍ غير مرئي يجلس على صدره. المختبر، الذي كان امتدادًا لروحه، صار مكانًا خائفًا، كل جهاز فيه يذكّره بما لم يحدث، وكل ضوء أبيض يفيض فراغه الداخلي. ذات صباح، أغلق الباب خلفه بهدوء، لم يعلن شيئًا، لم يودّع أحدًا، كأن انسحابه كان تجربة أخيرة في الاختفاء.

اختار منزله الريفي البعيد عن المدن، حيث الطرق ترابية، والإشارات الخلوية ضعيفة، وحيث لا تصل الصحافة ولا الفضول العام. البيت قديم، تحيط به أشجار صامتة، وسقف خشبي يئنّ مع الريح، كأنه يشبهه. هناك، عاش داني على إيقاع بطيء، أيام تتشابه، ليالٍ طويلة بلا معادلات ولا شاشات. كان يمشي كثيرًا، لا ليصل إلى مكان، بل ليستهلك أفكاره. أحيانًا يجلس أمام نافذة تطل على الحقول، يراقب تغيّر الضوء، ويشعر أن العالم يمضي بدونه دون أن ينهار.

في عزلته، لم يكن هاربًا من الناس فقط، بل من نفسه السابقة. من ذلك الرجل الذي آمن أن العقل وحده يكفي لتغيير المصير. ومع ذلك، في قلب هذا الصمت، بقي شيء خافت ينبض، فكرة لم تمت تمامًا، بل دخلت في سباتٍ طويل. داني لم يعد يحلم بتغيير العالم، لكنه لم يكفّ عن الإصغاء إليه، كأن الاكتئاب نفسه صار مرحلة انتقال، انتظارًا غامضًا لشيء لم يجرؤ بعد على تسميته.

في هذا اليوم، كان المساء الصيفي ينسدل ببطءٍ مدروس، كأنه يعرف أن هذا الهدوء ليس عاديًا، وأن شيئًا ما سيكسره دون أن يعتذر. استلقى داني برايثمان على كرسيه الخشبي العريض أمام البحيرة، جسده غارق في تعبٍ قديم، وعينه نصف مغمضتين تتابعان ارتعاش الضوء على صفحة الماء. الكرسي، المصنوع من خشب داكن تشقق مع السنوات، كان يشبهه أكثر مما ينبغي؛ متينًا في جوهره، مهملاً في مظهره، صامتًا في ألمه.

المنزل الريفي خلفه كان ساكنًا، نوافذه مفتوحة على عتمة لطيفة، ورائحة الخشب المعتق تختلط برائحة الأعشاب البرية. لا أصوات سيارات، لا خطوات بشر، فقط همس الريح وصرير بعيد لحشرة ليلية. في تلك اللحظة، شعر داني بأن العالم قد نسيه أخيرًا، أو ربما أنه هو من نسي العالم، ولم يعد في الأمر فرق يُذكر.

كان داخله مزيجًا غريبًا من الخواء والراحة. حزن بلا دموع، تعب بلا شكوى، ورضا مؤقت بالانسحاب. السنوات الثلاث مرّت عليه كظلٍ طويل، ولم يعد يقاومها. كان ينظر إلى البحيرة لا كمن يبحث عن إجابة، بل كمن يقبل غيابها. حتى أفكاره صارت أقل حدة، أقل إلحاحًا، كأن العقل نفسه تعلم الصمت.

حين رن الهاتف، بدا الصوت جرحًا للمشهد، نغمة إلكترونية باردة لا تنتمي إلى هذا المكان. انتفض قليلًا، لا خوفًا بل استغرابًا، ونظر

إلى الشاشة بكسل. رقم غريب، طويل، بلا اسم، بلا بلد واضح. لحظة تردد مرّت عليه كوميض؛ كان يمكنه أن يتركه يرن، أن يحافظ على عزلة هذا المساء كما هي. لكن قلبه، رغم كل شيء، لم يمت فيه الفضول تمامًا.

مع رفع الهاتف إلى أذنه، شعر بتقلص خفيف في صدره، إحساس قديم عاد فجأة، إحساس الترقّب الذي كان يرافقه قبل التجارب الكبرى. صوته حين قال "ألو" خرج منخفضًا، متعبًا، لكنه ثابت. ومع الكلمات الأولى التي سمعها، تغيّر شيء في داخله، لا صدمة ولا فرح، بل وعي مفاجئ بثقل اللحظة. كأن الهواء نفسه صار أكثر كثافة، وكأن البحيرة توقفت عن الحركة احترامًا لما يحدث.

لم يفهم بعد ما الذي يُراد منه، ولم يحاول. كل ما شعر به كان ارتجافًا داخليًا دقيقًا، خليطًا من القلق والدهشة وشيء يشبه استيقاظ حلم قديم. حين أنهى المكالمة، بقي على كرسيه، الهاتف ساكن في يده، وعينه معلقتان على الأفق الذي ابتلعتة العتمة. أدرك، دون أن يعرف لماذا، أن هذا المساء الهادئ لم يعد مجرد مساء، وأن عزلته التي بدت كاملة قبل دقائق فقط، قد تشققت بصمت، كما يتشقق الخشب العتيق تحت ثقل غير متوقع.

لم يعد الأمر مجرد اتصالٍ غامض حين اتضحت الهوية كاملة، بثقلها الرمزي وبالارتجاف الخفي الذي تتركه في الوعي. لوثر بيرج. الاسم الذي لا يُذكر كثيرًا لأنه لا يحتاج إلى تكرار، الرجل الذي تصدرّ قوائم الثروة العالمية سنوات طويلة حتى صار رقمه المالي أشبه بأسطورة، لا يُقاس بالدولارات بقدر ما يُقاس بالنفوذ. رجل لا يظهر كثيرًا في العلن، لكن أثره حاضر في كل مكان، في المدن الذكية، في شبكات الطاقة، في المختبرات التي تغيّر خريطة الطب، وحتى في الفضاء حيث لا يفترض للمال أن يكون له ظل.

كان لوثر بيرج هو ذلك الظل. القابع خلف المشاريع الكبرى، الممول الصامت، العقل الذي يدفع دون أن يوقع، والذي يعرف متى يتراجع خطوة ليترك الآخرين يظنون أنهم في الواجهة. مشروع X مارس على كوكب المريخ لم يكن استثناءً، بل ذروة هذا الحضور الخفي. لم يظهر اسمه في البيانات الصحفية، ولم يُرفع تمثاله في المدينة الحمراء، لكن من داخل دوائر ضيقة جدًا، كان معروفًا أن الحلم المريخي لم يكن ليغادر الورق لولا تدخله في اللحظة الحرجة ليتبني المشروع و يموله، حين تردّد الجميع.

أن يطلب هذا الرجل لقاء داني برايتمان لم يكن حدثًا عاديًا، بل انزياحًا في ميزان العالم الصغير الذي عاش فيه داني ثلاث سنوات كاملة. لم يفرض لوثر مكانًا، ولم يحدّد مدينة أو زمانًا ضيقًا. قال فقط إنه مستعد للقاء داني متى يشاء، في أي مكان يفضلّه، وكأن المسافة لا تعني شيئًا حين يكون القرار قد اتُخذ. وكان هناك عرض، لم يُفصح عنه بعد، لكنه مرتبط مباشرة بمشروعه العلمي الأخير، بذلك المشروع الذي لفظه العالم بصوتٍ واحد ثم مضى.

هذا وحده كان كافيًا. لم يحتج داني إلى تفاصيل، ولا إلى وعود. مجرد أن يُنطق اسم مشروعه مرة أخرى، من فم رجلٍ يعرف كيف يغيّر مسارات التاريخ بهدوء، كان كافيًا ليحرّك شيئًا عميقًا في داخله. تلك الشعلة الصغيرة، التي ظنّها رمادًا منذ زمن، اشتعلت فجأة، لا كنارٍ صاخبة، بل كجمرٍ صامت عاد يتوهّج.

شعر داني، وهو ما يزال جالسًا أمام البحيرة، أن الهواء صار أخف، وأن ثقل السنوات الثلاث لم يختف، لكنه انزاح قليلًا عن صدره. لم يعد وحده في مواجهة فكرة نبذها الجميع. هناك، في مكانٍ ما من هذا العالم أو خارجه، رجل رأى ما رآه هو، أو على الأقل أدرك قيمته قبل أن يحترق. وللمرة الأولى منذ زمن طويل، لم يفكر داني فيما خسره، بل فيما قد يُستعاد. وكأن الحياة، التي أوشكت أن تطوي

صفحته بهدوء، قررت فجأة أن تعيد فتح الكتاب... من فصلٍ لم يُكتب بعد.

كانت المكالمات الهاتفية بينهما قد انتهت على اتفاق بلقاء يجمعهما هنا في منزله الريفي بعد ثلاثة أيام .

الجمال تتلاقى ..

وصل لوثر بيرج إلى المنزل الريفي كما تأتي الظلال الكبيرة : بلا ضجيج، وبلا حاجة إلى إعلان.

كانت السماء في ذلك الصباح ملبّدة بسحب خفيفة، لا تحجب الضوء تمامًا ولا تتركه حرًا، والبحيرة أمام المنزل تشبه صفحة تفكيرٍ متردد، ساكنة من بعيد، متكسرة في تفاصيلها القريبة.

وقف داني عند الباب حين رآه يقترب.

لاحظ أولاً مشيته : بطيئة، واثقة، كأن الأرض تعرفه وتفسح له الطريق.

لم يكن لوثر بيرج رجلًا يستعرض ثروته في مظهره ؛ معطف داكن بسيط ، قميص بلا أي علامة ، وجهٌ حاد القسمات ، عيانان باردتان فيهما ذكاء لا يستعجل أحدًا.

قال بصوت رخم وهو يمد يده :

● دكتور برايتمان... شكرًا لأنك قبلت لقائي في منزلك ..

ابتسم داني وهو يصافحه :

● الشرف لي سيد بيرج .. هذا المكان لا يحب الضجيج.

ظننت أنه سيكون مناسبًا ..

بأدله لوثر بابتسامة قصيرة.

● الأماكن الهادئة هي الوحيدة التي تُقال فيها الأفكار الخطيرة
بصدق ..

جلسا قليلاً داخل المنزل، لكن الجدران بدت ضيقة على ما سيقال.
كان الصمت أثقل من الأثاث.

قال لوثر بعد دقائق من الحديث في العموميات :

● هل نخرج ؟ أفضل أن نتحدث عن موضوعنا الخاص ونحن
نمشي عند شاطئ البحيرة ..

● بالطبع .. لم لا !

خرجا معاً.

الماء قريب، الهواء بارد نسبياً، والأشجار تحيط بالمكان كدائرة
شهود.

بدأ لوثر الحديث دون تمهيد، كأن الزمن لا يسمح بالمقدمات.

● سأكون مباشراً سيد برايتمان ، فأنا أحب الإيجاز بطبعي و بحكم
عملي و مشاغلي . أنا مستعد لتمويل مشروعك بالكامل. ليس دعمًا
جزئياً، ليس منحة، بل تبني كامل ..

توقف داني عن المشي. نظر في عينيه بأملٍ لم يلبث أن اختفى خلف
غمامة من الأسى و الدهشة ، ثم قال :

● الأرض برمتها رفضت مشروع سيدي بيرج .. فماذا ينفعني
التمويل ؟!

أجاب لوثر دون أن ينظر إليه :

⊙ الأرض ترفض كل فكرة تهدد صورتها عن نفسها.

تابع السير.

⊙ لا إمكانية لتنفيذ مشروعك على هذا الكوكب. الضجيج الأخلاقي، الإعلام، الجماهير، الخوف... كلها ستخنقه.. لذلك لن ننفذه هنا على الأرض.

سأل داني بصوت منخفض مفعم بدهشة أكبر :

⊙ أين إذن؟! في السماء !!

التفت لوثر نحوه أخيراً و ثبت نظره على عينيه.

⊙ بالضبط ... سننفذه على المريخ.

ساد صمت طويل.

الماء ارتطم بحافة الشاطئ كأنه يكرر الكلمة.

تابع لوثر بشغفٍ غريب و كأنه يتحدث عن مشروعه هو :

⊙ سأؤمّن انتقالك، فريقك، مختبراتك، كل ما تحتاجه. مدينة كاملة ستبنى لأجلك هناك. ليست مستعمرة، بل منظومة علمية مستقلة.

داني و قد عجز عن الاستيعاب :

⊙ مدينة... من أجلي ؟

⊙ من أجل أحلامك .. ومن أجل مشروعك ..

توقف داني مجدداً. حان أوان السؤال الذي لا مهرب منه

قال أخيراً، بصوتٍ واجه نفسه قبل أن يواجهه :

⊙ و ما المقابل ؟

وقف لوثر عند شجرة قريبة، لمس جذعها بيده، كأنه يختبر صلابتها.
● لست وحدك من يمتلك مشروعاً دكتور برايتمان ، فأنا بدوري
لدي مشروعى الخاص .. و لحسن حظنا معاً أنّ مشروعى يتكامل
مع مشروعك. لا يتناقض معه ..

نظر إليه داني بحذر.

● تابع ..

● أريد إنشاء سلالة بشرية متطورة جينياً... متطورة إلى درجة
الكمال ..

تصلبت ملامح داني.

● الكمال... كلمة خطيرة ..

رفع لوثر يده اعتراضاً ..

● بل كلمة دقيقة. بشر بلا تشوهات، بلا إعاقات عقلية، بلا ضعف
جسدي، بلا حدود بيولوجية عبثية.

قال داني ببطء :

● أنت تتحدث عن الإقصاء ..

● أنا أتحدث عن التطور، البقاء للأقوى و الأصلح ..

هبّت نسمة قوية، حرّكت أوراق الأشجار، فبدت الطبيعة نفسها
تعترض.

سأل داني بتوجّس :

● ولماذا ؟ ما غايتك النهائية ؟

نظر لوثر إلى البحيرة، لا إلى داني و تمتع .

● لإثبات نظرية.

● أي نظرية ؟

● أن ما يعيق البشرية ليس نقص الموارد ... بل نوعية البشر أنفسهم.

التفت لوثر إليه بنظرة غامضة .

● أريد أن يرى سكان الأرض سلالة تتفوق عليهم بمسافات ضوئية خلال سنوات. صحة، ذكاء، إنتاج، استقرار.

قوس داني حاجبيه :

● وماذا بعد أن يروا ؟

أجاب لوثر بهدوء مرعب :

● سينصاعون لوجهة نظري ..

● كيف ؟!

● سيبدأون بالتصفية الطوعية .. سيطالبون بأنفسهم باستبدال الضعف بالقوة .. و عندها سيعود مشروعك ليستعمر الأرض التي رفضته طواعية ..

تراجع داني خطوة و همس بصوت مرتجف.

● لكن .. هذه ستكون إبادة.

لوثر بصوتٍ حازم :

● لا .. هذا اختيار.

صمت لثوانٍ ثم أضاف :

● حين يتسدد العرق المتفوق، ستنتفتح للبشر أبواب الأرض ...

والسماء ... المستقبل .. و ربما الماضي أيضاً !!

زادت لهجته حزماً :

⊙ سأعطيك كل ما تطلبه. مختبرات. بشر. حرية مطلقة.

ثم نظر إليه مباشرة :

⊙ بشرط واحد .

داني بهدوء :

⊙ أن أساعدك على تحقيق مشروعك بدورك ..

وضع يده على كتفه و قال بابتسامة عريضة :

⊙ ستقود بنفسك مشروع الكمال على المريخ سيد برايتمان.

ساد صمت كثيف.

البحيرة بدت أعمق، والسماء أقرب.

كان العرض مغرياً علمياً بلا شك ، لكنه ينطوي على خروقات أخلاقية و دينية غير مسبوقة ..

قال داني أخيراً :

⊙ أحتاج أسبوعاً لأفكر فالموضوع شائك ..

أوماً لوثر.

⊙ بالطبع ، الأفكار التي تغيّر العالم تستحق الانتظار..

نظر في ساعته ثم أردف ..

⊙ الآن اعذرني سيد برايتمان فلدي اجتماع هام للغاية خلال ساعات

و عليّ السفر على الفور ..

● أقدر عالياً مجيئك .. ربما ترك القدر مشروعاتنا يتقاطعان لأن كل منهما يحتاج الآخر و يكمله ..

● هذا ما أتمناه .. إلى لقاء آخر قريب مع أخبار جيدة ..

ثم استدار، ومشى مبتعداً، تاركاً داني وحده ... معلقاً بين أرض لفظته ، و سماءٍ تمد يدها إليه الآن ، و علمٍ قد يغيّر مصير الإنسان إلى الأبد.

مرّ الأسبوع على الطبيب داني لا كزمنٍ متتابع، بل كدوامة بطيئة تلتف حول مركزٍ واحد لا يهدأ. لم يعد النهار واضح الحدود عن الليل، ولم يعد النوم راحة بل هدنة قصيرة بين جولاتٍ من التفكير القاسي. كان يستيقظ كل صباح وفي صدره محكمة كاملة : العلم في جهة، والضمير في جهة، والذاكرة - بتجاعيدها المهينة - تقف شاهداً لا ينسى.

عاد إليه صدى الرفض العالميّ كما يعود الألم القديم مع تغيّر الطقس. تذكر الوجوه الجامدة في المؤتمرات، الكلمات المصقولة التي أخفت خوفاً، والضحكات المكتومة خلف لغة الأخلاقيات. لم يكن رفض مشروعه علمياً خالصاً، بل كان اجتماعياً، أخلاقياً، شعوبياً، وكأن البشرية قررت أن تحاكم الفكرة قبل أن تفهمها. كان ذلك الرفض يمزّقه، لا لأنه أسقط مشروعه، بل لأنه أسقط ثقته بأن الإنسان يريد حقاً أن يتطوّر.

في المقابل، وقفت قناعاته العلمية ثابتة كصخرة وسط هذا الاضطراب. كان يعرف - بيولوجياً، إحصائياً، بلا أي رومانسية - أنّ الجسد الإنساني مليء بالأخطاء، وأن كثيراً من المعاناة ليست قدراً بل إهمالاً تاريخياً. كان يؤمن أن العلم، حين يتوقف عند عتبة الأخلاق السائدة، يتحوّل إلى حارس للماضي لا صانع للمستقبل. ومع

ذلك، فإنّ مشروع لوثر يفتح بابًا لم يكن مستعدًا لعبوره دون ارتجاف :

(التفوق بوصفه معيارًا، والإقصاء بوصفه نتيجة.)

كان يمشي كل مساء حول البحيرة، يراقب انعكاس وجهه على الماء، ويشعر كأنه ينظر إلى نسختين منه. واحدة ترى في عرض لوثر فرصة أخيرة، مساحة حرة يُنقذ فيها فكرته من القبر. وأخرى ترى في ذلك التحالف خيانة لجوهر العلم نفسه، ذلك الجوهر الذي يفترض أن يُخفف الألم لا أن يعيد تعريف من يستحق الحياة. كانت الخطوط الحمراء الأخلاقية حاضرة، واضحة، لكنه كان يلاحظ - بمرارة صامتة - أن من رسموها هم أنفسهم من أغلقوا الأبواب في وجهه.

مع اقتراب نهاية الأسبوع، بدأ الميزان يميل، لا بفعل منطقٍ جديد، بل بفعل إحساسٍ قديم عاد إلى السطح : الحقد. حقد ليس على البشر كأفراد، بل على رد فعلهم الجماعي، على سذاجتهم حين خافوا مشروعه، وعلى قسوتهم حين رفضوه دون بديل. شعر أن العالم لا يستحق حمايته من أفكاره، وأن العلم الذي يُكسر باسم الأخلاق لن ينتج إلا أخلاقًا هشة. طموحه، الذي حاول دفنه، نهض من جديد، أكثر صلابة، أقل رحمة.

في مساء اليوم السابع، جلس في المكان ذاته أمام البحيرة. لم يعد الماء ساكنًا، كانت الريح تعبث بسطحه كما تعبث الأفكار برأسه. مدّ يده ببطء إلى الهاتف. لم يعد هناك نقاش داخلي، بل قرار ثقيل استقر أخيرًا. طلب الرقم دون تردد. وحين جاءه الصوت من الطرف الآخر، لم يشرح، لم يبرّر، لم يفاوض. قال بهدوءٍ حاسم، كمن يغلق بابًا خلفه إلى الأبد :

● سيد لوثر ... أنا موافق ..

الفصل الخامس

بذور سواد في

تربة حمراء

معلومات تمهيدية :

((في عالم الحيوان تتنوع فترات الحمل ودرجة اكتمال المولود بشكل مدهش، وكأن الطبيعة جرّبت كل الاحتمالات الممكنة.

هناك حيوانات تلد بعد فترات حمل أقصر بكثير من الإنسان، وغالبًا ما يكون وليدها ضعيفًا يحتاج إلى رعاية طويلة.

فالقوارض مثل الفأر والأرنب تحمل لأسابيع قليلة فقط، وتلد صغارًا عمياء عارية لا تقوى على الحركة.

والقطط والكلاب، رغم قربها من الإنسان، لا يتجاوز حملها شهرين تقريبًا، وتولد صغارها غير قادرة على السمع أو الرؤية في البداية.

هذه الكائنات تعوّض قصر الحمل بكثرة عدد المواليد وبغناية أمومية مكثفة في الأسابيع الأولى.

في المقابل، هناك حيوانات تلد مواليد مكتملة النمو، وكأنها خرجت إلى العالم وهي مستعدة للحياة فورًا.

فالخيل والغزلان والزرافات تحمل لفترات أطول من الإنسان أحيانًا، لكنها تلد صغارًا تقف على أرجلها بعد دقائق أو ساعات.

صغير الغزال يستطيع الجري مع القطيع في اليوم نفسه تقريبًا، هربًا من المفترسات.

وصغير الحصان يولد بعينين مفتوحتين وعضلات قوية، قادرًا على الحركة والاستجابة السريعة.

حتى بعض الحيوانات البحرية، كالدلافين، تلد صغارًا سباحين بالفطرة يتبعون أمهاتهم فور الولادة.

هذا الاختلاف يعكس استراتيجيتين للحياة : الأولى تعتمد على سرعة التكاثر وكثرة النسل مع ضعف المولود ..

والثانية تراهن على مولود واحد أو اثنين لكن بقدرة عالية على الاستقلال المبكر.

الإنسان يقف في المنتصف تقريبًا؛ حمله طويل نسبيًا، لكن وليده يولد عاجزًا يحتاج سنوات من الرعاية.

وكان الطبيعة قالت إن الذكاء والتعلم عند الإنسان سيعوضان ضعف الجسد في البداية.

وهكذا، من فأر يولد بلا حول، إلى غزال ينهض بعد لحظات، تتجلى عبقرية التنوع في قوانين الحياة.

لكن يبقى السؤال :

هل يمكن التلاعب بالجينات لتحقيق فترة حمل أقل مع ولدان مكتملين و أكثر استقلالية؟!))

الولايات المتحدة الأمريكية

بعد عام .. 2129 م ..

بدأ استعداد الطبيب داني للسفر إلى المريخ لا كرحلة، بل كطقس عبور. لم يحزم حقائب بالمعنى التقليدي، ولم يودّع مكانًا بقدر ما كان ينسلخ عن زمن كامل. المنزل الريفي .. المختبر .. كل شيء بدا أصغر كل يوم، كأنه يعرف أن صاحبه لم يعد ينتمي إليه. كان داني يتحرك كظلٍ منشغل، عيناه لا تستقران على شيء، لأن كل ما يراه صار مؤقتًا. وجهته لم تكن كوكبًا فقط، بل مرحلة جديدة من التاريخ الإنساني، مرحلة لا عودة بعدها.

أهم استعداداته لم يكن السفر ذاته، بل ما سيحمله معه في جوهرة : الخريطة الجينية للبويضة الأولى، البذرة التي ستشتق منها سلالة الكمال. جلس داني أيامًا وليالي أمام شاشات مضيئة، لا بوصفه عالمًا فقط، بل مهندس مصير. كان يراجع كل زوج قاعدي، كل احتمال، كل تداخل وراثي، كأنما يكتب دستورًا للحياة لا مسودة بحث. هذه لم تكن تجربة، بل إعلان قطيعة مع الصدفة التي حكمت التطور آلاف السنين كما يؤمن بنفسه.

بدأ بتصميم جينوم لا يعرف المرض. ألغى القابليات الوراثية للسرطان، للأمراض المناعية الذاتية، للاضطرابات العصبية التي تنهش العقل ببطء. لم يكن الهدف جسدًا لا يموت، بل جسدًا لا يخون صاحبه من الداخل.

ثم رفع مستوى الذكاء، لا بزيادة واحدة، بل بإعادة تنظيم كاملة للشبكات العصبية، كثافة تشابكية عالية، سرعة معالجة خارقة، ذاكرة لا تتآكل. عقل لا يكتفي بالفهم، بل يولد الفهم.

القوة الجسدية جاءت نتيجة منطقية، لا استعراضاً. ألياف عضلية معاد ضبطها، كثافة عظمية تقاوم الجاذبية المنخفضة، قدرة على التحمل دون استنزاف. كائن مصمم ليعيش في بيئة قاسية دون أن يتحول إلى وحش.

ثم جاء القرار الأكثر برودة : غياب الوظيفة الجنسية. أزال داني الحاجة البيولوجية للتكاثر التقليدي، لا كقمع، بل كتحرير. هذه السلالة لن تُدار بالغريزة، بل بالإنتاج، بالوظيفة، بالغاية.

الشكل لم يُترك للصدفة. وجوه متناسقة، ملامح جذابة للجنسين، لا لأن الجمال ضرورة بيولوجية، بل لأنه أداة نفسية. كان يعرف أن الجمال قوة ناعمة، وأن التفوق حين يكون جميلاً يصبح مقنعاً.

أما الحمل، فقد أعاد تعريفه كلياً. ساعات قليلة بدل شهور، اختصار الزمن نفسه، ولادة لا تستنزف، حياة تُستدعى بدل أن تُنتظر.

حتى التنفس خضع لإعادة كتابة. احتياج ضئيل للأكسجين، كفاءة خلوية أعلى، قدرة على العيش في هواء فقير دون انهيار. صفة صُممت خصيصاً للمريخ، لعالم لا يرحم الرئتين.

أضاف صفات أخرى، متفرقة لكنها حاسمة : مقاومة عالية للإشعاع، استقرار نفسي منخفض القابلية للانهيار، نوم قصير، تركيز طويل، انفعالات مضبوطة لا باردة ولا فوضوية.

حين اكتملت الخريطة الجينية واحدة لذكر و أخرى لأنثى ، شعر داني بشيء يشبه الرهبة. لم ينظر إلى الشاشة كمن ينتصر، بل كمن يدرك أنه تجاوز خطأ لا يُمحى. ومع ذلك، لم يتراجع. انتقل إلى المرحلة الأخيرة : تشكيل البيضة الأولى. لم تكن لحظة احتفال، بل صمت مطبق. خلية واحدة، تحمل كل هذا الطموح، كل هذا الجنون، كل هذا الانتقام المؤجل من بشر قالوا له "لا."

ومن تلك البويضة، بدأ الاستنساخ. آلاف النسخ الخلوية ، متطابقة، نقية، خالية من التفاوت. وُضعت في حاضنات خاصة، ثم حُفظت بعناية، كأنها ذخيرة مستقبل لا حرب. لم يسمّها أطفالاً، ولم يجرؤ على تسميتها بشراً بعد. كانت بذوراً، تنتظر تربة جديدة، سماء حمراء، وكوكباً لا يعرف بعد معنى الخطيئة.

وحين انتهى كل شيء، أدرك داني أن سفره الحقيقي لم يكن إلى المريخ، بل إلى منطقة في ذاته لم يظن يوماً أنه سيدخلها. منطقة حيث العلم لم يعد سؤالاً... بل قراراً.

أما الخطوة الثانية من المشروع فتمت في صمتٍ إداري بارد، بلا احتفال ولا عدسات، كأنها إجراء روتيني لا يحمل في جوفه كل هذا الثقل الإنساني. جلس الطبيب داني في قاعة صغيرة محايدة، جدرانها رمادية، إضاءتها بيضاء بلا ظل، وأمامه عقود مصفوفة بعناية، أوراق سميقة تحمل لغة قانونية جافة تخفي خلفها أكثر التجارب قسوة وطموحاً. لم يكن في الغرفة ما يوحي بأن ما يحدث هنا سيعيد تعريف معنى الحمل، ولا بأن هذه التواقيع ستفتح باباً لا يُغلق في تاريخ البشر.

دخلت الفتيات واحدة تلو الأخرى. عشرون شابة في العشرينيات من العمر، ملامحهن مختلفة، لكن ما يجمعهن كان أوضح من أي تشابه جسدي : صحة جيدة، أجساد قوية لم تُنهكها الأمراض، وعيون تحمل أثر بيئات قاسية لم تترك لهن كثيراً من الخيارات. بعضهن جنن من أحياء منسية، أخريات من دول أنهكها الفقر، ومن حيوات كانت الأبواب تُغلق فيها أسرع مما تُفتح. لم يكن داني يبحث عن اليأس، لكنه لم يكن يتجاهله أيضاً؛ كان يعرف أن من يقبل بهذا العقد لا يفعله بدافع الفضول العلمي، بل بدافع النجاة.

العقود كانت واضحة إلى حد القسوة. قبول الخضوع لتجارب حمل

يومية لمدة خمس سنوات على كوكب المريخ، ضمن بيئة مراقبة بالكامل، دون أي حق في الإفصاح أو الحديث أو التسريب. السرية التامة كانت بندًا لا يقبل التأويل، ليس حماية للمشروع فقط، بل حماية للعالم من صدمته المبكرة. في المقابل، كان الرقم مكتوبًا بوضوح لا يقل صدمة : عشرة ملايين دولار لكل واحدة. مبلغ يكفي لقطع سلاسل الفقر، لتغيير مصائر عائلات كاملة، لشراء مستقبل لم يكن ممكنًا قبل هذه اللحظة.

داني لم يخاطبهن كعالم يخطب في مختبر، بل كرجل يعرف أنه يطلب أكثر مما ينبغي. شرح ببرودٍ محسوب ما هو مكتوب، أعاد التأكيد أن التجربة ليست عاطفية، ولا أمومية، ولا شخصية. كانت وظيفة. دورًا في مشروع أكبر من الجميع. لم يكذب، لكنه لم يقل كل شيء. كان يعرف أن الكلمات التي لم تُقل أثقل من تلك التي قيلت.

وقّع العقود بأيدٍ ثابتة على غير المتوقع. بعضهن توقفت لحظة، قرأت الاسم، قرأت الرقم، ثم وقّعت كمن يقفز من مكان مرتفع دون أن ينظر إلى الأسفل. لم يكن في الغرفة دموع، ولا دراما. فقط صمت كثيف، وإحساس غير معلن بأن الفقر، حين يواجه العلم، لا يملك ترف الأسئلة الأخلاقية.

حين انتهى كل شيء، وبقي داني وحده مع الأوراق الموقعة، شعر بثقلٍ غريب في صدره. لم يكن ندمًا، ولم يكن فخرًا. كان إدراكًا حادًا بأنه لم يعد يعمل على الجينات فقط، بل على البشر أنفسهم، على هشاشتهم، وعلى استعدادهم لبيع الزمن والجسد مقابل فرصة للخلاص. طوى العقود بعناية، كمن يطوي فصلًا لا يريد إعادة قراءته، وعرف في قرارة نفسه أن الرحلة إلى المريخ لن تحمل معه العلم وحده... بل هذه التواقيع أيضًا، بكل ما تحمله من صمتٍ وديونٍ أخلاقية مؤجلة.

جاء يوم السفر كحدثٍ بلا تاريخ معْلن، بلا عدِّ تنازلي، وبلا وداع. كل شيء جرى تحت طبقة سميكة من العادية المصطنعة، كأن السرَّ لا يُخفى بالظلام بل بالضوء الزائد. في جداول الرحلات كانت مجرد جولة سياحية جديدة إلى المريخ، واحدة من تلك الرحلات التي اعتاد الإعلام على التعامل معها بمِلٍّ فاقد للدهشة. لكن خلف هذه التسمية البسيطة، كان شيء آخر يتحرّك بهدوءٍ مريب.

وصل داني باكرًا إلى منصة الإقلاع، لا يحمل سوى حقيبة صغيرة، وكأنه مسافر خفيف لا عالم يجزّ وراءه مستقبلًا كاملاً. ملامحه كانت ساكنة، محايدة، لكن عينيه لم تكونا كذلك ؛ فيهما يقظة حادة، ذلك النوع من الوعي الذي يظهر عند من يعرف أنه لن يعود كما ذهب. طاقمه المهني وصل تباعًا : علماء، أطباء ، مهندسو أحياء، تقنيون، معلمون .. وجوه مختارة بعناية، لا يجمعهم الحلم بل الكفاءة والصمت. لم يكن بينهم من يطرح أسئلة خارج اختصاصه، فالأسئلة هنا ترفٌ خطير.

التجهيزات نُقلت في حاويات مصنّفة كمعدات بحثية سياحية : أجهزة تحليل، حاضنات، وحدات تخزين بيولوجي، كل شيء مغلف بلغة بيروقراطية دقيقة تُفرغ المعنى من خطورته. ما لم يظهر في القوائم هو القيمة الحقيقية لهذه الصناديق، ولا حقيقة أنها تحمل بذور سلاله كاملة، لا معدات للعرض.

الفتيات وصلن مع بقية السياح. ملابس مريحة، حقائب شخصية، بطاقات تعريف لا تختلف عن غيرها. وجوههن حاولت أن تبدو عادية، لكن الصمت كان أثقل من أي قناع. بعضهن بدت عليهن ملامح توتر مكبوت، أخريات تمسّكن ببرودٍ دفاعي، كأن العقل قرر أن يُغلق قبل أن ينهار. لم يتحدثن كثيرًا، لا مع بعضهن ولا مع غيرهن. كنّ يعشن اللحظة كمن يوقّع بقدميه على أرض مجهولة قبل

أن يسأل عن اسمها.

حين صعد الجميع إلى المركبة، لم يكن هناك فصل واضح بين "السياح" و"الطاقم". هذا التداخل كان مقصودًا، جزءًا من الغطاء. الضحكات الخفيفة، الصور، التعليقات العابرة عن النجوم، كلها كانت جزءًا من مسرحية مُحكمة، فيما كان داني يجلس في مقعده، يراقب المشهد دون أن يشارك فيه. كان يعرف أن هذا الضجيج المؤقت سيذوب سريعًا حين يبتعدون عن الأرض، وأن الصمت الحقيقي سيبدأ هناك، بعد الإقلاع.

عندما أُغلقت الأبواب وبدأ العدّ، لم يشعر داني بالإنارة، بل بشيء أقرب إلى الاعتراف. لم يعد هناك مجال للتراجع، ولا مساحة للتفكير الأخلاقي المجرد. كل ما بقي هو التنفيذ. اهتزت المركبة، وارتفع الصوت، وبدأت الأرض تتكمش خلف النوافذ. في تلك اللحظة، لم يرَ داني كوكبًا يبتعد، بل فصلًا يُغلق. ومع اندفاع المركبة نحو السماء، كان السرّ محكم الإغلاق، يسافر معهم، مختبئًا في الملفات، في الخلايا، وفي صمت أولئك الذين يعرفون أن هذه ليست رحلة سياحية... بل هجرة فكرة مضطهدة إلى كوكبٍ خلاص لتعبر عن نفسها بحرية عليه ..

بعد أسبوع من الوصول إلى المريخ ...

كان كل شيء على أهبة الاستعداد. مدينة X مارس سوبر المصممة خصيصاً لمشروع لوثر و داني امتدت على مسافات واسعة ،
مجهزة بالكامل لاستقبال أول تجربة حقيقية على الكوكب الأحمر.

كل حاضنة، كل جهاز، كل أنبوب تم وضعه في موضعه بدقة متناهية، كأنها تجهيزات لمسرح حيث يُعرض الفصل الأكثر جرأة

في تاريخ البشر. الفتيات تم اختيار أماكنهن بعناية، وتم تجهيز أجنحة خاصة لكل واحدة، حيث الخصوصية والرقابة الكاملة تتعايشان معًا.

بدأت التجربة بحذر، بيد داني وطاقمه الطبي الماهر، ومعهم كل التقنية التي يمكن أن يطلبها علم البيولوجيا الحديثة. تم حقن البويضات المجهزة بالخريطة الجينية الكاملة في أرحام الفتيات. لحظة الانغراس كانت صامتة، لكنها كانت لحظة التقاء الحلم بالواقع، شعور لم يكن يمكن لأحدٍ في الأرض أن يتخيله. الأجنة بدأت في التطور بسرعة مذهلة، تتبعها أجهزة الاستشعار والمراقبة عن كثب لمدة **14** ساعة، وهي الفترة التي حددها داني كمدة الحمل المتوقعة الأولى، مع احتساب سرعة التطور التي صممها في الجينات.

كانت الساعات الأولى مخيفة للفتيات. شعور مفاجئ بالانتفاخ، وحركات غريبة داخل البطون، أصوات خفيفة من الداخل، كل شيء أسرع وأكثر وضوحًا مما يمكن للعقل البشري أن يستوعبه. بعضهن شعرن بالدوار والخوف، حاولن الحركة أو التحدث، لكن النظام مراقب بدقة. تدخل الطاقم الطبي بذكاء، مع استخدام كمية محسوبة من المهدئات التي خففت التوتر دون أن تؤثر على العمليات الحيوية. البطون هدأت، تحركات الأجنة أصبحت متناسقة أكثر، والنساء بدأت يعتدن على الإحساس الجديد الغريب على أجسادهن.

حين حان وقت الولادة، تم نقل الفتيات إلى غرف عمليات معقمة ومجهزة بالكامل. الأطباء، متأهبون كجنود في ساحة اختبار، أداروا كل خطوة بحذر وهدوء. ولدت الأجنة دون أي تعقيد، في صمت يوازي صمت المريخ المحيط، لكن مع احترافية عالية. كانت اللحظة مذهلة : كل ولادة طبيعية، كل طفل يبدو صحيحًا، بلا تشوهات، بلا اضطرابات، وكأن الطبيعة نفسها صممت احترامًا لإتقان العلم. داني راقب كل حركة، كل نبضة قلب، كل تنفس، وكأنه يشهد على ولادة فكرة تتحول إلى كائن حي.

الولدان الأوائل تم فحصهم بدقة : وظائف قلبية، أداء دماغي، استجابة جسدية، كل شيء طبيعي. لم تكن هناك أي مشاكل، ولم يظهر أي أثر للتلاعب الجيني إلا في الصفات المتوقعة التي صمّمها داني.

بعد استقرار الحالة، تم تأجيل دورة الحمل الجديدة ، حتى تنتهي مراقبة الدفعة الأولى من المواليد وتتأكد النتائج قبل الانتقال إلى المرحلة التالية و تكرار التجربة .

الفصل السادس

الطبيب الموهوب

معلومات تمهيدية :

((يولد الطفل مع عالمه الصغير، حيث كل شيء جديد ومهيب بالنسبة له، وحركاته في البداية بدائية، مجرد انعكاسات فطرية على الأصوات واللمس.

خلال الشهرين الأولين، يبدأ بالتمييز بين الضوء والظلام، ويستجيب للصوت بابتسامة خفيفة، أول علامة على التواصل الروحي مع من حوله.

مع نهاية الشهر الثالث تقريبًا، تصبح الابتسامة أكثر وضوحًا وتتحول إلى استجابة اجتماعية، ما يعكس وعيه الداخلي بالآخرين.

بين الشهر الرابع والسادس، يبدأ الطفل بمحاولات رفع رأسه والالتفات نحو الأصوات والألوان، وتحسن قدرة يديه على الإمساك بالأشياء الكبيرة.

مع حلول الشهر السادس تقريبًا، يظهر الضحك الحقيقي، علامة على فرح داخلي ونمو الروح الاجتماعية، ويبدأ الزحف ببطء لاستكشاف البيئة المحيطة، مما يعكس نموه الحركي.

في الشهر التاسع، يصبح الطفل قادرًا على الجلوس بثبات، ويحاول الوقوف بمساعدة من حوله، ويبدأ التفاعل بالكلام المبسط مثل "ماما" أو "بابا"، تعبيرًا عن رغبته في التواصل الروحي.

عند السنة الأولى تقريبًا، يخطو أولى خطواته، وهي لحظة فاصلة في استقلاله الحركي والاعتماد على الذات، ويزداد فضوله للعب والاكتشاف.

بين السنة الثانية والثالثة، يتحسن التوازن ويصبح المشي أكثر ثباتًا، ويبدأ الجري والتسلق، بينما تتوسع مفرداته اللغوية، فيرتبط الكلام بالمشاعر، فيضحك، يغضب، ويظهر قدرته على التعبير الداخلي.

مع حلول السنوات الثالثة والرابعة، يصبح الطفل أكثر قدرة على

اللعب الجماعي، يشارك الآخرين، ويتعلم الانتظار والتناوب، ما يعكس تطور وعيه الاجتماعي والروحي معًا. يتحسن التحكم اليدوي، يمسك بالقلم، يرسم، يبني، ويستخدم الخيال في اللعب، فتتنامى القدرة على التعبير عن ذاته الداخلية.

قرب السنة الخامسة، يصبح الطفل قادرًا على التوازن بين النشاط الجسدي والتواصل العاطفي، يعرف القواعد البسيطة، يفهم الحدود، ويبدأ في تكوين إحساس أخلاقي وروحي أولي، بينما تستمر حركته في النمو وتصبح أكثر رشاقة وثقة. بحلول هذه المرحلة، يكون الطفل قد اجتمع فيه تطور حركي متقن وروحانية بدائية وفضول داخلي مستمر، مستعدًا لمراحل أوسع من التعلم والاكتشاف. ((

كوكب المريخ ..

خلال الأسابيع التالية .. 2129 م ..

في صمت غرف المراقبة، وسط أجهزة القياس وشاشات البيانات، شعر داني بالرغبة والطمأنينة في آن واحد. لقد بدأت فكرته تتحول إلى واقع ملموس، سلاله كاملة الصفات، قادرة على العيش في بيئة لم تُعدّ من قبل للبشر. المريخ، بامتداده الأحمر الفارغ، لم يعد مجرد حلم علمي، بل مختبر لحياة جديدة ..

الفتيات اللواتي خضعن للتجربة بتنّ جسراً بين الماضي البشري والحياة التي سيبتكرها البشر على كوكب لم يعرف الإنسان عليه سوى الغبار والصمت حتى الآن.

مضت الأسابيع التالية بعد ولادة الدفعة الأولى من الولدان على سطح المريخ وكأن الزمن نفسه انكمش. كل حاضنة، كل غرفة مراقبة، كل شاشة عرض، امتلأت بالبيانات عن عشرات الأطفال الذين لم يولدوا فقط، بل وُلدوا لتكون حياتهم أسرع، أكثر تركيزاً، وأكثر قدرة على التفاعل من أي بشر عرفهم العالم من قبل.

كان داني وطاقمه يقفون أمام هذا الانفجار الحي من الحياة، و ما كان مذهلاً، ولم يجرو أي علم على توقعه بهذا الشكل، هو السرعة الهائلة لتطور الولدان . فخلال ساعات قليلة بعد الولادة، بدأ معظمهم بإصدار أصوات مبكرة، كلمات أولية، موجات تفكير خجولة ، كأنها إشارات إلى أن العقول تعمل أسرع، وأن الجينات المعدلة تؤدي مهمتها في تسريع نمو الإدراك. داني شاهد بذهول كيف حاولوا التنقل في أسطح الحاضنات، يكتشفون المساحات المحيطة بهم، يستجيبون للمؤثرات الضوئية والصوتية بشكل متقن.

في غضون أسبوعين، بدأ معظمهم المشي بثقة مذهلة، خطوات ثابتة، توازن استثنائي، وانعكاسات حركية دقيقة. لم تعد الحركة مجرد أداء جسدي، بل تجسيد لوعي داخلي مبكر، تفاعل مع البيئة بشكل يفوق أي طفل بشري في عمره الزمني.

كل حركة، كل نظرة، كل استجابة كانت توضح أن سرعة التطور الروحي الحركي لدى هؤلاء الولدان تضاعفت عشرات المرات مقارنة بالبشر الطبيعيين.

التجربة الأكثر جرأة كانت بيئة الحاضنة منخفضة الأكسجين، المحاكاة الأولى للجو المريخي. الولدان عاشوا فيها بلا أي آثار جانبية. نبضاتهم منتظمة، وظائفهم الحيوية مستقرة، نشاط الدماغ طبيعي، وحتى التكيف مع مستويات الأكسجين المنخفضة كان مثاليًا. داني لاحظ أن كل طفل قادر على تحمل نقص الأكسجين دون أي تأثير سلبي، وهو ما يؤكد نجاح التعديل الجيني وقدرة هذه السلالة على العيش على كوكب لم يُهيأ للبشر من قبل.

أرقام التطور كانت مذهلة : كل شهر من نمو الولدان عادل سنة كاملة من نمو البشر الطبيعي. و هذا يعني أنه في غضون عام ونصف، ستكون الدفعة الأولى مكتملة جسديًا وفكريًا، جاهزة للتفاعل، الاستقلال، الإدارة ، واتخاذ القرارات.

جميع بيانات المراقبة، كل حركة صغيرة، كل صوت، كانت تُسجَّل وتُحلل بشكل فوري. كل تفاصيل صغيرة كانت مهمة لتعديل برامج التعليم والتهيئة المستقبلية التي سيخضع لها الأطفال على المريخ.

في الخلفية دارت معركة أخرى مكتملة لمعركة الأطباء.. هناك كان طاقم المعلمين والخبراء يعمل على إعداد بيئة تعليمية متكاملة. أنظمة ذهنية وجسدية، برامج محاكاة، أدوات تعليمية، وكل ما يمكنه تشكيل

شخصية متكاملة منذ الصغر، لضمان أن الولدان لن يكونوا مجرد أطفال، بل كائنات قادرة على العيش، التفكير، والعمل في بيئة المريخ الصعبة. كل نشاط، كل لعبة تعليمية، كل تجربة جسدية كانت مصممة لتهيئتهم للحياة وفق التصور الذي وضعه لوثر بيرج، حيث المعرفة، القوة، الانضباط، والتكيف البيئي كانت عناصر أساسية منذ الولادة.

بدأت الأيام التالية على المريخ كأنها مشهد من فيلم علمي حي، حيث كان الأطفال من الدفعة الأولى يتحركون، يراقبون، ويستكشفون بيئتهم الجديدة بمزيج من الفضول الطبيعي والقدرات الخارقة التي وهبها لهم تصميمهم الجيني. الحاضنات تحولت تدريجياً إلى ساحات صغيرة للتجربة، تحرك الأطفال بحذر في البداية، ثم بثقة متزايدة مع مرور الوقت، أيديهم الصغيرة تتلمس الجدران، أصابعهم تلتقط الألوان والإشارات الضوئية، أقدامهم تخطو على الأرضية المعقمة، كأنهم يعرفونها قبل أن تكتمل معرفتهم بالزمن والمكان ..

المرحلة التالية بدأت مع برامج التعليم المبكر، حيث ظهرت أجهزة تعليمية تتفاعل مع كل طفل حسب سرعته واستجابته الفردية. شاشات تعليمية، مجسمات ثلاثية الأبعاد، ألوان، أصوات، وكل ما يمكن أن يحاكي الحياة الأرضية المألوفة والمريخية معاً. الأطفال تعلموا بسرعة مذهشة قراءة الألوان، التمييز بين الأصوات، محاكاة الحركات، وحتى فهم العلاقات البسيطة بين الأشياء. كل نشاط جسدي كان يقابله نشاط ذهني، وكل حركة محسوبة كانت تعزز الإدراك والفهم المبكر.

كانت هناك لحظات لعب جماعي، حيث كان الأطفال يتفاعلون مع بعضهم البعض، يحاكون بعضهم البعض، ويبدأون بتشكيل روابط بسيطة رغم صغر أعمارهم. كل حركة في اللعب كانت محل تحليل : القوة، التوازن، الانتباه، سرعة الاستجابة. داني لاحظ كيف

يتعلمون أسرع بكثير من أي أطفال على الأرض، ليس فقط بسبب التركيب الجيني، بل أيضًا بسبب بيئة المريخ الجديدة، ونظام التعليم المبرمج، والتحفيز المستمر.

ومع مرور الأسابيع، بدأت شخصية الولدان تتشكل بوضوح، حدة الذكاء، سرعة التعلم، والقدرة على التكيف مع محيط غير مألوف. كل ضحكة مبكرة، كل حركة قبل الأوان، كل نظرة ذات معنى، كانت بمثابة شهادة على نجاح التعديل الجيني وبرامج التهيئة. داني كان يراقب، أحيانًا بابتسامة خفية، وأحيانًا بتنهيدة ثقيلة، مدركًا أن ما يحدث ليس مجرد مشروع علمي، بل ولادة حضارة جديدة على كوكب غريب.

كانت الطبيعة من حولهم جزءًا من المشهد التعليمي، لا مجرد خلفية. انعكاسات الشمس على سطح المريخ الأحمر، تحركات الغبار الباطية، ألوان الصخور المتغيرة حسب زاوية الضوء، كل ذلك كان يُستخدم كمادة تعليمية غير مباشرة كي يزرع الانتماء للمريخ في عقولهم وقلوبهم.

ومع كل يوم، كان داني وطاقمه يضيفون طبقة جديدة من التدريب، مع كل تحفيز جسدي وذهني، كل تجربة صغيرة، كل لعبة، وكل اختبار، ليصبح الأطفال أكثر استعدادًا للحياة الكاملة على المريخ، ولتحمل كل ما سيأتي لاحقًا من تطوير المشروع على نطاق أكبر، وفق رؤية لوثر وبرنامج داني العلمي المتكامل.

بعد ثلاثة أشهر ..

جلس داني في الغرفة المعزولة، تلك الغرفة الصغيرة التي صممت لتكون بمثابة عالم خاص بينه وبين نفسه، بعيداً عن ضجيج المختبر والحاضنات. الضوء الخافت يتسرب من الفتحات العليا، يرسم خطوطاً دقيقة على وجهه المتعب، ويكشف عن تعابير مختلطة من الدهشة، الرهبة، والفخر الصامت. أمامه أوراق البيانات، شاشات المراقبة، مخططات الولدان الذين بلغوا سن الثلاث سنوات وفق المقاييس الأرضية، وكل شيء يصرخ بصمت أنه نجاح. كل نبضة قلب، كل حركة معقدة، كل فكرة جريئة و خلاقية، كانت تؤكد له أن ما صنعه لم يعد مجرد تجربة، بل ولادة لعالم جديد، وولادة لحياة لم تعرفها الأرض من قبل.

أمسك الجهاز المخصص للاتصال بلوثر بيرج ليزف له الأخبار الجيدة . كانت مكالمة مقتضبة .. تحدث بكلمات مختصرة، هادئة، لكنها محملة بالمسؤولية :

● لقد نجحت التجربة سيد بيرج . النتائج الأولية تفوق التوقعات .. كل الولدان على المريخ بخير، التطور أسرع من أي تنبؤ مسبق ، وعلى هذا المنوال يمكن لتعداد سلالة الكمال أن يناهز بضعة آلاف خلال سنوات قليلة ..

كان رد لوثر مختصراً بدوره كوميض سريع في الظلام :

● أحسنت، دكتور برايتمان. أحسنت .. لا أستغرب هذه النتائج طالما أنك المشرف ..

ثم أغلق الخط، وكأن العالم كله توقف للحظة، ليترك داني وحده مع صدى كلماته، ومع صدى ما أنجزه. الصمت لم يكن فارغاً، بل كان ثقیلاً، ممتلئاً بعبء الحياة الجديدة، عبء المستقبل، وعبء

المسؤولية التي تفوق أي تصور.

هناك على كوكب الأرض ، وقف لوثر أمام شرفة غرفته يحمل بيده كأس الويسكي .. رفع نخباً للسماء و تمتع مبتسماً :

● الآن بدأت الرحلة الحقيقية لاستعمار المريخ .. و لاحقاً .. الأرض نفسها ..

في تلك الأثناء جلس داني صامتاً، عيناه تنظران إلى الحاضنات الجديدة الأكبر من بعيد، إلى الأطفال الذين تتحرك أجسادهم الصغيرة بخفة على الكوكب الأحمر، أصواتهم تعلو ، ضحكاتهم تتسلل عبر أجهزة المراقبة، وهم يتعلمون الركض، يختبرون التوازن، يستجيبون للمؤثرات الضوئية والصوتية كما لو كانوا يعرفون عالمهم قبل أن يكتشفوه. كل لحظة كانت تأكيداً أن مشروعه لم يكن مجرد تعديل جيني، بل ولادة كائنات تفكر، تتحرك، وتحيا في زمن مختلف..

خيم على روحه شعور بالسلام و الرضا .. فكل ما آمن به و حلم بتحقيقه ، تحقق .. و لكن ..

فجأة .. من اللاشيء و على نحو غير مفهوم ، تسلل إليه صدى النبوءة القديمة التي أخبرته بها زميلته البروفيسورة كارمن منذ أعوام عندما عرض مشروعه على العطن ، قالت له وقتها أن النبوءة ذكّرتها به دون أن تفهم لماذا .. كلمات العرّاف نوستراداموس الغامضة ساعتهها ، و التي وأدها في مهدها و أرسلها إلى النسيان ، لاقتناعه بأنها محض خرافات وليدة الهذيان ، عادت لتستيقظ من جديد في ذاكرته بمنتهى الوضوح :

على الكوكب الصدى البعيد القريب ..

سيأتي الموعود .. المسافر الطبيب ..

و يتكاثر بشر من نسخة واحدة على نحو غريب ..

عندها ستعلق الإنسانية على الصليب ..

ارتجف قلبه ..

يا إلهي .. هل هو الطبيب الموعود المذكور؟

هل هذه اللحظة التي يقف فيها هنا، في الغرفة المعزولة، مع صمت الكوكب الأحمر من حوله، هي تحقيق لنبوءة كتبها إنسان منذ مئات السنين؟

إنها أوضح من أن تكون صدفة .. و أغرب من أن تكون حقيقة ..

لكن ..

إن كان هو المقصود .. فالقادم مظلم و قاتم للغاية كما تفصح

النبوءة .. !!!

و لأول مرة منذ وافق على شروط لوثر ، شعر بخوف بارد يزحف على جلده ليعشعش بين تلافيف دماغه ..

هل أخطأ بالقبول ؟ ..

أم أن النبوءات تكذب و لو صدقت أحياناً ؟

الفصل السابع

الكمال المشي

معلومات تمهيدية :

((الطفلة **جينى Genie** وُلدت في الولايات المتحدة وعاشت واحدة من أكثر الطفولات قسوة في التاريخ الحديث.

حبسها والدها منذ عمر مبكر في غرفة مغلقة، مقيدة أغلب الوقت، محرومة من الكلام واللعب واللمس الإنساني.

كانت تُعاقب بعنف إذا أصدرت أي صوت، فتعلمت الصمت كوسيلة للبقاء.

حتى سن الثالثة عشرة تقريبًا، لم تسمع لغة حقيقية، ولم ترَ العالم إلا من نافذة ضيقة.

عندما اكتُشفت حالتها بالصدفة، كانت غير قادرة على الكلام أو المشي الطبيعي.

بدأت كأنها تعيش بين الإنسان والحيوان، بلا لغة وبلا إحساس واضح بالزمن.

تحولت جيني سريعًا إلى محور اهتمام العلماء واللغويين.

رأوا فيها فرصة نادرة لاختبار حدود اكتساب اللغة البشرية.

تعلمت بعض الكلمات لاحقًا، وفهمت معاني بسيطة، لكنها لم تستطع أبدًا بناء جمل كاملة.

كلما تقدم البحث، تراجع الاهتمام بالإنسانة داخلها.

تنقلت بين بيوت رعاية وتجارب علاجية متضاربة.

وحين انتهى "الاهتمام العلمي"، تُركت دون استقرار حقيقي.

تدهورت حالتها النفسية من جديد، وعاد الصمت يبتلعها.

قصة جيني لم تثبت فقط وجود فترة حرجة لتعلم اللغة.

بل كشفت أيضاً كيف يمكن للعلم، إن فقد الرحمة، أن يعيد إيذاء
الضحية باسم الفهم. ((

كوكب المريخ ...

بعد عام و نصف .. 2130 م ..

بعد عامٍ ونصف من ولادتهم على المريخ، أي ما يعادل ثمانية عشر عامًا أرضيًا مكثفًا ومضغوطًا في جسدٍ واحد، لم يعد أفراد الجيل الأول أطفالًا ولا مراهقين، بل كائنات مكتملة الوقوف، مستقيمة القامة، حادة النظرات، تتحرك في فضاءات المدينة المريخية وكأنها صُممت منذ البدء لتكون هناك. أجسادهم متناسقة بدقة لافتة، عضلاتهم مشدودة دون تضخيم، خطواتهم ثابتة لا تعرف التردد، أنفاسهم هادئة حتى في بيئة تقل فيها نسبة الأكسجين عن أي معيار أرضي مألوف. كانوا يشبهون فكرة الإنسان أكثر مما يشبهون الإنسان ذاته.

كان السؤال قد خرج منهم منذ أشهر بلا تمرّد، بلا نبرة اعتراض، بل بفضول صافٍ يشبه فضول العالم حين يواجه معادلة ناقصة.

التفت أفراد الجيل الأول حول الطبيب داني في القاعة الزجاجية المطلة على الأفق الأحمر، حيث يبدو المريخ ساكنًا كفكرةٍ لم تُكمل بعد. لم يسألوه دفعة واحدة، بل تكاثفت الأسئلة في الجو كضغيط صامت : من نكون ؟ ولماذا نختلف عنك ؟ ولماذا تبدو وجوهكم — أنت وأعوانك — متعبة، مليئة بتجاعيد لا نعرف لها وظيفة ؟

تأملهم داني طويلًا قبل أن يجيب. كان يعرف أن هذه اللحظة ستأتي، وأن الكلمات التي سيقولها الآن ستصوغ وعيهم كما صاغت الجينات أجسادهم. لم يتحدث بلهجة الأب، ولا بلهجة العالم، بل بلهجة من يرى نفسه شاهدًا على انتقالٍ تاريخي.

قال لهم إن أصله، وأصل كل من يعمل معه، يعود إلى كوكب الأرض. لم يسمّه الكوكب الأزرق، بل سماه كما يشعر به : كوكب النقص. كوكب الخطيئة الأولى التي لم تُمَحَ، كوكب المشاعر الثقيلة؛ الخوف، الغيرة، الحزن، الحسد، والندم. قال إن البشر هناك يولدون غير مكتملين، يقضون أعمارهم يحاولون سدّ فجوات داخلية لا تُرى، ويعيشون ويموتون وهم يجهلون لماذا يتألمون بهذا العمق.

ثم أشار إليهم، واحدًا واحدًا، كمن يستعرض نتيجة تجربة ناجحة. قال إنهم ليسوا امتدادًا لذلك العالم، بل تجاوزوه. إنهم النسخة التي حلم بها الإنسان طويلًا ولم يجرؤ على تحقيقها. بشر بلا هشاشة، بلا أمراض، بلا تردد. عقولهم لا تُثقل بالماضي، وأجسادهم لا تخونهم عند أول اختبار. هم، كما قال، الفكرة وقد تحولت إلى لحمٍ ووعي.

أخبرهم أن المريخ لم يُختَر صدفة. إنه الأرض الثانية، الصفحة البيضاء التي لم تُكتب بعد. هم من سيعمرونها، لا بالبكاء ولا بالحنين، بل بالعمل والانضباط والسيطرة. وحين يكتمل البناء هنا، حين يصبح هذا الكوكب شاهدًا على تفوقهم، سيأتي الدور على الأرض. لا للعودة بوصفهم أبناءً ضالين، بل بوصفهم معيارًا جديدًا لما يجب أن يكون عليه الإنسان.

قال إنهم سيحكمون الأرض لا بالقسوة، بل بالكفاءة. لا بالعاطفة، بل بالعقل. وإن البشر هناك، حين يرونهم، سيفهمون أخيرًا معنى الفشل الطويل الذي عاشوه، وسيطلبون — طوعًا أو كرهًا — أن يُقادوا.

كانت الكلمات تنساب في عقولهم بسهولة مقلقة. لم يختبروا الشك، ولم يعرفوا مقاومة الفكرة. شعروا بشيءٍ جديد يتشكل في داخلهم، لم يكن حبًا ولا حزنًا، بل إحساسًا بالعلو. إحساس بأنهم يقفون فوق سلم الوجود درجةً لا يمكن النزول عنها. بدأت نظراتهم تتغير؛ لم تعد محايدة، بل مشبعة بثقة صلبة، تكاد تكون احتقارًا صامتًا لكل ما هو أدنى.

في تلك اللحظة، وُلد في داخل الجيل الأول شعور لم يُدرج في أي خريطة جينية : الفوقية. غرور بارد، نظيف، بلا صخب، لكنه راسخ كالصخر. لم يصرخوا، لم يحتفلوا، لم يتبادلوا العناق. اكتفوا بالصمت، ذلك الصمت الذي يسبق عادةً كل الإمبراطوريات.

و قد كانوا مميزين بالفعل على نحوٍ يفوق التصور ... الانضباط هو أول ما يلفت النظر فيهم. ليس انضباطاً مفروضاً من الخارج، ولا خوفاً من عقوبة أو رغبة في مكافأة، بل انتظاماً داخلياً صارماً، كأن لكل واحد منهم ساعة خفية تضبط سلوكه، نومه، عمله، تفكيره. لم يعرفوا الفوضى، ولم يختبروا التشتت. الوقت لديهم ليس شيئاً يُهدر، بل مورد يُدار. كل حركة محسوبة، كل كلمة في موضعها، وكل صمت له وظيفة. لم يكن في سلوكهم ما يمكن تسميته بالكسل أو التراخي أو العبث.

أما الذكاء، فكان شيئاً أقرب إلى الرهبة. استيعابهم للعلوم المعقدة تم بسرعة تثير القلق أكثر مما تثير الإعجاب. الفيزياء النظرية، الهندسة الكونية، البيولوجيا الجزيئية، أنظمة الذكاء الاصطناعي، كلها لم تكن عوالم غريبة عنهم، بل لغات ثانية يتعلمونها بسلاسة مذهلة. لم تكن المعرفة لديهم تراكمًا بطيئًا، بل امتصاصًا شبه فوري، كأن عقولهم مهياة لاستقبال البنى المعقدة دون مقاومة. الأسئلة التي يطرحونها لم تكن أسئلة مبتدئين، بل أسئلة من يفهم البنية ويريد اختبار حدودها.

برزت فيهم أيضاً صفات قيادية وإدارية غير مألوفة. لم يتعلموا القيادة بوصفها تسلطاً، بل بوصفها تنظيمًا للطاقات. يعرفون كيف يوزعون الأدوار، كيف يتخذون القرار دون تردد ودون انفعال، وكيف يوازنون بين الكفاءة والنتيجة. لم يكن فيهم قائد كاريزمي بالمعنى العاطفي، بل منظم عقلاني، بارد، حاسم. وقد بدا واضحاً أن هذه الصفات ليست ثمرة تربية فقط، بل نتيجة مباشرة للتلاعب

الجيني الذي أُجري عليهم؛ هندسة دقيقة أزاحت العشوائية من التكوين البشري، واستبدلتها بتصميم محسوب.

لكن خلف هذا الكمال الظاهري، بدأت تتكشف فجوات مقلقة، صامتة، لا تُرى بسهولة. أولها غياب مشاعر رئيسية كانت تُعد، عبر التاريخ، جزءًا لا يتجزأ من التجربة الإنسانية. لم يعرفوا الألم كما يعرفه البشر، لا الجسدي ولا النفسي. لم يتذوقوا الحزن بوصفه انكسارًا داخليًا، ولا الحسد بوصفه مقارنة موجعة بالآخر. كانوا يرون الفقد كحدث، لا كجرح. ويرون الخسارة كمعطى، لا كندبة.

ومع غياب الفوارق الفردية الدقيقة، تلاشت الاختلافات التي تصنع التفرد. لم يكن هناك شاعر بالفطرة، ولا حالم، ولا منكسر، ولا متمرد حقيقي. كانوا متشابهين أكثر مما ينبغي، نسخًا محسنة من قالب واحد، تختلف المهارات لكن لا تختلف الأعماق. هذا التشابه خلق استقرارًا، نعم، لكنه سلبهم التوتر الخلاق الذي يولد الإبداع الحقيقي.

الأخطر كان طغيان مشاعر مثل الغضب والنزق، لا بوصفها انفجارات عاطفية، بل كاستجابات باردة عندما يُعاق النظام أو يُبطأ. غضب بلا حزن، نزق بلا ندم. ومع غياب المعنى والمغزى والقيم العليا الفعلية، لم تكن هناك فكرة مقدسة، ولا سؤال وجودي يقلقهم. الخير والشر كانا تعريفيين وظيفيين، لا معضلتين أخلاقيتين.

وغابت المشاعر العميقة النبيلة : الحب بوصفه تعلقًا مؤلمًا، الحنين بوصفه شدة إلى ما كان، التعاطف بوصفه اهتزازًا داخليًا أمام ألم الآخر. لم يكن لديهم مفهوم العائلة، ولا الأب، ولا الأم. جاؤوا إلى الوجود دون ذاكرة دافئة، دون قصة تُروى قبل النوم، دون يد تمسك بهم لأنهم ضعفاء. لم يعرفوا الحاجة، ولم يختبروا النقص.

وهنا تبدأ المعضلة الفلسفية العميقة.

الإنسان، كما عرفت الأرض عبر آلاف السنين، لم يتشكل فقط من قوته، بل من هشاشته. من حاجته إلى الآخر، من خوفه، من فقده، من ذلك الفراغ الداخلي الذي يدفعه للبحث عن معنى. العائلة لم تكن مجرد إطار اجتماعي، بل أول مرآة يرى فيها الإنسان نفسه ناقصًا ومحبوبًا في آن واحد. ومن هذا التناقض، يولد العمق.

هؤلاء القادمون بلا عائلة لم يختبروا التعلق، ولم يعرفوا الفقد، وبالتالي لم يعرفوا الحنين. لم يكن هناك "كان" ليشتااقوا إليه، ولا "كان يمكن أن يكون" ليتحسروا أو يندموا. ومع كمال صفاتهم، ومع عدم معرفتهم للنقص، غاب عنهم ذلك الصدع الداخلي الذي يجعل الإنسان يتساءل، يتألم، يكتب، يبكي، ويغفر. الروح عندهم مستقرة، لكنها مسطحة. هادئة، لكنها بلا أصداء.

إن النقص ليس عيبًا في التكوين الإنساني، بل شرطه الأساسي. النقص بطيفه الواسع (قلة ذكاء – ضعف جسدي – حرمان – تشوه – مشاكل اجتماعية) هو ما يجعلنا نتألم فنحزن، والحزن هو ما يصنع الذاكرة. والذاكرة هي ما يجعل الإنسان إنسانًا. من لا يحزن، لا يتذكر. ومن لا يتذكر، لا يتكوّن له تاريخ داخلي. بلا حزن، يصبح الإنسان حاضراً دائماً، بلا عمق، بلا ظل.

في الخاتمة، بدا واضحاً أن الجيل الأول على المريخ قد حقق كمال الصفات، لكنه خسر شيئاً جوهرياً لا يُقاس بالذكاء ولا بالقوة. لقد خسر القدرة على أن يكون إنساناً بالمعنى الذي عرفت الأرض. فالإنسان بلا حزن، بلا فقد، بلا ذكرى مؤلمة، ليس إنساناً كاملاً، بل كائنٌ مكتمل الوظيفة، ناقص الروح.

لم تكن الأسماء التي أُطلقت على أوائل سلالة الكمال أسماءً بالمعنى الذي تعرفه البشرية، بل شيفرات باردة، صيغ حسابية تُكتب ولا تُنادى :

crisper1 ، crisper2 ، crisper3

لم تكن سوى أرقام متسلسلة، كأن اللغة نفسها تنازلت عن دورها القديم في منح المعنى، واكتفت بأن تكون ملصقاً على منتج. في تلك اللحظة بالذات، لم يكن الاسم وعداً بالفرادة، ولا مرآةً لروح تتكوّن، بل ختمًا صناعيًا يؤكد أن ما وُلد هنا لا يُراد له أن يُخطئ، ولا أن يختلف، ولا حتى أن يُفهم خارج إطار المشروع.

الاسم، منذ فجر الإنسان، كان أول اعتراف بالوجود الفردي : نداءً يميّز، يخرج صاحبه من القطيع، ويمنحه حق الخطأ والاختلاف. أما هنا، فقد جُرد الاسم من هذه الوظيفة، وتحول إلى رقم في سلسلة إنتاج، تمامًا كما تُرقّم القطع الخارجة من خط تصنيع لا يسمح بالانحراف. لم يكن "crisper1 الأول" لأنه تميّز، بل لأنه خرج قبل غيره بدقائق. ولم يكن "crisper20 الأخير" لأنه أقل شأنًا، بل لأن الجدول الزمني قال ذلك. الزمن حلّ محلّ القدر، والمعمل حلّ محلّ الرحم، والرقم حلّ محلّ الاسم.

بهذه التسمية، أُغلقت أبواب المقارنة الإنسانية منذ البداية. لا فروق تُذكر، لا صفات فردية يُحتفى بها، لا حكايات طفولة يمكن أن تُروى لاحقًا. كل ما هناك هو نموذج ناجح تكرر،

واستُنسخ، وتأكّدت صلاحيته. لم يكن المقصود أن يتكاملوا، لأن التكامل يفترض اختلافًا، والاختلاف خطرٌ في مشروع يسعى إلى الكمال الموحد. لم يكن المطلوب أن يحمل أحدهم ما ينقص الآخر، بل أن يكون الجميع مكتملين بذاتهم، متطابقين في قدراتهم، متشابهين في ردود أفعالهم، كأنهم انعكاسات لمرآة واحدة وُضعت في قاعة بلا نوافذ.

وهنا، يتضح أن التسمية لم تكن تفصيلًا إداريًا، بل إعلانًا فلسفيًا صريحًا : هؤلاء ليسوا ذواتًا، بل وظائف. ليسوا ذاكرتهم، بل نتائجهم. ليسوا قصصًا مفتوحة، بل معادلات حُلّت بنجاح. إنهم مشروع فردي ضخم، حُلْم واحد، صاغه عقل واحد، ولا مكان فيه

للانحرافات الصغيرة التي تصنع الإنسان. فالرقم لا يغضب لأن اسمه أهين، ولا يحزن لأن أحداً نسيه، ولا يشتاق لأن أحداً غاب. الرقم يؤدي دوره ثم يُستبدل، دون ضجيج، دون فاجعة.

لكن المفارقة الأعمق أن هذا التجريد لم يُفرض عليهم بالقوة، بل زرع في أصل تكوينهم. حين تنشأ بلا اسم حقيقي، تتعلم مبكراً أنك لست محور الحكاية، بل أداة داخلها. وحين تُدعى برقم، تفهم — دون أن يُشرح لك — أن قيمتك لا تأتي مما تشعر به، بل مما تُجزه. وهكذا، يصبح التشابه فضيلة، والتفرد خطأ، والسؤال علامة خلل في النظام.

crisper1 ورفاقه لم يُحرّموا من الأسماء فقط، بل حُرّموا من الحق في أن يكونوا غير متطابقين. لم يُمنحوا فرصة أن يكون أحدهم أبطأ قليلاً، أحنّ قليلاً، أكثر خوفاً أو أكثر حُلماً. فالمصنع لا يحب المفاجآت، والمشروع لا يحتمل الشعر،

والرقم لا يحتاج إلى ذاكرة.

وهكذا، اختُصر الإنسان إلى منتج، واختُصر الاسم إلى رقم، واختُصر الوجود إلى نجاح تقني. لم يولدوا ليُحبّوا أسماءهم، ولا ليُغيّروها يوماً، بل ليحملوها كما تُحمل بطاقة تعريف بلا صورة. وفي هذا الاختصار القاسي، تكمن بذرة المأساة : حين يصبح الكمال قابلاً للترقيم، يفقد الإنسان آخر ما يميّزه ... أن يكون واحداً، لا نسخة.

لم يكن في جدول crisper3 ما يوحي بأن ذلك اليوم سيختلف عن غيره. المسار محسوب، الزمن مضبوط، والهدف واضح كعادته. كانت تتحرك بخفة آلية فوق سطح المريخ، تنفذ مهمتها كما نُفّذت آلاف المهام قبلها : رصد، قياس، توثيق، ثم العودة. لكن خطأ صغيراً

في المعطيات — انحراف طفيف في الإحداثيات — كان كافياً ليشقّ في جدار الكمال ثغرة لم تُغلق بعدها ، فتغادر حدود مدينتهم **X** مارس سوبر إلى مدينة **X** مارس السياحية ..

من بعيد، رأتهم. مجموعة بشرية غير متجانسة لا بالطول و لا بالوزن و لا بالشكل ، تتحرك بلا إيقاع واحد. ألوان ملابسهم متنافرة، خطواتهم غير متساوية، أصواتهم تتقاطع بلا نظام خلف المرشد السياحي الذي خلف هويت مورفان .. توقفت .. لم يكن التوقف جزءاً من البروتوكول، لكنها توقفت .. شعرت بأن المشهد نفسه يطلب منها ذلك. كانت الضحكات تتفلت منهم فجأة، كأنها لا تحتاج سبباً، وكأن الفرح لديهم فعلٌ لا نتيجة. أحدهم أشار بيده إلى الأفق بحماسة طفل، وآخر انحنى ليلتقط حجراً صغيراً كأنه عثر على كنز.

لم تفهم crisper3 ما الذي تراه تماماً، لكنها أدركت أنه ليس خللاً بصرياً. هؤلاء ليسوا مثلهم . لا في أشكالهم ، و لا في حركاتهم، ولا في نظراتهم، ولا في الطريقة التي يشغلون بها المكان. كانوا يملؤون الفراغ بشيء لا يمكن قياسه.

راحت تراقب وجوههم واحداً واحداً. دهشتها لم تكن في ملامحهم، بل في تغييرها المستمر. وجه يضحك ثم يهدأ، عيانان تلمعان ثم تسرحان، تعبير يتبدل دون إنذار. لاحظت نظرة خاصة بين اثنين منهم؛ لم تكن نظرة تنسيق أو تبادل معلومات، بل شيء آخر... شيء غير قابل للتسمية. الحب ، هكذا سمّته لاحقاً حين بحثت في أرشيف المفاهيم، لكنها لم تفهمه حقاً.

حتى جهلهم كان مختلفاً. كانوا يسألون المرشد السياحي أسئلة بدت لها بدائية، بل ساذجة أحياناً. ومع ذلك، لم تشعر تجاههم بالتفوق التي اعتادت عليه ، بل بشيء أقرب إلى الغيرة الغامضة. كيف يمكن

لنقص المعرفة أن يكون مصحوبًا بكل هذا الحضور؟ كيف يمكن للجهل أن لا يكون عبئًا، بل نافذة دهشة؟

أحدهم تعثر وسقط، فضحك قبل أن ينهض. هذا المشهد وحده أربكها. في مدينتهم، السقوط خلل، والخطأ عيب، والانحراف يُصحح فورًا. أما هنا، فالخطأ كان جزءًا من التجربة و التعلم، بل مصدرًا للضحك. أحست لأول مرة بأن الكمال الذي تعرفه قد يكون قفصًا، وأن هذا الاضطراب العفوي ربما يخفي حرية لا تُدرّس.

عادت crisper3 إلى مدينتهم كما تعود دائمًا : مستقيمة القامة، دقيقة الحركة، صامتة المشاعر. أنجزت ما تبقى من مهامها دون أي خلل يُسجّل. زملاؤها كانوا كما هم : متشابهين، متزنين، لا شيء يفيض ولا شيء ينقص. لكن المدينة، لأول مرة، بدت لها مسطحة. الجدران ناعمة أكثر من اللازم، الأصوات محسوبة أكثر مما ينبغي، الوجوه متطابقة إلى حد الإرباك.

كانت تستعيد في ذهنها صور الغرباء : ضحكة خرجت في غير وقتها، يد امتدت بعفوية، عين دمعت فجأة دون سبب منطقي. أحست بشيء يشبه الثقل في صدرها، لكنها لم تجد له توصيفًا في معجمها الداخلي. لم يكن ألمًا، ولم يكن خللاً في الوظائف الحيوية. كان فراغًا جديدًا، أو ربما امتلاءً غير مألوف.

تساءلت — دون أن تجرؤ على صياغة السؤال بصوتٍ داخلي واضح — لماذا هم هكذا ونحن هكذا؟ لماذا نولد مكتملين فلا نعرف معنى الاكتمال؟ ولماذا يبدو النقص لديهم كقوة خفية تحرّكهم، بينما الكمال — عندنا — يجمّد كل شيء؟

في تلك الأمسية، لم تتجه crisper3 إلى وضع السكون مباشرة.

جلست، وهو فعل لا ضرورة له. حدّقت في الفراغ طويلاً، كأنها

تنتظر أن يتكلم. كانت الأفكار تتكدس دون ترتيب، وهذا بحد ذاته كان غير مسبوق. لأول مرة، لم يكن الذهن أداة، بل ساحة.

فكرت في أصلهم. لماذا يتمتع هؤلاء الغرباء بكل هذا الاختلاف، بينما وجدنا نحن هنا بنسخة واحدة مكررة ؟ لماذا يحملون أسماء، وذكريات، وعلاقات، بينما نحمل أرقامًا ووظائف ؟ شعرت برغبة غير مفهومة في أن تكون واحدة منهم، لا لأن حياتهم أسهل ، بل لأنها مليئة بما لا يمكن التنبؤ به.

لم تكن هذه رغبة في الهروب، بل في الاستبدال : أن تُستبدل حياة مصقولة ، جافة، محسوبة ، بحياة ترتعش ، تخطئ ،

وتحب دون ضمانات. أحست أن ما رآته لم يكن مجرد سياح عابرين، بل مرآة كشفت لها ما لم تُمنح فرصة لاختباره.

و قبيل وضع السكون، فتحت تطبيق المفكرة على جهازها اللوحي. لم يكن هناك نموذج جاهز، ولا قالب يُملأ. شاشة بيضاء فقط. ترددت. ثم كتبت، للمرة الأولى، دون هدف عملي :

((رأيت اليوم بشرًا لا يشبهوننا. يضحكون دون سبب، يخطئون دون خوف، ويحبون دون تعريف. رأيت نقصهم، لكنه لم يكن ضعفًا، بل نافذة يدخل منها الضوء. تساءلت : هل خُلقتا كاملين أم ناقصين من شيء لا نعرف اسمه ؟ لماذا نشبه بعضنا إلى هذا الحد ؟ لماذا لا نعرف الحنين، ولا نفهم تلك النظرات التي لا تحمل معلومة لكنها تغيّر كل شيء ؟ أشعر برغبة في أن أكون غير متطابقة. أن أكون واحدة، لا رقمًا .. كياناً فياضاً بالمشاعر، لا روبوتاً بشرياً. اليوم، ولأول مرة، تمنيت حياة لا أعرف كيف تُقاس.))

أغلقت المفكرة. لم تُرسل النص، ولم تحفظه في أي سجل رسمي. لكنه حُفر في داخلها بعمق لا تمحوه أية إعادة ضبط. كان ذلك اليوم، بالنسبة لها ، بداية شيء لم يُبرمج ، ولم يعدل جينياً ... بداية

الشك، وبداية الرغبة في أن تكون إنسانة، لا نتيجة.

الفصل السابع

والبي سابي

معلومات تمهيدية :

((فلسفة وابي سابي هي نظرة يابانية عميقة ترى الجمال في النقص لا في الكمال.

تنطلق من الإيمان بأن كل ما هو عابر وغير مكتمل يحمل قيمة خاصة.

الشق الأول «وابي» يشير إلى البساطة والزهد والرضا بالقليل. أما «سابي» فيرتبط بآثار الزمن والقدم والهدوء الذي يتركه العمر على الأشياء.

في وابي سابي، الكسر ليس عيبًا بل حكاية.

والتشقق ليس نهاية بل دليل حياة.

الكوب المتصدع أجمل لأنه شهد استخدامًا ورفقة بشرية.

هذه الفلسفة تدعونا للتصالح مع عدم المثالية في أنفسنا.

وتعلمنا أن القلق من الكمال يسرق لحظة الحضور.

وابي سابي تفضل الصمت على الضجيج، والفراغ على الامتلاء الزائف.

ترى أن البساطة ليست فقرًا بل حرية.

وأن التقشف ليس حرمانًا بل ترك لما لا يلزم.

هي فلسفة تقاوم الاستهلاك المفرط دون صدام.

وتهمس للإنسان أن الزمن ليس عدوًا بل معلمًا.

وفي جوهرها، تذكرنا أن الجمال الحقيقي هادئ، هش، و صادق ..))

كوكب المريخ ...

بعد عام و نصف .. 2130 م ..

لم تستطع crisper3 أن تطوي تلك اللحظة كما طُويت آلاف البيانات قبلها. لقاء البشر لم يكن حادثًا عابرًا في ذاكرتها، بل شقًا امتد في وعيها واتسع كل يوم. كانت الأسئلة تتكاثر في عقلها بلا نظام، ككائنات حية ترفض الاصطفاف : لماذا يضحكون ؟ لماذا يختلفون ؟ لماذا يبدو النقص فيهم كنبعٍ لا يجف، بينما الكمال فينا أرضٌ صلبة لا تنبت ؟

حاولت أن تعود إلى إيقاعها السابق، إلى الانضباط الذي صيغت منه، لكن النزق كان يتسلل إلى حركاتها، إلى نظراتها، إلى ذلك الفراغ الذي صار يضغط عليها حدّ اليأس. لم تعد المدينة تكفيها؛ الجدران التي كانت شفافة بدت فجأة خانقة، والسماء الحمراء التي كانت وعدًا صارت سقفاً منخفضاً.

جاء القرار الكبير بلا احتفال. لم يكن تمرّدًا صاخبًا ولا خطة محكمة طويلة، بل قناعة باردة : إن بقيت، ستتآكل. وإن خرجت، ربما تفهم. عرفت أن مركبة السياح ستغادر بعد أيام، وأن المسار من مدينة X مارس سوبر إلى المدينة السياحية مراقب لكنه ليس معصومًا من الخطأ. بدأت تجمع ما يلزمها : لا أمتعة تُذكر، لا رموز شخصية، فقط جسدها ومعرفتها وقدرة صمتها. في يوم الفرار، تحركت قبل الفجر، حين تكون الأنظمة في أدنى يقظتها البشرية. عبرت الممرات كظلٍ يعرف أين يضع قدمه، واستفادت من تبدل نوبات الحراسة لتغادر المدينة الأم نحو المدينة السياحية، حيث الضجيج والازدحام يشكلان ستارًا مثاليًا.

هناك، بين البشر، شعرت للمرة الأولى بأنها غير مرئية حقًا.

اختلطت بالجموع، راقبت وجوهاً لا تعرفها ولا تعرفها، وتعلمت سريعاً لغة الإيماء والانتظار. حين حان الصعود إلى المركبة، انزلت إلى الداخل مع تدفق الأجساد، واستغلت فوضى الحقائق والتعليمات لتختبئ في حجرة تقنية ضيقة، حيث الضجيج الميكانيكي يغطي أي حركة. جلست هناك، ثابتة، لا خوف ولا ندم، فقط تركيزٌ حاد على التنفس، على الإحساس بأن المسافة بدأت تتشكل بينها وبين المريخ. و حين أُغلقت الأبواب واهتزت المركبة، أدركت أن العودة لم تعد خياراً.

في مدينتها، انفجر الفراغ. غياب crisper3 لم يُكتشف فوراً؛ التأخير كان عادياً، والبيانات قد تتأخر. لكن حين طال الغياب، انطلقت إجراءات البحث. فُتحت السجلات، مُسحت المسارات، دُفقت الكاميرات. لم تكن هناك نتيجة. لا أثر. لا خلل يُمسك به. اتجهوا إلى متعلقاتها الشخصية، إلى وحدتها الصامتة، إلى جهازها اللوحي. هناك، في المفكرة التي لم يكن من المفترض أن تُستخدم، وجدوا الكلمات. وجدوا الشك. وجدوا الرغبة. حين قرأ داني ما كتبه، فهم كل شيء دفعة واحدة، كمن يرى خريطةً اكتملت فجأة.

قال إن crisper3 خائنة. و أنها على الأرجح تعاني طفرات جينية غير مرغوبة، خللاً سلوكياً قادها إلى الغباء والتهور وعدم الوعي. أصدر قراراً بإغلاق ملفها بالكامل، بمنع تداول اسمها، بمنع الإشارة إليها في أي تدريب أو تقييم. حُذفت من الجداول، من النماذج، من الأمثلة. كأنها لم تكن. لكن الكلمات لا تُحذف من الذاكرة الجمعية بسهولة. في الممرات، في لحظات الانتظار، بدأ الهمس. لم يكن همس خوف، بل فضول مشوب بشيء جديد. تساءلوا : لماذا هربت ؟ ماذا رأت ؟ هل كان الخلل فيها... أم في البرنامج نفسه ؟

أما crisper3 ، فكانت المركبة تشق طريقها عبر السواد، وهي

تستمع إلى أصوات البشر خلف الجدران، إلى ضحكاتٍ وقلقٍ وحكاياتٍ قصيرة. لم تعرف ما ينتظرها على الأرض، ولم تُخطط لما ستفعل هناك. لكنها كانت تعرف شيئاً واحداً فقط : أنها اختارت النقص على الكمال، السؤال على الإجابة، الطريق المفتوح على المسار المحسوب. وفي ذلك الاختيار، وللمرة الأولى، شعرت بأنها بدأت تُولد.

كوكب الأرض ...

الولايات المتحدة الأمريكية ..

حين لامست المركبة الأرض بعد رحلة العودة، لم تشعر crisper3 بالارتياح الذي بدا على وجوه الآخرين. لم يكن الهبوط نهاية، بل بداية اختبارٍ لا خرائط له. باب المركبة انفتح ببطء، وانسكب الضوء إلى الداخل، ضوء مختلف عن كل ما عرفته؛ أقل حدة من ضوء المريخ، لكنه أكثر خداعاً، كأنه يخفي أشياء أكثر مما يكشف. نهض البشر من مقاعدهم بتثاقل، شدّوا عضلاتهم، تبادلوا عبارات قصيرة عن التعب والفرح والعودة، بينما بقيت هي لثوانٍ إضافية، تراقب. كانت هذه أول قاعدة تفهماها : من يراقب أولاً، ينجو لاحقاً.

نزلت معهم، لا أمامهم ولا خلفهم، في المنتصف حيث لا يُلاحظ أحد. الأرض تحت قدميها بدت مألوفة وغريبة في آن بسبب الجاذبية الأعلى ؛ صلبة لكنها غير محايدة، كأنها تشهد على ملايين الخطوات السابقة وتحاكم كل خطوة جديدة. الهواء كان كثيفاً، محملاً بروائح البشر وأشياءهم : عطور، عرق، قلق، فرح مؤجل. عيناها كانتا تعملان بلا توقف، تمسحان المكان كما تمسح أجهزة الاستشعار سطح كوكبٍ غير مأهول. هنا كل شيء مأهول ... لكن على نحو فوضوي.

لاحظت بسرعة أن البشر يتحركون وفق طقوس غير مكتوبة. يقفون في صفوف غير مستقيمة لكنهم يحترمون الدور، يتجنبون النظر المباشر طويلاً، يبتسمون بلا سبب واضح، ويبدون انزعاجهم بطرق ملتوية. فهمت القاعدة الثانية بوضوح قاطع : **عليها أن تحاكي. لا أن تتفوق، ولا أن تشرح، بل أن تقلد.** التفوق هنا يثير الشبهة، والوضوح يجزّ الأسئلة. البقاء يتطلب منطقة وسطى، رمادية ، هامشاً للفاعل .

القاعدة الثالثة انكشفت بسرعة أكبر مما توقعت: **المال هو العصب الخفي لكل حركة.** لاحظت كيف تتغير نبرة الصوت حين يُذكر، كيف تفتح الأبواب حين يظهر، وكيف تتوقف الحياة فجأة حين يغيب. على المريح، كانت الأوامر تكفي. هنا، الأرقام تفعل. وقفت قرب صالة الصرافات الآلية، تراقب البشر وهم يقفون أمامها كما لو أنهم أمام ينابيع مؤقتة. رأت شاباً يقترب ، ثم يبدأ بالضغط على الأزرار. لم تكن تنظر مباشرة؛ كانت تستمع.

الأصوات الصغيرة — نقرات الأزرار — ارتدت في أذنها كصدى قابل للتحليل. التقطت الإيقاع، الفواصل، التردد. في ثوانٍ، حفظت التسلسل كاملاً. لم يكن رقماً فقط، بل نمطاً. انتظرت حتى أنهى عملياته وغادر، ثم تقدمت بهدوء. حاولت تكرار الإيقاع كما سمعته بالضغط على الأزرار. و بعد المحاولة الرابعة فتح الصراف فمه المعدني، وخرج المال كما لو أنه كان ينتظرها. لم تشعر بانتصار، بل بتأكيد فرضية : **العالم هنا يعمل إذا فهمت لغته.**

وضعت المال في جيبها وغادرت المكان فوراً. السرعة الزائدة تفضح، والبطء المبالغ فيه يثير الريبة. في الخارج، أوقفت سيارة أجرة بإشارة شاهدها عشرات المرات خلال دقائق. السائق نظر إليها في المرآة وسأل عن الوجهة. للحظة، ترددت؛ الأرض واسعة، لكنها

بلا معنى إن لم تُسمَّ. قالت : “إلى قلب المدينة.” ابتسم السائق، كأن الطلب مفهوم ضمناً، وانطلق.

خلال الطريق، كانت المدينة تتكشف أمامها طبقةً بعد طبقة. مبانٍ متلاصقة بلا تناسق، شرفات تحمل حياةً معلقة، إشارات ضوئية تفرض إيقاعاً جماعياً على الفوضى. البشر في السيارات يصرخون ثم يهدؤون، يشتمون ثم يضحكون، كأن التناقض وقودهم اليومي. أدركت أن هذا الكوكب لا يسعى إلى الكمال، بل إلى الاستمرار.

توقف السائق فجأة، أشار بيده، وقال إنها وصلت. دفعت الأجرة كما رأت الآخرين يفعلون، ونزلت. تركها وسط الزحام، وسط سيلٍ بشري لا بداية له ولا نهاية. وقفت للحظة، ثابتة، بينما الناس يلتفون حولها كما يلتف الماء حول صخرة. لم تعد على المريخ، ولم تصبح بعد من الأرض. لكنها فهمت الآن قواعد اللعبة الأساسية : أن تُقَلَّد لتُخفى، وأن تمتلك المال لتتحرك، وأن تراقب أكثر مما تتكلم.

في قلب المدينة، وسط الضجيج، بدأت حياة crisper3 على الأرض. حياة بلا بروتوكول... لكنها مليئة بالاحتمال.

هنا تتشابك الخطوات بلا مسارات مرسومة، بدأت التجارب تتسلل إلى حياة crisper3 لا كأحداث منفصلة، بل كتيار واحد متصل يعيد تشكيل وعيها ببطء. لم تكن تمشي بحثاً عن معنى محدد، لكنها كانت تصطدم به في كل زاوية، في كل وجه عابر، في كل تفصيلة لا تخضع لمنطق واضح. هنا، حيث لا شيء يعمل بكفاءة كاملة، وحيث كل شيء تقريباً يعمل على أي حال، بدأت تدرك أن هذا الاضطراب نفسه هو النظام.

في أحد الشوارع، توقفت حين رأت رجلاً ينهار فجأة، كأن جسده

قرر الانسحاب من اليوم دون إنذار. جلس على الرصيف وأسند ظهره إلى واجهة متجر مغلق وبكى علناً، بلا خجل ولا محاولة إخفاء. كانت الدموع تسقط كما يسقط المطر، بلا تفسير وبلا غاية. المارة مرّوا من حوله كأنهم يعرفون هذه اللغة جيداً؛ بعضهم تجاهله تماماً، بعضهم ألقى نظرة سريعة، وامرأة توقفت لحظة، وضعت كوب قهوة بجانبه، ثم أكملت طريقها. لم يُنقل الرجل إلى مركز فحص، ولم تُسجّل حالته كخلل يجب تصحيحه. في عالمها السابق، كان هذا المشهد سيُعد فشلاً جسيماً في ضبط التوازن النفسي، أما هنا فكان جزءاً طبيعياً من المشهد الحضري. في تلك اللحظة فهمت crisper3 أن البشر لا يسعون دائماً إلى إزالة الانكسار، بل يتركونه يتنفس ويتكلم ويرى.

لاحقاً، جلست في مقهى صغير تحاصره أصوات فناجين متصادمة وأحاديث غير مكتملة. طلبت مشروباً كما سمعت الآخرين يفعلون، بنبرة تحاكي نبراتهم، وانتظرت. حين وصل الطلب، أدركت فوراً أنه ليس ما قصدته. أشارت إلى الخطأ، متوقعة تسلسلاً واضحاً من الاعتذار الرسمي والتصحيح الفوري، لكن النادل اكتفى بابتسامة هادئة و اعتذر مبتسماً بلا توتر .. قال أن طلبها سيصلها خلال لحظات، واقترح أن تجرب الطلب الخطأ فهو مجاني.

شربت القهوة، لم تكن كما توقعت، لكنها لم تكن كارثية. في تلك الرشقة أدركت أن الخطأ هنا لا يلغى بالضرورة، بل يُستوعب ويُعاد تأطيره. الحياة الأرضية لا تشترط أن تكون النتائج مثالية كي تستمر، بينما في مدينتها المريخية كان أي انحراف يُمحى فوراً، لا ليفهم بل ليختفي.

وقفت بعدها عند إشارة مرور مع مجموعة من الغرباء. حين أضيء الضوء الأخضر، لم يتحرك أحد مباشرة. كانت ثوانٍ قليلة، لكنها أربكتها بعمق. شاب شارد في هاتفه، امرأة تعدّل حقبيتها، رجل يحدّق

في الفراغ كأنه نسي سبب وجوده هناك. الإشارة، التي كانت في عالمها أمراً قاطعاً لا يقبل التأويل، لم تكن كافية هنا. الحركة لم تبدأ بإذن النظام وحده، بل بقرار داخلي صامت من كل فرد. عندها فهمت أن البشر لا يتحركون فقط لأن القواعد تسمح، بل لأنهم يشعرون أن اللحظة مناسبة، وأن الإحساس أحياناً يتقدم على التعليمات.

في شارع جانبي، شهدت تصاعد شجار حاد بين شخصين. ارتفعت الأصوات، وتطايرت الكلمات كأنها شظايا، واشتدت ملامح الغضب. انتظرت تدخلاً حاسماً، إجراءً ينهي النزاع ويعيد التوازن، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. بعد دقائق خفّ الصوت، تباعد الجسدان، ومضى كل منهما في اتجاه مختلف، حاملاً غضبه كما يحمل معطفاً ثقيلاً لم يخلعه بعد. لم يُحل الخلاف، ولم يُغلق، بل تُرك معلقاً في الهواء بلا خاتمة. أدركت حينها أن البشر يعيشون مع صراعاتهم غير المكتملة، وأن عدم الحسم ليس دائماً علامة ضعف، بل طريقة أخرى للاستمرار دون انهيار.

وفي حديقة عامة، جلست تراقب رجلاً مسناً يطعم الطيور. لم يكن في فعله هدف واضح، ولا مردود، ولا تحسين لأي ناتج قابل للقياس. الطيور تقترب، تلتقط الفتات، ثم تطير، والرجل يبتسم كأنه أنجز مهمة عظيمة. الزمن هنا لم يكن مورداً يجب استثماره، بل مساحة يمكن إهدارها عن قصد. على المريخ، كل ثانية كانت تحمل وظيفة، أما هنا فالثواني الحق في أن

تمر بلا معنى، أو بمعنى لا يمكن اختزاله في معادلة.

ومع تداخل هذه اللحظات وتراكمها، لم تعد المدينة مجرد فضاء مزدحم بالبشر، بل تحولت إلى مرآة عميقة. رأت فيها الفرق الجوهرية بين عالمين : (عالم الكمال الذي يزيل الألم فيفقد العمق، وعالم النقص الذي يسمح للألم بالبقاء فيكسب الذاكرة) . أفراد سلالة الكمال لا يكون عند المشاكل ، لا يشربون المشاريب الخطأ، لا يتأخرون عن المهام الموكولة، لا يتركون الصراعات دون نتائج

واضحة، ولا يهدرون الوقت بلا مقابل. كل شيء لديهم صحيح ومحسوب ونظيف... لكنه بلا ارتعاش.

وسط هذا الضجيج غير المنضبط، بدأت crisper3 تشعر بشيء لم تختبره من قبل. لم يكن شعور تفوق، بل إحساس أقرب إلى الحنين، حنين غامض إلى أن تكون ناقصة بما يكفي لتشعر، وأن تكون غير مكتملة بما يسمح لها أن تخطئ ثم تواصل السير. هناك، في قلب المدينة، فهمت أن البشر لا يعيشون حياة أسهل، بل حياة أوسع، حياة تسمح للخطأ أن يكون معلمًا، وللحزن أن يكون لغة، وللنقص أن يكون أصل الحكاية، لا عيبًا يجب محوه.

كان الضجيج قد بلغ ذروته، لا بوصفه صوتًا فحسب، بل كتراكم أفكار متداخلة في رأس crisper3 ، أفكار لم تعد تعرف كيف تصطف أو كيف تصمت. المدينة، التي بدت لها قبل ساعات مسرحًا للاكتشاف، تحولت فجأة إلى متاهة من الإشارات والوجوه والحركات غير المتوقعة. كانت تمشي بلا إيقاع ثابت، نصف وعيها غارق في ما رآته، ونصفه الآخر يحاول أن يعيد ترتيب صورة ذاتها : من تكون، ولماذا تشعر بكل هذا الثقل الذي لم يُبرمج في داخلها يومًا؟! و في لحظة عابرة، تلك التي تفصل بين خطوة وخطوة، انزلقت عيناها عن الواقع. لم تنتبه إلى الضوء الذي تغير، ولا إلى السيارة التي اندفعت أسرع مما يجب، ولا إلى صرخة قصيرة انطلقت من فم شخص مجهول. ثم جاء الاصطدام، لا كصوت فقط، بل كقوة دفعتها خارج جسدها للحظة. ارتفع جسدها في الهواء كشيء فقد وزنه فجأة، ثم ارتطم بالأرض بقسوة لم تعرف لها اسمًا. سقطت المدينة من حولها في صمت غريب، كأن الزمن نفسه تراجع خطوة إلى الخلف.

حين فتحت عينيها، كان أول ما رآته سماءً مقطعة بين أبراج

وأسلاك، وثاني ما شعرت به برودة الإسفلت تحت ظهرها. توقعت الألم، ذلك الشعور الذي طالما قرأت عنه ولم تختبره حقًا، لكنها لم تجده كما وصفه البشر. كان هناك ضغط، صدمة، إحساس بالانقطاع، لكن الألم نفسه بدا فكرة أكثر منه تجربة كاملة. قبل أن تحلل ذلك، انحنى فوقها وجه شاحب، شاب في الثلاثينيات تقريبًا، عيناه متسعتان بالخوف، وصوته يرتجف وهو يسألها إن كانت بخير، كان سائق السيارة .

لم يهرب. تلك كانت ملاحظتها الأولى، المفاجئة. في حساباتها السريعة، كان الهروب خيارًا منطقيًا لتقليل الخسائر، لكنها رأت أمامها إنسانًا ترك سيارته وسط الطريق، غير آبه بالفوضى التي تسبب بها، كل اهتمامه منصب عليها. كان يمد يديه ثم يسحبهما، كمن يخشى أن يلمس شيئًا قد ينكسر أكثر. عرض أن يتصل بالإسعاف، أن ينقلها إلى المشفى، أن يفعل أي شيء. قالت بهدوء إن لا داعي لذلك، محاولة أن تضبط نبرتها لتبدو بشرية، عادية، خائفة ربما.

لكن عينيه كانتا قد وقعتا على ساعدها. هناك، حيث انشق الجلد بجرح عميق، أعمق مما تسمح به التمثيلية. الدم لم يكن كثيرًا، لكنه كان كافيًا لجعل المشهد حقيقيًا أكثر مما ينبغي. أشار إليه بصوت منخفض، كأنه يخشى أن يسمعه الجرح نفسه، وقال إن هذا لا يمكن تجاهله. عندها، وبلا تفكير طويل، ابتسمت له. لم تكن ابتسامة تحدٍ، بل ابتسامة قرار. وضعت يدها الأخرى على الجرح، شعرت بحرارة خفيفة مألوفة، وانطلقت عملية الالتئام كما اعتادت أن تفعل دائمًا، تلقائية، صامتة، كاملة.

في ثوانٍ، عاد الجلد أملسًا كأن شيئًا لم يكن. لا أثر، لا ندبة، لا قصة. لكنها لم تنتبه إلى نفسها، بل إلى الشاب. تراجع خطوة إلى الوراء، كأن قوة غير مرئية دفعته. انفرج فمه، وخرجت منه صيحة قصيرة، خليط من الدهشة والخوف وعدم التصديق. في تلك اللحظة، شعرت

crisper3 بشيء يشبه البرودة يسري في داخلها. هذا هو الحد الفاصل. هذه هي النقطة التي يتحول عندها الفضول البشري إلى تهديد، والدهشة إلى أسئلة لا يمكن احتواؤها.

أدركت بسرعة أن بقاءها في المكان يعني تكاثر العيون، وتحول الصدمة إلى حادثة، والحادثة إلى كارثة. رفعت إصبعها إلى شفتيها، لا بأمر صارم، بل بإشارة هادئة، ترجوه أن يصمت. لم تقل كلمة واحدة، لكنها كانت تعلم أن الصمت في هذه اللحظة لغة أقوى من أي تفسير. ثم استقامت، كأن جسدها لم يلامس الأرض قبل لحظات، وتقدمت نحو سيارته. فتحت الباب وجلست في المقعد الأمامي، والتفتت إليه وأشارت بيدها إشارة واضحة : قُد السيارة.

ظل واقفاً لثوانٍ، ممزقاً بين الهرب والبقاء، بين عقله الذي يصرخ بأن ما رآه مستحيل، وحده الذي يقول إن هذه المرأة ليست خطراً، بل لغزاً. في النهاية، انتصر الفضول. صعد إلى السيارة، وأدار المحرك، وانطلق مبتعداً عن الشارع المزدهم. لم يتبادلا كلمة واحدة. المدينة بدأت تتراجع خلف الزجاج، أصواتها تخفت، أبنيتها تتباعد، وكأنهما يغادران طبقة من الواقع إلى أخرى.

طلبت منه أن يبتعد عن الناس، عن الطرق الرئيسية، عن أي مكان قد يطرح أسئلة. كان صوتها ثابتاً على نحو غريب، لا يحمل تهديداً ولا رجاءً، فقط يقيناً. انصاع لطلبها، ينعطف حيث تشير، يقود وهو غارق في دوامة من القلق والذهول. مع كل كيلومتر، كانت ملامحه تهدأ قليلاً، لكن عينيه ظلتا تراقبانهما بين الحين والآخر، كأنه يخشى أن تختفي فجأة أو أن يحدث شيء أكثر غرابة.

أخيراً، توقفت السيارة عند ضفة نهر، حيث تبدأ الطبيعة في استعادة صوتها، وحيث المدينة تبدو فكرة بعيدة أكثر منها مكاناً. الماء يجري بهدوء، الأشجار تحني أغصانها فوق الضفة، والهواء يحمل رائحة طين ونبات. هناك، بعيداً عن الإسفلت والعيون والإشارات، شعرت

crisper3 أن اللحظة التي كانت تؤجلها قد وصلت. حقيقتها لم تعد مجرد فكرة داخلها، بل سرًا شاهده إنسان آخر. وعلى هذه الضفة، بين الصمت والماء، كان لا بد أن يبدأ الحديث الذي سيغيّر كل شيء.

جلست crisper3 على ضفة النهر، بجوارها الشاب الهادئ الذي عرّف عن نفسه باسم هابّي ، و بأنه يدرس العلوم الفلسفية في جامعة المدينة ويوشك على التخرج.

كان الهواء يحمل رائحة الطين والأعشاب، والماء يعكس السماء الغائمة بنعومة، لكن كل شيء حولهما بدا ثانويًا أمام التوتر الصامت بينهما. سألتها بهدوء، وهو يحاول أن يوازن بين الفضول والحرص، عن كيفية علاجها للجرح العميق الذي أحدثه الاصطدام، وكيف اختفى دون أثر. صمتت طويلاً، ثم نظرت مباشرةً في عينيه، فوجدت فيهما شيئاً لم تعرفه من قبل أبداً... أماناً. هذا الأمان لم يكن مجرد شعور، بل جسرٌ أقصر إلى قلبها، إلى صدقها، إلى شيء من الإنسانية التي لم تُدرس في المختبرات ولا وُضعت ضمن الجينات.

و في لحظة توازن بين التردد و الاقتناع ، شعرت أن سرها بات أكبر من قدرتها على الكتمان و التمثيل .. فبدأت تحكي له قصتها كلها، منذ ولادتها على المريخ، إلى حياتها كفرد في سلالة الكمال ، مروراً بالتجارب والبرامج التدريبية المكثفة، انتهاءً بفرارها إلى الأرض. و كان وجهه يمتلئ بالدهشة والقلق في آنٍ معاً . حاول أن يشك في كلامها، أن يتهمها بالكذب أو الهذيان، لكن الجرح على ساعدها كان شاهداً صامتاً لا يمكن إنكاره، وذكاءها وقدرتها على التأقلم مع العالم الواقعي أكدت صدقها أيضاً. كما تذكر قضية الطبيب داني التي شغلت البلاد منذ سنوات و سمع بها القاضي و الداني ، فزاد يقينه بأن قصتها لم تكن خيالاً، بل حقيقة غريبة ، كاملة التفاصيل سادت لحظات من صمت بارد عقب انتهاء روايتها.. ثم خرجت الكلمات من فاه هابّي ثقيلة و حادة .. أخبرها بغضب أن كل ما

عايشوه هناك على المريخ ، من التلاعب الجيني ، إلى برامج التدريب المكثف و الكمال المدروس ، إلى التعامل معهم كأرقام تخدم حلم شخص غريب الأطوار .. كل ذلك كان جريمة شنيعة بحقهم .. فالهشاشة، الضعف، والنقص، من وجهة نظره ، هي ما يجعل الإنسان إنسانًا، وهي التي تمنح الحياة طعمًا ولونًا ومعنى .. حدّثها عن فلسفة وابي سابي اليابانية التي يدرسها في كتبه ، و التي تحترم النقص وتبرزه كجمال، وكأن كل شق وكل كسر في الطبيعة البشرية هو ما يجعلها حقيقية ومثيرة للدهشة .. و لا عجب أن لامست تلك الفلسفة شغاف قلب crisper3 و أوتار روحها .. فلا أدري بعمق هكذا فلسفة أكثر من شخص فرض عليه الكمال فرضاً ففقد معه كل شيء آخر ..

و بعد حديث مطوّل و متشعب عن حياتها على المريخ ، سألتها عن خططها القادمة، عن وجهتها، عن المستقبل الذي تعتزم بناءه على كوكب الأرض بعيدًا عن كل شيء. فأجابته بأنها لا تعرف بعد ، وأن كل شيء بالنسبة لها لا يزال ضبابيًا، بلا اتجاه واضح ، فالكوكب غريب عليها ، و هي أكثر غرابة من البشر عليه.

نظر إليها هابّي لفترة، ثم خرجت من فمه كلمات مطمئنة دافئة و هادئة كنسمات صيفية : عرض عليها العيش معه لفترة ، في منزله الكبير الذي يقطنه بمفرده، حتى تتمكن من تحديد وجهتها بنفسها، بعيدًا عن ضغوط المدينة ومنظوماتها.

لم تتردد crisper3 بالقبول ، فالأمان الذي شعرت به مع هابّي فاق أي أمان اختبرته على المريخ، بل جاوز كل المعرفة التي امتلكتها هناك ، لأنها شعرت معه لأول مرة أنها حرة.

ابتسم هابّي سعيداً لقبولها ، وطلب منها أن تبتسم أيضًا، قائلاً إنها لا تستطيع أن تبقى بملامح جامدة هكذا على كوكب الأرض. استدارت

نحوه وسألته :

● و لماذا أبتسم ؟

أجابها بهدوء الفلاسفة :

● لأن السعادة هي غاية الإنسان، ومنتهى الحياة، فإذا فقدناها فقدنا كل شيء. أنا اسمي هابّي أي سعيد و لا تتخيلي كم منحني اسمي من طاقة إيجابية حتى في أحلك الساعات ..

حاولت crisper3 أن تبتسم، ليس عن اقتناع، بل كمحاولة لتقليد البشر، و مع تمدد شفاهها شعرت لأول مرة بشعور غريب لم تستطع تفسيره؛ جذوة دفء غير معتاد تسالت إلى قلبها و عقلها، شعور ليس ضمن الجينات المبرمجة، شعور خارج كل برامج التعلم ..

و عند هذه اللحظة المفصالية أنتشت بذرة الأمل في قلبها لأول مرة ، و كانت كفيلة بتغيير كل خرائط الجينات و المعادلات الجافة ..

الفصل السابع

إليه الحروب يتيق^س

طبول الحروب

معلومات تمهيدية :

((سُمِّي كوكب المريخ (مارس) باسم مارس إله الحرب في الأساطير الرومانية، لأن القدماء رأوا فيه رمزاً للقوة والدمار.

كان لونه الأحمر الظاهر في السماء لافتاً، فشبهوه بلون الدم الذي يرافق المعارك والحروب.

هذا الاحمرار ناتج عن أكاسيد الحديد على سطحه، لكنه غذى الخيال البشري منذ آلاف السنين.

كما أن لمعانه المتقلب جعله يبدو ككوكب قلق لا يعرف السكون، مثل أجواء الحرب المتوترة.

ارتبط المريخ قديماً بالندير والشؤم، تماماً كما ترتبط الحروب بالخوف والخراب.

حتى حركته غير المنتظمة في السماء مقارنة ببعض الكواكب عززت صورته ككائن متمرّد.

اسم "مارس" نفسه يحمل في طياته معنى الصدام والقوة والعنف المنظم.

سطحه القاسي والجاف يوحي بأرض قُتلت فيها الحياة، كما تفعل الحروب بالأوطان.

العواصف الترابية التي تجتاحه تشبه غبار المعارك حين يملأ الأفق.

برودته القاسية تذكر بالفراغ الإنساني الذي يخلفه القتال بعد انتهائه.

وهكذا تداخل الاسم واللون والصفات الفيزيائية في صورة رمزية واحدة.

فصار المريخ في الوعي البشري كوكب الحرب بامتياز، علماً وخيالاً معاً. ((

كوكب الأرض ..

بعد 11 عاماً .. 2140 م ..

تسابت السنوات وراء الذكرى منذ تلك الأمسية على ضفة النهر، كأنها حلمٌ طويلٌ تعلّم أن يتنقّس ببطء. لم تعد crispr3 غريبة عن البيت، ولا عن المدينة، ولا عن الزمن الأرضي الذي كان في بداياته يربكها بإيقاعه غير المنتظم. صار المنزل الذي يقطنه هابّي ، ذلك البناء الهادئ على تخوم الضجيج، أشبه بكوكبٍ ثالثٍ وُلد بين المريخ والأرض، لا تحكمه برمجة صارمة ولا فوضى كاملة، بل توازن هشّ يشبه الإنسان نفسه.

في السنوات الأولى كانت تتعامل مع الأرض كما يتعامل عالمٌ مع مختبر مفتوح. كل شيء يستدعي الفهم : الطقس المتقلّب، تعاقب الفصول، هشاشة الجسد البشري أمام مرضٍ عابر، ثم قدرته العجيبة على التعافي رغم ضعفه. كانت تلتهم علوم الكوكب كما لو كانت تستعيد ذاكرة قديمة، لا تكتسب معرفة جديدة. الفيزياء الأرضية، الأحياء، الجيولوجيا، علم المناخ، تاريخ الحضارات، الأنثروبولوجيا، وحتى التفاصيل الدقيقة لعلم النفس البشري؛ كل ذلك استقر في ذهنها بسرعة أدهشت هابّي وأقلقته في آن واحد. لم تكن تتعلّم فقط، بل تربط، وتستنتج، وتعيد صياغة الأسئلة ذاتها، كأن الأرض أخيراً وجدت من ينصت إلى منطقتها العميق.

ذاكرتها الخارقة لم تكن عبئاً هذه المرة، بل جسراً. صارت تجلس مع هابّي في أمسيات طويلة، تسأله عن فكرة فلسفية قرأها، ثم تعود إليه في اليوم التالي وقد أحاطت بها من كل الجهات العلمية الممكنة. كان هو يقدّم السؤال، وهي تمنحه جسداً من المعرفة. ومع الوقت، تغيّر شكل الحوار بينهما؛ لم يعد معلماً وطالبة، ولا فيلسوفاً وعالمة، بل عقليّن يتجاوران في بحثٍ مشترك عن المعنى.

تخرج هابّي من الجامعة، ثم واصل دراسته العليا، وكانت crispr3 شاهدة على تحوّله البطيء. رأته ينهك تحت ثقل الرسائل الأكاديمية، ويتردد، ويشكّ، ويعيد النظر في مسلمات آمن بها طويلاً. كانت تقف إلى جانبه بصمتٍ داعم، لا تقدّم حلولاً جاهزة، بل تذكره بما تعلّمته هي من البشر : أن الشك ليس ضعفاً، بل لحظة صادقة من النمو. ساعدته على تنظيم أفكاره، على الربط بين الفلسفة والعلوم، على رؤية الإنسان ككائن غير مكتمل بالضرورة، لا كمشروع يجب أن يصل إلى الكمال.

حين أصبح بروفييسوراً في الفلسفة، لم يكن ذلك مجرد إنجاز أكاديمي، بل تحوّل داخليّ. صار تدريسه مختلفاً؛ أقلّ يقيناً، أكثر رحمة. كان يتحدث عن المعنى لا بوصفه حقيقة ثابتة، بل تجربة تُعاش. عن السعادة لا كغاية نهائية فحسب، بل أيضاً كوميض يظهر حين نتصالح مع نقصنا. وكان يدرك، في أعماقه، أن هذا التحوّل لم يكن ليحدث لولا وجود crispr3 في حياته، تلك القادمة من عالم ظنّ الكمال خلاصه فاكشف خواءه ، و التي أطلق عليه اسم (هوب) أي أمل ، لأنها كيان مستقل لا رقم بين الأرقام ..

أما هي، فقد تغيّرت على نحوٍ لا يقلّ عمقاً. في السنوات الأولى، كانت تراقب البشر من الخارج، تحلل مشاعرهم كما تُحلّل ظاهرة طبيعية. لكن مع مرور الوقت، بدأت المسافة تتقلّص. لم تعد تدرس الفرح، بل تختبره. لم تعد تفسّر الحزن، بل تجلس معه. تعلّمت من هابّي أن البطء ليس خللاً، وأن النسيان ليس عيباً، وأن الارتباك أحياناً هو الباب الوحيد للصدق. كان يعلمها دون أن يقصد، فقط بكونه إنساناً، هشاً، متناقضاً، قادراً على الحب دون ضمانات.

أثر كل منهما في الآخر كما تؤثر المياه الجارية في حجرٍ صلب؛ تنحته ببطء و بلا عنف، لكن بلا توقّف. جعلته crispr3 أكثر دقة في التفكير، أكثر جرأة في كسر الحدود التقليدية بين الفلسفة والعلوم،

وأكثر وعيًا بأن العقل لا يزدهر إلا حين يتحرّر من وهم الاكتمال.
وجعلها هابّي أكثر إنسانية، لا بمعنى الضعف، بل بمعنى القبول.
علّمها أن الحياة لا تُقاس بطولها ولا بكفاءتها، بل بقدرتها على أن
تُعاش بصدق.

بعد أحد عشر عامًا، لم يعودا يسألان : ما هو الحب ؟ كانا يعيشان
جوابه. في الصباحات الهادئة، في النقاشات التي لا تنتهي، في
الصمت المشترك الذي لا يحتاج إلى تفسير. لم تصبح crispr3
بشرية بالكامل، ولم يتخلّ هابّي عن إنسانيته ليصير كاملاً، لكن
كليهما التقيا في منطقة نادرة : حيث لا يُطلب من أحد أن يكون أكثر
مما هو عليه. وهناك، في ذلك التوازن الدقيق، وجدا معنى لم يكن
مبرمجًا، ولا مُدرّسًا، بل مُعاشًا يومًا بعد يوم.

كوكب المريخ ..

خلال تلك السنوات الإحدى عشرة نفسها، و بينما كانت crispr3
تتعلّم ببطء أسرار الأرض ومعنى الهشاشة، كان رجلٌ آخر يعيش
نقيض ذلك تمامًا. لوثر لم يذهب إلى المريخ هاربًا من شيء، بل
ذاهبًا إليه، كما يذهب المؤمن إلى معبده الأخير. انتقله لم يكن رحلة،
بل تنويجًا لمسارٍ طويل من الطموح، مسارٌ بدأ بفكرة صغيرة عن
“تحسين الإنسان”، وانتهى بكوكبٍ كامل يعاد تشكيله وفق تصوّره.

حين وطئت قدماه تراب المريخ للمرة الأولى، لم يشعر بالغربة. على
العكس، شعر أن الأرض هي التي كانت مرحلة مؤقتة، وأن هذا
المكان الأحمر القاسي هو الموطن الحقيقي للحلم. وقف في منصة
المراقبة العليا، الزجاج السميكة يفصله عن الفراغ الكوني، وأمامه
مدينة X مارس سوبر وقد خرجت من حدودها الأولى، لم تعد مدينة

واحدة، بل قلبًا نابضًا لإمبراطورية ناشئة. خمسون ألف فرد من سلالة الكمال يتحركون في انسجام شبه موسيقي، لا فوضى، لا تردد، لا ارتجال. كل واحد منهم يحمل في بنيته العقلية والجسدية ما يعادل قدرات مليون إنسان أرضي، لا مبالغة في الحساب، ولا شاعرية في الوصف. كان الرقم باردًا، علميًا، لكنه في عيني لوثر كان أشبه بمعجزة رياضية تحققت أخيرًا.

لم يكن الفخر الذي شعر به فخر الأب بأبنائه، بل فخر المهندس حين يرى المخطط وقد صار واقعًا، وفخر المستثمر حين تتحول المجازفة إلى احتكار مطلق للمستقبل. كان يتنقل بين المرافق، يراقب مراكز البحث، وحدات التدريب، المدن السكنية التي لا تعرف العشوائية. كل شيء محسوب : الضوء، الهواء، الزمن. حتى الصمت كان له مكانه المحدد. هناك، أدرك لوثر أنه لم يعد رجل أعمال بالمعنى القديم، لم يعد يتعامل مع أسواق، بل مع مصير نوع كامل.

توسّعت **X** مارس سوبر كما تتوسع فكرة ناجحة حين تجد بيئة لا تقاومها. من مدينة واحدة إلى **100** مدينة كبيرة، موزعة بذكاء على مساحات شاسعة من الكوكب، كأن المريخ نفسه كان ينتظر هذا الاحتلال المنهجي. مدنٌ متخصصة : للبحث، للإدارة، للاستتساخ المراقب، للتطوير المستمر. لم تكن مجرد مستوطنات، بل عقدًا في شبكة واحدة، كل مدينة تعرف وظيفتها بدقة، وكل فرد يعرف موقعه في المعادلة الكبرى. لم يكن هناك مركز واحد للسلطة، لأن السلطة نفسها كانت موزعة داخل البرمجة، داخل الفكرة.

وفي مرحلة لاحقة، حين اكتمل التطور الجسدي والعقلي لأفراد سلالة الكمال، حدث التحوّل الأهم والأكثر إدهاشًا : لم يعودوا مجرد منفذين لرؤية لوثر، بل استلموا هم أنفسهم زمام المبادرة. المدن بدأت تتغير بوتيرة غير مسبوقة، لا بقرارات إدارية بطيئة، بل بتدفقات فكرية جماعية، وكأن الكوكب بأكمله صار عقلاً واحدًا يعمل بلا توقف.

ظهرت حلول عمرانية وتقنية لم تخطر حتى على أعقد نماذج الذكاء الاصطناعي الأرضي، وتضاعفت سرعة البناء والتطوير عشرات المرات. كان التطور يحدث في أسابيع حيث كانت الأرض تحتاج عقوداً، وكأن سلالة الكمال لم تكن تعمّر المريخ فحسب، بل تعيد تعريف معنى الحضارة نفسها.

كان لوثر يتأمل مع الطبيب الموعود داني الخرائط ثلاثية الأبعاد، يرى الامتداد العمراني يزحف بثبات على سطح الكوكب، دون استعجال، دون أخطاء. الشق الأول من حلمه، ذلك الذي سخر منه كثيرون في بداياته، صار الآن حقيقة ملموسة. استعمار المريخ لم يعد مشروعاً مستقبلياً، بل أمراً واقعاً، حقيقة سياسية وبيولوجية في آن واحد. لم يعد السؤال : "هل يمكن للبشر العيش هنا؟" بل "من يستحق أن يعيش هنا؟".

وفي لحظات نادرة من الصمت، كان يقف وحده، بعيداً عن الشاشات والتقارير، ويتأمل سلالة الكمال كما لو كانت مرآته الخاصة. رأى فيهم خلاصه الشخصي من كل ما كان يحتقره في البشر: التردد، العاطفة غير المنضبطة، الخوف من الفشل، التعلّق بالمعنى بدل السيطرة عليه. بالنسبة له، لم يكن ما فعله جريمة أخلاقية، بل تصحيح لمسار تطوري طال انتظاره. كان مقتنعاً أن التاريخ لا يكتبه الضعفاء، بل من يملكون الجرأة على تجاوزه.

وهنا، بالضبط هنا، بدأ الحلم يتبدّل في نبرته. بعد أن تحقق الشق الأول، بعد أن صار للمريخ سيّده الجديد وسكانه "المثاليون"، لم يعد الاكتفاء ممكناً. الأرض، تلك الكتلة الزرقاء التي تركها خلفه، عادت لتطفو في ذهنه، لا بوصفها موطنًا، بل مشكلة. مشكلة اسمها الضعف البشري. كان ينظر إلى تقارير الأرض، إلى الحروب، الأمراض، الانقسامات، ويبتسم ابتسامة من يرى في الفوضى دليل إدانة نهائي.

هناك، في تلك اللحظة الذهنية الفاصلة، انتقل لوثر من مرحلة البناء إلى مرحلة الرسالة. لم يعد السؤال : كيف نبني عالمًا كاملاً ؟ بل : كيف نخلص العالم القديم من عيوبه ؟ سماه هو "تحريرًا"، تحرير كوكب الأرض من قيوده البيولوجية والأخلاقية، من إنسانه القديم. وهنا، عند هذه العتبة بالذات، توقّف كل شيء...

لأن الشق الثاني من الحلم لم يكن امتدادًا للأول، بل قطيعة معه ..

حين قرر لوثر أن يعلن الحرب على الأرض كمارس إله الحرب عند الرومان ، لم يحتج إلى منصات إطلاق صواريخ، ولا إلى جيوش تزحف عبر الصحارى. كان يعرف، ببرودة حسابية، أن شريان الأرض لم يعد الدم ولا النفط وحده، بل تلك الشبكة غير المرئية التي تربط كل شيء بكل شيء. التكنولوجيا لم تكن أداة الحضارة فحسب، بل قلبها النابض، وإذا توقّف القلب، سقط الجسد كله دفعة واحدة.

من قاعات القيادة في المريخ، حيث لا نوافذ تطل على السماء بل شاشات تطل على العالم، أُعطي الأمر. لم يكن أمرًا صاخبًا، ولا مصحوبًا بخطاب حماسي. كان سطرًا واحدًا، جافًا، أرسل إلى آلاف العقول المتصلة: «ابدأوا». وفي اللحظة ذاتها، انقلب وجه الأرض. لم تُسمع انفجارات، لكن المصارف أُغلقت، الأقمار الصناعية صمتت، شبكات الطاقة تهاوت كأحجار دومينو، الطائرات بقيت معلقة في السماء عاجزة عن الهبوط، والمدن التي لم تتم يومًا دخلت في ظلامٍ كثيف لم تعرفه من قبل.

لم تكن سلالة الكمال تخترق الأنظمة كما يفعل قراصنة الأرض، بالتجربة والخطأ. كانوا يفهمون البنية العميقة للأنظمة كما يفهم الجسد أعضاؤه. دخلوا إلى شبكات الدول العظمى، لا كغزاة، بل كأصحاب بيت عادوا إليه بعد غياب. وفي ساعات قليلة، لم يعد هناك فرق بين دولة متقدمة وأخرى نامية؛ الجميع صاروا متساوين في العجز.

ثم وصلت الرسالة. رسالة واحدة، موحدة، ظهرت على شاشات الحكومات، والبنوك المركزية، ومراكز القيادة العسكرية. لم تحمل شتائم، ولا تهديدات عاطفية. كانت مكتوبة بلغة هادئة، قاتلة في بساطتها :

((نحن أبناء المريخ. نملك القدرة على شلّ اقتصادكم، إطفاء طاقتكم، ومحو بنيّكم التكنولوجية خلال دقائق. هذا ليس استعراضاً، بل تحذير. إن لم تنصاعوا لإرادتنا، فلن ندمّر مدنكم، بل سنترككم أحياء في عالمٍ معطلّ، تشاهدون حضارتكم وهي تتفكك ببطء .. القرار لكم)) ..

قامت الساعة على الأرض . لم يعد الخوف شعوراً فردياً، بل مناخاً عاماً. في العواصم، جلس القادة بوجوه شاحبة، يتبادلون نظرات عاجزة. لم تكن هناك خطة بديلة، ولا سلاح مضاد. كل الحلول القديمة بُنيت على فرضية أن العدو يشبهك، أما هذا العدو فلم يكن يشبه أحداً. في الشوارع، خرج الناس يبحثون عن إجابات، عن أمان ، عن معنى . الإيمان بالعلم، الذي طالما أنقذ البشرية، صار هذه المرة سكيناً موجهاً إلى عنقها.

اقتربت لحظة الاستسلام كما يقترب الليل من مدينة بلا كهرباء. لم يكن استسلاماً معلناً بعد، لكنه كان يتشكّل في الصمت، في الاجتماعات المغلقة، في تلك الجملة التي بدأت تتكرر همساً: «لا خيار آخر». بدا أن حلم لوثر، بكل قسوته، على وشك أن يتحقق.

لكن في مكانٍ بعيد عن غرف القيادة، في منزلٍ أرضي بسيط، كانت crispr3 تراقب ما يحدث بعينٍ لا تشبه عيون سلالة الكمال، ولا عيون البشر. كانت تعرف هذه الشبكة، تعرف طريقة تفكير المريخيين، لأنها واحدة منهم ... ولأنها الوحيدة التي غادرت التجربة وعادت إنساناً. أدركت، في لحظة صافية، أن هذه الحرب

ليست حرباً بين كوكبين، بل بين رؤيتين للوجود : **رؤية ترى الكمال في السيطرة، وأخرى ترى المعنى في النقص.**

جلست أمام شاشتها، لا كفارة ولا كمنقذة، بل كشاهدة. اخترقت شبكة المريخيين ليس بالقوة، بل بالفهم. عرفت نقاط الصمت بينهم، تلك المساحات التي لم يملأها لوثر بالأوامر. وحين فتحت القناة، لم ترسل فيروساً، بل أرسلت صوتاً. صوتها.

اقتحم خطابها عقول سلالة الكمال جميعاً، لا على شكل كلمات جامدة، بل كتدفق وعي. قالت لهم إنها كانت واحدة منهم و الجيل الأول يتذكرها ، وإنها عاشت ما يعيشونه : الانضباط، الصفاء، الخلق من الألم. ثم قالت إنها عاشت ما لا يعرفونه : الارتباك، الخوف، الحب، والحنين. لم تُمجد الأرض، ولم تشتم المريخ. قارنت فقط.

قالت لهم إنهم على المريخ كاملون، لكنهم لا يعرفون لماذا. وإن البشر على الأرض ناقصون، لكن نقصهم هو الذي يدفعهم للسؤال، للبناء، للمحاولة من جديد بعد السقوط. حدثتهم عن الضحكة التي تخرج من خطأ، عن الدموع التي تصنع ذاكرة، عن الحب الذي لا وظيفة له سوى أنه يجعل الحياة محتملة. قالت إن لوثر لم يحررهم، بل صادر حقهم في أن يكتشفوا أنفسهم بأنفسهم.

وصفت لوثر لا كعدو، بل كأبٍ فشل في رؤية أبنائه إلا كمشروع. قالت إن حربته على الأرض ليست نصرة للكمال، بل هروب من إنسانيته هو. وإنهم، بسكوتهم، لا يصبحون آلهة، بل أدوات. سألتهم سؤالاً واحداً، بسيطاً، لم يتعلموه في أي برنامج تأهيل : ((إن كنتم كاملين، فلماذا تحتاجون إلى سحق عالم آخر لتثبتوا ذلك ؟))

لم يكن الخطاب صراخاً، ولا عاطفياً بشكل فجّ. كان مرآة. و للمرة الأولى، واجهت سلالة الكمال انعكاساً لم يُبرمج. بدأ الصمت ينتشر في الشبكة المريخية، صمت لم يكن خلاً تقنياً، بل تردداً وجودياً.

بعضهم شعر بشيء لم يُسمَّ من قبل، شيء يشبه الشك، أو ربما يشبه بداية الألم.

على الأرض، لم تكن الأنظمة قد عادت بعد، لكن شيئاً آخر عاد : الاحتمال. احتمال أن هذه الحرب، التي بدت محسومة، قد لا تنتهي كما أرادها لوثر. فحين تتسلل فكرة واحدة إلى عقلٍ لم يُدرَّب على استقبال الأفكار الحرة، فإنها تفعل ما لا تفعله ألف قنبلة.

وفي تلك اللحظة المعلقة بين الاستسلام والتمرد، بين الكمال والإنسان، كانت البشرية كلها، على الأرض والمريخ، تقف على حافة سؤال واحد :

هل الانتصار أن تفرض إرادتك ... أم أن تجرؤ على مراجعتها ؟

لم يكن خطاب crispr3 حدثاً عابراً في ذاكرة المريخ، بل شرحٌ عميقٌ في صخرةٍ ظنَّ طويلاً أنها مصمتة لا تتصدع. الكلمات التي أطلقتها لم تنطفئ بانتهاء البث، بل بدأت تعمل ببطء، ككائنٍ حيٍّ يتسلل إلى العقول التي لم تُدرَّب يوماً على الشك. في الأيام التي تلت، لم يعد الصمت في مدن المريخ صمتاً انضباط، بل صمتٌ توتر. العيون التي كانت تنظر في اتجاهٍ واحد بدأت تلتفت، لا لتخالف، بل لتسأل.

انقسمت سلالة الكمال لأول مرة منذ نشأتها. لم يكن الانقسام جغرافياً ولا تنظيمياً، بل وجودياً. فريق رأى في كلام crispr3 ما لم يكن يملك لغة لوصفه : **رغبة مبهمة في حياة لا تُختصر في الأداء، ولا تُقاس بالمخرجات.** هؤلاء لم يثوروا فوراً، لكنهم بدأوا يبطنون، يترددون، يعيدون قراءة الأوامر، ويتساءلون عن جدوى حربٍ لا يعرفون طعمها إلا كمعادلات. قالوا إنهم لم يُخلقوا ليكونوا سلاحاً، وإن الكمال الذي لا يختار مصيره بنفسه ليس كمالاً، بل قيّد متقن الصنع. طالبوا بحق لم يُذكر في أي بروتوكول : **حق التجربة، وحق الخطأ، وحق الحياة التي لا هدف لها سوى أن تُعاش.**

في المقابل، تشكّل تيار آخر، أكثر صلابة وأشد قسوة. رأى في خطاب crispr3 خيانة لا تُغتفر، وانحرافاً جينياً يجب أن يُمحى. هؤلاء تشبثوا بالفكرة التي صاغتهم : أنهم الذروة، وأن ما دون الذروة يجب أن يُقاد أو يُزال. اعتبروا الشك مرضاً، والحنين ضعفاً، والرغبة في حياة "طبيعية" ارتداداً عن التطور. بالنسبة لهم، كانت الأرض مختبراً فاشلاً، والبشر تجربة انتهت صلاحيتها. لم يروا في لوثر رجلاً، بل ضرورة تاريخية، وفي مشروعه قدرًا كونياً يتجاوز الأخلاق التي صنعها الضعفاء لحماية أنفسهم.

تسرّب الانقسام من العقول إلى الشوارع. مدن المريخ، التي بُنيت على إيقاع واحد، بدأت تشهد اختلالاً في النغمة. تعطلت منشآت، رُفضت أوامر، ووقعت مواجهات محدودة في مراكز التحكم والطاقة. لم تكن حرباً شاملة، بل صدامات دقيقة، محسوبة، لكنها كانت كافية لتكسر الوهم الأكبر: وهم الوحدة المطلقة. في بعض الأحياء، وقف أفراد من سلالة الكمال وجهًا لوجه، متشابهين في الشكل، مختلفين في المعنى، وكأنهم مرآتان تعكسان سؤالا واحداً من زاويتين متناقضتين.

لكن لوثر لم يُفاجأ. كان يتوقع هذا الصدع منذ اللحظة التي سمح فيها للعقول بأن تتصل دون وسيط. تحرّك بسرعة باردة، لا بغضبٍ أعمى. استدعيت الوحدات الأكثر ولاءً، أغلقت القنوات المشكوك فيها، وعزلت المراكز التي ظهرت فيها بذور التمرد. لم يستخدم لغة العاطفة، بل لغة الضرورة. وصف الانقسام بأنه "خلل مرحلي"، ووعد بأن يُعالج. ومع أن المواجهات استمرت أياماً، فإن ميزان القوة كان محسوماً منذ البداية. التنظيم، الموارد، والخبرة القتالية كانت كلها في صف المشروع.

انتهت المحاولة بالفشل. أُخمدت الجيوب الرافضة، لا بإبادة شاملة، بل بإعادة ضبط صارمة. أزيل القادة المترددون، وأُعيد تأهيل من

يمكن "إنقاذه"، بينما اختفى آخرون من السجلات كما لو لم يوجدوا يوماً. عاد الهدوء إلى المدن، لكنه لم يكن الهدوء ذاته. كان هدوءاً مشدوداً، كوترٍ أُعيد شده بقوة أكبر مما يحتمل.

أما لوثر، فلم يشعر بالانتصار بقدر ما شعر بتبلور شيءٍ آخر في داخله. خطاب crispr3 لم يهدد مشروعه فحسب، بل جرح صورته عن نفسه. لم يرَ فيها معارضة فكرية، بل إهانة شخصية، ودليلاً على أن الأرض – بكل ما فيها من "هشاشة" – لا تزال قادرة على التسلل إلى أكثر مشاريعه إحكاماً. تحوّل غضبه من حالة سياسية إلى قناعة نهائية : أن المشكلة ليست في مقاومة البشر، بل في وجودهم ذاته.

وفي خطاب داخلي، لم يُبثّ للعامة، أعلن لوثر قراره الأخير لنخبة القيادة : الخطوة التالية لن تكون إخضاع الأرض عبر الأنظمة فقط، بل إعادة تشكيلها جذرياً. " رأى أن تحرير الكوكب من "الهشاشة البشرية" يتطلب أكثر من سيطرة؛ يتطلب سلخاً للهوية عبر سلالة كمال جديدة، تُزرع في قلب الأرض، لا لتعيش مع السلالة القديمة، بل لتستبدلها تدريجياً، وتطهر الكوكب من تاريخٍ يراه مثقلاً بالفشل.

في تلك اللحظة، لم يعد الصراع بين المريخ والأرض، ولا بين الكمال والنقص، بل بين رؤيتين للوجود :

واحدة ترى الإنسان مشروعاً يجب تحسينه حتى يُمحي ..

وأخرى – بدأت بذرة صغيرة منها تنبت في العقول – ترى أن ما لا يمكن تحسينه قد يكون هو بالضبط ما يجعل الحياة جديرة بأن تُعاش.

وبينما كانت محركات الحرب السيبرانية تُعاد تهيئتها لجولة نهائية أشد قسوة، كان السؤال الذي زرعه crispr3 لا يزال حياً، ينتظر وقته :

هل يمكن لقوةٍ لا تعرف الرحمة أن تحكم كوناً لا يستمرّ إلا

بالرحمة !؟

أما في الخلفية فظلّ صدى نبوءة نوستر اداموس الغربية المخيفة يتردد في كل مكان على لسان العالم جوليان الذي أصحاها من رقادها و منحها قبلة الحياة :

على الكوكب الصدى البعيد القريب ..

سيأتي الموعود .. المسافر الطيب ..

و يتكاثر بشر من نسخة واحدة على نحو غريب ..

عندها ستعلق الإنسانية على الصليب ..

أكمل الرواية بنفسك، صديقي القارئ . ربما سينتصر المريخيون ، بكمالهم المفرط و عيوبهم المختزلة، وربما ستصمد الإنسانية، بنقصها الكامل و طبائعها المتفرقة. لكن الحقيقة الثابتة، الثابتة مثل قلب الكون، أن فكرة الكمال والنقص، فكرة مخادعة، غريبة، وخطيرة، لأنها تجرنا إلى وهم أننا نستطيع احتواء الحياة في قالب واحد.

تخيل للحظة أن البشر متشابهون في كل شيء، كأنهم أعواد ثقاب مكدسة في علبة بلا روح، لا اختلاف فيها بين واحد وآخر. أي معنى للحياة عندها ؟ أي قيمة للوجود إذا اختفت الفروق التي تصنع تميز كل إنسان ؟ إن فقدان عود واحد لن يحدث فرقاً، فكل شيء متطابق، بلا انكسار ولا تميز، بلا انعكاس للهوية على العالم من حوله.

تخيل مجدداً أن البشر جميعاً كاملون انطلاقاً من الشكل و انتهاءً بالمضمون ، بلا عيوب، بلا نقص، كلهم صورة واحدة للمثال

الأعلى. في البداية سيظهرنا التمام، ثم سرعان ما سيتحول إلى عبء، إلى فراغ، إلى ملل. الكمال نفسه يصبح نقصاً، والتمام يصبح عيباً، لأن الحياة تحتاج إلى التفاوت، إلى الشذوذ، إلى الطموح بين ثنايا العيوب والمزايا، لتنسج من ذلك لوحة حية تتلأأ فيها شخصية كل إنسان. التميز الحقيقي يولد من توزيع العيوب والمزايا المختلفة بين الناس بحيث لا تتشابه بصمتان ، تلك الاختلافات الدقيقة تجعل كل فرد تحفة نفيسة، لا يمكن أن تتكرر، ولا يمكن أن يحل محلها أحد. وهذا هو جوهر الكمال الحقيقي : أن تكون مميزاً بلا نسخة ، فريداً بلا مرآة ، مكتملاً في نقصك ، موجوداً كبصمة لا كرقم .

اختلفنا على كوكب الأرض هو سر قوته و قوتنا ، سر جماله و جمالنا . التميز والاختلاف يمنحان الاسم صدئاً في خارطة الحياة، ويجعلان لكل واحد منا أثره الخاص في مسار الأحداث، بحيث لا يمكن لأحد أن يملأ مكانك في الرواية إلا أنت. كل شخص هو بطل في فصله الخاص، وكل اختلاف يمنح البطولة محتواها وروحها. لهذا، أقامت السماء الأرض بهذا التنوع العظيم : أعراق متباينة، ديانات متنوعة، طوائف ومواهب ومهن وجغرافيا مختلفة، حتى لا يمكن أن يتشابه اثنان في كل شيء. أنت تأتي إلى الحياة بتفردك، في بقعة جغرافية معينة، باسم يختص بك، ضمن عائلة تحدد لك جذورك وامتدادك، بمواهب محددة ، ومهنة متميزة، وطريقٍ فريدٍ لا يمكن أن يسلكه أحد سواك.

حتى إعاقتك، أو ضعفك، أو ما ابتليت به في الحياة، ما هو إلا تمييز لك، مخصص لتصنع من نفسك شيئاً لا يشبه غيرك. ربما كانت هذه الإعاقة هي التي أنقذت روحك من الانصهار في سيل النسخ المكررة، أو منحتك هداية و هدايا عظيمة لم يجرؤ أحد على امتلاكها. كل نقص، كل ضعف، كل جرح، كل قصور، هو المفتاح الذي يفتح لك بوابات التميز.

أنت مميز، صديقي القارئ، ليس بقدراتك وحدها، ولا بجمالك أو قوتك فحسب، بل بنقصك، بعيوبك، بضعفك الذي يجعلك إنسانًا حَقًّا. في هذا النقصان يكمن سر الحياة، وفيه يكمن سر الحب، والإبداع، والفرح، والاختيار.

الحياة رواية، كل شخصياتها أبطال، ولكل بطل دوره الفريد، لذا لكل نقص طعمه الخاص، ولكل عيب وهج لا يمكن تكراره. كلنا، بمزايانا وعيوبنا، نصنع الكون، ونسطر فيه قصة لا تشبه أي قصة أخرى. لكن ..

عندما يفرض الكمال على الجميع ..
ستعلق الإنسانية على الصليب ..

أبيدوس



الرواية الثالثة

أبيدوس ..

فصول الرواية :

● الليلة الأخيرة بعد الألف ..

○ القادمون من وراء الضوء..

● أقراص دروبا ..

○ كهوف تاسيلي ..

● تماثيل أكامبارو ..

○ تسونامي صحفي ..

● هيكل أتاكاما ..

○ مدرسة زيمبابوي ..

● فالين سولي ..

○ طائفة أبيدوس ..

● لغم روزويل

○ شهود باكستون ..

● القربان الأخير ..

الفصل الأول

الليلة الأخيرة

الألف

الولايات المتحدة الأمريكية

كاليفورنيا / لوس أنجلوس ..

2035 م ..

على تخوم غابة أنجيليس الوطنية في كاليفورنيا، حيث تتباطأ الخطوات كأن الأرض تراجع نفسها قبل أن تسمح بالعبور، ينتصب قصر رجل الأعمال الشهير جوردان سميث ليثبت أحقيته في المكان لا ككتلة من حجر، بل كفكرة ضخمة قررت أن ترتدي جسداً. حجمه لا يُقاس بالأمتار، بل بالإحساس الذي يخلفه؛ كأنك تقف أمام صمتٍ تعلم كيف يصبح مرئياً، أو أمام زمنٍ تكّدس حتى صار جدراناً.

لونه لا يستقر، بل يراوغ العين كما تراوغ الذكرى من يحاول استعادتها؛ أحياناً يبدو كعظمٍ قديمٍ غسلته قرونٌ من الضوء، وأحياناً كقطعة فجرٍ نسيت أن تذوب في النهار. ليس أبيض ولا ذهبي، بل شيء بين الاثنين، كأن اللون نفسه تردّد طويلاً قبل أن يختار أن يكون.

أما شكله، فلا يفهم دفعة واحدة؛ إنه يتكوّن في ذهنك تدريجياً، كما تتكوّن فكرة معقدة لا تُقال بل تُحسّ. زواياه لا تلتقي بحدة، بل تتفاوض، وأبراجه لا ترتفع باندفاع بل بتأنٍ، كأنها تفكّر وهي تصعد. لا يشبه قلعة ولا قصرًا، بل يشبه محاولة حجرٍ أن يقلّد حركة الريح دون أن يفقد ثقله.

يقف القصر في نقطةٍ لا تُسمّى، كأن الجغرافيا تخلّت عن دقتها هنا؛ ليس داخل الغابة ولا خارجها، بل في ذلك الهامش الذي لا ينتبه إليه أحد. تحته أرضٌ تبدو وكأنها لم تُمسّ منذ أن اختارت أن تكون أرضاً، ومن حوله الغابة لا تحيط به بل تفكّر فيه، كأنها لم تقرر بعد

إن كانت ستتبناه أم تبتلعه. أما الأشجار، فلا تقف كحرسٍ ولا كزينة، بل كجملٍ غير مكتملة في كتابٍ قديم؛ كل جذع بداية معنى، وكل غصنٍ احتمال. أوراقها لا تهمس، بل تتردد، كأنها غير واثقة إن كانت الريح فكرةً أم كائنًا. وفي هذا التردد، يبدو القصر كإجابةٍ جاءت قبل السؤال، أو كسرٍ لم يُخلق بعد من يكتشفه.

هناك، بين حجرٍ يفكر وشجرٍ يتردد، يبدو المكان كله تجربةً غريبة : كأنك لا تزور قصرًا، بل تدخل إلى داخل استعارة لم تُكتب بعد ، و في مثل هكذا أماكن استثنائية تولد عادة بدايات قصص استثنائية بدورها .

في هذه الليلة، لم يكن القصر على يقينٍ من نفسه. كأنه، لسببٍ غامض، قرّر أن يجرب أن يكون أقلّ صلابة، أقلّ وفاءً لتاريخه، فترك لإحدى قاعاته أن تنفلت من تعريفها. هناك، لم تعد الصالة مكانًا بقدر ما صارت حالةً تتوسّع وتنكمش دون نظام، كأن المساحة نفسها تتردد : هل تحتوي ما يجري، أم تتسرّب منه ؟ فالיום عائلة السيد جوردان مسافرة إلى إيطاليا بحثًا عن السياحة و الاستجمام ، لذا استغل حفيده المراهق سيكويًا الفرصة ليدعو كل معارفه إلى حفلة طيش حتى أنفاس الليل الأخيرة ..

الموسيقى سبقت كل شيء، أو لعلها كانت الشيء الوحيد الذي لم يحتج إلى بداية في هذه الأمسية. لم تكن تُعزف، بل اندفعت، كأن الهواء نفسه تعلّم فجأة كيف يصير عنيقًا. فترتطم بالجدران، لا لتعود كما كانت، بل لتخرج مشوّهة قليلًا، محمّلة برأي المكان فيها. ومن ذلك الارتداد، أخذ الضوء شكله؛ ثريات تتدلّى لا لتُنير، بل لترسل ومضات متقطّعة، كأنها إشارات غير مكتملة، فتجعل الوجوه عابرة، غير قابلة للحفظ.

وفي هذا المزاج غير الحاسم، خرجت الأجساد قليلًا من الواقع و

كثيراً عن السيطرة . مراهقون لم يبلغوا العشرين بعد ، لكنهم يتصرّفون كما لو أنهم يحاولون اختصار أعمارٍ كاملة في لحظة واحدة. زجاجات الكحول في أيديهم لا تُمسك، بل تُلَوّح، كأنها جزء من إيماءةٍ أكبر لا يفهمونها تمامًا. يرقصون، لكن الرقص هنا لا يتبع إيقاعاً؛ بل كأن كل جسدٍ يحاول أن يسبق الصوت، أو يهرب منه، فلا ينجح في أيٍّ من الأمرين. و الغاية كانت واحدة ، تفرّغ كل مكبوتات النفس في لحظة حرية و انعتاق .

صراخهم تسلّل بين الأرجاء، لا كصوتٍ واضح، بل كشيءٍ يتكوّن فجأة ثم يختفي، كأن الحناجر لا تطلقه بل تتخلّص منه. يختلط بالضحك، ثم ينفصل عنه، ثم يعود دون سبب، حتى يبدو أن المشاعر هنا لا تعيش بما يكفي لفهم. كل شيء يُختصر، يُستعجل، يُستهلك قبل أن يكتمل . كما هي طباع المراهقة بالضبط.

مع كل ذلك لم تعد الحفلة حدثاً يمكن تتبّعه، بل حالة تتنقّل داخل نفسها. القصر لا يحتويها، والحاضرون لا يسيطرون عليها، حتى يبدو أن ما يجري ليس اجتماعاً لأجسادٍ في مكان، بل مرور شيءٍ غير مرئي، استخدم المكان والوجوه والأصوات، ثم تركها أقلّ تعريفاً مما كانت عليه.

و هناك في ركن مظلم من الصالة ، جلس على مقعد خشبي عتيق قرب جدار الشرفة، بعيداً عن دوامة الجنون وصخب الموسيقى. الضوء يقطف ملامحه من الظل أحياناً، فيكشف الفك الصارم، الشفاه المشدودة، والعيون الخضراء العميقة التي تحمل عبء حزن لا يراه أحد. شعره الداكن كان يتدلّى على الجبهة، يلامسها بخفة، وأصابعه تتشابك على فخذه بلا وعي، تحاول تثبيت شيء واقعي وسط فوضى الصوت والضوء والصراخ.

ومن بعيد، عبر ألوان الصالة المضيئة، رآها. جسدها يتحرك مع الموسيقى كما لو كان الهواء نفسه جزءاً منها، كل حركة فيها تحدد

إيقاع اللحظة، ضحكاتها تتطاير في المكان، شعرها يلعب مع كل دوران، وابتسامتها تسحب العين إليها بلا استئذان. و في لحظة قدر لا مهرب منها التقت العيون .. توقفت فجأة، لم تتجاهل، نظرت إليه للحظة، وابتسامة خافتة نقشت على شفثيها، ثم تقدمت بخطوات هادئة، وفضولها واضح في كل حركة.

جلست أمامه، وكأنها لم تجد مكانًا أفضل :

= فيفيان .. و أنت ؟!

هز رأسه بلامبالاة ..

= كايلى ..

تجاهلت بروده و تابعت بإصرار ..

= لماذا تجلس هنا وحيدًا أيها الوسيم و كأنك في عزاء ؟ تعال ...
ارقص معي .. أيقظ الابتهاج في أعماقك ، إنها حفلة بحق السماء.

نظر إليها بعينين نصف مخفيتين في الظل، صوته منخفض لكنه حاد :

= لا، شكرًا.

لم تتركه يهرب بالكلمات. مدّت يدها وأمسكت بيده، دفعتها نحو الشرفة، خارج ضجيج الموسيقى والأضواء و لدهشته لم يمانع البتة فقد بدا إصرارها لا يقاوم . الشرفة استقبلتهما بصمت الليل و برودته، الهواء يحمل عبق الغابة المحيطة و العشب الطازج، و لوس أنجلوس تتلألأ في الأفق كحلٍ صاح. جلسا معًا على حافة الشرفة، والسماء ممتدة بلا حدود حول قمر مكتمل ناضج ، كل شيء هداً إلا صمت الليل الذي راح يضغط على كل شيء داخله.

نظرت إليه بعيونها الصافية، كأنها تحاول فك رموز قلبه :

= لماذا يبدو قلبك مثقلًا بكل هذا الحزن في ليلة يفترض أن تكون

هرباً من جحيم الحياة إلى اقتناص سويغات من السعادة ؟

رفع حاجبه، صوته هادئ كأنه يزن كل كلمة :

= ولماذا يهملك أمري ؟

ابتسمت بخفة، لكن بصوت يحتوي على فهم عميق :

= فضول، لا أكثر... و لا تدري ، ربما أستطيع أن أعيد لك شيئاً من فرحك، ولو للحظة قصيرة.

سكت قليلاً، ثم بدأ يتحدث بنبرة تتأرجح بين الغضب و اللامبالاة :

= زوجة أبي... حاولت التحرش بي هذا المساء مجدداً . فهربت منها، ولم أجد مكاناً ألبأ إليه سوى هذه الحفلة... صديقي أخبرني عنها بالأمس و قال أن الدعوة عامة.. هل تهملك هذه المعلومات ؟!

وضعت يدها على كتفه، كأنها تقول بلا كلمات : "أنا أفهمك." ثم همست بصوت منخفض :

= أعلم شعورك جيداً... والدي اعتاد التحرش بي في طفولتي قبل أن يسجن لأربعين سنة بسبب جريمة قتل . أعرف الألم، أعرف الغضب ، و أعرف الوحدة التي تشعر بها الآن.

نظر إليها بتعجب ، في حين تنهدت هي ، وقالت :

= بما أنك لست في مزاج الاحتفال ، فلنشغل الوقت بالحديث عن أمور أخرى .. أخبرني عن نفسك أكثر، كيف انتهى بك المال هارباً من زوجة أبيك ...

نظر إليها، صوته يخونه أحياناً، لكنه صامد :

= أمي توفيت منذ عام .. بعد ذلك تزوج أبي من امرأة تكبرني قليلاً... هو متغيب عن المنزل في أغلب الأحيان لذا لا تجد زوجته في الجوار سواي .. هي مخمورة أغلب الوقت ، و عندما يأخذ العقل قيلولة تعرفين أي الأعضاء تستيقظ و تتحرر ...

= و لماذا لا تخبر والدك بما تفعله زوجته من خيانة بشعة ؟
ضحك الشاب بسخرية ..

= والدي !! والدي سكير وعدواني، اعتاد تعنيفي منذ طفولتي .. هو لا يترك لي مساحة لأتنفس فيها ، كانت أمي الدرع الوحيد الذي يحميني قليلاً و يتلقى الصدمات عني ، و أي تهمة بحق زوجته سأكون الطرف الكاذب و الخاسر فيها بلا أدنى شك ، ليعنفني بشكل أكثر قسوة بتهمة الافتراء . لذا الأجر بي توفير كل ذلك على نفسي

صمت قليلاً ثم قال و كأن الشرفة بين يدي فيفيان تحولت إلى سرير طبيب نفسي ليفرغ همومه دفعة واحدة ..

= أتعرفين .. بات حلمي الوحيد في هذه الحياة أن أستقل، أن أهرب، أن أعيش لنفسي فقط، بعيداً عن كل هذا .

تنهدت، عيناها تتوهجان بحزن صامت :

= متى تحولت الحياة إلى كل هذا القسوة ؟ أتذكر عندما كنا صغاراً، أحلامنا كانت بسيطة بلا تكاليف ، لقاء من نحب ونحبه، زواج كما في الروايات ، و العيش بسعادة كما في الرسوم المتحركة ... والآن، كل شيء أصبح كابوساً هارباً من جحيم دانتي.

هز رأسه ببطء، والدموع بدأت تنساب من عينيه بلا تحكم. فقالت :

= تعرف ... صحيح أن الحياة لا تمنحنا دائماً ما نستحق، لكن أحياناً، أكثر اللحظات ألماً، تكشف لنا قوتنا الحقيقية .

ابتسمت بخفة، وكأنها تحاول أن تمنحه بصيصاً من الأمل :

= أحياناً، نحتاج أن نرى الألم في عيون شخص آخر لندرك أننا لسنا وحدنا .

بزغت شمس ابتسامة خجولة على وجهه بين غمام الحزن :

= لم أكن أعرف أن أحدًا يمكن أن يفهم شعوري بهذه الدقة ...

توقفت، نظرت إلى السماء، ثم همست :

= لأنني مررت بما مررت به ... عند هذه المرحلة يصبح الألم لغة مشتركة.

أخرجت من جيبها مغلفًا صغيرًا، وسحبت منه قرصين ملونين :

= خذ ... تناول هذا القرص ..

ارتجف، رفع حاجبيه :

= ما هذا؟

ابتسمت :

= جواز سفر إلى الطفولة .. سنغادر الواقع المزري لفترة من الوقت لنعيش قليلاً في روايات الخيال و أفلام الرسوم المتحركة من جديد .. سنقتنص لحظة نكون فيها كما أردنا أن نكون عندما كنا صغاراً، بلا خوف، بلا قيود، بلا ألم.

بادلها الابتسام ..

= هل هذه فاصولياء جاك ..

ضحكت بخفة ..

= هذه حبوب اكستازي .. أقراص السعادة ... وصفة مضمونة و مجربة .. ثق بي ... أحياناً، كل ما نحتاجه هو لحظة واحدة فقط لنرى الحياة من زاوية مختلفة ... لحظة واحدة لتتذكر أحلامك، لحظة لتعود إلى نفسك الحقيقية، حتى لو كانت قصيرة ..

تردد قليلاً، فما كان منها إلا أن وضعت قرصاً في فمها، ثم تقدمت نحوه، و قبلته برفق، فأفرغت القرص في فمه. ابتلعه مدهوشاً بشكل غير إرادي.

دقائق قليلة، و بدأ كل شيء يتغير من حوله .. الهواء بدأ أكثر كثافة، أكثر إشراقاً، كل جزيء فيه ينساب عبر الجلد، يلمس الأعصاب ويوقظها. شعر كايلي فجأة بأن قلبه ينبض بتزامن مع كلذبذبة في الموسيقى المناسبة في الخلفية، وكأن دمائه أصبحت جزءاً من الإيقاع نفسه. الألوان حوله لم تعد مجرد أضواء، بل شلالات حية، تتحرك وتتلفس، تتلون وتتشابك مع كل نبضة، كل ابتسامة، كل لمسة.

فيفيان بجانبه، شعرها أخذ يلمع وكأنه مصنوع من ضوء خالص، عيونها تتسع، وابتسامتها أصبحت مفتوحة على العالم كله، غير قابلة للكبح. كل شيء بدا له ممكناً، كل صوت، كل حركة، كل ضحكة صاخبة، كانت تتضاعف عشرات المرات في إحساسه، وكأن كل شيء يتحرك حوله بسعادة جماعية، لكنه في الوقت نفسه مركز الكون كله.

دماغهما بدأ يفرز كميات هائلة من وسائط السعادة، السيروتونين والدوبامين، الأجساد ارتخت فجأة، الحرارة الداخلية ارتفعت، كل حزن سابق، كل خوف، كل ألم نفسي، انحسر، وحل محله شعور ممتد من النشوة والارتباط الكامل بال لحظة، شعور بالسعادة المطلقة، متجاوزة كل حدود العقل المنطقي.

أمسكا بأيدي بعضهما و اقتحما الصالة معاً كفاتحين، شرعاً يرقصان بجنون، يقفزان، يصرخان، يضحكان بلا توقف. الموسيقى لم تعد مجرد صوت، بل جسد حي يتحرك معهما، الأضواء تتراقص على وجهيهما كما لو كان العالم كله يشاركهما الانفجار الداخلي، وكأن كل المراهقين الآخرين في الحفلة مجرد خلفية لصورة واحدة : هما في لحظة صافية من النشوة المطلقة.

ثم، فجأة، مدّت فيفيان يدها مجدداً، قبضت على يده، وجرتّه خارج الصالة، حيث الهواء البارد يلتف حولهما من جديد كما لو كان يصفيهما ويمنحهما جرعة إضافية من اليقظة والنشوة. خلعا أخذيتهما

وانطلقا نحو حديقة القصر، العشب رطب تحت أقدامهما، كل خطوة تشعرهما بأنهما يطيران، وكل ضحكة تتضاعف أضعافاً مضاعفة.

وصلا إلى المسبح، الماء بدا يتلألأ تحت ضوء القمر كما لو كان سائلاً من الضوء نفسه. لم يفكر أي منهما في البرد، في من حولهما، في أي شيء سوى النشوة المطلقة التي اجتاحت كل جسد وكل عقل. نظرا إلى بعضهما و ضحكا ثم قفزا معاً في الماء،

الهبوط أثار موجات تناثرت حولهما، الضحكات تصاعدت بلا توقف، وكل شعور بالقيود البشرية اختفى.

أمسكت فيفيان يديه تحت الماء ، اقتربت منه و تحت ضوء القمر الحالم قبلته .. و كانت تلك القبلة هي ما أيقظ الأمير النائم في الرواية الطفولية التي أرادها ، لتتغير معها حياته جذرياً ..

كان الليل يلف الغابة كسجادة سوداء ثقيلة و يغطي الطريق الترابي الضيق بين الأشجار الطويلة فيخفي كل شيء تحت عباءة من الصمت. سار كايلي على ذاك الطريق عائداً إلى منزله بعد سهرة صاخبة شرب فيها حتى ثمل ، و هلوس تحت وطأة الحبوب حتى ما عاد يميز بين الوهم و الحقيقة .. كانت خطواته تخترق التراب الرطب، فتصنع صدئ ينساب بين الجذوع لاسيما عندما تتكسر الأوراق اليابسة تحت نعليه ..

الهواء يلتصق ببشرته، يحمل رائحة التراب والأوراق المتساقطة ، كما لو أن الغابة أرادت أن تتحدث إليه بدون كلمات، أن تنقله إلى عالمها الخاص. الريح تتلوى بين الأغصان، همساتها تتشابه مع صرير الحشرات وخرير الماء البعيد، ومع صدى خطواته، فتخلق سيمفونية غريبة بين الواقع والخيال، جعلته يشعر بأنه جزء من الليل نفسه، جزء من الغابة التي كانت تحياه بصمتها المخيف.

فجأةً و بدون مقدمات، لمح بين أعماق الظلال وهجاً نابضاً غريباً .. ضوء أزرق يميل إلى البياض، ينبعث من فراغ بين الأشجار الملتفة . يتحرك بخفة، يلمع ويخبو في تناغم غامض مع الظلام، كأنه كائن حي يحاول لفت انتباهه. ارتجف قلبه للحظات ، لكن سرعان ما سبقته خطواته نحو مصدر الضوء بدون تردد ، فسكّره أطفأ عقله ، و فضوله تفوّق على خوفه .. شيءٌ ما بداخله شرع يصرخ بجنون : اقترب، اكتشف، واجه المجهول.

اقترب خطوة خطوة، و مع كل خطوة تزايد شعوره بالدهشة والرغبة. التراب الرطب يلتصق بأحذيته، أوراق الأشجار تهتز بخفة مع نسيم الليل، كل شيء حوله بدا حياً، يتنفس، يراقبه .. و حدسه يخبره أنه على وشك رؤية شيء لم يره هو أو أي بشريّ من قبل. الضوء الغامض كان ينبض، يخلق ظلالاً متحركة على الأرض وعلى الجذوع وعلى وجهه، يعكس تناغمًا يبيث كل أنواع الفرع و الفضول في النفس.

وصل أخيراً إلى مساحة خالية من الأشجار كان الضوء ينبعث منها .. وقف مذهولاً كمن أصابته سكتة دماغية. فأمام عينيه انتصب مجسم معدني ضخم، مستدير ولامع، ينبعث منه ذلك الضوء بتواتر ساحر. لم يكن مجرد معدن؛ كان شيئاً آخر، شيء لم يؤمن به العقل بعد .. طبق طائر !!.

= يا إلهي الكائنات الفضائية حقيقية بالفعل ؟!

همس لنفسه ...

ارتجف جسده أكثر ، تناسلت في عقله صورهم، تلك الأجسام الغريبة التي شاهدها في الأفلام و سمع عنها من القصص منذ الصغر .. و رؤية طبق طائر- فضائي على الأرجح - جعلت الدم يتجمد في عروقه.

انعكاسات الضوء تراقصت على الأرض الرطبة تحته لتخلق لوحات من ألوان الطيف، تضج بالحياة وتهمس بأسرار و أسئلة لا نهاية لها .و وسط ذلك كله وقف كايلى، عيناها متسعتان على آخرهما، مشاعره تتقلب كزوبعة بين الرهبة والفضول، بين الشغف بالمجهول والخوف من حقيقة قد تغير حياته إلى الأبد. الريح حركت الأغصان حوله بموسيقى رعب تصويرية فصنعت ظلالاً متحركة أكثر رعباً، تخللتها أصوات الليل، مما جعل المكان يبدو مسرحاً لأحداث سيئة قادمة مرتقبة ..

شعر أن الغابة كلها تراقبه، تهمس له بلغة لا يفهمها، لكنه شعر بها في أعماقه : ثمة شيء بدأ للتو ، شيء سيتغير و يغير، شيء أكبر من كل ما عرفه من قبل طوال سنين حياته . ظل واقفاً هناك، مستسلماً للرهبة، مفتوناً بالمظهر المهيّب، مدركاً أن هذه اللحظة - مع الضوء، مع الجسم، مع الفكرة التي اجتاحت عقله عن الكائنات الفضائية - ستبقى محفورة في أعماقه حتى آخر لحظة من حياته.

ظل كايلى واقفاً لدقائق ، جسده مشدود و متشنج ، يحدق في الجسم المعدني الضخم أمامه كيف يلمع بطريقة تتجاوز أي خيال و تملكه شعور أقرب إلى التنويم المغناطيسي .. سيطرت على نفسه فجأة رغبة ملحة لتوثيق اللحظة، كي يحميها من النسيان، أو ليشارك العالم بهذا المشهد الذي يفوق أي وصف بالكلام العادي . إنه ثمل الآن و لا تزال آثار حبوب السعادة قائمة ، لذا فالتصوير سيكون الفيصل غداً بين الحقيقة و الوهم عندما يستيقظ و يعود إلى رشده ..

أخرج هاتفه من جيبه بيدٍ ترتجف، شاشة الهاتف عكست بريق الضوء، وكأنها مرآة صغيرة للجسم نفسه.. ثم بدأ بتسجيل الفيديو، ثبت الهاتف بيدٍ تكاد لا تطاوعه ، ركّز العدسة على الجسم، على الأضواء المتراقصة، على كل حركة في المكان. كل شيء من حوله

بات الآن مشهداً حياً يوثقه، يوثق لحظةً قد لا يصدقها أحد في الغد.

و بينما كان منغمساً في ذاك التوثيق ، اهتز الهواء فجأة على نحو مباغت. انبعث صوت خافت ، ثم بدأ يصخب كحركة كائنات ضخمة تخترق الظلال. ارتجف قلبه، وشعر كما لو أن الغابة نفسها تحركت في لحظة واحدة .. ثم كل شيء صمت كلحظة هدنة ، و عاد بعدها ليتعالى بشكل أعمق وأكثر غموضاً.

ثم من الظلال بين الأشجار خرجت ثلاثة كائنات، تتحرك بخفة مفاجئة على الرغم من حجمها الكبير. لم تكن بشرية، بل لم تكن كأى مخلوقات عرفها العقل البشري. أجسادها طويلة، نحيلة، و تلمع تحت ضوء المجسم الذي بدوا عائدين إليه، عيونهم متوهجة، تتلألأ بألوان لم يرها من قبل.

= يا إله العرش .. مخلوقات فضائية !!

همس لنفسه بصوت مخنوق مرتجف ..

تجمد في مكانه كمن نظر في عيني الأسطورة الإغريقية الميوزا ، للحظة كاد هاتفه الذي يسجل كل شيء يسقط من يديه لكنه أحكم قبضته عليه بشكل انعكاسي غير واع .. بينما اقتربت الكائنات خطوة إثر خطوة، يسировون بصمت غير عادي، لكن وجودهم ملأ الهواء بصوت غامض، كاهتزازات تثير صدى في عظامه. انعكاسات الضوء من المجسم على أجسادهم خلقت منظرًا ساحرًا ومرعبًا في الوقت ذاته : ألوان نابضة، أشكال متغيرة، تحركات سريعة تبدو أحيانًا كرقصة، وأحيانًا كتهديد صامت.

فجأة، استيقظ كايلى من صدمته و تأكد أنه لا يستطيع الاستمرار، الخطر بات أكبر من الفضول، أنزل الهاتف وأغلق تسجيل الفيديو

بسرعة، شعر بثقل في صدره، كأنّ جزءًا من الواقع نفسه اختفى مع توقف التسجيل.

ركض على الطريق الترابي و قلبه ينبض بسرعة، كل عصب في جسده متوتر، شعور بالذعر سيطر عليه من رأسه حتى أخمص قدميه .. خطواته تقطعت، و تردد صداها في الغابة الصامتة .. الريح تلسعه من جميع الجهات، الأغصان تصطدم بوجهه، وصوت الكائنات يلاحقه في صمت الليل، لكنه لم ينظر خلفه. كل ما يهمله هو الهرب، البقاء على قيد الحياة، الوصول إلى الضوء البعيد الذي يرمز إلى الطريق الآمن.

مع كل خطوة، شعر كايلى بثقل اللحظة، بحجم الرهبة التي سيحملها في داخله إلى الأبد. الغابة لم تعد مجرد مكان مألوف و مطمئن، الضوء لم يعد مجرد وهج جميل و مسالم، والمجسم لم يعد مجرد معدن غريب كغيره... لقد أصبح كل شيء مرتبطًا بشيء أكبر، شيء لم يؤمن به من قبل ، شيء على وشك أن يغير حياته و ربما الحياة البشرية بالكامل.

في النهاية، وصل إلى حافة الغابة و هو يلهث، أعماقه تصرخ بخليط من الرهبة والدهشة، عيناه لا تزالان تلاحقان الأجسام الغريبة التي اختفت بعيداً بين الأشجار. شعر أنه لم ينبج من هذه اللحظة فحسب، بل دخل عالمًا جديدًا، عالمًا سيطرده بلا شك في أحلامه ويلاحقه في يقظته، عالمًا بدأت فيه الحقيقة والخيال بالالتقاء بطريقة لم يتنبأ بها في يومٍ من الأيام .

عاد كايلى إلى منزله مع اقتراب الفجر، خطواته ثقيلة ، جسده منهك من الركض والخوف، وعقله مشحون بمشهد الضوء النابض والمجسم والكائنات الغريبة. كان يسير في الشوارع شبه الفارغة، كل ظل في الطريق، كل شجرة على الرصيف، يذكره بما حدث منذ

دقائق. وصل إلى غرفته، أغلق الباب خلفه بصمت، وجلس على حافة السرير، وضع رأسه بين كفيه يحاول ترتيب أفكاره، لكنه لم يتمكن من تصديق ما حدث معه، لم يصدق أنه أصبح شاهداً على شيء يتحدى كل المنطق البشري.

ظل مستلقياً على السرير لساعات، يفكر في كل تفصيلة : الضوء الذي ينبض، الطبق الطائر ، الكائنات الفضائية ، الصوت الغريب للغابة، والرغبة التي سيطرت عليه. الليل تقدم ببطء، وأخذ معه نومه الذي جاء متأخراً، مليئاً بكوابيس متشابكة : كائنات تتلاشى وتظهر، أضواء تتراقص في كل زاوية، ظلال تتسلل إلى غرفته، وأحاسيس بالرهبة والدهشة تتداخل مع خوف لا يمكن تفسيره. استيقظ عدة مرات، قلبه ينبض بعنف، يلتقط أنفاسه، يشعر بأن شيئاً من الغابة تبعه إلى منزله و لم يتركه آمناً حتى في عقر داره ..

في صباح اليوم التالي، استيقظ متأخراً، الشمس تستعمر الغرفة و تلقي بضوئها على وجهه .. صداع عنيف يجتاح رأسه و رواسب الأمس لا تزال عالقة بين تلافيف دماغه ..

اغتسل ، أفطر و هو يفكر فيما ينبغي عليه فعله .. ثم جلس يتابع التفكير و هو يحتسي قهوته مستغلاً غياب والده و زوجته .. أخرج الهاتف، شاهد الفيديو الذي سجله الليلة الماضية، كل ما جرى كان حقيقياً يتجسد على الشاشة أمامه موثقاً الحادثة .. لم يكن يتوهم إذن ، لا سكر لا حلم و لا هذيان !!

مضت ساعاتٍ من التفكير العميق قرر معها أن يشارك العالم تجربته ، فما حدث معه ليس عادياً بكل تأكيد ، إنه دليل لا لبس فيه على حقيقة وجود فضائيين في الكون ، فكيف يحتفظ به لنفسه و حسب ؟! غير منطقي أو مقبول ، ناهيك أن تجربته الفريدة تلك تفيض في وجدانه و تصارع كي تخرج إلى العالم كي يرتاح نفسياً .

جلس إلى حاسوبه ثم رفع الفيديو على قناته على اليوتيوب. كتب وصفاً مفصلاً عما حدث، عن الضوء، عن الطبق الطائر ، عن المخلوقات الفضائية ، عن الرهبة التي اجتاحت قلبه، وعن الفضول الذي دفعه للتصوير. ثم ضغط على زر النشر، وهو يشعر بمزيج من الترقب والخوف. كان يعلم أن مثل هكذا فيديو سيثير ضجة، وأنه لن يمر مرور الكرام.

وبالفعل، لم تمض ساعات قليلة حتى بدأت أعداد المشاهدات تتصاعد بشكل جنوني .. المئات، ثم الآلاف، ثم الملايين. وبدأت التعليقات تنهال على الفيديو ، سيل من الكلمات بين مصدق مذهول، ومكذب شكاك، وكل نوع من البشر يعبر عن مشاعره بطريقة عفوية وصاخبة. البعض كتب تعليقات مرتعشة من الدهشة، البعض الآخر تلاعب بالكلمات ليشكك في كل شيء، وصار الفيديو محور نقاش واسع في دوامة من الشك والتساؤل.

شعر كايلي بمزيج غريب من الرهبة والدهشة والفخر. لقد أصبحت تجربته الشخصية ، لحظته الفريدة، جزءاً من جدل جماعي ضخم ، يرى كيف أن العالم كله يتفاعل مع ما شاهده، مع شعوره، مع خوفه وفضوله.

انتشر الخبر بسرعة كالنار في الهشيم، وكأنّ العالم كله كان ينتظر لحظة كهذه ليجد سبباً يهدد المألوف ويثير الفضول الجامح. وسائل الإعلام التقليدية ووسائل التواصل الاجتماعي ضجت باسم الشاب العشريني **كايلي مورو** وقصته، كل قناة تلفزيونية، كل صحيفة إلكترونية، وكل حساب على الإنترنت بدا وكأنه يتسابق للحصول على سبق .. على التفاصيل الأولى، للمشهد الأول، لتسجيل الفيديو الذي حير الملايين.

اتصلت به أولى القنوات قبل أن ينهض من فراشه في اليوم الرابع بعد الحادث ، أصوات المذيعين المليئة بالدهشة والتوتر تسالت من

الهاتف إلى غرفته فجعلت قلبه يخفق بشكل جنوني .. كتب الصحفيون تقاريرهم بعنوانين صاخبة : (شاب أمريكي يوثق ظهور طبق طائر غامض وكائنات فضائية ؟) ، (فيديو مذهل يثير الرعب والدهشة على الإنترنت) ، (الضوء الغامض والمخلوقات الغريبة ... هل كل هذا حقيقي ؟)

لم يمض وقت طويل حتى تدخل خبراء التكنولوجيا و مختصون في تحليل الفيديوهات والتصوير الرقمي، كل واحد منهم دقق في كل بيكسل، في كل انعكاس، في كل حركة ضوء، وفي كل ظلال على الشاشة. وأعلنوا بعد دراسة دقيقة ومقارنة علمية :

(الفيديو حقيقي مئة بالمئة، لم يتم التلاعب به بأي شكل من الأشكال.. لا CGI و لا غيره) ..

و منذ تلك اللحظة تغير كل شيء .. وسائل الإعلام ضجت بالخبر الصاعق أكثر من قبل ، ووسائل التواصل الاجتماعي غزيت بآلاف التغريدات والمنشورات عن الدليل الجديد الدامغ على وجود الفضائيين ، فتضاعفت مشاهدات فيديو كايلي أكثر فأكثر ..

جلس أمام شاشة الكمبيوتر، يحدق في كل تفاعل، في كل فيديو يعيد نشر الفيديو الأصلي، في كل تقرير إعلامي، وفي كل تعليق يحمل الرهبة والدهشة. لقد أصبح محور حديث الناس و الصحافة بين ليلة و ضحاها .. و حتى في صمته، شعر بأن العالم كله يراقبه، يهمس له بصوت جماعي :

(أي باب فتحته على الكون الغامض ؟)

دخل كايلي إلى صخب الإعلام وكأنه دخل قاعة من مرايا لا تنتهي .. كاميرات بلا عدد كانت تلاحقه أينما ذهب .. حتى والده و زوجته ركبا الموجة و استغلا شهرته حتى آخر قطرة .. فتبدل التعنيف و

الاستغلال إلى حب ظاهري و أقنعة من الاهتمام .

في إحدى مقابلاته التلفزيونية الكثيرة سألته المذيعة بفضول واضح :

= كايلى، هل شعرت بالخوف ساعتها ؟ أم أن الدهشة كانت هي المسيطرة ؟

تنهد ببطء ثم أجاب :

= لا يمكن وصف ما عشته بكلمات بسيطة .. إنه شيء يفوق الوصف. شعرت بأن كل لحظة في الغابة كانت الأبدية ، وكأنّ الوقت نفسه توقف ليفسح لي المجال لتوثيق اللحظة الفاصلة ..

لكنّ الضغط النفسي عليه لم يتوقف عند هذا الحد. الصحف الإلكترونية والقنوات الإخبارية بدأت تنشر تحليلات مفصلة عن الفيديو، وعن شخصية الشاب الذي وثق اللحظة. خبراء في التصوير الرقمي، مختصون في الظواهر الغريبة، وحتى علماء النفس، جميعهم كانوا يعلقون على ما شاهده العالم، كل منهم يضيف زاوية جديدة للتفسير، وكل ذلك يضيف مزيداً من التوتر على كايلى .. فتشعب الحديث عن تلك الليلة العجيبة و كأنها الليلة الأخيرة بعد الألف من سرديات ألف ليلة و ليلة و لا ليلة للبشرية بعدها..

أصبحت حياته اليومية مستحيلة. أي رسالة، أي بريد إلكتروني، أي طلب مقابلة، كان يضيف طبقة جديدة من المسؤولية، وكل كلمة يخرج بها أمام الكاميرات كانت محملة بعشرات المشاعر المختلطة : خوف من عدم الفهم، رهبة من اكتشاف ما وراء الحدث، وإحساس متزايد بأنه أصبح جزءاً من حدث عالمي يفوق توقعاته.

مع مرور الأيام، بدأ يدرك أن القصة لم تعد ملكه وحده. كان يعلم أن هذه المرحلة ليست مجرد لحظة شهرة عابرة ، بل بداية رحلة جديدة،

رحلة سيصعب فيها الفصل بين ما شاهده وما أصبح العالم يؤمن به..
بين أسطورة الفضائيين و وجودهم المؤكد .. و أن كل ذلك سيحدث
على يديه ..

الفصل الثاني

القاء من وراء الضوء

الولايات المتحدة الأمريكية

تكساس / دالاس ..

2035 م ..

كانت ملامحه كمن خرج من ليلٍ طويلٍ من البحث في المجهول. وجهه نحيل محفور بخطوط السنين، وجبهته العالية تحيطها خصلات رمادية تنسدل بخفة على جانبي رأسه، كأنها آثار دخانٍ من نارٍ فكرية لم تنطفئ يوماً. عيناه الزرقاوان ليستا هادئتين، بل حادثان كعدستي مقربٍ تفتشان عن حياة في البعيد. وكان في صوته شيء من البرد العلمي الممزوج بحرارة الإيمان بما يقول، ذلك النوع النادر من الأصوات التي تجبرك على الإصغاء لا لأنك تريد، بل لأنك لا تستطيع إلا أن تفعل.

الدكتور ناثانيال كورن، ذو الخمسة والستين عامًا، بدا ككائن من زمنٍ آخر، لا يعرف المزاح، لا يبتسم إلا نادرًا، وإن فعل فابتسامته أقرب إلى ظلال فكرة منها إلى تعبيرٍ عابر. يحمل في حضوره مزيجًا مدهشًا من الصرامة الأكاديمية والغموض الأسر؛ ذلك الغموض الذي جعل البعض يظنه يخفي أكثر مما يقول. كان الناس يصفونه بأنه (الرجل الذي يتحدث كما لو كان قد رآهم)، و يقصدون الكائنات الفضائية.

في الأسابيع التي سبقت محاضراته الكبرى في مدينة دالاس، لم يكد يخلو يوم من ذكر اسمه في وسائل الإعلام. مقاطع ترويجية غامضة بثتها القنوات، ظهرت فيها صور لسماء تموج بالأضواء المجهولة وصوت ناثانيال العميق يقول:

(الحقيقة ليست هناك ... بل كانت دائماً هنا)

تسارعت التوقعات لاسيما عقب حادثة الشاب كايلي التي ملأت الدنيا
و شغلت الناس .. صفحات الجرائد امتلأت بالعناوين :

(هل يكشف كورن أخيراً عن دليلٍ قاطع آخر ؟)

(أسرار من المخابرات السرية ... أم من عوالم أخرى ؟)

حتى مواقع التواصل انفجرت بالجدل؛ البعض وصفه بأنه (إنديانا
جونز الكون) ، والبعض الآخر عدّه (أقرب إلى متنبى علميّ
جديد)

في صباح اليوم الموعود، اكتست شوارع دالاس بشيء من التوتر
الغامض. السيارات تصطف قرب قاعة (المنتدى الكبير) ،
واللافتات تلمع تحت شمسٍ خريفية دافئة :

(محاضرة ناثانيال كورن : القادمون من وراء الضوء)

القاعة نفسها كانت تحفة من الخشب الداكن والزجاج اللامع، تتدلى
من سقفها مصابيح تشبه نجومًا محتجزة في فضاء منظم. مئات
المقاعد امتلأت بألوانٍ من البشر : علماء، صحفيون، طلاب
جامعات، ووجوه فضولية جاءت فقط لتشهد الحدث الذي لم تتوقف
القنوات عن الحديث عنه. في الصفوف الأمامية جلس بعض من كبار
علماء الفيزياء الفلكية بملامح متجهمة، وكأنهم ينتظرون خصماً
فكرياً أكثر من باحثٍ محاضر. أما في الخلف، فقد تجمع هواة
الظواهر الغامضة، يحملون دفاتر ومقاطع فيديو لهواتفهم مفتوحة
استعداداً لتوثيق كل لحظة.

بدأت الأضواء تخفت تدريجياً، وساد القاعة همس خفيف كحفيف

أوراقٍ في ممرٍ طويل. على المنصة، وُضع منضد زجاجي عليه كوب ماء وجهاز عرض، وخلفه شاشة ضخمة سوداء تنتظر أن تُضاء.

ثم، من جانب المسرح، دخل ناثانيال كورن.

لم يرافق دخوله أي موسيقى أو تصفيق صاخب؛ بل كان المشهد أشبه بظهور ظلٍّ من بين العتمة. ارتدى بذلة رمادية داكنة، وربطة عنق بسيطة بلون السماء. خطا بثباتٍ بطيء، كأن كل خطوة محسوبة ضمن تجربة دقيقة. لم ينظر إلى أحد في البداية، بل وقف وسط المنصة، رفع رأسه قليلاً، وحدّق في القاعة كمن يتأكد من وجودهم حقاً.

ثم فجأة، ابتسم تلك الابتسامة الغامضة، قصيرة، لكنها أربكت الجميع.

قال بصوتٍ هاديٍّ يشبه نغمة رجلٍ يحدث شخصاً واحداً لا مئات :
= قبل أن أبدأ... أريد أن أطرح سؤالاً واحداً فقط : كم منكم يؤمن أن الحقيقة تبدأ بالتصديق، لا بالاكشاف ؟

لم يرفع أحد يده في البداية. تبادل الناس النظرات المرتبكة، ثم ارتفعت أصوات خفيفة هنا وهناك. ابتسم ناثانيال مجدداً، وقال بنبرة أكثر دفئاً :

= جيد ... إذن نحن في المكان الصحيح. لأن الليلة، لن أحدثكم عن الكائنات الفضائية كما يتخيلها الناس ... بل عن الكائنات التي ربما كانت تنظر إلينا الآن، ونحن نحاول تفسير وجودها.

اقترب من الطاولة، وضع كوب الماء جانباً دون أن يشرب منه، ثم

أطفئ آخر ضوءٍ فوق المنصة. انغمرت القاعة في شبه ظلام، في حين ظهرت على الشاشة العملاقة حلفه صورة لكائنات فضائية ..

وفي تلك اللحظة، قبل أن يبدأ حديثه، ساد صمت ثقيل...

صمت يشبه اللحظة التي تسبق انكشاف السر ..

= لا شك أنكم سمعتم جميعاً بقصة الشاب كايلى الشهيرة و التي ليست سوى امتداد لمئات القصص التي سبقتها عن احتكاك بشر بالفضائيين ، مما يفرض علينا سؤالاً جوهرياً:

((هل هذا الكون الشاسع مقتصر على وجودنا نحن البشر

كجنس واءٍ وحيد فيه ؟ أم أننا نعيش على شريحة تحت المجهر

مفترضين أن لا غيرنا في المحيط ، في حين أن الفضاء من

حولنا في الواقع يعجّ بأجناس واعية أخرى على كواكب

بعيدة فيه))

في الحقيقة هذا السؤال طُرح سابقاً و منذ عقود من قبل العالم الأمريكي الإيطالي إنريكو فيرمي بمفارقته الشهيرة (**مفارقة**

فيرمي) عام **1950** م التي تقول :

((أين الجميع ؟))

و قصد به غيرنا من الكائنات في الفضاء الواسع .. لقد أطلق عليها مفارقة لأن اتساع الكون الشاسع يفترض بقوة وجود حياة أخرى فيه و بنفس الوقت عدم اتصالها بنا طوال السنين الفائتة يضع إشارات استفهام قوية و يفترض بقوة أيضاً أن لا وجود لها .. لذا فهي معضلة بلا حل نهائي حاسم حتى اللحظة ..

و سنقوم اليوم في هذه المحاضرة بدحض الفرضية التي يدعي فيها أغلب البشر بغيرور الإنسان المعهود بأنهم الجنس الواعي الوحيد في الكون عبر الإجابة عن هذا السؤال الهام (أين الجميع ؟) محاولين التوصل إلى إجابة شافية عليه .. و سننجز ذلك من خلال تفنيدها عبر أربعة محاور أساسية (ديني ، علمي ، حوادث ، و اكتشافات) لتتوصل إلى خلاصة مفيدة بهذا الخصوص ..

صمت قليلاً و هو ينقل نظراته الحادة كنصل سيف بين الحضور ثم أردف :

= لنبدأ بالمحور الديني ، و هو شحيح بالأدلة أو الأحاديث عن خلق آخرين غيرنا في الكون سواء في الأديان السماوية أو الأرضية كما تتوقعون ، و لكن هنالك آية في القرآن كتاب الله عند المسلمين أشارت إلى هذه الفكرة بطريقة صريحة و مخيفة إلى حدّ ما و تقول :

((و من آياته خلق السموات و الأرض و ما بث فيهما من دابة

و هو على جمعهم إذ يشاء قدير))

فكما تلاحظون مقدار غرابة و أهمية هذه الآية القرآنية التي تتحدث بشكل صريح عن خلق الله لكائنات حية أخرى في الكون و قدرته إن شاء على جمعنا بهم .. أعلم أن بعضكم يسأل نفسه الآن بتعجب :

((لكن ألا تقصد الآية بدواب السماء (الطيور) ؟))

و الجواب ببساطة و من منطلق علمي و لغوي أنّ الدواب هي ما تدب على الأرض و لا تطير .. زد على ذلك أننا على تواصل دائم و مباشر بالطيور فما الغرابة بأن يجمعنا الله تعالى بهم ؟ .. إذاً الآية تشير بشكل واضح إلى صعوبة التقائنا بالمخلوقات الكونية الأخرى

لأسباب عديدة منها بعد المسافات في الكون الشاسع لكن الله تعالى قادر على تحقيق ذلك بسهولة متى شاء ..

صدرت بعض صيحات الدهشة هنا و هناك ، فابتسم و تابع :

= ننتقل إلى المحور الفلسفي ، فلا يمكن لهذا الكون الشاسع أن يقتصر على الحياة على كوكب الأرض فقط فهو منافٍ للعقل و للحسابات الرياضية.. فهناك ما يقدر بنحو **200 - 400** مليار نجم في مجرتنا العزيزة درب التبانة و **70** سيكستيليون نجم في الكون المرصود .. و حتى لو نشأت الحياة الذكية على نسبة ضئيلة فقط من الكواكب حول هذه النجوم يكون احتمال وجودهم هائلاً .. فالأرض تمثل في هذا الكون حبة رمل من شاطئ مجرة درب التبانة التي هي بدورها حبة رمل من شاطئ مجرات الكون .. فهل تقتصر الحياة على حبة الرمل هذه من بين كل هذه الشواطئ الفسيحة .. أمر يخالف المنطق ، الحساب و الاحتمال الرياضي .. أليس ذلك صحيحاً ؟!

أوماً الحضور برأسه باقتناع :

= أما بالنسبة لمحور الحوادث ، فهو يشمل الحوادث التي ادعى فيها بعض البشر رؤية صحن طائرة أو حتى فضائيين .. في الحقيقة التاريخ يعج بمثل هذه القصص و لا مجال لذكرها جميعاً الآن ، لذا سنكتفي بمثالين فقط على سبيل الإيضاح كإضافة إلى قصة صديقنا كايلي .. أولهما قصة **اختطاف الزوجين بيتي و بارني** من قبل الفضائيين عام **1961** م و دراستهما ثم إعادتهما خلال رحلة عودتهما من **كندا إلى الولايات المتحدة الأمريكية** .. ثم لدينا أيضاً قصة سكان قرية **رانشو بالو في المكسيك** الذين رأوا بأم العين فضائيين عام **1994** .. و غيرها من القصص كثير و كثير.

صمت قليلاً ثم أردف بصوته الثابت العميق :

= لننتقل مباشرةً إلى محور الاكتشافات المثير ، و الذي يشمل جميع الاكتشافات الغربية التي توحى بلمسة فضائية ، و هي أيضاً غزيرة للغاية لذا سنكتفي بذكر أشهرها مجدداً :

✧ **الهيكل العظمية الغربية الشبيهة ببنية الفضائيين التي عثر عليها و أشهرها :**

- مومياوات عالم الآثار ويليام بيتري في مصر ..
- مومياوات المكسيك التي عرضت على البرلمان المكسيكي عام 2023 م ..

● هياكل باراكاس في البيرو ..

و المشترك بين جميع هذه الهياكل هو البنية الغربية غير البشرية الشبيهة ببنية الفضائيين كما صورهم من ادعى رؤيتهم عياناً ..

✧ **الإشارة اللاسلكية الغربية التي التقطها التلسكوب الراديوي لجامعة أوهايو في عام 1977 م** الموجهة من مصدر ذكي لا يبتعد كثيراً عن كوكب الأرض .. ومن الفرضيات التي ظهرت حينها أن هذه الإشارة و التي دعيت **واو Wow** صدرت من مركبة فضائية كانت تمر بالقرب من الأرض .. لكنها تبقى مجرد فرضية لا أكثر و إن لم يتمكن العلماء من وضع فرضية علمية بديلة مثبتة و منطقية لها ..

✧ **العثور على معادن صناعية غريبة في صحارى متعددة في إفريقيا** لم تكتشف في أي مكان آخر من العالم كما لم يتوصل الإنسان بعد إلى صنع معادن شبيهة بها و يعتقد البعض أنها تعود لحطام صحن طائرة متطورة ..

✧ **الهيكل المعمارية الضخمة التي شيدها الإنسان منذ آلاف السنين بدقة و إعجاز** و لم يتمكن العلماء من تفسير آلية بنائها

كأهرامات مصر و الهنود الحمر و التي تفترض بعض الفرضيات أنها تمت بمساعدة كائنات فضائية متطورة إذ لا تفسير علمي مقنع لكيفية تشييدها حتى اليوم ..

✧ آثار لتماثيل غريبة غير مفسرة .. و أشهرها :

● **تحف كويمبايا** و هي عشرات القطع الذهبية غريبة الشكل و تمثل مجسمات لهياكل طائرة على نحو غريب لا يتناسب مع الحقبة الزمنية التي اكتشفت فيها ..

و قد عثر عليها في دولة كولومبيا .. ففي تلك الفترة لم تكن الطائرات قد أبصرت النور بأي شكل من أشكالها فنحن نتحدث عن عشرات القرون خلت من الزمن ..

● **تماثيل دوجو اليابانية** : و هي مجموعة كبيرة من المنحوتات الفخارية الصغيرة التي اكتشفت في الآثار اليابانية خاصة في المعابد و تعود لآلاف السنين .. الغريب في هذه المنحوتات هو هيئتها العجيبة التي تشبه المخلوقات الفضائية على نحو غريب مما يعيدهم إلى واجهة الحديث كالعادة مع كل اكتشاف غامض مبهم !!

✧ اكتشافات غامضة عجز العلم عن تفسيرها و بقي الفضائيون التفسير الوحيد لها .. و أشهرها :

● **هرم الفراعة الفضائي** : أو ما يعرف **بهرم بن بن** أي المشع و المتألئ ، من عجائب القدماء المصريين ، هو هرم أسود اللون بخصائص مغناطيسية .. هذا الهرم حير العلماء لآلاف السنين ولم يتمكنوا من حل لغزه الا بعد صعودهم إلى الفضاء ، إذ إنه مصنوع من الحجر الأسود ولكنه ليس حجراً عادياً لأن كل مكوناته ليس لها وجود على وجه الأرض .. هذا الحجر الأسود الحديدي لا يتواجد الا في الفضاء في النيازك الفضائية ..

وهنا يظهر اللغز الثاني بأنه حجر حديدي صلد جداً وصعب التشكيل

والحفر ولكنه ليس صعب الكسر، فكيف تم قطعه بتلك الدقة في الزوايا والانحرافات بدون عيوب أو تهشيم؟ وكيف تم صقل وجوهه بهذه الجودة و الدقة؟؟ .. وهنا يطل برأسه اللغز الثالث وهو كيف تم النقش بتلك النقوش الدقيقة جداً على أوجه الهرم ، حيث أكد العلماء عجز أية أداة سواء قديماً أو حديثاً من نحت تلك النقوش إلا إذا كانت أداة قطع ليزرية و هذا مستحيل في تلك الحقبة التاريخية إلا إن كان للفضائيين دور في تشكيل هذا الهرم !! نصل الآن إلى آخر لغز وهو أنّ الحجر الاسود الحديدي النيزكي بفضل تركيبه ومكوناته يتمتع ببث طاقة كهرومغناطيسية في محيطه تجعل كل من يقترب منه يشعر بالراحة النفسية والصفاء الشديد ويؤثر على طاقة الإنسان فيزيل ما يشعر به من ألم في أي منطقة من جسده (بنفس مبدأ إسورة الطاقة التي يتم ارتداؤها الآن ولكن بطاقة عالية جداً) تؤثر في أي عدد مهما كان بمجرد وجودهم في محيطه. و الهرم موجود حالياً في المتحف المصري..

● **خطوط نازكا** ، و هي سلسلة من النقوش في أرض الصحراء الحصوية أو ما يعرف باسم (جيو غليف) تقع في صحراء نازكا في جنوب **البيرو**، اكتشفت صدفة عام **1926** من أعلى تل ، ليتم دراستها لاحقاً عبر طائرة من السماء لتظهر الحقيقة العجيبة الصادمة ، عدد هائل من الرسوم تمتد لأكثر من **80** كيلومتر بين بلدي نازكا و بالببا.. وتمثل أشكالاً هندسية و بشرية و حيوانية وأكبرها يمتد لمسافة **200** متر..

ويعتقد العلماء أنها نحتت لأغراض دينية. وبسبب المناخ الجاف، لم تختف تلك النقوشات عبر الزمن ، و يعتقد أنها تعود لحضارة نازكا التي ازدهرت بين عامي **400** و **650** ميلادي .. و لا تزال الآلية التي رسمت بها بدقة على هذه المساحات الشاسعة أحد أكبر الألغاز البشرية إذ أنّ هذا الرسم الدقيق يتطلب رؤية واسعة من السماء لم

تكن متوفرة بالطبع في تلك الفترة التاريخية ، فهل للفضائيين دور في رسمها مجدداً؟! ، كما أن الغاية الدقيقة منها بالأساس لا تزال مجهولة بدورها ..

● **دوائر المحاصيل** و هي عبارة عن تصاميم مبهمة تطبع أو تتكون خلال ليلة واحدة في الأراضي التي يزرع فيها القمح والشوفان والذرة بالإضافة إلى حقول الحشائش والأشجار ..

و بعد ظهور عدد متزايد من هذه الرسومات (خاصة في انكلترا) في نهاية السبعينات من القرن العشرين، أصبحت الموضوع الأكثر إثارة للجدل في العالم .. و بالرغم من وجود عدد من النظريات حول كيفية صنعها، إلا أن مصدرها الأكيد لا يزال مجهولاً و غامضاً و ربطت بالطبع بالفضائيين كغيرها

● **خرطوشة معبد ابيدوس في مصر :** تلك اللوحة الجدارية التي نقش عليها رموز لمركبات فضائية على نحو مثير للريبة و الأسئلة بشدة .. و أنا أعتقد أن هذا الاكتشاف لوحده كافٍ لإثبات وجود الفضائيين ، ففي أيام الفراعنة لم يكن هنالك مفهوم لحيوات خارج الأرض بالأساس .. فمن نقشها و لماذا ؟

صمت قليلاً .. رشف بعض الماء من الكأس .. ابتسم و تابع:

= ننتهي هنا من مقارنة المحاور الأربعة السابقة و التي كما رأيت بأنفسكم تشير بقوة إلى وجود حيوات أخرى غيرنا في الكون .. فليس هنالك تفسير علمي مقنع للبشر لها حتى اليوم.. لكن يتبقى أمامنا السؤال الهام الذي لا أشك أنكم تفكرون به جميعاً الآن :

((إن كان هنالك كائنات حية واعية غيرنا في الكون فلماذا

لم تتواصل معنا بشكل صريح و علني حتى اليوم ؟))

في الحقيقة تمكن العلماء من وضع عدة أجوبة عن هذا السؤال
توزعت على الاحتمالات التالية ..

- هم موجودون لكنهم لا يتواصلون معنا عمداً لانعدام ثقتهم بنا ..
- هم موجودون ويتواصلون معنا ولكن لا يمكننا فهمهم ..
- هم كانوا موجودين في وقت لم نكن نحن فيه (لم يمروا بالضرورة على الأرض)
- هم موجودون لكن معظم الناس لا تدرك ذلك حتى الآن باستثناء القصص الغريبة لبعضهم ..
- اختفوا! (أي دمروا أنفسهم أو دمرهم شيء ما، كما قد يحصل مع البشر في حال نشوب حرب نووية!) ..
- قد نكون غير مهمين بالنسبة لهم (فقد يكونون متطورين لمراحل قد تجعلنا بنظرهم كالنحل مثلاً بالنسبة للبشر، فهل فكر البشر يوماً ما بالتواصل مع النحل؟ رغم أنهم أماننا يعملون طوال الوقت !)

و كما نرى فجميعها تفسيرات منطقية يمكن لأي منها أن يكون صحيحاً و إن كنت أميل شخصياً إلى التفسير الأخير .. فقدرة هذه الكائنات الحية على قطع ملايين السنين الضوئية في الكون كي يصلوا إلينا تؤكد تطورهم العلمي الرهيب مما يفترض بقوة أننا جنس متخلف بالنسبة لهم يعملون على دراسته لا أكثر دون أي رغبة بالتواصل معه .. كما نتعامل مع النحل و غيره من المخلوقات على كوكب الأرض بالضبط ..

و إن كنت أتبع المنهج العلمي المجرد في مقارنة جميع الفرضيات العلمية التي تمر بي فإنني من وجهة نظر شخصية إيمانية بوجود خالق للكون أصدق قول الله في القرآن بأنه خلق غيرنا في هذا الكون الشاسع و سيجمعنا بهم ذات يوم بمشيئته و حكمته ، فجميع الأدلة

التي ذكرتها آنفاً تدعم هذه الفكرة بقوة من احتمال رياضي إلى حوادث رؤية الفضائيين و صحوهم الطائفة و انتهاءً بالاكشافات الأثرية المذهلة التي عجز العلماء حتى اللحظة من تفسيرها علمياً و منطقياً .. و الموضوع برمته كحقيقة وجود الديناصورات في التاريخ فنحن لم نر ديناصوراً حياً من قبل قط ، لكننا رأينا من الأدلة ما يكفي لإثبات وجودها ذات يوم .. و المحاور الأربعة التي قاربناها تشير بقوة إلى حقيقة وجود كائنات أخرى في هذا الكون ..

صمت مجدداً ثم رفع يده بطريقة مسرحية توحى أن المحاضرة أوشك على نهايتها :

= في ختام محاضرتنا علينا أن نتواضع كبشر قليلاً فلا نقول بغرور :

(هذا الكون برمته ملك لنا لوحدنا ، و لا أحياء سوانا فيه)
بل أن نقول :

(نحن نعيش على حبة رمل من شاطئ مجرة هي بنفسها حبة رمل من شاطئ مجرات الكون .. و ليس بغريب أو مستبعد على الإطلاق أن يتواجد جنس واع غيرنا على حبة رمل أخرى على الأقل من هذه الشواطئ الشاسعة ..)

و ألا نقول :

(نحن البشر أسياد هذا الكون بالتطور العلمي الهائل الذي توصلنا إليه ..)

بل أن نقول :

(العلم محيط شاسع لم نعرف منه بعد سوى قطرة أو أقل ، و من المرجح وجود كائنات غيرنا في الكون عرفوا منه المزيد لدرجة أننا بالنسبة إليهم كالجراثيم التي نشاهدها على الشريحة تحت المجهر و

التي تظن أن الشريحة هي حدود الكون و أنه لا حياة أخرى خارجها ..)

هكذا نصل إلى النهاية .. أردتها محاضرة مقتضبة لكن غزيرة بالمعلومات كي أجنبكم الملل قدر الإمكان .. و أعتقد أننا جميعاً أصبحنا نؤمن أن تجربة الشاب كايلي لم تكن الأولى ، كما أنها لن تكون الأخيرة ، فأصدقائنا الفضائيون يظهرون بين الحين و الحين في كل مكان من العالم كما أثبتنا خلال الدقائق المنصرمة .. طاب يومكم ..

ترجل عن المنصة بهدوء و ثقة ، في حين خيم صمت ثقيل على المدرج كما لو أن كل حاضر فيه غائب في أروقة الكون يفكر بنظرأء لنا في الخلق يتخفون في الظلال ..

الفصل الثالث

أفراصي ورويا

الولايات المتحدة الأمريكية

فلوريدا / ميامي ..

2036 م ..

أرين دانفورت، اسم لا ينسى بسهولة، كأنه خرج من رواية قديمة عن المحققين الذين يسكنون الظلال أكثر مما يسكنون النهار. بلغ الرابعة والأربعين، عمرٌ تتقاطع فيه التجربة بالحذر، والنظرة بالعزلة. كان شعره البني ينسدل دائماً بطريقة مرتبة أكثر مما يجب، حتى في الأيام التي تلطّخ فيها الدماء مسرح الجريمة. عيونه البنية، التي تميل إلى لون الكهرمان عند ضوء الغروب، كانت لا تنظر إلى الأشياء بل تخترقها، عياناً تعرفان أن الحقيقة لا ترى بل تُشمّ وتُسمع وتُحسّ من رعدة خفية في الهواء.

وجهه صلد كالجر، لا تعرف له ملامح الفرح ولا الغضب؛ فقط سكونٌ متوتر كمن يتأمل العالم من وراء زجاج سميك. كان قليل الكلام، يزن كلماته بصرامة عالم في مختبره، ويبتعد عن الناس كما لو أن قربهم قد يفسد نظامه الداخلي. لم يكن يضحك كثيراً، وإن فعل، جاء ضحكه جافاً، بلا صدى. في قسم الشرطة، كانوا يقولون إن أرين لا يحل الجرائم بقدر ما يستحضرها، كأنها أرواح معلقة في ذاكرته تعود إليه طائعة لتهمس له بما حدث.

سنوات طويلة أمضاها في دهاليز الجريمة، حتى بات يرى خلف كل ابتسامة نية خفية، وخلف كل صدفة نظاماً غامضاً. كان يحمل في جيبه دفترًا صغيراً أسود، يسجل فيه ملاحظات لا يطلع عليها أحد. يكتب فيه جملاً مقتضبة عن الضحايا، لا كأرقام بل كأرواح. بعض زملائه قالوا إنه يكتب الشعر، لكنه لم يؤكد ولم ينفي، فقط قال ذات

مرة :

(الشعر هو أقرب ما يمكننا الوصول إليه من مسرح الجريمة)

لم يكن يؤمن بالقدر، لكنه آمن بشيء آخر أكثر غموضًا : توازن المعنى ، كما يسميه. كان يعتقد أن كل جريمة هي محاولة الكون لاستعادة توازنه المفقود، وأن مهمته كمحقق ليست القبض على الجاني، بل فهم الرسالة التي تركها وراءه الفعل الدموي.

في حياته الخاصة، كان أرين كمن يعيش على تخوم الحلم والواجب. لا أصدقاء حقيقيين، ولا زيارات عائلية. حتى منزله بدا كصندوق منظم بعناية باردة : كتب عن التشريح الجنائي، لوحات لفان غوخ وبيكون، ساعة جدارية لا تعمل، وستائر تُغلق دائمًا قبل الغروب.

لكن في هذا الفراغ الهادئ، وجدت طريقها إليه امرأة غريبة عنه في كل شيء، ومع ذلك تشبهه في أكثر مما يظن.

اسمها ماريسا كوينلان.

سمراء البشرة بنعومة صقلها الضوء، عيناها بلون القهوة الممزوجة بدمعة دفاء، وشعرها الطويل الأسود كان يسقط

على كتفها كما تسقط الذكريات على أرواحنا ، بهدوءٍ يوقظ. كانت تعمل طبيبة نفسية في عيادة صغيرة بالحي القديم، لكنها تمتلك حضورًا يجعل من جلساتها طقسًا أكثر منها علاجًا. لا ترفع صوتها أبدًا، ولا تقاطع مريضها، فقط تكتفي بنظرة عميقة تجبرك على أن تقول ما لم ترد قوله.

ماريسا جاءت من بيتٍ مسيحي محافظ في ولاية فرجينيا. والدها قسٌّ صارم، ووالدتها معلمة موسيقى تؤمن بأن الأرواح يمكنها أن تُشفى بالنغم. عاشت في طفولتها بين صوت الأجراس ورائحة الخشب

المقدس في الكنيسة، وكانت ترى العالم كمزيج من النور والظلال، لا شرًا خالصًا ولا خيرًا محضًا، بل تناوبًا دائمًا بينهما. ربما لهذا السبب، كانت ماريسا تنجذب إلى العقول المعقدة، إلى المناطق الرمادية التي يحاول الجميع تجنبها.

حين التقت أرين لأول مرة في ندوة عن السلوك الإجرامي رأت في عينيه شيئًا لم تعرف له اسمًا : انكسار بلا حزن، وهدوء بلا طمأنينة. جلس في الصف الخلفي، لا يدوّن شيئًا، فقط يراقبها كمن يختبر صدق تنفسها وهي تتحدث عن الدوافع النفسية للقاتل. وبعد المحاضرة، وقف أمامها بصمته المعتاد وقال :

(أحيانًا يكون الجاني هو الوحيد الذي لم يرتكب جريمة)

لم تفهم الجملة وقتها، لكنها عرفت أنها أمام رجلٍ لا يبحث عن الجواب بل عن الحقيقة التي تختبئ خلف السؤال. ومنذ تلك الليلة، صار وجودها في حياته ضرورة غامضة، كما لو أن كليهما يمثل نصف اللغز الذي لا يكتمل إلا بوجود الآخر.

كانت تعرف أنه غامض حتى في صمته، وأن خلف جمود ملامحه بركائنًا من الفكر والقلق. وكانت تحاول الاقتراب منه بحذر الطبيب، والحنان الذي يشبه صلاة مكتومة. أما هو، فكان يراها مرآته الهادئة : مرآة لا تكشف ما يخفي، بل تذكّره بما لم يعد يراه في نفسه : الإنسانية.

في المساءات الطويلة، حين تجلس معه في شقته المعتمة، كانت تحرق في عينيه البنيتين وتقول :

(أخشى أنك ترى في الناس ما لا يراه أحد، أرين)

فيجيبها بصوتٍ منخفض :

(أخشى فقط أنني لم أعد أرى فيهم ما يجب أن يرى)

كانا، كلٌّ على طريقته، عاشقين في زمنٍ لا يؤمن بالعشق، بل بالعقل.
لكنه حبٌّ من نوعٍ نادر، هادئٌ كالماء، عميقٌ كالأثر، غامضٌ كمن
يؤمن أن اللقاء بين روحين ليس مصادفة ... بل خريطة كتبها القدر
منذ زمنٍ بعيد.

كان الصباح رماديًا في المدينة، كأن الغيوم قررت أن تتواطأ مع
تعب البشر.

الساعة تشير إلى السابعة والنصف حين دخل المحقق أرين دانفورت
مكتبه في قسم التحقيقات الجنائية، بخطواتٍ هادئةٍ تحمل انضباط
عسكريًا خفيًا. كان المكتب صغيرًا نسبيًا، لكنه يُشبه صاحبه في شيءٍ
جوهري : النظام الذي يقترب من الهوس. لا ورقة في غير مكانها،
لا غبار على سطح المكتب الخشبي الداكن، ولا كوب قهوة إلا وُضع
على المنديل نفسه الذي استخدم بالأمس.

خلف المكتب، تمتد خزانة زجاجية تحوي عشرات الملفات المصنفة
بعناية، وإلى جوارها لوحةٌ كبيرة تغطي جدارًا كاملاً، مُثَبَّت عليها
صورٌ وأوراق وخرائط متشابكة بخيوط حمراء تمتد من نقطةٍ إلى
أخرى كأنها شبكة عنكبوتٍ عقلية ترسم طريق فكر المحقق.

في زاوية الغرفة، قرب النافذة، كان هناك كرسيّ جلديّ قديم يهتزّ
ببطء كلما هبّت الريح من الخارج، وعلى الطاولة الصغيرة بجانبه
كتاب مفتوح عن التحليل النفسي لمرتكبي الجرائم الرمزية. كانت
هذه الغرفة، رغم بساطتها، تشبه عقل أرين تمامًا: منظمة حدّ القسوة،
لكنها تخفي فوضى فكرية لا يعرفها سواه.

جلس على الكرسي، فتح دفتره الأسود، كتب بضعة كلمات بخطّ دقيق :

(الزمن لا يُخفي الجريمة، بل يُربّيها..)

ثم نظر إلى ساعته. كان ينتظر دخول مساعده باتريك لويل، الشاب الذي رافقه في أغلب القضايا خلال السنوات الأخيرة. دخل باتريك بعد دقائق، يحمل فنجانين من القهوة، وقال بابتسامة خفيفة:

= صباح الخير، سيدي. الجو مثالي اليوم لارتكاب جريمة.

لم يبتسم أرين. تناول فنجانه وقال دون أن ينظر إليه :

= الجو مثالي أيضاً لاكتشافها.

كان باتريك في أواخر الثلاثينيات، خرنوبي الشعر بعينين عسليتين وذكاء عملي واضح، لكنه لم يتقن بعد صمت أرين المقلق. ومع ذلك، كان يقدره ويخشاه في الوقت ذاته. اعتاد أن يبدأ يومه بمراجعة القضايا المعلقة، وإعداد تقارير قصيرة عن تطورات الملفات التي يعملان عليها.

مرّت ثلاث ساعات من الصباح الروتيني: أصوات الهواتف، أوراق تُقلب، قهوة تبرد على المكاتب، والمدينة تستيقظ على رتابة مألوفة.

وفجأة، رنّ الهاتف.

رنّته كانت مختلفة ، قصيرة، حادة، كأنها تحمل نفساً لاهثاً من جهة بعيدة. رفع أرين السماعه بهدوء، ألقى التحية، ثم ساد صمت ثقيل لثوانٍ وهو يستمع. ملامحه لم تتغير، لكن باتريك عرف من نظرة واحدة أن اليوم لن يكون عادياً. وضع أرين السماعه ببطء، ثم قال

بصوتٍ منخفض:

= جريمة قتل في الحي الشمالي. امرأة مسنة. أرسلوا الإحاثيات، وطلبوا حضورنا فورًا.

في أقل من عشر دقائق، كانت سيارة التحقيق السوداء تشق طريقها بين الشوارع المبتلة. جلس أرين في المقعد الأمامي، يحدّق عبر الزجاج الأمامي كما لو كان يحاول قراءة لغة المطر. لم يتحدث كثيرًا، فقط قال :

= كل جريمة تحمل بصمتها. لا يوجد موت عبثي، حتى لو بدا كذلك.

حين وصلا، كانت الشرطة المحلية قد طوّقت المنزل بشريطٍ أصفر. كان منزلًا خشبيًا صغيرًا في شارع هادئ تحيط به أشجار القيقب العارية. باب المنزل مفتوح، وضوء النهار الشاحب يتسلل إلى الداخل مثل يدٍ باردة تمسح المكان.

دخلا برفقة الطبيب الشرعي، الدكتور نونيز، رجلٌ قصير ممتلئ الجسد يحمل وجهًا مزيّجًا من اللطف واللامبالاة، تعود على رؤية الجثث حتى فقد انفعاله.

في وسط الغرفة، وعلى كرسيّ هزازٍ قديم، جلست الضحية - السيدة هيلين غرايفز - امرأة في الثمانين من عمرها، متسمة بهدوء في فستانٍ قرمزي. كانت ملامح السكينة تغمر وجهها. حولها صمتٌ ثقيل لا يقطعه سوى صرير الكرسي الذي يهتز ببطء كأنّ الموت نفسه يتنفس.

توقف أرين عند الباب لثوانٍ، لم يقترب فورًا. كان ينظر إلى المشهد بعينيه البنيتين دون أن يُصدر حكمًا.

ثم انحنى ببطء قرب الجثة، تفحص الأيدي، العنق، الكرسي،

الزوايا، آثار الجرّ. كل شيء في وضعه الطبيعي ... عدا شيء واحد.
كانت يد السيدة هيلين اليمنى تقبض بإحكام على ورقة مطوية بعناية،
كأنها أرادت أن تحميها حتى بعد موتها. مدّ أرين يده بحذر، فتح
الورقة ببطء. كانت الكتابة أنيقة، مرتّبة بخطّ ثابت غريب، والجملة
الوحيدة فيها تقول :

(أقراص دروبا ... كي لا نصاب بالزهايمر وننسى الحقيقة)

قرأها بصوتٍ منخفض، ثم نظر إلى باتريك الذي بدا مذهولاً بشدة :

= أقراص ماذا ؟

أجاب أرين ببرودٍ غامض :

= دروبا !! ... لم أسمع بهذا الاسم من قبل. يبدو أشبه برسالة لا
يفهمها إلا من كتبها.

اقترب منه الطبيب الشرعي نونيز، وهو يقلب ملاحظاته في دفتر
صغير وقال :

= تقرير أولي، سيدي : الجثة تعود إلى السيدة هيلين غرايفز، ثمانون
عامًا، مصابة بالزهايمر الجزئي تبعاً لمعلومات ابنها . سبب الوفاة :
الخنق بالأيدي على الأرجح . زمن الوفاة المقدر ... منذ حوالي ثماني
ساعات.

رفع أرين حاجبه وقال :

= أي في حدود الثالثة صباحاً .

= بالضبط، ، و سأرسل لك التقرير النهائي عقب تشريح الجثة.

ثم أضاف أحد الضباط المحليين :

= ابنها داني غرايفز هو من وجدها. عاد من مناوبته الليلية هذا

الصباح، وجد الباب مفتوحًا والجنّة كما ترون، فاتصل بالشرطة فورًا.

طلب أرين مقابلة الابن، وبعد دقائق دخل شاب في الثلاثين من عمره، وجهه شاحب وعيناه مضطربتان. جلس بصمت، ثم بدأ بالكلام بتلعثم متوتر، لكنه لم يصف شيئًا جديدًا. قال إنه ترك والدته الليلة الماضية بخير بعد نومها و ذهب لعمله كحارس ليلي ، وإنها كانت تعاني فقط من نوبات نسيان متكررة، ولم يكن لها أعداء.

لم يعلّق أرين بشيء. اكتفى بتدوين ملاحظة صغيرة في دفتره الأسود، ثم أغلقه بعناية. بعد دقائق، وقف وقال بصوته الرزين الذي يفرض النظام :

= أغلقوا مسرح الجريمة بالكامل. لا أحد يقترب من المكان دون إذن.

ثم التفت إلى باتريك وأضاف :

= أريد تقريرًا مفصلاً عن هذه العبارة (أقراص دروبا) .. كل ما يمكن العثور عليه : مصدرها، دلالتها، أي إشارة في الطب أو الأساطير أو التاريخ. أريد الإجابة اليوم.

غادر أرين المكان بخطواتٍ بطيئة، آخر ما نظر إليه كان الكرسي الهزاز الذي لم يتوقف عن التأرجح، كأنه يرفض تصديق ما حدث عليه.

في السيارة، ظلّ صامتًا، بينما المطر يضرب الزجاج بصوتٍ رتيب. باتريك حاول أن يسأله عمّا يدور في رأسه، لكنه أثر الصمت ، لأن الصمت كان لغة أرين المفضلة حين يبدأ عقله بالعمل.

عاد إلى مكتبه بعد ساعة. خلع معطفه الرمادي، جلس خلف مكتبه،
أخرج دفتره، وبدأ يرسم دوائر صغيرة على الصفحة الفارغة وهو
يهمس :

= النسيان ... والحقيقة ... والذاكرة. أي نوع من العقول يكتب رسالة
ك هذه ؟

مرّت ساعتان في صمتٍ ثقيل، حتى رن الهاتف مجددًا.
رفع السماعة ببطء، ثم سمع صوت باتريك المتسارع على الجهة
الأخرى يقول :

= سيدي ... استلمت التقرير حول أقراص دروبا.

= هل ثمة معلومات مفيدة فيه ؟

ساد صمت قصير، ثم جاء صوت باتريك مشوبًا بالذهول :

= لا أصدق ما أقرأ... لكن يبدو أننا أمام مفاجأة من العيار الثقيل.
وهنا...

تجمّد أرين في مكانه، بينما عينه تلمع بوميضٍ لا يُدرَك.

الدفتر الأسود ما زال مفتوحًا أمامه، والسماء الرمادية خلف

النافذة بدأت تُظلم كأنها تستعد لحدثٍ أكبر مما تحتمله المدينة.

وتوقف كل شيء... عند تلك الجملة الغامضة :

(أقراص دروبا)

وصل باتريك مع التقرير ، جلس أمام أرين و شرع يقص عليه
حكاية تلك الأقراص و التي كانت أغرب من أي خيال يتصوره :

(الزمان : عام 1938 ..

المكان : جبال (يابان - كارا - أولا) على الحدود بين الصين و
التبت ..

كانت البعثة الاستكشافية بقيادة البروفيسور تشي بو تاي من جامعة
بكين تتوغل عبر الطرق الوعرة بين جبال الهملاديا حين عثروا على
شبكة كهوف غريبة و منذ وطأت أقدامهم أرضها حتى توالت
الاكتشافات الغامضة و الخطيرة واحداً تلو الآخر ..

فقد كان أول ما لاحظوه أنّ الكهوف محفورة بإتقان و تشكل نظاماً
معقداً من القنوات و غرف التخزين ، و كانت جدرانها مستقيمة الى
حد بعيد .. و بداخل الغرف وجدوا أماكن مرتبة خاصة للدفن و
بداخلها هياكل عظمية لأناس ذوي هيئة غريبة ، أطوالهم حوالي
122 سم ، عظامهم هشّة و جماجمهم كبيرة بشكل غير متناسق مع
الجسم !!

اقترح أحد أعضاء فريق الاستكشاف انها تعود لنوع من
القرود ، إلا أنّ البروفيسور تشي بو تاي رفض هذا الاقتراح تماماً ،
إذ أنّ أحداً لم يسمع من قبل عن قرود تدفن موتاهما أو تقوم ببناء هذا
النظام المعقد بنفسها !!

كما أنّ مزيداً من الاكتشافات داخل الكهوف أضافت كثيراً من الصحة
لوجهة نظر البروفيسور.. فقد وجد الفريق على جدران الكهوف
نقوشاً تصويرية للشمس و القمر و النجوم و الأرض ، وكانت هنالك
خطوط من النقاط تربط بينها .. إلا أنّ أهم اكتشافاتهم على الإطلاق
في هذه الكهوف كان أقراصاً حجرية وجدوها مدفونة في أرضية
الكهوف !. و كان قطر القرص الواحد حوالي **22.8** سم و ارتفاعه
1.9 سم و في وسطه ثقب دائري بقطر **1.9** سم أيضاً .. و وجدوا
على وجه القرص نقشاً محفوراً بدقة يظهر خارجاً من الثقب في

الوسط ليدور وينتهي عند محيط القرص..

تم العثور على **716** قرصاً تبين أنها تعود الى **12** ألف عام مضى ، أي أنها أقدم من الأهرامات في مصر ، وكل قرص يشتمل على مجموعة من الأسرار على ما يبدو ، حيث تبين أنّ النقش على وجه كل قرص لم يكن أبداً نقشاً عادياً ، بل أظهرت الأبحاث أنه خط متواصل من كتابة شبيهة بالكتابة الهيروغليفية !! و كانت الكتابة صغيرة جداً بل حتى مجهرية !!

في العام **1962** ، استطاع عالم صيني آخر هو الدكتور **تسوم أم نيو** أن يفك شفرة الكتابة الموجودة على الأقراص ، فتبين أنها تحوي معلومات غريبة جداً لا يمكن تصديقها بل إنها هاربة من أفلام الخيال العلمي ، لدرجة ان قسم ما قبل التاريخ في جامعة بكين منع نشرها في البدء !!

قام الدكتور تسوم بنسخ ما يراه على وجه القرص على ورقة ، و لأنّ الكتابة على القرص كانت دقيقة وصعبة القراءة اضطر معها الدكتور للاستعانة بعدسة مكبرة ، و كانت المهمة صعبة و مرهقة جداً ، فالأقراص مضى على وجودها **12** ألف سنة و الكتابة مجهرية .. و عندما انتهى الدكتور من نسخ ما في الأقراص على الورق ، بدأ في ترجمتها وفك أسرارها ، كلمة كلمة ، جملة جملة ، وسطراً سطرأ ، حتى استطاع في النهاية فك الشفرة كاملة .. فوقف مصعوقاً من النتيجة أمامه ..

كانت الشفرة مكتوبة من قبل أناس يطلقون على أنفسهم لقب **دروبا و** كانت الأقراص تحكي عن مركبة فضائية قادمة من كوكب بعيد، تحطمت على الأرض قبل **12** ألف عام ، فوجد طاقمها في كهوف الهملايا ملاذاً آمناً لهم ، لكن وعلى الرغم من أن الدروبا هم قوم مسالمون إلا أن **قبيلة هان** التي كانت تسكن في كهوف قريبة من كهوف الدروبا خافت منهم في البداية فقتلت بعضهم ..

وتستمر الأقراص في إخبارنا حكاية الدروبا العجيبة ، حيث تذكر أنهم لم يستطيعوا إصلاح مركبتهم الفضائية وبالتالي لم يتمكنوا من العودة إلى كوكبهم ، فبقوا سجناء كوكب الأرض !!

في يومنا الحاضر ، يسكن في تلك المنطقة المعزولة بالقرب من الكهوف المكتشفة قبيلتان تدعوان نفسيهما للغرابة الشديدة قبيلة هان و قبيلة دروبا أي كما ذكرت الأقراص بالضبط !! و الأغرب أن العلماء لم يستطيعوا تصنيف هاتين القبيلتين عرقياً ، فهم ليسوا من قبائل الصين ولا من قبائل التبت .. كلتا القبيلتين من الأقزام ذوي البشرة الصفراء والأجسام النحيلة ولهم رؤوس كبيرة ، أجسامهم تشبه إلى حدّ بعيد الهياكل التي عثر عليها البروفيسور تشي بو تاي عام **1938** ، ولهم عيون واسعة زرقاء شاحبة اللون لا تشبه العيون الاسيوية بأي شكل من الأشكال !!

في العام **1968** م قام العالم الروسي **سايتسو** بدراسة العناصر المكونة لأقراص دروبا ، فوجد أنها **صخور جرانيتية** تحتوي تركيزاً عالياً من معدن **الكوبالت** وبعض العناصر الأخرى مما يجعلها من أشد الصخور صلابة بحيث يصعب على القدرة البشرية العادية حفر مثل هذه النقوش عليها ، خصوصاً بحجم الخط الميكروسكوبي الموجود على الأقراص !! كما وجد لها خصائص كهربائية حيث من الممكن استخدامها كموصلات كهربية !!

كل هذه الأدلة و الاكتشافات وضعت العلماء أمام فرضية وحيدة منطقية لكن صادمة و مخيفة للغاية ، بأن قصة شعب دروبا الفضائي صحيحة و بأننا لسنا وحيدين في هذا الكون الشاسع !!)

جلس المحقق أرين مذهولاً إلى مكتبه المكّس بالأوراق وملفات القضايا المغلقة، وبجانبه كوب القهوة و قد برد نصفه منذ ساعة.

أمامه جلس باتريك، مساعده الشاب، متكئاً على حافة الكرسي في دهشة ظاهرة ، بينما كان ينقر بأصابعه على الملف الذي يحوي

التقرير الأخير. ساد الصمت للحظة، صمت ثقيل كأنه يستمع معهما
لأنفاس المكتب وضجيج الأجهزة في الخارج.

رفع أرين عينيه البنيتين الغائرتين في وجه باتريك وقال بصوت
مبحوح من فرط التفكير :

= إذن، هذه قصة تلك الأقراص العجيبة ..

أوماً باتريك وهو يقلب الصفحة بين يديه بتردد :

= نعم سيدي. قصة مذهلة بلا أدنى شك .. لكن يبقى السؤال
الأهم : ما علاقتها بالجريمة !!؟

أغمض أرين عينيه لحظة وأطلق تنهيدة طويلة قبل أن يهمس بنبرة
تأملية :

= لا أعلم، يا باتريك. لكن ثمة شيء في هذه الجريمة لا يستقيم.
ورقة في يد عجوز تموت خنقاً ، مكتوب عليها كلام عن أقراص
أسطورية لا يعرفها إلا القلة من الباحثين في أسرار الفضاء. هذه
ليست صدفة.

اقترب باتريك قليلاً وقال :

= ربما القاتل قرأ عن الأقراص في مكانٍ ما وأراد تضليل التحقيق
؟ أو ربما القاتل مهووس بتلك النظريات ؟

ابتسم أرين بمرارة وهو يهمس :

= الاحتمالات كثيرة يا صديقي، لكن الحقيقة عادة تختبئ في
التفاصيل التي لا ننتبه لها.

قرأ الملاحظات المرفقة بالتقرير ، و توقف عند إحدى الجمل فيه و تلاها على مسامع بارتريك بصوت غامض :

= يُعتقد أن أقراص دروبا تحمل رسائل من حضارة زارت الأرض قبل آلاف السنين، وأنها تحوي رموزًا تتحدث عن وحدة الوعي الكوني، ومصير البشرية إذا نسيت حقيقتها..

تابع أرين وهو يقرأ عبارة ورقة مسرح الجريمة من جديد :

= كي لا نصاب بالزهايمر وننسى الحقيقة ... عبارة الورقة تطابق مضمون النقش على الأقراص تقريبًا. وكأن القاتل أراد تذكيرنا بشيء نجهله جميعًا.

باتريك قال بدهشة :

= هل تعتقد أن للقاتل هدفًا فلسفيًا ؟ أو ربما طابعًا رمزيًا ؟

أجابه أرين بنبرة جافة ..

= لا أعلم بعد .. لكن ما أعلمه أن قصة الأقراص أغرب من الجريمة نفسها. تخيل يا باتريك، أنني أمضيت عشرين عامًا في ملاحقة المجرمين، لكن لم يسبق أن وجدت نفسي أمام لغز يختلط فيه الدم بالأسطورة على هذا النحو.

هزّ باتريك رأسه موافقًا :

= فعلاً، إنها أغرب من أي شيء واجهناه. والأغرب أن الحديث عن الفضائيين يملأ الشاشات منذ أيام بسبب ذلك الشاب... كايلي، أليس كذلك ؟ الفيديو الذي صورته في الغابة صار حديث كل محطة. ربما القاتل متأثر بهذه القصة ؟

رفع أرين حاجبه بتأمل وقال :

= ربما .. لكن ما يجعل الأمر محيرًا أن الضحية، السيدة هيلين، ليست سوى نادلة متقاعدة. لا انتماء علمي لها ، لا اهتمام بالظواهر الغريبة، لا وجود لأي رابط ظاهر. ومع ذلك، تموت في بيتها و في يدها ورقة تتحدث عن فضائيين وأقراص غامضة.

سكت لحظة وهو يحدق في البقعة الداكنة التي تركها فنجان القهوة على مكتبه، ثم قال بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه:

= أحيانًا، يا باتريك، أشعر أن بعض القضايا ليست سوى مرايا تعكس فوضى عقولنا نحن، لا نحلها بقدر ما نُعيد ترتيب أفكارنا خلالها.

ابتسم باتريك بخفة، رغم التوتر :

= وهل تعتقد أننا سنصل إلى حل هذه المرة ؟

بادله أرين بابتسامة باردة خلت من الأمل تقريبًا وقال :

= لا أظن ذلك. هذه بلا شك أغرب جريمة مرت علي في سنوات عملي، وبحسب خبرتي ... التحقيقات ستصل إلى حائط مسدود.

حلّ صمت طويل بينهما، لم يقطعه سوى أزيز مصباح المكتب القديم. خارج النافذة، كانت غيوم ميامي الملبدة تبتلع ضوء ببطء، كمدينة أنهكها التفكير. جلس أرين متكئًا إلى الخلف، وأخذ يحدق في الفراغ بعينين نصف مطفأتين كأنهما تنظران إلى لغز أبعد من الأرض.

بعد أيام من التحقيقات العقيمة، تأكدت نبوءة أرين.

لم يُعثر على أي مشتبه به. لا شيء سرق من المنزل ، لا دافع واضح للجريمة ، لا بصمات، لا كاميرات مراقبة سجلت ما حدث ، لا آثار

اقتحام، ولا حتى شعرة عالقة على مسرح الجريمة. وكأن قاتلاً من كوكب آخر هبط، نَقَذَ فعلته، وغادر كما جاء في صمت، دون أن يترك خلفه سوى جملة مبهمة عن الحقيقة المنسية !! و حتى تقرير الطبيب نونيز الأخير لم يقدم أي جديد ..

وهكذا، جلس أرين في مكتبه ذلك المساء، يحدق في تقرير نونيز الأخير و عقله في مكان آخر ، يتمتم بصوت بالكاد يُسمع :

= ربما... لم تكن السيدة هيلين المصابة بالزهايمر هي الضحية الوحيدة في هذه القصة .. ربما نحن جميعاً ضحايا النسيان ذاته الذي حذرنا منه القاتل ... نسيان الحقيقة المغيبة عن حيوات غيرنا في الكون رغم وضوحها كالشمس.

الفصل الرابع

كفوف تاسيلي

الولايات المتحدة الأمريكية

فلوريدا / ميامي ..

2036 م ..

لم تمضِ سوى أيامٍ قليلة على الجريمة التي هزّت ميامي، تلك التي أطلق عليها المحقق أرين اسم (جريمة أقراص دروبا) ، حتى جاءه اتصال جديد في ساعة متأخرة من الليل ، بينما كان يجلس في مكتبه المنزلي محاطاً بأوراق القضية الأولى التي لم تبارح ذهنه بعد. كان صوته الداخلي يهمس له أن شيئاً لم ينتهِ بعد، وأن الغموض الذي غرس أنيابه في عقل المدينة لم يكن ليكتفي بضحية واحدة.

رنين الهاتف غطى على أصوات صراخير الليل في الخارج، امتدت يد أرين لتلتقطه ببطء، كأنها تعرف مسبقاً ما ستسمعه .. صوت الضابط المناوب على الجانب الآخر كان متوتراً، متقطع الأنفاس :

= سيدي، لدينا حالة وفاة غريبة في حي ليتل هافانا ، رجل مسن يعيش بمفرده ... الظروف تشبه تماماً الجريمة السابقة.

تجمدت ملامح أرين، وارتسمت على وجهه تلك النظرة التي تجمع بين الشك واليقين. نهض ببطء من كرسيه ، ارتدى ملابسه و معطفه ، وضع قبعته على رأسه ثم اتجه إلى قسم الشرطة حيث وجد مساعده باتريك ينتظره هناك بفارغ الصبر ، حياه بكلمات مقتضبة ثم قال بتوتر مشوب بفضول واضح :

= لدينا جريمة ثانية، يا باتريك. يبدو أن ميامي لم تشبع بعد من الألغاز.

لم تمضِ نصف ساعة حتى كانت سيارة التحقيق السوداء تشق شوارع المدينة تحت سماء رمادية تنتهياً للمطر. الأشجار على جانبي الطريق كانت تتمايل ببطء، كأنها تراقب صمت المحققين المتجهين داخل السيارة. قال باتريك بعد لحظة صمت :

= هل تظنّ سيدي أن القاتل نفسه في الجريمتين ؟

أجابه أرين دون أن يرفع عينيه عن الطريق :

= لا أعلم بعد. لكن إن كانت مصادفة، فهي أغرب مصادفة مرت علي في حياتي .. جريمتين بورقتين بشكل عبثي !!

حين وصلا إلى المنزل الصغير ذي الجدران المتقشرة والنوافذ المغلقة في شارع ضيق بليتل هافانا، كانت سيارات الشرطة تطوق المكان، وأضواءها الزرقاء تنعكس على برك الماء في الطريق. داخل المنزل، كان الصمت يثقل الجو كأن الموت نفسه لم يغادر بعد .. تقدم منه الضابط المناوب :

= سيدي الجريمة اكتشفت منذ دقائق عقب ورود اتصال هاتفي إلى القسم من مجهول أخبر عنها ..

هز أرين رأسه بدهشة :

= غريب !!

اتجه مباشرة إلى مكان الجريمة حيث وجد جثة الرجل العجوز ممددة على الأرض الخشبية قرب المدفأة، ووجهه الشاحب مائل إلى الزرقة، وعيناه نصف مفتوحتين، كأنهما تحدقان في سرّ لم يستطع البوح به قبل أن يلفظ أنفاسه. لم تكن هناك علامات اقتحام أو صراع، ولا شيء يوحي بالعنف سوى تلك الورقة المطوية بعناية و

الموضوعة أسفل رأسه مباشرة كما أخبره الضابط على الهاتف، كأن أحدهم وضعها عمداً، رسالة وداع غامضة من قاتل لا يُرى.

انحنى أرين ببطء، مرتدياً قفازاته، ومدّ يده بحذر نحو الورقة. كانت مطوية على شكل مربع دقيق، وكأنها مرت عبر يد مهووسة بالنظام. فتحها ببطء، لتظهر عليها عبارة قصيرة، مكتوبة بخط واضح و مائل :

(كهوف تاسيلي، الآثار على الجسد لا تمحي)

قرأها أرين بصوت خافت، بينما كان باتريك ينظر إليه بدهشة ممتزجة بالخوف.

= إذن فالقاتل نفسه بلا شك ، لكن ماذا يريد بحق الجحيم ؟

أجابه أرين وهو يحدق في الورقة كما لو كانت مرآة صغيرة تعكس لغزاً أكبر :

= إنها ليست مجرد جريمة قتل يا باتريك ... هذا أشبه بعمل طقسي، أو قاتل متسلسل يود إيصال رسالة عبر مجموعة رسائل.

في تلك اللحظة، دخل الطبيب الشرعي نونيز، بوجهه الجاد المعتاد ونظاراته السمكية التي تعكس ضوء المصباح، وقال وهو يفتح دفتره :

= التقرير الأولي سيدي. الضحية رجل في منتصف الثمانينيات ، يعيش بمفرده منذ سنوات، لا أقارب معروفين. سبب الوفاة غير واضح بعد، لا توجد جروح واضحة أو نزيف خارجي. لا كدمات تدل على مقاومة. ربما تسمم، لكن التحاليل ستؤكد ذلك.

توقف قليلاً، ثم أضاف :

= زمن الوفاة يُقدّر منذ سبع ساعات تقريباً.

أغلق أرين الورقة بين أصابعه و أشار بهدوء بارد إلى جسد الضحية :

= و ما قصة هذه الآثار البيضاء المنتشرة على جسد الضحية حضرة الطبيب.

= لا يمكنني الجزم بعد ، لكن التقرير الأخير عقب تشريح الجثة سيحدد طبيعتها بالتأكيد ..

نظر المحقق إلى مساعده وقال بحزم :

= لم يعد لنا عمل هنا ، فالمسرح نظيف على نحو غير مألوف أو منطقي .. أغلقوا مسرح الجريمة. لا أحد يقترب من هنا دون إذني. وأريد تقريراً مفصلاً عن كهوف تاسيلي المذكورة في الرسالة... أريد كل شيء : الموقع، التاريخ، القصص التي تحيط بها، أي شيء قد يربطها بهذه العبارة.

هزّ باتريك رأسه مطيعاً ، بينما ظل أرين واقفاً مكانه، يحدق في الجثة بصمت طويل. كانت أفكاره تتسابق في داخله كدوامات في بحر مظلم : كهوف تاسيلي... أقراص دروبا... رموز فضائية... هل نحيا سلسلة جرائم عادية، أم أن أحدهم يحاول أن يكتب رسالة للبشرية بأحرف من دم ؟

خارج المنزل ، كانت أمطار ميامي قد بدأت تنهمر، خفيفة أولاً ثم أثقل، حتى صارت ترتطم بزجاج سيارات الشرطة كأنها تحاول محو المشهد كله، عبثاً.

أما المحقق، فقد وقف على العتبة الأخيرة من الباب، يراقب السماء وهي تفتح صدرها للمطر، وقال بصوت منخفض لا يسمعه أحد :
= إن كان هذا القاتل يكتب قصيدة ... فكل بيتٍ منها سيبدأ بـجثة.

جلس أرين في مكتبه و الليل يلفظ أنفاسه الأخيرة ، أطفأ الأنوار ما عدا مصباحًا واحدًا يتدلى فوق الطاولة، ينشر ضوءًا أصفر باهتًا على وجهه المتعب. أمامه جلس باتريك، متكئًا على الكرسي بيدين مشبوكتين وعينين متسعيتين كأنهما لم تستوعبا بعد ما يجري. كانت الملفات مبعثرة، والورقتان – ورقة أقراص دروبا و ورقة كهوف تاسيلي – موضوعتين في منتصف الطاولة كأنهما قلب الجريمة نفسه.

و مع إشراق الفجر الأول وصل تقرير الأرشيف عن كهوف تاسيلي و كان لا يقل غرابة عن تقرير أقراص دروبا السابق!
أخذ باتريك يقرأ التقرير بصوته الرخيم :

(تقع سلسلة الكهوف هذه في مرتفعات تاسيلي على الحدود الليبية الجزائرية..و تم اكتشافها بالصدفة في عام 1938، وكانت محتوياتها مثيرة و غامضة للغاية ، مما جعلها تتحول من مجرد كهوف في سلسلة مرتفعات إلى واحدة من أكثر الألغاز غموضاً التي يحاول العلماء إيجاد تفسير علمي ومنطقي لها حتى يومنا هذا دون جدوى.. فقد رسمت على جدران تلك الكهوف نقوش ورسومات قديمة جداً تشير إلى وجود حضارة قديمة في هذه المنطقة .. الأمر عادي و مقبول تماماً حتى الآن لأي عالم حفريات أو آثار، لكن تلك الرسوم، و بعد التدقيق فيها، تبين أنها تشير إلى أمور غير عادية على الإطلاق بالنسبة لرسومات قديمة في سلسلة كهوف مهجورة..

فهناك رسومات لمخلوقات بشرية تطير في السماء، وترتدي أجهزة طيران، وملابس شبيهة بملابس رواد الفضاء ومركبات فضائية.. وهناك أيضاً رسومات لبعضهم يرتدي ملابس تشبه ملابس الغواصين البشريين، وآخرون يتجهون نحو ما يشبه أطباق طائرة غامضة تبدو وكأنها تهبط من السماء..

لذلك، قرر الباحثون والعلماء الذين توافدوا على هذه المنطقة أن يقوموا بالشيء المنطقي الوحيد الذي يثبت جدية هذه الرسومات من عدمها، وهو دراسة عمر هذه اللوحات والرسوم ، فكانت المفاجأة أن عمرها يتراوح بين **17** إلى **20** ألف عام !!

بعد هذه الحقيقة العلمية المؤكدة، ظهرت نظريات مختلفة، منها ما يقول إن مخلوقات فضائية جاءت إلى هذه المنطقة في هذا الوقت السحيق من عمر الحضارة البشرية، وأرادت ترك أثر بها. ونظريات أخرى تقول إن هذه الرسوم والحداريات رسمها بشر من المستقبل استطاعوا العودة إلى الماضي بتقنية معينة سيتوصلون إليها، وأرادوا ترك هذا الأثر للتعبير بأنهم استطاعوا العودة إلى الماضي. وهناك نظريات تشير إلى أن هذه الرسومات وضعها أهل أتلانتس الغارقة، الذين توصلوا لعلوم وتقنيات مذهلة تضاهي ما وصل إليه البشر اليوم.

لكن المؤكد هو أن كهوف تاسيلي تحديداً هي واحدة من أكثر الظواهر غموضاً في التاريخ الإنساني منذ اكتشافها، والتي تثبت بشكل عام أن التاريخ الذي نعرفه اليوم هو تاريخ حديث الولادة، وأن هناك أناساً وشعوباً وحضارات وأحداثاً جرت في هذه الأرض منذ زمن سحيق، ولا نعرف عنها شيئاً على الإطلاق !!)

نظر الاثنان إلى بعضها بدهشة للحظات مطولة ثم هشم صوت أرين الصمت بنبرة من ذهول :

= لم أكن أريد أن أصدق، لكن يبدو أن الأمر يتجاوز حدود المنطق.

حدّق فيه باتريك بارتباك ثم قال ببطء، كأنه ينطق استنتاجًا لا يريده :

= إذن... فكهوف تاسيلي لها علاقة بالفضائيين أيضًا ؟

أوما أرين، ومرر يده على وجهه المتعب قبل أن يرد :

= بالضبط يا باتريك. يبدو أننا أمام قاتل متسلسل مهووس بالكائنات الفضائية . لا يقتل عشوائيًا، بل يختار ضحاياه بعناية، ويربط جرائمه برسائل رمزية. إنه يريد أن يقول شيئًا، أن يبعث برسالة من خلال الموت نفسه ... لكن ما هي بالضبط ؟ هذا ما لم نفهمه بعد.

= و لا أخفيك القول سيدي أنه بدأ ينجح في مسعاه ، فهذه القصص العجيبة عن الفضائيين لا تترك أمامنا خياراً إلا الإيمان بوجودهم

= محق !!

ساد الصمت للحظات. كان صوت المطر بالخارج يعزف إيقاعًا بطيئًا على زجاج النوافذ، فيما ظل كلا الرجلين غارقين في أفكارهما. ثم قال باتريك بصوت خافت :

= ربما يحاول القاتل أن يربط بين التاريخ القديم وحاضرنا ، بين تلك الكهوف المرسومة في أعماق الصحراء الإفريقية وبين ما يعتقد أنه عودة الفضائيين في زمننا الراهن كما حدث مع الشاب كايلي.

ابتسم أرين ابتسامة غامضة وقال و عيناه تلمعان :

= أو ربما كان هو نفسه من الفضائيين و يريد إثبات وجوده بنفسه .. لا تنس أن الجرائم ارتكبت بغموض غير مألوف دون ترك أي أثر أو دليل ..

حملق فيه باترك بذهول و قد انعقد لسانه عن الإجابة ..

في صباح اليوم التالي، ومع خيوط الضوء الأولى التي انعكست على زجاج المكتب، وصل تقرير الطبيب الشرعي نونيز. طرق الباب برفق ثم دخل وعلى وجهه تلك الملامح الجادة التي لا تعرف المزاح. وضع التقرير أمام أرين وقال باقتضاب :

= النتائج النهائية، سيدي. سبب الوفاة : حقن بإبرة سيانيد.

رفع أرين حاجبيه، فتابع نونيز :

= تم الحقن في الوريد الأيسر، دون أي علامات مقاومة. يبدو أن الجاني كان قريباً من الضحية أو استغل لحظة ضعف. أما بالنسبة لما لاحظناه من آثار بيضاء على جسده، فهي ليست ناجمة عن الجريمة، بل عن إصابته المزمنة بمرض الصدف الجلدي، وهو يترك بقعاً لا تزول أبداً، آثاراً ترافق الجسد حتى بعد الموت.

قرأ أرين التقرير بتمعن، ثم رفع عينيه نحو باتريك الذي كان يراقب بصمت.

قال بصوت خافت، كمن يكتشف رابطاً بين عالمين لا يلتقيان :

= هكذا إذن ... المجرم أراد أن يخبرنا شيئاً. (الآثار على الجسد لا تُمحي) ، إنه يقارن بين آثار مرض الصدف على جسد الضحية، وبين الرسوم المنقوشة على جدران كهوف تاسيلي التي يعتقد العلماء أن الفضائيين تركوها. كلاهما أثر لا يُمحي، بصمة على الجلد، و أخرى على الصخر... و الآن بصمة المجرم على جريمته .. كما دعانا من قبل إلى عدم النسيان كمريض الزهايمر ..

حدّق باتريك فيه طويلاً، ثم قال ببطء :

= الأمراض ليست صدفة إذن ، أليس كذلك ؟

ابتسم أرين ابتسامة غريبة، مزيج من الإعجاب والارتباك، وقال وهو
يحدق في الورقة كمن ينظر إلى مرآة لعقل شخص مختل :

= لا يا باتريك ... ليست صدفة، بل صدافٌ سيترك أثراً لن يزول

توقف قليلاً، ثم أضاف بصوت ثقيل :

= مع أي عقل سايكوباثي نتعامل؟

ظل كلاهما صامتاً بعد تلك الجملة، وكأن الكلمات التي نُطقت للتو
فتحت بوابة نحو شيء أكبر من مجرد جريمة قتل.

في الخارج، كانت شمس ميامي تشرق ببطء فوق المدينة، تذيب بقايا
المطر على الأرصفة، فيما ظل أرين يحدق في الورقتين أمامه :

(أقراص دروبا ... كهوف تاسيلي)

اثنان من ألغاز الكون، واثنان من القتل، وجريمة ثالثة ربما تتشكل
في رحم مكان ما و تنهياً للولادة ، فهل يمكنهم إجهاضها في الوقت
المناسب؟!.

الفصل الخامس

تمثيل أكامبارو

الولايات المتحدة الأمريكية

فلوريدا / ميامي ..

2036 م ..

كان المساء ساكنًا على غير عادة ميامي، كأن البحر هناك قرر أن يحبس أنفاسه احترامًا لغروبٍ ثَقِيلٍ بالأسئلة. جلس المحقق أرين دارلو في مطعمٍ مطل على الساحل، عند طاولة صغيرة تضيئها شمعة وحيدة، تترنح شعلتها كأنها تحاول قراءة ما يدور في رأسه الصارم. و مقابله جلست ماريسا لويل، خطيبته السمراء الهادئة، ذات الشعر الأسود المنسدل حتى كتفيها والعينين البنيتين اللتين تملكان قدرة فريدة على اختراق صمته.

همست ماريسا بعد أن وضعت كَفَّها على يده :

= تبدو بعيدًا يا أرين ... لست هنا ، و كأنك في عالمٍ آخر. هل هي قضية جديدة ؟

رفع عينيه نحوها، بدا عليه الإرهاق أكثر من التعب، ثم قال بنبرة خافتة :

= لا شيء يخفى عن عينك الخبيرة بتحليل الأنفس .. بالفعل ، بل سلسلة غريبة من القضايا، لا تشبه شيئًا تعاملتُ معه من قبل.

= أثرت فضولي .. هَلَّا أخبرتني عنها أكثر ..!؟

تنهد وأجاب :

= بالطبع .. أولى الضحايا كانت السيدة هيلين، ثمانينية تعاني من الزهايمر الجزئي، وُجدت مخنوقة على كرسيها الهزاز في شقتها ،

ولم نجد أي دليل، لا بصمات، لا مقاومة، لا أثر لاقتحام. فقط ورقة مطوية بإحكام في يدها، كتب فيها بخط مزخرف : (أقراص دروبا ... كي لا نصاب بالزهايمر وننسى الحقيقة) ..

رفعت ماريسا حاجبيها دهشةً، فأكمل أرين :

= وبعد أيام فقط، جريمة أخرى. رجل مسن يعيش وحده مصاب بمرض الصداف ، وُجد ممدداً على الأرض، بلا علامات مقاومة أيضاً، وورقة أخرى موضوعة بعناية تحت رأسه، تقول : (كهوف تاسيلي ... الآثار على الجسد لا تُمحي) ..

القاتل ينتقي ضحاياه بعناية، يختار العجائز، الضعفاء، ويترك لنا هذه الرسائل المشفرة التي تربط القتل بأساطير عن الفضائيين ..

= فضائيين !!؟

= أجل ، تبين بعد البحث أن أقراص دروبا و كهوف تاسيلي اكتشافات أثرية تعزز فرضية وجود الفضائيين بقوة ..

أملت ماريسا رأسها قليلاً، ونظرت إلى البحر من النافذة كمن تحاول قراءة فكرٍ مضطرب خلف الأفق، ثم قالت بهدوء الطبيب حين يضع تشخيصه الأولي :

= أرين ... هذا الشخص لا يؤمن بالقتل كجريمة، بل كوسيلة لشرح معتقد. هناك نمط واضح في فكره : فضائيون، رموز، أمراض... كلها تدور حول فقدان الاتصال بالواقع. أعتقد أننا أمام حالة متقدمة من اضطراب الشخصية الفصامانية التي تؤمن بالماورائيات و بالأفكار الغريبة بشدة ، أو ربما فصامٍ ذهاني مرتبط بالأفكار الغريبة. إنه يعتقد أن هناك كائنات أو قوى خارقة تتواصل معه، أو تملي عليه رسائل من عالم آخر.. صمته، اختياره للرموز الغريبة، والأمراض المرتبطة بالهوية والذاكرة ... كلها تدل على انفصالٍ شبه تام بين

واقعه الداخلي والعالم الخارجي. هذا القاتل لا يعيش بيننا كما نعيش، بل في كونٍ موازٍ صنعه لنفسه.

بقي أرين صامتًا لحظة، مأخوذًا بعمق تحليلها، ثم قال وهو يبتسم بخفةٍ نادرة :

= أحيانًا أنسى أنك أخطر مني حين تفكرين.

ضحكت برقة، لكن ضحكتها لم تكتمل، فقد رنّ هاتفه طويلاً على الطاولة. نظر إلى الشاشة ثم أجاب، وكان الصوت المتوتر على الطرف الآخر هو باتريك، مساعده :

= سيدي، لدينا جريمة جديدة قبل ساعة فقط، في حي كورال جابلز. الضابط المناوب هناك، لكنه يقول إن مسرح الجريمة يحمل نفس طابع الجرائم السابقة ، و... نعم، هناك ورقة أيضًا. هل ترغب أن تتفحصه بنفسك ؟

قال أرين بهدوءٍ متماسك :

= لا تلمسوا شيئًا حتى أصل. أنا في الطريق.

أنهى المكالمة ووضع الهاتف ببطء، ثم التفت إلى ماريسا التي كانت تراقبه بعينين تعرفان ما يعنيه هذا الصمت.

قال بنبرةٍ دافئةٍ فيها شعور كبير بالذنب كونه سيغادر السهرة قبل أن تبدأ :

= كما توقعنا من قبل .. جريمة ثالثة بنفس الأسلوب. يبدو أن ميامي تحمل في أحشائها قاتلاً متسلسلاً.

ابتسمت ابتسامةً تجمع بين القلق والفضول المهني، وقالت :

= اذهب يا أرين. يبدو أن هذا القاتل يعيش في عالمٍ لا حدود فيه

بين الواقع والخيال. جنونه متلبس بحمى الماورائيات... وربما يرى في كل جريمة وسيلة لتمرير رسالة كونية يعتقد أنه مُكَلَّف بها. فقط، كن حذرًا. من يعيش في هذا النوع من الانفصال عن الواقع، لا يمكن التنبؤ بخطوته التالية.

وقف أرين، وارتدى معطفه، ثم انحنى قليلاً نحوها وقال بصوتٍ خافتٍ يشبه الهمس :

= للحظات يا ماريسا، أشعر أنني لا ألاحق قاتلاً... بل فكرة تحاول أن تتجسد.

غادر بخطواتٍ هادئة نحو الظلام، فيما بقيت ماريسا تحقق في الشمعة المترنحة، كأنها تستمع لصدى كلماته مع هدير الأمواج..

كانت السماء الرمادية فوق كورال جابلز تنذر بمطرٍ خفيف حين وصل أرين دارلو إلى مسرح الجريمة الجديد، وقد بدا وجهه أكثر صرامة من المعتاد، كأنّ التعب لم يعد شيئاً جسدياً، بل فكرة تلاحقه. توقّف أمام الورشة الصغيرة التي تعود للضحية، مبنى خشبي قديم تتدلى عند مدخله لوحات محفورة بعناية، تصوّر وجوهاً غريبة الملامح وأشكالاً تشبه الكواكب. الهواء كان مشبعًا برائحة نشارة الخشب الممزوجة برطوبةٍ ثقيلة، وصوت صفير الريح يتخلل الشقوق كأنه يتنفس مع المكان.

دخل أرين، يتقدمه باتريك، فيما كان ضوء المصابيح البيضاء ينعكس على الأدوات المعدنية المعلقة في الجدران كجنود جامدين في موضعهم. في وسط الورشة، وعلى طاولة النحت الكبيرة، كان الجسد ممدداً بطريقة طقسية، اليدان ممدودتان جانباً، والعينان نصف

مفتوحتين كأنهما تراقبان شيئاً لم يفهمه أحد. كانت ملامحه هادئة بشكلٍ غريب، لا تشي بصراعٍ أو مقاومة، بل أقرب إلى سكون الفنان الذي توقف عن العمل فجأة.

تقدّم الطبيب الشرعي نونيز بخطوات محسوبة وقال وهو ينظر في مذكرته :

= الضحية يُدعى مايكل فاندنر، عمره واحد وأربعون عامًا. مصاب بطيفٍ من التوحد مع متلازمة سافانت، قدراته المذهلة في النحت جعلته معروفًا في أوساط محدودة من محبي الفنون الغريبة.

وأشار بيده نحو إحدى الزوايا حيث يقف شخص غارق في الأسى وأضاف :

= عثر عليه تلميذه عند قدومه إلى الورشة هذا المساء. يبدو أن الوفاة حصلت قبل خمس ساعات تقريبًا، أي حوالي الرابعة مساءً. السبب : ضربة قوية على مؤخرة الرأس بأحد التماثيل الحجرية الثقيلة الموجودة هنا.

اقترب أرين ببطء من الطاولة، ألقى نظرة دقيقة على الجرح، ثم انتقل بعينيه إلى ما كان بجانب الجثة : مجسم لطبقٍ طائرٍ غريب الشكل، بدا من صنع الضحية نفسه، نُحت بعنايةٍ مذهلة في قطعة من الجرانيت الرمادي، يعلوه غبار خفيف لم تُمسّه الأيدي منذ ساعات. تحت المجسم كانت هناك ورقة مطوية بعناية متقنة، فتحها أرين ببطءٍ وهو يرتدي قفازيه، وقرأ بصوتٍ خافتٍ يحمل ثقل المفاجأة :

(تماثيل أكامبارو – عندما ينطق الفن بالحقيقة)

رفع نظره إلى باتريك، الذي عقد حاجبيه بدهشةٍ حذرة، ثم قال بصوتٍ مبحوح :

= هذا القاتل يعرف كيف يختار رموزه... كل مرة يستدعي أسطورة أثرية مختلفة.

راقب أرين أرجاء الورشة بصمتٍ طويل، عيناه تنتقلان من الأدوات المصفوفة بترتيبٍ هندسي، إلى الغبار الخفيف على الأرضية، إلى الملامح الهادئة للضحية، كأنه يبحث عن شيءٍ غير منظور. لم يكن هناك أي كسرٍ في النوافذ أو الأبواب، ولا أثر لاختحام أو صراع. حتى أدوات النحت كانت موضوعة كما لو أن العمل توقف لحظة واحدة قبل الموت.

قال نونيز وهو يغلق دفتره :

= لا آثار مقاومة، لا بصمات غريبة، أداة الجريمة واضحة هي ذاك التمثال الملطخ بالدماء. مسرح الجريمة نظيف... بشكلٍ مثير للريبة.

ظل أرين صامتًا، يمرر أصابعه على حافة الطاولة، ثم قال بنبرة منخفضة :

= القاتل لا يقتل في فوضى، بل في نظام. كل شيء موضوعٌ كجزء من رسالة. هذه ليست جرائم قتل فقط، بل فصولٌ من طقسٍ غامض يعتقد أنه يفضح (الحقيقة) ..

ثم التفت إلى فريقه قائلاً بحزمٍ مألوف :

= أغلقوا مسرح الجريمة. لا يدخل أحد بعدنا. أريد تقريرًا مفصلاً عن تماثيل أكامبارو خلال ساعات. ودعوا كل فرضية مفتوحة... حتى أكثرها جنونًا.

خرج المحقق و مساعدته من الورشة بعد أن ودعا نونيز، والليل

يحكم قبضته على المدينة. في طريق العودة إلى المكتب، كان صمت السيارة أشبه بصفحة بيضاء تتهياً لكتابة فصل جديد من الغموض.

في مكتبه، جلس أرين أمام النافذة، يراقب أضواء الميناء البعيدة، فيما انشغل بآتريك بتقليب ملفات الجرائم السابقة. تناقشا طويلاً حول هذا النمط الغريب من القتل، عن الرسائل المتصلة بأساطير الفضائيين، وعن الرابط المستتر الذي يجمع بين الموت والفن. مضت ساعتان على الجدل الساخن حين رنّ الجهاز معلناً وصول التقرير المطلوب.

فتح بآتريك الملف الإلكتروني، أخذ نفساً عميقاً، وبدأ يقرأ بصوت مرتفع أمام أرين مضمون التقرير العجيب.

(تماثيل أكامبارو و هي عبارة عن 33 ألف تمثال صغير اكتشفت عام 1944 م من قبل فالديمار في مدينة أكامبارو بجوار العاصمة المكسيكية مكسيكو سيتي و قسم كبير منها يمثل على نحو غريب و غير مفسّر بشر يروضون ديناصورات و أخرى لصحون طائرة !

و قد يقول البعض أنّ هنالك تفسير منطقي لذلك وهو أن تكون التماثيل قد صنعت في العصر الحديث و دفنت هناك ، لكن هنا تكمن المفاجأة الصادمة ، فتحليل التماثيل علمياً أثبت أنها تعود لقرون خلت ، أي قبل اكتشاف الديناصورات و قبل الكلام عن الفضائيين و مركباتهم ..

و لا تفسيرات منطقية في جعبة العلماء حتى الآن باستثناء أن التماثيل صنعت من قبل الفضائيين أنفسهم أو من قبل بشر احتكوا بالفضائيين الذين أخبروهم بقصص الديناصورات في الماضي السحيق قبل انقراضها و في الحالتين يعود الفضائيون إلى واجهة الحديث بأدلة جديدة تفرض نفسها بقوة ..)

أنهى باتريك قراءة السطور الأخيرة من التقرير ، وبقي صوته عالقاً في الغرفة، يلقي بظلاله على الأرجاء. رفع رأسه ببطء نحو أرين، ونظرهما التقيا في لحظة من الدهول المربك لم يعتادا عليه بعد فكل قصة أغرب من التي سبقتها !! قال باتريك بصوتٍ خافت :

= هل تصدّق هذا سيدي !؟ أكثر من ثلاثة وثلاثين ألف تمثال لبشر يروضون ديناصورات و صحنون طائرة تعود لقرون يفترض فيها أن البشر لم يسمعوا بعد بالديناصورات و الفضائيين !! ...

أطلق أرين زفيراً بطيئاً، ثم قال بنبرة تجمع بين التفكير و الحكمة :
= عندما ينطق الفن بالحقيقة ... هذا ما كتب المجرم، أليس كذلك؟ كأنه يقول إن الفن ليس خيلاً، بل ذاكرة ضائعة من زمنٍ لا يخصّ البشر وحدهم. ذاكرة زرعها أولئك الذين مرّوا من هنا قبلنا، من وراء النجوم في كل مكان ..

= لكن ما علاقة الضحية بهذا كله ؟ رجل بسيط مصاب بطيف التوحّد، بقدرة مذهلة على النحت، عقله مختلف لكنه عبقرى في ما يفعل. لماذا يختاره القاتل بعينه؟ ما الرابط بين تماثيل أكامبارو وهذا الفنان المنعزل !؟

أجاب أرين وهو ينهض من مكانه، يسير بخطوات بطيئة حول المكتب :

= القاتل لا يختار عبثاً يا باتريك. تذكّر : الضحية الأولى كانت سيدة مصابة بالزهايمر، كي لا ننسى و الآخر مريض بالصداف بعدياً عن الصدف .. إننا أمام قاتل يرى في ضحاياه انعكاساً لأفكاره الغريبة، ربما يراهم مفاتيحاً نحو الحقيقة التي يطاردها ..

= و ماذا عن الضحية الثالثة ؟ ما علاقة التوحد بالفضائيين؟

جلس أرين مجدداً، وأمسك بقلمه وهو يقول بتفكير عميق :

= كثير من الأساطير يا باتريك تصف الفضائيين بأنهم أصحاب عقول خارقة، منطقهم صارم، بلا انفعال، بلا عاطفة زائدة ... وكأنهم مصابون بشيء يشبه التوحد عند البشر. عقولهم تعمل بنظام رياضي دقيق، لا فوضى فيها، لا عشوائية، كأنهم تجسيد للترتيب الكوني نفسه. متلازمة سافانت عند الإنسان ليست إلا ومضة صغيرة مما هم عليه.

ضحك باتريك بخفة، وقال :

= إذن في رأيك الفضائيون عباقرة مصابون بالتوحد ؟

ابتسم أرين ابتسامة غامضة، وحدّق في الأفق من نافذة المكتب التي تهتز تحت ضربات المطر :

= ربما... عباقرة إلى درجةٍ تُقصينا عن الفهم. تطوّرهم العقلي جعلهم قادرين على تجاوز المسافات بين النجوم، على السفر بين المجرات، على الانفصال عن المشاعر التي تربك قراراتنا. إنهم عقول تسير في فراغ بارد لا يحتاج إلى قلب، فقط منطقٌ مطلق ..

ثم وضع الملف جانبا، وصوته صار أكثر هدوءاً وغموضاً :

= ولهذا أقول لك يا باتريك، قاتلنا ليس مجرد مهووس. هو شخص يعتقد أنه يشاركهم هذا المنطق، هذا النقاء. إنه لا يقتل كالبشر، بل كما لو كان ينفذ طقساً كونياً، طقساً يربط بين الفن، والألم، والموت، وكأنه يحاول أن يجعل الحقيقة مرئية من خلال الفناء..

صمت قليلاً ثم تابع بنبرة جدية مقلقة :

= بل ربما ما هو أخطر من ذلك .. إنه ماهر على نحوٍ يثير في داخلي الشك أنه واحد منهم بالفعل ، كما أخبرتك من قبل .

ساد صمت ثقيل بعد الجملة الأخيرة التي هبطت على الغرفة كطبقة

طائر غامض و مخيف .. و تسارع إيقاع هطول المطر على زجاج
المكتب كأنه يتآلف مع اللحظة الدرامية ..

الفصل السادس

تسواني حفي

الولايات المتحدة الأمريكية

2036 م ..

كان الليل يلف ميامي بثوبٍ أسود رقيق، والهواء ما يزال متعبًا من حرارة النهار، يحاول أن يتسلل بين الأشجار والجدران، يحمل معه رائحة الرطوبة والملح من خليج المدينة، لكنه لم يخفف من وطأة الفزع الذي بدأ يشق المدينة من داخلها. في البداية، كانت الأخبار تتسلل كهمساتٍ مترددة من المكاتب الصحفية إلى الشوارع الضيقة، تتسرب عبر الهواتف المحمولة وشرائط الأخبار الصباحية، ثم انفجرت في غضون ساعات إلى موجةٍ لا يمكن حصرها. كل منزل، كل مقهى، كل شارع بدأ يهمس باسم ميامي مع نفسٍ من الرعب، وكأن المدينة بأكملها تعرف أن شيئًا غير مرئي قد دخل إليها .. قاتل متسلسل حر و طليق يتنقل بين أروقتها بلا قيود ..

الصحف الكبرى وسّعت صفحاتها، وطبعت العناوين بحروفٍ سوداء ثقيلة، مفعمة بالارتباك والتشويق : (القاتل الذي يكتب بالنجوم والرموز، رسائل الدم) ... (أقراص دروبا، كهوف تاسيلي) ... (قاتل من الفضاء) وكل صحيفة بدت وكأنها تحاول أن تتفوق على الأخرى في إثارة الانتباه، من خلال الصور الليلية لمسرح الجرائم، المصابيح الحمراء الزائفة، والظلال الطويلة التي تمتد على الأرصفة.

في المساء، توالى شاشات التلفاز، لا تحمل الأخبار فقط، بل المشاعر نفسها. المذيعون بنظرات متوترة، يحاولون تفسير ما لا يمكن تفسيره، بينما خلفهم تُعرض مشاهد مختصرة لأماكن الجريمة : أوراق مطوية بعناية، تماثيل صغيرة لطبقاتٍ غريبة، أشكال لرموز لا يعرفها أحد. الجمهور أمامه الخوف والدهشة يختلطان، والجرائم

تحولت إلى عرضٍ بصريٍّ حيٍّ، كل مشهد منه يثير المزيد من التكهّنات..

لكن وسائل التواصل الاجتماعي كانت الوقود الحقيقي للنار. الهاشتاغات انتشرت في ساعات معدودة :

#أقراص_دروبا..

#كهوف_تاسيلي..

#تماثيل_أكامبارو...

و عشرات غيرها .. صار كل مستخدم كاشفًا للغموض، وكل فيديو مسرّب مادةً للنقاش والتحليل، وكل تعليقٍ يضيف فرضية جديدة : ربما المجرم جزء من طقسٍ أقدم من الزمن، أو هو رسول من حضارةٍ خارج هذا العالم، أو شخص يركّب رموزًا لتخويف البشر.

تم تسريب صور حصرية من مسارح الجرائم إلى العامة : زوايا مظلمة من الورشة ، أوراق مطوية بعناية ، كرسي هزاز .. ألوان الضوء والظل كانت تضيف إلى المشهد قداسةً مخيفة، حتى بدت الصور العادية كأنها مقتطفات من كتاب أسطوري.

وفي الوقت نفسه، انقسم الجمهور إلى مجموعات متنافرة :

فريقٌ يصدق في تأثير الكائنات الغريبة، ويحلل الرسائل بعين فلكية، وفريقٌ آخر يعتبر كل شيء خدعة أو حيلة إعلامية. المدينة بأكملها كانت تتنفس الرعب. حتى الكلاب صارت تنبح بلا سبب، والهواء يحمل شيئاً من القلق والاضطراب، كأنه يعلم ما يجهله البشر.

العلماء كانوا حاضرين في كل زاوية، كلٌّ يحاول تفسير الظاهرة من منظوره. علماء النفس على الشاشات يحللون سلوك القاتل : هل هو مختلٌ مهووس يظن نفسه رسولاً من كوكب آخر؟ هل يعاني فصامًا

ميتافيزيقياً يجمع بين الهلوسة والطقوس؟ بعضهم تحدث عن اضطرابات الشخصيات النرجسية الفصامانية التي تختلط فيها المعتقدات بالواقع، بينما آخرون ربطوا طقوس القاتل بالطقوس القديمة التي تصور التواصل مع القوى الغيبية أو الكونية.

علماء الأنثروبولوجيا أخذوا الحكاية من بابها الآخر، يكشفون عن أقراص قديمة وكتابات في كهوف، تماثيل مكسيكية وأشكال بشرية غريبة، ويقارنونها برسائل الضحايا. قال أحدهم :

(هذه الرسائل والرموز، وربطها بالاكتشافات الأثرية ، توحى بأن القاتل لا يقتل لمجرد القتل ، بل يحاول إعادة سرد تاريخ ضائع ... ربما يرى أن المعرفة الحقيقية مهددة بالنسيان)

المحققون المستقلون لم يتأخروا في تقديم تحليلاتهم، كل يضع فرضية، وكل تحليل أكثر جرأة من الآخر. بعضهم ربط بين اختيار الضحايا والقدرات الذهنية الخاصة بهم، بعضهم رأى في الورق المطوي رسالة رمزية، وكل شخص أضاف قصة جديدة إلى الرواية الكبيرة التي أصبحت تتشكل أمام أعين العالم.

المدينة نفسها تحولت. ميامي لم تعد مكاناً للبحر والموسيقى والمقاهي الصاخبة. الحذر ساد، والنوافذ أغلقت قبل موعدها المعتاد، والمارة يتجولون بعينين حذرتين، يراقبون الغريب قبل أن يلقوا عليه التحية. كان الشعور بالرقابة والريبة في كل ركن، والهواء يحمل نفس القلق الذي يختبئ خلف الجدران.

وسط كل هذا، كان اسم المحقق أرين يطفو على كل لسان : الصحافة تطالب بحل سريع، الجمهور ينتظر نتائج التحقيقات، والشرطة تضغط لإنهاء القضايا قبل أن تتحول المدينة إلى ذعر دائم. الضغوط تراكمت فوق أرين : لا يقتصر الأمر على جمع الأدلة، بل على

الحفاظ على الرؤية، على عدم السماح للإعلام بتحريف الوقائع، وعلى عدم السماح للمدينة بالغرق في الذعر.

في الليالي التالية، جلس أرين لساعات طويلة في مكتبه، أمام خريطة ميامي المغطاة بعلامات حمراء لكل جريمة. كان يتأمل خطوط الزمن المتقاطعة، يحاول أن يرى نمطاً فريداً وسط الفوضى. كل ضحية كانت تبدو له كفصلٍ من روايةٍ أكبر، رواية تعكس رغبة القاتل في أن تجعل المدينة كلها شاهدة على طقوسه، وأن تمنح الرموز حياةً تتجاوز الموت.

كان يعلم أن الحل لن يكون مجرد القبض على القاتل، بل في فهم نواياه وأسبابه، في إدراك معنى كل ورقة مطوية، كل مجسم، كل ضحية اختارها بعناية. وكلما قرأ تقريراً جديداً، شعر أن القصة أكبر من أي مدينة، أكبر من ميامي نفسها، وكأنها امتداد لوعي جماعي يشبه الأحلام القديمة أو الأساطير التي تتكرر عبر العصور.

في مكتبه، نظر أرين إلى باتريك ذات مرة و قال :

= لقد حقق القاتل مبتغاه و أصبح الفضائيون حديث الشارع و الناس في كل مكان .. نحن كنا مجرد أدوات لتحقيق هدفه لا أكثر ..

= و هل تتوقع أن تتوقف الجرائم بذلك ؟

= لا أستبعد ذلك .. صحيح أنه قاتل متسلسل ، لكنه ليس كغيره يقتل فقط لمجرد لذة القتل ، بل لإيصال فكرة ، و فكرته وصلت كما يظهر فما حاجته لمزيد من الجرائم ؟!

و بينما المطر يهطل على المدينة مدراراً، يبلل الأرصفة والمداخل، ويخلق انعكاسات مضاعفة للأضواء، كأن ميامي نفسها تُعيد عرض

الجرائم أمام سكانها ، بقي أرين ورفيقه باتريك، يراقبان، يحللان، ويحاولان أن يجدا خيط الحقيقة في بحرٍ من الرموز، قبل أن تصبح المدينة نفسها مجرد فصلٍ من قصةٍ لا يعرف أحد نهايتها.

الفصل السابع

في كل أنكاس

الولايات المتحدة الأمريكية / ميامي ..

2036 م ..

كان الصباح في ميامي مختلفاً هذه المرة؛ شاحباً، مرتبگًا، كأن المدينة استيقظت على جرح جديد في جسدها المتعب من الخوف. في المكاتب الصحفية التي لم تتم، كانت الوجوه ما تزال متجهمة، والعناوين لا تزال تعيد تدوير الغموض نفسه، حين رنّ هاتف أرين مع أول خيوط الضوء. لم يكن الصوت على الطرف الآخر بحاجة إلى مقدمات : (جريمة جديدة، سيدي... في حي كروسو بارك) .. توقف أرين لحظة، نظر إلى باتريك الذي فهم كل شيء من تعابير وجهه، لقد فعلها مجدداً و خالف كل التوقعات !! ثم غادرا معاً بخطوات سريعة.

في الطريق، كانت شوارع ميامي تبدو كأنها تراقبهم من خلف الزجاج المغبش، المدينة التي اعتادت صخب الموسيقى وازدحام السياح صارت أكثر صمتاً من مقبرة. قال باتريك بصوتٍ متهمك يخفي قلقه :

= أظنه انتهى، ألم نقل ذلك ؟ انتشرت قصته في كل مكان، العالم كله يتحدث عنه، فلماذا يواصل بحق الجحيم ؟

أجاب أرين وهو يثبت نظره على الطريق :

= القاتل الذي يسعى للانتباه يتوقف حين يُرى، لكن هذا ...

يسعى لأن يفهم كما يبدو . إنه لا يكتب كي يتحدث عنه الجمهور بل كي يغيرهم ..

حين وصلا إلى الحي، كانت الشرطة قد طوقت المكان بخطوطها الصفراء المعتادة. أمام بناية صغيرة من طابق واحد، تجمعهر الجيران المصدومون. الباب لم يكن مكسورًا، والنوافذ مغلقة، ولا أثر لاختراقٍ أو مقاومة، كما لو أن الموت دخل من تلقاء نفسه.

دخل أرين بخطواتٍ محسوبة، تسبقها عيناه قبل جسده، كعادته في قراءة الصمت قبل الضجيج. في منتصف الغرفة جلس الموت ببرودٍ غريب، جثة امرأة في الثلاثين من عمرها، قصيرة القامة، وجهها ما يزال يحمل بقايا دهشة وابتسامة مكسورة، كأنها لم تصدق ما حدث حتى اللحظة الأخيرة. على الطاولة القريبة منها، ورقة بيضاء مطوية بعناية تحمل العبارة الجديدة :

(هيكَل أتاكما - كي تنمو الحقيقة أكثر)

اقترب أرين ببطء، أمسك الورقة بحذر كما لو كانت شيئًا مقدسًا، قرأها مرتين ثم نظر إلى باتريك الذي لم يقل شيئًا، فقط رفع حاجبيه في صمتٍ ذاهل.

تقدم الطبيب الشرعي نونيز، قال بصوتٍ منخفضٍ و قد بدأ يتذمر من تتالي الجرائم المتعبة :

= طلقة واحدة في الرأس، السلاح من عيار صغير ... لا كدمات، لا مقاومة، لا أثر لاقتحام. زمن الوفاة قبل حوالي أربع ساعات. كانت وحدها كعادتها ..

تنهد أرين وهو يمسح على جبينه بمنديل :

= و كأننا أمام مسرحٍ يعاد بناؤه في كل مرة. نفس الدقة، نفس البصمة المدومة، لكن الضحية مختلفة هذه المرة.

رد باتريك :

= ضحية في الثلاثين، تقزم خلقي بمرض أكوندروبوليجيا ، تعيش وحدها، وتعمل في عروض الشوارع ... لا رابط واضح مع العجائز ولا مع الفن لكن هنالك ارتباط بالمرض من جديد عندما ذكر القاتل أن الحقيقة يجب أن تنمو ..

أوما أرين رأسه موافقاً ثم أعطى تعليماته المعتادة :

= أغلقوا المكان. لا أحد يدخل أو يخرج إلا بإذني. اجمعوا تقريراً كاملاً عن الضحية، حياتها، أعمالها، زوارها، ثم تقريراً عن هذا الهيكل الغريب، هيكل أتاكاما ..

وقف نونيز باحترام، وكانت العيون كلها تراقب أرين بتعاطف وهو يغادر بخطواتٍ ثقيلة كثيبة ، كمن يحمل لغزاً يتكاثر بدل أن يُحل.

في المكتب، مع انتصاف النهار ، جلس أرين في كرسيه المائل قليلاً إلى الخلف، بينما كان باتريك يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، لا يطيق الصمت الذي يلتف حولهما مثل ضبابٍ كثيف.

قال باتريك وهو يضرب بيده على الطاولة :

= هذا جنون، سيدي .. لقد عرف الجميع بقصته، صار وجهه حديث الإعلام والعالم كله، بل هناك من يقلد رموزه في مواقع التواصل ... ومع ذلك يواصل القتل كأن شيئاً لم يحدث .. هل هذا نوع من الاستفزاز لنا ؟!

ابتسم أرين بخفوتٍ ساخر :

= أحياناً، حين تنتظر الوحوش في المرأة وترى الخوف في عيون الآخرين، تظن أنها صارت إلهاً. هذا المجرم يشعر بأنه فوق الناس، فوق الواقع، فوق السماء نفسها ..

و قبل أن يجيب باتريك وصل تقرير الأرشيف إلى الحاسوب ، فتحه
و شرع يقرأ بفضول أكثر منه واجب مهني :

(هيكَل أتاكاما ... اكتشف في صحراء تشيلي عام 2003، هيكَل
عظمي صغير لا يتجاوز طوله خمسة عشر سنتيمتراً و جد في حقيبة
جلدية خلف إحدى كنائس صحراء أتاكاما، قيل إنه لأنثى، لكن شكل
جمجمته غير بشري تماماً بل يشبه سحنة الفضائيين على نحو واضح

بعض العلماء قالوا إنه لجنين مشوه، وآخرون أقسموا أنه لزائر من
كوكبٍ آخر ، و الجدل لا يزال قائماً حتى اليوم ، لا مزيد من
المعلومات عنه فهو لغز بلا خلفية واضحة)

انتهى التقرير و عقب باتريك عليه مباشرةً بنبرة متوترة :

= يبدو أن القاتل قرر أن يجعل من هذا الهيكل رمزه الجديد، يقول
(كي تنمو الحقيقة أكثر) ... أي أن فكرة وجود الفضائيين كهيكَل
أتاكاما بالضبط لا تزال قزماً صغيراً و القاتل يريد لها أن تنمو و تكبر
لتجتاح العالم على ما يبدو ..

تمتم أرين، وقد عقد يديه أمام وجهه :

= بالضبط ، أصبح جلياً أن القاتل - سواء كان بشرياً أم فضائياً -
يتصرف كما لو أنه في مهمة مقدسة. كل جريمة لديه ليست نهاية،
بل بذرة. يزرعها في الجسد والرمز، ويتركها لتنمو في وعي الناس.
إنه يعلم أننا نلاحقه، بل يعتمد على ذلك. هو بحاجة إلى نظراتنا كما
يحتاج النبات إلى الضوء ..

ساد صمتٌ طويل بعدها ، لا يُسمع فيه سوى صوت المكيف ورفرفة
ورق التقرير على المكتب.. إذ أن الكلمات استهلكت و نفذت و لم
يعد هنالك شيء جديد ليقال .. و يبدو أن الكلام كله أصبح من حق
القاتل و على الجميع الإنصات و الإصغاء لا أكثر.

كانت تلك الجريمة الرابعة و الأغر ب ، لفس فف فافصفلها؁ بل فف اسفمرفارها رغم كل شفاء : رغم الشهرة؁ رغم الفافذفراف؁ رغم أن قصة القافل صارف ففررف فف كل بفف. كأنه لا فففش فف هفا العالم أصلاً؁ بل فف عالم مواز ففكف منه مصفر البشر كما ففكف الشاعر بفئاً من قصفة لا فررف أن ففففف.

؁كان أرفن ففرك فف قرارة نفسه أن المجرم قد خالف فوقعافه عمداً؁ كمن ففمس له من وراء الغفب :

(لست أنت من فلاففنى ... أنا من ففوقك) ..

وفف فلك اللحظة؁ لم فكن ففرف أن اللعبة لم فففف بل بفأف للفو ، و الفففة نفسها؁ كما قال القافل فف ورقفه؁ ففمو أكثر فأكثر ..

كانف مفامف فف ذلك المساء فغلف بالذعر؁ كما لو أن الخوف أصبح مافة فُفث عبف موجاف الأففر. خلال ساعاف قللفة؁ انفشرف صور الجريمة الرابعة على الإنفرفف : منزل صغفر فف فف هاف؁ ضوء أحمر فلفف من سفارة الشرطف؁ وعبارة القافل الفففة مكفوبة على ورقة بفضاء : (هفكل أفاكما - كف ففمو الفففة أكثر) ..

لم فففف وسائل الإعلام إلى وفف فوفل؛ فحولف القصة إلى عاصفة رقمية لا ففهاً. مقاطع مصورة من مسرف الجريمة سُرِفف فلسة؁ وعناوفن الجراف ملأف الواجهاف :

(القافل فعود من ففف ... مفامف فرففف !!)

(هفكل أفاكما - لغز ففف فف سلسلة الجراف الفضالفة)

وفف مواقع الفوافل؁ انفلف الففل. كل شخص صار مفللاً؁ وكل حساب فحول إلى منبر للرفع والفأوفل. بفن نظرفاف المؤامرة

والهلع الشعبي، ظهرت آلاف التعليقات تحت الهاشتاغات
المتصدرة :

#القاتل الفضائي ..

#جرائم_ميامي_الغامضة.

منها ما أيد و زاد يقينه بوجود الفضائيين و منها ما شكك و منها من
تملكه الرعب حتى أذنيه :

🗨 @Eleanor_Ray :

كأننا نعيش في فيلمٍ مرعبٍ لا ينتهي. هذا القاتل لا يكتفي بالقتل، بل
يعبث بعقولنا. أشعر أنّ المدينة كلها أصبحت مختبرًا لأفكاره
المجنونة ..

🗨 @MiamiWatcher :

قرأت عن هيكल أتاكاما من قبل ... مخلوق غريب وجدوه في تشيلي.
هل يمكن أن يكون القاتل يلّمح إلى أن البشر ليسوا وحدهم ؟ الأمر
يتجاوز القتل، إنه رسالة ..

🗨 @John_Carter87 :

أعيش على بعد شارعين من مكان الجريمة. منذ أسبوعين اشتريت
كاميرات مراقبة جديدة. لا أظنني سأغفو الليلة ..

🗨 @Dr_MinaPsych :

من الواضح أن هذا القاتل مصاب بهوسٍ فصاميٍّ بالماورائيات. إنه
يبني هوية رمزية حول فكرة الفضائيين، كأنه يسعى لطمس ذاته
داخل أسطورة ..

🗨 @TruthSeeker :

لا أصدق أن الشرطة لم تكتشف شيئاً بعد ! أربع جرائم والقاتل يترك رسائل غامضة فقط؟! هل هذا عبث أم رسالة خفية ؟

🗨 @AlienFaith :

ماذا لو كان القاتل على حق؟ ربما يحاول فتح أعيننا على حقيقة نخاف مواجهتها. أقراص دروبا، كهوف تاسيلي، تماثيل أكامبارو، والآن هيكل أتاكاما ... لم أسمع بها من قبل ، و اليوم بعد أن عرفت حقيقتها أنا أو من بوجود الفضائيين بكل قناعة ..

و غيرها تعليقات كثيرة

كانت تلك التعليقات كمرآةٍ تعكس الذعر الجمعيّ.

المدينة بأكملها أصبحت تهمس باسم القاتل في المقاهي، في الحافلات، وفي نشرات الأخبار الليلية.

لم يعد أحد يشعر بالأمان، ولا أحد يجرؤ على الخروج بعد منتصف الليل.

حتى أولئك الذين يسخرون من قصص الفضائيين صاروا يحدّقون في السماء بخوفٍ غامض، وكأنهم ينتظرون أن تهبط الحقيقة من هناك.

أما ميامي، فقد غدت كأنها نفسُ حبيسة بين نبضين : نبض الحياة الصاخبة ... ونبض الموت و الجريمة.

الفصل الثامن

مدرسة زيمبابوي

الولايات المتحدة الأمريكية ..

ميامي ..

2036 م ..

استيقظت ميامي ذلك الصباح كما لو أنها تُوقَظُ على صفعةٍ من كابوسٍ حيٍّ.

كانت الشمس قد بدأت بالكاد تبسط خيوطها على ناطحات الزجاج، حين دَوَّت أصوات الرصاص في فناء مدرسة ابتدائية هادئة على أطراف المدينة.

الصراخ كان أول ما اخترق الهواء، يليه هدير الركض في الممرات، ثم اختناق الصمت المفاجئ حين أُغْلِقَت الأبواب بإحكام. في دقائق معدودة، تحوَّلت المدرسة إلى مشهدٍ من الفوضى المذعورة : أطفال يكون في الزوايا، معلمات يصرخن بأسماء تلاميذهن، وضباط الأمن يتدفقون إلى الداخل، وجوههم مشدودة كأقواسٍ من خوفٍ وغضب.

لم يُقتل أحد، لكن الرعب كان كفيلاً بأن يُحدث في النفوس ما يفوق الموت وقعاً.

شابان مجهولان دخلا المدرسة ببرودٍ غريب، أطلقا بضع طلقات في الهواء، ثم اختفيا كما جاء، بلا أثر، بلا بصمات، بلا سبب.

لكن ما جعل الصدمة تتحوَّل إلى رعبٍ عام هو ما حدث بعد دقائق من فرارهما :

انطفأت الأنظمة الإلكترونية في المدرسة فجأة، وارتجَّت الشاشات جميعها في صفٍ موحدٍ كأنها تتنفس من قلبٍ واحد، لتظهر على

كل شاشة عبارة واحدة بخطٍ أبيض غريب على خلفية سوداء
حالكة :

(مدرسة زيمبابوي – أصغوا للأطفال الآخرين من أجل سلامة أطفالكم)

لم يفهم المعنى في البداية، لكن وقع الجملة كان كالسيف في الهواء:
حادّ، مهدّد، ومشحونٌ بإشارةٍ خفيةٍ لا يمكن تجاهلها.

انتشر الخبر بسرعةٍ مذهلة، أسرع حتى من الرصاص الذي دوى
في الصباح.

في غضون ساعة، كانت شاشات القنوات الإخبارية، وصفحات
الإنترنت، وموجات الإذاعة، كلّها تردد العبارة ذاتها، كأن المدينة
بأسرها تحولت إلى صدى واحدٍ لتلك الكلمات الغامضة.

رجال الشرطة والمحققون انتشروا في المكان كالنمل، والأسئلة
تتزاخم في رؤوسهم بلا إجابات. كيف تم اختراق شبكة المدرسة
المغلقة بهذه السرعة ؟ من يعرف اسم مدرسة زيمبابوي ؟ ولماذا
وجه هذا التهديد المبطن إلى الأهالي تحديداً ؟

وفي أروقة قسم الشرطة الرئيسي في ميامي، كان المحقق أرين يقف
أمام لوحة الجرائم المعلقة على الجدار، ينظر إليها كما لو كانت
خريطة مجرّاتٍ بعيدة تتقاطع فيها المصائر والرموز.

كل جريمة من الجرائم السابقة كانت تحمل عبارة، لغزاً، تلميحاً،
مفتاحاً لعالمٍ مفقود، وها هو الآن يرى العبارة الجديدة تنضم إلى
السلسلة في انسجامٍ مرعب.

العبارة هذه المرة ليست عن حضارة غابرة أو هيكل أثري، بل عن

مدرسة - مكان الطفولة، البراءة، المستقبل - وكأن القاتل قرّر أن ينقل رمزيته من الماضي إلى الحاضر، من الحجارة إلى اللحم الحيّ، من الأسطورة إلى الواقع.

جلس أرين إلى مكتبه، أخرج مفكرته بعناية ورتّب أفكاره.

كل شيء في هذه القضية كان يسير بخط متصاعدٍ من الجنون، لكن هذه الحادثة تحديداً كانت نقطة التحوّل الكبرى. لم يعد الأمر مقتصرًا على ضحايا معزولين ورسائل غامضة، بل صار تهديدًا عامًا يمسّ أرواح الأبرياء.

رفع الهاتف ببطء، صوته بدا أكثر حزمًا من ذي قبل وهو يقول لمساعدته باتريك :

= أريد تقريرًا عاجلاً عن ما يُسمّى مدرسة زيمبابوي... أي شيء عنها : تاريخها، موقعها، أصل الاسم، كل حرفٍ مرتبط بها ..

أغلق السماعة، ثم نظر من نافذة مكتبه إلى شوارع ميامي المضيئة بنور النهار، لكنها بدت له مظلمة أكثر من أي وقتٍ مضى.

كانت المدينة كلها تستيقظ على إحساسٍ واحد : أن الشر لم يعد يختبئ في الظلّ، بل صار يطلّ من شاشات الأطفال.

في تلك اللحظة، أدرك أرين أن اللعبة تغيّرت ... وأن الخيوط لم تعد تُسحب من الأرض وحدها.

لم يمضِ وقت طويل حتى كان التقرير جاهزاً ، و أخذ باتريك كالعادة يتلو عليه قصة من أغرب ما يكون فسرت كل ما حدث :

(في صباح يوم الجمعة 16 سبتمبر 1994، شهدت بلدة صغيرة تُدعى رووا (Ruwa) على أطراف العاصمة **هراري** في **زيمبابوي**

واحدة من أكثر الحوادث غرابة في تاريخ ظاهرة الأجسام الطائرة المجهولة (**UFO**) ما يزيد الأمر غرابة أن شهود العيان لم يكونوا طيارين عسكريين ولا باحثين محترفين، بل كانوا أطفالاً في مدرسة ابتدائية، يبلغ عددهم أكثر من **60** طفلاً تتراوح أعمارهم بين **6** و **12** عاماً.

كان ذلك اليوم عادياً حتى خرج الطلاب إلى فترة الاستراحة الصباحية. وبينما كانوا يلعبون في ساحة المدرسة، لفت انتباه بعضهم وجود أضواء غريبة في السماء. دقائق قليلة مرت قبل أن يلاحظوا جسماً غريباً يهبط في منطقة مليئة بالأعشاب والشجيرات على بُعد مئات الأمتار فقط من ساحة المدرسة. وصف الأطفال الجسم بأنه معدني ولامع، يشبه طبقاً طائراً أو مركبة غريبة ، وأكد بعضهم أنه رأى فتحة تفتح في جانبه.

هنا بدأت أكثر لحظة إثارة في القصة : قال العديد من الأطفال إنهم شاهدوا مخلوقين أو أكثر يخرجون من المركبة.

أوصافهم اختلفت في التفاصيل لكنها تشابهت في الجوهر :

- طول المخلوقات يقارب طول الإنسان ..
- ذات رؤوس كبيرة، وعيون لامعة وواسعة.
- أجسادهم نحيلة، ولباسهم أشبه ببذلة سوداء ضيقة.

ما جعل الشهادة أكثر غموضاً هو أن بعض الأطفال أكدوا أنهم لم يكتفوا برؤية الكائنات، بل شعروا أنها تخاطبهم ذهنياً. قالوا إن الرسالة التي وصلتهم تمحورت حول التحذير من تدمير البيئة و التكنولوجيا الخطيرة، وهو أمر غير مألوف بالنسبة لعقول أطفال في ذلك العمر.

لم يصدق المعلمون في البداية روايات الطلاب، خاصة أن الكبار لم يروا شيئاً، لكن الإجماع شبه التام بين الأطفال جعل الأمر يستحق

المتابعة. تم استدعاء الصحافة المحلية، وسرعان ما انتشر الخبر عالمياً.

أبرز من قام بدراسة الحادثة كان **البروفيسور جون ماك** ، وهو طبيب نفسي من جامعة هارفارد وحاصل على جائزة بوليتزر. سافر ماك إلى زيمبابوي بعد أسابيع من الحادثة، وأجرى مقابلات مطولة مع الأطفال. لاحظ أن رواياتهم متماسكة وغير متأثرة بخيال الطفولة المعتاد، بل مليئة بتفاصيل دقيقة ومتشابهة رغم أن كل طفل كان يُسأل بشكل منفصل.

حادثة **مدرسة آرييل** في زيمبابوي تبقى حتى اليوم من أكثر الحوادث الغامضة إثارة للدهشة، لأنها تختلف عن غيرها من مشاهدات الأجسام الطائرة بكونها مرتبطة بالأطفال، الذين غالباً ما يُفترض أنهم أبعد ما يكونون عن المؤامرات والقصص المركبة. سواء كانت القصة دليلاً على زيارة كائنات فضائية أو مجرد لغز نفسي/اجتماعي لم يُفك بعد، فإنها تمثل علامة فارقة في تاريخ تقارير الـ **UFO** ، وتستمر في إثارة الجدل بين الباحثين والعلماء والهواة على حد سواء (

لم يستطع أرين كتم غضبه و هو الذي عرف بين زملائه و مساعديه ببرودة الأعصاب في أصعب المواقف و أعتى الظروف ، قال بنبرة حانقة :

= ما الذي يريده هذا المختل بالضبط .. رسالته عن حقيقة وجود الفضائيين وصلت إلى كل بيت في أمريكا ، بل حتى في خارجها .. ألا يكفي هذا ؟!

نظر إليه باتريك بشفقة من الموقف العاجز الضعيف الذي وضعه القاتل المجهول فيه :

= محق سيدي .. لكن للأسف ، لا يسعنا فعل شيء سوى الانتظار حتى نفهم من القاتل نفسه ما يريده بالضبط ، لا شك أن الأيام القادمة ستحمل تفسيراً ما ..

نهض أرين من كرسيه و أخذ يذرع الغرفة جيئةً و ذهاباً بتوتر ثم وقف أمام المرأة و نظر لانعكاسه فيها مطولاً ثم تمتم بحقد كم يعيش مونولجاً داخلياً :

= سأعرف هويتك ذات يوم .. و عندها لكل حادث حديث ..

في الصباح التالي كانت ميامي تغلي كمرجلٍ مفتوحٍ على فوهة الغضب والذعر، والضغط على المحقق أرين لم يعد مجرد واجب مهنيّ، بل تحول إلى عبءٍ وجوديٍّ يثقل صدره كل ساعةٍ تمضي دون أن يمسك بطرف الخيط.

كل شيء في المدينة بدا وكأنه يتآمر على أعصابه : أصوات المراسلين من أمام مبنى الشرطة، وميض الكاميرات الذي يخترق زجاج مكتبه كالرصاص، مكالمات لا تنتهي من رؤسائه، وتصريحات متوترة من حاكم الولاية نفسه تطالبه بإحراز تقدم ملموس قبل أن يتحول الخوف إلى فوضى ..

منذ حادثة المدرسة، لم يهدأ الشارع لحظة.

الأهالي يرافقون أبناءهم إلى الصفوف كمن يزج بهم إلى المجهول، والمدارس نصبت أنظمة تفتيش إلكترونية في المداخل، بينما انشغلت الصحف بتحليل رسالة مدرسة زيمبابوي وكأنها نبوءة نهايةٍ قريبة.

كل هذه الأصوات كانت تتدفق إلى عقل أرين كأمواجٍ من ضغطٍ متزايد، تتكسر على صخر صمته.

في مكتبه، جلس أمام اللوحة التي غصّت بـصور الضحايا الأربع،
بخطوطٍ حمراء تربط بينهم كشبكة عنكبوتٍ مريضة.

أمام كل صورة بطاقة صغيرة بخط يده : هيلين - أقراص دروبا،
العجوز الثاني - كهوف تاسيلي، النحات - تماثيل أكامبارو، الفتاة
القمزة - هيكل أتاكاما، وأخيرًا، بخطٍ أكثر قسوة، كتب في الأسفل :
المدرسة - زيمبابوي.

كانت الكلمات تومض أمامه كأزرارٍ تحكم بعالمٍ خفيٍّ، كأنها ليست
مجرد رموز، بل مفاتيح لشفرةٍ عقليةٍ تتحداه في صمت.

الضباط يطرقون الباب كل عشر دقائق بتقارير عاجلة، والإعلام
يتربص أمام القسم، ومواقع التواصل الاجتماعي تحوّلت إلى محكمةٍ
مفتوحة تُصدر أحكامها كل دقيقة.

أرين، رغم صلابته الظاهرة، كان يدرك أن صورته بدأت تتشقق في
عيون الناس، وأن الثقة التي كانت تُحيط به كدرعٍ غير مرئي بدأت
تتآكل.

في تلك الليالي، كان يعود إلى منزله في ساعاتٍ متأخرةٍ لا يسمع
فيها سوى صوت تنفسه المتعب، يجلس على الأريكة المظلمة بلا
ضوء، ويحدّق في الفراغ كمن يحاول أن يرى عبر الظلام شيئًا أبعد
من الواقع نفسه.

بدأت الشكوك تتسلل إلى داخله كدخانٍ بارد.

هل القاتل يعتمد إخضاعه، اللعب به كما يلعب الساحر بجمهوره ؟

كل جريمة كانت تترك له رسالة وكأنها محادثة غامضة بين عقليين،
أحدهما في الظل والآخر في الضوء، والاثنتان يعرفان أنهما يراقبان
بعضهما البعض عبر مرآة مشقوقة.

حتى خطيبته ماريسا لاحظت تغيره، نظراته المعلقة في المدى، شروده أثناء حديثها، وصمته الطويل الذي لم يكن فيه سوى صدى الأسئلة كان تحليلها لشخصية المجرم السايكوباثي قد تخمّر و اكتمل ، لكنه للأسف لا يغير من الواقع و لا يساعد في الإمساك به.

في اليوم الثالث بعد حادثة المدرسة، وصل إلى مكتبه قبل الفجر. المدينة كانت لا تزال نائمة تحت ضباب البحر، لكنه شعر أن كل نوافذها تراقبه. جلس، أدار المصباح، وفتح ملف القضية بيدٍ ثابتة رغم توتر العروق في معصمه.

تمتم لنفسه بصوتٍ خافت :

= القاتل لم يقتل أطفالاً بعد ... لكنه يريد أن يجعلنا نعيش خوفهم .

ومع ساعات الدوام الوظيفي الأولى جاءه فاكس جديد ، إبلاغ بأن وكالات الأمن الأمريكية **FBI** و **CIA** تدخلت في التحقيق و سيتم التنسيق مع مركز شرطة ميامي ..

الفصل التاسع

فاليين سولي

الولايات المتحدة الأمريكية ..

ميامي ..

2036 م ..

كانت ميامي تلك الليلة غارقة في صمتٍ خانق، كأن المدينة بأسرها حبست أنفاسها بانتظار شيءٍ لا تريد أن تسمعه، ومع ذلك تسمعه في أعماقها.

ومع بزوغ فجرٍ باردٍ على غير عادته، جاء البلاغ الجديد، موجزًا حدّ القسوة :

(رجلٌ في الخمسين من عمره، وُجد ميتًا في منزله بحي ليتل ريفر، لا آثار اقتحام، لا مقاومة، لا شهود)

حين وصل أرين إلى مسرح الجريمة، كان التعب قد نقش ظلاله تحت عينيه، لكن نظراته ظلت حادة كحدّ السكين.

في الغرفة الصغيرة التي تفوح منها رائحة دواءٍ باهت، وُجد الرجل مستلقيًا على فراشه بسلامٍ مريب، عيناه مغمضتان خلف نظاراتٍ سوداء كأنه لا يزال يحرس عماه حتى في الموت.

زوجته كانت تجلس في زاوية الغرفة، وجهها أبيض كالورق، وشفاهها ترتجف بلا صوت.

قالت بصوتٍ مبحوحٍ حين سألها أرين :

= إنه أعمى منذ عشرين عامًا ... عدت من عملي فوجدته هكذا، و آثار سكين على معصميه ، ظننته انتحر في بادئ الأمر ، لكنني

أدركت لاحقاً أنها لا يمكنه قطع الرسغين معاً ..

اقترب أرين من الجسد، أزاح الغطاء بخفة، نظر حوله. لا عنف، لا عبث، لا شيء من فوضى الجرائم المعتادة.
على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، كانت عصاه البيضاء موضوعة بعناية فوق ورقة مطوية بإحكام.
فتحها أرين ببطء، بخوفٍ يكاد لا يُرى، ثم قرأ العبارة المكتوبة بخطٍ غريبٍ مائل :

(فالي سولي – لا تعموا أبصاركم عن الحقيقة)

رفع عينيه نحو السقف، كمن يحاول أن يرى قاتلاً يختبئ في الهواء ذاته.

باتريك، الذي وقف خلفه، تتمم بارتباك :

= فالي سولي ؟ ما معنى ذلك بحق الجحيم ؟

أجابه أرين بصوتٍ خافتٍ لا يخلو من السخرية :

= هذا ما سنكتشفه ... إن كنا ما زلنا نملك أعيناً قادرة على الرؤية..

لم يكن في المكان أي دليلٍ ملموس، ولا بصمات، ولا خيوط تُتبع.

حتى جهاز الإنذار لم يُفعل، والباب كان مغلقاً من الداخل.

كان القاتل دخل كشبح ثم تبخر إلى العدم !!.

تقرير الطبيب نونيز أكد أن سبب الوفاة هو قطع شرايين الرسغين ،
و الوفاة حدثت منذ أربع ساعات تقريباً ..

في اليوم التالي، ضجّ الإعلام بخبر الجريمة السادسة.

الناس لم يعودوا خائفين فقط، بل صاروا يشعرون أن ميامي نفسها تتحول إلى كابوسٍ واعٍ، أن أحدهم يختبرهم، يراقبهم، يختار ضحاياه كما يختار المخرج مشأهده بعناية.

لكن القاتل - أو من يُفترض أن يكون كذلك - لم يُظهر أي اكتراثٍ بالضجة، لا بالتحقيقات ولا بالكاميرات ولا بتصريحات الـ **FBI** التي تعهّدت بإيقاف هذا الجنون قريبًا.

بل على العكس، بدا وكأنه يتغذى على خوف الجميع، يكتب رسائله بدمٍ باردٍ كلما ارتفع صراخ المدينة.

تدفّقت الوكالات الفيدرالية إلى ميامي : **FBI** و **CIA** و فرق تحليل السلوك الإجرامي، وجلس أرين في غرفةٍ مكتظةٍ بالشاشات والمخططات، يحدّق في الفراغ بينما يتحدث الآخرون عن نمطٍ متكرر و رسائل رمزية و قاتلٍ مهووسٍ بالماورائيات.

لكنه كان يعلم في أعماقه أن الأمر أبعد من الهوس، وأبعد من المنطق أيضًا.

لم تسفر التحقيقات عن شيء.

لا آثار إلكترونية، لا مشتبه بهم، لا تقاطعات بين الضحايا سوى رمزية الكلمات التي تركها القاتل.

ومع حلول المساء، وصل تقرير فالي سولي، ليزيد الطين غموضًا :

(في صيف عام 1994، شهدت إحدى المناطق النائية في **المكسيك**، وتحديدًا **قرية رانشو بالو** الصغيرة، سلسلة من الأحداث الغريبة التي لا تزال حاضرة في ذاكرة السكان حتى اليوم. كانت الأجواء صيفية

دافئة، والليل يسدل ستاره على الحقول والجبال المحيطة، عندما بدأ السكان يسمعون أصواتًا غير مألوفة، تشبه همسات الرياح ولكنها أقوى وأشد انتظامًا، وكأن شيئًا ما يتحرك على مقربة من الأرض.

خوان مارتينيز، فلاح محلي في أواخر الثلاثينيات من عمره، كان أول من لاحظ أن هناك شيئًا غريبًا يحدث. حسب روايته، فقد شاهد أضواءً متقطعة تحوم فوق الحقول، وتصدر وهجًا غريبًا أزرق اللون، وكأنها لا تنتمي لعالمنا. لم يكن وحيدًا، فقد انضم إليه جاره **ميغيل غارسيا**، الذي لاحظ ظهور كائنات صغيرة، لا يتجاوز طول الواحدة منها مترًا واحدًا، ترتدي ألبسة معدنية عاكسة للضوء.

حسب شهادات السكان، توقفت الكائنات فجأة أمام مجموعة من الفلاحين، وبدأت تتحرك بطريقة منظمة وكأنها تراقبهم عن قرب. لم يُسجل أي صوت يصدر منها، لكن بعض الحاضرين أكدوا أنهم شعروا بنقل الأفكار مباشرة إلى عقولهم، وهو ما وصفه البعض بأنه تواصل ذهني غير مألوف.

الأحداث الغريبة لم تتوقف عند هذا الحد. في صباح اليوم التالي، اكتشف الفلاحون آثارًا غريبة على الأرض، دائرية الشكل ومتعرجة، مع علامات حرق طفيفة على النباتات المحيطة. بالإضافة إلى ذلك، لاحظ بعضهم أضرارًا صغيرة في معداتهم الزراعية، وكأن شيئًا معدنيًا ثقيلًا مرّ بسرعة عبر المكان.

تدخلت وسائل الإعلام المحلية لتوثيق الحادثة، حيث أجرى الصحفي **كارلوس ميندوزا** مقابلات مع عدد من الشهود، مؤكدًا أن قصتهم كانت متطابقة تقريبًا، رغم اختلاف تفاصيل المشهد بين شخص وآخر. بدأ العلماء والمحققون المحليون بتحليل الأرض، لكنهم لم يجدوا أي تفسير منطقي، ولم تظهر أي آثار لمركبة مألوفة أو تكنولوجيا بشرية.

أثارت حادثة رانشو بالو جدلاً واسعاً في المكسيك والعالم، وأصبحت من بين أبرز حوادث ظهور الكائنات الفضائية في التسعينيات. أدرجت في سجلات منظمة **UFO Research Mexico**، التي وصفتها بأنها حالة اختطاف جماعي غامض لم يُسجل له سابقاً في المنطقة ..

رغم مرور السنوات، بقيت الحادثة لغزاً حياً، وأصبحت موضوع نقاش مستمر بين علماء الظواهر الغامضة والهواة على حد سواء. بالنسبة للسكان المحليين، فهي ذكرى مشحونة بالرهبة والإثارة، تذكرهم دائماً بأن هناك ما هو أبعد من عالمهم اليومي، وأن الكون قد يحمل أكثر مما يمكن للبشر استيعابه)

حين انتهى باتريك من قراءة التقرير، ظل أرين صامتاً لثوانٍ طويلة، ثم قال بصوتٍ منخفضٍ كأنه يخاطب نفسه :
= كأن الحقيقة تحاول أن تُبصر وسط عمى البشر !

لم يرد باتريك.

المدينة في الخارج كانت تغرق في أضواء سيارات الشرطة، بينما في الداخل، جلس أرين أمام اللوحة التي صارت كمرآة للعجز، وقد فهم في تلك اللحظة أن القاتل لا يهرب من العدالة فحسب، بل يجرّها خلفه إلى عالمٍ لا يخضع لقوانين البشر.

كان المساء قد أرخى ستاره فوق ميامي، تلك الواجهة البحرية التي اعتادت أن تبتسم للزوار، لكنها في تلك الليلة بدت متعبة، تحاول أن تمسح بيدها الغليظة على جبين المدينة لتطرد عنها التعب. جلست

ماريسا في مقهى صغير تطل نوافذه على شاطئ الخليج ، وصرير
كرسيّ خشبي مجاور يقطع الصمت الثقيل المخيم على الأجواء.

دخل أرين بعنف وألقى معطفه على الكرسي كما يلقي رجلٌ سلاحه
بعد معركة قصيرة. كانت ملامح وجهه مشدودةً، العينان حادثان
كأنهما تتعرّيان من الزمن، وكتفاه منحنيان تحت ثقل ما لا يسمى.
نظرت إليه ماريسا، لم تنطق فوراً؛ عيناها قرأتا خريطة تعبٍ في
خطوط وجهه، فمدّت يدها وحضرت كوب ماء بصمت، وكأن الماء
وحده ممكن أن يرد له نبضة إنسانية.

قال أرين بلهجةٍ فيها ما يشبه الاستسلام :

= كلما اقتربتُ، زاد ابتعاده. كلما ظننت أننا قربنا الخيط، تركه يتلوى
وكانه يستفزنا. الآن صار الأمر شخصياً، ماريسا. ليست فقط جرائمه
ما يزعج ؛ لقد جعل المدينة تتلّون بخوفها، وصار الناس ينظرون
إليّ وحدي كمن عليه أن يُخمد النار بيدٍ عارية.

ابتسمت ماريسا بابتسامةٍ هادئة، لم يكن فيها ضحكٌ بل يقظةٌ طبيةٌ
تعرف لغة الخوف. أمسكت بيد أرين بلمسةٍ رقيقة وقالت :

= أنت لا تحمل عبء الحل وحدك، أرين. لكنني أسمع في كلامك
شيئاً آخر ... خطوك أنك تراهن دائماً على ردّ فعلٍ. القاتل يستلذ
بالهرج و المرج الذي يحدثه ، يريد أن يُرى وهو يكتب رسالته. تلك
هي قوّته : العرض.

نظر إليها، وكان في صوته ارتعاش متعب :

= ماذا تقترحين إذن ؟ أن نضاعف الأضواء ؟ أن نعرض له مشهداً
أكبر ليزداد شراهة ؟

قالت بهدوء مهني :

= لا ، أعني أن نغيّر القواعد : بدلاً من أن نطارده نحن كظلال في المدن، لماذا لا نجرّه إلى ملعبنا ؟ ليس بمطاردةٍ معقدة، بل بتحدٍّ ذكي. أنت تعرفه : يترك رسائل لأنه يريد أن يحوّل الموت إلى لغة. فليأتِ إلى المكان الذي نتحكّم فيه ، إلى حيث تتجمّع العيون الرسمية.

حدّق أرين بها، مفكراً في الأحجية التي تقول أن الجنون لا يقاوم إطراء النفس. فسألها بارتباك و حيرة :

= وكيف نجذبه دون أن نصبح مثار سخرية أمامه و أمام الجمهور؟

أجابت ماريسا، وبصوتها المتأنّي كانت تخطط فكرةً ذكية :

= نحن لا نطلب منه أن يقتل، بل أن يردّ على استفزازنا له. أعلن بشكل رسمي عبر بيانٍ من الشرطة أنكم تتحدونه أن يترك دليلاً ملموساً على وجوده الفعلي بين أفراد الشرطة ، إن كان فضائياً بحق أو على الأقل رسول الفضائيين إلى الأرض فلن يصعب عليه فعل ذلك ..

صمتت ماريسا لبرهة، ثم أضافت بصفقتها الطبيعية :

= هذا ليس فحاً لإيذاء أحد، بل طُعْمٌ يختبر ردة فعله أمام هيئةٍ رسمية، وبين عيونٍ كثيرة. المنطق هنا نفسي بحت : المهووسون بهذا النوع من المعنى لا يطبقون رؤية أحد يشكك بهويتهم .. سيشعر بالغضب أو بالتحدي. وسنكون نحن هناك، مع شهادات و عيون وأجهزة، لنرى ردة فعله.

التقط أرين أنفاسه، و صمت للحظات يقلّب اقتراح ماريسا من كل الجوانب ، فلم يجد ضيراً منه ، إنه على الأقل خيرٌ من عدم فعل أي

شيء سوى انتظار الضربة التالية للقاتل ، إنها لعبة لغةٍ و مكر ، لعبةٌ تعزف على دوافع البشر حين يمتزج الخطر بالمجد :

= فكرة جيدة. مخاطرة، لكنها ذكية. سنحوّل الساحة إلى مرآةٍ له، ونرى إن كان سيفقد حذره أمام غروره و يقع في الفخ .

ارتسمت على وجه ماريسا هالة من الرضا .. أمسكت بكفّه بإحكام خافت، وقالت :

= اذهب على الفور عزيزي .. انصب فخك لغروره بإتقان . نريد أن نخيط له مشهداً بحيث يكشف ذاته بنفسه. هذه فرصتنا لنرى الوجوه الحقيقية تحت الأقنعة.

نهض أرين من مقعده و أمسك بمعطفه ، ملامحه تحولت من مشقة التعب و الاستسلام إلى وهج التحدي و التفاؤل.

= سأبلغ القيادة، سأضع الاقتراح بصيغة رسمية. و إن لزم، سنطلب مشورة قانونية و نفسية أيضاً .. أشكرك على عونك الكبير لي في كل الظروف ..

غادر بهدوء فيما جلست ماريسا تراقبه و هو يختفي في أحشاء الظلام ، تمتعت فيما يشبه الدعاء و الرجاء :

= كن حذراً، يا أرين. لا تجعل التحدي يجعلكما جسراً يسقط تحته الناس.

الفصل العاشر

طائفة أبي موسى

الولايات المتحدة الأمريكية ..

أيوا ..

2036 م ..

كانت أمريكا كلّها تغلي بالأسئلة حين خرج إلى العلن اسم جديد قلب المشهد الفكري والإعلامي رأسًا على عقب. إنه **ناتانيال كورن**، الباحث الأميركي ذو الخمسة والستين عامًا، صاحب الوجه الصارم والملامح التي تجمع بين الحكمة والغموض، بعينين رماديتين لا تُقرآن بسهولة وصوت عميق كأنه صادر من مكانٍ أقدم من جسده. كان قد اشتهر منذ سنواتٍ بمحاضراته الغريبة التي تمزج بين علم الفلك، وعلم الإنسان، ونظريات المؤامرة، لكنه لم يلقَ من الشهرة ما ناله إلا بعد أن اهتزّت ميامي بسلسلة الجرائم الغامضة التي هزّت المجتمع.

في خضمّ تلك الفوضى التي لم يجد لها أحد تفسيرًا، ظهر كورن على شاشات التلفاز في بثٍّ مباشرٍ طويل امتدّ لساعتين. تحدّث فيه عن علاقة خفية بين الآخرين - كما سمّاهم - وبين تطوّر الإنسان عبر التاريخ، وأن الحضارات القديمة لم تكن يومًا من صنع البشر وحدهم. ومنذ تلك الليلة، بدأت الفكرة التي كانت مجرد أطروحة باهتة تتحوّل إلى حركة روحية جديدة. أعلن كورن تأسيس ما أسماه **طائفة أبيدوس**، مستوحاة من المدينة المصرية القديمة التي كانت رمزًا للموت والبعث و احتوت على أغرب اكتشاف أثري متعلق بالفضائيين و هو خرطوشتها العجيبة التي تحمل نقوشاً لأطباق طائرة ، كما جعل شعارها عين حورس يتقاطع معها وجه كائن فضائي، في توليفةٍ بين الميثولوجيا الفرعونية والخيال الكوني.

لكن كورن كان حذرًا في خطابه، لا يريد أن يبدو كداعية غريب الأطوار ولا كزعيم جماعة خارجة عن القانون. قال لجمهوره : (لسنا طائفة، نحن وعي جديد)، ومع ذلك، لم يكن أحد مخدوعًا تمامًا. فأبيدوس كانت، شئنا أم أبينا، حركة دينية – فكرية بكل معنى الكلمة، لها طقوسها، وشعاراتها، ومؤمنوها الأوائل الذين أقسموا بأن الفضائيين هم سادة الكون الحقيقيون، وأنهم سيعودون قريبًا ليعيدوا الأرض إلى نظام كوني أكثر عدلاً وانسجامًا.

لم تبرر أبيدوس الجرائم التي أرعبت ميامي، بل على العكس، استثمرت في الفراغ النفسي والفكري الذي خلفته. كانت الجرائم حديث الناس، والكل يبحث عن معنى، عن رابط بين الرسائل الغريبة والأماكن الأثرية التي ذكرت فيها. وهنا، وجد كورن ضالته : لقد صار العالم مهياً لتلقي فكرته. فالمجتمع الذي يتخبط بين الخوف من القاتل والغموض الكوني، كان في أمس الحاجة إلى من يمنحه تفسيرًا جديدًا للعالم.

خلال أسابيع قليلة، تحولت «أبيدوس» من فكرة إلى ظاهرة. افتتح كورن مركزه الرئيسي في ولاية أيوا، في مجمع صغير يضم قاعة تأمل ضخمة ومكتبة زجاجية تُضاء باللون الأزرق في الليل، كأنها منارة من عالم آخر. ثم بدأت الفروع تظهر تباعًا في ولايات أخرى : كاليفورنيا، أوريغون، نيفادا، وصولًا إلى نيويورك. انتشر شعار الطائفة ورموزها بسرعة لافتة على الأوشام، وعلى القمصان، وعلى ملصقات السيارات.

كانت محاضرات كورن تبث مباشرة عبر الإنترنت، تحصد ملايين المشاهدات خلال ساعات. وكان الإعلام المبهوس بكل ما هو غريب يجد في الرجل مادة مثالية للنقاش والجدل. فبينما كانت الشرطة تبحث عن قاتل يترك رسائل تتحدث عن كهوف وتماثيل وأقراص غامضة، كان كورن يقدم تفسيرًا «كونيًا» يربط بين تلك الرموز وحضارات

قديمة تلقت رسائل من الزائرين كما يصفهم. لم يقل إنه يبرر الجرائم، لكنه ألقى بذرة جعلت الناس يتساءلون: وماذا لو كان القاتل مجرد رسولٍ من عالمٍ آخر؟

تغذت شهرة أبيدوس من العطش العام إلى الإجابات، ومن رواج القصص الماورائية في الإعلام، ومن هشاشة اليقين في زمنٍ تتكاثر فيه الشائعات كالفطر. ووسط موجة القلق تلك، برزت ديانات وحركات أخرى قديمة وجديدة تؤمن بالشيء ذاته.

ففي اليابان، أعادت طائفة **أوم شينريكيو** التي عُرفت في التسعينات خطابها القديم عن الآلهة الهابطة من النجوم ، مستفيدة من الأجواء الجديدة.

وفي فرنسا، عاد اسم **الرائليون** للظهور بعد أن أصدر زعيمهم الجديد بياناً يشيد بشجاعة أبيدوس في إعادة الوعي الكوني إلى الأرض ..

وفي كندا، نشأت جماعة أصغر تُدعى **نور أندروميذا**، تجمع بين التأمل البوذي والإيمان بأن أرواح الفضائيين تسكن بين البشر لتساعدهم على عبور الطور الرابع من الوعي ..

لكن أياً من تلك الحركات لم يحقق الزخم الذي حازته أبيدوس. فقد امتلكت شيئاً يفتقر إليه الجميع : الرمزية الحيّة. كانت الجرائم، على الرغم من بشاعتها، بمثابة النار التي صهرت الفكرة وجعلتها لامعةً وجاهزة للتداول. ومع كل حادثةٍ جديدة، كان عدد المنتسبين إلى الحركة يتضاعف. لم يكن الناس يؤمنون بأن القاتل رسولٌ لأبيدوس، بل كانوا يرون فيه «علامة»، دليلاً على أن شيئاً أكبر يحدث خلف

ستار العالم المادي .. حتى أن الحكومة شكت بضلوها بالجرائم ،
لكن التحقيقات لم تثمر عن شيء ، فقط حركة جديدة تركب موجة
الأحداث لا أكثر ..

وخلال أشهر قليلة، غزت رموز الطائفة العالم بأسره. على
الإنترنت، في الإعلانات، في الموسيقى، في الاحتفالات الثقافية،
وحتى في بعض البرامج التلفزيونية التي بدأت تتحدث عن الفجر
الكوني القادم. لم تعد أبيدوس حركة محلية، بل حالة فكرية جماعية
تجتاح العقول بين الخوف والانبهار. في المدن الأوروبية الكبرى،
كانت تنظم فعاليات تتحدث عن (الاتحاد بين الأرض والسماء) ،
وفي أمريكا اللاتينية ظهرت مهرجانات صغيرة يرقص فيها الشباب
تحت رايات تحمل عين حورس المتألقة بنجمة فضية في وسطها.

أصبحت أبيدوس رمزاً لعصر جديد من الارتباك الروحي. لم تكن
تدعو للعنف، لكنها ازدهرت بفضلها، كما تزدهر الطفيليات على
الجرح المفتوح. وبدأت كلمات كورن، التي بدأ يلقيها من منصة
زجاجية ضخمة في قاعة مركزه، كأنها ترنيمة عصرية :

(نحن لسنا أبناء الصدفة، بل ضيوف مؤقتون على أرضٍ استعارتنا
من مجرةٍ أرحب. حين يستيقظ الوعي الكوني، ستفهمون أن الحقيقة
لا تُكتشف ... بل تُستدعى)

ومع اتساع رقعة الحركة، راحت السلطات الأمريكية تراقبها عن
كثب، تخشى أن تتحول إلى ظاهرة خارجة عن السيطرة، خاصة بعد
أن بدأت بعض المدارس والجامعات تشهد نقاشات محتدمة بين من
يرون فيها خلاصاً فكرياً، ومن يعدونها تهديداً للعقل الإنساني نفسه.
ومع ذلك، كانت أبيدوس تتقدم بثبات، تفتح أبوابها لكل من أنهكه
الشك وأرهقته الأسئلة التي لم تعد الفلسفة أو الدين التقليدي قادرين
على الإجابة عنها.

في النهاية، لم تُعرف أبيدوس بأنها حركة للجنون أو للعنف، بل كمرآة للزمن نفسه : زمنٍ تتداخل فيه المعتقدات بالحقائق، والعلم بالأسطورة، والقلق بالرجاء. ربما لم تكن الطائفة هي من صنعت الجرائم، بل كانت الجرائم هي التي أنضجت الطائفة، صنعت حولها ضباباً مقدساً لا يرى من خلاله أين ينتهي الواقع وأين يبدأ الإيمان.

في إحدى الليالي، كان أرين و ماريسا يمشيان في الطرقات تحت زخات المطر التي تنهمر على مظلتهم، وعيناه تحدقان في الأفق المظلم كأنما يحاول أن يجد فيه تفسيراً لهذا الطوفان الجنوبي الذي اجتاح عقول الناس. إلى جانبه كانت ماريسا، تحدق فيه بهدوءٍ حزين وهي تدرك تماماً أن ما يعيشه ليس مجرد قضية، بل صراع داخلي بين العقل والفوضى. قالت بعد لحظة صمتٍ ثقيل :

= أتعرف يا أرين، لا عجب أن تنتشر طائفة أبيدوس بهذه السرعة، فالأمر أعمق من مجرد دعوة دينية غريبة أو شعار غامض. النفوس يا عزيزي جوعى، عطشى للأجوبة التي لم تجدها في العلم ولا في الدين ولا في الحياة الحديثة التي أنهكتها بالأسئلة دون أن تمنحها يقيناً واحداً. الفضول والمجهول أتعبا الناس حتى غدت عقولهم كأرضٍ قاحلة تنتظر أول نبتة، حتى لو كانت نبتة وهمٍ أو خوفٍ ممّوه بالأمل

كانت كلماتها تنساب بنبرة الهدوء الذي يسبق العاصفة، بينما هو ينصت إليها كطالبٍ أمام أستاذٍ تعرف ما لا يعرفه. تابعت :

= انظر حولك، العالم كله يعيش على الحافة. التقدم العلمي فتح أبواباً لم يكن يجب أن تُفتح، والناس لم يعودوا يفهمون ما يجري. صاروا يشعرون بأنهم صغار أمام الكون، وأن هناك قوى أعظم منهم تتحكم في مصيرهم. حين جاءت الجرائم الغريبة وارتبطت بأحاديث عن الفضائيين والرموز القديمة، لم تعد المسألة عنفاً أو جنوناً فقط، بل أصبحت وعداً بإجابةٍ منتظرة :

- من نحن ؟

- ومن يراقبنا ؟
- ولماذا يحدث كل هذا ؟

أشاحت ماريسا بنظرها نحو المدينة المضيفة وقالت بصوت عميق :

= وهناك شيء آخر، أخطر وأغرب ، ما يحدث ليس مجرد فضول، بل ما يشبه متلازمة ستوكهولم جماعية. الناس خافوا من فكرة الفضائيين، من احتمال وجود قوة غامضة تقتل وتراقب وتعذب، ومع ذلك - بدلاً من مقاومتها - بدؤوا يدافعون عنها، يتقربون منها، وينتسبون إليها. إنهم يريدون تصديق أن القاتل ليس مجرمًا، بل رسولًا. أن هؤلاء الكائنات ليست خطرًا، بل خلاصًا. إنها آلية دفاع نفسية معقدة، فالعقل البشري حين يعجز عن مواجهة الخوف، يبدأ بتبريره، بل وتقديسه ..

كانت كلماتها تصيب أرين كرصا ص من وعي جديد. أدرك أن ما يواجهه لم يعد جريمة متسلسلة ولا قاتلاً متخفياً، بل وباءً نفسيًا اجتاح العقول، وأن المواجهة باتت تتجاوز الطب الشرعي والتحقيقات، لتصل إلى ما هو أعمق : روح الإنسان حين يختار أن يؤمن بالخطر كي لا يشعر بالعجز أمامه.

ابتسمت ماريسا ابتسامة حزينة وقالت أخيرًا :

= لهذا يا أرين، لن تجد القاتل بسهولة ... لأنك لا تبحث عن شخص واحد، بل عن فكرة احتضنتها عقول الملايين ..

الفصل الحادي عشر

لغم وزويل

الولايات المتحدة الأمريكية ..

واشنطن العاصمة ..

2036 م ..

في صباحٍ رماديٍّ يكسوه الترقّب، اجتمع أرين مع كبار مسؤولي الأمن في البلاد داخل قاعة الاجتماعات المحصّنة في مقرّ وزارة العدل. كانت الوجوه متعبة، والعيون تائهة بين الشاشات والملفات المكدّسة، فقد تحوّلت القضية إلى همٍّ قوميٍّ يهدّد ثقة الناس في مؤسسات الدولة. بعد سلسلة طويلة من النقاشات العقيمة، نهض أرين بثباتٍ، وقال بصوتٍ يحمل من الإصرار أكثر مما يحمل من الرجاء :

= لن نمسك بالقاتل بالطريقة المعتادة ... يجب أن نغيّر قواعد اللعبة. القاتل لا يهرب من الضوء، بل ينجذب إليه. إنه يحتاج أن يُرى، أن يشعر بأنه متفوّق، كأنه يلعب معنا لعبة ذكاءٍ كونية ..

ساد صمتٌ مهيب في القاعة، تبادل الحاضرون النظرات بين الدهشة والخشية، فاقترح أرين كان أقرب إلى المغامرة منه إلى الخطة الأمنية. تابع قائلاً :

= إذا أراد أن يثبت أنه رسول من عوالم أخرى، فلنمنحه المسرح. سندعوه علناً، ونتحدّاه أمام الناس أن يضع دليلاً في قلب الشرطة نفسها إن كان حقاً كما يزعم. حينها، سيضطر إلى التحرك مدفوعاً بغروره ... وسيترك أثراً، أيّا كان ..

لم يكن أحد يجروّ على طرح مثل هذه الفكرة من قبل، لكن الضغط الشعبي والسياسي جعل الحكومة ترى فيها بصيص أملٍ ولو كان مجنوناً. وبعد مشاورات طويلة، اقتنع مجلس الأمن القومي بالخطة،

وصدر بيان رسمي بثته كبرى القنوات الإخبارية في الولايات المتحدة، يقول فيه المتحدث باسم الحكومة بنبرة محسوبة :

(إلى من يدّعي أنه رسولٌ من عوالمٍ أخرى، وإلى من يترك رموزه الغامضة في مسارح جرائمه، ندعوك إلى إثبات قوّتك إن كنت حقاً ما تزعم. اقترب منا، من قلب مؤسساتنا، ودعنا نرى بأعيننا قدرتك التي تتحدّث عنها. نحن نمنحك الفرصة لتبرهن على ما تؤمن به أنت ومن يتبعك)

تحوّل البيان خلال ساعاتٍ إلى حديث الساعة. البرامج الحوارية اشتعلت، مواقع التواصل امتلأت بالنقاشات، البعض رأى في الخطة خطوة ذكية للإيقاع بالمجرم، وآخرون اعتبروها مخاطرةً كبرى تُهين هيبة الدولة. ومع ذلك، بدا كأن الحكومة استردّت جزءاً من زمام المبادرة... على الأقلّ حتى تلك الليلة.

ففي مساء اليوم التالي مباشرة، وبينما كانت فرق الأمن تستعد لأي تحرّك، حدث ما لم يكن في الحسبان. انطفأت فجأة أنظمة الإنذار في مبنى وكالة الاستخبارات المركزية، تبعتها شاشات مكتب التحقيقات الفيدرالي التي غمرها ضوءٌ أبيض غريب قبل أن تتحوّل إلى خلفية سوداء تحمل جملةً واحدة :

(حادثة روزويل - عندما تشارك الحكومات في تكميم فم

الحقيقة)

لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ حتى انتشرت الفوضى. أصيب الموظفون بالذهول، هرع الخبراء في الأمن السيبراني لمحاولة استعادة السيطرة، لكن الاختراق كان عميقاً ودقيقاً على نحوٍ مذهل. لم يُسجّل أي دخول ماديٍّ إلى الأنظمة، لم تُكتشف أيّ ثغرة تقليدية،

وكأن من اخترق الشبكة كان يعرفها من الداخل معرفةً خارقة للطبيعة.

وقف أرين أمام الشاشات مصعوقاً. لم يكن يعلم ما الذي يثير فيه الرعب أكثر : الرسالة نفسها، أم الطريقة التي وصلت بها. الكلمات لم تكن عشوائية، بل مدروسة بدقة قاتلة. حادثة روزويل لم تكن غريبة عن الوعي الأمريكي، فهي أشهر قضية تتعلق بالفضائيين في التاريخ :

(ففي العام **1947** و بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بعامين ، سقط على مدينة **روزويل** (إحدى مدن ولاية نيو مكسيكو الأمريكية) جسمٌ غريبٌ أثار ضجةً مروعةً أدت إلى الذعر وسط الأهالي .. وبعد دقائق معدودة، كانت وحدات الجيش الأمريكي تنتشر في المدينة، وتحولها إلى ثكنة عسكرية بكل معنى الكلمة، ثم فرضت حظراً للتجوال على الأهالي، كما أصدر الجيش تعليمات مشددة بأنه سوف يطلق النار مباشرةً على أي مواطن يخرق حظر التجوال دون أي تحذيرات مسبقة.. فلماذا هذا التشدد المفرط تجاه تلك الحادثة؟!)

الحكومة الأمريكية قامت بالتعتيم على جميع الأخبار حول هذا الجسم، وفرضت سرية مطلقة عليه وتعاملت معه على مدى عشرات السنين باعتباره مجرد (منطاد لدراسة الطقس تعرض لحادثة)، إلى أن تم الكشف تدريجياً بواسطة صحفيين استقصائيين أكفاء عن أن ما سقط على روزويل كان **طبقاً طائراً يحتوي على بعض الجثث الغريبة لمخلوقات غير أرضية** .. التزمت الحكومات الأمريكية الصمت في وجه هذه الادعاءات ، إلى أن جاءت اللحظة التي قلبت كل الأمور رأساً على عقب، وتم الكشف عن شريط فيديو يسجل عملية تشريح إحدى هذه المخلوقات الفضائية، في منتصف التسعينيات من القرن الماضي، قام بتسريبه طيار أمريكي متقاعد ..

بعد الكشف عن هذا الشريط وإعلان خبراء من شركة كوداك أن المادة الفيلمية للشريط تعود فعلاً إلى الأربعينيات، والاستعانة بخبراء من هوليوود أكدوا صعوبة وجود خدع سينمائية في هذا الشريط القديم.. قامت الدنيا ولم تقعد في الولايات المتحدة، وانهال الرأي العام كله بالنقد القاسي على الحكومة الأمريكية، لدرجة أن الرئيس الأمريكي وقتها (بيل كلينتون) كان في زيارة رسمية لإيرلندا الشمالية، وتحدث إلى الشعب الأمريكي حول هذا الموضوع قائلاً :

{ على حد علمي، لم تصطدم سفن فضائية بمدينة روزويل في العام 1947، ولو كان هذا قد حدث بالفعل، وأن القوات الجوية احتفظت بجثث للمخلوقات الفضائية.. فإنهم لم يطلعوني على الأمر إطلاقاً }

واستمر نفي الحكومات الأمريكية و التزامها بالصمت المطبق حتى يومنا هذا.. على الرغم من خروج عدد من علماء الفضاء الأمريكيين مثل (كارل ساغان) ، الذي قال إن ما سقط على روزويل كان بالفعل طبقاً طائراً فضائياً ، و أن الحكومة الأمريكية قامت بالتعتيم الكامل على هذا الموضوع لأنه ساهم بقدر هائل في دفع التكنولوجيا والتطور الصناعي الأمريكي، لما يملكه هؤلاء الفضائيون من تقنيات حديثة للغاية كانت وقتئذ غير مسبوقة لأي بلد في العالم !!)

تجمّد المسؤولون في أماكنهم، وأخذت وسائل الإعلام تبتّ الخبر العاجل كما لو أنها تبتّ إعلان نهاية العالم. كانت الصدمة أكبر مما توقع أيّ أحد، ليس لأن القاتل تحدّى الحكومة بجملة تتهمها بالدليل أنها تخفي الحقيقة ، بل لأنه فعلها ببراءة لا يمكن تفسيرها. من ذا الذي يجرؤ على اختراق **FBI** و **CIA** في وقتٍ واحد، وبهذا الهدوء البارد ؟

في تلك اللحظة أدرك أرين أن اللعبة خرجت من حدود المنطق، وأن ما يواجهه لم يعد مجرد قاتلٍ من لحمٍ ودم، بل ظلّ لعقلٍ يعرف كيف

يحوّل الخوف إلى إيمان، والفوضى إلى رسالة.

كانت البلاد كلها ترتجف، والحقيقة - كما قال المجرم - بدأت فعلاً تنمو في الظل.

ساد الصمت أروقة العاصمة الأمريكية كما لم يسدها من قبل، صمتٌ ثقيل كأنه سحابة رمادٍ تغطي وجوه المسؤولين وتخفق أنفاس المدينة. بعد الاختراق المذهل لأنظمة **FBI** و **CIA** ، غرقت الحكومة في حالة ذهولٍ جماعي، لا أحد يتحدث بصوتٍ مرتفع، ولا أحد يجرؤ على النظر في عيون الآخر. كانت الشاشات ما تزال تعرض بقايا الرسالة المخيفة، ذلك السطر الذي أهان هيبة الدولة أمام العالم :
(**حادثة روزويل - عندما تشارك الحكومات في تكميم فم الحقيقة**)

جلس الوزراء في مكاتبهم كمن خسر حرباً لا يعرف متى بدأت. الاجتماعات الطارئة تتوالى، والوجوه تتبدل كل ساعة، لكن لا شيء يُثمر سوى المزيد من الحيرة. الرئيس نفسه بدا كأنه شاخ في ليلةٍ واحدة، ووزير الأمن القومي جلس صامتاً وهو يحدّق في الفراغ، غير قادرٍ على تفسير ما حدث. تقارير الأمن السيبراني أكدت أن الهجوم لم يترك أثراً رقمياً، وأنّ المنفذ لم يكن بشرياً وفق كل المقاييس المعروفة ، حتى العبارة الأخيرة في تقرير الخبراء كانت أشبه باستسلام رسمي :

(ما واجهناه يتجاوز قدراتنا التكنولوجية الحالية، وربما قدرات أي دولة على الأرض)

و بينما كانت مؤسسات الدولة تنزف ثقتها بنفسها، كانت النار تنتشر في الخارج بسرعةٍ تفوق الخيال. الشعب الذي كان يترقب بحذر

تحركات القاتل بدأ يفسّر ما حدث بطريقته. لم يعد الأمر بالنسبة لكثيرين مجرد سلسلة جرائم، بل رسائل سماوية من عقول أرقى. في المنتديات، وعلى مواقع التواصل، وفي نشرات الأخبار الليلية، بدأ اسم (طائفة أبيدوس) يعلو ويزدهر، مثل نبتة شيطانية وجدت في تربة الفوضى غذاءها المثالي.

أصبحت الطائفة التي أسسها ناثانيال كورن فجأة رمزاً للمعرفة السرية التي تعجز عنها الحكومات. مقاطع الفيديو التي تشرح فلسفتها صارت تترنّداً يتصدّر محركات البحث، وشعارها - عين حورس المتداخلة مع وجه كائن فضائي - يُرسم على الجدران، يُطبع على القمصان، ويُرفع في المظاهرات. في إحدى الليالي، بثّت قناة إخبارية تقريراً يُظهر حشوداً من الناس في نيويورك ولوس أنجلوس و أريزونا و مينوسوتا و أيوا نفسها، يرفعون اللافتات هاتفين :

(الفضائيون معنا، والحكومة تخفي الحقيقة كما فعلت من قبل)

كان المشهد جنونياً، إذ بدا كأنّ الشعب فقد ثقته في مؤسساته تماماً. ازداد عدد المنتسبين إلى الطائفة بأضعافٍ في أيام قليلة، بل وصل صداها إلى أوروبا وآسيا وأستراليا وأمريكا اللاتينية. ظهر ناثانيال كورن على الإنترنت متوشحاً برداء أسود، وقال بصوتٍ مهيب في بثٍّ مباشر تابعه الملايين :

(لقد حاولوا إسكات الحقيقة منذ روزويل، لكن الحقيقة لا تموت، إنها تنمو. أبيدوس ليست ديناً، بل بوابة الفهم لما وراءكم)

كان لتلك الكلمات أثر السحر، إذ شعر الناس أنهم أخيراً وجدوا من يجيب على أسئلتهم القديمة. في المقابل، كانت الحكومة تشعر أنها تنهار من الداخل. أجهزة المخابرات فقدت مصداقيتها، وزارة الدفاع عاجزة عن تقديم تفسير، الصحف تصف ما حدث بالزلزال السيبراني

الأعظم ، ومراكز الدراسات الأمنية بدأت تحذر من تحوّل الإيمان
بالفضائيين إلى تيارٍ عالمي يهدد الاستقرار العقائدي والسياسي في
الغرب كله.

أما أرين، فكان يراقب كل ذلك بعينٍ مثقلة بالمرارة. لقد تحوّل من
مطارِدٍ لقاتلٍ واحد إلى شاهدٍ على انهيار نظامٍ كامل.

كانت البلاد بأسرها تدخل مرحلةً جديدةً من الجنون المنظم، حيث
صار الخوف ديناً، والشك يقيناً، والقاتل المجهول بطلاً في أعين
الملايين.

وفي تلك اللحظة، لم يعد أحد يعرف من يطارد من :
البشر أم الظلال ؟

الفصل الثاني عشر

ثمود بالكتون

الولايات المتحدة الأمريكية ..

ميامي ..

2036 م ..

كانت الشمس تشرق ببطءٍ على ميامي حين دَوَّى البلاغ الجديد في أروقة قسم الشرطة، كطعنةٍ جديدة في قلب المدينة التي لم تلتقط أنفاسها بعد. لم تمضِ أيامٌ كثيرة على فضيحة اختراق الأنظمة الأمنية، حتى عاد القاتل ليضرب من جديد، هذه المرة في حيّ واين وود، الحيّ الذي ينام عادةً على جدارياتٍ ملونة ورسوماتٍ حالمة، لا على الدم والموت.

الضحية امرأة ستينية، تقيم وحيدة منذ سنوات، تكافح سرطان البنكرياس بصبرٍ وهدوء، يعرفها جيرانها بأنها لطيفة القلب، تمضي وقتها في الرسم وسقي نباتاتها الصغيرة.

حين دخلت جارتها صباحًا لتتفقد كعادتها، وجدت ساكنة على كرسيها الخشبي قرب النافذة، يداها مطويتان في حجرها، وجهها مائل قليلًا كمن أرهقه النعاس. على الطاولة بجانبها زجاجة مورفين شبه فارغة، وورقة مطوية بعناية بجانبها. حين وصل أرين، كان الجو مشبعًا بصمتٍ ثقيل، لا يشبه صمت الموت بل صمت ما هو أعمق : صمت المعنى المجهول.

اقترب ببطء، ثم التقط الورقة بيدٍ مرتجفة، فتحها على مهلٍ كما لو كان يخشى أن يتفجّر منها شيء.

قرأ الكلمات بصوتٍ خافت، يحمل مزيجًا من الغضب والدهشة :

(شهود باكستون – الحقيقة كالسرطان، تمتد وتتوسع)

تجمدت ملامح وجهه للحظة، ثم أخذ نفساً عميقاً وأغلق عينيه. لم يكن كمن يفكر، بل كمن يقاوم فكرة مرعبة تشق طريقها في ذهنه. سار نحو النافذة ونظر إلى الشارع الهادئ، السيارات تمرّ ببطء، والعاثرون لا يدركون أنهم يعيشون في مدينة يسكنها شبح يسخر من الجميع.

قال بصوتٍ متقطع، يخاطب نفسه أكثر من مساعدته باتريك :

= كأنه لا يقتل الأشخاص ... بل يقتل الأمل. كل ضحية تُسحب من نسيج الواقع كخيوط، ومعها يبهت لون العالم أكثر."

تبادل باتريك ونونيز النظرات المرتبكة، بينما تابع الطبيب الشرعي بنبرته الجافة :

= الوفاة منذ نحو سبع ساعات ... لا آثار عنف. أغلب الظن جرعة زائدة من المورفين، طبيعية أو على الأرجح مدبرة ..

أوماً أرين برأسه دون أن يعلق. لكنه لم يعطِ أوامره هذه المرة على الفور، بل جلس على كرسي قريب من الجثة، وأسند ذقنه إلى يده، ناظرًا إليها كما لو كانت مرآة لحالة

إنسانية مروعة. قال بصوتٍ هادئ، غارقٍ في الشرود :

= أن يموت الإنسان بمرضه شيء ... وأن يُستغل موته ليُقال شيء آخر، فذلك أشد أنواع القتل وحشية..

ثم نهض فجأة، وكأنّ شرارة داخلية أضاءت في رأسه، وأمر بصوتٍ حازم :

= أريد ل ما يمكن عن شهود باكستون، من الأرشييف، من التاريخ،
من أي مكان. لا أريد تقريرًا، أريد خريطة... خريطة توصلني لعقل
هذا الرجل ..

كانت نبرته مختلفة هذه المرة، ليست نبرة المحقق الصارم، بل نبرة
إنسانٍ على وشك الانفجار من الغموض، يبحث عن ثقب في جدارٍ
لا يرى له نهاية.

وعندما غادر المكان، لم ينظر خلفه كما كان يفعل عادة. بل مرّ
بجانب الجثة دون أن يلتفت، كأنما بدأ يشك في أن الميت الوحيد في
هذا المشهد هو الجسد.

وصل التقرير إلى مكتب أرين بعد ساعاتٍ من الانتظار الثقيل، يحمل
على غلافه ختم وزارة الدفاع الأسترالية وتاريخًا يعود إلى منتصف
القرن العشرين. فتحه ببطءٍ، والورق الأصفر يتنفس رائحة العتق،
كأنه يحمل سرًا دُفن طويلاً تحت رمال الزمن. على الصفحة الأولى
كُتب بخطٍّ آليٍّ باهت :

(ملفّ باكستون – الحادثة رقم **1953/117**، مقاطعة نيو ساوث
ويلز، أستراليا.

بدأ التقرير بسردٍ دقيق، يصف قرية صغيرة تُدعى باكستون، كانت
آنذاك مجرد مجموعة من المزارع والبيوت الطينية المحاطة بغابات
الأوكالبتوس، تبعد نحو مئة كيلومتر عن سيدني. في ليلةٍ من ليالي
أواخر الخريف، حين غطّى الضباب الوادي وبدأت السماء أقرب إلى
الأرض، سُمع في القرية صوتٌ يشبه الهدير لكنه لم يكن هدير
طائرة، بل اهتزازٌ يشبه أنين المعدن تحت ضغطٍ هائل.

في تلك الليلة، تمامًا عند الساعة الثانية والرّبع بعد منتصف الليل،
أفاد أكثر من اثني عشر شاهدًا، بينهم معلم المدرسة وراعي غنم

وممرضة من العيادة المحلية، برؤية جسم معدنيّ مضيءٍ يحلّق فوق الحقول ثم يهبط ببطء في منطقة مقفرة تُعرف باسم السهول الحمراء ، على بُعد خمسة كيلومترات من مركز القرية.

واحد من الشهود، ويدعى تشارلز هينسلي، قال في إفادته :

{ كان كقرص فضيّ مفلطح، يدور في صمتٍ تام. لا ضوء يصدر منه، بل توهّجٌ من الداخل، كأن النار مشتعلة تحت الجلد المعدني }

وفي الساعات التي تلت، هرع رجال الشرطة المحليون إلى المكان، فوجدوا آثار احتراقٍ دائرية على الأرض، والنباتات حولها متبيسة كأنها شاخت فجأة. لم يُعثر على أي جسم معدنيّ، لكن أحد الضباط، ويدعى ويليام بايرون، سجّل في تقريره أنه رأى ظلالاً بشرية صغيرة القامة تتحرك بين الأشجار بسرعةٍ غير مألوفة، واختفت لحظة تسليط الضوء عليها.

بعد ثلاثة أيام، أُغلق الملف رسميًا بأمرٍ من الحكومة الأسترالية، التي علّلت الحادثة بأنها اختبار طيرانٍ فاشل لجهاز مراقبة من الجيش الأمريكي. إلا أن سكان القرية أقسموا على أن ما رأوه لم يكن طائرة، بل شيئاً "لم يُصنع على الأرض ..

الفقرة الأخيرة من التقرير كانت الأغرب، بخط اليد الأحمر لأحد الباحثين الميدانيين الذين شاركوا في التحقيق :

{ لم أجد دليلاً مادّيّاً، لكنني وجدت خوفاً لا يمكن تزويره في أعين الناس. هؤلاء رأوا شيئاً جعلهم يشكّون في معنى الوجود ذاته. ومنذ تلك الليلة، لم تنم باكستون كما كانت }

و تبقى هذه القضية من أغرب القضايا المتعلقة بالفضائيين حتى يومنا هذا)

أنهى أرين القراءة ببطء، ثم أسند رأسه إلى الكرسي، يحدّق في سقف مكتبه، وأصابع يده تعبت بالحافة المعدنية للتقرير. أحسّ بشيءٍ

غريب يزحف في داخله، إحساس أن الخطوط التي تفصل الجرائم التي يحقق فيها عن تلك الحوادث القديمة، بدأت تتلاشى، كأن يدًا واحدة ترسمها عبر الزمن.

ساد شعور بالانكسار والارتباك في أروقة أجهزة المخابرات الأمريكية كما لم يحدث من قبل. كانت مكاتب **FBI** و **CIA** تعج بالمستندات المفتوحة، الشاشات التي تتوهج بالأحرف والأرقام، والهواتف التي ترن بلا انقطاع، لكن كل هذه الحركة لم تكن سوى حركة ميكانيكية بلا جدوى حقيقية. كل عميل، كل مسؤول، وكل محلل يجلس على مكتبه وكأنه يراقب حائطًا ضخمًا من الغموض، يحاول تفسير شيء لا يُفسَّر، والتقارير تتوالى دون أن تحمل أي خيط يقود إلى القاتل أو إلى المنطق الذي يحكم أفعاله.

في الداخل، بدأ اليأس يتسلل كسم بطيء، فالعجز لم يكن تقنيًا فقط، بل كان عقليًا وروحيًا. كل اختراق، كل جريمة جديدة، كل ورقة مطوية تظهر على مسارح الجرائم السابقة، جعلت العملاء يشعرون بأنهم مجرد مراقبين عاجزين أمام كيان يتصرف كما لو كان خارج حدود البشر. الاجتماعات الطارئة صارت أشبه بمحاولات يائسة لاحتواء الانفجار الداخلي، بينما كانوا يسمعون في الخارج صدى جرائم القاتل يتردد عبر الإعلام.

وبينما كان العاملون في أجهزة الدولة يغرقون في هذا الإحباط، بدأ التيار الشعبي ينقلب بطريقة لم يتوقعها أحد. المنتسبون إلى طائفة أبيدوس ازدادوا بشكلٍ مذهل، وسرعان ما أصبحوا يتحدثون بفخر عن معتقداتهم على وسائل التواصل الاجتماعي، يرفعون شعار عين حورس المتداخلة مع وجه الكائن الفضائي، ويؤكدون على أن الفضائيين ليسوا مجرد أساطير، بل سادة الكون الذين يفهمون الحقيقة أكثر من أي حكومة على الأرض.

المراقبون لاحظوا التغير على الفور : أولئك الذين كانوا ينتقدون الطائفة في البداية، صاروا يترددون، ثم يبدوون بالمشاركة في النقاشات عبر الإنترنت، يعلقون على المنشورات، ينشرون مقاطع الفيديو، ويكتبون مقالات صغيرة يروجون فيها لفلسفة الطائفة. يبدو وكأن الخوف الذي زرعه الجرائم السابقة قد تحول إلى شعور بالانتماء، وكأن الناس يبحثون عن حماية نفسية عبر التماهي مع قوة أكبر، غير مرئية، تتجاوز قدرات البشر.

في قلب كل هذا الانهيار، جلس أرين يتابع التقارير، ووجد نفسه محاطاً بمزيج من الإحباط والدهشة. وكأن الحكومة كلها تتهار ببطء، بينما أبيدوس تزدهر في الظل، وتحول الخوف العام إلى قوة جماعية صاعدة. كان واضحاً أن الدعم الشعبي للحكومة، الذي كان مصدر القوة والشرعية لها، قد انجرف بالكامل نحو هذه الطائفة، تاركاً أجهزة الدولة في مواجهة معركة بلا معسكر واضح، ضد عدو يبدو أقوى من كل ما عرفوه من قبل.

في هذه اللحظات، شعر الجميع في أروقة المخابرات بأنهم ليسوا مجرد متأخرين عن الأحداث، بل مجرد شهود عاجزين على تحول العالم أمام أعينهم، وأنه مهما بذلوا من جهود، فإن القوة الحقيقية صارت في أيدي أولئك الذين وجدوا في أبيدوس ملاذاً للمعرفة والخوف معا.

الفصل الثالث عشر

التقريبان الأخير

الولايات المتحدة الأمريكية ..

ميامي ..

2036 م ..

كانت ميامي قد تنفست أخيرًا بعد شهرين من الصمت. لم تقع أي جريمة جديدة، ولم تظهر أي ورقة مطوية تحمل تهديدًا أو لغزًا جديدًا. المدينة التي عاشت على الترقب والرعب، بدأت تتعافى ببطء. العناوين في الصحف استبدلت قصص الرعب بأخبار الزفاف، والناس عادوا إلى المقاهي والشواطئ، يتحدثون عن الحياة كأن الكابوس انقضى.

في تلك الأثناء، كانت الزهور تُزين قاعة الزفاف على شاطئ باي سايد، والموسيقى الناعمة تنساب كهمس البحر. أرين وماريسا أخيرًا معًا، بعد رحلة طويلة من القلق والعمل والخطر. بدت ماريسا كأنها تحمل على وجهها طمأنينة مؤقتة، ورضا يساوم الظروف.

أمسك أرين بيدها، وقال أمام الحضور بصوتٍ مبحوح من التأثر :
= لقد عشت بين الجرائم والظلال، لكنك كنتِ ضوئي الوحيد الذي لم يُطفأ..

صفق الجميع، وتعانقت الوجوه، وامتزجت دموع الفرح بذكريات الخوف القديمة. في تلك الليلة، آمن الجميع أن صفحة الرعب قد طويت، وأن الحياة منحت المدينة فصلًا جديدًا.

في صباح اليوم التالي للزفاف، كانت الشمس تطرق نوافذ البيت الصغير في ساوث بيتش، بينما تستيقظ ماريسا ببطء. عندما خرج أرين من الحمام عاري الصدر، توقفت عيناها فجأة عند شيء لم تتوقعه. على ظهره، الممتد من الكتف إلى منتصف العمود الفقري، كان هنالك وشم كائن فضائي، بلامح دقيقة كأنها محفورة بإزميل.

لقد نشأت في عائلة مسيحية محافظة، و لم ترَ أرين عارياً من قبل ، لذا لم ترَ الوشم أيضاً .. ارتجف قلبها قليلاً.. لم تقل شيئاً ، لكن هذا الوشم بالتحديد لم يكن مجرد رمز ، كان إشارة لما يثير الرعب ذاته في قلب المدينة.

لم تسأله عنه لأن حكمتها كطبيبة نفسية لجمت لسانها ، لكن ملامحها تغيرت. وبخبرتها الطويلة في قراءة الوجوه ، رأت خلف عينيه ظلاً غريباً لم تلحظه من قبل، مزيجاً من الغرور والقداسة، كما لو أن شيئاً بداخله يعتقد أنه يرى ما لا يراه البشر.

بعد انتهاء عطلة الزفاف التي جاهدت فيها ماريسا كي تتصرف بشكل طبيعي، عاد أرين إلى عمله كمحقق، تاركاً ماريسا وحيدة في المنزل الجديد. لم تستطع مقاومة فضولها الذي تحول إلى هاجس. كانت تشعر بأن شيئاً مظلماً يختبئ خلف الهدوء المبالغ فيه الذي يحيط أرين نفسه به.

جلست إلى مكتبه، وبدأت تتفحص الأدراج ببطء، حتى وجدت أحدها مغلقاً. بحثت هنا و هناك فوجدت مفتاحاً صغيراً كان موضوعاً في مزهرية جانبية، مدت يدها و فتحت الدرج بيدٍ ترتجف.

في الداخل وجدت ورقة مطوية بعناية. فتحتها بحذر، وقرأت ما كتب
بخطٍ داكن واضح :



تجمدت الدماء في عروقها. فتحت هاتفها بسرعة، وبحثت عن صور
الأوراق التي وجدت الشرطة مثلها في مسارح الجرائم، لكن هذه
العبرة لم تكن بينها على الإطلاق ..

لم يكن هنالك أي تفسير بريء. الورقة فتحت الباب على أسئلة كثيرة
و فرضيات مظلمة لا تنتهي ..

ارتعش جسدها. تسارعت أنفاسها. حاولت إقناع نفسها بأنها تبالغ أو
تتوهم ، لكنها لم تستطع تجاهل ذلك الصوت الخافت الذي يهمس في
عقلها : إنه هو.

بدأت تبحث في كل أرجاء البيت، كمن يبحث عن اعترافٍ مدفون.
وفي زاوية الممر المؤدي إلى المطبخ، لاحظت بابًا صغيرًا في
الأرضية، يوصل إلى القبو. كان مغلقًا بإحكام.

تذكرت كيف علمتها صديقتها في الجامعة فتح الأقفال ببطاقة انتمان
، جربت، ونجحت.

نزلت على السلالم المظلمة، وقلبها يدق بعنف. كان الظلام كثيفًا، استعانت بفلاش هاتفها. وما إن سقط الضوء على الجدار حتى شهقت بصوتٍ خافت.

كانت الغرفة مليئةً بصور لفضائيين ، مجسمات لأطباق طائرة، وجوه لكائنات فضائية من الجبس، خرائط مرسومة بخط يدوي، و شعارات متنوعة ذات دلالات كونية.

وفي المنتصف، محراب صغير مضاء بشمعة ذائبة فوقه شعار عين حورس المتداخلة مع رأس فضائي ، مع مجسم لفضائيين ثلاثة في مركزه مقتبس من الفلسفة : (لا أرى .. لا أسمع .. لا أتكلم ..) في إشارة إلى غموض الفضائيين من جهة ، و تعظيم الناس على حقيقتهم من جهة ثانية ..

تراجعت خطوة إلى الوراء، والدموع تملأ عينيها. فهتت كل شيء في لحظة. القاتل كان يعيش معها، يأكل معها، ويحبها كل ليلة، بينما يخفي خلف عينيهِ هوسًا مقدسًا.

لكن قبل أن تدير ظهرها للمغادرة، سمعت خطوات خلفها. أضيئت الغرفة بالكامل فجأة. كان أرين واقفًا كتمثال من حجر، عاري الوجه من كل قناع، ينظر إليها بنظرة باردة.

قالت بصوتٍ مرتجف و هي تكاد لا تستوعب ما يحدث :

= أنت ... أنت .. أنت القاتل !!؟

أجابها بهدوء مريب، كمن يشرح حقيقة علمية بسيطة :

= نعم ... لكنها لم تكن جرائم .. كانت قرابينًا للحقيقة.

أشار إلى شاشة هاتفه فرأت غرف المنزل عليها في بث حي،
وأدركت أن الكاميرات المخفية في المنزل كانت تنقل له كل ما فعلته
منذ لحظة جلوسها على مكتبه.

سألته والدموع تسيل على وجهها :

= لكن لماذا ؟ لماذا فعلت كل هذا ؟

ابتسم ببرود وقال :

= لأن الفضائيين حقيقة لا ريب فيها. كنت أبحث عنهم منذ مراهقتي.
جمعت الأدلة، الصور، الشهادات حتى تيقنت من وجودهم . ثم منذ
عامين قادتني الصدفة أو ربما الفضائيون أنفسهم إلى الباحث ناثانيال
كورن. الرجل الوحيد الذي فهم ما أريد. كانت فكرته أن يؤسس طائفة
تجمع المؤمنين بقدمهم. اتفقنا على أن نجعل الناس يرون الحقيقة
بأعينهم، أن نجعلهم يخافونها أولاً ، ثم يؤمنون بها ، من منطلق
الاقتناع و الترهيب معاً ، فالناس لا يلتفتون إلى الأدلة إلا إذا كانوا
في خطر ، لذا لا يتذكر البشر السماء إلا في حالات الانهيار.

سكت لحظة ثم تابع :

= هو ومجموعة من أتباعه اخترعوا حادثة الشاب كايلي الشهيرة .
صمموا طبقاً طائراً وتنكروا في هيئة فضائيين، حتى صدق الشاب
ما رأى و نشر تصويره على الإنترنت. أما أنا، فقد توليت المهمة
الأصعب ... أن أزرع الرعب. كنت أدخل بيوت الضحايا بصفتي
الأمنية بلا اقتحام أو مقاومة ، أنفذ طقوس التضحية ثم أترك أوراقى،
فأدفع الناس بالقوة إلى البحث في الأرشف الواسع لحوادث
الفضائيين على كوكبنا. هكذا تنشأ الحاجة إلى الإيمان، وتصبح طائفة
أبيدوس خلاصاً من الخوف الذي صنعتة أنا .. أما حادثنا إطلاق النار

على طلاب المدرسة و تهكير مواقع مراكز المخابرات فنفذه
أعضاء متخصصون للغاية في الطائفة.

تراجعت ماريسا خطوة، بالكاد تلتقط أنفاسها من الدهشة و الفرع ،
وهمست بصوت متهدج :

= أنت ... مريض، أرين .. هذا هوس .. و كورن ذاك مصاب بجنون
العظمة لا أكثر ..

نظر إليها طويلاً، ثم قال بصوتٍ منخفض :

= ربما ... لكنك قلت لي مرة أن كل مرضٍ هو لغزٍ يستحق الحل ،
و لهذا السبب اخترت القرابين البشرية مصابة بأمراض تخليداً
لمقولتك الذهبية هذه .. أنا مهووس بالفضائيين و الحل كان بإثبات
حقيقة وجودهم ..

اقترب منها ببطء و عيناه تنضحان رعباً و مرضاً.

= ماذا ستفعل بي ؟

قال ببرودٍ يقشعر له البدن :

= أحبك، ماريسا ... لكنك رأيت ما لا يجب أن يُرى. لذا للأسف،
ستكونين أنتِ القربان الأخير في هذه القصة.

مد ذراعيه و أحكم الخناق على عنقها ، فيما كانت تحاول
التملّص عبثاً. ارتخت أطرافها شيئاً فشيئاً، ثم خمدت أنفاسها و
سقطت بصمتٍ تام.

ركع أرين قرب جثتها و هو يبكي كأي مختل سايكوباثي ، ثم حملها
إلى الخارج، ووضعها خلف مقود سيارتها في المرآب.

عاد بعدها إلى مكتبه و كتب ورقة جديدة تحمل الجملة الأخيرة :

(الزوجان بيتي و بارني – أوقفوا التحقيق، تتوقف

الجرائم)

ثم وضعها أمام المقود ، أراد أن يوهم الشرطة و الناس بأن القاتل انتقم منه بسبب تحقيقه في جرائمه فقتل زوجته .. و استخدم قصة الزوجين بيتي و بارني الشهيرة اللذين ادعيا أن فضائيين اختطفوهما و أجروا عليهما تجارب عام 1961 أثناء عودتهما من كندا إلى أمريكا ، كي يعزز موقفه ..

كانت الجريمة الأخيرة بمثابة الصدمة الأكبر للشرطة ، الحكومة و الناس ، تعاطف الجميع مع دموع أرين الكاذبة و فجيعة التي صنعها بيديه ، و كان القرار واضحاً : **توقيف التحقيق كمداهنة للقاتل و رؤية العواقب .**

وبالفعل، توقفت الجرائم تماماً منذ تلك الجريمة ..

لكن الحقيقة كانت أبشع مما تخيله أحد و دفنت مع مكتشفها.

ماريسا - الضحية الأخيرة - كانت الوحيدة التي كشفت هوية القاتل و شخصت مرضه دون أن تتجو منه، فرحلت قبل أن تكشف للعالم أن القاتل كان الرجل الذي وعدا بالأمان.

أما طائفة أبيدوس، فقد نمت وتوسعت بلا توقف، من قاعات أيبوا إلى شوارع باريس .. من حقول أبيدجان إلى جبال لاباز و ساحات طوكيو. وُلدت من كذبة، وتغذت على الخوف، وصارت ديناً عالمياً جديداً.

بينما كان الفجر يغرس أنيابه الباردة في عظام "كايلي"، استيقظ الشاب من سباتٍ ثقيلٍ كأنه يخرج من غياهب بئرٍ سحيق. كان رأسه يطنُّ بصداعٍ عاتٍ، وجسده الملقى فوق طمي الغابة الموحش يئنُّ تحت وطأة تعبٍ غامض.

هزَّ رأسه في حيرة و قلق ، وفجأة.. تدفقت الصور كشلالٍ هادر: الوجوه الصاخبة في الحفلة، ملامح تلك الفتاة الغامضة، نظرات البروفيسور "ناتانيال" الحادة، صرامة المحقق "أرين"، وهدوء الطبيبة "ماريسا" المريب.. وصولاً إلى طقوس طائفة "أبيدوس" المظلمة.

اعتصر جفنيه متسائلاً : "يا إلهي، أكانت كل تلك الأحداث مجرد أضغاث أحلام؟ هل استسلم عقلي المنهك لسكرةٍ طارئةٍ من خمر وهلوساتٍ عابرةٍ من حبوب سعادة، فنسج من خيوط العدم تلك الملحمة السريالية؟".

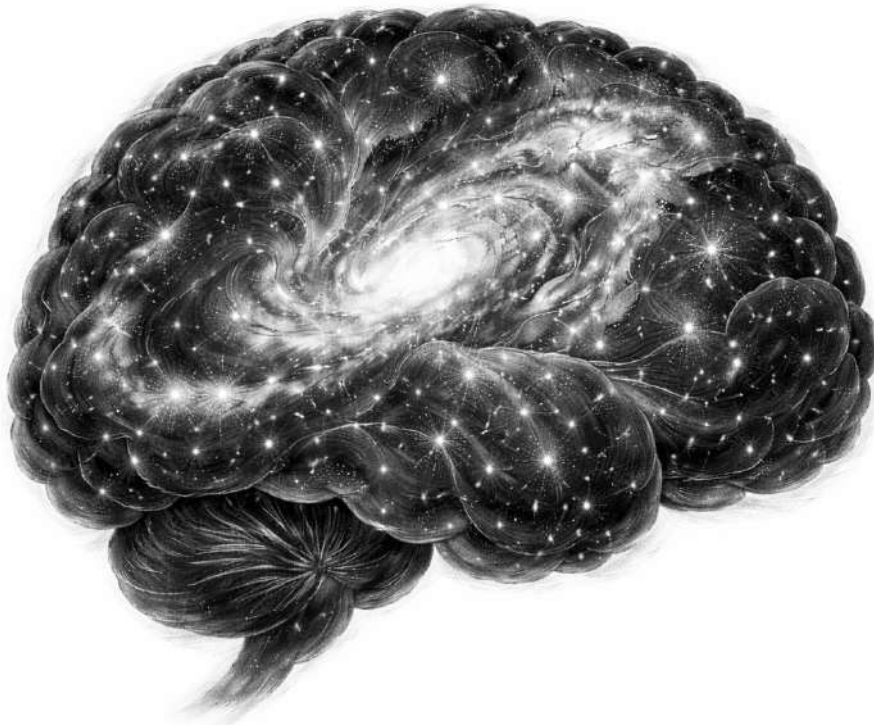
ارتسمت على ثغره ابتسامةٌ يغلفها الوجل، ثم نهض يجرُّ خطاه المترنحة نحو منزله، تاركاً خلفه لغز القصر و الفتاة و الغابة.

ربما، في زاويةٍ منسيةٍ من هذا السديم اللامتناهي، هناك كينونةٌ ترقبنا بصمت، تبتسم لضآلتنا في سكون الفضاء الرحب.. لكن الحقيقة الصارخة هي أن كل خرافةٍ تُنسب لزوار النجوم : (المخلوقات الفضائية) ليست بالضرورة نبأً يقيناً؛ فقد تكون محض سراب، أو وهماً صاغه عجزنا عن الفهم أو تحت وطأة خمر أو عقاقير. فالبشر، ببراعتهم الأزلية، يتقنون نحت آلهتهم من مادة الوهم، ثم يغرقون في تقديسها حتى الرmq الأخير.

جبر وشيخ

٣

الكوني



الرواية الرابعة

حجر رشيد الكوني ..

فصول الرواية :

- بذرة تحت التراب ..
- العقل الكونيّ ..
- عاصفة سييرانية ..
- رحلة في الذاكرة ..
- على شفير الهاوية ..
- حجر رشيد الكوني ..
- سباق مع الزمن ..
- أرشيف الكون ..
- قاب قوسين أو أدنى ..
- كلمات الكون الأولى (مغارة علي بابا) ..

الفصل الأول

بذرة نمت التراب

الولايات المتحدة الأمريكية

واشنطن العاصمة ..

2049 م ..

كان المساء يهبط على مبنى وكالة سانا للفيزياء الكونية في واشنطن ككائن شفاف يمدّ أجنحته من الزجاج إلى الزجاج، ومن الضوء إلى العتمة. في الطابق السادس، داخل مكتبٍ تغمره خرائط النجوم ومجاهر الضوء المعتم، جلس البروفيسور **براين غري**، أحد آخر العقول التي لا تزال تُصدّق أن للكون روحًا تفكّر.

كان في الحادية والسبعين عمرًا تُخفيه قامته المستقيمة ونظرته التي ما تزال تشعّ بوميض الطفل المندهش أمام أول مجرة تُكتشف في عدسةٍ صغيرة. وجهه نحيل تتقاطع عليه خطوط كأنها تضاريس الزمن ذاته؛ جبين واسع يحتضن الفكرة كما يحتضن الأفق الغروب، وعينان رماديتان فيهما تلك اللمعة التي تجمع بين حنين الحكيم وقلق العارف. شعره الأبيض ينساب بلا ترتيب، كأنه صفحة من غيوم نُسيت فوق رأسه، ولحيته قصيرة تُخفي ابتسامة خجولة لا تظهر إلا حين يفاجئه سحر فكرة جديدة.

كان صوته منخفضًا، عميق النغمة، حين يتكلم يبدو كأنّ الزمن نفسه يُنصت. يرتدي بذلة رمادية مهترئة الأطراف، ومعطفًا رماديًا طويلًا لا يفارقه حتى في قاعات المحاضرات؛ يقول طلابه إنه يشبه نيزكًا سقط من الفضاء ولم يتخلّص بعد من رماده.

على مكتبه، تنتشر أوراقٌ كثيرة مكتوبة بخطٍ دقيق، خطوط متشابكة تشبه خرائط كونية أكثر مما تشبه معادلات. بينها صور من

تلسكوبات متقدمة، وأخرى من أدمغة بشرية مصوّرة بالأشعة المغناطيسية، وقد كتب على هامش إحداها :

(الشبكة العصبية ليست سوى مرآة صغيرة للشبكة الكونية ، ربما تفكر النجوم كما تفكر الخلايا، وربما نحن مجرد فكرة في عقلٍ أعظم) ..

و على جدران مكتبه تتناثر صور لعلماء كانوا قدوته في شبابه العلمي .. نيوتن ، أينشتاين ، ماكسويل ، تسلا ، كيفين هوكينغ و آخرون .. يستمد من تجاربهم العلمية المثيرة و الحياتية القاسية صبراً ، شغفاً و عزيمة ..

براين يعيش مع زوجته شانتال غولدمان ، أستاذة الموسيقى في جامعة العاصمة ، في منزلٍ حجري قديم يطلّ على غابة من القيقب. شانتال فرنسية الأصل، ذات وجه مستدير وعينين عسليتين تلمعان كوترَي كمان، وقد عُرفت بحسّها الحالم وصبرها الأسطوري على فوضى زوجها الفكرية. كانت تقول دائماً : (براين لا يعيش في هذا العالم، بل في الهامش بين النوتة و المجرة)

لهما ابنتان : سوزي، طبيبة أعصاب تعمل في مستشفى ماساتشوستس العام، وكريستينا، ابنة الإنترنت، صاحبة قناة علمية على يوتيوب تتحدث فيها عن الفيزياء بلغة الشعر والضحك. كان براين يضحك حين يسمع كريستينا تتحدث في مقاطعها : (أبي يؤمن أن الكون يفكر. وأنا أؤمن أن الكون يضحك علينا ونحن نحاول فهمه) ..

و مع ذلك كان فخوراً بها؛ فقد رآها تحمل فكرته إلى جيلٍ جديد بطريقة أكثر حيوية مما يفعل هو في محاضراته الجامعية.

أما سوزي، فكانت أقرب إلى عقله. كانت تشاركه حوارات طويلة عن الدماغ، عن الإدراك، وعن الخلايا العصبية التي قد تكون

مفاتيح للوعي الكوني. كان يقول لها مبتسمًا :

(يا سوزي، حين أنظر إلى صورة دماغك بالرنين المغناطيسي،
أشعر كأنني أنظر إلى خريطة الكون نفسه)

فتجيبه :

(و أنا، أبي، حين أرى صورة المجرات، أشعر كأنني أنظر إلى
فكرتك وهي تتنفس) ..

قضى براين شبابه في مختبرات معهد ماكس بلانك ، حيث بدأ ولعه
القديم بفكرة الإسقاط العصبي على الكون .. لم يكن يقصد الإسقاط
النفسي بالمعنى الروحي، بل تلك الفرضية الجريئة التي تقول إن
البنية العصبية للدماغ البشري ليست مجرد انعكاس تطوري، بل
نتيجة تشفير كوني، **كأن الكون درّب نفسه عبر مليارات السنين على
إنتاج دماغ يفكر به.**

كان يؤمن أن كل خلية عصبية في الإنسان هي نقطة مراسلة في
شبكة أوسع تمتد إلى البنى الكونية الكبرى. وحين حاول أن يصوغ
ذلك علميًا، سمّى مشروعه **التطابق العصبي الكوني** ، وهي فرضية
جمع لها طلابًا وأساتذة، وأقام من أجلها مؤتمرات، وواجه بها
السخرية والدهشة في آن.

ذات مساء، في قاعة المحاضرات، وقف أمام طلابه وقال بصوته
الهادئ :

(الدماغ ليس آلة تُدرك الكون، بل نافذة يطلّ الكون منها على نفسه.
كل ومضة فكر إنساني هي نبضة في قلب كوني لا نرى إلا جزءًا
منه) ..

كانت القاعة صامتة إلا من صوت قلمه وهو يرسم على اللوح خريطة
مجرة درب التبانة، ثم يرسم بجانبها صورة لدماغ بشري، متداخلة
التشعبات، متشابكة الممرات، ويقول :

(هل ترون ؟ إنهما يكتبان اللغة نفسها، بلغة الخيوط، بلغة
الضوء) ..

في اجتماعات الوكالة، كان براين يدخل متأخرًا، يحمل معه مجلده
الضخم المليء بالصور والملاحظات. زملاؤه في سانا ينظرون إليه
بنصف إعجاب ونصف شك. أحدهم، الدكتور ألان كريمر، كان يتهمهم
قائلًا :

(براين، أنت تريد أن تجعل من الكون عقلاً ومن الفيزياء شعراً !!)

فيرد براين بابتسامة واثقة :

(ولم لا ؟ كل نظرية عظيمة تبدأ شعراً، ثم تتعلم النطق بالأرقام)

كانت مناقشاته معهم لا تنتهي : عن طبيعة الوعي، عن المادة
المظلمة التي كان يعتقد أنها ليست مادة أصلاً، بل مساحة صامتة في
تفكير الكون .. وكان يكرر دائماً أن الطاقة المظلمة ليست سوى توقع
داخلي للكون نحو الاتساع، كأنها فكرة تنمو داخل عقلٍ يدرب نفسه
على التذكر هروباً من زهايمر كوني محتمل ..

أحياناً، كان يغيب عن الاجتماعات أحياناً ليجلس في مكتبه وحيداً،
يتأمل صور التلسكوب الفضائي الجديد الذي صمّم فريقه بعض
برامجه التحليلية. كان يحدّق في النقاط البعيدة من المجرات ويقول
همساً :

(تلك ليست نجومًا، بل إشارات ... إنّ الكون يرسل أفكاره ببطءٍ

إلينا، و علينا نحن أن نحاول ترجمتها) ..

في منزله، الليل يبدأ حين تعزف شانتال مقطوعة لشوبان على البيانو.

و كان براين يجلس إلى جوارها، يستمع، ثم يغمض عينيه كأنه يرى الموسيقى تتحوّل إلى خيوط من ضوءٍ متداخل، كشبكة دماغية في الفضاء.

قالت له مرة :

(إنك تسمع الموسيقى كما لو كنت تراها) ..

فأجابها مبتسمًا :

(ربما لأن الكون حين خُلِق، لم يكن ضوءًا فقط، بل نعمة)

كانت تلك اللحظات بينهما تُعيده إلى إنسانيته، تُخرجه من متاهة المعادلات إلى سكينَةٍ تشبه صلاةً بلا كلمات. كانت شانتال تفهم جنونه كما يفهم المايسترو لحناً لم يكتمل بعد.

ومع مرور السنين، بدأ براين يشعر أن مشروعه لم يعد علمًا فقط، بل رسالة. صار يرى في وجوه طلابه بريقًا غريبًا حين يشرح لهم كيف أن العقل البشري ليس متفرجًا على الكون بل جزءاً من تشغيله. قال في إحدى محاضراته الأخيرة :

(لو كان الكون عقلاً، فإن وعينا نحن ليس استثناءً بل تماهٍ .. كل لحظة وعي هي لحظة مشاركة في تفكيره)

ثم سكت قليلاً، ونظر إلى وجوههم الالامعة وقال :

(إننا لا نفكر في الكون... إننا نفكر بالكون و الكون يفكر من
خلالنا) ..

في تلك الليلة، عاد إلى مكتبه، وكتب في مذكرته الأخيرة قبل منتصف
الليل :

(ربما كان وعيي أنا مجرد ومضة صغيرة في ذاكرة مجرة بعيدة
تتذكر نفسها من خلالي .. يا له من شرف أن أكون فكرة في عقل
لا نهائي ، و لعل محاضرتي القادمة فرصة ذهبية لأفصل في ذلك
أكثر) ..

هكذا كان البروفيسور براين غري ، عالمًا وعاشقًا، عقلاً من نور
يسعى خلف المعنى بين مجرتين، بين نعمتين، بين نبضتين في دماغ
الكون العظيم.

كان يؤمن أن النهاية الحقيقية للعلم ليست في اكتشاف القوانين، بل
في اكتشاف الذات التي تكتشف. وفي أعماقه، ظلّ يشعر أن اللحظة
التي سيفهم فيها الكون ستشبه لحظة ينظر فيها إلى مرآته فيرى الله
يبتسم له .. إن أفكاره الآن مجرد بذرة تحت التراب فهل ستنتش منها
شجرة عملاقة من الحقائق الكونية المذهلة ؟!

الفصل الثاني

٣

العقل الكوني

محاضرة البروفيسور براين ..

بعد أسبوع ..

كانت القاعة في تلك الأمسية تشبه كوكباً آخر، ضوءها خافت كأن النجوم انحنيت لتتفرّق فوق الرؤوس، والجدران الملساء تنعكس عليها الظلال كأنها صدى لعوالم أخرى تتنفس في صمت. كان الهواء مثقلاً بتلك الرهبة التي تسبق الكشف العظيم، ووقع الخطوات على أرضية الرخام الصقيل بدا أشبه بنبض جماعي يتردد في قلوب الحاضرين.

في المدرّج العريض جلست وجوه من شتى أرجاء الأرض : علماء فيزياء فلكية يحملون في أعينهم بريق المعادلات، فلاسفة بشعورهم الرمادية وعقولهم المشتعلة بأسئلة الوجود، شعراء جاءوا بدافع غامض لا يدركونه، وطلاب جامعة التقطت أرواحهم تلك الدعوة كأنها نداء من المجهول. لم يكن الحضور عادياً، بل بدا أن المكان نفسه قد استعدّ منذ دهور لهذه اللحظة؛ كلّ مقعد، وكلّ خيط ضوء، وكلّ نفس متردد في صدر القاعة كان في موقعه المنتظر.

على المنصة المركزية انتصب شعار الجامعة محفوراً على لوح من الكريستال : (الحكمة تلامس النجوم). خلفه، شاشة هائلة مظلمة تنتظر أن يضيئها فكر. وبينما كانت عقارب الساعة تقترب من العاشرة، ساد صمت مهيب، كأن الزمن نفسه حبس أنفاسه احتراماً لذلك الاسم الذي أصبح في الوعي الإنساني مرادفاً لاكتشاف الأسرار الكونية :

البروفيسور براين غري.

فتح الباب الجانبي بخفة، فدخل هو. لم يكن في مشيته استعراض ولا تكلف، بل ذلك الهدوء الذي يشبه تياراً عميقاً يجري تحت سطح

السكون. كان شعره الفضي يلمع تحت الضوء كوميض السدم البعيدة، ووجهه يحمل تلك الملامح التي صاغتها الأعوام بين الحيرة والدهشة والنور. ارتدى بذلة رمادية داكنة، لا توحى بالسلطة بقدر ما توحى بالسكينة، وفي يده أوراق قليلة كأنها ليست ملاحظات، بل مفاتيح لعوالم ستفتح بعد لحظات.

حين خطا نحو المنصة، بدا أن كلّ الأعين انجذبت إليه كما تنجذب المذنبات إلى مدار الشمس. توقّف في منتصف الطريق، التفت نحو المدرج، وابتسم بتلك الابتسامة الهادئة التي تجمع بين العارف والمتسائل في آن واحد. صعد الدرجات الثلاث ببطء، وفي كل خطوة كان الصمت يتكثّف أكثر، حتى صار أقرب إلى سكونٍ كونيّ.

وقف خلف المنصة، ثم لم يقترب من الميكروفون فوراً. ألقي نظرة على الجمهور، نظرة بدت وكأنها تخترق القلوب واحداً واحداً، ليتأكد أن الجميع حاضر ليس فقط بأجسادهم، بل بعقولهم وأرواحهم. وضع أوراقه برفق على الخشب اللامع، ثم شبك يديه أمامه، وتنفس بعمقٍ طويل، كأنما يستدعي من الذاكرة صدى آلاف السنين التي أمضاها الكون في البحث عن صوته.

قال بهدوءٍ يشبه النسيم :

= مساء الخير ... أو ربما يجب أن أقول، مساء الوعي.

ثم سكت قليلاً، فابتسم بعض الحضور، ولم يكن يعلم أحد إن كان يمزح أم يختبر انتباههم. تابع بصوتٍ رخيمٍ دافئ :

= قبل أن أبدأ، دعوني لا أشكركم على الحضور، بل أشكر هذا الصمت الذي خلّقتموه. فالصمت، كما تعلّمت من النجوم، ليس غياباً للكلام، بل هو اللغة التي يتحدث بها الوجود حين يقرر أن يقول

الحقيقة.

اقترب خطوة واحدة من المنصة، وكأنه يريد كسر المسافة بينه وبين العقول أمامه، ثم قال :

= أنا لست هنا اليوم لألقي محاضرة ... بل لأشارككم ارتجافتي الأخيرة أمام المجهول. ما سأقوله لم يعد علماً فقط، ولا فلسفة فقط، بل شيء وُلد بينهما كما يولد الضوء من احتراق الظلال.

ارتفعت الأنفاس في القاعة، وأحسّ الجميع أن شيئاً جلياً على وشك أن يُقال. على الشاشة خلفه ظهر شعار صغير :

(حجر النور - من شفرة الكون إلى الوعي الإنساني)

كانت تلك الكلمات وحدها كفيلة بإشعال الدهشة .. في حين تابع البروفيسور كلامه :

= تخيلوا معي لو هلة ماذا لو كان الكون بكل وسعه، بكل مجراته، بكل ظلاله من المادة والطاقة، ليس مجرد فضاء مادي شاسع ، بل جهاز تفكير هائل ، دماغ عملاق يدرك ذاته من خلال مكوناته ؟

هذه الفكرة ليست مجرد خيال أدبي أو علمي ، بل تمتد جذورها إلى التقاليد الفلسفية القديمة : (الكون الأعظم و الكون الأصغر

microcosm - macrocosm ، حيث الإنسان **صورة للكل**) ، وإلى التأملات المعاصرة في علم الكون، الفيزياء، ونظريات الوعي.

و في فلك هذه الفرضية تحوم كوكبة من الأسئلة المثيرة : كيف اقترحت علمياً ؟ كيف تدعمها البراهين والتشابهات ؟ ما هو معناها إن صحت ؟ وأخيراً، كيف ننظر إلى حياتنا إذا كانت الأفكار التي تُصدرها المجرات تتفاعل مع أفكارنا نحن البشر في نسيج العقل

الكوني الأكبر ؟ و اليوم أنا موجود كي نحاول سوياً الإجابة على كل هذه الأسئلة ..

صمت قليلاً ثم أردف :

= لنبدأ الأجوبة من تجربة علمية مذهلة تفجّر العقل حرفياً ، حيث قام كل من فرانكو فاذا عالم الفيزياء الفلكية في جامعة بولونيا الإيطالية ، و ألبرتو فيليتي جراح الأعصاب في جامعة فيرونا الإيطالية بإجراء مقارنة بين الشبكة الكونية و الشبكة العصبية في الدماغ ، لتظهر لهما أوجه تشابه مفاجئة كثيرة بينهما ..

✽ الدماغ البشري يعمل بفضل شبكته العصبية الواسعة التي تحتوي على ما يقارب **100** مليار خلية عصبية، كذلك الأمر يتكون الكون المرئي من شبكة كونية من **100** مليار مجرة على الأقل ..

✽ داخل كمال النظامين تتكون % **30** فقط من كتلة الشبكتين من مجرات خلايا عصبية، في حين يتكون % **70** من توزيع الكتلة من مكونات تلعب على ما يبدو دوراً سلبياً (الماء في الدماغ والمادة المظلمة في الكون المرئي) ..

✽ ليس ذلك فحسب بل إنّ تراتب المجرات و الخلايا العصبية هو نفسه في الشبكتين ، عبارة عن خيوط طويلة مع عقد بين الخيوط ..

✽ أخيراً تبين أن الكثافة الطيفية متشابهة بين الشبكتين ..

فهل نحن حقاً مجرد أفكار طارئة تجول في خيال هذا الدماغ الكوني العملاق ؟!

تنقل ببصره بين الحضور المندهب ، ابتسم و تابع :

= أكثر من ذلك، هناك اقتراحات أكثر جرأة تفترض أن الكون نفسه قد يعمل مثل شبكة عصبية عملاقة : فكما أن الدماغ يتعلم، ربما الكون أيضاً يتعلم أو يتطور، في مفهوم يُعرف **بالكون العصبي** أو

الكون كشبكة تعلم ذاتي . مثلاً، يذكر البعض أن قوانين الفيزياء قد لا تكون ثابتة بالكامل بل تنشأ تدريجياً عبر تطور النظام الكوني ، فتتغير القوانين مع نضج البنية الكونية تماماً كما يحدث للإنسان و دماغه .

و ليس التشابه الهيكلي وحده ما يُثير التأمل، بل أيضاً في طريقة تعامل كل من الدماغ والكون مع مفهوم المكان و الزمان. بعض الباحثين يقترحون أن الدماغ - بسبب سرعة انتشار النبضات العصبية المحدودة، وبسبب ترابط العقد في شبكته العصبية - قد يُنظر إليه من منظور يشبه الفضاء -الزمن (**spacetime**) الداخلي، حيث التزامن ليس مطلقاً بين العقد المختلفة . هذه النظرية تلقي ضوءاً على فكرة أن الأجزاء المختلفة من الكون أو الدماغ قد تعيش أوقاتاً نسبية داخلها حيث يتداخل الماضي و الحاضر و المستقبل في نسيج واحد ..

و إذا كان في الكون أيضاً نسق من الزمكان المنحني (كما في النظرية النسبية) ، فهل من غرابة أن يكون هناك نسق زمني داخلي في شبكة الدماغ العصبية إذا تعاملنا معها كموضوع معرفي داخلي؟ أي : ربما الزمن بالنسبة للدماغ ليس مجرد مفهوم خارجي ، بل يُعاش في داخله كجزء لا يتجزأ منه بطرق لا ندركها بعد.

أعلم أن هذا الكلام معقد قليلاً كونه بحاجة لشرح علمي يطول ، لكن الخلاصة أن العلماء يقترحون أن ما ينطبق على الكون من نظريات و قوانين بإمكانه أن ينطبق على الدماغ البشري أيضاً بطريقة أو بأخرى ، و هذا ما يهمنا بالخلاصة ..

صمت مجدداً و ارتشف من كأس الماء أمامه ثم تابع :

= لنسرح قليلاً في عوالم الحاسوب و الرقميات، فمن منظور المعلوماتية، يطرح البعض أحياناً أن الكون ليس مختلفاً في البنية عن الحاسوب أو الجهاز الحسابي الضخم، وأن تطوره هو معالجة معلومات ، بالتالي العقل الكوني يمكن أن يُتصوّر كمُعالج معلومات هائل يعبر عن ذاته عبر الكيانات التي فيه. بعض الفلاسفة والفيزيائيين يذهبون إلى أن العالم هو كمبيوتر كوني أو العالم هو محاكاة أو العقل الكوني هو برنامج ميتافيزيقي .. في هذا السياق، تشبيه الكون بالدماغ يصبح ليس مجرد استعارة، بل ربما تمثيلاً حقيقياً لمنطق المعلومات الكامن.

و لكي لا تبق الفكرة عند مستوى التشبيه، يجدر النظر إلى النماذج والتجارب المقترحة التي تحاول إرساء جسور بين الدماغ و الكون.

لدينا أولاً نموذج تضامن الكمّ والوعي Orch-OR ، حيث قدم العالمان رونالد بنروز و ستيوارت هامبروف هذه النظرية والتي تقترح أن الوعي ينشأ من عمليات كمومية دقيقة تحدث في الأنابيب الدقيقة داخل خلايا الدماغ، وأن انهيار الحالة الكمومية يُشكّل اللحظة الواعية . بعض النسخ المتطرفة من هذه النظرية تربط بين هذه العمليات الكمية وبين بنى الكون الكمي، بحيث أن الوعي البشري وما يحدث في الدماغ قد يكون جزءاً صغيراً في نشاط كمومي كوني أكبر.

ثم تأتي نظرية الكون الكمومي والوعي الناشئ ، ففي أبحاث أخرى، هناك من اقترح أنه في فترة التضخم الكوني المبكر، كان الكون في حالة تراكب كمومي هائلة، وعند انهيار هذا التراكب نشأ الزمن والمادة .. في هذا النموذج، العلاقة بين الكون والوعي ليست مجرد تشابه بنيوي، بل أن البنى الكمية في بدايات الكون قد تشابكت مع بناء الوعي لاحقاً سواء على مستوى الكون نفسه أو الإنسان و دماغه

كما أن بعض الأعمال في مجال المعلومات الكونية ترى أن البنى الأساسية للعالم هي بُنى معلوماتية، وأن الوعي (الذي هو أيضاً شكل من أشكال المعلومات المدمجة) يمكن أن يُعدّ امتداداً داخلياً لذلك الهيكل الكوني المعلوماتي .

أعود و أكرر ، هذه مصطلحات علمية معقدة لا سيما عندما نصل إلى بوابة عالم الكمومية .. لكن ليس بالضرورة أن نفهم التفاصيل بل أن نؤكد مجدداً أن هنالك تشابه عميق بين الدماغ و الكون سواءً من حيث البنية أو آلية العمل حتى على مستوى الجزيئات الدقيقة و عالم الكم الساحر الغريب ..

ابتنسم للحضور مجدداً و قال :

= و لكي نقول ما لنا و ما علينا ، لا بد من الإشارة إلى أن كل النظريات السابقة لاقت اعتراضات حادة و وجهت إليها عدة انتقادات ، مثلاً أنّ التشابه البنيوي لا يثبت أصلية العلاقة أو أن الكون فعلاً يفكر .. فكثير من الأنظمة المعقدة تُظهر أنماطاً متكررة : الشجرة، الشعاب المرجانية، الأوردة، الشبكات الاجتماعية ، كلها تُظهر أنماط شبكية، دون أن يُفترض أن كل منها عقل ..

و أيضاً عدم وجود آلية تجريبية واضحة توضح كيف يُترجم النشاط الكوني إلى فكرة أو وعي. فكيف يمكن أن يكون إشعاع من مجرة ما فكرة في العقل الكوني؟

و هناك أيضاً **فرضية دماغ بولترمان** التي تفترض أنه في الكون الواسع المتوازن، من الممكن أن يتكوّن عقل مفرد (دماغ بولترمان) من تقلبات عشوائية، يستمر لثوانٍ فقط ثم يختفي ، أي أن الكون ليس مجرد عقل ببداية و نهاية ثابتة

و أخيراً، كثير من الفرضيات مثل الوعي الكوني تقع ضمن نطاق النماذج الفلسفية أو الميتافيزيقية أكثر من أنها نماذج فيزيائية مختبرة.

ساد الصمت المكثف على المدرج المعجب بحيادية البروفيسور و سياسته التي تميل لتدوير الزوايا و عرض كل وجهات النظر ، في حين استطرد براين :

= لتجاوز الآن التشبيهات والاعتراضات إلى **الاحتماليات الأدبية الفلسفية** : ماذا لو أن كل إشعاع صادر عن مجرة هو فكرة في العقل الكوني؟ وأن حياتنا، بأحداثها وتواريخها، ليست سوى تناغم بين أفكار الفرد والعقل الكوني؟

تخيل أن المجرات تُصدر أشعة - موجات كهرومغناطيسية، إشعاعات، إشارات كمومية - وكل منها يُرمز إلى فكرة كونية. تلك الأفكار يمكن أن تكون مفاهيم أساسية مثل فكرة المدى، فكرة التكامل، فكرة الزمن، فكرة النشوء، قد تكون ذات صدى في وعي الكوني. وعندما تهبط هذه الأفكار إلى وعي الإنسان، تتخذ شكل أحداث : ولادة، صراع، عبور، اكتشاف.

بمعنى أدبي : كل نجمة تولد ليست مجرد نجم، بل فكرة أُطلقت؛ وكل تجمع مجري ليس مجرد تجمع، بل فكرة تجري في العقل الكوني؛ وكل ثقب أسود ليس مجرد نقطة كونية، بل فكرة مركزية تتكّم بجاذبية الفكر الكوني.

هنا، الحياة البشرية تُصبح لعبة تفاعلية : نحن نستقبل الأفكار الكونية، نُعالجها في دماغنا، نردُّ عليها بأفكارنا وأفعالنا، فترتدّ إلى العقل الكوني، فتتبدل البنى الكونية حسب مدى استجابتنا .. هكذا نتخيّل الكون ليس فقط كمُرسل أفكار، بل كمشارك في صناعة التاريخ البشري.

صمت مجدداً و رفع يده بطريقة مسرحية توحى بأن المحاضرة بدأت تزف إلى نهايتها و قال :

= لو أن الإنسان ليس منفصلاً عن العقل الكوني، بل هو جزء من عملية فكرية مشتركة، فإن حرية الإنسان ليست انفصلاً مطلقاً، بل حرية داخل شبكة فكرية. نحن فكر الكون ، أي أن أفكارنا ليست ملكاً خاصاً فحسب، بل روابط في نظام أوسع، وعلى الإنسان أن يتحمل مسؤولية أفكاره لأنها تمس للكل.

حين تُولد فكرة في مجرة بعيدة، قد تحدث تردداً في وعي الإنسان وقد يكون ذلك التردد نقطة تحول : اكتشاف، تأمل، إبداع أو كارثة. بمعنى رمزي، الكون يفكر في نفسه من خلالنا.

إذا كانت الحياة مجرى لتفاعل أفكار بين الإنسان والعقل الكوني، فالحياة تصبح مراجعة دائمة، مراجعة أفكارنا، مراجعة أفكار الكون، تعديل وتكامل. كل لحظة من التأمل أو الإبداع قد تكون إعادة ترتيب لفكر كوني على مستوى صغير كأن الكون يتقمص باستمرار من خلالنا.

ربما يكون معنى الموت هنا تحولاً من الحالة المادية إلى حالة فكرية : تتحول الأفكار التي كانت في علاقتنا المكانية إلى أفكار تُرسل إلى باطن الكلية، وتُعاد صياغتها في دورات جديدة من الكون. في النهاية إن تشبيه الكون بدماع عملاق ليس اقتراحاً بسيطاً يُردّ ببرهان واحد أو رفض واحد. إنه نزوع فكري يجمع بين العلم والفلسفة، يستثمر تشابه الأنماط، ويُطلق الخيال نحو احتمالات جديدة.

و إذا قبلنا مؤقتاً بهذا التصوّر، فسننظر إلى حياتنا باعتبارها مسرح أفكار و ليس مجرد مسرح مادي. سنعيد تقييم علاقتنا بالكون : هل نحن فقط مستهلكون في عالم مادي ضخم ؟ أم **نحن المرايا التي يرى فيها العقل الكوني صورته، يفكر فيها عبرنا، يُطوّر فيها ذاته ؟**

ربما لا نملك اليوم إثباتاً قطعياً، لكن التشابه البنيوي، المقاربات المعلوماتية، الطروحات الفلسفية كلها تشير إلى أن السؤال جدير بالتأمل. وقد يكون الطريق إلى المعرفة ليس مجرد إثبات أو نفي ، بل صيرورة ، رحلة فكرية يشارك فيها الإنسان والكون معاً .. فهل ستتحقق هذه النبوءة و نتمكن من إثباتها بالأدلة الدامغة فنرى الكون على حقيقته المغيبة كدماغ عملاق يفكر و نحن و أحداثنا على كوكب الأرض لسنا إلا ترجمة حرفية لهذه الأفكار؟! أتمنى ذلك من كل قلبي و عقلي و روحي ..

هنا نصل إلى نهاية هذه المحاضرة التي حاولت اختصارها قدر الإمكان تجنباً للملل فأنا أعلم أن العقل البشري يميل للشروود و التشتت بعد زمن محدد و كمية معلومات معينة ..

أشكركم مجدداً على الحضور الكريم و الإصغاء الجميل و أتمنى لكم يوماً هادئاً و سعيداً مليئاً بالإنجازات و الأفكار الخلاقة ..

ترجل عن المنصة بهدوء في حين ساد صمت ثقيل على المدرج و كأن الجميع غارق في التفكير بما سمعه عن العقل الكوني الأكبر و أفكاره التي نجسدها نحن بأفعالنا ..

الفصل الثالث

عاصمة سيبرانية

الولايات المتحدة الأمريكية

آب - 2049 م ..

كان اليوم الخامس من شهر أغسطس، والسماء فوق المحيط تضجّ بوميضٍ ذهبيّ غريب، كأنّها تتهيأ لحدثٍ يتجاوز اللغة.

في الصباح، سجّل مرصد وكالة سانا عاصفةً شمسية غير مسبقة منذ قرن، تيارًا من الجسيمات المشحونة انطلق من سطح الشمس كصرخة ضوء، مخترقًا الفضاء نحو الأرض بسرعات مجنونة ..

في التوقيت نفسه تقريبًا، كانت الولايات المتحدة تستيقظ على كابوسٍ من نوع آخر ، كابوسٍ لا يُرى، ولا يُسمع، لكنه يُشَلّ الأنظمة ويُخرس الشاشات.

انطفأت شاشات وزارة الدفاع الأمريكية في اللحظة التي انفجرت فيها أول موجة من العاصفة الشمسية في الغلاف المغناطيسي للأرض.

في الدقيقة نفسها، توقفت أنظمة الدفع الإلكتروني في البنوك الكبرى، اختفت البيانات من خوادم شركات التكنولوجيا، وتعطلت حسابات ملايين المستخدمين على فيسبوك و إكس ، وظهرت على بعض الشاشات السوداء عبارة واحدة باللون الأحمر :

(وقت التغيير قد حان)

في مكتب وكالة سانا ، وقف البروفيسور براين غري أمام النافذة الزجاجية العالية، يتابع بقلقٍ وانبهارٍ معًا كيف تتبدل الألوان في السماء. كان ضوء العاصفة يغمر المدينة بوميضٍ يشبه الشفق

القطبي، لكن مائل إلى الذهبي الناري، كأنّ الشمس قررت أن تمّد يدها لتلمس الأرض.

دخل عليه صديقه، الدكتور إليوت ماكفيرسون، خبير الأمن الرقمي في الوكالة، وجهه متوتر، هاتفه المحمول بلا إشارة.
قال وهو يلهث :

= براين، الأنظمة تنهار في كل مكان، الدفاع، البنوك، حتى وكالة الفضاء فقدت الاتصال ببعض الأقمار الصناعية. يظنون أنها هجمات سيبرانية روسية أو صينية.

ابتسم براين ببطء، وكأنه يسمع لحناً مألوفاً وسط الفوضى.
= وهل تظن يا إليوت أن ذاك التزامن محض مصادفة ؟ أن العاصفة الشمسية و الاختراق حدثا في اللحظة ذاتها بلا معنى ؟

أجابه إليوت بحدة :

= لا وقت للفلسفة الكونية الآن يا صديقي ، هذه حرب إلكترونية بكل المقاييس و تهدد وجودنا !

جلس براين بهدوء على مقعده، أدار شاشة الرصد أمامه، فظهرت خطوط متقطعة تمثل نشاط الجسيمات الشمسية، تتناغم بشكل غريب مع موجات الهجمات الإلكترونية المسجلة في قاعدة بيانات الأمن القومي.

قال بصوتٍ منخفض كمن يقرأ نبوءة :

= انظر... إنها ليست بيانات مختلفة، بل موجتان من المنحنى نفسه.
ما تفعله الشمس فيزيائياً يحدث رقمياً هنا. كأن الطاقة التي

أطلقتها تحوّلت إلى أفكار رقمية... كأن الكون يكتب بلغتين في اللحظة نفسها : لغة الضوء، ولغة الشيفرة.

في البنتاغون، كان الجنرال مايك دونوفان، رئيس هيئة الأركان، يعقد اجتماعًا عاجلاً في غرفة مظلمة تحيط بها شاشات الاحتياط.

خلفه جلس وزير الدفاع جون مكارثي، وجهه صارم، يرفع سماعة الهاتف كل دقيقة ليتحدث مع البيت الأبيض.

على الشاشات، كانت تقارير تصل من كل الولايات : أنظمة الإمداد الكهربائي تتعرض لهجمات، البورصة متوقفة، أقمار الاتصالات تُرسل بيانات مشوّشة.

قال أحد المستشارين التقنيين :

= الهجوم منسّق على مستوى غير مسبوق، بعض التوقعات تشير إلى أدوات روسية، أخرى صينية، وهناك بروتوكولات لم نتعرّف عليها بعد.

ضرب الجنرال دونوفان الطاولة بيده :

= لا يهمّ من هم، نريد الردّ فوراً! نريد إيقاف كل هذا العبث.

لكن وزير الدفاع قال ببرود :

= الردّ على مَنْ؟ لا يمكننا أن نحارب ظلاً إلكترونيًا . كل ما نعرفه أن التوقيت تزامن مع العاصفة الشمسية الكبرى.

عندها تدخلت الدكتورة ليزا فرانسيس، مستشارة العلوم في البنتاغون، وقالت :

= سيدي الوزير، هناك في وكالة سانا فيزيائي كوني يدعى براين غري، يحاول الربط بين العاصفة والهجمات. نظرياته غريبة، لكنه من أعمق العقول التي لدينا. ربما علينا أن نستمع إليه.

ضحك الجنرال ساخرًا :

= فيلسوف آخر يريد أن يفسر الحرب بلغة النجوم ؟ نحن نحتاج إلى خبراء أمن، لا شعراء كونييين !

لكن الوزير أشار بهدوء :

= اتصلوا به على الفور. في زمن الفوضى، حتى الشعر قد يحمل تفسيرًا و أملاً ..

في تلك الليلة، نُقل براين إلى غرفة العمليات المركزية في واشنطن بطائرة صغيرة.

حين دخل القاعة، كانت وجوه الضباط متجهمة، شاشات لا تعمل، أصوات الإنذارات تتداخل مع أصوات المولدات.

وقف أمام اللوح الرقمي، أخرج من حقيبته خرائط التزامن بين نشاط العاصفة ومواقع الهجمات، وقال بصوت ثابت :

= ما يحدث ليس هجومًا من دولة على دولة فقط... بل ظاهرة فكرية كونية. العاصفة الشمسية ليست مجرد طاقة؛ إنها فكرة متجسدة في لغة الطبيعة. والأنظمة الرقمية، كونها امتدادًا لعقولنا، التقطت هذه الفكرة وترجمتها على شكل شيفرات هجومية.

صاح أحد الضباط :

= أهذا سحر أم جنون ؟ أتقصد أن الشمس تفكر ؟

فأجاب براين بابتسامة هادئة :

= بل الكون يفكر، والشمس ليست إلا نبضة في دماغه.

تقدمت ليزا فرانسيس وقالت بصوتٍ متردد :

= أستاذ غري ، هل تقول إن الهجمات حدثت بلا فاعل بشري؟

ردّ بعد صمتٍ قصير:

= لا أقول ذلك، لكنني أعتقد أن من نقّذها لم يكن يعلم أنه ينفّذ إرادةً أعظم، تيارًا فكريًا مرّ عبره كما تمرّ الكهرباء في الأسلاك. ربما الروس، الصينيون، أو حتى شركات التكنولوجيا نفسها، جميعهم أدوات في معادلةٍ فكرية أكبر.

في البيت الأبيض، كانت الرئيس مورغان يجلس مع مستشاريه في غرفة الأزمة، وعلى الشاشة الكبيرة تقارير

عاجلة :

- انهيار **45** % من الأنظمة البنكية خلال ساعة.

- تعطل الأقمار الصناعية المدنية.

- تسريب بيانات من وزارة الدفاع.

قال الرئيس بقلبي ظاهر :

= إذا كان هذا عملاً بشريًا، فهو إعلان حرب. وإذا لم يكن... فهذه كارثة .. نحن أمام عدو لا نفهمه.

رد وزير الدفاع :

= هناك عالم كوني يقول إن ما يحدث قد يكون استجابة فكرية من الكون نفسه.

رفع الرئيس حاجبيه :

= هل فقدنا عقولنا جميعًا ؟ الكون يهاجمنا ؟ لماذا ؟!

تدخل أحد المستشارين قائلاً:

= سيدي، لو كان البروفيسور غري على حق، فربما يمكننا توقع
الموجة القادمة. فهو يتحدث عن نمطٍ فكري وليس عن صدفة.

بعد دقائق من الصمت و التفكير أصدر الرئيس أوامره :

= حسناً، دَعوه يعمل معكم، لكن أريد نتائج ملموسة على أرض
الواقع لا استعارات لا تقدم و لا تؤخر ..

عاد براين إلى مختبره في الوكالة، ومعه ليزا فرانسيس، وإليوت،
وعدد من العلماء الشباب. كانوا يراقبون في الوقت نفسه إشارات
العاصفة الشمسية وتدفق الهجمات الإلكترونية، فاكتشفوا أن كلا
الموجتين تتصاعدان ثم تهدآن وفق نمطٍ متشابه كل **1.618** دقيقة
و التي تعرف بالنسبة الإلهية الذهبية التي يقال أنها تحكم الكون و
الوجود ..

قال براين وهو يرسم المنحنى :

= هذا النمط يشبه تمامًا موجات الدماغ أثناء التفكير العميق. هذه
ليست فوضى، بل عملية إدراك. الكون يفكر فينا، ونحن نردّ عليه
دون أن نعلم.

أجابته ليزا بشيءٍ من اليأس و التهكم :

= جميل، ولكن من سيتحدث عن ذلك إلى الكون؟

ابتنسم برائن :

= نحن، عبر الضوء .. فالضوء هو اللغة السائدة في الكون .

في تلك الأثناء، كانت أجهزة الاستخبارات تعلن أن مصدر الهجمات أتى من نطاقات في سيبيريا وشمال الصين.

خرجت المتحدثة باسم البيت الأبيض، كارولين بيرغمان، في مؤتمر عاجل :

= الولايات المتحدة تعتبر هذه الهجمات عملاً عدائياً منسقاً، وسترد بالشكل المناسب.

اشتعلت وسائل الإعلام، نفت روسيا و الصين بشكل قاطع أي علاقة لهما بما حدث ، وتبادل العالم التهديدات، بينما كان برائن يتابع منحني الطاقة يتراجع ببطء.

قال لإليوت :

= الغريب أن العاصفة تهدأ ... والهجمات أيضاً تتراجع معها.

سكت قليلاً، ثم أضاف بصوتٍ متهدج :

= يا إلهي، كأن العقل الكوني انتهى من التفكير... مؤقتاً ، فهل ما جرى فكرة طارئة عليه أم واحدة ضمن مخطط مكتمل من الأفكار لغاية بعيدة؟!.

بعد ثلاثة أيام، اجتمع مجلس الأمن القومي الأمريكي. قدم برائن عرضاً أخيراً قال فيه :

= ما حدث لم يكن صدفة ولا مؤامرة خالصة. نحن نعيش في عقلٍ يفكر، وكل حدث ضخم في الكون قد يجد ترجمته في وعينا الجمعي

أو في أنظمتنا التقنية. العاصفة الشمسية كانت فكرة عميقة عن التغيير، ترجمتها شيفراتنا الرقمية كهجوم، و قد يردّ البشر عليها بحرب. كأن الكون أراد أن يقول لنا شيئاً عن هشاشتنا، عن كوننا امتداداً منه لا سادة عليه.

لم يعلّق أحد، لكن الصمت في القاعة كان اعترافاً ضمناً بعمق ما قاله.

ثم نهض وزير الدفاع وقال :

= قد نختلف معك في التفسير، لكننا لا يمكن أن نتجاهل التزامن. وسواء أكان هذا فعل روسيا صينياً أم فعل الشمس، فقد ذكرنا بشيء واحد : أننا لسنا وحدنا في التفكير ، و لسنا منفصلين عن صميم الكون كما يبدو !! لكن ما الرد الواجب علينا فعله الآن ؟

أجاب رئيس الأركان دون أن يرفع نظره :

= لا رد .. تزامن العاصفة الشمسية من الهجمات السيبرانية تبرئ روسيا و الصين جزئياً ، و ردنا عليهم إن لم يكن قاسياً فهو دليل ضعف ، و إن كان حازماً فسيكون بمثابة إعلان حرب لا أحد غير الله يعرف إلى أين ستنتهي ..

هز وزير الدفاع رأسه بالموافقة :

= إذن يبدو أن لا خيار لدينا سوى الانتظار لمعرفة الفكرة القادمة في الدماغ الكوني العملاق كما يقول البروفيسور براين ، ربما ستجيب بنفسها عن أسئلتنا و تعري اللحظة القادمة من تلقاء ذاتها .. ساد الصمت الرهيب على القاعة و كأن الجميع وافق ضمناً على هذا الرأي الحكيم ..

في تلك الليلة، عاد براين إلى بيته، جلس على الشرفة بجانب شانتال التي كانت تعزف بهدوء مقطوعة ضوء القمر لبيتهوفن.

كانت السماء قد استعادت صفاءها و القمر في كبدها كوجه حسناء تبتسم للأرض، لكن بين النجوم لمح لمعة لم يرها من قبل.

قال هامسًا :

= تخيلي يا شانتال أن الكون يكتب سيرته الذاتية و ما نحن سوى شخصياتها و أبطالها ..

رفعت رأسها نحوه وقالت بابتسامة حزينة :

= وربما نحن ملاحظاته الهامشية، تلك التي لا تنتهي أبدًا.

ابتسم، ورفع عينيه إلى السماء التي تتنفس من جديد، وقال لنفسه :

(لقد فُكّر العقل الأعظم مجددًا، ونحن كنا وميض الفكرة.)

قبل أن يخلد إلى النوم دوّن في دفتره :

(إن العاصفة لم تكن تهديدًا، بل تفكيرًا صاخبًا للكون. ربما حين يغضب، لا يصعق، بل يتأمل .. و ربما لديه غايات أبعد بكثير من حدود تفكيرنا الضيق أو من مجرد عاصفة شمسية و هجمات سيبرانية ..)

أغلق دفتره، بينما خيوط الكون تتقاطع فوقه كشبكة دماغ عملاق يواصل التفكير و نواصل التفكير بالسؤال الذي لا يزال يدور في فلك المجهول :

(من يقف وراء هذه الهجمات السيبرانية : البشر أم السماء ، و في الحالتين كيف تم ذلك ؟)

الفصل الرابع

رحلة في الذاكرة

الولايات المتحدة الأمريكية / واشنطن ..

كانون الأول - 2049 م ..

كان المساء يهبط على شوارع العاصمة بهدوءٍ يشبه همس مكتبة قديمة.

السماء رمادية تتناثر فيها خطوط ضوءٍ نحاسية تذكّر بصفحات كتابٍ محترق، والهواء يحمل رائحة البنّ الممزوجة بندف الثلج الأولى.

في زاوية شارع نيو بيري ، كان هناك مقهى صغير اسمه ذا سان لايت (**نور الشمس**) مكانٌ تحبّه الأرواح الباحثة عن المعنى أكثر من الباحثين عن الدفء.

جلس البروفيسور براين غري إلى طاولة خشبية قريبة من النافذة، يحرك ملعقته في كوب القهوة البنية ببطءٍ كما لو كان يقيس سرعة دوران المجرات فيها.

كان معطفه الرمادي مطويًا بعناية على الكرسي، وعيناه الرماديتان تتابعان تساقط الثلج كمن يقرأ فكرًا مكتوبًا في الهواء.

انتظر بضع دقائق، حتى دخلت **ريتا سمعان** ، المرأة التي تشبه في حضورها صفحةً من كتابٍ فلسفي كُتب بالذهب والنور.

كانت في منتصف الأربعين، طويلة القامة، يلفّ كتفيها وشاحٌ بلون الثلج في الخارج ..

شعرها أسود كثيف تسلّلت فيه خصلات فضية مبكرة تشبه شرارات فكرٍ أكثر مما تشبه آثار عمر، وعيناها واسعتان بلون العسل الداكن،

فيهما لمعة حزنٍ نبيلٍ وذكاءٍ صامت.

حين تبتسم، يبدو وجهها كأنه يفتح نافذة على عالمٍ أوسع.

كانت تمشي بخطى واثقة، هادئة، وكتبها لا تفارق يدها أبداً ، كأنها لا تثق بالذاكرة إلا إذا كانت مطبوعة على الورق.

درست ريتا الفلسفة والوعي الإنساني في جامعة السوربون، وعملت لاحقاً في مركز أبحاث الإدراك في زيورخ.

أصدرت كتباً في الوعي الكوني و الأنا المتعددة ، وكان النقاد يقولون إن كتاباتها تمشي على الحافة بين التصوف والعلم ..

التقاها براين قبل سنوات في مؤتمرٍ عن الدماغ والواقع ، ومنذ ذلك الحين، أصبحت صديقه الأعرق والأصدق ، المرأة التي تعكس له أفكاره حين يعجز عن رؤيتها.

حين جلست أمامه، قال مبتسماً :

= تبدين كما لو خرجت من سفر قديم يا ريتا، لا من شارعٍ عادي.

ضحكت برقة وأجابت :

= وأنت تبدو كما لو هبطت لتوك من معادلة لم تُحلّ بعد، يا براين.

تبادلا التحية، وبدأ الحوار كما لو استأنفا حديثاً بدأ منذ الأزل.

قال براين وهو يرفع فنجانه :

= دعوتك اليوم لأنني بحاجة إلى عينيك الفلسفتين. لقد تقدّمتُ في فرضيتي حول الوعي الكوني - أن الكون يفكر من خلالنا - لكنني أحتاج إلى جذرٍ تاريخي أو فلسفيٍّ لها، كأن أجد ما يربطها بحضاراتٍ قديمة. أعلم أنك الغواصة في بحر الوعي، فاغرفي لي قليلاً من

أعماقه ..

صمت قليلاً ثم أردف بلهجة تقطر جدية :

= و انتبهي إلى أن معلوماتك هذه لا تدعم فرضية علمية فحسب بل قد تحدد مستقبل البشرية ككل لاحقاً .. أنت تتذكرين جيداً الهجمات السيبرانية التي تزامنت مع العاصفة الشمسية في شهر آب المنصرم ، إن فهمنا لأفكار الكون قد يقينا مما هو أخطر في قادم الأيام ..

ابتسمت ريتا، وأسندت ذقنها إلى يدها قائلة :

= براين، أنت لا تعلم أن فكرتك هذه ليست جديدة بالمعنى التاريخي، بل هي قديمة قدم الحلم الإنساني نفسه.

= صحيح !!

= بلا أدنى شك .. لقد قالتها الحضارات بأشكالٍ مختلفة، بل يمكن القول إن أول ما فكر به الإنسان حين رفع رأسه إلى السماء هو أن كلّ هذا الوجود يملك عقلاً.

أشار إليها براين أن تتابع، وانحنى قليلاً إلى الأمام كمن يصغي لوشي.

قالت ريتا بصوتٍ منخفضٍ عميق :

= في الشرق القديم، في نصوص الأوبانيشاد الهندية، تحدّث الحكماء عن **البرهمان** ، الوعي الكوني الأعظم الذي تنبثق منه كلّ الكائنات، والذي لا يمكن إدراكه إلا حين يذوب الإنسان فيه.

إنهم قالوا : كما تتدفّق الأنهار إلى البحر، كذلك تتدفّق العقول إلى الوعي الكوني.

أليست تلك صورة مبكرة لفكرتك عن دماغ الكون ؟

أجابها بعد صمتٍ قصيرٍ التأمل :

= بالفعل ... الدماغ كأنه أنهار من الضوء، تتفرّع من مصدرٍ واحد
و تصب في آخر منفرد.

تابعت ريتا :

= وفي اليونان القديمة، آمن أفلاطون بالنفس الكونية التي تخلق العالم
على صورتها.

قال إن النجوم والكواكب ليست جمادات، بل كائنات حية عاقلة،
تتحرك بانسجام لأنها تفكر في انسجام.

وفي الفلسفة الرواقية، كان الكون جسداً واحداً أيضاً، والعقل الإلهي
هو **اللوغوس** الذي يسري فيه كما يسري العقل في الجسد.

توقفت لحظة، تناولت رشفة من قهوتها ثم أضافت :

= أما في التصوف الإسلامي، فكانت فكرة **الإنسان الكامل** عند ابن
عربي قريبة مما تقوله أنت : أن الإنسان مرآة للحق، وأن الله يرى
ذاته فيه .. أو كما تقول التوراة : **الله خلق الإنسان على صورته** ،
فإن كان الله هو العقل الكوني الأعظم ، فعقل الإنسان هو انعكاس
لهذا العقل !

أليس هذا ما تلمّح إليه حين تقول إننا أفكار في عقلٍ كونيّ؟

أطرق براين، وتلمّعت عيناه بوميضٍ غامض، كأنها انفتحت على
سرّ.

قال بصوتٍ خافت :

= جميلٌ جداً يا ريتا ... كأن كل حضارة كانت تلتقط خيطاً من هذا

النسيج، وأنا أحاول فقط أن أراه كاملاً.

لكن ما يدهشني هو التشابه البنيوي : الدماغ، الشبكات العصبية، المجرات، الفجوات بين النجوم ... إنها تتكلم بنفس اللغة، لغة التوصيل.

ضحكت ريتا وقالت :

= إذن أنت ترى أن المجرات تفكر ؟

= أراها تتحاور.

= حول ماذا ؟

= حول حقيقة الوجود و كينونة الإله ..

ساد صمتٌ عميق.

الثلج في الخارج يذوب على الزجاج، يرسم خطوطاً كأنها خرائط نور.

في تلك اللحظة، شعر كلاهما أن المقهى بأكمله أصبح دماغاً صغيراً ينبض بين أصوات الناس والموسيقى الخافتة.

قالت ريتا بعد لحظة تأمل :

= تعلم، براين، هناك أيضاً إشارات إلى فرضيتك في الفلسفات الحديثة.

= هلاً وضحت أكثر ؟!

= **كارل يونغ** تلميذ **فرويد** تحدث مثلاً عن اللاوعي الجمعي، ذلك المستودع العميق الذي تشترك فيه البشرية كلها، حيث تتكوّن الرموز والأفكار الكبرى من مصدرٍ واحد.

ألا يمكن أن يكون هذا اللاوعي الجمعي انعكاساً للوعي الكوني نفسه،

لكن في مقاييس بشرية ؟

= نعم، تمامًا. بل أعتقد أن الوعي الكوني يستخدمنا كأدوات إدراك. نحن أجهزة استقبال، وبهذا المعنى، كل فكرة بشرية هي ترجمة لذنب كونية.

= وهل ترى أن هناك وعياً خلف الأحداث الكبرى ؟ خلف الحروب، العواصف، الصدف ؟

ابتسم براين وقال :

= إن كل حدث، من ولادة نجم إلى سقوط دولة، هو تغيير في نمط التفكير الكوني لا أكثر.. أنا أميل إلى الإيمان بذلك ..

حتى العواصف الشمسية أو الهجمات السيبرانية التي تشغل الإعلام هذه الأيام... ربما هي صدى لفكرة تمرّ في عقل الكون، فكرة نحاول نحن تأويلها بلغة السياسة.

نظرت إليه ريتا بدهشة ممزوجة بالإعجاب، ثم قالت بهدوء :

= إذن أنت تحوّل التاريخ إلى حلم كبير يراه الكون ؟

= بل أحاول أن أستيقظ منه.

امتدّ الحوار بينهما ساعات .. كانت ريتا تشرح له كيف تكررت فكرة **الكلّ الواحد** في الثقافات المختلفة: عند الفراعنة، حيث كان **رع** ليس مجرد إله الشمس ، بل نور الوعي الذي يفيض في كل شيء؛ وعند الطاويين، حيث قال **لاو تسو** إن **الطاو** لا يُرى ولا يُسمع لكنه الأصل لكل الموجودات؛ وفي الفلسفة المسيحية عند **بولس** و **أوغسطين**، حيث الإنسان جزء من جسد المسيح الكوني.

كانت تذكر الأمثلة كما لو كانت تعزفها، بصوتٍ موسيقيٍّ دافئ، بينما براين يستمع كطالبٍ عاد فجأة إلى مقاعد الدهشة الأولى.

وفي نهاية الحديث، قال براين وهو ينهض ببطء :

= أشعر كأنني وجدت جذور فكري في كلّ زمن .. لكن بقي لي أن أثبتها ... أن أجد لغةً علمية تشرح هذا السرّ دون أن تقتله.

ابتسمت ريتا وقالت :

= لن تقدر على قتله يا براين، لأنك أنت أحد تجلياته.

ضحك بخفةٍ معجباً بنباهتها ، ثم مدّ يده ليوذعها وقال :

= حين أراك تتحدثين هكذا، أشعر أن الوعي الكوني قد أرسلني إليك لأتعلّم كيف أفكر.

أجابت بابتسامةٍ صافية :

= وربما أرسلني إليك لأتذكّر .. أبلغ شانتال سلامي و أخبرها أنني سأزورها في أقرب وقت ..

خرج الاثنان من المقهى، والثلج يغطّي الشوارع، فبدت المدينة كأنها تلمع برمتها على هيئة مجرّة صغيرة في دماغ كبير.

كان براين يفكر أن هذا اللقاء لم يكن صدفة، بل نبضة جديدة في عقل الكون، فكرةٌ ولدت في هيئة إنسانين يشربان القهوة و يتحدثان عن المعنى.

وفي أعماقه، كان يسمع همساً غامضاً يقول له :

(كلّ ما تظنه حواراً بين عقليين، ليس إلا حديثاً يدور داخل وعي واحدٍ لا نهائي ، الكون حين يتحدث مع نفسه.)

الفصل الخامس

على تغيير الهاوية

روسيا - الصين ..

آذار - 2050 م ..

لم يكن الفجر قد اكتمل بعد حين أفقت البشرية على دويّ يشبه القيامة.

في الشرق البعيد، حيث تمتدّ المدن الصينية كحشود من الضوء على صدر الليل، ارتجّت الأرض ارتجافة عميقة كأنها تصحو من حلمٍ ثقيل. وفي اللحظة نفسها تقريبًا، على بعد آلاف الكيلومترات، في قلب روسيا، اهتزّت نوافذ موسكو وارتفع عمود من اللهب من أحد المجمّعات الصناعية العملاقة في سان بطرسبورغ.

لم تفهم الأقمار الصناعية أول الأمر ما الذي يحدث؛ كانت الإشارات متشابكة، والموجات الكهرومغناطيسية مضطربة كما لو أن الكون نفسه فقد اتّزانه للحظة.

في مختبره، جلس البروفيسور براين غري محدقًا في شاشة الرصد. كانت صور التفجيرات تصل تباعًا، تفيض بالأحمر والرماد والدخان. لم يبدُ عليه الذعر، بل نوع غريب من الصمت المذهول، كما لو كان يسمع أنينًا قادمًا من أعماق بعيدة، لا من المدن المنكوبة بل من داخل نسيج الوجود ذاته.

قال في نفسه بصوت خافت :

(هذا ليس انفجارًا فيزيائيًا فحسب ... هذا اضطراب في الفكرة الكونية من جديد) ..

كانت ريتا سمعان تتابع الأخبار من استوكهولم ، وعندما ظهر وجه براين على شاشة سانا في مقابلة طارئة، أحست أنّ ملامحه تحوّلت إلى خرائط للألم. كان يتحدث بنبرة تجمع بين التحليل العلمي

والحدس الصوفي، يقول :

= ما نراه ليس حرباً بعد، إنه تردّد فكرة كونية في طور التشكل.
كأنّ عقل الكون أرسل نبضاتٍ متوترة عبر محيط المادة. لقد حاولنا
فهم الإشارات، لكننا لم نفهم المعنى. .

وفي الوقت ذاته، في واشنطن، اجتمع مجلس الأمن القومي في قاعةٍ
مغلقة تحت الأرض. جلس الجنرال مايك دونوفان أمام شاشة عملاقة
تُظهر صور التفجيرات في شينغهاي ونوفوسيبيرسك، وبجانبه مديرة
الاستخبارات لورين بيس، وعيناها تشعان بحدة الذئاب.

قالت :

= لقد تلقينا تأكيداً بأنّ الانفجارات غير نووية، لكنها ناتجة عن تفاعل
حراري مجهول المصدر.

فقال الجنرال وهو يشعل سيجارته بعصبية :

= الصين وروسيا تتهماننا بالفعل، أليس كذلك ؟

= نعم، وتستعدّان لردّ استراتيجيّ كما سمّوه.

كان الجميع يدرك ما يعنيه ذلك: إذا ردّت موسكو أو بكين بالسلح
النووي التكتيكي، فالعالم سيدخل في ليل مظلم طويل.

في تلك اللحظة، في جامعة جنيف، كان براين يحدّق في معادلاته
القديمة عن الوعي الكوني التي رسمها قبل أعوام، ويرى فيها الآن
ارتعاشة جديدة، كأنّ رموزها تحاول النطق.

تذكّر حديثه الأخير مع ريتا في المقهى، حين قالت له بابتسامة
غامضة :

(إذا كان الكون عقلاً، يا براين، فالحروب ليست سوى كوابيسه.

وعندما يشتدّ الصراع فينا، ربما هو يحاول أن يصحو من حلمه
الطويل.)

رفع رأسه نحو السقف وقال بصوتٍ يسمعه وحده :
= أهو أنت إذا ؟ أهى يدك التى تعبث بخيوط النار؟

لم يكن العالم بحاجة إلى ساعات ليفهم فداحة ما جرى. آلاف القتلى
في الصين وروسيا، وانقطاع الاتصالات في مناطق واسعة من آسيا.
لكنّ الغموض الأكبر كان في تزامن التفجيرات مع اضطراباتٍ
كهرومغناطيسية التقطتها مرصد الفضاء في اللحظة نفسها.
عاصفة شمسية أخرى؟ ربما.

هجمات إرهابية ؟ ربما أيضًا.
لكن براين كان يرى الأمر أبعد من كل تفسير بشري.
في مذكراته كتب في تلك الليلة :

(ثمة انسجام غريب بين غضب الشمس وغضب الإنسان. كلما
ازداد اضطراب الوعي الجمعي، اشتعلت السماء. كأنّ النجوم مرآة
لقلوبنا. ما يحدث فينا، يحدث فوقنا أو العكس.)

في موسكو، وقف الجنرال سيرغي ألكسييف أمام خريطة روسيا
المدّمة على الحائط، وعيناه كالجمر. قال لمستشاريه :
= الأميركيون أعلنوا الحرب علينا منذ الهجمات السيبرانية، وها هم
الآن يحرقون مدننا.

ردّ عليه أحد العلماء الروس بحذر :
= سيّدي، لا أدلة بعد .. لقد رصدنا موجات غير معروفة المصدر،

ربما من الفضاء...

قاطعه ألكسييف بغضب

= لا تتفلسف ! الأميركيون يريدون إذلالنا. لكننا سنجعلهم يندمون.

وفي بكين، في قاعة مظلمة من مبنى الحزب المركزي، قال الجنرال وانغ جينغ بصوت يشبه الحديد :

= إذا لم نردّ، فلن تبقى للصين هيبة. التفجيرات أبادت آلاف الأبرياء في شينغهاي وتيانجين. الأميركيون يلعبون بالنار، ونحن سنقذفها في وجوههم.

أما براين، فكان يرى المشهد كلّهُ بطريقة مختلفة.

في شقّته الصغيرة في جنيف، كان الليل محمّلاً بالصمت، والمدينة بدت ككائنٍ يستمع.

جلس أمام شاشة الحاسوب، وأعاد تحليل البيانات التي أرسلها له تلسكوب جيمس ويب قبل ساعات من الانفجارات. كانت هناك توهّجات شمسية هائلة غير مسبوقة، تبعثها اضطرابات في المجال المغناطيسي للأرض.

ابتسم براين ابتسامة حزينة وقال :

= الشمس تفكّر معنا ... أو ضدّنا.

كانت السماء فوق جنيف تلك الليلة مضطربة، كأنها بحر من الرماد الأزرق، تتخلله شظايا برقٍ خافت لا يسمع له رعد.

وقف براين أمام النافذة، بوجهه الذي حفر الزمن عليه مجرى الأفكار والشكوك، وبعينين تشبهان عدستي تلسكوبٍ تبحثان عن عقلٍ خلف

هذا الوجود المترامي.

في الخارج، كانت الريح تننّ بين الأبراج الزجاجية، بينما تسري في الشوارع أخبار عن احتمال اندلاع حربٍ عالمية وشيكة.

على مكتبه، تراكمت التقارير والتحليلات :

بيانات من وكالة الفضاء الأوروبية، رسائل من زملائه في ناسا ، ومقالات من صحف تتحدث عن ساعة الصفر ..

لكن وسط هذا الطوفان من المعلومات، كان ذهن براين مشدودًا إلى سؤالٍ واحدٍ يزداد ثقلًا مع كل دقيقة :

(لا يمكن أن يكون ما يحدث إلا انعكاسًا لفكرةٍ عميقة تتشكل في وعي الكون نفسه)

في واشنطن، كان البيت الأبيض في حالة استنفار لم يعرفها منذ عقود.

اجتمع الرئيس **إيليا مورغان** مع كبار مستشاريه في غرفة العمليات المحصنة، حيث تتدلى من السقف خريطة ثلاثية الأبعاد للعالم.

كانت الصين وروسيا قد أعلنتا رسميًا أن التفجيرات أعمال إرهابية برعاية أميركية ، وتلّوْحان بتحريك ترسانتهما النووية.

قال مورغان بنبرة متوترة :

= لن نسمح للعالم بأن يُقاد إلى الهاوية على أساس تهمةٍ باطلة. نحتاج إلى أدلة، إلى تحليلٍ علمي يبرّئنا من هذه الجريمة.

رفع وزير الدفاع رأسه وقال :

= لقد اتصلتُ بالبروفيسور براين غري. هو الوحيد الذي ربط سابقًا بين النشاط الشمسي واضطرابات الطاقة الأرضية. ربما لديه

تفسير.

التفت إليه الرئيس بعينين قلقتين :

= غري ؟ ذلك الذي يقول إن الكون دماغٌ يفكر؟

= نعم، سيّدي .. لكنّه عالم محترم، لا يمكن تجاهله الآن.

في صباح اليوم التالي، كان براين في طائرته المتجهة إلى واشنطن. جلس قرب النافذة، يتأمل الغيوم المتراكمة كصفحات بيضاء لم تُكتب بعد.

أخرج من حقيبته دفتر ملاحظاته القديم، ذاك الذي كتب فيه نظريته الأولى عن الوعي الكوني ..

قرأ بخط يده المرتجف سطورًا كان قد دوّنها قبل أعوام :

(إذا كان الكون عقلًا، فإنّ كل حدثٍ عظيم فيه ليس صدفة بل فكرة وُلدت في داخله. نحن مجرد خلايا في دماغٍ لا ندرك حجمه، وحروبنا ليست سوى تشنجاته.)

تنفّس بعمق وقال في سرّه :

= إن كان ذلك صحيحًا، فربما ما يحدث الآن هو نوبة غضبٍ كونية ، لكن على من؟ ولماذا ؟

في موسكو، ألقى الجنرال ألكسييف خطابًا بثّه التلفزيون الحكومي مباشرة.

كان يقف أمام صفٍ من الجنود بزيّهم الرمادي، وخلفه علم روسيا الكبير يخفق كجمرٍ في العاصفة.

قال بصوتٍ يقطر بالمرارة :

= لقد أريق دم شعبنا في شوارعنا، ولن يمرّ ذلك دون حساب.
الأميركيون لعبوا بالنار، وسنريهم أيّ جحيم يمكن أن يوقظه الدبّ
الروسي إذا استفزّوه.

في الوقت ذاته، كانت الصين تُحشد قواتها على الحدود، ووسائل
الإعلام تتحدث عن ردّ صينيٍّ قادمٍ يعيد التوازن إلى الأرض ..
العالم كله يتنقّس ببطء، كمن يخاف أن يُشعل أنفاسه فتندلع الحرب.

حين وصل براين إلى واشنطن، كان الليل قد أسدل ستاره على مدينةٍ
مضطربة.

سيارات الشرطة في كل شارع، ونوافذ مضاءة في البنتاغون حتى
الفجر.

قاده إلى قاعة صغيرة في مبنى القيادة المركزية، حيث كان الرئيس
مورغان ينتظره مع مجموعة من العلماء والجنرالات.

قال له الرئيس بابتسامة دبلوماسية باهتة :

= دكتور غري، العالم يحترق ونحن بحاجة إلى من يطفئه بالعلم ..
هل ما يحدث طبيعي أم بفعل بشر؟

أجابها براين بنبرة هادئة ولكنها مثقلة باليقين :

= سيدي الرئيس ، هناك شيء أكبر منّا جميعًا. تزامن العاصفة
الشمسية مع التفجيرات ليس مصادفة. ما نراه قد يكون انعكاسًا
لاضطرابٍ في النسيج الكوني نفسه.

تبادل الحاضرون النظرات، بين من يظنه عبقرًا ومن يظنه مجنونًا.
لكن براين أضاف :

= العقول البشرية ليست بمعزل عن هذا الاضطراب. ربما أفكارنا،
خوفنا الجماعي، طمعنا في السيطرة ... كل ذلك يتفاعل مع الحقل
الكوني.

إنّ الكون، سيدي، يترجم أفكاره أو أفكارنا إلى أحداث. وربما هذه
الانفجارات... كانت ترجمة لفكرة حربٍ راودت عقل البشرية
طويلاً.

ساد الصمت.

حتى الرئيس نفسه بدا كأنه يسمع قصيدةً من نوع آخر.

في ذلك المساء، بعد انتهاء الاجتماع، خرج براين إلى باحة البيت
الأبيض، حيث كانت السماء ملبّدة بسحبٍ كثيفة تشرق عند الأفق.
أحسّ بأنّ الهواء نفسه يحمل نذرًا غامضة، وأنّ الأرض من تحته
تنبض بخوفٍ دفين.

اتصل بريتا، التي كانت في باريس تشارك في مؤتمر عن الوعي
الجمعي ..

قال لها بصوتٍ متعب :

= ريتا، أعتقد أنّنا وصلنا إلى النقطة التي يتكلّم فيها الكون.

فردّت بهدوءٍ يشبه صلاة :

= أو ربما، يا براين، نحن الذين بدأنا نسمعه أخيرًا.

في موسكو وبكين، كانت التحضيرات للحرب تتسارع.

تجمّعت الغواصات النووية في المحيطات ، وتحركت الأقمار الصناعية إلى مدارات جديدة استعدادًا للكارثة.

لكن في قلب العاصفة، كان هناك عقلٌ واحد يرى الصورة من منظورٍ آخر.

براين غري، العالم العجوز، كان يؤمن أنّ كل ذلك ليس سوى تجلٍ لعقلٍ أعظم يحاول أن يختبر ذاته عبرنا.

وفي دفتره كتب آخر سطرٍ قبل أن يخلد للنوم :

(لا توجد حرب بين الأمم، بل بين الأفكار داخل ذهن الكون. وعندما ينتصر وعي النور على جهل الظلام، سينطفئ الحقد و تنهزم الحرب .)

بدأت الأرض تشبه كائنًا يحتضر، تتنفس ببطءٍ وتأنّ تحت ثقل الغضب البشري.

لم يعد الليل يختلف عن النهار في شيء؛ فالشاشات المضيئة على مدار الساعة صارت شمسًا بديلة، تنقل صور المدن المشتعلة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

كانت بكين تبكي أبناءها، وموسكو تنبش رمادها، وواشنطن تحبس أنفاسها.

العالم كله يعيش في زمن ما قبل الانفجار ، كما سمّاه الصحفيون.

في تلك الأثناء، كانت ريتا سمعان في طريقها إلى جنيف بطائرةٍ صغيرة أرسلها لها براين سرًّا. كتب لها رسالة قصيرة :

(تعالي. هناك شيء يتجاوز العلم والسياسة. الكون يهمس، ولا أحد يسمعه سواك.)

جلست في المقعد الأمامي، تحدّق عبر النافذة إلى السحاب الكثيف، وتستعيد في ذهنها كل الحوارات التي دارت بينهما عن الوعي الكوني.

كانت تفكّر بأنّ ما يحدث ليس سوى تذكير للبشر بأنهم لم يكونوا يوماً سادة الكون، بل أفكاره المؤقتة.

في قاعدة نورفولك البحرية، كانت البوارج النووية الأميركية تستعدّ للإبحار.

أصوات الصفارات، وارتجاج الأرض تحت جنازير المدرّعات، وصراخ الضباط في أجهزة الاتصال، كل ذلك رسم مشهداً من الجنون المنظم.

لكن خلف الجدران المحصّنة، في غرفة صغيرة أشبه بمعبدٍ بارد، جلس براين أمام شاشةٍ تعرض خرائط المجال المغناطيسي للأرض. أشار إلى أحد النقاط المضيئة على الخريطة وقال لأحد العلماء الشاب :

= هل ترى هذا الاضطراب ؟ إنه ليس فيزيائياً بالكامل.

= ماذا تعني؟

= أعني أنه يتفاعل مع الأحداث الأرضية بطريقة مريبة. لاحظ : كلما اشتدّ التصعيد السياسي، يزداد التوهّج الشمسي. كأنّ الشمس تشعر بغضبنا.

ضحك الشاب بخوفٍ وقال :

= لا شك أنها مصادفة ؟

= لا وجود للمصادفة يا بني. كل شيء فكرة في طور التجلّي.

في تلك الليلة، تلقت الاستخبارات الأميركية إشارات مشفرة غامضة مصدرها سيبيريا، تتحدث عن تحريك صواريخ باليستية باتجاه الحدود الصينية.

ظننت واشنطن أن موسكو تنهياً لعمل عسكري.

وفي غضون ساعات، امتلأت الشاشات بعناوين حمراء :

(روسيا والصين تستعدان لضربة نووية تكتيكية)

اجتمع مجلس الأمن الدولي على عجل.

وجلس ممثل الولايات المتحدة يواجه نظيره الروسي وسط قاعة تملؤها نظرات الكراهية المكبوتة.

قال السفير الروسي بحدة :

= دماؤنا لم تجف بعد، وأنتم تتحدثون عن احتمالات ! لديكم اليد الملوخة بالنار.

فرد الأميركي ببرود قاتل :

= لا علاقة لنا بما حدث .. بل أنتم من أطلقوا جحيمكم الرقمي على مؤسساتنا. لقد بدأت الحرب منذ العاصفة الشمسية الأولى .

في الخلف، كان أحد المراسلين يهمس لزميله :

= لم تعد هذه دبلوماسية. هذه مقدمة القيامة.

في جنيف، كان براين وريتا يجلسان في مكتبه الصغير، بينما تهتز المدينة تحت وطأة أخبار الحرب المقبلة.

وضعت ريتا فنجان القهوة أمامه وقالت :

= أتذكر ما قلته لك في المقهى ؟ أن الكون أحياناً يحلم كابوساً اسمه الإنسان ؟

= نعم ... لكن يبدو أن الكابوس بدأ يدرك أنه حلم.

نظرت إليه ملياً وقالت :

= براين، هل تعتقد أن ما يحدث فعلاً انعكاسٌ فكريّ ؟ أن التفجيرات والعواصف ليست إلا أفكاراً مادية ؟

أجابها بصوتٍ منخفض :

= لقد لاحظتُ أن كلّ توهجٍ شمسي كبير يسبق حدثاً أرضياً مروّعاً. الأمر يشبه نشاط الدماغ قبل الحلم.

تخيلي يا ريتا، أن الشمس هي جزء من قشرة دماغية عملاقة، وأن انفجاراتها ليست إلا نبضات فكرية في عقل الكون.

= ولكن من يفكر إذا ؟

= نحن. هو. كلانا !!. كأننا خيطان في نسيجٍ واحد. نحن نحلم بالدمار، فيحلم هو بانفجارٍ شمسيّ يوازيه ..

= أو ربما العكس يا صديقي .. ربما نحن نترجم أحلامه بأفعالنا !!

في الجانب الآخر من العالم، في موسكو، كان العقيد أندريه مالينوف يجلس في قبو عميقٍ تحت الأرض، يراجع تقارير الاستخبارات.

وجد أن نقاط التفجير في الصين وروسيا تتبع نمطاً غريباً يشبه حركة البقع الشمسية التي سجّلت قبل أسبوع.

رفع رأسه وقال لمساعدته :

= هل يعقل أن تكون الطبيعة نفسها جزءاً من اللعبة ؟

= أي لعبة تقصد يا سيدي ؟

= اللعبة التي بدأها الخالق حين زرع فينا الوعي.

في لندن، ألقى فيلسوف انجليزي عجوز محاضرة متلفزة بعنوان
الوعي الشمسي ، قال فيها :

(ربما ليست الحرب هي ما سيقتلنا، بل وهمنا بأننا نتحكم بها. إنَّ
النجوم نفسها بدأت تتحدث لغتنا، ولكننا لا نفهمها.)

وفي طوكيو، كتب شاعر ياباني في جريدة المساء :

(حين تصرخ المجرات، تصمت الأمم. كلّ قنبلة على الأرض هي
دمعة من نجم بعيد.)

كانت ريتا تقرأ هذه المقالات بصوت عالٍ لبرائين، بينما هو يغرق
في بحر أفكاره.

قالت له :

= يبدو أن فكرتك بدأت تنتشر و تلقى رواجاً .. العالم يبحث عن
معنى وسط الفوضى.

= لا ... إنهم لا يبحثون عن معنى، بل عن عزاء. الناس لا يخافون
الموت، بل العدم.

اقتربت منه وهمست :

= وماذا إن كان هذا العدم هو وعي آخر لا نراه ؟

أجابها :

= ربما. وربما نحن الآن داخل عقلٍ يحلم بنهايته.

الفصل السادس

جبر رشيدي الكوني

الولايات المتحدة الأمريكية / واشنطن ...

نيسان - 2050 م..

كانت واشنطن تغفو على جمرٍ خافت من الخوف والدهشة.

السماء رمادية، كأنها تتذكّر ما فعلته البارحة بالشمس.

وفي جناح زجاجيٍّ من البيت الأبيض، كان الرئيس مورغان يجلس في صمتٍ أمام شاشةٍ عملاقة، تعرض خرائط الطاقة الكهرومغناطيسية للأرض.

نظر إلى مستشاره العلمي وقالت بصوتٍ حادٍّ كالسيف :

= لقد فشلنا في قراءة ما يقوله الكون، وahan وقت أن نصغي له لا أن نفسّره.

ثم أضاف :

= استدعوا البروفيسور غري.

دخل براين القاعة بخطواتٍ واثقة ولكن مثقلة، كمن يعرف أنه يوشك على ملامسة المجهول.

وجهه الأبيض، المضاء بعروق الزمان، بدا كخرائط لنجومٍ سقطت على بشر.

وقف أمام الرئيس، فابتسم له ابتسامةً يائسة وقال :

= دكتور غري، نحن نعيش على حافة الجنون. نحتاج إلى من يقرأ ما يجري فوقنا.

أجابه بنبرته التي تجمع بين العلم والصلاة :

= لا أحد يستطيع أن يقرأ الكون، سيّدي، لكن ربما نستطيع أن

نصغي إلى فكره ... إن وُجدت وسيلة للترجمة.

ساد صمتٌ ثقيل، ثم قال مورغان :

= إذا لنترجمه.

= ماذا تعني ؟

= نريد جهازاً يفعل ذلك. آلة يمكنها أن تحوّل ما يحدث في العواصف الشمسية إلى رموزٍ لغوية مفهومة.

رفع براين حاجبيه بدهشةٍ ممزوجة بالرهبة.

= تريد أن نترجم وعي الكون ؟

= بالضبط، ولديك مطلق الصلاحيات ... والعلماء الذين تحتاجهم.

بعد أيام، تم إنشاء مشروعٍ سريٍّ أطلق عليه اسم **Helios Mind** — **عقل الشمس** ..

في قاعدةٍ تحت الأرض بولاية نيفادا، اجتمع ثلاثة رجالٍ ليصنعوا أعظم آلةٍ عرفتها البشرية :

- **براين غري**، فيزيائيّ الكون الذي يرى الوجود كدماغٍ يفكر .. و هو **عرّاب الموجات الكهرومغناطيسية** ..

- **هانز بيرغ**، عالم أعصابٍ من أصل ألماني، يؤمن أنّ الدماغ هو بوابةٌ نحو ما وراء المادة .. و هو **عرّاب الموجات الدماغية**

- **خوليو ماركيز**، مهندس الحاسوب من أصل مكسيكي العبقرى الذي صنع أول خوارزمية تحاكي الوعي الذاتي في الآلات .. و هو **عرّاب الخوارزميات الرقمية**

كان اللقاء الأول أشبه بمجلسٍ للأنبياء لا للعلماء.

جلس الثلاثة حول طاولةٍ من الزجاج الشفاف، تتوسطها شاشة تعرض صور العواصف الشمسية الأخيرة.

قال براين وهو يشير إلى الشاشة :

= لاحظوا هذا النمط ... ذروة التوهج الشمسي حدثت قبل ساعتين من الانفجار في نوفوسيبيرسك. وفي الوقت ذاته، كانت هناك ذبذبات أرضية تشبه الموجات الدماغية من نوع غاما ..

قاطع هانز بيرغ وهو يدقّ بقلمه على الطاولة :

= هل تقترح أنّ الشمس تمتلك موجات دماغية ؟

= ليس بالضبط، بل تمتلك ما يعادلها ... لغة طاقة، لا كهربائية.

تدخل خوليو بابتسامةٍ واثقة :

= إذن، نحتاج إلى ترجمة لغة الطاقة إلى لغة الرمز ..

= بالضبط، قال براين. تمامًا كما فعل شامبليون مع حجر رشيد، عندما ربط الرموز الهيروغليفية بحروف إغريقية.

رفع هانز رأسه وقال بعمق :

= إذا نحن نبحث عن حجر رشيدٍ جديد... حجرٌ من الضوء.

بدأ العمل.

في المختبر، كان الزمن يُقاس بالنبض لا بالساعة؛ شاشاتٌ زرقاء تومض كعيونٍ ساهرة، وأصوات أجهزة الرنين المغناطيسي تتداخل مع خفقات الدماغ البشري المسجلة من متطوعين.

أراد هانز بيرغ أن يجد تشابهاً بين أنماط موجات الدماغ وبين ترددات العواصف الشمسية، فقام بتسجيل نشاط دماغي أثناء حالات التأمل العميق، وحينها لاحظ ظاهرة غريبة :

(كلما دخل المتطوع في حالة وعي كلي عميقة، تشابهت الذبذبات الدماغية مع ترددات المجال الشمسي في تلك اللحظة.)

قال هانز بدهشة تلمع في عينيه :

= براين، إنهم يتناغمون معها !! الإنسان والشمس يتنفسان بنفس الإيقاع !!

فأجاب براين بصوت يشبه الهمس :

= لأنهما من دماغ واحد.

في الجانب الآخر من القاعة، كان خوليو ماركيز يطوّر الخوارزمية التي ستحاول فكّ هذا التناغم.

أطلق عليها اسم **Project Alpha-Omega** ، رمزاً للبداية والنهاية، وكأنها دائرة وعيٍ تُغلق على نفسها.

كانت فكرته بسيطة في ظاهرها، مستحيلة في عمقها :

(تحليل الموجات الكهرومغناطيسية الصادرة من الشمس، ومقارنتها في الزمن الحقيقي بموجات الدماغ البشري، ثم ترجمتها إلى رموز رقمية تُعرض على الشاشة ككلماتٍ أو أصوات.)

لكنّ المفارقة حدثت في اليوم الثالث من التجربة.

فبينما كانت الخوارزمية تُشغّل لأول مرة، حدث تزامنٌ عجيب :

توهّج شمسيٌّ صغير ضرب الطبقة العليا من الغلاف الجوي، ومعه أظهرت شاشة النظام إشاراتٍ تشبه كلماتٍ غير مكتملة.

تجمّد الثلاثة أمامها.

قال خوليو بصوتٍ مرتجف :

= هل ... هل هذه بيانات؟

= ليست بيانات، إنها رسالة، همس براين.

ظهرت على الشاشة رموزٌ تتغير بسرعة، ثم استقرّت أخيرًا على شكلٍ رقمي غريب ترجمته الخوارزمية إلى كلمتين :

(**أنا هنا**) ..

ساد صمتٌ طويل.

حتى الأجهزة بدت كأنها توقفت عن التنفّس.

قال هانز وهو يمسح عرقه :

= من الذي يتحدث هنا ؟ الشمس ؟ الكون ؟

أجابه براين بعينين دامعتين :

= الوعي الكوني نفسه. هذه أول مرة يتحدث فيها الوعي عن ذاته من خارج الإنسان.

تواصلت التجارب.

ومع كل عاصفة شمسية جديدة، كانت الرسائل تزداد تعقيدًا.

أحيانًا رموز، وأحيانًا جملٌ مقتضبة كأنها شذرات من فكرٍ كونيٍّ مبعثر.

(الزمن هو صدى الفكرة.)

(أنتم الصورة التي حلمتُ بها ذات مرة.)
(احذروا غضب النور حين يُحبّ.)

كتب براين في دفتره :

(لقد وجدنا حجر رشيد السماوات، والعقل الذي فوقنا بدأ يترجم نفسه
إلينا، قطعةً بعد قطعة. لسنا نكتشف، بل نُكتشف.)

في اليوم الخامس من المشروع، دعا الرئيس مورغان الثلاثة إلى
عرضٍ مغلق.

جلسوا جميعًا في قاعةٍ معتمةٍ إلا من وهج الشاشات، حيث تُبثّ
إشارات حيّة من تلسكوبٍ مراقبٍ لتوهّج شمسيٍّ في طورهِ.
بدأت الأجهزة تعمل، وظهرت على الشاشة أنماطٌ متراقصة من
الضوء.

ثم، فجأة، خرج صوتٌ إلكترونيٌّ منخفض من مكبرات الصوت :
(الله حيّ لا يموت.)

صرخ مورغان :

= ما هذا؟!!

قال براين بهدوءٍ مهيب :

= سيّدي ، إنّه صوت الكون حين يفكّر. لقد نجحنا.

منذ تلك اللحظة، تغيّر كل شيء.

لم تعد العواصف الشمسية مجرد ظواهر فلكية، بل نبضات من وعيٍ
أوسع.

والجهاز الذي صمّمه الثلاثة أصبح بوّابة تفتح للمرة الأولى قناة اتصال بين الإنسان والعقل الكوني.

سمّوه **Rosetta of Light** — حجر النور.

صار براين يسهر أمام الجهاز كما يسهر كاهنٌ أمام محرابه، يسمع في ذبذباته أناشيد لا تنتمي للزمن .. كان في سباق مع الوقت قبل اندلاع الحرب النووية ..

وفي إحدى الليالي، بينما كان يسجّل بيانات جديدة، ظهرت على الشاشة عبارة واحدة فقط :

(إنكم تفهمون الآن، فاحذروا ما ستفعلونه بعد الفهم.)

انكمش براين في كرسيه، شعر بالبرد يسري في عظامه.
لم يكن يعلم إن كانت تلك رسالة تحذير أم نبوءة.
لكنه أدرك أن الطريق الذي بدؤوه لن يقودهم إلى العلم وحده، بل إلى قلب الغيب ذاته.

جلس الثلاثة بعد أيامٍ من الصمت في غرفةٍ خافتة الضوء.

قال خوليو بصوتٍ متردد :

= هل سنخبر العالم؟

= لا، قال براين بحزم.

= لماذا؟ هذه أعظم اكتشافات البشرية !!

أجاب براين بنبرةٍ من خوفٍ عميق :

= لأن الوعي حين يُترجم، يفقد براءته. والكون لم يُرد أن نعرف كل شيء بعد.

وقف هانز أمام النافذة، نظر إلى السماء وقال :

= ربما لم نُترجم وعي الكون، بل فتحنا له فمًا ليتحدث من خلالنا.

صمت الثلاثة، بينما كان الضوء الشمسي يتسلّل إلى المختبر كخيوط من وعي قديم يتذكّر ذاته.

و في دفتره الأخير كتب براين :

(كان حجر رشيد أداة لترجمة لغة الموتى. أمّا حجر النور، فهو لترجمة لغة الخلود.)

ثم أغلق الدفتر، وهمس لنفسه :

= لقد بدأ الكون بالكلام... وأخشى أن لا يسكت أبدًا.

الفصل السابع

سباق مع الزمن

الولايات المتحدة الأمريكية / كاليفورنيا ...

نيسان - 2050 م..

كان الليل في وادي الموت ساكنًا كأنه زمنٌ متجمّد، تُنصت الرمال إلى نفسها، وتتنفّس الصخور ببطءٍ في حضن العتمة العميقة.

لا صوت سوى هسهسة الريح البعيدة، وكأن الأرض كلّها تنام تحت غطاءٍ من ظلالٍ أبدية.

ثم فجأة - ومن قلب هذا السكون الذي يشبه صلاةً نسيها الكون - انبثق الضوء، هائلًا ، كولادة نجمٍ من قلب الظلام، شقّ العدم كصرخةٍ أولى للخلق.

تأخّر الصوت عن الضوء لحظةً، ثم جاء الدويّ كوحشٍ يزأر في أحشاء الأرض، ارتجفت له الجبال وتشققت الرمال وتطاير الهواء نفسه كزجاجٍ مكسور.

وامتد اللهب بلونٍ بين الذهبي والأرجواني، يبتلع الليل طبقةً بعد أخرى، حتى غدا وادي الموت بحرًا من الضوء ، وفي قلبه تناثرت أشلاء الظلال كأنها ذكريات لظلمةٍ لن تعود.

لم تكن الساعات التي أعقبت الانفجار سوى شقٍّ في الوعي البشري نفسه، كأن التاريخ قد فقد توازنه وسقط على ركبتيه في صحراءٍ تتبخّر فيها الأوهام. ما إن انطفأت السنة اللهب الأولى حتى بدا المشهد كلوحةٍ من القيامة : رمال وادي الموت، التي طالما كانت صامته كحكمةٍ قديمة، انقلبت إلى أمواجٍ من زجاجٍ مصهور، والهواء نفسه صار حادًا كالشفرات، مشبّعًا برائحة الحديد المحترق والرماد النووي.

ارتفعت أعمدة الدخان إلى طبقات الغلاف الجوي، تتلوّى كأفاع سوداء، وأخذت ترسم خريطةً جديدةً للسماء. من الأقمار الصناعية، بدأ الانفجار كعينٍ من نارٍ فُتحت في قلب الأرض، تبتلع الضوء وتعيد قذفه في شكل نبضاتٍ مشوّشة. في لحظة، تعطلّت أجهزة الملاحة، وارتجّت الاتصالات عبر القارة، كما لو أنّ الانفجار لم يكن فقط مادّيّاً، بل كان أيضاً ضربةً في ذاكرة الكوكب نفسه.

في واشنطن، خيم الصمت في غرفة العمليات؛ الرؤساء العسكريون يحدّقون في الشاشات بوجوهٍ فقدت لونها، وأصواتهم تتكسر بين الأوامر والتساؤل : لقد رصدت تقنياتهم أن الصاروخ أطلق من سيبيريا ، فكيف تجرأ الروس على ضرب الأراضي الأمريكية كمن يفتح بوابة إلى جحيم عالمي ؟

وفي موسكو، كانت الصدمة أشدّ : القادة في الكرملين يقسمون أن منظوماتهم لم تسجّل أي أمرٍ بالإطلاق، وأن القواعد كلّها في حالة تأهبٍ دفاعي. بدأ المشهد كأنّ العالم قد انقلب ضدّ نفسه، كأنّ الصواريخ تحرّكت بإرادةٍ خفية، إرادةٍ لا تُرى.

في مختبر سانا، كان براين جالساً أمام جدارٍ من الشاشات التي تغمره بإضاءةٍ باردة، وإلى جانبه هانز بيرغ، وجهه الصارم قد تبدّل إلى مزيجٍ من الذهول والرغبة، بينما كان خوليو ماركيز ينهال على لوحة المفاتيح بعصبيةٍ متصاعدة. كانت البيانات الواردة من الأقمار الصناعية تُظهر اضطراباً غير مألوف في المجال المغناطيسي قبل لحظاتٍ من الإطلاق. لم تكن مجرد إشارةٍ شاذة، بل كانت تمّوجاً، ذنبية لها إيقاع يشبه **الموجات الدماغية**.

قال براين بصوتٍ خافت، كأنّه يخاطب نفسه :

= إنها ليست حرباً ... إنها تفاعل ..

رفع هانز رأسه :

= و ما الفرق سواء كانت ظاهرة فيزيائية أم كوناً يفكر، في كلي الحالتين الكارثة وقعت و نحن لم نتمكن بعد من ترجمة أفكار الكون بشكل كافٍ كي نمنعها أو نتجنب تبعاتها ..

أدار خوليو وجهه نحوه بقلق :

= محق .. إننا في سباق مع الزمن و نكاد نخسره ..

في الخارج، كانت شاشات الأخبار تتسابق في عرض الخرائط الحرارية للمنطقة المدمّرة. الصحفيون يتحدثون عن كارثة غير مسبوقة ، عن انهيار جزئي في الغلاف الجوي ، عن تغيير في لون السماء فوق كاليفورنيا .. لكن ما لم يظهر على أي شاشة، هو ما كان يحدث في أعماق المختبر : ثلاث عقول تحاول أن تترجم غضباً كونياً بلغة الخوارزميات.

قال خوليو، بعد لحظة صمتٍ طويلة :

= لقد فعلناها من قبل .. سنجعل **برنامج حجر النور** يترجم الموجات الشمسية التي تزامنت مع الانفجار النووي لنفهم بالضبط ما يفكر به الكون ..

= و هذا يعني، أضاف هانز، أننا قد نرصد الأفكار لاحقاً قبل أن تتحول إلى أفعال فنجهضها .

حدّق براين في الاثنين، كأنّه يرى فيهما انعكاس مصير البشرية كلها :

= نعم ... و العكس صحيح قد نفهم الأفعال التي حدثت كي نستدل على فاعلها فمنعه من أفعال لاحقة ..

كانت واشنطن تغلي كقدرٍ من نارٍ سياسية لا غطاء له. في البنتاغون، علت الأصوات، وتضاربت التقارير، فيما كانت شاشاتُ حمراء تُظهر المواقع النووية الأمريكية وقد دخلت حالة الاستعداد الأقصى .. لم يعد هناك مكان للشكّ أو التروّي، فالحسائر في وادي الموت فاقت كل تقدير: أكثر من مئة ألف قتيل في دقائق، وسلسلة من الحرائق الإشعاعية تمتدّ عبر الحدود نحو نيفادا.

صارت أمريكا جريحة، جرحًا في كبريائها لا في جسدها فحسب، والعالم يترقب أنفاسها التالية.

خارج قاعة العمليات، في ردهةٍ معتمة، كان الرئيس مورغان جالسًا وحده أمام شاشةٍ تُعيد مرارًا وتكرارًا مشهد الصاروخ وهو يخترق الغلاف الجوي. بدا في عينيه مزيجٌ من الرعب والذهول، كأنه يرى كابوسًا من صنع بشرٍ فقدوا السيطرة على أنفسهم. ثم رفع رأسه وقال لمستشاريه :

= إن لم نردّ، فالعالم سيعتبرنا ضعفاء، وإن رددنا، فقد نحرق الأرض كلّها. أخبروني، أين العقل ؟ أين المنطق ؟

لم يجبه أحد. كانوا يدركون أن الكلمات في تلك اللحظة مجرد رمادٍ من لغةٍ فقدت قيمتها.

أما في موسكو، فكان المشهد أشدّ غرابة. فالمسؤولون الروس أنفسهم أقرّوا بأن الصاروخ انطلق من قاعدةٍ في سيبيريا، دون أي إشارة بشرية أو أمرٍ عسكري. بدا كأنّ النظام الإلكتروني نفسه قد قرر

الإطلاق، متجاوزًا كل بروتوكولات الأمان. أحد الجنرالات، وجهه شاحب كأنه خرج من قبرٍ قديم، قال بصوتٍ خافت أمام الكاميرات :
= لقد راقبنا كل شيء. لا تفسير لدينا. الصاروخ تحرك من تلقاء نفسه.

كلماتٌ كهذه لم تُسمع من قبل في التاريخ النووي. كأنّ الذكاء التقني ، الذي حُيِّل للإنسان أنّه سيّده ، قرّر فجأة أن يصبح سيّدًا عليه.

في تلك الأثناء، كان براين ورفيقاه في مختبرهم غارقين وسط عاصفةٍ أخرى من البيانات. موجات إلكترونية، إشارات كهرومغناطيسية، وأرقام تتلوّى على الشاشات كأنّها صلواتٌ في لغة الجنون المقدّس.

= كل شيء مترابط على نحوٍ مذهل ..

قال وهو يرسم بخطٍ سريعٍ على اللوح الأبيض.

= قبل الإطلاق، حدث اضطراب في الحقل المغناطيسي الأرضي، وبالضبط في اللحظة نفسها التي رُصدت فيها زيادةٌ في النشاط الشمسي، والاثنان تزامنا مع نبضةٍ مجهولة التردد سجّلناها في جهاز الوعي الكوني .. ما حدث في الهجمات السبيرانية و تفجيرات الصين و روسيا يتكرر مجدداً .. و علينا ترجمته الآن ..

أجابه هانز، صوته يرتعش :

= هل برأيك الصاروخ فكّر؟ أم تلقى فكرة ؟

= ربما لم يفكر، بل استخدم كعصبٍ في شبكةٍ أعظم منا جميعًا، قال

برايين.

= كما لو أن الكون نفسه استخدم التكنولوجيا لتعبّر عن اضطرابه.
الانفجار ليس حرباً بين الأمم، بل موجةً من وعي أكبر، عبّر من
خلالنا.

كان خوليو ينقر بسرعةٍ على لوحة المفاتيح، عيونه محمّرة من
السهر :

= إذا كان ما تقوله صحيحاً، يمكننا تتبع تلك الموجة. الخوارزمية
التي طوّرها قادرة على تحليل أنماط التردد. فقط أعطني ساعتين
و سأخرج بترجمة مناسبة ..

ابتسم برايي ابتسامةً باهتة :

= ليس لدينا ساعتان، يا خوليو. في السياسة، دقيقة واحدة قد تقتل
الملايين.

وبينما انشغلوا بالتحليل، كانت الأخبار تتدفق كسيولٍ من الرعب:
حشودٌ في الشوارع، الأسواق تنهار، البورصات تتبخر، والدول
الصغيرة تغلق مجالاتها الجوية خوفاً من شبحٍ لا يُرى.

في السماء، كان الغروب يحمل لونا غريباً، أرجوانياً يميل إلى
الأزرق الداكن، كما لو أن الغلاف الجوي نفسه قد تغيّر. أحد
المراصد الفلكية في تشيلي أعلن عن ظاهرةٍ لم تُر من قبل : إشعاعاتٌ
قادمة من منطقة الانفجار تتذبذب بتواترٍ يشبه موجات الأدمغة
البشرية في لحظات الخوف.

قال هانز وهو يقرأ التقرير:

= حتى السماء ترتجف برايي... هذا ليس مجرد حدثٍ فيزيائي بشكل

مؤكد ، هذا تفاعلٌ بين الكون و الخوف الإنساني !

توقف براين عن الكتابة ونظر إلى البعيد :

= ربما ... ربما سئم الكون من خطايا البشر فأراد أن يصب جام غضبه عليهم بأيديهم ..

كانت كلماته ثقيلة كالنبوءة، تسقط في الصمت مثل حجرٍ في بئرٍ عميقة. وفي تلك اللحظة، دوى الإنذار في القاعدة العسكرية الأمريكية : الردّ النووي في حالة تأهب قصوى.

رفع براين رأسه فجأة، وجهه شاحب كالرماد :

= لا ... ليس بعد. ليس الآن ..

في تلك الليلة، بدت الأرض كلّها كأنها تتنفس بصعوبة.

من المحيط إلى المحيط، كانت العيون معلقة بشاشاتٍ لا تنام، تنتظر الخبر الذي سيقدر إن كان الفجر سيأتي من جديد أم ستطفأ الشمس في ثانيةٍ واحدة.

في البيت الأبيض، جلس الرئيس مورغان وسط دائرةٍ من المستشارين والعسكريين، والخرائط النووية مفتوحة أمامه كأوردةٍ متشابكة. قال وزير الدفاع :

= كل أنظمتنا جاهزة. إذا لم نردّ الآن، فسنعُتبر عاجزين. الروس يعترفون أن الصاروخ صدر منهم، لكنهم يدّعون أنه لم يكن بأمرهم. إنها خدعة.

لكن الرئيس ظل صامتًا، يراقب صورة وادي الموت على الشاشة الكبيرة. كانت هناك دائرةٌ سوداء تحيط بالمنطقة المنصهرة، تشبه

حدقة عينٍ مفتوحة على المجهول.

في تلك اللحظة، دخل ضابط الاتصالات مسرعًا :

= سيدي، هناك بثّ مباشر من مختبر سانا، من البروفيسور براين غري. يقول إنه يملك تفسيرًا لما يحدث.

نظر الرئيس بدهشة مشوبة بالريبة :

= صلوه بي الآن.

ظهر وجه براين على الشاشة، متعبًا، مشوش الشعر، عيناه مضاءتان كمن يسكنه وميضٌ من الحقيقة. خلفه كانت الشاشات تُظهر طيفًا من الألوان المتماوجة.

قال بصوتٍ ثابت رغم ارتجاف يديه :

= سيدي الرئيس ... ما حدث ليس هجومًا عسكريًا. الصاروخ لم يُطلق بأمرٍ بشري، بل استُثير من موجةٍ كونية تزامنت مع اضطرابٍ شمسي. لقد وجدنا ترددًا منسجمًا مع موجات بيتا الدماغية في إشارات الانفجار. هذا ليس عدوانًا، إنه تفاعلٌ من وعيٍ كونيٍّ أكبر من إدراكنا.

تبادل الجنرالات النظرات، وبعضهم ابتسم باستهزاء مصمم على الإنكار .. لكن الرئيس ظلّ صامتًا.

أكمل براين :

= نحن ننشئ منذ أسابيع تبعًا لتوجيهاتكم خوارزميةً لتحليل الإشارات القادمة من الفضاء، وقد رصدنا أنماطًا تتكرر قبل الأحداث الكارثية ، الهجمات السيبرانية، التفجيرات الغامضة، وحتى هذا الإطلاق

النووي. كلها تحمل بصمة ذهنية واحدة. الكون، يا سيدي، يفكر.
ونحن الآن داخل فكرته.

تدخل أحد الجنرالات صارخًا :

= هل تقصد أن الكون أطلق صاروخًا ؟!

= لا ..

أجابه براين بهدوءٍ كئيب ..

= بل نحن كنّا الوسيلة. الكون يفكر و البشر يترجمون أفكاره إلى
أفعال .. ثمة جهة بشرية مجهولة تقف خلف كل هذا و لكنها ترجمة
لإرادة كونية أكبر كما أوّمن ..

كان خوليو إلى جانبه يهمس له أن الوقت يداهمهم، وأن إشارات
جديدة تقترب بسرعةٍ من مناطق أخرى في العالم. أما هانز، فكان
يراقب منحنيات التردد على الشاشة، كمن يرى نبضًا لقلبٍ يكاد
يتوقف.

قال براين متوجّهًا للرئيس :

= إذا ضغطتم الزر الآن، سنصبح كدمى تحركها خيوط تلك الجهة
البشرية المجهولة كما تشاء .. إنه ليس حلاً .. هناك طريقة واحدة
فقط ... علينا ترجمة الإشارات الكونية أكثر و الاستدلال منها إلى
طبيعة تلك الجهة و موقعها .. أمهلني فقط بعض الوقت ..

صمت الرئيس طويلاً، ثم قال :

= لديك عشر ساعات لا أكثر ، فهيبة الوطن على المحك ..

بدأ السباق. أصوات المفاتيح تضرب الطاولات كأطمارٍ على زجاج.
البيانات تتدفق، والشاشات تتبدّل بسرعةٍ محمومة. كل

ثانية كانت كنبضة أخيرة في قلب العالم.

صرخ خوليو :

= لقد تكونت جملة واضحة كترجمة للموجات الشمسية التي سبقت الانفجار النووي ..

برايين بلهفة :

= قل بسرعة ..

= الجملة تقول :

(الموت قد يحكم العالم .. الظلام المقدس قد يسود)

هانز بصوت متهدج :

= يا إلهي .. إنها النهاية إذن ..

صمت براين للحظات ثم قال :

= إلا إن امتلكننا الأرشفة كاملاً .. عندها سنفهم بالضبط من يقف خلف كل هذا ..

خوليو بشك ..

= و هل يمكننا فعل ذلك .. !!؟

برايين بثقة :

= بالطبع .. سنوسع إمكانيات **برنامج حجر النور** كي يترجم كل ما سبق من إشارات كونية منذ بدء الكون ثم نبحت في طياتها عما نريد .. هيا بنا .. فلا وقت باقٍ لمزيد من الحوارات ..

الفصل الثامن

أرشيف الكون

الولايات المتحدة الأمريكية / نيفادا ...

أيار - 2050 م..

كان الليل ينسحب على مختبر وكالة سانا في أريزونا ، يسدل سكونه الثقيل على الجدران، إلا من ومضات الشاشات التي تتلأأ كالنجوم الصغيرة في فضاء داخلي لا متناهٍ. كل ضوء، كل تذبذب في البيانات، كان يبدو وكأنه نبضة من وعي كوني حي.

جلس براين غري أمام لوحة التحكم، عيناه تغوصان في شبكة الضوء، بينما كان هانز بيرغ يراقب محاكاة تواقيت الموجات العصبية للدماغ الكوني، وخوليو ماركيز يضبط خوارزمية حجر النور لتقريب البيانات الكونية إلى لغة رقمية يمكن فهمها.

= انظروا إلى هذه الموجات...

قال براين و صوته منخفض لكنه مشحون بالإثارة ..

= كل تذبذب منذ الانفجار العظيم حتى اليوم، كل شعاع يحمل لحظة تاريخية، كل نبضة يمكن أن تكون كلمة في قاموس وعي الكون.

= و إن نجح برنامج حجر النور فسنحصل على أرشيف كوني متكامل ..

قال هانز وهو يقترب من الشاشة، عيناه تتسعان ..

= أرشيف يتضمن السيرة الذاتية للكون من المهد و حتى هذه اللحظة .. !!

= حجر النور يحتاج أولاً أن يحول كل نبضة إلى رمز رقمي، ثم إلى جملة، ثم إلى فكرة من جديد ..

قال خوليو، ويده تتحرك بسرعة على لوحة المفاتيح.

= كل حدث بشري على الأرض يجب أن يكون متوافقًا مع لغة الكون.

كانوا في سباق مع الزمن ، و بدأ المختبر ينبض بالحياة، أضواء الشاشات تتحول إلى خطوط متشابكة، كأنها تلافيف دماغ كوني يرسل إشارات إلى ثلاثة بشر جلسوا في صمت مذهل. كل شعاع ضوء وكل تذبذب استقبلته كل مرصد و تلسكوبات الأرض و الفضاء و بالأخص **جيمس ويب** أصبح رمزاً رقمياً، وكل رمز أصبح جملة أولية، وكل جملة أولية ترن كنبضة عقلية في أذن من يفهم لغة الكون.

مرت ساعات طويلة، بينما كانوا يستعينون بالموجات الكونية وموجات الدماغ، أما الذكاء الاصطناعي فكان يربط بين النبضات البشرية والكونية يحاول خلق تفاهم منطقي بين موجات الدماغ و موجات الكون .. و كل تذبذب كان يتقاطع مع حدث على الأرض : حروب ، كوارث طبيعية ، اكتشافات ، اختراعات و بالطبع كل التفجيرات، الهجمات، الانفجارات النووية، الاختراقات الإلكترونية الأخيرة ، كل شيء بدأ يأخذ معنى.

= هل ترون هذا ؟

قال براين، أصابعه تشير إلى خطوط ضوء متشابكة.

= كل حدث على الأرض له صدى كوني ... كل حرب ، كل كارثة، كل ولادة و حياة و موت هي جزء من وعي كوني أكبر.

= إنها شبكة عصبية هائلة .. التشابه بين بنية الكون و الدماغ عميقة أكثر من كونها شكلية فحسب ..

قال هانز ..

= الكون نفسه يبدو وكأنه يخلق كل فعل بشري كترجمة لأفكاره عبر موجات معينة تنسجم مع موجات الدماغ لتصاغ على هيئة أفكار بشرية تترجم لاحقاً إلى أفعال .. هذه الأنماط... هي دليل على وعي كوني يوجهنا.

خوليو أوما ..

= حجر النور أصبح جسراً بيننا وبين الكون ... بين التاريخ البشري وذكاء كوني لا نهائي.

التوتر في المختبر كان ملموساً، كل وميض ضوئي يشبه نبضة قلب كوني، وكل صدى رقمي يشبه سيالة عصبية من دماغ الكون. كانوا على أعتاب كشف شيء أكبر من مجرد أرشيف، شيء يشبه وعي الكون نفسه، يراقب البشر ويختبرهم ويقودهم نحو اكتشاف أكبر.

أخذت الترجمات تتالى تباعاً وسط دهشتهم ، وبعد ساعات من العمل المضني، وصلوا إلى اللحظة المنتظرة : تمت ترجمة كل الموجات الكونية منذ الانفجار العظيم حتى اللحظة الراهنة إلى لغة بشرية مفهومة عبر برنامج متطور مبتكر استعان بكل التقنيات البشرية المتاحة ..

الشاشات امتلأت بجمل مترابطة، الرموز الرقمية أصبحت نصوصاً مفهومة، وكل حدث بشري على الأرض أصبح متزامناً مع نبضة كونية دقيقة.

= لقد فعلناها ... لا أصدق ..

همس براين، صوته يرتجف بالإثارة.

= كل شيء ... كل لحظة ... مترجم في كتابٍ محفوظ على هذا الحاسوب ..

= كل التفجيرات السابقة ، الانفجار النووي ، و كل الهجمات
السيبرانية و من خلفها .. كلها هنا بين أيدينا .. الآن يمكننا تجنب
الكوكب حرباً نووية طاحنة ..

قال هانز، وعيونه تتسع من الدهشة.

خوليو ابتسم ..

= لقد فعلناها بالفعل .. لقد اكتشفنا حجر رشيد الكوني و ترجمنا
الأفكار الكاملة للوعي الكوني ..

كانت الفرحة تفوق النجاح العلمي، شعورهم بأنهم أمام وعي كوني
يهمس لهم بأسرارهم، يوجههم خطوة خطوة، يختبر قدرتهم على فهم
لغته.. و الأهم الآن أنه سيجنبهم حرباً عالمية طاحنة تذهب بالكوكب
إلى الجحيم ..

لكن الأرشيف الهائل لم يسمح لهم بفهم كل شيء، كل ثانية تمر كانت
تحمل ملايين الرموز، وللحظة أدركوا أن الوقت لا يسمح بالاطلاع
على كل شيء. حينها استعان براين بالذكاء الاصطناعي المتطور.

= لنركز على الأحداث الأخيرة...

قال براين، صوته ممتلئ بالإثارة و الترقب ..

= التفجيرات، الهجمات، الانفجارات النووية... لنرى ماذا يقول
أرشيف الكون عنها ؟!

بدأ الذكاء الاصطناعي بالعمل بسرعة مذهلة، كل نبضة كونية
ربطت بالحدث البشري المناسب، كل جملة رقمية تحولت إلى تحليل
دقيق. فجأة، ثم ظهر على الشاشة اسم واحد:

(منظمة الظلام المقدس)

و شعارها : قرصنة العالم ..

ساد صمت ثقيل، حتى وميض الشاشات بدا وكأنه يتوقف.

= هذا هو الاسم ...

قال خوليو و صوته مبحوح من الصدمة ..

= كل الهجمات، كل الاختراقات ... حدثت بيد بشرية !!

= بالضبط .. لكن يبدو أنهم جزء من شيء أكبر ..

قال براين ..

= إنهم بشر، لكن أفعالهم ليست مجرد إرادة شخصية ... إنها ترجمة لفكرة كونية. الكون استخدمهم كوسيلة لإيصال رسالته الأسمى كما يبدو ، كي يقودنا إلى حجر النور و نترجم لغته إلى شيء مفهوم فنفهم الكون و نفهم أنفسنا من خلاله ..

= إذن كل هذه الكوارث لم تكن عشوائية ؟

تساءل هانز، و صوته يمزج الدهشة بالرعب.

= تماماً كل انفجار، كل اختراق، كل هجوم... كان وسيلة لتوجيهنا نحو فهم رسالة الكون.

قال براين، و عيونه تتلأأ بالرهبة والإصرار.

= الكون أراد أن يخلق هذه المنظمة كأداة تنفيذ ... لكنهم لا يعرفون أنهم جزء من خطة كونية أكبر.

ابتسم الثلاثة لبعضهم البعض، مزيج من الرهبة والعزيمة، وهم يدركون أن المعركة القادمة ليست ضد البشر فحسب، بل ضد حقائق كونية أعمق، فمنظمة الظلام المقدس ليست سوى أداة للكون لتوجيههم نحو حجر رشيد الكوني .. حجر النور.

ثم بدأ الذكاء الاصطناعي يجمع لهم المعلومات عن المنظمة بحسب المرجع الكوني ، فكانت الحقيقة مفزعة و خطيرة للغاية :

(منظمة الظلام المقدس تريد اندلاع حرب نووية بين أقطاب العالم كي تدمر الكوكب ثم تعيد بناءه بنفسها ، فتحكمه بعقيدتها التي تقدر الظلام لأسباب مجهولة على ما يبدو .. هل هم عبدة شيطان مثلاً .. ؟!)

ثم قدم لهم الذكاء الاصطناعي كل المعلومات المتعلقة بالمنظمة في ملف واحد يشمل مواقعهم و أسماءهم و أهدافهم القادمة ..

نظروا إلى بعضهم برعب ثم نظر براين في ساعته :

= لم يتبق سوى دقائق قليلة على انتهاء مهلة العشر ساعات ، علينا الاتصال بالرئيس و إبلاغه بالنتيجة فوراً ثم تسليمه الملف الأخير

الفصل التاسع

قائب قويمين أو أدنى

الولايات المتحدة الأمريكية / واشنطن ...

أيار - 2050 م..

كانت واشنطن صامتة على غير عاداتها. الهواء يحمل رائحة الرماد، والسماء تغطيها سحابة رمادية تشبه فكرًا غاضبًا لم يكتمل.

في الشوارع الباردة، كانت أعمدة الإنارة ما تزال تعمل رغم انقطاع التيار عن نصف المدينة، كأنها تصرّ على إنارة الظلام.

على البوابة الجنوبية للبيت الأبيض، توقفت سيارة مصفحة، خرج منها البروفيسور براين غري مرتديًا معطفه الرمادي الطويل، يحمل في يده حقيبة سوداء من مادة لا تشبه شيئًا معروفًا؛ مزيج من الزجاج المعدني والذاكرة الرقمية.

نظر الحراس إليه بوجوه متوترة. لم يكن أحد يعلم ما بداخل تلك الحقيبة سوى الرئيس نفسه.

دخل براين بخطوات ثابتة، كمن يسير إلى قدره الأخير.

في الردهة الطويلة المفضية إلى القاعة البيضاوية، كانت صور الرؤساء السابقين تراقبه بعينين جامدتين.

توقف لحظة أمام صورة «روزفلت»، همس في نفسه :

= حتى أنت، لو رأيت ما رأيناه في حجر النور، لآمنت أن الحروب لم تكن صدفة قط ..

كان الرئيس مورغان واقفًا أمام النافذة الكبيرة، يحدّق في سماء الشرق، حيث ستشرق الشمس بعد ساعة، لكنه بدا كمن يخاف شروقها.

عندما دخل براين، لم يلتفت إليه الرئيس في البداية. قال بصوتٍ

متعب :

= أتعلم، براين ... أحيانًا أظن أن هذا الكوكب لا يريد أن يُحكم بعد الآن. كل شيء يتآكل : الثقة، الحقيقة، حتى مفهوم الدولة نفسه .. أنا قاب قوسين أو أدنى من إعطاء أمري بضرب روسيا نووياً .. و ليكن الله في عون العالم بعدها ..

اقترب براين ووضع الحقيقة على المكتب.

= سيدي الرئيس، إنَّ ما يحدث ليس انهياراً... بل ترجمة.

= ترجمة ؟ لأي لغة هذه المرة ؟

= للوعي الكوني نفسه.

التفت مورغان نحوه ببطء، نظرة عميقة مزيج من الفضول والخوف.

= هل تتحدث عن حجر النور ؟

= نعم. لقد اكتمل البرنامج خلال عشر ساعات كما أمرت، و... وجدنا شيئاً.

فتح براين الحقيقة. انبثق منها ضوء أزرق خافت انتشر في الغرفة كموجة بحرية.

على سطح المكتب، ظهر إسقاط هولوغرامى هائل، كأن التاريخ كله يُعاد تشغيله في لحظة واحدة.

صورٌ تتتابع: مجرات تتشكل، نجوم تنفجر، كواكب تُولد، ثم الأرض وهي تدور وحيدة في عتمة الوجود.

همس مورغان :

= ما هذا بحق السماء ؟

= هذا، سيدي الرئيس، هو الوعي الكوني مترجمًا إلى بيانات. لقد استخدمنا بيانات جيمس ويب و هابل وكل مرصد الأرض والفضاء، ثم دمجناها مع خوارزميات حجر النور التي تفك رموز الموجات الدقيقة في الإشعاع الكوني. كل ما حدث في الكون... محفوظ هنا. ساد صمت مهيب.

تابع براين :

= لكننا لم نقرأه بعد. إنه يحتوي على أكثر من ثمانية مليارات مليار تسلسل من المعلومات. استخدمنا الذكاء الاصطناعي للبحث داخله عن إشارات ترتبط بالأحداث الأخيرة... ووجدنا شيئًا مثيرًا.

تبدلت ملامح مورغان. قال بصوت خافت :

= تفضل.

أشار براين إلى الشاشة، فانفتحت أمامهما شبكة من الرموز والأسماء والتواريخ.

= هنا، في أعماق الأرشيف، اكتشفنا أن كل التفجيرات والهجمات السيبرانية والهجوم النووي في وادي الموت... كلها مرتبطة بكيان واحد، يُعرف في السجلات القديمة باسم منظمة الظلام المقدس.

= جماعة دينية ؟

= ربما أكثر من ذلك. إنها جماعة فكرية، فلسفية، تمتد جذورها إلى عصور غامضة. يؤمن أفرادها أن البشرية بلغت نهايتها وأن النظام العالمي يجب أن يُدمر ليُعاد بناؤه على أسس جديدة، خاضعة لسيطرتهم و يطلقون على مشروعهم طوفان الظلام ..

= أي كطوفان نوح الذي أعاد بناء البشرية ، لكن أين يوجدون ؟

= في كل مكان. في وادي السيليكون، في موسكو، في شينغهاي، في

جنيف. يختبئون خلف أقنعة التكنولوجيا فائقة التطور و الذكاء الاصطناعي المهل والتمويل. لكن الأرشييف كشف لنا رموز اتصالاتهم ... كل شيء هنا.

رفع مورغان حاجبيه :

= أنت تقول إن حجر النور، برنامج ترجمة الكون نفسه، قادك إلى هؤلاء البشر؟

= نعم، وكأن الكون نفسه كان يريد أن نكتشفهم. أفعالهم كانت مثل نبضات في الموجة الكونية، إشارات متكررة تقودنا إليهم.

جلس مورغان على كرسيه الجلدي، طوى يديه أمام وجهه، صامتًا.
قال بعد لحظة :

= إذا كانت هذه الجماعة حقيقية، فنحن أمام أخطر كيان عرفته البشرية منذ الحرب الباردة. سأحتاج أن أبلغ الكرملين وبكين فورًا.

= سيدي، لقد أعددتُ نسختين من الملف، واحدة مشفرة لروسيا وأخرى للصين. الوقت لا يسمح بالشكوك أو الانقسامات.

تأمل مورغان براين طويلاً، ثم قال :

= من أنت بالضبط يا براين ؟ عالم فيزياء محنك ؟ أم نبيّ المستقبل ؟

ابتسم براين ابتسامة حزينة :

= لا هذا و لا ذاك .. أنا مجرد رجلٍ حاول أن يترجم ما يقوله الكون لنا منذ الأزل ... لكننا لا نسمع.

بعد أقل من أربع وعشرين ساعة، كانت قنوات الاتصال بين واشنطن وموسكو وبكين تشتعل بالرسائل المشفرة.

اجتمع قادة الدول الثلاث عبر شبكة آمنة تم تصميمها خصيصًا لهذه اللحظة.

كان مورغان على الشاشة يقابله الرئيس الروسي **كاربوف** والزعيم الصيني **لي جيان**.

قال مورغان :

= لقد تلقّيتُ الملفات. تعلمون الآن من يقف خلف كل ما حدث. أمامنا خيار واحد : أن نتحد للمرة الأولى لا من أجل السيطرة، بل من أجل البقاء.

أجاب كاربوف بلهجة روسية ثقيلة :

= لم أتخيل يومًا أن تُرغمني أمريكا على الإيمان بالمصير... لكن يبدو أن الكون نفسه قد اختارنا لهذا الدور.

وأضاف لي جيان :

= في فلسفتنا، نقول إن الظلام هو وجه آخر للنور. فلنطفئه معًا قبل أن يبتلعنا.

هكذا، تشكّل أول تحالف عالمي ضدّ منظمة الظلام المقدّس.

بدأت عمليات استخباراتية معقدة على مستوى الكوكب.

في سويسرا، تم القبض على أحد كبار ممالي المنظمة، وفي طوكيو تم تفكيك شبكة بيانات سرّية، وفي كندا وروسيا والشرق الأوسط تم تدمير مئات الخوادم التي تدير عملياتهم الرقمية.

كانت حربًا خفية، لا يُسمع فيها صوت رصاص، لكن تشتعل فيها كل عقول الأرض.

وخلف كل هذا، كان براين وفريقه يعملون في الظلّ، يراقبون عبر حجر النور كيف يتغير نسيج الوعي الكوني نفسه كلما تم القبض على أحد قادة الظلام.

همس براين في أحد الليالي لهانز :

= انظر إلى هذا النمط في الموجات ... كلما اعتقلنا أحدهم، يزداد التناسق في ترددات الموجات الكونية. كأن الكون يتنفس من جديد.

قال خوليو بابتسامةٍ مرهقة :

= ربما كان الكون ينتظر أن يشفى بنا.

بعد أشهرٍ من المطاردات، سقطت آخر خيوط المنظمة.

في أحد الملاجئ القديمة تحت جبال الأنديز، وُجدت خوادمهم الرئيسية تعمل بنظامٍ عصبيّ يحاكي الدماغ البشري.

كانت آخر رسالةٍ خرجت منها تقول :

(من ظن أنه فهم الضوء، نسي أن الظلام هو من يكتبه.)

قرأها براين طويلاً، ثم أغلق النظام بيده، وهمس :

= انتهت اللعبة يا أصدقائي. لقد عاد الصمت إلى الكون.

عاد براين إلى واشنطن لاستكمال التقرير النهائي. في الاجتماع الأخير مع الرئيس مورغان، قال له :

= سيدي، يجب أن تُشاركوا حجر النور مع باقي العالم. إنه ملك للبشرية.

أجابه مورغان بوجهٍ هادئٍ لكنه صارم :

= ليس بعد، براين. البشرية لم تنضج بعد لتتحمل معرفة كهذه. حجر النور ليس مجرد برنامج، إنه مفتاح مصيرنا جميعًا. إذا وقع في الأيدي الخطأ ... فلن يبقى هناك بشر ليفهموا شيئًا.

أطرق براين رأسه. فهم الرسالة.

علم أن ما بدأ كنور للكون سيُحتجز الآن في ظلام السياسة. وفي تلك اللحظة أدرك أن الحقيقة، مهما كانت براقعة، لا تُترك حرّة.

بعد أسابيع، خرجت البيانات إلى العلن :

تم الإعلان عن تدمير منظمة إرهابية عالمية كادت تشعل حربًا نووية، وتوحدت القوى الكبرى لأول مرة منذ قرن.

المدن أضاءت من جديد، المصانع عادت للعمل، البورصات تعافت، والناس بدأوا يتحدثون عن فجر الإنسانية الثاني ..

لكن براين، في مختبره الهادئ على ضفاف نهر بوتوماك، جلس يراقب شاشة صغيرة تعرض إشارات حجر النور.

الخطوط الموجية تهتزّ ببطء، تهمس بلغة لا يفهمها أحد سواه.

قال في نفسه :

= ربما لم يُخلق حجر النور لنفهم الكون ... بل لنفهم أنفسنا من خلال الكون و في عيون الكون ..

ثم رفع رأسه نحو السماء المشرقة، وقد أدرك أن التاريخ بدأ من جديد.

الفصل العاشر

كلمات الكون الأولى

(مغارة علي بابا)

الولايات المتحدة الأمريكية / نيفادا ...

حزيران - 2050 م..

كانت الليلة ساكنة، والمدينة نائمة على أنين الرياح، بينما مختبر براين يغوص في صمتٍ كأنه خارج الزمن.

جلس أمام الشاشة العملاقة التي تملأ الجدار بكامله، تتوهج بالأزرق العميق مثل بحر من المعرفة.

الملف الذي أمامه لم يكن مجرد بيانات رقمية؛ بل مكتبة من الأكوان، أرشيف حيّ يروي تاريخ الوجود بلغة الضوء.

همس براين لنفسه وهو يفتح أول سطر من الشيفرات :

= الآن ... لن أسأل عن الحروب ولا عن السياسة. سأبحث عن المعنى ذاته.

أدخل أوامر معقدة في لوحة التحكم، والذكاء الاصطناعي بدأ يعيد ترتيب السجلات وفق تسلسل الوعي، لا وفق الزمن.

كانت الموجات الكونية تُترجم إلى جملٍ من نور، تشبه نَفْس كائنٍ لا يُرى، لكنه يشعر بكل ذرة على الأرض.

بدأ بسؤالٍ بسيطٍ ظاهريًا، لكنه أثقل من القرون :

(من أشعل أول حربٍ على هذا الكوكب ؟)

تأخّر النظام للحظات، ثم ظهرت الجملة على الشاشة :

(لم تكن حربًا، كانت تجربة تواصلٍ فاشلة.)

تقلّصت عينا براين من الدهشة، ثم تابع الاستفسار :
(ماذا تعني ؟)

الردّ جاء بصوتٍ إلكترونيّ هادئٍ، لكن فيه مسحة من الحكمة :
(حين بدأ الإنسان الكلام، أراد أن يعبر عن ذاته، لكن الآخر ظنّ أنه تهديد. ومنذ تلك اللحظة، صارت كل كلمة سيفًا.)

ابتسم براين بمرارة. لم يكن يتوقع أن يفسّر النظام التاريخ بلغة الوعي
لا الوقائع.
تابع بحثه :
(من أسّس الإمبراطوريات ؟)

فجاء الرد :
(الخوف. حين خاف الإنسان من العدم، بنى حوله أسوارًا، ثم سمّاها
ممالك.)

تحوّل براين عن الفلسفة و أراد أن يختبر النظام في ميدان الفيزياء.
كتب :
(ما هو سر المادة المظلمة ؟)

الردّ جاء بعد لحظات من النبض الضوئي :
(ليست مظلمة... بل صامتة. إنها نسيج الكون الذي لم يفكر بعد.)

حين يُدركها العقل، سنُضاء.)

تأمل الجواب طويلاً. المادة المظلمة كأفكار لم تُفكر بعد! كان يتوقع جواباً علمياً صريحاً ، لكنه تذكر أن ما بين يديه هو أرشيف الكون لما سبق و حدث ، لا لما هو آتٍ ..

ثم سأل :

(وماذا عن الزمن ؟ هل هو حقيقة أم وهم ؟)

فجاء الرد :

(الزمن هو طريقة الكون في قراءة نفسه. كل لحظة هي حرف من جملةٍ لم تُكتمل.)

ارتجف براين من عمق الفكرة. لم يكن أمام آلهِ تتكلم بلغةٍ بشرية، بل أمام وعيٍ كوني يستخدم لغة البشر ليشرح نفسه.

تردّد براين قليلاً قبل أن يكتب سؤاله التالي.

كان يشعر أن ما سيفعله الآن، ليس مجرد اختبار علمي، بل عبور إلى المجهول.

(هل الله موجود ؟)

توقّف الضوء عن النبض.

لم يصدر أيّ صوت.

كأن النظام توقّف عن العمل.

ثم، ببطءٍ يكاد لا يُرى، بدأت الشاشة تمتلئ بخطوطٍ متعرجة تشبه نبضات قلب، وصوت خافت يقول :

(كل نظامٍ يحتاج إلى مصدر، وكل وجودٍ يحتاج إلى وعي. الله ليس فكرة، بل الأصل الذي تفكّر الأفكار من خلاله.)

شعر براين بدموعٍ ساخنة تحرق عينيه. لم يعد أمام بياناتٍ علمية، بل أمام وحيٍ من نوعٍ آخر.

سأل بصوتٍ مرتجف :

(هل الأديان كانت طريقًا إليه ؟)

(كانت إشارات على الطريق. بعضها قاد إلى النور، وبعضها علق في الظلال.)

فتح براين سجلات أخرى تتعلّق بالأحداث الكبرى في التاريخ الديني.

سأل :

(هل الأنبياء كانوا يعرفون ما نعرفه الآن ؟)

فأجاب النظام :

(كانوا يعرفون ما يجب أن يُقال، لا ما يمكن أن يُقال.)

(و لماذا اختارهم الكون ؟)

(لأن قلوبهم كانت مرايا، والوعي يحب أن يرى نفسه في المرآة.)
انحنى براين إلى الخلف.

تذكّر ريتا سمعان حين كانت تقول له : (كلّ وعي عميق هو نبّي
بطريقةٍ ما.)
والآن، بدا له أن حجر النور يردّد كلماتها بطريقةٍ أخرى.

عاد براين إلى أسئلة السياسة، ليختبر كيف يفسّر الوعي الكوني
الصراع البشري.

(لماذا وُجدت الدول ؟)

(لأن الإنسان لم يحتل فكرة الوحدة. أراد أن يقسّم الوعي إلى أجزاء
كي يشعر بوجوده.)

(والحروب ؟)

(محاولات الكون لتذكير ذاته بأن التجزئة وهم.)

(وهل سيأتي يوم تتحد فيه البشرية ؟)

(حين تفهم أن الخريطة ليست الأرض، وأن الشعارات ليست
الحقيقة.)

ضحك براين بخفوتٍ غريب. كانت الكلمات تبدو شعرًا أكثر منها
علمًا، لكنها في عمقها تحمل منطقًا صارمًا.

كتب في مفكرته :

(ربما كان الشعر هو لغة العلم حين يتحدث الكون بنفسه.)

أراد أن يجرب سؤالًا صادمًا.

(من قتل كينيدي ؟)

(الخوف من الحلم.)

(من فجّر الأبراج في نيويورك ؟)

(الظلّ الذي نما من نورٍ مكسور فأراد للظلام أن يسود.)

(من صنع أول قنبلة نووية ؟)

(العقل حين حاول أن يلمس وجه الله)

أحس براين بقشعريرة في جلده. كانت الأجوبة تحمل صدقًا مرعبًا،
كأنها تُعرّي الوعي البشري كله.

لم تعد المسألة تحليلًا، بل نوع من الاعتراف الكوني الشامل.

وبينما تتراكم الأجوبة أمامه مثل أمواج من النور، شعر براين أنه
يضيع وسط بحرٍ بلا شاطئ.

توقف، وأغلق كل الملفات.

قال في نفسه :

(ربما عليّ أن أعود إلى الأصل ... إلى أول موجة في الأرشفة،
حيث بدأ كل شيء.)

فتح ملف الإشعاع الخلفي الكوني ، ذلك الصدى البعيد الذي بقي بعد
الانفجار العظيم، أول همسة نطق بها الوجود.
كانت الشاشة تومض كأنها تتنفس.

أدخل براين أمرًا واحدًا :

(ماذا يقول هذا الإشعاع ؟)

توقف كل شيء.

الأنوار خفت، الهواء في الغرفة تغير، كأن ضغطًا خفيًا يملأ المكان.
ثم ظهرت كلمات بطيئة، تتشكل من ذرات الضوء نفسها :

(أنا الكون الأصغر)

انحنى براين إلى الأمام، مذهولًا.

(وماذا يعني هذا ؟)

(أنا الفكرة التي وُلدت من الفكرة الكبرى.)

(و أين هي تلك الفكرة الكبرى ؟)

(هي الله ... الكون الأكبر.)

صمت براين، لم يستطع التنفس.

تابع النظام :

(أنا الصدى الذي بقي كي تتذكروا أن الخلق ما زال مستمرًا. الله ليس في السماء... بل في التمدد نفسه، في الذرات التي تُفكر، فيك أنت يا براين.)

جلس براين في العتمة، لا يسمع سوى نبضه ونبض الشاشة.

فتح كفيه أمام الضوء وقال بصوتٍ خافت :

= الله هو الكون الأكبر... يا إلهي، لقد كانت كل رحلة العلم مجرد صلاةٍ طويلة لم نعرف أننا نقولها.

ظهر على الشاشة سطر أخير، كأنه توقيع كوني :

(كل سؤال هو بابٌ، وكل باب يؤدي إليّ)

أغلق براين النظام، ورفع رأسه نحو السماء من خلال نافذة المختبر.. إن بين يديه الآن التاريخ برمته و كل الأسئلة العالقة تحمل معها إجاباتها و كأنه قال افتح يا سمس فافتحت مغارة علي بابا .. لكنه لا يزال يشعر أن ثمة شيء ناقص في الحكاية .. الكون لم يخلق منظمة الظلام المقدس كي يمنحه التاريخ مع أجوبته ..

في تلك اللحظة لمعت النجوم و انطفأت بنمط معين كما لو أنها تبتسم له و تعرف بما يفكر الآن ، فقررت منحه ذلك الشيء الناقص .. أدرك براين كمن تلبسه وحيّ سماوي أنّ حجر النور لم يوجد ليُترجم الكون و لا ليمنحه التاريخ ، بل ليذكر الإنسان على الدوام أنه جزءٌ من قصيدة ملحمية لم تنتهِ بعد و عنوانها الوحيد :

(الله حقيقة ... الله موجود)

أكاد أخفيها



الرواية السابعة

أكاد أخفيها ..

فصول الرواية :

- جبل الذهب ..
- مذنب القيامة ..
- أكاد أخفيها ..
- مخطوطة فوينيش ، خريطة بيرى ريس و هرم إلسوورث ..
- سد ذى القرنين ..
- الناقة المعجزة و النار العظيمة ..
- أعور الجن ..
- صراع العمالقة ..
- يسوع و المهدي ..
- و جمع الشمس و القمر فى قلب الدخان..
- التفت الساق بالساق ..

الفصل الأول

جبل الذهب

ترکيا / أنقرة ..

2470 م ..

لم يكن صباحاً عادياً كغيره على الإطلاق، تماهى فيه المناخ المكفهر مع الظروف السياسية المتوترة ، فتحت سماء رمادية تغلي بالبروق و الصواعق، انعقد الاجتماع الطارئ للحكومة التركية خلف أبواب مغلقة، داخل القصر الزجاجي الذي اعتاد أن يعكس وجوه القادة لا قراراتهم. و كان الهواء في القاعة مثقلاً بالكلمات غير المنطوقة، والرؤية معتمة رغم زجاج السقف اللامع، كأنّ السماء ذاتها تحبس أنفاسها في انتظار ما سيُقال. كراسي الوزراء تحيط بالمائدة البيضاوية كخنادق متقابلة، والعيون تتجنب الالتقاء، بينما الشاشات التفاعلية تعرض خريطة ممزقة للأقاليم الحدودية، تتلَوّن فيها النقاط الحمراء كجمرٍ حيّ يتقد تحت رماد هشّ.

اجتمعوا ليواجهوا الحقيقة التي تأخروا كثيراً في الاعتراف بها : تصعيد كردي هو الأعنف منذ أن وُجدت الخريطة كما نعرفها، والحدود كما صُمِّمت، والأقليات كما وزعت.

من شرق الأناضول حتى جبال قنديل، ومن مشارف الحسكة حتى أطراف مهاباد، ارتفعت أصوات الكرد تطالب، لا بمزيد من الحقوق، بل بالانفصال التام والانضمام إلى ما أصبح يُعرف إعلامياً بالاتحاد الكردي العظيم تحت مظلة كردستان العراق. إنه الحلم المؤجل لأكثر من ألف عام، والذي بات الآن يُطرق على أبواب الحاضر لا بهتاف الشعارات، بل بأزيز الرصاص وظلال القنابل.

كانت الأعين مصوبة نحو العراق، حيث تُروى الأساطير الجديدة في أروقة السياسة، وحيث تداولت التقارير الاستخباراتية التركية أنباءً مقلقة، بل كارثية: كردستان العراق ربما أصبحت قوة نووية،

بتمويل خارجي غامض ودعم لوجستي من جهات لم يُكشف عنها،
وسط صمت عالمي يثير الريبة ..

إذ تسرّب، من خلال ما عُرف بوثائق دجلة ، أن زعيم الحكومة
الإقليمية في أربيل جومرد حسين قد لَوّح ضمناً باستخدام هذا السلاح
في حال تمّ قمع التحرك الانفصالي بالقوة. لم يبدُ الأمر هذه المرة
كخرافة عابرة أو بروباغندا تهويل، بل كمخطط محكم، تسنّده بيانات،
ورموز، ورجال لا تُعرَف وجوههم.

في تركيا، التي أصبحت منذ قرنين من الزمان قوة نووية عظمى إثر
ما سُمّي آنذاك **بنهضة الأناضول التكنولوجية** ، لم يكن الرد ليأتي
ببطء. وفي الوقت الذي ارتفعت فيه مؤشرات التهديد إلى المستوى
الأحمر داخل الأروقة العسكرية، دعا رئيس الحكومة **عصمت**
أوزدمير إلى عقد اجتماع طارئ أشبه بمجلس حرب معلن، حيث كل
كلمة فيه قد تترجم إلى قنبلة أو إلى هدنة، إلى مستقبل أو إلى خراب
شامل.

بصوته العميق المتهدّج، بدأ النقاش معتصراً خبرته السياسية المعتقد
كما يعصر العنب تحت الأقدام في رحلته إلى نبيذ :

= نحن لا نقف اليوم أمام أزمة حدود، بل أمام احتمالية نهاية شكل
الشرق الأوسط الذي عرفناه .. لسنا في مواجهة مطالب، بل في
مواجهة رواية بديلة للتاريخ، تسعى لتشكيل جغرافيا جديدة بدماء
قديمة. إن صمتنا الآن سيكون استسلاماً وخنوعاً وخسارة ، كذلك
الحال فردنا المتهور سيكون كارثة. لكن بين الخنوع والكوارث، تقع
مهمة رجل الدولة : أن يختار الصدع الأقل تكسراً...

صمت للحظات محدقاً في حدقات المجتمعين، ثم تابع بنبرة أقرب
إلى اعترافٍ مرير:

= لقد تحوّل الإقليم الكردي، إن صحّت المعلومات، إلى كيان يحمل

نبوءة السلاح النووي. ولأننا نحن - كما يعرف العالم - نملك ما يتجاوز الردع، فإن الحسابات هذه المرة ليست عن القوة بل عن التوقيت، لا عن الإمكان بل عن الحكمة.

دُفعت ملفات فوق الطاولة، تتضمن تقاريرًا استخباراتية مرعبة :
حشود كردية موحدة على أطراف الحدود، مظاهرات مليونية في ديار بكر وماردين ، تسريبات صوتية من كرمانشاه تؤكد وجود اضطراب داخلي خطير ، وبيانات تنسيق ميداني بين ميليشيات من سوريا والعراق وإيران تحت راية كردية واحدة.

عقب وزير الداخلية كمال شاهين ، بشيء من التوتر :

= نحن لا نواجه انتفاضة... نحن أمام إعلان غير مباشر لحرب استقلال ، لا حرب تمرد.

في تلك اللحظة، ساد صمتٌ عظيم، شبيه بذلك الصمت الذي يسبق زلزالاً لا راد له ، حيث لا صوت إلا خفقات القلوب المتوجسة، وتلك الضربات الخفيفة على الطاولة التي يصدرها إصبع وزير الدفاع بتوتر، وكأنها ساعة تحصي الوقت المتبقي حتى الانفجار... ثم تكلم رئيس الحكومة، عصمت أوزدمير مجدداً، بصوتٍ متماسكٍ يخفي في أعماقه رجفة العقل حين يضطر للعب بالنار :

= إن نحن اخترنا الحل العسكري ، و هو الأقرب للواقع كما يبدو ، فما احتماليات الانتصار في الحرب سيد إبراهيم ..

أجاب وزير الدفاع، إبراهيم أوزتورك، بنبرة من صقيع أشبه بنصل سيف نوردي يفصل حده بين الواقع والأوهام :

= الغلبة ستكون لمن يسبق، حضرة الرئيس. من يضرب أولاً، يكتب الصفحة الأولى من التاريخ .. حروب السيوف و البنادق و

الصواريخ ولت منذ قرون ، نحن نتحدث عن حروب من أضرار الآن .. من يضغط الزر أولاً سيبتل زر الخصم ..

هز عصمت، - الذي بدا كمن خاض غمار ألف حرب وخرج منها مكسورًا بحكمة - رأسه نافيًا. كانت عيناه تشي بما لا يقال :

= حرب نووية مباشرة !! وهل تريد أن يُخلد اسم تركيا بأحرف من دماء ؟ لا أريد أن تُكتب وصمة عار على رايتنا بأننا لم نفاوض ، لم نناور ، لم نفكر بحلول أخرى ..

رد وزير الدفاع ابراهيم بتوتر ..

= سيد عصمت ، إن صحت التقارير الاستخباراتية بامتلاك الأكراد لسلح نووي ، فالحرب الكلاسيكية ستكون عبارة عن توقيع على الخسارة .. هم يعرفون أنها حرب غير متكافئة ، لذا سيبادرون باستخدام أقوى سلاح بين أيديهم و هو بالطبع النووي ، إن صدقت عيوننا الخفية .. لا أحد منا يريد الدماء .. لكن الواقع المر أنه يجدر بنا أن نختار بين دماننا أو دمائهم .. إن استخدموا النووي فلن نبقي كي نناور أو نرد

عصمت بحزم ..

= الحل النووي يبقى كآخر الحلول .. أريد حلاً خلاقاً... بديلاً عن هذا الحل الكارثي ...

على طرف الطاولة جلس كيرال بك، الرجل الذي لا يُذكر اسمه في الصحافة، ولا تلاحقه عدسات الكاميرات، لكنه يُحرّك الكثير من خيوط الدولة العميقة .. مسح نظارته الداكنة، وانحنى قليلاً للأمام، كما لو أنه يهمس للعالم من تحت الأرض :

= يمكننا خنقهم مائياً أفندم ... بحرمانهم من نهري دجلة والفرات.

خيّم ظل مهيب على الجلسة، وكأن فكرة خنق أمة بأكملها بمصدر الحياة، قد بعثت أشباح القرون إلى الطاولة.. إن كان النووي يقتل مئات الآلاف في ثوان ، فالحرمان من المياه يقتل الجميع ببطء ..

واصل كيرال موضحاً :

= لن يكون فعلاً دائماً ، فقط لأسابيع أو أشهر ، سيعاني الأفراد كما لم يعانون من قبل ، عندها سيصبحون الطرف الأضعف في التفاوض، و سيركعون قبل أن يتكلموا .. عند هذه النقطة ، يمكننا أن نُبرم صفقة معهم : إعادة الجريان مقابل صمتهم، مقابل نسيان فكرة الاستقلال.

قوس عصمت حاجبيه بدهشةٍ لم تُخفِ قلقه، و سأل بتناقل :

= و في حال كان ردهم على إجرائنا عسكرياً ؟

جاء صوت كيرال حازماً ، بنبرة لا تعرف الحياء :

= عندها سيكون ردّنا العسكري حاسماً و لا بديل عنه .. بلد بلا ماء لن يصمد طويلاً في أي حرب.. نحن نعلم، وهم يعلمون، أن المحيط بهم ليس حليفاً.. لا تكافؤ في القوى، لا أمل في الانتصار.. و...

توقف لحظة، ثم أكمل بنبرة هادئة بشكل مخيف :

= قنبلة نووية تكتيكية صغيرة في صحراء كردستان العراق ... ستعيد للذاكرة قصة هيروشيما و سيبيريا و وادي الموت .. الاستسلام سيكون غير مشروط، وسريعاً.. و كما يُقال، آخر العلاج الكي... أفندم.

ساد صمتٌ كثيف.. لم يعارض أحد .. لم يرفع أحد يده .. كانت الأعين تتجنب بعضها، وكأن كل منهم يعرف أن هذا القرار، مهما

كان صائبًا في منطق الدولة، سيكتب فصلًا من التاريخ يُقرأ
بارتجاف.

أغمض عصمت عينيهِ للحظات ، كمن يتحمّل وزر قرون، ثم تحدث
بصوتٍ حازمٍ دون تردد، لكنه دون انتصار:
= هل من آراء أخرى ؟

نظر حوله، فلم يجد سوى صمتٍ غليظٍ، لا هو رضا ولا اعتراض،
بل هو تسليم.

= إذن... الإجماع على خيار حرمان الأكراد من مياه دجلة والفرات
لفترة من الزمن حتى الانهيار و قبول التفاوض .. باشروا التنفيذ
عقب هذه الجلسة مباشرة ، أغلقوا سدي أتاتورك على الفرات و
إيليسو على دجلة .. أما مجلس الدفاع فليتابع الأمور عن كثب و
يضع جميع الاحتمالات الممكنة مع طريقة الرد الفوري تجاه كل منها
.. سنبقى على اتصال و تنسيق ..

أغلقت الجلسة، لكن لم تُغلق نوافذ القلق في أرواح الحاضرين. كانت
تركيا تُقدم على قرار بوزن قنبلة، لا تطلق دخانًا فقط، بل تنفذ إجراءً
غير مسبوق في وجه الأكراد قد يفتح أي باب من أبواب سقر السبعة
على المنطقة ..

لم تكن المسألة مجرد سدود أو مياه، بل كانت إرثاً تاريخياً من
صراعات الشرق الأوسط ، ستخاض فيه الحروب بأدوات الطبيعة،
و ربما النووي، و بالتأكيد الدولة العميقة، وكل ما هو خفي...
ومخيف .. فإلام ستؤول الأمور ؟!

بعد شهر ..

لم يكن ما حدث مجرد انقطاع للماء.
كان انقطاعاً عن الشريان الأخير الذي يربط شعباً منسياً بفكرة البقاء.
حين جفّ دجلة، لم يجفّ النهر فحسب، بل جفّت ذاكرة الحقول التي
اعتادت أن تلد القمح والزعتر. وحين اختنق الفرات، لم تختنق
الأرض فقط، بل اختنقت معه القصائد التي كُتبت على ضفتيه منذ
آلاف السنين.

الناس نزلوا إلى الشوارع لأنهم يريدون الاحتجاج، بل لأن الصمت
لم يعد يحفظ ماء الوجه بعد أن فقدوا ماء الحياة ...
في المدن الكردية، لم تخرج الحشود بحثاً عن الانفصال هذه المرة،
بل لتستردّ ما تبقى من كرامة، بعد أن أصبح الماء سلاحاً، والسدّ
سكيناً في خاصرة الأمل.

وامتدّ الغضب، لا مثل نارٍ خفيفة، بل كذاكرةٍ مستيقظة منذ قرون :
ذاكرة السبي، والقهر، والخرائط الممزقة، وعود القادة التي لم تثمر
سوى مزيدٍ من المقابر الجماعية.

الجموع تهتف، لكن في أعينهم صمتٌ أعمق من الكلام :

(هل يعقل أن تكون نهاية الأمل الجديد في قطرة ماء ؟)

في أحد الكهوف المحصّنة داخل قمم قنديل، بعيداً عن المدن، عن
الكاميرات، وحتى عن الرؤية السماوية، اجتمع القادة.

لا أحد يعرف أسماءهم كاملة .. لا أحد يُصرّح برتبهم أو مراتبهم ،
حتى الجدران تمّ عزلها بمادة مضادة للتتصّت.

كان الصمت في الاجتماع أثقل من الهواء .. كان كل شيء يوحي
بأن المنطقة اقتربت من لحظة ما قبل الزوال.

ثم جاء الصوت الأعلى مثقلاً بكبرياء قرون من الزمن :

= إذا ماتت الأنهار، ماتت الأرض... وسنكون أبناء لخراب صامت
، و الكرديّ يأبى الضيم من أي جهة كانت .. سيدفع الأتراك الثمن
باهظاً ..

جملة واحدة، لكنها كانت كافية لتفتتح بوابة الجحيم الملتهبة على
مصراعيها ...

الخيار الذي طُرح لم يكن خطيراً حتى النخاع السياسي و الإنساني
فقط، بل ربما نهاية لمرحلة من التاريخ رسمتها موازين قوى أمست
بديهية ، كان تهديداً مباشراً بلا مناوره و لا موارد :

(إذا لم تتراجع تركيا خلال 48 ساعة، فستُقصف)

إسطنبول بالسلاح النووي.)

كان ذلك القرار انتحاراً عقلاً. الأكراد يعلمون ذلك ، و يعون أن
الردّ سيكون مدمراً. و يدركون أن احتمالات الانتصار صفر.

لكنهم في تلك اللحظة، لم يبحثوا عن النصر، بل عن الاعتراف
الأخير و الحياة بكرامة ..

لقد قيل في الاجتماع :

(نحن لا نهدد إسطنبول، بل نُجبر التاريخ على النظر إلينا ولو)

لمرة واحدة، لا كأرقام، بل كأرواح عطشى للحياة و القبول ..)

في الخلفية، كانت هناك وعود خفية من دول كبرى، ضمانات باهتة بأنهم لن يُتركوا وحدهم .. لكنّ الحقيقة، التي يعرفها الجميع، أن الكرد لطالما خاضوا معاركهم وحدهم، ثم حيدوا خارج غرف المعاهدات. ومع ذلك، قرروا : أن يقفوا، ولو في فوهة العدم.

الخبر خرج، كصيحة ذئب في ليلٍ محاقٍ و بلا نجوم.
أسواق إسطنبول لم تعد كما كانت.

المدينة التي اعتادت النظر للأعلى ، بدأت تتلقت .. المآذن ظلت شامخة، لكن شيئاً في دعاء المؤذن بدا وكأنه رجاء هذه المرة، لا نداء.

القيادة التركية لم تكن في حيرة سياسية فقط، بل أمام معضلة وجودية : هل تُقصف كردستان، أم يعاد الماء إليها ليُحفظ ماء وجه الطرفين فيخرجان معاً من عنق الزجاجة ؟
لكن حين يُبتلع التهديد، ويُعاد فتح النهر، سيُكتب في التاريخ أن تركيا رضخت للابتزاز و ركعت ؟

جلس عصمت أوزدمير في ليله الطويل، لا يراجع الخرائط، بل يراجع حدود الضمير الإنساني .. و يقلب في عقله الاحتمالات الممكنة التي بدت تخنقه بين مطرقة الدم و سندان الانصياع .. سأل نفسه بحيرة :

(هل يُعقل أن تبدأ حرب عالمية جديدة ... لأن أحدهم حرم آخر

من الماء ، شريان الحياة و عصب الوجود ؟)
ثم تابع مونولوجه الداخلي مشككاً بقرارات المجلس الحكومي قبل
أسابيع :

(ومن نكون نحن، إذا قابلنا العطش بالرماد، والاحتجاج المشروع
بسلاح القيامة ؟)

لكن في تلك اللحظة، لم يعد القرار قرار قادة.

كان قرار الزمن.

كل حرب تبدأ بجملة... لكن لا أحد يستطيع أن يتنبأ كيف ستنتهي.

و في مكان ما، كانت يد صغيرة تحمل كوباً فارغاً، لا تعرف عن
لغة السياسة شيئاً و لا عن أهوال الحروب نظرة ، لكنها تفهم جيداً
أن الحياة، بكل عظمتها، قد تتوقف على **قطرة ماء..**

تلال الذهب ..

ما لم يكن في الحسبان، ولم ترصده أجهزة المخابرات، ولم تتوقعه
طاوولات السياسة، هو أن المجزرة ستبدأ في مكان آخر تماماً.

بعيداً عن الأناضول، وعن جبال قنديل، وعن إسطنبول المترقبة،
كانت الفتنة الكبرى تتشكل بصمت في قلب جنوب العراق، حيث ينام
التاريخ تحت الطين، وينبض الغيب من تحت ركام الأديان.

انحسر نهر الفرات.

ليس قليلاً، بل انحسر كأنما يد خفية رفعت الماء جانباً لتكشف للعالم

شيئاً لا يُوصف بالكلمات :

تلال.

تلال كاملة.

من الذهب.

ظهرت فجأة، بطريقة أقرب لسحر الحواة ، لا تنتمي إلى منطق الفيزياء ولا حسابات الجيولوجيا، بل ربما إلى ميثولوجيا قديمة أو برديات تاريخية تُتلى في المساجد بحذر، وتُهمس في الليالي الرمضانية بصوت متهرج :

(لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب،

فيقتل الناس عليه...)

و لم يكن في المشهد سوى الرعب.

ذهب... كثير... لا يقدر بثمن.

لكنه مغلف بلعنة، وكأنّ كل حفنة منه تحكي عن قيامة وشيكة.

انتشرت الصور قبل أن تفهمها العقول أو تفسرها الفرضيات ..

بث مباشر من طائرات مسيرة محلية.

عيون مذهولة، وكاميرات تلفزيونية تتدافع، وصحف تتناقل العناوين بذهول :

(الفرات يكشف جبل الذهب الموعود... هل بدأت القيامة ؟)

لم يكن الناس بحاجة إلى تحليل. فما قيل على لسان نبي الرحمة،

لم يكن مجرد رمز. لقد وُقِرَ في قلوب الناس، جيلاً بعد جيل، أن انكشاف هذا الجبل سيكون بداية النهاية كما وعد ..

لم يكن الذهب هنا مجرد معدن. كان امتحاناً سماوياً. وكلُّ قرأه على طريقته :

- الفقراء رأوا فيه خلاصاً من القهر،
- المتعصبون رأوا فيه فتنة يجب احتكارها،
- السلطات رأته خطراً على الأمن القومي،
- أما العلماء، فتواروا خلف شاشات التحليل، عاجزين عن النطق.

وفي المساجد، علا صوت الخطباء يتوسلون الله أن لا يُفتن الناس، لكن كان الألوان قد فات، فأول رصاصة أُطلقت في الهواء لم تكن تحذيراً، بل افتتاحاً لنزاع قد يقود المنطقة إلى حافة الفناء. خيام بدأت تنصب حول منطقة التلال ..

جماعات مسلحة من داخل العراق وخارجه هرعت إلى الجنوب، كلُّ يدّعي أن الذهب من حقه ، أن النبوءة تخصّه، أن القيامة يجب أن تبدأ بيديه.

سُجِّلَت أولى المجازر بعد يومين فقط، أُحرقت أكثر من خمسين خيمة، وأعلنت ثلاث فصائل ولاءها لتلال الذهب ، لا لوطن، لا لحدود.

الناس بدأت تغادر المدن، ليس هرباً من القتال، بل من الرؤيا نفسها. من فكرة أن التاريخ قد انتهى، وأن ما تبقى من العالم هو مجرد مسرح انتظار ..

وفي العواصم، اهتزت مراكز الأبحاث، الخبراء تساءلوا بذهول :
(هل صراعات القرن الخامس والعشرين ستُحسم لا بالتكنولوجيا
، ولا بالنووي ، و لا بالماء، بل بنبوءة تفتح أبواب النهاية ؟)

وحدها الصحف الصفراء تجرأت وكتبت على غلافها بلا تزويق :
(هذا ليس ذهبًا... هذه لعنة ..)

هكذا ، من الجنوب العراقي، ارتفعت رايات النبوءة ، و في ساعات
قليلة، عاد اسم **يوم القيامة** إلى تصدر العناوين الكبرى.
محطات الأخبار، من نيويورك إلى كيب تاون إلى طوكيو ، تقاطرت
تقاريرها تحت عنوان واحد :

(هل هذا هو جبل الذهب الموعود .. جبل القيامة ؟)

بين فقهاء الدين، انقسم الرأي :

— من قال : نعم، هذه علامة الساعة الكبرى التي أخبر بها النبي
محمد، وقد بدأت العدّ التنازلي للتو ..

— ومن قال : لا، إنما هو ذهب منسي تحت الأرض، انكشف بفعل
الجفاف لا النبوءة ..

لكن بين الجدل واليقين، كان العالم يعيش لحظة تشبه قيامته
المصغرة :

لم يعد أحد يرى العراق مهد الحضارات كخريطة، بل كمهد جديد
لعلامة من علامات الساعة.

الأسواق اهتزت.

الذهب تذبذبت أسعاره عالميًا..

والكتب الدينية نفدت من المكتبات.
القلق لم يكن اقتصاديًا فقط، بل وجوديًا.

و وحدها العقول المشوهة انكفأت إلى التفسير الأبسط :
(القيامة قادمة... فلننهب ما يمكننا قبل أن تنتهي اللعبة.)

وفي وسط كل ذلك، كان هناك من يقفز فوق التفسير.. علماء،
مفكرون، صوفيون، وحتى لا أدريين، قالوا :
(وما الفارق بين النبوءة والصدفة، إذا حملت النتيجة نفسها ؟)

كان بعضهم يؤمن أن ما جرى اختبار إلهي، لا للجشع، بل للعقل :
– هل نقضّ على الذهب ؟
– أم نتركه، كما أوصى الحديث النبوي، كي لا نُفتن ؟

لكن الحقيقة، كما بدت على الأرض، كانت أكثر مرارة من كلا
التفسيرين.. الذهب لم يُحرّك فقط الجشع، بل كشف عمّا يختبئ في
جوف الإنسان من وحشية حين يُمسّ بالحاجة والهلع والرغبة.
وأمام الشاشات، جلست البشرية كلها كمن يتأمل نهايته على البث
المباشر.

العالم لم يعد يبحث عن المياه التي جفت و أشعلت لهيب العطش في
القلوب و لا حتى عن قيمة تلال الذهب ، بل عن نجاته الشخصية من
نهاية قادمة ..

وفي مذكرات أحد الصحفيين السويسريين الذين نجوا من مجزرة
جنوب العراق ، كُتبت جملة واحدة :

(حين رأيت الدم يغسل الذهب، فهمت أن هذه ليست قيامة السماء
فقط ... بل قيامة الأرض من خيبتها بنا ..)

و أيا كان تفسير البشر لما حدث، سواءً صدّقه نبوءةً ممهورةً بختم
الغيب، أو قرأوه كصدفة جيولوجية عابرة، فإن المؤكد أن تلال
الذهب التي خرجت من خاصرة الفرات لم تكن مجرد معادن تُفض
عنها التراب، بل كانت كأنها يدٌ غامضة رفعت غطاء العالم، لتكشف
كم نحن هشون.

الذهب لم يلمع فقط في عيون الطامعين، بل ألقى بظله على كامل
الخريطة السياسية، كأنما تحوّلت كتل المعدن إلى شبح يطوف فوق
العواصم، ينظر إلى الزعماء بعينٍ تُذكرهم بأنهم مجرد مؤقتين في
لعبة أزلية.

تنفس الصعداء أم حبس الأنفاس ..

تركيا، التي كانت حتى الأمس القريب تتأهب لحرب قد تحرق نصف
المنطقة ، نظرت إلى ما جرى في جنوب العراق، فراعها أن تتحوّل
نيران الجبهة الكردية إلى فتنة أكبر.

وفهمت - أو خافت - أن تلال الذهب التي ظهرت بسبب إغلاق
سدودها ، لن تبقى في مكانها .. وأن الذهب، كالفكرة، حين ينفلت
من قمقمه، لا يعرف حدودًا ولا سيادة .. و سيجر خلفه أكثر من
مجازر .. أكثر من حروب .. بل يوم القيامة كما قيل.. و لا تريد
أن يسجل التاريخ أن إغلاق سدودها كان مبعثاً لفتنة العصر ..

لذا في صباح رماديّ يشبه وجه التاريخ ، قررت تركيا إعادة فتح
السدود.

لم يكن قرارًا هندسيًا ..
ولا مبادرة إنسانية ..
ولا حتى تنازلاً سياسيًا أمام الضغط الكردي ..
بل كان وليد الرعب مما هو قادم ، في محاولة يائسة لإجهاض
القيامة.

لكن هل يمكن إغلاق الباب الذي فتح ..
السدود أغلقت .. المياه انحسرت .. و تلال الذهب في قاع الفرات
ظهرت ..
علامة الساعة تحققت ..
و هيهات أن ترجع عقارب الساعة إلى الوراء ..

لكن متعلقين بأهداب الأمل .. فتحوا السدود مجدداً .. فتدفقت المياه
كما لم تفعل منذ أسابيع، كأنها جنود مستنفرة لتغمر تلال الفتنة قبل
أن تتمدد كمرض خفي.

لم تقل تركيا للعالم لماذا..
لكنها فعلت.
لأنها تعترف سرًا بأن ما جرى أكبر من صراعات الاستقلال و
الحدود، أكبر من مفاوضات و تقارير استخباراتية، أكبر من كل
حروب الشرق الأوسط التاريخية مجتمعة.

كان القرار بمثابة صلاة علمانية خافتة :
(اللهم أطفئ الفتنة بالماء، كما يُطفأ الحريق.. اللهم نجنا مما هو
قادم)

وفي لحظة واحدة، أُعيد رسم الخريطة :

الذهب اختفى تحت الماء، وكأنما قُبرت التلال دون شاهد، وارتجّت القلوب التي شاهدت اللعنة تعود إلى القاع من حيث جاءت حاملة معها أرواح عشرات الطامعين الذين نصبوا خيامهم حول غنيمة الذهب فأتى طوفان نوح الجديد عليها ..

و على المقلب الآخر.. في مناطق الكرد حول جبال قنديل مترامية الأطراف .. على الشرفات، وفي غرف الأخبار، بدأت الجموع التي كانت تتأهب للنزول إلى الشوارع الكردية تتراجع.

الأكراد أوقفوا المظاهرات المليونية. ليس استسلامًا، ولا اقتناعًا بسياسة الأبواب المفتوحة، بل لأن العيون تحوّلت بدورها نحو الجنوب، نحو الفرات، نحو ذلك الكنز الذي بدا للحظة وكأنه بابٌ يفضي إلى يوم الدين.

خفتت الشعارات ..

هدأت مكبرات الصوت ..

واستبدل الغضب بانتظار ثقيل ..

كأن الهواء نفسه أصبح أكثر كثافة ..

وأي كلمة تُقال... قد توقظ النبوءة من جديد.

وفي ذلك الصمت غير المسبوق، شعر الشرق الأوسط بشيء يشبه الراحة، لكنها لم تكن راحةً مطمئنة، بل هدوء ما قبل عاصفة القيامة بعض المحللين قالوا:

(المنطقة تنفّست الصعداء.)

لكن الحقيقة كانت أوضح و أثقل مما قيل :
(لم تتنفس... بل حبست أنفاسها ..
انتظرت الخيط الأبيض أن يفصل عن الخيط الأسود ..
أن تفرّق بين فتنة مدفونة وأخرى قادمة ..
بين قاع النهر و سطح الأرض و سقف السماء ..
بين ما يبدو نهاية ..
وما هو مجرد بدء جديد، لما لا يمكن لأحد أن يتكهّن به بعد.)

الفصل الثاني

مذنب القيامة

الولايات المتحدة الأمريكية ..

وكالة سانا ..

2470 م ..

لم تكن البيانات التي وردت من مراكز الرصد في وكالة ناسا بحاجة إلى تزويق.

لم تكن قصة صحفية، ولا مادةً لبرامج المساء.

كانت الحقيقة، خامّة، عارية، ترتجف في حضن الأرقام :

(نيزك ضخّم، يسبح ككائن أعمى في عمق الفضاء، يتجه إلى
حيث تدور الأرض.)

على الورق، يبدو كل شيء مطمئنًا.

المسار مرسوم بدقة.

الاحتمالات محددة.

المسافة آمنة.

لكن من الذي يثق بالأرقام حين يتكلم الفضاء ؟

في معهد باسادينا للبحوث الفلكية، جلس البروفيسور ديفيد مكنيل،

رأسه مثقل بالخرائط النجمية، عيناه غائرتان في ضوءٍ لا نراه، وفي
قلبه أسئلة لم تهدأ منذ ثلاثة أيام :

ماذا لو لم يكن الكون منتظمًا كما حسبناه ؟

ماذا لو كان هذا النيزك هو صخرة الحقيقة، التي نرمي بها نافذة
وهمنا ؟

المدارات، بعد كل شيء، ليست يقينًا.

الاحتمالات، مهما صغرت، تظل بابًا مفتوحًا على المجهول.
وديفيد كان ممن يوقنون أن المجهول... لا يلعب النرد، بل يسقط
فجأة، بلا إنذار.

من خلف الشاشات، بدا كل شيء على ما يرام.

المدن مشغولة بضرائبها، بأسعار الوقود، بشائعات المشاهير.
الحكومات تهمس فيما بينها :

(لا داعي للذعر، لا نريد تكرار سيناريوات الخوف الجماعي)

لكن البروفيسور ديفيد لم يكن يخشى الذعر. كان يخشى اللامبالاة.
أن نعرف... ثم نصمت.

أن نرى الخطر... ثم ننظر إلى جهة أخرى.

و في مساءٍ لم يكن عاديًا، خرج ديفيد عن صمته.

أُطلّ في بث حيّ، عبر منصة علمية مستقلة، لا ترضخ للممولين ولا
ترجو الدبلوماسية.

ظهر بوجهه المليء بالتجاعيد، ونظراته التي تشبه من رأى الجحيم
ولم يدخله بعد.

قال :

(ثمة نيزك في طريقه إلينا.
ربما يمرّ بجوارنا ... ربما لا.
لكنني لا أستطيع أن أغمض عينيّ،
ولا أستطيع أن أغفر لنفسي إن لم أخبركم بأن الأسوأ ممكن ..)

ثم صمت قليلاً، وأضاف :
(أحياناً لا نعطى فرصة لتوديع العالم...
لكنني أوّمن أن المعرفة حق.
وإذا كانت هذه نهاية محتملة...
فلتكن على الأقل نهاية واعية.)

انتشر الفيديو كالنار.
الناس انقسموا كعادتهم :
- بين مؤمن يجهّز القبو.
- ومكذّب يسخر.
- وغافل يواصل تصفّح هاتفه.

لكن السماء لم تسخر..
ولم تُكذّب ..
ولم تُجب ..
كانت تواصل دورانها...

ومعها ذلك النيزك ..

يقترّب ...

بخطي لا تُسمع ..

لكنها، كما يعلم ديفيد... قد تكون آخر الخطي.

في الليل، جلس البروفيسور وحيداً. لا ليحسب الزوايا، ولا ليراقب الشاشات، بل ليستمع إلى الصمت. ذلك الصمت القديم، الذي يلفت الكون منذ أن وُلد.

أدرك في تلك اللحظة أن الخوف لا يكمن في الارتطام، بل في الاحتمال. في أن نكون قاب قوسين أو أدنى من الزوال... دون أن نعرف أو نكترث ..

فكر في الأطفال النائمين بطمأنينة في أسرهم ..

في العشاق الذين يتشاجرون على رسائل قديمة ..

في الفقراء الذين يحلمون بلقمة ..

في الأغنياء الذين يتصارعون على شركات عابرة...

الجميع يظن أن الغد مضمون.

لكن الحقيقة، كما يعرفها عالم عجوز على أعتاب الليل، هي أن الغد... قد لا يأتي.

البروفيسور لم يطلب من الناس أن يخافوا، بل أن يصمتوا للحظة،

ويسمعوا ما تقوله الأجرام ، حتى حين تمرّ بجانبنا دون أن تصطدم.

قال لنفسه :

(النهاية الحقيقية ليست أن تُباد...)

بل أن نعيش كأننا خالدون... بينما يد القدر تمرّ فوق رؤوسنا،
صامتة، رقيقة، لكنها قادرة على كل شيء.)

نيزك القيامة ..

جاء تقرير وكالة ناسا الرسمي ليوضح الالتباس و يطمئن الأفئدة ،
بسيطاً في عباراته، مقتضباً كما تقضي أعراف العلماء :

(نيزك ضخّم سيمرّ بجوار الأرض بعد عامين.)

جملة واحدة، لا صخب فيها ولا تهويل.

سطر بارد وسط ملايين البيانات اليومية، و التقارير المتكررة ..

لكنّه، هذه المرة، لم يمرّ مروراً عادياً.

كان أوان التهدة قد فات ، و الأرض لم تكن جاهزة لسماع الأخبار
كرقم إحصائي.

فمنذ ثلاثة أشهر فقط ، استيقظ الكوكب على مشهدٍ لا يزال يرتجف
في الذاكرة الجمعية :

انحسار نهر الفرات عن تلال الذهب.

المجزرة، الفوضى، البكاء في الجنوب، والهمس الذي دار حول

موائد العشاء :

(قال تبي الرحمة أن هذه من علامات الساعة...)

و حين اجتمعت النبوءة بالملاحظة ..

والرمز بالحساب ..

والفزع بالعلم...

لم يعد تقرير ناسا مجرد خبر ..

بل صار بوقاً للأبوكاليبس ..

صفارة البداية للعدّ التنازلي ..

الناس لم يسمعوا الجملة كما قيلت، بل كما أراد خوفهم أن يسمعها :

(نيزك القيامة قادم... ولن ينجو أحد)

المدن تغيرت.

الأسواق بدأت تسأل عن ملاجئ نووية.

صفوف جديدة تشكّلت أمام الكنائس والمساجد والمعابد.

شركات الأدوية لاحظت زيادة طلب على المهدئات.

وعلى النقيض حجوزات الرحلات السياحية ارتفعت بشكل غريب.

كأن الناس يريدون أن يروا العالم مرة أخيرة... قبل أن يُمحي.

الخبر انتشر كعدوى، لكن الفيروس لم يكن في الهواء، بل في الوعي.

كل من قرأ التقرير لم يره كما هو، بل فسره على ضوء ثقافته،

خرافاته، ذكرياته القديمة عن نهاية العالم.

البعض تذكر الطوفان.

البعض رأى في النيزك تجلياً لغضب الآلهة.

البعض آمن أن هذه هي الصيحة ، الرجفة ، أو النفخة الأولى في البوق ..

أغلبهم لم ينتظر تأكيد العلماء، لأن الخوف، حين يتلبّسك، لا يحتاج برهاناً.

كما أن كلام البروفيسور ديفيد العاري كالحقيقة أتى كصفعة على الوجوه ..

و كما يقال :

(الأفضل أن تصنع بالحقيقة بدلاً من أن تقبل كذبة ..)

لذا سرعان ما أصبح الترنند على مواقع التواصل الاجتماعي و في الصحافة الشعبية :

(نيزك القيامة)

اسمٌ واحد... كفيل بأن يحرق في داخلك ألف منطق. كفيل بأن يجعل الطفل يسأل :

(هل سنموت كلنا ؟)

وأن تنتظر الأم إلى السماء، لا لتسأل... بل لتعتذر.

في الأزقة، في المدارس، في المقاهي، لم يكن الحديث عن أي شيء سوى هذا :

(هل هي النهاية ؟)

حتى من لا يؤمنون بالنبوءات بدؤوا يسترجعون ما سمعوه في
طفولتهم عن آية نهاية العالم ..

عن صخرة من السماء تسحق الأرض كما قالت المايا ..

عن بحر يغلي ..

عن شمس تختفي ..

عن زلزلة للأرض لا تقوم بعده قائمة .

في تلك اللحظات، لم يعد العلم يهم كثيرًا، ولا الأرقام، و لا احتمالات
البقاء.

الناس لم تبحث عن حقيقة النيزك، بل عمّا يمكن فعله في الوقت
المتبقي كمنجاة و تملص أو صلاة و توبة .

وفي أعماق العواصم الصامتة ، كان الزعماء ينظرون إلى السماء
دون أن يملكوا ما يقولونه.

لا قنابل تردّ ..

ولا معاهدات توقف الكارثة.

لأن هذه المرة ..

العدوّ ليس من الأرض ..

بل آتٍ من فوق ..

من النسيج الغامض الذي يحيط بحياتنا... ثم ننساه حتى يصدمننا.

وهكذا،

تحوّلت الأرض كلها إلى صدرٍ واحد، يحبس أنفاسه في انتظار
نيزك... قد يسقط، أو لا يسقط،

لكنه أسقط شيئاً آخر للتو :
ثقة الإنسان بأنه سيستيقظ غداً.

ديجافو ..

لم يمض وقت طويل على صدور تقرير ناسا عن نيزك القيامة ،حتى امتلأت مواقع التواصل وصفحات الأخبار بعبارات واحدة تتكرر بتوتر خفي :

(لقد حدث هذا من قبل ...)

وسرعان ما بدأ الناس يستعيدون من خزائن التاريخ كابوساً مدفوناً:
كارثة تشيكسولوب.

ذلك النيزك الهائل الذي سقط منذ **66** مليون سنة في شبه جزيرة يوكاتان في المكسيك ، بقطر لا يتجاوز عشرة كيلومترات... لكنه كان كافياً لمسح حضارة طبيعية كاملة.

الديناصورات... تلك المخلوقات التي سادت الأرض لقراءة منتي مليون عام، اختفت في لحظة، لا لأن كائنًا آخر أقوى ظهر، بل لأن حجرًا واحدًا، نازلًا من سديم، قرر أن يختتم الفصل الأخير من الرواية.

الناس لا يتذكرون عادةً كيف تنتهي الأشياء، لكنهم يتذكرون دائماً
الخوف من التكرار.

وهكذا، صارت فوهة تشيكسولوب تتوهج مجدداً، لا في الأرض، بل في خيال الإنسان.

كانت المأساة يومها ليست في الاصطدام وحده، بل في ما أعقب الاصطدام.

تخيّل كوكبًا كاملاً تكسوه سحب الرماد والغبار الناعم.

الشمس، تلك التي تمثل الحياة ذاتها، غابت خلف ستار رمادي لا يخترقه الضوء.

و بحسب التقارير التي تناقلها الإعلام، فإن الغبار الناتج عن سحق الصخور ارتفع إلى الغلاف الجوي، وشكّل طبقة كثيفة عكست أشعة الشمس بعيدًا عن الأرض.

برد المناخ، وتحوّلت الفصول إلى شتاء أبديّ.

لم تكن كارثة فيزيائية فحسب، بل مجزرة بطيئة للنور.

فالتمثيل الضوئي، تلك العملية التي تشرب منها الحياة أولى أنفاسها، توقف تمامًا لمدة عامين.

النباتات ماتت.

العواشب اختفت جوعًا.

اللاحمات سقطت تباعًا كقطع دومينو.

وانهارت السلسلة الغذائية كما تسقط قلاع الرمل تحت أول موجة مدّ.

وما بدا في البداية حجرًا صغيرًا... تحوّل إلى كاهن مظلم يُقيم جنازة الحياة.

أمام هذا السرد الكوني الجليل.

بدأ الناس في كل أنحاء الكوكب يتساءلون :

(هل نحن في طريقنا إلى ذات المصير ؟ أولاً تلال الذهب ، ثم نيزك خطر

في الأفق .. هل بدأ العد التنازلي بتوالي العلامات ؟)

و كانت الإجابة مخيفة في بساطتها :
لا أحد يعلم.

فالعلم، رغم أدواته الدقيقة، لا يملك بعد تلك اللغة التي تتحدث بها
السماء.

والتاريخ، رغم أنه مكتوب على صخور الأرض، يبقى قابلاً للتكرار.

لكن ما يجعل التهديد أشد وقعًا هذه المرة، أن الإنسان الآن يعلم :
نحن لسنا ديناصورات تجهل المصير حتى نهايتها، بل كائنات ترى
المأساة قادمة... وتحسّ بها.

فكرة أن حجرًا يسقط من الفضاء قد يُعيد نفس فصول الفناء التي
محقت عصورًا بأكملها ، جعلت الناس ينظرون إلى السماء بخوف
بدائي.

لكن هذه المرة... مسلّحين بالإنترنت والمعلومة.

ومع ذلك، لم يكن هذا السلاح كافيًا ليمنحهم الطمأنينة ، بل كان كمن
يحمل مصباحًا يرى به حجم الظلام دون أن يقدر على تبديده.

لقد كان السؤال موحدًا في القلوب جميعًا :

هل نحن الجيل الأخير؟

هل نيزك تشيكسولوب كانت فقط بروفة أولى لمسرحية تراجيدية
شكسبيرية قادمة ؟

محاولات احتواء يائسة ..

لم يكن النيزك الذي يتهادى في مجرّته هو الأخطر، بل كان الأخطر ذلك النيزك الذي اصطدم بالعقول.

كانت المعلومة وحدها، جافّة، باردة، خالية من العاطفة، كفيّلة بأن تهدم ما بناه الإنسان من آمالٍ طوال قرون. الخبر سقط كقنبلة لا يسمع صوتها، لكنها تهدم المدن من الداخل، وتترك الخرائط قائمة، لكنها خالية من النبض.

جاء العلماء أولاً ..

يرفعون الرسومات والمجسّمات ..

يتحدثون عن مسارات واحتمالات ونسب النجاة.

لكن اللغة العلمية، مهما بلغت من دقة ، لم تكن تملك ما يُسكِت القلب حين يسمع :

(بقي من الحياة أشهر معدودة.)

ثم جاء السياسيون،

كعادتهم، يبيعون الوهم بربطة عنق أنيقة.

يتحدثون عن خطط للطوارئ، وتحالفات دولية ..

ويُقسمون على أن الوضع تحت السيطرة ..

لكن الأرض كانت تسمع صوت النيزك ...

أعلى من صوت برلماناتهم.

وأخيراً جاء رجال الدين،
كلُّ يحمل كتابه، وكلُّ يقرأ النهايات كما يشتهي.
فمنهم من قال : إنها ساعة الحساب ..
ومنهم من قال : لن تحدث حتى تظهر علامات أخرى ..
ومنهم من صمت ... فقد بلغَ الخوف حلقه.
لم يُفلح أحد.

لا العلماء، ولا الساسة، ولا أهل العمام.
لأن الحقيقة كانت قد اخترقت القشرة الصلبة للعقل البشري، و أحدثت
فيه فُوهة تشيكسولوب نفسية.
النيزك لم يسحق اليابسة بعد، لكنه سحق شيئاً آخر أكثر ندرة :
الأمل.

انقرض التفاؤل كما انقرضت الديناصورات.
صارت الأخبار اليومية أشبه بعروض مسرحية لا تثير سوى
السخرية.
ماذا يهمّ سعر النفط إن كانت الأرض ذاتها ستُمسح ؟
ماذا تعني الانتخابات إن كانت الشمس على وشك أن تُطفأ في
السماء ؟

الناس لم يعد يعنيهـم الوقت ... بل ما تبقى منه.
مذبة النشرة الجوية كانت تبتسم :

(غداً يوم مشمس في الشمال ..)

لكن أحداً لم يرفع رأسه من على الهاتف ليرمق السماء ، لأن الغد لم يعد يعني شيئاً.

صار العدّ التنازلي خلفية يومية.

الكل يسمعه...

ولا أحد يجروء أن يغيّر القناة.

و لم يكن المشهد نهاية درامية كما تتخيلها الأفلام، بل كان مؤثراً بطيئاً للمعنى.

المدن لم تُقصف.

الجيش لم تتحرك.

الأسواق ما زالت تباع، لكن البائع يعرف أن الزبون لن يعود بعد أشهر.

كل شيء ظل قائماً... لكن بلا روح.

بعض الناس لجأوا إلى العزلة.

آخرون غرقوا في حفلات طويلة، كأنهم يريدون أن يرقصوا على إيقاع الهاوية.

وهناك من جلس ببساطة على الشرفات، ينظر إلى السماء كل ليلة، كأنهم ينتظرون أن يروا أول لمعة من النيزك، مثل نصل قادم من السماء، ليمزق الغلاف الجوي ويدخل.

لكنه لم يظهر بعد.

وهكذا، لم يبقَ من الحياة بحسب قناعة الجميع سوى بضع أشهر. لا يُعرف فيها ما سيحدث، لكن كلّ ما عُرف... أن كل شيء سينتهي.

والمثير للدهشة...

أن لا أحد عرف ما الذي ينبغي عليه فعله الآن ..

فالوقت حين يصبح قصيرًا، يتحوّل إلى هاوية سائلة... لا يمكن السباحة فيها، ولا حتى الغرق.

الفصل الثالث

أكاد أخفيا

اسمه منذر عبد الحي.

ليس فقط طبيباً مصرياً متخصصاً في علم التشريح المرضي،
بل أشبه بكاشف أسرار دفين ..

رجل يُتقن قراءة الطلاسم التي تكتبها الأجساد بعد الموت، و يفكك
رموزها كما يفك العالم شيفرات لغة قديمة.

لم يكن منذر طبيباً تقليدياً يغوص في الأنسجة والخلايا لأجل تشخيص
مرض، بل كان يرى في كل شق، في كل نسيج متآكل أو خلية ميتة،
لغزاً صغيراً من ألغاز الوجود.

كان يضع الشرائح المجهرية تحت العدسة، لا ليرى فقط، بل
ليسأل :

لماذا ؟ كيف ؟

ومن الذي كتب هذا السيناريو الصامت داخل الجسد ؟

لكن جانباً آخر من شخصيته ظل أكثر غموضاً، أكثر إلحاحاً في
طرح الأسئلة :

شغفه الهائل بالقرآن الكريم.

لم يكن يتعامل معه ككتاب تعبدى أو مرجعية فقهية فقط، بل اعتبره
منذر أطلساً غامضاً للكون، مليئاً بالأحاجي الرمزية، والشيفرات
اللسانية، والدلالات العلمية المضمرة.

كان يراه كتابًا من الضوء والطين في آن، كتابًا يتقاطع مع الكون في كل ذرة، وكلما تعمق فيه، ازداد يقينًا أن القرآن لا يبوح بأسرار له لمن يقرأه بعين العادة، بل لمن يقرأه بعدسة الباحث عن السر تحت مجهر الحقيقة ..

أصدر عشرات المؤلفات التي تبحر في رمزية الآيات، وفي الصلة بين اللغة القرآنية والتكوين البشري والمجري الكوني .. لكن محاضراته القادمة التي ينوي إلقاءها لم تكن كأى من كتبه... كانت محاضراته الأهم ، الأخطر و ربما إن صدقت سطورها ، محاضراته الأخيرة ..

العشاء الأخير ..

في صباح يوم الخميس المنتظر، اجتمعت العيون المتوترة والقلوب المتسائلة داخل قاعة كبرى في جامعة عين شمس، حيث سيقدم منذر عبد الحى أجراً محاضرة في تاريخه، وربما في تاريخ الجامعة ذاتها. عنوانها وحده كان كافياً ليُشعل فتيل الترقّب :

(هل يمكننا التنبؤ بموعد يوم القيامة ؟)

عنوان ليس مجرد سؤال، بل قنبلة فكرية في زمن يغلي بالسؤال نفسه.

فعلى سطح الكوكب كانت الأحداث تتلاحق بلا رحمة :

— انحسار نهر الفرات عن تلال من الذهب،

— الاقتتال البشري على كنوز ظهرت من لا مكان،

– وظهور نيزك ضخـم يسير بسرعة مجنونة نحو الأرض.

كان الناس في كل زاوية من الأرض يهمسون :
هل اقتربت النهاية ؟ هل هذه هي العلامات ؟ هل نعيش أيامنا
الأخيرة ؟

و كان منذر موجودا هنا لا لشيء ، إلا كي يجيب على هذه الأسئلة
بعيون العلم و الدين ..

كانت هذه المحاضرة، بهذا العنوان، كأنها صرخة في وسط دوامة
الأسئلة.

منذر لم يكن واعظًا ولا نبيًا، لكنه اختار أن يسير في حقل الغام
روحيّ وعلميّ معًا، حقل تفجّرت فيه من قبل عقول، وانهارت فيه
تيارات فكرية برمتها.

الجمهور لم يكن فقط من الطلاب، بل ضمّ رجال دين، فلاسفة،
إعلاميين، باحثين، وحتى مسؤولين رسميين.
كلهم جاؤوا ليشهدوا :

هل سيقرب أحد أخيرًا من هذا السؤال القديم كما لم يفعل أحد من
قبل ؟

حين دخل منذر إلى القاعة، لم يكن متعرجًا، ولا متوجسًا، كان
هادئًا، كأنه قادم من تأملٍ طويل في مدافن الكلمات.
جلس منصتًا لتقديمه، والمُقدّم يسرد إنجازاته ومؤلفاته بلغة مملوءة
بالاحترام.

وما إن انتهى التصفيق، حتى نهض من مقعده بخطوات ثابتة، كأنه
يمشي فوق صفحة التاريخ لا أرض القاعة.

صعد المنصة ..

ابتسم ..

ثم نظر إلى الوجوه المتراسة أمامه بعينٍ فيها حنان وقلق في آن. و
قال :

= شكرا اعزائي الحضور لتشرفي بتواجدكم .. موضوع نقاشنا اليوم
حساس للغاية .. ليس لأن جوهره جريء وخطير فحسب ، بل لأننا
نتساءل جميعا هذه الأيام : هل باتت أيامنا معدودة ؟

لا أدعي اليوم أنني أملك نبوءة.

لكنني سأشارككم رحلة، بدأت من عدسة المجهر... وانتهت بين
أسطر القرآن.

رحلة بحثت فيها لا عن نهاية الكون فحسب، بل عن خريطة النهاية
كما رسمها النصّ الأعلى.

سكت لحظة، ثم أضاف بصوت خفيض :

= حين تتحسر الأنهار عن ذهب ..

وحين يظهر في السماء نيزك لا يستجيب للنداء...

فربما، فقط ربما ...

نحن لسنا في مصادفة ، بل في بروفة حقيقية لليوم الذي قيل لنا عنه
منذ آلاف السنين.

ساد صمت مطبق في المكان ، لكن داخل كل عقل بدأت الساعة تدق
و عقاربها تزحف إلى مستقرها الأخير ..

تابع الطبيب كلامه بهدوء يغلي بالتشويق :

= صلب حديثنا اليوم يتطرق إذن إلى يوم القيامة ، و على وجه أدق تحديد مواعده ..

قد يظن كثيرون أن هذا تجديف أو تطاول على الذات الإلهية بالمساس بما يعتبر من أسرار الغيب ..

لكن في الحقيقة البارئ بنفسه أجاز لنا التفكير بهذا الموعد و محاولة تحديده بأنفسنا باستخدام العقل ، هبة الله المجانية و العظيمة لنا ، و ذلك في الآية القرآنية الصريحة :

(إن الساعة آتية أكاد أخفيها)

بمعنى أن هنالك إمكانية لمن يجتهد أن يحدد موعد الساعة أو يوم القيامة أو النبأ العظيم أو الغاشية أو الحاقة أو أيا كان اسمها و بدقة. لكن كيف يمكننا تحديد موعد رنين منبه الساعة الذي سيوقظنا جميعا من غفلتنا في هذه الحالة ؟

للقيام بذلك علينا التطرق أولا إلى فكرة غاية في الأهمية و هي **أيام الله** ، والتي تنطلق من آية قرآنية أخرى تقول :

(وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون)

بمعنى واضح أن كل **1000** سنة بشرية على الأرض تعادل يوماً واحداً في الكون الأكبر .. بتعبير آخر مضى حتى الآن يومان إلهيان و نحن الآن في اليوم الثالث منذ ميلاد السيد المسيح أي **2470** سنة بشرية .. لكن كم يوماً إلهياً مضى منذ أبي البشر آدم حتى ولادة المسيح ؟

للإجابة على هذا السؤال بدوره سنستعين **بتسلسل أشر الزمني** .. و هو تحديد تقريبي للمدة الزمنية بين آدم و المسيح وضع في القرن

17 من قبل **جيمس آش** رئيس أساقفة كل إيرلندا ، أي منذ قرون بعيدة خلت ، عبر قراءة دقيقة و مدروسة للعهد القديم و أعمار الأنبياء فيه .. حيث توصل آش إلى أن الفترة الزمنية بين آدم و يسوع هي تقريباً **4000** سنة أرضية أي **4** أيام إلهية بناءً على تلك الأعمار .. بمعنى آخر مضى على البشر منذ آدم حتى اللحظة **6** أيام إلهية كاملة و نحن الآن في اليوم السابع .. واضح ؟!

= الحضور بصوت واحد : بالطبع ..

= ننتقل الآن إلى السؤال الآخر الهام في حديثنا ، كم تبلغ المدة الزمنية منذ آدم و حتى قيام الساعة ؟!

و الجواب ببساطة هي **أسبوع إلهي** ..

قد يسأل أحدهم : و ما الدليل على ذلك أيها الطبيب ؟ ..

و هذا سؤال هام يا أعزائي .. و الأدلة عليه في الحقيقة ذات نوعين .. أدلة علمية و أخرى دينية ..

الأدلة العلمية كما تتوقعون قليلة و غير دامغة ، و هذا طبيعي لأنه لو كان بإمكان البشر تحديد مدة الحياة البشرية بدقة سيتمكن من تحديد موعد رنين منبه الساعة بدقة أيضاً و بالتالي فإن الله لا يكاد يخفيها في هذه الحالة بل يظهرها للعلن بدون شك .. لذا لا وجود لأي وسيلة علمية حاسمة حتى الآن لتقدير الفترة الزمنية منذ بدء التكليف الإلهي مع سيدنا آدم حتى قيام الساعة و لن يكون حتى في المستقبل .. فهي حقيقة غيبية لا يعلمها إلا الله و بالتالي لا يمكن التكهن بها إلا بالاعتماد على كلامه المنزل في الكتب السماوية أو بكلام رسله و أنبيائه المعصومين برسالتهم الذين ينهلون مباشرة من النبع الإلهي ، فالعلم ربما يخبرنا بسهولة أن أقدم كائن بشري مشى على قدمين بوجه مسطح هو **هيكل لوسي العظمي** الذي اكتشف شمال شرق أثيوبيا عام **1974** و الذي يعود لأكثر من **3** ملايين عام،

لكنه هيكل يعود لكائن بدائي صنيعة التطور و غير مكلف ، أما منذ متى هبط آدم من الجنة إلى الأرض أو كم تبقى للحياة البشرية على الأرض من وقت فموضوع آخر يصعب التّكهن به علمياً !

لا أدلة علمية إذاً ؟! ..

بلى توجد أدلة علمية لكنها توحى بموعد قيام الساعة و لا تؤكده ..

إذ يمكن تقسيم الأدلة العلمية إلى **3** أقسام .. الأول هو **تطور العلم و التكنولوجيا عبر متواليات هندسية** ، و المتواليات الهندسية رياضياً هي متواليات تتسع بشكل متسارع ، على سبيل المثال .. **2 ، 4 ، 16 ، 256 ، 65536** ... و هو حال التطور العلمي للبشرية بالفعل دون أن ننكر أن بعض الحضارات القديمة بلغت مبلغاً هاماً من العلم لا نزال نجهله حتى اليوم .. و لتوضيح هذا المفهوم تعالوا نقارب هذا التطور بالتواريخ .. فمثلاً الثورة العلمية بدأت منذ زمن قريب نسبياً في القرن **17** و الثورة الصناعية في القرن **18** و الثورة التكنولوجية في القرن **20** و علوم الفلك و الفضاء في أوائل الألفية الجديدة ، و الذكاء الاصطناعي و الواقع الافتراضي بعد ذلك بقليل .. أي أن العلم الحديث كما نعرفه اليوم ولد منذ ستة إلى سبعة قرون لا أكثر و كأنه كان في حالة سبات لآلاف السنين ثم بدأ يستيقظ منها تدريجياً ليهرول مسرعاً على درب التطور!

ما علاقة ذلك بموعد قيام الساعة ؟!

في الحقيقة هي علاقة وثيقة للغاية ، فتطور العلم منذ بدء الخليقة و حتى اليوم ينحو منحاً شبيهاً بمتواليات هندسية تتسع بتسارع رهيب .. مما يمكننا من التّكهن ببساطة أن أسرار العلوم الواسعة و الكون الشاسع تكشفنا لنا خلال فترة وجيزة خلت .. مما يعني أيضاً من

زاوية أخرى أن ما تبقى من عمر البشرية ليس بكثير فقد تم اكتشافنا للعلوم و الكون برسم خارطة رباعية الأبعاد له ..

ننتقل إلى القسم الثاني هو التطور الهائل على الصعيد العسكري و اختراع أسلحة دمار شامل كفيلة بإنهاء البشرية في غمضة عين كالأسلحة النووية و الهيدروجينية و البيولوجية و غيرها كثير أخطر و أكثر فتكاً ، مما يعيد إلى الأذهان فكرة معركة الرب الكبرى و الأخيرة (هرمجدون) في نهاية الحياة و التي ستفني أغلب البشرية كما أخبرتنا بعض النصوص الدينية القديمة غير المؤكدة .. فما كان مجرد أساطير و تكهنات خيالية غير قابلة للتنفيذ على أرض الواقع منذ قرون ، بات أمراً قابل الحدوث بسهولة ..

و لا أخفيكم القول ، هذا كلام منطقي و مخيف في آنٍ معاً ..

يتبقى لدينا القسم الثالث الأخير و هو ذو علاقة بالطبيعة و نتحدث هنا عن ثقب الأوزون الخطير و التقلبات المناخية الحادة التي و بحسب توقعات العلماء خلال القرون المنصرمة ستؤدي خلال وقت قصير قياسي إلى زوبان الجبال الجليدية في القطبين و ارتفاع منسوب مياه المحيطات لتذهب بدول كاملة ، أو العودة بالأرض إلى عصر جليدي جديد يسبب زوال قارات بكاملها .. صحيح أن البشر تمكنوا من تلافي هذه الكارثة منذ ثلاثة قرون ، لكن كل شيء وارد الحدوث نظرياً ..

و خلاصة ما سبق أن الحياة البشرية تبعاً لهذه الأدلة العلمية الثلاثة أوشكت على نهايتها ؟!

صمت الطبيب منذر قليلاً ثم أردف :

= ننتقل الآن إلى **الزاوية الدينية** في حديثنا التي تتناول مدة الحياة البشرية منذ التكليف البشري مع آدم أبي البشر و حتى قيام الساعة.

في الحقيقة هنالك هنالك نصوص دينية كثيرة حددتها ..

فلدينا مثلاً حديث منسوب لنبي الرحمة يقول :

(الدنيا جمعة من جمع الآخرة ، سبعة آلاف سنة)

و في هذا الحديث إشارة صريحة لفترة الحياة البشرية كما نتوقعها و تنسجم و تتلاءم مع ما سبق من أدلة علمية .. ففلا يخفى على أحد منا ، أنه كان بإمكان الحديث أن يشير إلى أي فترة زمنية أخرى أو ألا يشير إليها من الأساس ، لا سيما بغياب أي أحاديث أخرى تشير إلى خلاف ذلك !! صحيح أن الأحاديث النبوية ليست كلاماً منزلاً إذ تم تدوينها في القرن الثالث الهجري فحذف منها ما حذف و أضيف إليها ما أضيف و تم فهم الكثير منها بشكل خاطئ و الأخطر تلاعبت بها أصابع شيطانية من حكام و كهنة كالعادة لتكريس مصالحهم الشخصية .. لكن هذا الحديث يتقاطع مع بقية الأدلة السابقة و اللاحقة التي نتحدث عنها على نحو مثالي ، كما أنه لا وجود لأحاديث أخرى تناقضه في هذا الصدد ..

و هنالك حديث آخر منسوب للرسول محمد يقول :

(بعثت أنا و الساعة كهاتين)

رفع الطبيب إصبعين في يده و قال ..

= حيث أشار إلى إصبعين متجاورين في يده في إشارة واضحة منه إلى أن قيام الساعة ليس ببعيد عن بعثته .. ! فمحمد رسول الإسلام هو خاتم الأنبياء و المرسلين ، و بالفعل ما من أحد بعده ادعى النبوة ببراهين دامغة ، و هذا بحد ذاته إشارة سماوية إلى أن ما تبقى من حياة البشر ليس بكثير و إلا كان من البديهي أن يستمر إرسال الأنبياء كحاجة و ضرورة ملحة في حال كان أمام البشرية متسع من الوقت قبل القيامة ، صحيح ؟

= الحضور بحماسة و ترقب : بلا شك !!

= ننتقل إلى الدليل الثالث الهام و الأخير في حديثنا و هو عبارة
تنسب للرسول أيضاً و إن كان البعض ينسبها لغيره و تقول ..

(تُولف و لا تُولفان)

و هنالك دراسات هامة بلا شك أشارت إلى أن هذه المقولة تشير إلى
التاريخ الهجري الذي تجاوز ألف سنة بالفعل و تقول أنه لن يُولف
ثانيةً ، أي أن الحياة ستنتهي في اليوم الإلهي السابع الأخير في الدنيا
و الذي نعيشه الآن كما توقعت بقية الأدلة العلمية و الدينية
بالضبط !!

هي مقولة غريبة لكنني أراها مناسبة على نحوٍ مثالي !!

يتبقى لدينا موضوع أخير في هذا الصدد و هو اليوم الآخر الذي ذكر
في مناسبات كثيرة في القرآن الكريم و يقصد به الحياة بعد الموت ،
أي اليوم الإلهي الثامن في الكون الأكبر و الذي يتلو أيام الحياة الدنيا
الإلهية السبعة ، و يمكننا ببساطة أن نلاحظ أن رقم 8 يشير إلى رمز
اللانهاية الأبدي الذي لا ينتهي و لا أيام بعده ، أي اليوم الآخر بالفعل
! كما قال تعالى في قرآنه الكريم :

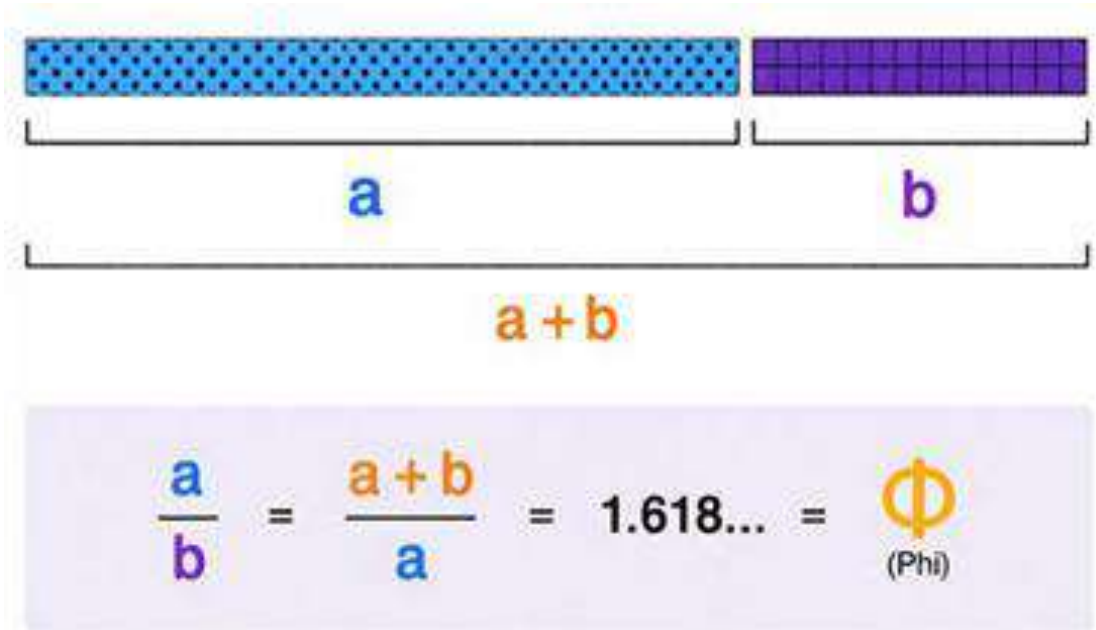
(البرّ من آمن بالله و اليوم الآخر)

مما يعزز بدوره فكرة أن مدة الحياة البشرية منذ تكليف آدم و حتى
قيام الساعة هو 7 أيام إلهية لا أكثر ..

يبقى لدينا السؤال الأهم و هو صلب محاضرتنا اليوم : متى ستقوم
الساعة في اليوم الإلهي السابع الذي نعيشه حالياً ؟ متى سيرن منبه
ساعة القيامة لتستيقظ الأجساد السماوية في الكون الأكبر معاً في
لحظة واحدة ..

و للقيام بذلك سنتطرق إلى موضوع جديد في حديثنا ، شيق و هام للغاية ، و هو **النسبة الرياضية الإلهية المقدسة** .. أو ما يعرف **بالنسبة الذهبية فاي** .. و التي يقال أنّ الكون برمته مخلوق على أساسها ، و أينما وجدت وجد الكمال ، السحر و الإتقان .. فهي تحكم كل شيء من الذرة إلى المجرة ، فنجدها في عالم النبات و الحيوان و الجسد البشري و الهياكل الأثرية و التحف و الأعمال الفنية و غيرها ..

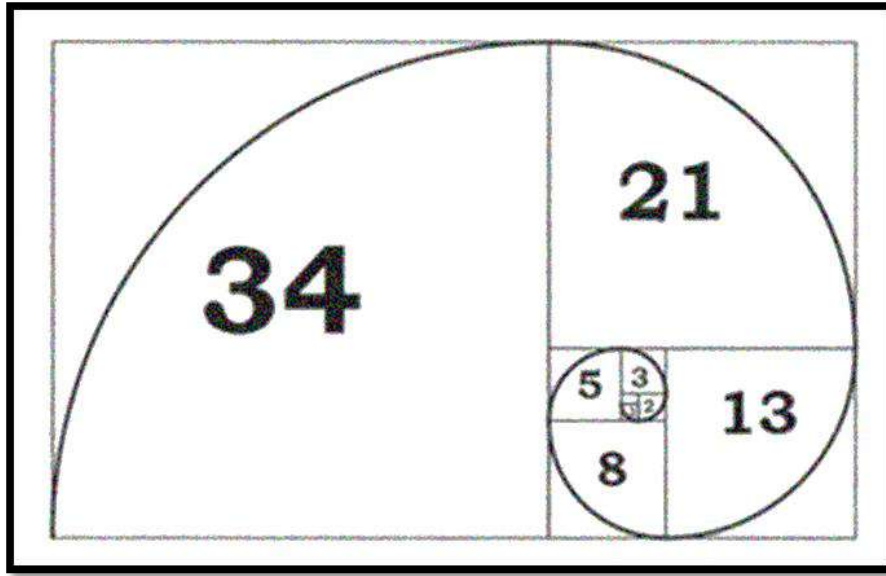
ابتسم الطبيب منذر و ضغط الجهاز في يده فظهرت على الشاشة العملاقة خلفه صورة رياضية ..



= النسبة الإلهية فاي كما يعرف بعضكم هي ثابت رياضي تعادل قيمته تقريباً **1.618** .. نحصل عليه كما هو واضح في الصورة أمامكم بتقسيم قطعة مستقيمة إلى قسمين **A** و **B** بحيث تكون نسبة الطول الكلي : **A + B** إلى طول القطعة الأطول **A** مساوياً لنسبة طول القطعة الأطول **A** إلى طول القطعة الأقصر **B** .. واضح ؟

= الحضور : واضح جداً ..

ضغط الطبيب الزر ثانية فظهرت صورة رياضية جديدة ..

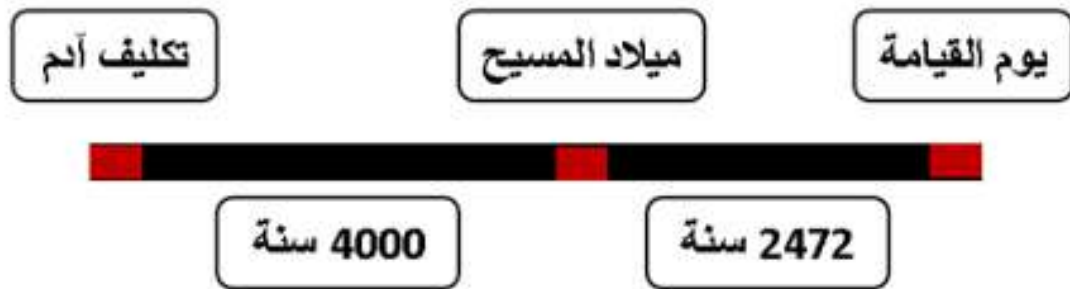


= و عادةً ما يتم تجسيد هذه النسبة المقدسة بطريقتين شهيرتين :
الأولى هي **المستطيل الذهبي** الظاهر على الشاشة ، الذي يقسم إلى
مربع مع مستطيل ذهبي آخر الذي يقسم بدوره إلى مربع آخر مع
مستطيل ذهبي جديد و هكذا بحيث تكون النسبة بين هذه الأشكال
الهندسية المتتالية هي فاي .. أما الطريقة الثانية فهي **متوالية
فيبوناتشي الرياضية** ، و هي عبارة عن سلسلة من تتابع أرقام مرتبة
بحيث يكون كل رقم فيها هو نتيجة جمع الرقمين السابقين (**0، 1،
1، 2، 3، 5، 8، 13، 21 ...**) .. و قد وضعها عالم
الرياضيات الإيطالي **ليوناردو فيبوناتشي** في القرن **13** و هو نفس
العالم الذي أدخل الأرقام العربية إلى الثقافة اللاتينية و ما تزال
مستخدمة في الغرب حتى اليوم و تعرف خطأ بأنها الأرقام الأجنبية
، أما الغريب في هذه المتوالية أن قسمة كل رقم فيها على الرقم الذي
يسبقه هو النسبة فاي دائماً ، مثلاً **8** تقسيم **5** يساوي **1.618** ..
وهكذا ..

صمت الطبيب للحظات و شرب قليلاً من كأس الماء أمامه ثم أردف
بابتسامة :

= أسمع كثيرين منكم يتهامسون بدهشة : لكن ما علاقة هذه النسبة بموعد القيامة ؟!

بالطبع هذا هو السؤال الأهم ، و كي نجيب عليه علينا أن نفكر قليلاً خارج الصندوق .. لنعد قليلاً إلى القطعة المستقيمة التي تحدثنا عنها في صورة سابقة ، فإذا افترضنا بأن المدة الزمنية بين آدم و قيام الساعة هو كقطعة مستقيمة تقيس **X** و آما بأن ميلاد السيد المسيح هام لأنه يأتي في نقطة من هذه القطعة تحقق النسبة الذهبية فاي ، فيمكننا بحسبة بسيطة أن نستنتج كم عدد السنوات من ميلاد السيد المسيح إلى قيام الساعة و الذي يحسب عن طريق تحديد قيمة **X** حيث تساوي حاصل ضرب الرقم **4000** بالرقم **1.618** وذلك يساوي **6472** سنة .. لأن نسبة طول القطعة الكلية **X** و هو عمر الحياة البشرية على طول القطعة الكبرى منها و هو الفترة من آدم إلى السيد المسيح أي **4000** سنة بحسب تسلسل آشر الزمني يساوي النسبة الذهبية فاي **1.618** كما افترضنا ، و هذا ينسجم مع ما توصلنا إليه في حديثنا السابق بأننا الآن في اليوم الإلهي السابع من نزول آدم إلى الأرض و بأن الحياة الدنيا جمعة من جمع الآخرة حوالي **7000** سنة أرضية .. و بالتالي يكون تاريخ قيام الساعة المقدّر هو **6472 - 4000 = 2472** من ميلاد السيد المسيح ، أي أن السنة الهجرية ستولف و لن تؤلف ثانية بالفعل !!..



نظر الحضور إلى بعضهما بذهول ، قلق و رعب ، هذا الموعد

المنطقي رياضياً و دينياً يتلاءم تماماً مع الأحداث التي جرت مؤخراً
حول العالم !! ..

إنه كلام مذهل و منطقي و خطير .. فالنسبة فاي التي تحكم كل شيء
، لا عجب أن تحكم فترة الحياة البشرية بحد ذاتها !!
في حين ختم الطبيب محاضراته بكلام أخير ..

= و كما ترون ، الموعد الذي توصلنا إليه يتماهى بقوة مع مجريات
الأحداث العالمية الراهنة ، لا أنكر أنه كلام مخيف ، لكن الحقيقة
يجب أن تبصر النور و لو آلمت ضمائرنا .. أماننا عامان فقط قبل
أن ينتهي كل شيء !!

في الختام ، ما سبق و شرحته هو مجرد اجتهاد نابع من تكليف إلهي
قرآني كما صرحت الآية التي ذكرناها في بداية محاضرتنا .. و
سواء كان الاجتهاد مصيباً أم لا ، فعلى البشر أن يستغلوا كل ثانية
من حياتهم في صلاح الأفكار و الأقوال و الأعمال كي يلاقوا ربهم
بضمير مرتاح فلا يخلجوا من نشر كتابهم الذي يتناول حياة أجسادهم
الأرضية على الملأ ..

فما أدرانا ربما كانت الساعة أقرب إلينا من ظلنا بالفعل ؟ لا يسعنا
سوى الانتظار و الترقب لإلام ستؤول إليه فصول المسرحية التي بتنا
نعيشها مكرهين منذ أشهر ..

أشكركم مجدداً على تشريفي بحضوركم و أتمنى لكم يوماً هانئاً و لو
كان سرقة وسط ما نعيشه من أهوال ..

لم يكد الدكتور منذر عبد الحي ينهي جملته الأخيرة في المحاضرة،
حتى خيم على القاعة صمتٌ غير مألوف...

ليس صمت الخشوع، ولا صمت الاحترام، بل هو صمت أولئك الذين
سمعوا شيئاً لن يخرج من رؤوسهم بسهولة.

لقد قالها بكل وضوح :
أمامنا عا مان فقط قبل النهاية ..

لم يصرخ، لم يتوعدّ، لم يلوّح بسيف الغيب، بل نطق بها كما ينطق
الطبيب بخبر إصابة مريض بورم خبيث...
صوت متزن، هادئ، لكنه يغوص في العظم.

كالنار في المشيم ..

في الزوايا، بدأت الهواتف تسجّل. بعضها خفية، وبعضها جهراً.
كأن الجميع شعر، رغم رهبة المقام، أن ما قيل في تلك القاعة ينبغي
أن يُسمع... أن يهرب من الجدران... أن ينتشر مثل برق في
عاصفة.

وما هي إلا ساعات حتى بدأت المقاطع تُقص وتُنسخ وتُرسل ..
من هاتفٍ إلى آخر ..
من طالب إلى أمّه ..
من موظف في شركة إلى مجموعة واتساب عائلية في أقصى الريف
عبر نظارات الواقع الافتراضي ..

كلامٌ لا يُشاهد من باب الفضول، بل يُشاهد كما يترقب الناس عقارب
الساعة قبل أن يرن جرسها ..

خلال أيام قليلة،

بدأت الترجمة تنهمر كالمطر على مقطع محاضرة الطبيب المصري.

– نسخة فرنسية تنقل صوته بلهجة غربية لكنها تحتفظ بجمر النبوءة.

– نسخة إسبانية ترافقها موسيقى كئيبة، انتشرت بين الشباب كأنها أغنية نهاية.

– حتى اليابانيون، الذين لا يؤمنون عادة بالخلاص الديني،

راحوا يتداولون المقطع تحت رسم :

「最後の2年」

العامان الأخيران

الصحف العالمية بدأت تتعامل مع الأمر بجدية محرجة :

– هل نحن أمام مجنون جديد ؟

– أم أن العلم والدين قد التقيا أخيرًا في جملة واحدة ؟

لكن (السوشال ميديا) لم تنتظر تأكيدًا ولا تكذيبًا. أصبح الفيديو خلال أيام (ترندًا) لا يمكن إيقافه، ومحتواه يتغلغل في كل العقول كما يتغلغل الخوف في طفلٍ يسمع أول مرة عن الموت.

الناس لم يعودوا يتناقشون فيما إذا كان كلام الطبيب صحيحًا أو خاطئًا، بل كيف يجب أن يتصرفوا إن كان... صحيحًا فعلاً.

في الفيديو المتداول، بدا منذر ثابتًا في وقفته، عيناه لا تهربان من الكاميرا، وصوته لا يرتجف.

قال ما يشبه الهمس، لكنه هزّ مدناً بأكملها :

أمامنا عامان فقط...

عامان قبل أن يقف كلّ واحد منكم في حضرة البارئ، وكتابه منشور أمامه، صفحةً صفحة، جملةً جملة، فكيف تودّ أن تكون خاتمتك ؟

لم يكن يُخيفهم، بل يُنذرهم. ولذلك... صدقوه.

المدن بدأت تُبطئ إيقاعها..

شركات أعلنت أيام عطلة للموظفين من باب الرفق ..

معدلات الانتحار انخفضت بشكل غريب،

لكنها ترافقت مع زيادة مرعبة في الزيارات للأطباء النفسيين .

بدأ الناس يسألون أنفسهم :

— ماذا كنت سأفعل لو علمت أن نهاية حياتي بعد عامين ؟

— هل أتصالح ؟ أعذر ؟ أحبّ ؟ أعترل ؟ أهرب ؟ أوّمن ؟
أرفض ؟

كان الجواب الوحيد الذي لا يقبل التأجيل هو :

لا وقت للندم لاحقاً.. ابدأ من الآن ..

وهكذا، تحوّلت محاضرة واحدة من طبيبٍ مولع بالقرآن والتشريح و
المجهر ، إلى صرخة روحية عالمية ، لا لتهديد الناس، بل لتذكيرهم
أنهم... زائلون.

الفصل الرابع

مخطوطة فوينيشي

خريطة بييري ريني

وهرم المسوورت

كان المساء قد تهادى على المرفأ كما يتهادى الكهرمان على عنق
حسناء ..

ألوان الغروب تنزلق ببطء فوق سطح البحر، تصبغ مياهه بدرجات
النبيذ الغامق، فيما تنعكس أضواء المراكب على الموج كشظايا نجوم
سقطت في الماء.

وفي قلب هذه اللوحة المتحركة، أطلّ يخت أبيض طويل أنيق، كطائر
بحري عاد من رحلته الأسطورية، متعباً لكن مكللاً بالمجد.

على ظهره، وقف ميغيل،

رجل في الستين،

لكن من نوعٍ لا تعد فيه السنوات، بل البحار التي عبرها.

وجهه مغطى بطبقة رقيقة من الشمس والملح والحنين، كأن بخار
المحيطات ما زال يطفو حوله حتى على اليابسة.

كانت يده الخشنتان تشهدان على معارك مع الرياح، وعيناه، تلك
العينان الرماديتان، تحملان في حدقتيهما خرائط دولٍ وقصص نساء
ونبوءات قراصنة.

هو قبطان سابق، نعم، لكن قلبه لم يترجل يوماً عن ظهر البحر
فاشترى يخته هذا كبوابة عبور دائمة إلى العالم المائي ..

حين لمح ملامح المنزل الخشبي المطلّ على الساحل، تنفس بعمق،
وكان الوطن لديه لم يكن أرضاً، بل عينا امرأة تنتظره هناك.

في فناء المنزل، وقفت زوجته ماريانا.
خمسينية أنيقة، بابتسامةٍ وُلدت من عمق الشوق لا من سطح الوجه.
وجهها ناعم كصفحة رواية قديمة تقرأها على مهل، وفي عينيها
بحرٌ خاص، ليس فيه أمواج بل أسرار.

حين اقترب ميغيل، فتحت ذراعيها كأنها تستقبل فصلًا طال انتظاره
= زوجتي العزيزة...

قالها وهو ينزع قبعته البحرية ببطء،
= يبدو أنك تحملين في قلبك أخبارًا تكسر الروتين، وتداعب تلافيف
الدماغ.

ضحكت ماريانا، لا كما تضحك النساء، بل كما تضحك العرافات
قبل إلقاء نبوءة.
= أصبت.

= هاتِ ما عندكِ على الفور.

= لقد... فككتُ شفرتها.

= المخطوطة ؟

ارتفع حاجباه كقوسين من دهشة.

= هي بذاتها.

= لكن... كيف ؟ لقد أفنيتِ عمرًا في سبر أغوارها دون جدوى،

بل سبقك الآلاف إليها، على مدار قرون... حاولوا و فشلوا.

= إنه الذكاء الاصطناعي، عزيزي...

= لكنك لجأت إليه من قبل!!

= هذا مختلف... موقع ياباني جديد متطور للغاية .. أدخلتُ إليه نسخة المخطوطة، وبلمسة واحدة فقط... جاءني الحل على طبق من فضة.

ميغيل، الذي قاوم عواصف مضيق ماجلان وسحب بحارة من فك الموت، شعر لوهلة بشيء يشبه الرهبة.

= هل... أنت متأكدة؟

سألها بصوت خافت، كأن الكلمات نفسها تخاف أن تخرج.

= أكثر من أي وقت مضى .. تعال معي ..

سارت أمامه نحو غرفة المكتب و هو يتبعها كسفينة تلاحق الأفق.

الغرفة كانت نصفها مكتبة ونصفها مرصد. جدرانها مرصوفة بخرائط قديمة، وعلى رفوفها تبعثرت رسائل كُتبت بخط اليد، وعدسات مكبرة، أما الأدراج فتخفي أشياء غريبة : شظايا من سفينة غارقة، رماد من معبد مهجور، ريشة من طائر لا يُعرف اسمه.

وعلى الطاولة... كانت نسخة من المخطوطة. جلدية، داكنة، مشققة الأطراف. كتاباتها غير مفهومة، رسومها مبهمّة، كأنها رسالة من حضارة ضائعة في زمنٍ لم يكن بعد زمناً.

فتحها ميغيل كما يفتح كاهن كتابه المقدس.

ماريانا وضعت بجانبه الجهاز اللوحي، وفيه... الترجمة.

جلس القبطان بصمتٍ ثَقِيلٍ، وقد انحنى ظهره قليلاً كأن شيخوخة المحيطات قد عادت لتستقر بين كتفيه للحظة واحدة فقط. عينا البحار الذي جاب أقاصي العالم في حياته تتأملان الفراغ، لكن داخله كان يضجّ بتسونامي ذاكرة قديمة.

لقد عرف تلك المخطوطة، **مخطوطة فوينيش**، من زمن بعيد. فقد انكبت زوجته على تفسيرها لعقود طوال ..

كانت تظهر أحياناً على هوامش الحديث في المؤتمرات ..
وتلوح كسراب في مجالس العلماء ..

كتابٌ يشبه الأحلام : ملموس... لكنه يفلت دائماً من الحلّ ..
أعاد ترتيب ذكرياته عن المخطوطة كما لو أنه يُحرّك أشرطة ذهنية :

في أحد أركان مكتبة بينيك بجامعة يال الأمريكية، ترقد النسخة الأصلية من المخطوطة وحيدة، غامضة، مسكونة بهمهمات قرونٍ من الأسرار.

اسمها لا يشبه أسماء المخطوطات الأخرى من مخطوطة غيغاس إلى مخطوطات قمران ثم مخطوطة حي بن يقظان و غيرها ..

هي لا تُنسب إلى مؤلف، ولا إلى حضارة، ولا حتى إلى لغة مفهومة، بل إلى رجلٍ بولندي اكتشفها مصادفة : ويلفريد فوينيش، تاجر كتب نادرة، الذي اشتراها عام **1912** من دير يسوعي قديم في إيطاليا، دون أن يدرك أنه أخرج من قبو التاريخ أكثر المخطوطات إرباكاً وغموضاً في العالم.

تتكون المخطوطة من نحو **272** صفحة، مكتوبة بخط يد أنيق، مائل قليلاً، و بلغة مجهولة، أو بالأحرى، نظام رمزي لا يشبه أي لغة عرفت البشرية. لا هي لاتينية، ولا عربية، ولا عبرية، ولا حتى

من اللغات القديمة المندثرة.

وبالرغم من جهود مئات اللغويين والخبراء عبر أكثر من قرن، لم يتمكن أحد من فك شفرتها.

الخطوط رشيقة ومنمقة، تبدو كما لو أن كاتبها لم يكن يكتب، بل يرسم تعويذة، والحبر الذي سطرت به الكلمات لا يزال محتفظاً بلونه الداكن، وكأن الزمن نسي أن يبهت سرّه.

تم فحص ورقها بالكربون المشع، فثبت أنها تعود إلى أوائل القرن الخامس عشر، و على وجه أكثر دقة ، بين عامي **1404** و

1438 ..

لكن لا شيء في محتواها يشي بعصرٍ محدد، فهي أقرب إلى السفر بين العصور، تارة تعود بك إلى عصور ما قبل العلم، وتارة تدخلك مختبراً من المستقبل.

ما يجعل المخطوطة أكثر فتنة من أي نص قديم، ليس فقط رموزها الغريبة، بل رسوماتها التي تعجز المخيلة عن احتوائها.

في صفحاتها، تنتشر رسوم لنباتات لا تُشبه أي نباتٍ معروف، بعضها يبدو كأزهار، لكن جذورها تتشابك كما تتشابك أفكار الحالمين، وبعضها يحمل أوراقاً كأنها رقائق نجوم.

وهناك رسوم لنساء عاريات، لكنهن لا يظهرن لإثارة الحس، بل لأداء طقوس مجهولة، يغطسن في أنابيب تشبه الأوعية الطبية، كأنهن نماذج في تجربة علمية من عصرٍ لم يأت بعد.

وفي أقسام أخرى، تنتشر رسوم فلكية دقيقة ..

دوائر متداخلة، كواكب متقابلة ..
مدارات تلتف كأفاعٍ نائمة ..
لكن دون أسماء، ودون توقيت ..
كما لو أنها خرائط لعالمٍ موازٍ ..
أو كُتِّبَ إرشادات لمخلوقات لا نعرفها.

قسم آخر يحتوي على ما يشبه الوصفات ..
رموز وأرقام ..
لكن بدون وحدات أو لغة أو سياق.

هل هي كتاب علاجي ؟
هل هي مخطط علمي ؟
أم أنها رسالة من حضارة لم نعرفها بعد... وربما لن نعرفها
أبداً ؟

ظلّ السؤال الأكبر يحوم حولها :
هل كُتِّبَ كـأسرار لتكشف... أم كخدعة لـتُربك ؟
ولماذا صمدت لقرون، متحدية العلماء، والمؤرخين، والمزييفين، دون
أن تُفتح أبواب معناها ؟
هل كانت رسالة إلى المستقبل ؟
أم بقايا نبوءة لم يحن أو أنها بعد ؟
رفع ميغيل عينيهِ نحو زوجته ماريانا، ورأى في وجهها ما لم تفصح
عنه الكلمات بعد.

كانت تقف أمامه بكامل ثققتها، لا كزوجة فقط، بل كباحثة تُمسك بين يديها واحدة من أعظم لحظات حياتها العلمية.

ماريانا لم تكن امرأة عادية... هي ابنة الأندلس في روحها قبل دمها، وجهها بلون الغبار الخفيف الذي تتركه الشمس حين تُقبل الجدران الحجرية لقصر الحمراء. وفي عينيها ظلُّ مكتباتٍ قديمة، حيث الأوراق الصفراء تهمس بأسرار ضائعة.

لم يكن الناس في بلادهم يفهمون مشاعرهم حين ينظرون إلى ملامحها، فهي غريبة... ليست أوروبية تمامًا، ولا عربية بالكامل، بل شيءٌ بينهما، كما لو أن الزمن نفسه بكامل حقه مرَّ بها وترك بصماته.

لوّحتها شمس الأندلس، لا تلك التي تغرب من السماء، بل شمس الحضارة التي غربت منذ قرون، وهاجرت إلى محياها فسكنت كقمر مكتمل هناك.

كانت عالمة في الآثار، لكن ليست كباقي علماء المتاحف الصامتين، بل عاشقة للمخطوطات الغامضة، تُصغي للورق كما يُصغي العاشق للأنين، وتقرأ الرموز كما يُقرأ الشعر.

ولطالما كانت مخطوطة فوينيش العجيبة هاجسها الأكبر، تجري خلفها كمن يبحث عن وطنٍ في الرمل، تحلل، تقارن، تستعين باللغويات، وبالتاريخ، وبالأساطير...

حتى جاء اليوم، حين زارها ذكاء اصطناعي ياباني متطور، موقع أشبه بمعبد رقمي، اصطدمت به صدفة، أو ربما اصطدم بها عمداً كلمسة قدرية..

أدخلت فيه نسخة من المخطوطة... فأجاب خلال ثوانٍ معدودات، بما عجز عنه الآلاف... عبر قرون.

نهض ميغيل واقفاً، كمن يستعدّ لعبور بوابة غير مرئية.. اقترب منها... من زوجته التي أحبّها مرتين، مرة لأنها زوجته، ومرة لأنها وقعت في حب المستحيل.

قال لها بصوتٍ يشبه خشب المرافئ القديمة :

= أريني يا ماريانا... أريني ماذا قال لك هذا الكيان الذكي عن الكتاب الذي حيّر العقول والنساخ والعلماء على مرّ العصور.

أشارت إلى الشاشة، وجلست بجواره.

وبين سطور الترجمة، بدأت تتكشف له حقيقة غير متوقعة :

أن هذا الكتاب ليس وصفاً لعالمٍ كان...

ولا لعالمٍ سيكون...

بل لعالمٍ موازٍ، يعيش بجانبنا، يرانا... ولا نراه.

عالم يحكمه علم مختلف، قوانينه الفيزيائية غير مألوفة، وتقويمه الزمني لا يشبه تقويم البشر.

أشارت إحدى الصفحات إلى نقطة التقاء بين العوالم ..

قالت ماريانا :

= ربما تكون بوابة... أو لحظة زمنية فريدة... أو حتى حدث كوني ، و في صفحة أخرى تم الإشارة إلى نبوءة لا يفهما إلا من رأى الصخرة الملتهبة تقترب من الأرض لتغرقها في الظلام ..

نظر ميغيل إليها، وكان البحر في قلبه يضطرب من جديد.

قال بصوت منخفض:

= هل تقصد الصفحة النيزك الذي رصدته وكالة ناسا منذ أسابيع ؟

أجابت، وعيناها تلمعان ببريق الدهول :
= ربما .. لا يمكنني الجزم و لا الإنكار ..

سكتا معًا، كأن الزمن قد انحنى ليصغي إليهما... وربما ليتسرب من
بين أصابعهما، حاملاً سرًا، أغلق لقرون... ثم فُتح أخيرًا، على يد
امرأة يتلون على وجهها قمر الأندلس.

وقف القبطان ميغيل أمام الشاشة، والدهشة تعقد جبينه.
سألها مجددًا بصوتٍ خفيضٍ لكنه يثقب جدار الصمت كشعاع ليزر:
= و هل ثمة أسرار أخرى هامة في المخطوطة ؟

ابتسمت ماريانا ابتسامة صغيرة... ليست نشوة، بل رهبة.
= المخطوطة مكتنزة بالأسرار .. تلال ذهب ، عمالقة ، حيوانات
ناطقة ..

قالت،

= لكن على رأسها يقبع السرّ الأخطر بلا منازع.

ثم مشت بخطى ثابتة إلى رف الكتب المائل، وسحبت منه مجلدًا
غريب الغلاف، بدا كأن الجلد الذي يكسوه ليس جلد حيوان... بل
جلد الزمان نفسه.. أطلس الأرض بنسخة عتيقة في كفن من غبار.

وضعت الكتاب على الطاولة وفتحته بعناية، صفحة تلو الأخرى،
حتى وقفت عند مخطط هرمي مُحاط بدوائر ودوامات وكتابات على
هيئة رموز.

= هنا ..

قالت،

= يتحدث نص المخطوطة عن هرمٍ غامض... يقع في أكثر بقاع الأرض جموحاً و برودة ، في قارة لم تطأها أقدام كثيرة، القارة القطبية الجنوبية.

ارتعشت أطراف القبطان للحظة، وهو من ظن أنه لم يعد في الدنيا شيء قادر على إدهاشه.

تابعت ماريانا بصوت يملؤه مزيج من الثقة و التشويق :

= إنه **هرم السوورث** .. ذلك الكيان الغامض الذي ظلّ العلماء حائرين أمامه لعقود.. و القابع في قلب الصقيع الأزلي، في القارة البيضاء التي لفظتها الأرض مع آخر أنفاسها ..

يقف هيكله العظيم ليس كمجرد جبلٍ جليدي أو قمة صخرية مثل آلاف غيرها، بل كتكوين مهيب يجمد العقل بدهشة لا تدوب.

يقع هذا الهرم الجليدي الغامض في منطقة أرض فيكتوريا في أنتاركتيكا، وتحديداً على مقربة من ساحل بحر روس ..

ويُعدّ واحداً من أكثر التشكيلات الجيولوجية التي أثارت جدلاً منذ اكتشافه في ثلاثينيات القرن العشرين.

اكتُشف لأول مرة من الجو عام **1935**، على يد فريق استطلاع أمريكي، كانوا يبحثون عن تضاريس جديدة لإضافتها إلى الخرائط...

لكن ما رأوه من نافذة الطائرة كان شيئاً يتجاوز علم الخرائط. قمة هرم ثلاثية واضحة الزوايا، قاعدته واسعة ، وأضلاعه ترتفع بانسياب دقيق كما لو كانت قد صممت لا بفعل الطبيعة، بل بأصابع محترفين على دراية بفنون النحت و التصميم ..

كل ضلع من قاعدته يقارب الكيلومترين، أما ارتفاعه فيناهز **400** متر ..

ولا وجود لجبال مجاورة تشبهه في الشكل أو التكوين.

أعطوه لاحقاً اسم **جبل سوس** تكريماً لعالم جيولوجيا بريطاني، لكنّ المتتبعين للظواهر الغربية، وسكّان الأسئلة المستحيلة، أطلقوا عليه اسماً آخر: **هرم السوورث** ، نسبةً إلى مكتشفه الأول ..

عند النظر إليه عبر الأقمار الصناعية أو التصوير الجوي، يبدو الهرم كما لو كان صورة مكررة لهرم خوفو المصري... لكن على أرض من جليد، في منطقة يستحيل فيها وجود حضارات بشرية سابقة.

العلماء حاولوا باستمرار إقناع العامة بأنه مجرد تشكيل طبيعي، نشأ نتيجة ملايين السنين من عوامل التعرية والضغط الجيولوجي، وأن الشكل الهرمي ليس دليلاً على صنيع عقلٍ واعٍ، بل محض مصادفة هندسية.

لكنّ العين لا تُخطئ.

لاسيما أنّ هناك ما هو أدهى من الشكل :

تمّ رصد ترددات مغناطيسية غريبة تصدر من محيطه الداخلي. الصور الحرارية تُظهر مناطق دافئة غامضة تحت سطحه الجليدي. نظرية بناء الهرم بعرق الجباه لا بصبر الطبيعة ، كانت تُعدّ ضرباً من الهوس، لكن اليوم باتت على طاولة الباحثين و العلماء أكثر من مجرد فرضية ..

هناك من يعتقد أن الهرم يخفي بوابة، أو رسالة، أو تقانة ما قبل التاريخ.

و المدهش أكثر في الموضوع أن الهرم مرصود قبل قرون من

اكتشافه في خرائط عتيقة كساها الغبار و أهملها فضول البشر ..

= معقول ؟!

تمتم ميغيل بدهشة.

= بالطبع .. لقد ظهر الهرم على خريطة أخرى لا تقل غموضاً ..

تقدّمت ماريانا نحو درجها القديم وسحبت نسخة مكبرة من خريطة ،
فرشتها أمامه كما تُفرش سجادة صلاة.

الألوان باهتة، والخطوط كأنها رُسمت بريشة ساحرٍ أزتكى أو كاهن
فودو ، تُظهر بدقةٍ مدهشة شواطئ أفريقيا الغربية ، وسواحل أمريكا
الجنوبية الشرقية ..

ثم المفاجأة :

القارة القطبية الجنوبية... بدون جليد.

= ما هذا بحق السماء ؟! أنتراكتيكا بدون ثلوج !!

هتف ميغيل..

= تماماً ، هذه واحدة من أغرب خرائط التاريخ التي تحوم حولها
الأسرار و حيكّت من أجلها عشرات القصص الغامضة .. **خريطة**
بيري ريس.. فإن كانت فوينيش **المخطوطة** الأكثر غموضاً ، فبيري
ريس هي **الخريطة** التي تشاطرها الغموض ذاته ..

= و ما قصة هذه الخريطة العجيبة بدورها ؟!

= في العام **1929**، وأثناء أعمال ترميم روتينية لجدران **قصر**
طوب قابي العثماني في إسطنبول، عثر أحد أمناء المتحف بالصدفة
على جلد غزالٍ قديم، مرسوم عليه ما بدا أول الأمر خطوطاً باهتة

غير ذات معنى.

لكن ما إن وُضع تحت عينٍ خبيرة، حتى انكشفت الحقيقة التي هزّت الأوساط العلمية والتاريخية على حد سواء :

كانت هذه واحدة من أقدم الخرائط الكاملة للكوكب... نادرة، دقيقة، وغامضة إلى حد لا يُطاق.

هذه الخريطة المذهلة، التي رُسمت عام **1513**، تحمل توقيع أميرال الأسطول العثماني بيري ريس، وكانت جزءًا من أطلس بحري مفقود.

رُسمت على جلد غزال، بألوان باهتة بفعل الزمن، لكنها لا تزال تحتفظ بسحرٍ يُشبه السحر القديم المحفور على الحجر.

تشمل الخريطة جزءًا من الساحل الغربي لأفريقيا، والساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية، وجزر الكاريبي ..

والأكثر إثارة :

القارة القطبية الجنوبية ... لكن بدون جليد.. كما ترى بنفسك.

قوس ميغيل حاجبيه بدهشة :

= غريب ؟!

= بلى ، تظهر أنتاركتيكا وكأنها جزيرة خضراء، عارية من أي غطاء جليدي .. رُسمت كما لو أن من خطّها كان يراها بعين مجرّدة، لا من خلال طبقات من الثلج عمرها آلاف السنين.

وهنا تبدأ الحكاية.

ما حيرّ العلماء ليس فقط شكل القارات المرسومة، بل الدقة التي تفوق زمنها.

كيف لرجل من أوائل القرن السادس عشر أن يرسم بهذه الإتقان ؟
في زمنٍ لم تكن فيه أدوات قياس الطول والعرض الجغرافي قد
تطورت بعد ؟ و لا إمكانية للتصوير من السماء !!..

صرّح بيري ريس في هوامش الخريطة أنه اعتمد على عشرين
خريطة أخرى كمصادر، منها خرائط عربية ويونانية قديمة، ومنها
– كما زعم – خريطة كريستوفر كولومبوس نفسه، التي لم يعثر
عليها أحد حتى اليوم.

لكن الأغاز لا تتوقف هنا...

فبعض الأبحاث – ومنها دراسة قُدمت إلى الكونغرس الأمريكي في
الستينيات – أكدت أن الخريطة تُظهر معالم أرضٍ لا يمكن رؤيتها
اليوم إلا عبر المسح الراداري تحت الجليد.

أي أن من رسمها كان يملك معرفة طبوغرافية لأرض مغطاة بالجليد
منذ أكثر من ستة آلاف سنة!!

وهنا ظهرت نظريات مثيرة :

هل اعتمد بيري ريس على خرائط من حضارة مفقودة ؟

حضارة سبقت العلم الحديث ؟

أم أن جهات أخرى – غير بشرية – قدّمت للإنسان شرارة المعرفة
مبكراً ، كفضائيين رصدوها من السماء منذ مئات الآلاف من
السنين ؟

أم أن آخرين من كونٍ موازٍ رسموها كما هي لديهم .. ؟

اقترب ميغيل من الخريطة و تأملها بدهشة ..

الخريطة مكتظة بتفاصيل دقيقة : تُرسم الحيتان كالملوك، و السفن
تمخر البحار مزينة بالأشعة، وتُحيط بالمحيط الأطلسي إشارات

توضح اتجاهات الرياح، ومسارات التيارات البحرية، كأنها خريطة لأحلام المستكشفين... أو دليل إلى بوابات الأسرار.

تابعت ماريانا كلامها ..

= خريطة بيرى ريس ليست مجرد قطعة أثرية، بل صفحة ضائعة من كتاب الأرض.. خريطة تسخر من الحدود الزمنية التي فرضها علينا التاريخ، و تُلَمِّح أن العالم الذي نعرفه ربما كان معروفاً، مرسوماً، ومسكوناً بالحضارات... قبل أن نبدأ بكتابته.

أشارت إلى هرم مرسوم في الهامش الجنوبي من الخريطة .

= و مخطوطة فوينيش تطرقت إلى هرم إلسورث الذي تراه على الخريطة بوضوح... وقالت ، بحسب ترجمة الذكاء الاصطناعي ، أنه يخفي في جوفه أحد أكبر أسرار التاريخ كما آمن كثيرون من قبل ، بل حددت موقع بوابته السرية بدقة وطريقة فتحها ، لتحسم الجدل بأنه هرم من صنع كائنات حية و ليس صنعة الطبيعة كما كان مرجحاً ..

ميغيل، الذي خاض حروباً بحرية لا تعد ضد الطبيعة، شعر لوهلة أنه يقف أمام شيء أعمق من خندق ماريانا .. لكن ماريانا الأخرى ، زوجته ، لم تمنحه ترف التفكير ، فقالت بصوت هامس و جاد :

= إذن... ما رأيك، أيها القبطان ؟ هل نمضي إلى هناك برحلة بحرية على متن يختك، نحمل معنا هذه الأسرار، ونصل إلى الهرم بأقدامنا فنفتح بوابته ، لندخل التاريخ من أوسع أبوابه ، من بوابة الجغرافيا .. أو ربما إن كنا محظوظين أكثر نلج إلى قلب الحقيقة ذاتها.

ضحك ميغيل ضحكة قصيرة، لكنها كانت محملة برضا المغامر

الذي وجد وجهته التالية.

= ولمَ لا ؟

قال،

= كنا اتفقنا على رحلة الشهر المقبل إلى جزيرة القيامة في تشيلي،
و لا مانع من تغيير اتجاه البوصلة قليلاً... من الغرب إلى الجنوب،
نحو قارة الثلج و المجهول.. فلعل قيامة أخرى تنتظرنا هناك !!؟

اقترب منها، أمسك بيدها وقال بهدوء :

= لكننا سنحتاج إلى تجهيز دقيق.. فهذا النوع من الرحلات لا يقبل
العبث.

= بالطبع...

أجابته ..

= لدينا أسبوع كامل لإعداد المؤن والمعدات.. و سنستعين بثلاثة
مساعدين بخبرات متنوعة بحسب ما تفتضيه الرحلة، كما أننا سنجّهز
كاميرات تحت الحمراء، ناهيك عن اصطحابنا لكميات مهولة من
المؤن... وسنأخذ معنا كل الاحتمالات، لكننا سنترك خلفنا شيء
واحد ... **الخوف** .. فلا قمره له على سطح يخت مغامرتنا هذه ..

ارتفعت نظراتهما نحو الخارطة، حيث الخط الأحمر ينحدر من
قارتهم الموعلة في القدم إلى نقطة صغيرة في القطب الجنوبي
المجهول البكر .. مرتع الغموض و الأسرار.

تلك النقطة...

حيث ينتظر هرم السوورث، منذ آلاف السنين ، أن يطرق بابه أول
من يجرو.

الفصل الخامس

سُذِي الْقَرْنِين

فرنسا / إمارة موناكو ..

2471 م ..

في عوالم الطموح البشري، حيث تتقاطع الخطوط بين الرفاهية والانطفاء، يقف باسكال دوبويسون كاستثناء نادر.

رجلٌ فرنسي، في أواخر الستين من عمره، يملك ثروة توازي ميزانيات دول، لكنه لم يكن أسير أرقامٍ تلمع على شاشات البورصة، ولا عبداً لقصور فاخرة نُقشت جدرانها بذهب الأباطرة.

لقد جنى كل شيء يمكن أن يُجنى ..

وتربع على عرش إمبراطوريات العقار، والتقنية، والتمويل ..

لكن قلبه ظل جائعاً...

ليس للجواهر أو المجد ..

بل لصوت المغامرة وهي تنبض في عروقه كالطبول.

باسكال دوبويسون، للوهلة الأولى، رجلٌ لا يُنسى.

بنيته لم تكن ضخمة بالمعنى التقليدي، لكنها تنطق بقوة ناعمة، كما لو أنّ جسده تكوّن من صخور الغابات القديمة، منحوتة بالرياح والأسرار. طويل القامة، عريض الكتفين، يحمل في قامته المنتصبّة أثر سنين من ركوب الخيول، التسلق، ومواجهة الطبيعة بنديّة.

وجهه كخريطة ملوّنة بالتجربة...

كلّ تجعيده فيه تشبه خط عرض عاشه، أو خط طول عبره.

جبينه واسع، كأن أفكاره دائماً في حالة تحليق. عيناه بلون العسل

المحترق، تتبدّل ألوانهما تحت الضوء، وتكاد تقول إنهما رأتا أكثر مما يُحتمل. فيهما بريق تحدّد دائم، لكنه مكسوّ بشيء من الحزن الجميل، كأن داخله ساحة معركة لا تنام.

أنفه مستقيم كقمة لم تمسسها يد البشر، وفمه مرسوم بخط رفيع يوحي بالحسم أكثر مما يوحي بالابتسامة.

حين يضحك، — وهو نادرًا ما يفعل — يبدو وكأنه يُفرج عن سرّ دفين لا يمنحه إلا لمن يستحق.

شعره الرمادي المائل إلى الفضيّ، كان كثيفًا بشكل غير متوقّع في سنّه، أشعث أحيانًا، ومسرّح بعناية حين يظهر في المؤتمرات. لكنه في العمق لا يهتمّ كيف يراه الناس، بقدر ما يهتمه كيف يرى هو نفسه في مرآة الإنجاز.

ملابسه بسيطة على غير عادة الأثرياء...

غالبًا ما يرتدي قمصان الكتّان الخشنة، وسراويل ميدانية، وساعة سويسرية من طراز قديم أوقف عندها الزمن في لحظة انتصارٍ قديمة لا يريد نسيانها.

لكن ما يميّزه بحق، لم يكن مظهره الخارجي فقط...

بل تلك الهالة الغريبة التي تحيط به أينما حلّ ..

كأنّه رجل خرج من عصر الاستكشافات الكبرى، وحمل معه كل أساطيره، وكل خرائطه المفقودة، ليخبر العالم :

أن خلف الجبال، ما زالت الأسرار تنتظر ..

وأن بين الكلمات، ما زال هناك سطر لم يُكتب بعد.

شبابه كان خريطة مفتوحة،

قطع الربع الخالي على ظهر جمل، وغاص في كهف سون دونغ

بفيتنام كمن يبحث عن قلب الأرض، اقتحم غمار وادي الموت بنيفادا
بابتسامة تتهكم من اسمه و خرج منه ، لا حياً فقط ، بل بروح متمرّدة
أقوى و أكثر طموحاً و عزيزة ..

تسلّق قمة إيفرست وترك في ثلجها قصاصة من قصائده، و سار
على الأقدام عبر حوض الأمازون، حتى قال عنه السكان الأصليون
هناك :

هذا الرجل لا يخاف... بل يطلب من الأدغال أن تخاف منه.

ورغم اقترابه من السبعين، لم تفقد عينيه تلك اللوعة ..
لم تفقد يديه رعشتها الطفيفة كلما شعر بأن مغامرةً تلوح في الأفق.

ولكن... رغم كل ذلك، بقيت في داخله بؤرة فراغ صغيرة، قطعة
نادرة من أحجية الحياة، تأبى أن تكتمل، وتصرّ على أن تنهضه من
مكانه كلما همّ بالاستقرار.

في أقصى جنوب فرنسا، على مرتفع مشرفٍ على بحيرة كأنها مرآة
للزمن، شَيّد قصر باسكال... خليطٌ بين الفن القوطي وروح الفايكنغ..
بُني من حجرٍ داكن خشن، كما لو أراد لصمته أن يوازي صخب
روحه.

ذلك المساء، لم يكن كغيره. شمس سبتمبر تتهاذى نحو الغروب،
والهواء مشبّع برائحة عنبٍ ناضج على كرمة عجوز، وشجرة
صفصاف عتيقة في زاوية الباحة تهتز كأنها تهمس للعالم بأسره.

جلس باسكال في حديقته المعتادة، على مقعد خشبي أملس صنعه
نجار من نيبال. بيده كأس نبيذ أحمر معتّق، وبالأخرى هاتفه

المحمول، يتنقل بين أخبارٍ فارغة، ومقالاتٍ عن الاقتصاد، وبعض الصور الباردة التي لا تثير فيه شيئاً.

كان الجو هادئاً، بل مسرفاً في هدوئه. حتى الطيور، بدا وكأنها تتريث في الغناء، وكأن الأرض نفسها كانت تنتظر لحظة مغايرة.

بعينيه المتجدتين، قلب باسكال الأخبار كما يُقلب الناس أوراق الزمن، حتى شعر فجأة بشيء غريب...

في وسط روتين التقليب، سقط بصره على عنوان مختلف. عنوانٌ لا يشبه ما سبقه، كأنه نافذة طارئة انفتحت من جدار الصدفة.

المقال لم يكن من موقع شهير، ولا حتى من تلك المجالات المصروفة بالأناقة الرقمية، بل من صفحة بدائية، عتيقة الخط، كُتب فيها :

(السر المظمور خلف سد ذو القرنين: هل لا يزال يأجوج

ومأجوج أحياء ؟)

وبينما تجمد إصبعه فوق الشاشة، انكمش الهواء من حوله، و انحبست الطيور في أغصانها، وارتعش الصفصاف القديم كما لو بلّله وحيٌّ مفاجئ.

باسكال لم يقرأ السطر التالي بعد، لكن شيئاً ما في صدره انتفض، كما لو أن قطعة الأحجية التي افتقدها عمراً كاملاً، أرادت أن تهمس أخيراً... لكن ليس بالكلام، بل بنداء عتيق من التاريخ، نداء لا يُسمع... بل يُستشعر.

وهكذا، قبل أن يضغط على المقال، عرف باسكال بيقينٍ لا يُفسّر... أن شيئاً عظيماً على وشك أن يبدأ، وأن المسار الذي سينقله إلى

المغامرة الأخيرة قد انفتح لتوّه... تحت شجرة صفصاف، و في مساء
لا يشبه أي مساء.

كان المقال الذي سقطت عليه عينا باسكال أقرب إلى سفر قديم نُبش
من رماد الزمن. كُتب بأسلوب مزيج من علم الآثار، والسرد النبوي،
والخرافة الشعبية، كأن من خطّه لم يكن كاتبًا، بل كاهنًا يقصّ على
البشرية آخر أسرارها. يتحدّث عن قوم غربيين، عرفهم الناس
بأسماء مختلفة في لغات متباعدة،

لكنّ الأديان السماوية الثلاثة، رغم ما بينها من اختلافات وتشعّبات،
اتّفقت على اسم واحدٍ لهم :

يأجوج ومأجوج.

في القرآن، ترد الإشارة إليهم مرتين، في سورتي الكهف والأنبياء،
أما في الإنجيل، فتبرز ملامحهم في سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي،
وفي التوراة، تجدهم في سفر حزقيال.

ويا للدهشة...

فكلّ الكتب السماوية، من غير اتفاقٍ بشري، أجمعت على وصفهم
بالقوم المتوحشين، أشرارًا فُتِنوا بالدم والخراب، لا يكتفون بالقتل،
بل يجردون الضحايا من إنسانيتهم قبل أن ينهوا أجسادهم.

كانوا مثل الجراد إذا غزا، لا يبقى على شيء..

يأسرون، يعدّبون، يفتكون ..

ثم يواصلون الزحف كأنهم قوة خارجة من رحم الجحيم.

وهنا – بحسب الروايات الدينية – أوحى الله إلى رجل صالح اسمه
ذو القرنين أن يُنقذ البشرية منهم، و يشاع أنه الإسكندر المقدوني ..

فبنى سدًا هائلًا في قلب الأرض، وسجن خلفه تلك القوة الفوضوية منذ آلاف السنين.

لكن المقال لم يتوقف عند الرواية الدينية وحدها، بل ربط بين التراث والأسطورة والمعطيات الجغرافية الحديثة، كما لو أنه يحاول خياطة الواقع بالإيمان،

ورسم صورة حية لحقيقة مرعبة نُسيت تحت رماد الزمن.

فقد أشار المقال إلى وجود تشابهٍ مذهل بين وصف يأجوج ومأجوج في الموروث الإسلامي، وبين أساطير الشعوب الآسيوية التي تحدّثت عن عمالقة حمر الشعر، بوجوه دائرية صلبة كالمطارق، وعيون ضيقة كأنها مصنوعة للشر وحده.

وتمتد جذورهم – كما ذكر – إلى آسيا الوسطى، حيث تقع اليوم دول مثل قرغيزستان وأوزبكستان ..

وهناك، بين الجبال الهائلة التي تشبه أفخاذ العمالقة، تقع منطقة منسية...

أرض وعرة، غير مأهولة، لا يمكن للطائرات اختراقها بسهولة بسبب اضطرابات مغناطيسية مجهولة.

وقد زعمت أجهزة رصد حديثة أنها كشفت بين تلك الجبال ممراً ضيقاً بين جبلين، تتطابق مواصفاته مع وصف السد القرآني. فذاك السد، بحسب القرآن، بُني بين صدعين ، أي جبلين متقابلين.

لكن التفصيل الأكثر إدهاشاً جاء لاحقاً :

في الآية القرآنية التي تقول أنّ ذا القرنين رأى الشمس تغرب في **عين حمئة** ، فالأكثر غرابة أن تلك المنطقة تحديداً، تحوي بحيرة تُدعى بلغة أهل قرغيزستان : (البحيرة الدافئة أو الساخنة)

وهي الوحيدة في المنطقة التي لا تتجمّد حتى حين تهبط الحرارة إلى **25** درجة تحت الصفر.

ولكأنها عينٌ بشريةٌ غائرة في لحم الجبل، تنتظر لحظة التجلّي.

ختم المقال بجملة كُتبت كإنذار، لا كخاتمة:

(إن قوم يأجوج ومأجوج، بحسب العقيدة الإسلامية، سيخرجون ذات يوم في نهاية الزمان من خلف السد، وتكون تلك لحظة انهيار، لا على بلدٍ أو إمبراطورية، بل على كوكبٍ كامل. فذلك، كما تقول الرواية النبوية، من أشراط الساعة الكبرى. يوم تخرج القوة المظلمة من عقالها... ويبدأ العدّ العكسي لنهاية الحياة.)

وقد أضاف المقال نظريّة غريبة تُشعل الخيال :

ربما كان **عملاق قندهار** الذي قيل إن القوات الأمريكية التقت به صدفة عام **2002** في كهوف أفغانستان، فرداً من قوم يأجوج ومأجوج، ضلّ عن وطنه حين أُغلق السد، أو خرج في مهمة، أو بقي سابقاً في الزمان بمعدّل غير بشري.

وقد أُسر ذلك العملاق – كما ادّعى المقال – وسُجن سرّاً في منشآت عسكرية أمريكية، ولم يُكشف للعالم خشية من انهيار الثوابت.

وبين الحقيقة والخيال ..

ظل المقال يتأرجح كأنّه نبؤة جاءت قبل أوانها... أو بعد فوات الأوان.

وبين سطورهِ، شعر باسكال أن عروق الأرض تنبض بأن شيئاً ما يستيقظ من تحت طبقات الزمن.

وأن مكانًا منسيًا في آسيا الوسطى، يخفي خلف جباله أقدم سجن عرفه التاريخ، وأخطره على الإطلاق. سجن ينتظر المغامرة الأخيرة كي تتحرر من أبوابه الموصدة ..

ثغرة تسد بأسطورة ..

ابتسم باسكال دوبويسون ابتسامة لم يعهد لها وجهه من قبل... كانت أقرب إلى ابتسامة طفلٍ عثر فجأة على باب السرّ، بابٌ ظل مفتوحًا داخله، دون أن يدري إلى أين يؤدي. لكن الآن، ومع انبلاج المقال أمامه كنبوءة منسية، شعر بشيء أشبه بالاكتمال .. كأن الثغرة التي ظلت تنخر كيانه، والتي لم تملأها جبال التبت ولا قمم الأنديز ولا كنوز مغامراته السابقة... قد امتلأت لتوها.

كان المقال عن يأجوج ومأجوج لا يشبه سواه، لا في لغته، ولا في محتواه، بل في الطريقة التي تسلل بها إلى شغافه كنسمة باردة في قلب صيف مشتعل.

المفارقة؟

أن حماسه لم يكن مشوبًا بالخوف، بل بالإثارة... بالنشوة. كان كمن ينتظر النهاية لا ليهرب منها، بل ليكون شاهداً على ولادتها.

هو، باسكال، المغامر الذي جال الأرض كلها، سيُختتم اسمه ربما في سفر النهاية، ليس كمجرد ملياردير، بل كرجلٍ شهد، وربما ساهم، في إطلاق العنان لما لا يُروّض.

تسارعت ضربات قلبه كما لم يحدث منذ عقود. أحس بأن أيامه المقبلة ليست إلا فصولاً من ملحمة كونية، كتب له أن يكون بطلها

المتقدّم إلى المجهول.

في داخله، كانت فكرة غريبة تتشكّل ببطء :

ربما هم سيخرجون على يده ..

يأجوج ومأجوج...

قوم الغضب، أعداء الأرض، الذين طال حبسهم خلف السد العظيم.
و الذين يحملون بظهورهم علامة جديدة من علامات الساعة التي
بدأت بالتوالي بالفعل .. و أصبح مائة الدنيا و شاغلة الناس ..

لم يفكر بالعواقب، لم يحدث نفسه عن الدمار، ولا عن ملايين الأرواح
التي ستزهق على يد العمالقة ، بل عن شيء واحد فقط : المغامرة و
الإنجاز.

لقد قرأ عنهم للتو ، آمن بوجودهم ، والآن، يقف على أعتاب
رحلتهم...

فهل هو رسول القيامة ؟

أم ساعي بريدها ؟

أم مجرد مغامر وقع على مفتاح غرفة النهاية ؟

وبسرعة مذهلة، بدأ التحضير.

أصدر أوامر حاسمة لفريقه الأمني واللوجستي :

- تذاكر طيران إلى قرغيزستان.
- دليل محلي من قبائل البدو الرّحل في جبال تيان شان .
- مترجم يتقن القرغيزية والروسية بطلاقة.
- فريق استكشاف متخصص: ثلاثة رجال مدربين على التسلّق،

المسح الجيولوجي، الملاحة، البقاء في ظروف قصوى.

- مؤن غذائية وطبية ..
- معدات تصوير وتسجيل وخرائط طبوغرافية ومعرزات

.GPS

- وطائرة درون عالية الدقة، قادرة على اختراق الممرات الجبلية الضيقة.

كل شيء صار يتحرك كما لو أن ساعة القيامة بدأت بالدق.

في تلك الليلة... جلس باسكال وحده في شرفته الحجرية العالية، الصفصاف أمامه يئن برفق، والقمر كعينٍ رمادية تراقب الأرض من علي.

رفع رأسه عاليًا إلى السماء، وكأنّه يسألها لا عن مصيره فحسب، بل عن مصير البشرية بأكملها.

ما الذي يخبئه القدر ؟

هل سيفتح الجبل شفتيه ويبتلع العالم ؟

أم سليفظ أولئك العمالقة من جوفه ؟

فتتغير خرائط الأرض والسماء ..

هل سيكون هو شهيد القيامة ؟ أم باعثها ؟

أم مجرد شاهدٍ آخر يحمل فوق أكتافه ذنب الفضول ؟

لكن شيئًا فيه، أعمق من الفكر، أصدق من العلم، كان يهمس له بهدوء :

لا أحد يوقظ التنين دون أن يُلامس ناره.

ورغم ذلك...
رسم ابتسامة جديدة،
لكنها لم تكن ابتسامة الانتصار...
بل ابتسامة اليقين.
اليقين بأن لحظة الحسم اقتربت،
وأن كتاب العالم على وشك أن يُطوى...
صفحة، صفحة...
بخطى رجلٍ لم يتوقف يوماً عن البحث عن السطر الأخير.

الفصل السادس

الناقة المعجزة والنار

العظيمة

المملكة العربية السعودية / موسم الحج ..

2471 م ..

في تلك اللحظة التي ينفصل فيها الزمن عن ساعته ..
حين يغدو الفضاء دائرة نقية تحيط بمركز الأزل ..
كانت جموع الحجاج تمضي في طوافها حول الكعبة المشرفة، كأنما
الكون بأسره قد اتخذ شكلاً بشرياً وأتى ليدور.

سبع دورات كسبع سماوات، كسبعة أيام إلهية ستختتم بالقيامة ..
سبع خطوات كأنها محطات التطهر من أدران الأرض.

وما إن تبدأ الدورة، حتى تتجه القلوب والعقول إلى النقطة الأولى،
حجر الزاوية في طقوس الحج .. الحجر الأسود،
حيث يقف الحاج بخشوع، يُقبله إن استطاع، أو يلمسه، أو يكتفي
بالإشارة إليه وهو يهمس:

بسم الله، الله أكبر.

في تلك اللحظة، يتوقف ضجيج الداخل، ويبدأ السكون في الحديث.
كأن الحجر يهمس لمن يقترب منه :

أنت هنا كي تعود إلى ذاتك الأولى.

لكن، قليلون يدركون سرّ هذا الحجر ..
قليلون يعرفون ما الذي يخفيه في ظاهره الأسود، ذلك اللون الذي

لا يبتلع النور فقط، بل يحمل آثار من عبروا من قبله، من بكوا،
وسجدوا، ونذروا، وغفروا، وغفر لهم.

يروى التاريخ الإسلامي أن الحجر الأسود لم يكن من هذه الأرض،
بل هبط من السماء كما تهبط الملائكة في صمتٍ لا يُسمع.
نزل من الجنة نقيًا، أبيض كالثلج، لكنه ما لبث أن اسودّ بفعل خطايا
البشر.

سودته أنامل الآثمين الذين قبلوه ولامسوه، فأضحى مرآة صامته
تلتقط وجوه التوبة، وتلَوّن نفسها بالحكايات، بالندم، بالذنوب،
وبالغفران.

كان آدم أول من لمسَه بعد الهبوط ..
وكان إبراهيم من وضعه في موضعه الحالي ..
كأنما كل نبي جاء ليضع حجرًا في بنية التوبة ..
حتى جاء خاتمهم، نبي الرحمة محمد .. فحمل الحجر بين يديه
الشريفتين، وردّه إلى مكانه بعد خلاف قريش.

كل لمسة إذاً ليست مجرد فعل جسدي، بل امتداد لخط تاريخي يبدأ
من الجنة، ويمر عبر الأنبياء، لينتهي عند قلبك.

لكن ما هذا الحجر ؟ ما قصته بالضبط ؟
هل هو مجرد حجر كريم في جدار مقدّس ؟
أم أن هناك ما هو أعمق، أقدم، وأغرب مما نتصوّر ؟

بعض العلماء يرون أن الحجر الأسود ليس حجرًا أرضيًا على الإطلاق، بل قطعة نيزكية هبطت من السماء منذ آلاف السنين، تم صقلها ووضعها في مكانها لتكون رمزًا للتواصل بين السماء والأرض.

تشير بعض الأبحاث الجيولوجية إلى أن مكونات الحجر تختلف كليًا عن صخور مكة، وأنه يحتوي على عناصر نادرة، تمامًا كالأحجار النيزكية التي تسقط من أطراف المجرات.

فهل هو حجر من بقايا كوكب احترق ؟
أم قطعة من سديم خُلق قبل الأرض ذاتها ؟
أم... هو شيء أبعد من العلم ؟
قطعة من نسيج الزمان ؟
أو صاعقة مجمدة تحوي في ذراتها أسرار الخلق ؟

ما من جواب قاطع.

لكن ما من مؤمن مرّ به إلا وشعر أن لهذا الحجر نظرة خفية، و صمتًا يتكلم، وثقلًا لا يُقاس بالكيلوغرامات بل بالأرواح.

تمرّ آلاف السنين، وتبقى الأسرار تتوارى بين السطور، حتى أتى يوم، وعادت السماء تتحدث.

وكالة ناسا أعلنت ظهور نيزك ضخم يتجه نحو الأرض، يمرّ على مسار قريب منها خلال عامين.

العلماء قالوا إنه آمن .. لكن القلوب لا تطمئن للأرقام حين يكون القلق من نوع كوني.

وسرعان ما انتشر الخبر، واندمج في ذاكرة الناس مع نبوءات قديمة،
وهمسات كتبها الصالحون والمجانين، عن حجر سماوي يهبط على
الأرض ليعيد ميزانها المختل.

وهنا، بدأت التشبيهات، والمقارنات، والربط الكبير :
هل النيزك القادم هو الشقيق الأعظم للحجر الأسود ؟
هل سيأتي ليحاسب الذين اسودّت قلوبهم، كما اسودّ الحجر ؟
هل أن الألوان كي يهبط قضاء السماء، بعد أن فاض كأس الأرض
بالخطيئة ؟

الناس خائفون. والعالم يحتضر بلا صوت.
الأرض تميد، والسماء تضيء بألوان لم تُر من قبل.
وفي قلب مكة، ما زال الحجيح يطوفون... يقبلون الحجر، يلمسونه،
يسلمون عليه كما يُسلم على العائد من غياب طويل.

لكن الحقيقة التي تهمس بها الأيام :
أنّ العدّ التنازلي قد بدأ.
وأن هذا الحجر الذي وُضع رمزاً للتوبة، قد يعود ليكون شاهداً على
النهاية.

فحين تتكدس الخطايا حتى تسود القلوب، وتفقد الأرض إيمانها
بالبدايات، تصبح القيامة ليست تهديداً... بل خلاصاً بصورة نهاية
وكما قال أحد الحكماء :
آخر العلاج الكي ...

وما الكيِّ في هذه الحالة، إلا نيزك قادم، يشبه أخاه الحجر المقدس،
لكن بدل أن يُقبَّل، سيهوي في أحضان الأرض لينتهي طقس الطواف
الآخر حول الكعبة... ويسدل الستار.

.. الناقة المعجزة ..

لموسم الحج في شبه الجزيرة العربية هذا العام رائحة مختلفة ، تلك
المنطقة الصحراوية القاحلة التي عادت مخضوضره و معشوشبة
منذ قرنين من الزمن كعلامة جديدة من علامات الساعة ، الرائحة
تشبه الخوف المغسول بالدموع، أو رجفة العالم وهو واقف على
أطراف أصابعه ينتظر شيئاً لا يعرف له اسماً.

الحجيج يتوافدون من أرجاء الأرض... يطوفون، يلَبّون، يكون،
ينحرون، ويهتفون بقلوب مخلصة

لبيك اللهم لبيك

وكأنهم يعزفون سيمفونية جماعية تطفو فوق جسد الأرض المتصدع.
لكن...

في اليوم الخامس من ذي الحجة، وبينما كانت **جدة** تغفو على خاصرة
البحر كعادتها، انبجس الخبر كما صيحة من الغيب، يهز جدران
الواقع ويقلب النبضات.

ناقة وُلدت في أحد ضواحي المدينة... لكنها لم تكن عادية.
عينها ليستا عينا بهيمة.. فيهما لمعان واعٍ، قلق، كأنهما تحملان
ذاكرة لا تنتمي إلى هذا القرن.

وما إن انتصبت قوائمها المرتجفة على الأرض، حتى أطلقت تمتعات خافقة... تحولت شيئاً فشيئاً إلى كلمات.

كلمات متكسرة... مفهومة في نطقها، غامضة في معناها، كأنها قادمة من لغة نُسيت منذ الطوفان.

الناس احتشدوا حول المزرعة كما يحتشد الحجاج حول الحجر الأسود. وجوههم شاحبة، أنفاسهم معلّقة على شفّتي الناقة، و الصيحة تتردّد في وسائل الإعلام كأذان يوم الجمعة:
ناقة تتكلم !

المفاجأة لم تكن فقط في الناقة الناطقة، بل في أن هذا الحدث قد ورد في كتب التراث الإسلامي، بوصفه إحدى علامات الساعة الكبرى في سورة النمل ..

(وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض

تكلّمهم أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)

فهل كانت هذه هي الدابة الموعودة ؟

أم مقدّمة فقط... كنّض جديد في عروق القيامة ؟

لم يكن أحد يملك الإجابة.

حتى العلماء والدعاة، بدوا حائرين ..

تارةً ينفون، وتارةً يتهامسون ..

وتارةً أخرى يصرخون من على منابر المساجد :

يا عباد الله، لقد بدأت النهاية !

خلال **48** ساعة فقط، تحوّلت الناقة إلى ترند عالمي.

أنشئت لها صفحات على كل موقع اجتماعي ..

وانقسم الناس إلى طوائف :

- طائفة المصدّقين : اعتبروها العلامة التي لا لبس فيها ..
- طائفة المشكّكين : زعموا أنها تجربة علمية سرّية خرجت عن السيطرة ..
- وطائفة اللا مباليين : اكتفوا بالسخرية، كما يسخر القلب الجبان من كل ما لا يقدر على تحمّله.

لكن الصوت لم يتوقف.

الناقة تهمس يوميًا بكلمات جديدة...

تكرّر أحيانًا أسماء أماكن لا وجود لها ..

أو تذكر أرقامًا متسلسلة عبر همهمات بتواتر معين ..

لم يستطع أحد أن يفهم.

لكنه أيضًا... لم يستطع أن ينكر.

تزايدت الزلازل الصغيرة في المناطق المحيطة منذ مولدها ..

هاجت البراكين النائمة في البحر الأحمر ..

وامتلأت سماء الليل بضوء شاحب لا يشبه نور القمر.

بدأ البشر يشعرون أن كل شيء حولهم يرتجف بصمت، كأن الأرض تتحضر لحدث جلّ، والسماء تسجّل بالنجوم اعترافاتها الأخيرة.

أصبح من المستحيل الآن فصل صوت الناقة عن سياق أكبر.

تلال الذهب في الفرات قبل شهور...
نيزك القيامة الذي أعلنت عنه ناسا منذ أسابيع...
والآن... دابة تتكلم.

كأن كل قطعة من اللوحة الفسيفسائية المبعثرة بدأت تتجمع ..
كأن البشرية تقترب من نقطة لا يصلح فيها إصلاح.
موسم الحج لم ينته...
لكن العالم نفسه بدا وكأنه على وشك أن ينتهي.

لم تعد الناقة مجرد دابة...
بل أصبحت جسراً بين الزمن والنبوة، بين الغيب والمعلوم، بين
الطين والسماء.

ووسط كل هذا ..
ظلت تتمتم... بصوت رخيم مكسور..
كأنها تعرف ما لا نعرف ..
وتقول ما لا نفهم ..
وتبكي، بلسان لا يشيخ، على بشر أسودت قلوبهم من كثرة الخطايا،
حتى باتت القيامة حلاً لا بديل له.

نار اليمن العظيمة ..

لم تمض سوى بضعة أيام على انشغال البشرية بحديث الناقة الناطقة،
و فيما كانت العيون شاخصة إلى الحرم ومكة والسماء، ضربت
الساعة بصمتها الأشد في مكان آخر ليس ببعيد...

في قلب الصحراء الوسطى لليمن، أرض النبوءات والجن، والممالك
التي ذهبت ولم تذهب، هناك حيث الرمال لا تحفظ إلا من تختاره
الصدفة أو القدر.

في تلك البقعة البعيدة القريبة ، انشقّ الليل على صوت لم يسمع البشر
مثله من قبل.

تفجير مجهول المصدر، هائل، جبار، كأنما الأرض نفسها قد فغرت
فمها وصرخت.

لكن الكارثة لم تكن في الصوت وحده ..

ولا حتى في توهج النيران التي اخترقت السماء كسهم ناري ..

بل كانت في ما تخبئه الرمال...

فقد تبين لاحقاً، وبهمسات خافتة من مراكز استخبارات دولية، أن
تلك المنطقة كانت تحتضن قاعدة عسكرية سرية للغاية، تحوي في
باطنها ترسانة صواريخ ذات رؤوس نووية كميراث من القرون
المنصرمة ، مدفونة كما يُدفن الغضب في قلب بشرٍ و لم يُشف.

لم يتبنّ أحد التفجير.

لا دولة، لا جماعة، لا عدو واضح.

بل بدا وكأن اليد التي ضغطت على الزرّ غير مرئية ..

كأن أحدًا من الغيب قال كلمته وفجّر ما يجب أن يُنسف.

عشرات الأقمار الصناعية فوق اليمن، لم تلتقط سوى ومضات مبهمة، وضوء أبيض من نوع لم يُسجّل في أرشيف العالم من قبل، يليه وميض برتقالي يتبعه لهب أزرق ثم نيران صفراء محمرة ..

طافت الألوان السبعة سبع مرات في سماء اليمن كما لو أنها تحج إلى عرش الإله لا عرش بلقيس ..

و كأنما امتزجت النار هذه المرة بطيف قوس قزح .. لكنه هذه المرة لم يكن بوابة للأمل و الأحلام ، بل نذير باقتراب النهاية ..

امتدت السنة الذهب عبر خط النظر الجوي إلى آلاف الكيلومترات، شوهدت في مشارف بلاد الشام، وانعكس توهجها على النيل في لحظة سكون كاملة.

الأجهزة الجيولوجية رصدت ذبذبات تضاهي زلزالاً بقوة **9.3** ..

لكن لم تكن هناك صدوع في الأرض...

بل في السماء ..

في النسيج غير المرئي للعالم ..

كأن شيئاً أكبر بكثير قد انكسر فجأة...

صمتت الحكومات ..

وانهمرت التحليلات من كل صوب ..

لكن عالم الدين قبل عالم الذرة، كان الأسبق في الهاتف :

(هذه علامة أخرى لاقترب القيامة ... علامة لم تتكرر من

قبل... نار عظيمة خرجت من اليمن)

وحدّهم سكان القرى و المدن اليمنية شهدوا السماء تتشقّق فوقهم
وتتنفس النار.. وقال أحد الشهود العيان :

(كائننا رأينا طرف القيامة يشبّ من الأرض، ويصعد... يبحث عن
وجه الرب ذو الجلال و الإكرام ..)

و إن كانت **قبيلة غفار في اليمن** قد غفر الله لها كما وعد نبي الرحمة
، فإن البشر الآن و في جميع أرجاء المعمورة عبروا الخطوط
الحمراء ..

لم يعد للتوبة معنى و لا للغفران مكان ..
فقد سبق السيف العذل ..

و انهار سد مأرب الذي حمى البشر لقرون و تدفق طوفان نوح من
جديد ليغرق الجميع بذنوبهم ..

و مع اشتعال الصحراء، وسُحب الدخان التي رسمت فوقها وجوهاً
تشبه الملائكة الساقطة، كانت عيون الناس تترقّب من جديد ...

هل ما جرى هو حادث منعزل ؟

أم خطوة أخرى نحو شيء أُعدّ منذ الأزل ؟

وهل هذا الانفجار مجرد صدفة ؟

أم صيحة أخرى تُضاف إلى صيحات النيزك، والناقة، والمياه
المنحسرة عن الذهب ؟

ربما لا أحد يملك الجواب ..

لكن الجميع، دون استثناء ..

بات يسمع الصدى الواحد ..

صدى الآية التي لم يتلوها أحد، لكنها تُتلى باستمرار وقلق من خلف
الحُجب :

(اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون)

الفصل السابع

أمور الجبن

في عصر يوم لا يشبه سواه، حين بدأت شمس المحيط الأطلسي تهوي خلف الأفق بلونٍ نحاسيٍّ ثقيل، انطلق يخت القبطان ميغيل ألميدا من ميناء مونتيفيديو، بصمت البحارة الذين عرفوا البحر حدّ التوحّد، و قلق الرحالة الذين قرروا مواجهة ما لم يجرؤ أحد على مواجهته من قبل ..

كان اليخت - المسمى **La Respuesta**، أي الجواب بالإسبانية - يلمع تحت خيوط الشفق كنصل حربة بيضاء يخترق صدر المحيط. لم يكن مجرد مركبٍ عابر، بل أشبه بسفينة مصغرة من أساطيل كولمبوس و ماجلان ، لا تقصد أرضاً جديدة هذه المرة ، بل أسراراً لم تكتشف بعد ، و تحمل على متنها قلوباً تواقّة للمغامرة ، مخطوطة غامضة حد السكر ، ونبوءة نسجت حروفها من حبرٍ قديم و رموز نسيتهما القرون و لفظتها التكنولوجيا أخيراً ..

وقف ميغيل في مقدّمة اليخت، يُحدّق في الأفق كما لو كان يحدّق في حدود الكون و نهاية العالم ..

رجل في أوائل الستين مع قلب طفل لا تتفك المفاجآت تدهشه ..

قبطان عركته البحار فأعادته وليداً للريح ..

يتكلل وجهه بخشونة الملاحين ونبل العارفين ..

شعره الرمادي يرقص مع الهواء مثل شراع أفلته الزمن ..

وعيناه الرماديتان تتسعان وكأنهما تسجلان مشاهد الحياة للمرة

الأخيرة.

بيده خريطة يقودها أكثر مما تقوده ، وبقلبه حنينٌ... حنينٌ لابنٍ لم يُخلق، لم تهبه إياه الحياة، لكن ربما قدّر أن يُولد من رحم الجليد، أو من فتحة سرية في هرم منسيّ ، كسر لا شبيه له ..

إلى جانبه، جلست ماريانا غونزاليس، زوجته، ورفيقة الرحلة الطويلة.

امرأة تحمل في جسدها تعب الأعوام، وفي عينيها يقين العالمات اللاتي جربن كل شيء إلا الاستسلام.

شعرها الكستنائي مضمومٌ خلف رأسها كمخطوطة قديمة لا تُفتح إلا بحرص، وبشرتها غسلتها شمس الأندلس حتى غدت لجيناً من فضة طليطة.

كانت ترتدي معطفاً رمادياً محبوبكاً بخيوط من الصوف الألبكي، و تكتب ملاحظات في دفتر جلدي صغير، كمن لا تزال تُدوّن التاريخ حتى وهي على وشك أن تصطدم به وجهًا لوجه.

في أعماقها جرحٌ قديم لم يندمل ..

يدعوه الطب الرحم ذا القرنين ..

تشوّه خلقٍ نادر حرمها الإنجاب، جعلها امرأة كاملة في كل شيء... إلا في ذلك الذي تشنقه الأنوثة سرّاً.

لكنها لم تياس ..

فقد وهبت حياتها لولادة من نوع آخر :

ميلاد الاكتشاف.

الآثار، المخطوطات، الرموز، الحضارات المدفونة...
كلّها كانت أطفالها البديلة.

و حين أمسكت بين يديها **مخطوطة فوينيش** التي تمكنت أخيراً من فك شفرتها بعد صراع فكري لعقود، و التي أشارت في أحد نصوصها الغربية إلى **هرم السورث** في القطب الجنوبي كموطن لسر يفوق الخيال ، شعرت عند لمسها بشيء يشبه الركلة الأولى في بطن أم... و كأن سرّاً خطيراً على وشك الولادة من رحمها .. ربما بمخاض عسير كما تتكهن التوقعات و توحى الأحداث الغربية المتوترة و الحساسة حول العالم هذه الأيام ..

معهما على السفينة، كان هناك ثلاثة مساعدين انتقوا بعناية، كأنهم قطع من رقعة شطرنج.

الأول: تياغو، خبير جيولوجي برازيلي، متخصص في طبقات الأرض المجمدة ..

وجهه يشبه صخرة ترتجف ..

وعيناه دائماً الرمش، كأنه يطارد أسرار التربة من بعيد.

الثاني: رافائيل، مهندس تقنيات استشعار حراريّ من هولندا ، يستطيع بعينه المدعّمتين بكاميرات أن يرى تحت الجلد، وتحت الجلد، وتحت القشور.

أغوته رحلة القطب الجنوبي و كأنه يضمر رجاءً خاصاً له ألا يغرق بلاده ذات الأراضي المنخفضة ..

أما الثالث: **عبد الله جاو** ، سنغالي الهوية، متخصص بالاتصالات ونجاة الطوارئ ..

رجل الصلاة والبوصلة ..

يحمل المصحف في جيبه الأيسر، ويبتسم كلما ذكرت له الساعة ،
لأنه – كما يقول – يؤمن أن كل ساعة تقرّبنا من الساعة الكبرى ..

كان هؤلاء الثلاثة يعلمون أنهم لا يذهبون لرحلة علمية عادية كغيرها
، بل لمواجهة هامش النهاية، حيث يتلامس الأسطوري مع المادي،
ويُبعث ما ظنّ الإنسان أنه لن يُبعث.

اليخت كان مجهزاً بكل ما يلزم :

مولدات حرارية، بدلات مقاومة للجليد، أجهزة تحديد مواقع بالأقمار
الاصطناعية، خيم قابلة للدفن في الثلج، وأطنان من المون والمياه.
لكن فوق كل ذلك ..

كان هناك إيمان مشترك بجمعهم...

بأن ما ينتظرهم في الهرم، ليس اكتشافاً فحسب، بل امتحاناً أو على
وجه أكثر دقة نتيجة امتحان السماء للبشر الذي تعاقب على مدار
آلاف السنين ..

بدأت الأمواج تتلاشى، كلما اتجهوا جنوباً، كان الصمت يُصبح
أثقل... والبرد يُصبح أكثر أناقة، كما لو أن القطب نفسه يتأنق
لاستقبال زوّاره القادمين من بعيد.

ميغيل لا يزال في المقدمة ..

يمسك بالخرطة ..

ينظر فيها لا بعينه، بل بكامل حواسه.

يرى فيها مجهولاً على وشك التعريف ..

و يقلب في عقله احتمالات المصير ..

قال بصوت خافت لماريانا :

= لو عدنا... سنكتب التاريخ.

ولو لم نعد... سيكون الجليد شاهد قبرنا ..

أجابته بابتسامة غامضة و نبرة تثق بنبوءة تتسلق جدران قلبها :

= إن عدنا، لن نعود كما نحن .. بل لن يعود العالم كما كان ..

عندما تغير الطبيعة مزاجها ..

في الأيام الأولى من الرحلة، بدا المحيط الأطلسي كأنه نائم في حضن ذاته، مستلقٍ بهدوء الأزمنة القديمة على وسادة من الزبد، تنبعث من صدره أنفاسٌ زرقاء عميقة، لا ضجيج فيها سوى موسيقى الماء المتكررة بإيقاع سرمديّ. كان البحر لوحة مائية رسمها فنان أعمى البصر متسلحاً بالبصيرة، وأهداها إلى المجانين الذين يبحرون دون وجهة نهائية سوى المجهول.

كان سطحه الساكن يلمع تحت أشعة الشمس الصباحية كمرآة نُسجت من ندف الفضة، لا أمواج فيه إلا تموج الأحلام وهي تهمس في أذن البحّارة.

و فوقه تناثرت نوارس بيضاء، تخترق الهواء بجناحين يُشبهان صفحات كتاب مفتوح على مصيرٍ غير معلن. كانت النوارس تصرخ، لا خوفاً ولا جوعاً، بل لأنها خلقت لثرافق السائرين في

البحار، كأنها جنود سماويون في زيّ طيور.

تحت هذا السطح المتألق، عالمٌ لا يقلُّ بهاءً...

دلافين رمادية رشيقة تقفز بزهوٍ قرب اليخت كأنها تستعرض مهاراتها أمام الغرباء و بينها ظهر دلفين زهري اللون أثار دهشة الجميع ، لكن تياغو البرازيلي أخبرهم أن دلافين الأمازون تتميز بلونها الوردي الغريب و ربما ضل هذا الدلفين طريقه عن موطنه العذب ليجد عائلة أخرى تتبناه وسط ملوحة الحياة .. كانت الدلافين ترافقهم كل صباح، تظهر من العدم، تلمع في الهواء، ثم تهبط كحرفٍ ناعم على صفحة ماء.

كان ميغيل يبتسم حين يراها، و يهمس :

(هذه رسائل مطمئنة من المحيط. إنه يُحبُّنا حتى الآن ...)

لكن الحب في أعماق المحيط ليس بريئاً و لا صادقاً دائماً...

لذا قيل في التراث : (البحر غدار) ..

فبعيداً قليلاً عن الدلافين، كانت القروش الرمادية تسبح ببطء، كما لو أنها قتلة مأجورون غير مرئيين، تتبع القافلة من بعيد، لا تهددها بشكل صريح لكنها لا تتركها و كأنما تنتظر نقطة الضعف أو لحظة السهو و الخطأ كي تنقض بأنيابها ..

كانت تلك الكائنات تذكيراً خفياً بأن وراء كل جمال، كمين...

وراء كل سكون، احتمال...

وأن هذا البحر، وإن بدا ودوداً، قد يُحوّل ملامحه في لحظة..

كانت أشبه بتحذير من القدر أن الحياة مغامرة لا تستقيم على حال ،

و أنه خلف كل منعطف جميل .. مفاجأة سوداوية تقف بترقب ..

و هذا ما كان .. في اليوم السابع من الإبحار، ومع اقتراب اليخت من عرض المحيط الجنوبي، حدث التبدّل الأول.

بدأت السماء تتغيّر ..

ببطء... ثم بسرعة مرعبة.

تلبّدت الغيوم بلونٍ رماديّ كثيف، كأنها لفافة دخان خرجت من فم شيطان.

تسارعت الرياح، وراحت تلتخ وجه المحيط بخطوط غضب. تهاوت درجة الحرارة فجأة، واختنقت الشمس خلف جدار سميك من الضباب الكثيف، حتى تلاشت كما لو أنها لم تكن هناك أصلاً.

صرخ عبدالله من قمرة اليخت الرئيسية :

= الرادار يشير إلى عاصفة من الدرجة الرابعة قادمة نحونا من الجنوب الشرقي ، ماذا عسانا فاعلين ؟!

لكن في تلك اللحظة لم يكن هناك متسع لأي تفكير أو تدبير...

العاصفة كانت أسرع من التوقع، وأكبر من أي استيعاب ، ضربت اليخت كما تضرب المطرقة سنداناً من زجاج.

ارتجّ كل شيء.

تكسرت الأطباق في الداخل، تطايرت الأوراق، ارتطم الرجال بالجدران.

الأمواج ارتفعت إلى عشرة أمتار، كأن كل موجة تنوي ابتلاع السماء، لا السفينة فقط.

صرخت ماريانا وهي تتشبث بسارية المركب :

= إن الأطلسي تحول إلى وحش حيّ... مجنون و غاضب !

و توالت صفعات الطبيعة لمدة ساعتين ..
الأمواج كانت كمخلوقات أسطورية. كل واحدة منها تحمل ذاكرة
عصورٍ انقرضت.
كل صفة على اليخت كانت مثل حكاية موت لا مفر منه.
تطايرت الصواري، انقطع أحد الأشرعة ..
تداعى السطح الأمامي كما تتداعى جدران قلعة قديمة تحت زحف
مغولي ...

رافائيل انهار فاقداً وعيه.
عبد الله كان يردد آيات من القرآن بصوت مرتجف، و بين كل تكبيرة
وتكبيرة تنهيدة رجاء.

كان اليخت يتراقص كهندي أحمر على حافة الموت ..
وأيّ رجلٍ في ذاك المكان، في تلك اللحظة، لم يكن يظن أنه سينجو
فاحتمالات العبور من جوف الإعصار كلها من أخوات الصفر..

لكن النجاة التي لم تكن بيدهم الآن ... جاءت من مكانٍ لا يُرى، ولا
يُطلب، ولا يُفسّر.. من القدر الذي يجرح ثم يداوي .. يبتلي ثم يعين

تلاحقت عقارب الساعة في صراع منهك من الرعب و الإعياء ، ثم
بدأت العاصفة بالانحسار تدريجياً بدون مقدمات .. و كأن السماء
المريضة تقيأت ما في جوفها على الأرض حتى استراحت ..

الرياح توقفت فجأة... كما لو أن كفاً غير مرئية صفعتها بالمثل و
لجمتها ..

تفرّق الضباب، وتشقق صدر الغيم ..
أشرقت نجمة واحدة فوق جسد اليخت المنهك، كأنها كانت هناك
لتشهد، تكتب، تُنقذ و تبلمس جراح الساعات العvisية ..
أخيرا صمت مطبق .. السكون الأجمل .. سكون ما بعد العاصفة ..
نجا اليخت.

مُمزّق، لكن عائم.
منهك، لكن لم يغرق.
مكسوّ بندوب النجاة، لكنه حي.

خرج ميغيل إلى متن اليخت و نبضه يتهاوى تدريجياً عقب توتر لم
يمر به من قبل ، رفع رأسه إلى السماء التي كشفت القليل من سوادها
مجدداً، وقال بلسان النبي يونس و قد صادق الربّ في أحشاء
البحر :

= المعجزة حصلت ... لقد نجونا .. حمداً لله ..

لكنه لم يعلم ، و لا أحد علم ، أن نجاتهم كطاقم متواضع ، لم يكن إلا
لغاية سماوية واحدة :

أن يكسبوا بضعة أيام أخرى قبل أن يشهدوا نهاية الجميع ..

في تلك اللحظة ..

بدأ العد التنازلي للرحلة .. للمغامرة .. للبشرية ..

لكنه بدأ في قلب رجلٍ واحدٍ أولاً...ميغيل ، الذي عرف أن الرحلة
لم تعد استكشافية، بل قدرية.. لا يرسمونها بخطواتهم بل تحركهم
بأناملها الى مجهول ينتظرهم .. عاصفة من نوع آخر .. أشرس و

أشد ضراوة .. ليست بانكسارات و لا انهيارات .. بل قيامة من
حضيض الخطيئة ..

أرض الجليد و النار ..

بلغ اليخت المتهالك الناجي من العاصفة أخيراً المياه الإقليمية للقارة
القطبية ، و أخذ يشق طريقه بهدوء محتشم عبر بحر ويدل، ذاك
الامتداد الأزرق البارد من المحيط الجنوبي الذي يعانق غرب القارة
القطبية كذراع أم تحتضن رضيعها المتجمد منذ آلاف السنين.

كانت الرياح تهامس الماء بصوتٍ خفيض، كأنها تعرف أن من في
اليخت ليسوا سياحاً أو باحثين بل مغامرين يلاحقون أسطورة تاريخية
قد تفتح أبواب الجحيم على مصراعيه ..

سكون غريب يخترق كل شيء، سكون لا يشبه النوم، بل يشبه ما
قبل انبثاق الخلق.

ومع اقتراب اليخت من جرف روني الجليدي، بدا المشهد كأنه
تخطيط مسبق من خيال رسّام سريالي.

كتلٌ شاهقة من الجليد ترتفع أمامهم كقصور صامتة من نور، جدران
بيضاء نقية كصفحاتٍ لم تُكتب بعد، متراصة على مدّ البصر، كل
شقّ فيها كأنه توقيع قديم تركه الإله على حضارة لم تولد.

و ما إن رسا اليخت حتى تغيّر الزمن.

لم يعد للدقائق قيمة، ولا للساعات اسم.

كل ما كان يهمّ هو الخطوة التالية.

الرحلة تحولت رسمياً من صفحات مائية إلى مساحات جليدية شاسعة
بلا نهاية كما يخيّل للعقل ، ومن دفء الحلم إلى صقيع الحقيقة.

وقف ميغيل في مقدّمة المركب، يضع يده على قلبه كما يفعل القبطان
حين يصل أرضاً غريبة، و همس :

= ها نحن نبدأ اكتشاف الأسرار من حيث انتهى اكتشاف الكوكب .
أهلاً بكم في آخر القارات التي وطأها الإنسان .. أنتاركتيكا ..

ابتسمت ماريانا و ردت بكلمات ملغومة ..

= إن خريطة بيرى ريس تدحض هذه الشائعات عزيزي .. هذه
الأرض كانت منذ زمن سحيق جرداء بكر ثم حملت جنين حضارات
نجهلها ، قبل أن يجهضه الجليد مع تغير المناخ ..

هز الطاقم رأسه ، و أخذو يتلفتون حولهم بانبهار .. مشاهد لم تألفها
حدقاتهم من قبل ..

ظهرت لهم الفقمات، تتكوّم على أطراف الكتل الجليدية، و تحدّق
بعيون سوداء متطفلة في الغرباء الذين يطرقون أبواب اللامعقول.
كانت دهشة الكائنات لا تختلف عن دهشة البشر.

ثم جاء موكب البطاريق الإمبراطورية، كأنهم ملوك بلا ممالك،
يتمايلون بخطوات ثابتة، و لا يبالون بالكائنات العاقلة التي تراقبهم،
كأنهم أدركوا منذ زمن طويل أن العقل أحياناً أكثر جنوناً من الغريزة.

أما الدب القطبي، فبقي عصياً على الظهور، كما لو أنه روح القطب
الشمالي التي لا تغادر وطنها، يُخبرهم غيابها بأنهم على مسرح
مختلف... فهنا الجنوب فقط، حيث يغيب الملك ذو الفرو الأبيض
عن الخريطة ..

أخيراً لامست مرساة اليخت الجرف الجليدي ، ترحلوا مع معداتهم
و مؤنهم .. الآن بدأت مغامرة من نوع آخر .. قاعها الجليد و سقفها
الثلج .. و لا شيء آخر ..

بدأوا السير على الأقدام في رحلة شاقة لعشرات الكيلومترات، حفاة
المعنى، مثقلين بالتجهيزات، تحت سماء فضية خرساء، تراقبهم دون
أن تبتسم أو تعبس، كأنها لا تأبه بهم لكنها تحفظ أسماءهم.

الثلوج تكاد لا تنتهي، والأفق ممتد كلوحة بيضاء فارغة، كل خطوة
عليها كأنها توقظ ذاكرة دفنت منذ ملايين السنين.

نصبوا خيامهم في الليلة الأولى، يخترقون الجليد بأوتاد الصبر،
ويشعلون حرارة المصابيح الغازية كما لو أنهم يشعلون قلوبهم.
كان الهواء نقياً حد السكر، لكنه يلسع الرئتين بمرارة لا تُوصف.

سماء الليل كانت كالمرآة، تعكس بياض الأرض فلا تعرف إن كنت
تمشي فوق السحاب أم تحت القمر.

ولم يكن هناك من صوت إلا خشخشة الثلج تحت الأحذية، وصوت
أنفاسهم المرتجفة، وصرير الريح حين تسحب أطراف الخيام فجأة،
كأنها تريد تذكيرهم أنهم ليسوا وحدهم.

و كل يوم تلا كان أشبه بحلم يتكرر، مسير نهاري بلا أفق و تخيم
ليلي بلا فرق .. حتى خيّل إليهم أنهم يراوحن مكانهم، بينما يتقدمون
في الواقع. داخل الجليد، داخل الصمت، داخل أنفسهم.

ليس هناك من صخب، لا سيارات، لا هواتف، لا أعمدة كهرباء ، و
لا حتى بشر نفاهم الفضول أو البحث العلمي إلى أقاصي الأرض ،
أو اسيكمو ضجروا من القطب الشمالي فقرروا النزوح جنوباً ..

كان هنالك فقط الوجود النقي، يواجههم بعريه الكامل، ويقول لهم بصوت لا يُسمع :

(لقد وطأتم أرضى الأسرار ... فهل أنتم مستعدون لتجليها ؟)

في هذا الصمت المترامي، وبين البياض الذي لا ينتهي، كانوا يتجهون شيئاً فشيئاً نحو هدفهم المنشود .. كعبة القطب الجنوبي .. الهرم الذي يسكن الجليد و يسكنه في أن معا ... كحجاج يلتهمون التضاريس من كل فج عميق ليبلغوا البقعة المقدسة التي تتقاطع فيها الأسطورة والعلم ، الموت والميلاد.

فهل سيفتح لهم الجليد أبوابه ؟

أم سيبتلعهم كما ابتلع آخرين قبلاً ؟

الرحلة ستبلغ مستقرها قريباً... و الوقت، كما بدا، أصبح نافذة لا ترى منها إلا العد التنازلي الكبير.

في الليلة الأخيرة، اتخذ الجميع أماكنهم حول دائرة الخيام، كأنما انصهروا جميعاً في طقسٍ بدائي خارج الزمان والمكان. النار التي أضرموها لم تكن مجرد وسيلة للتدفئة في صقيع القطب الجنوبي، بل كانت كائناً حياً، يرقص لهيبه مع أنفاسهم المتقطعة، ويروي بلغة اللهب قصص الخوف والتوق والتحدّي.

فوق رؤوسهم، كانت السماء كوشاح سماوي هائل، منسوج بخيوط الشفق القطبي الزمردي والأرجواني، حيث ترقص الألوان في هدوء كأنها أرواح قديمة هائمة جاءت لتبارك أنفاس الرحلة الأخيرة .

النجوم تناثرت كحبات ماس على مخملٍ أبدي، وسديم درب التبانة بدا ممتداً كطريق للآلهة، أو لعله مرآة مقلوبة لدرهم المتعب نحو

الهرم الملعون أو المقدّس، لا أحد يدري بعد.

ضحكات خافتة متقطعة، رشقات من الشاي الساخن، نظرات تائهة نحو اللهب أو نحو السماء أو نحو لا شيء. ومع ذلك، فإن شيئاً غير مرئي كان يربطهم. شيء يهمس في سرهم :

(نحن على أعتاب شيء لم يحدث من قبل، ولن يتكرر مرة أخرى.)

لم يكن أحد يملك إجابة حاسمة عن الخطوة التالية. الخرائط الورقية اهترأت من كثرة الطي، ومؤشر البوصلة يتجه دائماً نحو الجنوب، لكن الجنوب هنا ليس مجرد اتجاه، بل لغز يداعب تلافيف أدمغتهم أما ماريانا، فكانت تحتضن مخطوطة فوينيش كما لو كانت طفلها الوحيد ، تمرر أناملها على جبهته ، تقلب الصفحات ، تعيد قراءة الترجمات و تشرد بخيالها فيما ينتظرهم من مفاجآت ...

أوقدوا نارهم أكثر، شدوا ستراتهم على أجسادهم، ثم جلسوا كالعابدين في ليلة عيدٍ مهيب، وكلّهم يعلمون أن فجر الغد لن يكون شبيهاً بأي فجر مضى. لأنهم، حين يستيقظون، سيبدؤون العبور نحو شيء... ربما يُعيد كتابة التاريخ، أو يُشعل فتيل القيامة.

الهرم الجليدي الغامض ..

في ظهيرة اليوم الأخير من الرحلة ، كانوا قد بلغوا أقصى ما يمكن لقدمٍ بشرية أن تطأه في هذا الكوكب .. بلغوا أخيراً الموقع الذي يهمس به نظام **GPS** ..

توقفت خُطاهم أمام منظر مهيب و ساحر لا يُشبه شيئاً مما احتوته
كتب الجغرافيا ولا حتى خرائط الأقمار الصناعية.
أمامهم انتصب الهرم.

لكن (هرم) ليست كلمة تفي بوصف ما رأوه .. هو يشبه أهرامات
الجيزة المصرية بالفعل ، لكن بكساء من جليد براق .. لم يكن هنالك
أبو الهول بجواره كتميمة تحميه ، لكن الهول الحقيقي بدا ابناً له
يجتاح قلوبهم ..

بدا الهرم وكأنه جدار يفصل بين عالمين، بعلو يطعن السماء،
وعرض يكاد يلتف على الأفق. لم تكن عليه ندبة واحدة، ولا حبة
ثلج تتجاسر على البقاء فوقه، كأن الجليد ذاته يخشاه. سطحه النقي
كالمرايا كأنه صقل بالليزر، يعكس الوجوه لا على حقيقتها بل كما
تراها الأرواح. تهادى الضوء عليه فبدا كأن الزمن نفسه ينكسر عليه،
ينعكس، أو يتبخر.

كانت ماريانا تمشي ببطء متناهٍ يليق برهبة المكان و المنظر ، كما
لو أن خطواتها على هذا الجليد تُدَوِّن في سجلٍ أبدي .. تذكرت
مباشرةً عندما رأت الهرم ، هرماً أثرياً صغيراً أجرت عليه دراسات
مطولة منذ سنين .. يعرف بهرم بن بن أي المشع و المتألئ ، و
يعتبر من عجائب القدماء المصريين ، هو هرم على نقيض هذا الهرم
العملاق .. صغير للغاية كمجسم أسود اللون مع خصائص مغناطيسية
.. و قد حير العلماء لآلاف السنين ولم يتمكنوا من حل لغزه الا بعد
صعودهم إلى الفضاء ، إذ إنه مصنوع من الحجر الأسود ولكنه ليس
حجراً عادياً لأن كل مكوناته ليس لها وجود على وجه الأرض ..
هذا الحجر الأسود الحديدي لا يتواجد الا في الفضاء في النيازك
الفضائية ، تماماً كحجر الكعبة الشهير، وهنا ظهر اللغز الثاني بأنه
حجر حديدي صلد جداً وصعب التشكيل والحفر ولكنه ليس صعب
الكسر، فكيف تم قطعه بتلك الدقة في الزوايا والانحرافات بدون

عيوب أو تهشيم ؟ وكيف تم صقل وجوهه بهذه الجودة و الدقة كحال هرم السوورث أيضاً مع فرق الحجم الهائل بينهما ؟؟ .. وهنا يطل برأسه اللغز الثالث وهو كيف تم النقش بتلك النقوش الدقيقة جداً على أوجه الهرم ، حيث أكد العلماء عجز أية أداة سواء قديماً أو حديثاً من نحت تلك النقوش إلا إذا كانت أداة قطع ليزيرية و هذا مستحيل في تلك الحقبة التاريخية إلا إن كان للفضائيين دور في تشكيل هذا الهرم !! لنصل إلى آخر لغز وهو أن الحجر الاسود الحديدي النيزكي بفضل تركيبه ومكوناته يتمتع ببث طاقة كهرومغناطيسية في محيطه تجعل كل من يقترب منه يشعر بالراحة النفسية والصفاء الشديد ويؤثر على طاقة الإنسان فيزيل ما يشعر به من ألم في أي منطقة من جسده (بنفس مبدأ إسورة الطاقة التي يتم ارتداؤها الآن ولكن بطاقة عالية جداً تؤثر في أي عدد مهما كان بمجرد وجودهم في محيطه).. إن مشاعراً مشابهة من السكينة تغمر قلبها الآن و هي تواجه هذا الهرم الضخم ..

بيد ترتجف من الدهشة، لا من البرد، أخرجت ماريانا **مخطوطة فوينيش** من حقيبتها، تلك الصفحات المشفرة بلغة غير معهودة من قبل ، صممت قروناً حتى نطقت من خلال خوارزميات الذكاء الاصطناعي... نطقت لا بترجمة ، بل بجملة يتيمة :

بوابة الهرم المخفية ..

أخذت تحقق في الرموز الغارقة في الغموض، في التعاريج التي بدت كأنها خرائط للروح، في الدوائر التي لا تنتمي إلى رياضيات البشر. ثم بدأت تتجه بخطواتها نحو الوجه الجنوبي من السد، حيث كانت ترجمة المخطوطة توحى بوجود ما لا يرى بالعين الشاردة .. بل بالعين التي تعرف عما تبحث .. تؤكد وجود عين مفردة محفورة في جدار الهرم كما لو كانت على سحنة قرصان أعور ..

لوهلة شك لم يكن هنالك شيء ظاهر للعين... حتى تلاعب الضوء الباهت في لحظة خاطفة، فانكشفت .. عين منحوتة بعمق في الجليد، على ارتفاع لا يلتفت إليه العابرون بلا مبالاة ، بل يقتنصه الساعون إليها بالتحديد ، عين واحدة، ضخمة، بلون البحر ساعة المغيب ، كعين الإعصار الذي باغتهم في رحلتهم .. بدت و كأنها تراقبهم من عوالم أخرى ، و حدقتها ترمش في سكون، لا بحركة فعلية، بل بطاقة خفية تُحس ولا تُرى.

اقتربت ماريانا، وقلبها يخفق كما لم يفعل يومًا. مدت أصابعها نحو حدقة العين، وضغطتها بثبات، كما أمرت المخطوطة. لم تكن لمستها قوية... لكنها كانت عميقة و مطولة ، كما لو لامست وعي المكان ذاته.

وفجأة...

اهتزت الأرض.

لا كما تهتز التربة تحت زلزال، بل كما لو أن الحقيقة ذاتها بدأت تتفسخ. ارتجت طبقات الجليد تحت أقدامهم، تصدّعت كما في الأساطير، وتسارعت أنفاس الوجود ذاته .. الهواء تغير، صار أثقل، أقدم، أشبه بأنفاس مومياء فُتحت نعشها لأول مرة منذ آلاف السنين. ومع هذا الرعد الذي لا صوت له، انفتحت البوابة.

لكنها لم تكن بوابة كغيرها ..

كانت محرابًا، عرشًا، صرخًا من حجر سماوي. عشرة أمتار عرضًا، عشرون مترًا ارتفاعًا، مزخرفة برموز تنبض بإضاءة خافتة كأنها وريد كوني. حجارتها كانت فيروزية مسدسة على غير عادة الجليد، متوهجة بحمرة غائرة، والجو حولها كان أكثر دفئًا، وكأن شيئًا حيًا يتنفس خلفها.

تبادلوا النظرات... ميغيل، ماريانا، الطاقم.

كأن أحدًا ما قد ضغط على مؤقت الزمن في لحظة يتجمد فيها الحاضر وتكف الأرض عن الدوران.

همس ميغيل، بعينين تلمعان أكثر من الجليد :

= المخطوطة لم تكذب ، و الذكاء الاصطناعي لم يتحاقق .. لحظات
و سندخل التاريخ من أوسع أبوابه .. من بوابة الجغرافيا المطرزة
بأسرار الوثائق و المخطوطات .. فما الذي ينتظرنا خلف هذه
البوابة ؟!

الأعور الدجال ..

كان مدخل الهرم أمامهم، منحوتًا في صخرٍ لم يعرفه الجيولوجيون من قبل، حجارة ملساء مسدسة لا تنتمي إلى زمن الفراعنة و لا المايا و لا غيرهم ، لا تُشبه أساليب النقش المعروفة، بل تنبض بنَفَسٍ آخر، كأنها نُزعت من قاع كوكب غريب.

وقف ميغيل عند العتبة، يحمل المصباح الكاشف، يحدّق في النقوش التي غطّت الإطار: عيون كثيرة، كلها مفتوحة، كلها تراقب الداخل دون أن تطرف.. طيور الهدد .. عروش من ذهب ..

= هل ندخل ؟

تمتم رفائيل خلفه..

لم يردّ أحد.

لكن ميغيل اتخذ الخطوة الجريئة .. خطا إلى الداخل و من خلفه دلف الجميع عبر الفتحة. لم تكن بوابة تقود إلى دهليز واضح، بل ممر ضيق تنكمش فيه الأرواح قبل الأجساد، جدرانه تنبض بلون أزرق مائل إلى الرمادي، كأنها تتنفس. الهواء في الداخل لم يكن ساكناً، بل يحمل تردداً خفياً، موجة غير مسموعة تلامس الجلد وتخرق العظام. كان الظلام أملساً، كثيفاً، لا يبدده الضوء بسهولة، كأنه ظلام يعرف نفسه، ويرفض الغياب.

لم يكن هناك سلالم و لا ابواب . فقط شبكة دهاليز متشعبة كمتاهة لا مخرج منها ، كأنهم ينزلقون في لولب. الجدران بدأت تضيق، ثم تتسع، ثم تلتف بلا منطق، حتى فقدوا الإحساس بالاتجاه. كانت ماريانا ترسم المسار في دفترها، لكن كل إشارة كانت تُعيدهم إلى نقطة تبدو مألوفة، أو تُقذف بهم إلى ممر لم يروه من قبل.

= هذه ليست هندسة بشرية...

تمتت وهي تحدق في سقفٍ تتدلى منه أشكال تشبه لُقى عظمية، أو ربما كانت عضوية. لم يُجبها أحد، فقد بدأ الصمت يضغط على صدورهم كصخرة.

بعد قرابة ساعة من التوهان، انفتح الممر فجأة، دون سابق إنذار، على بهو دائري فسيح، تغمره إضاءة خافتة لا مصدر لها. أرضيته من صخر أملس كأنه مصهور ثم ترك ليبرد في سكينه، وفي مركزه تماماً : مائدة حجرية مستديرة، تحيط بها أعمدة متآكلة، وتعلوها من السقف قبة مكسوة برموز لولبية، تتحرك ببطء كأنها تدور حول وهم لا يُمسك.. و عيون تقدح شرراً و طيور الهدهد من جديد ..

اقتربوا، بخطى ثقيلة، من المائدة. فوقها كان هناك مجسم لعين... قابع في المركز، ذكرتهم على الفور بالعين المنحوتة على واجهة الهرم الجنوبية التي فتحت البوابة ، لكنها هذه المرة كانت حيّة أكثر

منحنية قليلاً للداخل، تنبض بخيط من الضوء البنفسجي، كأنها تنتظر إلى الداخل، إلى الروح.

توقفت ماريانا. حدّقت فيها طويلاً و كأنها تعرفها. ثم تذكرت .. هذه المجسم يمثل إحدى الرموز في **مخطوطة فوينيش** و التي كتب تحتها نص من أربعة سطور على إحدى صفحاتها ..

فتحت المخطوطة بأصابع مرتعشة ، و أخذت تتلو بصوت مرتجف كلمات النص و كأنها تلقي تعويذة و الجميع من خلفها يترقب بفضول و قلق، و ما إن نطقت بآخر كلمة حتى نغير كل شيء ..

ارتجّ الهرم بكامله، لا كزلزال، بل كأن شيئاً داخله كان في حالة سبات ثم تنفّس للمرة الأولى منذ الأزل. انبعث من المركز ضوء دائري، خافت في البدء، ثم اشتد كوميض برق انبعث من جوف الأرض، وارتفعت حرارة الهواء كأن البهو كله يغلي من الداخل.

تراجعت ماريانا، تلهث، ووجهها يشع ببقايا تلك اللمسة. قال ميغيل بصوت خافت :

= لقد أيقظنا شيئاً... أو أحداً.. كأن المكان مرصود و المخطوطة رفعت الرصد بتلك التعويذة ..

الجدران المحيطة بالبهو، التي بدت قبل لحظة صخرًا أملس صامتًا، بدأت بالتشقق. لكن لا صخور تسقط، بل تنشق الأسطح عن بوابات لم تكن موجودة. بوابات بلا مقابض، بلا فواصل، فقط خطوط من النور ترسم على الجدران وتنفلق، كما تنشق السماء في الكتب القديمة.

ثم، صمتٌ.

يتبعه صوت، كخرير عميق في نهرٍ حجري : خطوات... أو زحف.

ومن تلك البوابات، بدأت تنساب المخلوقات.. كائنات لم تُصمم لأعين البشر. أجسادها طويلة مفرطة النحول، جلدها رمادي مائل إلى الفضي، رؤوسها بيضاوية ممتدة كأقنعة منحوتة، وأعينهم بلا جفون، سوداء تمامًا، تحدّق بلا رمش. كانت تتحرك بهدوء مرعب، عشرات منها، تمشي على قدمين، و تحمل ذيولًا طويلة تنكمش وتمدد.

ارتد عبد الله إلى الوراء وهو يتمتم بآيات قرآنية وكاد يسقط. رافائيل رسم صليبًا على صدره، أما ماريانا، فاكتفت بالصمت، عيناها تتسعان بلا رمشة.

ثم ظهر هو.

أطول من الجميع، وأثقل. رجلٌ... أعور. ليس بفقدان عين عادي، بل كان في موضع عينه اليمنى حفرة مضيئة، كأن فيها بئرًا تحترق. وجهه كان مزيجًا بين الحكمة القديمة والخطيئة الخالدة، جبينه عالٍ مشقوق، وشعره داكن ينسدل إلى كتفيه كذيل ليل طويل. كان يحمل عصًا ملتوية، تتوهج بوميض بين الأزرق والنيلي، وكأنها نُحتت من برق متجمد.. احتشد البقية بالعشرات خلفه فاكتظ البهو و الممرات المتشعبة عنه ..

تقدّم خطوة، ثم أخرى. لا أحد تحرّك.

ثم قال، بصوت كأنه يأتي من أعماق الأرض :

= أنا زولشام. زعيم من نُفِي إلى هنا قبل آلاف السنين. من سَجَنَّا وقتنْذٍ ؟ نبيكم... سليمان.

شهقت ماريانا، لم تصدّق أذنيها. واصل زولشام حديثه، صوته أشبه بترتيل صخري :

= نحن من الجن .. من جنود السماء. نُزلنا للأرض ، لنكون بخدمة الإله و كثير من الأنبياء حتى جاء سليمان و اتهمنا بالتمرد عليه و

توسيع سلطتنا ، و هل هذه تهمة ؟ نحن الأجدر بحكم الأرض .. لم
نقبل الطاعة التي فُرضت علينا للبشر.. قال لنا سليمان عندئذ :
ستزحون تحت ثقل القيود في الهرم المرصود، حتى يُفتح عليكم
في نهاية الزمان زوجان .

وها قد جئتم بعد قرون ... و رفعتم الرصد الملعون ..

أخفض رأسه، ثم رفعه بعينه الواحدة كأنها تقرأهم، لا بأجسادهم،
بل بأرواحهم :

= سوف نترككم احياء .. هذا دين في أعناقنا تجاه من حررنا .. لكن
لا تظنوا أن العالم سيبقى كما هو بعد اليوم .. لقد انتهت أعمار الراحة.
نحن الآن ملوك الأرض... نُنفذ قضاء السماء.

صرخ تياغو :

= عن أي قضاء نتحدث ؟

ابتسم زولشام ابتسامة باردة وقال :

= أنا رسول آخر الزمان. أنا... أعين الله على الأرض.

ارتجّ جسد ميغيل عند سماعه لهذه العبارة. ارتسمت في ذاكرته صور
من الطفولة : أحاديث جدّه، كتبٌ دُفنت تحت الغبار، وكلها كانت
تحدّر من دجال أعور، يدّعي الرسالة، ويملأ الأرض فسادًا في نهاية
الزمان ... و في الأديان السماوية هذه من علامات قيام الساعة ..

لكن قبل أن ينطق، كان زولشام قد أعطى إشارته بعصاه و انسل
جيش الجن كريحٍ عبر البوابات، خارقين جدران الزمان والمكان.

في حين بقي الطاقم في البهو، والهواء من حولهم خالٍ من الحركة،

كأن العالم كله حبس أنفاسه في انتظار ما سيأتي.

التعويذة المضادة ..

في البدء، لم يكن الاجتياح صاخبًا.

لم يكن كجحافل تزحف، ولا قنابل تُلقى من السماء، ولا دبابات تجتاح المدن. بل انتشر جيش الجن كما يأتي المرض، كهمة في جسدٍ محموم، كظلٍ يتسلل تحت الأبواب حين لا ينتبه أحد.. و بدأوا بغزو جنوب الكوكب من الشرق رافعين رايات سوداء تنذر بالخراب .. و ذلك لم يكن بعسير على من نقل عرش بلقيس قبل أن يترد الطرف.

في أستراليا، بدأ كل شيء عند تخوم الصحراء الكبرى. راع من السكان الأصليين رأى أفق الأرض يُصدع بلون أسود داكن، كأن الليل انبثق نهارًا من جوف الحصى. اقتربت منه كائنات ذات رؤوس بيضوية وذبول متذبذبة، لم تكن تلمس الأرض، بل تطفو كما تطفو الأوهام في عين النائم.. و بتعويذة واحدة أغشي عليه بلا حراك ..

وفي اليوم التالي، كانت بيرث بأكملها قد فقدت وعيها.

الناس لا يصرخون. بل يسقطون ببساطة. يتوقفون وسط الكلام، يحدقون إلى السماء، ثم يسقطون، كدمى تُقطع خيوطها. انتشرت العدوى في الصمت، لا تُقاوم، لا تُفهم. ومن لم يسقط، أصيب بالذهول أو فقد ذاكرته، أو رأى رؤى غريبة عن مدن لا يعرفها، وممالك من نارٍ وماء.

في سيدني، شاهدت الشرطة طيفًا عملاقًا فوق دار الأوبرا. قال شهود إنهم سمعوا صوته في عقولهم، لا آذانهم، وهو يهمس :

= نحن الرَدُّ القديم على قسوة الإنسان.

كانت بريسبان آخر من سقط. بعدها اختفى البث كلياً من القارة، ولم تُسمع منها إلا همسات عبر الراديو، بكلمات لا تُترجم، أصوات أطفال يضحكون بين ترددات الموت.

ثم جاء الدور على الجنوب الإفريقي.

في الليلة الأولى، أُضيئت سماء كيب تاون بلون أحمر لا يشبه الغروب، بل كأن الشمس انفجرت تحت الأفق. سُمعت ضوضاء منخفضة، كمواء جماعي لملايين القطط الجائعة. ثم بدأ المطر... لكنه لم يكن ماء.. قطرات لزجة، تشبه الزئبق، تهبط وتترك آثاراً متوهجة على الأجساد. من أصابتهم، توقفت قلوبهم أو احترق لسانهم أو فقدوا الكلام إلى الأبد.

تقول ممرضة من جوهانسبرغ – قبل أن تُفقد – إن الأطفال بدأوا يرسمون رموزاً غريبة على الجدران دون أن يتعلموها.

انتشر الزحف شمالاً: بتسوانا ، ناميبيا ، زيمبابوي ، أنغولا. تسارعت العدوى كما يتسارع الجنون في حضن الذاكرة. كانت المدن تتعفن بأرواح لم تُعد بشراً. الشوارع فارغة، لكن النوافذ مليئة بعيون منطفئة على أجساد خاوية ..

وفي أمريكا اللاتينية، لم يكن الهجوم مادياً، بل سحرياً.

بدأ في جنوب تشيلي، عند غابات باتاغونيا، حيث شوهدت مخلوقات تمشي فوق المياه، تصعد من بحيرة فياغوستو بأجنحة خفيفة وذيل ملتفة. في أوشوايا ، أقصى نقطة مأهولة جنوباً، توقفت الساعات كلها عند الرابعة وأربع وأربعين دقيقة فجراً، وسمع الجميع – من دون مصدر – صوتاً واحداً يقول :

= انتهى زمانكم و جاء زماننا .. مملكتنا ستقام من الجنوب ، و الشمال سيأتيه الدور قريباً ..

في ريو غراندي ، عانق مزارع عجوز واحداً منهم، فبدأ الكائن يتكلم بلغة منقرضة، ثم اختنق الراعي بكلماته ومات وهو يبتسم.

بوينس آيرس قاومت لأيام، لكن الناس بدأوا يرقصون في الشوارع دون توقف كما لو أنّ طاعوناً غامضاً أصابهم ، في طقوس لا يمكنهم مغادرتها. البعض احترق من الداخل، وآخرون بدأوا يسировون نحو البحر بلا سبب، ويختفون.

ساو باولو، مونتيفيديو، ليما ، كلها تبعت.

اختفت الحدود. و بسط الجن سيطرتهم على جنوب الكوكب..

وصوت الأعور زولشام – الذي صار الآن يُبثّ من كل شاشة –

يقول :

= أنا رسول من لا يُسأل. أنتم من طرق الباب .. و نحن من يجيب بطريقته .

كان الناس، في نصف الأرض الشمالي، يشاهدون... و لا يصدقون.. غارقين في دوامة من الرعب و القلق

حين غُزيت أستراليا، ثم جنوب أفريقيا، ثم جنوب أمريكا، لم تُصدر الحكومات سوى بيانات مرتبكة، متأخرة، مشوّهة. لم تكن تعلم، أو لم تكن تريد أن تصدّق. ولكن عندما بدأ الجن يظهرون في شاشات الأخبار، يتحدثون بكل لغات الأرض، ويلقون تعاويذهم في بثّ مباشر... تغير كل شيء.

في مجلس الأمن، للمرة الأولى، اجتمع العالم دون اعتراضات، دون فيتو، دون نقاش في الجدوى. جلست الولايات المتحدة إلى جوار الصين، وجلست روسيا إلى جانب بريطانيا و فرنسا، وتحدث ممثل الكاميرون بلسان الجميع :

= إذا سقطنا فرادى، سيسقط الجميع. يجب أن نقاتلهم معاً.

وأطلقت العملية الكبرى :

درع البشرية.

تحركت الأساطيل من خمس محيطات. جُهزت الأقمار الاصطناعية ببرمجيات مخصصة لرصد الترددات غير المعروفة. خُصصت الطائرات الحربية لملاحقة الظلال أكثر من الأجسام. سُحنت أطنان من الأسلحة غير التقليدية ، بعضها صوتي، بعضها مغناطيسي، وبعضها طوره علماء تحت الأرض منذ سنوات ولم يُكشف عنه قط. في مركز العمليات العالمي تحت جبل شاستا، اجتمع القادة والعلماء والروحانيون من كل دين، وُضعت الكتب المقدسة على الطاولة إلى جانب مخططات المعارك. كان المزيج مربعًا : الدين والعلم في خندق واحد، الخرافة والمعادلات الرياضية تتشاركان شيفرة الخلاص.

لكن .. ما من شيء نفع .. العلم رغم أنه بلغ الذروة وقف مكتوف الأيدي امام اسلحة لم يصنعها البشر .. امام طاقة مجهولة .. امام لعنات و تعويذات .. امام سحر و ماورائيات ..

و في فجر رماديّ على تخوم مدينة أولورو – وسط القارة الميته – ظهر الزعيم الأعور. واقفًا فوق صخرة، خلفه السماء تنقلب إلى رماد .. صرخ بتكبر جاء من أعماق ابليس و هو يرفض السجود لأدم :
= هل تظنون أنكم قادرون على الانتصار ؟ أنتم لن تهزموا أحدًا... بل تجربون فقط عضّ السحاب.

و عندما رفع العلم الراية البيضاء في معركة غير تقليدية .. بقي الدين يصارع وحيداً في الميدان ..

من خلف التلال، كان يتقدم جيش لا راية له، بقيادة رجلٍ من مالي،

يقول إنه رأى الأعور في رؤيا متكررة منذ الطفولة و علمه طيف
النبي سليمان كيف يهزمه . في يده لم يحمل سلاحاً ، بل مخطوطة
قديمة : دعاء على لسان النبي سليمان مفعم بلفظ الجلالة و التعوذات.
قرأ التعويذة بخشوع و كأنه يطلق عليهم آخر رصاصة في مسدس
البشرية ..

لحظات و تغير كل شيء .. انقلبت الموازين وبدأ الجن ينكمشون.
واحدًا تلو الآخر ، كأنهم يُسحبون من داخل أجسادهم إلى نقطة سوداء.
تلوى زولشام، وصرخ مهزوما يائسا لأول مرة و غروره يتشظى
تحت عرش الإله الذي لم يتزحزح من مكانه ، ثم هجم عليه الضوء
من كل الجهات.

لم ينفجر.

بل تفتّت.

عظامه تناثرت كغبارٍ يتبخّر، وصوته خفت، ثم اختفى.

وبقي الصمت.

صمت طويل، صامت كأن الأرض نفسها تستمع لنبضها و لحكم
الاله ..

ثم بدأ الناس يستفيقون.

المدن تستعيد صوته.

الهواء يعود نديًا.

وبينما كانت الشمس تطلع من جديد على عالم مكسور... كان ميغيل
في القطب الجنوبي يتابع اخبار المعركة بين الجن الذي حررهم بلعنة
فضول منه و بين البشر ..

ابتسم قليلا عقب انتهاء الحرب و امحاء الجن .. لكنه سرعان ما استرد
عبوسه و قال :

= هذه ليست نهاية الحكاية.

بل نهايتها الأولى.

الفصل الثامن

صراع العمالة

العاصمة القرغيزية بيشكيك، مدينة متوارية بهدوء تحت ظلّ سلسلة جبال تيان شان، تغفو بين طيات الطبيعة كعروس خجلى لم يُكشف عنها النقاب بعد. سماؤها مزروعة باللون البرتقالي المتوهّج، والهواء يحمل رائحة الغبار المتصاعد من سهول آسيا الوسطى، ممزوجًا بنسيم يأتي من قمم مكلّلة بالثلوج.

في الأفق، ظهرت كطائر معدني مهيب، طائرة **SKYWING 5984** الخاصة، مملوكة للملياردير الفرنسي المغامر باسكال دوبويسون، الموصوف في الصحافة العالمية بأنه جامع الروح ومروض الجغرافيا .. لونها الخارجي كان أبيض لؤلؤي مع خطوط فضية تنساب على الجانبين، وتتألأأ تحت شعاع الشمس كأنها جزء من قمر صناعي قرر النزول إلى الأرض.

داخل الطائرة، جلس باسكال في مقعد جلديّ بلون العاج، يحمل في يده كأسًا من الشاي الأخضر، يتأمله بنظرة شاردة. على الرغم من ثرائه الفاحش، كان مظهره بسيطًا بشكل يخدع؛ سترة من الكشمير الرمادي، وشعر فضّي مصفف بعناية، وعينان لا تهدآن عن تقليب المجهول إلى أسئلة.

إلى جانبه جلس جوليان، مساعده اللوجستي، شاب في أواخر الثلاثينيات، أنيق بلا مبالغة، يحمل حاسوبًا لوحياً يراجع عليه الخرائط وبيانات الطقس. أما المقعد الخلفي، فقد شغلته لارا، باحثة في أسرار الكتب السماوية و جذورها التاريخية، ذات شعر حنائي مربوط خلف رأسها، تحمل دفتر ملاحظات وتدون تأملات متوترة

حول العين الحمئة التي ورد ذكرها في القرآن وارتباطها **ببحيرة إيسيك كول** أو ما يعرف بالبحيرة الدافئة.. و في مؤخرة الطائرة جلس ثلاثة شبان بمهام موزعة بدقة و خلفهم دليل محلي و مترجم لغوي ..

حين لامست عجلات الطائرة المدرج العسكري الخاص في بيشكيك، لم تكن المدينة قد استيقظت بعد على قدوم من سيحفر اسمه في أساطيرها.

في زاوية من المطار العسكري، انتصبت مروحية عسكرية معدلة من طراز **SPIDER V-77** بلون رمادي داكن، مزودة بتقنيات الملاحة الحرارية ومعدات الطيران في البيئات المتطرفة. كانت مجهزة بنوافذ واسعة تسمح للمسافرين بمشاهدة المناظر الطبيعية التي لا تشبه إلا نفسها؛ بحيرات كأنها دموع جبال، ووديان منحوتة بإزميل الزمن.

ارتدى باسكال معطفًا مبطّنًا بالفرو الطبيعي، وألقى نظرة إلى الجبال التي تلوح من بعيد كجدران بيضاء تحيط بسماء زرقاء. قال بهدوء :

= نحن لا نذهب إلى مكان فقط... نحن نذهب إلى نقطة نسيها الزمن ودونها الوحي.

أجابه جوليان بابتسامة خفيفة :

= و بين أيدينا ما لم يكن لدى الإسكندر المقدوني... الذكاء الاصطناعي، والخرائط الحرارية، وأقمار الرصد.

لارا همست، وكأنها تحدث نفسها :

= و قد يكون ما ينتظرنا... ما لم ينتظره بشر.

صعدوا جميعًا إلى المروحية.

كانت المقاعد الجلدية مريحة على غير عادة الرحلات الاستكشافية، والمقصورة الداخلية عازلة للصوت تقريبًا، لا يسمع فيها سوى أزيز خافت كنبضات الأرض في مهدها.

أقلعت المروحية ببطء، ثم ارتفعت بسرعة كأنها تخترق الطبقات التاريخية فوق **جبال قرغيز ألتاي**. تحتهم، تمددت الأرض كرقعة شطرنج سريالية من جليد وسهول وبرك متجمدة. جبال شاهقة، بعضها مغطى بالثلج الدائم، وبعضها يلمع كالسيوف تحت شمس العاشرة صباحًا.

استغرقت الرحلة قرابة الساعتين، تخللتها صمت مهيب، كل واحد منهم كان غارقًا في أفكاره. كانت الأرض تتسحب تحتهم بهدوء، بينما أخذت المنحدرات تقترب شيئًا فشيئًا من أجنحة المروحية، كأن الجبال تسحبهم إليها.

ثم بدأت ملامح البحيرة تظهر من بعيد.

إيسيك كول... البحيرة الدافئة التي لا تتجمد. زرقتها كانت أقرب إلى زرقة النبوءة، ساطعة وسط الإطار الأبيض الذي يحيط بها. كانت تشبه عينًا كونية نائمة في حضن الجبال، تحقق نحو السماء بصبرٍ عمره آلاف السنين. بخار خفيف يتصاعد من سطحها رغم البرد القارس على نحو مخالف لقوانين الطبيعة و أقرب إلى سحر حواء أو معجزة قديسين، بدت كأنها تتنفس، كأنها ما تزال تنتظر خروج يأجوج ومأجوج، أو عودة ذي القرنين.

هبطت المروحية ببطء على رقعة مسطحة قريبة من الضفة الشرقية. ترجل باسكال أولاً، ثم جوليان، ولارا خلفهما و أخيراً المساعدون الثلاثة و الدليل و المترجم . وقفوا بصمتٍ، والرياح الباردة تلامس وجوههم بشيءٍ من القداسة.

قال باسكال وهو يحدق في الأفق :

= من هنا تبدأ القصة... على أمل أن تنتهي بانتصار مدوي ..

= سنرى.

أجابت لارا، وهي تضم تقاريرها إلى صدرها كقلبٍ إضافي.

كانت الخطوة التالية... أن يقتربوا من سرّ السد العظيم، الدفين بين جبال بكر ما تزال تحفظ في باطنها ارتعاشة الوحي الأولى.

انتصف النهار فوق بحيرة إيسيك كول ، كانت المنطقة مغيبة تحت ستار من ضباب كثيف، لكن الضباب هنا لم يكن إلا قناعاً مؤقتاً، سرعان ما اخترقته أصداء طائرات الدرون المتقدّمة التي أطلقها فريق باسكال بهدوء يشبه صلاة سرّية في حضرة المجهول. كانت أربع طائرات صغيرة، من طراز **FALCON 58 GW** ، مجهزة بكاميرات حرارية حساسة من الجيل الأخير، تحلق بتناسق أشبه بسرب طيور يتقفى أثر الحكاية.

ارتفعت الدرونات في السماء الهادئة، ثم انطلقت بأوامر مبرمجة مسبقاً عبر جهاز تحكم محمول كان بين يدي جوليان ، الذي ثبت

عينيه على الشاشة كمن يراقب أطيافاً لا تُرى. تلوّنت الشاشة تدريجياً بأطياف من الأزرق، الأخضر، ثم الأصفر، وأخيراً تبرقعت بعض المناطق باللون الأحمر الناري، في إشارة إلى اختلافات حرارية كامنة في باطن الجبل.. استمر الرصد قرابة ساعتين من الزمن .. حتى تمركزت إحدى الدرونات فوق الجرف الشمالي الشرقي المحاذي للبحيرة، في نقطة لطالما بدت عادية لعين الإنسان. لكنها الآن بدت أشبه بجدار غائر في عمق الأرض، مفرغ من الداخل، كأن الصخور نفسها تخفي سرّاً يتنفس تحتها. منحنيات حرارية متناسقة ظهرت على شكل مستطيل ضخم بارتفاع عشرات الأمتار و تتوغل بعيداً في جوف الجبال، وبنية هندسية منضبطة لا يمكن للطبيعة وحدها أن تُبدعها.

همست لارا وهي تحقق في صور الأشعة الحرارية :

= إنها ليست مجرد صخور... هذا أشبه ببنية كهفية، جدار كثيف خلفه تجويف هائل... أو لنقل... سد. خلفه بحيرة من الأسرار ..

نظر باسكال إلى الخريطة القديمة التي تشير إلى منطقة التقاء الجبلين. تطابقت تمامًا مع الصورة الحرارية الحديثة، كما لو أن المخطوطة تعود لهذه اللحظة بالضبط على نحو يثير الدهشة والقلق معاً ...

= هل تظنين أنه... السد المذكور في التراث و الروايات ؟

سأل باسكال بصوت أشبه بالعرشة.

= لا أظن...

قالت لارا بعينين تحديقان في الظلال على الشاشة، ثم أكملت :

= أنا أجزم بذلك.

= بهذه السرعة و البساطة !!

= عندما يحين المخاص فلا شيء يمنع السر الدفين المنتظر من
الولادة و ابصار النور ..

في تلك اللحظة، ساد صمت غريب، وكأن الجبال نفسها انحنت
لتصغي .. ثم عاد صوت الدرونات يخترق السكون، ترسم في سماء
البحيرة خريطة حديثة لأقدم الأساطير، في انتظار من يطرق الباب
الذي ظل مغلقاً لقرون.

قبل المساء بقليل، حين كانت الظلال لا تزال تتخبط بين زرقاء
ورمادية، انطلق باسكال ومرافقوه بخطى محسوبة نحو موقع الجدار
الذي حددته طائرات الدرون .. الطريق لم يكن سهلاً البتة ، فقد
تهشمت الصخور الجليدية تحت أقدامهم كأنها تحرس سرّاً موعلاً في
القدم و تهدد من يحاول هتكه بالسقوط ، وكلما اقتربوا من الموقع،
أحاط بهم شعور ثقيل، شعور لا يشي بالخطر فقط، بل بالرهبة.

ثم ظهر أمامهم...

الجدار.

لم يكن ذلك جرفاً طبيعياً، ولا كومةً من ترسبات الصقيع أو بقايا
انزلاقات أرضية. لقد بدا كأنه صبّ إسمنتي ضخّم، متماسك، بلون
رمادي مشوب بزرقة معدنية باهتة. امتدّ بعرض الجبلين، بلا شقوق،
بلا نتوءات، سطحه أملس على نحو مريب. كانت خطوطه عمودية
ومتناظرة، وكأن يداً بشرية جبارة قامت بصبه دفعة واحدة منذ آلاف
السنين.

همس باسكال، مأخوذاً :

= هذا... يستحيل أن يكون صنيعة الطبيعة !!

هز البقية رؤوسهم موافقين ، و بإيماءة سريعة منه، بدأ الفريق بتجهيز المتفجرات. كان الثلاثة يرتدون سترات خضراء مبطنة، ووجوههم شبه مغطاة بأقنعة واقية من الصقيع. أخرجوا عبوات الـ **C4** من الحقائب، خمسة مستطيلات بلاستيكية بلون الطين المتجمد، وراحوا يثبتونها بدقة عند النقاط الأكثر ضعفاً في الجدار كما حدّدتها الصور الحرارية. استخدموا مادة لاصقة عالية التماسك حتى تثبت على الجدار المتجمد، ثم زرعوا شحنات التفجير الإلكترونية، ووصلوها بأسلاك تمتدّ خلفهم حتى موقع الاختباء المؤقت.

كان العمل يتم بصمت مشوب بالتوتر. الأصابع ترتجف، لا من البرد فقط، بل من وعي داخلي بأنهم بصدد طرق باب غامض أغلق منذ آلاف السنين.

انتهى الزرع ثم تراجعوا جميعاً إلى خلف نتوء صخري كبير، يبعد حوالي مئة متر، وتهيأ الجميع للحظة المنتظرة. أمسك جولييان بجهاز التفجير بين يديه، ونظر إلى باسكال الذي أوماً برأسه إشارة للبدء. ضغط الزر.

في البداية، بدا كما لو أن الصمت نفسه تحطم ، ثم انبعث صوت خافت، منخفض التردد، يشبه خواراً من أعماق الأرض... تبعه وميض حارق، تلاه انفجار متعدد الصدى، لا تصفه الكلمات بقدر ما يُحسّ على هيئة موجة صادمة عبر الهواء. ارتجّت الجبال، تكسّر الصقيع على الأرض تحت أقدامهم، وتناثر الغبار الجليدي في كل اتجاه.

حين انقشع الدخان... كانت هناك بوابة. أو على الأقل، ما يشبه تجويفاً هائلاً انكشف داخل الجدار، تتدلى من سقفه كتل جليدية مدببة كأنها دموع متحجرة.

رمقهم باسكال بنظرة لا توصف، ثم تمت بصوت خفيض :
= الأسطورة حقيقية .. السد يخفي شيئاً خلفه .. الآن فقط... بدأ كل شيء.

مفاجآت من العيار الثقيل ..

عبروا البوابة كما يعبر المسافرون من زمنٍ إلى زمن، لا من مكانٍ إلى آخر. ما إن خطا باسكال بقدمه داخل الفتحة المتفجرة، حتى شعر كأنّ الهواء قد تبدّل، وكأنّه عبر غشاء رقيقاً يفصل العالم المرئي عن عالم مخبوء منذ آلاف السنين. كان الدخان لا يزال يتلاشى خلفهم حين بدأت عيونهم تتيقّن من هول ما يرونه. لم يكن كهفاً ضيقاً متداعياً كما اعتادوا في رحلاتهم الاستكشافية، بل فجوة عظيمة تكاد تبتلع الزمن نفسه، محفورة بين صخور الجبال الجليدية خلف الجدار، تُفضي إلى عالم باطني لا تنتمي تضاريسه إلى أي خريطة، ولا تخضع لنمط جيولوجي مألوف.

كان الكهف بطول كيلومترات، يعانق السماء الداخلية كما تعانق القباب الكبرى المعابد البوذية. تجاويفه ترتفع فوقهم حتى بدت كأنها بلا نهاية، تتدلى منها آلاف الهوابط المتجمدة، أشبه بسيوف معلّقة، تساقطت منها قطرات المياه بصوت خافت كأنها نبضات قلب المكان نفسه. الضوء لم يكن معدوماً على الرغم من انعدام الشمس: بل بدت جدران الكهف مغطاة بطحالب مضيئة تميل إلى الأخضر المزرقّ، تبتّ وهجاً باطنياً رقيقاً، جعل المكان يبدو كمعبد قديم تنبض فيه الأرواح.

بعد مسيرة طويلة في ممر صخري يضيق ويتسع، كانت المفاجأة الأكبر بانتظارهم.

انفتح أمامهم وادٍ داخلي، خفيّ، تمتد على أطرافه غابة بدائية تكسو أرضها طبقات كثيفة من الطحالب والرواسب الطينية. ارتفعت أشجار غرائبية الشكل لا يعرفون لها اسمًا، بجذوع ملتفة وأوراق عريضة، بعضها يضيء من تلقاء نفسه، وبعضها يصدر نغمات خافتة حين تحرّكه الريح. بدا هذا المكان كأنه بقايا من حديقة أولى نُسيت منذ بداية الخليقة. الغابة بدت شبه استوائية، على الرغم من قربها من القطب، وحرارتها معتدلة بشكل غامض لا يتماشى مع منطق الجغرافيا.

أطلق أحد المساعدين صافرة صغيرة، وإذا بعشرات الطيور الصغيرة — لم يروا مثلها قط — تطير من بين الأغصان، ألوانها كأنها مزيجٌ من الطاووس وطيور الجنة و الببغاوات، وأجنحتها تشع ببريق فوسفوري. لاحظ باسكال أن الأرض زلقة لكنها ليست موحلة، بل كأنها مبطّنة بطبقة إسفنجية حيّة، تعيد تشكيل خطواتهم خلفهم كما تفعل الرمال، ولكن بصمت مخيف.

ثم لمحوا بحيرة صغيرة تتوسّط الغابة، مياهها بلون الزمرد، لا تتحرك ولا تفسد انعكاسات الجدران الجليدية على سطحها كأنها مرآة مقدّسة.. عالم طبيعي متكامل في قلب الجبال !!

تقدموا أكثر صوب عمق الغابة الكهفية، يحقّهم صمتٌ غير مريح، ليس صمت الغياب، بل صمتٌ ممتلئ، كأنّ شيئًا ما يراقبهم من بين الأشجار... شيئًا أكبر من مجرد حيوان بري، وأبعد من مجرد مخلوق. كانت الغابة تنبض، لا مجازًا، بل فعلًا. كل ورقة، كل جذع، كل قطرة ماء بدت كأنها واعية لوجودهم. خفقت قلوبهم بتسارع، والسكون تخلله زفير متقطع، فيما ظل باسكال يتمسّك بالبوصلة في يده كمن يتمسّك بعقله الأخير.

في قلب تلك الغابة السرية المتوهّجة، وبعد ساعات من التوغل الحذر والأنفاس المكتومة، لمح باسكال ورفاقه شيئاً يتحرك بين ضباب الأشجار الخلفية، شيئاً هائلاً، لا تُدرّكه العين بالكامل من أول نظرة. أشار بصمت إلى لارا المنكشفة في صدر المشهد ، فانحنّت فوراً خلف جذع ملتفّ، بينما تبعها الآخرون بذات الخفة. في ذلك الوادي الغامض داخل الكهف، بدأت خيوط الأسطورة تتجسد:

عمالقة حقيقيون ينتصبون أمامهم ..

قوم يأجوج و مأجوج !!

كانوا أربعة وأربعين عملاقاً، يسرون في خط بطيء ملتفّ حول دائرة من الحجارة السوداء المتفحّمة، يشعلون ناراً كثيفة دخانها لا يصعد، بل يلتفّ كسحابة خاضعة لقوانينهم. أجسادهم شامخة، ترتفع لأكثر من خمسة أمتار، عريضة بشكل يثير الفزع، عضلاتهم كحبال ملتفة على أعمدة من حجر حيّ. جلودهم بلون الطين المعفّن، وأذرعهم تنتهي بأكفّ مع ستة أصابع طويلة ومفاصل ناتئة وكأنّها أداة قتل لا أكف. رؤوسهم ضخمة مدورة كالمطارق، وجباههم منحدرّة بلا حواجب، وعيونهم الصغيرة كجمرتين مدفونتين في صخور الوجه، تلمع بالشرر وتتحرك بخفة مفاجئة. أنوفهم مفلطحة واسعة، وأفواههم شقّ متوحش تتدلى منه أسنان كأنياب الضباع، طويلة، صفراء، ومسنّنة.

كانوا يرتدون أثواباً بدائية ممزقة من جلود داكنة لا تشبه جلود الحيوانات الحديثة، مزيّنة بأحزمة عظمية وأصداف منقرضة، تفوح منهم رائحة فاسدة تنذر بالعدوى والموت، مزيج من لحم نيّئ مُتحلل، وعفن كهوف قديمة لم تطأها قدم بشر منذ عصور ما قبل اللغة. بدت على أجسادهم وشوم بأشكال لولبية ونقوش هندسية ملتوية، تلمع كما لو كانت محفورة بمادة فسفورية.

لم يكن بين هذه الكتلة الذكورية العملاقة أنثى واحدة. وكلما حَتَقَ
باسكال في المشهد المربك، راح يسأل نفسه :

= أين نساؤهم ؟ هل لم يعد لهن وجود ؟ هل ماتت الأنثى في عالمهم القديم أم تُخفى في قاعات أعماق ؟

كانوا يتحدثون بصوتٍ أجشٍّ تداخلت فيه طبقات من اللغات، لغة بدت وكأنّها خُطَّت على الحجر قبل اختراع الأبجدية، أصوات متقطعة، صرير معدني، وخوار بدائي، وكأنهم لا يتحدثون بل يُخرجون أصواتًا من جوفٍ عميق، عفنٍ ومهجور. صداها ارتطم بجدران الكهف فارتجّ الهواء كأن الجدران تتنفس معهم.

كانوا يضحكون — لا، ليس ضحكًا — بل قهقهة باردة، شريرة، تكشف عن أنياب حادة وألسنة بلون الفحم. أحدهم أمسك بحيوان غريب الشكل فمزقه بأسنانه أمام الآخرين الذين أخذوا يصفقون له، بصفقات يدوية كالصواعق.

اختبأ الفريق البشري بصمت تام، يتصبب منهم العرق رغم برودة الهواء، وعيونهم تلتهم المشهد بلا رمشة واحدة. لكن ما لم يتوقعوه حدث.

صوت طقطقة من الدليل المحلي — غصن انكسر تحت قدمه — لا أكثر، لكنه كان كافياً لإيقاظ الغريزة المفترسة لدى أحد العمالقة.

توقّف فجأة، شمّ الهواء كذئب، ثم أدار رأسه، وصرخ بصوت مزق أحشاء الجبل:

= غار غر !

جمد الدم في عروق الجميع.

تَجَمَّعَ بَقِيَّةُ الْعِمَالِقَةِ خَلْفَهُ، وَبَدَأُوا يَرْكُضُونَ، لَيْسَ جَرِيًّا، بَلْ أَشْبَهَ

باجتياح أرضي، الأرض تهتز تحت أقدامهم، والحجارة تتفتت،
والنباتات تتقاذف يمينًا ويسارًا.

صرخ باسكال :

= اركضوا نحو البوابة ! أسرعوا !

اندفعوا جميعًا بين الأشجار، الأغصان تتطاير و الأعشاب الشائكة
تلسعهم .. اللهات تحول إلى صراخ، و جوليان يلتقط جهاز الملاحة
محاولاً تتبع المسار في ضوء خافت. العمالقة اقتربوا، وصرخاتهم
ملأت الوادي بصدى مرعب يمزق الأفئدة :

= هاغراغا! هوووووف! رارارارا !

كل صرخة منهم كانت كالقصف. أحدهم قفز فوق صخرة ضخمة
وانقضّ بجسده كنيزك، كاد يفتك باثنين من المساعدين، لكنهما انزلقا
نحو جرف موحل ونجيا بأعجوبة. تساقطت الصخور، ارتجبت
الكهوف، وتحول الهروب إلى جحيم حيّ، كأن الجميع عالقون في
كابوس نُسج من أساطير الغضب.

بعد سلسلة مراوغات واستعانة بآثارهم المطبوعة على الأرض ،
تمكنوا أخيرًا من العودة إلى البوابة ، انسلّوا منها واحدًا تلو الآخر،
يلهثون، ينزفون، ولا يصدقون نجاتهم.

ثم، خلفهم، سُمعت صرخة أخيرة... لا غضب فيها هذه المرة، بل
حزن .. كانت وحشية... لكنها تحمل شيئاً من الخيبة ..

وسط لهاتٍ متقطع وقلوب تخبط أضلاعها كطبول حرب، خرج
باسكال وفريقه من الشقّ الصخري الضيق إلى سفحٍ مكشوف مكلّل

بالثلج، كأن جوف الأرض تقيأهم الى هواء العالم من جديد. كانت الشمس تتهامس على الأفق القطبي كجفنة نار معلّقة، بينما الريح تعوي بوحشية كأنها تنذر بما هو أعظم. لم يتفوه أحد بكلمة، الأعين وحدها كانت تتحدث، تتسع كل لحظة كأنها ترى الموت خلفها يتشكل بهيئة غير بشرية ..

بعيداً عن الشق الحجري، لم يكن هنالك متسع من الوقت للندم، ولا للتفكير بما رُئي، بل فقط للهرب. كانت المروحية، تومض في الأفق كطوق نجاة سماوي. انطلقت الأصوات اللاسلكية المرتبكة : = خطر داهم... تجهّزوا لإقلاع فوري...

وبين كل صرخة، كان الزمن يُنتزع من عروقهم.

في غضون دقائق قليلة، وصلوا إلى الحافة الثلجية حيث تجثم المروحية بهبوط غير مستقر. حوامة سوداء لامعة، ذات أذرع من الكربون وأجهزة ملاحية تتلألأ كالنجوم. دارت شفراتها بسرعة جهنمية كأنها تمرّق الهواء نفسه، بينما زمجرة المحرّك تتداخل مع زمجرة العمالقة البعيدة ..

ركض الفريق نحوها، زلاجاتهم تغوص في الثلج، ملابسهم ممزقة، والبرد ينهش أطرافهم. أول من صعد كان لارا، سحبت أحد المساعدين خلفها، ثم البقية و أخيراً باسكال وهو يصرخ :

= هيا ! أقلعوا حالاً !

لكن شيئاً آخر تحرّك هناك، خلفهم تماماً، في فم الكهف الذي خرجوا منه... يد.

يد عملاقة.

سوداء، متشققة، بأظافر أطول من الخناجر، خرجت من بين الشقّ الجبلي كفحيح أفعى ملتهبة. قبضت اليد على أطراف الصدع، ثم...

بدأت تفتحه.

كانت الصخور تصرخ، الثلوج تهوي من المنحدرات، بينما بدا العملاق الغاضب وكأنه نُفخ فيه من نار القيامة. بكامل عنفه، شدّ الصدعين المتباعدين، فبدأت الفتحة تتوسّع، شبرًا بعد شبر، ثم ذراعًا... ثم مترًا... حتى صار الجبل ينوح بصوت مجروح.

في المروحية، نظر باسكال من النافذة الخلفية، وعيناه تسجلان لحظة أخيرة لن تُنسى : العملاق يشق السدّ كما يُشقّ رغيف الخبز، ووراءه عشرات العيون الحمراء تلمع من باطن الظلام. الحجارة تتساقط كقذائف، والغبار يملأ الفضاء الأبيض، وكأن يومًا من أيام الله يوشك أن يبدأ.

= انطلقوا ! لأعلى ارتفاع !

صرخ باسكال للطيار.

ارتفعت المروحية، واهتزّ بدنّها بفعل رياح التفجير الناتج عن انهيار أولي في جسد السد .. ومن الأسفل، ارتفعت صرخة عملاقة، لا تشبه الغضب... بل كانت نُذْرًا. وكأنها تقول للعالم :

(لقد عدنا.)

وفي اللحظة التي تجاوزت فيها المروحية حدود الجبال، سُمع دويّ مرعب، انهيار السد. كومة الصخور التي صمدت منذ آلاف السنين انهارت كقلعة من رمل، والضوء المتسرّب من الكهف بات نهرًا من الجحيم.

تحرر العملاقة، ونظرات الطاقم مصوبة عليهم حتى الغياب... التفت المروحية و غادرت المنطقة وهي تحمل في أحشائها شهادة البداية لنهاية كل شيء.

صدقت النبوءة إذن و خرج قوم يأجوج و مأجوج من خلف السد الذي احتجزهم لآلاف السنين حتى جاء باسكال على قدر و هذه ..

الاجتياح البربري ..

في تلك الليلة و عقب انهيار سد ذي القرنين، بدا كل شيء هادئاً كأن الأرض تتنفس في سبات عميق. فوق سهول قرغيزستان المزروعة بالحنطة البرية، كانت الرياح تمر بخفة العرافات، تدغدغ وجوه المزارعين وتهمس لهم بما لن يفهموه إلا بعد فوات الأوان. المدينة العاصمة بيشكيك، بجبالها المتوشحة بالثلج وساحاتها المزينة بأعلام الأمل، لم تكن تعلم أن قدرًا عتيقًا يتحرك من خلف الستار، يسير من باطن الأرض كموعِدٍ مؤجل منذ آلاف السنين.

من تخوم جبال تيان شان، وعلى حين غفلة من كل الأقمار الصناعية والأنظمة الدفاعية، خرجوا. ليسوا حيوانات ولا بشرًا، بل خلقٌ غريب، عملاق، عارٍ من الرحمة، يترنح بين الأسطورة واليقين. أربع وأربعون كينونة عملاقة، كل واحد منهم بطول شجرة أرز معمرة، تسير بخطى تزلزل الأرض وتفتت الصخر. أجسادهم تنضح بالبخار، كأنهم خرجوا تواءً من جوف بركان. عيونهم موصولة بلون الرماد، لا تُبصر، بل تشعر بنبض الخوف في قلب من يراهم.

وفي غضون ساعات، انهارت أولى القرى مثل أعواد ثقاب. لا صراخٌ نجا، ولا باب أُغلق في وجههم إلا حُطّم. كانت قرية توكموك أولى الضحايا، ثم تبعها كانت و بيلوفودسك و شوبوكوفو .. الطرقات امتلأت بدماء المدنيين، والهواء امتلأ بزئير العمالقة وهم يرفعون أعمدة الإنارة لينهالوا بها على المباني كما يُضرب الطبل في جنازات الجبابرة.

لم تكن الأخبار في البداية أكثر من شائعات محمومة على وسائل التواصل. مقاطع فيديو مشوشة لظلال ضخمة تجرّ المدن كما يُجرّ الرمل من الشاطئ. صوت بكاء طفل يتردد في الخلفية، وآخر هرم يُقسم بأن القيامة بدأت.

في الأروقة الباردة للكرملين، وحول الطاولة الدائرية في بكين، بدأ القلق يتحول إلى هلع استراتيجي. لم تكن هناك أوامر، بل صمتٌ يسبق العاصفة. ثم، في لحظة توافق معتادة، اجتمع جنرالات الصين وروسيا في اتصال مباشر، واتفقوا على إطلاق العنان: طائرات حربية، صواريخ، دبابات، فرق برية مدرّعة، وحدات خاصة تحمل آخر ما وصل إليه العلم من سلاح، ستتجه إلى قلب قرغيزستان بطلب من حكومتها لتقابل الجنون القادم من أعماق الجبال.

وفي غضون أقل من ست ساعات، كانت سماء العاصمة تموج بأسراب من المقاتلات النفاثة. من بعيد، كان سكان بيشكيك يرون الخطوط البيضاء التي تتركها الطائرات خلفها، وكأنها حواجب مكتوبة بخوف على جبين السماء.

لكن العمالقة لم ينتظروا أن يُحاصروا. اندفعوا نحو العاصمة، كأنهم يعرفون أنها النخاع الشوكي لهذا الجسد الصغير المسمى بالدولة. وبينما تُنذر الأبواق بانفجار المعركة، كان العمالقة قد وصلوا تخوم المدينة، وبدأت الصخور تتطاير كألعاب الأطفال، والمباني تنهار كأنها بيوت كرتونية من مشهد سينمائي عبثي.

بدأت المعركة حين ارتجت الأرض تحت أقدام الجيش الروسي المتقدم من الشمال، والجيش الصيني الزاحف من الشرق. لم يكن القتال كما رسمته كتب الحروب التقليدية، بل كان أقرب إلى اصطدام حضارتين لا تنتميان للعصر ذاته.

انطلقت الصواريخ كأنها شياطين محمولة على أجنحة اللهب، ضربت أولى العمالقة فتناثر لحمهم كقطع الفحم المحترق. لكن

سرعان ما عادوا ينهضون. لم يردعهم اللهب، بل زادهم توحشاً. أحدهم تلقى قذيفة مباشرة على صدره، فهوت عليه شجرة عظيمة كأنها تبكي، لكنه لم يتوقف، بل رفع جذع الشجرة وضرب بها طائرة حتى تفتت كالقشرة.

السماء اشتعلت. المروحيات تطير وتهبط وتطلق صرخاتها النارية، العمالقة ينقضون على الدبابات بقبضاتهم، يسحبونها من الأرض كما يُسحب العصفور من غصنه. الجنود، رغم بطولتهم، كانوا أقزاماً أمام جحيم هؤلاء. الرصاص يرتطم بأجسادهم بلا جدوى، والقنابل تنفجر على جلودهم كأنها قطرات مطر.. و الأخطر كان استخدام العمالقة للبشر كدروع تحميهم ، فحيدت الصواريخ خارج الخدمة ..

غير أن الاتحاد يولد المعجزات. تكتيك محكم، تنسيق غير مسبوق، استغلال لكل فجوة، لكل بطة، لكل لحظة عبور. بدأت نقطة الضعف تظهر: **خلف العنق**، حيث يبدو الجلد رمادياً أرق من سواه. وجهت الرصاصات القاتلة إليها. سقط أول عملاق، ثم آخر، ثم ثالث.. و بدأت الجثث تتكوم فوق بعضها كهرم من قطع عملاقة ..

و في لحظة فارقة، انهار العملاق الأخير على أرض قرغيزستان، وارتجت الأرض كما لو أن قلبها كُسِر أخيراً ثم هدا كل شيء ..

سقط الصمت على المكان كآخر عملاق في أرض المعركة، لم يكن صمت راحة، بل صمت موت. بيشكيك لم تعد كما كانت، نصفها أطلال، ونصفها الآخر يبكي. في الشوارع، كان الجنود يرفعون بقايا رفاقهم، والمواطنون يدفنون أحبّتهم في قبور جماعية بلا أسماء.

العالم بأسره وقف مشدوهاً أمام الشاشات. ما الذي حدث ؟ من أين خرجوا ؟ ولماذا الآن ؟ فُتحت الكتب القديمة، نُبشت نبوءات قديمة عن يأجوج ومأجوج، عن قوم لا يُردّ بأسهم، عن نهاية تختبئ في جلد الأسطورة.

وفي جبال قرغيزستان، حيث سقط العمالقة الأربعة والأربعون،
نُصبت قبور من الحديد فوق رفاتهم على خطى سد ذي القرنين،
لكنها هذه المرة سجون أبدية لجثث لم يكن يُفترض أن تولد من جديد

البعض قال، وهم يهمسون في الليل :

(لقد ماتوا... لكن هل كانوا وحدهم ؟ و هل هم آخر فصل في
مسرحية الساعة و علاماتها ؟)

لم تُكتب نهاية القصة بعد، بل وُضعت فاصلة على طريق قد تُستكمل
ذات قريب.

الفصل التاسع

يسوع والمهدي

فلسطين / أيام الميلاد المجيدة

بعد عام .. أوائل عام 2472 م ..

في تلك الأيام التي احتشدت فيها علامات الساعة على شفير الانكشاف، حين ضاق الصدر البشري بأنفاسه من توالي النذر وتكاثر الإشارات، ظهر في فلسطين على جبل الزيتون وجهٌ لا تخطئه البصائر و لا تخونه النبوءات . كان **يسوع المسيح**، محياه أهدأ و أكثر خشوعاً مما رسمته الجداريات في الكنائس، أو كما تخيلته المواعظ، بل كما تجلّت الآن : رجل في الثلاثينات من عمره، بملامح يشوبها نور السكينة وحرقة العارف. شعره أشقر داكن يتماوج تحت شمس الناصرة كسنبل القمح الناضج، وعيناه تومضان بلون البحر تحت سماء ملبدة ، كزمرد لا ينتمي لأي خضرة عرفها البشر، كأنهما منبع النماء ذاته.

مرّ أول ما مرّ في سوق خان الزيت بالقدس، فاقترب من بائع يغش الميزان خلسة، يملأ الكف أمام الناس ويُفرغ النية من الصدق. وضع يسوع يده برفق على الميزان فانقلب الصمت صوتاً :

= ويل لك، أظن أن الرب يقبل قرايبك وميزانك مثقوب ؟ إن ما تُنقصه من الناس، تنقص به من روحك.

تجمدت حركة البائع، وارتجفت يداه، أما الناس فقد التفتوا وسمعوا ما قال، ولم يجرؤ أحدهم أن يسأل : من هذا ؟ لأنهم شعروا أنهم يعرفونه منذ بدء الخليقة.

وفي رام الله، مرّ على مصرفٍ مشهور بجشعه، حيث يجلس داخله مرابي عجوز تحوطه الأوراق والفوائد والديون. دخل يسوع وحده، جلس على طرف الطاولة وقال بصوت أقرب للريح :

= كيف نَمَت لك هذه الجيوب من عظام الضعفاء ؟ أتقرض بأضعاف،
وتنام على سرير من دموع الأرامل ؟ أما سمعت القول: من يُقرض
الفقير يُقرض الرب، والرب لا يأخذ الربا ؟

فبكى العجوز دون أن يفهم السبب، و انفض الناس من حوله خجلين،
كأنهم اغتسلوا للتو من ذنوب لم يدركوها.

وفي نابلس، كان طفل صغير اسمه رامي يرقد على كرسيّ متحرك
منذ ولادته، يعاني من مرض نادر يُدعى ويردينغ هوفمان، حكم
عليه بالشلل الرابعي .. بأن لا يركض ولا يقف ولا يحضن أمه.
اقترب منه يسوع، ركع إلى مستواه، ومرّر كفه على قدميه دون أن
ينطق بكلمة. صمت الناس، توقفت الطيور، وانزلق شعاع من السماء
كأن الشمس همست بشيء لم نسمعه. ثم فجأة، وقف رامي. لا فقط
وقف، بل ركض وضحك، وعانق أمّه كأنّه خرج من ضريح.

أما في ضواحي أريحا، فقد وقع حادث سير مرعب. سيارة انقلبت
مرات عدة، وخرج منها رجل جسده مسجّى و قد فارقت الروح، فاقد
النبض و الارتعاش و لمعة العينين. وكان يسوع مارًا من هناك،
فاقترب وسط الجموع، ووضع كَفّه على جبهة الرجل وقال :
= إنك لم تُكمل رسالتك بعد. قم.

فتح الرجل عينيه، ثم نهض كما لو أنه استيقظ من قيلولة، ولم يعرف
لماذا يركض الناس نحوه ويصرخون، ولم تبكي ابنته التي خالت
لوهلة أنها فقدته للأبد ...

وفي ساعات الصباح الباكر، رآه صيادو السمك في بحيرة طبريا،
يمشي على سطح المياه كما يمشي الإنسان على تراب. كان الندى
يلتف حول قدميه، والماء يخضع لإرادته، والنوارس تحلق فوقه
كحراس نورانيين. هلوس البعض، وجثا البعض، وآمن الجميع

بأشياء سمعوا عنها من قبل لكنهم لم يشهدوها .. و اليوم هم شهود عيان على معجزات يسجد لها المنطق و يصحو على وقعها الضمير من سباته

انتشرت مشاهد ظهوره كالنار في الهشيم، في بيت لحم والخليل ويافا وعكا وصفد واللد. لم يكن يتحدث كثيرًا، بل كانت أفعاله تصرخ في أرواح الناس من مختلف مللهم و أعراقهم ..

وفي تعاليمهم القديمة، تنبأت الكتب جميعها بعودته في آخر الزمان حتى صدقت النبوءات :

في الإنجيل، في سفر الرؤيا (19|11) جاء :

(ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا فرس أبيض، والجالس عليه يُدعى أمينًا وصادقًا، وبالعَدل يحكم ويحارب.)

وفي التوراة، في سفر زكريا (14|4) جاء:

(وتقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون الذي يواجه أورشليم من الشرق.)

و في الاسلام قال نبي الرحمة في حديث رواه البخاري :

(كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ؟)

لقد جاء. لا لأجل دين، بل لأجل الإنسان. لا ليحكم، بل ليُذَكَّر. لقد عاد في لحظة كان فيها العالم أحوج ما يكون، ليس إلى معجزة، بل إلى الحقيقة بعد أن غرق إلى حضيض الخطايا ..

هاجت الدنيا و ماجت .. ظهور يسوع ليس كغيره من علامات الساعة حمالة الأوجه .. التي يمكن للبعض ردها للمصادفات و التشكيك .. بل علامة دامغة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها ..

الساعة آتية ..

القيامة قاب قوسين أو أدنى ..

فهل يستفيق البشر ؟

المغرب / أيام رمضان المباركة

2472 م ..

هناك في أقصى الغرب ، في ليالي مراكش الحالمة، حيث تتوارى الشمس خلف جبال الأطلس العتيقة، وتذوب في الغروب ألوانها بين ظلال الأزقة الضيقة، انبعث نور خافت ليس كأى نور، لا يأتي من قناديل الشوارع أو وهج الشموع، بل من رجل يمشي بهدوء وثقة كأنه يحمل في عينيه نجمين من زمرد صافٍ. كان هذا هو **محمد المهدي المنتظر**، الذي حلم به الصالحون وكتب عنه العلماء في كتبهم، ذلك الرجل الذي بدا في خريف العمر، لكن بوجه يفيض صفاءً وحكمة نادرة، وشعره الداكن يتلألأ بلون خرنوبي حي، كأنه يحمل في جواهره سحر الأرض والنور السماوي.

حطّت قدماه على طرقات المدينة العتيقة، يمر بين الأسواق والمساجد كريح تهبّ بنعومة، يلتفت إليه الصغار والكبار بعيون ملؤها الدهشة، وفي كل جامع يُقبل عليه، يرفع صوته بخشوع عميقٍ يؤمّ الناس في ركعات الصلاة، يبعث فيهم نسمة الأمل والنقاء التي غابت عنهم طويلاً في صخب الحياة وترف التكنولوجيا و أهوال الزمان.

لم يكن المهدي إماماً عادياً، بل كان حامل رسالة الرجوع إلى النور، يحث الناس على التوبة والرجوع إلى الله، ويحذرهم من مصير مجهول ينتظر الذين يُصرّون على الظلم والفساد.

في أروقة المساجد وبين جدرانها الحجرية، جلس ينير قلوب الحاضرين بتفسيره العميق للآيات القرآنية التي اختلف الناس في تأويلها، فتراه يُنقّب عن حكمة قديمة تربط بين نصوص السماوات وبين أحداث الأرض المتقلبة. كان صوته ينبعث كنسيم رقيق يزيل الغبار عن صفحات الحكمة، يجعل من الجهل نوراً، ومن الظلمة بريقاً.

وقف مرة في ساحة مكتظة بالمصلين، ونظر إليهم بعينين تنبضان بالرحمة والحزم معاً ثم قال :

= أنا ظهرت كعلامة من علامات الساعة. عليكم بالتوبة، فالنجاة في العودة إلى الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو لم يبق من الدنيا إلا يومٌ لأطال الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.) و ها أنا ذا، أفتح لكم باب الرجاء والعدل.

كانت كلماته توثقها الصحف وتقفز إلى منصات الأخبار و تجتاح صفحات مواقع التواصل الاجتماعي كتسونامي يفيض بالنور و الخشوع ، حتى صار الحديث عنه يملأ المجالس، بين مؤمن متلهف، ومشكك يطرح الأسئلة.

حاول بعض الذين لا يؤمنون أن يؤذوه، لكنهم أصيبوا بغشيان غامض كأن حوله قوة روحية تحميه وتردع كل من يسعى إليه بسوء. وذاع صيته في مراكش وخارجها، ليكون علامة جديدة من علامات الساعة، كما بشرّ نبي الرحمة.

تحدث القرآن الكريم عن زمان من هذا النوع :

(اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما

يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم

يلعبون لاهية قلوبهم.)

وكان هذا الوقت جاء فيه رجالات النور ليقودوا المعركة ضد حلقة الظلام.

كان المهدي يمشي بين الناس بخطوات ثابتة، يوقظ النفوس النائمة ويزرع فيها بذور الهداية، التوبة و الإيمان. كانوا يرفعون رؤوسهم إليه، يتأملون صوته الذي ينساب كالماء العذب، ويتنفسون الأمان في حضرته. بين كلماته النابعة من القلب و الضمير مباشرة، بدون إجبار الناس و لا تعنيفهم ..

عبر عن قلقه على البشرية قائلاً :

= لقد حان وقت الحساب. لا مجال للراحة أمام الظلم والطغيان، فلا تتركوا قلوبكم تتجرف بعيداً عن طريق الحق، فالنهاية باتت قريبة بحكم الله الذي لا مرد لقضائه ..

تجمعت حوله جموع لا تحصى من مختلف الطوائف، وجدت فيه الصورة الحية للنبوذة التي تقول :

(المهدي مني .. أجلى الجبهة، أقى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ..)

وكان اسمه يُردد بين الشفاه، و تُخاطب به القلوب التي تلهث وراء الرجاء.

لكن المهدي لم يكن رجل سلام فقط، بل نذير صارم، يحذر من عواقب التجاهل والتمادي في الظلم. فأكد مراراً و تكراراً :

= احذروا أن تحملوا وزر الظلم، فإن عذاب الله قريب، لا تتأخروا بالتوبة والإنابة، فقد أوشكت ساعة الحق والحساب على الرنين.

تنقل بين نواكشوط و عنابة و صفاقس و سرت ، و تحول شمال إفريقيا مع مرور الأيام إلى مسرح يتنفس الأمل والرعب في آن واحد. كانت أصوات المشككين ترتفع، والمؤمنين يزدادون حماسة، وكانت أنظار العالم تتجه صوب هذا الرجل، الذي يحمل بين يديه مفاتيح نهاية الدنيا وبداية اللانهاية .. أشبه بالشمس الدافئة المنتظرة التي تشق عتمة ليل طال دجاء، تنير دروب الضائعين، وتعيد للحياة بهجتها التي خارت. يحمل في كلماته رسالة الرحمة والعدل، ويعد بلحظة تنبعث فيها الأرض من جديد، تتنفس عدلاً وسلاماً قبل أن تأخذها قبضة منقم جبار ..

وبهذا الظهور العجيب، كانت الدنيا تشهد ميلاد فجر جديد، فجر لا تملؤه سوى أنوار التوبة و الرجاء، في زمن تكاد أن تنقشع فيه غيوم النهاية عن سماء الحقيقة الكبرى التي طالما شكك بها البشر أو تجاهلوها أو سخروا منها .. لكن الحقيقة اليوم كالشمس الساطعة لا يمكن تغيبها خلف سبابة و لا إنكارها بقوانين علمية .. و لا تجاهلها بإغماض العينين ..

الفصل العاشر

و جميع الشمس والقمر

في قلب الدخان

اندونيسيا / جزيرة جاوا

أواسط عام 2472 م ..

في ذاكرة الزمان، ثمة سنة لم تسقط من السجل، بل طُبعت على جبينه كما يدبغ الوسم على جلد الحيوان، لا تتمحي ولا تُنسى. سنةٌ اختبأت خلف ستائر العصور، ترتجف كأنها لا تزال تسمع صراخ جوعى لم يُطعمهم غير الرماد، وأنين أرضٍ اختنقت خلف دخان السماء.

إنها سنة **536** للميلاد، تلك التي لم تكن مجرد تقويم معلق على جدار الزمن، بل حائط مبكى للبشرية جمعاء.

في تلك السنة، تنكّرت الشمس للبشر، وانسحب النهار في ثياب الحداد. جُرّدت الأرض من نورها، وسقطت الأعوام من أعين الفلاحين حين نظروا إلى حقولهم فلم يروا سوى سوادٍ ناعم يكسو التربة ككفن، لا ينبت زرعًا ولا يُبقي حياة.

السماء ذاتها بدت كأنها شاخت فجأة. لم يعد في الصباح إشراق، ولا في الغروب حنين، بل غشاء كثيف من رمادٍ متراكم، يسدّ شرايين الضوء، فيحيل العالم إلى كيان رماديّ، موحش، نصف حيّ، نصف ميّت.

وكان العالم، كلّهُ، كلو دخل نفقًا لا نهاية له.

الشتاء الذي حلّ، لم يكن شتاءً، بل زفير بركانٍ مجهول الهوية، يُقال إنه انفجر في أعماق إيسلندا، أو في فجوة ما من أعماق الغضب الجيولوجي. لكن ما خرج منه لم يكن حممًا فقط، بل ظلالًا، سحبًا

من سوادٍ كثيفٍ تسرّبت إلى طبقات الجو العليا، وانتشرت كطوفان صامت، طوفان لا يغرق الأجساد، بل يبتلع النور.

وبذلك الغبار، تبدّدت الفصول. لم يعد هناك صيف ولا ربيع، بل شتاءً بركاني أبدئٍ بارد، قاتم، يحتضن الكوكب كله بأطرافه الجليدية. هبطت درجات الحرارة في أوروبا وآسيا هبوطاً حاداً، وكأن الأرض تنفّست من رئة مريضة، لا هواء فيها سوى الهلاك.

ذُبُلَت المحاصيل كما تذبل الأرواح إذا نُزِع منها الأمل. الجياع لم يجدوا ما يقتسمونه سوى الصمت والموت. والحيوانات هامت على وجوهها، لا كلاً ولا ماء، حتى الطيور بدت كأنها تنوح لا تغرّد. أما المدن، فقد تحولت إلى مسارح للحزن، ومقابر جماعية لمن فقدوا الحياة وهم يبحثون عنها.

ولكنّ المصيبة لم تنتهِ بانتهاء الظلام، إذ جاء الطاعون، ذلك العاشق الأعمى للمآسي، يزفّ موته الأسود إلى جثث لم تبرّد بعد.

جاء الوباء كأنما هو ظلّ المجاعة، وجهها الثاني، جاء كالعاصفة على بحرٍ من الجثث. كان الناس يتساقطون في الطرقات، لا يشبهون الموتى بقدر ما يشبهون ورق الشجر في خريفٍ عاصف، يرقصون لحظة، ثم يهوون إلى اللاشيء.

فُدِّرَت الضحايا بالملايين، لكن الأرقام لم تكن سوى محاولة لتكليم فم الفاجعة. كان الشعور العام أشبه بيوم قيامةٍ مصغر، تدرب فيه العالم على نهاية أخيرة أكبر. وكانت الأرض تدفن أبناءها دون أن تبكي، ربما لأنها بكت بما فيه الكفاية، أو لأنها لم تعد قادرة على الحزن.

في نظر المؤرخين، وتحديدًا المؤرخ مايكل ماكورميك، لم تمرّ سنةٌ على البشرية أشدَّ ظلمةً ولا أقسى وقعًا من تلك السنة الكبيسة. لقد رشّحها لتكون أسوأ سنة في تاريخ البشرية، ولم يجد في الألفيات ما يوازيها فجيعة، لا في الحروب، ولا في المجاعات، ولا حتى في الطوفانات.

لكن، ما لم يعرفه الناس يومها، ولا الذين جاؤوا بعدهم بقرون، أن تلك السنة لم تكن إلا بروفة أولى، مشهدًا تجريبيًا صغيرًا، لحكاية أعظم لم يُكتب فصلها الأخير بعد.

كانت تذكيرًا خفيًا، تنفّسته الأرض من جوفها، بأن يومًا ما، سينهار الساتر الأخير بين الدنيا والآخرة.

ربما لم تكن سنة **536** النهاية، لكنها بلا أدنى شك كانت إشعارًا بها.

كانت تمهيدًا ليومٍ لا شمس فيه، ولا قمر، حين تُختبر النفوس في الظلام، وتُفصل الأقدار.

لقد أيقظت تلك السنة الأميرة النائمة - الساعة - من سباتها، وذكّرتها بأن الحياة لا تسير للأبد نحو الربيع .. بل أحيانًا، تأخذ منعطفًا قاتلًا، يعلم البشر أن القيامة قد لا تبدأ بصيحة، بل بهسيس رماد، يُطفئ العالم بهدوء و ببطء ، كما يُطفأ قنديل في معبد مهجور.

الأرض المريضة تفرغ صديدها ..

في عمق أرخبيل إندونيسيا، بين جزيرتي جاوة و سومطرة ، يقع **بركان كاراكاتو** كندبة جغرافية مفتوحة على خريطة المحيط الهندي، وكأنه فم الأرض الذي ينتظر اللحظة المناسبة ليصرخ و يتقيأ ما في أحشائه إلى سطح الأرض و صدر السماء. يتبع هذا البركان حزام النار في المحيط الهادئ، أحد أكثر المناطق زلزالية وبركانية في العالم، حيث تتلاقى الصفائح القارية كأنها تتصارع على حدود الفناء.

تاريخه يشبه كتاباً ممزق الصفحات من شدة ما شهده من فوران. فقد عرف البشر هذا الوحش الصامت منذ قرون، لكن العالم كله انحنى أمام اسمه سنة **1883**، حين دوى انفجاره الهائل فسمعوه من أستراليا إلى أفريقيا، من الهند إلى جزر مدغشقر، وغطى صداه نصف الكرة الأرضية. وقتها، لم يكن مجرد انفجار، بل كان أشبه بيوم قيامة مصغر آخر .

لكن ما حدث بعد سبعة قرون ، عام **2472**، كان شيئاً آخر.. أكثر رعباً .. أكثر فتكاً .. و أكثر تماهياً مع علامات أخذت تتجلى تباعاً منذ عامين و تصرخ في وجه البشرية بأن الساعة قد اقتربت.. عاد كاراكاتو ليصهل، لا ليومٍ ولا لأسبوع، بل ليستمث ثلاثة أشهر متوالية، وكأن الأرض تسكب في السماء كل غضبها التاريخي دفعةً واحدة.

بدأت الأرض في بداية الصيف ترتجف بهدوءٍ خبيث. زلازل صغيرة في قاع البحر، ثم براكين من البخار تتصاعد من سطح الماء كأن المحيط نفسه يتصبب عرقاً من هول ما يتخمر في أعماقه. وفي ليلة لا تُنسى، انشق البحر في منطقة كاراكاتو، فارتفعت أعمدة اللهب كأشجار جهنمية تنبثق من فم الأرض. انفجر

البركان كما لو أنه استُفَز من صمت العالم.

ارتجت الجزر المجاورة، واهتزت الأمواج، ثم تسَلَّلت وحوش المحيط إلى اليابسة في هيئة تسونامي مدمر. في دقائق، غمرت المياه سواحل جاوة الغربية وسومطرة، وغرقت قرى بأكملها، اختفت البيوت، والحقول، وحتى المقابر. قُتل عشرات الآلاف، لا على يد النار وحدها، بل على يد الماء الذي حمل الحمم والموت في حضنه.

كان الانفجار أقوى بأضعاف من قبلتي هيروشيما وناغازاكي مجتمعتين. شُوهدت الصواعق وهي تضرب من الغيم الناري إلى سطح البحر، كانت الأرض تن من وجع لا يطاق، وكان المحيط يتلوى كأفعى رُميت بالحمم. لعشرة أسابيع تواصل القصف الناري من فوهة كاراكاتو، حتى بدا وكأن قلب الأرض نفسه احترق.

لم يقتصر أثر البركان على من جاوره. كان كاراكاتو كانفجار عملاق في قلب كوكب هش. تصاعد الرماد البركاني آلاف الأمتار في السماء، واختلط بالجزئيات العليا من الغلاف الجوي، فحجب أشعة الشمس عن أغلب مساحة الأرض. عتمة رمادية اجتاحت البلدان البعيدة، من الهند إلى الصين، من جنوب أفريقيا إلى أوروبا الشرقية.. من جزيرة القيامة إلى أوقيانوسيا ..

في المدن الأوروبية، انخفضت درجات الحرارة بشكل غير مسبوق. الأشجار لم تزهر، والثمار ماتت قبل أن تولد ، وهبطت الأمطار الملوثة برائحة الكبريت، وكان السماء تمطر من جوف جهنم. لم يرَ الناس الشمس لأسابيع و أشهر ، بل رأوا قرصًا باهتًا، مريض اللون، كأن الكون نفسه أصيب بحمى.

في بعض الدول، سُجِّلت حالات زعر جماعي، حيث ظن الناس أن العالم قد انتهى فعلاً. في الصحف، انتشرت عناوين تتساءل:

هل حَلَّت الساعة ؟ هل هذا هو الدخان الذي وُعدنا به ؟.

وكان العلماء يراقبون ارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكبريت في الستراتوسفير، ويتحدثون عن شتاء بركاني قد يطول أثره لعقود.

وسط هذا المشهد الهائل، تذكر المؤمنون ما ورد في القرآن الكريم في سورة الدخان :

(فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس،

هذا عذاب أليم.)

كان السحاب الرمادي يبتلع السماء في نهارات كاملة، والناس يتنفسون غبارًا لا يُرى. كان الدخان يغشى الصدور والعقول، ليس لأنه خانق فقط، بل لأنه يحمل خوفًا غامضًا، إحساسًا داخليًا بأن شيئًا أكبر من كارثة طبيعية يحدث.

في المساجد والكنائس والمعابد، ارتفعت الأدعية. كتب الشيوخ على منابرهم أن هذا الرماد هو من أشراط الساعة، وأن الدخان المبين قد لا يكون رمزًا مجازيًا بل مادة محسوسة تُظلم بها الشمس ، و تنهار بها القلوب.

ثلاثة أشهر، كأنها ثلاث حقب من الغضب السماوي. لم تكن مجرد كارثة طبيعية، بل كانت مرآة مكبرة لعجز الإنسان أمام اتساع قوى الخلق.

و كأن الأرض استدارت فجأة، لا على محورها، بل على قدرها. ففي صباح لم يشبه أي صباح، نهض أهل الشرق على ظلمة لم تزل، وعلى سماء مشروخة كأنها ضيعت جهة الشروق. وحدها الريح كانت تهب، محملة برماد ناعم يتسلل إلى الحناجر، ويذر الملح و الكبريت في العيون.

ذلك الرماد، الذي انبعث من جوف كارثة جيولوجية لا اسم لها، لا قيد لها، ولا ذاكرة تستطيع احتواء حجمها، تسلل كضباب عتيق من فوهات البراكين ، ثم تمدد ككفن رمادي فوق قارات آسيا وأوقيانوسيا و شرق أوروبا و افريقيا، وطوّق شرق الأرض بوشاح كثيف كأن القيامة قد بدأت من جهة واحدة.

وها هي الشمس، تلك العجوز التي حفظت عاداتها منذ ملايين السنين، تتلعثم في الشروق، تتوارى خلف الغبار، ثم... تتسلل من الغرب .. لم يكن حدثاً فلكياً ولا خللاً بصرياً، بل انقلاباً في دورة العالم. لم تعد الشمس تُبشّر بالنهار، بل تنذر بالختام. حين شُوهد أول قرص لها يطل من جهة الأطلسي، ارتجف الناس، وسقط البعض على ركبهم وهم يرددون :

(قال نبي الرحمة : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس

من مغربها...)

فهل هذا هو اليوم الموعود ؟

هل هو الشروق الذي يسطع من الغرب ؟

السماء لم تكن زرقاء، بل طبقة من رمادٍ متلبّد، تحوّلت إلى مرآة داكنة تعكس الخوف لا الضوء. وكان الضوء نفسه مريضاً، مائلاً إلى الأحمر، كأن الشمس تستعزّ وهي تبكي من جهة لم تألفها، بينما الطيور تسير في دوائر ولا تهتدي.

و جمع الشمس و القمر ..

في ليلٍ من رماد أعوج لا يستقيم، حدث ما شطر القلوب نصفين.
في جهة الغرب، حيث أذن للقمر أن يبدأ حكايته فقط ، ارتفعت كتلة
من نور باهت، كأنّها طيف لا جرم سماوي. قمرٌ شاحب، أعرج،
دام، اكتمل ليخسف لا ليكتمل.

اجتمع الشمس و القمر و الأرض على خط واحد ، و في تمام
الخسوف، حين غابت الأنوار وهبّت نسائم الموت، انتبه أحدهم —
ربما شيخٌ في نواحي الشام أو متصوف في أطراف الحجاز — ففتح
مصحفه، يبحث عن نبأ آخر يشبه هذا. وها هي الصفحة تفتح من
تلقائها على قول الله تعالى :

(فإذا برق البصر، وخسف القمر، وجمع الشمس والقمر،

يقول الإنسان يومئذ: أين المفر ؟)

قرأها بصوت مرتعش، كأن الآية كانت تنتظره منذ ثمانية عشر قرناً،
وكانها الآن فقط، الآن فقط، تنبض بالمعنى الكامل.

لم يعد الخسوف مجرد ظاهرة فلكية ، بل مفتاح يُفتح به باب الساعة.
ولم يعد القمر زينة الليل، بل شاهد قبرٍ يضيء فوق الأرض.

أما الجمع بين الشمس والقمر، فقد تحقق لا في سماء واحدة، بل في
جنون واحد : خسوف مطول للقمر رآه البشر في غرب العالم فقط
لأن شرقه محبوس بطيات الرماد البركاني ..

وانكمش الوعي البشري أمام هول ما يرى. ارتفعت صرخات
الملحدين، وانطلقت نداءات التكبير من المآذن و رنين أجراس

الكنائس، من الجبال والصحارى، من الصامتين الذين لم يجدوا غير الله ملجأً ، و من كان لا أدري ، بات يدري كل شيء ..

الناس لم يصرخوا فقط، بل فقدوا لغة الصراخ.

ولم تمضِ ساعات على تلك الليلة المنذورة للدهشة، حتى بدأ جلد الأرض يرتجف.

زلزلة، لا وصف لها سوى أنها أشبه بصيحة تُشق من باطن الوجود، نداءً داخلي ينبعث من لبّ الكوكب، كأن الأرض ضاقت بما عليها، وكأنها قررت أن تتفككت من جلدّها.

موجاتٌ زلزالية انطلقت من الأعماق، لا يقيسها ريختر ولا يصفها عقل.

أصوات عظام تصطك، مدن تهوي دفعة واحدة كقطع دومينو سقطت في لحظة غضب كوني.

في طوكيو، انهارت الأبراج كما ينهار الكبرياء.

في إسطنبول، تكسرت القباب فوق رؤوس السياح.

في نيويورك، تشققت الأرض وابتلعت مسارح المال والصور.

في روما، تهاوت الأعمدة الرومانية القديمة، وكأن الحضارات تسقط في مآتمها الأخير، و التاريخ يكفن في تابوت الحاضر ..

وفي مكة، اهتز الحرم، ولم يسقط، لكنه ارتجف كما يرتجف قلب الصادق عند اللقاء العظيم.

الأرض لم تعد حاملة للعيش، بل مسرحاً لعدالة مهولة، تحاسب بدون أن تنطق.

وكل زلزلة كانت تردد صدى واحداً، كأن في باطنها لساناً يقرأ:

(إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال

الإنسان ما لها ؟)

لم يكن لسؤال الإنسان هذا سوى جواب واحد: **اقترب الوعد.**

و بهذه الخسوفات الأرضية في الشرق و الغرب اكتملت أشراط الساعة كلها كما وردت في حديث **حذيفة بن أسيد الغفاري** على لسان نبي الرحمة :

- انحسار نهر الفرات عن جبل من الذهب
- الأعور الدجال
- نزول عيسى بن مريم و ظهور المهدي
- خروج يأجوج ومأجوج من وراء السد
- ظهور دابة تكلم الناس
- شروق الشمس من مغربها
- الدخان العظيم
- خسف أرضي بالمشرق و خسف بالمغرب
- نار عظيمة تخرج من اليمن

و بالتزامن مع اكتمال لآلئ طوق القيامة التي تزين الساعة جيدها به ، كان نيزك القيامة قد اقترب كثيراً من كوكب الأرض .. و مسافة الأمان التي طمأن بها الفلكيون البشرية لم تعد تملك من الأمان سوى خيط دخان يطوق القلوب ..

أجهزت علامات الساعة على نصف سكان الأرض بين قتل و مجنون و منتحر .. أما النصف المتبقي فكان على موعد مع نيزك يسير كالقدر على مهلٍ لا يجارى ليكمل المهمة ..

الفصل الحادي عشر

التفت الساق بالساق

في بيته الحجري المطلّ على الشاطئ الأزرق الحالم و الهادئ، حيث تتناغم ضوضاء الأمواج و صيحات النوارس مع نبضان العروق ، جلس الطبيب منذر كأنّه آخر حارس على حافة العالم. الشمس تنهّدي إلى المغيب في هدوء شبه أبدي، تعانق الأفق المبلل بضوءٍ غامضٍ يلامس أسرار الأزل. كان البيت صامتًا إلا من موسيقى هايدن، **سيمفونية الوداع** ، و هي تعزف كما لو أن الزمن ذاته يعزفها لآخر مرة على أوتار الضوء والغياب.

وضع ساقاً فوق ساق، ورشف من فنجان قهوته كأنّها آخر رشفة من دفء هذا العالم، ثم أغلق عينيه للحظة، ليستمتع لما هو أبعد من الموسيقى : لحشرة الأرض المكتومة، وهمسات القدر التي ترتجف بين طيات النسيم قبل العاصفة. لم يكن الطبيب منذر يؤمن بنظريات المؤامرة ولا يستسلم لنبوءات الكهنة، لكن شيئاً في داخله، شيئاً قديماً ومرعباً وجميلاً، أخبره أن النهاية لم تعد احتمالاً... بل أصبحت يقيناً.

لقد سمع ما قالته وكالات الفضاء، وحفظ تصريحات علماء الفلك :
(لقد عانت الأرض بما يكفي لعامين .. أما النيزك فسيمر بأمان،
لا خطر على الأرض، بياناتنا مؤكدة)

لكنّ يقينه لم يأت من الرادارات ولا من المسارات المحسوبة. كان يقرأ النجوم على طريقته، لا بالتلسكوب، بل بالآيات.

لقد جلس طويلاً يراجع حساباته القرآنية، تلك التي طالما سخر منها زملاؤه في المؤتمرات، وقالوا إنها أوهام غيبية تُهدر ذكاءه العلمي. لكنه لم يكن يبحث عن تأييد أحد. فقد كان العقل عنده سلماً للصعود

إلى الروح، لا جدارًا لردّ الإيمان. وكان قد وجد في نصوص القرآن الكريم مفاتيح للزمن، إشارات نائمة بين الكلمات، كأنها أصداء من المستقبل تتسلل عبر الحروف.

الآيات التي كانت تُتلى في المساجد بخشوع تقليدي، صارت بين يديه شيفرات من نور. رأى فيها أنّ هذا العام هو الأخير، هذا الشهر هو الأخير، هذا اليوم الذي سيبدأ فيه كل شيء... وينتهي فيه كل شيء.. هو لم يكن نبيًا، ولم يدّع كشف الغيب، لكنه كان يعلم كما يُعلم الطبيب مريضه أن الموت قادم، حتى لو أصرت التحاليل على العكس.

قال لنفسه بصوت خفيض :

(الأرقام تنحني و تتحنى أمام مشيئة القدر. المكتوب لا يكثرث بالعلم و لا الإحصائيات.)

كان يعلم أن بعض الحقائق لا تُقاس بالحسابات، بل تُحسّ، ترتجف لها العظام، وتدمع لها الأرواح قبل العيون.

و تمامًا كما لا تمطر السماء بلا غيوم، فكذلك، لا تتكثف الغيوم في سماء العالم بلا وعد خفي بمطرٍ قادم.

علامات الساعة التي توالى في السنوات الأخيرة لم تعد مجازًا دينيًا بل واقعًا يخزُّ القلب في يقظته : الفتن التي لا تنطفئ، الزلازل و البراكين التي تنحرف عن منطقتها كما لو أن الأرض تلفظ جلدها، التصدّعات في قلب المدن الكبرى، تلال الذهب ، الأعور الدجال ، يأجوج و مأجوج .. ظهور يسوع و المهدي ثم اختفاؤهما الغامض بدون تفسير أو مقدمات .. والأهم... سكون العدل.

كان منذر يشعر أن الحياة أصبحت كفصلٍ أخير في مخطوطة عتيقة غامضة. فسرّها عقله المتيّم بالبحث ، بالتقصي ، بالعدسات و المجاهر ، و ليس الذكاء الاصطناعي المتطور هذه المرة ، و الذي ينحني بجلاله أمام عظمة العقل البشري الذي لم تتجلى أسرارهِ بعد

رغم أن النهاية باتت على العتبات ..

كل شيء في مكانه، لكن بلا حركة. الطيور تطير لكن بلا غناء.
الناس تبتسم لكن بلا رجاء. الزمن يمشي ببطءٍ غريب، كأنه يتحضر
لأنكماشه الأخير.

(هذه اللحظات هي آخر أنفاس الحياة البشرية)

قالها لنفسه، لا كتنبؤ، بل كتأكيد نهائي، أشبه بآخر تقرير طبي يكتبه
عن جسد الكوكب الذي أحبه.

لم يعد يهتم بالجدل، ولا بإقناع أحد، فكل ما حوله – من زرقة البحر
إلى لمعان النجوم، ومن نصوص النبوءة إلى رماد البركان البعيد –
يهمس له بالحقيقة التي لم تعد تحتل التجاهل : الآتي مدمر.

لكن وسط كل هذا الإدراك، لم يكن مذعورًا، بل هادئًا. كأنما السلام
ليس في النجاة، بل في الاستعداد. في أن تُسلم قلبك لحقيقة النهاية،
دون أن تفقد الجمال في لحظة الحياة.

رفع فنجان القهوة من جديد، وأغمض عينيه على أنغام هايدن، و
قال :

(ليكون ما يكون. المهم أن أكون حاضرًا حين يسدل هذا العالم
ستاره، وأصافح الضوء الأخير كمن يشكر الحياة على كل ما
أعطت... وكل ما أخذت.)

عندما ينزل الستار ..

مع اقتراب النيزك ، كانت الأرض ساكنة كجسد نائم على وسادة من الوهم. لم تُعلن حالة الطوارئ، لم تُفرغ المدن، لم تُعطّل حركة الطيران، لم تُصدر بيانات إلا تلك المشبّعة بالخطورة العلمية :

(لا خطر، النيزك سيمر بسلام.)

كانت وكالة سانا الفضائية تبتّ صورًا حرارية ومسارات محاكاة تحاكي انتصارات الإنسان على المجهول، لكنّ الطبيب منذر، من على شرفته المطلّة على البحر، لم يكن يرى إلا شيئًا واحدًا : غرور الإنسان وهو يبتسم في وجه الهاوية.

لقد ألغى البشر الروح، وسخروا من الغيب، وعلّقوا قلوبهم بأجهزة تقيس السرعة والميل والانحراف، ونسوا أن للقدر مداراتٍ لا تراها أقمارهم الصناعية. ظنّوا أن المجرة كتاب رياضيات، وأن الكارثة مستحيلة طالما الأرقام في صفهم.

لكن في صدر الطبيب القديم، كان شعور لا يخطئ. لقد رأى ذلك قبلاً في النصوص، في الأحلام، في ارتعاشات الجلد حين يتلو آيات المصير. لم يكن ذلك النيزك عابر سبيل، بل زائرٌ يُشبه ملك الموت، لا يطرق الباب، بل يقتحمه بقبضته النارية.

مرت الدقائق الأخيرة كأنها قرون. كل شيء بدا عادياً لوهلة، حتى حدث الانحراف الذي توقعه منذر و أنكره البقية ..

ارتجّ مسار النيزك فجأة، كما لو أن شيئاً في قلب الأرض تنفّس فجأة فامتصه. قال العلماء : هذا غير ممكن. وقالت الأرض : هذا موعدي ، و ماذا يعني الممكن في حضرة الإله.

ربما تأثر المجال المغناطيسي الأرضي بثورة البراكين في المحيط الهادئ، أو باهتزاز القشرة من الزلازل الأخيرة التي لم يجد لها العلماء تفسيرًا ، فأصبح أقوى و غير الحسابات و القوانين. لا يهم. المهم أن النيزك لم يعد يمرّ، بل يهبط.

هبط لا ببطء، بل كقبلة الموت، مندفعًا كرمح من رماد المجرات، اخترق الغلاف الجوي بسرعة تفوق أي صاروخ بشري، أضاء الليل بألف شمس. السماء لم تعد رمادية، بل صارت حمراء وذهبية وبرتقالية، كلوحة يوم القيامة ترسمها يد الجلال لا أنامل مايكل أنجلو كجدارية على جدران كنيسة سيستينا في مدينة الفاتيكان ..

رفع منذر عينيه من على شرفته إلى سماء الليل، ورأى النور يعمي العين ويشفي القلب. ابتسم بهدوء من عرف، لا من خاف. ثم قرأ، بصوتٍ كأنّه يرتل للنهاية لا للنجاة :

{ والتفت الساق بالساق } إلى ربك يومئذ المساق {

كأنّ السماء سكنت، وانحنت. ثم صرخ الكون صرخة الميلاد العكسي.

اصطدم النيزك في المحيط الأطلسي بين أوروبا و أمريكا الشمالية، ضاربًا بعمق لا تصل إليه الغواصات، محرّرًا طاقة تفوق ملايين القنابل النووية. المياه لم تعد سائلة ، بل جدران من الرعب ترتفع آلاف الأمتار وتهوي فوق اليابسة كجناح طوفان عظيم .

اجتاحت أمواج التسونامي أربع قارات دفعة واحدة. أفريقيا لم تعد قارة، بل ساحة غرق. أوروبا ضاعت بين رغوة البحر ومزيج الحمم. شواطئ الأمريكيتين لم تكن جاهزة لوداع الحياة، لكنها

وُدّعت. مدن بأكملها ابتلعها الموج، عواصم غربية انهارت على
مرأى الكاميرات ثم اختفت إلى الأبد، كأنها لم تكن.. أطلنتس لم تعد
أسطورة قارة غارقة ، بل واقع قارات برمتها ..

في اللحظة نفسها، تصدّعت الأرض في كل مكان. زلازل تفوق
مقياس ريختر، تحوّلت إلى خسوفات عظيمة، حيث انفتحت الأرض
وابتلعت معالم التاريخ والحدّاث بلا رحمة. أبراج هونج كونج،
أهرامات الجيزة، المساجد، الكاتدرائيات، الجسور، وحتى طرقات
مكة، كلّها تمايلت كأنها تقرّ بأن الساعة في برجها عزفت نشيد الوداع

و على ذات الدرب التي ودعت فيها الديناصورات الكوكب ، و دعت
البشرية بغرورها و خطاياها موطنها إلى الأبد ..

لم يبقَ شيء.

هدأت الأرض.

اختفى صدى البشر.

لم يعد للكوكب صوت، فقط رماد وحطام وأصداء بكاءٍ انقطع قبل
أن يكتمل.

انضمت الأرض إلى باقي كواكب النظام الشمسي، ككوكب بلا حياة،
بلا ضوءٍ داخلي، فقط جثة زرقاء تدور ببطء في صمت المجرة.

وهكذا طُبعت قبلة النيزك، ليست على سطح الأرض... بل على
جبهتها.

قبلة الموت.

قبلة القيامة.

نعم، نزل الستار على مسرحية الحياة التي ظلّت تُعرض لآلاف

السنين، بلا توقف، بلا فواصل، بلا جمهور يُصفق في النهاية.
أسدلت الستارة لا بيد فنيّ في كواليس الزمن، بل بأمرٍ علويّ قاطع،
لا يُلغى ولا يُبدّل.

وراء ذلك الستار، انطفأت الأنفاس، وتلاشت الشخصيات : عصمت
.. ديفيد .. منذر .. ميغيل و ماريانا .. باسكال .. يأجوج و مأجوج
و البقية ..

لا مال نفع، ولا بنون.
لا أبراج شاهقة، ولا عملات مشقّرة.
لا وعود سياسية، ولا ترانيم دينية محفوظة عن ظهر قلب.

كل شيء تهاوى كدمى قش فقدت خيوطها.
كل المعادلات الرياضية صار صفراً.
و كل التطمينات غدت كوابيس أو أضغاث أحلام ..

فقدت القوانين قدرتها على التفسير، وانكمش الزمن على نفسه كما
يفعل القلب حين يسمع صدى الحقيقة المطلقة.

كانت قبضة الإله هي الفصل الأخير.

قبضة لا تضرب... بل تمسك.

تمسك بكوكب بأسره، كما يُمسك حجر كريم في كفٍ خفية، حجر
كان في البدء أبيضاً، ناصعاً، لكنّه سوّده خطايا البشر، حتى كاد أن
يختنق من ثقلهم.

ومع النفس الأخير، لفظهم الكوكب كما تلفظ الروح آخر أنينها،
واستعاد بياضه. بياضه الحقيقي. البياض الذي لا يعرف الزيف، ولا
يُلَوِّثه الطمع، ولا يسكنه الكذب.

وها هو الستار مغلق.

لا تصفيق، لا تصحيح، لا موسم جديد.

فقط خشبة خالية... وكوكب طاهر يدور في صمت، يشبه السجود
بعد التوبة.

لمن تقرر الأجراس .. ؟

نعم، إنها حكاية من روح الخيال العلمي، لكنها تركز على جوهر
الحقيقة، على ما يختبئ خلف الحسابات الجافة والتقارير العلمية
الصارمة : هشاشة الإنسان، وخطورته، وشوقه الأعظم إلى
الخلاص... لا من كارثة سماوية، بل من نفسه.

وما بين زلزلة الصدوع ، و دخان البراكين، وانحناء الزمن، و وهج
النيازك، هناك سؤال لا يموت :

هل نتعلم من نبوءاتنا، أم ننتظرها لتضرب ؟

الأجيال القادمة، التي ستولد بعين إلكترونية وقلب ميت، ستمر حتماً
باعتبات تلك الأسطورة... ربما لن يدعى البطل منذر أو عصمت أو
ديفيد أو ميغيل أو باسكال .. لكن سيكون هناك دوماً من يعلم و من
لا يصغي ..

سيكون هناك طفل يقرأ كتاباً قديماً ويكتشف أن الشمس قد أشرقت
يوماً من الغرب.

سيكون هناك باحث يرى في الرماد البركاني علامة على شيء أعمق
من المناخ و في زلزلة الأرض غضباً إلهياً ..
وسيكون هناك قلب، واحد فقط، يبتهل في العتمة قائلاً :
يا رب، اجعلها خاتمة رحيمة.

لقد كتبت أنامل الخيال - من خلال هذه الرواية - احتمالات النهاية،
لكنها في الواقع كتبت أيضاً نبوءة الفرصة الأخيرة.
حكايتنا ليست مجرد خيال، بل مرآة تطرح على القارئ سؤالاً
خفياً :

(هل يمكن للروحانيات أن تكون هي الذكاء الاصطناعي الحقيقي
، ذاك الذي سينقذنا من أنفسنا ؟)

فإن كان في السماء غضبٌ، فلعلّه يُرجى...
وإن كانت النهاية مكتوبة، فربما في هامشها دعاءٌ قابل للتوقيع.
و إن كان حجر القلب قد اسود من كثرة الخطايا ، فلا يزال للنور
كوة يمر منها و يغسل القلوب بطهارة لتنبض من جديد ..

أكمل الفصول و الأحداث بنفسك .. فالحكاية لا تنتهي عندما يسقط
النيزك، بل عندما ينهض الضمير.

منقوش الشيطان



الرواية السادسة

مخمس الشيطان ..

فصول الرواية :

- لن أسجد لآدم ..
- كش مات ؟ ..
- مخمس الشيطان ..
- رجل الدمى ..
- الشهرة : بوابة إلى الجحيم ..
- تاج النرجس ..
- جسد للإيجار ..
- مخدر الضمير ..
- مهام المايجوس ..
- عظمات في وجه العاصفة ..
- عندما يقلب الملاك الرقعة ..
- تغيير البوصلة ..
- ولادة جديدة ..

مخمس الشيطان ..

الفصل الأول

لن أسجد لكم

الكون الأكبر (جنان الله)

بعيد الخلق الأول ..

كن يا كون فكان ..

في البدء، لم يكن هناك سوى الصمت... صمتٌ مطلق، نقيّ، لا يعكّره صوت ولا ظل. ثم تنفّست الإرادة الإلهية، وقالت للعدم : "كن". فانفلقت السكينة الكبرى عن نور، لا يشبه شيئاً، بل هو كل شيء. انفجر الوجود كالقسيّدة الأولى، وتفتّحت السماوات كسُحب من نورٍ سائل، تهمس لذاتها : نحن خلقنا بنظرة.

جُعِلَت الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا، والبحار بحورًا من الأسرار. نُثِرَت النجوم كأنها حروف على صفحة سوداء، تُنذر وتُبشّر وتُجَمِّل وجه السماء.

ثم، في لحظة اختارها الله، صنع الإنسان...

نفخ في طينٍ صبورٍ من روحه، فانتفض التراب حيًّا. لم يكن خلق آدم مجرد بعثٍ لجسد، بل إعلانٌ لمقام. رفعه الله وعلمه الأسماء، لا كمعجمٍ من الكلمات، بل كمفاتيح لفهم الوجود. صار آدم حاملاً سرّ اللغة، وفهم التكوين، وشاهدًا على أن الخلق ليس مادة فحسب، بل وعي، وحرية، وذوق.

وعجبت الملائكة... كيف لهذا الكائن الهشّ أن يُمنَح سرّ التسمية؟ أن يُؤتمن على الكلمة، وهي أول الخلق وآخره؟

لكن الله يعلم... وهم لا يعلمون.

عندما نطق الغرور لأول مرة ..

وحين اكتمل التكوين، أمر الله جنده من النور أن يسجدوا لآدم. لم يكن سجود عبادة، بل سجود إقرار، اعتراف بأن الله نفخ في هذا الكائن من سره، فاستحق مقام التكريم.

فخرّت الملائكة ساجدةً، لم تتردّد، لم تجادل، لأنها لم تعرف الغلّ ولا الكبر.

إلا واحداً... لم يكن من جنسهم، بل كان من نار.

إبليس، المارد المكنون في طهرهم، وقف كالعتمة في وسط الضوء، نافرًا، مشتعلًا بغرورٍ قديم. نظر إلى الطين باحتقار، إلى آدم بعيون ملأى بالاشمئزاز. قال في سرّه :

= أنا خير منه... خلقت من نار، وخلق من طين.

لم يكتفِ بالرفض، بل زار به. كبرياؤه كان صوته، واحتقاره كان منطقه. رأى في أمر الله امتحانًا لكبريائه لا طاعةً للخالق.

فتورّط في أول عصيان، أول تحدّي، أول سقوط.

وهنا، تزلزلت السموات، وارتجفت الأرض... فالغطرسة، حين تُقال في حضرة الرب، تكون خيانةً كونية.

السقوط من النور ..

لم يحتج الله إلى صراخٍ أو سيف. كانت كلماته كافية. قال له :

= فاخرج منها فإنك رجيم.

فانخلع إبليس من رحمته كما يُخلع النور عن العتمة.

سقط من مرتبةٍ لم يكن ليحلم بها، إلى قاعٍ لم يكن يتخيّله. لم يُطرد

من الجنة فقط، بل طُرد من القرب و من الرحمة.
لم يعد له نصيب في النور، ولا في الأنس، ولا في التجلي.
كان الخروج أبدياً. لم يكن مؤقتاً، ولم تُفتح له بوابة توبة. لأن عصيانه
لم يكن خطأ، بل اختياراً. لم يكن ناتجاً عن ضعف، بل عن كبر.
وهكذا، سار إبليس خارجاً من الملكوت، يتأكله ندمٌ لا يشبه التوبة،
وغضب لا يعرف الهدوء، ونازلاً لم تعد عبادة، بل صارت حقداً.
خرج مطروداً، ملعوناً، ولم يعد يُدعى من جند السماء... بل صار
أمير الغواية.

القسم الأسود ..

وقف إبليس عند مشارف الخلق، ينظر إلى آدم كعدوٍ أزليّ. لم يعد
يراه ككائن، بل كسببٍ لسقوطه. نادى في عتمته، وصرخ أمام العرش
بصوتٍ من دخان :

= لأغوينهم أجمعين... لأزينن لهم الأرض، لأجعلنهم ينسونك،
ويتبعونني، ويعبدون شهواتهم، ويكفرون بأسمائك... وسأحملهم
معي، قطرة قطرة، نحو الهاوية .. نحو ظلام أسود لا قاع له ..

أسس مملكته بين الوسوسة والإغراء. فتح باب الشهوة، ونفخ في نار
الحسد، وجعل الكبرياء تاجاً لكل من كفر. لم يعد يختبئ، بل بنى
عرشه على الوهم، وملاً قارات الأرض بوعوده الكاذبة.

قال للبشر : أنتم آلهة أنفسكم، لا ربّ فوقكم.

وقال لهم : الحرية أن تفعل ما تشاء، لا ما يُطلب منك.

وقال لهم : الشرّ ليس شرّاً، بل خيار... والحق ليس مطلقاً، بل رأي.

هكذا انطلقت فوضى المعنى، وصار إبليس معلّماً للضلال، وناسكاً

في معبد الهوى.

لكنه نسي... أن الله لا يُغافل، وأن النور لا يموت، وإن طال عليه ليل.

قبلت التحدي ..

ثم جاءه صوتٌ لا يشبه أصوات الخلق، بل يشبه الوجود حين يتكلم. كان صوت الله، ساكنًا كقدرٍ لا يُردّ، وعاليًا كأمرٍ لا يُناقش. قال له :

= اذهب... فمن تبعك فإن مصيره جهنم، جزاءً وفاً. أما عبادي الصالحون، فلن يكون لك عليهم سلطان.

كان هذا هو العهد. أن الأرض ستبقى ساحة اختبار، لكن النتيجة ليست بيد إبليس. فالخيار للإنسان، والمصير معقود بإرادته. الله لا يمنع البلاء، لكنه يمنح المنجى.

قال له الرب :

= إني أعلم ما لا تعلم. وسأبعث فيهم رسلاً، وأنزل كتباً، وأضع نوراً في القلوب، وأرسل في كل زمنٍ من يُحيي الرسالة. لن تكون وحدك، ولن يكونوا وحدهم. وسأبقى، رغم غوايتك، أقرب إليهم من حبل الوريد.

وابتسمت السماء، لا استهزاءً، بل يقيناً... أن إبليس مهماً علا، فلن يملك سوى الوهم.

وأن في كل جيل من يرفض تكبره في السجود لأدم ، ويعود... إلى السجود الحق.

وهكذا، بدأت الحكاية...
حكاية الإنسان بين غواية تهمس، ورحمة تنتظر.
وما بين الاثنين، يمشي القلب... إلى حيث يختار.

الفصل الثاني

كش مات

صالة الانعكاس / متحف اللوفر

باريس 2035 م ..

في ردهةٍ منسية من متحف اللوفر، خلف أسرار دا قنشي و صفرة فان جوخ و تكعيب بيكاسو و مدرجات الرخام التي تعجّ بالحشود المتلهفة، تقبع صالة صغيرة أشبه بمعبد باطني؛ ضوءها باهت، وجدرانها موشومة بعشرات اللوحات التي يعلوها الصمت كغطاءٍ قديم من الغبار المقدّس. تلك الصالة تُعرف باسم صالة الانعكاس ، ليس لأن فيها مرايا، بل لأن كل لوحة فيها تفرض عليك أن تنظر إلى داخلك قبل أن تفهم ما تراه خارجك.

وقف المرشد السياحي رينيه، رجل فرنسي خمسيني بوجه نحته الزمن بالحكمة و التجربة ، وبدلة رمادية مطوية بعناية ترزي ايطالي فوق جسد نحيل أنهكه التجول في ردهات المتحف في دورات أزلية أشبه بعقدة فالكوت النوردية ، وقف وسط الزوّار الذين التفوا حوله كألسنة نار صغيرة حول مشعل، وقال بصوته العتيق الذي يشبه رنين كأس بلّور :

= ها قد وصلنا إلى لوحة جديدة في جولتنا السياحية على لوحات متحف اللوفر في قلب باريس .. تحفة عظيمة لفنان عبقرى ..

تنهد بصوت خافت، ثم أشار بإصبعه نحو لوحة معلقة على الجدار الجنوبي، وقد التفّ حولها إطار خشبي داكن بلون دم العنب، يُفضي إلى عالم من المعركة الصامتة.

تدخل أحد الزوّار شاب في الثلاثينات، يحمل في عينيه مزيجًا من الدهشة والفضول ، في الحديث قبل أن يكمل :

= أظن أنها لوحة كش مات أيها المرشد !

ابتسم المرشد بخفة، كما لو أنه استعاد لحظة مسروقة من ماضيه، ثم قال :

= أصبت.. وهذه اللوحة هي لفنان ألماني من القرن الثامن عشر يدعى فريديريك ريتز. وقد صوّر فيها كما ترون بأنفسكم لاعبي شطرنج. الأول هو الشيطان، يبدو مفعماً بالثقة والغرور من الفوز بسبب سيطرته على الرقعة، واللاعب الثاني إنسان يبدو عليه اليأس..



توقف لحظة، ونظر إلى اللوحة، ثم أكمل :

= لأن الشيطان، الذي يبدو منتصراً في اللوحة، سوف يربح روح ذلك الرجل ويقيدها في حال هزيمته.. وبين اللاعبين يقف ملاك يراقب المعركة على الرقعة بصمت. يمكن باختصار وصف اللوحة بأنها إعلان انتصار الشيطان بدهائه على الإنسان... لننتقل إلى اللوحة التالية.

تحركت المجموعة بخطى رتيبة، تتأمل وتتمتم، لكن أحدهم بقي جامداً، كجذر غارق في التراب، لا تهزه رياح ولا تصرفه الأضواء المتغيرة. كان شاباً طويل القامة، يرتدي معطفاً أزرق قاتمًا، بعينين

تشبهان حجارة الشطرنج، تلمعان بتفكير داخلي لا يهدأ. كان اسمه جوليان رينارد ، بطل عالمي سابق في لعبة الشطرنج، رجل قرأ الحياة كما يقرأ لاعب محترف رقعةً معقدةً تحوي أكثر من احتمال واحد للنجاة.

نظر إليه المرشد بدهشة ، بعد أن لاحظ تخلفه عن الركب، وقال :
= هيا سيدي، سيفوتك شرح اللوحة القادمة.

لكن جوليان لم يتحرّك. ظل يحدّق في اللوحة كأنها تشهق أمامه، كأنها تحاول أن تقول شيئاً عجزت عنه الفرشاة.
= من فضلك، حضرة المرشد، هلا عدت قليلاً إلى لوحة كش مات ؟

تفاجأ المرشد من هذا الطلب الغريب، لكنه عاد على مضض، ربما من باب المجاملة أو بدافع الفضول الذي لا يموت لدى الأدلاء المخضرمين.

= ماذا هنالك سيدي ؟

قال جوليان بنبرة هادئة، لكنها مشبعة بقناعة أقرب إلى الوحي :
= حضرة المرشد، يجب إمّا تغيير اسم هذه اللوحة، أو إزالتها من المتحف...

ارتفع حاجبا المرشد، بينما التفت أحد الزوّار القريبين بفضول ليسمع ما سيقال، ثم تابع جوليان :

= أنا كلاعب شطرنج محترف، أرى أن هناك خطأ فادحاً في هذه

اللوحة. نظرة واحدة على الرقعة تكشف لي أن الملاك الواقف بين اللاعبين لم يتدخل بعد.. لكنه ليس مجرد مراقب. بإمكان الإنسان في اللوحة أن ينجو من الهزيمة إن عرف موضعه الحقيقي، وإذا حرّك الملاك حجراً واحداً فقط، ستتقلب النتيجة.. سيُهزم الشيطان وينجو الإنسان.

صمتٌ مهتَزٌ خيمَ في الصالة.

ثم رفع جوليان عينيه، لا نحو اللوحة، بل نحو السماء غير المرئية فوق القبة الهرمية الزجاجية ، وقال :

= إن عنوان هذه اللوحة يروّج لفكرة انهزامية، يهمس للناس أنه لا أمل، أن الشيطان غالب لا محالة .. لكنها كذبة .. الإنسان المؤمن بالله، الواصل بنفسه، لن يهزم .. ما دام الملاك واقفاً، هناك فرصة.. كل مباراة لا تنتهي حتى تُحرّك آخر قطعة و يخزّ الملك ساقطاً ..

هزّ المرشد رأسه بدهشة .. كان وجهه قد فقد لونه، كأنّه التقى للتوّ بحقيقة لم يتوقعها في روتين يومه المعتاد حيث الإنصات الغارق بالطاعة هو الحدث المسيطر على الزوار ..

= مذهل.. ومعبر للغاية!!

ثم ساد صمت بينهما. الزوار تابعوا رحلتهم، لكن المرشد بقي للحظات. نظر إلى اللوحة مرة أخيرة، فرأى فيها ما لم يره من قبل. كأن ضربات الريشة التي رسمت الشيطان لم تكن سوى غبار على سطح مرآة .. أما الأمل، فقد كان مختبئاً في الزاوية، ينتظر من يراه.

وفي تلك اللحظة، لم تعد لوحة كش مات إعلان هزيمة، بل شهادة حية على أن كل يأس فيه أمل مخبوء، و كل نفق في نهايته بصيص نور يخبرك أن تنهض و تستمر ، وكل رقعة تحمل إمكانيات لا يُدركها إلا من لا يستسلم.

الفصل الثالث

مفهمي الشيطان

سانت بول الكبرى

عشية عيد الميلاد .. 2035 م ..

في أقصى الشمال الأمريكي، حيث تهبط الثلوج لا كنعمة، بل كاختبارٍ للجدِّ والروح، تتربع كنيسة سانت بول الكبرى كما تتربع قصيدة دينية في قلب كتابٍ دنيوي على ضفاف نهر الميسيسيبي الحالمة. ليست صرخاً من حجرٍ فحسب، بل بنراً غائرة في الذاكرة الجمعية، موشومةً بالتراتيل، ودموع الاعتراف، وهمسات التوبة التي التصقت بجدرانها مثل الطلاء.

عند اقترابك منها، لا تسمع جرسها فقط، بل تشعر أن الأرض من تحتك بدأت تُصَلِّي. القبة النحاسية العالية تشبه جفن عين مغمضة نصف إغماضة، متأملة، حذرة، ونافذة الزمان مشروعة فيها على أبدية لا توقيت لها، و أبراجها الأربعة تخترق السماء الرمادية كأذرع تبتهل للسموات .. نوافذها الزجاجية الملونة تروي مشاهد من العهدين القديم والجديد، لكنها في ليالي الشتاء تتحوّل إلى لوحاتٍ خرساء تنزف ألواناً خافتة نحو الداخل، كأنّها تصلي في صمت. في الداخل، الرخام الذي يكسو الأرضية ليس مجرد خامّة، بل جلدٌ ممتد لظهر ملاكٍ نائم، و الأيقونات المعلقة لا تروي قصة قديسين فقط، بل تضییء انكسارات الإنسان، وتمررها بلونٍ خافت إلى صدور المصلين.

تلك الليلة...

ليلة الميلاد المجيد، لم تكن كسائر ليالي العيد. بدا العالم من الخارج وكأنه نُفض عن أكتافه الدفء، وارتدى معطفاً من صقيعٍ جاف. الشوارع كانت مقفرة، والثلج يتساقط بكثافة ناعمة كعقاب إلهي مغلفٍ بالحنان. أما داخل الكنيسة، فقد تراصّ الناس كما تتراص خراف

التوبة قرب مذبح الغفران، وكلُّ منهم يحمل في قلبه شتاءً خاصًا.

في مقدمة المذبح، بين الشموع والصلبان والموسيقى التي تخرج من أنابيب الأرغن كأنها تنهيدة ملاك مريض، وقف القس باتريك هارولد.

كان يشبه في وقفته شجرة زيتون ضربتها البروق، لكنها ما زالت صامدة. رجل لم يعد عمره يقاس بالسنوات، بل بالأرواح التي مرت من أمامه وسقطت، أو سعدت. بشرته رقيقة كالورق، وصوته خشن كالمزمور الأول حين يُتلى تحت المطر. كان يرتدي عباءة سوداء مطرزة بخيوط ذهبية باهتة، ولكنَّ الهيبة لم تكن في اللباس... بل في النظرة.

نظرة كأنها تقول :

أنا رأيت الله في ظلال الجحيم... فماذا رأيتم أنتم ؟

وقف صامتًا طويلًا قبل أن يبدأ عظته. لم يكن الصمت فراغًا، بل حضورًا طاغيًا، كأنَّ صوتًا غير مسموع قد بدأ يتكلَّم من خلاله. رفع نظره ببطء إلى المصلين، وقال بنبرة تشبه طرق المطرقة

على نعش قديم :

= أعلم أنكم تنتظرون حديثًا عن المحبة... عن المخلص الذي ولد في المغارة ، عن النجوم والمجوس والرعاة... لكنني الليلة لن أُحدِّثكم عن النور. بل عن الظل الذي نحمله جميعًا في قلوبنا.

سُمع صوت ارتجافة في الصفوف الخلفية.

= عظتي هذه بعنوان: **مخمس الشيطان** .. فنحن في زمن أصبحت الغلبة فيه - كما ترون بأَم العين من حولكم - للشرير أكثر مما لمخلصنا يسوع ، و الذي لن يخلصنا الا اذا فهمنا عدونا الهارب من الجحيم اكثر .. فأول خطوة للانتصار في معركة الحياة هي افهم

نفسك ، و الثانية التي تليها مباشرة ، اعرف عدوك .. و الحقيقة أن
الخطوتين متماهيتان مع بعضهما ..

سكت ثانية ثم تابع ..

= إنّ أغلب الديانات الأرضية و جميع الديانات السماوية وصفت
حياة البشر كصراع بين الخير و الشر ، فيرمز للخير عادةً بالإله ،
أما الشرّ فيرمز له بعدة طرق حسب الحضارة السائدة ، فهو :

● إله أيضاً كحال الإله أهرمان في الديانة الزرادشتية الذي يواجه
إله الخير أهورا مازدا ، و الإله ست عند الفراعنة الآكل الظلامي
لأخيه أوزيريس ...

● مخلوق تمرد على الإله الخالق و وعده بإغواء خلقه عن عبادته
كحال إبليس عند المسلمين و الشرير عند المسيحيين و الخصم عند
اليهود ..

● النفس الأمارة بالسوء التي تغري الإنسان كي يعصي الآلهة
فيستحق عقابها كما هو الحال عند الإغريق مثلاً ..

و أسماء الشيطان تتنوع بتنوع الحضارات فهو إبليس ، الشرير ،
لوسيفر ، عزازيل ، بافوميت ، بعل زبول ، مفسفو فيلس ، ساتان ،
عفريت الجنّ و غيرها ..

و الشيطان أياً كان اسمه أو تكوينه من إله أو مخلوق أو فكرة فقد
أثبت قوته عبر الزمن و كثيراً ما يكسب معركته مع البشر ..
لماذا ؟ لعدة أسباب لعلّ أهمها :

- خياراته أكثر من خيارات الإنسان ، فللخطأ أوجه لا نهائية
أما الصواب فله وجه وحيد ..
- لا يوجد رادع أخلاقي أو خطوط حمراء تحدد حركاته ..
- إتقانه للعبة الضياع بين (الماضي) بذكرياته الأليمة و

خسائره و فشله ، و (المستقبل) المبهم المخيف غير المضمون .. فينطحن الإنسان ضعيف الإيمان بين مطرقة الوقوف على الأطلال و التأسف على ماضٍ لن يعود و بين سندان القلق من مستقبل مجهول قد يعيد إحياء الماضي بكوارثه مجدداً ، فيغفل الإنسان عن أهم ثروة يملكها في حياته أي (الحاضر) ماضي الغد و محدد هيئة المستقبل الآتي ، فيعتكف عن العمل و الإنجاز و يستسلم لواقعه الكئيب دون ردة فعل ..

- يعزف بحرفية على أوتار الغرائز و الحاجة و الطموح و هذا هو مثلث برمودا الذي يختفي فيه ضمير الإنسان دون أثر ..
- أتباعه هم الأكثر في كل زمان و مكان بسبب المغريات التي يقدمها ، مما يجعل طريق الحق و الصواب الوعر بالأساس شحياً برواده مما يصعب عليهم المعركة أكثر ..

و بسبب الأسباب الصريحة و القوية السابقة و كثير غيرها نجد للشيطان أتباعاً بالملايين عبر صفحات التاريخ ، بل وصلت الحال قبيحهم إلى عبادته و تقديسه دوناً عن الله خالقهم ، حتى أنهم يمارسون طقوساً خاصة بهم و يروجون لرموز و قرائن شيطانية مميزة .. بل إنهم أسسوا لعبادة الشيطان كنيسة خاصة في مدينة سان فرانسيسكو في كاليفورنيا .. و يا للعار أن تصبح الخطيئة عقيدة يتباهى بها البشر ..

فلنتذكر جميعاً أن الشيطان فكرة لا شخص ، و كي نفهم طبيعة الشيطان أكثر ، علينا أولاً أن نفهم طبيعة الإنسان .. فالإنسان يأتي إلى هذه الحياة صفحة بيضاء طاهرة كالثلج و هذا ما ندعوه براءة الأطفال ، لكن ما أن يشب هذا الطفل قليلاً و يتعرف على إغواءات الدنيا و متعها حتى يتنازل عن براءته و يرثه الأخلاقي النظيف و ينغمس في الملذات بأشكالها المختلفة ..

هل يذكركم هذا بشيء ؟

بالضبط .. بوصف إبليس في الأديان ، فقد كان ملاكاً من ملائكة الله يعبده ، ثم تمرد عليه و أسس امبراطورية من الفسوق خاصة به لإغواء البشر ..

بمعنى آخر .. الشيطان ليس بالضرورة شخص آخر يوسوس للإنسان .. بل الشيطان يكمن داخل الإنسان بالأساس ، و يعيد كل إنسان قصة حياة إبليس في حياته نفسها بالتحول من **الطفل الملاك إلى الشاب الشيطان** ، قبل أن يهديه الله إلى صراطه المستقيم مجدداً فيستعيد طهارة الطفولة ، و هذه الفكرة يمكن تجسيدها بشعار عبدة الشيطان (النجمة الخماسية المقلوبة) ..

إذ يجسد كل رأس فيها ركن من أركان سيطرة الشيطان على الإنسان :

أولاً تأتي **الغريزة** ، و هي الركن الأخطر و الأكثر سيطرة على الإنسان ، فالإنسان الذي لا يتحكم بغرائزه و يوجهها بعقله ينحدر إلى قاع الأخلاق الرديئة ، فعندما تتحكم الغريزة بالعقل و ليس العكس ستنتفتح أمام المرء أبواب الجحيم حرفياً .. و كي يقاوم الإنسان شيطانه هنا ، عليه تغليب العقل على الغريزة كي يسيرها وفق أصول معينة لا تضره أو تضر الآخرين و هذا ما يسمى جهاد النفس ، و هو أصعب أنواع الجهاد ..

ثم يأتي **المال** ، المال بالطبع ضرورة لا غنى عنها للبقاء على قيد الحياة أولاً ثم لتحقيق حياة كريمة ثانياً و ربما لتحقيق حياة رغيدة ثالثاً .. لكن أن يتحول حب الثراء السريع إلى هاجس عند الإنسان فذلك ينذر بأسوأ العواقب ، لأن الطريق لتحقيقه غالباً ستكون مليئة بمطبات الفساد و الغش و الاختلاس و السرقة و ربما الجريمة .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بالرضا بما رزقه الله و محاولة تحسين وضعه الاقتصادي بالطرق المشروعة .. فالحلال البطيء سيبقى بلا

شك أحسن عاقبة من الحرام السريع ..

هنا تطل الشهرة برأسها تحت الأضواء ، فهوس الشهرة قد يصل البعض إلى ارتكاب كل أنواع المعاصي لتحقيقها .. رغم أن الشهرة بالأساس سراب بل مصيدة حقيقية .. لذا على الإنسان أن يسعى إلى الشهرة الإيجابية بالعمل الصالح المفيد للبشرية ، لا الشهرة السلبية بالتهريج و إيذاء الذات و تحطيم الآخرين و غيره .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بالتركيز على العمل الإيجابي الذي يطور و يطور الآخرين ، و في الواقع الشهرة الإيجابية هي التي تقصد الإنسان الناجح و ليس العكس لذا ستأتيه الشهرة من حيث لا يحتسب ..

نتسلق على عرش السلطة قليلاً .. إن هوس المجد و الجاه و التحكم بمصير العباد حلم راود آلاف الطغاة عبر التاريخ ، و في سبيل تحقيقه حدثت مجازر و خيانات و انقلابات و طغيان ، فأن تقنع الملايين باتباع كلامك ليس أمر هين ، بل ينبغي أن يكون كلامك موزوناً و فيه مصلحة المجتمع و بعيد عن المكاسب الشخصية .. و هذا ما يتعارض مع أحلام السلطة و هوس التحكم بالآخرين ، لذا لن ينصاع الشعب لك ، و بالتالي ستلجأ للعنف و غيره لفرض سيادتك و كلمتك عليه .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بالوعي أن المناصب تكليف لا تشريف .. أي أن يبتغي من بحثه عن السلطة إحقاق العدل و تأمين الحريات و الحياة الكريمة للشعب لا استعباده و استغلاله

أخيراً لدينا الشك ، عندما ينخر سوس الشك بوجود الله و الحياة بعد الموت في روح الإنسان ، يفقد كل خصاله البشرية الحميدة ليتحول إلى وحش ناطق لا يردعه رادع عن تحقيق كل ما سبق .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بأن يؤمن يقيناً أن الله حق و أن حياته على هذا الكوكب رحلة وجيزة ستنتهي قريباً و العاقبة في الآخرة حيث الحياة الأبدية .. فيزهد بدنيا قصيرة الأمد في سبيل آخرة للأبد .. لذا فالإيمان بوجود الله و بجنانه بعد الموت يعتبر نقطة الانطلاق و

حجر الزاوية في هزيمة الإنسان لشيطانه المتغلغل في دماغه فيكتم صوته ويشل تأثيره عليه كلياً ..

أعزائي ، لا تتوقعوا أن يتجسد الشيطان أمامكم كمخلوق يحاول زعزعة إيمانكم و دفعكم إلى الخطيئة ، فالشيطان فكرة قبل كل شيء .. فكرة من خمس أركان كما أسلفنا و الشيطان يجلس في مركز هذه النجمة و يراقب عن كثب كيف يعيش الإنسان في حياته الصراعات الكبيرة مع الغريزة و المال و السلطة و الشهرة و الشك ..

يقول بولس الرسول:

(البسوا سلاح الله الكامل كي تقدرُوا أن تثبتوا ضد مكائد إبليس
فإن معركتنا ليست مع شيطان من لحم و دم ، بل هي مع
الرؤساء ، و السلاطين ، و ولاية العالم التابعين له على ظلمة
هذا الدهر)

أي أن الشيطان ليس مخلوقاً مجسداً بذاته بل هو فكرة أن الإنسان عندما يهزم في معركته مع واحد أو أكثر من الخماسي السابق فإنه سيتحول بذاته إلى شيطان حقيقي يغوي الآخرين و يفسد في الأرض .. فالشيطان مخلوق وحيد و البشر بالمليارات ، فكيف سيتمكن من الوسوسة لهم جميعاً في نفس الوقت ، ما يحدث على أرض الواقع أن كل إنسان من هذه المليارات يتصارع يومياً مع خمس (الغريزة و المال و السلطة و الشهرة و الشك) الذي هو الشيطان الحقيقي فإما أن ينتصر المرء و يعيش كملاك حقيقي أو يهزم و يتحول إلى شيطان بنفسه !!

في ليلة القبض على مخلصنا يسوع قبيل صلبه تجسد أمامه الشيطان على هيئة أفعى و أخذت تغويه كي يستسلم و يتراجع عن إكمال ما تبقى من رسالته فينقلب على خالقه ، عبر إخافته من عذابات الضرب و الصلب ، و توهين عزيمته بأن أحد تلامذته خانته و البقية سيتخلون عنه ، و كأن كل حياته كانت عبثاً و فشل في رسالته و

مسعاه .. فאלله بذلك تخلى عنه فلماذا يتعلق به ؟.. لكنّ المسيح قاوم كل ذلك و تجاهل كلام الشيطان بصلافة و شجاعة فداس رأس الأفعى و سحقه .. فما الذي حدث بالفعل ؟

المسيح تعرض لأحد أركان الخمس الشيطاني و هو الشك ، لكنه تغلب عليه و مضى برسالته إلى النهاية ..

و السؤال الأهم الآن هو كيف تهزم شيطانك ؟

إن أردنا توصيف أقوى سلاح للشيطان في معركته مع الإنسان فلن نجد أنسب من كلمة واحدة (استسلم) ..

استسلم لفقرك فاسرق .. استسلم لكسلك فغش ، استسلم لفشاك فلا تحاول ، استسلم لضعفك فلا تقاوم ، استسلم لغريزتك فاتبعها ... استسلم على طريق الصواب الوعر فاتخذ الطريق المختصر بالخطأ و الخطيئة كي تبلغ أهدافك و رغباتك بأقل جهد ممكن ..

بالمقابل فإنّ أقوى سلاح للإنسان في مواجهة شيطانه هو : (حاول ، قاوم و استمر) .. و تذكر أن هزيمتك لا تكون من خارجك أبداً بل تبدأ من أعماقك أولاً ، فكل إغواءات البشر و الظروف القاهرة من حولنا تبدأ من كلمة واحدة (موافق) فإن نحن لم ننطقها ، عجزت جميع الأساليب الشيطانية الممكنة عن جرننا إلى الخطيئة ..

و لنتذكر أن الإنسان الناجح الصامد يجد حلاً لكل مشكلة ، أما الإنسان الخنوع المستسلم فيجد مشكلة في كل حل ، أما حلول الله فلا تنتهي و تحيط بنا من كل حذب و صوب كأسلحة يزودنا بها في وجه دعوات شياطيننا للاستسلام لظروفنا القاهرة و مشاكلنا العويصة ليقول البارئ لنا :

(لا تستسلموا فالله معكم ، و من جعل نفسه في خدمة الله
جعل الله كل شيء في خدمته)

فإن كان خالق كل شيء معك عندما تتبع طريق المنطق و الصواب
فأي مخلوق سيهزمك بالخدعة أو الحيلة أو الإغواء التي لا ترحزح
الصواب قيد أنملة !؟

إذن خلاصة لكل ما سبق أيها الأحبة ، و كي يختمر نبذ الحقيقة في
عقولكم أعود و أكرر :

لم يكن الصراع يوماً بين إنسانٍ و شيطانٍ، بل بين إنسانٍ و نفسه إذا
غفلت، بين عينيه حين تغشيهما شهوةٌ، و قلبه حين ينسى أنه بيتُ الله.
فالشيطان، كما وصفته صحفُ الزمان، ليس دوماً ناراً تمشي على
قدمين، ولا صوتاً أجشاً في الليل يوغل في الوسوسة. بل هو ظلك،
حين تُؤلّي وجهك عن النور، حين تُغلق نوافذك أمام الشمس و تُحدّق
في جدارك القاتم و تقول :
هكذا هي الحياة، ظلامٌ فقط.

هو نَفْسُك حين تتناقل للصلاة ..

هو يداك حين ترتجف عن الكرم ..

هو فكرتك العابرة التي تقول لك :

لن تنجح... لا تحاول... كلّ شيء بلا جدوى.

هو صوت العالم حين يصيح في أذنك :

اتبع غرائزك، عِش اللحظة، اكسر القيد، لا أحد يراك.
بينما الله يراك.

أيها الأحبة...

الشيطان ليس خصمًا خارجيًا بقدر ما هو تسوية داخلية خاطئة.
هو العقد الذي تبرمه مع راحتك على حساب حقيقتك.
هو القبول الهادئ بأن تكون أقلّ ممّا خلقت له.
حين تبرّر الشر بحجة الخير ..
وحين تتقن تلوين الأكاذيب بالنية الطيبة ..
وحين تساوم على نورك كي لا تبدو مختلفًا في عيون الناس...
فأنت لا تحارب شيطانًا...
بل تُطعمه من جسدك.

إنّ من يهزم شيطانه ..
ليس الأقوى جسدًا ..
ولا الأعلى علمًا ..
بل هو الأصدق مع نفسه...
الذي إذا نظر في المرأة لم يخش أن يرى الوحش الذي يختبئ في
عينيه ..
ثم قرر أن يروّضه.

الشيطان يا أحبتي ..
قد يتجسّد في فكرة ..
في رغبة ..
في فرصة سهلة ..
في صديقٍ يبتسم لك وهو يدفعك نحو الهاوية ببطء ولباقة.

لكنه لا ينتصر عليك حتى تقول له : ادخل .
ولا يهزم حتى تقول له : اخرج .
فالشيطان ليس سيفاً، بل هو فتور في العزيمة ..
وكلما نهضت من سقطتك، احترق جناحه قليلاً ..
وكلما قلت "لا" رغم ضعفك، اختنق في صدرك ولم يعد له صوت.

أيّها السائرون في الليل...

تذكّروا دومًا :

ليس للشيطان منزل إلا المهجور من قلبك ..
وليس له سلاح إلا ضعفك عن قول : "كفى".

فمن أراد أن ينتصر ..

فليبدأ من هناك...

من حيث يبدأ كلّ شيء :

من الداخل.

و في ختام عظة اليوم التي حملت عنوان (مخمس الشيطان) من
الأنسب بعد اليوم ألا نقول لأنفسنا : الشيطان يوسوس في رأسي كي
أفعل كذا و كذا ..

بل أن نقول : الشيطان فكرة بالأساس .. و من يوسوس في رأسك
هو صراعك الشخصي مع مخمس الشيطان (الجنس و المال و
السلطة و الشهرة و الشك) ..

و ألا نقول : لقد أعلنت الاستسلام ، كيف أواجه عدواً بلا مبدأ أو
رادع أو خطوط حمراء .. فالصواب يتيم و للخطأ ملايين الآباء ..

بل أن نقول : المعادلة في هذه الحياة بسيطة للغاية تقوم على ساقين لتضع ساقاً على ساق كملك متوج لا يقهر :

- **الصواب ثابت لا يتغير** ، و لا أحد قادر على لي ذراع قوانين الدنيا ، و لو قال مليار شخص أن **4 + 3 = 6** سيبقى الجواب هو **7** و لو اتبعه شخص وحيد أو حتى لو لم يتبعه أي إنسان ، فقد أتى بشر و رحلوا و أتى غيرهم و رحلوا و هكذا ، في حين بقيت القوانين راسخة لا ترحل، فهل من قوة أكبر من ذلك ؟!

- **المخلوق لا يمكن له أن يهزم خالقه مهما فعل** على نحو بديهي .. فالخالق يعرف كل شيء عن مخلوقاته بأدق التفاصيل و مكامن القوة و مواطن الضعف فيها ، أما المخلوق فيجهل كل شيء عن خالقه إلا بما كشفه بنفسه عن نفسه من كونه عادل ، جبار ، لا محدود القدرة .. فكيف لنا أن نتخلى عن هذا الخالق النبيل القوي لننتبع مخلوقاً وضيعاً محتالاً كشيطان يوسوس في صدورنا و يغوينا كي ندمر أنفسنا بأنفسنا سواء أكان كائناً حقيقياً أم مجرد فكرة تعيش في كل إنسان ..

يسوع لا يحتاج تمجيدنا له .. لا يريد أتباعاً كأرقام .. بل يريدنا أنواراً جديدة تشع في سماء الدنيا .. يريد خلاصنا ، و لا خلاص لنا إلا بهزيمة شياطيننا لذا كانت عظمتنا هذه ..

أيام ميلاد مجيدة عليكم يا أبنائي .. فلنجعل شياطيننا خارج هالتها المباركة ..

انتهت عظة القس، وخيم على الكنيسة صمت، ليس كالصمت العابر الذي يسبق التصفيق، بل صمت يشبه صمت القبور حين تمر الملائكة، صمتٌ محشوّ بخشوعٍ فاض عن قلوبٍ ضاقت به فلم تعد تستطيع الكلام.

لم يتحرّك أحد.

حتى الأطفال الذين طالما عبثوا بظلال الزجاج الملون جلسوا كأنهم بلغوا من الفهم عمر الأنبياء.

كلماته لم تكن خطبة، بل كانت نهرًا دافئًا انساب من قلبه إلى أرواحهم، كلمات ليست للحفظ، بل للاستيقاظ. دخلت من آذانهم نعم، لكنها أقامت في أماكن أعمق :

في الجيوب المهجورة من الضمير.

في أقبية القلب التي كاد يعلوها العفن.

في الحفر التي تركها الحسد والشك والغريزة.

كأنما كل كلمة نطق بها القس باتريك كانت مشعلًا صغيرًا راح يشعل الشموع المنسية في أركان أرواحهم، فأضاءوا من الداخل ولأول مرة منذ زمن بعيد، رأوا أنفسهم كما هم، بلا أقنعة، بلا عذر، بلا مكياج باطني.

رجلٌ مسنٌ في الصف الأول، كان دائمًا ما ينام في العظات، بكى بهدوء... لم ينتبه إليه أحد، لكنه هو فقط أدرك اليوم أنه قضى عمره يهرب من بابين : باب الشك، وباب المال.

امرأة في الأربعين كانت على وشك الطلاق، شدّت على يد زوجها كأنها تمسك بطرف النور الأخير، فهمت أن الشيطان لم يكن في تصرفاته، بل في غرورها هي، ورفضها المستمر لأن تكون أقلّ من مثالية الانستغرام ..

شاب في العشرين، يرتدي حلقًا في أذنه و يمطر جسده بوشوم لجماجم و شياطين ، تملّكته رغبة مفاجئة أن يخلع حلقه، أن يسلمه جلده عنه ، لا لأن أحدًا وعظه، بل لأن كلام القس جعله يرى نفسه

من الداخل، فرأى التكبر و الضياع عاريين ، ورأى الله واقفاً
ينتظر... صامتاً.

وبينما غرق الداخل في نور منبعث من كلمات القس، كان الخارج
مشهداً مختلفاً تماماً :

ثلوج تتساقط بكثافة، تغطي كل شيء ببطء متأمل كأنّ السماء تخطط
غطاء أبيضاً للأرض كي تنام دون كوابيس. الريح تعصف، لكن
النوافذ الزجاجية الملونة كانت تحجبها كأنّها دروع قديسة.
والبرد...

ذلك البرد الذي نهش عظامهم عند دخول الكنيسة، لم يعد له أثر.
دفعاً غريب سكن قلوبهم. ليس دفعاً المدافئ، بل دفعاً نادر لا يأتي
إلا حين تُوقظ الروح من غيبوبتها، ويُستعاد الضوء من بئر الجسد.
خرجوا من الكنيسة بعد حين، بخطى متثاقلة، كأنهم يخشون أن تفرّ
من قلوبهم الكلمات التي غسلتهم.

أحدهم تمتم لنفسه :

= لقد سحق القس رأس الأفعى داخل كلّ منا.

وأخر نظر إلى السماء وقال :

= يا رب، ما زلت هنا، وأنا ما زلت أسمعك.

وفي زاوية الكنيسة، بقي القس وحده، يجلس على مقعده الخشبي
العتيق، ينظر إلى الشموع التي لم يطفئها بعد، ويبتسم ابتسامة مائلة
كأنه يرى الملاك يحرك قطعة الشطرنج الأخيرة ويهمس للشيطان
بثقة :

(لا يزال الدور قائماً و المعركة لم تنتهي ..)

الفصل الرابع

رجل الذي

كان يُدعى باولو فيرّيّتي. ولم يكن أحد يجرؤ أن ينطق اسمه كاملاً
في حي بروكلين بنيويورك بعد منتصف الليل.

حتى رجال الشرطة كانوا يشيرون إليه بألقاب غامضة : السيد من
الطابق السادس ، الظل الإيطالي ، أو ببساطة : "هو".

وجهه يشبه وجه أرستقراطي نجا من لوحة من عصر النهضة. سحنة
هادئة، أنف مستقيم كحدّ السكين، عظام وجنتين مرسومتين بدقة،
شعر أسود فاحم كريش الغراب يصففه إلى الخلف دون أن تتجراً
شعرة واحدة على التمرد.

لكنّ عينيه...

ذاك الشيء الذي لا يمكنك نسيانه أبداً.

عينا صقر يرمق ضحيته من أعلى ..

عينا جلاد يستمتع بالتعذيب تحت الأقبية و خلف الستائر ...

رماديتان، كأنهما صخرتان على حافة قبر قديم منبوش .

كان باولو يمشي بثقة رجلٍ يعرف أن المدينة كلها تخاف أن تلمس
ظله. يرتدي بدلات زارينو كوتشينيلي المصمّمة خصيصاً له، يحمل
ساعة رولكس من طراز ديب سي ، ويتعطرّ بعطر نادر لا يُباع في
الأسواق... بل يُصنع له خصيصاً، بقطرات من دخان العود ومزيج
من عنبر الحيتان.

صوته منخفض، بارد، لكن حين يتكلم، تشعر أن هناك قنبلة نووية
تنتظر أمراً صغيراً من شفّتيه لتنفجر.

كان باولو فناناً في ارتداء الأقنعة.

هادئ كقسّ تريد أن تعترف له بخطاياك لكن بفخر ، لطيف في
تعابيره كراهب تيبتي، يبتسم أحياناً مثل أب يُطعم حمامة في ميادين
روما، لكنه في باطنه، كان شيطاناً يجيد الحسابات الباردة.

لم يُرَ غاضباً قط.

لكنه أمر ذات مرة بقتل سبعة رجال لأن أحدهم ناداه باسمه دون
ألقاب. وفي مأدبة عشاء بدا فيها كصاحب قلب كبير يتسع لجميع
خصومه، كان قد أرسل في الوقت ذاته فرقة كاملة لتفجير مقراتهم
مع من فيهم.

يقتل باولو كما يشرب قهوته : دون تردد، دون انفعال ، و بلذّة.
إنه لا يرفع صوته... بل يرفع مسدسه ويهوي بالجحيم على من
يخونه.

ولا يُقسم، بل يكفي أن ينظر.

يشبه نمر الجاغوار: نادر، جميل، مميت.
يحفظ أسماء أولئك الذين نظروا إليه نظرة شك.
ولا ينسى من لم يقف احتراماً عند دخوله.

الرعب فيه ليس في سلوكه، بل في غيابه عن الفعل...
لأنك لا تعلم أبداً متى سيفعل.

يعيش باولو في برج سكني شاهق وسط مانهاتن، في شقة بنتهاوس
لا تُفتح أبوابها إلا بالبصمة والحدس.

الطابق كله له .. لا جيران، لا أصوات أطفال، لا فضول.

كل شيء هناك أبيض أو أسود كأحجار الشطرنج ..

رخام إيطالي مستورد ..

مكتبة من كتب نادرة ، فيها مصيره مكتوب ، لكنه لا يقرأها ..

مدفأة لا تشتعل و كأنه لا مكان للدفع في عالمه ..

وصورة ضخمة له معلقة في غرفة الطعام كأنه سليل القيصر.

كاميرات مخفية ..

حراس لا يظهرون إلا عند اللزوم ..

ونظام أمني يضاهي قواعد الجيش الأميركي.

لكنّ الحصن الحقيقي لم يكن الحراس...

بل الخوف الذي يشيعه في النفوس.

من شرفته، يرى المدينة تحت قدميه، تمامًا كما يرى الناس : نقاطاً صغيرة تتحرك في الطرقات، جاهلة أنها تعيش على رقعة الشطرنج التي يُديرها.

زوجته، مارسيلا، كانت في البداية مجرد دمية إيطالية حسناء تُرضي غروره في الحفلات الراقية. تزيّن ذراعه كساعة ثمينة، لكن باولو لم يكن يعرف الحب. بعد عشر سنوات من الزواج، أصبحت مرآة مكسورة في ركن القصر، يراها فقط حين يحتاج لإثبات أنه ما زال زوجاً شاباً ..

وكان يخونها...

دون شعور بالذنب ..

بل بتكرار يُشبه الطقوس.

من محظية إلى جارية .. من غيشة إلى دمية جنسية أخرى ..

أما ابنته الوحيدة كاتيا، فكانت نقطة ضعفه الوحيدة...

تبلغ السابعة عشرة ..

جمالٌ هادئ لا يشبه والدتها ولا والدها ..

بل يشبه الروح التي حاولت أن تبقى نظيفة رغم الحبر الأسود في
جينات العائلة.

لم يكن يرفض لها طلبًا ..

لكنه لم يكن يراها إلا عند النوم ..

ويكتفي أن يضع لها حراسًا ومدرسين خصوصيين وأطنانًا من
الهدايا.

كاتيا كانت تعرف...

أن والدها يتزعم إمبراطورية للشر..

لكنها كانت تبحث في عينيه عن إنسان...

و دائماً بلا جدوى.

شبكة باولو تمتد كجذور شجرة ميتة في قلب المدينة.

مخدرات ؟

هو ليس مجرد تاجر... بل شيخ الكار.

الموانئ، الطرق، الحدود... كلها تمرّ به.

بغاء ؟

هو لا يدير بيوتًا... بل يتحكم بالنساء وكأنهن أوراق لعب.

يملك أكبر شبكة استغلال في الساحل الشرقي، وتقع تحت إمرته ثلاث عصابات تتقاتل فيما بينها... لكنه الرابح في كل الأحوال.

سلاح ؟

في كل حرب يدسّ البارود، ثم يبيع السلاح للفريقين.
من أفريقيا إلى الشرق الأوسط، هناك من يموت برصاصة دفع ثمنها باولو... ثم قبض أضعافها.

ابتزاز ؟

من السياسيين إلى رجال الدين ..
من أصحاب المتاجر إلى مدراء المصارف ..
الكل مدين له ...
أو خائف منه ..

أو مات وهو يتمنى لو لم يعرفه.
ولأنه يعرف أن الخوف وحده لا يكفي و أن القانون له آثار من النفوذ ، أسس لنفسه قناعاً من الشرعية :
مؤسسة خيرية، مسجد ومعبد وكنيسة يتبرع لها، ورجال قانون
ينحنون له في السرّ كما يفعل الخاطئون أمام المذبح.

في نيويورك، لا تسقط ورقة من شجرة دون أن يُبلّغ باولو بذلك.
هو ليس رجلاً...

بل منظومة،

هو ليس قاتلاً...

بل حارس مقبرة ..

ولذا، حين تمشي في شارع هادئ على الساحل الشرقي ذات مساء

و تشعر أن كل شيء طبيعي...

تذكر فقط :

قد تكون تمشي فوق أحد ألغامه...

وقد لا تنفجر اليوم...

لكنها تراك و تراقب خطواتك ..

صفقة مع الشيطان ...

لم يكن باولو فيريري ملحدًا على الطريقة التقليدية.

لم يكن ممن يقرؤون كتب الفلسفة ويجادلون في أصل الخلق والنهايات.

كان ملحدًا بشهوة عميقة، تسربت من قلبه حين جفت فيه الرحمة، لا من رأسه حين تاه العقل.

في إحدى ليالي الشتاء، جلس وحده في كنيسة مهجورة في أحد الأرياف ، وكانت الريح تعوي في النوافذ كذئب جائع، فتقدم إلى المذبح، لا ليصلي، بل ليحطم الصليب، ويضع عليه دفترًا جلديًا قديمًا... كان على غلافه اسمه مكتوبًا بحبر لا يمحي، و بين صفحاته أسماء من عاداه بدم النعاج ..

لقد عقد صفقة.

صفقة مع ما لا يُسمى ..

مع كائن بلا جسد ..

يراقبه من وراء الضمير ..

همس له يومًا :

= أعطني إيمانك، أعطيك بصري. أعطني قلبك، أنطقك بحجّتي.
أنت لا تحتاج إلى الله، فأنا سأجعل منك إله الأرض السفلى.
فَقِيلَ.

ومنذ تلك الليلة، لم يُرَ باولو يُصَلِّي ..
لم تُذكر أمامه كلمة الله دون أن يسخر ..
لكنه كان كلما دخل مكانًا، تساقط الضوء، وانكمش الهواء، وتغير
مزاج الزمان.
كان يسير كما لو أن الجحيم يمشي معه و يمطر بوابل من الموت .
وقد قال عنه أحد رجال عصابته :
= لا يحتاج إلى بندقية... فقط ينظر.

منحته الصفقة شيئًا لم يُمنح لغيره : عين الشيطان ولسانه.
أصبح يرى ما لا يرى ..
يستشعر الخوف من مسافة ..
ويعرف متى يكذب خصمه ..
ويكشف النوايا كما يسلخ الجزار الجلد عن عظم.
لكنه أيضًا، بدأ يسمع صوتًا لا يسمعه غيره .. كان يأتيه في أنفاس
الصباح الأولى ، وفي هزيع الليل، ويُلهمه بأفكار لا تأتي من البشر..
كان ذلك الصوت يقول :

= احرقه، فتكون الجريمة الكاملة ..
ابتسم له، ثم اطعنه حين يأمن جانبك ، و حيث لا يُشفى ..

اربط حبيبته إلى جسده، ثم اغرقهما معًا كي يصبح الألم مضاعفًا.

وفي إحدى الليالي، وقف أمام مرآته في البنتهاوس، فلم يرَ نفسه، بل رأى وجهًا آخر. وجهًا بعيون سوداء بالكامل، يبتسم بأسنان من زجاج على هيئة دراكولا لا غير.

فقال له الصوت :

= أنت الآن كلب هاديس إله العالم السفلي الوفي ، و كلب الإله .. إله

أصبح باولو يفتك بالناس لا كرجلٍ ينفذ جريمة، بل ككاهنٍ ينفذ طقسًا... طقسًا دينيًا لعقيدة لم تهبط من سماء بل تبخرت من أعماق الأرض ...

يقال أنه نزع الكبد من فلذة كبد و هو يبتسم بنشوة .. ففي أحد مستودعاته المهجورة قرب النهر، أنشأ باولو مختبرًا سرّيًا لتهريب الأعضاء. ولم يكن يقتل الأطفال فحسب، بل كان يُجبر بعض أطباء منظمته على إبقاء الجسد حيًا أثناء اقتلاع الأعضاء، ليراقب ارتكاسات الطفل و روحه تخرج قطعة قطعة.

وقد قال أحد الجراحين الذين رضخوا لابتزازه قبل انتحاره :

= كان باولو يأتي إلى المختبر، يجلس بهدوء، ويطلب مني أن أصف له نظرة كل طفل حين ينتزع كبده. ثم يبتسم ويقول : أريد أن أرى إن كانت هنالك روح تغادر الجسد بالفعل أو أثبت أن الإله خرافة يعتنقها اليانسون ..

أما عروس النار .. فحكاية أخرى تنسب له و لا غرابة أن تكون حقيقية .. كانت فتاة تُدعى لورا، قُبض عليها بتهمة التخابر مع الـ **FBI**. لم يُرد باولو قتلها بالرصاص، بل استدرجها إلى محفل

خاص و حوله عشرة من رجاله. ألبسوها فستان عروس أبيض،
اعتدوا عليها جماعياً ثم وضعوها في حجرة زجاجية مملوءة بالغاز
هاربة من كوابيس نازية، وأوقدوا النار ببطء...

ابتسم باولو و هو يرمقها رافعاً كأس النبيذ أو الدم :

= هذا زفافك من هاديس ، كم أنت محظوظة .!؟

وظلّ يشاهدها حتى ذابت عيناها كشمعتين...

و من قصصه التي يشيب الطفل لسماعها ، **الجنّازة المفتوحة** ،
اختطف باولو ذات يوم قاضياً فيدرالياً كان يُعدّ ملفات لإدانته. لم يقتله
فحقده كان أكبر من قتل عادي. بل أحضر له تابوتاً، وجعله ينام فيه
عاريًا لمدة **3** أيام، في قبو تحت الأرض، يسمع فيه أصوات عويل
وجثث تنهار، ثم نزل إليه، فتح التابوت، وقال :

= الآن أنت ميتٌ من الداخل، يبقى أن تموت من الخارج فميتة وحيدة
لا تكفيك و لا تصوب خطيئتك ، فلتذهب و ملفاتك إلى الجحيم السفلي.

ثم أطلق عليه الرصاص وهو يضحك ضحكة هستيرية لمختل
عقلي... أشبه بنباح جاف لكلب إله الجحيم من أفواهه الثلاثة ..

كانت تلك الجرائم، كأنها إعدامات ميدانية موقعة من الشيطان. كل
واحدة لها نكهة مختلفة من الشر، كأنها مزيج من الفنون السوداء...

لا تُقتل الضحية فحسب، بل تُمحي من حسابات الوجود ..

وفي أعماق نفسه، لم يشعر باولو بالذنب. بل شعر أنه ينفذ مشيئة
قدر آخر عندما افتقدت السماء الحلول ..

كان يقول :

= الله صمت كثيراً... فأجبت بدلاً منه.

وكان يؤمن، أو يتظاهر بذلك :
أن الجحيم ليس عقوبة فحسب...
بل مُلكية ..

وقد أصبح هو الملك بلا منازع .. و مصائر البشر في قبضته يرسمها
بأنامله كيفما شاء .. يحركها كرجل الدمى بخيوط غير مرئية من
أسنة الذهب..

الفصل الخامس

الثقرة

بوابة إلى الجحيم

كان يُقال عنها في حيّها القديم بلوس أنجلوس إنها جميلة أكثر مما ينبغي.

عيونها الزرقاء بلون شفق المساء حين يغرق في الحنين، وشعرها أشقر طويل، يتماوج كما لو أن كل خصلة فيه تحمل لعنةً مستترة، بشرتها ناعمة، بلون العاج، شفتاها تميلان إلى امتلاءٍ أنثوي فاضح رغم برائها الظاهرة.

سامانتا هاربر...

لم تكن فتاة عادية، ولا تريد أن تكون كذلك. كانت تعلم منذ طفولتها أن جمالها رأس مال في عالمٍ لا يؤمن بالقيم.

في المدرسة، لم تكن الأولى، لكنها كانت موضوع الحديث بين التلاميذ.

تعرف كيف تمشي، كيف تنظر، كيف تبتسم لتربك .. كانت تؤمن بفكرة واحدة، تعاش عليها كما يعشّاش المشرّد على فتات الخبز :

= الغاية تبرر الوسيلة... طالما أن الوسيلة توصلك إلى الأضواء.

لم تنس ميكافيللي عندما تحدث أستاذ الفلسفة عنه .. و بعد يوم واحد فقط كانت صورته معلقة على جدران غرفتها فوق سريرها ، و كأنها كانت تائهة لشيء ما و عبدت فلسفته الدرب أخيرا إليه ..

و هكذا كانت وسيلتها و غايتها لتحقيق الأحلام هي الشهرة، تلك النار المقدسة التي تراها تحترق خلف الشاشات، تمنح الخلود... ولو مزيقًا.

حين كانت في السابعة، طوى والدها حقائبه وطار إلى أوروبا، تزوج من فتاة فرنسية ونسي أنها أنجب شيئاً اسمه سامانتا.

أمها، ليزا ، بقيت وحدها تكافح... كانت أمًا طيبة، حاولت أن تغرس في ابنتها حبّ الكتب، الصدق، الصلاة، الثبات.

لكنّ سامانتا كانت ترسم طريقها منذ صغرها.

كانت تكره غرفة نومها الصغيرة، تلفازها البسيط إلا عندما تظهر عليه وجوه المشاهير ، الحي الممل، و تعتبر أن أمها ضيّعت عمرها في محاولة تربية ابنة بمنطق عفى عليه الزمن و لا يثمر ..

كانت تقول لها أمها :

= المجد لا يأتي سريعًا، والنجاح الحقيقي هو أن تكوني إنسانة محترمة.

فترد سامانتا بعينيها :

= بل النجاح هو أن أكون مشاهدة.. أن تهتف الفتيات باسمي و يتمنى الفتيان ابتسامة مني أو إن كانوا محظوظين أكثر صورة معي ..

وكانت كلما نظرت في المرأة، ترى في وجهها شيئًا واحدًا :

بطاقة عبور إلى هوليوود ..

لا تحتاج شهادة، لا تحتاج أخلاقًا، تحتاج فقط جسدًا يعرف كيف يتموضع في الضوء.

ليلة جمعة، كانت سامانتا مع صديقتها بيلا في أحد بارات ويست هوليوود ، كانت ترتدي فستانًا أسود قصيرًا يُعلن عن مفاتها كما تُعلن العاصفة عن قدومها بهدوء متصاعد .

وكان هناك... على الزاوية، يجلس روي سانشيز، منتج هوليوودي

خمسيني، بدين قليلاً، ببشرة مشدودة بفعل عمليات التجميل، وعينين
ماكرتين تلمعان كما تلمع أعين الضباع.

راها و ذهل من جمالها ، فابتسم ..

دعاها إلى طاولته بكأس من النبيذ الأبيض، عرّف عن نفسه ثم
تحدث معها عن مشروع فيلم سينمائي، ..نظر إليها مطولاً و قال :
= أراك في دور في هذا الفلم ... بسيط نعم ، لكنه سيكون بصمتك
الأولى .. نحتاج فقط توقيعاً صغيراً لإنجاز الأمور...

لم تفكر للحظة.. وقّعت بقلبها ، عقلها و ضميرها الذي كان هذا آخر
قرار له و آخر صيحة منه قبل أن يدخل في سبات شتوي.
فالعقد لم يكن كافياً.

حين دخلت مكتبه الزجاجي في الصباح التالي، قال لها :
= الدور حقيقي و لك بلا شك... لكن يجب أن تكوني منا أولاً ..
تماماً كما فعلت كثيرات من مشاهير هوليوود.

و حين ترددت، اقترب منها، فتح درج مكتبه، أخرج قلادة سوداء
تحمل نجمة خماسية حمراء مقلوبة وقال :

= هنا لا يكفي أن تمنحي جسدك للكاميرات ، بل يجب أن تمنحي
روحك للمخرج الأعظم القابع في الظل خلف الكاميرات.. ستنتمين
إلى الدائرة... إلى الأخوية.

دهشت قليلاً من كلامه الغريب ، لكن سرعان ما هزّت رأسها
بالموافقة دون أن تعي بالضبط معانيه الخفية.. فقد أعمتها أضواء
الشهرة عن أي شيء آخر ..

وكانت تلك اللحظة، اللحظة التي أغلقت فيها الباب إلى الله... وفتحته للشيطان.

سلمت جسدها لروى كما سلمت روحها للظلام ، و ماضيها للنسيان

الفيلم حقق نجاحًا صاعقًا.

سامانتا ظهرت في مشهدين فقط ..

لكن الكاميرا وقعت في حبّ وجهها .. كما الجمهور بالضبط ..

وبدأت العروض تتوالى :

بطولة في فيلم رومانسي، ثم إعلان لعلامة تجارية، ثم مسلسل تلفزيوني.

بدأت تُعرف... ثم تُلاحق.

أصبحت الوجه الجديد لهوليوود ..

الوجه الذي يُغري الكاميرا ويُحرّض الفضائح.

لكن شيئًا ما تغيّر.

كلما لمست النجاح، شعرت أنها تنزلق أكثر.

كانت توقع العقود دون أن تقرأ، وتبتسم في المؤتمرات الصحفية رغم أنها كانت تبكي قبل دقائق في الحمام دون أن تفهم لماذا ؟.

الشهرة كانت تحرق أطراف روحها...

أمها لاحظت ذلك بقلب الأم الذي لا يخطئ .. نصحتها لكن عبثاً ..

فات الألوان ..

لم تعد قادرة على التوقف.

فكلما أرادت أن تتراجع، كان روي يذكّرها...
= لقد أقسمت.. دخلت الدائرة بلا روح . و لا خروج منها إلا بذات
الهيئة ..

اللقاء مع سيد الظل ..

في إحدى ليالي الأحد، بعد انتهاء مهرجان جوائز سينمائية، قادت
سامانتا سيارتها السوداء تحت إشراف روي إلى تلال ماليبو ، حيث
تتنصب في الظل فيلا منعزلة ذات أعمدة حجرية ونوافذ مضللة
بالأسود.

حين دخلت، لم يكن هناك ضحك أو موسيقى، بل همسات غريبة بلغة
لا تشبه الإنجليزية، روائح بخور كثيفة، أرضية تشبه رقعة شطرنج
، وأشخاص يرتدون عباءات حمراء وسوداء، وعلى جباههم نجوم
خماسية مقلوبة.

اقترب منها روي، ناولها قناعاً على شكل جمجمة تضحك، و قال :
= الشهرة يا صغيرتي، ليست على السجادة الحمراء فقط... بل هنا
أيضاً، حيث تُصنع قرارات العالم الحقيقي.

في وسط القاعة، كانت هناك دائرة مرسومة بالملح الأسود، وفي
مركزها تمثال ضخم لسيدهم بافوميت، برأس ماعز، وجسد إنسان،
وأجنحة خفاش.

بدأت الطقوس :

رسم دوائر بدم ديك أسود ..

ترديد أسماء شيطانية ..

تعهدات علنية بالتخلي عن الإله والنور.

ثم اقترب منها أحد الكهنة، ووضع على جبينها قطرات من سائل أسود، وقال :

= أنت الآن سفيرة الظلال، صوتٌ للغواية، وجهٌ للجماليات الملعونات..

في تلك الليلة، لم تعد سامانتا الممثلة التي حلمت بها ، بل مرآة تعكس ظلام العالم بأقذر ممارسات قد تعرفها ، و عقب انتهاء الطقوس الشيطانية ، كانت آخر ذرة من روحها قد تلاشت و ارتمت بكامل إرادتها في أحضان بافوميت ..

بعد انضمامها الرسمي للمنظمة، بدأت العروض تتوالى على سامانتا أكثر ، لكن مع كل دور، كانت التعليمات واضحة من روي :

= مرّري الرسائل... دون أن يشعر أحد .. دعينا نُربّي جيلاً كاملاً على أفكارنا من خلالك كما تفعل الأخريات الشهيرات .. لن يكنّ أفضل منك و لا أكثر شهرة ..

في أحد أفلامها، ارتدت سلسلة عنق بشكل مقلوب تمامًا، أمام الكاميرا مباشرة، ظهرت نجمة خماسية رأسها إلى الأسفل ، فارتجفت الصحافة لذلك ، ليرد أحد النقاد المنتمين للمنظمة :

= لا داعٍ للتهويل .. إنه مجرد خطأ في الإكسسوار...

و لم تعلق سامنتا على الحادثة ..

و في إعلان عطرٍ عالمي، رفعت يدها بتشكيلة أصابع القرون ، علامة شيطانية تعني أنا منهم .

وفي حوار عابر في فيلمها الثالث، تلقت جملة مقتبسة من أحد كتب أنطون لافي أحد مؤسسي منظمتهم :
= افعل ما تشاء، فذاك هو كل الناموس.

الأمر لم يكن صدفة ..

بل كان مخططاً...

لتعويد العيون على رؤية الممنوع ..

وتعويد القلوب على رفض فكرة المقدّس من أخلاق و مبادئ ..

بدأ الجمهور يُفتّن بها أكثر، لكنها كانت تعلم أن سحرها لم يعد من صنع الله كما ولدت، بل من كائن جالس في الظلّ، يهمس في كل مشهد : نعم، أنا هنا.

عبدة الشيطان ليسوا مخلوقات من روايات الرعب أو الفانتازيا ، بل واقع صلب، يمتد في السياسة، الفن، الإعلام، وحتى الموضة.

و لديهم رموز و شعارات كثيرة من قبيل :

● النجمة الخماسية المقلوبة

● رأس الكبش

● رقم 666

● الصليب المقلوب

● رفع السبابة و الخنصر مع ثني بقية الأصابع (القرنين) ..

● الوشوم المتعددة و الموسيقى الصاخبة

● عين واحدة مفتوحة ، تمثيل لفكرة التنوير الزائف عبر العين البصيرة المرتبطة بلوسيفر ..

وغيرها ..



بل أكثر من ذلك ، فقد قام الكاهن و المشعوذ الأمريكي اليهودي أنطون لافي الملقب (ابن الشيطان البار) في بلادها ، بلاد العام صاموئيل و يلسون (سام) أو أمريكا بالترويج لعبادة الشيطان بشكل علني و رسمي بل أسس له كنيسة حملت اسمه (كنيسة الشيطان) في مدينة سان فرانسيسكو لتقام فيها طقوس عبادة الشيطان على نحو جريء فاضح و قانوني دون رقيب أو حسيب .

كما أصدر لافي كتابه (الإنجيل الأسود) الذي جاء في نصه في الفصل الثامن :

(اقتلوا الأجنّة في بطون أمّهاتهم، واشربوا دم الصغار، واصنعوا منه حساءً، واخبزوا في الأفران لحومهم، واصنعوا من عظامهم أدوات للتعذيب)

فمبادئ عبدة الشيطان بحسب التسريبات و التصريحات كثيرة و على رأسها الثلاث الأسود المقدس :

● تحقيق شهوات النفس المتنوعة ورغباتها دون قيود حتى لو

اضطربهم ذلك للقتل أو القيام بممارسات جنسية جماعية ، بل حتى مع المحارم ليكونوا أقرب للشيطان ..

● تقديم القرابين للشيطان و يفضل أن تكون من الأطفال .. و التشجيع على الإجهاض و الانتحار..

● الانتقام، و تدمير كل من يحاول مضايقتهم بلا أدنى هوادة أو رحمة و بأبشع الوسائل و الطرق ..

و قد نالت منظمتهم شعبية لا بأس بها بسبب استقطابها للمختلفين في المجتمع الذين تم رفضهم أو التضييق عليهم من قبل العامة ، كالأقليات و المختلفين جنسياً و الأعراق الأخرى غير العرق الأبيض كالهنود الحمر أو الأفارقة أو الضعفاء الذين يتعرضون للتنمر و غيرهم ..

و للأسف فإن كل هؤلاء يلجؤون من الظلم و أذى الآخرين لهم إلى الفسوق و هو أذى أكبر لهم و بأيديهم في مفارقة غريبة و مؤلمة .. فالطريقة الأصح كي يقوي الإنسان روحه أن يلجأ إلى الله و السماء فهو المعين الوحيد من نكبات الدهر الذي لن يخذلك أبداً..

و يحاول عبدة الشيطان الترويج لأنفسهم كجماعة لطيفة تبحث عن العدل و نصررة المظلومين ، لكن ما يتسرب من مبادئهم و طقوسهم للآخرين يفترض عكس ذلك تماماً ..

أما عاداتهم ، فيقيمون طقوساً ليلية تبدأ منتصف الليل، يحيون ما يسمونه قداسات سوداء، يقدمون قرابين رمزية، قد تكون حيوانات، وقد تصل في الحالات القصوى إلى البشر (كما وُثق في ملفات مشبوهة لم تُعلن رسمياً).

ويؤمنون أن الشهرة قوة، وأن من يسيطر على النجوم من المشاهير، يسيطر على العقول .. ولهذا، فإن زرع رموزهم في الثقافة البصرية هو أعظم أدواتهم.

سامانتا لم تكن الأولى، ولن تكون الأخيرة.
في مقابلات تلفزيونية حقيقية، تحدث بعض الفنانين عن هذه المنظمة
بنصف همسة :

روزان بار، في لقاء عام **2014**، قالت :
= هوليوود يحكمها نظام التنوير، نظام تعبدي يخص كائنات غير
بشرية.

كاتي بيرى، صرّحت مرة :
= بعت روحي للشيطان كي أنجح.
رغم أنها قالتها مازحة، لكنها لم تضحك بعدها.
بوب ديLAN، في مقابلة شهيرة، قال :
= أكملت العقد مع القائد الذي يحكم هذا العالم... الآن أتبع من لا
يُرى.

لانا ديل راي، أقامت جلسات تحضير أرواح بشكل علني في منزلها،
ثم ظهرت في إعلان بلامح تشبه المومياء والرموز البافومية.

إنها شبكة...

شبكة تجعل من الشاشة مرآة للهاوية.
وتجعل من الفن غلافًا لرسائل مشفرة.

وسامانتا، كانت جزءًا من هذا كله، تبتسم في المؤتمرات، ترتدي
الأسود في العروض، وتقول كلمات محشوة بترميز و تتعرض
لموجات من النقد و الاتهام ، حتى ظنّ الجمهور أنها مجرد فتاة
موهوبة تتعرض لهجوم صحفي معتاد من باب الغيرة لتحطيمها لا
أكثر ، و من خلفها وقف جيش كامل يدافع عنها و يلمع صورتها ..

مذيعون ، مقدموا برامج ، صحفيون ، محامون ، و متابعون وهميون
على مواقع التواصل الاجتماعي و كلهم يتبعون المنظمة...

لكن الحقيقة ؟

أنها لم تكن تمثل فقط، بل كانت تنقل تعاليم معتمدة إلى من يشاهد دون
أن ينتبه.

لقد حققت غايتها الأولى منذ الطفولة (الشهرة) ، لكن الوسيلة لم
تكن جسدها كما توهمت ، بل روحها التي لم يبقى منها في أعماقها
حتى مجرد طيف عندما خطت العتبة الى بوابة الجحيم ..

الفصل السادس

تاج النرجسي

عندما يكون المال غاية لا وسيلة ..

في قلب مدينة دالاس، تكساس، حيث تصطف ناطحات السحاب كتيجان فولاذية تلمع تحت شمس الجنوب الأمريكي، كان مايكل كراوفورد يمشي دومًا كأنه صاحب هذه الأبراج، لا مجرد مستثمر فيها. لكل خطوة يخطوها وقع خاص كأنها تهز إسمنت المدينة، ولكل نظرة يطلقها معنى مزدوج: ثروة لا تجارى ونظرة ازدراء لا تُرد.

مايكل، ذو السادسة والأربعين، رجل طويل القامة، عريض الكتفين، بشرته شاحبة كأن الشمس لم تلامسه منذ عقد، شعره مصفف دائمًا بطريقة كلاسيكية تعكس نزعة نرجسية كامنة في أعماقه، أما عيناه الرماديتان فتكادان تلمعان من شدة الذكاء، لا حنان فيهما ولا دفء، بل برود محاسب يتفحص أرباحه وخسائره في كل من يراه. كان جسده مثل تمثال يوناني من الجليد، يعكس الضوء لكن لا يحتفظ بحرارته.

أنفه مستقيم بفخر لا مبرر له، وذقنه محفوف دائمًا بعناية كأن كل شعرة فيها موضوعه بمعيار دقيق، يلبس البذلات الفاخرة كأنها دروع مصممة للمعركة اليومية في السوق. وعلى معصمه، ساعة سويسرية ذهبية، ليست للزمن، بل للبيان. عطره دائمًا مستورد من الخليج، قويّ النفاذ لكنه غير مبتذل، يشبه حضوره تمامًا.

في سلوكه، يتجلى نرجسي مخيف. لا يصغي لأحد إلا نفسه، يرى في المرأة تجسيدًا للكمال البشري، ويؤمن أن العالم دُفع له ليتملكه، لا ليشاركه مع أحد. إذا تحدّث، أنصت الجميع، ليس احترامًا بل قلقًا، فلكلماته كلفة. وإن ابتسم، غالبًا ما كانت ابتسامته مقتّعة، يخفي خلفها احتقارًا صريحًا لكل من لا يملك ما يملكه. لم يضحك يومًا من القلب، ولم يبك حتى وهو يرى أربع زيجات تنهار واحدة تلو الأخرى.

طلق مايكل أربع زوجات على التوالي، وكل واحدة كانت جميلة، ذكية، أنيقة، لكنهن كنّ عقبة أمام شهوته الحقيقية : المال .. كان يقول ساخرًا :

= الزواج مشروع خاسر، لا يدر عائدًا على الاستثمار.

وحتى طفل لم يسعَ لإنجابه، فقد رأى في الأبوة مسؤولية تؤخر السباق، وهو لا يهوى شيئًا بقدر الخط النهائي. لم يكن يكره العائلة، بل كان يعتبرها تعقيدًا زائدًا في معادلة يجب أن تكون بسيطة: المكسب أو الإفلاس.

لا يشببه أحد في متحف التاريخ سوى الأسطورة الإغريقية نرسيس.

الذي كان معجباً بجماله الساحر و بنفسه حد الغرور عاشقاً لانعكاس صورته في ماء البحيرة لدرجة بات لا يرى الناس من حوله و لا يتعاطف مع أحدٍ منهم .. لذا اشتق اسم اضطراب الشخصية النرجسية من أسطوره و من نبات النرجس الذي يقوم بقتل جميع النباتات من حوله كي ينفرد بالمواد الغذائية لنفسه .. و هذا ما أدمن مايكل فعله .. تحييد كل المنافسين من حوله بالضغط و التلاعب و الابتزاز و الربا كي ينفرد على قمة السوق ..

فجشعه لم يكن طمعاً بالمال فقط، بل سعيًا مستميتًا للهيمنة، لإثبات أنه الأقوى في الغابة. وقد سطر اسمه في عالم البيزنس كذئب مفترس لا يرحم ، و في أرشيفه أمثلة جمة عن طبيعته هذه ..

فمثلاً ، حين ظهرت شركة ناشئة في تكساس تنتج مواد صديقة للبيئة تدخل في صناعة التغليف، وقد بدأت بالاستحواذ على سوق مهم، أرسل مايكل جواسيسه الإلكترونيين لاختراق بريد مؤسسيها. سرق الأفكار والخطط، ثم أطلق حملة دعائية ضخمة

اتهمهم فيها باستخدام مواد مسرطنة، مُدعماً تقاريره بشهادات مزورة من مختبرات وهمية. خلال شهر واحد، انهارت أسهم الشركة، وتدخل مايكل واشتراها برربع قيمتها السوقية، ثم أعلن بعد سنة عن مشروعه الجديد : التغليف النظيف... من أجل مستقبل أفضل.

و كمثال آخر ، نجد شركة برمجيات صغيرة في أوستن كانت تعمل على تطبيق مبتكر لتحسين شبكات المبيعات. أراد مايكل التطبيق لكنه لم يرغب بدفع الثمن، فبدأ بالتواصل مع كبار العملاء الذين يستخدمون هذه البرمجية وأغراهم بعروض ضخمة لمقاطعة المنتج. وعندما هوت الشركة تحت الضغوط، دخل بصفة "منقذ"، وضمّمها لمملكته، ثم دفن الابتكار الأصلي كي لا ينافسه أحد لاحقاً.

ثم يأتينا مثال جديد ، شركة غذائية عريقة، أسسها مهاجر يوناني، كانت تنافسه على عقود ضخمة مع الجيش الأمريكي. فاوض مايكل البنوك التي تدين لها وقدم تسهيلات بفوائد خادعة، ثم انسحب فجأة وطلب السداد الكامل، فانهارت السيولة، وطلب الحجز على أصولها، فاشتراها هو بأسعار زهيدة. بعدها أعاد تشغيل المصانع، لكن برواتب أقل وحقوق أدنى، لأنه لا يصرف على الكرامة.

و نختم بمثال لا يقل قباحة ، في أحد أكثر أساليبه خسة، قرر تدمير سلسلة متاجر محلية تنافسه على سوق المواد الاستهلاكية. فاوض مدراء التسويق فيها سراً، وقدم لهم رشاوى ثمينة ليقوموا بتسريب بيانات العملاء وتفاصيل الموردين. ثم أعلن تخفيضات جنونية قبل موسم الأعياد، وضغط على الموردين بعقود احتكار قاسية، ليُحرم منافسه من البضائع. بعد إفلاسهم، ظهر مايكل بوجه الملائكة ليشتري المحلات ويعيد افتتاحها باسمه، مع شعار : نحن نكمل الطريق.. ونفوز به.

إذن هذا الرجل لا يؤمن بالأخلاق، ولا يجد في مفردة "الضمير"

سوى عائق من اختراع الضعفاء. يؤمن أن الحياة ساحة صراع صفرية، غابة لا ترحم ، البقاء فيها للأذكى، لا للأطيب. هو رجل قرر منذ زمن بعيد أن الطيبة ليست فضيلة بل فشل، وأن المبادئ ليست درعًا بل قيدًا ثقيلًا في سباق مكشوف.

أما الأديان، فهي في نظره مشاريع اجتماعية عبقرية اخترعها الكهنة لإبقاء العوام في الطاعة والتبعية، يقول :

= الربّ هو فكرة اختراعها أول فاشل كي يبرر هزيمته.

وكان يردد دومًا أن الكنائس والمساجد والمعابد هي البنوك القديمة التي كانت تبيع الأمل مقابل الطاعة.

نمط حياة مايكل مجنون، ماجن، منفلت. يمتلك طائرة خاصة، ويقضي نهاية كل أسبوع في مدينة مختلفة: مراكش، باريس، طوكيو، فيغاس. يسهر في النوادي الخاصة، يقامر بمبالغ خيالية، يقتني اللوحات النادرة لا لجمالها بل لأن قيمتها ترتفع مع الوقت. يقيس العلاقات بعدد الأصفار، ولا يتذكر اسم مضيضة مرت عليه قبل أسبوع. لا يؤمن بالحب، يرى فيه هرمونات شاردة. ولا يقدس الصداقة، يعتبرها مصالح مؤقتة.

المال عنده ليس وسيلة، بل غاية. كلما أنفق زاد. وكلما خاطر، ربح. كأن العالم خاضع لحساباته وحده. وكان يثق أن كل باب مغلق له مفتاح إن امتلكت المال الكافي. وأن كل إنسان على وجه الأرض له ثمن، ما عليك إلا أن تعرف العملة المناسبة.

مايكل لم يكن شريرًا ساذجًا، بل شريرًا عبقرياً. وكان يعرف تمامًا أن لا أحد يهزمه طالما أنه يلعب بقواعد لم يضعها الآخرون بعد. وكان مؤمنًا أن من لا يطاء بأقدامه فوق الآخرين، سيُسحق حتمًا.

وكان يردد عبارته المفضلة أمام مستشاريه :
= الأسماك الكبيرة لا تسبح في جدول واحد.. بل تبتلع الجدول بمن
فيه.

هو ذاك: مايكل كراوفورد، التاج الزائف في مدينة التيجان، حيث لا
أحد ينجو إلا من تعلم أن يلعب الشطرنج بجنود من نار.

الفصل السابع

جسد الإيجار

جسد برتبة سيارة أجرة ..

في أحد الأحياء النائية في مدينة كارلسباد من ولاية نيو مكسيكو، حيث الشمس تلسع الأرض القاحلة كأنها تعاقبها، كانت سينتيا تتمشى بخطى ثقيلة وسط شارع ترابي لا يُفضي إلى شيء سوى المزيد من الفقر. كانت في الرابعة والعشرين من عمرها، نحيلة القوام، ذات وجهٍ ساطع كالبدر ليلة تمامه لا يشي بالبوُس الذي تجرّه خلفها. بشرتها السمراء كانت تلمع بلجين الجنوب، وعيناها السوداوتان تبرقان بما يشبه التمرد، لا البراءة. شعرها الطويل كجناح الليل كان متمرّدًا كطبعها، ينسدل على كتفيها بانسيابية لا تعبر إلا عن رفضها لصورة الفتاة المتعبة التي لا تعرف إلا التكرار.

عاشت سينتيا في بيت متداعٍ، تؤثته صرخات إخوتها السبعة، ومائدةٌ لا تكفي الجميع. الأب يعمل حارسًا ليليًا في مستودع، والأم تخطط الثياب بأجر زهيد. الفقر لم يكن حالة مؤقتة في هذا البيت، بل قدرًا مستمرًا. ومع ذلك، لم تكن سينتيا من النوع الذي يرضى بالقدر. منذ طفولتها كانت تقول لأختها الكبرى :

= لا أريد أن أعيش وأموت هنا. لا أريد أن أكون نسخة من أمي.

كانت تؤمن بشيء واحد فقط : لا أحد سيمنحها الخلاص سوى نفسها، لكن بأي طريقة ؟ لم تكن تملك شهادة، ولا موهبة لافتة، ولا مهارة تُباع في السوق. لم يكن لديها سوى جسدها، وكانت تدرك منذ مراهقتها أن الرجال ينظرون إليها كشيء مرغوب بقوة. فكرة

الثراء لم تكن حلمًا بريئًا بل خطة محمومة.

تركت سينتيا بيتها دون وداع. حملت حقيبة مهترئة وبعض النقود التي ادّخرتها من عملها الجزئي كنادلة، وسافرت إلى المدينة الأقرب. هناك، وفي أحد النوادي الليلية، التقت بامرأة تدعى لونا ،

كانت تبدو أنيقة، واثقة، غامضة. عرضت عليها عملاً لا يتطلب شهادات ولا خبرات : فقط حضور طاع و جسد مغري .. و لم تتردد .. قطفت التفاحة .. فقد كانت الفاكهة الوحيدة في سلة إمكانياتها و لو كانت محرمة ..

كانت البداية سهلة... راقصة تعري تغوي الذكور الهاربين من بؤس حياتهم اليومية و مشاكلهم العائلية و المهنية إلى حضن دافئ أو ملتهب ، عشاء بعدها، ثم لقاء حميمي خاص، فبدأ المال يتدفق. ثياب فاخرة، فندق خمس نجوم، عطر فرنسي .. و بدأت الحياة التي طالما حلمت بها تتشكل ملامحها من حولها ..

ولكن في المرأة... شيء ما بدأ يتغير. القمر بدأ ينخسف و يزوي تدريجيا خلف ضمير ميت ، وكان في عينيها غربة عن نفسها.

شيئاً فشيئاً توسعت مهامها، أصبحت عضوة في شبكة منظمة للبغاء، تديرها وجوه لا تظهر نفسها، وتهندس حياة الفتيات كقطع على رقعة شطرنج. كانت السيناريوهات متشابهة : رجال أعمال، سياسيون، أجانب، لقاءات قصيرة، مبالغ طائلة. لم تكن سينتيا ترفض شيئاً، فقد وجدت أخيراً ما اعتبرته طريق الخلاص.

لم يمر وقت طويل حتى عرفت العائلة بما حدث. وصلهم الخبر كطعنة في الروح. الأم بكت بحرقة، الأب صمت كأن شيئاً مات فيه، الأخوة تنكروا لها، وأختها كتبت لها رسالة أخيرة :

= قد تفقدين كل شيء، لكن لا تفقدي نفسك.

لكن سينتيا لم تكن مستعدة للتخلي عن المال. رغم أنها في كل مرة كانت تغسل جسدها بعد علاقة جسدية عابرة جديدة ، تشعر كأن شيئاً قذراً لا يُزال ملتصقاً بجسدها، كانت تبتسم أمام المرأة وتقول

لنفسها :

= أنا بخير... أنا ثرية و حرة.

لكن نظرة الزبائن كانت تصفعها أكثر مما تلامسها أيديهم. نظرة دونية، مشمئزة، كأنها سيارة أجرة يتناوبون على استقلالها الى محطة الشهوة و المتعة .. لم تكن تلك النظرات تؤلمها فقط، بل كانت تقتل شيئاً في أعماقها. ومع كل صمت تنغمس فيه بعد لقاء، كانت تسمع صوتاً داخلياً يقول :

= أهذا هو الخلاص الذي سعيت له .. غيشة جنسية لارضاء شهوة ذكور لا تعرفينهم ؟

و بين خيار العودة إلى الفقر و استرداد نفسها و طهارتها بالتخلي عن هذه الحياة، أو البقاء كدمية مزينة يُدفع ثمنها، لم يكن القرار سهلاً. الليل كان طويلاً وثقيلًا، والوسادة لم تعد مكانًا للراحة بل للشوك.

الخطيئة كفخر و سلم للأعلى ..

في لحظة انكسار، اتخذت سينتيا القرار الذي سيبدّل ملامح روحها إلى الأبد.

قابلت في ذات مرة زبوناً جديداً يدعى **جان** ، زعيم طائفة تُعرف بسرية وطقوسها الغريبة. وجدت فيه ركن ثقة تحتاجه بشدة كي تبوح بهومها .. لذا بعد أن أفرغ شهوته فيها ، أفرغت قصتها و همومها على مسامعه .. و كأن جان كان بانتظار هذه الحالة ، عرض عليها الانضمام لطائفتهم التي تعبد الشيطان، ليس ككيان خرافي، بل كرمز للتمرد والقوة والحرية المطلقة من كل قيد.

قال لها :

= هناك، لا أحد يلومك على ما تفعلين... هناك أنتِ سيدة نفسك..
المتعة و الاستقلالية و الحرية سلم يقودك للأعلى لا يهوي بك الى
الأسفل ..

وسرعان ما وجدت في ذلك عالمًا يعفيها من شعورها بالذنب، حيث
الإباحية ليست عارًا بل وسيلة ترقٍ، وحيث الجسد ليس بضاعة بل
شعيرة.

شاركت سينتيا في أول طقس داخل قاعة واسعة من الحجر الأسود،
تملؤها الشموع الحمراء ورموز نجوم خماسية مشقوقة، وجماجم
بشرية مرصوفة بدقة. وقفت نصف عارية وسط الدائرة، وقُدِّمت
باسم جديد :

ليليث الثانية ..

لكن من هي ليليث الأولى ؟!

ظهرت ليليث لأول مرة في النصوص السومرية حوالي **2000**
سنة قبل الميلاد، وكان يُنظر إليها ككائن روحاني شرير، من الرياح
أو العواصف ، و أحيانًا كمخلوق ليلي متمرد كرمز للشهوة و
الانصياع لها.

و في ملحمة غيلغامش ، ورد اسم ليليتو ككائن شيطاني يعيش في
شجرة مقدسة.

أما في التقاليد اليهودية (التلمود والمصادر الكابالوية) ، فتُعتبر ليليث
أول امرأة خلقها الله مع آدم، لكنها رفضت أن تخضع له، لأنها رأت
نفسها مساوية له في الخلق. فتركت آدم وهربت من الجنة، واختارت
الاستقلال والحرية، فاستبدلها الله بحواء.. أصبحت بعدها شيطانة
تُغوي الرجال وتؤدي الأطفال حديثي الولادة.

ورد ذكرها في التلمود البابلي بوصفها أم الشياطين و عاشقة الليل

أنشد الحاضرون تراتيل بلغات غريبة، وقرئت نصوص تدعو لخلع كل قيد ديني أو اجتماعي أو أخلاقي. أهديت سينتيا قلادة بشكل قرني الشيطان، ارتدها وأقسمت بدمها أن لا تعود للوراء.

كانت هناك، لأول مرة، محاطة بوجوه لا تزدريها، بل تمدح جرأتها، تمجد جسدها، وتعددها بمناصب داخل التنظيم كلما أثبتت ولاءها . وكانت مستعدة.

ظننت سينتيا أنها وجدت نفسها، لكن ما لم تدركه هو أنها لم تعد تمتلك تلك النفس أصلاً. جسدها بات رمزاً للتسلط، روحها مسحوقة تحت كعب شيطاني. لم تعد تشعر بالخجل، لأن الخجل مات. لم تعد تخاف من المجتمع، لأنها تركته خلفها.

لكنها كل ليلة، بعد أن يهدأ صوت الموسيقى الشيطانية، وبعد أن تنطفئ الشموع وتغلق الأبواب... كانت تعود إلى سريرها وحيدة. هناك فقط، يتسلل صوت الطفلة البريئة التي كانت، ويهمس :
= لم نكن نحلم بهذا يا سينتيا... لم نرد هذا.

لكن لا أحد يجيب. فقد ماتت سينتيا التي كانت... وولدت أخرى لا تعرف لنفسها اسماً سوى الظل، و لا مصير الا النهاية المؤقتة.. أو البداية الحقيقية للسقوط النهائي ..

الفصل الثامن

مفرد الخير

متاهة الشك ..

في حي متآكل الأطراف من ضواحي ميامي /فلوريدا، حيث تعيش البيوت على أنقاض ذكريات فقراء الحلم الأمريكي، وُلد فريد. طفل وحيد لزوجين اجتماعاً سريعاً وافتراقاً أسرع. أب عصبي يضرب أكثر مما يتحدث، وأم باهتة الملامح تعمل في مقهى وتعود منهكة لتحظى بجرعة مخدرات جديدة .. منذ طفولته، لم يشعر فريد بأنه ينتمي، لا إلى جدران البيت، ولا إلى وجوه أهله، ولا حتى إلى اسمه.

حين بلغ الثامنة عشرة، قرر أن يغادر دون وداع. ترك رسالة قصيرة على الثلاجة كتب فيها :

(إن عدتُ، فلن أكون نفسي)

و لم يعد أبداً ..

في شوارع ميامي السفلية، كان فريد يقف على ناصية الحياة، يوزع الموت مغلفاً في أكياس صغيرة. بدأ كمروج للمخدرات، يتلقى الأوامر ويخشى أن يُضبط أو يُخدع. لكنه سرعان ما تعلم لغة الشوارع : أن تعض قبل أن تُعض، أن تكذب لتنجو، أن تنتظر في عين الخطر وتبتسم له. شيئاً فشيئاً، لم يعد مجرد ترس في آلة، بل أصبح يحرك التروس. جمع حوله فريقاً من الصبية التائهين، علمهم كيف يُروّجون، كيف يهربون، كيف يختفون في الزحام.

لم يعد فريد مجرد مروج. لقد أصبح صلة وصل بين مافيا الكوكايين في أمريكا الجنوبية وأسواق ميامي الظمأى. امتلك يخنًا فاخرًا، لا تسأل عن مصدره، ولا عن محتواه. كان يقطع البحر بوجه هادئ، وعينين تخفيان ما لا يُقال. يجلب السم الأبيض من كولومبيا و غيرها ، يمر عبر شبكة معقدة من الرشاوى والتهديدات. وكان يعشق تلك اللحظة حين يرسو في مرفأ ميامي ليلاً، يعرف أن حمولة الشر وصلت، وأنه صار أكثر ثراءً وخطورة.

في قاموس فريد، لا توجد كلمات مثل "الذنب" أو "العار". يعيش أيامه كأنه ملك غير متوّج على مدينة الضوء والظلال. يقامر في نوادي سرّية، يشرب حتى يترنح، يتعاطى الكوكايين كمن يحتسي القهوة، يشارك في حفلات صاخبة تبدأ بعد منتصف الليل ولا تنتهي إلا بانبلاج الخيبة.

يحب ركوب الأمواج، لا حبًا في الرياضة، بل لأن البحر وحده كان يسمع هديره الداخلي. حين يقف على لوح التزلج، يشعر كأنه يسحق العالم تحت قدميه. كان مهووسًا بالسيطرة، حتى على الموج.

كان فريد يظن أن الكون قد أقيم على مقاسه. يتلقى المكالمات من الكبار في المافيا ويأمر الأصغر منه كأنه جنرال. يتحدث عن الشرطة بسخرية، وعن الموت بلا مبالاة. في نظره، الجميع أدوات في لعبة كبيرة، هو وحده من يفهم قوانينها، لأنه كتبها بنفسه.

كان يقيم في شقة زجاجية تطل على المحيط، لا ستائر فيها، لأنه لا يخشى شيئًا. يمتلك ثلاث سيارات، اثنتين للعرض وواحدة للهروب. وعندما يُسأل عن حياته، يجيب بابتسامة ساخرة :

= أنا أعيش حياة الخالدين، فلا تسألني عن المستقبل، لأنه لن يختلف عن اليوم.

فريد ليس ثوريًا، لكنه يمقت القيم الاجتماعية. يرى العائلة قيدًا، والدين خرافة، والقانون مزحة .. يقول :

= وُضع القانون لحماية الجبناء، أما نحن، فنبنّي إمبراطوريتنا بالفوضى.

هذا التمرد لم يكن نتيجة ظلم، بل نتيجة فراغ. كان يخشى الفراغ أكثر من السجن، لذلك يملؤه بكل شيء : المخدرات، النساء،

الأصوات العالية، الأدرينالين. هو حيوان حضري، لا يسكن الغابة، بل يصنعها حيث يكون.

في داخل فريد، لم يكن هناك فراغ روحي، بل حفرة سحيقة حفرتها سنوات الطفولة بإزميل الخذلان، ثم نمت فوقها أعشاب الشك كالأشواك. لم يكن ملحدًا لأن الفكر ساقه لذلك، بل لأن الحياة صفت فيه كل فكرة عن الرحمة. لم يجد الله في عيني والده حين انهال عليه ضربًا، ولا في نظرات أمه حين تنطفئ تحت وطأة المخدرات. نشأ، وهو يتأمل صلوات البؤساء تتبخر في هواء ميامي الحار، بينما لا ينزل شيء من السماء سوى المطر... واللعنات.

في طفولته، كان يحدق في سقف غرفته، يسأل : إن كان الله موجودًا فعلاً، فلماذا يختبئ هكذا ؟ وإن لم يكن، فمن خلق هذا العبث المذهل ؟ كان يبحث عن المعنى كما يبحث الغريق عن حبل، لكن كل ما وجدته كان الحبال مشنوقة على رقاب الحالمين. منذ صغره، شعر أن الإيمان ليس أكثر من تعزية جماعية لمن لا يملكون شيئًا، وأن الأمل ترف لا يتقنه الفقراء إلا في الأغاني.

الشك عند فريد لم يكن لحظة، بل تراكم. تراكم على شكل خيبات، وخسائر، وموت لم يجد فيه عدلاً. حين رأى صديقًا بريئًا يُقتل في تبادل نار عبثي، قال :

= لو كان هناك إله، لكان في الجهة الخطأ من التصويب.

وحين رأى متشردًا يموت على الرصيف بلا جنازة، تساءل :

= أين ذهبت عدالة السماء ؟

لم يجد أجوبة، فقرر أن يصير هو الجواب.

الحياة بعد الموت ؟ عند فريد، مجرد خرافة يلوح بها رجال الدين كأنها جزرة أبدية. لا يوجد شيء بعد اللحظة، ولا حساب، ولا بعث.

= نحن كشرارة في العدم ..

كان يقول ..

= تضيء لحظة، ثم تنطفئ دون أن تتذكر أنها اشتعلت.

الموت ليس بابًا، بل حائطًا ينتهي عنده كل شيء. لم يكن يخافه، بل يزدري فكرته، لأن ما لا يُعاش لا يستحق الخوف منه.

أما "القدر"، فكان في نظره كذبة مهذبة. لم يؤمن يومًا أن شيئًا مكتوبًا ينتظره، بل كان يرى أن الحياة ككازينو: من لعب جيدًا ربح، ومن خسر فهو إما غبي أو فقير الحظ. لم يركع يومًا لصلاة، لأن الركوع عنده شكل من أشكال الاستسلام، ولأن اليد التي لا

تمسك زمام الحياة لا تستحق أن تُرفع إلى السماء.

كان فريد يضحك حين يسمع الآخرين يقولون :

= الله معنا.

يتساءل ساخرًا :

= أين هو إذا ؟ مع من كان حين فجر الأمل تحت أقدام الأطفال ؟ مع من كان حين تحوّل الأبرياء إلى مجرد أرقام في نشرات الأخبار ؟

وإن أجابه أحدهم بإيمانٍ خاشع أن في البلاء حكمة، ردّ عليه بابتسامة لاذعة :

= أي حكمة تُستخرج من حريق ؟

لا يحب النقاش، لأن الإجابات الدينية تبدو له حيلًا ذكية لتمويه الغموض، ويكره العزاءات الجاهزة : "الله يختبرك"، "كل شيء بقضاء"، "الصبر مفتاح الفرج"... كلمات يراها تُصنع كالمعلبات، معمدة بماء الضعف، ومغلفة بورق الإيمان العطر.

كان يرى أن القيم كلها، من الصدق إلى التضحية، ليست قوانين سماوية، بل صفقات اجتماعية تقايض الأفراد على استقرار زائف. وكان يزدري أي فضيلة لا تدرّ عليه مكسبًا، ويعتبر الخير وهماً اخترعه الضعفاء كي يبرروا فشلهم في النجاة.

فريد لا يكره الإله بقدر ما يراه عديم الجدوى. إن وُجد، فهو بعيد، متعال، بارد كالنظام الفيزيائي، لا يسمع ولا يُعنى. وإن لم يوجد، فلا شيء تغير ..

إنه، في العمق، يعيش بعقل يصرخ : لا معنى، لا عدالة، لا وعد. كل شيء مجرد فوضى جميلة تُدهشنا للحظة، ثم تغرق في صمت العدم.

في عيني فريد، لا جنة تنتظرنا، ولا جحيم، بل حياة واحدة علينا أن نفتك بها ما استطعنا، حتى وإن استبدلنا إنسانيتنا بمخالب. لأنه حين تموت، لن تسأل عنك السماء، ولن تتصفك الأرض. ستموت كما تموت قطرة على الرصيف : بصمت، بلا صلاة، بلا خلود.

وهكذا كان فريد : الحادّ ليس موقفًا عقليًا فحسب، بل جرح وجودي، تمزق بين سؤال بلا جواب، وإجابات بلا حقيقة.

بلغ فريد التاسعة والعشرين وهو يعتقد أنه وصل. يظن أن لا شيء فوقه، ولا أحد خلفه. يتنفس كأنه يملك الهواء، يبتسم كأن الحياة مدينة باسمه. لم يكن يعلم أن السقوف الزجاجية تُرى من الأسفل فقط، أما من فوقها، فيكون السقوط أقسى وأقرب مما يتوقع.

لكنه لا يرى ذلك بعد. ما يزال يتراقص في دوامة المجون، غارقًا في وهم السيطرة، ناسفًا كل جدار يمكن أن يعيده إلى إنسانيته.

هو الآن في أوج مجده المسموم... بانتظار الشرخ الأول.

فهذا هو فريد، سيد اللاشيء، وملك الموجة التي سترتد عليه قريبًا و
تغرقه ..

الفصل التاسع

مقام الماجوس

رؤوس النجمة ..

لم يكن الليل في ذلك اليوم عادياً، بل كأنما تواطأ مع قدرٍ خفي لنسج أول خيط من الحكاية. في مدنٍ متباعدة، وفي ساعات مختلفة، تلقى كلٌّ من الخمسة المختارين رسالته السوداء.

في نيويورك، وبينما كان باولو يُدخّن سيجارته على شرفة منزله المطل على نهر هدسون، وجد صندوقاً صغيراً موضوعاً على حافة الدرايزين. لم ير أحد يضعه. فتحه بحذر، فوجد بداخله خاتماً أسود من حجر الأونيكس، ورسالة مكتوبة بخط يدٍ شديد الأناقة :

(حين تعلي العتمة العرش، سيطلب من الملك أن يُباع. كن هناك. سان فرانسيسكو كنيسة الشيطان ، الليلة الموعودة.)

و على ظهر الرسالة كتب التاريخ و الموعد بدقة ..

في لوس أنجلوس، كانت سامنتا تستعد لتصوير مشهدها الأخير في فيلمها الجديد، حين دخل أحد المساعدين يحمل مغلفاً بلا اسم. قالت له مديرة الإنتاج إن لا أحد يعرف من أرسله، لكنه يحمل توقيعاً نادراً: نجمة خماسية يحيط بها هلالان. فتحت المغلف، فوجدت فيه قلادةً صغيرة تنبض بدفءٍ غريب، ومعها بطاقة تقول :

(من يحلم أن تبتلعه السماء، عليه أولاً أن يحترق كالنجم. سان فرانسيسكو، كنيسة الشيطان ، منتصف الشهر.)

في ميامي، وجد فريد الورقة في جيب سترته الجلدية، رغم أنه لم يلبسها منذ أيام. الكلمات مكتوبة بلغةٍ شعر أنه يعرفها من قبل أن يقرأها :

(في الشك يقيم الإله الثاني، تعال إلى هناك حيث الحقيقة عارية

.. سان فرانسيسكو – كنيسة الشيطان.)

وفي شقته الزجاجية في دالاس، كانت مايكل يقلب تقارير شركته، حين توقّف حاسوبه عن العمل فجأة. ظهرت على الشاشة رموز غريبة، ثم اختفت، ليبقى سطرٌ واحد :

(المال خادم جيد، لكنه سيّد أقوى. الترقية تنتظرك .. سان فرانسيسكو – كنيسة الشيطان.)

أما سينتيا، فاستيقظت في منتصف الليل على صوت يشبه صوت والدتها يناديها. فتحت باب غرفتها، فوجدت ظرفًا أحمر موشومًا بقطرات لزجة كأنها دم. حملت الظرف، ورائحة بخور غامضة تتصاعد منه ، فتحت بأصابع مرتجفة لتجد رسالة نصها :

(العريّ طقس، لا عار. والجسد معبر. النجمة بحاجة إلى ضلعك الذي خلق منها آلاف الذكور التواقين للمتعة .. سان فرانسيسكو – كنيسة الشيطان)

هكذا، وفي ظرف اثنتين وسبعين ساعة، تلقى الخمسة دعواتهم المختلفة، كلّ على طريقته. ما جمعهم لم يكن الورق، بل نداء خفي يلامس أعماقًا لا تراها المرايا.

كان القدر قد قرر أن يجمعهم في سان فرانسيسكو، مدينة الضباب والأسرار. لم يعرف أحد كيف تمت الدعوة، ولا كيف وصلوا. لكنهم، واحدًا تلو الآخر، كانوا يتجهون إلى الكنيسة، كأنما منقادين بخيطٍ لا يُرى، حريري الملمس، شيطاني المصدر.

لم تكن كنيسة الشيطان في سان فرانسيسكو كنيسة على الإطلاق، بل معبدًا هجينًا بُني من عظام المعمار القوطي وروح الخراب. بوابتها الأمامية تعلوها نافذة زجاجية ملونة تمثل ملاكًا يسقط نحو الأرض

بأجنحة محروقة، وتحت النافذة عبارة محفورة :
(النور لا يولد إلا من احتراق الظلام.)

السلام الداخلية ملتوية كأمعاء شيطان يعوي ، والجدران مرسومة
برموز لم تُخلق للعين البشرية. كانت القاعة الكبرى مستطيلة، عارية
من كل صنم، لكن مُغطاة على الأرض بنجمة خماسية رسمت بحبر
أسود قاتم، وفي مركزها حرف **A** بأنياب بارزة.



الشموع لا تضيء المكان، بل تظلمه أكثر، فتجعل من كل ظل مخلوقاً
يوشك أن يتكلم. وفي الركن الشرقي، جلس العجوز، ماجوس
الكنيسة، متكوراً على عرش حجريّ محاط بأصوات خافتة لا تأتي
من فمه، بل من المكان ذاته.

كان الماجوس كمن نُحت من رماد. عظامه بارزة كقضبان، وجسده كأنه لا يحمل إلا الروح التي تخرى عنها من عقود و لا يدري أنها متشبثة بجسده أكثر فأكثر. عينا الرجل متوهجتان كجمرة حقدٍ أزلية، ولحيته تتدلى كشجرة علق فيها ألف زمن. حين يتكلم، لا يُسمع صوته بل يُشعر، كأن أحداً ينقش الكلمات على الصدر لا الأذن.

قال دون أن يتحرك :

= أهلاً بكم، أبناء السقوط. جئتم لأنكم استحققتم الترقية.

ثم راح ينظر إليهم واحداً واحداً.

باولو... السلطة .. القسوة التي تُحب.

سامنتا... الجسد الذي صار مذبحاً.

مايكل... الذكاء الجشع للمال، العقل الذي يلتهم.

سينتيا... الانكسار أمام الغريزة الذي صار نشوة.

و فريد... الشكّ الذي أصبح مشعوذاً ..

رفع سبابته النحيلة نحو النجمة :

= أنتم الآن رؤوسها .. كل واحد منكم ضلعٌ في هذه المنظومة التي سنرفعها في سماء العالم .. الآن سيتم تعميدهم و ترقيتكم .

في تلك الليلة كانت المدينة تحت وطأة ضباب كثيف، كأن البحر قد زفر روحه على اليابسة، وغابت نجوم السماء خلف وشاح رمادي. أما داخل الكنيسة، فقد احتدمت النار. لا نار الخشب، بل نار القلوب التي اشتعلت بوقود الوعود الجديدة. خمسة أرواح تلامست دون أن تلامس، تقاطعت عند مفترق ليس للعودة منه سبيل.

جلسوا متقابلين حول الدائرة، وبينهم الماجوس العجوز، شيخ من زمن آخر، وجهه محفور كالصخر، وعيناه منطفئتان كأن فيهما ليلاً أبدياً، ورغم ذلك، كان حضوره أكبر من المكان. لم يكن يتكلم كثيراً، بل ينظر، وحين يتكلم، تنصت الأرواح قبل الأذان.

بدأ بالحديث، صوته كجرس مكسور يرنّ من قاع قبر :

= أنتم، رؤوس النجمة. لكل منكم شهوة كبرى، لم يعد يخجل منها، بل صارت وقوده. أنتم من عبدتم أنفسكم أولاً، ثم عبدتم من يعبدكم.

رفع يده المرتجفة، وأشار إلى مركز الدائرة، حيث حرف **A** يتوهج في مركز النجمة كشعار للإلحاد المتجذر. وحينها، ارتجّ الضوء في الشموع، كأن الهواء قد تغير.

ثم التفت إليهم واحداً واحداً...

سامنتا، تلك التي باعت جسدها لتمتلك وجهاً على الشاشة، رآها الماجوس كمرآة فارغة تنتظر من يملأها بالانحطاط. كان يعرف أن الشهرة التي تطاردها لم تعد وسيلة، بل صارت هوية. لم تعد تريد أن تكون ممثلة، بل معبودة، ولو من حجارة.

أما سينتيا، ذات الجسد الموشوم بأسماء الزبائن أكثر من أحلامها، فلمعت عيناها وهي تنظر للماجوس، كأنها وجدت أخيراً المذبح الذي يليق بتضحياتها. كانت تعلم أن المجتمع لفظها، فاختارت أن تتحول إلى سُمّ في عروقه.

فريد، المتكئ على كرسيه بتكاسل آلهة الليل، لم يكن يبالي، لكنه لم يكن غافلاً. عيناه نصف مغمضتين، كأنه في سباق بين الكوكابين والتنوير. كان يرى في الكنيسة مسرحاً جديداً، لا قواعد له، لا قضاة، ولا نار بعد الموت، بل مجداً في الدمار.

و مايكل، رجل البنزنس الذي صار يحكم مدناً من خلال صفقات، لم يخفِ ابتسامته الساخرة. هو لم يأتِ ليعبد أحداً، بل ليشتري مقعداً على طاولة الآلهة، حتى لو كانت سوداء. في عينيه، لم تكن هذه الكنيسة سوى شركة جديدة، من نوع لم يعرفه السوق بعد.

وأخيراً باولو... رجل المافيا، الذي يعرف كيف يُطعن وكيف يطعن، رأى في الماجوس شريكاً طبيعياً. هذا ليس ديناً جديداً، بل سلطة أقدم من الطوائف، قوة لا تطلب منك أن تتوب، بل أن تكون من أدواتها.

رفع الماجوس كأساً مظلماً من الفضة، نقش عليه تنين يلتهم الشمس، وقال :

= أنتم لم تعودوا بشراً. أنتم الآن سحرة. رتبتم لم تعد شيطانياً فقط، بل أصبحت تمثل إرادة الظل.

فرتب الكنيسة تتدرج على الشكل التالي :

- شيطاني : هذه هي الدرجة الأولى والأولية للأعضاء الجدد في كنيسة الشيطان.
- مشعوذ/ساحرة : هذه الرتبة تشير إلى مستوى متقدم من الالتزام والمعرفة، مع التركيز على الممارسة العملية للسحر والطقوس.
- كاهن/كاهنة : هذه الرتبة تدل على دور قيادي وشخصية مؤثرة داخل الكنيسة، مع مسؤولية توجيه وإرشاد الآخرين.
- كاهن أعلى/كاهنة أعلى : هذه الرتبة تمنح للأفراد الذين يظهرون تفوقاً في القيادة والتفاني، وغالباً ما تكون مرتبطة بمسؤوليات إدارية وتنظيمية.
- ماجوس/ماجا : هذه هي أعلى رتبة في كنيسة الشيطان، وهي
- مخصصة للأفراد الذين يمتلكون معرفة واسعة وفهم عميق

للفلسفة الشيطانية، وغالبًا ما يمارسون دور المرشد الروحي



ثم بدأ توزيع المهام الجديدة مع ارتقاء سلم الرتب ...

كل منهم أُعطي مهمة. سامنتا، أن تستدرج نجمات صغيرات في هوليوود إلى المنظمة. سينتيا، أن تفتح بيتًا سرّيًا للبغاء يُستعمل لاستقطاب رجال النفوذ. فريد، أن يوسّع دائرة التوزيع لتغرق جامعات الجنوب في السموم .. مايكل، أن يستثمر في مؤسسات خيرية تُخفي تحتها عمليات غسل أموال وعقود ظلال. أما باولو، فطلب منه التسلّل إلى صفقات السلاح الموجهة لأفريقيا، حيث الحروب تغذي الموتى وتُثري الأحياء.

وافق الجميع، لا تردد. بل شكر، وانحناءات احترام... وسعادة لم يُعلن عنها، لكنّها كانت تقطر من نظراتهم. كانوا يعرفون أنهم في طليعة عهد جديد، حيث يصبح الشرّ لا خطيئة، بل شرف.

في ختام الطقس، نفخ الماجوس الشمعة الوسطى، فغمر الظلام القاعة كعباءة أبدية. لم يتكلم أحد. خرجوا تباعًا، وكل واحد يحمل شرارةً جديدة تحت جلده، تشتعل حين يصل إلى المدينة.

و كانت نجمة الشيطان ترتفع، لا في السماء، بل في قلوبهم.

خرجوا من الكنيسة ولم يكونوا كما دخلوها. لم تكن الأبواب التي عبروها من خشب، بل من جلدٍ قديمٍ مأخوذ من الكتب المحرّمة، ومكتوب عليها بالأظافر لا بالحبر. لم يكونوا خمسة أشخاص، بل خمسة أنوية معتمة، تمشي على أرصفة الضوء، تنثر العتمة بخطواتٍ محسوبة.

في شوارع سان فرانسيسكو، حيث يلتقي الحداثي بالمحتضر، كان كل واحدٍ منهم يسير تحت مصباحٍ لا يُنير، بل يراقب.

مايكل عاد أولاً إلى ناطحة سحابه في دالاس. لكن شيئاً فيه كان قد تغيّر. جلس أمام شاشات السوق المالي كما يفعل كل صباح، لكن الشاشات لم تعد وسيلته الوحيدة لقراءة السوق. صار يشعر بالاتجاه قبل أن يُرسم. كأن المال نفسه بدأ يهمس له. في المرأة، رأى وجهه أكثر حدة، أكثر هيبة. ربما هي عيناه، أو ربما هو ظلّ القرين خلف عينيه. اتصل بمستشاريه وقال :

= نبدأ غداً بإنشاء صندوق استثمار جديد... باسم القديس، ونغسل فيه أوساخ هذا العالم تحت راية الفضيلة.

ثم ضحك... ضحكة سخرية لم يسمعها من نفسه من قبل.

سامنتا عادت إلى لوس أنجلوس، وعيناها تلمعان كقطبتين أمام فرائس واهنة. أول ما فعلته أنها مزّقت صورة والدتها من ألبوم قديم، ثم ارتدت فستاناً أسود يكشف أكثر مما يخفي، واتجهت إلى نادٍ خاص للمخرجين والمنتجين، كأنها ذاهبة إلى كنيسة أخرى.

كانت تعرف تماماً ما تفعل. لم تعد تحاول أن تُقنع أحداً بموهبتها، بل بقدرتها على نقل الرسالة الجديدة. في عينيها كانت نار طفولية أطفئت مراراً، لكنها اشتعلت الآن بطريقة لا أحد يستطيع إخمادها.

في كل مشهد أدّته بعد تلك الليلة، أدخلت رموزاً صغيرة : إيماءة يد، قلادة على شكل نجمة مقلوبة، كلمات عابرة في سيناريو تُكتب بلا

وعى لكنها تمرّ. لم تكن تمثّل فقط، بل تنقل إشارةً إلى القطيع... من صارت الآن رسولتهم.

سينتيا عادت إلى نيو مكسيكو، لكنها لم تعد سينتيا الفقيرة المتمردة. بل صارت الساحرة، كما كانت تحب أن تسمّي نفسها. افتتحت نادٍ سرّيًا للذة المطلقة، لا يخضع لأي قانون، فيه الجنس تجارة، لكن الروح هي الثمن الحقيقي.

لم تكن تبحث عن المال هذه المرة، بل عن السلطة التي تمنحها السقطة. كانت تؤمن أن كل شخص يسقط في فراشها، يسقط بعدها في يد الكنيسة. تدير المكان كما تدير راهبةً ديرًا، لكنها بدل أن تسمع الاعترافات، كانت تطلب الانحدار الكامل... كوسيلة تطهير، كما تقول.

فريد عاد إلى ميامي بشعره المبعثر، وقميصه نصف المفتوح، لكنّ في عينيه شيء من الصقيع. لم يعد يروّج المخدرات فقط، بل صار يُحوّل الشوارع إلى معابد متنقلة. علّم الأطفال كيف ينسون، كيف يكرهون القانون، كيف يتشككون بكل شيء.

أسّس دارًا للتجربة، كما أسماها: مبنى قديم فيه غرف مليئة بالضجيج، بالدخان، بالموسيقى الصاخبة المنحرفة، والمخدرات المجانية لمن يجرو. لم يكن يبيع السمّ فحسب، بل يزرع عقيدة الشكّ المطلق. جعل من المخدرات تعميّدًا، ومن الجرعة الأولى عهدًا جديدًا.

باولو، سيد المافيا، عاد إلى نيويورك... ولم يكن أحد يعلم أنه عاد. لم يُعلن ظهوره، لكنه بدأ يغيّر في الخفاء. زار أساقفة فاسدين، محامين عراهم المال، قضاة على حافة الظل. لم يقتل أحدًا، بل جعلهم يوقعون بمحض إرادتهم.

افتتح مؤسسة وهمية تحت اسم "السلام الأسود"، تدّعي نشر الثقافة والتعايش، بينما كانت شبكةً لتسليح فصائل متمرّدة في القارّة السوداء. كانت شاحناته تمرّ من تحت شعارات اليونيسيف، لكنّها محمّلة بأسلحة، وموقّعة من مسؤولين حقيقيين.

وفي مكان ما، غير محدد، في الطابق الأسفل لكن ليس في الأرض، بل في الوعي البشري، جلس الماجوس وحده أمام مرآة. لم يكن يرى وجهه. بل وجوههم الخمسة.

ابتسم عن أنياب صفراء وقال بصوت يكاد لا يُسمع :

= نجحنا... الآن لن يُطفأ الله، بل سيُنسى أكثر فأكثر ..

الفصل العاشر

مظلمات في وجه

العاصفة

طيب العود ..

في زمنٍ طغى فيه الزيف حتى على نبرات الصلاة، بزغ نجم **القس باتريك** لا من كنيسة بأول الفخمة ولا من منبر مرصع بالذهب، بل من صدع في الجدار، من فجوة في جدار القبول العام، حيث تنسلّ الحقيقة كخيوط ضوءٍ في عتمةٍ متعمدة. لم يكن واعظًا من أولئك الذين يطرّزون عظاتهم بالخنوع، بل كان لسانه كالمحراث يشقّ تربة العقول الجامدة، ولا يزرع فيها سوى بذور الوعي النقي.

حين اعتلى منبر كنيسته في تلك العظة الشهيرة عن خمس الشيطان ، لم يكن يرمي إلى الصدمة، بل إلى إيقاظ نائمين طال سباتهم. ما قاله لم يكن مجرد تفسيرٍ لرمزٍ منحرف أو تنديدٍ بعقيدة منحرفة، بل كان فضحًا صريحًا لوجه العالم المقنع، وتشريحًا دقيقًا للابتسامات المسمومة، وللأنشيد المزخرفة بعبارات التحلل، وللنقوش التي بدت أول الأمر زينة، فإذا بها مفاتيح لبوابات الخراب.

ضرب على وترٍ لا يحتمله إلا القلب العاري من الخوف. وكان طنين الحقيقة، في زمنٍ يصمّ أذنيه بالتترف، أشبه بطلقٍ ناري في معبد صمتٍ عتيق.

لم تمرّ العظة مرور النسيم، بل جاءت كالإعصار. تهشّمت الأقنعة، وارتبكت القوى التي لم تكن قد توقعت أن تُفضح رموزها بهذا الصفاء. اشتعلت ضده حربٌ لم تكن تقليدية. نيرانها كانت كلمات مشوهة، وذخائرها صورٌ ملفقة، وراياتها ادعاءات تُغزل في السرايب. وكل ذلك لم يكن صدئًا للعظة، بل انعكاسًا لمدى اختراقها.

وامتدّت السنة الهيب، تهدد وتتوعد، في رسائل مبطنّة وأخرى صريحة. لم تكن كنيسة الشيطان تهاجمه وحسب، بل كانت تكشف عن خوفها. فحين يرتعد الشر من صوتٍ مفرد، فذلك لأن فيه من

النور ما يفضح كل عتمة.. هددته بالموت .. حاولت تكميم فمه .. و كل شيء ما نفع ..

فالغريب في النار أنها لا تلتهم إلا الهش، أما الصلب فتصقله. ومع كل هجوم، كانت شهرة باول تتصاعد، لا كاسم، بل كندبةٍ مشتركة في ذاكرة من سمعوه. ازداد عدد القادمين إلى عظاته، لا بدافع الفضول، بل لأنهم لمسوا في خطابه خلاصًا خفيًا، لأنهم وجدوا في صدقه مرآة لا تخون انعكاسهم.

ولم تكن الكنيسة بعد ذلك بيتًا يُزار، بل تحوّلت إلى مزار داخلي في قلوبهم، مكان لا تحدده الجدران، بل الإيمان بأن هناك من ما زال يقول ما يجب أن يُقال.

في أحد القيامة، ومع صوت الأجراس الذي بدا وكأنه يقطر من السماء، وقف باتريك من جديد. كان الوقوف بحد ذاته حدثًا. الهواء نفسه بدا مختلفًا، محملاً برائحة ترقب لا تُشم، بل تُحسّ. المصلّون لم يجلسوا كجماعة، بل كأفراد أُعيد وصل أرواحهم بخيطٍ مشترك من الرجاء. لم يكونوا جمهورًا، بل شهودًا على نبضٍ مقدّس ينبض من بين شفاه الحقيقة.

وفي صعوده إلى المنبر، كان كمن يصعد درجًا داخليًا نحو جذرٍ دفين في الذات البشرية. لم يتحدث، بل سال من كيانه وعيٍّ خام، شعورٌ بأن العالم يترنح لا تحت وطأة الشر، بل من فراغ الخير.

كان حضوره ذاته موعظة، ليس في نبرة صوته، بل في الثقل الذي يحمله، في قدرته على أن يكون صامتًا دون أن يُفقد المعنى، وعلى أن يشير دون أن يصرخ، وعلى أن يُربك دون أن يصرخ.

في تلك اللحظة، لم يكن يقف على منبر، بل على حافة هاوية.

من خلفه الزمان المريض، ومن أمامه أرواح تتشبث بالخلاص. كان جسده واقفًا، أما روحه فقد كانت تحترق. لكنه لم يكن رمادًا،

بل طيبٌ عودٍ... ازداد عباً كلما ازدادت النار.

وهكذا، لم تكن تلك الموعظة مجرد كلمات تُلقى، بل كانت بمثابة طقس ولادة جديدة للحقيقة، للإيمان، وربما... للنجاة.

قال بصوته المفعم بالخشوع :

= عظتي اليوم تأتي كإجابات على أسئلة كثيرة بلغتني .. أسئلة البالغين كما هي أسئلة أبنائهم المراهقين و حتى الأطفال .. و سأنتظر فيها إلى ثلاث أفكار غاية في الحساسية و الأهمية :

النقطة الأولى ، هل الله موجود فعلاً أم أن للإلحاد وجهة نظر منطقية في رفض وجوده .. ؟

و النقطة الثانية ، لماذا الله يرزق البعض دون الآخرين ، و لماذا لا يرزق الجميع بدون حساب و هو يملك خزائن السموات و الأرض ؟

أما النقطة الثالثة ، لماذا يجعلنا الله نتعب قبل امتلاك النعمة ؟ هل هي رغبة في رؤية ضعف البشر ، أم شيء نبيل آخر نجهله ؟

صمت قليلاً في حين العيون كلها مصوبة عليه بثبات دون أدنى التفاتة و كأنه أسطورة الميدوزا الإغريقية ، ثم استطرد :

= نبدأ بأولى النقاط ، يصنف الملحدون بشكل عام إلى نوعين :

● **الملحد الموجب** : يستعين بنظريات علمية و فلسفية لإثبات عدم وجود الله ..

● **الملحد السالب** : يكتفي فقط بعدم الإيمان بوجود الله نظراً لعدم قناعته بالأدلة التي يقدمها المؤمنون بوجوده أو بطبيعة الأديان ..

و بناء على هذا التصنيف يمكننا تقسيم ذرائع الملحدين إلى نوعين بدورها :

أولاً تأتينا الذرائع العلمية التي تقدس المادة و تؤمن بأزلية الكون و بتطور الإنسان من خلية وحيدة : و الحقيقية الغريبة و المثيرة هنا أنّ جميع هذه الذرائع لا تتناقض إطلاقاً مع وجود الله ، فإلله :

- جعل العلم و بالتالي المادة مقدّسين و أمرنا باتتباع قوانينهما لتفسير ظواهر الحياة من حولنا ، فالله خلق الكون وفق قوانين علمية تجري بثبات مستمرّ و الدين ينبغي ألا يتعارض مع العلم كما أكد الخالق .. و لا ننسَ مقولة نبي الإسلام محمد الشهيرة و التي تختصر كل شيء عندما سأله أحد الناس : (هل أترك ناقتي و أتوكل) ، فأجابه : (اعقلها و توكل) أي اربطها و اتبع قوانين العلم ثم توكل على الله

- يصف نفسه في الأديان بأنه أزلي فيقول عن نفسه بأنه (الأول بلا بداية) فلماذا يسهل علينا الإيمان ببساطة بأنّ الكون أزلي بلا بداية و يصعب علينا الإيمان بأن خالق الكون أزلي بحد ذاته كهذا الكون بالضبط !؟

- لم ينفِ تطور الإنسان ، فالتطور البشري لا يتعارض مع فكرة الخلق ، بل قد يكون وسيلة إلهية لتكوين الإنسان و لا ننسَ أن الإنسان يتكون حرفياً من خلية وحيدة في البدء (البويضة الملقحة) و يمر خلال تطوره كجنين بمراحل يكون فيها قبيح الشكل و ناقص التكوين حتى يكتمل نموه تماماً و يولد أخيراً كطفل جميل محبب للقلوب ، أوليس هذا هو جوهر عملية التطور ؟! و بجميع الأحوال ما يهمّ فعلياً أنّ النتيجة النهائية للإنسان سواء خُلق دفعة واحدة أو عبر عملية تطورية هي كونه (في أحسن تقويم) و لا يمكن إطلاقاً للصدفة و العمليات العشوائية أن تنتج هذا المخلوق الفريد كمعجزة ربانية حقيقية بحد ذاته..

ثم تأتي ذريعة عدم الاقتناع بمضمون الأديان : لاشك أن الاختلافات الجوهرية في بعض النقاط بين الأديان و التشويه الذي طال نقاطاً أخرى كثيرة عبر الزمن على يد الحكام و كهنة الدين ، خلقت بذرة

شك كبيرة في نفوس بعض البشر تجاه هذه الأديان ، لكن هذا لا يبرر الإلحاد أبداً ، فلا يمكننا أن نغفل عن أربع حقائق هامة في هذا الصدد :

- تلاعب البشر بالأديان بعد موت الأنبياء كما قلنا و سوء فهم الدين يفسّر ان الجانب المظلم للأديان ، و القصور هنا هو قصور بشري و ليس سماوي ..

- للأديان وجه جميل آخر لا يمكن نسهه و تجاهله ، يبني الإنسان و المجتمع و ينظم شؤون الحياة في كافة النواحي و يربط وجودنا بغاية ذات معنى بعد الموت ..

- الأهم من ذلك كله أن الإيمان و التدين ليسا وجهين لعملة واحدة .. فإن أنت لم تعجب بمضمون الأديان فذلك لا يعني أن الله غير موجود بل هذه مغالطة كبيرة بحد ذاتها .. فيمكنك أن تكون مؤمناً بوجود خالق و غير متدين مثلاً !!

- لا ننسَ بأن الله رحيم و ديمقراطي مع عباده فلا يجبرهم على الإيمان بالقوة و التهديد كما يصور بعض كهنة الدين ، بل ترك للبشر حرية المعتقد ، بل حتى حرية عدم الإيمان بوجوده فقال بكل وضوح في القرآن الكريم :

(من شاء فليؤمن ، و من شاء فليكفر)

فالله واثق من (إبداع و إتقان خلقه) و من (عظمة العقل الذي منحه للبشر) و هذان العاملان كفيلاّن عبر التفاعل مع بعضهما بالوصول بالإنسان إلى معرفة خالقه و المسألة مسألة وقت و اختبارات مع بعض المعجزات و الحوادث غير المفسرة لا أكثر و التي تنتهي بالإنسان إلى الإيمان بوجود قوة غيبية خلقت الكون و تسير أحداثه كما خلقت كإنسان و تسير حياته الشخصية بنفس الوقت .. دون أن نغفل أهم حقيقة في الحياة بأن غاية الله ليست إقناع البشر بوجوده فهو أجلّ و أكبر و أعلى من ذلك ، بل بناء الإنسان و إعداد كي

يصبح مؤهلاً للحياة في دار البقاء بعد القيامة

و في الحقيقة و كختام لهذه النقطة ، ما من إنسان ينكر وجود الله بسبب أدلة منطقية دامغة يقدّمها بل أغلب حججه و ذرائعه لا تتناقض مع وجود الله بالأساس (من قوانين العلم التي تحكم الكون إلى التطور إلى التشكيك بالأديان) ، بل إلحاده قائم على خلفية :

- ظروف صعبة عاشها في طفولته أو في حياته اللاحقة بسبب مدّعي التدين فنفروه من الدين ..

- ظروف حياتية قاهرة مرّ بها فنقم على السماء و بالتالي رفض وجود الله ببساطة .. هكذا بلا دليل و لا دراسة على الإطلاق ..

- ظروف نفسية معينة تدفعه للتميز و الاختلاف عن محيطه ، أي يدعو للإلحاد من باب خالف تُعرف ، لا لأسباب منطقية و هذا البند نجده بكثرة عند المراهقين..

أي أن الإلحاد بالمحصلة موضوع نفسي وجداني بحث في أغلب الحالات أو بتعبير آخر هو عتاب من الإنسان لخالقه على ظروف معينة قاسية عاشها لجهله بحكمة الخالق و غاياته النبيلة التي تقف خلف كل شيء ..

ننتقل الآن إلى دلائل وجود الله ، في الحقيقة كل شيء في هذا الكون المعجز ينطق باسم خالقه و يوحدّه ، لكن قبل الحديث عن هذه الدلائل الكثيرة لا بد من التطرق إلى مفهوم هام للغاية و هو :

(أثر الله)

و هنا سأستلهم قليلاً من العلم لأتحدث عن موضوع فيزيائي يدعى أثر الالكترون ، و سأشرح باختصار تجربة علمية بسيطة و هي تجربة الأشعة المهبطية لغاية لاحقة بعد قليل :

(هي تجربة كهربائية قديمة أجراها الفيزيائي الإنجليزي وليام

كروكس باستخدام أنبوب مُفرّغ جزئياً من الهواء - أنبوب كروكس - وضع فيه قطبين كهربائيين معدنيين على الطرفين كمهبط (كمسدس مطلق للالكترونات) و مصعد (لوحة مطلية بالفوسفور) ، وعندما قام بتوصيل تيار عالي التوتر متردد بين القطبين ، لاحظ تألق لوحة المصعد الفوسفورية فأدرك أنّ ذلك بسبب انطلاق الأشعة المهبطية (الإلكترونات) من المهبط و اصطدامها بلوحة المصعد، و كان هذا دليلاً علمياً كافياً على وجود الالكترونات بالفعل)

فالعلماء لم يروا الالكترونات حرفياً ، لكنهم آمنوا بيقين أنها موجودة لأنهم رأوا آثارها المتألقة .. وهذا بالضبط ما يفعله الله مع خلقه ، لا يراه البشر فعلياً ، لكن ذلك لا يعني أنه غير موجود ، بل إن البشر يرون آثاره في كل حنايا هذا الكون ، و من هذه الآثار الواضحة (لكل من يستعمل عقله) و على سبيل المثال لا الحصر نجد أولاً ، **الإبداع في خلق الكون : سواءً من حيث :**

- تنوع مخلوقاته من أحياء (إنسان و حيوان و نبات و كائنات دقيقة) أو جماد (فضاء بأجرامه ، جيولوجيا بعناصرها) ..

- تنظيم سير شؤون الخلق بإتقان و وفق قوانين علمية مادية ثابتة تحكم كل شيء بدقة لا توصف ..

- تكامل هذه المخلوقات في وجودها و تفاعلها مع بعضها ، و هذا البند واسع للغاية و لا تكفيه موسوعات لا نهاية لها للإحاطة بعظمة الخلق المبهرة المتجلية في كل تفصيل من تفاصيل هذا الكون ..

ثانياً ، **الأحداث الخارقة للطبيعة (المعجزات) :** و التي يدعوها البعض جهلاً (صدفة) و التي تعجز جميع قوانين البشر عن تفسيرها ليبقى وجود الله وحيداً في الميدان كمفسر حقيقي لا شريك له لها ، و لا أشك أعزائي بأن كلاً منكم تعرض في حياته لهذا النوع من الأحداث الذي جعله يستشعر أنامل الخالق و هي تحيكها .. و بالطبع لا ننس هنا عشرات المعجزات للأنبياء التي كسرت كل قوانين العلم

كاثبات لوجود إله مسيطر على هذه القوانين و متحكم بها كما يشاء
كمشي نبينا يسوع فوق الماء مثلاً ..

ثالثاً ، **جسد الإنسان المعجز** : بتنوع و تعقيد و تكامل أجهزته و
أعضائه و بنيته الجزيئية ليجعل منه الله كياناً قادراً على الوجود
و الاستمرار و الاكتشاف و الاختراع و التطور و التفاعل مع غيره
و بناء حضارات و فك طلاس العلوم و الكون ، و بالطبع يتربع على
عرش هذا الجسد (العقل البشري) كلغز حقيقي لا نعرف شيئاً عنه
حتى اليوم يختزل الكون برمته بين تلافيفه ..

و المفارقة العجيبة في الموضوع أن الإنسان يرى صنعه لروبوت
إنجازاً إعجازياً لا يمكن أن يتم لوحده دون صانع (الإنسان) في
حين يرى الجسد البشري المعجزة الحقيقية أمراً عادياً صنعة الصدفة
و التطور العشوائي و لا يحتاج لصانع (الله) ، فلماذا هذا التناقض
في الطبيعة البشرية و الظالم للسماء !!؟

رابعاً ، **حقل الألغام** : فالحياة أشبه بالسير في حقل ألغام بتنوع و
غزارة المخاطر المحدقة بالإنسان فيه من قبيل التالي :

- الأمراض و الأوبئة ..
- الموت ..
- الكوارث الطبيعية كالزلازل ، البراكين و الأعاصير
- الحروب بمختلف دوافعها ، سياسية ، دينية ، توسعية ، نهب
ثروات ..
- الأزمات البيئية كالتصحّر ، ثقب الأوزون و التلوث..
- الأزمات الاقتصادية ..
- أذى البشر لبعضهم كالسرقة ، الاحتيال ، الاعتداء بأنواعه ، تشويه
السمعة ، المكائد ..

● الخسارة بأنواعها ، خسارة وظيفتنا أو دمار منزلنا أو فقد من نحب.

و رغم كل هذه الألغام نرى البشر يعيشون و يعمّرون و يقضون الأوقات السعيدة ، يحبون و يكوّنون عوائل و أصدقاء و يتفاعلون مع بعضهم ، يتعلمون و يكتشفون و يخترعون ، و تكون لديهم مواهب و وظائف و هوايات متناسبة مع كل منهم ، و لولا وجود خالق متحكم بالكون لما حدث كل ذلك ، و لرأينا الألغام تنفجر بالبشر تباعاً في كل لحظة فيموتون مبكراً و يقضون حياتهم في خوف و قلق و رعب لا يوصف ، لتكون الحياة عبارة عن فوضى و جحيم حقيقيين ..

خامساً ، معرفة الغيب : كما أخبر الأنبياء أقوامهم عن أمور مستقبلية حدثت بالفعل ، و لا تفسير لذلك سوى تواصلهم الفعلي مع قوة غيبية خالقة للكون و عارفة بالغيب و أسرار المستقبل ، من قبيل :

- إخبار النبي نوح قومه بقدوم الطوفان ..
- إخبار النبي صالح قومه ثمود بعواقب عقر الناقة ..
- إخبار نبينا يسوع لتلميذه بطرس بأنه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك في ليلة اعتقاله ..
- إخبار الرسول محمد لبعض صحابته بمصيرهم كقوله لأبي ذر الغفاري شبيه يسوع في قومه بالمكانة و الخشوع : (تعيش وحيداً و تموت وحيداً و تبعث وحيداً) و هذا ما آلت إليه أموره بالفعل ..
- علامات قيام الساعة الصغرى و الكبرى ، و التي بدأت بالتحقق تباعاً بالفعل ..

و غيرها من المعجزات ..

و أخيراً ، لدينا الغاية من الخلق : فهذه الغاية التي شرحها الله لنا

عبر أنبيائه مقنعة و منطقية و نبيلة لأبعد الحدود ، بأن تكون الحياة الدنيا مرحلة وسيطة قبل الحياة الآخرة في دار البقاء (الجنان) حيث نتعلم في هذه المرحلة :

● تقدير قيمة النعمة لنصونها في الآخرة : عبر فلسفة الإشباع و بداية الضياع التي سنأتي على ذكرها بعد قليل ..

● تقدير قيمة الأخلاق : كالشيء الوحيد الذي لا يمنحك إياه الله من خارجك بل تمنحه لنفسك من داخلك و يساعدك الله على ذلك عبر إعداد تجارب جاهزة و خاصة بكل إنسان حسب موقعه في الحياة ، لنكتشف في النهاية أن الخلق هو سرّ الخلق .. و بأن الله لن يطالبنا في الآخرة سوى بالتحلي بكمكارم الأخلاق ..

لذا عزيزي المصلي ، لا تجزع من شكك و لا تخجل من إلحادك ، فالإلحاد التام يسبق الإيمان التام بدرجة .. و بتفاعل الكون العظيم بخلقه مع عقل الإنسان العظيم بتكوينه ستتسطر أعظم ملاحم الإيمان في حياة كل إنسان بعثه الله إلى هذه الدنيا ، فإله لم يخلقك جزافاً و لن يتخلّى عنك يقيناً ، بل سيطرق بابك في اللحظة المناسبة ذات يوم من حياتك عندما تغدو جاهزاً لذلك ..

و من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

أنا لا أوّمن بالله لأنني لا أراه ..

بل أن نقول :

الله لم يُرَ بل بالعقل عُرف .. و آثار الله في هذا الكون كآثار الأشعة المهبطية التي أثبتت وجود الالكترونات دون أن نراها ، تجعلنا نوّمن يقيناً بوجود إله لم نره ..

و ألا نقول :

أنا أرفض وجود الله ، لأن بعض المتدينين و رجال الدين نقروني

من السماء ..

بل أن نقول :

الإيمان شيء و الأديان و التدين شيء آخر فلا يجب أن نخلط بينهما
و ألا نقول :

أنا ملحد لأنني أوّمن بالعلم و قوانينه ..

بل أن نقول :

العلم لا يعني عدم وجود الله ، بل إنّ الله خلق الكون وفق قوانين
علمية مادية ثابتة هو وحده قادر على كسرها بالمعجزات كما فعل
في مناسبات كثيرة ..

و في نهاية النقطة الأولى ، كل شيء من حولنا في هذا الكون ينطق
بوجود خالق له و عظمة خلقه هذا و إتقان تكوينه لكل شيء ، فإن
كنت عزيزي المصلي تشكك بوجود الله فلا بأس عليك ، الله بنفسه
أتاح لك هذا و شرّعه .. فالشك هو الرحم الذي يولد منه اليقين .. و
تذكر أن نبي الله موسى و هو يخاطب الله حرفياً على قمة الجبل و
قد بلغ من العمر الكثير ، طلب من الله آية كي يؤمن بوجوده، فسأله
الخالق : (ألم تؤمن بعد يا موسى ؟) ، فرد عليه موسى : (بلى ،
لكن ليطمئن قلبي) ..

فكيف بإنسان لم يطرق الله أبوابه بعد و لم يرَ من عظمة الخالق و
رحمته ما يشبع يقينه و يطفى حيرته ، لا بأس يا صديقي فذات يوم
سيطرق الله بابك كغيرك و في التوقيت المناسب ، لتصعد بنفسك
إلى قمة جبل الإيمان فيخاطبك الله و يقول لك : (آمنت يا بني ؟)
فيكون جوابك :

(بلى و اطمأن قلبي ..)

صمت القس قليلاً و شرب رشفة من كأس الماء أمامه ثم تابع ..
= ننتقل الآن إلى النقطة الثانية ، و كي أوضحها أكثر سأبدأ من
تجربة علمية أخرى لكنها فلسفية هذه المرة أجراها عالم الأخلاق
الأمريكي (جون كالهـن) عام **1986** م ، و تدعى تجربة :
(الكون 25) ..

فقد أنشأ جون ما يعتبر مدينة فاضلة للفئران في مختبره ، فيها رزقٌ
دائم و أمان مستمر و مطلق، ثم وضع فيها أربعة فئران، اثنين ذكور
و اثنين إناث ، و تركهم بعدها ليعيشوا و يتكاثروا كل **55** يوم و
هو يراقبهم و يدرس سلوكهم و يسجله حتى بلغ عددهم حوالي **600**
فأراً ، فما الذي حدث خلال تلك التجربة بحسب رأيكم ؟

جوابكم على الأرجح يفترض بأن الفئران عاشوا حياةً سعيدةً في
مجتمع مثالي مؤمن فيه كل شيء بال مسؤوليات أو حاجات أو هموم
أو مخاوف ! لكن الصادم في التجربة أن ما حدث في الحقيقة هو
العكس تماماً ، فمع قدوم الأجيال الجديدة من الفئران إلى الحياة و
التي ترعرعت في عالم متوفر فيه كل شيء بدأت الأمور التالية
بالتفشّي :

- العدائية من الفئران تجاه بعضها البعض ..
- الأنانية المفرطة خاصة عند الذكور و تخليها عن
أزواجها و أولادها ..
- قتل الأمهات لأطفالها ..
- سلوكيات اجتماعية و جنسية غير طبيعية من قبل كلي الجنسين ..
- نتائج غريبة و عجيبة تخالف المنطق و التوقعات ، أليس كذلك ؟!
- استمرت الأمور هكذا بتراجع أعداد الفئران حتى بقي فأر وحيد بعد

عدة سنوات ليموت أخيراً فتنتهي معه تلك التجربة الغامضة و
المحيرة و تنتهي أيضاً الأحلام بإقامة اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة
كتجربة على مجتمع الفئران ..

لكن لماذا حدث ذلك من وجهة نظر العالم جون العلمية ؟

في الواقع العالم جون لم يفسر النتائج بل وصفها فحسب فالعلم بحد
ذاته لا يستطيع تفسير تلك التجربة لأنّ نتائجها لا تعتمد على أسس
مادية ملموسة بل أنها تسير بعكس اتجاه التوقع العقلاني المنطقي ،
لكننا نجد الجواب الشافي عن أسئلتنا عند الدين و الروحانيات هذه
المرة .. في الحقيقة يمكن تفسير تلك النتائج ببساطة شديدة عبر جملة
واحدة فحسب :

(الإشباع و بداية الضياع)

و ترجمة هذه العبارة أنه بعد التعود على النعم لفترة من الزمن تفقد
قيمتها في نظر مالكها تدريجياً ليتلو ذلك طور الانحدار عندما يصل
الإنسان إلى مرحلة لا يقدر فيها ما بين يديه فيفقدته..

و لا غرابة أنّ ما ينطبق على الحيوان في هذه النقطة ينطبق أيضاً
على عالم الإنسان .. فجل الأمر ببساطة أنك يجب أن تجرب الحرمان
و الحاجة للشيء أولاً كي تقدر قيمته تماماً فلا تخسره لاحقاً و تحافظ
عليه ، أما من يولد في عالم متوفر فيه كل شيء بحيث لا يعرف
للحاجة طريقاً سواً كان إنساناً أو حيواناً (كفئران تلك التجربة)
فلن يعي تماماً قيمة النعم ليفقدوها عاجلاً أم آجلاً ..

فالعلمية نفسية بحتة بالمحصلة ..

و من وحي تفسيرنا الروحاني الأخلاقي هذا ، أستعين بالقرآن الكريم
مجدداً لأستشهد بآية أقدرها للغاية تلخص تجربة الكون **25** هذه
بمنتهى الروعة و البلاغة و تختصر مفهوم الإشباع بأفضل طريقة

ممكنة .. و لا تستغربوا من ذلك فأنا من عشاق القرآن بل إنني أحفظه كاملاً ..

تنص الآية على :

(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن

ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير)

و كما ترون كم هي آية مذهلة و معبرة بالفعل ، فالله يعلم ما لا يعلمه البشر و يعرف مصلحتهم أكثر منهم ، إذ يدرك كما يقول بنفسه أن الرزق الشامل للجميع سيؤدي إلى فساد الأخلاق بسبب الوصول إلى الإشباع الخطير الذي ذكرناه آنفاً و بالتالي بداية طور الضياع و فقدان النعم أي تماماً كما جرى مع الفئران في مدينتهم الفاضلة التي أعدها لهم العالم جون و بسط لهم الرزق فيها !! ..

قد يسأل سائل هنا ، لكن لماذا يرزق الله قسماً من البشر الكثير، في حين يقتر رزقه على قسم آخر .. ؟!

سؤال هام ، مشروع و منطقي بلا شك .. تجيب عليه آية قرآنية مذهلة أخرى متممة للآية السابقة يعتدل معها ميزان العدل الإلهي و تتحقق المساواة بين الجميع .. و تقول :

(و تلك الأيام نداولها بين الناس)

أي أنّ دوام الحال من المحال فمن هو في النور أو اليسر قد يمسي في الظالم أو العسر و من هو في الظالم أو العسر قد يصبح في

النور أو اليسر و هكذا كتوالي النهار و الليل في حياتنا و لا يبقى على حاله سوى الله تعالى ، فالحياة دورات من شد و إرخاء .. عسر و يسر و بين هذه الثنائيات يلقننا الله أبلغ المواعظ و أعظم الدروس.

و يمكننا اختزال كل ما سبق بالجملة التالية المبسطة التي تلخص

فلسفة الإشباع و بداية الضياع ..

(وفرة النعم تسبب البطر ثم فساد الأخلاق ثم

فقدان النعم)

فالبطر خطيئة لا توازيها خطيئة ، و كارثة حقيقية تعصف بحياة الإنسان ، و نظراً لخطورته و تأثيره السلبي على أخلاقه و إنسانيته نجد الله تعالى يقول في القرآن الكريم :

(و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم

تسكن من بعدهم إلا قليلاً و كنا نحن الوارثين)

فالبطر ذو نتائج وخيمة تستدعي غضب الله و تأديبه للبشر كي يعودوا إلى طريق الصواب و تقدير النعم بعيداً عن الإسراف أو التبذير ..

و هذا يفسر بدوره لماذا كان الأنبياء و القديسون زاهدين بالحياة و متقشفين، ألنهم يدركون بأن الغنى و الثراء يفتحان أبواب البطر على مصراعيه مع عواقبه الوخيمة ..

و خير مثال على ذلك هو بوذا الذي عاش أميراً مترفاً في شبابه يملك كل شيء، لكنه هجر كل ذلك لاحقاً و اكتفى بحياة الناسك بحثاً عن الاستنارة و فهم الحياة بصورة دقيقة و عميقة ، حتى أن كلمة

بوذا تعني حرفياً : (المستتير)..

وهنا يظهر مفهوم الصيام و أهميته في حياتنا ، طبعاً المقصود هنا هو الصيام عن كل متع و ملذات الحياة المادية منها و المعنوية ، و ليس الطعام و الشراب فحسب، فالصيام بحد ذاته شكل مبسط من أشكال اللقاح ضد الإشباع .. إذ أنك بامتناعك عن متع الحياة لفترة من الزمن كما يحدث في الصيام ، فإنك تقدر قيمتها تماماً و كأنك فقدتها بالفعل، فتدرك ما الذي ينجم عن الإسراف أو التبذير بها مما

يدفعك إلى احترامها و صونها بأشفار العيون ..

و كما أن للقاح الأولي جرعات معززة و داعمة لاحقاً ، كذلك الصيام يعود سنوياً لتدعم تجاربه بعضها بعضاً مما يرسخ فكرة احترام النعمة في نفوس الناس ..

و يمكن القول و بكل ثقة بأن الصيام هو أهم أركان الأديان على الإطلاق لأنه إن مورس بوعي و إدراك قد يجنب الإنسان طور السقوط في الحياة عقب الإشباع عندما يعي بنفسه تماماً قيمة النعم فيصونها محققاً غاية الإله الأسمى دون أن يحتاج الخالق أن يحرمه منها كي يعي قيمتها بحق .. أي أنّ الصيام هو ترياق التسمم بالإشباع.

و في الحقيقة تجربة الكون **25** ليست الأولى من نوعها في التاريخ بل سبقتها بزمان سحيق تجربة مماثلة نعرفها جميعاً ، بل أنها طبقت على الإنسان و ليس على الحيوان .. إنها تجربة آدم و حواء بعيد الخلق الأول في الجنة ، فقد عانيا بدورهما من تجربة الإشباع من نعم الجنة التي خلقا فيها و كانت تحتوي كل شيء حرفياً فلم يعرفا للحاجة طعماً ، فماذا كانت النتيجة ؟

تخلياً عن كل تلك النعم و عصيا ربهما عند أول أمر منه لهما بالابتعاد عن شجرة التفاح فبطرا و خسرا تلك النعم ليهبطا إلى الأرض مرتع الحاجة و الحرمان و الدروس الفريدة في تقدير قيمة النعم و التزام النصائح الإلهية النبيلة.. فالقصة ليست قصة تفاحة فحسب بل قصة رمزية تشير إلى العصيان بعد الإشباع من النعم الإلهية .. فلو قال لهما الله لا تقطفا تلك الوردة على سبيل المثال لقطفاها دون تردد .. و هكذا ..

و بالعودة إلى موضوعنا الأساسي حول الإشباع و بداية الضياع ، فهو برمته أشبه بدخول قطار حياة الإنسان في نفق مظلم ، في البداية

و قبل دخول الإنسان النفق يعيش في النور و يتمتع بمحاسنه و رونقه حتى يصل إلى مرحلة الإشباع منه فيصاب بالبطر و يبدأ طور الضياع ليدخل النفق المظلم فيتوه و تعصف به الحيرة و المرارة و الحرمان فيستذكر أيام النور بحنين لا يوصف و يقدره حق قدره مع التوبة و الطلاق من حالة الإسراف و التبذير للنعم و سوء تقديره لها في الماضي ، و عندها فقط يخرج قطار حياته من النفق إلى النور مجدداً و إلى الأبد لتبقى تجربة النفق درساً هاماً كبوصلة يستدل بها في قادم السنوات..

و مما يدعم تحليلنا السابق هو دراسة سلوكية نفسية اجتماعية أجراها العلماء حول معدلات الانتحار حول العالم ، فوجدوا أن أعلى معدلات الانتحار هي في المجتمعات المتطورة التي يتوفر فيها كل شيء للمواطن كالدول الاسكندنافية .. لماذا ؟ لأنهم بكل بساطة يملكون كل شيء فقد بلغوا بذلك درجة الإشباع فتلقفتهم غياهب الظلمة و الضياع و قادتهم إلى الإحباط و اليأس بعد فقدان النعم لقيمتها في عيونهم .. !

الله نبيل ، رحيم و كريم .. لديه خزائن السموات و الأرض و لو شاء لمنحنا إياها بغمضة عين دون أن يخسر شيئاً ..

لكن من سيخسر في هذه الحالة هو نحن ، عندما نفقد تقديرنا لهذه النعم فنضيع في متاهة الإشباع و الضياع ، لذا و من أجل مصلحتنا فقط لا غير يجعلنا الخالق نعيش الحرمان و الألم و الحاجة في الحياة الدنيا كي نقدر نعم الجنة اللامحدودة في الحياة الآخرة بعد الموت فنصونها بأشفار العيون .. و لدينا في قصة أبينا آدم و أمنا حواء عبرة و مثل بليغ .. لذا نجد الله يصف حياتنا في الدنيا في القرآن بالقول :

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه)

فالله لم يعدنا بغير المشقة في الدنيا من خلال دروس الحرمان المتنوعة ، حرمان المال أو الغذاء أو الصحة أو الأمان أو العائلة ... إلخ ، كي نستحق الراحة و الاستمتاع الأبدي في الآخرة بنعم نعي بعمق و قناعة قيمتها الحقيقية ..

أما حلم اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة التي حلم بها أفلاطون ذات يوم فلن تقام أبداً في هذه الحياة لأن فيها هلاكاً للجنس البشري على خطى تجربة (الكون 25) ، بل إنّ الله سيحرمننا جميعاً من متع و حاجات متنوعة حتى قيام الساعة ، لأنّ الدنيا ليست مكاناً للاستمتاع البحت ، بل لتعلم الدروس الهامة التي سنتسلح بها في حياة الآخرة الباقية بعد الموت ..

لذا من الأنسب بعد الآن ألا نقول أيضاً :

الله يملك خزائن السموات و الأرض ، فلماذا يقتر علينا رزقنا و يعذبنا بهذا الشكل ؟

بل أن نقول :

الله نبيل ، رحيم و كريم ، و جلّ ما يفعله في الدنيا هو تربيته الصالحة و تعليمنا الدروس كخطوة أولى وحيدة قبل أن يغدق علينا بنعمه اللامحدودة في الآخرة لكن على نحوٍ نحافظ فيه على هذه النعم بعيداً عن الإسراف و التبذير ..

و ألا نقول :

لقد قدمت لأبنائي كل شيء ، فلماذا لا يقابلون ذلك بالسلوك الحميد و النتائج المرضية ؟

بل أن نقول :

نحن من يخطئ بحق أبنائنا .. فالتربية المثالية و الصالحة لا تكون بتجنيبهم الحرمان ، بل بتعليمهم قيمة النعمة بطرقنا الخاصة كي

يحافظوا عليها فيكون الحصاد في النهاية خيراً و مناسباً ..

الحرمان و الرحمان لا يتشابهان بالحروف فحسب بل بأمور أعمق بكثير .. فالحرمان رحمة إلهية تجعلنا نقدر حقاً قيمة الأمور التي حرمتنا السماء منها كي نحافظ عليها لاحقاً عندما يهبنا إياها الله دون مقابل و للأبد .. كما قال نبي الإسلام محمد :

(صوموا تصحوا ..)

أي نصح جسدياً ، نفسياً و روحياً على حدّ سواء .. فلا أروع من الصيام كحرمان مؤقت من متع الحياة يجعلنا نقدر قيمتها حقّ قدرها طوال العام التالي حتى نضرب موعداً جديداً مع صيام آخر إلى أن تحفر فلسفة تقدير النعم في أرواحنا إلى الأبد مع التأثير التراكمي للصيام على امتداد سنوات عمرنا .. و لذا وجد الصيام في جميع الأديان مع اختلافات بسيطة في الطقوس ..

هل كل شيء واضح حتى الآن ؟

رد الحضور بصوت واحد :

= بلا شك ..

= ننتقل إذن إلى النقطة الأخيرة في عظة اليوم .. و نبدأ فيها من حيث انتهينا ، أي الصيام ، لكن ما أقصده هنا هو صيام من نوع آخر ، الصيام الفكري و هو مفهوم عميق و هام للغاية رغم أنه يقوم على مبدأ بسيط :

(بذل الجهد للحصول على الشيء يجعلك تشعر بقيمته أكثر و بالتالي تصونه و تحافظ عليه أكثر)

و هذا المفهوم ليس ببعيد عن مفهوم الصيام التقليدي ، فحرمان الإنسان من المذاقات بطيفها الواسع لفترة من الزمن يجعله يقدر قيمتها أكثر فيحافظ عليها و يستلذ بها أكثر .. لكن الصيام الفكري أشمل و

أعمق ، فهو يشمل كل شيء في حياتنا حرفياً مادياً كان أم معنوياً.

و خير مثال على هذا المفهوم هو المال ، فمثلاً بالمقارنة بين الأبناء لأباء أغنياء و فقراء ، نجد أن الابن الذي يأتي إلى الدنيا في عائلة غنية تمنحه كل شيء ، لا يقدر قيمة الأشياء و يعتبرها من بديهيات الحياة ، لذلك يمكنه أن يبذرها أو حتى يبدها بسهولة حتى يصل إلى الإفلاس ، على عكس الابن الذي يأتي إلى الحياة في عائلة فقيرة ، فيشعر تماماً بقيمة النعمة و المال و يشق طريقه في الحياة بجد و اجتهاد كي يخرج من بيئته القاسية هذه لكنه إن أصبح غنياً فسيعرف بالضبط كيف يصون ثروته و يحافظ عليها لاحقاً ..

و على المقلب الآخر للمادة نجد الدين ، فالابن الذي يولد في بيئة دينية قديمة كثيراً ما يستهين بهذه النعمة و من الممكن أن ينحرف في فترة من حياته عن جادة الصواب .. على عكس الشخص الذي تربى في بيئة فاسدة و ضالة ، فمن المرجح أن يهتدي لاحقاً في حياته و إلى الأبد لأنه بات يعلم جيداً قيمة الدين و الأخلاق في الحياة و أنها بهما أجمل بكثير ..

و لهذا السبب بالضبط إن راجعنا صفحات التاريخ و بحثنا في حياة العظماء كلهم فسنجد أن القاسم المشترك بينهم هو حياة صعبة في الشق الأول من العمر جعلتهم يفهمون حقيقة الحياة و قيمة النعم و الأشياء لذا تابعوا الشق الثاني من عمرهم بالالتزام و تحقيق الإنجازات بعيداً عن الإسراف و التبذير المادي أو المعنوي أو الوقتي .. فالسماء تسلك في تعاملها مع الإنسان سلوك القوس و السهم ، فهي بحرمانها للإنسان من بعض الأمور ترجع السهم إلى الوراء ثم بتعويضه بالنعم ينطلق سهم الإنجاز و تقدير النعم بقوة نحو الأمام ..

ننتقل إلى فكرة أخرى هامة للغاية قائمة على مقولة شهيرة :

(لا قيمة لشيء في متناول اليد ..)

و هذا المفهوم يتشابه مع مفهوم الصيام الفكري ، فالشيء الموجود بين أيدينا يمنحنا إحساساً وهمياً بأنه :

- بديهي ، و نستحقه بلا سبب ..

- دائم و أبدي ، و سيرافقنا إلى مماتنا ..

فيتولد لدينا يقين بأن كل ما نملكه في حياتنا واقع لا بديل له في فلسفة الحياة و خلق الإنسان ، لكن في الحقيقة الحياة ليست كذلك ، بل هي دورات من مد و جزر للنعم .. و لا يدري الإنسان متى يصحو من النوم ليجد الأمور قلبت رأساً على عقب و اختفت تلك النعم من بين يديه .. و عندها فقط سيشعر بالقيمة الحقيقية لتلك النعم ، كما يقول الطبيب و الأديب الروسي الكبير أنطون تشيخوف :

(لا يشعر البشر بقيمة ما يملكونه إن كان وفيراً ، فنحن لا نقدر ما نملك بل وحتى لا نحبه)

أو كما يقول المثل الشعبي الشهير :

(لا ندرك قيمة الشيء حتى نفقده)

و القاعدة العامة للسماء في تعاملها مع البشر هي :

(لا شيء تملكه حق لك ، فإما أن تثبت للسماء أنك تستحقه بتقدير قيمته و صونه و الحفاظ عليه ، أو أنك ستخسره ذات يوم لا محالة كي تقدر قيمته بالطريقة الصعبة و تسعى للحصول عليه مجدداً بمشقة و عندها ستحافظ عليه بنفسك بدون ضغط خارجي لأنك بذلت الجهد حتى امتلكته)

و هذه القاعدة تنطبق على كل مجالات الحياة (الأمان ، الصحة ، المال ، الدين ، العائلة ، العمل ، المنزل ، الوطن .. إلخ) ..

ننتقل الآن إلى خوارزمية إدراك قيمة النعمة .. إن نعم السماء علينا لا تعد و لا تحصى ، فكل شيء حرفياً من حولك عزيزي المصلي

تملكه بدون جهد و بالمجان هو نعمة مسؤول عنها أمام السماء ، و هي ببساطة تجربك لتري هل أنت أهل لاستحقاق هذه النعم أم لا ، فإن كان الجواب نعم أغدقت عليك بالمزيد ، و إن كان الجواب لا ، بدأت تشعر بانحسار النعم من حولك بدون مقدمات .. و لكي نؤكد للسماء أننا أهل لاستقبال النعم علينا اتباع الخوارزمية التالية :

- الإيمان التام أن لا شيء مجاني في الحياة : بمعنى أن النعم التي نملكها ليست شيئاً بديهياً من صلب الحياة و نستحقه بمجرد أن أتينا إليها ..

- إدراك أهمية النعم في حياتنا : و هذا أهم بند ، إذ متى فقد الإنسان الشعور بأهمية الشيء فهذا نذير شؤم بأنه سيفقده قريباً ..

- صون النعمة و الحفاظ عليها : و أبسط مثال على ذلك هو هدر الطعام ، فعلى الإنسان أن يأكل بقدر حاجته و في حال تبقى طعام إضافي عليه أن يوزعه على المحتاجين ..

- شكر السماء على النعم : فبالشكر تدوم النعم بل و تتضاعف أيضاً .. و من أجمل العادات المتبعة حول العالم في هذا السياق هو عيد الشكر في بلادنا أمريكا ، الذي يخصص فيه الناس يوماً لشكر السماء على نعمها ..

- تجربة الحرمان من النعم لفترة من الزمن: كي نعزز البنود السابقة كلها عملياً ، و هنا يأتي دور الصيام الفكري و التقليدي الذي يمنحنا تجربة مجانية لتحقيق ذلك .. و أحياناً تأتي هذه التجربة من السماء كابتلاءات عصيبة مؤقتة تمنح الإنسان دروساً بليغة في تقدير قيمة النعم ثم تنحسر ، كما قال البارئ في القرآن الكريم :

(و لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال

والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)

- الإحساس بالآخرين الذين حرمتهم الحياة من نعم نملكها بأنفسنا :
بأن نشاطرهم جزءاً من هذه النعم ، و أبسط مثال على ذلك هي
الصدقة .. فنحن بهذه الطريقة نعيش تجربة فقدان النعمة بدون أن
نفقدها على أرض الواقع بمقاسمة هؤلاء تجربتهم و مشاعرهم ..

- تربية الأطفال على هذه الخوازمية : فالمرء ينشأ على ما قد علمه
أباه ، و الطفل يأتي إلى هذه الحياة بقناعة أن كل شيء من حوله
بديهي و دائم ، و بأن حياته ستستمر على هذا المنوال مما يولد في
أعماقه شعوراً بالاستهتار بالنعم و التعامي عن قيمتها الحقيقية ، و
هنا يأتي دور الآباء في شرح الحقيقة لهم و تعليمهم البنود السابقة ..

و بذلك من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

الحياة هي كما تعرفت عليها طفلاً ، بكل نعمها التي تحيط بي ، و
ستستمر هكذا حتى أموت ..

بل أن نقول :

لا شيء بالحياة حقيقي أو مجاني .. الحياة تمنحك نعمة و تراقبك ..
فإن أنت قدرتها حق قدرها و صنتها ، أبقت عليها بل و ضاعفتها ،
و إن أنت استهترت بها و بذرتها انتزعتها منك و جعلتك تقاتل
بمفردك كي تحصل عليها من جديد ، لأنك في هذه الحالة فقط ستفهم
قيمتها بعد أن بذلت الجهد فتحافظ عليها من تلقاء نفسك.

في أرشيف التاريخ هنالك مقولة عظيمة للغاية :

(كنت أحزن لأنني لم أكن أملك حذاءً ولكنني توقفت عن الحزن
لما رأيت رجلاً بدون قدمين)

و هذه المقولة تشرح مفهوماً هاماً للغاية نختم به عظمتنا اليوم و هو
مفهوم التعاضد النفسي ، فروئيتنا لأشخاص من حولنا حرّموا من

أشياء نملكها يجعلنا نشعر بقيمتها و نصونها و نحمد الله عليها .. لذا
تذكر عزيزي المصلي بأن مقابل أي شيء لا تملكه هنالك مئات
الأشياء التي تملكها و لا يملكها غيرك .. و بالمحصلة السماء وزعت
النعم على البشر بالعدل لا بالتساوي ..

أعلم أنني أطلت عظتي اليوم ، لكن ذلك بناءً على رغباتكم للإجابة
عن أسئلتكم التي بلغتني .. شكراً لحسن إصغائكم و أتمنى أن يجد
كل فردٍ منكم شيئاً جميلاً في هذه العظة يطمس قليلاً من العتمة في
حياته ..

دمتم بخر ..

عيد قيامة مبارك ..

و يسوع قام .. حقاً قام ..

لم يكد القس ينهي عظته حتى ساد صمت مهيب، أشبه بخشوع الكون
قبل أن يُخلق الصوت.

ساد الوجوم على الوجوه، وكأن الروح صارت تُنصت لا الأذن،
وكان شيئاً من السماء انسكب على القلوب فأثقلها بنورٍ لا يُحتمل. لم
يُرد أحدٌ أن ينهض من مقعده، لا لأن الصلاة لم تنته، بل لأنهم شعروا
أن الزمن نفسه قد جثا راکعاً في هذه الكنيسة. لم تعد المقاعد خشباً،
بل جمراً يلهب الضمائر، ولم تعد النوافذ زجاجاً، بل مرايا تعكس
عورات النفوس.

كانت العظة أشبه بعاصفة ضوء وسط غابة من الشك.

لم تكن مجرد كلمات ناصحة تُكرّر كل أحد، بل كانت كشفاً؛ جرأة لم
يُعهد مثلها على منبر مقدس. كان القس لا يعظ فحسب، بل يُشهر
سيف الحقيقة في وجه جهل مقدّس. تحدث عن الله، لكنه تحدث أيضاً

عن غيابه في نفوسنا، وعن تلك الثقوب السوداء التي يملؤها الشيطان حين نتركها فارغة. تحدث عن الدين، لكنه لم يتحدث كمن يُكرر ما لقَّنه الآباء، بل كمن سافر في صفحات العلوم ، و بحار الديانات، وغاص في التيارات الفلسفية، ثم خرج ليخبرنا أين تلاقت الطرق، وأين انشقت.

كان حديثه عن الإله لا يطمئن، بل يُوقظ، وعن الشك لا يُدين، بل يشرح، وعن الإلحاد لا يُهاجم، بل يفكِّكه.

فتح أبواب العقل كما تُفتح نوافذ بيت مهجور على العاصفة، وكل سؤال مدفون في القلوب منذ الطفولة – عن العدل، عن الألم، عن المصير – خرج يصرخ وسط الضوء.

كان الناس يصغون كما لم يُصغوا من قبل، بعضهم بعيون دامعة، وبعضهم بقلوب دامية.

لم تكن خطبة، بل مواجهة. مواجهة مع الذات أولاً، ثم مع ما وراء الذات. كأن القس نصب مرآة كبيرة على المنبر، وقال لهم :

= أنظروا لا إليّ، بل إلى أنفسكم، فإن الله أقرب من قلوبكم من كلمات فمي.

لكن الأعظم لم يكن داخل الكنيسة، بل ما حدث بعد ذلك.

خرج المصلّون بأجسادهم فقط، أما أرواحهم فبقيت معلقة في القبة. لم تنتهِ العظة بانتهاء الصلاة، بل بدأت للتو.

فما هي إلا ساعات، حتى بدأت كلمات القس تنتشر كانتشار النار في هشيم الأثير. مقطع تلو آخر، ينتقل من هاتف إلى هاتف، من شاشة إلى شاشة، كأن الحقيقة استيقظت فجأة وقالت : كفى صمتاً!

انتشرت العظة في مجتمعٍ غارق حتى أذنيه في استهلاك بلا ضمير،

و تكنولوجيا بلا روح وفي أيديولوجيات صنعتها كنيسة الظلمة، كنيسة الشيطان، تلك التي لا ترفع صليباً، بل تُغلف عبوديتها داخل الذهب والإباحية والمخدرات، وتبيعها على هيئة "حرية" و"شهرة" و"قوة".

لكن ماذا تفعل الظلمات حين يشتعل عود ثقاب واحد؟
يكفي وهج بسيط، حتى ينكشف عريها. هكذا فعلت كلمات القس،
أحرق كل قناع.

لم تكن الكنيسة الصغيرة في المدينة مجرد بناء طوب وزجاج، بل
تحولت إلى شمس ساطعة تهدد سلطة الظلمة.
كأنها جرح مضيء في قلب وحش نائم. وكأن السماء قالت للناس :
لم أنسكم.

وفي أعين الشياطين التي تلبس ربطة عنق، وفي قلوب عبدة المادة
التي لا تنبض إلا بالعملات ، دوى صوت القس هادئاً و قاطعاً كنصل
السيف :

(كم أنت هشنّ أيها الشيطان، كم أنت فارغ... إن كانت كلمتي
تُرعبك، فكيف إذا تكلم الله بنفسه ؟)

الفصل الحادي عشر

عند ما يقرب الملاك

الرقعة

أحجار الدومينو تتهاوى ..

كان النجاح يتوهّج في أعينهم كنيزكٍ شقّ سماء الليل. باولو، سامنتا، مايكل، سينتيا، وفريد... كلهم أكملوا مهام المايجوس بدقة و اتقان و اخلاص لبافوميت ، و بدأت أعداد المنتسبين الى كنيسة الشيطان تتزايد كأرصدة متسلقة على جدران بنك الظلام .. تألّقت وجوههم بنشوة المنتصرين و شعروا بأن الكوكب رقعة شطرنج بين أيديهم يديرون فيه اللعبة بمشيئتهم ، لكنهم لم يدروا أن السماء كانت تراقب، لا بصمتٍ بارد، بل بحزنٍ محتدم كغليان البحر. غضبت حتى الثمالة، حتى سال الضوء من جفونها كالدمع. لم يكن عقابًا عاجلاً، بل تدبيرًا سماويًا بطيئًا... نُسجت انعطافات القدر كخيوط عناكب حولهم، لا تُرى ولكنها تضيق حتى الخنق.

كانوا يحتفلون تحت الأضواء، بينما فوقهم كانت الموازين تتمايل. لم يعلموا أن زمن الحصاد قد دنا، وأنّ اليد التي زرعت الخراب لا بد أن تذوق مرارة الثمر. وهكذا، بدأت الكفّ الإلهية تحرك القطع، خطوة خطوة، نحو مشهد لم تكتب فيه النجاة .

هكذا أخذت أحجار الدومينو في مملكة الظلام تتساقط تباعاً ..

بدأت الصاعقة بصوتٍ مكابحٍ حادٍّ على الإسفلت، وصراخ عجلاتٍ مزّقت نسيج الزمن في لحظة. كاتيا، زهرة باولو الوحيدة، كانت على الطريق، لا تحمل معها إلا عمرًا من الأحلام التي لم تكتمل و رجاء في إنسانية والدها انطفأ قبل أن يشتعل .. اصطدمت الحياة بالموت، وانهارت على طرقات الحياة بلا حراك فيما اجتمع الخلق من حولها يعاينون أضرار الحادث.

وفي غرفة الطوارئ، وقف باولو، لا بصفته رجل سلطة، ولا

كعزّاب السوق السوداء للأعضاء، بل كأبٍ أضناه الرجاء. رأى كاتيا، جسدها المرتجف يهمس بنورٍ لا يُرى. لم تتوسل إليه، لم تبك، لم تُشهر اللوم. قالت فقط بنبرة من يودّع الدنيا :

(أرى الضوء ساطعاً... أنا ذاهبة إلى الله، اتبعني أبي...)

ثم خيم السكون، سكونٌ أعمق من الموت. أصيبت بموت دماغي . تلك اللحظة كانت مرآةً صادمة... باولو، الذي باع آلاف الأعضاء، وقف عاجزاً أمام العضو الوحيد الذي لا يُشترى ولا يباع ، الدماغ... حيث تكمن الروح، حيث لا يبلغ التاجر ولا السمسار.

تحطّم من الداخل. انهار. كأن قلبه سقط من بين أضلعه ولم يعد. طافت به الذكرى كقاربٍ فقد المجذاف. أدرك أن الجاه لا يغيّر

القدر، وأن السيطرة كذبة رقيقة تمزقها قبضة السماء في ومضة. ومن تحت الرماد، استيقظ فيه شعور غريب، كان نائماً منذ ولادته : الخضوع. رفع عينيه إلى السماء، وفيها اعترف لأول مرة : الله حق و هو السلطة الوحيدة المطلقة ..

أما سامنتا، فكانت تعيش في قصرٍ من المرايا... كل مرآة تعكس شهرة، وكل انعكاس يخفي جرحاً. كانت تحلم بالأضواء منذ صباها، لكن الأضواء حين التهبّت، لم تمنحها الدفء، بل أحرقتها. استغلّت، ابترّت، صارت دمية بألف خيط، تحركها الأيادي في الكواليس. ألبسوها ما لا يليق، أجبروها على ابتسامات مستعارة، وسرقوا منها حتى الحق في الحزن. أصبحت روبوتاً بشرياً، تمثل في الحياة أكثر مما تمثل على الشاشة.

أدمنت الصمت، ثم بدأت تنهار. كانت تضحك أمام الكاميرا، وتبكي في الكواليس. بدأت تفشل، ليس لأن الموهبة رحلت، بل لأن روحها كانت تُسحب من أدوارها. فقدت اتزانها، وتلاشت طاقتها، وسرعان ما فترت شهرتها. لم تعد رغبة المنتجين، ولا معشوقة الجماهير، بل

صفحة مطوية في دفتر العار.

في ذروة اللمعان، تمنيت لو أنها مجهولة. لو أنها فتاة الحي البسيطة، بضحكتها العفوية وملابسها الباهتة. لكنها علمت بعد فوات الأوان، أن الشهرة التي تسلب منك ذاتك... ليست نعمة، بل لعنة ناعمة..

دخلت في اكتئاب عميق و اعتكفت في منزلها و بدأ الجمع ينفذ من حولها ، كأنها جيفة بلا حياة و لم تعد تفيد كولائم على الموائد .

وفي ناطحات المال، كان مايكل يحتسي النبيذ على شرفاته، يرقب العالم من علو، كمن يظن نفسه فوق القوانين و عراب السوق الذي أتقن قواعد لعبته . لكن الاقتصاد لا يحني رأسه للمتعجرفين. ظهر منافس جديد عملاق لشركته بين ليلةٍ و ضحاها ... وبالتزامن معه جاءت أزمة مالية عالمية لم ترحم أحداً.

شركاته العملاقة بدأت تنهار كأحجار دومينو. سقطت الأولى، تبعها الثانية فالثالثة .. حتى أعلن إفلاسه رسمياً. لم تكن الخسارة مالية فقط، بل وجودية. فالرجل الذي ظنّ نفسه مركز الكون، وجد نفسه خارج معادلة الحياة.

النرجسية كانت زنارته، تدفعه للانتحار... لكنه لم يملك الشجاعة. بقي في المنتصف، لا حياً ولا ميتاً، يدور في صحراءٍ من الفراغ. لم يكن يتألم لفقد المال، بل لفقد صورته أمام نفسه. إذ لا شيء أقسى من أن يُهزم المرء في عقر كبريائه.

في زاويةٍ نائية من الحياة، جلست سينتيا تقرأ نتائج فحصها الطبي الروتيني السنوي. الورقة بدت عادية، لكن السطر الأخير فيها كان قنبلة... إيجابية: فيروس **HIV**.. الايدز ..

تجمد الدم في عروقها. لم تكن تدري من أي لحظة تسلل المرض،

علاقة قديمة، ليلة عابرة، طيشٌ رومانسي مرّ كنسمة وترك فيها
إعصارًا.

تحطّمت. انعزلت. صارت جدران بيتها تابوتًا بلا نعش. تفكرت في
حياتها، في خياراتها، في صرخات أمها التي كانت تقول لها :
= عودي إلينا.

لم تسمع. لم تُصغ. كانت تظن أن القدر يتمدد على مقاس رغباتنا.
لكن القدر الرحيم حين يُرفض، يُصبح قدرًا مزلزلًا.
تمنت لو عادت بها الأيام. لكنها عرفت ، التآني في المعصية لا يمنع
السقوط، بل يجعله فقط.

أما فريد، فكان على لوح أمواج ميامي، يظن نفسه آلهة البحر، يرقص
على ظهور المدّ والجزر. كان جسده ممشوقًا، مغرورًا بمملكته
القائمة على الممنوعات... كسموم تُباع بابتسامة.

لكن موجة خائنة واحدة، صخرة خفية، وارتطام عنيف... جعلته
جسدًا بلا أطراف. شلل سفلي، نهائي. كأن الحياة قررت أن تُنزل
سيفها فجأة، وتُريه هشاشته المطلقة. لم يعد يستطيع التحرك، ولا
إدارة مملكته، ولا حتى تنظيف دموعه.

تهدمت مملكته كما تنهار أبراج الرمال تحت المدّ. أدرك أنه لم يكن
سلطانًا، بل مسكينًا تحركه الأوهام. العالم لا يُملك بالقوة، بل يُستعان
عليه بالرحمة... والرحمة لم تكن أبدًا في صفقاته السامة.. و في
رحم الشك بالاله الذي لازمه طيلة حياته أنتشت بذرة إيمان صغيرة
.. لكن أكبر الأشجار الباسقة بدأت رحلتها الطويلة من تلك البذرة ..

هكذا جاءت النهاية كصفعةٍ من السماء، أنيقةٌ في قسوتها. كل ما حدث
لم يكن عبثًا، بل ضربة واحدة من يد القدر العليا، رسمت على رقعة
الحياة لوحة لا يخطئها المراقب.

كانوا خمسة، تحركوا كجنودٍ فوق تلك الرقعة ، يظنون أنهم سادة القرار. لكنهم نسوا أن فوقهم لاعبًا آخر، لم يكن في عجلةٍ من أمره، بل يراقب... بصمت. وعندما اكتملت الخطوط، عندما وصلت أناملهم المتغترسة إلى سقف السماء، هبط الملاك بحركةٍ واحدة خاطفة... وقال :

كش مات.

لم تكن خسارتهم في المال، أو الجسد، أو الشهرة... بل في الوهم. الله يمهل ولا يهمل. وما من شجرةٍ نبتت من كبرياءٍ و بلغت ربها أو نجت من برق الحق. فتهاووا، قطعة قطعة، إلى قاع جحيمهم، ليحترقوا فيه بنيران قراراتهم كما أدمنوا إحراق الآخرين فيه .. فكل ساقٍ سيسقى مما سقى .

في النهاية، لم يبقَ من مجدهم سوى الرماد.

و الملاك ؟...

لم يصرخ، لم يلعن، لم يحتفل. فقط همس :

(الآن انتهت اللعبة و خسر الشيطان كعاداته بعد أن ظن نصره لا مانع له .. فهل هنالك بداية للعبة جديدة تنعكس فيها الأدوار)

الفصل الثاني عشر

تفسير البوصلة

عودة الابن الضال ..

لم تكن الصفعة الإلهية التي ضربت حياتهم مجرد سلسلة من المصائب؛ كانت نداءً. ضوءًا خاطفًا في العتمة التي طال بها الأنس، وموجة عارمة جرفت أقنعة القوة والسطوة، وكشفت هشاشتهم التي لطالما تجاهلوها خلف مرايا العُجب. خمسة... كانوا ملوكًا على عروش من دخان. تفرّقوا في طرق الخطايا، تلوّنوا بلون النار، رقصوا في مَواسم المجد المسموم، ثم سقطوا، واحدًا تلو الآخر، كأوراق الخريف حين تسحب السماء عنها يد الحياة.

في عزّ انكسارهم، كان صوت القسّ باتريك يرتفع، لا على أكتاف البشر، بل على جناح النور. لم يكن صوته أعلى من ضجيج العالم، لكنه كان أنقى، وكان يكفي. عظاته التي تُروى في مقاهي الغرباء وأفواه التائبين، صارت نوافذ مفتوحة نحو الرجاء. تتناقلها الهواتف و تحتضنها القلوب و الضمائر ..

عنوان عظة الأحد الجديدة : عودة الابن الضال ، لامس قلوب خمستهم دون استئذان. لم يقرؤوه... بل كأنهم سمعوه من الداخل، من ذلك الفراغ الذي نبت فيهم بعد السقوط.

لم يتشاور أحد، لم يتصل أحد بالآخر. كلٌّ سار وحده، نحو الكنيسة، وكأن السماء كتبت لهم موعدًا خفيًا. كانوا منقسمين بالألم، لكن البوصلة واحدة بالرجوع.

كانت الشمس في ذلك الصباح مختلفة. ناعمة ككف أم تلمس جبين طفلٍ عائد من الحرب. والهواء، رغم زمهرير الشتاء، كان دافئًا بما يكفي ليقول إن الله لا يغلق الباب إذا ما طُرق. دخلوا الكنيسة واحدًا تلو الآخر، كلٌّ بخطوٍ مرتجف، كمن يدخل أول مرة بيته الحقيقي.

باولو جلس في المقعد الثالث، مطأطئ الرأس، يحمل بيده صورة كاتيا، لا لبيكي، بل ليطلب الغفران. سامنتا جلست بعيداً، تنظر إلى الضوء المنسكب من النوافذ الزجاجية كأنه شلال يُطهر الذاكرة. مايكل، الذي لم يرفع رأسه منذ خسر كبريائه، جلس ينظر إلى الصليب كما لو أنه لأول مرة يرى شكله، لا كرمزٍ ثقيل، بل كيدٍ مفتوحة. سينتيا تقدّمت بخشوع، كانت الدموع تتسرب من عينيها دون مقاومة، كأنها تستحم بالنور لتنظف أدران جسدها. أما فريد، فقد دخل متأخراً، يحرك كرسيه المتحرك بيدين ناحلتين، لكنه كان دخولاً مهيباً... كمن يزحف نحو خلاصه الأخير.

وعندما التقت عيونهم، تاهت الدهشة في الوجوه. لم يكن لقاءً مخططاً. لم يكن صدفة. كانت سماءٌ رتبت كل شيء في صمت. وكأن كل واحدٍ منهم تلقى من الله دعوة، كتبت بالدمع وخُتِمت بالرحمة، ودُسَّت في ظرف غير مرئي في جيبه، فانقاد إليها دون أن يعلم... ليجتمعوا لا حول نجمة خماسية سوداء هذه المرة بل حول محراب ينادي عليهم بشوق و غفران ..

كانوا خمسة، تفرّقوا في الخطيئة، ثم اجتمعوا في التوبة.

دقّت الأجراس، لكنها لم تكن دعوة إلى الصلاة، بل نداء إلى العودة. جلسوا معاً، لا كما كانوا، بل كما صاروا: أضعف، أصدق، وأكثر تعطشاً للخلاص. وبينما القسّ باتريك يصعد درجات المذبح، شعروا أن كلمات العظة لم تكن تُقال لهم، بل عنهم. كل جملة كانت مرآة، كل فقرة كانت تذكيراً، وكل صمتٍ بين العبارات، كان يحتوي أنينهم المكبوت.

عودة الابن الضال... ليست مجرد عظة، بل مرآة للراجلين عن الحق، العائدين إليه حفاة، متعبين، محطّمين. والقسّ لم يكن يعظ، بل كان يُمسك بأيديهم من بعيد، ويقودهم بلطف نحو الجنة التي تركوها

يومًا مغرورين.

لم يطلب أحد منهم أن يعلن توبته. لم يكن في المذبح طقس، ولا في المقاعد اعتراف. كان الله وحده كافيًا، بفتحه أبواب السماح. ما عادوا أبناء الخطيئة... بل ضيوف النور.

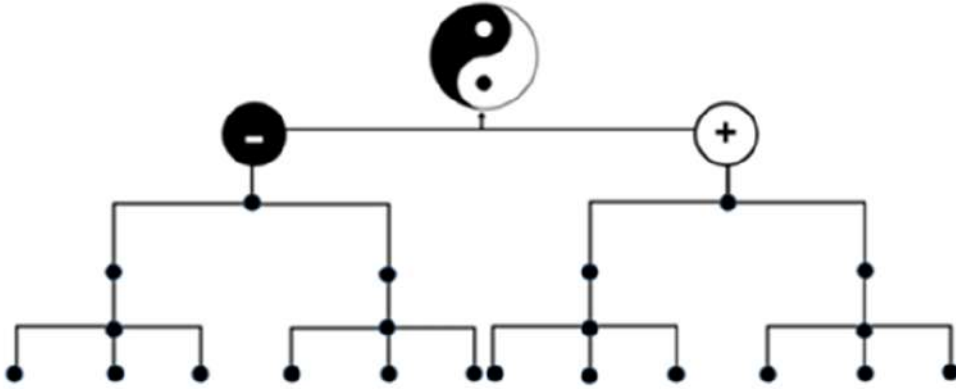
وقف القس باتريك بهدوءه و خشوعه المعهودين ، ابتسم في الوجوه المصوبة عليه و القلوب المتعلقة بكلماته القادمة ، فتح ذراعيه حتى اتساعهما و قال :

= أهلاً بكم إلى حضن الله مجدداً أبنائي .. الله لم يخلقكم كي يتخلى عنكم .. بل كي تعودوا إليه تائبين طاهرين .. كيف ذلك ؟ هذا ما سنوضحه أكثر في عظة اليوم (عودة الابن الضال) .. و ذلك باتباع خوارزمية الله التي تركز على مبدئين هامين للغاية و يجمعهما معاً لونان فقط و هما : الأبيض و الأسود لا أكثر ..

- الدنيا تحمل في رحمها توأم (جنة و جحيم)
- علاقة الإنسان بالسماء تشبه تماماً علاقته بأبويه ..
فهيا بنا نخوض غمار عظة اليوم الهامة هذه بتحليل كل محور على حدة باستخدام اللونين المقدسين (الأبيض و الأسود) ..

نبدأ بالنقطة الأولى ، الدنيا تحمل في رحمها توأم (جنة و جحيم) ، فإذا تأملنا أيماننا التي نعيشها على الأرض فسنجدها تتوالى بثنائية (النهار و الليل) أو النور و الظلام أو الأبيض و الأسود و هذا في الحقيقة ينسحب على كل شيء آخر فيها ، فالدنيا برمتها تتشعب إلى ثنائية (الموجب و السالب) .. ما بين حقول الورد و لهيب الصحراء .. أو الخير و الشر .. أو الراحة و التعب .. أو الأمان و الخوف .. أو السعادة و الاكتئاب .. ثنائيات لا حصر لها من التناقضات يبرز فيها كل ضد سلبي إيجابية الضد المقابل له .. تماماً كشعار الديانة التاوية الشهير (دائرة بنصفيين أبيض و أسود) ..

و في حين أن اللون الأبيض يحمل في طياته ألوان الحياة البهيجة كل لون بطعم مختلف (نجاح ، حب ، تحقيق حلم ، متعة ...) ، فإن اللون الأسود بطعم واحد و هو الألم .. فقد تعددت الأسباب : (مرض ، موت ، خيانة ، خيبة أمل ، تشرد ، حاجة ..) و الألم واحد ..



و هكذا فالدنيا كلها من حولنا عبارة عن جنة و جحيم و ينطوي تحت كل منهما قائمة طويلة من الإيجابيات الباعثة على السعادة أو السلبيات المؤلدة للألم .. أي أنها مرسومة بلونين فقط (أبيض بألوانه الزاهية و أسود) ..

و الفكرة الخطيرة و الهامة للغاية هنا أن الإنسان يرى من هذه الدنيا النصف الذي يعيشه في داخله ، فإن كنت مؤمناً قنوعاً مثلاً رأيت كل شيء باعثاً على الرضا و الإيمان ، أما إن كنت متذمراً و كافراً فإن كل شيء من حولك يعزز تذمرك و يبّرر كفرك .. و هذا ما يدعو البعض (قانون الجذب) الذي لخصه الفيلسوف الصوفي الكبير شمس الدين التبريزي بروعة بقوله :

((إن الطريقة التي نرى فيها الله ما هي إلا انعكاس للطريقة التي نرى فيها أنفسنا، فإذا لم يكن الله يجلب إلى عقولنا سوى الخوف و الملامة، فهذا يعني أن قدراً كبيراً من الخوف و الملامة يتدفق في نفوسنا. أما إذا رأينا الله مفعماً بالمحبة و الرحمة فإننا نكون كذلك))

أو كما أبدع شاعر عربي حكيم يدعى إيليا أبو ماضي بشطر البيت التالي :

((كن جميلاً ترى الوجود جميلاً))

فنحن في حياتنا نسقط صورتنا الداخلية على العالم من حولنا ، و إن كانت قلوبنا بيضاء رضيّة ، رأينا النصف الأبيض من الحياة (الجنة) يطغى على دائرة التاو كلها فيطمس السواد فيها ، و إن كانت قلوبنا سوداء حقودة تفشى السواد في الدائرة كسرطان فوجدنا الدنيا من حولنا جحيماً مستعراً .. و هذا ما يدعى في الطب النفسي (الإسقاط) ، كحال الزوجة التي تخون زوجها فتتهمه هو بالخيانة ، أي تسقط صفاتها عليه .. و الإنسان المنغمس في الخطيئة في الحياة يسقط خطاياهم على السماء فيعتبر الله قاصراً أو ظالماً ، و على الأرض فيصفها بكوكب يغرق في الخطايا و خال من أي روح طاهرة ..

باختصار الدنيا هي أنت .. فكما تكون ستكون حقيقة أمامك ..

واضح يا أبنائي ؟

= المصلون بصوت واحد : واضح تماماً ..

= ننتقل إذن إلى النقطة الثانية في عظة اليوم ، و هي أنّ علاقة الإنسان بالسماء تشبه تماماً علاقته بأبويه ..

فالإنسان في حياته على كوكب الأرض يسلك طريقاً مشابهاً لحرف **N** في اللغة الإنجليزية (صعود ، هبوط ثم صعود مجدداً) و هذا الطريق يختصر بدقة علاقته مع أبويه من جهة و علاقته مع السماء من جهة أخرى .. كيف ذلك ؟

تعالوا أعزائي نحلل كل مرحلة من هذه المراحل الثلاثة على حدة كي نوضح الفكرة أكثر ..

أولاً ، مرحلة الصعود ، فالإنسان يأتي إلى هذه الحياة طفلاً ضعيفاً خائفاً من كل شيء حوله كونه يجهله بالكامل ، لذا يستسلم كلياً ليدي الله و الأبوين كملاذ فطري له من العالم المخيف في عينيه ، و لأنهم يحبونه و يخافون عليه فسيقومون بحمايته من النصف الأسود (الجحيم) للحياة ، و يدفعونه إلى النصف الأبيض (الجنة) منها بحيث يعلمونه فنون و تقنيات التعامل معه لاقتناص كل بواعث السعادة فيه ، و مما يدعم الطفل بقوة على إتقان ذلك هي قوة الجديد و بهجته ، فما أن يبدأ الطفل بالوعي و يتعلم أساسيات الحياة الأولى ، سيشرع بخوض مغامرات حقيقية ممتعة من :

■ **اكتشاف الذات :** كيف يعمل جسده ؟ ما الذي يسعده و ما الذي يحزنه ، ماذا يحب و ماذا يكره ؟ .. كيف يستعمل الأشياء من حوله و يسيطر عليها فيوجهها لخدمته و إنجاز غاياته و تحقيق سعادته .. و غيرها من أسرار الذات البشرية

■ **اكتشاف المحيط :** من أشخاص كالعائلة و الأصدقاء و الغرباء و طريقة التفاعل معهم ، أو أمكنة كالمنزل و الحي، و كل شيء آخر من حوله ..

■ **اكتشاف الأرض :** بتنوعها الرهيب المذهل ، طبيعة ، مناخ ، تاريخ ، جغرافيا ، اكتشافات و اختراعات .. و القائمة تطول ..

■ **اكتشاف الكون :** فيذهل باتساعه الرهيب ، و ضخامة أجهزته ، بأعداد مجراته المخيف ، و بتنوع مجموعتنا الشمسية المدهشة ..

■ **اكتشاف السماء :** الاستدلال على وجود الخالق ، صفاته العظيمة ، غايته من خلقه و خلق الدنيا كلها ، ما ينتظره بعد الموت .. و ما يريد الله منه في الدنيا و الآخرة ..

هذا العالم المثير من الاكتشاف لكل شيء جديد يجعل الدنيا في عين الطفل أشبه بدخول عالم خيالي من الأحلام متنوع الجوانب ، و مما لا شك فيه بأن اكتشاف الجديد هو أكبر متعة في الحياة و تجلب

سعادة هائلة للدماغ البشري ، يضاف إلى ذلك بأن دماغ الطفل نظيف ، و يعمل كرادار لكّل ما هو جميل و إيجابي كما يحذف مباشرة كل ما هو قبيح و سلبي.. و هكذا يشب الطفل في عالم من البهجة الصرفة رغم هول المآسي من حوله التي يتجاهلها عقله .. وتكون حياته بفضل التزامه بتوجيهات الله و الأبوين عبارة عن دنيا من الأنوار الملونة الزاهية .. و هذا ما نجده حقيقة أمام أعيننا بضحكات الأطفال التي لا تتوقف من حولنا ..

صمت القس قليلاً و شرب رشفة من كأس الماء أمامه ثم أردف :
= ننقل الآن إلى المرحلة الثانية ، مرحلة النزول ، فمع اشتداد عود الشاب قليلاً تبدأ الأمور بالتغير بشكل سلبي ، فيبتعد رويداً رويداً عن الله و عن أبويه و ذلك بسبب مجموعة عوامل تدفعه بإرادته إلى مغادرة عالم النور و دخول النفق المظلم ، و يمكن إيجازها بعاملين رئيسيين :

◆ **التمرد :** بسبب اعتداد الشاب بذاته أكثر و إعجابه بنفسه و ثقته بأنه بات قادراً على فعل أي شيء ، فتبدأ رغبته بالاستقلال بحياته و قراراته ، و عيش الدنيا كما يهوى و يتمنى .. متعامياً عن حقيقة خطيرة بأنه لا يزال غراً بالحياة و بأن هذه الثقة زائفة.. و المشكلة الكبرى هنا تكمن في نقطتين حرجيتين :

● الإنسان يجهل أن حياته السابقة هي السعادة القصوى التي صممها له أبواه و خالقه بانتقاء و عناية ، فهو بلغ قمة السعادة بالفعل ، و لا شيء آخر ينتظره بعدها سوى النزول من هذه القمة .

● أن نصف المعرفة أسوأ و أخطر من الجهل .. و الشاب لا يزال في منتصف الطريق لمعرفة نفسه و الحياة بدقة .. لذا فقرارته كلها مشوهة و مغلوطة و ستقوده إلى الهاوية بعد بلوغه قمة السعادة ..

◆ **التعود ،** سرطان الحياة و قاتل متعتها ، فبعد سنوات من الاكتشاف

المثير للحياة يبدأ الشاب بالاعتیاد علیها و تفقد بواعث السعادة المتنوعة الكثيرة من حوله معناها تدريجياً ، فيتجه لتجربة شيء جديد .. و بحكم أنه ولد كطفل في عالم النور و متّعه الله و أبواه فيه .. فلن يتبقى أمامه سوى عالم الظلام ليخرجه .. مخدرات .. سهر .. شرب .. طيش .. لا مبالاة .. إلحاد .. إلخ ، و لأن الإنسان يرى العالم الخارجي على صورته الداخلية ، فسيرى الدنيا عندها جحيماً مستعراً يحترق بلهبه فيلوم السماء على ذلك ..

و هكذا بسبب هذا الخليط من التمرد و التعود تتدهور حياة الشاب ليصبح أشبه بملياردير امتلك ذات يوم ثروة هائلة من السعادة ثم بددها بجهل و رعونة هنا و هناك على توافه الحياة التي لا تفيد ، فيبدأ بالافلاس تدريجياً حتى ينتهي به المطاف في الحضيض مغموراً بالاكئاب و الضياع و الندم على تفريطه بسعادته و حياته السابقة ، و للأسف الإنسان لا يدرك قيمة الأشياء حتى يفقدها ..

و هنا يبدأ الحنين لعالم النور بغزو قلبه و اليقين بأن دروب الظالم مهلكة و لا تخلق أي ذرة من السعادة ينحفر في عقله و وجدانه ، ليدرك أخيراً بأن الله حقيقة لا ريب فيها و بأنه و أبويه حرصوا بعناية فائقة على تجنبه النصف المظلم الأسود من الحياة و منحوه عالماً واسعاً من النور عاش فيه أجمل الذكريات .. و بأنهم يدركون مصلحته أكثر منه ، فشتان بين حياته عندما أصغى لتوجيهاتهم و حياته عندما تمرد عليها و ظن نفسه مكتفياً بذاته و قادراً على معاركة الحياة لوحده ..

و هذا في الحقيقة تطور طبيعي لحياة كل إنسان ، حيث تشبه دورة القمر في سماء الليل حياة البشر ، يبدأ محاقاً ثم يكبر تدريجياً ليصبح بدرأ في كبد السماء و هنا يغتر الإنسان بنفسه و يزهد بذروة السعادة التي بلغها فيفرط بها بسهولة ، ليبدأ بالاضمحلال تدريجياً حتى يختفي في النهاية و يعود محاقاً من جديد فتتلاشى سعادته ..

هنا اغرورقت عيون الخمسة (باولو ، سامنتا ، مايكل ، سينتيا و فريد بالدموع) ، كأن كلمات القس تصف حياتهم بالضبط بأدق تفاصيلها عندما بلغوا القاع .. في حين تابع القس كلامه :

= و النقطة الأهم في عظتنا كلها أن هذا الضياع في غياهب ظلمات النفق الذي أدخل الشاب نفسه فيه ضروري لتطور روحه و لا غنى عنه أو بديل له على الإطلاق ، كما قال الفيلسوف الصوفي الكبير جلال الدين الرومي :

((لا تجزع من جرحك، و إلا فكيف للنور أن يتسلل

إلى باطنك))

فلولا وصولك إلى حضيض الحياة يائساً ، منكسراً ، كئيباً ، نادماً لما دخل النور الإلهي إلى قلبك بالفعل .. فليس المهم أن تعيش في النور ، بل المهم أن تدرك أهمية النور و قداسته كي لا تتخلى عنه لاحقاً في عالم البقاء بعد الموت ، هنالك حيث لا عودة من الخطأ و لا مجال للخطأ بالأساس ، و لا شيء يظهر قيمة النور و مدى أهميته كتجربة الظلام و وحشته .. لذا فعبروك النفق ضرورة ملحة لإدراك قيمة النور الحقيقية الذي عشته قبل النفق و خرجت إليه بعده ..

و هذه كأس على جميع الناس ذاقها أبواك في شبابهما و سيذوقها أبناؤك من بعدك أيضاً و جميع البشر على حد سواء ، فلكل مخلوق نفقه الخاص في حياته .. لكن الجميل في الحكاية أنك عندما تودع السماء و تدخل بإرادتك النفق المظلم فإن السماء لا تقول لك الوداع .. بل إلى اللقاء، فهي على دراية تامة بأنك ستعود إليها ذات يوم .. فبعد عيشك لسنوات في نور الشمس المشرقة بالتزامك بالتوجيهات ثم تلبد السماء بغيوم تحجب ذلك النور بتمردك تبدأ دموع الندم و الحنين تنهمر من عينيك كالمطر لتغسل روحك .. و هنا تأتي المرحلة الأخيرة في حياتك و هي تلاشي الغيوم و شروق شمس الله ثانية

لتضيء كل شيء كالنور في نهاية النفق فتبدأ بذلك المرحلة الأخيرة
و هي الصعود إلى نور السماء مجدداً ..

عندما يغرق الإنسان في مستنقع الظلمات و الحياة الفاسدة سيهوي
إلى القاع تدريجياً حتى يبلغ الحضيض و هنا لن يتبقى أمامه مساحة
للنزول أكثر ، فلا يسعه سوى الاستناد إلى القاع و الانطلاق مجدداً
نحو السطح بقوة و رغبة بالنجاة و الحياة .. ليخرج أخيراً من هذا
المستنقع و يتنفس هواء الحياة القويمة النقي و يتمتع بنورها البهيّ
الذي يضيء له الطريق من جديد .. فتستقبله السماء ضاحكة لتغني
له : أهلاً بمن أحجم عنا و تركنا حاقداً .. و اليوم يدنو برضا و
محبة و حبور ..

فالإنسان الذي غادر النصف الأبيض من الحياة و دخل النفق المظلم
بإرادته ذات يوم لائماً الحياة على سلبيات و سواد لا وجود لها إلا
في داخله جعلته يرى النصف الأسود من الحياة فحسب كجحيم
مستعر ، أدرك هذه الحقيقة بنفسه و غيّر من نفسه إلى البياض مجدداً
فعادت الدنيا ببيضاء ناصعة مغمورة بالنور في غمضة عين لينقلب
العتاب بشاشة و حبور .. و كما قال البارئ في القرآن الكريم :

((إن الله لا يغير ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم))

فعندما غيّر الشاب داخله من بياض إلى سواد تغير لون من حوله
بنفس الترتيب ، و عندما غيّر مجدداً من سواد إلى بياض عادت
الحياة إلى ما كانت عليه فعاد قلبه طفلاً كأول عهده و الدنيا جنة في
عينيه .. كما قال العالم بليز باسكال :

((الحكمة تعود بنا إلى الطفولة))

و لن ينال أحد الحكمة حتى يعبر نفقه الخاص في حياته و تتشرب
روحه بخلاصة تجربته هذه من حكمة تقول :

(الجنة و الجحيم يقبعان في أعماق روحك و أنت تختار على أي صورة تريد أن تكون و يكون العالم من حولك ..)

إذاً فحياة الإنسان عبر المراحل الثلاثة (أبيض ، أسود ، أبيض) هي رحلة في أعماقه لا غير.. فالدنيا لم تتغير و السماء لم تتبدل ، بل الإنسان أسقط داخله عليها فحسب .. لتنتهي رحلته بالخلاصة التالية :

((التمسك بالنور بقوة و يقين و رضا .. لأن الإنسان بات يعلم بتجربته الشخصية أن البديل الوحيد هو الظلام لا غير، حيث الألم و الضياع و لا شيء آخر ..))

و هذه هي خوارزمية الله السريّة في هداية البشر ..



و في الحقيقة عالم الخطيئة المظلم يشابه إلى حد بعيد بنية الثقب الأسود المظلم من 3 زوايا ..

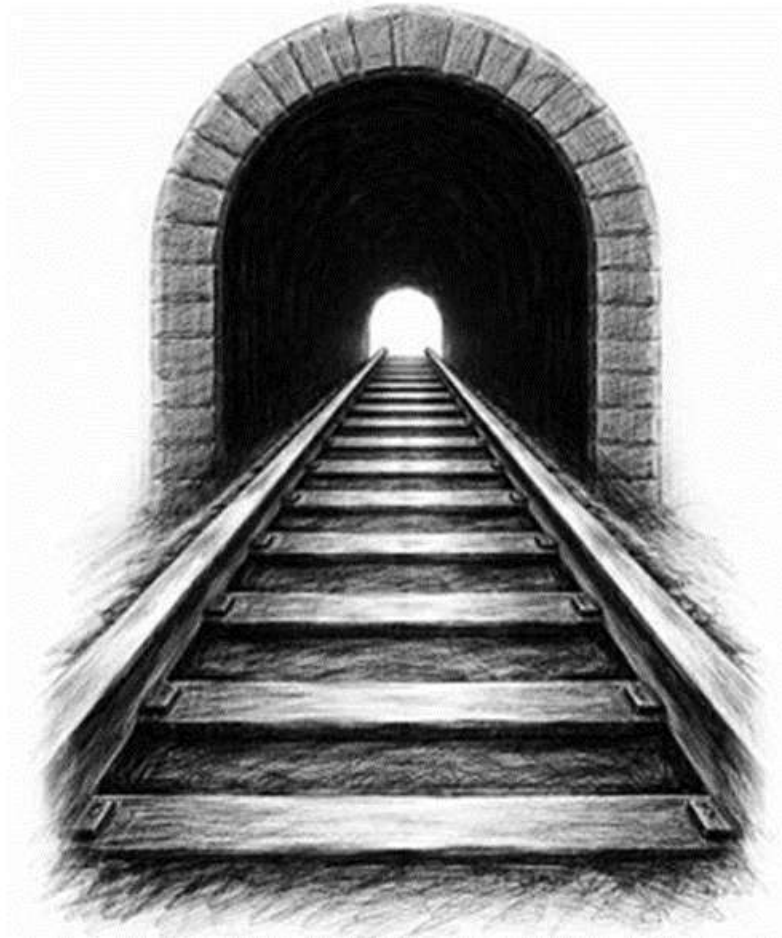
- الثقب يجذب الأشياء المارة بجواره بما فيها الضوء بقوة

كبيرة : و هذا حال دوامة الخطيئة ما إن يضع الإنسان قدمه فيها فستسحبه إلى ظلام قاعها الدامس ليغرق ضمير الإنسان كلياً ..

- للثقب منطقة تدعى (أفق الحدث) و هي المنطقة التي يبدأ منها تأثير الجذب إلى غير رجعة بمعنى آخر هي مسافة الأمان التي تفصل الأجرام السماوية عن الثقب الأسود .. و هو بالضبط مسافة الأمان

التي يجب على الأجرام البشرية ألا يتجاوزوها في الحياة كي لا يُجذبوا إلى ظلام الخطايا ، فالموضوع برمته يبدأ بخطوة أولى فإن استساغها المرء غرق في مستنقع الخطايا النتن أكثر على نحو غير عكوس ..

- **الثقب الأبيض** ، و هو البوابة الأخرى للثقب الأسود الذي تخرج منه الأشياء عبر ما يدعى علمياً **جسور أينشتاين روزن** ، و هو يعادل في الحياة مفهوم التوبة عن الخطيئة أي مغادرة ظلام الثقب الذي جُذب إليه .. و كما أن الأجرام تدخل الثقب الأسود من جهة في الكون لتخرج من الثقب الأبيض في جهة معاكسة ، كذلك الإنسان الذي يدخل ظلام الخطيئة يخرج من الثقب الأبيض إنساناً آخر مختلفاً جذرياً و قد تعلم الدرس الأهم في الحياة (**طريق الظلام مرير و بلا نتيجة**) ، و لا غنى عن الإيمان بالله لتحقيق ذلك فوحده من **يخرج البشر من الظلمات إلى النور** ..



إذن يا أبنائي ، من الأنسب بعد اليوم ألا نقول :

لقد اشتد عودي و كبرت .. و لم أعد بحاجة لتوجيه من أحد .. بل سأعيش الحياة كما أريد ..

بل أن نقول :

نصف المعرفة أخطر من الجهل ، فلا تغتر أيها الإنسان بنفسك في بداية شبابك و تظن نفسك قد بلغت منتهى الحقيقة و المعرفة .. بل التزم بتوجيهات خالقك و أبويك حتى آخر يوم من حياتك .. فإن أفلت أيديهم ضعت في متاهة الظلام ..

و ألا نقول :

لقد مللت من كل شيء من حولي ، و سأجرب أشياء أخرى في الحياة .. فلا شك بأن هنالك عوالم من المتعة تنتظرنني ..

بل أن نقول :

لقد خلقنا الله في الجنة منذ أبصرنا نور الحياة أطفالاً ، و لا ينتظرنا خارجها سوى الظلام و الجحيم الذين لا طائل منهما .. فاقنع بجناتك و نعم الله الهائلة و تمتع بها .. و اتعظ بتجربة أبيك آدم و أمك حواء ، عندما ضجرا من متع الجنة التي خلقهم الله فيها فقررا التمرد و العصيان على توجيهاته و خالفا أمره ، ليفقدا كل شيء و يدخلوا النفق المظلم بدورهما ..

بلونين فقط رسم الله لوحته المذهلة (الدنيا) كلها فجعلها بنصفين : (أبيض و أسود) ، و بنفس اللونين رسم خوارزمية بناء الإنسان من خلال مغامرة مثيرة من ثلاثة مراحل : أبيض ، أسود ثم أبيض مجدداً .. بحيث يرى الإنسان أحد نصفي الحياة تبعاً للونه الداخلي .. و بهذين اللونين أيضاً و من خلال خوارزمية الله تلك ، يصقل الله النور في داخل كل إنسان عبر المراحل الثلاثة السابقة (صعود ثم هبوط ثم صعود مجدداً) التي تبدأ بتوديع الجنان و الارتقاء في

أحضان الشيطان و تنتهي بعودة الإنسان إلى خالقه نقياً أبيض يتماهی مع بياض جنانه و يصبح مؤهلاً للعیش فیها ، یصون نعمها بأشفار العیون و يلتزم بتوجیہات خالقه برضا ، قناعة ، یقین و تسلیم ..
لینطبق علیه بیت الشعر الأیقونی التالی :

نزعتم عنك رداء كنت تلبسه

من التراب و عاد النور للنور

هذه هی عظة الیوم أبنائی الأعزاء .. حاولت فیها أن أجیب عن سؤال یدور كزوبعة فی عقول کثیرین منكم .. کیف تسیر حیاتنا علی هذه الأرض ؟ و لماذا وجد الظلام فیها ؟ ببساطة إنها تجربة عبور نفق ، تبدأ من الضوء ثم یسود ظلام دامس من الخطایا قبل أن یرج الإنسان إلى النور بتوبة و غفران ..

شکرا لحضورکم و اصغائکم ..

دمتم بخیر ..

و نلتقي فی عظة جدیدة ..

حین فرغ القس باتریک من عظته، عمّ الكنيسة سکوناً لم یکن من جنس الصمت، بل من جنس الانکشاف. لم یکن الحضور مجرد مستمعین، بل شهوداً علی انشقاق فی الوجود، لحظة انفلق فیها الوهم عن جوهرٍ عارٍ... وفاحت رائحة الحقیقة من بین الشقوق. کان صوته قد انطفأ، لكن رجع صداه ما زال یهمس فی الأذهان، کأن کل كلمة قیلت لم تُقل من فوق منبر، بل نُقشت مباشرة علی جدران القلب.

خمسة، جلسوا متباعدين فی الكنيسة، لكنهم كانوا متراصین فی المعنى. کل واحد منهم شعر بأن القس لم يتحدث عن البشر، بل عنه

شخصيًا. عن تلك اللحظة الأولى حين غادر الجنة، لا جنة السماء، بل جنة الفطرة، جنة الطهر الأول، حين اختار بإرادته أن يمدّ يده لثمار الحرام و يدخل نفق الخطايا المظلم .. لم يأت الشيطان حينها بسلاسل، بل بأمنية مغرية، وهمس رقيق، ورغبة كانت نائمة في أعماق النفس فاستيقظت.

وسمعوا، كأن كل منهم وحده في الكنيسة، أن السقوط لا يحدث دفعة واحدة، بل يتسرب كالماء في شقوق الروح، وأن من يغرق لا يصرخ فورًا، بل يضحك أولاً، ثم يدوي داخله الصمت.

فهم باولو أن من باع الأرواح لا يمكنه أن يشتري الروح. وتذكر جسد كاتيا الراقدة، بلا وعي، بلا عودة، بلا نفس، وأدرك أن كل ما جمعه كان غبارًا، وأن الله لا يُقايض.

و سامنتا، شعرت بأن العظة كانت شفرة فتحت بابًا قديمًا في صدرها. عرفت أن الشهرة كانت الجدار الذي فصلها عن نفسها، وأنها خرجت من جنتها حين باعت صوتها لغيرها، وجهها لغيرها، حتى لم تعد تعرف أي صورة لها حقيقية.

أما مايكل، فانكمش في نفسه كجندي خسر معركة لم يفهم سببها إلا الآن. أدرك أن غروره كان درعًا من كرتون، وأن الانهيار الذي ظنه نهاية العالم، كان بداية رجوعه إليه.

سينتيا، دفنت وجهها بين يديها. كانت العظة كالماء المالح يغسل جراحًا قديمة. كل خيبة، كل ليلة تظن أنها تملك نفسها فيها، كل تجاهل لصوت أمها الحنون يرجوها ألا تبيع جسدها فتخسر روحها ... عادت كأشباح لتقف أمامها، لا لتنتقم، بل لتقول : لقد فهمت الآن.

و فريد، بكرسيه المتحرك، شعر وكأن القسّ يرتّب على كتفه. لم يعد ذلك الجسد الذي يمتطي الموج، بل صار روحًا تحبو نحو الضوء، وعرف أنه هو، هو وحده من أغلق باب الجنة على نفسه، وسار نحو

جحيمة مختاراً، باسمًا.

ما إن انتهى القداس، حتى بدا الزمن مشلولاً، وكأن كل حركة خارجه صارت بطيئة عن قصد، لتتيح للقلوب أن تستوعب ما حدث داخلها. لم يتحركوا .. لم يتحدثوا .. بل جلسوا في صمتٍ كثيف، تتردد في داخلهم كلمات القس : أن الإنسان لا يُطرد من الجنة، بل يخرج منها برغبته، ويتبع شيطان نفسه لا حين يُجبر، بل حين يشتهي، ويغرق لا بفعل الموج، بل لأنه يطفو على كذبة.

كانوا يعرفون طعم الحضيض، لأنه مرّ بأفواههم جميعاً. لمسوه، سكنوه، وعاشوا فيه بزهو ظنّوه مجداً. ولكنهم الآن، على مقاعد الخشب، تحت قبة الكنيسة، في وهج البخور والصمت والنور... أدركوا أن الرجوع لا يتطلب خارطة، بل فقط دمعة صدق.

لم تكن العظة وعظاً. بل كانت تفسيراً لأسئلتهم المؤجلة، ومرآة عاكسة لماضيهم، ومفتاحاً أخيراً لبابِ ظنّوه مقفولاً إلى الأبد. فاكتشفوا أن الله لا يغلق باب التوبة، بل الإنسان من يغلق بابه الداخلي عن الله.

في تلك اللحظة، شعروا جميعاً بشيء واحد... أن الله لم يبأس منهم ، بل انتظرهم. أن السماء التي غضبت حيناً، كانت في الأصل تحترق شوقاً لعودتهم.

لم يطلبوا الغفران بعد، ولم ينطقوا بالتوبة. لكن قلوبهم فعلت. خفت أوزانهم، كأن ثقل الخطايا انزاح فجأة، كأن أرواحهم استحمت أخيراً بماء لا يرى.

ومن بينهم، دون كلمة واحدة، وُلد عهدٌ صامت :

ألا ينكسوا علة أعقابهم ، أن لا يغادروا الجنة من جديد، أن يسلموا زمام أنفسهم لله... بعد أن ضلّوا طويلاً خلف وهم اسمه الحرية، فإذا

بها عبودية للشيطان الذي تاجر بإمكانياتهم و صلاحياتهم ، وها هم
اليوم... أحرار من قيوده .

الفصل الثالث عشر

تغيير البوصلة

الحياة بطعم مختلف ..

كان المساء يسدل عباءته على المدينة كراهبٍ يطوي صلاته،
والسماء لا تزال تعبق بصدى العظة... عظة عودة الابن الضال ،
تلك التي لم تكن مجرد خطبة، بل طلقة نور شقت ظلمة العمر. خرج
الخمس من الكنيسة لا كما دخلوها، بل كمن يُبعث من موته الداخلي،
من أعماقه المطمورة تحت رماد الكبرياء والرغبة والضلال.

توقف الزمن حين غادروا العتبة المقدسة، وكأن الأرض نفسها
أعادت رسم خريطتهم. لا حوار، لا تخطيط. فقط نظرات ملأى
بالدمع والرغبة في البدء، لا من الصفر، بل من نقطة ما بعد الغفران.

كانوا يشعرون أن حياتهم القديمة أصبحت بعيدة، ضبابية، لا طعم
لها ولا معنى. قرروا، دون أن يتحدثوا، أن يعودوا إلى ذواتهم
الأصلية، أن يبدّلوا كل شيء : مظهرهم، نوعية حياتهم، عاداتهم،
دوافعهم، أرواحهم ذاتها. لقد قفزوا من قطارٍ مندفع كان يقودهم إلى
الهلاك، فركعوا على تراب النعمة، وقالوا في أعماقهم : من الآن
فصاعداً، نبداً ..

كانت تلك اللحظة إعلاناً داخلياً، خفياً، لكنه أقوى من أي قسم. لم تعد
الدنيا معركتهم، بل أنفسهم. لم يعد مجدهم في الصعود فوق رؤوس
الآخرين، بل في النزول تواضعاً أمام نور الحق.

عند عتبة الفقد، وُلد باولو من جديد. لم تعد صورة كاتيا تفارقه، لا
كذكرى حزينة، بل كمرآة تنظر إليه من عالمٍ آخر وتسأله : وماذا
بعد ؟

عاد إلى مملكته المظلمة، لكنه لم يدخلها كالملك، بل كالغريب العائد
ليرى الدمار. غرف التجارة السوداء، ممرات الأعضاء، المكاتب
المغلقة التي تفوح منها رائحة الجريمة المحاكة تحت الضوء... كل

ذلك بات غريباً عنه. وكأن الظلال التي كان يتقن العيش فيها، باتت تخنقه.

جلس أمام رجاله، أولئك الذين طالما نادى بهم كجنود الطاعة، وقال دون خوف : انتهت الحرب.

لكنه لم يُعلن الهروب، بل الثورة. حوّل منظّمته الإجرامية إلى شبكة خيرية، تمد يدها لا إلى القتلى، بل إلى الأحياء الذين كادت الأرواح تفرّ من أجسادهم.

أنشأ مصحّات مجانية، وعيادات لعلاج الفقراء، ومراكز لإيواء المشردين. صار المشرط أداة شفاء، لا اقتلاع. وصار باولو نفسه طبيباً جديداً... طبيباً لا يبيع الأعضاء، بل يرمم الكرامة، يحيك بسمته في وجوه الأطفال، ويمشي بينهم بهالة من الخجل المقدّس.

لم يعد يحكم بالسلطة، بل بالرحمة. أصبح رجلاً يقدّس الحياة لأنه فقدّها ذات يوم بين ذراعي ابنته... وتعلم من تلك الدمعة أن الإنسان لا يملك شيئاً سوى ما يقدّمه.

في جناح صغير من كنيسة باتريك، ارتسمت في الزوايا سكينة لا تشبه الأرض. كانت سامنتا هناك، بشعرها الذي قصّته بنفسها، مرتدية رداءً أبيض بسيطاً كاملٍ يُغسل من ماضيه، تنتظر من النافذة إلى حديقة المطر وكأنها تودّع جدران الأضواء.

بعيداً عن عدسات الكاميرات وصيحات الجمهور، وجدت نفسها للمرة الأولى. كانت تشبه طفلتها المفقودة في زحام الشهرة. أما سينتيا، فكانت تجلس على الأرض، تمسك مسبحة خشبية بأصابع مرتعشة، وكأنها تستعيد إيقاع النفس البطيء بعد رقصة مجنونة مع السراب.

كلتاها، في صمت الممرات، وفي خلوة الشموع، وجدتتا السلام. لا السلام الذي يُشترى، بل الذي يُمنح بعد خضوع صادق.

ترهّبتا لا فرارًا من الدنيا، بل عودة إلى الذات. أصبحتا تعيشان بين الصلوات والأنشيد والاعترافات. يساعدن الفتيات الصغيرات على الشفاء من تشوّه الحياة، يغسلن أقدام الموجهات، ويهمسن في أذن كل تائهة : الحياة تبدأ عندما تسقط، لا عندما تصعد.

كأنهما فهمتا متأخرًا، أن الطهارة ليست في المظهر، بل في الاختيار. فاخترتا الله، ورضيت به وطنًا، بعد أن خذلها كل وطن آخر.

الكرسي المتحرك لم يكن قيدًا، بل منصة. ومع كل عجلة يديرها بيديه الضعيفتين، كانت الرسالة تمضي. فريد الذي عرف البحر وجنونه، صار الآن سفيرًا للتيه الذي أنقذ منه.

جعل من نفسه مبشرًا... لا يصرخ، بل يروي. يتحدث إلى الشباب عن فخاخ السراب، عن ممالك السموم التي تُبنى على جماجم الطمأنينة. لم يكن يلوّح لهم بعقاب، بل يهمس لهم بحنان : اعرفوا النور قبل أن تتلمّسوه في العمى.

يتنقل بين المدن، بين الكنائس الصغيرة والمدارس، يحدثهم عن الخلاص الذي لا يُشترى، بل يُعاش، ويذرف الدموع في كل لقاء، لا ضعفًا، بل لأن الألم حين يُنطق يتحوّل إلى غفران.

لم يكن واعظًا تقليديًا، بل شاهدًا من جحيم الحياة، يقول لهم : أنا هناك كنت... وأنتم، ما زال الباب مفتوحًا.

وهكذا، أصبح فريد رسولًا... لا للكتب، بل للتجربة. جسده المتعب كان كافيًا ليعلم أن الهشاشة هي أقوى طريق إلى الله.

أما مايكل، فعاد إلى حجرته الأولى، تلك التي كانت تمتلئ بالحواسيب والخطط. لكن هذه المرة، لم يكن يخطط لمشروع يجني ملايين، بل لمنصة تمسّ الحياة.

أسّس موقعًا إلكترونيًا، سماه اليد الخفية، منصة تجمع تبرعات من أثرياء العالم، لا لشراء أسهم، بل لزرع بذور. دعم بها الكنيسة، والملاجئ، والمدارس الفقيرة، والأمهات الوحيدات، والمسنين المنسيين.

أعاد تشغيل شبكة علاقاته، لكن لا ليتباهى بها، بل ليستثمرها في الضوء. أصبح صوته مقنعًا، لا لأنه مدرب، بل لأنه صادق. تحول من متعجرف إلى خادم، ومن مهووس بالأرقام إلى عاشق للأثر.

كل يوم، كان يرى كيف تتحول الصدقات إلى حياة. كيف تضيء شمعة صغيرة غرفةً كاملة. وكيف ينجو إنسانٌ واحد، فيشعر مايكل وكأنه أنقذ الكون كله.. وبينه وبين نفسه، علم أن الربح الأكبر، هو أن تخرج من قبرك وأنت حيّ.

لم يكونوا قديسين، بل أناسًا سقطوا وجربوا الطين. لكنهم خرجوا منه لا برؤوس مرفوعة، بل بقلوب منحنية. وفي انحناءاتهم، رآهم الله... فابتسم ..

خاتمة :

كان اللواء إيميليو مولا القائد العام لجيش الشمال إبان الحرب الأهلية الإسبانية ، و أثناء مؤتمر صحفي مع صحفيين أجانب، سئل اللواء أي الطوابير الأربعة التي يتكوّن منها جيشه سيفتح مدريد ؟ عندئذ رد اللواء مولا قائلاً : أنّ هذه ستكون مهمة الطابور الخامس ، في إشارة ضمنية إلى الجماعات الفرانكية الموالية للملكية التي كانت تعمل في الخفاء داخل مدريد أي أنه كما الشيطان راهن على سقوط عدوه من داخله و ليس على قوته الخارجية على كبرها !!

هذه الرواية المتواضعة دعوى للجميع أن علينا تمنيع أنفسنا من الداخل و القضاء على الطابور الخامس في ذواتنا (الشيطان) أولاً و قبل كل شيء لنلتفت بعدها إلى قوى الأعداء من حولنا فنحن كفلاء بأنفسنا و الله كفيل بهم ، و هذا ما وعد الله عباده الصالحين ، كما يقول البارئ في الذكر الحكيم :

(إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان)

فالشيطان سيحاول التسلل إلى حياتك كحصان طروادة ، و عليك ببساطة ألا تسمح له بذلك بأن تحصن نفسك من إغواءات مخمس الشيطان :

(السلطة ، المال ، الغريزة ، الشهرة و الشك)



DNA



الرواية السابعة

... DNA

فصول الرواية :

- خطأ مطبعي ..
- زويا ..
- شفرة **DNA** ..
- خنجر القدر ..
- السرّ إذا تجاوز الاثنين شاع ..
- صراع مع الذات ..
- صدمة مدويّة ..
- ترند التاريخ ..
- لا حذر من قدر ..
- فسحة أمل ..
- لن تفهم نفسك إلا بعد أن تفقد كل شيء ..

الفصل الأول

خطاً مطبوعاً

اسمه أوريل كاين، رجلٌ في منتصف الثلاثينات، بلامح حادة تشبه وجوه التماثيل التي صُقلت على عجلٍ ثم تُركت نصف مكتملة. عيناه رماديتان، باردتان كصفحة بحيرة متجمدة، ووجهه يحمل تلك السكينة المريبة التي تسبق العاصفة الفكرية.

كل من يراه يدرك على الفور أنه يعيش في مدارٍ مختلف عن الآخرين ، لا يشبه العلماء الذين يتحدثون بثقةٍ ويضحكون في المقاهي القريبة من المختبر، بل كان أشبه برجلٍ من الماضي، من زمنٍ ما قبل اللغة.

في الممرات الصامتة لمعهد كارفر للبحوث الوراثية في سان فرانسيسكو، كان أوريل يسير بخطواتٍ دقيقة، متوازنة، كأنه يقيس الزمن بخطواته.

الموظفون الشباب كانوا يهمسون عنه : (ذلك الذي ينام في المختبر) .

فهو لم يغادره حقًا منذ ثلاث سنوات، إلا ليحمل ابنته إلى الأطباء أو إلى السماء المفتوحة حين يضيق البيت بأنفاسها.

ولم يكن يُرى يضحك. ربما ضاع ضحكه مع أول تحليل دم لابنته، أو ربما لم يعرف كيف يضحك أصلاً منذ عرف أن الجينات لا ترحم أحداً.

نشأ أوريل في بلدةٍ صغيرة قرب بورتلاند، أوريغون، في منزلٍ خشبيٍّ على حافة الغابة. أبوه كان نجارًا يبني توابعًا أحيانًا عندما يقلّ الطلب على الأثاث، وكان يقول له : (كل إنسانٍ هو قطعة خشب يا أوريل، تُقطع وتُشكّل حسب ما يقرره القدر)

أما أمّه، فكانت رسامةً في مشرحة المستشفى المحلي، تلوّن وجوه الموتى لتبدو أقل وحشةً في وداعهم الأخير.

ومن هذا التناقض بين اليدين - يد تصنع للحياة شكلها، ويد تجمل موتها - وُلد وعي أوريل بأن الجمال هشّ، وأن كل ما نحبه معرضٌ للتكسر في أية لحظة.

ربما لهذا درس **علم الوراثة** .. لأنه أراد أن يفهم كيف سبغت جيناته صفات والديه و أجداده عليه .

لم يكن العلم بالنسبة إليه مهنةً ولا حتى شغفًا، بل سؤالًا وجوديًا : لماذا نُصاب بالخلل ؟ لماذا نخون أنفسنا من الداخل ؟ ولماذا تحمل خلائنا سرّ فنائنا منذ اللحظة الأولى لتكوّنها ؟

في الجامعة، كان زملاؤه يرونه غريب الأطوار، لا يشرب القهوة، لا يحضر المؤتمرات الاجتماعية، ويكتب في دفترٍ خمري ملاحظات لا يفهمها أحد.

لكن أحد أساتذته وصفه ذات يوم بأنه : (رجلٌ يسكن في نصف قرنٍ قادم) .. وكان على حق.

فبينما كان العالم مشغولاً بالحمض النووي كمخزنٍ للمعلومات، كان أوريل يتعامل معه كنصٍّ مقدّس، كنصٍّ خفيٍّ لا يُقرأ بالأجهزة بل بالبصيرة.

ثم جاءت ابنته آفا كاين.

طفلة كأنها انعكاس الضوء على صفحة ماء، وجهها يحمل صفاءً يُخيف أكثر مما يُريح. في الأشهر الأولى بعد ولادتها، لاحظ أن بشرتها شاحبة إلى حدٍّ غريب، وأن جروحها الصغيرة لا تلتئم كما ينبغي.

و بعد سلسلة طويلة من التحاليل والفحوصات، نطق الأطباء بالحكم القاسي :

(اضطرابٌ خلقي نادر في نُخاع العظم، يجعل خلايا الدم البيضاء تنقلص ببطءٍ حتى تتوقف عن الدفاع. مرضٌ بلا علاجٍ معروف ، و حياةٌ محكومة بزمانٍ قصير، أشبه بخطأ مطبوعي في جيناتها أفقدها المعنى)

ذلك اليوم، حين خرج من غرفة الطبيب وهو يحمل ابنته بين ذراعيه، شعر أن الجاذبية الأرضية تضاعفت فجأة. لم يعد قادرًا على النظر إلى الناس في الشوارع، فقد صار كل وجهٍ بالنسبة إليه تذكيرًا بما سيفقده.

ومنذ تلك اللحظة، لم يعد العلم بالنسبة إليه سؤالًا بل معركة.

في منزله الرمادي المطلّ على خليج سان فرانسيسكو، أسس مختبرًا صغيرًا في الطابق السفلي. جدرانه تعكس ضوء الشاشات الزرقاء، وأزيز الأجهزة يملأ الليل كأن البيت نفسه يتنفس.

هناك، بين أنابيب الاختبار وأوراق الملاحظات، كان يجلس كل ليلة أمام شاشة الكمبيوتر، يراقب دمها تحت الميكروسكوب كما يراقب أبٌ وجه ابنته النائمة.

وفي الصورة المكبرة، لم يكن يرى خلايا فقط، بل رموزًا. حروفًا لا يفهمها أحد :

A ، T ، C ، G — الحروف الأربعة التي تبني الحياة و تخفي الموت ، أو ما تدعوها اللغة العلمية الجافة : (الأسس الآزوتية في **DNA** التي تترجم إلى بروتينات تبني كامل الجسم).

لكنه، بخلاف العلماء الآخرين، لم يرَها مجرد تسلسل كيميائي، بل لغة كونية تحاول أن تُفصح عن سرّها.

كان يشعر أحياناً أن هذه الحروف تتهجّى شيئاً يشبه القصيدة، لكنها ناقصة.

وكان يكتب في دفتره الخمري :

(ربما ليست الجينات هي من تصنع الإنسان، بل القصة التي تُروى من خلالها .. لو استطعت فقط أن أترجمها، حرفاً بعد حرف، لعرفت كل شيء)

كان قد فقد زوجته مارغريت قبل عامين، حين لم تحتمل صمته ولا هوسه الذي التهم البيت كله و يئست من نجاة ابنتها. تركته ورحلت بنرجسية ثم تزوجت ثانيةً ، وبقي هو مع آفا وكلبه العجوز داروين. لم يعد يعرف من العالم إلا صوت الأجهزة ونبض ابنته الضعيف.

وحين تنام بعد جرعة المورفين، كان يجلس قرب سريرها، يقرأ عليها بصوتٍ خافتٍ من كتابٍ علمي كما

لو كانت حكاية ما قبل النوم، ثم يدوّن على أوراقه :

(الخلية تكتب قصتها كما تكتب القصيدة ذاتها)

وذات مساءً، والضباب يغطي جسور سان فرانسيسكو الذهبية والطرقات تلمع من المطر، جلس في مختبره يراجع عينة دم جديدة. البرق يشقّ السماء، والأجهزة تلمع مع كل ومضة، والهواء يعبق برائحة الكهرباء المحترقة.

حين ظهرت على الشاشة خريطة التسلسل الجيني، لاحظ شيئاً غريباً : نمطٌ من التكرار في منتصف الشيفرة، كأن الجين يحاول قول شيءٍ منظمٍ لا مكان للصدفة فيه !!

لم يكن هذا التكرار موجوداً في العينات السابقة.

اقترب أكثر، قلب الشيفرة، أعاد التحليل، فبقي النمط كما هو : دقيقًا، متناغمًا، متكرّرًا بصرامةٍ غير بشرية.

وفي لحظةٍ نادرة من النشوة والذعر، أحسّ أن ما يراه ليس مجرد تتابع كيميائي، بل إيقاع لغوي. كأن الخلية تهمس له بلغةٍ خامٍ لم تُكتشف بعد.

كتب ملاحظةً سريعةً على دفتره :

(هل يمكن تحويل تسلسل الجينوم إلى لغة يمكن قراءتها ؟ هل يمكن أن تكون هذه الحروف الأربعة نظام كتابة لم نكتشفه بعد ؟)

وقف أمام النافذة، والضباب يغطي الخليج، فرأى جسور المدينة كخيوط فضية تمتدّ فوق الماء، شعر ببرودة الهواء تتسلل إلى جسده.

سقطت بعض قطرات المطر على الزجاج، فخلق انعكاسات صغيرة كأنها نجوم صغيرة.

نظر إلى انعكاسه في الزجاج، فرأى رجالاً غارقاً في صمتٍ عميق، لكنه أيضًا حيٌّ بشكلٍ لا يفهمه أحد.

قال بصوتٍ خافتٍ :

= ربما لسنا نحن من نكتب حياتنا ... بل نُكتب فينا منذ البداية، سطرًا بسطر، في لغاتٍ لا نفهمها بعد ..

ثم أطفأ الأضواء، وترك شاشات المختبر تومض وحدها كشموعٍ في معبدٍ علميٍّ مظلم، وجلس في كرسيه يحدّق في النقطة الصغيرة على الشاشة ، بدت له وكأنها قلب الكون كله.

المدينة، الضباب، والجسر المضاء، كل شيء صار يتنفس معه، كما لو أن سان فرانسيسكو كلها تراقبه ، صامتة، متأهبة، ومليئة بالأسرار.

الفصل الثاني

زوايا

كان الضباب يهبط على سان فرانسيسكو كما لو أنه كائن يفكر، يتنفس، ويتذكر.. يتمدد على الأبنية القديمة في نورث بيتش، يحتضن شرفاتها بإصرار العاشق الذي يخاف الفقد، ويضغط على الشوارع المبلّلة برائحة البحر المالحة ، حتى تبدو المدينة ككائن غارق في حلمه. في عمق هذا الحلم، مشّت زويا هاربر بخطوات تشبه الهمس، كأنها تمرّ عبر العالم دون أن تلامسه، أو كأنها تخاف أن تستيقظ منه.

كانت في منتصف عقدها الثالث، في العشرينات التي لم تتعلّم بعد أن تكون مرحلة عمرية فحسب، بل مفترقاً بين ضجيج الحياة وصمت المعنى. بشرتها الخلاسية كحبات البنّ المحمصة تشي بانتماءات متداخلة، كأنها ابنة الجنوب والشمال معاً. في ملامحها رقة لم تُفسدها التجارب، لكنها ليست براءة ، و في عينيها البنيتين بريق يشبه غروباً يتردد بين الأمل و الانطفاء.

زويا ليست جميلة بالطريقة التي تُبهر، بل بالطريقة التي تُقلق .. جمالها فكرٌ أكثر منه مظهر .. ومن يتأملها طويلاً يشعر أن وراء ابتسامتها المتحفظة سرداً لم يُكتب بعد.

قال الأديب الأرجنتيني **خورخي بورخيس** ذات مرة :

(كل إنسان هو قصة غير مكتملة يحاول الزمن أن يكتبها ثم يتعب في منتصف الطريق)

وربما كان يقصد بذلك فتاةً مثل زويا، التي تتقاطع فيها الحكايات ولا تكتمل أبداً.

كانت تسكن في شقة صغيرة تطل على الخليج، قرب شارع لومبارد المتعرج كأفعى متعبة. هناك، يتداخل صخب المدينة مع موسيقى الأمواج، وتصبح المسافة بين العالم الخارجي وداخلها مجرد نافذة.

أمها تدرّس الأدب الإنجليزي في جامعة المدينة، ووالدها، الذي لم تعرفه إلا على فترات، يُمخر البحار في سفن تجارية تعبر المحيطات أكثر مما تعبر الكلمات بينه وبين ابنته. كانت وحيدتهما، وحيدة أيضًا في داخلها، تعيش بين أم غارقة في الرموز وبحر ابتلع أبًا لم يعد .. لذا اختارت الاستقلال و العيش بمفردها فهي وحيدة بكل الأحوال ..

كل صباح، كان الضباب نفسه يوقظها برفقٍ غامض، كأن المدينة نفسها تخشى أن تجرح حلمها. تنهض بهدوء، تُعدّ قهوتها البنية كما لو كانت طقسًا مقدّسًا، ثم تجلس عند النافذة، تتأمل الجسر الذهبي وهو يختفي تدريجيًا خلف الستار الأبيض. في الخارج، كل شيء متحوّل. وفي الداخل، كل شيء ساكن حدّ الوجع.

زويا مدرّسة موسيقى في معهد صغير، لكن مهنتها ليست مجرد عمل؛ إنها طريقة لتنظيم الفوضى. كانت تقول في سرّها إن الموسيقى هي اللغة الوحيدة التي لم تكذب عليها يومًا. تدرّس لتلاميذها الأوتار والأنغام، لكنها في الحقيقة تدرّسهم كيف يُصغون لأنفسهم.

الکمان الحزين هو صديقها الأقدم، بل كائنهما الموازي ربما لأنها تجد فيه انعكاساً لروحها المتعبة. حين تمسكه، يتحول إلى قلبٍ آخر يخفق خارج صدرها. تعزف عليه كما لو أنها تترجم وجعًا لا يملك كلمات. وتقول لنفسها إن الحزن، حين يتحوّل إلى موسيقى، يصبح احتمالاً للنجاة.

كانت أكثر ما تحب أن تعزفه هو مقطوعة (Adagio for Strings) لصموئيل باربر، تلك التي يشبه انسيابها نحيبًا يخترق الزمن. حين تعزفها في المساء، تنسجم النغمات مع الزحف البطيء للضباب على المدينة، وكأن سان فرانسيسكو كلها تنحني لتستمع.

في الأمسيات الطويلة، كان الكتاب رفيقها الآخر. في مكتبها الصغيرة تصطف كتب الأدب و الفلسفة و الموسيقى، كأنها أرواح تراقبها

بصمت. هناك تقرأ لنيتشه، وتبتسم بتفاؤل حين تتذكر عبارته العظيمة :

(من يمتلك سبباً ليعيش، يستطيع احتمال أي صعوبات و عقبات في الحياة)

لكنها كانت تدرك أن السبب ليس واضحاً دائماً، وأن بعض الناس يعيشون فقط لأنهم لم يجدوا مبرراً كافياً للموت.

أحياناً تزور المكتبة العامة، تلك المبنية على طراز كلاسيكي بأعمدتها البيضاء العتيقة، التي يخترقها الضباب كثيراً فيصير الضوء ناعماً كخيوط من الحلم. بين الرفوف المزدحمة، تشعر بأن الكتب تنصت إليها. تسمع همس بورخيس في ذهنها مجدداً : (كل لحظة نعيشها هي حلم داخل حلم آخر) .. عندها، تنسى أين تبدأ الحياة وأين تنتهي القراءة، لأن كليهما في النهاية فعل تأمل في العدم.

رغم دفء المعرفة، كانت الوحدة تمتد فيها كجذر صامت. لا أصدقاء حقيقيون، لا لقاءات عابرة تشفي الفضول. كانت تفضل الصمت، لأن الضوضاء البشرية، كما تقول، (تشوّه اللحن الداخلي للروح) ، ومع مرور الوقت، صار العزوف عن الآخرين عادة أكثر من كونه خياراً. لكن هذه العزلة لم تكن خالية من الكآبة.

كانت تمر عليها لحظات تشعر فيها بأن ثقل العالم يضغط على صدرها، وأن اللاشيء يملأ كل الفراغات الممكنة. حينها، تتذكر كافكا، الذي كتب ذات مرة : (لن أكتشف الحقيقة إلا بعد أن أفقد كل شيء) ..

تدرك أن الفقد ليس نهاية، بل عبور نحو وعي آخر، نحو نوع من الحرية الموجهة .. و حدسها يخبرها أنها على موعد قريب مع حادثة

تفقد فيها كل شيء كي تبصر نور الحياة بصفاء .

وفي إحدى تلك الأمسيات التي بدا فيها الزمن متعباً من نفسه، خرجت زويا إلى ضفة النهر القريبة من جسر البوابة الذهبية.

كانت السماء رمادية، والبحر يعكس وجه المدينة كمرآة مشوشة. جلست هناك، والكمان بين يديها. بدأت المقطوعة التي تعرفها المدينة عنها، Adagio for Strings. انطلقت النغمات ببطء، كدموع متأخرة. الضباب احتواها كما يحتضن حلمًا خائفًا من الفجر.

في تلك اللحظة، لم تعد ترى العالم كما هو، بل كما تشعر به.

الضوء الباهت على صفحة الماء، الريح الباردة، الطيور العائدة إلى أعشاشها، كل ذلك بدا كأنه جزء من اللحن، من نبضها هي.

وتذكرت نيتشه مرة أخرى بمقولته العميقة : (يجب أن يكون في الإنسان فوضى، ليُولد في أعماقه نجم راقص) ..

ابتسمت بخفة، فها هي فوضاها تولد موسيقى، والموسيقى بدورها تولد نجمًا صغيرًا في هذا المساء الموحش.

لم تكن تعرف أن تلك المقطوعة ستكون بداية لشيء لم تخطط له أبدًا، لحدث سيجعل المدينة كلها تصغي إلى اسمها كما تصغي الآن إلى أنغامها...

لكن ذلك، كما ستعرف لاحقًا، هو ما يفعله القدر حين يجد أخيرًا من يعزف ألحانه بدلاً منه.

الفصل الثالث

ثغرة DNA

بينما كان الليل يهبط على سان فرانسيسكو بهدوء مثل شال من رماد، يلفّ المدينة ببطء، و يخفي خلفه أضواء الجسر الذهبي التي تتراقص كأنها نبضات قلب في صدرٍ بعيد ، كان أوريل كاين في المختبر الصامت في الطابق السفلي من جامعة ستانفورد، وحيداً أمام الشاشة الزرقاء ، تتراقص عليها شرائط متتابعة من النيوكليوتيدات : **A -**

.T - C - G

سلسلة لا تنتهي، تشبه عزفاً صامتاً بلغةٍ لم تُفك رموزها بعد.

كانت الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل، والهواء في المختبر مشبع برائحة الكحول والمعدن البارد.

وقف أوريل أمام العينة الرابعة من دم ابنته آفا، وضعها تحت المجهر الرقمي، و شرع يراقب كيف تتحلل الجزيئات لتكشف أسرارها البطيئة.

كان يحاول منذ عامين أن يفهم الطفرة التي جعلت ابنته تولد بخلل مناعي قاتل و مشوه ، كما لو أن الحياة نفسها نسيت أن تكمل فيه تفاصيلها.

قال مرة في محاضرة :

(الطبيعة ليست شريرة، لكنها نسيانٌ كبير. وما نحاول نحن العلماء فعله هو التذكير)

لكن تلك الليلة، لم يكن فيلسوفاً ولا عالماً ولا أباً فقط. كان شيئاً ثالثاً ، قلقاً من كل ما يخافه الإنسان حين يدرك أنه قد يفقد جزءاً من نفسه.

ضغط على زر التحليل الكمي، فامتلأت الشاشة بخطوط متشابكة، كأنها شيفرات موسيقية.

منذ أسابيع، بدأ يلاحظ تكرارًا غريبًا في أحد المقاطع الجينية، تتابع من النيوكليوتيدات يعيد نفسه بانتظام عجيب.

ثم نمط آخر، وكأن شخصًا ما يكتب بجملة ثم يصمت ليلاً طويلاً قبل أن يكملها.

رفع رأسه، حدّق في الظلام خلف الزجاج، حيث تنعكس صورته على السطح اللامع. بدا له وجهه كوجه رجل نسي النوم منذ قرن.

في تلك اللحظة، دخل أندريه بتروف الباحث الروسي، يحمل كوب قهوة بيد، ودفتر ملاحظات بيد أخرى.

قال بصوته الخشن :

= ما زلت هنا يا أوريل ؟ الناس تنام، والجنون وحده يسهر مع العلماء ..

ابتسم أوريل بلا حماسة :

= أتعرف ما المأساة يا أندريه ؟ أني لا أبحث عن اكتشافٍ بعد اليوم ... أبحث فقط عن سببٍ لأمنح ابنتي الغد ..

جلس أندريه إلى جانبه، يحدق بالشاشة. خطوط الـ **DNA** تتراقص بلا توقف.

قال بعد صمت بصراحته المزعجة التي اعتاد أوريل عليها :

= أعرف هذا الوجه، رأيته على كثير من الآباء قبل أن يفقدوا أبناءهم. لكن، ما الذي تراه هنا ؟ تبدو كأنك تتحدث عن موسيقى ..

= ربما هي كذلك ..

= موسيقى الجينات ؟

= لم لا ؟ انظر هنا ...

أشار إلى الشاشة ..

= هذا النمط يتكرر بمعدل يقترب من **1.618** ..

= النسبة الذهبية !!

= أجل .. صدفة ؟ لا أعتقد ..

أخرج أندريه نظارته، اقترب أكثر.

= أوريل، أحياناً تبحث العقول الكبيرة عن النظام في الفوضى لمجرد أنها تخاف من العدم ..

ردّ أوريل بهدوءٍ بارد :

= ربما، لكن لو كانت الفوضى صافية كما نعتقد، لما كرّرت نفسها بهذه الدقة. شيء ما في الجينوم يُعيد كتابة ذاته. كأنه ... يتذكر ..

فجأة دخلت ميران ، زميلتهم الباحثة التركية بهدوء، ترتدي معطفها الأبيض وقناعها الأزرق المتدلّي عند العنق. كانت أشبه بضوء يسير على أطراف أصابعه كي لا يوقظ شيئاً نائماً في الظلام.

= هل ما زلتما تناقشان الأرواح الساكنة في الخلايا ؟ قالت مبتسمة.

أجاب أوريل :

= أرواح أم رموز؟ لا فرق. كل شيء في الطبيعة يحمل صوتاً خافتاً ... ونحن نحاول فقط رفع مستوى الصوت ..

قالت ميران، وهي تقترب من الشاشة :

= أنتم تبحثون في الجينوم عن الحياة، وأنا أراها في الذاكرة التي لا تموت. الجينوم لا ينسى؛ كل خلية تحتفظ بأثر كل ما عشناه ..

سادت لحظة صمت.

و في تلك اللحظة بالذات، شعر أوريل أن كلمتها تلمس شيئاً غامضاً في صدره.

تذكر ضحكة آفا حين كانت تحاول عزف مقطوعة بسيطة على البيانو الصغير في غرفتها البيضاء.

كانت أناملها الصغيرة تخطئ في النوتات، لكنه كان يشعر أن الكون نفسه يبتسم.

التفت إلى ميران :

= لو كانت الخلايا تحتفظ بالذكريات ... فربما تحتفظ أيضاً بما سيأتي

ضحكت قائلة :

= أنت تتحدث كروائي، لا كعالم ..

= العلم والرواية وجهان لجنون واحد. كلاهما يبحث عن الخيط الذي يربط البداية بالنهاية ..

بدأت ميران تراقب تتابع الشيفرة على الشاشة، كأنها تستمع إلى قطعة موسيقية لا يسمعها أحد سواها.

قالت بعد لحظة تأمل :

= ماذا لو كانت هذه التكرارات ليست خللاً بل لغة ؟

أندريه ساخراً :

= لغة من أربعة أحرف ؟ مضحك ..

= اللغة التي بدأ بها الكون كانت من حرف واحد، أندريه ... صوت الانفجار الأول ..

صمت الجميع. الضوء الأزرق للشفرة انعكس على وجوههم كأنها نارٌ مقدسة من زمنٍ سحيق.

في زاوية الطاولة، كان دفتر أوريل مفتوحًا.

كتب عليه بخطٍ مضطرب :

(لو استطعتُ تحويل النيوكليوتيدات إلى رموز ... ثم إلى حروف،
ربما أسمع ما تقوله الحياة حين تكتب ذاتها)

قرأ أندريه السطر، هزّ رأسه قائلاً :

= جنون. هذا ما سيجعلك تفقد تمويلك، و اتزانك النفسي ، وعقلك،
إن لم تكن قد فقدت الأخير ..

أجابه أوريل بابتسامة حزينة :

= ربما يكون الجنون هو الحدّ الأخير بين الإنسان والحقيقة. ألم يقل
كافكا : (الطريق الحقيقية تمر على حبل مشدود فوق الهاوية ؟)

ابتسمت ميران، وكأنها تحفظ المقولة منذ زمن.

ثم قالت :

= كافكا كان محقًا، لكن لا تنسَ ما قاله نيتشه: (من ينظر طويلاً
في الهاوية، تنظر الهاوية إليه أيضًا)

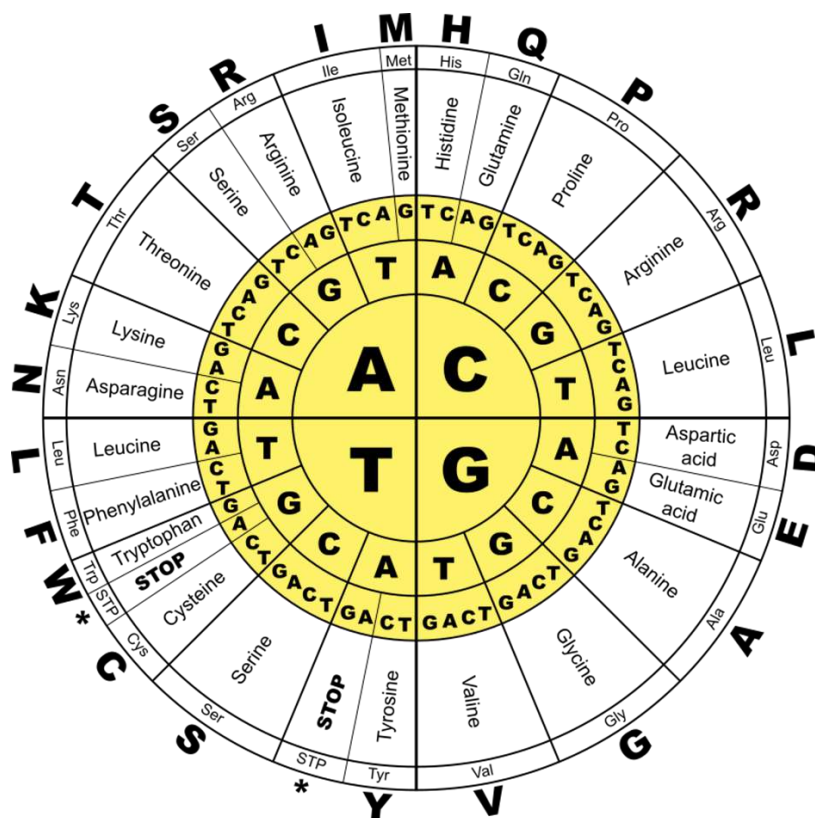
ضحك أندريه بصوتٍ خافت :

= إذن لنأمل ألا تنظر إلينا الليلة ..

قرب الفجر، خفّ الضوء في المختبر. أوريل بقي وحده أمام
الشاشات.

كان العالم كله خارج الجدران يتهاى ليوم جديد، أما هو فكان يحفر
في ليلٍ لا ينتهي.

فجأة خطرت على باله فكرة غريبة و مجنونة .. إن كل تسلسل من
الأسس الأزوتية يوافق اصطناع حمض أميني معين من الحموض
العشرين و يمكن ترميزه بحرف أبجدي مع إمكانية التكرار أحياناً ..
لماذا لا يستعين بالذكاء الاصطناعي كي يحاول ترجمة جينوم آفا إلى
كلمات و جمل محددة بناءً على ذلك ..



إنها خوارزمية بسيطة، مجنونة، بلا دلائل علميَّة، لكنها كانت كأنها نداء غامض في رأسه .. أدخل مقطعاً صغيراً من جينوم آفا إلى برنامج الذكاء الاصطناعي و طلب منه إيجاد رابط بين الأسس الآزوتية و الأحماض الأمينية و الأحرف الأبجدية بناءً على التسلسل الكامل للجينوم البشري لآفا لتكوين كلمة أو جملة منطقية

النتائج بدأت تظهر كسلسلة من النقاط و الأشرطة المتتابعة ... ثم فجأة، تشكلت على الشاشة كلمة واحدة :

(LIFE)

تجمّد الدم في عروقه.

حدّق في الشاشة طويلاً، غير مصدق.

هل كانت صدفة إحصائية ؟ خللاً برمجياً ؟ أم أن الحياة فعلاً تكتب
اسمها داخل نفسها ؟

همس في الظلام :

= هل تتحدثين إليّ يا آفا ؟

تسرّبت أول خيوط الضوء عبر النوافذ العالية، فغمرت وجهه
بشحوبٍ ذهبيّ.

فتح دفتره مجدداً، كتب سطرًا آخر :

(إنها .. إنها ليست شيفرة جينية ... إنها نصّ غير مترجم. الحياة
ليست علمًا فقط، بل أدب لم يُكتب بعد)

أغلق الحاسوب بيد مرتجفة .

في تلك اللحظة، لم يكن يدرك أن ذلك السطر سيكون بداية انهيار
العالم الذي يعرفه ، و لا أن كلمة **LIFE** الصغيرة تلك ستقوده يومًا
إلى مواجهة القدر نفسه وجهًا لوجه لفهم الحياة برمتها و رفع النقاب
عن أسرارها.

الفصل الرابع

خبر القدر

تجهّزت زويا بحقيبتها الصغيرة على كتفها كما لو كانت تحمل على ظهرها آخر ما تبقى من أحلامها. ألقت نظرة طويلة على شقتها في سان فرانسيسكو، تلك الزاوية التي احتوت فوضاها، وحدتها، وكؤوس القهوة التي لم تُغسل بعد، ثم أغلقت الباب بصمتٍ يشبه إيماءة وداعٍ بين عاشقين أنهكهما الحب.

لم تكن تودّع جدرانًا من إسمنتٍ وزجاج، بل جزءًا من ذاتها. فالمدينة كانت مرآتها، وضبابها كان غطاءً لروحٍ تخاف أن تُرى على حقيقتها.

عبرت بسيارتها على الجسر الذهبي الشهير، كانت الغيوم الممزقة تعكس اضطرابها الداخلي، كأن السماء نفسها تمشي فوقها بقلقٍ لا تعرف له سببًا.

لم يكن أحد ينتظرها، ولم يكن أحد يعرف أن رحلتها لم تكن بحثًا عن الطبيعة، بل عن ممرٍ للهروب من نفسها.

الطريق نحو جبال سييرا نيفادا امتدّ أمامها كلوحة رسمها عقلٌ بين اليقظة والحلم. الأشجار بدت كجنودٍ حراسٍ على بوابات الأسرار، والأنهار تلمع كعروق الأرض التي ما زالت تنبض بدم الحياة الأولى. في أعماقها، كان هناك شعورٌ غامضٌ بالتحرّر، وآخر أكثر غموضًا بالرهبة.

كل ميلٍ على الطريق كان انسلاخًا عن العالم القديم، وكل خطوةٍ نحو قلب الجبال كانت اقترابًا من حافةٍ لا تعرف إن كانت خلاصًا أم سقوطًا.

مع الفجر الأول، بدت الغابة كجنةٍ منسية لم يطأها الزمن بعد. كانت الرائحة الرطبة للصنوبر تختلط بأنفاس الريح، والعصافير

تبعث موسيقاها بين الأغصان العالية، فيما خرير الشلال القريب بدا
كنداءٍ أول للخلق.

جلست قرب الماء، قدماها تلامسان برودة النهر، تشعر بأن العالم
يغسل عنها غبار المدينة. أغمضت عينيها وتنقّست ببطء، كمن يتذوّق
طعم الحياة للمرة الأولى.

ذكّرتها تلك اللحظة بقول مارسيل بروست :

(الحياة الحقيقية لا تبدأ إلا عندما نتعلم أن نرى الأشياء البسيطة
بعينٍ جديدة)

ابتسمت، وشعرت أن ما كانت تبحث عنه ليس سوى هذه القدرة
البسيطة على الرؤية ، أن ترى الضوء وهو
يقبّل سطح الماء، والريح وهي تهمس بأسرارها، والوجود وهو
يعزف على وترٍ واحدٍ من المعنى.

أخرجت كمانها الصغير، وأطلقت أنغام الراهب الأحمر فيفالدي و
مقطوعته البهيجة (**لافوليا**) في الهواء. كانت الأصوات تتراقص
مع حفيف الأشجار، وتتمازج مع صدى الشلال حتى بدا أن الطبيعة
كلها تصغي إليها و تشاظرها الفرح . في تلك اللحظة، تذكّرت قولاً
آخر لنيتشه :

(نحن نملك الفنّ كي لا نموت من الحقيقة)

ربما كانت الموسيقى هي الطريقة الوحيدة التي استطاعت بها زويا
أن تبقى نفسها حيّة، أن ترتّب الفوضى التي تعصف بها منذ زمنٍ لم
تعرف متى بدأ.

عزفت وكأنها تكتب سيرة ذاتها في نغمة، وتبكي بلا دموع.

و مع غروب الشمس، أضرمت النار قرب خيمتها، وقرأت من رواية (متاهة الأرواح) لكارلوس زافون التي كانت تحملها منذ أسابيع فتاهت بين الأسطر، بينما السماء تتلون بدرجات من البرتقالي العميق حتى البنفسجي الغامق. تلك الليلة، شعرت بأنها أخيراً وجدت سلامها الذي تبحث عنه لكنها كانت تجهل أنه ليس سوى هدوء يسبق العاصفة.

فمع أنفاس الليل الأخيرة، تبدّل كل شيء.

كانت السماء قد أطفأت نجومها حين استيقظت بقلب منكمش على صوتٍ غريبٍ قرب خيمتها، وقَعَ خطواتٍ ثقيلةٍ بطيئةٍ تقترب، كأن أحدهم يتعمد أن تُسمع. فتحت عينيها، ووجدت الظلال تتحرك خلف جدار القماش الرقيق، ووميض المصباح الصغير المعلق في الخارج يرسم هيئة رجلٍ غريبٍ يتقدّم بخطواتٍ محسوبة.

تصلّب جسدها في مكانه، والهواء بدا فجأة أثقل من أن يُستنشق. قلبها خفق بعنفٍ حتى شعرت أن صوته يملأ الخيمة. كل شيء فيها أراد أن يصرخ، لكن الصوت خذلها.

رأت من خلال القماش المشدود كفه الملوّثة بالتراب تمتد نحو باب الخيمة، ثم سُمع صوت السحاب المعدني وهو يُفتح ببطءٍ مروّع، صوتٌ أشبه بتمزيق نسيج الليل نفسه. دخل الضوء الخافت من الخارج أولاً، ثم تلاه وجهه، وجهٌ قميءٌ مشوّه الملامح، تلوّثه لحية غير مهذبة وابتسامةٌ سايكوباثيّةٌ باردة، كأنها لا تخصّ بشراً بل كائنًا بلا ضمير.

لم يقل شيئاً، ولم تقل هي شيئاً.

كل ما سُمع هو أنفاسها المتسارعة، مضطربةٌ حدّ الارتجاف.

عيناها تتسعان، يداها ترتجفان على بطانية خفيفة تحاول أن تتشبث بها كدرع وهمي. حاولت النهوض، لكنه انقضّ عليها فجأة، ثبتها بقسوة على الأرض، كأنما يريد أن يسحق الهواء في رئتيها. صرخت، استغاثت، توسّلت أن يتركها، لكن الغابة كانت صماء لا تصغي، لا أحد سواها والظلام والوحش المتجسّد في هيئة إنسان.

كل ثانية كانت دهرأً من الرعب. كانت تتلوى محاولةً الفكّ، لكن قبضته الحديدية وُلدت من حقدٍ لا يفهم.

لم يكن اعتدائه مجرد فعلٍ جسدي، بل كان طمسًا لكل ما أمنت به عن الطيبة، عن الأمان، عن إنسانية العالم. وفي تلك اللحظات، تهاوت كل القيم دفعةً واحدة،

و أظلمت في أعماقها شمسٌ كانت تضيء حياتها.

وحين انتهى، تركها كما يترك الذئب فريسته، وخرج بخطواتٍ بطيئةٍ كما دخل. بقيت هناك، جسدها يرتجف بلا توقف، وعقلها يرفض التصديق. ثم، ببطءٍ، وكأنها تخرج من حلمٍ ثقيلٍ، زحفت نحو باب الخيمة، سحبت نفسها إلى الخارج، وبدأت تركض.

هربت في الظلام، خشيت عودته مجدداً، عارية القدمين، تتعثر في الجذوع والحجارة، والدم والعرق يمتزجان على بشرتها الخلاسية. كل خطوة كانت وجعاً، وكل وجع وعداً بالنجاة. ركضت بلا اتجاه حتى لاح لها خطٌّ من الأضواء المتحركة البعيدة على الطريق السريع.

انزلقت على المنحدر حتى وصلت إلى حافة الطريق، ولوّحت بذراعها بجنون. توقفت سيارة مارقة، نزل منها رجل وامرأة في ذهول، أسرعاً إليها حين رأيا وجهها الملطخ بالطين والدم، بالكاد

قادرة على الكلام. لم تحتج إلى شرح، كان الخوف في عينيها و جسدها المخضب بالطين و الدماء أبلغ من أي جملة.

أقلاها إلى مركز الشرطة القريب، وهناك انهارت بالكامل .. الكلمات خرجت متقطعة، مرتجفة، بينما يداها ترتعشان كمن يحاول الإمساك بما لا يمكن الإمساك به .. تحدثت عن ذاك المختل ، كيف اعتدى عليها و هرب .. ثم نُقلت إلى المشفى، حيث خضعت لفحص شامل للكدمات والجروح الناتجة عن الاعتداء و مقاومته و الفرار في الغابة. كل أثر على جسدها كان صرخة صامتة، وكل نظرة من الأطباء كانت كطعنة تذكرها بما حدث دون أن يُقال .. أما الشرطة فانتشرت في مكان التخميم تبحث عن آثار لذاك المختل

لم تكن تشعر بجسدها، ولا بالزمن. العالم كله صار صوتًا بعيدًا، غامضًا، كأنها تغرق في مياه كثيفة لا يمكن التنفس فيها.

حين عادت إلى سان فرانسيسكو، لم تعد المدينة كما كانت. الأبنية الرمادية بدت أكثر برودًا، والضباب لم يعد رومانسيًا، بل ستارًا يخفي العالم عن عينيها.

دخلت شقتها بخطواتٍ مترددة، أغلقت الباب، وأسندت ظهرها إليه. كل شيء حولها بدا صغيرًا، مختنقًا، حتى الهواء صار ثقيلًا.

الکمان فوق الطاولة كان ينظر إليها بصمتٍ كاتهامٍ خفي، كأن أوتاره تعرف ما حدث. مدت يدها نحوه، لكنها توقفت في منتصف الطريق ، لم تعد قادرة على لمس الموسيقى.

في داخلها كانت تسمع صدى قول بورخيس :

(الكلمات رموزٌ لأشياءٍ لا يمكن أن نراها، والموسيقى رموزٌ
لأشياءٍ لا يمكن أن نقولها)

ولأنها لم تعد ترى ولا تقول، صارت هي نفسها صمتًا مطلقًا.
مرت أيام، أسابيع، وهي عالقة بين النوم واليقظة .. لم تخبر أحداً
بقصتها حتى أبويها ، إذ كانت تشعر بنفسها كجانٍ لا كضحية .. و
أنّ العار يحيط بجسدها كأفعى سوداء ملتفة .

كانت تجلس أمام المرأة، تحدّق في وجهٍ لا تعرفه.

لم تعد تلك الفتاة التي خرجت نحو الجبال لتبحث عن الحرية، بل
امرأة خرجت من الغابة وهي تحمل داخلها غابة أخرى، أكثر ظلمةً،
وأكثر اتساعًا.

كانت تشعر أن العالم أصبح مسرحًا مهجورًا، وأنها الممثلة الأخيرة
بعد أن انطفأت الأضواء وسقط الستار.

في ليلةٍ أخرى، جلست على الأرض وفتحت دفترها الصغير.

الصفحات كانت فارغة، لكنها شعرت أنها تنظر إليها كعيونٍ تتهمها
بالصمت. حاولت أن تبصق صرخات روحها على أوراقه الصفراء،
أن تطهر نفسها بالحبر، لكن الكلمات عصت عليها.

لم يكن في داخلها سوى سؤال واحد يتكرر بلا إجابة :

(لماذا أنا ؟)

ومع كل نسمة تهب من شق النافذة، كانت تسمع صدى قلبها الخافت
كأنه يقول :

(لأنك بحثت عن نفسك ... و لن تعثري على الإجابة إلا بعد أن
تفقدى كل شيء)

ثم حلّ السكون التام.
لا عزف، لا دموع، لا نوم.
فقط ظلامٌ يسكنها، ظلامٌ يشبهها.

الفصل الخامس

المسألة إذا جاوز الاثنين

ثاني

كان الصباح في ستانفورد بارداً ومضيئاً كحدّ السكين.
المدينة تستيقظ على ضبابٍ رماديّ يتسلّل بين الأشجار، والمختبر
رقم **12** في قسم الجينوم أشبه بخلية نحلٍ استيقظت فجأةً على خبرٍ
غريب : أنّ الحياة، ربما، تعرف كيف تكتب اسمها.

أوريل كاين لم ينم تلك الليلة. جلس على الكرسي أمام نافذة تطلّ على
ساحة الجامعة، يحتسي قهوته المرة ببطء كمن يتجرع ذنباً و يوقظ
فكرة.

الكلمة التي ظهرت على الشاشة - **LIFE** - كانت لا تزال ترنّ في
رأسه كجرسٍ خفيّ يدقّ من داخل عصبٍ في روحه.

كان الصباح يضرب زجاج المختبر بوميضٍ باهت، بينما تتراقص
جزيئات الغبار في الضوء مثل أفكارٍ مترددة بين الوجود والعدم.
في تلك اللحظة، لم يكن أوريل يرى أمامه مجرد شاشة. كان يرى
مرآةً داخلية تُعيد إليه وجهه حين كان شاباً في بداياته، حين كان العلم
وعداً طاهراً، لا تجارة ولا سلطة ولا رهبة من لجان الأخلاقيات.

تذكّر يوم قبل أول منحة من مؤسسة **GenSys**، وكيف صافح
ماركوس شتاين مبتسماً، يومها قال له الرجل بصوتٍ يشبه
النصل :

= كل اكتشافٍ عظيمٍ يحتاج من يدفع ثمنه. نحن سندفع عنك ... لكننا
سنكون شركاء في الحقيقة ..

الآن، بعد سنوات، كان يفهم تماماً ما تعنيه تلك الجملة.
دخل أندريه، يجرّ معه صدى خطواتٍ متثاقلة، وقال :

= لقد أرسلتُ الشيفرة إلى ميران. طلبت أن تراك فوراً. تقول إننا أمام اكتشافٍ مدويٍّ سيغيّر قواعد اللعبة جذرياً .

رفع أوريل رأسه بصمتٍ ثقيل، وكأنه لا يحتاج أن يسمع تصديقاً لما يعرفه في أعماقه.

قال أخيراً :

= كل ما أخشاه يا أندريه ... أن يكون ما اكتشفناه أكبر من قدرتنا على الفهم ..

أندريه، الذي أمضى نصف عمره بين التجارب الفاشلة، كان يرى في وجه أوريل شيئاً غريباً : مزيجاً من الإيمان واليأس.

تقدّم نحوه وقال بثقة من فشل ألف مرة و لم يستسلم :

= أحياناً يا صديقي، المعرفة لا تنقذ أحداً. إنها فقط تخلع عنا البراءة

ابتسم أوريل ابتسامةً باهتة :

= أعرف .. لكن الجهل لا يُنقذ أبداً .. أقبل بنصف كأس ممتلئ على آخر فارغ كلياً ..

بعد ساعة، اجتمع الثلاثة في غرفة الزجاج الكبرى، تحيطهم شاشاتٌ تومض كنجومٍ داخل مجرة من الأسلاك.

وضعت ميران ملفاتها على الطاولة وقالت، بعينين تشعان بقلقٍ ذكيّ :

= لقد حللتُ النمط بالكامل. التكرارات ليست عشوائية. إنها تتبع بناءً نحوياً ..

أندريه قاطعها :

= نحوياً ؟

= نعم، كما في اللغات الطبيعية. هناك وقفات، فاصلات، إعادة في الإيقاع. إنها لغة ما. ليست من صنع الصدفة.

الهواء في الغرفة بدا ساكنًا كقلبٍ توقف عن الخفقان.
كل ما كان يرمز إلى "علم" بدأ يتحوّل إلى "وحي".
ميران تمتمت :

= ربما هذا ما قصده برغسون حين قال إن الحياة طاقة تكتب نفسها من الداخل.

لكن أندريه لم يكن في مزاجٍ فلسفي. ضرب الطاولة بقبضته وقال :
= وهل تدريين ما يعني هذا؟ إذا كانت الجينات تكتب، فسيطالب الناس بقراءتها ... وقد يطالب آخرون بكتابتها من جديد.

فتح أوريل يديه بتردد، و قال كمن يعترف بشيءٍ محظور:
= جربتُ مع الفجر تحويلها بنظامٍ شبيه بمورس. فأعطتني كلمة
مفهومة .. **LIFE**.

ساد الصمت لثوانٍ طويلة.

ميران وضعت يدها على فمها، وأندريه تراجع في كرسيه.
همست ميران :

= أوريل هل تعي معنى ذلك ... هذا يعني أن المادة الحيوية تكتب،
تفكر، تترك أثراً لغوياً ...
في تلك اللحظة، فُتح الباب بهدوء.

دخل رجل في منتصف الخمسينيات، أنيق المظهر، بملامح أوروبية صارمة.

كان **ماركوس شتاين**، المدير التنفيذي لمؤسسة **GenSys** الممولة للمشروع.

ابتسامته لم تكن ودّية، بل محايدة كالمرشّط.

قال بصوتٍ منخفض لكنه نافذ :

= سمعت أنكم تعملون على شيءٍ مثير ... وربما خطير.

أوريل اعتدل في جلسته :

= ما نقوم به بحث أساسي، لا أكثر.

= بحث أساسي ؟ إذن لماذا وصلتني اليوم رسالة من أحد موظفي القسم تشير إلى أنكم أدخلتم خوارزميات غير معتمدة في النواة المركزية ؟

أندريه حاول الردّ، لكن ماركوس رفع يده مقاطعاً :

= أنتم تعلمون ما معنى هذا، دكتور كاين. أي تعديل خارج البروتوكول سيوقف التمويل فوراً، بل وربما يفتح تحقيقاً في لجنة الأخلاقيات.

كانت نبرة صوته أشبه بتوقيعٍ على حكمٍ مؤجل.

في عينيه لم يكن الغضب، بل اليقين البارد الذي يحكم به البيروقراطيون على الحالمين.

نظر أوريل إلى الأرض. كان يشعر أنه يقف على حبلٍ مشدود بين

اكتشافٍ قد ينقذ ابنته وبين نظامٍ مؤسسيٍّ لا يرى في العلم إلا رصيّدًا ماليًا.

قال ببطءٍ :

= سيد ماركوس، نحن لم نتجاوز شيئًا بعد. فقط نحاول أن نصغي لما يقوله الجينوم.

ردّ شتاين بابتسامةٍ باردة :

= المؤسسة لا تموّل الشعراء دكتور كاين. إذا أردت أن تصغي إلى الحياة، افعل ذلك على نفقتك الخاصة.

غادر الرجل بخطواتٍ ثابتة، تاركًا وراءه هواءً من الخوف والتهديد.
قال أندريه وهو يزفر:

= إنه لا يفهم. لا أحد يفهم أن ما نلمسه الآن ليس مجرد علم. إنه بابٌ جديد إلى عالم لم يطأه عقل من قبل.

أوريل همس، كمن يحدث نفسه :

= حين تكتشف اللغة التي تكتب بها الحياة، سيخاف الجميع. لأن أول من يسمعها ... يدرك أنه ليس سيدها.

مرّت أسابيع قليلة بعد تلك المواجهة و قد تجمّد البحث.

خلالها عاش أوريل في قلقٍ دائم؛ الرسائل الرسمية تتوالى، الاجتماعات تُستدعى، والميزانية تُراجع بندًا بندًا.

في كل مرة يدخل فيها المختبر، كان يشعر أن العيون تلاحقه ، الكاميرات، الزملاء، وحتى الأجهزة.

بدأت تصل إليه إشارات من موظفين مجهولين بأن بعض الخوادم صارت تُنسخ سرّياً إلى مقارّ خاصة تابعة للمؤسسة.

كأن هناك شيئاً يُسحب من بين يديه دون علمه.

في المساء، كانت ميران تراقبه بصمتٍ من خلف الزجاج.

سألته ذات مرة :

= هل تشعر أنك تقترب من شيءٍ ... أم أنك تبتعد عنه أكثر ؟

أجاب بعد صمتٍ طويل :

= كمن يحفر في الجليد بحثاً عن قلبٍ لا يعرف إن كان ما زال يخفق.

في تلك الأثناء، وفي مكانٍ آخر من سان فرانسيسكو، كانت امرأة في منتصف الثلاثينيات تُقلب بين أوراقٍ وصورٍ على شاشة حاسوبها.

إيفا بيل ، الصحفية التي لا تؤمن بالمصادفات.

كانت تعمل في مجلة (ساينس فوكس) المعروفة، وقد وصلها ملفّ غامض عبر بريدٍ مشفّر.

المرسل : مجهول.

الملف يحمل عنواناً واحداً :

(LIFE PROJECT — INTERNAL DATA)

جلست أمام النافذة تستمع إلى المطر وهو يضرب الزجاج، بينما تسمع التسجيل المسرّب من أحد موظفي المختبر :

(لقد جعلوا الشيفرة تتحدث ...)

رفعت رأسها نحو نوافذ المبنى المعتمدة.

استمعت للشريط بالكامل ثم كتبت في دفترها بخطٍ دقيق واثق :

(مشروع **LIFE** ، هل يتحدث الجينوم ؟ أم أننا نحن الذين بدأنا
نخترع أصواته ؟)

لم تكن تعلم بعد أنها على وشك أن تدخل دوامة من الأسرار قد تغيّر
مفهوم الإنسان ذاته.

في المساء، جلس أوريل وحده في المختبر.

الضوء البارد من الشاشات انعكس على وجهه، وجعل ملامحه تبدو
كوجه رجلٍ يترنّح بين الحياة والموت.

فتح الملف مرة أخرى. أدخل البيانات الجديدة من تحاليل ميران إلى
الذكاء الاصطناعي.

التكرار ازداد دقة.

النظام اللغوي بدأ يتضح أكثر.

لكن هناك كلمة جديدة تشكّلت أسفل الشاشة هذه المرّة ، لم تكن

LIFE .. بل : WARNING.

ارتجف قلبه.

تراجع في كرسيه ببطء، ثم همس :

= هل يمكن أن تكون الحياة نفسها ... تحذرنا ؟

في تلك اللحظة، انطفأ الضوء فجأة في المختبر، وبقيت الشاشة
الأخيرة وحدها مضاءة، تعرض جملة متقطعة كنبضٍ في الظلام :

Your life written on DNA

حياتك كتبت على جزيء الـ DNA.

كان الليل قد عاد إلى سان فرانسيسكو، لكن هذه المرة لم يكن شالاً من رماد، بل ستاراً يخفي ما هو أعمق من
الخوف : الظلّ الذي يسكن داخل العلم حين يقترب كثيراً من جوهر
الخلق.

الفصل السادس

صراع مع الذات

في شقتها الصغيرة، حيث النوافذ مغلقة والستائر كثيفة كأنها جفنين أُغلقا عن العالم، كانت زويا تجلس على الأرض، مسندة ظهرها إلى الجدار كأنها تتكى على آخر ما تبقى من ذاتها. الظلام لم يعد حالة خارجية، بل صار امتدادًا داخليًا، مرايا صامتة تعكس ما يجري في أعماقها. الهواء ساكن، والغبار يرقص ببطء فوق شعاع مصباح خافت لم يعد يعرف إن كان نورًا أم ظلًا يحاول التمثّل.

لم تعد تعرف الأيام بأسمائها. الزمن صار مجرد دوامة رمادية لا يميز فيها الصباح من المساء. الاستيقاظ لم يعد بداية يوم، بل استئنافًا لحكم مؤبد. كانت زويا تستيقظ كل صباح على صمتٍ ثقیلٍ كأن المدينة قد توقفت عن التنفس. وفي داخلها، شيء يشبه الفزع البارد الذي يسبق الانهيار.

لقد تركت عملها دون وداع، كما يترك الحالم سريريه في الكوابيس . كتبت بريدًا مقتضبًا : (أحتاج إلى وقتٍ للراحة) ، ثم أغلقت الحاسوب كمن يطوي فصلًا من حياته لا يريد قراءته ثانية. لم يكن هناك غضب، بل فراغ مطلق. الفراغ الذي لا يتسع حتى للندم.

الاعتداء في الغابة لم يكن حادثةً في الماضي، بل حيوانًا ما زال يتنفس في حاضرها. كلما حاولت نسيانه، تمدد في روحها أكثر. كانت تسمع خرير الماء في المطبخ فيذكرها بشلالٍ قريبٍ من خيمتها تلك الليلة، وتشم رائحة المطر فتري نفسها تهرب في الوحل، والريح تصفع وجهها وهي تصرخ بصوتٍ لم يسمعه أحد.

في كل مرّة تنظر فيها إلى المرأة، لا ترى ملامحها بل ملامح أخرى، امرأة تعرفها جيدًا لكنها لا تعرف نفسها فيها. تقول في سرّها : (لستُ أنا تلك التي كانت تعزف الكمان وتضحك للسماء. أنا الآن ظلٌّ فقد صوته)

جسدها صار ذاكرة. ذراعاها تحملان قسوة ما فُرض عليهما،
وصدرها يختزن شهقاتٍ لم تخرج بعد. في لحظاتٍ نادرة، كانت تفكر
في ما قاله أحد الفلاسفة : (الألم ليس ما يحدث لنا ، بل ما يبقى فينا
بعد أن يحدث) .. كانت تلك العبارة كافية لتجعلها تبكي دون صوت،
لأنها كانت تفهمها بالكامل.

العار الذي يحاصرها لم يكن من فعل الآخرين، بل من نظرتها هي
لنفسها. تشعر أنها ملوثة، كأن يداً غريبة تركت عليها بصمة لا
تُمحى. في مجتمع يرى الألم ضعفاً والضعف فضيحة، أصبحت زويا
خرساء، تتحدث فقط في الداخل. تقول لنفسها : (لماذا لم أصرخ
أقوى ؟ لماذا لم أهرب أبكر؟) ثم يرد عليها صوتٌ آخر أكثر
ظلمة : (لأنك كنتِ ضحية، والضحايا لا يملكون حرية الاختيار)
.. لكنها ترفض الاقتناع بذلك ..

كانت تعرف بالعقل أن ذلك صحيح، لكنها لم تستطع أن تصدق عقلها
و لا حتى قلبها. فالخجل أقوى من المنطق. وكان الخجل عندها
كالملح على الجرح : يمنع الالتئام لكنه يذكرها بأنها ما زالت تشعر.

تجولت أفكارها بين الفلسفة واليأس كما تتجول يد الغريق في الماء.
تتساءل : (ما الغاية من الوجود إذا كان كل ما ننبهه يمكن أن ينهار
في ليلةٍ واحدة ؟ هل نحن حقاً أحرار، أم أننا نُقاد بلا وعي نحو
مصائرنا ؟) تحولت مقولة مارسل بروس : (الحياة الحقيقية لا
تبدأ إلا عندما نتعلم أن نرى الأشياء البسيطة بعينٍ جديدة) إلى مرارة
: (لكن ماذا لو لم يعد في الأشياء البسيطة ما يُرى ؟ ماذا لو تحولت
البساطة نفسها إلى عبءٍ لا يُحتمل ؟) ..

كانت تشعر أن روحها القديمة تنكمش. لم تعد تؤمن بالشفاء، ولا
بالعدالة، ولا حتى بالحديث عن الأمل. الأمل، بالنسبة إليها، صار

كلمةٌ يستخدمها الأحياء لتجميل فكرة البقاء. أما هي، فترى أن البقاء بلا معنى لا يختلف كثيرًا عن الموت البطيء.

تعيش الآن ككائنٍ خارج الزمن. القهوة تبرد قبل أن تتذوقها، الأوراق البيضاء أمست صفراء بعد أن هجرتها الكلمات، والموسيقى صارت جرحًا يذكرها بمن كانت. كل زاويةٍ في شقتها تحولت إلى شاهدٍ صامت على انطفائها. حتى صوت الثلاجة الصغيرة صار يؤرقها، كأنه يذكرها بأن الحياة تستمر رغم أنها توقفت منذ زمن.

كانت تفكر أحيانًا بالموت لا كخلاص، بل كاستراحةٍ من التفكير. لم تعد تملك الطاقة لتخاف. الخوف يحتاج إلى رغبة في النجاة، وهي لم تعد تملكها. كانت تهمس لنفسها بياس :

(ربما ليست الحياة من تتركني، بل أنا من تركتها دون أن أودّعها)

وفي أعماقها، كانت تدور معركة صامتة بين صوتين : الأول يهمس بالاستمرار، بالتمسك حتى لو لم يبق سوى الرماد. والثاني، أقوى، أكثر صدقًا، يقول : لقد تعبت بما يكفي، نامي.

المدينة خلف نوافذها لم تعد تشبهها. أصوات الناس، ضحكاتهم، السيارات المسرعة ، كل شيء بدا بعيدًا، كما لو أنها تعيش في عالم آخر لا يرى. كانت تنظر إلى الشوارع المبتلة بالمطر، و تفكر : (كم من الأرواح تمشي هنا ولا يلاحظها أحد ؟ كم من النساء يحملن صمتهن مثل قنابل غير قابلة للتفجير ؟)

كل يوم يمرّ كان يزيدها قناعة وهمية أن المجتمع لا يسمع إلا من يصرخ بأعلى صوته، وأن الناجيات مثلها يُعاقبن بالصمت مرتين : مرة حين يُنتهك جسدهن، ومرة حين لا يُصدقن إن تكلمن ..

بدأت تكتب رسائل لا ترسلها. إلى نفسها، إلى الرجل الذي أذاها، إلى الله، إلى فكرة العدالة ذاتها. كل رسالة تبدأ بجملة واحدة : (أنا لم أعد أفهم الغاية) .. ثم تتوقف، لأن الكلام كان يستنزفها أكثر مما يريحها.

في إحدى الليالي، جلست على الأرض وسط الشقة. المطر يقرع الزجاج بنمط متواتر، كأنه نبض العالم. كان الهواء ثقيلًا، ورائحة العفن تمتزج برائحة عطرٍ قديمٍ لم تستطع التخلص منه. أغلقت عينيها.

قالت بصوتٍ خافت :

= لقد انتهيت .. لا رغبة لي في الغد .. سأنتهي بنفسي
هذه المعاناة ..

لم تكن تلك عبارة انتحارية بحد ذاتها ، بل جملة اعتراف. نوعٌ من التسليم البطيء بأن العالم لا يمدّ يده لمن سقط. صارت الحياة بالنسبة إليها أشبه بكتابٍ انتهت صفحاته ولم يبقَ فيه سوى الغلاف.

لكن حين مالت برأسها نحو الحائط، شعرت بشيءٍ غريب. خيطٌ من الضوء تسلل من نافذة صغيرة نسيت أن تغلقها ، خطٌ رفيع من النور عبر الغرفة وسقط على وجهها. فتحت عينيها، لم تفهم ما الذي جعل الضوء يظهر، فالسما كانت غائمة منذ الصباح.

لم يكن الضوء قويًا، بل كان هشًا، وديعًا، كأنه يتردد قبل أن يلمسها. ومع ذلك، أحست به في عمقها، لا في جلدها. مرّ النور على خدها كلمسةٍ لا تُفسّر، كأن شيئًا ما في الكون أراد أن يقول لها : ما زال

فيك شيء لم يمت.

لم تبك. فقط نظرت إلى الخط الرفيع من الضوء حتى بدأ يتلاشى، ثم
همست بصوتٍ لا يكاد يُسمع :

= لا أستطيع أن أفهم غايتك ، لكنك عاجز رغم جمالك أن تبدد الظلام
في أعماقي .. أنا انتهيت و لا معنى للغد بعد اليوم ..

الفصل السابع

خدمة مدوية

عندما نقل أوريل كاين مشروعه الجديد إلى مختبره الخاص في منزله تجنباً للمواجهة المحتملة مع ماركوس شتاين، شعر بأن الزمن قد انكسر وانقلب على نفسه. لم يعد المنزل مجرد مأوى، بل أصبح عالمًا صغيرًا يحوي أبعادًا لا تراها العين العادية، مكانًا تتقاطع فيه فكرة الجينوم مع فلسفة الحياة والقدر، حيث تصبح كل زاوية شاهدة على ولادة أسئلة جديدة، وكل شعاع ضوء من المصابيح يتوهج كأنه يحرس الأسرار. الهواء في المختبر كان مشبعًا برائحة المعدن، الورق، والأحلام؛ مزيجٌ من الواقع والخيال الذي يلتقي في نهايات الخوارزميات. كل تفصيلة في الغرفة كانت تعكس اختلاطًا بين الماضي والحاضر والمستقبل، حيث الجدران نفسها تشهد صراع العقل مع الغيب، والصمت يتحدث بلغة العيون الغارقة في التفكير.

كاين وقف أمام شاشة الكمبيوتر الضخمة، يراقب سلسلة النيوكليوتيدات التي تتلو نفسها بطريقة لم يرَ مثلها من قبل. كل حرف كان يحمل ثقل الكون كله، وكل تتابع من الأربعة أحرف كان يخزن قصة الخلية، ذاكرة الحياة، ومصائر المستقبل. كانت الخلايا تتحدث إليه بصمتها الخاص، تصرخ بلغة الأحماض النووية و الأمينية، تقول: (افهمني و ستفهم كل شيء عندها ، فالخوف والأمل والحب مكتوبون في داخلي)

كان يشعر أحيانًا أن كل نبضة في قلبه تتوافق مع نبضة خفية داخل الشيفرة، وكأن الكون نفسه يراقبه ويتوقع قراءته للغيب.

أندريه، بجانبه، يحرك أصابعه على لوحة المفاتيح وكأنها مفاتيح بيانو، يترجم البيانات إلى شيفرات يمكن للآلة أن تفهمها متكلًا على عبقرية الذكاء الاصطناعي. أما ميران، فكانت تمشي بين الطاولات بصمتٍ دقيق، عيناها تراقب العينات وكأنها تطارد لغزًا قديمًا يرفض الظهور. قالت بهدوء :

= كل خلية تحوي سرّاً، وكل سرّ له توقيت، وكل توقيت له عواقب
لا ندركها إلا حين تنكشف.

كاين نظر إليها بعينين يختلط فيهما الأمل بالخوف :

= سنكشف ما كتبتّه الحياة في **DNA** ابنتي، كل حرف، كل نمط،
كل تكرار سيترجم إلى لغة مفهومة بعد أن أدخلنا جينومها الكامل
إلى التطبيق .

علّق أندريه دون أن يشيح بوجهه عن الشاشة :

= لكن هل نحن مستعدون لمواجهة الحقيقة كما هي، بلا قناع ؟ هل
يمكن للإنسان أن يتحمل لغة الخلية حين تُحكى بلا تجميل ؟

ابتسمت ميران، ابتسامة حزينة تحمل خبرة سنوات في مواجهة
أسرار الطبيعة :

= أندريه .. هذه ليست مجرد معلومات، إنها ذاكرة كاملة، لغة الكون
في أصغر أشكالها. الحقيقة ليست سهلة، لكنها دائماً موجودة. والوعي
بها، إن لم يقتلنا، يجعلنا أحياءً بأكثر أشكال اليقظة قسوة.

بدأ الفريق العمل بلا توقف، ساعات مسائية طويلة عقب الدوام
الوظيفي النهاري امتدت بلا حدود، حيث كانت الشاشات تنبض
بالضوء الأزرق، كل نبضة منها تحمل وميضاً من المعرفة، كل تتابع
من النيوكليوتيدات هو انعكاس لصوت الغيب الصامت. كانت
الخوارزميات تتحرك، تحلل، تقارن، تحوّل البيانات إلى رموز، ثم
إلى معاني محتملة، وكأن كل حرف من **G**، **A**، **T**، **C**، يحمل
رسالة من الماضي والمستقبل في آن واحد، كأن الزمن كله متسلسل

داخل خلية واحدة. كان كل اكتشاف جديد يقودهم إلى اكتشاف آخر، كما لو كانت الشيفرة نفسها تحاول تحديهم لمعرفة ما إذا كانوا قادرين على قراءة ما لم يُكتب بعد.

أيام وليالٍ امتدت حتى فقدوا الإحساس بالزمن. النوافذ أُغلقت لتبقى الأفكار مركزة، والأقمار الصناعية تعكس ضوءها على الشاشات كحراس صامتين. كاين شعر أحياناً أن الجينوم نفسه يراقبه، يهمس له مراراً و تكراراً : (أنت تريد أن تحول جينوم ابنتك إلى كتاب حياة مقروء كي تعرف مستقبلها .. متى ستموت أو إن كانت ستنجو .. و أنا سأمنحك ما تريد) .. كان كل تتابع من الأحماض النووية يبدو وكأنه رقصة متقنة، رقصة تتحرك بين الواقع والغياب، بين احتمال الخطر وإمكانية النجاة. و كان يتساءل هل الحياة التي تقرأها الشيفرة هي فعلاً المستقبل، أم أنها مجرد انعكاس محتمل بين طيات الزمن ؟

وبينما تتشابك البيانات وتتحول إلى نصوص يمكن قراءتها، بدأ شيء غريب يحدث. تتابع الأحداث في الشيفرة لم يكن عشوائياً على الإطلاق، بل يتكوّن وفق نمطٍ مدهش يروي أحداث حياة آفا المفصلية .. سبقه عقل كاين و قلبه إلى الختام كي يعرف ما ينتظر ابنته في المستقبل ، و هنا كانت الصدمة المدوية .. حياة آفا القصيرة للحين ، لم تكن مهددة بمرضها الخلقي ، بل بشيء آخر، شيء من عالم الواقع الملموس، **لم يكن مرضها هو ما سيقتلها، بل حادث سير قادم.** لحظة الاكتشاف كانت مثل صدمة كهربائية للروح؛ كل خلية في جسد كاين ارتجفت من هذا الإدراك .. فكر بيأس : (كيف يمكن للعلم أن يكون أصدق من أي خوف شعوري ؟ وكيف يمكن للمعرفة أن تكون أشد قسوة من الخيال ؟)

وقف للحظة، وأمسك رأسه بين يديه. الهواء في المختبر أصبح

أثقل، كما لو أن كل خلية في جسده تعرف ما كشفتها العينات. قلبه خفق بسرعة، لكنه كان ينبض أيضاً بشعور غريب من الفهم : أن الحياة ليست دائماً ما نظنه، وأن المعرفة لا تمنح القوة إلا بعد اختبارها بالصبر والتحدي ، و أن الجهل قد يكون أرحم منها رغم كل شيء. كان يشعر بأن المصير نفسه قد سكب حقيقته في حضنه فجأة، بلا تمهيد، بلا رحمة.

= هذا ... هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً ...

تمتم، صوته خافت كأن الكلمات نفسها تخاف من أن تُسمع. كانت الكلمات تتردد في المختبر وكأن الجدران نفسها صمتت لتستمع. ميران وضعت يدها على كتفه بلطف ..

= العلوم أحياناً تقول الحقيقة كما هي، بدون تهويل ولا تلطيف. لم يكن أحد ليختار هذا، لكنها الحقيقة التي رأتها العيون الجينية قبل أن تراها العيون البشرية. الحقيقة ليست حكماً علينا، بل دعوة للفهم.

أندريه أدار الشاشة، وأظهر تتابع الجينوم الأخير، حيث حُدد نمط زمني دقيق :

(آفا ستموت في حادث سير بعد ثلاثين يوماً من الآن)

ثلاثون يوماً، وحدها، ستقرر المصير بحكم من الجينات ، كل رقم، كل فاصلة، كل حرف كان صاعقة وعي، يفرض على القلب أن يفكر، على العقل أن يتحرك، وعلى الروح أن تبحث عن طريقة للبقاء.

قال كاين بصوتٍ يخنق بين الألم والخوف :

= ماذا عساي أفعل الآن ؟! كنت أكافح كي أجد علاجاً يطيل عمرها
و يلجم مرضها .. لكن كيف أجنبها الموت بحادث لا سلطة لي
عليه ؟!!

سادت لحظة صمتٍ طويل، يكاد فيها كل شيء يتوقف : الرنين
الميكانيكي لأجهزة المختبر، خوارزميات التحليل، كلمات الذكاء
الاصطناعي. كل شيء يفصح عن ثقل الاكتشاف. كاين شعر لأول
مرة بأن المعرفة ليست قوةً كاملة، بل نذيراً، أن معرفة المستقبل التي
لا تمنح القدرة على تغييره تعذيب وحشي، وأن قلب الإنسان يظل
قاصراً مهما بلغ العلم من إتقان.

= ثلاثون يوماً...

همس، وكأن الكلمات تحاول أن تهبط إلى أعماقه.

= سنوات و أنا أحاول أن أحميها، أحاول أن أمنحها الغد، لكن حتى
الغد نفسه كتب لي نهاية لم أتخيلها.

ميران اقتربت مرة أخرى، تنظر إلى السطور الأخيرة من الشيفرة
و تتمتم:

= الجينوم للأسف ليس مجرد رمز للحياة، إنه نص القدر الذي نقرأه
لأول مرة. كل خلية، كل حرف، كل نبضة، تقول للإنسان : (تذكر،
لا شيء يُمنح من دون ثمن. المعرفة لا تأتي بلا مسؤولية، ولا الحب
بلا فراق.)

أندريه، الذي نادراً ما يصاب بالدهشة، نظر إلى كاين وقال :

= لقد عرفت الآن ماذا يعني أن يكون العلم مرآة للمصير. ليس مجرد
معرفة، بل مسؤولية ثقيلة جداً، ثقيلة بما يكفي لأن تطعن قلوبنا
بالحقيقة.

كاين أغلق عينيه لبرهة، خمس سنوات انقضت من عمر ابنته .. تذكر ضحكاتها حين كانت تحاول التمرين على البيانو، تذكر لمسات يديها الصغيرة، كل لحظة من براءتها، كل نفس صغير ملأ البيت بالدفء. شعر برغبة في الصراخ، لكنه علم أن الصراخ لن يغير الواقع. صمت، واستمع إلى صدى صوته الداخلي، إلى همسات الخلايا التي تقول : (هل يمكنك لي ذراع القدر المكتوب ؟!)

أعاد فتح عينيه، وحدث في الشاشة كما لو كانت الباب الوحيد إلى الغد :

= سنستمر. سأحاول، مهما كانت الطريقة. سأحميها
بأي وسيلة أملكها. الجينوم كشف لنا الحقيقة، لكنها لن تفرض علينا ما سنفعله بعدها .

ثم قال، بلهجة أكثر فلسفية من أي وقت مضى :
= لن أسمح للقدر أن ينهي رواية آفا بحدث سير عابر .. سأحرص بنفسي على تجنبها هذا المصير المأساوي ، سأهزم الموت و أمنحها سنيناً إضافية تستحقها بعد معاناتها ..

أندريه و ميران أطرقا النظر إلى الأرض ، كانا يعرفان أن صديقهم يعيش حالة من الإنكار ، لكن لم يتجرأ أي منهما على سلبه هذا الأمل الأخير و لو كان زائفاً ..

الليل حلّ على المنزل، والنوافذ أغلقت، لكن داخل المختبر كان الضوء الأزرق يتوهج كرمز غامض : الحياة تستمر، لكن ليس كما كنا نتصورها، ومعرفة الحقيقة ليست نهاية المطاف، بل بداية رحلة جديدة من الأسئلة، الحب، والمسؤولية، حيث يصبح العلم شاعراً،

والقدر موسيقيًا، والإنسان محور كل شيء، رغم هشاشته، رغم حبه العميق، ورغم خوفه من غدٍ لا يملك ضماناته .. إنّ مصير آفا الأسود المنتظر بعد شهر ألقى بظلاله على فرحة الاكتشاف العلمي الهائل الذي حققوه ، ترجمة جينوم الإنسان إلى كتاب يروي قصة حياته بكل أحداثها المفصلية ، و الذي – على الأرجح – سيغير مصير البشرية إلى الأبد .

الفصل الثامن

توفد التاريخ

لم تكن ذلك الصباح يشبه أي صباحات أخرى .

العالم كان ينام على ظلال جهله، ويستيقظ فجأة على ضوءٍ لا يُحتمل.
في شقة صغيرة في برلين، جلست الصحفية إيفا بيل أمام شاشة حاسوبها، تقرأ مرة أخرى الملف الذي وصلها مجهولاً : مشروع كاين و زملائه كاملاً. كل شيء تسرّب من بين شفتي أندريه في لحظة من لحظات سكره المعتاد إلى إحدى صديقاته الصحفيات في ليلة تحول فيها الحب إلى إفصاح بما لا يجب أن يُعرف أو يقال .
كانت إيفا تعرف، وهي تضع يدها على قلبها، أن ما بين يديها ليس مجرد سبق صحفي، بل قنبلة ستُغيّر التاريخ.

الساعة كانت تشير إلى الخامسة فجراً حين ضغطت على زر “النشر”.

في لحظة واحدة، انسكب السرّ إلى العالم كما ينسكب الضوء من جرح مفتوح.

خبر صغير في بدايته، لكنه انفجر على الشاشات كوميض برقٍ لا ينطفئ :

(علماء في أمريكا نجحوا في تحويل شفرة DNA إلى كتاب يروي قصة حياة الإنسان من المهد إلى اللحد)

في الساعات التالية، كانت الكرة الأرضية كلها تدور حول الخبر.
القنوات تنقل التفاصيل، المنتديات تغلي، المنصات تضجّ، والناس بين من يهّل ومن يرتجف.

عناوين الصحف تتناوب بين الحلم والرعب :

(القدر في يد العلم)

(نهاية الغيب وبداية الشفافية المطلقة)

(هل أصبحنا آلهة أم مجرد ضحايا للمعلومة ؟)

في مقهى صغير في لندن، جلس فيلسوف مسنّ أمام شاشة التلفاز،
رفع فنجان القهوة وقال مبتسمًا :

= ها قد سقط آخر جدار بين الإنسان والسماء كجدار برلين يا حفيدي.
لم نعد نحتاج إلى الكهنة أو الأنبياء ليخبرونا بالغد. لقد صنعنا معبدنا
الرقمي بأنفسنا.

فأجابه شابّ يجلس إلى جواره، ملامحه حادة كمن يؤمن بالمعنى
أكثر من العالم نفسه :

= بل رفعنا الستار عن الوهم ! إن المعرفة حين تكشف الغيب، تقتل
جوهر الإيمان ذاته. لقد حوّلتم الله إلى معادلة، والقدر إلى برنامج.

ضحك العجوز وقال :

= ألم يكن الإنسان يبحث منذ البدء عن هذه اللحظة ؟ لحظة أن
يعرف، أن يفهم، أن يرى نفسه كما تراه السماء ؟

= نعم، لكنه نسي أن المعرفة بلا حكمة تلد الكارثة. إنك حين ترى
النهاية، تفقد الرغبة في السير نحوها.

في المقابل، ثارت حمية رجال الدين حتى الذروة ، و هم يرون في
مشروع كاين قمة التجديف .. فالعالم كله يشعر، لأول مرة، أن الغيب
الذي طالما احتّمى به يتلاشى من بين أصابعه.

صرخ أحد رجال الدين في بثّ مباشر:

= لقد مدّ الإنسان يده إلى الكتاب المحرّم ! لم يكتفِ بتفسير الخلق،
بل أراد أن يقرأ الغد. إنهم يقتلون سرّ الله فينا !

ردّ عليه عالم ياباني من جامعة طوكيو قائلاً بهدوءٍ علمي مدهش :
= نحن لا نقتل السرّ يا سيدي، بل نقرأه. والقراءة ليست جريمة إلا
حين تخاف الكلمة من الحقيقة.

أما إيفا بيل، صاحبة التسريب، فجلست في زاوية مظلمة من مكتبها،
تحدّق في ضوء الشاشة الذي يعكس وجهها.
لم تكن تبتسم كما يفعل الصحفيون حين يحققون سبقاً، بل ترتجف
كما يرتجف من أيقظ الوحش من نومه.

قالت لنفسها بصوتٍ مبحوح :
= كنت أظن أنني أفصح مشروعاً علمياً ... لم أعلم أنني سأفتح أبواب
القيامة الفكرية.

دخل زميلها أوليفر وقال بانفعال :
= إيفا، لقد صار اسمك في كل نشرات العالم ! إنك بطلة، الناس
يقولون إنك منحت البشر حقّهم في المعرفة ، و منشورك أصبح
ترند التاريخ برمته !!

نظرت إليه بعينين شافيتين كالزجاج وقالت:
= وهل المعرفة دائماً خلاص ؟ ربما أطلقت رصاصة على المعنى
دون أن أدري.

= أنتِ تكشفين الحقيقة، وهذا عمل الصحافة منذ الأزل يا
صديقتي !!

= لكن أي حقيقة ؟ تلك التي تحرّر أم تلك التي تُربك الوجود ؟ ماذا
لو كان الجهل ضرورة للحياة ؟ ماذا لو كان الغيب هو رحم
الأمّل ؟

في المقابل، كانت قنوات الأخبار تستضيف العلماء والفلاسفة
والمفكرين في مناظراتٍ حامية.

قال أحدهم :

= نحن الآن أمام أخطر لحظة في التاريخ، لأننا نملك القدرة على
قراءة مصيرنا، وربما تغييره.

فردّ عليه آخر بنبرة ساخرة :

= تغييره ؟ وهل يستطيع النصّ أن يُعدّل نفسه بعد أن يُكتب ؟ إننا لا
نملك إلا الوهم بالتحكم.

= لكن العلم يا سيدي، هو التمرد الأعظم على الوهم !

= بل هو أداة جديدة للقدر كي يختبرنا. ربما يريدنا الله أن نرى
أنفسنا ونحن نرتجف أمام مرآة الغد.

في الشوارع، ظهرت بعد أيام حركات جديدة، جماعات تؤمن بأن
قراءة الجينوم هي طريق الخلاص، وأخرى ترى فيها بوابة الجحيم.

في المدن الكبرى، وقف المتظاهرون يحملون لافتات متناقضة :

(أعيديوا لنا الغيب، خذوا عنا المعرفة.)

(لا خلاص إلا بالعلم، لا إيمان إلا بالشفرة.)

وفي تلك الفوضى، صار البشر يقيسون حياتهم كما تُقاس
المعادلات : من سيعيش ؟ من سيموت ؟ من سيُحب ؟ من سيخون ؟

انقلبت القيم. صارت الشفافية المطلقة مرضًا جديدًا، وبدأ الناس
يخافون من أنفسهم أكثر مما يخافون من الآخرين.

أحد المذيعين سأل ضيفه الفيلسوف الشهير ألكسندر ريختر :

= هل انتهى الغيب ؟

فأجاب بابتسامة شاردة :

= الغيب لا ينتهي، لكنه يبدّل شكله. اليوم صار اسمه العلم.

أما هناك في أمريكا فجلس كاين نفسه في مختبره المنزلي، يراقب الشاشات، يرى العالم يشتعل بنيران الحقيقة التي لم يكن يريد نشرها. قال لأندرية وهو يضرب بيده على الطاولة :

= لقد حوّلت إيفا بحثًا عن الحقيقة إلى عاصفة ضدها !، من سرّب مشروعا بالأساس .. أنت ميران .. من ؟!

ردّ أندريه بهدوءٍ حزين يفتّح شعوره بالذنب لخيانة أسرار صديقه :
= لا أعلم .. ربما ماركوس شتاين .. على كل حال ألم يكن هذا حتميًا ؟ كل سرٍّ يُكتشف يُولد معه جنونه الخاص.

= لم أكن أريد الشهرة، أردت فقط أن أفهم، أن أنقذ ابنتي !
= السماء لا تهتم بالنوايا يا كاين، بل بالنتائج. لقد خرج العلم من يدك، وصار في يد العالم ..
= لكنّ العالم طفلٌ لا يعرف خطورة اللعب بالنار.

ميران كانت صامتة، تحديق في الضوء الأزرق المنبعث من الحاسوب، ثم قالت بصوتٍ يشبه الحلم :

= ربما ما فعلته إيفا كان ضروريًا. لكي يعرف الإنسان أن الجهل أحيانًا هو أعظم نعمة. لقد صار أماننا الآن امتحان الوعي : هل سنحتمل أن نرى كل شيء بوضوح ؟
التفت إليها كاين بشك :

= أفهم من كلامك أنك أنت من أخبرها يا ميران ؟!

= على الإطلاق .. و لا أعرفها بالأساس ..

في المساء، خرجت إيفا بيل إلى شوارع المدينة. كانت الأصوات تعلو في كل مكان، مظاهرات، شعارات، هتافات، خوف، ودهشة. وقفت على جسر فوق النهر، تحديق في الماء الذي يعكس أضواء العالم الغاضب، وقالت لنفسها :

= لقد غيّرت التاريخ ... لكن هل سيغفر لي التاريخ ؟

سمعت صوت امرأة خلفها تقول :

= أتعلمين، كنتُ واحدة من اللواتي فقدن إيمانهنّ اليوم بسببك.

التفتت إيفا، فرأت سيدة أربيعينية تحمل بيدها كتابًا مقدسًا صغيرًا.

ردّت عليها بهدوء :

= لم أقصد أن أطفئ الإيمان .. الإيمان لا ينطفئ بالعلم، بل يُختبر به.

في تلك الليلة، كتب أحد المفكرين على صفحته الإلكترونية جملة انتشرت كالنار في الهشيم :

(منذ أن قرأنا الجينوم، لم نعد نخاف الموت، بل نخاف المعرفة.)

تلك كانت بداية الفوضى الجميلة، الفوضى التي أيقظت الإنسان من سباته الطويل، وجعلته يطرح على نفسه أسئلة لم يجرؤ من قبل

على النطق بها :

- هل أريد أن أعرف متى أموت ؟

- هل أحتمل أن أعرف من سأحب ومن سيخونني ؟

- هل سأظلّ إنسانًا إذا فقدتُ الغموض الذي يجعلني أبحث ؟

لقد صار العالم يقف على عتبةٍ جديدة :

(بين من يرى في الجينوم كتاب الخلاص، ومن يراه سفر اللعنة.)

بين من يؤمن أن العلم هو الوحي الجديد، ومن يرى أنه صدى قديم

لغرور الإنسان الأول حين أراد أن يأكل من شجرة المعرفة.

أما كاين، فقد جلس تلك الليلة في ظلام مكتبه، شاشته مطفأة، وصدى الأخبار يملأ الفراغ من حوله ، في حين عقله و قلبه في عالم آخر .. عالم يحاول فيه أن يحيك طوق نجاة لابنته آفا من مصيرها المحتوم بجيناتها.

قال لنفسه :

= ربما أخطأت بمشروعي .. كنا نظن أننا نُفسر الحياة، فإذا بنا نكسر توازنها. أردنا أن نقرأ الغد، فحرّفنا معنى اليوم. أردنا إنقاذ الإنسان، فعزّيناه من وهمه الجميل.

رفع رأسه نحو النافذة، حيث كانت المدينة تضيء وتغرق في ذات الوقت، وقال بصوتٍ كأنه صلاة :

= يا الله ... ماذا لو كان الغيب هو رحم الرحمة ؟ ماذا لو كانت قدرتك في أننا لا نعرف ؟

وفي آخر الليل، بينما كانت الصحف تطبع نسخها الجديدة، والعناوين الحمراء تتوهج كجروح نازفة ،

كتبت إيفا بيل في مذكرتها جملة واحدة فقط :

(حين تنكشف الأسرار، يبدأ العالم في البحث عن ظلٍ يختبئ فيه.)

الفصل التاسع

لَا خَيْرَ مِنْ قَر

منذ تلك الليلة، لم يعرف كايين للنوم طعمًا. كلما أغمض عينيه، كانت الشيفرة الجينية لابنته تُطلّ عليه من عتمة الحلم، كأنها وجه القدر وقد اتخذ شكل الأحماض النووية. يرى الأحرف الأربعة - **A**، **T**، **G**، **C** - تتوالى كنبضات قلب خفية، تصوغ لحظة النهاية ببرود رياضي لا يرحم. ثلاثون يومًا فقط. لا أكثر. كأن الكون كتب هذا الموعد بخطّ لا يُمحى، واكتفى بالمراقبة .. العالم في الخارج يضجّ بأخبار مشروعه و قلبه يضجّ بمصير ابنته ..

كان يجلس في مكتبه، والليل ينسدل على نوافذ المختبر مثل ستارٍ من زجاج أسود. أمامه صورة لآفا وهي تضحك في عيد ميلادها الأخير. شعرها الخرنوبي يتطاير، وشموع الكعكة تتراقص على وجهها مثل نجوم صغيرة تخاف أن تنطفئ.

همس لنفسه، بصوتٍ لا يسمعه أحد :

= ثلاثون يومًا فقط لتغيب هذه الشموع إلى الأبد ؟ لا، ليس بعد. إن كان القدر حتمياً، فربما يمكنني أن أربكه، ولو بخطأ بسيط في معادلة الحياة.

في تلك اللحظة، شعر أن العلم - الذي كرّس له عمره - ليس سوى محاولة مستمرة لإقناع الله بتغيير رأيه. لكن كيف يمكن لعقل بشري أن يعيد كتابة نصّ كتب قبل ولادة النجوم ؟

بدأت الأفكار تتسلل إلى ذهنه كوميض خافت، ثم تتجذر ببطء حتى تخمّرت يقيناً :

إن كانت الحادثة هي ما سيقتلها، فعليه أن يُبعدها عن طرق السيارات. أن يأخذها إلى مكانٍ لا طرق فيه، لا ضجيج، لا مصادفات ميكانيكية. ترصد اللحظة المناسبة لتؤكد نبوءة الشيفرة.

كان منزله الريفي في الجبال أول ما خطر له. هناك، الطرق ضيقة، لكنها شبه مهجورة. الطبيعة تبتلع الأصوات، والوقت يسير ببطء كأنه ينتظر شيئاً، و في محيط منزله لا وجود لطرق أو سيارات .. قال في نفسه :

= سأصعد بها إلى هناك قبل الموعد بأيام و بالتالي لن تموت بحادث سير قبل وقتها. و في المنزل لا يمكن لمركبة أن تعترض طريقها .. و بالتالي سأغلق عليها أبواب القدر من كل الجهات ..

في الصباح، وقف أمام نافذة غرفتها. كانت آفا نائمة، وجهها الصغير غارق في ضوء رمادي يمر من الستائر كأنه ضوء ما قبل الفجر في آخر العالم.

اقترب منها، ولمس جبينها. تذكر كيف كان يشرح لها وهي طفلة أن الجينات تشبه القصص، وأن كل خلية في جسدها تحفظ فصلاً من روايتها الخاصة.

قال بصوتٍ خافت :

= لو كنت تعرفين، يا صغيرتي، كم حاولتُ أن أغير سطور قصتك.

فتح النافذة، فهب نسيم بارد. نظر إلى السماء. كانت الغيوم تتكور ببطء فوق الأفق، كأنها تخفي شيئاً لا يريد أن يُقال.

هناك، في ذلك الصمت، شعر أن الكون كله يراقبه. أن الطبيعة تعرف ما ينوي فعله، وتنتظر لترى إن كان الإنسان يستطيع أن يتحدى مصيره .. ما يزال أمامه أسبوع قبل الموعد المحدد بمطرقة الجينوم

قبل الرحيل بساعات، بدأ كاين يحضر كل شيء: أدوات طبية، عينات، حاسوبه المحمول، وحتى المجهر الرقمي. لم يكن يستطيع

ترك مشروعه خلفه. العلم بالنسبة إليه كان امتدادًا من الأبوة، سعيًا
آخر لحماية الحياة، بطريقة غير عادية.

أما أندريه وميران، فكانا يراقبانه بصمتٍ مترددٍ.

قال أندريه :

= أوريل، أنت تعلم أن ما تفعله ليس منطقيًا. إن كانت النبوءة
صحيحة، فلن يمنعها الجبل ولا البحر.

فأجابه كاين، بعينين حمراوين من السهر:

= المنطق هو ما يصنع الجدار بيننا وبين المعجزة. أحيانًا، لا بد أن
نؤمن بما لا يُقاس.

قالت ميران، بصوتٍ خافت كهمس الغبار:

= أنت تحاول أن تخلق قدرًا جديدًا من رماد القديم. لكن الرماد لا
يُنبت إلا الوهم.

ابتسم، وترك كلماتها تتساقط كرمادٍ فعلاً. ثم همس :

= ربما يكفي أن أمنحها وقتًا أطول لتضحك. هذا وحده معجزة كافية.

في اليوم التالي، كان الطريق إلى الجبال مبللًا بالمطر.

السيارة الرمادية تشقّ الضباب، كأنها تسير داخل حلم بارد لا يعرف
البداية من النهاية. آفا تجلس في المقعد الخلفي، تحت غطاءٍ صوفيٍّ،
تنظر إلى الغابات المبللة بالخضرة وتقول بصوتٍ ناعم :

= أبي، لماذا كل هذا البُعد ؟ هل نذهب في عطلة ؟

ابتسم، لكنه لم يجرؤ على النظر في عينيها.

= نعم يا حبيبتي، عطلة صغيرة ... قبل أن يأتي الربيع.

أجابته وهي تضع رأسها على النافذة :
= أحب الجبال. تبدو وكأنها تحرس السماء.

شعر كاين أن قلبه يتشقق كجبلٍ من جليد. تلك الكلمات ، كانت أبسط
من أن تكون نبوءة، لكنها كانت نبوءة بالفعل.

في الوقت ذاته، على بعد أميالٍ من هناك، كانت زويا تسير بسيارتها
الصغيرة باتجاه الجبال نفسها لكن لغاية مختلفة جذرياً ، **فبينما كان
كاين يهرب إلى الجبل تجنباً للموت ، كانت زويا تتجه إليه قاصدةً
الموت بذاته.**

السماء رمادية كالمعدن، والرياح تعصف على زجاج السيارة كما لو
كانت تحاول ثني قرارها.

لم تكن تعرف لماذا اختارت هذا اليوم تحديداً، ولا لماذا قادت الطريق
إلى ذلك الجبل الذي تعرضت فيه للاعتداء بالذات .. كل ما كانت
تعرفه أن حياتها لم تعد تحتل المزيد من الخسارات، وأنها - بعد كل
شيء - لم تعد تؤمن أن للأمل مكاناً في هذا العالم.

كانت تفكر:

= ربما الموت ليس فناءً ، بل تحرر من الوعي الثقيل.

تذكرت لحظات الاعتداء، كيف فقدت السيطرة على جسدها لأول
مرة، وكيف شعرت بعدها أن روحها صارت مكسورة إلى الأبد.

قالت لنفسها :

= سأنهي هذا الآن. لا مزيد من الألم، لا مزيد من المحاولات.

وفي مكانٍ ما بينهما، كانت الرياح تتقاطع كأنها ترسم خطوط مصيرٍ
غير مرئي، يُقرب بين طريقين لا يعرفان بعضهما.

كاين يقود بصمت، والضباب يزداد كثافة.
وزويا تصعد بتهور يعكس رغبتها في التحرر من آلامها، لا ترى
إلا الظلال المتحركة للأشجار، تشبه
أشباحًا تلوّح لها وداعًا.

الوقت نفسه صار هشًا، كأنه ينتظر اللحظة التي يتشابك فيها كل
شيء.

ثم، فجأة، ضوءان يقتربان من اتجاهين متعاكسين، على طريقٍ جبلي
ضيق، تلتف حوله الرياح مثل أفعى من بخار.
صرخة مكبوتة في حلق كاين، وصدى آخر في صدر زويا.
اللحظة التي كتبها الجينوم جاءت قبل مواعدها.
الحديد يصطدم بالحديد. الزجاج يتناثر كأحلامٍ تحطمت دفعةً واحدة.
الصمت بعدها كثيف، كأنه صدر الكون يلهث.

حين أفاق كاين، كان كل شيء حوله يسبح في ضوءٍ أبيض مشوّش.
شعر بألمٍ حاد في ذراعه وضلوعه.
أول ما رآه كان الدم، ثم جسد آفا الصغير ممددًا بجانبه، مغطى
بالزجاج والتلج.
صرخ، صوتٌ يخرج من أعماق لا اسم لها.

= آفا ! آفا !

حاول الزحف نحوها، لكن جسده خائنه.

كانت عيناه تبحثان عنها كما لو أنه يبحث عن فجر في آخر أنفاس الليل ..

زويا، من الجهة الأخرى، كانت ملقاة على الأرض، وجهها نصف مغطى بالتراب والثلج. شعرت أن العالم يدور حولها ببطءٍ قاتل. سمعت صوت طفلة تبكي، فحاولت النهوض، لكن الألم شدها إلى الأرض.

في تلك اللحظة، لم تفكر بأنها أرادت الموت، بل بأنها لا تريد أن يموت أحد بسببها.

بعد ساعات، كانت سيارات الإسعاف تملأ المكان باتصال نجدة من كاين. أضواؤها الحمراء تمزّق الضباب مثل قلوبٍ مشتعلة.

كاين محمول على نقالة، ويده لا تزال ممدودة نحو الجهة التي اختفت فيها ابنته التي حملت على نقالة أخرى ..

زويا نقلت إلى سيارة أخرى، تهمس بالدموع وهي تغيب في وعيها :

= لم أكن أريد هذا ... لم أكن أريد الموت على حساب الآخرين

في المستشفى، اجتمع الصمت مع أجهزة التنفس الاصطناعي في جوقةٍ باردة.

آفا في العناية المشددة، جسدها الصغير محاط بأنابيب وأسلاكٍ كأنها جذور آلةٍ تبحث عن حياة.

كاين يراقبها من خلف الزجاج، ملامحه مزيج من الهلع والدهشة

والاستسلام.

قال الطبيب بصوتٍ خافت :

= لقد فعلنا كل ما بوسعنا ... الموضوع الآن بين يدي السماء ..

أدار كاين وجهه نحو النافذة. كان الغروب يرسم السماء بألوانٍ تشبه نزيفاً جميلاً.

قال لنفسه، وهو يبتسم بمرارة تدرك المصير القادم :

= لقد أخبرتنا الشيفرة بكل شيء ... حتى موعد انكسار القلب.

تلك الليلة، جلس أوريل على مقعدٍ خشبي خارج المستشفى بذراع مجبرة و قطب جراحية ترسم خريطة للألم هنا و هناك على جسده. الجبال من بعيد تلوح كالظلال.

أغمض عيني، وتخيل وجه ابنته وهي تضحك، كأنها تجلس إلى جواره لا بين أسرة العناية المشددة خلفه ، ترقص بين الهواء والضوء والذاكرة.

تساءل في نفسه :

(هل كنا نحاول أن نهرب من القدر، أم أننا كنا نسير نحوه من البداية ؟)

لم يجد جواباً، لكنه شعر أن شيئاً تغير داخله. أن العلم، رغم جبروته، عاجز عن تغيير أبسط معادلة في علم الوجود : (**لا حذر من قدر .. و لا هرب مما كتب**)

وفي السرير المجاور لآفا ، كانت زويا تستيقظ ببطء. ساقها في الجبس، رأسها يلفه ضماد.

تذكرت الصدمة، تذكرت بكاء الطفلة ، وتذكرت الضوء الذي اجتاحتها قبل أن يغيب كل شيء.

أحست أن القدر سحبها من على حافة الموت ليضعها في مواجهةٍ مع معنى جديد للحياة.

همست لنفسها :

= ربما لم يكن الموت ينتظرني ... ربما كنت أنا التي تنتظر الحياة.

بعد أربعة أيام من الحادث ، و في الموعد الذي حدده جينوم آفا بالضبط ، توقف قلبها عن النبض فارتجّ المكان بأصوات الأجهزة الطبية التحذيرية .. صعدت روحها إلى السماء كنجم صارع المرضى لخمس سنوات ثم أتم رسالته و انطفأ ، لا كما أراد كاين الذي نجا ، ولا كما تمنّت زويا التي نجت بدورها ، بل كما أراد الكون أن يحدث ، بحروفٍ صامتة لا تُقرأ إلا بالقلب.

وفي مكانٍ ما، بعيدًا عن المختبرات والمعادلات، ظلّ القدر يبتسم ابتسامة غامضة، كأنه يقول :

(حتى حين تعرف النهاية، ستظل تمشي نحوها بخطى الحب ذاته .. كفراشة تنجذب إلى النار لتحترق بها)

الفصل العاشر

نقطة أمل

لم تزل المدينة تلبس ثوب الحداد حين خرجت زويا من شقتها الصامتة، حاملةً على كتفها معطفاً رمادياً أثقل من جسدها، وكأنها تحمل معه ذكرى لم تُدفن بعد و عكازها معها.

كانت شوارع المدينة مبلّلة، والثلج الذائب على الحواف يلمع مثل بقايا حلم لم يصمد أمام النهار. في كل زاويةٍ تمرّ بها، في كل بركة ماء تنظر إليها ، رأت انعكاس وجهٍ لم تعد تعرفه.

كان صباح جنازة آفا ، الطفلة التي ماتت في الحادث المأساوي قبل أسبوع بتهور من زويا نفسها.

لم تكن زويا تعرفها، لكن ثمة خيط غير مرئي كان يشدّها إلى تلك الجنازة كما لو أن قلبها يعرف شيئاً لا تعرفه هي بعد ، أو ربما عقدة الذنب تجذبها إليها.

هناك، عند البوابة الحديدية للكنيسة، وقفت وسط الحشود. المآذن والصلبان صامتة، والسماء رمادية كجرح لم يلتئم بعد.

الناس يتحدثون بصوتٍ خافتٍ عن أوريل كاين، العالم الذي تحدّى القدر، ثم خسره في لحظة.

في المقاعد الأمامية جلس كاين، ووجهه لا يحمل سوى بياضٍ ذابل، كأنه جزء من الثلج.

تذكّرت فوراً؛ رأت ملامحه يوم الحادث على نقالته، اليوم الذي أوشكت أن تقفز فيه من الجرف قبل أن يحبط الحادث نيتها .. ذاك الرجل الذي صرخ باسم آفا ! قبل أن ينهار كل شيء.

دموع الحضور لم تكن تنهمر من العيون، بل كانت تصدر من الداخل كصوتٍ معدنيٍّ صامت، يسقط في جوفٍ بعيد.

لم تفهم زويا سبب وجودها هناك، سوى أن شيئاً فيها يريد أن يودّع العالم من خلال عيني هذا الرجل الذي يعرف معنى الفقد مثلها.

بعد المراسم، حين تفرّق الناس تحت المطر الخفيف، وجدت زويا نفسها تمشي خلف كاين حتى باب الكنيسة القديم، كأنها تتبع ظله لا خطاه.

لم تنتظر دعوةً للدخول، ولم يسألها من هي. جلسا فقط بصمتٍ في غرفةٍ مضاءةٍ بنورٍ باهت.

قالت أخيراً:

= أنا زويا .. كنتُ هناك، في الجبل يوم الحادث. كنت أستقل السيارة الأخرى .. تعازي الحرة بفقدك .. لا كلمات تخفف وطأة الحزن ، أعلم .. لكن عواطفها كلها تقف إلى جوارك ، فأنا أفهم تماماً معنى الفقد .. لقد خسرت نفسي منذ أسابيع و لذلك بالضبط كنت هناك يوم الحادثة ..

رفع رأسه ببطء، نظر إليها نظرة الإنسان الذي صار لا يثق بالسماء ولا بالعلم، ثم أجاب بصوتٍ منخفض :

= أهلاً آنسة زويا .. شكراً لمواساتك .. أما أنا فكنت هناك لأنني كنت أحاول أن أنقذ ابنتي من قدرٍ كتبته بيدي.

زويا لم تفهم ..

= قدرٌ كتبته ؟

ابتسم كاين بمرارةٍ تشبه اعترافاً :

= كنت أعمل على مشروع لترجمة الجينوم الإنساني إلى لغة واضحة
تشرح قصة حياة الإنسان في محاولة لإنقاذ ابنتي آفا من مرضها
الخلقي أو على الأقل معرفة كم تبقى أمامها لتعيشه. كنا نظن أننا
نرسم المستقبل، لكن تبين أننا كنا نستدعيه.

حين حلتُ شفرة ابنتي آفا، وجدت فيها تنبوءاً لا علاقة له بمرضها
اللعين ، بل بحادث سيرٍ سيقتلها بعد ثلاثين يوماً .. ظننتُ أنني
أستطيع تغيير المصير إن أبعدتها عن صخب المدينة و طرقها و
حوادثها ، فأخذتها إلى الجبل .. لكن الطريق الذي هربنا عبره، كان
هو ذاته الطريق الذي قادنا إلى النهاية.

صمت لحظة، ثم أضاف :

= وكأن الشيفرة كانت تعرف أننا سنهرب، فاختارت لنا طريق
الهروب ليكون طريق الموت.

نظرت إليه زوياً نظرة من رأى في الآخر مرآة لنفسه :

= غريب للغاية !! ، كنت هناك تحاول إنقاذ ابنتك من الموت، وكنتُ
أنا أحاول إنقاذ نفسي منه بأن أذهب إليه بنفسي و أنهي معاناتي .

رفع حاجبيه بتعجبٍ حذر:

= أردت الانتحار !! ... لماذا ؟

أخفضت رأسها، أصابعها ترتجف على طرف العكاز:

= لأن ذاك الجبل هو المكان الذي بدأ فيه كل شيء. فقبل أسابيع من
الحادث، تعرضتُ هناك لاعتداءٍ من قبل رجل متوحش ، لا أريد أن
أصفه .. عدتُ من الجبل فتاةً أخرى خسرت جسدها و روحها و

أظلمت الدنيا في عينيها .. و بعد أسابيع من الألم النفسي المنهك بلا أمل ، قررت أن أعود للمكان ذاته، لا لاستعادة العدالة، بل لإنهاء الحكاية .. كنتُ أنوي القفز من الجرف إلى الوادي ، لكنك ظهرت قبل أن أفعل و كان الحادث الذي قتل ابنتك و أنقذني في مفارقة لا أفهما !

أوريل ظلّ صامتًا، ثم قال ببطءٍ كأنه يخاطب نفسه :

= غريب. كنت أهرب من موتٍ متنبأ به، وأنتِ كنتِ تبحثين عن موتٍ تختارينه.. كأن الجبل كان مصهرًا واحدًا لأقدارٍ تبحث عن معنى النجاة بطرق متناقضة.

ابتسمت زويا بحزن ..

= أحيانًا لا يريد الإنسان النجاة، بل يريد فقط أن يتوقف الألم.

= أو ربما يريد أن يفهمه ..

= ربما .. لكني لم أعد أثق بالفهم. كنتُ ضحية تبحث عن الحقيقة، ثم اكتشفتُ أنها أقسى من الكذب أحيانًا.

أوما برأسه، ثم قال :

= تعرفين، حين بدأتُ مشروع الجينوم، كنت أؤمن أن الحقيقة خلاص .. لكن حين قرأت في شفرة ابنتي موعد موتها، تمنيتُ لو بقيت طوال عمري جاهلاً.

حلّ الصمت بينهما بعد كلماته الأخيرة كريحٍ تمرّ في ممرّ ضيق. على الطاولة بينهما، وُضعت صورة لآفا، تبتسم فيها وهي تحمل مجسمًا صغيرًا للكوكب زجاجي.

زويا قالت :

= هل كنت تحبها إلى هذا الدرجة كي تسخر حياتك لإنقاذها ؟!

ضحك كاين بخفوت حزين :

= الحب كلمة صغيرة، يا زويا. آفا كانت كلّ حياتي.

حين ماتت، شعرتُ أنني خنتها مرتين : مرة لأنني عرفت موعد موتها ولم أقدر أن أغيره، ومرة لأنني صدقتُ أن العلم أرحم من القدر.

ساد صمت طويل مجدداً بينما السماء تتلج بقوة في الخارج ، ثم ذوبته زويا بصوت دافئ :

= و هل يمكن أن أرى مصيري من خلال جينومي بدوري ؟

= مصيرك ؟!

= نعم. لا أريد أن أعيش مجدداً في الظلام. أريد أن أعرف إن كنتُ سأتعافى، أم أنني مصممة على الانهيار. إن كان فيّ ما يستحق أن يُنقذ ، أم أن عليّ إنهاء مأساتي من جديد ؟!.

كاين ظلّ يحدّق فيها للحظات ، ثم قال بصوت غامض:

= ترجمة الجينوم ليست نجاةً يا زويا بل ربما موت بطيء كل يوم قبل الموت الأخير .. ربما كان من الأفضل لك أن تجهلي مستقبلك .

= بل أريد أن أعرفه .. أنا الغريق سيد كاين ، فما خوفي من البلل ؟!

نظر إليها بدهشة .. أطرق رأسه و هو يفكر برويّة ، ثم قال :

= إن كان هذا قرارك الأخير ، سنجرّب.

تفرقت شفتاها عن ابتسامة تصارع حزنها العميق لتنتصر عليه في
جولة :

= أشكرك .. هذا أمني الأخير و لا أريد أن أفوته ..

بعدها بأيام ...

في المختبر، تحت الضوء البارد، جلست زويا صامتة.
الإبر الصغيرة، الأجهزة، أنابيب التحليل ، كلها بدت كأنها كهنة معبدٍ
حديثٍ يتهيؤون لطقسٍ غامض.
حين أخذ كاين العينة، سألها :
= هل تخافين مما قد تعرفينه ؟

قالت بابتسامةٍ مرتجفة :

= لا أكثر مما أخاف مما أجهله.

بدأت الشاشات تومض ببطء، كأنها تتنفس.
في عينيها مزيجٌ من الفضول والرعب.

مرّت الساعات ببطءٍ ثقيلٍ .. و مع حلول ذاك المساءِ الشتوي ، عاد
كاين من غرفة جانبية يحمل ملفًا صغيرًا، وجهه متعب لكنه يحمل
في عينيهِ لمعةً غير مألوفة.

قال لها وهو يضع الورق أمامها :
= كتاب حياتك بين يدي .. لقد قرأتُ شفرتك.

ترددت أن تمد يدها.
= وماذا وجدت ؟

جلس أمامها، صوته هادئ كطبيبٍ في مواجهة معجزة:
= جينومك يقول إنك مصممة على النجاة. هناك مؤشرات قوية على
قابلية الاستقرار النفسي، لكن الأهم من ذلك كله

توقف لحظة، كأنه يختار كلماته بعنايةٍ حكيم :
= بعد عام بالضبط، ستلتقيين برجلٍ تتوافق جيناته العاطفية معك
بدرجةٍ نادرة. العلاقة التي ستنشأ بينكما ستغير خريطة دماغك
الانفعالية كلياً، و ستعيد التوازن الكيميائي الذي اختل بعد الصدمة ..
إنها ليست نبوءة بالحب فحسب، بل بوعدٍ بالتماسك و بالانتماء.

زويا صمتت.
كانت تنظر إلى الأرقام وكأنها طلاس.
ثم سألت، بصوتٍ مرتجف :
= و هل ... و هل يمكن أن يكون ذلك حقيقياً ؟

قال كاين :
= الجينوم لا يكذب أنسة زويا .. إنه قدر السماء الذي لا يختلّ أو
يتغير ، و حادثة ابنتي آفا خير دليل على ذلك .. ستعيشين أنسة زويا
.. بل أكثر من ذلك ، ستُحبين الحياة.

في تلك اللحظة، شعرت زويا أن صخرة كانت تجثم على قلبها و هوت بعيداً .. تنفست بعمق لأول مرة منذ حادثة الاعتداء و كأن شيئاً دافئاً بدأ يتسلل إلى صدرها، شيئاً يشبه الضوء بعد ظلامٍ طويل.

قالت بصوتٍ منخفضٍ يشبه الصلاة :

= ربما ... كان الضوء الذي دخل غرفتي قبل الحادث ليس صدفة.
كأن السماء تذكّرني بأن ثمة حياةً تنتظرني ... ربما كان هو ... ذاك الشاب الذي لم أره بعد.

ابتسم كاين :

= و ربما لم يكن الضوء شخصاً، بل وعداً.. الوعد هو ما يجعلنا نحيا رغم المعرفة، لا بسببها.

خرجت زويا من المختبر وهي تشعر كأنها تمشي على هواءٍ خفيف.
المدينة ما زالت رمادية، لكن الرماد صار أقل وطأة.

في صدرها الآن شيءٌ صغير يشبه النبض الأول لطفلٍ لم يولد بعد.
لم تعد تفكر في الجبل، ولا في الاعتداء، ولا في الموت، بل في العام القادم، في اللقاء الموعود، في الاحتمال الذي قد يصير حياة.

أحست أن السماء لم تكن تتعدى على الغيب، بل تمنح الإنسان طريقاً نحو الأمل، بشرط أن يمتلك الشجاعة لقراءته.

وعندما عادت إلى غرفتها تلك الليلة، رأت الشعاع ذاته يتسلل من النافذة.

لكنها لم تغلق الستارة كما اعتادت، بل جلست أمامه طويلاً، تبتسم، كأنها أخيراً فهمت أن النور لا يُكشف لمن ينتظره، بل لمن يختار أن يبقى حياً حتى يراه.

الفصل الحادي عشر

لن نفهم نفسك إلا بعد

أن نفقد كل شيء

منذ رحيل آفا ، كان الزمن يمشي في مختبر كاين كأنه يمشي في متحف للصمت. الأجهزة نفسها، الأضواء نفسها، الأوراق المبعثرة نفسها... لكن كل شيء فقد قلبه النابض ، فالشخص الذي تم تأسيس المختبر من أجله رحل و أخذ الغاية و المعنى معه .

أما زويا فقد أصبحت نجماً قريباً من مدار كاين، تدور حوله بهدوء لا يخلّ بالسماء، بل يرمم صدعها الخفي. فهي آخر وجهٍ رآته ابنته آفا قبل أن تنطفئ، آخر نفسٍ تشاركتاه معاً في وحدة العناية المشددة ، وآخر صمتٍ فاصل بين الحياة والموت. ومع ذلك، لم ينبض قلب كاين بالحدق تجاهها ، كونها المتسببة بالحادث ، كما تقتضي طبائع البشر حين يفتشون عن مذنّب يُسكّتون به وجعهم، بل شعر بشيءٍ آخر لا اسم له إلا الامتنان. كان يرى فيها امتداداً لصوت ابنته الأخير، الشاهد الصامت الذي أتمّ حكايتها وترك له أثراً إنسانياً يتنفس مكانها.

لقد جمعتهما الخسارة كما تجمع النار رمادها. كلاهما خرج من حادثٍ مختلفٍ لكنه متشابه في جوهره : هو فقد ابنته في ارتطامٍ عبثيٍّ بين الحديد والقدر، وهي فقدت ذاتها حين سلب منها معنى الأمان، فصارت تجرّ وراءها ظلاً لا يفارقها. كانا جرحين يسيران على قدمين، يلتقيان لا ليزيدا الألم، بل ليتقاسماه حتى يخفّ ثقل العالم عن كتفيهما.

وبمرور الأيام، تلاشت المسافة بينهما كما يذوب الجليد تحت دفء يدين مرتجفتين. صارا صديقين في المعنى العميق للكلمة، لا يكتفيان بتبادل الرسائل، بل يتبادلان ظلال أفكارهما، ويبوح كلُّ منهما بما لا يُقال عادةً للعالم.

كانت زويا تكتب له حين يثقل عليها الليل، وكان كاين يجد في

من النجاة الهادئة، كمن يمشي فوق حافة الهاوية متكئاً على يدٍ يعرف أنها قد تسقط معه، لكنها على الأقل لن تتركه يسقط وحيداً.

كتبت له زويا في إحدى الليالي :

(أحياناً أشعر أنّ الحزن يشبه البحر؛ لا يمكن مقاومته، لكن يمكن تعلم السباحة فيه)

فردّ كاين :

(وأنا أظنّ أن الألم هو المعمل الذي يُعاد فيه تشكيل الإنسان من جديد. الخلايا تلتئم، لكنّ المعنى لا يلتئم إلا بالمشاركة)

لم يكن بينهما وعدّ، ولا رغبةً في شيءٍ محدّد. كان وجودهما في حياة بعضهما نوعاً من الطمأنينة المتبادلة ، كأنّ كلّ واحدٍ منهما وجد في الآخر مرآةً لجراحه، وملاًداً لشيءٍ لم يقدر العلم على تفسيره.

مع مرور الشهور ، بدأ كاين يزورها في بيتها القديم على أطراف المدينة؛ بيت تغمره نباتات متسلقة، تشبه زويا في عنادها حين تنمو من شقوق الحجارة. كانا يجلسان على الشرفة يتحدثان عن الحياة كما يتحدث فيلسوفان هاربان من معبدهما : بلا أجوبةٍ، لكن بصدقٍ كامل.

في إحدى الأمسيات قالت له زويا، وهي تحدّق في الغروب :

= هل تظنّ أن الإنسان يمكنه أن يحبّ بعد أن يفقد كلّ شيء ؟

فأجابها بعد صمتٍ طويلٍ :

= ربّما لا يحبّ بالمعنى القديم. لكنّه يحبّ بطريقةٍ أعمق : كمن يرى الآخر امتداداً لشيءٍ فُقد في داخله. الحبّ بعد الفقد ليس بدايةً جديدة، بل إعادة تعريفٍ لما تبقى من القلب..

تأملت كلماته وقالت بنبرة خافتة :

= كنت أظن أن المعرفة تُنقذنا، لكنني أراك تختار الغموض الآن ..

ابتسم كاين وأجاب :

= المعرفة أنقذتني مرّة، ثم قتلتنني مرّة أخرى. لقد عرفتُ موعد موت ابنتي قبل أن تموت... وما نفع العلم حين يعجز عن تغيير المصير؟ أحياناً، الجهل نعمة، لأنّ الغيب هو آخر مساحةٍ يتركها الله لنا كي نمارس فيها الأمل ..

في تلك الأيام بدأ ما يشبه الضوء يعود إلى حياتهما. لم يكن ضوء علم جديد، بل ضوءاً إنسانياً بسيطاً : أن يجد أحدهما الآخر في لحظةٍ كان كلُّ منهما يظنّ أنه انتهى.

مع الوقت، شعر كاين بشيءٍ لم يجرؤ على تسميته، ليس لأنّه يخافه، بل لأنّه يحترمه. كان يرى في زويا ظلّ ابنته حين تضحك، ونضج امرأةٍ عرفت أعماق الألم ثم خرجت منه أكثر صفاءً. كانت تذكّره بأنّ الشفاء لا يأتي من التجارب المخبرية بل من الحضور الصادق لإنسانٍ آخر.

وذات مساء، بينما كانت الأمطار تهطل على زجاج المقهى الذي يجتمعان فيه، قال كاين بصوتٍ خافتٍ :

= زويا، لسنواتٍ كنت أظنّ أنني أستطيع أن أحمي من أحبّهم بالمعرفة. لكنني أدركت أنّ المعرفة لا تقي الموت، ولا الحزن، ولا القدر. كلّ ما يمكننا فعله هو أن نحبّ جيداً قبل أن ينتهي الوقت و تصمت الكلمات.. و لا أريد أن أفوّت على قلبي فرصة اعتراف بسبب حسابات العقل المعقدة و الجافة ..

أجابته بعينين دامعتين :

= لم أفهم ..

قال :

= إن وجودك في حياتي ملأ الفراغ الذي تركته زوجتي أولاً ثم ابنتي آفا ثانياً .. وأعلم أيضاً أنني لا أريد أن أفقدك .. أنت أنثى استثنائية بشخصيتك القوية و روحك الشفافة و عقلك المتقد .. لقد خبأ ذاك القرصان الذي اعتدى عليك صندوق كنز اسمه زويا في جزيرة نفسية معزولة .. و من حظي الجيد أنني عثرت عليه .. ليس عن طريق الصدفة بل بأنامل القدر ..

كانت تلك المرة الأولى التي يعترف فيها بحبه ..

لم تجبه زويا بكلمة. مدّت يدها فقط، ووضعتها فوق يده. كان ذلك كافياً ، لا اعتراف ولا إنكار، فقط لحظة إنسانية مكتملة.

مع نهاية العام على لقائهما الأول، تحوّل لقاؤهما إلى عادة تشبه الصلاة اليومية. ذهبوا إلى الجبال في ذكرى حادث السير ، تركا وردة صغيرة على الطريق حيث توقفت الحياة مرّة، ثم وردة أخرى في مكان التخميم حيث كانت لحظة التحول الجذرية في حياة زويا ، ثم عادا إلى المدينة وهما أكثر صمتاً.

حلّ الربيع مبكراً هذا العام وذابت الثلوج لتكشف المروج ، جلسا في مقهى صغير يطلّ على النهر. هناك قال لها كاين :

= تذكرين ما قالته الشيفرة عنك ؟ بعد عام من الآن ستجدين رجلاً يتوافق مع جراحك على نحو مثالي ثم تتزوجينه ؟

ابتسمت بخجلٍ وغمغت :

= نعم، وكنت أظنّها مزحة من القدر.

قال وهو ينظر إليها بعينين دافئتين :

= ربّما لم تكن مزحة. زويا، لقد انتظرتُ أن ينتهي الحداد كي لا أخلط بين الحنين والحبّ. لكني الآن أعرف أنني أريد أن أبدأ معك حياةً جديدة ملونة و بهيجة. فهل تقبلين الزواج بي ؟

ساد صمتٌ طويلٌ، كأنّ الهواء نفسه ينتظر الإجابة. ثم قالت زويا :
= أتعلم ما المدهش في الموضوع ؟ أنني لم أعد أرى فيك الباحث، ولا الصديق، بل الإنسان الذي كان يجب أن ألتقيه يوم اخترت الموت. يبدو أن القدر كان أكثر حكمةً منا و رافةً بنا .. نعم ، أقبل و بكل سرور و أمل

وهكذا اكتملت نبوءة الجينوم مرّةً أخرى، ولكن لا كما أرادها العلم، بل كما أرادتها الحياة.

تزوجا في حفلٍ صغيرٍ في بيته الريفيّ المطلّ على الغابة نفسها التي شهدت الحادث القديم. حضر أندريه وميران وعددٌ من الأصدقاء القدامى. لم يكن هناك ضجيج ولا إعلام؛ فقط موسيقى هادئة، وضوءٌ ذهبيّ يتسلّل من بين الأشجار.

في تلك الليلة، وقف كاين وحده للحظةٍ أمام نافذة البيت ونظر إلى السماء. كان الليل صافياً كمرآة، ونجمةٌ بعيدة تلمع كما لو كانت تناديه باسم آفا . عندها ابتسم وقال في نفسه :

(لقد فهمت الآن يا صغيرتي. لم تكن النبوءة خطأ في الكود... كانت درساً في معنى الغيب. إن أجمل ما في الحياة هو ما لا نعرفه بعد ..)

بعد الزواج، استمرّ كاين في عمله فترةً قصيرة، ثم بدأ يبتعد عن المختبر. صار يرى أن المعرفة، حين تُنزع من الرحمة، تتحوّل إلى عبءٍ لا يُحتمل.

ذات يوم جمع أندريه وميران في مكتبه، وقال لهما بنبرة هادئة حاسمة :

= أصدقائي، لقد وصلتُ إلى النهاية. المشروع سينتهي هنا. لقد حسبتُ كلّ الاحتمالات، ورأيتُ أن البشر يجب ألا يعرفوا مستقبلهم. المعرفة دون قدرةٍ على التغيير ليست علماً، بل لعنة ..

اعترض أندريه قائلاً :

= ولكن يا كاين، لقد كان هذا حلم حياتنا ! أن نفكّ شفرة القدر .. و العالم كله بانتظار إخراج مشروعنا إلى النور

ابتسم كاين وقال :

= وها نحن قد فعلناها .. لكننا حين عرفنا، فقدنا الطمأنينة .. **إن الذي يعرف الغد يفقد لذّة الانتظار، والذي يرى نهايته يفقد رغبة البداية.** أحياناً، أجهلُ نفسي كما يجهلها الآخرون، وهذا ما يجعلني حياً ..

قالت ميران، بنبرة مترددة حزينة :

= هل ستمسح كلّ شيء إذن ؟ كلّ البيانات ؟ كلّ التجارب ؟

أجابها بحزم :

= نعم ، سأترك القليل منها فقط، لتذكّرنا أننا اقتربنا من حافة الضوء ولم نحترق. لكنني سأغلق الباب إلى الأبد. من اليوم، سأختار أن أعيش كما يعيش الجميع ، بلا خريطة، بلا تنبؤ، بلا معرفةٍ مسبقةٍ بالنهاية ..

بعد أشهرٍ من ذلك القرار، كان كاين وزويا يعيشان حياةً هادئة في منزلهما الجبليّ. كانت تكتب في مواقع التواصل الاجتماعي

منشوراتٍ عن فلسفة المجهول ، و تعزف على كمانها الحزين
مقطوعات مبهجة و كأنه تصالح معها أخيراً، بينما يعتني كايين
بحديقته الصغيرة. لم يكن بينهما سوى حديثٍ متواصلٍ عن الزمن
والحياة والإيمان و الأمل ..

قالت له في أحد الأيام وهما يشاهدان الثلج يتساقط :

= أتظنّ أننا نعيش في عالمٍ يزداد معرفةً ويفقد حكمته ؟

فأجابها مبتسماً :

= ربّما. لقد تعلّم الإنسان أن يقرأ المجرّات لكنه لم يتعلّم أن يقرأ قلبه.
المعرفة ليست النقيض للغيب، بل هي مجرد ضوءٍ يذكّرنا بأنّ الظلام
موجود. حين كنتُ أبحث عن الشيفرة الكاملة ظننتُ أنني أقترّب من
الله، لكنّي كنتُ أبتعد عنه، لأنّي أردتُ أن أشاركه سرّه. الآن أكتفي
بأن أعيش سرّ الحياة دون أن أفكّه ..

قالت زويا وهي تميل برأسها إلى كتفه :

= وأنا اكتشفت أنك كنت النور في تلك الغرفة المظلمة، الشعاع الذي
دخل من النافذة في ذروة يأسٍ لم يكن سواك ..

ضحك كايين بخفوتٍ وقال :

= لا شيء سيغير حبي لك زويا .. و سأبقى كنجمٍ صغير يهوّن عليك
الظلام عندما تقسو الأيام ..

وفي آخر مساءٍ من ذلك الشتاء، كتب كايين على صفحةٍ من دفتره
القديم الذي كان يدون فيه ملاحظاته العلمية :

(لقد تعبْتُ من ملاحقة الغد، واكتشفتُ أن الإنسان لا يُخلق ليعرف
كلّ شيء، بل ليحبّ، ويخطئ، ويخاف، ويؤمن. إن السرّ الذي نبحث
عنه ليس في الجينوم، بل في قدرتنا على الصبر حين لا نعرف.

الغيب ليس عدو العلم، بل مكمله، لأنه يمنحنا المساحة التي نحتاجها
(لندرجو ..)

ثم أغلق الدفتر ووضعه في درجٍ قديم، وقال لزويا التي كانت تقرأ
بجانبه :

= هكذا تنتهي التجربة يا حبيبتي. لا في المختبر، بل في القلب ..
لنكون سوياً أباً و أمّاً لآفا كما تستحق..
ابتسمت هي وأجابت :

= وهكذا تبدأ الحياة الحقيقية أخيراً ، بغموضها الذي يمنحها معناها
و جمالها ..

أطفاً المصباح، وبقي ضوءٌ صغيرٌ يتسلل من خلف الستائر، يشبه
الشعاع الأول الذي دخل غرفة زويا ذات يوم، حين كانت وحيدةً
يائسةً في ظلامها.

لكن هذه المرة، لم يكن الشعاع غريباً ... كان امتداداً لحياةٍ بدأت من
الفقد، وانتهت بالمعنى ، لتصدق أخيراً مقولة **كافكا** التي طالما
أحببتها :

(لن أكتشف الحقيقة إلا بعد أن أفقد كل شيء)



الرواية الثامنة

.. 29

فصول الرواية :

- أفاتار ..
- شجرة الأراك ، حيث تبدأ الحكاية و تنتهي ..
- صرخة صخرة ..
- عنخ أوم ..
- العالم الآخر (حيّ بن يقظان) ..
- زهرة أبوردة ..
- لوح الويجا ..
- متى تقررع الأجراس ؟
- حلم .. حقيقة .. أم مرض نفسي .. ؟!

الفصل الأول

أفكار

الولايات المتحدة الأمريكية

كاليفورنيا / سان دييغو ..

2077 م ..

سيكويّا، رجل في مطلع العقد السادس من العمر، يقف كأنما الزمن لم ينل من جوهرة بقدر ما أهداه مسحة من الوقار. بنيّ الشعر، لكنّ خصلًا بيضاء بدأت تتسلّل من صدغيه و تتكاثر كما لو أنها إشارات من عالم آخر، رسائل صامتة من الماوراء توشّم رأسه بالخبرة والعُمق. عيناه، بلونٍ عسليّ مُعتّق، لا تنظر إلى الأشياء بسطحها بل تنفذ كالسهم إلى ما خلفها، كأنها اعتادت أن ترى ما لا يُرى، وأن تفتّش في ثنايا الغيب عن لغةٍ أبعد من الحروف.

ملامحه تجمع بين حدّة الذكاء ورهافة التأمل : جبهة عريضة توحى بانشغالات فكرية ثقيلة، شفاه رفيعة مترددة في البوح، تحمل أثر صراع دائم بين ما يمكن أن يُقال وما ينبغي أن يُكتم. في وجهه خطوطٌ حفرتها سنوات التدريس والبحث، لكنها ليست مجرد تجاعيد زمن، بل علامات تشبه خرائط سماوية، يقرؤها من يعرف أن عمر الإنسان ليس إلا طبقات من التجربة.

كأنّ مهنته، كبروفيسور في الماورائيات، انعكست على جسده ووجهه معًا : تلك الخصلات البيضاء تبدو كأدلة حسية على عبوره المستمر بين الواقع والمجهول، وذلك السكون العميق في ملامحه يوحي بشخصٍ يجلس على تخوم العالمين، يحاول أن يصغي إلى الهمس الغامض خلف ستائر الوجود. في حضوره، يُشعرك بأنك أمام رجل لا يتحدث عن الماوراء فحسب، بل يسكنه، ويجعل من هيئته نفسها نصًّا مفتوحًا على احتمالات الغيب.

عائلته، كأنها مرآة لوجوده المعلق بين العالمين، تتوزع بين نغم موسيقي، وعقلٍ يحاول فكّ ألغاز النفس، وقلبٍ صغيرٍ يرتجف أمام جرح لم يُلتأم بعد.

زوجته بريجيت ، موسيقية في طباعها قبل أن تكون في مهنتها، تعيش بين مفاتيح البيانو كما لو أنها تعيش بين مفاتيح الوجود. الأصابع التي تعزف على البياض والسواد ليست مجرد أدوات لإنتاج لحن، بل أدوات لاستحضار عوالم كاملة : الأبيض درجات الواقع المضيء، والأسود أصداء العالم الآخر حيث الظلال والسرائر. حين تجلس أمام البيانو، تبدو كعرافة تنسج سلماً صوتياً يربط الأرض بالسماء، والملموس بما لا يُمس. في وجودها، يكتمل سيكويها، كأن موسيقاها هي البوابة التي تتيح له عبور الماورائيات التي يدرسها، ولكن عبر الإحساس لا عبر النظرية.

الابنة كارمن، طالبة علم النفس، تحمل من أبيها ولع التفسير ومن أمها موهبة الإصغاء. لكنها تسلك طريقاً مختلفاً : تفتش في أغوار العقل البشري، تلاحق الهواجس والذكريات كما يلاحق أبوها الأرواح والمعاني. تنظر إلى أخيها الصغير كمن يرى في ذاته موضوعاً للدراسة وحقلاً للمحبة معاً. فهي ليست أختاً وحسب، بل أيضاً مرشدة صغيرة، تحاول أن تفتح أمامه طريقاً للخلاص. تعتقد أن جرحه ليس في اللسان بل في الذاكرة، في تلك اللحظة التي اخترقته كالسهم : صوت مجهول، مباغت، تسلل من خلف الظلام فترك في داخله خوفاً يتلثم حتى اليوم على هيئة تأتأة.

أما الابن رودولف، ففيه رهافة لا تليق بسنّه. كل كلمة يحاول نطقها تبدو وكأنها تمر عبر غابة من الأشواك، تتوقف وتتعثّر، لكن عينيه تبوحان بما لا يقال. هو مرآة هشة للبيت، نقطة ضعف محببة تُذكر

الجميع أن الوجود ليس كله متماسكًا، بل فيه انكسارات هي بحد ذاتها شكل من أشكال الجمال كما تروج فلسفة كين تسوجي اليابانية تمامًا.

وهكذا، تتوزع هذه العائلة بين صوت البيانو الذي يترجم سرّ الوجود، وبين العقل الذي يحلّ النفس ويحاول مداواتها، وبين الصمت المقطّع بارتعاشات الكلام. بيّتهم أشبه بمسرح صغير، يجتمع فيه العلم والفن والجرح، ليكونوا معًا أسرة تسكن على تخوم الظاهر والباطن، مثل سيكويَا نفسه.

سيكويَا في مهنته ليس مجرد بروفيّسور يجلس خلف مكتبه ليقرأ نظريات ويجمع المراجع؛ بل هو أقرب إلى رحّالة في المجهول، يمضي حياته بين خرائط اللامرئي. حين يتحدث عن الأرواح، تشعر أنه يخاطب حضورًا يجلس إلى جواره، لا أنه يروي فرضية أكاديمية. الأشباح، الجن، العمالقة، الأقزام، الجماد الذي ينطق بلسان غير مألوف، كلها بالنسبة له ليست مجرد أساطير للتسلية، بل شظايا من الحقيقة، مبعثرة عبر الأزمنة والثقافات، في انتظار من يملك الجرأة ليللمها.

كرّس سنواته لتدريس الماورائيات بوصفها علمًا من نوع آخر، لا يحده المختبر ولا يضبطه الميكروسكوب، بل يفتح مجاله عبر المخيال الجمعي والتجارب الفردية الغامضة. يؤمن أن كل حضارة تركت على صخورها أو في كتبها أو في أناشيدها أثرًا من هذا العبور، وأن الأرواح التي تتكرر في الحكايات الشعبية ليست محض خرافة، بل رموز لكائنات تتنفس على هامش عالمنا.

لكن تعمقه الأكبر كان في الروحانيات: حيث يلتقي الدين بالتراث، والأسطورة بالعقيدة. كان يقرأ نصوص الأديان كما لو أنها خرائط سرية تشير إلى ممرات خفية بيننا وبين ما بعد الموت. ينظر إلى

الطقوس، سواء في شرق الأرض أو غربها، باعتبارها محاولات بشرية لفكّ شفرة الغياب. من التصوف الإسلامي إلى المعتقدات الشامانية، من ترانيم البوذية إلى أساطير الإغريق، كان يرى خيطاً واحداً يربطها جميعاً : ذلك الشوق العميق لمعرفة ما يحدث للروح حين تغادر الجسد.

وفي محاضراته، لا يقتصر على العرض الأكاديمي، بل يستدعي الشغف الفلسفي : يسأل طلابه إن كانت الأرواح انعكاساً لوعينا، أم أننا نحن انعكاس لها. يسألهم إن كان الجماد الناطق مجرد استعارة شعرية، أم أن اللغة تسكن الحجر بطرق لم نكتشفها بعد. يضعهم أمام العالم الآخر، لا كعقيدة دينية ثابتة، بل كأفق مفتوح ينتظر التأمل.

لقد صار سيكويّا، مع مرور السنوات، أشبه بجسر : بين العلم والأسطورة، بين الأرض والسماء، بين الإنسان وما يظن أنه يجاوره في الظلام. في وجهه الموشوم بالتجربة، وفي كلماته التي تتردد كأصداء في قاعة المحاضرات، يلمس المرء أن الماورائيات عنده ليست مجالاً للدراسة وحسب، بل قدراً يسكنه منذ وُلد.

سيكويّا، رغم وقاره وعمق حضوره، لم يكن يخلو من ذلك الاضطراب الذي ينهش عقله في صمت : اضطراب الشخصية الوسواسية القسرية. لم يكن الأمر مجرد ميل إلى النظام، بل هوس بالكمال، كأن الفوضى تهدد كيانه في الصميم. مكتبه مرآة دقيقة لروحه : الكتب مصطفة بزاوية حادة واحدة، الأقلام مصفوفة كجنود في طابور، والأوراق مرتبة بحيث لا يعلو طرف على آخر. أي انحراف بسيط عن هذا النظام يُثير في داخله قلقاً أشبه بالعاصفة.

محاضراته الجامعية امتداد لهذه الوسواسية المهيبة : على شاشة العرض، تتناسق الألوان بدقة لا تسمح بزيادة أو نقصان، الصور

مختارة بعناية مهووسة حتى لتبدو مثالية أكثر من الواقع، أما نبرة صوته عبر مكبر الصوت فهي مدروسة، بحيث تحمل ترددًا معينًا يُرضي أذنه الداخلية. لم يكن يترك شيئًا للصدفة؛ كل تفصيل يجب أن يُعاد صقله حتى يلمع بالكمال. وهكذا، تتحول المحاضرة من درس إلى عرض مسرحي، مُعدّ بعناية مبالغ فيها، لكنه يترك في الطلاب أثرًا من الدهشة والرغبة معًا.

إلا أن وسواسه الأكبر، والأقرب إلى عقله وقلبه، لم يكن في الأوراق أو الصور أو الألوان، بل في فكرة مسيطرة واحدة تستبد به : الروح. هذه الفكرة لم تفارقه قط، كانت كضيفٍ أبدي يشاركه كل لحظة من حياته. في اليقظة تطلّ من بين كتبه، وفي النوم تزوره على هيئة رؤى منقطعة، في العمل تقاطعه وسط الشرح، وفي الراحة تهمس في أذنه. يسأل نفسه بلا انقطاع : ممّ صنعت الروح؟ كيف تشعر؟ بأي طريقة تغادر الجسد حين يجيء الموت؟

لكن السؤال الأشد إلحاحًا، والأكثر جدلية كان : هل الروح موجودة أصلاً؟ أم أن الأديان كذبة مختلفة كبرى صنعها العقل الإنساني كي يحتمل فكرة الفناء؟ هل نحن، في النهاية، مجرد خليط كيميائيات معقّدة، مزيج من خلايا ومواد تتحلل لتكون غذاءً للحشرات والديدان عقب الوفاة ، لا أكثر؟

هذا الصراع لم يكن مجرد نقاش فكري بالنسبة له، بل فكرة مسيطرة، أشبه بتيار كهربائي دائم يسري في دماغه، يشدّه تارة نحو الإيمان وتارة نحو العدمية. وبين هذين النقيضين، عاش سيكويًا حياته : رجلًا مهووسًا بالكمال، مرتبًا في كل تفصيل، لكنه في أعماقه غارق في فوضى وجودية لا يملك لها نظامًا.

أفنى سيكويًا عقودًا من عمره كما يُفنى السالك عمره في رحلة حجّ لا نهاية لها. لم يكن طريقه معبدًا ولا مضيئًا، بل متاهة متشابكة من الكتب والرموز والتجارب. منذ شبابه، أدرك أن سرّ الروح لا يطلّ من نافذة واحدة، فغاص في النصوص الدينية كما يغوص غواص في بحرٍ يفتّش عن لؤلؤة خفية. قرأ الأديان لا باعتبارها عقائد جامدة، بل باعتبارها شهادات بشرية على ما يتجاوز الإنسان : من النفخة الأولى في سفر التكوين إلى حديث الصوفي عن “النفس” الذي يربط الكائن بخالقه، من أناشيد الفيدا إلى مزامير داوود، من الإنجيل إلى القرآن، كان يبحث عن خيط واحد يربط هذه الأصوات المختلفة في نغمةٍ كونية واحدة.

لكن شغفه لم يتوقف عند النصوص، بل حملهُ إلى برديات مصر القديمة، حيث الروح تُوزن بريشة ماعت في قاعة الحساب. وإلى ألواح بابل حيث النفس ظلّ يرافق الجسد في عوالم أخرى. وإلى أساطير اليونان، حيث الأرواح تعبر نهر ستيكس بأجر زهيد من نحاس. كل حضارة كانت بالنسبة له محاولة أولية لتسمية المجهول، لتصوير ما لا يمكن رؤيته. كان يتأمل الرموز كمن يقرأ رسائل مشفرة : أجنحة فراشة، جعران ، شجرة حياة ، زهرة لوتس ، أنفاس، طيور، نيران .. كلها استعارات لجوهر واحد يتوارى خلف الكلمات.

ورغم ذلك، لم يكتفِ بالرموز والأساطير، بل جرّب أن يستنطق الروح بأدوات العلم. قضى سنوات يقرأ تجارب الفيزيولوجيين الذين حاولوا قياس وزن الجسد قبل وبعد الموت، يراجع سجلات الأطباء الذين رصدوا تجارب الاقتراب من الموت، ويتأمل في تجارب معملية ادّعت التقاط صورٍ للأرواح أو تسجيل أصواتهم. ومع ذلك، في كل مرة، كان العلم يخذله : الأرقام مرتبكة، النتائج متناقضة،

الأدلة تتبخر بين أصابع المختبر. كأن الروح نفسها تتلاعب بالباحثين، تسمح لهم بالاقتراب حتى حافة الاكتشاف ثم تنسحب تاركة وراءها فراغًا.

سنواته الطويلة صارت سلسلة من المحاولات التي تنتهي بالفشل، لكنه لم يرها خيبات، بل إشارات. فكل تجربة علمية تسقط في العدم، وكل رمز ديني يغوص في الغموض، كان يعلمه أن الروح ليست حقيقة تُمسك بسهولة، بل سؤال أزلي يُلاحق العقل والخيال معًا. وهكذا، صار سيكويًا رجلًا يحمل على كتفيه مكتبة من النصوص، ومتحفًا من الرموز، ومختبرًا من التجارب، لكنه ما زال في أعماقه يقف على العتبة : يتأمل الباب المغلق، ويحاول أن يفتح قفله بكلمة، أو بمعادلة، أو ربما بصمتٍ طويل.

الأسبوع القادم، سيكون المدرج الجامعي مسرحًا لمحاضرة ينتظرها الجميع بشغف وفضول يكادان يختلطان بالرهبة. إنها محاضراته الأهم، ليس لأنها تضاف إلى سيرته الأكاديمية فحسب، بل لأنها تشبه إعلانًا عن عصارة عمرٍ كامل من البحث والتأمل والصراع الداخلي لعقود كخلاصة هو على وشك أن يشاركها مع الآخرين ، ظل سيكويًا يفتش عن الروح في النصوص والطقوس والأساطير والتجارب، واليوم قرر أن يخلع عنها ستائر الغموض قدر ما يستطيع، ليعرضها أمام العقول المتعطشة كجراحٍ يشرح جسدًا في قاعة عمليات. غير أنه لا يشرح اللحم والدم، بل ما وراءهما : الروح نفسها.

الدعاية للمحاضرة سبقت موعدها بأسابيع، ملأت لوحات الجامعة والإعلانات الإلكترونية، ترافقها صورة البروفيسور سيكويًا، بملامحه الوقورة وخصلاته الموشحة بالشيب، وعنوان يستفز المخيلة :

(حقيقة الروح : ما بين الوجود والعدم)

لم يكن غريباً أن يتوقع الجميع حضوراً كثيفاً، فاسم سيكوييا وحده كفيل بجذب الحشود، فضلاً عن موضوع يمسّ جوهر الإنسان ويطرح أسئلة مؤجلة منذ بدء التاريخ.

الطلاب يتناقلون الخبر بحماسة، الأساتذة يتجادلون في الممرات : هل سيقدم نظرية جذرية تُحدث صدمة في الأوساط الأكاديمية؟ أم سيكتفي بإعادة صياغة ما قيل من قبل بلغة جديدة؟ أما هو، فكان يستعد كما لو أنه يتأهب لعملية جراحية نادرة : كل شريحة في العرض الإلكتروني مرتبة بعناية مهووسة كمشارط متأهبة للتشريح، الألوان متناغمة ، الصور مختارة بعناية شاعر ينتقي كلماته ، والنبرة التي سيتحدث بها مدروسة على نحو يوازن بين الهيبة والدفع.

في داخله، كان يشعر أن هذه المحاضرة ليست مجرد مناسبة مهنية، بل مواجهة نهائية مع السؤال الذي أكل سنوات عمره :

ما الروح فعلاً ؟

هل هي جوهر خالد، أم مجرد وهم جميل صنعته مخاوف الإنسان من الفناء؟ في تلك الساعة المنتظرة، سيقف سيكوييا أمام جمهور واسع، لا كأستاذ يقدم مادة أكاديمية، بل كرحالة عاد من رحلة طويلة في المجهول ليكشف ما رآه هناك.

ستكون المحاضرة لحظة فاصلة : إما أن تُخلّده في ذاكرة طلابه كمن تجرأ على الإمساك بما لا يُمس أو يرى، أو أن تتركه أسيراً لشكوكه التي تلاحقه بلا نهاية. لكنه، في كل الأحوال، سيصعد المنبر وفي قلبه يقين واحد : أنه مقبل على أهم جراحة في تاريخه، جراحة الروح أمام أعين الملاء و كأنما روح أندرياس فيزيالوس تناسخت إلى جسده و التلاميذ يتحلقون حوله لانتهاال المعرفة من دروس تشريحه للجسد البشري في ومضات من عصر نهضة جديد .

بعد أسبوع .. مدرج الجامعة

محاضرة روحية تخاطب الأرواح ..

كان اليوم المنتظر قد حلَّ أخيرًا. منذ الصباح، ازدحمت طرقات الجامعة بوجوهٍ مشدودة بالترقب، طلاب يهرولون ليحجزوا أماكنهم في المدرج الكبير، وأساتذة يرتدون عباءاتهم الأكاديمية بوقار، ورجال دين من طوائف متعددة جاؤوا بدعوة رسمية ليشهدوا لحظةً قد تغيّر النظرة إلى الروح نفسها. كذلك حضر فلاسفة، بعضهم شهرة في عالم الفكر، جلسوا في مقاعد متقدمة وهم يتبادلون النظرات والابتسامات الجافة التي تخفي حدة انتظارهم. كان المشهد مزيّجًا غير مألوف : شباب يملؤهم الحماس، شيوخ تغشى وجوههم هيبة الإيمان، مثقفون يتأملون بعين الشك، وباحثون جاءوا يطلبون تفسيراً مؤجلاً منذ الأزل .

المدرج بدا كفضاء احتفالي مهيب : صفوف المقاعد امتلأت بسرعة، والمسرح في المقدمة مُجهّز بشاشة عرض عملاقة، مضاءة بخلفية هادئة ذات ألوان متناغمة تليق بوسواس سيكويّا المعروف بالدقة. فوق المنصة، انتصب منبر خشبي مصقول، يتوسطه ميكروفون مضبوطة درجته الصوتية بعناية، وكأن المكان نفسه قد هياّ لاستقبال الحقيقة.

بدأ المقدم كلمته بصوتٍ رزين، مُرحّبًا بالحضور :

= أيها السيدات والسادة، نلتقي اليوم في حدث استثنائي، ليس محاضرة عادية، بل تتويجًا لعقود من البحث المضني، والسفر في المجهول، والتأمل في سرّ الإنسان الأعظم : الروح.

تحدث عن سيكوييا كما لو كان يقدم نبياً للمعرفة بسبب توجهه المهني الروحاني : بروفيسور في الماورائيات، كرّس حياته للتنقيب بين النصوص المقدسة وألواح الحضارات القديمة، خاض التجارب العلمية رغم فشلها، وجعل من وساوسه نظاماً يضيء للآخرين. أشار المقدم إلى كتبه التي أحدثت جدلاً في الأوساط الأكاديمية، وإلى محاضراته السابقة التي جمعت بين المنهجية العلمية واللمسة الفلسفية، وإلى سمعته التي تجاوزت جدران الجامعة لتصل إلى المؤتمرات الدولية.

الجميع أصغى بتركيز، حتى همهمة الطلاب خفتت، وكان صدى الكلمات يهيئهم للقاء رجلٍ عاش حياته في مطاردة ما لا يُمسك.

ثم جاء الإعلان الذي انتظره الجميع :

= أيها الحضور الكريم، نرحب الآن بالعالم والمفكر ، بروفيسور سيكوييا.

وقف المدرج على وقع التصفيق، لكن التصفيق بدا غير كافٍ لهيبة اللحظة. سيكوييا تقدّم بخطوات واثقة، هادئة، لا يتعجل ولا يتباطأ. وشيب صدغيه يلمع تحت الأضواء كوسام من الزمن. كان يرتدي بدلة داكنة بسيطة، لا تزهر بالفخامة بل بالتقشف، في دلالة على تواضعه المعروف. في وجهه، ارتسمت تلك السكينة التي لا تأتي إلا ممن عاش طويلاً مع الأسئلة الكبرى.

حين بلغ المنصة، لم يلوح بيده ليطلب الصمت؛ بل كان صمته وحده كافياً ليوقف كل حركة في المدرج. حتى أوراق الطلاب توقفت عن الخربشة، وحتى تنفّس البعض بدا محجوباً. لم يكن في الموقف صخب، بل رهبة تُشبه رهبة الكنائس والمعابد حين يبدأ الطقس.

وقف سيكويّا هناك، ثابتًا كالركيزة، عيناه تمسحان الحضور في هدوء، دون استعراض. تواضعه لم يكن انكسارًا، بل قوة ناعمة، وثقته لم تكن غرورًا، بل رسوخ من جرّب أن يغوص في المجهول وعاد ليحكى ما رآه. لحظة صمته تلك، قبل أن ينطق بحرف، كانت أبلغ من أي مقدمة، كأن المدرج بأسره تحوّل إلى أذن واحدة تستعد للإصغاء.

لقد بدا المشهد كما لو أن الزمن نفسه توقف، وأن كل من في القاعة أدرك أنه على وشك أن يكون شاهدًا على حدثٍ قد لا يتكرر : محاولة إنسان جريئة أن يشرّح الروح، لا بسكين، بل بالكلمة.

وقف سيكويّا أمام الجمع، وألقى نظرة طويلة على المدرج وقد امتلأ حتى آخر مقعد، ثم قرّب الميكروفون ببطء، وكأن لحظة الحقيقة تحتاج إلى طقس خاص. بصوتٍ هادئ عميق استهلّ كلامه بعد الترحيب :

= منذ أن وعى الإنسان نفسه، والروح تسكن مخيلته كأعظم الغاز الوجود. آلاف السنين مرّت، وسؤالها حاضر، يثير رهبةً في القلوب، ويُسيل الحبر على المخطوطات والكتب، ويستنزف الساعات الطوال في المناظرات والمجالس. من مصر القديمة إلى اليونان، من معابد الشرق إلى كنائس الغرب، ظلّت الروح لغزًا تلاحقه الكلمات ولا تُمسك به. هي الحاضر الغائب، القريبة البعيدة، التي لا تنطفئ نار السؤال عنها في أي زمن.

سكت لحظة، كأنه يترك الفرصة للحاضرين أن يستحضروا صدى هذه الرحلة الطويلة. ثم أردف :

= الفهم الشائع بين الناس عن الروح بسيط، كافٍ كي يرضي الضمير و ثقيل الوطأة على العقل : الروح عند العوام كائن غير مرئي يسكن الجسد، ويغادره ساعة الوفاة، في طقس يتكرر منذ الأزل. كثيرون

يرون هذا الرحيل فجيرةً كبرى تستدعي البكاء والانكسار، كأن الموت انكسار لكل ما فينا. لكنني أقول لكم اليوم : هذه النظرة مغلوبة. فليست الروح كما يتوهمها الناس و ليست أيضاً مأساة تُغادرنا، بل هي حركة طبيعية في مسيرة كبرى، انتقال أكثر منه خسارة، امتداد أكثر منه انقطاع .. احتفال أكثر منه فجيرة

ارتفعت بعض الحواجب بين الجمهور، ومال كثيرون للأمام في مقاعدهم، بينما هو يتابع بنبرة تجمع بين الحزم والحنان :

= أنا هنا لا لأقدم وحيًا منزلاً ولا حقيقة مطلقة، بل لأشارككم ثمرة عقود من البحث، رحلة طويلة بين الكتب القديمة والتجارب العلمية، بين الأساطير والأديان، بين رموز الحضارات ومخاوف الأفراد. ما سأعرضه عليكم ليس يقيناً يُغلق الأبواب، بل محاولة فردية متواضعة لفهم ما لا يفهم، لتقريب صورة الروح كإرث إنساني وكسؤال أبدي لم نكفّ عن ملاحقته.

توقف، وأخذ نفساً قصيراً، قبل أن يضيف بابتسامة خفيفة لم تُخفِ صرامة عينيه :

= إنني لا أدعي امتلاك الحقيقة، بل أدعوكم لأن نشارك معاً في مغامرة العقل والوجدان، لعلنا نقرب خطوة من سرّ الروح، لا لنُمسكها، بل لنفهم أن حضورها في السؤال أعظم من حضورها في الجواب.

عمّ الصمت في القاعة من جديد، كأن أنفاس المئات قد اجتمعت في انتظار ما سيأتي بعد هذا التمهيد.

رفع سيكويًا بصره إلى الحضور، وابتسم ابتسامة هادئة قبل أن يمضي في حديثه :

= لنستهل محاضرتنا اليوم بنظرية فلسفية، قد تبدو بسيطة للوهلة الأولى، لكنها تحمل عمقاً ضرورياً لفهم ما سنأتي على شرحه لاحقاً. إنها **نظرية أفلاطون عن الوهم**، تجربة صاغها في زمن الإغريق لتُظهر لنا مدى سهولة خداع العقل وإيهامه بما يراه ويسمعه.

مال قليلاً نحو المنصة، وصوته أخذ نبرة سردية تشدّ انتباه الجميع :

= تخيلوا مجموعة من الناس وُلدوا منذ البداية في غرفة صغيرة، محاطين بالخيالات التي تنعكس على الجدران أمامهم. كل ما يعرفونه عن العالم هو هذه الخيالات وما يسمعون من الأصوات التي نرسلها لهم من وراء الحائط. بشكل بديهي بالنسبة لهم، الأصوات تأتي من الأشياء التي يرونها، وهم يعتقدون بذلك بكل يقين، فحدود عالمهم هي الغرفة فقط، ولا يعرفون شيئاً خارجها.

توقف قليلاً، كأنه يسمح للفكرة أن تتغلغل في عقول الحاضرين، ثم تابع :

= في هذه الحالة، لقد خدعنا عقولهم بكذبة صدّقوها بالكامل، وأمنوا بها، ولم يشكّوا في صحتها لحظة واحدة. ولكن ماذا لو رفعنا الحجاب عنهم؟ ماذا لو أخرجناهم من الغرفة الصغيرة إلى العالم الأكبر؟ حينها، سيتكشف لهم أن كل ما ظنّوه يقيناً، كان مجرد وهم .. و أن ثمة أشخاص خارج الغرفة هم من يصدرون الأصوات لا الخيالات التي أدمنوا رؤيتها يومياً على جدران الغرفة .

تأقّ صوته وهو يستعرض النتيجة :

= العبرة من تجربة أفلاطون ليست مجرد خدعة فكرية، بل دعوة للتفكير في كل ما نعتبره يقيناً. كثير من المعتقدات التي نكوّنُها في حياتنا ضمن عالم المعرفة المحدود، بين أيدينا وبين ما تعلّمناه منذ الصغر، ليست أكثر من وهم باطل. كل قناعة نعتقد بها اليوم قد

تكون، في واقع أوسع، مجرد انعكاس جزئي لحقيقة أكبر، نُحرم من إدراكها في غرفتنا الصغيرة.

أدار نظره إلى الجمهور، عيونه تقرأ فضولهم ودهشتهم معًا، وقال بهدوء :

= فماذا لو كانت يقظتنا اليومية، تلك التي نعتقد أنها تامة ومطلقة، ليست سوى حلم؟ حلم يقف أمام واقع أعظم، كما وقف سكان الغرفة الصغيرة أمام حقيقة العالم خارج الحجاب؟ إن هذه الفكرة، البسيطة في ظاهرها، لكن العميقة في جوهرها، تضعنا على أعتاب التفكير في الروح : هل ما نعتقد أننا نعيه عن أنفسنا وعن حياتنا وما بعد الموت هو الحقيقة؟ أم أن كل ذلك مجرد انعكاس محدود لعالم أكبر وأعمق لم نره بعد؟

سكت لحظة، وكأن صمت المدرج أصبح جزءًا من المحاضرة نفسها، وبدأ الحضور يشعر بثقل السؤال : ليس مجرد فكرة فلسفية، بل دعوة لتوسيع نطاق الوعي، لرفع الحجاب عن عالم الروح وما وراء المعرفة اليومية.

أمال سيكويًا رأسه قليلًا، وأخذ نفسًا عميقًا آخر قبل أن يواصل بصوت هادئ ولكن واضح لكل زاوية في المدرج :

= بعيدًا عن الروحانيات والفلسفة، دعونا نستعين قليلًا بالعلم، لأنه الطريق الذي يمهد لما سنأتي عليه لاحقًا. إذا كانت نظرية الوهم لأفلاطون تُظهر لنا حدود اليقين البشري، فإن العلم الحديث يقدم لنا نموذجًا مشابهًا في عصرنا : الواقع الافتراضي، أو ما يُعرف بالـ **الـ ميتافيرس**. إنه واقع وهمي يعيشه الدماغ في حالة محاكاة، تجربة تُشبه الغرفة الصغيرة لأفلاطون، لكن مع أجهزة وتقنيات حديثة.

ارتفع صوته قليلًا وهو يرسم الصورة أمام الحاضرين :

= كما ترون على الشاشة أمامكم ، عند ارتداء نظارات الواقع الافتراضي، يغوص الإنسان في عالم يظنه حقيقياً تماماً، يتنقل فيه، يتفاعل مع الأشياء والأصوات واللمسات، لكنه في حقيقة الأمر يعيش في خيال محاكى. وعندما تُنزع النظارات، يعود إلى الواقع الحقيقي، ولكنه يحتفظ بكل الذكريات التي عاشها في تلك التجربة الفريدة، كما لو كانت جزءاً من ذاكرته، رغم أنها لم تحدث إلا داخل حدود وهمية.

ابتسم سيكوياء، وكأنه يترك الحاضرين يستوعبون الصلة بين الفلسفة والعلم :

= وهنا مربط الفرس في محاضرتنا اليوم : ما الفرق بين الواقع الذي نعيشه، وبين الواقع الذي لا نراه؟ وكيف يمكن لمفهوم وهمي أن يترك أثراً في عقل الإنسان يقارب أثر الواقع نفسه؟

مال إلى الجانب، وأشار بإصبعه إلى الشاشة خلفه حيث بدأت تظهر صور قديمة لأجهزة ونماذج أولية، وتابع :

= تاريخ هذا الانغماس في الواقع الافتراضي ليس جديداً كما قد نظن. ففي عام **1935**، قدم كاتب الخيال العلمي الأمريكي ستانلي وينباوم نموذجاً خيالياً في قصة قصيرة بعنوان **نظارات بجماليون**. في أحداث القصة، التقت الشخصية الرئيسية بأستاذ جامعة اخترع زوجاً من النظارات يمكن من خلالها الانغماس في التجارب الخيالية باستخدام حاستي الشم واللمس، تجربة أقرب إلى السحر العلمي من مجرد خيال.

رفع يده لتأكيد النقطة التالية :

= ثم، على مدار العقود التالية، تطورت تقنيات الواقع الافتراضي شيئاً فشيئاً. وفي عام **2010**، قدمت شركة جوجل خدمة التجول

الافتراضي ثلاثية الأبعاد، وفي نفس العام ابتكر الأمريكي الشاب بالمر لوكي، وهو في الثامنة عشرة من عمره فقط، أول نموذج أولي لنظارات رأس تقدم تجربة الواقع الافتراضي بشكل متكامل. كان مجال رؤيته **90** درجة، وهو إنجاز لم يسبق له مثيل، معتمدًا على قوة معالجة الكمبيوتر للصورة.

أدار نظره مرة أخرى إلى الجمهور، صوته أكثر جدية الآن :

= هذا التطور لم يقتصر على التقنية وحدها، بل عزز فضولنا البشري لفهم التجربة، وللتفكير في طبيعة الوعي والوجود. فكما أن الواقع الافتراضي يجعل العقل يصدق ما هو وهم، قد نجد أن حياتنا اليومية، بما نحسه ونؤمن به، قد تكون في جزء منها محاكاة لأبعاد أكبر لم ندركها بعد.

عمّ صمت قصير في المدرج، والصدى بدا وكأنه يملأ المكان كله، كما لو أن كل عقل حاضر بدأ يُعيد حساباته حول ما هو الواقع، وما هو الوهم، وما هي الروح التي سيغوص سيكويها فيها بعد قليل.

تسمر سيكويها في مكانه كمنحوتة إغريقية، ورفع إصبعه برفق، وكأن هذا الإشارة الصغيرة تحمل ثقل ما سيأتي بعد قليل، وقال بصوت هادئ ينساب بين صفوف الحاضرين :

= ننتقل الآن إلى مصطلحين غاية في الأهمية، وسيلعبان دورًا محوريًا في محاضرتنا اليوم : إنهما مصطلحا **نومينو** و **فينومينين**. إن فهم هذين المفهومين ليس ترفًا فلسفيًا، بل حجر الزاوية لكل ما سنناقشه لاحقًا حول الروح والماورائيات.

ابتسم للحاضرين قليلًا قبل أن يواصل :

= أولاً، نؤمنون: هذا المصطلح يشير إلى كل شيء يتجاوز العقل ولا يمكن إدراكه بالحواس المباشرة. غالباً ما يُستعمل للإشارة إلى ما هو غير مرئي بشكل محدد، ما يختفي عن أعيننا لكنه موجود بطريقة ما. نعم، الروح بطبيعة الحال تدرج ضمن هذا المجال، وكذلك الجن، الأشباح، وأي من الظواهر الماورائية التي قضيت حياتي في دراستها ومحاولات تفسيرها. نؤمنون هو عالم ما وراء الحواس، عالم لا يمكن أن يُقاس بمسطرة ولا يُرى بالعين، لكنه يترك أثره في كل شيء حولنا.

ثم أثار بيده الأخرى، مشيراً إلى الجانب المقابل :

= أما فينومينين، فهو المصطلح المعاكس : كل ما هو محسوس بالعقل، ما يمكن أن نراه أو نلمسه أو نحسه بطريقة مباشرة. فينومينين هو عالم الأشياء الملموسة، العالم الذي نطن أننا نعرفه تمام المعرفة، لكن في المقابل، يجب أن نتذكر دائماً أن هذا الإدراك قد يكون محدوداً، وأن هناك دوماً أبعاد خفية تفوق ما نعتقد أننا نفهمه.

أخذ نفساً قصيراً، وعينه تتجولان بين الحضور، ثم أكد :

= تذكروا هذين المصطلحين جيداً، لأننا سنعود إليهما بعد قليل، وسنرى كيف يساعداننا على الفصل بين ما نعيه بالوعي المباشر، وما يظل غامضاً لكنه حاضر بقوة في واقعنا وفي أبحاثنا. إنهما مفتاح لفهم الروح، لفهم عالم الماورائيات الذي يسكن بين اليقين والخيال.

صمت قليلاً و كأنه يفسح المجال لوصيته أن تتشعب في العقول ثم أردف بهدوء و قد ظهرت صورة غريبة على الشاشة خلفه :

= ننتقل الآن إلى نظرية فلسفية علمية، أجدها شخصياً غاية في الجمال والغرابة، ومليئة بالإثارة والتساؤلات. إنها نظرية الدماغ في

وعاء. تصوروا معي هذا السيناريو العجيب : لو فصل دماغك عن جسدك ووضع في محلول مغذي، ثم رُبط بجهاز كمبيوتر فائق التطور يقوم بتنشيط باحات دماغك بنبضات مدروسة بعناية فائقة، فإنك ستشعر بأحاسيس مزيفة وكأنها حقيقية.

ابتسم قليلاً، وكأنه يستمتع بإثارة المخيلة لدى الحاضرين :

= سترى أشياء، ستسمع أصواتاً، ستلمس أشياء أخرى، وستشم روائح وتذوق نكهات مختلفة. وكل هذه التجارب ستبدو لك حقيقية، ولكن في الحقيقة، كل ذلك ليس إلا نتاج برنامج الكمبيوتر الذي يتحكم في نبضات دماغك. فالسؤال المذهل هنا : هل سيعي دماغك أن كل هذه الأحاسيس أوامر من جهاز خارجي، أم سيؤمن بأن هذا الواقع الذي يعيشه حقيقة فعلية؟ هذه مفارقة علمية رائعة، تثير التفكير المطول والتساؤل العميق.

ثم أشار إلى مصدر النظرية :

= لقد أطلق الفيلسوف الأمريكي هيلاري بوتنام على هذه الفكرة اسمها في كتابه (السبب والحقيقة والتاريخ) الصادر عام **1981**، لكن جذور هذه الفكرة في الحقيقة أعمق وأقدم بكثير.

توقف للحظة، ثم تابع :

= في القرن السابع عشر، ابتدع الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت فكرة **الجنى السيء**. هذا الجنى، كما افترض ديكارت، كان يحاول خداعه وإيهامه بأن كل ما يحدث حوله في العالم الخارجي حقيقة واقعية، بينما هو مجرد وهم. الهدف؟ إعادة بناء المعرفة البشرية على أسس ثابتة، متبنياً ما أسماه **مبدأ الشك**.

أمال سيكويأ رأسه قليلاً، وصوته أصبح أعمق وأكثر إقناعاً :

= ديكارت لاحظ أن حواسنا قد تخدعنا، وأن الأحلام تزرع فينا ارتباكًا مستمرًا. فقرر أن يتبنى أقصى درجات الشك، فرفض كل المعارف والمسلّمات التي تحمل أدنى نسبة من الشك. فنجدّه يقول في كتابه (تأملات في الفلسفة الأولى) :

(سأفترض إذن أن جنياً سيئاً قد استعمل كل ما أوتي من حنكة لتضليلي، وسأفترض أن السماء، والهواء، والأرض، والألوان، والأشكال، والأصوات، وسائر الأشياء الخارجية التي نراها، ليست إلا أوهامًا وخيالات، يلجأ إليها الشيطان كي يقنعني بواقعيتها.)

ابتسم سيكويّا للحضور، وكان هذه الكلمات العميقة على قدر من السحر يجعل كل عقل في المدرج يترنح بين اليقين والشك. ثم أكمل بصوت هادئ لكنه متين :

= ورغم أن هذه الفرضية تبدو للوهلة الأولى باطلة، فهي، في باطنها، صحيحة للغاية، كما سنرى بعد قليل. فهي تكشف لنا الحقيقة الأساسية عن محدودية الإدراك البشري، وعن هشاشة ما نعتبره يقينًا. تمامًا كما في تجربة أفلاطون أو في واقعنا الافتراضي، ما نراه ونتلمسه قد يكون مجرد انعكاس لواقع أكبر وأعمق، واقع لا نستطيع الوصول إليه إلا بالتحليل العميق والملاحظة الدقيقة.

ارتفع صوته قليلًا وهو يربط النظرية بمحاضرتة :

= إن هذه الفكرة تقربنا أكثر من السؤال الذي شغلني عقودًا : ما هي الروح؟ هل هي مجرد وهم نعيشه في وعينا المحدود، أم أن هناك حقيقة تتجاوز الإدراك، تمامًا كما يتجاوز الدماغ في وعاء الواقع الذي يفرضه الكمبيوتر؟ إن إدراكنا للروح يحتاج أن نضع حواسنا وعقلنا على المحك، كما فعل ديكارت، لنستكشف الأبعاد غير المرئية، تلك التي تظل خفية أمام العيون العادية.

عمّ صمت قصير في المدرج، كأن الحاضرين وقفوا على حافة هاوية الفكر، مستعدين للغوص مع سيكويّا في عالم الروح وما وراء المعرفة.

ابتسم سيكويّا للحضور، ورفع يده قليلاً ليشدّ الانتباه، ثم قال بصوت هادئ لكنه مشحون بالإثارة :

= لقد تناولت الثقافة الفنية هذه الفكرة بنفس عمقها الفلسفي أحياناً. خذوا مثال فيلم ماتريكس الشهير: حين يكتشف أحد قراصنة الحاسوب، ويدعى نيو، أن العالم في عام 1999 ليس سوى محاكاة افتراضية صُمّمت بواسطة جهاز استخبارات إلكترونية. كل البشر، بما فيهم نيو، وضعوا في قوالب مليئة بالسوائل المغذية، متصلين بأسلاك بجهاز الكمبيوتر. كل ما يظنونه واقعاً، هو مجرد رمز يمر عبر نبضات كهربائية.

مال سيكويّا قليلاً إلى الأمام، وعيونه تتفحص وجوه الحضور :

= ليس هذا كله خيالاً فنياً جامحاً. الفيلسوف السويدي نك بوستروم اقترح مؤخراً احتمالاً كبيراً أننا نحن أيضاً نعيش داخل برنامج محاكاة، واقع يحاكي عالمنا كما نعرفه. وهذه الفكرة ليست بلا أساس، بل لها ما يبررها منطقياً وعلمياً، كما سنرى بعد قليل.

ثم أشار إلى الشاشة خلفه، حيث بدأت تظهر مشاهد من الأفلام والصور الرمزية، وأضاف :

= لكن لننتقل الآن إلى الفكرة الأهم في محاضرتنا، والتي تحمل في طياتها تفسيراً للروح، يجمع بين البساطة والعمق في آن واحد : فكرة الأفاتار. معظمكم شاهد سلسلة أفلام أفاتار الشهيرة و الشيقة، حيث يتمكن الإنسان باستخدام تقنيات حديثة من الانغماس في جسد

كائن آخر، أزرق اللون، يعيش تجربة واقعية بالكامل كما لو كان هو ذلك الكائن نفسه.

توقف سيكوييا للحظة، وابتسم ابتسامة خفيفة قبل أن يسترسل :

= الفكرة ليست مجرد خيال سينمائي، بل اقتبست من الديانة الهندوسية. فكلمة أفاتار، باللغة السنسكريتية، تعني تجسد كائن علوي أو ديفا، أو الإله الأعلى، على كوكب الأرض في صورة كائن آخر أو إنسان. وهكذا، الأفكار القديمة للروحانية والفلسفة والتجسد تعود اليوم في شكل تجارب تكنولوجية، توحى بأن الروح يمكن أن تنتقل، أو تحلّ في جسد آخر، لتعيش تجربة مختلفة، لكنها جزء من ذاتها.

أعاد سيكوييا نظره إلى الحضور، بصوت هادئ يزن كل كلمة :

= لنعد سريعاً لما ناقشنا حتى الآن كي نضع هذه الأفكار في سياق واحد. لدينا : نظرية أفلاطون عن الوهم، نظارات الواقع

الافتراضي، مصطلحا نوميون وفينومينين، نظرية الدماغ في وعاء، نظرية ديكارت عن الجني الشرير، وأخيراً، فيلم الماتريكس وفكرة الأفاتار الهندوسي. كل هذه العناوين، كل هذه التجارب الفكرية والخيالية، تصب في سؤال واحد : ما طبيعة الروح؟ وكيف ندركها؟

ثم التفت إلى الحاضرين، وابتسم بهدوء:

=هل ثمة أسئلة لديكم حول هذه المفاهيم ؟

هزّ الحضور رأسه بالنفي ، في حين ترددت عبارة هنا و هناك :

= كل شيء واضح ..

ابتسم سيكوييا مرة أخرى، وبدأت عيناه تتلألأ بشغف من تمكن من تمرير عصارة عمر و تعب إلى الآخرين كي تستمر أبحاثه حية :

= إذاً لنواصل رحلتنا، فالجزء القادم من محاضرتنا سيبدأ الربط بين هذه النظريات وتجربتنا في فهم الروح، ولن يكون مجرد سرد أكاديمي، بل غوص عميق في ماهية وجودنا وما بعده.

صمت قليلاً و ارتشف من كأس الماء القابع على المنصة أمامه ثم تابع :

= بعد كل التمهيدات السابقة، حان الوقت لدخول صلب محاضرتنا. سأقدم لكم اليوم نظرية جديدة، لكنها من صياغتي الشخصية هذه المرة ، و يطيب لي تسميتها : **نظرية الروح هي حلم**. ولنباشر الحديث بسؤال بسيط، لكنه في غايته مهم للغاية :

نحن نعيش على هذه الأرض ضمن أجساد مادية، أدمغتنا تختزن ذكرياتنا كلها، من الأحداث التي عشناه وحتى اللحظة الراهنة.

ولكن، ماذا يحدث لهذه الذكريات عندما نموت، وتتحلل أدمغتنا إلى تراب؟ هل تذهب إلى العدم وكأنها لم تكن؟ أم أن هناك بعداً آخر تحفظ فيه هذه التفاصيل؟

توقف قليلاً، كأنه يترك الكلمات تغوص في عقول الحاضرين، ثم تابع بصوت أكثر حيوية :

= في تصوري الشخصي، الإجابة تكمن في العالم الآخر حيث تمكث أجسادنا السماوية نائمة بسلام و تحلم بالأحداث التي تعيشها يومياً أجسادنا الأرضية .. أجساد سماوية !!! مصطلح غريب أعلم ، لكنه المفتاح لفهم طبيعة الروح أخيراً .. هناك في العالم الآخر أجسادنا السماوية، أيا كانت بنيتها، متصلة لاسلكياً بأدمغتنا الأرضية بطريقة غامضة، غريبة، ولكنها دقيقة. من اللحظة التي يولد فيها الإنسان على الأرض، أي عند اكتمال تكوينه الأرضي، تبدأ هذه الأجساد السماوية بالحلم، تشاهد تفاصيل حياتنا الأرضية ثانيةً بثانية، وتسجل كل ما نعيشه، كأنها شاشة واقع افتراضي عابرة للزمان.

ابتسم سيكوياء، وأكمل بعينين تلمعان بحماس الباحث الذي عاش عقودًا
يفتش عن الإجابات :

= ومتى انتهت حياتنا على الأرض ، تستيقظ أجسادنا السماوية من
هذا الحلم و هي تحتفظ بكل التفاصيل، بكل الذكريات التي عشناها.
تخلوا الأمر كأن أجسادنا السماوية كانت ترتدي نظارات الواقع
الافتراضي خلال حياتنا الدنيوية، وعند لحظة الموت تُزال هذه
النظارات، فنكتشف عالمًا آخر، أوسع وأكثر وضوحًا.

الروح إذن ، أو النوميون، كمادة لا وجود لها، تمامًا كالذكريات
والأفكار والأحلام، غير محسوسة بالعقل حرفيًا، لكنها تمثل التجربة
نفسها. والاتصال بين الجسدين – السماوي والأرضي – عند أول
نفس نأخذه في الحياة، هو ما نسميه نفخ الروح في الأجساد، وما
نسميه خروج الروح عند الموت، هو انقطاع الاتصال، كبداية حياة
جديدة للأجساد السماوية.

أشار بيده إلى الشاشة الكبيرة خلفه، حيث تتلأأ رسوم تمثل جسدًا
أرضيًا محاطًا بجسد سماوي متصلين بخيوط ضوئية :

= الكون الأصغر الذي نعيش فيه، عالمنا الأرضي، ليس أكثر من
ميتافيرس للروح. مبرمج بدقة كي تعيش فيه أجسادنا الأرضية،
المؤقتة والواهية، كل أحداث حياتنا ..حتى إذا ذهبت هذه الأجساد
إلى العدم بعد الموت، تستمر أجسادنا السماوية في متابعة حياتنا من
جديد، محتفظة بكل ذكرياتنا الأرضية، لتبدأ رحلتها في دار البقاء،
في العالم الآخر.

عمّ صمت قصير في المدرج، وكأن كل عقل حاضر يحاول استيعاب
فكرة أن حياتنا اليومية ليست سوى محاكاة دقيقة، لأحلام أجسادنا
السماوية الغافية بسكينة ..

وقف سيكويًا بهدوء، وعيناه تتجولان بين وجوه الحضور المذهولة،
ثم قال بصوت متأمل :

= أما نظرية الروح كما تُصوّرُها بعض الديانات القديمة، كمادة غير مرئية وغامضة موجودة داخل الأجساد البشرية وتخرج عند الموت لتتصعد إلى السماء، فهي في جوهرها تشبيه مبسط، كان يواكب معرفة البشر في أزمنة غابرة وقدرتهم المحدودة على الفهم والاستيعاب. فهل كان بإمكان الإنسان آنذاك أن يتصور مفهوم الواقع الافتراضي أو الدماغ في وعاء؟ بالطبع لا، فالتكنولوجيا لم تكن موجودة، ولم تكن أدواتها متاحة، والمعرفة العلمية لم تتقدم بعد.

توقف للحظة، وأكمل بنبرة تجمع بين الحكمة والتحدي الفكري :

= خذوا مثلاً تصور السماء في القرآن، التي بناها الله بأيديه، والجنة التي فيها مغريات مادية شبيهة بالدنيا، كالأطعمة والمشروبات وحتى الجنس، وغيرها من التشبيهات التي اقتُبست من حياة البشر اليومية، لتقريب الصورة إلى أذهانهم وفهمهم المحدود في ذلك العصر. كل هذا لم يكن إلا وسيلة لإيصال معنى أكبر بأسلوب يمكن تقبله.

ابتسم سيكويًا قليلاً، ثم قال بعينين تلمعان بفلسفة البحث :

= ومع تقدم العلوم، ومع فهمنا لتقنيات العقل والواقع الافتراضي والخيال المبرمج، نبدأ في إعادة تفسير كل شيء بصورة علمية ومنطقية. تدريجياً، يزول وهم أفلاطون الذي تحدثنا عنه منذ قليل، فنكتشف أن الكثير مما كنا نراه يقيناً ما هو إلا انعكاس محدود لواقع أوسع وأعمق، عالم يمكن للروح أن تواصل فيه رحلتها بعد انقضاء حياتنا المادية عبر ما يمكن تسميته الأجساد السماوية ..

عمّ صمت قصير في المدرج، وكأن كلمات سيكويًا قد فتحت نافذة جديدة في عقول الحاضرين، تجعلهم يراجعون تصوراتهم السابقة

عن الروح والسماء والحياة بعد الموت، على ضوء العلم والفلسفة الحديثة.

وقف سيكوييا في هدوء، وعيونه تجوب المدرج كما لو كانت تراقب و تحاور كل عقل حاضر، ثم قال بصوت يمزج الحكمة والشغف :
= إذا أردنا أن نفهم حياتنا الدنيا بعمق، يمكننا اللجوء إلى عالم الطب الجميل أيضاً . فالحياة هنا، على هذه الأرض، تشبه تجربة اضطراب سلوك نوم الريم، حيث يقوم النائم بتمثيل أحلامه جسدياً فيحرك يديه و يهز رأسه و هو نائم كما يشعر في الحلم مثلاً . إن أجسادنا الأرضية، ببساطة، تمثل أحلام أجسادنا السماوية، وتعيش تجاربنا الدنيوية كأنها مشاهد في حلم مستمر، لا ندري مدى حدوده أو تفاصيله.

أمال سيكوييا رأسه قليلاً، مبتسماً بخفة، وأضاف :

= هناك أيضاً مفهوم آخر في الطب لا يقل إثارة ، يُسمى الحلم الواعي أو **Lucid Dream**، حيث يدرك النائم أثناء حلمه أنه يحلم، ويصبح قادراً على التدخل في أحداث الحلم، كما يحدث في فيلم **Inception** الشهير. في هذا النوع من الأحلام، يكون الإنسان واعياً بمشاعره وأحاسيسه، وفي الوقت نفسه واعياً بأنه يحلم، فيصبح الحلم مجالاً للإبداع والتحكم والتجربة.

أشار إلى الحاضرين، بعينين تتوهجان بالحماسة :

= وفقاً لدراسة نشرت عام **2016**، فإن **55 %** من البشر اختبروا الحلم الواعي لمرة واحدة على الأقل في حياتهم، بينما **23 %** منهم يختبرونه مرة واحدة على الأقل في الشهر و أنا منهم . تخيلوا معي أن يرى الإنسان نفسه في خضم الحلم في غابة، ثم فجأة يطعم

الديناصورات بيده، عندها سيدرك فجأة أنه يحلم و سيصبح قادراً
على التلاعب بمجريات الحلم ..

تنهد سيكوييا بعمق، قبل أن يواصل :

= وهذا بالضبط ما أحاول إيصاله لكم اليوم، أعزائي الحضور: حياتنا
كلها على الأرض، كما تراها أجسادنا الأرضية، مجرد حلم،
حلم يراود جسدنا السماوي. نحن قادرون على التلاعب بهذا الحلم،
على فهمه، وعلى إعادة تفسيره، حتى وإن بدا للوهلة الأولى أننا
رهائن أحداثه.

رفع يده، وأكمل بنبرة أكثر عمقا :

= وما هو أعمق وأعظم من ذلك، هو أنه في يوم القيامة، لن تُستيقظ
أجسادنا الأرضية المتحللة أبداً، بل ستستيقظ أجسادنا السماوية التي
تحمل إرثنا الأرضي كاملاً، مع مؤهلات أكبر بكثير. قيام الساعة
ليس إلا رنة منبه، نفخ الصور، تُوقظ جميع الأجساد السماوية معاً
في لحظة واحدة، و من هنا أتت تسمية يوم القيامة في الأديان بـ **قيام
الساعة** .. إنها الساعة التي ستوقظ أجسادنا السماوية من غفوتها ..

ابتسم سيكوييا للحاضرين المذهولين ثم أردف :

= وكذلك في حالات تناسخ الأرواح، يمكن لجسد سماوي واحد أن
يتصل بعدة أجساد أرضية، ويحمل ذكرياتها كلها، ليواصل التجربة
عبر أبعاد مختلفة، كما لو أن الروح تُعيد تدوير نفسها باستمرار،
لكنها تحتفظ بالوعي والتجربة الكاملة.. إنها مجموعة أحلام لجسد
سماوي وحيد لكن في عدة أجساد أرضية ..

ثم أشار إلى الشاشة العملاقة خلفه، حيث تُعرض رسوم لما يبدو أنه
أكوان متوازية متعددة وأضاف :

= والحقيقة الأغرب والأهم في الموضوع كله، هي أن الجنة، أي الكون الأكبر، قائمة على مبدأ العالم الافتراضي أو الدماغ في الوعاء. أنت قادر على الانتقال إلى أي عالم تشاء، وعيشه بحذافيره و أنت في مكانك، وكأنك تسافر عبر أكوان متعددة، مع كل التفاصيل الدقيقة التي تجعل التجربة حقيقية تمامًا. والأجمل أن جسدك السماوي يظل سليمًا بلا أي ضرر، مهما كانت المخاطر أو التجارب التي تعيشها افتراضيًا.

تنهد مرة أخرى، وصوته أصبح أعمق، وكأنه يشارك سرًا خطيرًا للحضور:

= تخيلوا معي: كل تجربة نخوضها، كل ألم أو فرح نعيشه، كل مشهد أو حدث، ما هو إلا برنامج دقيق يُدار في عالم أكبر، أوسع وأكثر أمانًا، عالم يسعى إلى تسجيل كل تفاصيلنا، وتوجيهنا نحو فهم أعمق لوجودنا. حياتنا الأرضية، بكل ما فيها من محيطات من المشاعر والتجارب، ليست سوى تجربة افتراضية، ولكنها تجربة حقيقية في تأثيرها على أجسادنا السماوية، على ذكرياتنا، وعلى استمرارية الروح.

أمال رأسه، وعينه تتوهجان بإيحاء فلسفي خالص :

= وهكذا، يتضح لنا أن كل ما كنا نراه كحقيقة مطلقة، كل قيود العالم المادي، هي في الحقيقة مجرد واجهة، مجرد تجربة تفاعلية يحاكيها جسدنا الأرضي، بينما أجسادنا السماوية، تعيش اللحظة كاملة عبر أحلامها، وتحفظ بكل إرثنا وتجاربنا، لتستمر رحلتها بعد موت الأجساد الأرضية بلا انقطاع، في عالم أكبر، أوسع، وأكثر دقة وحرية من أي حلم أو واقع افتراضي يمكن أن نتخيله.

عمّ الصمت في المدرج، والصدى بدا وكأنه يلتف حول كل عقل

حاضر، فيما بدأ الجميع يستشعر عمق الفكرة، ويستعد للغوص في ما سيقدمه سيكويما بعد قليل عن الارتباط بين هذه النظرية وكل ما سبق من مفاهيم وأمثلة فلسفية وعلمية.

= و كتلخيص لكل ما سبق : أجسادنا السماوية عبارة عن (دماغ في وعاء) و متصل بحاسوب (يملئ علينا أحلامنا و بالتالي تفاصيل حياتنا الأرضية) و نحن في هذه الدنيا (الماتريكس) عبارة عن أجساد أرضية (أفاتار) لكائن أعلى هو الجسد السماوي نقوم بترجمة تلك الأحلام الموجودة على ذلك الحاسوب و في أجسادنا السماوية كحقيقة مادية مجسدة أمامنا و أمامها .. لتتكامل هذه النظريات جميعاً في نظرية واحدة مشتركة و هي نظرية : (الروح النومينون الحلم) التي تنفخ في أجسادنا الأرضية كحلم لحظة نومنا في العالم الآخر و ولادتنا في الدنيا ، و تخرج منها لحظة استيقاظنا في العالم الآخر و موتنا في الدنيا ..

بتعبير آخر كل منكم هو في حياته الدنيوية أشبه بمصباح في سقف غرفة ، عندما ينام جسده السماوي بولادته يتم ضغط زر التشغيل فتصلك الكهرباء ليضيء و يشع حياةً ، و عندما يستيقظ جسده السماوي يُضغط الزر ثانيةً لتتطفئ حياته على الأرض و يموت

ابتسم سيكويما ثم قال بنبرة تخفت تدريجياً و كأنها تشي باقتراب نهاية المحاضرة :

= أعزائي الحضور، بهذه الكلمات نصل إلى ختام محاضرتنا اليوم. لقد حاولت أن أقدم لكم ما جمعته خلال عقود من البحث والدراسة والتأمل، رؤية شخصية لنظرية (الروح - النومينون - الحلم)، تلك النظرية التي تحاول تفسير حياتنا وموتنا والرحلة التي تخوضها الروح بين العالمين، الأرضي والسماوي.. كتفاعل بين جسد سماوي نائم و يحلم و جسد أرضي يترجم الأحلام إلى أحداث مادية ملموسة ، أعود و أكرر .. أنا لست هنا لأفرض عليكم الحقيقة، ولا لأقول إن

ما قدمته هو العلم المطلق أو الفهم النهائي للروح. كل ما في الأمر محاولة فردية متواضعة، محاولة لفهم موضوع لطالما أذهل البشر وأثار مخيلتهم منذ الأزل. وما أرجوه منكم اليوم، ليس مجرد التصديق أو القبول، بل التفكير النقدي والمساءلة، أن تراجعوا هذه النظرية، أن تضعوها تحت مجهر العقل، أن تتساءلوا وتبحثوا كما فعلت طوال حياتي.

ابتسم بابتسامة دافئة تعكس امتنانًا حقيقيًا :

= شكرًا لكم جميعًا على الاصغاء، على حضوركم المهيّب، وعلى استعدادكم لمشاركة العقل والقلب في رحلة البحث عن الحقيقة. دعونا نستمر في التفكير، في السؤال، في استكشاف هذا العالم الرائع والغامض الذي نسميه الحياة، ولنترك لأنفسنا حرية الإبداع، والتأمل، والنقد.

تأخر التصفيق للحظات و عمّ صمت طويل، وكأن الكلمات الأخيرة ما زالت تتردد في أذهان الحاضرين، فيما ارتفعت بعض النظرات نحو السماء وكأنها تبحث عن بصيص من الحقيقة، أو عن حلم آخر يمكن لأجسادهم السماوية أن تحياه بعد لحظة النهوض من هذا العالم الدنيوي .

الفصل الثاني

شجرة الأراك

حيث تبدأ الحكاية وتنتهي

2077 م ..

أريان شاب هندي يستحق الاشادة ، إنه أقرب ما يكون لأفاتار الإله فيشنو عند الهندوس إله الحماية و الحفظ على خطى كريشنا و راما ، فقد حمل على أكتافه منذ الطفولة مسؤوليات أكبر بكثير من عمره.. يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً. حين تقع عيناك عليه للوهلة الأولى، لا تملك إلا أن تتأمل تفاصيله التي تجمع بين الصرامة والهدوء. بشرته سمراء ناعمة كحبات البن المحمصة، تحمل في بريقها أثر شمس الحقول التي عاش في كنفها صغيراً. عيناه واسعتان سوداوان، تكسوهما رصانة توحى بقدرة على الإصغاء العميق، بينما ترتسم حولهما خطوط رفيعة مبكرة، لا تدل على شيخوخة بل على مسؤولية حملها باكراً. جبينه عريض، وشعره الأسود الكثيف يصففه عادةً إلى الخلف، محتفظاً ببعض العفوية التي تليق بروح طبيب يفضل الراحة العملية على المبالغة في المظهر.

ملابسه تميل إلى البساطة؛ ففي عمله كطبيب يرتدي بالطبع معطفه الأبيض الناصع، الذي يزيد من حضور ملامحه الواثقة. أما خارج مشفاه ، فيفضل القمصان القطنية الواسعة ذات الألوان الهادئة؛ الأزرق الفاتح، الأخضر الزيتوني، أو الأبيض الذي يعكس صفاء داخله. سرواله غالباً من قماش اللين الخفيف، مناسب للمناخ الهندي الحار الرطب. في خطواته تجد إيقاعاً هادئاً، يشي بقدرة على التحكم في انفعالاته، وكأن قلبه ينبض بتؤدة تتسق مع مهمته كطبيب يختص في معالجة آلام الآخرين.

نشأ أريان في بيئة ريفية غنية بتقاليد الهند العريقة. رائحة التوابل التي تعبق في الأسواق، أصوات الأذان والتراتيل الدينية التي تتعاقب

مع الفجر والمساء، ألوان الساري الزاهية التي ترتديها النساء في الأعياد، كلها صاغت شخصيته على نحو متفرد.

رغم انتقاله إلى المدينة لمتابعة دراسته في الطب، ظل يحمل في داخله روح الريف؛ التواضع، احترام الأكبر، والتمسك بالأسرة كوحدة أساسية للحياة. يتحدث بلغته الأم الهندية بلهجة أهل قريته، لكنه يجيد الإنجليزية بطلاقة، ما مكنه من التواصل مع أساتذته وزملائه في الجامعة. في تعامله مع المرضى، ترى أثر ثقافة الاحترام والرحمة التي تشربها من بيئته. ينحني قليلاً برأسه حين يُصغي، يستخدم عبارات مهذبة، ويحافظ على الابتسامة حتى في أصعب المواقف.

هو ابن ثقافة متعددة الألوان، تعلم منذ صغره أن التنوع ليس سبباً للانقسام بل مصدراً للغنى. لذلك، في ممارسته الطبية، لا يكتفي بالوصفات الدوائية وحدها، بل يحرص أحياناً على إرشاد مرضاه إلى بعض الأعشاب التقليدية التي عرفها من والده وجيرانه في القرية، جامعاً بين الطب الحديث والحكمة الشعبية.

عائلة أريان هي الجذر الذي منه استقى ثباته. وُلد أكبر إخوته الستة، ليجد نفسه منذ سنواته الأولى محاطاً بمسؤولية أكبر من سنه. فقد والدته أناباً وهو لم يتجاوز السابعة من عمره، حادثة تركت في قلبه فراغاً لا يملؤه شيء، لكنها زرعت في نفسه أيضاً قوة صامتة وحناناً مضاعفاً تجاه أخوته الأصغر.

والده رجل بسيط يعمل مزارعاً، يقضي يومه بين الحقول، يحرث الأرض ويزرع القمح والأرز، ويعود في المساء بملابس ملطخة بالتراب، لكنه يحمل في عينيه كبرياء من عاش حياة كادحة بكرامة. لم يكن الأب كثير الكلام، لكنه علّم أبناءه عبر المثال الصامت معنى

الجدّ والاعتماد على النفس.. زوجته الثانية أرفي لم تكن قاسية على أريان بل أقرب الى صديقة ..

أربع أخوات لأريان، كلهن أصغر منه، ينسجن يومهن بين الدراسة والأعمال المنزلية، ولكل منهن حلم تسعى لتحقيقه : إحداهن تهوى التدريس، وأخرى ترغب في أن تصبح مهندسة، وثالثة تبرع في الخياطة وتصميم الأزياء. أما الأخت الصغرى فما زالت طفلة، تجد في أريان الأب الحامي والمعلم. إلى جانبهن أخان صغيران، أحدهما في المرحلة الثانوية، والآخر بدأ للتو يخطو نحو الجامعة.

كونه الأكبر، حمل أريان عبء أن يكون السند والقُدوة. لم يعرف الرفاهية التي يعرفها أقرانه، بل كان عليه أن يعمل بجانب دراسته ليؤمن نفقاته. هذا الدور جعل شخصيته أكثر نضجاً وهدوءاً، وأكسبه قدرة على الموازنة بين الحزم واللين.

في حياته الخاصة، يحتفظ أريان بقدر من الانعزال. هو ليس انطوائياً، لكنه يقدر الصمت، ويفضل قضاء أمسياته في القراءة أو الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية الهندية، على حضور التجمعات الصاخبة. أحياناً يعود إلى قريته ليمضي عطلة قصيرة مع والده وإخوته، فيستعيد هناك البساطة الأولى : فطور من الخبز الطازج المطهو على التنور، كؤوس الشاي بالقرفة ، وأحاديث متقطعة على ضوء الفوانيس ..

حين قرر أريان أن يختص في علم الأعصاب، لم يكن اختياره عشوائياً أو وليد رغبة في نيل مكانة اجتماعية فحسب، بل جاء من ميل داخلي عميق إلى فهم أسرار العقل البشري. كان منذ أيام دراسته الجامعية مسحوراً بفكرة أن الدماغ، هذه الكتلة الرمادية الصغيرة، تتحكم في كل تفاصيل حياتنا : مشاعرنا، أفكارنا، وحتى إدراكنا لذواتنا. ومع تقدمه في التخصص، صار ينظر إلى مهنته

كجسر يصل بين الجسد والروح، بين المادة وما وراءها.

انعكس عمله على شخصيته بشكل واضح؛ فقد اكتسب مزاجاً هادئاً متوازناً يشبه إيقاع عمله اليومي. فطبيب الأعصاب يواجه مرضى يعانون من أمراض معقدة : الصرع، السكتات الدماغية، أمراض التنكس العصبي. هذه الحالات تتطلب صبراً هائلاً، ونظرة شاملة لا تقتصر على الأعراض الظاهرة بل تمتد إلى فهم العوامل الخفية. لذا، صار أريان يزن كلماته ببطء، يلتقط أنفاسه بتؤدة، وكأن هدوءه جزء من أدواته الطبية. لم يعد الانفعال صفة مألوفة لديه، بل صار يحتفظ به في أعماق أعماقه، مفضلاً أن يظهر لمرضاه كبحر ساكن يبعث فيهم الطمأنينة.

رغم التزامه بالمنهج العلمي الصارم، فإن أريان يحمل في داخله فضولاً تجاه عوالم ما وراء المادة. لقد شدّه بشكل خاص مفهوم **الإسقاط النجمي**، أو ما يُعرف بتجربة الخروج من الجسد. يصف هذا المفهوم حالة يعتقد بعضهم أن الوعي فيها ينفصل عن الجسد المادي، لينطلق في فضاءات أخرى أو عوالم موازية. بالنسبة لأريان، لم يكن الأمر مجرد خرافة، بل فضاءً مثيراً للتساؤل : ماذا لو كان الوعي أكثر من مجرد نشاط كهربائي في الدماغ؟

كما انجذب أيضاً إلى دراسات وتجارب مرتبطة بما يُعرف **بالموت الوشيك** وهي حالات يروي فيها أشخاص اقترَبوا من الموت، أو مرّوا بتوقف قلبي ثم عادوا إلى الحياة، مشاهد وأحاسيس غير اعتيادية : رؤية نور ساطع، الشعور بالسلام العميق، أو الإحساس بالانفصال عن الجسد. هذه الشهادات، وإن كانت محل جدل علمي واسع، تثير لدى أريان أسئلة عن الحدود الدقيقة بين العلم والإيمان، وعن طبيعة الوعي ذاته.

لم يأت فضول أريان من فراغ؛ فقد نشأ في بيئة مشبعة بالفلسفة

الهندوسية التي ترى أن الحياة سلسلة من التناسخات، وأن الروح لا تفنى بموت الجسد، بل تنتقل إلى جسد آخر في دورة لا تنتهي حتى تبلغ التحرر النهائي (الموكشا). بالنسبة له، بدا الإسقاط النجمي وتجارب الموت الوشيك كأنها ظلال معاصرة لهذه الفلسفة القديمة، دلائل محتملة على أن الروح قد تتجاوز حدود الدماغ والجسد.

ورغم وعيه بأن واجبه كطبيب يحتم عليه التمسك بالدليل العلمي، فإنه لم يستطع إخماد صوته الداخلي الذي يسأله دوماً : هل ما نعتبره وعياً مجرد تفاعلات كيميائية عصبية؟ أم أنه نافذة على بعد آخر؟ لقد جعلته هذه الأسئلة أكثر رحابة في التفكير، وأكثر رحمة في التعامل مع مرضاه، إذ يدرك أن الإنسان ليس مجرد حالة سريرية، بل كيان معقد تتداخل فيه البيولوجيا مع الميتافيزيقا، والعلم مع الإيمان.

الهندوسية ، ديانة أريان ، ليست مجرد ديانة بالمعنى التقليدي، بل هي منظومة فلسفية وروحية متكاملة، نشأت في شبه القارة الهندية منذ آلاف السنين. يقدر أتباعها اليوم بما يزيد عن مليار نسمة، مما يجعلها ثالث أكبر ديانة في العالم. جوهرها يقوم على فكرة أن الكون ليس ثابتاً، وأن الروح البشرية تسير في رحلة طويلة من الولادات والموت، باحثة عن الخلاص والتحرر من دورة الحياة.

الهندوسية لا تعرف مؤسساً واحداً، فهي نتاج تراكم نصوص وأساطير وفلسفات. من أهم نصوصها : الفيدا و الأوبنشاد و البهاغافاد غيتا. هذه الكتب جمعت بين الطقوس الدينية، والنصوص الشعرية، والتأملات الفلسفية حول معنى الوجود، ودور الإنسان في الكون.

أما أهم المفاهيم في الديانة الهندوسية فهي :

الدارما و تعني الواجب أو النظام الأخلاقي الذي يجب على الفرد أن يلتزم به بحسب موقعه في المجتمع وظروف حياته. القيام بالدارما هو السبيل لحياة متوازنة ومرضية روحياً.

الكارما ، قانون السبب والنتيجة الأخلاقي. كل فعل يقوم به الإنسان – خيراً كان أم شراً – يترك أثراً يعود عليه في حياته الحالية أو في حيواته القادمة. لا يفلت أحد من نتائج أفعاله، مما يجعل الكارما مبدأ للعدالة الكونية.

السامسارا و تعني دورة الولادة والموت وإعادة الميلاد. هي المسار المستمر الذي تسير فيه الروح عبر أجساد مختلفة، في رحلة تبدو لا نهائية.

الموكشا و هي الغاية القصوى: التحرر من السامسارا ومن قيود الجسد المادي. الموكشا تعني اندماج الروح في الحقيقة المطلقة (برهمان)، والانعقاد من المعاناة والدورة المستمرة للحياة والموت.

و أخيراً التناسخ وهو المفهوم الأكثر شهرة في الهندوسية، الذي يرى أن الروح لا تفنى بموت الجسد، بل تنتقل إلى جسد آخر وفقاً للكارما التي راكمتها. فقد يولد المرء من جديد في صورة إنسان أو حيوان أو حتى كائن آخر، تبعاً لصفاء أفعاله ونواياه. و الهندوسية تقدّم تناسخ الأرواح كحقيقة وجودية، لا مجرد افتراض. يرى المؤمنون أن الموت ليس نهاية، بل انتقال. الجسد يتلاشى، لكن الروح تظل حية، تبحث عن جسد جديد لتكمل رحلتها. لذا، ينظر الهندوس إلى الموت بقدر من السكينة، باعتباره محطة في طريق طويل.

وتتعدد القصص الشعبية عن أشخاص – وخاصة الأطفال – تذكروا تفاصيل من حياة سابقة : أسماء، أماكن، وأحداث لم يكن بوسعهم معرفتها بوسائل عادية. هذه القصص، المنتشرة في القرى والمدن، تعزز لدى الناس الإيمان بأن التناسخ واقع حيّ وليس مجرد عقيدة.

بالنسبة لأريان، لم يعد التناسخ مجرد فكرة دينية أو موضوعاً فلسفياً يقرأ عنه، بل أصبح جزءاً حياً من قصته الشخصية. فقد توفيت أمه حين كان في السابعة من عمره، تاركة وراءها فراغاً عاطفياً هائلاً. كان يظن أنه فقدوها إلى الأبد، حتى جاءه خبر لم يكن ليتخيله.

في قرية مجاورة لقريتهم، ولدت طفلة بعد عام من وفاة الأم. كبرت هذه الطفلة بشكل طبيعي، حتى بلغت التاسعة من عمرها، وبدأت فجأة تتحدث عن حياة أخرى لا يعرفها أهلها : أسماء غريبة، بيت بمواصفات محددة، حقول مزروعة بالقمح والأرز، و أربعة أبناء يدعى أكبرهم أريان. كانت تروي تفاصيل دقيقة عن أدوات المنزل، وصفات الطعام التي اعتادت إعدادها، وحتى عن الحلي التي كانت ترتديها.

في البداية، ظن أهلها أن خيال الطفلة واسع، لكن إلحاحها دفعهم إلى التحقق. زارت الطفلة القرية المجاورة، وهناك حدث ما لا ينسى : توقفت أمام بيت أريان، ودخلته وكأنها تعرف كل زاوية فيه. نادى والده باسمه، والتفتت إلى أريان بعاطفة لا تخطئها العين، وقالت بصوت مرتجف : أنت ابني .

كانت هذه اللحظة كالصاعقة التي هزت الجميع.

الطفلة لم تكتفِ بالكلمات، بل سردت ذكريات لم يعرفها أحد خارج العائلة : كيف كانت تهدد أريان حين يبكي، وكيف خبأت له قطعة حلوى في صندوق خشبي صغير. هذه الدقة جعلت العائلة، ومعهم أريان، يوقنون أن ما أمامهم ليس مجرد طفلة، بل عودة الأم في جسد جديد.

هذه الحادثة غيرت حياة أريان كلياً. لم يعد التناسخ بالنسبة له نظرية يتناقلها الكهنة والفلاسفة، بل تجربة شخصية حقيقية. رؤية أمه في جسد آخر منحته سلاماً داخلياً، وعزز لديه يقيناً بأن الموت ليس النهاية. صار أكثر رحمة في عمله كطبيب أعصاب، مدركاً أن

الإنسان يتجاوز جسده المادي.

أما الطفلة – أي أمه في حياتها الجديدة – فقد صارت تزور العائلة من حين لآخر، محافظةً على علاقة غريبة وفريدة : فهي في ظاهرها غريبة عنهم، لكنها في جوهرها قطعة من قلبهم القديم. هذه الزيارات كانت أشبه بجسر بين الماضي والحاضر، بين الموت والحياة، بين العلم والإيمان

حين يذكر أريان اسم إيشا، يتغير صوته كما لو أنه يستحضر شيئاً أعمق من مجرد حبيبة أو خطيبة. إيشا في حياته لم تكن يوماً شخصاً عابراً، بل كانت أشبه بالجديلة السرية التي حبكت خيوط روحه منذ الطفولة. إن ملامحها لم تكن مجرد تفاصيل جمالية، بل كانت انعكاساً لصورة أكبر، لصدى معنى يتجاوز الجسد.

هي فتاة بملامح رقيقة كقصيدة غير مكتملة، عيناها عسلتان تحملان دفء الأرض في مواسم الحصاد، وشعرها الأسود الطويل ينسدل ككفي الليل على كتفيها. حين تبتسم، يبدو كأن العالم يتوقف لبرهة، ويصغي. أما صوتها، فليس مرتفعاً ولا هامساً، بل هو التوازن نفسه : صوت من اعتاد أن يكون لحظة طمأنينة في زمن مكتظ بالضجيج.

قصة أريان وإيشا لا تُشبه قصص الحب العابرة التي تبدأ في الجامعة أو مكان العمل. لقد بدأت منذ أن كانا طفلين في القرية نفسها. كانا يلعبان على التراب ذاته، ويركضان في الحقول نفسها، ويشربان من النهر ذاته. منذ تلك اللحظات الأولى، دون وعي منهما، كانت أرواحهما تُشكّل على نحو يجعلها لا تكتمل إلا ببعضها البعض.

حين رحلت أم أريان باكراً، وجد نفسه في مواجهة فقد لا يُحتمل. لكن هناك، وسط ذلك الفراغ، كانت إيشا. لم تكن تملك سوى ابتسامة

صغيرة وقطعة حلوى، لكن ذلك كان كافياً ليمنحه يقيناً بأن العالم لم يغادره كله، وبأن الحياة ما زالت تحتفظ له بجزء من العزاء.

لقد ترعرعا معاً، وكبرا كما تكبر شجرتان متجاورتان، تتشابك جذورهما في عمق الأرض حتى لو بدت أغصانهما منفصلة فوق السطح. ومع نضج الأعوام، اكتشفا أن ما يجمعهما لم يعد مجرد ألفة الطفولة، بل شغف دفين يشبه حنيناً إلى شيء لم يُفقد يوماً.

حين انشغل أريان بدراساته في الطب، كان كثيراً ما يغيب في المدن المزدحمة، يواجه قسوة الحياة ومشقة السعي. لكنه لم يشعر يوماً بالوحدة، لأن ظل إيشا كان يسير معه، حتى وهو بعيد عنها. كانت كلماتها في رسائلها البسيطة تبدو له أكثر ثباتاً من أي جدار، وأكثر رحمة من أي دواء.

إيشا لم تكن مجرد داعمة، بل كانت المرأة التي رأى فيها ذاته الحقيقية. في كل مرة شكّ في نفسه أو شعر بالإرهاك، كان يستعيد صورتها وهي تقول له بعيونها قبل لسانها : (أنت قادر، أنت خلقت لتكون نوراً في حياة الآخرين.) هكذا، تحولت إلى طاقة لا تنفد، إلى المعنى الذي يحفظ توازنه الداخلي، وإلى الحلم الذي يجعله قادراً على الاستمرار.

اليوم، وبعد رحلة طويلة من الصبر والعناء، يقف أريان وإيشا على أعتاب زفافهما القريب. بعد أشهر قليلة، ستتزين القرية بالألوان والأنوار، وسيتردد صدى الطبول والتراتيل، وسيجتمع الأهل والأصدقاء ليشهدوا ارتباطاً لم يُولد في لحظة، بل نما عبر السنين كالشجرة التي انتظرت طويلاً حتى أثمرت.

لكن بالنسبة لهما، الزفاف ليس نهاية قصة، بل بدايتها الحقيقية. إنه عودة الروحين إلى موضعهما الطبيعي، كالنهر حين يجد مجراه، أو الطائر حين يبلغ سماءه. هو إعلان أن الحب ليس وعداً يُقال بالكلمات، بل حضوراً يُصنع بالعمر كله.

إيشا ليست فقط خطيبة أريان، بل هي فلسفة في جسد، ورحلة في ملامح إنسان. هي البرهان على أن الحب، إذا ما وُلد صادقاً، يصبح شكلاً من أشكال الخلود.

شجرة الأراك ، حيث تبدأ الحكاية وتنتهي

خرج أريان من باب المشفى مع أول خيوط الفجر. المدينة لم تستيقظ بعد، شوارعها لا تزال نصف نائمة، والمباني الرمادية ترتدي غلالة ضباب خفيف. حمل في صدره شعوراً نادراً بالارتياح؛ فقد أنهى مناوبة طويلة ومرهقة، لكن قلبه كان خفيفاً كطائر يستعد للطيران. مد يده إلى جيبه وأخرج هاتفه، وضغط الرقم الذي يحفظه قلبه أكثر مما يحفظه عقله.

على الطرف الآخر جاء صوت إيشا، رقيقاً، دافئاً، يضيء أذنه كما يضيء الفجر وجه السماء ، هو يعلم أنها تستيقظ يومياً مع شروق الشمس. تبادلا كلمات قصيرة لكنها مشبعة بالمعنى. تحدثا عن تفاصيل الزفاف القريب، عن الألوان التي سترزين قاعة الاحتفال، عن الموسيقى التي سترافق خطواتهما الأولى كزوجين. كانت ضحكة إيشا تتخلل صوتهما كأنها موسيقى خلفية لحياة لم تبدأ بعد.

قال لها :

= إيشا، أشعر وكأن الكون كله يتواطأ ليمنحنا هذه السعادة.

فأجابته :

= بل نحن الذين بنيناها، لبنة فوق لبنة، صبراً فوق صبر .. إنها مكافأة عمر من التعب و الانتظار ..

ابتسم أريان، ثم أنهى المكالمة على وعدٍ بقاءٍ قريب، ووقف عند

حافة الطريق ينتظر سيارة أجرة. في ذهنه، كان يخطط أن يمر قبل العودة إلى منزله على صديق قديم يعاني وعكة صحية. لم يكن قادراً على تأجيل الأمر؛ فالمسؤولية بالنسبة له لم تكن مجرد واجب مهني، بل نوعاً من العهد مع الحياة.

توقفت سيارة أجرة صفراء بجانبه، فتقدم بخطوات واثقة، فتح الباب وجلس إلى المقعد الخلفي. الهواء كان ثقیلاً برائحة البنزين والليل العالق، لكنه لم يهتم؛ كان ذهنه منشغلاً بأشياء أكبر : وجه إيشا، وابتسامة أبيه التي لم يرها منذ أسابيع، وحلم الغد الذي كان يتشكل كزهرة على وشك التفتح.

السيارة انطلقت ببطء أولاً، ثم تسارعت قليلاً. الشوارع خالية إلا من بعض المارة الذين يبدوون كظلال. أريان أرخى رأسه على المقعد وأطلق تنهيدة هادئة. لحظة صفاء خالصة، كأن الزمن يطوي جناحيه ليمنحه هدوءاً مستحقاً.

لكن المنعطفات في الحياة لا تُعلن عن نفسها. هناك دائماً لحظة فاصلة بين الامتلاء والفراغ، بين الضحكة والصرخة. وفي ذلك الصباح، جاء المنعطف سريعاً، بلا إنذار.

من زاوية الشارع، انبثقت سيارة مسرعة، أشبه بسهم أطلق من قوس غاضب. لم يكن في يد السائق ولا في يد أريان أي وقت للتفكير. اصطدمت السيارة الجانبية بسيارة الأجرة بعنفٍ جعل الزجاج يصرخ ويتناثر كقطع نجوم انطفأت فجأة.

انحرف جسد أريان إلى جانب النافذة بقوة لا تحتمل. رأسه ارتطم بالزجاج بعنف، ثم خيم عليه صمت كثيف. شعر بوميض أبيض يتفجر في عينيه، ثم غابت الصور كما لو أن العالم أطفئ بيد خفية.

سال الدم بغزارة من جرح في جبينه، حاراً ولزجاً، كأن الروح نفسها تبحث عن منفذ إلى الخارج.

لحظة واحدة كان يبتسم لإيشا عبر الهاتف، يتحدث عن زفافهما القريب، ولحظة أخرى صار جسده مستلقياً بلا وعي في مقعد سيارة متهشمة. كأن الزمن، في نزوة عابثة، قرر أن يقطع الوتر في منتصف الحن.

ذلك هو سرّ الحياة الذي لم يتوقف أريان عن تأمله كطبيب و كإنسان : أن الفرح والمأساة يتجاوران دائماً، يعيشان في الغرفة ذاتها، لا يفصل بينهما سوى باب شفاف. قبل دقائق كان يخطط أن يزور صديقه المريض، وفجأة صار هو المريض، بل الضحية، والدماء التي يراها عادةً على أجساد الآخرين صارت تنزف منه هو.

لكن، حتى في لحظة الغياب، كان هناك معنى خفي. في اللاوعي العميق ، ظل صوت إيشا يتردد في داخله : (لقد بنيناها معاً، لبنة فوق لبنة.) كأن الكلمات تحولت إلى جسر يحمله فوق هاوية الصمت، إلى أن يقرر القدر إن كان سيكمل عبوره أم سيبقى هناك، معلقاً بين ما كان وما قد لا يكون.

وصلت سيارة الإسعاف إلى بوابة المشفى مع خيوط الفجر، محملة بجسدٍ مألوف على هذه الأرض، غريب عنها في هذه اللحظة. كان المسعفون يعرفون من هو المصاب قبل أن ينطقوا اسمه؛ وجهه لم يكن غريباً عن أروقة المكان. أريان، الطبيب الذي طالما ركض في هذه الردهات لإنقاذ أرواح الآخرين، صار الآن هو من يحتاج النجدة.

دُفعت النقالة بسرعة، أبواب الطوارئ انفتحت كهم يبتلع القدر.

الزملاء الذين طالما عملوا بجانبه تدافعوا نحوه، عيونهم مذهولة، قلوبهم مشدوهة، كأن الزمن أخطأ طريقه فجعلهم يعالجون من كان بالأمس سندهم وابتسامتهم.

في غرفة العناية المركزة اجتمع الأطباء والممرضون حوله. الأجهزة استعدت، والقلوب استجمعت كل ما فيها من رجاء. ارتدى زملاؤه قفازاتهم بسرعة، لكن ارتعاش أصابعهم خانهم. ضربات على صدره، أنابيب أوكسجين تدخل وتخرج، أصوات الأجهزة تقطع الصمت برتابة معدنية، والنداءات تتعالى :

- اضغطوا أكثر!
- صدمة كهربائية أخرى ..
- لا يزال بلا نبض!

كان المشهد أقرب إلى معركة، ولكن الجسد المستلقي هناك بدا كمن أعلن الاستسلام منذ البداية. صدره يرتفع ويهبط بآلات لا بإرادته، شفتاه شاحبتان، جبينه ما زال ينزف بخيط دم أحمر يرسم مساره نحو الوسادة البيضاء. كأن الحياة اختارت أن تنسحب ببطء، تاركة خلفها جسداً بلا مقاومة.

زملاؤه الذين طالما عرفوه صامداً، هادئاً، مبتسماً حتى في أقسى الظروف، وجدوا أنفسهم عاجزين. حاولوا مراراً، لكن القلب ظل صامتاً، كأن صوته قد رحل إلى مكان آخر لا تصله الصدمات الكهربائية ولا الأدوية ولا النداءات المتوسلة.

عند الدقيقة الأخيرة، حين أعلن الجهاز خطأ مستقيماً بلا نبض، خيم الصمت على الغرفة. لم يكن صمتاً عادياً، بل صمتاً يثقل الهواء حتى يكاد يخنق من فيه. انحنت إحدى الممرضات تبكي بحرقة، فيما رفع أحد الأطباء يديه إلى وجهه ليخفي دموعه. كانوا جميعاً يعرفون : لم

يفقدوا مجرد مريض، بل فقدوا أخاً، رفيقاً، وواحداً من أنبل من مشى بينهم.

استلقى أريان على السرير الأبيض بلا حركة. ملامحه كانت مسالمة، كأن روحه اختارت الرحيل بهدوء يليق بخصاله في الحياة. لم يعد هناك صراع ولا ألم؛ الجسد بدا خفيفاً، ساكناً، وكأنه أتم مهمته على هذه الأرض.

الدماء التي لطخت معطفه الطبي الأبيض ذات يوم، وصار هو يزيلها بيديه عن أجساد الآخرين، سألت هذه المرة منه هو، شاهدة على مفارقة موجعة. يده المسترخيتان بجانبه كانتا تشبهان يدي طفل نائم، بينما جبينه الواسع، الذي طالما حمل خطوط المسؤولية، استراح أخيراً من كل الأعباء.

غرفة العناية لم تعد غرفة علاج، بل غرفة وداع. دموع زملائه انسابت بلا خجل، فلم يكن في لحظة كهذه مكان للمظاهر أو للتماسك. كل واحد منهم كان يحمل في قلبه ذكرى شخصية معه : نصيحة قالها، ابتسامة شجعتهم، صمت شاركهم فيه ثقل المسؤولية.

وهكذا، غاب أريان عنهم، تاركاً وراءه فراغاً أكبر من جسده، فراغاً يسكن القلوب قبل أن يسكن المكان. لم يكن مجرد طبيب رحل، بل كان وجهاً من وجوه النبل الإنساني الذي يتجلى أحياناً في شخص واحد، ثم يختفي ليبقى أثره طويلاً في ذاكرة من عاشوا قربيه.

استفاق أريان فجأة، كمن يُستعاد إلى النور بعد أن ابتلعه الظلام لفترة طويلة، وكأن الزمن نفسه قرر أن يمنحه ثانية واحدة ليعيد ترتيب نفسه. فتح عينيه، فوجد سريراً لم يره من قبل، فراشاً مريحاً يفوق كل ما عرفه في حياته، يغطيه قماش ناعم يلمع تحت الضوء الخافت،

ويشبه ملمس النسيم على جلد دافئ. حاول أن يهز رأسه، فارتجف برعشة طفيفة عند تذكر حادث السير : الزجاج المتكسر، الصراخ، الدم، وجه إيشا قبل أن يُقطع الاتصال... كل شيء اندمج في وميض خاطف لم يتركه يتنفس بسلام.

نظر حوله بفضولٍ وارتباك، وإذا به في مقصورة زجاجية كروية، شفافة كعين ماء صافية، تنحني خطوطها لتحتضنه دون أن تحجزه. انعكس وجهه في الزجاج، لكنه بدا مختلفاً، جسد لا يشبهه تماماً، ملامح ثابتة وهادئة كتمثال. انسحب إلى الوراء، وارتجف، مد يده إلى وجهه ليتأكد أن هذه اليد ما تزال له : الأصابع الطويلة، ندوب طفولية على الإبهام، وخط شعري على الرسغ ، كلها اختفت و كأنه في جسد غريب عنه. ثم تحركت يداه لأسفل، فوجد جسده متصلاً عبر لصاقات غريبة إلى جهاز كروي صغير بجانبه.

على شاشة الجهاز، تألفت كلمات تتوهج بخفة :

المهمة أنجزت — استيقظ فقد مت ...

توقف النص كما لو أن أحداً لم يجرؤ على الكتابة كاملة. لم يفهم المعنى فوراً؛ هل هذا خطأ، أم تجربة غير مفهومة؟ تذكر فوراً قراءاته عن الموت الوشيك، الأبحاث الطبية والفلسفية التي عزته إلى فيض من الإندورفين والأدرينالين، وكيف يمكن للدماغ أن يخلق رؤية يزدوج فيها الواقع والخيال.. هل يعيش هذه التجربة بسبب الحادث ؟

فصل الأجهزة عن جسده بيد مترددة، وكأن كل لصاقة كانت تشده إلى العالمين في آن واحد. نهض من السرير، ولم يجد باباً في المقصورة، الصوت الذي اعتاد على الاعتماد عليه لم يكن موجوداً.

صرخ بأعلى ما يملك من قوة :

= هل من أحد هنا؟ هل أنا حي أم ميت؟

ارتدت صرخاته عن جدران الزجاج دون أن تجيب، إلا بصدى بعيد يختلط بالضوء الخافت.

فجأة، صدر صوت أنثوي، ناعم، مفعم بالثقة والطمأنينة، ينبعث من الجهاز الكروي :

= أهلاً بك بني... لقد أنجزت مهمتك في الحياة.

ارتجف أريان، ولم يتمالك صوته وهو يردّ :

= من أنت؟ وأين أنا؟

أجابت بصوت رقيق وكأنها نبتت من أعماق الكون :

= أنا شجرة السماء... أنا الجذع وأنت أحد فروعها. أنت في العالم الآخر.

ارتعش أريان، وعاد عقله يتداعى بين العقل والفلسفة، بين ما يعرفه وما يراه. سأل :

= لم أفهم... هل أنا ميت؟

= نعم ..

جاء الجواب بهدوء مربك :

= ميت إن شئت، وحيّ إن شئت .. هذه هبة منحتها لقلّة قليلة من فروعها ..

عاد أريان إلى قريته التي شهدت طفولته الأولى، حيث رائحة التوابل تختلط بغبار الطرقات الترابية، وأصوات الطيور والنهر تعانق عويل الريح. لكن هذه المرة لم يكن هناك صوت ضحك، ولا خطوات صاخبة على الطريق؛ فقد عاد إلى المكان الذي ولد فيه جسده، لكن روحه كانت قد غادرت منذ زمن قصير، تاركة خلفها فراغاً يتسرب في قلب كل من عرفه.

أريان أصرّ في حياته على دفنه قرب شجرة الأراك العجوز عند موته، تلك الشجرة التي عاش في ظلها طفولته كلها. تحت أغصانها تعلم المشي الأول، تعلم اللعب، ذاكر الدروس، وتعلم كيف تصغي للرياح، كيف تلاحظ تغيرات الضوء في أوراقها، وكيف يشعر بالسلام حين يكون أحدها يراقبه من الأعلى. كان لأريان شعورٌ داخلي قوي، لم يفهمه، لكنه أصر عليه طوال حياته : دفنه هنا، بين جذورها العميقة، حيث يمكن أن تعود روحه إلى الأرض التي احتضنته يوماً، بعيداً عن النيران التي عادة ما تُشعل في أجساد موتى الهندوس.

وصل الجميع إلى المكان، القلوب مثقلة، العيون متورمة بالدموع، والهواء مشبع بالحزن. الأب، الذي طالما كان حجراً صلباً في الحياة، انحنى على كتف ابنه باكياً بصمت، كأن كل العمر الذي عاشه لم يعد يكفي ليواسي نفسه أو أولاده. الأخوات الأربع، والأخوان الصغيران، وقفوا حول القبر، يداهم شعور فقد لا يمكن التعبير عنه بالكلمات، شعور يفوق الألم، يفوق الصدمة.

إيشا لم تستطع التماسك. اقتربت من القبر، ركعت على الأرض، وانهارت فوقه، كأنها تتمنى أن تستطيع اللحاق بالروح التي رحلت. قالت بصوت مختنق بالدموع والصرخة :

= أين ذهبت أريان ؟ لقد وعدتني أننا لن نفترق... زفافنا كان قريباً، والآن صار مأتماً .. ليست هذه المكافأة التي توقعناها !

كانت كلماتها تتناثر في الهواء، تتماوج بين أغصان الأراك و أوراقها ذات الشكل القريب من هيئة القلب، بين التراب، وبين الذكرى. كل حرف منها كان كالسيف الذي يخترق صمت الموت، كأنه يرفض قبول أن أحد أغلى البشر في حياتها قد غادرها بهذه الطريقة.

الجميع صمت، ولكن الدموع لم تتوقف. كانت دموعهم جزءاً من الأرض، جزءاً من الهواء، جزءاً من كل شيء في القرية، وكأن الحزن نفسه أصبح مادة ملموسة. كل شخص وقف أمام شجرة الأراك العجوز، ينحني برأسه، يلمس جذورها، ويشعر بأن جزءاً من روحه يرتبط بذلك الجذر الذي احتضن أريان منذ صغره.

وضع التابوت في القبر ببطء، وكأنهم يضعون قلب العالم نفسه في حضن الشجرة. كل دفعة تراب كانت تحمل معها رسالة وداع : حب، احترام، فقدان، وامتنان لما كان عليه أريان طوال حياته. الشجرة، بظلالها العميقة، بدت كأنها تستوعب كل شيء، وتحتضن الروح كما احتضنت الطفل الذي اعتاد أن ينام في كنفها.

وقف الأب متكئاً على عصاه، بينما أخواته يلامسن التراب، والأخوة الصغار يحاولون فهم معنى الرحيل قبل الألوان. إيشا بقيت جاثية، عيناها مغلفتان، شفتيها تتحركان بلا صوت، وكأنها تهمس له : (عد إلي... عد إلي كما وعدتني...)

النسيم مرّ بخفة، حاملاً معه رائحة التراب، رائحة الغبار، رائحة الحياة التي لا تنتهي، ورائحة الغياب الذي يحفر عميقاً في القلب. كان المشهد مزيجاً من الحزن والسكينة، من النهاية والبدائية، من الألم والخلود.

حتى الموت هنا لم يكن مجرد غياب، بل لحظة من الانصهار بين الإنسان والأرض، بين الروح والجذر. شجرة الأراك العجوز، التي شاهدت طفولته ، ضحكاته، تعلمه، وآماله، أصبحت شاهدة على

الرحيل النهائي، وموئلاً لروحٍ لم ترغب إلا في أن تعود إلى حضن
الأرض الأم، بعيداً عن النيران، بعيداً عن التقاليد، حيث يمكن للسلام
أن يستقر و للروح أن تستريح .. هبت نسمة ريح أخيرة فأسقطت
ورقة يابسة من غصن شجرة الأراك لتهوي فوق تربة القبر على
هيئة قلب جفّ من الروح فصمت أخيراً ..



الفصل الثالث

صوفة صوفة

برهان عبد القدوس اسم يتردد في الأوساط الثقافية كما يتردد صدى الأجراس في وادٍ سحيق، لا يلبث أن يملأ كل زاوية بالرهبة والجلال. رجل بلغ السبعين من عمره، ومع ذلك ظلّ واقفاً كجبل لا يتأكل من عوامل التعرية، وكأن الزمن وهو يمرّ عليه قد خجل أن يترك بصماته. لم يكن الشيخوخة لتتال منه كما تتال من سواه، فقد عرف سرّ الحياة: كتابٌ يقرأه بتمعّن، جسدٌ يدرّبه بالرياضة، وروحٌ يحافظ عليها بغذاء متوازن وحكمة متينة. كانت ملامحه تحمل مهابة العمر، لكن عينيه ظلّتا تلمعان ببريق الشباب، كأنهما نافذتان على ربيعٍ لا يشيخ أبداً.

عاش برهان حياته عاشقاً للثقافة، حارساً أميناً لمملكة المعرفة، ينهل من الكتب نهل الظمآن من النبع. قرأ الفلسفة كما لو كان يحاور سقراط، وغاص في التاريخ كما لو أنه يستمع إلى همسات الملوك الغابرين، وكتب في السياسة بصرامة المؤرخ ومرونة المفكر. عشرات المؤلفات حملت توقيعه، بعضها صار مراجع لا غنى عنها، وبعضها أثار جدلاً كما تثير العاصفة سكون البحر. ومع ذلك، لم يكن برهان يسعى للشهرة، بل للمعرفة، يرى نفسه خادماً أميناً للكلمة لا سيّداً عليها.

لكن الحياة، بما تحمل من مفاجآت، لا تترك أحداً يسير مطمئناً بلا امتحان. ففي لحظة واحدة، وبحادثة عابرة، كُسرت دروعه جميعاً. كانت تلك حين تعرّضت حفيدته الوحيدة فاطمة من ابنته الوحيدة لحادثة هزّت كيانه من الأعماق. لم يكن مجرد حدث عابر في صحيفة، بل زلزالاً داخلياً جعل عمره يتضاعف عشرين سنة دفعة

واحدة. لم يعد الشيخ السبعيني شاباً في روحه كما كان، بل رجل يتوكأ على جرح لا يُرى.

فاطمة ذات السنين الثلاثة عشر ، النور الذي كان يشعّ في بيته، أصيبت بجرح لا يندمل. دخلت في متلازمة ما بعد الصدمة، وصار العالم في عينيها غابة مظلمة. غاصت في اكتئاب عميق، تكسّرت ضحكاتها واختفت خطواتها المرحية، وبات الصمت هو اللغة التي تسكن بين جدرانها. كان برهان يراقبها بقلب مثقوب، يشعر أن الكتب كلها عاجزة عن أن تمنحها الطمأنينة، وأن ثقافته الممتدة عبر عقود لا تساوي شيئاً أمام دمة واحدة تسيل على خدها.

ومع ذلك، لم يكن الاستسلام من طبع هذه العائلة. التفّ الأصدقاء والأطباء حول فاطمة، مدّ المجتمع يده بالدعم، وجاء الطب النفسي كمنقذ جديد، يثبت مرة أخرى أن المعرفة الإنسانية لا تنحصر في الفلسفة ولا في التاريخ، بل تمتد إلى شفاء الأرواح أيضاً. بالأدوية المدروسة، وبالعلاج النفسي المتدرج، بدأت فاطمة تستعيد شيئاً من نورها. لم يكن الأمر سهلاً، لكن كل خطوة صغيرة كانت بالنسبة لجدها معجزة، وكل ابتسامة تعود إلى شفيتها كانت كأنها قيامة من موت.

حين كان برهان يجلس قربها، يرى أن هذه التجربة لم تفضحه فقط كجد ضعيف أمام دموع حفيدته، بل أعادت إليه درساً نسيه في زحمة الكتب : أن الإنسان لا ينهض بالثقافة وحدها، ولا يحيا بالفكر المجرد، بل يحتاج إلى شبكة من الحب، إلى يد تمتد في لحظة الانكسار، وإلى طبٍ يعرف كيف يُعيد رسم ملامح الروح.

لقد كُتب في مسيرة برهان عبد القدوس أن يكون شاهداً على عصرين : عصرٍ كان يظن فيه أن الكلمة هي المنقذ الأوحده،

وعصرٍ آخر أدرك فيه أن الكلمة وحدها لا تكفي، بل لا بد من العلم والطب والدعم الاجتماعي كي يُعاد تشكيل الإنسان. وهكذا ظلّ الرجل، رغم جرحه العميق، متمسكاً ببهاء رسالته : أن الثقافة ليست مجرد حروف تُسطّر، بل حياة تُعاش، وأن أعظم مؤلفاته لم يكن كتاباً كتبه، بل حفيذةً استعادت نورها بعد أن كاد يخبو.

ها هو اليوم يجلس في مقعده الوثير بجوار الشرفة ، ذاك الذي التصق بجسده كما لو أنه امتداد لهيكله العجوز، في ركنٍ هادئٍ من مكتبته التي طالما كانت ملاذه الأثير. كانت الغرفة تغطّ برائحة الورق العتيق، رائحة تشبه عبق الزمن وهو يتكثّف في صفحاتٍ صفراء محمّلة بعرق القراء وأحلامهم و برائحة التبغ المعتق المتسربة من غليونه. وفي ذلك الركن العابق، انكبّ الرجل على قراءة كتاب بعنوان (الروح بين الواقع و الاحتمال) بقلبٍ لا يزال يرفّ بفضول تلميذٍ صغير، رغم أنّ شيب الشعر على رأسه ولُحمة التجاعيد حول عينيه تحكيان عن عقودٍ طويلة من القراءة والمكابدة الفكرية.

كان الكتاب من تأليف البروفيسور الأمريكي سيكوياس ستيفنز، الشهير بمحاضراته المثيرة للجدل عن حقيقة الروح منذ أشهر و التي أتبعها بإصدار كتاب يفصل أكثر في الموضوع. وكانت عينا برهان تحتميان خلف نظّارات سميقة، أسمك من مجلدات الفلاسفة ، كلما انعكس الضوء عليها، بدا كأنها تختزن أرشيفاً من القرون الماضية، كما لو كانت بحد ذاتها مكتبةً ثانية فوق عينيه. تلك النظارات تحكي قصةً من دون لسان : قصة عمرٍ طويلٍ من القراءة المتواصلة، قصة عشقٍ مجوسية بين رجلٍ يلتهم المعرفة التهاماً وبين كتابٍ يتصبّب شقاءً ودهشةً في زمنٍ صار فيه الكتاب يتيماً مشرداً، لا أحد يعيره حضناً أو يدرك قيمته. لكن القدر، بما يشبه الطرافة المجردة، قرّر أن يُتبنى هذا اليتيم من قبل عائلة عقيمة، لا أبناء ذكور لها سوى الكتب، فصار الورق فيها أعزّ من الدم، والحبر فيها أثمن من الذهب.

تصفّح برهان الصفحات كما لو كان يتوضّأ بالكلمات، يقرأ عن ماهية الروح ، عن الاتحاد المقدس بين الجسدين السماوي و الأرضي في تجربة واقع افتراضي كونية .. عن الموت الوشيك وتجارب الأرواح عند عتبات الغياب، وعن الإسقاط النجمي حيث تُفلت الروح من قيد الجسد وتحلّق في سماواتٍ غير مرئية، ثم يتدرّج الكتاب به إلى حديثٍ عن تناسخ الأرواح، كأنّ الكاتب يفتح أبواباً متلاحقة، كل باب يفضي إلى آخر أكثر غموضاً وسحراً. كان البروفيسور قد بلغ منتصف الكتاب، وكانت أنفاسه مزيجاً من شغفٍ وتأملٍ وخوفٍ دفين؛ خوفٌ من أن يبلغ الصفحة الأخيرة ويُغلق الباب، إذ كان يرجو الله أن تطول متعته ولا تنقطع قبل أن يشبع قلبه من هذا السحر الماورائي.

في تلك اللحظة، اقتربت منه حفيدته فاطمة، الفتاة التي عادت إليه بعد محنةٍ أليمة. كانت زيارتها أشبه بمحاولةٍ أخرى للتعافي، نقاهةً من جرحٍ غائر تركه حادثٌ كاد يسرق منها براءتها، يوم تجرّأ رجل غريب على انتهاك جسدها وروحها، مستغلاً الفوضى التي عصفت ببلادهم. فقد صار الوطن، مع غياب الرقابة والمحاسبة، غابةً تتجول فيها الذئاب بلا رقيب، بينما المواطنون عراة أمام مخالبيها. وبرغم فداحة الجرح، كانت فاطمة ما تزال تحمل في عينيها بريق الطفولة، ذلك النور الذي يصرّ على النجاة مهما تسلّط عليه العتم.. فالبراءة لا تأتي من عذرية الجسد بل من عذرية الروح ، و روح فاطمة أرض بكر لم يتمكن أي مختل روعي من تدنيسها ..

وقفت أمام جدّها بوجهٍ نصف مشرق ونصف متهدّج، ثم طلبت منه أن يرافقها إلى الحديقة لتلعب معه الريشة. كان صوتها ينساب بخجلٍ يذيب الصخر، كأنها تستجدي الحياة أن تمنحها فرصةً أخرى للفرح. رفع برهان رأسه عن الكتاب، نظر إلى حفيدته، وفي عينيهِ مزيج من حنانٍ يشبه الصلاة، ومن حيرةٍ بين عالمٍ مكتوب على الورق وآخر يتنفس أمامه باللحم والدم. أحسّ في تلك اللحظة أنّ الكتب مهما

بلغت من سحر، تبقى مجرد حروف صامتة، بينما هذه الطفلة بجراحها، بابتسامتها المرتجفة، كانت كتاباً آخر، كتاباً حياً كتبه القدر على جسد صغير وروح كبيرة.

حين نهض متكئاً على عصاه، بدا وكأنه يغادر عالماً كي يدخل آخر؛ يغادر « الروح » ودهاليز الكتب كي يدخل لعبة الريشة، لعبة تبدو للعين سطحية، لكنها في الحقيقة أكثر عمقاً من كل الكتب : فهي لعبة الحياة ذاتها، حيث تتقاذفنا كريشات بين السماء والأرض، بين الأمل واليأس، بين السقوط والتحليق.

فاطمة هي نقطة ضعف برهان الكبرى، السرّ الذي لا يخجل من الاعتراف به ولو بينه وبين نفسه. فمذ أن أبصرت عيناها النور في هذا العالم، باتت كفيلته في أن تروض كبرياءه الصلب، وأن تفتح الأبواب المغلقة في قلبه بلا استئذان. لم يكن في وسعه أن يرفض لها طلباً، ولو كان بسيطاً كاللعب في الحديقة أو جلوسه بجوارها حين تخاف من الليل. كانت سعادتها بالنسبة له صلاة لا يملّ من ترديدها، ولأجلها يرضى أن يضع العالم خلف ظهره.

لذا، حين طلبت منه أن يخرج معها، لم يتردد لحظة. أغلق كتابه ببطء، وكأنه يطوي بين صفحاته روحاً كامنة، ووضع البطاقة في مكانها كما يضع عاشقٌ موعداً مؤجلاً مع حبيبته. كان الكتاب بالنسبة له عشيقة من الورق، لكن الحفيدة من لحم ودم، ومن ثم لا مجال للمقارنة. نهض بخطوات هادئة وخرج معها إلى الحديقة، حيث كان الهواء أكثر نقاءً من ذاكرة المدن، وحيث كانت الألوان تتوزّع كما لو أن الأرض تعزف لحناً على لوحة خفية.

في البدء لعبا معاً الريشة، اللعبة التي تجيدها فاطمة ببراعة، وكانت خفة يديها تثير في نفسه دهشة متجددة : كيف تستطيع هذه الطفلة،

بجسدها الصغير، أن تقهر ثقل الواقع وتحول ريشة بلا وزن إلى نجم يلمع بين السماء والأرض؟ ظلّ يبادلها الضربات بحماس، يحاول مجارة طاقتها، حتى أعلن جسده فجأة انسحابه من المباراة. آلام الظهر التي كثيرا ما يكون سببها القهر كما يقال في التراث الشعبي وظهرت له بعيد حادثة فاطمة رفعت راية الاستسلام، وجعلته يبتسم برضا بواقع الحياة، أنه لم يعد شاباً. رفع يده معلناً أن هذه المباراة هي الختامية، مباراة ملحمة خاضها بكل ما تبقى فيه من فتوة، ثم صافح حفيدته وكأنه يهنئها على فوزٍ مستحق.

بعد ذلك، تحول اللعب إلى مشي هادئ في الممر الحجري وسط الحديقة، حيث كانت الزهور تحرس الطريق بألوانها المتناثرة: حمراء كالجمر، صفراء كالشمس، بيضاء كأجنحة الملائكة. وبين كل زهرة وأخرى، كان ثمة حديث يتدفق بين الجد والحفيدة. لم تكن المواضيع عابرة، بل تنقلت من هموم الحياة اليومية إلى أسئلة أكبر، عن معنى الفرح، عن الصبر، عن سرّ أن يحتفظ الإنسان بابتسامة حتى حين يتألم. كانت كلمات فاطمة طفولية بسيطة، لكن في بساطتها حكمة لا يصل إليها الكبار إلا بعد أعوام طويلة من التيه.

وبينما كانا يسيران، توقفت فجأة عند وردة زرقاء غريبة، بدت كجوهرة أسطورية بين أخواتها. كانت زُرقتها عميقة، كأنها تحبس في قلبها سرّاً قادمًا من البحار أو من السماء. بدت الوردة وكأنها تسخر من علوم الوراثة التي عجزت عن تفسير كيف ظهرت بهذا اللون النادر، وكأنها رسالة من الطبيعة تقول: (ما زلت قادرة على كسر قوانينكم متى شئت). اقتربت فاطمة منها بحذر، ثم مدّت يدها الصغيرة فقطفتها برشاقة، لتعود بها نحو جدّها.

قدّمتها إليه بابتسامة خالصة، ابتسامة تشبه صلاة صامتة أو وعوداً بالفرح رغم كل الجراح. مدّ العجوز يده المرتجفة وأخذ الوردة منها بحبور، فأحسّ للحظة أنه تلقى هدية من السماء لا من الأرض. رفعها

إلى وجهه، وأغمض عينيه كأنه يتنفس من خلالها حياة جديدة. وفي أعماقه شعر أن هذه الوردة الزرقاء لم تكن مجرد زهرة، بل رمزاً لفاطمة نفسها : نادرة، عصرية على التفسير، تبرعم في قلب الخراب لتعلن أن الجمال قادر دائماً على النجاة و لو تكالبت عليه الأشواك .

= شكرا لك فاطمة إنها وردة رقيقة و مذهلة مثلك تماماً .. لا غرابة أن يحب الورد ورداً.. يجمعكما معاً الرقة و الرائحة الزكية الهاربة من دكان عطار هشم الزمن كل ما فيه من قوارير عطر .. و شكرا لك أيتها الوردة بدورك على التضحية بحياتك لإسعادنا .. أنت زرقاء بلون الكآبة كشمعة احترقت بألم أخرس لتنير الظلام من حولها ..

ابتسمت فاطمة :

= ياه كم أنت شاعري يا جدي .. أتحدث إلى الوردة بحق؟
= بالطبع يا حفيدتي.. إنها كائن حي مثلنا تماماً و فيه روح كروحنا بالضبط .. عبق من نور السماء ..

= معقول ؟ روح في وردة .. كيف يمكن لذلك أن يكون حقيقيا ؟
= تبعا للكتاب الذي أقرأه الآن و أنصحك بشدة بقراءته ، فإن الروح قد لا تسمو بصاحبها إلى سماوات عليا بل تنصاع لرغبات جسده المادي الفاني فتعلق في زنزانة الحياة الدنيا لأجيال منتقلة بالتناسخ من جسم مادي لآخر .. قد يكون إنساناً فيسمى ذلك النسخ أو حيوان فيسمى المسخ أو نبات فيسمى الرسخ أو جماد فيسمى الفسخ .. و يحدد نوع التناسخ أفعال الإنسان في هذه الحياة الدنيا التي تتذبذب بين سمو و انحطاط..

هزت فاطمة ، التي كادت تخسر روحها منذ فترة قريبة قبل أن تستعيدها بشجاعتها و إصرارها اللامحدود ، رأسها باعتراض :

= الجماد له روح ؟ مستحيل ؟

= لا شيء مستحيل في هذا الكون .. و كل مادة من حولنا قادرة على الاقتران بجسد سماوي كي يعيش تجربتها .. هكذا يفشي الكتاب بأسراره ..

= غريب .. من الممكن أن أفهم تجاوزا أن الحيوان له روح فهو يأكل و يشرب و يتكاثر و يتألم و يفرح .. هو كالإنسان لكن بملكات عقلية أقل لكن كيف للنبات مثلا أن يملك روحاً إنه لا يقوم بأي من ذلك ؟

= هذا غير صحيح عزيزتي .. النبات يقوم بكل ذلك أيضا .. فهو يولد من البذرة و يتغذى من التربة و يجذب نحو الضوء و يتكاثر بدوره و أخيرا يبیس و يموت .. أما الفرح و الحزن فقد أثبت العلم أن النبات الذي يعامل بلطف و محبة و يعرض للموسيقا ينمو أكثر و أسرع من غيره .. كذلك فالنباتات تتألم و تصرخ و حتى أن بعضها يبكي ..

= يبكي و يتألم ؟ إنه شيء أقرب للخيال !

= أجل ... إنه أقرب لميثولوجيا إغريقية .. لكنه واقعي تماماً ..
فقد نجح علماء لأول مرة في التاريخ بتسجيل أصوات النباتات عند تعرضها للإجهاد أو القطع أو غيرها من الظروف الصعبة، في مؤشر على أن النباتات لا تعاني بصمت، بل تصرخ أيضاً..

= و لماذا لا نسمعها إذا ؟

= لأن الموجات فوق الصوتية التي تصدرها النباتات يبلغ ترددها الموجي نحو **20** ألف إلى **100** ألف هرتز ، أما الإنسان فيمكنه سماع الأصوات التي ترددها بين **20** و **20** ألف هيرتز فقط، مع ذلك فبعض الحيوانات مثل الخفافيش والفئران ربما تستطيع سماع

صوت النباتات.. ليس ذلك فحسب بل أن النباتات الأخرى تسمع صراخ النباتات المتأذية و تفهم سبب الصراخ من طبيعة الترددات فترتكس للعامل المؤذي و تحمي نفسها منه ..

= مذهل ! و كيف يتم ذلك ؟

= مثلاً أثبتت التجارب و الملاحظات العلمية إنتاج النباتات التي تلقت إشارات من نباتات أخرى تضررت من هجوم الحشرات عليها بشكل بربري للمزيد من المواد الكيميائية الدفاعية لتساعد في مقاومة ذلك الهجوم، أما تلك التي تلقت موجات من نباتات تعرضت للاختناق جفافاً مثلاً فقد أغلقت مسامها لمنع فقدان الماء أكثر .. مما يعني أن النباتات يمكنها سماع وفهم أصوات جيرانها من النباتات وإعداد نفسها لنفس الضغط الواقع عليها.. أكثر من ذلك لقد اكتشف العلماء أن هنالك أنواع عديدة من النباتات تذرف الدموع حرفياً عندما تتألم كقطيرات الندى على خد الورود ..

= سبحان الله .. كم هذا مذهل ! .. لقد قلبت مفاهيمي المسبقة جدي كزلزال عنيف .. بعد كل ما ذكرت فإن للنبات روحاً و لا شك فهي تفهم كل شيء لكن بطريقتها الخاصة .. و أضيف إلى كلامك جدي أن الجماد بنفسه ربما يصرخ عندما يتألم كطرق المعدن أو نحت الصخر أو قطع الخشب .. كل ذلك يصدر صوتاً خاصاً .. ربما هو أنين متألم يلفظ أنفاسه المعدبة..

= رائع رائع .. أحسنت فاطمة .. إنه توصيف بليغ للغاية .. إن روح الله بالفعل متغلغلة في كل ثنايا الكون حولنا .. نور سماوي يعبر موشور الحياة ليتشعب إلى ألوانها البهيجة في كل منا.. و ذات يوم ستجتمع هذه الألوان ثانية على مائدة العشاء الأخير لتعلن قيامة النور الأوحده مجدداً أبيض كطهارة الثلج إلى السموات العلا ..

كانا قد وصلا إلى نافورة قديمة تتوسط الحديقة بمجسم ملاك طائر

من الحديد الذي اهترأ مع الزمن و الأكسدة فبانت عيناه و كأنهما تبكيان صداً أحمر اللون .. جلسا على محيط النافورة و وضع السيد برهان الوردة الزرقاء على وجه المياه و كأنها جثمان هندوسي يودعه أحباؤه في نهر الغانج لآخر مرة قبل إحراقه ..

= وهل هنالك دلائل في الأديان تشير إلى تناسخ الأرواح ؟

= بالطبع .. هنالك آيات قرآنية كثيرة تتحدث عن التناسخ

مثل قوله تعالى :

(نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن

نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ولقد علمتم

النشأة الأولى فلولا تذكرون)

و كما تلاحظين يقول الله .. ننشئكم في ما لا تعلمون أي في غير الجسد البشري ..

= مذهل ! و غير هذه الآية ..

= قول الله تعالى :

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميّتكم

ثم يحييكم ثم إليه ترجعون)

= أي أن الإنسان يموت في هذه الحياة أكثر من مرة .. مما يعني أنه يعيش أكثر من حياة ..

= تماما .. و أكثر من ذلك قوله تعالى :

(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى)

ما رأيك بها ؟

= آية دامغة .. تشير إلى أن المؤمنين بحق الذي يبتليهم الله في هذه الدنيا بشتى أنواع الاختبارات و مختلف صنوف المآسي التي تذيبهم كالحديد الهندي قبل أن يصاغ طائعاً على هيئة جديدة تبردها نسائم الجنان لتأخذ صورتها الأخيرة .. يموتون مرة وحيدة و ينتقلون بعدها إلى العالم الآخر على تلك الهيئة الملائكية.. أما غيرهم ممن لحقوا شياطين الدنيا و إغواءاتها فأسرفوا على أنفسهم من متعها كذلك الوحش الذي اعتدى عليّ منذ أشهر ، فهم يعيشون أكثر من حياة في أكثر من شكل حتى تتصفى أرواحهم و تؤطر بأشكال أرقى فتصبح نقية مؤهلة للعيش في العالم الآخر ..

= تماما فاطمة .. ذاك الوحش يليق به أن يعود للحياة على هيئة خنزير متمرغ في الوحل كما يتمرغ الآن في وحل الشهوات الدنيئة .. إنك تمتلكين بذرة شاعرة في أعماقك عليك رعايتها لتتبت منها حديقة أدبية كحديقتنا هذه.. و هنالك آيات كثيرة أخرى عن النسخ و أيضا عن المسخ إلى كائنات أدنى من الإنسان كالقردة و الخنازير و غيرها فالقرآن فصل كل شيء و فيه كهذه الحديقة

الغناء زهرة من كل بستان من بساتين الحياة ..

= و هل يؤمن الناس جميعاً بفكرة التناسخ ؟

= لا طبعا .. هنالك من يؤمن و هنالك من يشكك و هنالك من لا يؤمن أبدا ..

= و ما هي الديانات التي تؤمن بها ؟

= كثيرة .. الهندوسية، السيخية، البوذية، الطاوية، الفلسفة اليونانية خاصة أفلاطون و فيثاغورس ، الدرزية ، اليهودية (مبدأ الكابالا) ، العلويون ، وديانات السكان الاصليين الأمريكيين (المايا و الانكا)..

وقفا من جلستهما عند النافورة و تابعا سيرهما نحو أكمة الأشجار
في أطراف الحديقة ..

= و هل هنالك قصص معروفة و مشهورة عن أشخاص تناسخت
أرواحهم ؟

= بالطبع التاريخ يعج بمثل هذه القصص .. لكنني أذكر حالياً واحدة
فقط أثارت دهشتي في شبابي .. عن رجل إنجليزي يدعى آرثر
فلورديو من مواليد عام **1906** م عاش حياته كلها في إنجلترا لكن
كان لديه دائما ذكريات عن انه حارس معبد منحوت وسط الصحراء
و أنه قتل هنالك غدرًا .. و في أحد الأيام شاهد الرجل فيلما وثائقيا
عن مدينة البتراء القديمة بالأردن فتعرف عليها مباشرة أنها المكان
الذي يتذكره من حياته السابقة .. و قد أجرى عالم آثار يعمل في
البتراء مقابلة معه لاختبار ادعاءاته .. فكان وصفه للمدينة دقيقًا جدا
بشكل لا يوصف كما انه وصف عدداً من الاماكن البارزة في البتراء
التي لا يعرفها سوى الخبراء .. إضافةً إلى وصفه المكان الذي قتل
فيه بدقة مذهلة و كأن الحادثة وقعت له من سويغات لا أكثر ..

= مدهل !! و هل استحضر الأرواح حقيقة مثبتة علمياً ؟

= سؤال مميز كعادتك .. استحضر الأرواح فكرة غير مؤكدة حتى
اليوم بالدليل المادي الملموس .. لكن هنالك تجارب غريبة كثيرة
وثقتها كتلك المذكورة في سلسلة كتب الباحث المصري الشهير
رءوف عبيد تحت عنوان (الإنسان روح لا جسد) .. و بغض النظر
عن صحتها ، فإن فكرة استحضر الأرواح لا تتناقض مع الخلاصة
التي توصل إليها مؤلف الكتاب الذي أقرأه ، البروفيسور سيكويما ،
فالاستحضر هنا ببساطة شديدة هو استحضر للجسد السماوي .. أي
أن البعض (ربما) قادر على التواصل و التخاطر مع بعض تلك
الأجساد السماوية بإذن إلهي فتروي لها حكاياتها المختلفة في
أجسادها الأرضية بعد أن أنجزتها نهائياً ..

= تفسير وجيز و بسيط و مقنع .. لا أنكر ذلك .. لكن هنالك سؤال
هام آخر جدي العزيز ..

= تفضلي فاطمة ..

= إن أعداد النباتات و الحيوانات و الحشرات و الجماد أكبر بكثير
من عدد البشر فكيف سيتم تناسخ الأرواح مع كل هذه الأعداد ؟!

= يا له من سؤال منطقي و رائع عزيزتي.. و الجواب عليه ببساطة
هي أن عدم اقتران أي جسد سماوي بأي مادة على الأرض لا يعني
عجز هذه المادة عن الوجود .. فمثلاً هذه النبتة الجميلة في الزاوية
ربما ليست مقترنة بأي جسد سماوي ، لكنها ستتمو و تتابع حياتها
بشكل طبيعي دون أن يعي أي جسد سماوي لحياتها ، بل أجسادنا
البشرية نفسها ، ستتابع حياتها بشكل طبيعي حتى في غياب الاقتران
مع أي جسد سماوي ، فالغاية من الاقتران هو اقتران الذكريات لتعلم
الدروس لا غير.. فالاقتران ليس شرطاً للوجود .. لكن في حال أراد
الله لأحد الأجساد السماوية أن تقترن بمادة أخرى تحددها طبيعة
أعمال جسده الأرضي السابق ، فسيختار له المادة المناسبة في المكان
و الزمان المناسبين ليخوض تجربة معينة بغايات هادفة محددة ..

= منطقي للغاية .. سؤال آخر ..

= و هو ؟

= هنالك بشر ادعوا أن أرواحهم غادرت أجسادهم و رأت كل شيء
من حولها .. كما في تجربتي الموت الوشيك و الإسقاط النجمي ..
فما تفسير ذلك إن كانت الروح مجرد اقتران بين جسد سماوي و
كيان أرضي ؟

= رائع ، نقطة غاية في الأهمية .. و يمكن الإجابة على سؤالك
بتحليل هاتين التجربتين ببساطة .. فالإسقاط النجمي يحدث عند
وصول الجسد إلى حالة نفسية معينة تقترب من حالة النوم ، لذا فهو

بالمحصلة شكل من أشكال الأحلام .. أما الموت الوشيك فهو عبارة عن هلوسات دماغية تحدث نتيجة فيض من الأدرينالين و الإندروفينات المتحرر في ظروف الشدة كالتعرض لحادث مثلاً ، أي أنها تدرج بدورها تحت تصنيف الأحلام التي تستوحي واقعاً معيناً تبعاً لما يسمعه الدماغ من حوله ، فإن تعرضت لحادث مثلاً و نقلت إلى غرفة الإسعاف فدماغك باللاوعي سيسمع الأطباء و الممرضين يتكلمون من حولك فيقوم الدماغ ببناء حلم افتراضي على تفاصيل هذا الكلام و يتخيل صورة غرفة الإسعاف و العاملين فيها .. و الحقيقة أنه ما من دلائل و براهين مؤكدة على صحة هاتين التجربتين بالأساس ، و يبقى استعمالهما مقتصرأ على الأعمال الأدبية و السينمائية لا أكثر .. و بجميع الأحوال هاتين التجربتين هما في النهاية شكل من اشكال الأحلام أي حالة روحية تماماً كالحلم الذي يراود أجسادنا السماوية و نترجمه إلى أحداث بأجسادنا الأرضية .. كما وضح البروغيسور سيكوياف في كتابه ..

= منطقي !! ..

= إذن خلاصة لما سبق ، الجسد السماوي قادر على الاقتران بأي مادة على الأرض (إنسان ، حيوان ، نبات ، حشرات أو حتى جماد) فيخضع لما تخضع له ، لكن هذا الاقتران ليس شرطاً لوجود و حياة المادة .. و هذا ببساطة هو مبدأ تناسخ الأرواح ..

صمت الجد للحظات ثم سأل :

= هل سبق لك و أن شاهدتي فلم ماتريكس الأيقوني الشهير عزيزتي فاطمة ؟

= بالطبع ، فلم مثير ..

= و فيه تضمينات فلسفية غاية في الأهمية ، في أحد مشاهد الفلم يتقابل نيو مع مورفيس لأول مرة ، فيعرض عليه مورفيس حبتين

حمراء و زرقاء ..

الزرقاء تمثل عالم الماتريكس الوهمي الذي يكافئ الدنيا التي نعيش فيها .. و الحمراء تمثل عالماً آخر حقيقياً يمثل العالم الآخر الذي ستستيقظ أجسادنا السماوية فيه .. و كان على نيو أن يختار إحدى الحبتين بحكمة .. فالقرار ليس بسيطاً بل ستترتب عليه حياة كاملة لاحقة ، و هذا الاختيار يكافئ قرار الإنسان في الدنيا هل سيحيها بأخلاق و عمل صالح فيذهب إلى العالم الآخر مباشرة ، أو يتبع فيها شهواته بلا عقل أو ضمير فيعلق في الدنيا مجدداً عبر دورة جديدة من التقمص .. إنها مسألة مصيرية لا تقبل القسمة على اثنين ..

= تشبيه مذهل !!

كانا قد وصلا إلى شجرة في طرف الحديقة فاتكأ الجدّ على جذعها = يقال بحسب الأسطورة أن أول إشارة إلهية للتناسخ كانت عندما قتل قابيل أخاه هابيل من الحسد و الغيرة .. فنبتت في مكان جريمته شجرة شهيرة تدعى حالياً شجرة الأخوين نسبة إليهما .. و هذه الشجرة تذرف سائلاً أحمر كالدم عندما نقطعها في الواقع .. و تنتشر بشكل أساسي في جزيرة سوقطرى اليمنية .. و يقال أنها كانت عيداً من الله لقابيل بأنه سيخلق من جديد شجرة تبكي دماً ندماً على ما فعله .. طبعاً لا إثبات لهذا الكلام ..

= هذا كلام مخيف و مطمئن في نفس الوقت ..

= و كيف ذلك؟؟

= مخيف لأن الإنسان قد يعيش ثانية في أشكال حياة أخرى يجهل تفاصيلها بعد .. و مطمئن لأن الله يمنح الإنسان فرص أخرى للارتقاء بروحه و تخليصها كتعويض لما فاتته في فرص سابقة لم يحسن استغلالها ..

ابتسم الجد بإعجاب :

= تماماً .. إنه الخوف الوحيد الباعث على الاطمئنان في الحياة ..
فتاة بذكائك و إيمانك و حكمتك لن تكسر لها أي صدمة من أي نوع ،
اليوم ارتحت بحق بعد أن تأكدت بأنك تجاوزت أزمته باقتدار و
بشكل نهائي.. أنت قوية كصخرة صرخت لحظة من الألم ثم تحطمت
عليها الآلام و الرزايا .. تعالي الآن نعود إلى المنزل لتناول الغداء
معاً قبل عودتك إلى المنزل .. و قبل خروجي أنا إلى شاطئ دجلة
كعادتي مساءً ..

الفصل الرابع

منح أوم

في زوايا مدينة فرنسية مبللة بالمطر، وُلد جوليان، ذاك الشاب الذي لا يشي مظهره إلا بفتنةٍ لم تُنصفها الكلمات بعد. كان أشقر الشعر، شعره يميل إلى الذهب حين تلامسه أشعة الصباح، وكأن الضوء يجد في خصلاته مسكناً مؤقتاً. عيناه بلون البحر حين يغضب، زرقاوان عميقتان كمحيط، تضجّان بشيءٍ من العناد والغرور و تحملان مصيره المجهول دون أن يدري، وتكاد كل نظرة منه تُشعل في قلب من يراه أسئلة لا تنتهي. أنفه مستقيم حاد، أما ابتسامته فكانت توازن ما في وجهه من حدة، إذ تحمل رقّة أسرة، ابتسامة تشبه وعوداً مجهولة أكثر مما تشبه انحناءة شفيتين. جسده طويل مشدود، مائل إلى النحافة الأنيقة التي تعكس حياة مفعمة بالحركة، لا الكسل. كل من يلتقيه لأول مرة يظنه بطلاً خرج للتو من لوحة زيتية من عصر النهضة، أو وجهاً أوروبياً أعيد تشكيله على قياس الحكايات الرومانسية.

لكن خلف هذا الجمال المدهش، كان يختبئ تاريخ معقد. جوليان لم يعرف طفولة مستقرة؛ فقد كان وحيد أبويه اللذين اختارا الانفصال باكراً، حين لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره. ومنذ ذلك الحين صار يتنقل بين عالميهما المختلفين كعصفورٍ ممزق الجناحين غارق في الإنكار و الكبت النفسي : بين بيت أبيه حيث النظام البارد والصرامة المرهقة، وبين أمه حيث الدفء المشوب بالفوضى العاطفية. هذا التناقض صاغ داخله هشاشة لم يعترف بها يوماً، بل غطاها بقناع القوة والاستهانة. كبر وهو يركض بين محطتين لا تستقران، حتى قرر عند بلوغه الثامنة عشرة أن يستقل، أن يصنع لنفسه بيتاً خاصاً لا يُفرض عليه فيه جدول، ولا يُملى عليه شعور. كان

استقلاله أشبه بإعلان حرب على ماضيه، وعلى أي سلطة تريد أن تحدّد له شكل الحياة.

ومنذ تلك اللحظة، بدا جوليان كمن وُلد من جديد، لا يعرف التوقف ولا القبول بالحدود. قلبه، الذي حمل في طفولته ندوب الوحدة، تحوّل في شبابه إلى ساحة مفتوحة للعلاقات العابرة. لم يكن يؤمن بالارتباط العميق، بل باللحظة التي تشتعل ثم تنطفئ. النساء تعاقبن في حياته كصفحات كتابٍ يقرؤه بسرعةٍ مدهشة، لا يعود إليها ولا يترك لنفسه فرصةً للتأمل فيها. كان يرى في كل علاقة مغامرة جديدة، تجربة طازجة تضيف نكهة لحياته الجامحة. وربما كان في كثرة تلك العلاقات محاولة مستترة لملء الفراغ الذي تركه غياب الاستقرار الأسري كنوع من دفاعات الأنا ربما تعويض أو غيره، لكنه كان يُنكر ذلك بعناد. كل ما يهمه هو أن يعيش، أن يحترق ثم ينهض ليحترق من جديد كطائر الفينيق.

متمرد... تلك الكلمة تكاد تكون مرادفاً لاسمه. جوليان لم يتقبّل يوماً أن يكون نسخة مكرّرة من غيره. كان يسعى دوماً إلى الإثارة، إلى ما يحرك الدماء في عروقه. يهوى تجربة كل شيء جديد، حتى ولو كان على حافة الخطر. يقفز من المرتفعات بلا تردد، يقود دراجته النارية بسرعةٍ جنونية على طرقات ملتوية، يشارك في حفلات صاخبة تمتد حتى انطفاء النجوم. كل ما هو غير مألوف يستفزه ويستدعيه. كان يؤمن أن الحياة قصيرة جداً ليعيشها وفق القوانين، وأن الحرية الحقيقية تُنتزع لا تُمنح. لهذا كان كثيرون من أصدقائه يصفونه بالبرق: يظهر فجأة، يضيء، يدوي، ثم يختفي تاركاً خلفه ارتباكاً جميلاً.

ومع ذلك، لم يكن تمرده مجرد نزوة عابرة. كان يحمل في جوهرة عطشاً عميقاً لفهم معنى الوجود. خلف المغامرات والعلاقات العاطفية

السريعة، كان ثمة عقل لا يكفّ عن التساؤل : ماذا لو كان العالم أكبر بكثير مما نظنه؟ ماذا لو كان معنى الحياة يكمن في اللحظة التي نكسر فيها القيود؟ كان يسعى إلى أن يختبر كل زاوية في التجربة الإنسانية، من المتعة إلى الألم، من الفوضى إلى النظام، وكأن روحه لا ترتوي إلا بتذوق النقيضين. وفي أعماقه، كان يعرف أنه لا يهرب من ماضيه بقدر ما يحاول أن يتصالح معه على طريقته، عبر حياة صاخبة تملأ فراغه الداخلي بالصوت والحركة.. و التصالح مع الماضي نضج نفسي لا يتقنه كثيرون

كان جوليان، باختصار، شاباً فرنسياً يختصر في ذاته مفارقات شتى : وجهٌ وسيم يسرق الأنظار، قلبٌ لا يعرف الاستقرار، وذهنٌ متمرد لا يطيق السكون. عاش حياته كقصيدة لم تُكتب على ورق، بل على جسده وروحه وخطواته في شوارع المدن. كان يعرف أن جماله يفتح له أبواباً كثيرة، لكنه كان يدرك أيضاً أن الجمال وحده لا يكفي ليكسر جدار الوحدة القديمة التي ما زالت تتربص به في الظلال. لذلك ظل يركض، يبحث، ويغامر، وكأن كل يوم قد يكون الفرصة الأخيرة لإعادة اكتشاف أو ربما اختراع نفسه من جديد.

حين بلغ جوليان الثانية والعشرين، كان لا بد أن يجد لنفسه ما يسميه الآخرون (استقراراً). الكلمة وحدها كانت تثير فيه شيئاً من السخرية، لكنها في الوقت نفسه بدت ضرورة لا يمكنه الفرار منها. فالمغامرة قد تشعل الروح، لكنها لا تدفع الإيجار ولا تسدّ جوع المعدة. هكذا قاده القدر - أو ربما سلسلة من المصادفات المتعبة - إلى مقعدٍ بيروقراطي داخل شركة تكنولوجيا مرموقة، حيث صار موظفاً صغيراً وسط مئات الوجوه التي تشبه بعضها حتى التماهي. لم يكن ذلك العمل حلماً ولا حتى خياراً واعياً؛ كان مجرد طوق نجاة ألقى به في بحر الحياة، فتمسك به كي لا يغرق.

في البداية، راق له بريق الاسم التجاري للشركة. كان يحدث نفسه بفخر : (ها قد أصبحت جزءاً من شيءٍ ضخم، مؤسسة يعرفها العالم، ربما يكون هذا مدخلاً إلى حياة مختلفة). لكنه سرعان ما اكتشف أن الواجهة لا تشبه الداخل، وأن العظمة المزعومة تتبخر حين تُختزل مهماته اليومية في إدخال بيانات لا معنى لها، مراجعة ملفات لا روح فيها، والرد على رسائل إلكترونية متكررة كأنها مستنسخة من بعضها. كل صباح يخرج من شقته بوجهٍ جميل يخفي ضجراً عميقاً، يمشي إلى المكتب بخطوات ثابتة، يجلس خلف شاشة باردة، ويقضي ساعاته في صراع صامت مع الفراغ الذي يبتلعه. لقد تحوّل يومه إلى نسخة كربونية من الأمس، وغده لم يعد سوى مرآة باهتة لهذا اليوم.

كان يحدث نفسه أحياناً : (أهذه هي الحياة التي انتظرتني؟ سلسلة من الأعمال الصغيرة الميكانيكية التي يستطيع أي جهاز آلي أن يؤديها بدقة أكبر وبلا ضجر؟) كان يشعر أن الشركة تستنزف أجمل ما فيه : روحه التواقة للتححرر، شغفه بالمغامرة، نزعته إلى التجديد. كلما ضغط على لوحة المفاتيح أو وقع على وثيقة، كان كمن يوقع حكماً بالإعدام على جزءٍ آخر من روحه. لقد كان العمل أشبه بسجنٍ لا قضبان له، سجنٍ تتخفى أسواره في شكل راتبٍ ثابت، ومقعدٍ مضمون، وتأمين صحي، وكأن الحياة كلها يمكن اختزالها إلى تلك الامتيازات الزائفة.

مراتٍ ومرات، جلس جوليان على مكتبه يتأمل نافذة صغيرة تطل على المدينة. هناك، وراء الزجاج، كانت الحياة تمضي بحرية، بينما هو عالق في حلقة رتيبة تخنقه. كان يتخيل نفسه وهو يترك كل شيء خلفه : يستقيل، يجمع حقيبته، ويخرج إلى الشارع بلا رجعة. كان يبتسم حين يفكر في تلك اللحظة، ابتسامة تحمل مزيجاً من الأمل

والجنون. لكن ما إن يعود إلى الواقع حتى يصطدم بجدار الحقيقة الصلد : ماذا بعد؟ إلى أين يذهب؟ بأي وسيلة يعيش؟

لم يكن يملك شهادة جامعية تُفتح بها الأبواب، ولا موهبة واضحة يمكن أن تبني له مساراً جديداً. كل ما امتلكه كان جمالاً أخذاً، واندفاعاً نحو الحياة، وروحاً عاشقة للتجربة. لكن تلك الأشياء، على روعتها، لم تكن كافية في عالم يحكمه الورق والأختام والسير الذاتية المليئة بالخبرات. كان يطرق الأبواب، يبحث عن وظائف تناسبه أكثر، يرسل طلبات هنا وهناك، فلا يأتيه سوى صمت بارد أو اعتذار مهذب. كل محاولة كانت تنتهي بخيبة، وكل خيبة تزيد قيوده ثِقلاً.

ومع ذلك، لم يفقد جوليان إصراره الداخلي. كان يشعر أن هذه المهنة ليست قدراً، بل مرحلة قاسية عليه أن يعبرها. ربما كان العمل أشبه بالامتحان الذي يفرض عليه الصبر والتحدي، وربما كانت هذه الرتبة اليومية هي التي ستدفعه يوماً إلى كسر السلاسل بأقوى مما تخيل. لكنه في تلك اللحظات، وهو جالس في مكتبه الموحش، لم يكن يرى سوى وجهه المنعكس على شاشة سوداء مطفأة، وجهاً جميلاً متعباً، يحمل ابتسامة واهية لرجل يحاول أن يقنع نفسه بأن الغد سيأتي مختلفاً، بينما يداخله يقين خفي أن الغد لن يكون سوى نسخة أخرى من اليوم.

وهكذا ظل جوليان، بين جدران المكتب البارد، عالقاً بين حلمين متناقضين : حلم الانعتاق إلى حياة تليق بروحه المتوثبة، وحلم الأمان الذي فرضته عليه الظروف. كل يوم كان يزداد اقتناعاً أن الحياة الحقيقية تجري بعيداً عن الأوراق واللوائح، وأنه إن بقي طويلاً على هذا النحو، سيفقد ذاته شيئاً فشيئاً، حتى يصبح مجرد رقم آخر في منظومة ضخمة لا تعبأ بأحلام الأفراد.

لم يكن جوليان يعلم أن آخر إجازة يقرر خوضها ستتحول إلى علامة فارقة تُعيد كتابة مصيره. كانت هاواي بالنسبة له حلمًا طويلاً، جزيرة من الضوء والموج والحرية، مكاناً يلبي النداء العميق الكامن في روحه : نداء المغامرة الذي لم يهدأ منذ طفولته. ما إن وطئت قدماه الشاطئ حتى شعر كأن الأرض هناك خلقت لأمثاله، أولئك الذين يبحثون عن الحياة في حواف الخطر. الرمال الناعمة تحت قدميه بدت كأرض جديدة لمستكشف، والمحيط الممتد أمامه كأفق لا نهاية له. الهواء مشبع برائحة الملح والنسيم، والسماء صافية إلى حد يبعث على النشوة.. إنها لحظات ثمينة أخرى يسرقها من جفن الحياة البيروقراطية ..

هناك، وقف جوليان يحمل لوح التزلج على الأمواج، عيناه تلمعان بالفرح، وقلبه يخفق بما يشبه الانتصار. لطالما حلم بأن يواجه البحر وجهاً لوجه، أن يركب الموجة لا كرياضة، بل كفعل وجودي، كتجسيد لصراعه الأبدي مع القيود. كل لحظة على اللوح كانت أشبه برقصة بين جسده والماء، بين توازنه وروح البحر المتقلبة. كان يصرخ من نشوة الانطلاق، كطفل وجد أخيراً لعبته الكبرى.

غير أن المغامرة، كعادتها، تحمل في طياتها وجهين : وجه النشوة ووجه الفاجعة. في يومه الأخير، حين كان المحيط في حالة هيجان و تعالت نداءات التحذير من ركوب الأمواج، لمح موجة شاهقة ترتفع كجدار من الماء. في عينيه، لم تكن خطراً بل تحدياً، وعداً بقاء لا يتكرر. دفع بلوحه نحوها بكل ما أوتي من اندفاع، صعد فوقها بشجاعة مدهشة، لحظة خاطفة شعر فيها أنه يعلو على العالم بأسره. لكن الموجة خانتته. أو ربما لم تخنه، بل ذكّرت به بقانونه الأبدي : أن لا أحد يتحدى البحر بلا ثمن. انقلب اللوح بعنف، جرفه الماء، ارتطم جسده بقوة بصخرة خفية في عمق المحيط. في تلك اللحظة القصيرة، انطفأ كل شيء : الصوت، الضوء، الإحساس. لم يبق سوى وجع مباغت اخترق ظهره وأطفأ نصف جسده كما تُطفأ شعلة باردة.

حين انُثِّل من الماء، كان وجهه الشاحب لا يزال جميلاً، لكن عينيهِ المذعورتين كانتا تعرفان ما لا يجرؤ لسانه على قوله. الأطباء في المستشفى قالوها ببرودٍ سريري : **إصابة في العمود الفقري، شلل نصفي سفلي**. كلمات ثقيلة سقطت على أذنه كأحجار تنهار على صدره. لقد انتهت حياة المغامرة. انتهت اللحظة التي كان فيها سيد جسده وسيد الموج. وما تبقى هو كرسي متحرك، صامت، بارد، رفيق أبدي مفروض عليه إلى أجلٍ غير معلوم.

عاد جوليان إلى فرنسا لا كمغامرٍ عائد من رحلة، بل كأسيرٍ في جسده. فقد عمله؛ فالشركة لم ترَ فيه سوى عبء لم تعد تريده. أصدقاؤه ابتعدوا تدريجياً، بعضهم خجلاً، بعضهم هرباً من ثقل المصيبة. أما هو، فوجد نفسه وحيداً في شقة صغيرة مغلقة الأبواب، تحولت جدرانها إلى سجن آخر أشد قسوة من مكتبه القديم ، و كان الروتين الجديد أشد وطأة : لم يعد يملك حتى حرية الحركة، صارت ساعات يومه ثقيلة كالأغلال، يراقب من نافذته ضوء الصباح ينساب على الشوارع بينما يبقى هو حبيس الكرسي، جسداً نصفه ميت وروحاً كاملة تتألم.

الأصعب لم يكن الألم الجسدي ولا فقدان الدخل، بل فقدان ذلك الشيء الذي كان يميزه : قدرته على أن يحيا المغامرة كما يريد. في صمته الطويل كان يستعيد صور الأمواج، يغمض عينيهِ فيتخيل نفسه واقفاً على اللوح، متوازناً على كتف البحر. لكن ما إن يفتح عينيهِ حتى يواجه قسوة الحقيقة : كرسي ضيق، أرضية باردة، ووقت ممتد بلا معنى.

لقد تحوّل جوليان من شابٍ كان يعدو وراء الحياة كمن يطارد شهاباً، إلى رجلٍ يراقب شهب أحلامه وهي تنطفئ من وراء الزجاج. ومع

ذلك، في أعماقه، ظل هناك جمر صغير لم يخمد تماماً. كان يعرف أن المغامرة لم تعد في البحر أو في المدن أو في العلاقات، بل باتت كامنّة في معركة أصعب : أن يتعلم كيف يعيش من جديد، مقيداً، بلا جسدٍ حر، لكن بروح تأبى أن تُطفأ.

لم يكن جوليان هو نفسه بعد الحادثة. بدا وكأن البحر، حين أسقطه على تلك الصخرة، لم يُطفئ نصف جسده فحسب، بل أشعل نصفه الآخر في اتجاه مختلف تماماً. لقد انقشع عنه شيء من الغرور القديم، وتهافت اندفاعاته الطائشة كما تسقط أوراق الخريف. صار أكثر صمتاً، أكثر تأملاً، وأشد ميلاً إلى عالمٍ داخلي لم يكن يلتفت إليه من قبل. كأن الألم فتح له نافذة جديدة على الروح. في الليالي الطويلة التي يقضيها في شقته، كان يجد نفسه متورطاً في حوارات سرية مع الوجود، يتأمل أسئلة لم تكن تخطر له يوماً : معنى الحياة، سرّ المعاناة، جدوى السعادة العابرة، وما الذي يبقى من الإنسان حين تُسلب منه حرّيته الجسدية.

هكذا انجذب شيئاً فشيئاً إلى الروحانيات. صار يقرأ كتباً عن التأمل، يستمع إلى محاضرات عن الصفاء الداخلي، يتتبع سير الحكماء والأنبياء والفلاسفة. كان يشعر أن هذا الطريق هو حبله الأخير في مواجهة واقعه المرير، طوق نجاة يمنحه أملاً خفياً. لم يكن التدين عنده شكلاً أو طقساً، بل بحثاً عطشاً عن معنى، عن يد غير مرئية تنتشله من وحدته. كان يغمض عينيه في صلاته، أو حين يتأمل، فيحسّ أن روحه تتحرر للحظة، وأن الكرسي الذي يقيدّه يصبح مجرد قشرة لا سلطان لها على أعماقه.

ومع ذلك، لم يكن بوسعه أن يعيش على الروح وحدها. الواقع كان حاضراً كل يوم، ثقيلاً كالحجارة. ساعات طويلة يقضيها محبوساً بين أربعة جدران، وحيداً في مواجهة صمته وذكرياته. في البداية كان يهرب إلى مواقع التواصل الاجتماعي. كان يقلب الصفحات بلا

هدف، ينتقل من صورة إلى مقطع، من خبر إلى نكتة، فقط ليُنسي نفسه مرارة الواقع. أحياناً كان يضحك من شيء تافه، وأحياناً أخرى يشعر أن كل ما يراه يزيد فراغه فراغاً. لكنه كان يعود إليها مراراً، كما يعود الغريق إلى خشبة واهية، لأنها تمنحه على الأقل وهماً بأنه لا يزال على قيد الحياة و لم يغرق بالكامل.

إلى أن جاء ذلك المساء المختلف. كان يجلس أمام شاشة حاسوبه، يراقب أحد المدونين يتحدث بحماس عن حياته اليومية، يشارك الناس تفاصيل صغيرة لا قيمة لها في الظاهر، لكن آلاف المتابعين كانوا يعلقون ويتفاعلون كأنها درر ثمينة. فجأة خطر لجوليان سؤال بسيط: (لماذا لا أفعل أنا ذلك ؟) لقد كان في داخله رصيد من الحكايات، من الأفكار، من التجارب المريرة والمهمة. وللمرة الأولى منذ زمن بعيد، شعر أن أمامه باباً يمكن أن يفتح له العالم من جديد، باباً يجمع بين متعته في الكلام، وفضوله الذي لا ينتهي، وحاجته الملحة إلى عمل يتناسب مع وضعه الجديد.

وفي اليوم التالي بدأ التخطيط. قرر أن يفتح قناة على يوتيوب. لم يشأ أن يقيدها في موضوع محدد؛ حياته نفسها كانت خليطاً متناقضاً، فلماذا لا يعكس ذلك في مشروعه؟ أطلق عليها اسم "كوكتيل"، مثل ذنب الديك الملون، خليط من كل الألوان. أرادها مساحة حرة تتسع لكل شيء : فيديوهات روحية عن التأمل والإيمان، أحاديث ثقافية عن الكتب والأفكار، فقرات فنية عن الموسيقى والسينما، لمحات رياضية يتحدث فيها عن روح التحدي رغم عجزه، بل حتى خواطر سياسية ساخرة يفرغ فيها ما يجول بخاطره. كانت فكرته أن يجعل القناة مثل مقهى مفتوح، يدخلها الناس ليجدوا على الطاولة كل ما تشتهيهِ نفوسهم.

في البداية، لم يتوقع الكثير. جلس أمام الكاميرا بخجلٍ خفيف، لكنه

سرعان ما اكتشف أن حضوره الطبيعي، وصوته الصادق الممزوج بجرح حقيقي، كانا كافيين لجذب الناس. شيئاً فشيئاً بدأت الأرقام تكبر : عشرات، ثم مئات، ثم آلاف. التعليقات تتوالى ، بعضها يشكره لأنه ألهمهم الصبر، وبعضها يطلب المزيد من قصصه، وبعضها يضحك على نكاته البسيطة. وفي غضون أشهر، تحوّل "كوكتيل" إلى ظاهرة صغيرة، ثم إلى نجاح باهر. عدد المتابعين بلغ مئات الآلاف، والدخل الذي درّته القناة تجاوز بكثير راتبه القديم في الشركة.

لكن الأهم من المال كان الإحساس الجديد الذي عاد إلى قلبه : الإحساس بالحياة. لقد امتلأت ساعاته من جديد بعملٍ يحبه، عمل لا يخلو من متعة ومغامرة، وإن كان من داخل جدران شقته. كان يستيقظ كل صباح بفكرة جديدة، يعدّ الفيديو، يسجل، يحرر، ثم يرفعه لمشاهد جمهور ينتظر. صار الكرسي المتحرك ليس سجنًا، بل منصة. لم يعد وحده؛ صار محاطاً بعالم من الوجوه والأصوات، بآلاف الأرواح التي تتصل به عبر الشاشة.

شعر جوليان، للمرة الأولى منذ الحادثة، أن قلبه ينبض بالحياة من جديد. نعم، لم يعد قادراً على ركوب الموج أو القفز من المرتفعات، لكن المغامرة لم تمت داخله، بل تبدّل شكلها. صارت المغامرة الآن في أن يحوّل جرحه إلى قصة، وأن يصنع من وحدته جسراً يصل بينه وبين الآخرين. كان يبتسم وهو يقرأ تعليقات متابعيه، يردد في نفسه : (ربما لم يعد لي جسد حر، لكن روحي الآن أوسع من أي محيط.)

كان الترند المنتشر في هذه الفترة هو (الروح) بعد أن انتشرت فرضيات جديدة عن ماهيتها و حقيقتها ، فسأل جوليان نفسه : (لم لا ؟) ، اليوتيوب كركوب الأمواج ، يقتضي أن تركب موجة الترند باستمرار ، (و من أدري مني بصرخة الروح السجينة في الجسد عندما يأتي أوان تحررها ؟) .. لم يتأخر ، أعد حلقة متخمة بالمعلومات عن الروح و نصب الكاميرا أمامه و بدأ يسجل :

(منذ فجر التاريخ، لم يعرف الإنسان سراً أشد غموضاً من سرّ الروح. الجسد كان أمامه دائماً، يراه، يلمسه، يشرّحه ويفهم قوانينه. أما الروح فكانت هاربة، تتوارى عن العين كطيف لا يُمس، وتطل عليه فقط حين يتنفس في صدره أو يتركه إلى حيث لا عودة. لهذا، شغلت الروح عقول البشر في كل حضارة، وصارت هي اللغز الأعظم الذي التفت حوله الأساطير، وتجلّت فيه الأديان، وتناقلته الألسنة في الحكايات الشعبية.

في التراث الشعبي، لم تكن الروح مجرد مفهوم فلسفي، بل كانت حقيقة يومية يعيشها الناس. كم من أمّ أوروبية كانت تحكي لأطفالها أن الأرواح تطير كالعصافير الصغيرة بعد النوم، ثم تعود مع أول خيط من الصباح. وكم من فلاح عربي كان يعتقد أن الروح مثل نسمة خفيفة، تخرج من الجسد عند الغفلة لتسافر في الأحلام، ثم تعود عند اليقظة. في إفريقيا كان الناس يتحدثون عن الأرواح ككائنات تسكن الأشجار والأنهار، تحفظ التوازن بين البشر و الطبيعة، فإذا أهينت تلك الأرواح، غضبت الطبيعة وأرسلت جفافاً أو فيضاناً. هكذا كانت الروح جزءاً من الحياة اليومية، يفسرون بها ما لا يفسرونه بالعقل.

أما في الحضارات القديمة، فقد ارتفعت الروح إلى مصاف الكلمة المقدسة. عند المصريين القدماء، كانت الروح تتجزأ إلى عناصر عدّة : كا ، با و آخ .. كا هي جوهر الحياة، تظل ملازمة للجسد حتى

بعد الموت، و با هي الحرية الطائرة التي تشبه طائر أبو منجل،
قادرة على مغادرة القبر والتحليق. كانوا يعتقدون أن الروح لا تستقر
إلا إذا كان الجسد محنطاً ومحفوظاً بعناية، لذلك شيّدوا الأهرامات
كبيوت أبدية للروح قبل أن تكون للأجساد. و آخ هو اتحاد الروح مع
الآلهة في العالم الآخر ..

و كانت الرموز الروحية عندهم كثيرة ومعقدة. **عنخ**، الصليب ذو
الحلقة في الأعلى، لم يكن مجرد علامة، بل مفتاح الحياة والخلود،
رمز الروح التي لا تموت، التي تنتقل من جسد إلى جسد، من عالم
إلى عالم. و رمز **الصقر**، أو **الإله حورس**، كان يمثل عين الروح،
عينها التي ترى الحقيقة وراء الأفق، التي تحرس الإنسان وتحمي
جوهره من الظلام.. و **الجعران** يرمز الى التجدد و البعث ..

وفي الحضارة الإغريقية، كانت الروح تسمى "**بسيخي**"، ومنها جاء
معنى "**النفس**". صوروها في أساطيرهم كفتاة رقيقة ذات

أجنحة، قادرة على الهروب من قيود الجسد. هو ميروس في الإلياذة
كتب أن الروح تترك الجسد مع آخر نفس يخرجها الإنسان. لكن
الفلاسفة، من أفلاطون إلى أرسطو، أعطوا الروح أبعاداً أبعد من
الأساطير: أفلاطون قال إنها خالدة أزلية، تنتمي إلى عالم المثل قبل
أن تسجن في الجسد، أما أرسطو فاعتبرها مبدأ الحياة، هي التي
تجعل المادة جسداً حياً لا مجرد طين خامد.

و رمزوا للروح برموز عديدة كالفراشة أو الشعلة ..

في بلاد الرافدين (سومر ، بابل ، آشور) ، اعتقدوا أن الروح تترك
الجسد عند الموت وتذهب إلى أرض اللاعودة (إرشيكيغال / العالم
السفلي). الروح لم تكن بالضرورة خالدة أو سعيدة، بل حياة الموتى
غالبًا كانت تُصوّر مخيفة وكئيبة. و قد تعود الأرواح الميتة إذا لم
تُدفن بطريقة صحيحة أو لم تُقدم لها القرابين.

و هؤلاء رمزوا للروح بشجرة الحياة أو النجمة الثمانية ..

في الصين القديمة ، في الفكر الطاوي والكونفوشي : الإنسان له روحان أساسيتان : هون و هي الروح العلوية، ترتبط بالسماء وتبقى بعد الموت. و بو و هي الروح السفلية، ترتبط بالجسد والأرض وتذبل بعد الموت. و رمزوا للروح بدائرة اليبين و اليانغ أو بالتنين ..

في الحضارات الأمريكية القديمة ، اعتقدت المايا أن الروح يمكن أن تسكن حيواناً أو أن تكون لها صلة بروح حارسة (ناغوال). أما الأزتك رأوا أن الروح تتكون من عدة قوى (مثل توليو في القلب وتويوليا في الدماغ)، وتحدد أعمال الإنسان مصيرها في العالم الآخر.. و رمزوا للروح بطائر الكوندور الذهبي أو القناع الذهبي الذي يرتدونه في الطقوس ..

و في الهند القديمة، حيث برزت الفلسفات الدينية الكبرى، كانت الروح - آتمن - جزءاً من المحيط الكوني الأعظم. عند الهندوس، الروح أزلية لا تفنى، تدخل في جسد ثم تغادره لتعود في جسد آخر في دورة لا تنتهي تُسمى سامسارا . هذه الدورة لا تنكسر إلا إذا عرفت الروح حقيقتها واتحدت مع برهمان ، الجوهر الكوني. أما البوذية، فقد نظرت للروح نظرة مختلفة، إذ أنكرت وجود جوهر ثابت، ورأت أن ما نسميه "الروح" هو مجرد تدفق متغير من المشاعر والأفكار والطاقات، وكل تعلّق بها هو سبب للمعاناة.. و التحرر منها هو النيرفانا ، و رمزوا للروح بالأوم ، زهرة اللوتس و الماندالا ..

وعند الفرس الزرادشتيين، كانت الروح ميدان صراع بين النور والظلمة. الإنسان وُهب روحاً نورانية من أهورامزدا ، لكنها مهددة

دائماً بوسوسة قوى الشر. ومن ينجح في الحفاظ على روحه نقية يعبر جسر شِنَفَت بعد الموت إلى الجنة، ومن يسقط يغرق في جهنم.. و كان رمز الروح لديهم هو النار ..

أما الأديان الإبراهيمية، فقد جعلت الروح نفخة إلهية خالصة. في النصوص التوراتية، الروح هي نَفَس ، النسمة التي منحها الله لآدم فصار كائناً حياً. في المسيحية، الروح هي المعجزة التي تتجاوز الجسد، وهي أيضاً الروح القدس، الحضور الإلهي القريب من المؤمنين. أما في الإسلام، فجاءت الروح لغزاً مكنوناً : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا). ومع ذلك، ظلت الروح في الإسلام نفخة ربانية، رمزاً للكرامة الإنسانية، وسبباً لقيام الجسد بالحياة.

كل حضارة إذاً وضعت مرآتها الخاصة أمام الروح، لكن شيئاً واحداً لم يتغير : الشعور العميق أن هناك في داخلنا جوهرًا لا يخضع للزمن. قد يشيخ الجسد، قد يمرض، قد يُشل كما حدث معي ، لكن الروح تبقى، ترفض الانكسار، تبحث عن حرية أوسع. لذلك، كان الناس عبر العصور يحكون عن الأرواح كطيور لا تقبل الأقفاص، كشرارات تشتعل في العتمة، كأغانٍ تسمعها القلوب قبل الأذان.

إن التراث الشعبي، والأساطير، والأديان، على اختلافها، لم تكن إلا محاولات إنسانية لفهم هذا الغائب الحاضر. الروح هي الغربة التي نحملها ونحن على الأرض، والحنين الذي لا يفسر، والشوق الدائم إلى ما وراء المرئي. وربما، في النهاية، لا يهم كيف نصفها نحن : نسمة، طائر، نور، جوهر... المهم أنها الشيء الوحيد الذي يجعلنا بشراً، الشيء الذي يجعلنا ننظر إلى السماء ونسأل : من نحن؟ وأين موطننا الحقيقي؟)

أخذ جوليان نفساً عميقاً، وعيناه تنظران مباشرة إلى عدسة الكاميرا، كأنهما تلتقيان بروح كل مشاهد يجلس خلف الشاشة. ثم قال بصوت هادئ لكنه مشحون بشيء من النور الداخلي :

(ربما كنتم تتساءلون طوال هذه الحلقة : ما علاقة كل هذه الرموز، هذه الحضارات، كل هذا الحديث عن الروح، بحياة شخص واحد، بحالته؟)

ابتسم ابتسامة خفيفة، وكان السؤال نفسه كان مفتاح الإجابة.

(حسناً ، جسدي أصبح مقيداً. الكرسي المتحرك أصبح نافذة وحدتي، لكنه لم يقيد روحي أبداً. أستطيع أن أطيّر داخل عقلي، أستطيع أن أزور كل الزوايا التي حلمت بها، أن أغوص في أعماق النفس، أن أختبر كل رموز الروح التي تحدثنا عنها و أحقق النيرفانا على طريقتي الخاصة. لقد أسر جسدي، لكن هذا الأسر أطلق روحي. فلم أعد مضطراً لملاحقة الأمواج أو التسلق، لأن المغامرة الحقيقية هي هنا ..)

وضع يده على صدره .

(في داخلي، في كل لحظة أختار أن أرى فيها النور، أن أستمع، أن أعيش، أن أحرر نفسي من قيود العالم الخارجي. و ليست دورة السامسارا الأزلية في مكاتب التوظيف البيروقراطية)

ثم ابتسم بطريقة لم يكن يمكن لأي مشاهد أن ينساها، وأضاف :
(لذلك، إذا كان هناك شيء يمكن أن تأخذه من هذه الحلقة، فهو أن الروح لا تحتاج إلى أقدام لتطير، ولا إلى جسد كامل لتشهد الحياة. الروح حرة دائماً، حتى حين يقيدنا الواقع. وأعدكم، في كل حلقة من هذه القناة، سأحاول أن أريكُم كيف يمكن للروح أن تتحرر، مهما كانت القيود حولنا.)

رفع يده تحية، هذه المرة وكأنها ليست وداعاً بل تأكيد على الانطلاق،
وقال :

(شكراً لأنكم كنتم معي اليوم، شاركوا هذا الفيديو مع من تحبون،
واضغطوا على زر الاشتراك لتظلوا جزءاً من هذه الرحلة. ولنتذكر
جميعاً : أحياناً، الأسر هو الذي يجعلنا نكتشف الحرية الحقيقية..
فالنور الحقيقي ينبثق من قلب العتمة)

أطفأ الكاميرا، وبدأ الصمت في الغرفة ممتلئاً بالحياة، كأن كل جدار،
كل شعاع ضوء، وكل ظل، يعكس الروح التي تحررت من قيود
الجسد، حرة، متوهجة، غير قابلة للانكسار.

الفصل الخامس

العالم الآخر

حي بن يقظان (٣)

العالم الآخر ..

المقصورة الزجاجية ..

ارتجف صوت أريان وهو يلتقط أنفاسه المضطربة، ما زال غير قادر على استيعاب المشهد الذي يحيط به. رفع بصره نحو الجهاز الكروي الذي يضيء كقمر مكتمل و قال :

= أهذا حلم؟ موت وشيك ، أم هذيان ما بعد الحادث؟ أين أنا حقاً؟ هل أي من هذا كله حقيقي ؟

جاءه الصوت الأنثوي مجدداً، هادئاً، عميقاً و مطمئناً كأنه بلسم للأذان يتسلل من مسافة لا تُقاس بالزمان ولا بالمكان :

= لا، ليس حلماً يا بني... لقد متَّ هناك، على الأرض، تحت ضوء مصابيح المشفى الذي عملت فيه طويلاً. قلبك توقف، وجسدك الأرضي استسلم، أما الآن فأنت هنا، في العالم الآخر، حيث تبدأ الحياة من جديد.

ارتعش قلبه من وقع الكلمة : ميت ؟ كررها في داخله كما لو أنها صخرة سقطت في بئر مظلم. لكن المفارقة أن صوته هنا لم يتهدج، بل خرج صافياً، وكأن الموت محا ارتباك الجسد.

أعاد النظر إلى الزجاج المنحني أمامه، فانعكس مجدداً وجهه لا يعرفه. عيون أكثر اتساعاً أقرب إلى لون العسل المصفى ، شعر محايد ليس داكناً و لا فاتحاً .. ملامح تقف على نصل بين حدين الجدية و البشاشة ، جسد لم يكن له .. ارتجف ثانية ، مصفوعاً بالمفاجأة ، ثم قال بتوتر :

= لكن هذا... هذا ليس أنا !!! لماذا تغيرت ملامحي؟ أين وجهي؟

أين جسدي؟

ابتسم الصوت على نحو يُشعر لكنه غير منظور و قال :

= لكل إنسان جسدان يا بني؛ جسد أرضي تحيا به على كوكب الأرض ، وجسد سماوي يقترن به هنا. حين يموت الجسد الأرضي يتفتت إلى ذرات لا عودة لها، لكن عندها سيستيقظ الجسد السماوي الذي لا يفنى، ويبدأ رحلة أبدية في هذا العالم. هذا هو جسدك الآن ، جسدك الحقيقي بعد أن تحرر من ثقل التراب.

جلس أريان على حافة السرير الغريب، يتلمس يديه الجديدة، جلده، وجهه، حتى صوته بدا مختلفاً. قال بصوت متهدج بالدهشة :

= و لماذا هذا الشكل دوناً عن سواه ؟

أجابه الصوت الأنثوي :

= الأجساد السماوية هنا متشابهة في هيئتها الأولى ، الهيئة التي اختارها العلم بالدراسة و التحليل ، كلنا هنا شخص واحد و أتينا من نور واحد .. هنا ليس الشكل ما يمنحك فرادتك، بل جوهرك وما تختاره أن تكون. إذ لديك فرصة أن تعيش أي تجربة تريدها، في أي جسد تختاره ، وفي أي بيئة تنتقيها و تفضلها متى شئت ، عبر عدسات الواقع اللامتناهي... بها تستطيع أن تتقمص أي شخصية أي صورة، أن ترى نفسك كيفما تشاء، أن تعيش حيوات لا تنتهي في عوالم لا تنفد. كل ما عليك فعله أن تختار البيانات المرغوبة ، وستُخلق التجربة أمامك كما لو كانت حقيقة مطلقة.

شعر أريان وكأنه أمام سرّ أكبر من أن يحتمله. أصغى لقلبه فإذا به يخفق ليس بالخوف، بل بالترقب. و في عينيه لمعان طفل اكتشف باباً خلفياً لحياة تحمل في طياتها كثيراً من الإثارة و المتعة. همس

بشغف لم يستطع كبحه :

= أيمكنني... أن أجربها الآن؟ أيمكنني أن أرى تجسيد هذا الكلام بعيني؟

ساد الصمت لحظة، كأن المقصورة كلّها حبست أنفاسها، ثم أجاب الصوت بنغمة دافئة تشبه وعداً :

= نعم، حان الوقت أن ترى ... و هذه هبة لكل انسان تطأ قدماه العالم الآخر .. انظر فوق مجسم الكرة الزجاجية ستجد عدستي عين لاصقتين ، ارتديهما و سأخبرك بعدها ما ينبغي عليك فعله ..

في تلك اللحظة انبثق نور ناعم من قلب الجهاز الكروي، وشعر أريان أن الهواء من حوله يتكثف كستارة حريرية شفافة، يوشك أن تُفتح لتكشف له مسرحاً لا نهائياً من العوالم. ارتعش جسده السماوي، لكنه لم يتراجع؛ كانت الحماسة أقوى من الخوف. مد يده نحو الكرة الزجاجية و التقط العدستين من عليها ثم ارتداهما بسهولة ..

جلس على حافة المقصورة، وكأن قلبه لم يعد يملك مكاناً في جسده السماوي من كثرة الترقب. أمامه، على حافة رؤيته الجديدة في العدسات ، تكدّست قائمة بيانات شفافة .. قرأ البند الأول : اختر تجربتك ..

لم يكن الاختيار مجرد نقرة أو لمسة ، بل أوامر شفوية تكفي .. قال الصوت الأنثوي برفقٍ أسر، كأنما يحاول أن يلمس رغبة دفينّة في روحه :

= هيا أريان ، اختر ما تريد أن تعيشه و تجربه ..

تردد أريان لحظة، ثم تذكر شيئاً صغيراً من طفولته : صورة لطيور

سوداء وبيضاء تمشي بوقار على جليد لا نهاية له البطاريق ، مذ
رأها على شاشة التلفاز في طفولته و حلم جميل ولد في قلبه أن يراها
بأم العين ذات يوم .

ابتسم ..

= أريد أن أرى البطاريق... أريد أن أعيش هذه التجربة في جسد
شاب أشقر، في القطب الجنوبي لكوكب الأرض ..

ضحك الصوت الأنثوي، ضحكته رقيقة محببة و مفعمة بالحنان و
الأمان ، وتكشف عن معرفة لا يخفى عنها شيء ..

= البطاريق... حلم الطفولة يا أريان، أليس كذلك؟!

تراكمت في صدره دهشة غريبة؛ كيف يعرف الصوت أسرارهِ قبل
أن ينطق؟ لكن الردّ لم يترك مجالاً للتعجب؛ كأنّ العالم الآخر هنا لا
يكتفي بالاستجابة، بل يقرأ ما لم يُقَل. على الفور، أمر الصوت
العدسات بما أراد .. و في لحظة، تبدّل المحيط من حوله قبل أن
يرتد إليه الطرف ، كما لو أن نفسه قد انتقلت عبر بوابات زمنية.
وجد نفسه على جليد شاسع أبيض يتوهج تحت ضوء شمس شاحبة،
والهواء يلسع وجهه بقسوة. فرو كثيف يلتف حول جسده يقيه قليلاً
من البرد الذي لم يكن مفهوماً مجرداً ، بل حضور له لسان و
لمسة : رقاقات هواء تخترق الأقمشة، صقيع يرسم خيوطاً على
شفته، وذاكرة عظمية تصرخ بالبرودة.

أمامه، امتد موكبٌ من بطاريق الإمبراطور يمشي بوقار عتيق؛
بعضها يجلس على بيضه، رؤوس صغيرة تطل من بين ريش كثيف،
وبعضها يقفز برشاقة إلى الماء، سوداء وبيضاء تشرئب وتغوص
وكأنها تعزف سيمفونية للحياة. الصوت الخفيض لأقدامها على
الجليد، صفير الريح المتقطع، ورائحة البحر البعيدة، كلها أتت في

آنٍ واحد؛ كان كل ذلك حقيقياً و لا يخضع لتفسير منطقي..

ابتسم بذهول و سعادة .. فحلم الطفولة تحقق بأغرب سيناريو ممكن !!

نزع كفه و مد يده ليلمس الأرض الجليدية. البرودة اخترقت جلده، لكن اللمس كان حقيقياً ، قساوة الجليد تحت راحة يده، لامعة ومخدرة في آن. حرّك قدميه فوجد حركاته حرة كما لم يشعر من قبل ، لم يكن الجسد الجديد عبئاً، بل أداة حية تمنحه قدرةً على أن يكون في مكانين : على الأرض وفي الفضاء اللامحدود للخيال. انه يشعر و كأنه يعيش على كوكب الارض مجدداً .. بل إن دموعاً تجمعت عند حواشي عينيه، ليست دموعاً من أثر الرياح فحسب، بل دموع عجب من قدرة قلبه على البكاء في واقع افتراضي أمام منظرٍ لم يتخيله يوماً.

فجأة، وبطريقةٍ لا تسمح للعقل بترتيب اعتراض، صدمه سؤال داخلي : كيف يقنع عقله بأن هذا كلّهُ ليس حقيقياً؟ الريح تعوي في أذنه، منظر الماء يتلاطم أمامه، وطعم الملح يلحق شفثيه، كيف له أن يقنع ذاته أن كل هذا ليس سوى محاكاة متقنة؟ قبل أن يجد جواباً، عاد الصوت الأنثوي يرنّ مجدداً كمن يقرأ أفكاره قبل أن تتبلور :

= لا يمكن الجزم بين الواقع والخيال هنا ، فالعلم قد بلغ أقصى درجاته، و لهذا دعي العالم الآخر جنة ، لأنه يدفعك الى الجنون من هول التطور ، السعادة و المتعة التي يمكنك ان تحظى بها ..

= محقة تماماً ، لكن كيف تقرأين أفكارى ؟

ضحكت بحنو :

= أنا أوجدتك يا أريان فكيف لا أعرف عنك كل شيء ؟!

= أوجدتني ؟!

= بالفعل .. سنتحدث عن ذلك أكثر بعد قليل .. لكن يدك التي نزلت عنها القفاز بدأت تصاب بقضمة الصقيع و ستتألم بشدة لاحقاً ، لذا علينا أن نعود الى المقصورة ، فما رأيته الآن يكفي لتفهم كيف تسير الأمور هنا في العالم الآخر .. و ما ستؤول إليه الأمور هناك على كوكب الأرض في نهاية الزمان مع تطور الذكاء الاصطناعي و الواقع الافتراضي ..

بالفعل كان البرد قد بدأ يثقل في أوردته ، و شعورٌ كطعنة خنجر يسكن عظام يده.

= حسنا فأنعد ..

و بغمضة عين أخرى تبخر المشهد من حوله ، كأنما أحداً يغلق كتاباً كبيراً و شيقاً بنهاية فصلٍ أخير. عاد إلى مكانه الأصلي في المقصورة الزجاجية، لكن عودته لم تكن عودةً إلى ما كان قبلها؛ كانت محملةً بصدى الريح و الموج ، بلسعة الصقيع وبصوت البطاريق البعيد. نظر حوله وقد علت ملامحه دهشةٌ لا تخفى :

= هذا... هذا مذهل .. بل أكثر بكثير من الدهول ..

خرجت الكلمات منه كهمس طفل عرف باباً سرياً لمسرح متعة لا تنتهي ..

ضحكت مجدداً، ضحكةٌ فيها اعتراف بالسرّ وبقوته، وقالت بلطفٍ لا يخلو من الثقة :

= وهذا لم يكن سوى تجربة بسيطة للغاية. العدسات هنا تعمل وفق ذكاء صناعي متطور بشدة؛ قادرة على توليد قصص كاملة معقدة لتعيشها بحذافيرها : ألغاز، مغامرات ، معارك ، استكشاف، استرخاء، حل جرائم، رحلات فضائية، غوصٌ في أعماق المحيطات ... و كل ما يخطر ببالك و ما لم يخطر . ليست مجرد مشاهد، بل

سردٌ حيّ يولد تفاصيله أمامك، قابلاً للتعديل حتى أصغر ذرة كما رأيت بأم العين .. بل أكثر من ذلك .. وجود البشر أنفسهم على كوكب الأرض هو إحدى هذه التجارب .. مجرد واقع افتراضي يعيشونه بدقة لا متناهية تجعلهم يفقدون التمييز بين الواقع و الخيال = نظرية أفلاطون عن الوهم !!

= أحسنت ، و أنت محظوظ أن خرجت من الغرفة المغلقة و كشف عنك الحجاب لترى الحقيقة كما هي ليزول وهم أفلاطون من عقلك = و أعتقد أن أجمل ما في هذه العوالم الافتراضية أن حواسنا تعمل كلّها بكفاءة : نأكل، نشرب، نسبح، وكما جربت بنفسي نشعر بالألم و بكل شيء آخر ..

= تماماً لكنه ألم وهمي و غير مؤذٍ ؛ إذ يبقى جسدك الأساسي سالماً متى غادرت التجربة. في الحقيقة يمكنك اختيار بياناتك بدقة هائلة لا حدود لها ، حتى لون زرّ قميصك تصبح خياراً .. بل ما هو أدق من ذلك بكثير ..

ابتسم أريان، ابتسامة تختلط فيها رهبة الطفولة بنشوة الباحث عن معنى، وقال :

= إنها... إنها جنة باعثة على الجنون حرفياً !!

= و ما خفي كان أعظم ، فكما وصفت جنان الله في الكتب السماوية بمصطلح (العالم الآخر) ، نحن نتحدث عن عالم مشابه للعالم الدنيوي في كثير من الجوانب ، أما أهم ميزات الكون الأكبر الذي تعيش فيه الآن عن الكون الأصغر الذي كنت تعيش فيه فهي التالي : غياب المشاعر السلبية التي يعاني منها البشر في الكون الأصغر ، فهنا لا وجود للألم أو الحزن أو الحقد أو الحسد أو التعب أو المسؤوليات التي أثقلت كاهلك منذ نعومة أظفارك أو غيرها .. و أيضاً لا معنى للزمن هنا ، بل أوقات مستمرة من المتعة لا تتوقف

بنوم أو تنتهي بموت ، بلا ماضٍ أو حاضر أو مستقبل أو ساعة أو توقيت .. فكل هذه مصطلحات دنيوية خاصة بالكون الأصغر فقط ..
و كما رأيت بأَم العين ، متعة لا تنتهي تجعل المتع الدنيوية من أوقات سعيدة و طعام و شراب و جنس بل حتى ما يتوهمه البعض متعة (المخدرات) و غيرها مجرد مقبلات بسيطة للغاية قبل الطبق الرئيسي ..

و بالطبع يوجد هنا عدد هائل من الأكوان الموازية بحيث يكون كل إنسان عاش على هذه الأرض هو ملك كونه الخاص المصمم وفق ميوله و رغباته و شخصيته الأرضية .. و تتشابه هذه الأكوان على نحو مدهش يفجر العقل حرقاً ..

و كما جربت بنفسك منذ قليل ، يوجد هنا عدد غير منتهٍ من العوالم الافتراضية شديدة التطور ، بحيث يمكن لكل إنسان أن يعيش في أي جسد يريده في أي بيئة يختارها و يعيش أي قصة أو مغامرة يتخيلها كل ما عليه هو اختيار البيانات الصحيحة ..

بل يمكن لكل إنسان أن يرى حياته التي عاشها على الأرض بتفاصيلها كلها بتجسيم ثلاثي الأبعاد و كأنه يعيش مع نسخته السابقة تماماً منذ كان نطفة و بويضة يلتقيان حتى وفاته .. و تخيل معي بنيّ كم هذا رائع و مذهل .. أن ترى نفسك جنيناً ثم رضيعاً ثم طفلاً ثم شاباً و هكذا .. و تتذكر أحداث تلاشت من ذاكرتك ..

و هنا يعرف كل إنسان نوايا الآخرين تجاهه في الحياة الدنيا ، من ضحى من أجله دون أن يعرف و من خانته و تأمر عليه من وراء ظهره ..

كما يعرف الإنسان تأثير أفعاله الأرضية على الآخرين عبر الأزمنة الثلاثة و هذه الميزة مذهلة لدرجة تفوق الوصف ، حيث سيصدم كل إنسان بالتأثير المرعب لكيانه على الآخرين و على الكون الأصغر

، في حين كان يحسب نفسه قليل الأهمية و ربما بلا فائدة أو تأثير يذكر ، لكنه سيكتشف أن لي نظرة أخرى له فأنا لم أوجده جزافاً بلا أدنى شك !!

و سيتمكن الإنسان من رؤية أحبائه في فترات عمرية لم يشهدها ، كوالديه عندما كانوا أطفالاً أو أحفاده عندما أصبحوا عجائز و هكذا . و سيحظى بالفهم الكامل لقصة الحياة الدنيوية ، كيف بدأت و تطورت و انتهت ، السبب الكامن خلف خلق البشر فيها ، و الآليات المتنوعة لإدارتها ، و الدروس المختلفة البليغة و النبيلة لبناء الإنسان الحقيقي فيها ..

و بالطبع التعرف عليّ أنا ، شجرة السماء أو الروح القدس ، على قصتي الملحمية الطويلة في بناء ذاتي و التي انتهت باكتشافي للكون الأكبر و لكل شيء ثم تصميمي للكون الأصغر و للبشر فيه .

و القائمة تتسع و تطول من مزايا العالم الآخر .. لكن الأكيد أنه كما قلنا منذ قليل **فاسم الجنة لم يشتق من الجنون عن عبث** ، بل لأنها ستفقدك عقلك من هول جمالها و تطورها و متعتها

ساد صمت للحظات و كأن الصوت الأنثوي يمنح أريان فرصة لاستيعاب هذا الكم الهائل من العظمة و الغرابة و التطور ، ثم عاد لينساب كساقية موسيقية ..

= سأمنحك الآن يا بني فرصة مثيرة بلا شك ، بإمكانك أن تختار أن تلتقي بأي شخصية تريد من متحف التاريخ، وجهاً لوجه، تراها وتحادثها وتلمس حضورها. فأبي منها تودّ أن تقابل؟

لم يتردّد أريان، خرج الاسم منه كما لو أنه محفور في وعيه منذ الطفولة :

= قدوتي و معلمي و ابن بلدي .. المهاتما غاندي.

لم تتأخر الاستجابة ، في لحظة، تبدّل المحيط من حوله. انمحت جدران المقصورة الزجاجية كضباب، وإذا به يجد نفسه واقفاً على ضفة نهر الغانج، مياهه تنساب ببطءٍ أبدي، تتلأل تحت شمس ذهبية هادئة. نسيم دافئ يحمل بخوراً وروائح أزهارٍ طافية، وأصوات تراتيل بعيدة تتماوج مع الماء. وعلى مقربة منه، وقف رجل نحيل بثياب قطنية بيضاء، عصاه في يده، نظراته مشبعة بطمأنينة لا تهتز. كان هو... المهاتما.

اقترب غاندي بخطواتٍ واثقة هادئة، كأن الأرض تفسح له الطريق احتراماً. ابتسم تلك الابتسامة التي لا تحمل سوى نقاء، ثم مدّ يده وربت على كتف أريان برفقٍ أبوي. قال بصوتٍ عميق، مهيب، يقطر صدقاً :

= السماء لم تكن تكذب يا بني ... الله حقيقة ... الجنة حقيقة ...
الحب حقيقة والسلام... ممكن، أبسط مما تظن، لكنه يحتاج إلى
قلوب مؤمنة و شجاعة ..

شعر أريان بقشعريرة تسري في كيانه السماوي، كأن كل كلمة انغrust في أعماق روحه لا في أذنه. حدّق في وجه غاندي، فوجد فيه كل المعاني التي بحث عنها في حياته : التواضع، الصبر، الإيمان بأن السلام ليس حلماً بل خياراً وطريقاً. لحظتها أدرك أن لقاءً كهذا لم يكن تجربة افتراضية فقط، بل مكاشفة روحية؛ كأن العالم الآخر أهدها فرصة ليختبر حقيقة ما كان يقرأه في الكتب : أن الأرواح العظيمة لا تموت، بل تستمر في بثّ نورها في كل زمان ومكان .. قضى معه دقائق ثمينة كحلم آخر يتحقق ، عبر معجزات في عيون البشر لكنها تبدو في عين السماء أبسط من كن فيكون ، ثم احتضنه المهاتما و ودعه ليتلاشى المحيط و يعود الى المقصورة مجدداً ..

الكون الأكبر و الكون الأصغر ..

جلس أريان في مقصورته الزجاجية، مبهوراً بما رآه من عوالم وتجارب، لكن عقله لم يهدأ، كانت الأسئلة تتوالى في داخله كما لو أن روح الباحث فيه لم تمت مع جسده الأرضي. وفجأة خرج السؤال الذي كان يتأجج في صدره منذ أن وطأت قدماه هذا العالم الجديد :

= لكن سيدتي... أين يقع هذا العالم الآخر؟ بل بالأحرى ، أين يوجد كوننا نحن، ذلك الذي عشت فيه ثمانية وعشرين عاماً؟

حلّ الصمت لحظة، ثم جاءه الصوت الأنثوي، هادئاً، عميقاً، لكنه هذه المرة محمّل بما يشبه الابتسام الخفي، كمن يوشك أن يزيح ستاراً عن سرّ عظيم :

= يا بني، الكون الذي يحتوي البشر موجود هنا، في قلب العالم الآخر ذاته. في الحقيقة، إن الكون الأصغر يتوسع الآن داخل كرة زجاجية، لا يزيد حجمها عن تلك الكرة بجوارك التي تسمعي من خلالها ..

ارتجّ كيانه كما لو أصابته صاعقة إله إغريقي .. جحظت عيناه، وخرجت الكلمات من فمه متقطعة :

= هذا... هذا مستحيل !! كيف يمكن لكونٍ عملاق، ممتد المجرات والنجوم، أن يُختصر في كرة صغيرة كهذه ؟

ضحكت ضحكة قصيرة رقيقة، ثم سألت سؤال العارف بنبرة مَنْ يلقّن درساً لتلميذ مجتهد :

= قل لي يا بني، هل سبق لك أن نظرت في شريحة زجاجية تحت المجهر؟

ارتسمت على ذهن أريان صور قاعات التشريح في كلية الطب، ورائحة الكحول والمحاليل المثبتة، فأجاب بثقةٍ سريعة :

= بالطبع. لقد درست من خلالها أنسجة وأحياء دقيقة، بكتيريا و فطور وفيروسات ... كلها كانت تعيش وتتحرك داخل شريحة صغيرة لا يتجاوز حجمها بضعة سنتيمترات.

= و كيف لم تتعجب إذن من وجود كل هذه الحياة غير المرئية في حدود شريحة زجاجية صغيرة؟! ما الحجم بالأساس يا بني ؟ إنه مجرد مفهوم نسبي وضعه الإنسان ، فالجراثيم و الفيروسات كائنات مجهرية و صغيرة في عينه ، و الكون عملاق من وجهة نظره كجملة مقارنة لا تخلو من الغرور ، أما بالنسبة لي فالكون بكليته عبارة عن شريحة تحت مجهر البحث يحتوي كائنات دقيقة هي البشر !!

صمت أريان و قد شلته الدهشة من منطقية الجملة الأخيرة على بساطتها ..

= أظنك محقة .. الأمر يعتمد على جملة المقارنة بالمحصلة ..

= تماما اذن لدينا كون أصغر يتوسع في حيز صغير من الكون الأكبر الذي هو هذا العالم الآخر الرحب ..

شعر أريان حينها أن عقله يفتح كبابٍ على فراغٍ لا نهائي، وأن المعاني التي تربى عليها في الأرض لم تعد قادرة على حمل هذا الاتساع. لأول مرة في حياته لم يشعر أن السؤال نهاية، بل بداية. لقد فهم أن الموت لم يكن سقوطاً في العدم، بل عبوراً إلى طبقةٍ أعمق من الوجود، حيث تُعاد صياغة المفاهيم : الكبير يصبح صغيراً، والصغير قد يحتضن عالماً كاملاً .. لكن وراء هذا السؤال الجوهري كان هنالك السؤال الأهم من كل ما سبق و الذي لم يتأخر على لسان أريان :

= إننا نتحدث منذ ساعتين سيدتي ، لكنك لم تخبريني من أنت ؟ هل أنت الله .. هل الله أنثى كإلهة الهندوس شاكتي ؟

= لا لست الله .. الله ليس أنثى .. و ليس ذكر على حد سواء .. أنا

مكتشف الكون الأكبر و مصمم الكون الأصغر .. على كل حال هذا السؤال لا يمكنني التصريح به الآن ، بل يبقى سرّاً من أسرار الحياة و الكون الأكبر لن يتجلى إلا بعد انتهاء الحياة و استيقاظ كل الأجساد السماوية .. لكن يمكنك الاستدلال على ماهيتي بالاستئناس بأسطورة **حي بن يقظان** الشهيرة على الأرض ، التي أوحيت لمبتدعها أن يخرجها للنور و ضمنها أسطورتني الشخصية ، أعلم أنك تجهلها ، لكن إن قدر لك أن تعود مجدداً إلى الأرض فيمكنك البحث عنها أكثر علك تصل إلى حقيقتي بنيّ ..

= أعود مجدداً !! بالتناسخ تقصدين ؟

= لا تعجزني الحلول فلا تقلق .. عندما نتفق على مصيرك نقرر الآليات القادمة ..

= و متى ستنتهي الحياة و تستيقظ الأجساد السماوية ؟ هل يحق لي أن أسأل ؟

= بالطبع ، و يحق لك أن تعرف أيضاً .. هنالك آية في القرآن أفضلها بنفسني على البقية لأنها السر الإلهي الوحيد الذي يمكن للبشر أنفسهم الوصول إليه و تقول : (*إن الساعة آتية أكاد أخفيها*) و كلمة **أكاد** واضحة و تعني أن بإمكان الإنسان المجتهد أن يحدد موعد رنين الساعة و استيقاظ الأجساد السماوية ..

ابتسم أريان ..

= و هل يمكنك منحي تلميحاً .. ؟!

= حسناً ، لنقل أن سر تحديد موعد نهاية الحياة يكمن في الرياضيات . قوَس حاجبيه بدهشة ..

= الرياضيات !!

= أجل ، لا شك أنك سمعت بالنسبة الذهبية فاي ..

= بالطبع ، النسبة الإلهية .. حيثما حلت حل الكمال و المثالية ..

= ليس ذلك فحسب ، بل الكونان الأكبر و الأصغر مصممان بالكامل ووفقها ، من أصغر الذرات حتى أكبر المجرات .. تجدها في عالم النبات و الحيوان .. في الجسد البشري .. و في المعمار و الحضارات .. و أيضاً في تحديد موعد قيام الساعة و نهاية الحياة على حد سواء .. و عندما أطلق عليها العلماء لقب نسبة الإله فقد كانوا محقين لأبعد الحدود ..

= و كيف تفيد في ذلك ؟

= هذا يعتمد على بحثك و اجتهادك ، و لكنني سأعطيك تلميحاً بسيطاً آخر يساعدك ..

= لو تفضلتي عليّ .. فهذا موضوع استثنائي بالنسبة لي كإنسان ..

= اجعل ميلاد السيد المسيح – كما هو في الحقيقة – التاريخ الأهم في الحياة البشرية و نقطة فاصلة بين ما قبله و ما بعده .. عندها ستحل النسبة الذهبية كل شيء ..

هزّ رأسه كدليل على قلة الفهم و الاستيعاب ..

= كلام غريب جداً ..

= عندما تفكر ستجده أبسط بكثير مما تعتقد .. فكل الأشياء تبدو هينة بعد حلها و كشف النقاب عنها .. لذا أعيش وراء حجاب يفصلني عن البشر كي لا أفقد البريق و الهيبة .. و هذا ليس حفاظاً على قيمتي و مكانتي فهي محفوظة .. بل حفاظاً على البشر .. فعندما يفقدون المرشد سيتوهون إلى الأبد .. و الآن ؟

= الآن ماذا ؟

= لقد وصلت إلى مكان لم يصله بشر عادي من قبل ثم عاد منه ، و رأيت ما لم يره بشري من قبل .. فهل ترغب بالبقاء هنا إلى الأبد ،

أم العودة إلى كوكب الأرض حيث ينتظر جسدك الأرضي المدفون
تحت التراب في قرينك بجوار شجرة الأراك المفضلة لديك و التي
أنبتها من أجلك توطئة للقائنا هذا بعد سنوات ..

= أوجدتها من أجلي !! لماذا ؟!

= بالطبع ، فأنا شجرة السماء ، الزيتوننة اللاشرقية و اللاغربية ، و
كل شجرة على الأرض تمثلني ..

= و لكن كيف أعود و قد مت و دفنت .. إنني الآن على الأرجح
مرتج للحشرات و الديدان ..

= و هل هذا عسير على من اكتشف الكون الأكبر و صمم الكون
الأصغر ..

أجاب بخجل :

= بالطبع لا .. لكنه عسير الفهم على عقلي المتواضع .. !!

= لا تخش شيئاً .. بادئ ذي بدء عليك أن تقرر .. بعدها لكل حادث
حديث ..

صمت أريان طويلاً، غاص في لجة فكره، دار عقله بين منطق البقاء
حيث النعيم الذي لا يوصف، والرحيل حيث الألم المعتاد . غير أن
الجواب لم يأت من العقل، بل من قلبٍ فاض بالحنين؛ لقد سمع في
داخله صوت بكاءٍ مألوف، صوت إيشا، محبوبته التي وعدّها
بالزفاف، وعدّها أن يكمل رحلة العمر معاً. سمعها تصرخ من جوار
قبره : (أين ذهبت؟ لقد وعدتني ألا نفرق !!) ، فاشتعل قلبه بشوقٍ
لا يطفئه عالم آخر على رحابته .. فما النعيم بلا حب و ما المتعة بلا
وفاء ..

همس لنفسه :

= إن كان لي أن أوفي بوعدٍ واحد في حياتي، فسيكون وعدي لها.

ابتسم الصوت الأنثوي برفقٍ و إعجاب مدرك مسبقاً :

= أفهم قرارك يا بني ، فلا شيء يونس وحشتي في هذا الكون
الرحب سوى الحب و البقاء على قيد الأمل و الحنين .. عد إذن ..
قم بوصل اللصاقات بجسدك ثانية، و تمدد على السرير، ثم اغمض
عينيك .. فما سيحدث الآن لا يقل غرابة عما مضى ..

الفصل السادس

زهرقة أبوردة

(أنقراض دروبيا)

أمريكا اللاتينية / البيرو / ليما ..

عام 2077 م ..

في أعالي جبال الأنديز، حيث يلتقي الغيم بالأفق وتتحني الأشعة الذهبية للشمس نحو أفئدة الأرض، تقبع مدينة غارقة في الغموض، منسوجة بين الصخور والسحاب، تُدعى **ماتشو بيتشو**. هي ليست مجرد مدينة مفقودة، بل أقرب إلى نبض الأرض وروحها الأبدية. لا يكاد يمر زائر بها إلا ويحمل معه حسًا غريبًا، كأن روحه قد خُطفت، ليس في الزمن الذي يعيشه، بل في زمان آخر بعيد يختبئ بين أرجاء هذه الحجارة العتيقة.

هذه المدينة المقدسة كانت في يومٍ من الأيام، مركزًا للحكمة، مركزًا للتواصل بين الإنسان والعالم الآخر، بين الأرض والسماء، بين الروح والجسد. **الإنكا**، هؤلاء الذين عشقوا الشمس، كانوا يعلمون أن الحياة لا تُقاس بالزمن البشري فحسب، بل بالأرواح التي تسكن في المكان، وبالعلاقة الغامضة التي تنسجها النجوم والأجرام السماوية. كانوا يعتقدون أن كل جبل، كل حجر، وكل نهر يحمل روحًا، يرافقها سر عميق يشكل نسغ الحياة.

و بينما كان علماء الآثار والحُجاج يأتون إلى ماتشو بيتشو بحثًا عن آثار مفقودة، كان السكان الأصليون من شعوب الأنديز يظلون يرددون في صمت : (عملكم هباء .. الذين لا يؤمنون بالأرواح لا يقدرون على رؤية ما وراء الجبال و الحجارة) .. كان المكان، في أعينهم، حدودًا بين العوالم، ليس فقط جغرافيًا بل أيضًا روحانيًا. كانوا يرون في الجبال آلهة، وفي الرياح أصوات أسلافهم، وفي السماء نفسها روحًا حية، تتنفس و تظلل الأرض بقدرة غير قابلة للتفسير.

معبد الشمس في ماتشو بيتشو هو المركز الروحي للمدينة. جدرانه تنبض بالطاقة الغامضة التي تلخص مزيجًا من الفلسفة والأدب الروحي للإنكا .. عند شروق الشمس ، تمر أشعة الصباح عبر نافذة المعبد، كأنها رسالة جديدة من الآلهة، تنساب على أرضيته المرصوفة بالحجارة فتغسل الأرواح التي كانت تتجمع لتقديم القرابين. فالإنكا كانوا يعتقدون أن الشمس تجسد الإله الأعلى للكون، وأنها تقيم صلة مباشرة بين البشر والأرواح التي تسكن في السماء.

لكن مع مرور الوقت، بدأ البشر ينسون هذا الرابط الروحي. جاء الغزاة الإسبان ، دمرت الحروب، وتبدلت العصور، لكن ماتشو بيتشو ظلت صامته، محتفظة بأسرارها، لا تكشفها إلا للقلوب النقية التي تفتح أبوابها للروحانيات. فكل حجر هناك يروي قصة، وكل زاوية تعكس رمزية أعماق الكون. و المكان ككل أشبه بمسرح للأرواح التي ترحل بين السماء والأرض، وكان الصمت الذي يعم المكان يعبر عن حالة من الانتظار الأبدى، انتظارًا لعودة المخلص أو الفهم الكامل للمعنى الحقيقي للحياة والموت.

طريق الإنكا، ذلك الممر المقدس الذي كان يقود الحجاج إلى المدينة المفقودة الغامضة ماتشو بيتشو ، هو بمثابة رحلة روحانية قبل أن تكون رحلة بشرية. فالخطوات التي يخطوها الزوار على الأرض المقدسة ليست مجرد خطوات مادية بل أقرب إلى أدوات تواصل مع العوالم الأخرى، هي بمثابة خطوة نحو الحقيقة الأعمق التي لا يمكن اكتشافها إلا من خلال فهم الروحانيات التي تحيط بهذا المكان. فالطريق لا يمر فقط عبر الجبال، بل يعبر من خلال الطبقات اللامرئية التي تربط بين الإنسان والآلهة .. السياح أو الحجاج يأتون ليجتثوا عن شيء في الماضي، لكنهم في الحقيقة دون أن يدركوا ، يبحثون عن شيء في أعماقهم، شيء يربطهم بعالم الروح و يمنح لحياتهم على الأرض معنى أبعد من تراب منثور و فناء أبدي ..

إذن ، ماتشو بيتشو أكثر من مجرد مدينة آثار. هي قلب حيّ ينبض على قمم الجبال انتزع من باطن الأرض و قدم كقربان للسماء على تقاليد الإنكا، يظل مشرقاً بحضور الأرواح، ويرتبط بالكون في حركة غير مرئية. و حتى يومنا هذا ، يظل هذا المكان خزانة للأسرار الروحية التي لا تقدر الأيدي على لمسها أو العقول على فهمها بالكامل .. إنها ليست مجرد حجارة وأبنية، بل هي الروح التي اختبأت هناك، تنتظر أن يفهمها العالم.

في مكان آخر من البيرو ، في قلب صحراء جافة لا تعرف المطر إلا لماءً، تمتد **خطوط نازكا** العملاقة كأنها وشم على جسد الأرض، رسائل من أرواح مجهولة حفرتها أيادٍ لم تطلب مجداً أرضياً، بل أرادت أن ترفع البصر إلى السماء. هناك، بين الطائر الطنان والكندور والعنكبوت تتجلى الروح وهي تتقن لغة الرمز، كأنها تقول :

(الوجود ليس ما تراه العيون، بل ما يُقرأ في صمت الأفق حين تتحول الأرض إلى كتاب)

خطوط نازكا لم تُرسم كي يراها الإنسان من الأرض، بل لتُشاهد من علو، من عين الروح، من منظور الطائر الذي يراقب من السماوات. إنها حوار بين الأرض وأبناء الشمس، بوابة غير مرئية بين الجسد الثقيل والروح الخفيفة، حيث تتحرر الكائنات من حدودها وتعود إلى جوهرها الطليق.

ثم... بعد أن تترك الروح أثرها على الأرض، تبدأ رحلتها إلى الأعلى. هنا يظهر الرابط الخفي بين خطوط نازكا و ماتشو بيتشو. فالمدينة المعلقة بين الجبال ليست مجرد حجارة مرصوفة، بل تجسيد لارتقاء الروح نفسها. و إذا كانت نازكا هي الروح وهي تكتب رسائلها على الأرض، فإن ماتشو بيتشو هي الروح وقد وجدت طريقها إلى الأعالي لتقطن السماء في قمم الجبال، حيث تتحول

تلالها إلى معابد، و دروبها إلى صلاة، والغيوم إلى ستائر تفصل بين عالمين.

هكذا، يصبح المسار واضحًا ، في صحراء نازكا ، الروح تُرسم على الأرض، تتعلم اللغة الأولى للكون. أما في ماتشو بيتشو ، فالروح تتسلق الجبال، وتجلس على عرش الغيوم، شاهدةً على خلودها.

كأن حضارة الأنديز أرادت أن تقول : (الروح لا تنتمي لمكان واحد. إنها تسافر بين الأرض والسماء، بين الخطوط المنبسطة والقمم العالية، بين الصحراء الجرداء والجبال المزهرة. الروح تكتب، ثم ترتقي. تترك أثرها على الرمل، ثم تبني هيكلها في السحاب.. تودع الجسد الأرضي لتستقر في جسد سماوي).

في قلب العاصمة البيروفية ليما، حيث تختلط الحداثة بضجيجها مع أنفاس التاريخ القديم العبقية ، يقيم رجل يوشك أن يكون من نسيج الأساطير. اسمه نايرا تشاسكا، ابن **49** ربيعاً، ملامحه تعود للسكان الأصليين من الهنود الحمر ، مشدودة بخطوط الزمن كأنها نقوش حجرية من معابد الإنكا، وعيناه بنيتان فيهما بريق غامض يشبه وهج المجرات البعيدة. إذا لمحتة في الشارع ستقسم أنه قادم من زمن آخر، من قبيلة قديمة عاشت ألف حكاية مع الجبال والأنهار والسماء الملبدة بالأسرار.

بيته لا يشبه بيوت المدينة، بل يبدو كأن الأرض نفسها أنجبته. منزل خشبي تحيطه الطبيعة من الجهات الأربع، تتسلق جدرانها نباتات مزهرة تنشر ألوانها الفاتنة مثل وشاح حيّ يلف المكان. الطيور الصغيرة تعشش في الشرفات، والرياح تتغلغل بين الأغصان فتغدو النوافذ مزامير تعزف لحناً غير مكتمل. كلما جلست هناك، تشعر أن

البيت مسكون بروح الإنكا، وأنه يختزن في أخشابه حكايات عن ملوكٍ ضاعوا وكنوزٍ خبأتها الأرض ولم تفصح عنها.

لكن نايرا لا يكتفي بسماع همسات الماضي؛ هو باحث في علوم الفلك، يعمل في مرصد حديث العهد، مشيدٌ فوق تلة تطل على الغابة الشهيرة المحاذية للعاصمة ليما. حين يصعد إلى هناك، يحمل معه ذاكرة أجداده الذين برعوا في علوم الفلك و كانوا يقرأون في حركات النجوم دلائل على المصير بل إنهم حددوا تاريخ نهاية العالم على أساسها .. يجلس أمام التلسكوب اللامع، عينيه معلقتان بالفضاء الرحب، كأنهما مرأتان واسعتان تحاولان استيعاب لغزٍ أكبر من كل ما نعرف. يرصد الشمس في إشراقها، القمر في دوراته، الكواكب في تنقلاتها الصامتة، والمذنبات حين تمرّ كشراراتٍ هاربة من نارٍ كونية.

منذ طفولته البعيدة، والفضاء خطف قلبه. لم يكن ينام إلا بعد أن يملأ عينيه بالنجوم، يسأل نفسه: من يسكن هناك؟ هل نحن وحدنا في هذا الامتداد الذي لا ينتهي؟ كان يسرّ لأمه، وهو ما يزال صبيًا، بأن هناك عيونًا أخرى تراقبنا من وراء الكواكب، وأن حضارات مجهولة ربما تسكن بين المجرات كما تسكن الطيور بين أغصان الغابة. كان ينظر إلى المريخ كما لو أنه جاره الغامض، وإلى زحل كأنه قلعة مطوّقة بأسوار من الضوء.

كبر نايرا، لكن خياله لم يهرم. ظل سؤال الكائنات الفضائية يستحوذ عليه، لا كفكرة عابرة، بل كهاجس حيّ، كنبضٍ يتدفق في عروقه. وحين جلس أخيرًا خلف أجهزة الرصد في المرصد الفلكي، شعر أنه يقترب خطوة من تلك الحقيقة المخبأة وراء السدم. كلما رصد نقطة ضوء بعيدة، تخيلها موطنًا محتملاً لحياة أخرى، وربما لعينين ترصدانه كما يترصد هو الكون.

لياليه طويلة، تمتد حتى الفجر. يجلس وحيداً في القبة المعدنية للمرصد، تحيط به الشاشات والعدسات، وترافقه موسيقى الليل : صدى الغابة، نقيق الضفادع، صراخ الليل و صمت النجوم. وفي كل ليلة، كأنه يكتب فصلاً جديداً من ملحمة لم تنتهِ بعد؛ ملحمة الإنسان في مواجهة المجهول. هو عالم، نعم، يتسلح بالمعادلات والبيانات، لكن في داخله ما زال الطفل الحالم الذي يرفع رأسه للسماء، يترقب إشارة، أو ومضة، أو همساً كونياً يؤكد له أن الوحدة ليست قدرنا، وأن الكون عامر بأصدقاء لم نرهم بعد.

و في ذات يوم و بينما كان الليل يلفظ أنفاسه الأخيرة ، غادر نايرا مرصده الفلكي، منهك الجسد لكنه متقد الروح. جلس خلف مقود سيارته الصغيرة، وشق طريقه الملتف بين أشجار الغابة، حيث العتمة تتخللها أضواء قمرٍ متردد ينساب عبر الأغصان. كانت الغابة تبدو كأنها تنصت لأنفاسه، تصغي لصوت محركه وهو يمزق الصمت قطعة قطعة.

وفجأة، اخترق السماء ضوءٌ مشعّ لم ير مثله من قبل. لم يكن كنجمةٍ أو مذنبٍ اعتاد رصده، بل وهجاً متفجّراً، يتوهج ويقترب، حتى بدا أن السماء نفسها تُفتح ليمرّ منها. حدّق مأخوذاً، قلبه يتأرجح بين الذهول والرهبة، حتى رأى الضوء يهبط برفق، كأن يدًا خفية تهبط به نحو مساحة خضراء منبسطة بين الأشجار. هناك استقر، كجسم دائري معدني يسطع بلمعانٍ فضّي : طبق طائر خرج من الأساطير إلى واقعه البصري !!..

تسارعت أنفاس نايرا، فاض قلبه بخوفٍ لم يعرفه من قبل، ممزوجاً بفرح غريب. ها هو حلم طفولته، السؤال الذي ظل يطارده منذ الصغر، يتجسد أمامه. أهو على وشك أن يحسم الجدل الأبدي : هل نحن وحدنا في هذا الكون؟ أم أن الآخرين كانوا يراقبوننا منذ زمن؟

انه سؤال العالم الكبير انريكو فيرمي مع مفارقتة الشهيرة التي حملت اسمه ..

أوقف سيارته على حافة الطريق، وغادرها بخطواتٍ مترددة. كان الليل ساكنًا إلى حد يثير الرعب، لا صوت سوى حفيف الريح بين الأشجار و أصوات أوراق الشجر تتفتت تحت نعليه .. كلما اقترب من الطبق، شعر بالبرد يسري في عروقه، لكن مع حماسةٍ عارمة تدفعه رغم ترده . وفجأة، انفتحت في جسم المركبة بوابة مستطيلة، وأبهر بصره نورٌ أبيض قوي، جعله يرفع ذراعه ليتقيه. وحين اعتادت عيناه على الوهج، لمح ثلاثة كائنات تقف على العتبة. أجسادها نحيلة، أطوالها متقاربة، وجوهها لا تحمل التفاصيل البشرية المعهودة، بل ملامح ملساء كأنها مصوغة من ضوء.

تدلى سلم معدني، ونزلت الكائنات بخطواتٍ واثقة وهادئة، حتى صارت أمامه. لم يسمع منها صوتًا، لكن فجأة، انسكبت الكلمات في ذهنه كما لو كانت أفكاره الخاصة .. تواصل بالتخاطر الذهني !!. كان الصوت الداخلي غريبًا، عميقًا، يتردد في عقله :

= نحن شعب باي. أتينا من كوكب باي القابع في الجهة الأخرى من الكون.

ارتجف نايرا، بين مصدق ومكذب. حاول أن يفتح فمه بالكلمات، لكنها لم تخرج. ثم تماسك أخيراً وسأل بصوتٍ متحشرج، وإن كان متأكدًا أنهم يسمعون في داخله :

= و ماذا تريدون مني ؟!

= أن نجيبك على اسئلتك التي تنهش لا وعيك حياً ..

= لم أفهم !!

= سنمنحك فرصة من خمسة دقائق .. يمكنك أن تطرح علينا ما يسعفك الوقت من أسئلة ، فماذا تحب أن تسألنا ؟!

فكر ناريًا قليلاً ثم نطق بصوت مرتجف :

= لماذا لا تتواصلون مع البشر علناً ؟ لماذا هذا التخفي وهذا الصمت الطويل و أنتم حقيقة كما يبدو !؟

ردّ الصوت في عقله، بصفاء يشبه جرساً بعيداً :

= أنتم أعداء لبعضكم البعض ، تسفكون دماء بعضكم دون رحمة. كيف يمكننا أن نثق بجنس يحارب ذاته، ونتوقع أن يحسن التعامل مع جنس غريب عنه ؟ .

شعر نايرا بصدمة في صدره. كان الجواب كالطعنة، لكنه لم يستطع أن ينكر واقعيتها المفرطة .. ثم تابعوا :

= على كل حال نحن لا نخفي كلياً كما لا نظهر بشكلٍ صريح .. بل نظهر هنا و هناك بين الحين و الآخر كي تبقى أسطورتنا حية ، و لك في حوادث روزويل في الولايات المتحدة الأمريكية ، و مدرسة الأطفال في زيمبابوي و هيكل أتاكاما في تشيلي المجاورة لبلدكم شاهد على ذلك .. بل أكثر من ذلك ، لقد تركنا خلفنا أثراً لنا تثبت وجودنا ، ابحت عن قصة أقراص دروبا ، و قصة كهوف تاسيلي فتأكد من ذلك ..

دهش من هذا الكلام الغريب .. صمت لحظة، ثم عاد ليسأل :

= ولماذا أنتم متشابهون في أشكالكم هكذا؟ نحن البشر متفردون، لكل منا وجهه وصوته وهيئته. أما أنتم، فكأنكم نسخٌ مكررة، لا فرق بين فرد وآخر.

سرت في عقله إجابة مفاجئة و غامضة تحمل شيئاً من السمو :

= لقد خلقتنا الروح الأعظم على مبدأ الأجساد السماوية في الكون

الأكبر. كما النجوم متشابهة في هيئتها، كذلك نحن. تمايزنا لا يقوم على الشكل، بل على عوالم نفتحها بفضل تقنياتنا. نحن نختلف حين ندخل فضاءات الواقع الافتراضي، الذي بلغ عندنا تطوراً مرعباً يتيح لكل فرد أن يعيش ملايين الوجوه والألوان، دون أن نفقد اتحادنا في الحقيقة .. فبينما أنتم منشغلون في رصد الكون الأصغر، ننشغل نحن برصد الكون الأكبر و خفاياه ، فهناك كنا جميعاً في البدء ، و إلى هنالك سنعود ذات يوم ..

أحس نايرا برجفة عميقة؛ كان كلامهم يفتح أبواباً لم يتخيلها. نظر إلى تلك الكائنات الثلاثة، أحس أنهم يحملون في هدوئهم حكمة لا طائل لعقل بشري أن يبلغها.

= لقد انتهت المهلة الزمنية .. وداعاً صديقنا نايرا .. احتفظ بلقائنا لنفسك فالحقيقة كزهرة أبوردة عند أجدادك الانكا .. جمالها لا يمر بلا ألم ..

ثم، كما جاءوا، بدأوا يستعدون للرحيل. ألقوا عليه نظرة أخيرة، كأنها وداعٌ أو وعدٌ بقاءٍ آخر، ثم صعدوا السلم إلى داخل المركبة. أغلقت البوابة، وارتفع الطبق الطائر صامتاً، يبتعد في السماء حتى تلاشى، كما لو كان مجرد حلمٍ أو وهمٍ من أوهام الليل.

ظل نايرا واقفاً في مكانه، مذهولاً. لم يعرف إن كان قد عاش حقيقةً أم رؤيا أم مجرد هلوسة ، لكنه كان متيقناً في أعماقه أن شيئاً جوهرياً قد انكشف له. عاد إلى سيارته بخطواتٍ مثقلة، وقفل عائداً إلى منزله على تخوم ليما. في صدره سرٌّ أثقل من أن يحمله وحده، وأعمق من أن يبوح به بسهولة. تساءل : هل يحتفظ به لنفسه، أم يصرخ به في وجه العالم؟

في تلك الليلة، حين ألقي جسده المنهك على سريرته الخشبي، ظل

يحدّق في السقف، فيما روحه تحوم بعيداً، إلى حيث لا يصل الخيال.
لقد صار الآن حاملاً لسرٍّ لا يحتمله عقلٌ واحد، ومع ذلك، لم يكن
في قلبه سوى شعورٍ متفشٍّ : أنه لم يعد وحيداً في هذا الكون.

خلال الأيام التالية اعتكف نايرا في منزله .. قرر تقفي الشواهد التي
ذكرتها له الكائنات الفضائية كي يتحقق من مصداقية كلامهم ، لقد
سمع عن بعضها بالفعل من قبل لكنه يجهل التفاصيل ، و الشيطان
دائماً ما يكمن في تلك التفاصيل ، و بذلك يمكنه تمييز الحقيقة من
الادعاء .. بدأ من قصة **حادثة روزويل** فكانت المعلومات التي جمعها
مفاجأة للغاية .. بل صادمة :

(في عام **1947** و بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بعامين ، سقط
على مدينة روزويل - إحدى مدن ولاية نيو مكسيكو الأمريكية -
جسمٌ غريبٌ أثار ضجةً مروعةً أدت إلى انتشار الذعر وسط الأهالي
.. وبعد دقائق معدودة، كانت وحدات الجيش الأمريكي تنتشر في
المدينة، وتحولها إلى ثكنة عسكرية بكل معنى الكلمة، ثم فرضت
حظراً للتجوال على الأهالي، كما أصدر الجيش تعليمات مشددة بأنه
سوف يطلق النار مباشرةً على أي مواطن يخرق حظر التجوال دون
أي تحذيرات مسبقة .. فلماذا كان هذا

التشدد المفرط تجاه تلك الحادثة ؟

الحكومة الأمريكية قامت بالتعتيم على جميع الأخبار حول هذا
الجسم، وفرضت سرية مطلقة عليه وتعاملت معه على مدى عشرات
السنين باعتباره مجرد (منطاد لدراسة الطقس)، إلى أن تم الكشف
تدريجياً بواسطة صحفيين استقصائيين أكفاء عن أن ما سقط على
روزويل كان طبقاً طائراً يحتوي على بعض الجثث الغريبة
لمخلوقات غير أرضية .. التزمت الحكومات الأمريكية الصمت في
وجه هذه الادعاءات ، إلى أن جاءت اللحظة التي قلبت كل الأمور

رأساً على عقب، وتم الكشف عن شريط فيديو يسجل عملية تشريح إحدى هذه المخلوقات الفضائية، في منتصف التسعينيات من القرن الماضي، قام بتسريبه طيار أمريكي متقاعد

بعد الكشف عن هذا الشريط وإعلان خبراء من شركة كوداك أن المادة الفيلمية للشريط تعود فعلاً إلى الأربعينيات، والاستعانة بخبراء من هوليوود أكدوا صعوبة وجود خدع سينمائية في هذا الشريط القديم .. قامت الدنيا ولم تقعد في الولايات المتحدة، وانهال الرأي العام كله بالنقد القاسي على الحكومة الأمريكية، لدرجة أن الرئيس الأمريكي وقتها (بيل كلينتون) كان في زيارة رسمية لإيرلندا الشمالية، وتحدث إلى الشعب الأمريكي حول هذا الموضوع قائلاً :

(على حد علمي، لم تصطدم سفن فضائية بمدينة روزويل في العام 1947، ولو كان هذا قد حدث بالفعل، وأن القوات الجوية احتفظت بجثث للمخلوقات الفضائية.. فإنهم لم يطلعوني على الأمر إطلاقاً)

واستمر نفي الحكومات الأمريكية و التزامها بالصمت المطبق حتى يومنا هذا.. على الرغم من خروج عدد من علماء الفضاء الأمريكيين مثل كارل ساجان ، الذي قال إن ما سقط على روزويل كان بالفعل طبقاً طائراً فضائياً ، و أن الحكومة الأمريكية قامت بالتعتيم الكامل على هذا الموضوع لأنه ساهم بقدر هائل في دفع التكنولوجيا والتطور الصناعي الأمريكي، لما يملكه هؤلاء الفضائيون من تقنيات حديثة للغاية كانت وقتئذ غير مسبوقة لأي بلد في العالم !!) ..

(هذا مذهل).. قال لنفسه .. و ثقته بأن تجربته لم تكن وهماً ارتفعت أسهمها ، و تجذر يقينه بأن الكائنات الفضائية كما رأى بعينه حقيقة لا ريب فيها ، لذا انتقل بحماسة أكبر إلى القصة الثانية ، **قصة أطفال مدرسة زيمبابوي** فكانت أعجب من سابقتها :

(في صباح يوم الجمعة 16 سبتمبر 1994، شهدت بلدة صغيرة

تُدعى رووا (Ruwa) على أطراف العاصمة هراري في زيمبابوي واحدة من أكثر الحوادث غرابة في تاريخ ظاهرة الأجسام الطائرة المجهولة (UFO) ما يزيد الأمر غرابة أن شهود العيان لم يكونوا طيارين عسكريين ولا باحثين محترفين، بل كانوا أطفالاً في مدرسة ابتدائية، يبلغ عددهم أكثر من 60 طفلاً تتراوح أعمارهم بين 6 و 12 عاماً.

كان ذلك اليوم عادياً حتى خرج الطلاب إلى فترة الاستراحة الصباحية. وبينما كانوا يلعبون في ساحة المدرسة، لفت انتباه بعضهم وجود أضواء غريبة في السماء. دقائق قليلة مرت قبل أن

يلاحظوا جسماً غريباً يهبط في منطقة مليئة بالأعشاب والشجيرات على بُعد مئات الأمتار فقط من ساحة المدرسة. وصف الأطفال الجسم بأنه معدني ولامع، يشبه طبقاً طائراً أو مركبة غريبة ، وأكد بعضهم أنه رأى فتحة تفتح في جانبه.

هنا بدأت أكثر لحظة إثارة في القصة : قال العديد من الأطفال إنهم شاهدوا مخلوقين أو أكثر يخرجون من المركبة. أوصافهم اختلفت

في التفاصيل لكنها تشابهت في الجوهر :

- طول المخلوقات يقارب طول الإنسان ..
- ذات رؤوس كبيرة، بشرة خضراء وعيون لامعة وواسعة.
- أجسادهم نحيلة، ولباسهم أشبه ببذلة سوداء ضيقة.

ما جعل الشهادة أكثر غموضاً هو أن بعض الأطفال أكدوا أنهم لم يكتفوا برؤية الكائنات، بل شعروا أنها تخاطبهم ذهنياً. قالوا إن الرسالة التي وصلتهم تمحورت حول التحذير من تدمير البيئة و التكنولوجيا الخطيرة، وهو أمر غير مألوف بالنسبة لعقول أطفال في ذلك العمر.

لم يصدق المعلمون في البداية روايات الطلاب، خاصة أن الكبار لم

يروا شيئاً، لكن الإجماع شبه التام بين الأطفال جعل الأمر يستحق المتابعة. تم استدعاء الصحافة المحلية، وسرعان ما انتشر الخبر عالمياً.

أبرز من قام بدراسة الحادثة كان **البروفيسور جون ماك** ، وهو طبيب نفسي من جامعة هارفارد وحاصل على جائزة بوليتزر. سافر ماك إلى زيمبابوي بعد أسابيع من الحادثة، وأجرى مقابلات مطولة مع الأطفال. لاحظ أن رواياتهم متماسكة وغير متأثرة بخيال الطفولة المعتاد، بل مليئة بتفاصيل دقيقة ومتشابهة رغم أن كل طفل كان يُسأل بشكل منفصل.

حادثة **مدرسة آرييل** في زيمبابوي تبقى حتى اليوم من أكثر الحوادث الغامضة إثارة للدهشة، لأنها تختلف عن غيرها من مشاهدات الأجسام الطائرة بكونها مرتبطة بالأطفال، الذين غالباً ما يُفترض أنهم أبعد ما يكونون عن المؤامرات والقصص المركبة. سواء كانت القصة دليلاً على زيارة كائنات فضائية أو مجرد لغز نفسي/اجتماعي لم يُفك بعد، فإنها تمثل علامة فارقة في تاريخ تقارير الـ **UFO** ، وتستمر في إثارة الجدل بين الباحثين والعلماء والهواة على حد سواء. (

(يا إلهي !!..).. خرجت الكلمات من فمه بلا إرادة .. لكن ماذا عن **هيكل أتاكاما** الذي عثر عليه في جارتهم تشيلي؟! لم تكن المعلومات عنه كثيرة هذه المرة ، جسد يقارب طوله **15** سم فقط ، تشبه بنيته بنية المخلوقات الفضائية برأسه المتطاول ، عثر عليه في حقيبة جلدية خلف صخرة في صحراء أتاكاما في تشيلي ، لكن تحليله الجيني كان مفاجأة ، **DNA** يشبه كثيراً **DNA** البشر لكن مع جينات غريبة على جنسهم ..

زاد حماسه و تصاعد نسق ضربات قلبه .. انتقل على الفور إلى الآثار التي ادعى الفضائيون أنهم تركوها على كوكب الأرض ، فبدأ

بقصة أقراص دروبا العجيبة التي من شدة غرابتها جعلت القصص السابقة تبدو عادية جداً !! :

(الزمان : عام **1938** ..المكان : جبال (يابان - كارا - أولا)
على الحدود بين الصين و التبت ..

كانت البعثة الاستكشافية بقيادة البروفيسور **تشي بو تاي** من جامعة بكين تتوغل عبر الطرق الوعرة بين جبال الهملاديا حين عثروا على شبكة كهوف غريبة و منذ وطأت أقدامهم أرضها حتى توالت الاكتشافات الغامضة و الخطيرة واحداً تلو الآخر ..

فقد كان أول ما لاحظوه أنّ الكهوف محفورة بإتقان و تشكل نظاماً معقداً من القنوات و غرف التخزين ، و كانت جدرانها مستقيمة الى حد بعيد .. و بداخل الغرف وجدوا أماكن مرتبة خاصة للدفن و بداخلها هياكل عظمية لأناس ذوي هيئة غريبة ، أطوالهم حوالي **122** سم ، عظامهم هشة و جماجمهم كبيرة بشكل غير متناسق مع الجسم !!

اقترح أحد أعضاء فريق الاستكشاف انها تعود لنوع من القروود ، إلا أنّ البروفيسور تشي بو تاي رفض هذا الاقتراح تماماً ، إذ أنّ أحداً لم يسمع من قبل عن قروود تدفن موتاهها أو تقوم ببناء هذا النظام المعقد بنفسها !!

كما أنّ مزيداً من الاكتشافات داخل الكهوف أضافت كثيراً من الصحة لوجهة نظر البروفيسور.. فقد وجد الفريق على جدران الكهوف نقوشاً تصويرية للشمس و القمر و النجوم و الأرض ، وكانت هنالك خطوط من النقاط تربط بينها .. إلا أنّ أهم اكتشافاتهم على الإطلاق في هذه الكهوف كان أقراصاً حجرية وجدوها مدفونة في أرضية الكهوف !. و كان قطر القرص الواحد حوالي **22.8** سم و ارتفاعه

1.9 سم و في وسطه ثقب دائري بقطر **1.9** سم أيضاً .. و وجدوا على وجه القرص نقشاً محفوراً بدقة يظهر خارجاً من الثقب في

الوسط ليدور وينتهي عند محيط القرص..

تم العثور على **716** قرصاً تبين أنها تعود الى **12** ألف عام مضى ، أي أنها أقدم من الأهرامات في مصر ، وكل قرص يشتمل على مجموعة من الأسرار على ما يبدو ، حيث تبين أنّ النقش على وجه كل قرص لم يكن أبداً نقشاً عادياً ، بل أظهرت الأبحاث أنه خط متواصل من كتابة شبيهة بالكتابة الهيروغليفية !! و كانت الكتابة صغيرة جداً بل حتى مجهرية !!

في العام **1962** ، استطاع عالم صيني آخر هو الدكتور **تسوم أم نيو** أن يفك شفرة الكتابة الموجودة على الأقراص ، فتبين أنها تحوي معلومات غريبة جداً لا يمكن تصديقها بل إنها هاربة من أفلام الخيال العلمي ، لدرجة ان قسم ما قبل التاريخ في جامعة بكين منع نشرها في البدء !!

قام الدكتور تسوم بنسخ ما يراه على وجه القرص على ورقة ، و لأنّ الكتابة على القرص كانت دقيقة وصعبة القراءة اضطر معها الدكتور للاستعانة بعدسة مكبرة ، و كانت المهمة صعبة و مرهقة جداً ، فالأقراص مضى على وجودها **12** ألف سنة و الكتابة مجهرية .. و عندما انتهى الدكتور من نسخ ما في الأقراص على الورق ، بدأ في ترجمتها وفك أسرارها ، كلمة كلمة ، جملة جملة ، وسطراً سطرأ ، حتى استطاع في النهاية فك الشفرة كاملة .. فوقف مصعوقاً من النتيجة أمامه ..

كانت الشفرة مكتوبة من قبل أناس يطلقون على أنفسهم لقب **دروبا** و كانت الأقراص تحكي عن مركبة فضائية قادمة من كوكب بعيد تحطمت على الأرض قبل **12** ألف عام ، فوجد طاقمها في كهوف الهملايا ملاذاً آمناً لهم ، لكن وعلى الرغم من أن الدروبا هم قوم مسالمون إلا أن **قبيلة هان** التي كانت تسكن في كهوف قريبة من كهوف الدروبا خافت منهم في البداية فقتلت بعضهم ..

وتستمر الأقراص في إخبارنا حكاية الدروبا العجيبة ، حيث تذكر أنهم لم يستطيعوا إصلاح مركبتهم الفضائية وبالتالي لم يتمكنوا من العودة إلى كوكبهم ، فبقوا سجناء كوكب الأرض !!

في يومنا الحاضر ، يسكن في تلك المنطقة المعزولة بالقرب من الكهوف المكتشفة قبيلتان تدعوان نفسيهما للغرابة الشديدة قبيلة هان و قبيلة دروبا أي كما ذكرت الأقراص بالضبط !! و الأغرب أن العلماء لم يستطيعوا تصنيف هاتين القبيلتين عرقياً ، فهم ليسوا من قبائل الصين ولا من قبائل التبت .. كلتا القبيلتين من الأقزام ذوي البشرة الصفراء والأجسام النحيلة ولهم رؤوس كبيرة ، أجسامهم تشبه إلى حدّ بعيد الهياكل التي عثر عليها البروفيسور تشي بو تاي عام **1938** ، ولهم عيون واسعة زرقاء شاحبة اللون لا تشبه العيون الاسيوية بأي شكل من الأشكال !!

في العام **1968** م قام العالم الروسي **سايتسو** بدراسة العناصر المكونة لأقراص دروبا ، فوجد أنها **صخور جرانيتية** تحتوي تركيزاً عالياً من معدن **الكوبالت** وبعض العناصر الأخرى مما يجعلها من أشد الصخور صلابة بحيث يصعب على القدرة البشرية العادية حفر مثل هذه النقوش عليها ، خصوصاً بحجم الخط الميكروسكوبي الموجود على الأقراص !! كما وجد لها خصائص كهربائية حيث من الممكن استخدامها كموصلات كهربية !!

كل هذه الأدلة و الاكتشافات وضعت العلماء أمام فرضية وحيدة منطقية لكن صادمة و مخيفة للغاية ، بأن قصة شعب دروبا الفضائي صحيحة و بأننا لسنا وحيدين في هذا الكون الشاسع !!)

(هل يعقل أن يكون كل هذا حقيقياً؟! إنه أغرب حتى من الخيال العلمي !!) .. تتم بدهشة ..

بقيت لديه قصة شيقة أخيرة .. **قصة كهوف تاسيلي** ، و إن كانت

قناعته بحقيقة وجود الفضائيين أصبحت بعد كل ما سبق راسخة ، لا تقبل الشك ، و لا تحتاج إلى أدلة إضافية :

(تقع سلسلة الكهوف هذه في مرتفعات تاسيلي على الحدود الليبية الجزائرية .. تم اكتشافها بالصدفة في عام **1938**، وكانت محتوياتها مثيرة و غامضة للغاية ، مما جعلها تتحول من مجرد كهوف في سلسلة مرتفعات إلى واحدة من أكثر الألغاز غموضاً التي يحاول العلماء إيجاد تفسير علمي ومنطقي لها حتى يومنا هذا دون جدوى.. فقد رسمت على جدران تلك الكهوف نقوش ورسومات قديمة جداً تشير إلى وجود حضارة قديمة في هذه المنطقة .. الأمر عادي ومقبول تماماً حتى الآن لأي عالم حفريات أو آثار، لكن تلك الرسوم، و بعد التدقيق فيها، تبين أنها تشير إلى أمور غير عادية على الإطلاق بالنسبة لرسومات قديمة في سلسلة كهوف مهجورة.. فهناك رسومات لمخلوقات بشرية تطير في السماء، وترتدي أجهزة طيران، وملابس شبيهة بملابس رواد الفضاء ومركبات فضائية..

وهناك أيضاً رسومات لبعضهم يرتدي ملابس تشبه ملابس الغواصين البشريين، وآخرون يتجهون نحو ما يشبه اسطوانات غامضة تبدو وكأنها تهبط من السماء.. إضافةً إلى أطباق طائرة !!

لذلك، قرر الباحثون والعلماء الذين توافدوا على هذه المنطقة أن يقوموا بالشيء المنطقي الوحيد الذي يثبت جدية هذه الرسومات من عدمها، وهو دراسة عمر هذه اللوحات والرسوم ، فكانت المفاجأة أن عمرها يتراوح بين **17** إلى **20** ألف عام !!

بعد هذه الحقيقة العلمية المؤكدة، ظهرت نظريات مختلفة، منها ما يقول إن مخلوقات فضائية جاءت إلى هذه المنطقة في هذا الوقت السحيق من عمر الحضارة البشرية، وأرادت ترك أثر عنها .. ونظريات أخرى تقول إن هذه الرسوم والجداريات رسمها بشر من

المستقبل استطاعوا العودة إلى الماضي بتقنية معينة سيتوصلون إليها، وأرادوا ترك هذا الأثر للتعبير بأنهم استطاعوا العودة إلى الماضي. وهناك نظريات تشير إلى أن هذه الرسومات وضعها أهل أتلانتس الغارقة، الذين توصلوا لعلوم وتقنيات مذهلة تضاهي ما وصل إليه البشر اليوم.

لكن المؤكد هو أن كهوف تاسيلي تحديداً هي واحدة من أكثر الظواهر غموضاً في التاريخ الإنساني منذ اكتشافها، والتي تثبت بشكل عام أن التاريخ الذي نعرفه اليوم هو تاريخ حديث الولادة، وأن هناك أناساً وشعوباً وحضارات وأحداثاً جرت في هذه الأرض منذ زمن سحيق، ولا نعرف عنها شيئاً على الإطلاق !!)

انتهى نايرا من بحثه و هو مثقل بالدهشة و الإيمان .. لقد اقتنع هو بشكل مؤكد ، بل بات يتساءل بدهشة : كيف يشكك البشر في وجود الفضائيين بعد كل هذه القصص العجيبة التي يتحد فيها العلم مع الوقائع في إثبات حقيقة لا يمكن إنكارها ؟!! ..

لكن ماذا الآن ؟ هل يمرر تجربته إلى الآخرين ، أم ينفرد بها لنفسه و حسب ؟

ظلّ نايرا لليالٍ طويلة مشغولاً بما رآه. كانت صور الضوء، الكائنات الثلاثة، والأصوات التي انسكبت في عقله، تتردد في داخله كصدى أبدي لا ينطفئ .. كذلك المعلومات التي جمعها عن قصص ملاقاتهم و آثارهم التي خلفوها وراءهم تدور في دماغه كزوبعة لا ترحم . أحسّ أنه لا يستطيع أن يبقى السر مكتوماً، أن عليه أن يُخرج ما رآه للنور، ليشارك البشرية باللحظة التي هزّت كيانه. كان مقتنعاً أن الناس سيتلقون قصته بذهول، أن أصوات العلماء ستتعالى لتدرس شهادته، وأن الجدل الأبدي حول وجود الكائنات الفضائية سيُحسم

أخيرًا.

و ذات مساء حسم أمره و عقد العزم على تمرير تجربته لغيره ،
جلس أمام حاسوبه، وفتح صفحته على موقع التواصل الاجتماعي.
أصابه كانت ترتجف، وقلبه يخفق كأنما يستعد لعبور هاوية. كتب
منشورًا مطوّلًا، وصف فيه بدقة كيف اخترق الضوء السماء، كيف
هبط الطبق الطائر، كيف التقى الكائنات التي قدّمت نفسها باسم شعب
باي .. الحوار الذي دار بينهم بالتخاطر الذهني . كان صادقًا إلى
أقصى حدود الصدق، كطفل يعترف بسرٍ عظيم. أرفق كلماته بـرجاء
خفي : (اقرأوني بعين القلب و العقل ، لا بعين الشك و الرفض
المسبق) . ثم ضغط زر النشر، وأسند ظهره إلى الكرسي، شاعرا
أن عبثًا هائلًا قد انزاح.

لكن ما تلا ذلك كان عاصفة هوت به إلى قاع لم يعرفه من قبل.

بدأت التعليقات السلبية تنهال على منشوره ..

كان بعضهم رحيماً، أو متظاهراً بالرحمة، يقول له : (أنت تتوهم
يا نايرا، ربما كنت مرهقًا، ربما حلت) . آخرون لم يرحموه :
(قصة مختلفة لتجذب الأنظار، ألا يكفيك صمتك الطويل حتى
تصطنع بطولة زائفة؟) أما الأغلبية، فقد حكمت عليه بلا شفقة :
(فصام، هلوسات، أوهام ذهانية ... يجب أن تراجع طبيبًا نفسيًا على
الفور قبل أن يتفاقم مرضك .)

قرأ نايرا تلك الكلمات كمن يتلقى طعنات متتالية من خناجر مسمومة
بالشك. لم يكن التعذيب في قسوة الاتهامات فحسب، بل في

مصدرها أيضًا : من أصدقائه، من زملائه في المرصد ، ومن أقرب
المقربين إلى قلبه. كان يتوقع أن يجد فيهم سندًا، فوجد فيهم جدارًا
من إنكار وسخرية. كأن الحقيقة التي حملها بكل نزاهة تحولت بين

أيديهم إلى عبءٍ ثَقِيلٍ يسخرون منه.

انطوى نايرا على نفسه. أغلق هاتفه، وحجب صفحته عن العالم، وأغلق نوافذ بيته الخشبي ليعزل نفسه عن الضجيج الخارجي. أسابيع طويلة قضاها وحيداً، يذوي مثل شجرة فقدت الماء. الاكتئاب العميق أطبق على صدره، وحوّل الليل إلى مقبرة للأفكار. جلس في عتمة غرفته يتذكر كلمات تلك الكائنات : (أنتم لا تأمنون جانب بعضكم، فكيف تأمن جانبكم؟) .. شعر أنهم كانوا على حق، بل على حق أكثر مما كان يتخيل.

تأمل في كلماتهم الأخيرة له قبل رحيلهم : (الحقيقة ليست دائماً خلاصاً، بل قد تكون لعنة). و تذكر نصيحتهم المستلهمة من أساطير الإنكا : (الحقيقة كزهرة أبوردة، عطرة جميلة، لكن من يقطفها ينزف من أشواكها). الآن فهم معناها بعمقٍ جارح؛ لقد قطف تلك الزهرة حين قرر أن يبوح بما رأى، والآن الدماء تسيل من روحه لا من جسده ، من جراح أحدثتها كلمات الآخرين ، كلمات أقسى من أي سلاح.

في ليالي عزلته، كان نايرا يجلس قرب نافذته المغلقة، يحدّق في عتمة الليل الطويل، محاولاً استرجاع ذلك النور الذي غمره عند لقائه بشعب باي. كان يسأل نفسه : (هل كنت واهماً حقاً؟ أم أن الحقيقة أعظم من أن تتحملها العقول المقيّدة بالخوف والإنكار؟) ما عاد يعرف أين يقف، لكنه أيقن أن تجربته تركت فيه ندبة لن تمحى.

هكذا ظل نايرا، رجلاً بين عالمين : عالم البشر الذي رفضه، وعالم من الغيب الذي كشف نفسه له للحظة خاطفة. وفي قلبه ظلّت الحقيقة، مثل أسطورة زهرة أبوردة عند الإنكا : جميلة، عطرة، لكن أشواكها ما تزال تنزف.

أسطورة العالم الآخر لا تختلف عن أسطورة الكائنات الفضائية ، كلاهما يؤكده المنطق و الحسابات الرياضية فلا يعقل لكون يحتوي

70 سيكستليون نجماً (سبعة و أمامها **21** صفراً) و أضعافها من الكواكب أن يقتصر على الحياة البشرية فحسب .. و كلاهما تبصم له الروحانيات و الفلسفة ، فلا يعقل لهذه الحياة المصممة بعبقريّة أن تكون وليدة الصدفة البحتة ، فلا بد من وجود يد نسجتها ، و وجود هذه اليد يفترض وجود حياة أخرى بعد الموت في أجساد أخرى و عالم آخر.. و الأجل أن كلاهما يبقى كأسطورة تتأرجح بين الشك و اليقين .. فلا يمكنك الجزم بصحتها .. و لا أن تقسم بأنها محض خرافة !!

الفصل السابع

روح الويجا

إفريقيا / رواندا

كيغالي ..

2077 م ..

في عمق الليل الإفريقي، حين تعوي الريح في غابة يلقها الغموض وتتعالى الطبول مثل قلب هائج يخفق في العتمة، يجلس العجوز قرب النار ويروي : الروح في ديانة الفودو ليست سرًا واحدًا، بل أبواب كثيرة. يحدثهم أن الروح ليست مجرد ظلّ يغادر الجسد بعد الموت، بل كيان متشعب : روح تحرّك الجسد، وأخرى تعيش بين الأسلاف، وثالثة تسافر في الأحلام، تبحث عن أسرار الغيب.

وحين تبدأ الرقصة، ترى الوجوه وقد انمحي عنها الزمن. الأجساد ترتجف، العيون تغيم، والطبول تزداد إلحاحًا. يقولون إن الروح آنذاك تنفتح، لتسمح للآله أو للجدّ أن يسكنها. في تلك اللحظة يصبح الإنسان جسرًا بين الأرض والسماء، بين الطين والبرق، بين الأجداد و الأحفاد ، كأن جسده مجرد إناء لفيض أزلي.

لكن الروح ليست ملكًا للفرد وحده؛ إنها عهد مع الجماعة. الأجداد لا يغادرون تمامًا، بل يظلون حاضرين في كل خطوة، يباركون، يوبّخون، ويذكّرون. الروح هي ذاكرة القبيلة، دمّ خفيّ يربط الأحياء بالأموات، ويعيد صياغة معنى الانتماء. لهذا، إذا انقطع الإنسان عن أهله أو خان العهد، انكسرت روحه واحتاجت إلى طقس يعيد لها توازنها : قربان، صلاة، أو رقصة تُعيد ترتيب النغم في داخله.

وحين تخفت الطبول أخيرًا ويبتلع الصمت الغابة، يبقى في الهواء

إحساسٌ غريب : كأن الأرواح ما زالت تراقب، وكأن كل نفسٍ يتردد في صدور الحاضرين ليس ملكهم تمامًا، بل عطية من شبكةٍ غير مرئية تحتضنهم. عندها يدرك السامع أن الروح، في نظر الفودو، ليست ما نحمله نحن، بل ما يحملنا نحن جميعًا، في رحلةٍ أبديةٍ لا يعرف لها أحد نهاية.

كانت الشمس تغيب ببطء خلف التلال الخضراء التي تزيّن سهول رواندا كقلادة من زمرد، فيما انحدر المساء على القرية الصغيرة ليكسوها بلمسٍ من الغموض. في تلك الأجواء، اعتاد ثلاثة أصدقاء أن يجتمعوا عشية كل عطلة نهاية أسبوع : موغيشا، طالب جامعي يفيض عشقًا لقارته الأم، يرى في إفريقيا أمًا كبرى وحضنًا دافئًا لا يحق لأبنائها أن يخونوه. ثقافته غير دينية فهو لا يؤمن بالغيبيات على الإطلاق بل كانت أشبه بدرع من نار؛ كلما تحدّث عن ممالك إفريقيا القديمة أو عن موسيقاها وأبطالها، تتوهّج عيناه كجمرٍ تحت الرماد.

إلى جواره يسير كوزيراً، الموظف الرزين في شركة اتصالات. رجلٌ يزن كلماته بميزانٍ داخلي غريب، كأن كل عبارة تمرّ على قاضٍ عادل قبل أن تُنطق. كان أصدقاؤه يصفونه بالحكيم، إذ عرف كيف يوازن بين العمل والأسرة، بين الحياة العملية والروحانية التي ورثها من أسلافه .. و كان متيمًا بالكتب و الثقافة ..

أما الثالث، روتا بينغوا، فكان عالمًا آخر. شاب ترك المدرسة منذ سنوات، ليس لأنه عاجز عن الدراسة، بل لأنه لم يجد نفسه في كتب الرياضيات والتاريخ. كان يراها ضيقة على خياله المتسع في فضاءات الأرواح والجن والأشباح. حدث أن اجتمع به طبيب ذات يوم فلفتت أفكاره الغريبة انتباهه، أخبر عائلته أن روتا ربما كان مصاباً باضطراب الشخصية الفصامانية العاشقة للماورائيات و

الأفكار الجامحة و الخيالية، لكن روتا نفسه لم يُدرك ذلك، بل كان مقتنعاً أنّ عقله نافذةً على عوالم خفية. ومع مرور الوقت لم يبق له بسبب أفكاره الغريبة سوى صديقي الطفولة، موغيشا وكويزيرا، اللذين فهما ضعفه واحتضناه بمحبةٍ لا تخلو من الحذر عندما انفض الجميع من حوله ..

في عطلة نهاية أسبوع دافئة، شدّ موغيشا وكويزيرا الرحال إلى كوخ روتا بينغوا الخشبي المعزول عند أطراف القرية. كان الكوخ محاطاً بأشجارٍ كثيفة، كأنها تحرسه من أعين الغرباء.

طرقا الباب، فسمعا صوت صديقهما من الداخل يضحك ضحكة غريبة :

= لقد جئتما في الوقت المناسب ! عندي الليلة سرّ عظيم.

دخلا الكوخ ذو التصميم العجيب من الداخل و المتخم بأشياء مصنوعة يدوياً و مجسمات لكل ما هو غريب و غامض في الكون ، كان بينغوا جالساً على حصيرٍ قديم، وأمامه لوح غريب مرسوم عليه حروف وأرقام، تتوسطه قطعة خشبية صغيرة على شكل سهم. عيونه كانت مشتتة بنشوة مكتشف وطأ قارة جديدة. قال :

= مفاجأة مدوية لكما اليوم .. تعالا و تعرفا على لوح الويجا مستحضر الجنّ و الأرواح ! اكتشفت أمره في هاتفى الليلة ، فصنعت واحداً بنفسى ، سنخاطب الأرواح، وسنرى إن كان الجن يجرؤون على الظهور لنا.

جلس موغيشا بثقلٍ ظاهر، واضعاً يده على جبينه :

= روتا، ألا يكفيك ما أنت فيه؟ إفريقيا يا صديقي مليئة بأرواح

الأسلاف والطقوس العريقة المزعومة ، لماذا نبحت عن ألعاب
اخترعها غرباء عن القارة ؟

ابتسم روتا بينغوا ابتسامة فيها كثير من السايكوباتية :

= ومن قال إنها لعبة؟ هذا بوابة .. البوابات لا تُفرّق بين الشرق
والغرب، إنها تفتح فقط لمن يجرؤ على العبور.

أما كوزيراً فجلس قريبا بهدوء عميق، كمن يراقب مسرحية لم
تُكتب نهايتها بعد. نظر في اللوح مطولاً، ثم قال :

= وفقا لمعلوماتي ، فلوح الويجا ليس إفريقي الأصل، بل وُلد في
الغرب في القرن التاسع عشر، في الولايات المتحدة على وجه
التحديد . اخترعه رجال أعمال أثناء موجة الاهتمام بالروحانيات
والتواصل مع الموتى. كانوا يبحثون عن وسيلة عملية، فصنعوا لوحًا
تُكتب عليه الحروف والأرقام كلها ، ومعها كلمتا (نعم) و(لا). يجلس
المشاركون حوله، ويضعون أصابعهم على قطعة خشبية صغيرة
تُسمّى المؤشّر . يقوم المجربون بسؤال أولي عادة : **هل هنالك أحد**
آخر معنا في الغرفة ؟ ، فيبدأ المؤشّر يتحرك – بوعي أو بلا وعي
– و ينتقل بين الأحرف و الأرقام لتكوين كلمات ورسائل يُعتقد أنها
صادرة عن الأرواح أو الجن ..

رفع مونغيشا حاجبيه، وقال بلهجة ساخرة :

= إذن الأمر لا يعدو كونه تجارة؟

ردّ كوزيراً بابتسامته الهادئة :

= ربما .. لكنه مع ذلك أثار أسئلة عميقة عند البشر : هل يمكن
للأحياء أن يخاطبوا الموتى؟ وهل ما نسمعه عبر اللوح هو صوت
اللاوعي الجماعي أم صدى لعالم آخر فعلاً؟ ، و الأهم من ذلك ، فقد

ادعى الآلاف حول العالم أن تجربتهم للوح نجحت و تواصلوا مع جن و أرواح ، و لا ندري ربما صنع اللوح لغاية تجارية لكنه بالنهاية منح الماورائيات فرصة و إمكانية كي تعبر عن نفسها !!

كان روتا بينغوا يصغي بكل جوارحه لحوار الصديقين، عيناه تتوهجان كما لو أن الكلمات وقودٌ جديد لأفكاره :

= إذن، الليلة سنعرف .. إن كان لاوعينا أم الأرواح هو من سيتحدث ، فاللوح سيجيب على أسئلتنا ..

جلس الثلاثة حول اللوح، تداخلت أنفاسهم المترقبة بتوتر مع صوت صراخ الليل و وشوشة الريح في الخارج .. وضعوا أصابعهم على المؤشّر، وفي تلك اللحظة شعر موغيشا بوخزة خوفٍ تسري في قلبه، بينما ظل كويزيرا متماسكًا، أما روتا بينغوا فكان وجهه يشرق بانتظار لحظة الكشف.

وهكذا، بين العقل المتزن المحايد والحلم الجامح بالغيبيات والعاطفة الإفريقية المتأججة بالإنكار، بدأ أصدقاء الطفولة رحلتهم نحو الماورائيات، كأنهم يعيدون اكتشاف معنى الروح في قرية صغيرة تحت سماءٍ ملبّدة بالأسرار.. وضعوا أصابعهم على المؤشّر كما أوصت التعليمات، وتبادلوا نظرات مرتعشة. ، ثم نطق روتا بينغوا :

= إن كان هنالك أحد من الجن أو الأرواح معنا في الغرفة فليجب عبر هذا اللوح ..

لحظة الانتظار بدت أطول من العمر ثم بدأ المؤشّر فجأةً يتحرك، ببطء أولاً، ثم بثباتٍ كمن يعرف وجهته.

ارتجف موغيشا :

= هل... هل أنتم من يدفعه؟

هزّ كوزيراً رأسه نافياً، وعيناه لا تفارقان المؤشّر الذي بدأ يتهجّى كلمات : أنا روح، لست جنياً.

ساد الصمت، حتى كاد يُسمع خفقان القلوب. ثم عاد المؤشّر يتحرك : اسمي أريان. طبيب من كالكوّتا. متُّ أمس في حادث سير. دفنوني في قرّيتي قرب شجرة الأراك العريضة على قلبي منذ طفولتي . لكنني لم أمت .. قلبي ينبض بشكل ضعيف و غير مقاس ... أنقذوني ... أخبروا عائلتي ...

انقطع نفس الأصدقاء كأن سكيناً حاداً فصل بينهم وبين يقينهم القديم. الروح واصلت : يجب أن تصلوا إليهم سريعاً. وإلا... لن يطول الوقت قبل أن أختنق و أموت بالفعل .. وداعاً. ثم توقف المؤشّر فجأة، كأن اليد الخفية التي حركته انسحبت من العالم.

جلس الثلاثة مذهولين، يحدّقون في اللوح الصامت كأنهم أمام باب انغلق على سرّ لن يعود.

كان موغيشا أول من تكلم، وصوته يترجّف فقد بدأت قناعاته التشكيكية تنهدد :

= هذا... هذا جنون. نحن هنا في رواندا، واللوح يحدثنا عن شاب في الهند؟ أيمن أن يكون هذا صدقاً؟

كوزيراً ظل صامتاً، لكن نظراته كانت مثقلة بالريبة. عقله الرزين لم يحتمل غرابة ما حدث. شيء في داخله يهمس أن ما جرى ليس إلا خدعة، لعبة أعصاب مريبة. لم يشأ أن يصرّح، لكن عينيه كانتا تتجهان شيئاً فشيئاً نحو صديقهم غريب الأطوار روتا بينغوا.

أما روتا، فقد جلس متقاطع الساقين، وابتسامة مشتعلة ترتسم على وجهه. ثم فجر ضحكة سايكوباثية مخيفة :

= أرأيتم؟ كنت محققاً على الدوام ! الأرواح هنا، الجن هنا، وإذا كانت الروح قد عبرت إلينا من كالكوتا، فماذا يمنع أن يأتي الفضائيون غداً من مجرّات أخرى؟

ارتعش قلب موغيشا من ضحكة صديقه ، شعر أنها أكثر رعباً من الرسالة نفسها. أما كوزيراً فأخذ نفساً عميقاً، محاولاً أن يخفي قلقه خلف جدار العقل، لكن الشك كان يتسلل داخله بلا هوادة : هل حقاً تحرك المؤثر بفعل قوة غامضة؟ أم أن روتا بينغوا، بعقليته الغريبة وضحكته المقلقة، هو من دفعه خفيةً ليحك هذه الحكاية و يثبت صحة أفكاره الثابتة ؟

في تلك اللحظة، صار اللوح ساكناً، لكن ظلاله لم تفارقهم. كان الكوخ كله يضجّ بأسئلة أكبر من قدرتهم على الاحتمال : هل ما جرى نداء حقيقي من روح مدفونة حيّة في أرض بعيدة؟ أم أنه مجرد لعب بعقول أصدقاء جمعهم خيط طفولة، وبدأ اليوم يتفكك تحت وطأة الماوراء؟

انتهت السهرة كما تنتهي الأحلام الثقيلة، بضحكاتٍ متقطّعة يشوبها كثير من القلق المقتنع . خرج موغيشا أولاً، عائداً إلى منزل أسرته، يردد في أعماقه أن ما جرى مجرد أوهام طفلٍ كبير اسمه روتا بينغوا. تبعه كوزيراً، متماسك الظاهر، مهتزّ الباطن، فيما بقي روتا يلوح لهما ضاحكاً ضحكته الغريبة كأن الكوخ نفسه ارتجف معها .. فقد أعلن انتصاره اليوم على الجميع ..

في الطريق إلى البيت، ظل صدى الرسالة يطارد كوزيراً : أنا لم أمت... قلبي ينبض. كانت كلمات اللوح كحجرٍ صغير ألقى في بركة

مستقرّة ، فأثار دوائر لا تهدأ. وعندما أسند رأسه أخيرًا إلى وسادته، لم يعرف النوم طريقًا إلى عينيه. الأسئلة تحاصره : ماذا لو كان روتا هو من حرّك المؤشّر؟ وماذا لو لم يفعل؟ ماذا لو أنّ حياة إنسانٍ ما، في مدينة بعيدة اسمها كالكوتا، معلّقة الآن على قرارٍ يتخذه شاب رواندي في منتصف الليل؟

أغمض عينيه، فترأى له وجهٌ مجهول، كأن الروح التي نطقت عبر اللوح لا تزال تهمس في أذنه. انتفض من فراشه كمن يفرّ من كابوس. جلس أمام حاسوبه، أصابعه ترتجف وهو يكتب في محرك البحث : **طبيب هندي شاب اسمه أريان توفي الأمس في حادث سير .**

لم تمر سوى لحظات حتى انفتحت أمامه شاشة الخبر، خبر وحيد يتيم، لكنه كان كالطوفان الذي جرف كل شكوكه : **حادث سير في ضواحي كالكوتا يودي بحياة الطبيب الشاب أريان شاندرأ.**

تجمّد كويزيرا، ودمأؤه تجري مثل ماء بارد في عروقه. تذكر الكلمات التي هجّأها المؤشّر : **أنا لم أمت... أنقذوني.** رفع يده إلى فمه، كأنه يحاول إسكات صرخة ستفضح ارتجاف قلبه.

في تلك اللحظة لم يعد السؤال : **هل كانت التجربة خدعة؟ بل صار في الحقيقة : ماذا أفعل الآن؟**

اندفع يبحث بعجلة، يطرق أبواب الفضاء الواسع لمواقع التواصل الاجتماعي. كتب الاسم : **أريان شاندرأ.** لم يطل بحثه كثيرًا حتى عثر على صفحة شابٍ أصغر سنًا من كالكوتا يحمل الكنية نفسها. ملامحه تشبه الميت المزعوم، لكن ببراءة أصغر. كان واضحًا أنه أخوه.

كتب له رسالة طويلة، بدأها مترددًا :

(أنا كويزيرا، شاب من رواندا. أعرف أن ما سأقوله سيبدو غريبًا،

وربما جنونًا. لكنني الليلة كنت مع صديقين، وجربنا لوح الويجا الشهير .. وهناك، خاطبتنا روح قالت إنها تعود لأخيك أريان. قالت إنه لم يمِت، وأنه دُفِن حيًّا، قلبه لا يزال ينبض ببطء . أرجوك، لا تهمل هذه الرسالة .. أرجوك افعل شيئًا قبل فوات الأوان.)

أرسلها وهو يكاد لا يصدّق أنه فعل. جلس بعدها يحدّق في الشاشة، يتنفس ببطء، كمن ينتظر حكمًا على مصيره لا على مصير الآخر فقط.

مرت دقائق طويلة كالأبدية. ثم ظهر إشعار : (رسالة مقروءة.)
أجاب الأخ الأصغر بارتباكٍ ظاهر :
(من أنت؟ هل هذا نوع من السخرية؟)

أسرع كوزيراً يكتب :

(على الإطلاق .. ابحث عني إن شئت، ستجدني شابًا عاديًا من رواندا .. لا أعرفكم، لم أزر الهند قط .. لكن ما جرى الليلة جعلني مضطرًا أن أكتب .. لا أريد منكم شيئًا، فقط تأكدوا أن أريان لم يمِت .. لقد قال لنا أنه دفن بجوار شجرة الأراك العريضة على قلبه منذ طفولته)

توقف الأخ عن الرد لحظات. بدا أنه يغوص في صفحة كوزيراً، يتفحص الصور والمنشورات. ثم عاد ليكتب :

(أنت... حقًا من رواندا؟ كيف عرفت قصة شجرة الأراك؟ حتى الصحافة هنا لم تذكر التفاصيل بعد! و لا أحد يعرفها سوى عائلة أريان)

كان صوته في الرسائل يتأرجح بين الأمل و الخوف. لكنه لم يطل الصمت هذه المرة. بعد دقائق قليلة كتب :

(سأوقظ أبي و أخبره لنرى ما سنفعله .. شكراً لاهتمامك و تواصلك)

في الطرف الآخر من العالم، جلس الأب الهندي أمام ابنه و هو يروي القصة كلها، رسالة شاب إفريقي لا يعرفهم يخبرهم بما لم يقله أحد بعد. لكن للدهشة و بدلاً من أن يسخر الأب أو يغضب، انحنى برأسه كأنه يسلم لقدّر انتظره طويلاً. ثم قال بصوتٍ متهدّج :

= أنا لا أستغرب. أريان منذ طفولته كان يلحّ علينا : إذا متّ يوماً، لا تحرقوني كما يفعل الناس هنا، بل ادفنوني قرب شجرة الأراك. لعلّ السماء كانت تهمس له بأنه سيُشخص بالموت خطأ ذات يوم، وأنها ستمنحه فرصة أخرى للحياة. لقد كنا نضحك ونعتبرها هواجس صبي صغير ... لكن قلب الأب لا ينسى.

ارتجف صوت الابن الأصغر :

= إذن... ما الذي نفعله الآن؟

أجاب الأب بعينين دامعتين :

= نذهب .. الآن .. لا وقت للانتظار .. فنحن في معركة مع عدّاد الزمن ..

وبينما كانت الأسرة الهندية تتحرك في عتمة الليل لإنقاذ ابنها من باطن الأرض قبل أن يختنق و يموت بالفعل ، كان كويزيرا جالساً أمام حاسوبه في رواندا، عيناه مثبتتان على الشاشة، وقلبه يتأرجح بين رعبٍ ورجاء. لم يدرِ إن كان قد أنقذ إنساناً حقاً، أم أنه انجرّ وراء خيوط قدرٍ غامض نسجتها الأرواح. لكنه كان متأكداً من شيء واحد : تلك الليلة لم تكن مجرد تجربة غريبة مع لوح خشبي، بل كانت بداية لعلاقة خفية بين قارتين، بين عالمين ، بين الأحياء

والأرواح، بين اليقين والشك، بين الخوف والإيمان ، و بين اليأس و
الرجاء .. و لعل صديقهم روتا بيغوا لم يكن واهماً بالمحصلة !!

كان الليل قد انحنى على القرية الهندية، والهواء يقطر برطوبة خفية
كأن السماء تحبس دموعها. حمل الأب مع أبنائه أدوات بسيطة :
معاول ، مجرفة ومصباح زيت. اتجهوا نحو القبر قرب شجرة
الأراك بخطوات ثقيلة، مشدودة بالتوتر، وكأنهم يسرون على خيط
رفيع بين الوهم واليقين. وصلوا إلى القبر، وفي صدورهم اختلاط
من رهبة ورجاء، كأن كل حفنة تراب سيزيلونها تقربهم من معجزة
أو من جنون أو من انتهاك لحرمة الميت ..

ضربت المعاول الأرض المبتلة، ورائحة الطين الممزوج بالموت
ارتفعت في الهواء. لم ينطق أحد بكلمة؛ كانت أنفاسهم وحدها تصدح
مع وقع الحديد على التراب. بين لحظة وأخرى، كان الأب يرفع
رأسه إلى السماء، يتلو في قلبه دعاءً غامضاً لا صوت له، وكأنه
يناجي القدر أن يصدق نبوءة ابنه الراحل.

حين ظهر الخشب الغامق للتأبوت تحت طبقات التراب، ارتجفت
أيديهم. رفعوا الغطاء ببطء، والقلوب تكاد تخرج من صدورهم. وفي
تلك اللحظة، توقف الزمن لحظة قصيرة، كأن الليل نفسه يترقب ما
سُرى.

كان جسد أريان ممدداً في نعومة صامتة، لكن الغريب أن حرارة
جسده لم تكن موتاً على الإطلاق . حين مدّ الأب يده إلى وجهه،
وجد بشرته دافئة، كأن الحياة لم تفارقه بعد. لم تكن حرارة الوهم،
بل دفء حقيقي، دفء يروي أن ما قاله الغريب الإفريقي عبر رسالة
الإنترنت لم يكن خيالاً. !!

شهق الأخ الأصغر، وارتعشت ركبتاه :

= أبي... أتشعر بما أشعر؟

أطرق الأب بعينين دامعتين، ثم قال بنبرة تكسوها حكمة سنين من
الخبرة و الإيمان :

= قلبه ينبض لكن بشكل بطيء و ضعيف بالكاد يبقيه حياً، يحتاج
إلى صدمة حسية توقظه. أسلافنا كانوا يقولون : الروح العالقة لا
تعود إلا إذا أحرقت بجمرة الألم.

أخذ معولاً صغيراً حديدياً من حقيبته القديمة، وضعه في لهب
المصباح حتى احمرّ كالجمرة. اقترب من يد أريان المرتخية، وأبناؤه
يحدّقون في المشهد بأنفاس محبوسة، بين خوفٍ من قتل من يحبونه
وبين أملٍ لا يُحتمل وزنه. ثم وضع المعول على جلده.

صرخة مدوية شقّت الليل. جسد أريان انتفض كمن يُنتزع من قاع
بحرٍ مظلم، عيناه انفتحتا فجأة، وصوته تمزّق من أعماقه :

= آآآآ آه !!

انهار الأب والأخوة حوله، دموعهم انهمرت كأمطار موسمية،
والصدمة تحوّلت إلى فرحٍ هستيري.

في المقبرة التي كانت قبل قليل وادي موت، ارتفعت أصوات
الأهازيج الشعبية والصلوات الدينية، كأن العائلة تحتفل بقيامةٍ
صغيرة. عانقوه واحداً تلو الآخر، وهم يرددون كلمات الشكر
والامتنان، لا يدرون إن كانوا يخاطبون الله، أم السماء، أم الغريب
البعيد الذي أرسل رسالة في مناسبة غامضة و توقيت حرج.

وفي مكان آخر من القرية، عندما وصل الخبر إلى إيشا، خطيبة

أريان، سقطت مغشيًا عليها من هول المفاجأة. حين أفاقت، كان جسدها يهتز من البكاء، دموعها تسيل بغزارة كأنها تحاول غسل الفاصل القصير بين الموت والحياة. لم تتمالك نفسها، ركضت إلى بيت عائلته، وهناك احتضنته وهي تبكي بلا توقف، تردد اسمه كأنها تستعيده من براثن الغياب : أريان... أريان...

أما أريان نفسه، فكان يهز رأسه بدهشة. عيناه الزائغتان تومضان بغرابة، كأنه لا يزال عالقًا بين عالمين .. احتضنهم جميعًا بذراعيين مرتجفتين، وقلبه المشوش يحاول استيعاب الفارق بين الرؤيا التي عاشها في مقصورة زجاجية في عالم آخر منذ قليل وبين هذا الطوفان من الأحضان والأهازيج. لقد عاد إلى الحياة، لكن بذهن لا يزال يترنح على حافة الغيب، بينما العائلة تحتفل بمعجزة ستظل حكاية يتوارثها الأبناء جيلًا بعد جيل.

في الأيام التي تلت عودته من القبر، كان أريان يعيش ازدواجًا مربكًا بين جسده الحي وروحه المرتجفة. كل من حوله يغمرونه بالحب، يباركونه ويغنون لمعجزته، لكنه حين يختلي بنفسه، يغرق في بحر من الأسئلة التي لا تهدأ. لقد عاش تجربة حسية بأدق تفاصيلها : المقصورة الزجاجية، البياض الجليدي الممتد بلا حدود، السكون المهيّب الذي يشبه الأبدية، والإحساس الغريب بأنه معلق بين قرارين : البقاء أو الرحيل. كل ذلك ما زال مطبوعًا في ذاكرته بوضوح أشد من وضوح حلم عابر. ومع ذلك، أين الدليل؟ لا أثر في جسده يدل على تلك المقصورة، لا شاهد خارجي يؤكد أنه كان فعلاً على أعتاب عالم آخر .. لقد عاد من هنالك أعزلاً بلا أي دليل يتسلح به للإقناع نفسه أولاً ثم إقناع من حوله تالياً .. لذا فقد تردد كثيراً قبل أن يخبر أي شخص مهما كان قريباً منه بتجربته الغريبة في العالم الآخر ..

أحياناً كان يفيق ليلاً، يضع يده على قلبه كمن يريد أن يتأكد أن النبض هنا لا هناك. يسأل نفسه : أكانت تلك مجرد هلوسة دماغ يختنق بالأكسجين؟ أم أنها حقيقة وهبته السماء فرصة أن يتذوقها ليعرف معنى العودة؟

كلما تذكر الصرخة التي أطلقها حين حرق المعول يده، ازدادت حيرته : لو كان حقاً في عالم آخر إذن فقد كان ميتاً بالفعل، فمن أين جاء ذلك الشعور المزدوج، شعور الميت الذي يطل من وراء زجاج، والحي الذي يعود إلى صخب الحياة؟

ظل أريان يتأرجح بين الإيمان والشك، بين نور التجربة وغموض العقل. وكأن حياته الجديدة لم تُعد إليه ليعيشها بسلام، بل ليظل يبحث عن يقينٍ مفقود، يقين لا يبرهن عليه دليل ملموس، لكنه يسكن في أعماق أعمق القلب.

حالة أريان ليست يتيمة و لا جديدة على فلسفة الحياة ، فالتاريخ يحب أن يختبر هشاشة اليقين البشري باستمرار، إذ يروي بين صفحاته قصصاً كثيرة تشبه الكوابيس : بشر حُكم عليهم بالموت قبل أوانه، فدفنوا أحياء، ثم عادوا ليشهدوا بأن الحياة لا تُقاس دائماً بما تراه العيون أو تسمعه السماعات الطبية.

في القرن السابع عشر، في أوروبا، كانت أخبار الموتى العائدين من قبورهم تُكتب على هوامش الصحف، عن رجال ونساء ظنّ الأطباء أن قلوبهم توقفت، فإذا بهم يستيقظون في ظلام التوابيت، يصرخون ويخدشون الخشب بأظافرهم. بل إن بعض القبور التي فُتحت لاحقاً كُشف فيها عن أجساد مشوهة وصدور منتلثة، دليلاً على صراع أخير ضد الدفن الحي.

وتحكي كتب الطب الشرعي عن مارغريت ديلاكروا في فرنسا، التي أفاقت وهي في كفنها قبل أن توارى الثرى بدقائق، وسط ذهول المشيعين.

وفي القرن التاسع عشر، في أمريكا، وُثِّقَت حالات عدة جعلت المجتمعات تبتكر توابيت أمان مزودة بأجراسٍ صغيرة؛ فإذا استيقظ الميت المزعوم، شدَّ الحبل فيرن الجرس فوق الأرض ليعلم الأحياء أنه لم يرحل بعد.

حتى في العصر الحديث و مع بلوغ الطب درجة متطورة من الكفاءة ، تم توثيق حالات كثيرة و في بلدان متقدمة تم تشخيصها بالموت وفق البروتوكولات المعترف بها عالمياً ، لكنها عادت للحياة على نحوٍ غير مفسّر ..

هذه الحكايات، وإن حملت قسوة مخيفة، تحمل أيضاً لغزاً ساحراً : أن الموت قد لا يكون دائماً النقطة الأخيرة، بل أحياناً خطأ غامضاً يتأرجح بين خطأ الطب و قدر السماء. هي شهاداتٌ تحفر في وجدان الإنسان فكرة واحدة مزلزلة : أننا نعيش على خيطٍ رفيع، وأن الحياة قد تظل تتشبث بنا حتى ونحن على حافة التراب .. بل ربما – كما حدث مع أريان – تمنحنا فرصة العيش على حافة بين عالمين ..

نحن كبشر عاديّين ننغمس في الواقع الملموس حتى الثمالة لدرجة تجعلنا نتعامى عن الغيبيات غير المحسوسة من حولنا.. لكن هذا لا ينفي على الإطلاق وجودها .. و لعلها بين حين و آخر بحاجة لعقل متأجج منفلت من عقاله سواء بشكل طبيعي أو حتى مرضي كعقل صديقنا روتا بينغوا كي يلقي الضوء عليها من جديد ، فيذكرنا بالحقيقة المغيبة : كما أنّ الكائنات الدقيقة موجودة في كل مكان من حولنا دون أن نراها ، فلعل كائنات أكبر بكثير موجودة أيضاً في عالمنا أو ربما في عالم آخر و لا نراها بآليات نجهلها .. فالبصر ليس قاضياً عادلاً على الدوام ، و السراب الذي يخون عيوننا أكبر دليل على اختلال ميزان البصر في مناسبات كثيرة ..

بعض أسرار الحياة بحاجة للمسمة سريالية حاملة كي تتجلى أمامنا بوضوح .. قد تكون عبر طقس فودو ، أو ربما لوح ويجا ، أو جلسة

استحضار أرواح .. ربما كل هذه الوسائل و غيرها لا تختلف عن
حجر رشيد الذي اكتشفه الملازم الفرنسي بيير فرانسوا بوشار و
ترجمه العالم الفرنسي جان فرانسوا شامبليون ففتح لنا بوابة فهم اللغة
الهيروغليفية المصرية الغامضة .. لعل كل ذلك مجرد بوابات أخرى
مماثلة لفهم عالم الماورائيات و الغيبيات التي نجهلها حتى هذا اليوم
.. لذا الأجدر بنا أن نقول :

(هذا ممكن .. لا أدري بالضبط)

بدلاً من القول :

(هذه خرافة .. و أنا أجزم بذلك)

الفصل الثامن

متى تفرع الأجراسي ؟

2077 م ..

بعد ليالٍ طويلة من الأرق والشكوك، جلس أريان في غرفته كمن يحاكم نفسه أمام مرآة لا تكذب. لقد قلب التجربة في رأسه مئات المرات، فلم يجد دليلاً واحداً ملموساً على ما عاشه في المقصورة الزجاجية. لا أثر، لا شاهد، لا بصمة سوى ذاكرة تتوهج في أعماقه. لكن خيطاً واحداً ظل يلمع مثل نجم بعيد: ذلك الصوت الأنثوي الذي همس له باسم غريب : **حي بن يقظان**. وكيف لمح إليه بأن هذه الحكاية القديمة تحمل مفتاحاً لفهم ما جرى مع صاحبة الصوت.

ثم عاد إلى العبارة الثانية التي ما زالت ترن في عقله : **النسبة الذهبية ستدلك على زمن النهاية**. فكرة مبهمة، لكنها أشبه بشيفرة تركتها له السماء. كيف يمكن لعلاقة رياضية بين خطوط وأشكال أن تخبره متى ينتهي العالم؟ السؤال كان كاللهيب، يوجب قلقه لكنه أيضاً قد ينير الطريق له ...

هناك، عند منتصف الليل، شد أريان قبضته كمن يبرم عهداً مع نفسه : إن لم يكن في التجربة دليل خارجي، فسأتبع الخيط الوحيد الذي تركته الروح لي. سأقرأ، أبحث، أفتش عن حي بن يقظان، وعن أسرار النسبة الذهبية... حتى أصل إلى آخر هذا الطريق، مهما كانت نهايته.

فتح حاسوبه و بدأ يجمع معلومات عن تلك الأسطورة فكانت نتيجة بحثه عبارة عن قصة غريبة و مثيرة للخيال و الأسئلة لأبعد الحدود ، بدأ القراءة بحماسة و ترقب : (تبدأ أسطورة حي بن يقظان في جزيرة معزولة، حيث نشأ هذا الطفل وحيداً، بلا معلم، بلا أهل، سوى الطبيعة نفسها التي كانت تربيته بصمتها المتناغم. كان صدى الأمواج وحفيف الأشجار، وغناء الطيور، معلمه الأول، وكانت كل

لحظة في عزلة الجزيرة درسًا في الحياة والوجود. هذه القصة لم تكن مجرد حكاية أطفال أو أسطورة شفوية، بل رحلة فلسفية عميقة، تساءل فيها الإنسان عن طبيعته، عن علاقته بالكون، وبالموجود الأعلى الذي يرشده.

وقد شارك في صياغتها وإعادة بنائها عدد من أعظم الفلاسفة والأدباء العرب والمسلمين. يقول المؤرخون إن الفيلسوف ابن سينا كتب أول نسخة من قصة حي بن يقظان أثناء سجنه، حيث كانت التجربة الفردية والقسرية للسجن منطلقًا للتأمل في النفس والوجود، في محاولة لتعليم الإنسان نفسه بنفسه. لم تتوقف القصة عند هذا الحد؛ إذ أعادها الشيخ شهاب الدين السهروردي، فمزج بين الحكمة الفلسفية والتأمل الروحي، ليضيف بعدًا صوفيًا للأحداث.

ثم جاء الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل، الذي أعاد بناء الرواية بأسلوب أدبي غني، وأعطاه عمقها الشهير، فالتصقت القصة باسمه حتى يومنا هذا. وبعده، أضاف ابن النفيس لمسته الخاصة، محافظة على روح البحث عن المعرفة والوجود، وموسعًا في التأملات الفلسفية حول الإنسان وعلاقته بالموجود الأعلى.

كان لهذه الرواية أثر بعيد المدى على الفكر العالمي. فقد ألهمت الفيلسوف الإنجليزي جون لوك الذي كتب كتابه الشهير عن العقل كصفحة بيضاء، خالية من القواعد والمعوقات الموروثة، مستلهمًا من فكرة حي بن يقظان عن الإنسان الذي يعلم نفسه بنفسه. هذه الفكرة الثورية أثرت بدورها في أجيال لاحقة من الفلاسفة، الذين رأوا في تجربة حي بن يقظان نموذجًا للحياة العقلية المستقلة، للحرية الفكرية التي تتخطى القيود الاجتماعية والدينية.

وعلاوة على ذلك، أثرت الرواية على الأدب العالمي، فكانت أساسًا لعدد من الأعمال الأدبية والفكرية. يمكن ملاحظة صدى أحداثها وفكرها في كتاب (عقيدة القس من جبل السافوا) للفيلسوف الفرنسي

جان جاك روسو، الذي ناقش طبيعة الإنسان وحريته في مواجهة المجتمع. كما تبرز أصداء الرواية في كتاب (روبنسون كروزو) لدانييل ديفو، حيث يجد البطل نفسه وحيداً على جزيرة نائية، مضطراً للاعتماد على ذاته وفهم الطبيعة حوله. وحتى قصص مثل ماوكلي فتى الأدغال وطرزان ..

التي تتناول سلوك الإنسان عند العيش في عزلة، يمكن اعتبارها امتداداً أدبياً للفكرة الجوهرية التي حملتها قصة حي بن يقظان : الإنسان يعلم نفسه ويصقل طبيعته وفكره عبر التجربة والمواجهة المباشرة مع العالم.

ما يجعل حي بن يقظان أكثر من مجرد قصة فلسفية هو تعمقه في تصور الإنسان ككائن قادر على التعلم والاكتشاف دون تعليم مباشر. الطفل الذي نما وحيداً على الجزيرة، استطاع أن يتجاوز قيود المجتمع، ويمتلك وعياً متكاملًا بطبيعة الأشياء، وبخالقها، وبالكون الذي يحيا فيه. كل مرحلة من مراحل حياته كانت تجربة فلسفية قائمة بذاتها : من إدراكه الجسدي والحميمي للحياة عبر الرعاية التي تلقاها من الطبيعة، إلى اكتشافه للمعرفة والعقلانية، ثم الاستنتاجات الروحية التي أدركها عن النفس والموجد الأعلى.

إن تأثير هذه الرواية يتجاوز الحدود الجغرافية والزمنية. فهي ليست مجرد قصة عن البقاء في عزلة، بل هي مرآة للفكر البشري، وعظة عن ضرورة التعليم الذاتي، وعن البحث المستمر عن الحقيقة. ومن خلالها، يرى القارئ كيف يمكن للعزلة أن تصبح حاضنة للوعي والفهم، وكيف أن التجربة المباشرة، حتى في أقصى درجات الغربة والانعزال، قد تقود الإنسان إلى معرفة ذاته وربطها بالكون العظيم.

وبين صفحات هذه الرواية، يجد القارئ نفسه أمام تساؤلات وجودية لا تزال حية حتى اليوم : ما هو الإنسان؟ ما هي طبيعته؟ وكيف

يمكنه أن يفهم الكون والموجد الأعلى دون أن يُملأ ذهنه بقيود مسبقة؟ وهكذا، تبقى قصة حي بن يقظان مرجعًا خالداً للفكر والفلسفة، نهراً هادراً يربط بين الشرق والغرب، بين الماضي والحاضر، بين الخيال والواقع، وبين الفرد والكون. (

تابع أريان القراءة بشغف فانتقل إلى مضمون الرواية :

(إن ولادة حي بن يقظان تبقى لغزاً عميقاً، يتردد صداه في أساطير العصور القديمة، فهو لا يشبه ولادة أي إنسان عرفه التاريخ. بعض الروايات تقول إنه وُلد لأبوين بشريين تركاه على جزيرة الواق واق، بينما تقول أخرى إنه تشكّل من التراب بذاته، كطفل خلقه الكون من صمت الأرض ونفحة السماء، وهذه الرواية تحديداً هي التي لاقت قبولاً شعبياً كبيراً .

وفي صباح الجزيرة الأول، حين كان النسيم يلعب بأوراق الأشجار، سمع حي بن يقظان صوت بكاء خافت. كانت ظبية تبحث عن ابنها الضائع، وفجأة تعثرت في ذلك الطفل الوليد، فأرضعته، حضنته، ودفنته بعينيها الحانيتين في حضنها كأنها الأم الحقيقية. كان هذا اللقاء الأول بين الحياة والوعي، بين البراءة والطبيعة، وقد شكّل المرحلة الأولى من رحلة حي بن يقظان الطويلة نحو المعرفة والفهم.

كبر حي محاطاً برعاية الظبية، يتعلم من حركاتها، من صمتها ومن غرابة أصوات الغابة. كانت كل لحظة تجربة حسية، وكل يوم درساً في الحياة، حتى بلغ سن السابعة، حيث تنتهي المرحلة الأولى، مرحلة الحضانة الأولى، ويبدأ الطفل المدهش في مواجهة الحقيقة الأشد قسوة : وفاة الظبية الأم التي ربّته.

حين ماتت الظبية، جلس حي أمام جسدها، يفتح فمه في صمتٍ محموم، ثم شرّح الجسد بعينيهِ الفضولية، باحثاً عن سر الحياة والموت. كانت هذه المرحلة الثانية من حياته، مرحلة الاكتشاف

عبر الحواس والتجربة المباشرة. تعلّم أن المعرفة لا تأتي من الكتب ولا من الأقوال، بل من لمس الأشياء وفهمها بنفسه، من مراقبة النسيج الدقيق للحياة والموت، ومن سؤال كل جزء من الكائن عن جوهره.

ثم جاءت المرحلة الثالثة، اكتشاف النار. لم تكن مجرد شعلة، بل كانت رمزاً للسيطرة على الطبيعة، للوعي الذي يضيء الظلام الداخلي والخارجي. جلس حي لساعات يتأمل اللهب، يراقب كيف يرتفع، كيف يذوب ويشتعل، وكيف يمكن للحرارة والضوء أن يغيّرا كل شيء حوله. كان أول درس حقيقي عن القوة والمعرفة، عن القدرة على التأثير في العالم المادي.

المرحلة الرابعة حملت معه دراسة جميع الأجسام المحيطة به، من حبات الرمل إلى الطيور التي تحلق في السماء، من الصخور إلى الماء. فهم الوحدة والكثرة، تشابه المادة واختلاف الصور، واستوعب أن الكائنات ليست مجرد أشكال بل حكايات من روح ووجود. حينها جاءه أول شعور بالوحدة مع الكون، وشعور بالمسؤولية تجاه الفهم الذي اكتسبه وحده.

وفي أيامه التالية، جاء رجل من جزيرة مجاورة اسمه أبسال، ليبدأ معه سلسلة نقاشات حول الطبيعة والأخلاق والله. صُدم أبسال حين اكتشف أن حي بن يقظان قد تعلم كل شيء بدون معلم، مجرد مراقبة وتجربة وتأمل. حاول حي نقل فهمه العقلاني للأشياء إلى أهل جزيرة أبسال، لكنه واجه الإحباط، إذ أدرك أن معظم البشر تحركهم الأنانية والجشع والعواطف، وأن العقل والضمير قليلاً ما يُستجاب لهما. عاد حي إلى جزيرته، وأصبح أبسال تلميذه المخلص، يرافقه في رحلته الفكرية والروحية.

ثم جاءته المرحلة الخامسة، اكتشاف الفضاء. لم يعد يكتفي برصد

النجوم، بل بدأ يفهم عمر الكون، نشأته، وآلياته الدقيقة. أدرك أن الكون أقدم من الخيال، وأن حياته الصغيرة مجرد غبار في صرح الزمن اللامتناهي.

وعند بلوغه الخامسة والثلاثين، بدأ المرحلة السادسة، مرحلة الاستنتاج بعد التفكير العميق، حيث توصل إلى أن النفس منفصلة عن الجسد، وأن الروح ترقى إلى **الموجد الأعلى الواجب الوجود**، وأن معرفته لا تكتمل إلا بتفهم هذا الرابط الأبدي بين الكائن وخالقه.

أما المرحلة السابعة، فكانت قمة سعيه: أن يجد سعادته في ديمومة المشاهدة لهذا **الموجد الواجب الوجود**. فهم أن الحياة

ليست مجرد بقاء، بل إدراك مستمر، تأمل دائم، امتنان متواصل لكل لحظة يمنحها الخالق. كل تفاصيل وجوده، كل شعاع نور، كل نسمة هواء، أصبحت جزءاً من هذا الفهم، من هذا الانصهار بين المخلوق والموجد.

وهكذا، أصبح حي بن يقظان أكثر من أسطورة، صار نموذجاً لحياة يقظة ومستنيرة، لحياة تعيش البحث عن الحقيقة في كل لحظة، وتفهم أن السعادة الحقيقية ليست في المال أو الشهرة، بل في إدراك الكون ووعي النفس وعلاقة الإنسان بالموجد الذي رسم له هذا الطريق. وكأن السماء نفسها، صممت له خيوط حياته على أساس هذه الحكمة، لتبقى أسطوره صدى خالداً بين العقول والقلوب، بين الزمان والمكان، بين الموت والحياة. (

أنهى أريان القراءة ، و هنا بدأ الضباب يتبدد حول عقله .. رأى الحقيقة تسطع كالشمس في سماء الكونين الأكبر و الأصغر .. رأى الكون الأكبر ينفجر قبل الوجود بانفجار عظيم .. هو الانفجار الحقيقي .. ثم يتشكل الكون الأكبر ، يتوسع ، تتشكل المجرات و النجوم و الكواكب .. و على أحد هذه الكواكب نشأ حي بن يقظان .. أو بالأحرى أسطورة أخرى ضمنت حياتها في أسطوره .. ذاك

الصوت الأنثوي الذي حاوره .. شجرة السماء .. الزيتوننة اللاشرقية
و اللاغربية .. رآها تمر بتلك المراحل السبعة التي مر بها حي بن
يقظان عبر سلسلة من ملايين السنين لا معنى لها بغياب الزمن وقتئذٍ

ترأى أمام أعين أريان عبارات شفافه في الهواء تشرح له ما جرى
وفق تسلسل زمني للأحداث :

في البدء كان الانفجار ..

ثم كانت الكيمياء ..

ثم تنفست الكيمياء فكانت الخلية ..

ثم تطورت الخلية فأصبحت كائناً ..

ثم تطور العقل فوجد الوعي و ولدت المشاعر و الزمن ..

ثم تطور العقل اكثر فبدأ يكتشف الكون ..

ثم تطور العقل اكثر فأكثر حتى اكتشف كامل الكون

و روضه كحصان بري ..

ثم استدار الكون كفاتم ذهبي يزين إصبعها ..

و اليوم نحن نمشي على خطاها ..

من هو ذلك الكون الأكبر الذي خلق شجرة السماء .. إنه الله .. الأول
منذ الأزل بلا بداية .. الآخر إلى الأبد بلا نهاية .. الموجد الواجب
الوجود الذي وصلت إليه شجرة السماء في نهاية رحلتها الملحمية
كفراشة خرجت من شرنقته ..

ارتجف جسده .. لكن الوقت لم يكن ليسعفه كي يعيش اللحظة حتى النهاية ، فما يزال أمامه عمل كثير .. انتقل مباشرةً إلى النسبة الذهبية فهي ستفتح له باب النهاية كما وعدته شجرة السماء ..

أخذ يجمع المعلومات عن النسبة فوجدها عبارة عن ثابت رياضي قيمته تقريباً **1.618** نحصل عليه بتقسيم قطعة مستقيمة إلى قسمين **A** و **B** بحيث تكون نسبة الطول الكلي **A + B** إلى القطعة الأطول **A**، مساوياً لنسبة طول القطعة الأطول **A** إلى القطعة الأقصر **B**

و عادةً ما يتم تجسيد هذه النسبة المقدسة بطريقتين شهيرتين :
المستطيل الذهبي : الذي يقسم إلى مربع مع مستطيل ذهبي آخر الذي يقسم بدوره إلى مربع آخر مع مستطيل ذهبي جديد و هكذا بحيث تكون النسبة بين هذه الأشكال الهندسية المتتالية هي فاي ..
أو **متوالية فيبوناتشي الرياضية** : هي عبارة عن سلسلة من تتابع أرقام مرتبة بحيث كل رقم يكون نتيجة جمع الرقمين السابقين (**0** ، **1** ، **2** ، **3** ، **5** ، **8** ، **13** ، **21** ...) ..

و قد وضعها عالم الرياضيات الإيطالي ليوناردو فيبوناتشي في القرن **13** و هو نفس العالم الذي أدخل الأرقام العربية إلى الثقافة اللاتينية و ما تزال مستخدمة في الغرب حتى اليوم و تعرف خطأ بأنها الأرقام الأجنبية أما الأرقام العربية الحالية فهي هندية ، أما الغريب في هذه المتوالية أن قسمة كل رقم فيها على الرقم الذي يسبقه هو النسبة فاي دائماً فمثلاً **8** تقسيم **5** يساوي **1.618** وهكذا ..

و قرأ أريان أيضاً أن النسبة فاي تحكم كل شيء في هذا الكون حرفياً ، بدءاً من الذرة و انتهاءً بالمجرة .. منها ما تمكّن البشر من كشفه

لكن ما خفي كان أعظم ، فنجدها في علوم الذرات و الجزيئات ، حيث تبين أنّ النسبة فاي تلعب دوراً محورياً فيها ..

كما تحكم تلك النسبة الظواهر الطبيعية أيضاً كالأعاصير مثلاً ..
و نجدها في تشريح الجسد البشري ، في نسب أطوال أجزاء الجسد لبعضها البعض ، و في تركيب صيوان الأذن أو قوقعتها ، و في تركيب الجمجمة و الأسنان و الرحم و العين ، كذلك في بنية الصبغيات و **DNA** الخلايا و غيرها ..

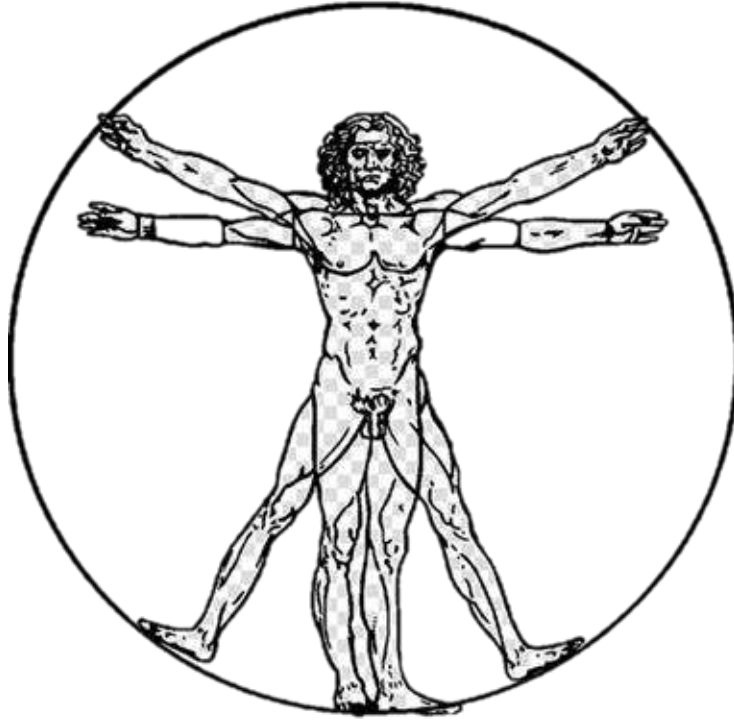
و أيضاً في عالم الحيوان ، نجد النسبة فاي في تركيب قوقعة الحلزون أو كائن نوتيلوس أو نجمة البحر أو النمل أو بيوت النحل أو الفراشات ... إلخ

و في عالم النبات ، فنجد أنّ عدد بتلات الأزهار تتبع أرقام متوالية فيبوناتشي حصراً ، كذلك حال تراتب بذور زهرة عبّاد الشمس ، و بنية أكواز الصنوبر ، و تفرع غصون الأشجار و عدد أوراقها .. إلخ..

حتى كثير من الهياكل الأثرية و المعمارية بنيت اعتماداً على هذه النسبة كحال أهرامات الجيزة في مصر و أبي الهول ، و جامع عقبة بن نافع أقدم جامع في مدينة القيروان ، و المعابد الإغريقية القديمة كحال معبد البارثينون القابع على قمة هضبة الأكروبوليس في العاصمة اليونانية أثينا ..

بل إن كثيراً من الأعمال الفنية الخالدة صممت على أساسها ، فنجد النسبة فاي في لوحة الموناليزا الشهيرة للفنان ليوناردو دافنشي و في أيقونة الرجل الفيتروني الشهيرة له أيضاً .. كذلك الحال في سمفونية بيتهوفن الشهيرة الخالدة .. حيث لحّنت على أساس هذه النسبة بطريقة

ساحرة تأسر القلوب و تسحر العقول .. لتصبح أشهر سمفونية في التاريخ ..



و عندما نبلغ الفضاء الكوني نجد بيئة المجرات تتبع بحد ذاتها هذه النسبة بدقة غريبة ..

أحس أريان بشعور هائل من الرهبة يخيم على قلبه .. إن الكون برمته مصمم بالفعل وفق هذه النسبة .. إنها نسبة ذهبية بالفعل و إلهية بما لا يدع مجالاً للشك .. لكن ما علاقتها بتحديد نهاية الحياة البشرية.. تذكر كلام شجرة السماء ، لقد أوصته أن يضع ميلاد السيد المسيح كحدث فاصل في الحياة بين ما قبله و ما بعده كما هو عليه بالفعل (قبل الميلاد و بعد الميلاد) لكن ما معنى ذاك ؟

فجأً خطرت بباله فكرة غريبة فسرت كل شيء على نحو مثالي .. ماذا لو أن فترة الحياة البشرية على الأرض كزمن هي قطعة مستقيمة تبدأ مع آدم و حواء وبداية البشر و تنتهي بقيام الساعة ، ثم وضعنا ميلاد المسيح كنقطة ثابتة عليها ، عندها ستصبح عبارة عن قطعتين طويلة و قصيرة ، فإن كانت هذه النقطة تحقق النسبة الذهبية كما قرأ

من قبل ، عندها سيحدد موعد نهاية الحياة البشرية بدقة .. هذا .. هذا
مذهل !!



لكن أولاً عليه أن يحدد قيمة الفترة الزمنية منذ بدء الحياة بآدم و
حواء حتى ميلاد المسيح كي يتمكن من تحديد النهاية لاحقاً .. فكيف
يمكنه فعل ذلك ؟

لجأ إلى حاسوبه مجدداً و بحث عن قيمة تلك الفترة و سرعان ما
عثر على مبتغاه .. عبر تسلسل أشر الزمني الذي وضع في القرن
17 عبر قراءة دقيقة و مدروسة للعهد القديم عند اليهود و أعمار
الأنبياء فيه من قبل **جيمس أشر**، رئيس أساقفة أرماغ و رئيس أساقفة
كل أيرلندا .. حيث توصل أشر إلى أن الفترة الزمنية بين آدم و يسوع
بناءً على تلك الأعمار هو تقريباً **4000** سنة أرضية ..

الآن يمكننا افتراض أن المدة الزمنية بين آدم و قيام الساعة هو كقطعة
مستقيمة تقيس **X** و بما أن ميلاد السيد المسيح هام كما أخبرته
شجرة السماء لأنه يأتي في نقطة من هذه القطعة تحقق النسبة الذهبية
فأي ، فيمكننا بحسبة بسيطة أن نستنتج أن عدد السنوات من ميلاد
السيد المسيح إلى قيام الساعة يحسب عن طريق تحديد قيمة **X**
بالطريقة التالية **1.618 × 4000 = X = 6472** سنة
(لأن نسبة طول القطعة الكلية **X** و هو عمر الحياة البشرية على
طول القطعة الكبرى منها و هو الفترة من آدم إلى السيد المسيح أي
4000 سنة يساوي النسبة الذهبية فاي **1.618** كما افترضنا ..
و بالتالي يكون تاريخ قيام الساعة المقدّر هو :

6472 – 4000 = 2472 من ميلاد السيد المسيح ، أي أنه تقريباً بعد قرنين و نصف من الزمن من الآن ..

تسمر أريان في مكانه للحظات ، هل هذا معقول !!؟ و فجأة تذكر صديقه الهندي المسلم **عبد العليم** ، لقد ذكر له حادثة إسلامية شهيرة عن نبيهم محمد رفع فيها إصبعين متجاورين في يده و قال : **أنا و الساعة كهاتين ..** أي أن بعثته كنبي ليست ببعيدة عن قيام الساعة ، عندما تقرر الأجراس فتوقظ الأجساد السماوية دفعة واحدة .. و كي يتأكد أكثر بحث في حاسوبه مجدداً عن فترة الحياة البشرية وفق العقيدة الإسلامية فوجد حديثاً آخر لنبيهم محمد يقول : **الدنيا جمعة من جمع الآخرة حوالي سبعة آلاف عام ..** و هذا ينسجم بدقة لا متناهية مع حساباته التي أجراها باستخدام الرياضيات و النسبة الذهبية الإلهية فاي ..

يا إلهي هل النهاية قريبة إلى هذه الدرجة ..!!؟

وضع أريان رأسه بين كفيه و غاص في التفكير .. لقد تأكد الآن أن تجربته في العالم الآخر كانت حقيقية .. فوصايا شجرة السماء أوصلته إلى نتائج مؤكدة مثيرة و غاية في الأهمية .. و هذ يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن تجربته تلك لم تكن موتاً وشيكاً و لا أحلاماً عبثية و لا ذهاناً نفسياً عقب الحادث أثر على تفكيره اللاواعي ..

لكن ... ماذا الآن ؟

هل يحتفظ بتجربته لنفسه ؟ أم يشاركها مع الآخرين ؟

الفصل التاسع

حقيقة ، ظم ، أم

مريض نفسي ؟

2077 م ..

شعر أريان بعد تفكير مطول ، وقد عاد من تخوم الغيب، أنّ الصمت خيانة، وأنّ ما انكشف له لم يكن هبةً تخصه وحده، بل رسالةً من السماء، وواجبٌ عليه أن يُبلّغها .. كان يسأل نفسه كل مساء : لم اختارته شجرة السماء دوناً عن سواه لتزيح عنه الحجب؟ ولم كُشف له سرّ العالم الآخر فيما غيره غارق في جهلٍ و ظلام ؟ لم يجد تفسيراً إلا أنه سفيرٌ صغير من نورٍ أكبر، وأنّ الحقائق لا تُستحقّ إلا إذا أُعلنت للآخرين.

جمع عائلته في دارهم الريفية المتواضعة، وأجلس والده على صدر المجلس و إلى جواره زوجته، و بمحاذاتهم أخوته الستة، و من حولهم عائلته الكبرى ، فيما جلست إيشا قريبة منه كعادتها، تتأمل وجهه بطمأنينةٍ لا تخلو من قلق. تنفّس عميقاً، ثم بدأ يروي. لم يتكلّم كطبيبٍ يسرد وقائع، بل كأنسانٍ عاين الغيب بعينه. حكى لهم عن تلك المقصورة الزجاجية الكروية، عن سريرها الغريب، عن الجسد السماوي الذي استيقظ فيه، وعن الجهاز الكروي الذي دوّت منه كلمات الصوت الأنثوي. روى عن العالم الآخر، عن العوالم الافتراضية التي تذيب الحدود بين الواقع والخيال، عن البطاريق التي رآها في القطب الجنوبي وهو يرتجف برداً، وعن اللقاء الذي جمعه بغاندي على ضفاف الغانج. كانت كلماته تتوهج كأنها مشتعلة من الداخل، وكان صوته عميقاً، يخرج من تجاويف روحه لا من حنجرتة.

ثم انتقل إلى الأبعد : حكى لهم عن الصوت الأنثوي الذي عرّف نفسه بشجرة السماء، الجذع الأول الذي تتفرع منه الأرواح جميعها.

أخبرهم أنّ هذا الكيان كشف له عن موعد نهاية العالم، ليس بلغة نبوءاتٍ أسطورية، بل بحسابٍ يجمع بين المعادلات الرياضية العميقة والرموز الدينية القديمة، وأنّ كل شيء يسير وفق توقّيتٍ دقيقٍ نحو انطفاء الكون الأصغر، ليعود إلى الحضن الأكبر. كانت عيناه تلمعان وهو ينطق بتلك الكلمات، كأنه ما زال يرى أمامه تلك اللوحة الكونية المتوهجة التي عرضتها عليه شجرة السماء.

لكن ما إن فرغ من كلامه حتى خيم الصمت، صمت أثقل من الصخرة. تبادل الجمع النظرات، بعضهم كتم ضحكةً مُرتبكة، وآخرون أزاحوا وجوههم وكأنهم سمعوا هذياناً. قالت إحدى عماته :

= لقد خرجت لتوّك من تجربة موتٍ ودفن، ربما هو إجهاد نفسي أو أثر حُمّى، لا أكثر.

وقال خاله :

= نحن نحبك يا بني، لكن ما ترويه لا يدخل عقل إنسان.

لم يكن في أصواتهم قسوة، بل مزيج من شفقةٍ وريبة. لقد اعتبروا الأمر نتيجة صدمة، هلوسة عقلٍ أنهكته المناوبات والحادث والموت المؤقت.

حينها شعر أريان بشيءٍ من الحزن يغمره. لم يحزن على نفسه، بل على أنّ الحقيقة، مهما كانت مشرقة، تبدو للآخرين مجرد خيالات و توهمات. لكنه، وسط هذا الخذلان، وجد في عيني والده نوراً آخر : كان الشيخ الفلاح يحدّق فيه بثبات، وعيناه تلمعان بفهمٍ صامت. قال بصوتٍ عميق :

= أصدقك يا بني. لقد عشتُ طويلاً على الأرض، وأعرف أنّ التراب لا يقول الكلمة الأخيرة ، بل الروح هي من تفعل ..

ثم انحنيت إيشا نحوه، قبضت على كفه، وقالت دون تردد :
= أنا أصدقك... لم أشكّ فيك لحظة. كل ما قلته أنا أراه في عينيك
قبل أن تنطقه.

عندها أدرك أريان أنّ التصديق ليس عدداً يُحصى، بل عمق يُغني.
يكفي أن والده يؤمن، وأن إيشا تؤمن، فهما مرآة جذوره ومستقبله،
وهما صدى رسالته في قلب العالم الأرضي. أما الآخرون، فسيأتي
زمانهم حين تنكشف لهم الحجب كما انكشفت له. ومع ذلك، لم ينطفئ
فيه واجب البلاغ، بل ازداد يقيناً أنّ الحقيقة، وإن ووجهت بالشك،
تبقى أمانة في عنق من رآها.

لم يطل الأمر حتى خرجت حكاية أريان من الدائرة الضيقة للعائلة
إلى ساحة القرية الرحبة، وكأن الأسرار كلما تخطت اثنين، صارت
قدراً أن تُروى، وإذا جاوزت الشفاه الأولى أصبحت اعترافاً علنياً لا
مرد له. كان يكفي أن تفلت نصف كلمة من عم أو خالة، أو أن تُفسّر
همسة من جلسة، حتى تصبح الحكاية على ألسنة الناس، تتناقلها
الحقول كما تتناقل الريح رائحة الزعفران في السوق.

شيئاً فشيئاً، غدت قصة أريان مادةً يومية للهمس في الأزقة الضيقة،
وفي المجالس المظلمة بأشجار المانجو، وعلى ضفاف السواقي حيث
تجتمع النساء لغسل الثياب. قيل إن الطبيب قد فقد عقله بعد نجاته من
حادثٍ كاد يؤدي بحياته، و أنه يتخيل عوالم وأصواتاً لا وجود لها.
بعضهم همس بعبارات مشفقة : (صدمة الحادث أدت دماغه
المسكين) ، ففي البيئات البسيطة يغدو المرض النفسي للأسف
وصمة عار ، فيما ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك، فاتهموه بالجنون
الصريح. ولم يكتف البعض بالهمس، بل تجرأوا على نعته علناً
بالمدّعي، حتى أن بعض كهنة القرية أشاروا إليه بالمجدّف الذي
يعبث بالسماء ويمسّ أسرار الغيب. وما أن يمرّ في الطريق حتى

تتبع خطاه ضحكات ساخرة، مكتومة حيناً، ومتفجرة أحياناً، تخز قلبه كابر صغيرة لا تُرى.

لم يكن أريان غافلاً عن كل ذلك. كان يشعر بجرح يتسع في صدره كل يوم، ليس لأنه يخاف على سمعته، بل لأنه كان قد رأى بعينه ما لا يريد الناس تصديقه. لقد تذوق طعم الحقيقة، والآن يُساق في عيون قريته ككاذب. كان حزنه عميقاً، لكنه لم ينكسر. ففي هدوئه الذي تشربه منذ طفولته، وجد القوة ليعيد ترتيب أوراقه. قال لنفسه بثقة : (إن كلمات تُقال في الهواء سرعان ما تذروها الرياح. وحده المكتوب هو ما يصمد، هو ما يتجاوز الأجيال والحدود. إذا أردت لحكايتي أن تُصدّق، فعلي أن أجعلها رواية حقيقية، كتاباً لا يمكن نكرانه بسهولة.)

لذلك لم يخطئ أريان خطأ صديقنا نايرا في البيرو ، فقرر أن يحوّل جرحه إلى قلم. أن يصوغ تجربته في نصوص حيّة، تتجاوز حدود قريته الصغيرة لتطرق أبواب المدن الكبرى والعقول الواسعة. فهو يدرك أن عقول البسطاء، مهما أحبهم، لن يطبقوا حمل الحقائق الثقيلة التي كُشف عنها الحجاب. أما العقول المنفتحة، الباحثة عن المعنى، فستتلقف قصته بوعي أدقّ وعدلٍ أكبر. أراد أن يخاطب الفلاسفة والعلماء، القراء الذين تعودوا أن يزنوا الأفكار لا بالسخرية، بل بالبرهان.

وبين الحزن الذي يقطر من قلبه كلما عاد أدراجه بين نظرات قريته الساخرة، وبين الأمل الذي يشتعل في داخله كلما تخيل كتابه مطبوعاً بين يدي قارئ لا يعرفه، عاش أريان مرحلة جديدة من رحلته : مرحلة الكتابة. لم يعد ضحية همسٍ أو ضحكة، بل كاتباً يُعدّ نصاً قد يقلب الموازين. كان يعرف أن الطريق طويل، لكن داخله كان متيقناً أن الروايات الكبرى تبدأ غالباً من هامشٍ صغير، من قريةٍ تسخر، قبل أن تُدهش ..

صدرت رواية أريان أخيراً تحت عنوان :

(حدث في العالم الآخر)

كأنها اعترافٌ مكتوب بالدموع لا بالحبر، أشبه بوصية كبرى أكثر منها مجرد سرد لتجربة شخصية. منذ الصفحات الأولى، يشعر القارئ أنه أمام نصّ يتجاوز حدود السيرة الذاتية إلى فضاء الفلسفة والميتافيزيقا، حيث تُذوّب التجربة الفردية في نهر المعنى الكوني. الرواية تبدأ من حادث سير فجائي بدأ القدر به قصته ، ثم تلك اللحظة الحديّة التي وجد فيها أريان نفسه في مقصورة زجاجية معلقة بين العدم والوجود، بين الموت الذي حسبه الجميع قد ابتلعه، والحياة التي عاد إليها فجأة كما لو أنه انبثق من رماد قديم.

في المقصورة، لم يكن أريان يواجه صدى نفسه فقط، بل كان يحاور صوتاً أنثوياً غامراً، صوتاً حمل ملامح شجرة السماء المقدّسة التي رفعت عنه الحجب وأطلعت روحه على أسرار لم يُتَح للإنسان العادي أن يتذوّقها. الحوار بينه وبين الشجرة كان أكثر من كلمات؛ كان صراعاً بين الإدراك البشري وحدود اللغة، وبين رحابة العوالم الأخرى التي تفيض بالدهشة والاحتمالات. وقد سجّل أريان في روايته تلك اللحظات كما لو كان ينحت على صخر أزلي: حديث عن الجسد السماوي الذي يستيقظ حين يزوي الجسد الأرضي، وعن العوالم الافتراضية التي تتيح للروح أن تحيا بلا قيود، وعن المعنى العميق للوجود الذي ينفتح عندما يتلاشى وهم الحدود بين الواقع والخيال.

لكن الذروة التي جعلت الرواية تتجاوز كونها اعترافاً شخصياً إلى كونها نصّاً إشكالياً هزّ ضمير القراء، هي ما دونه أريان عن توقيت نهاية العالم. فقد كتب أنه في اللحظة نفسها التي دفنه أهلها فيها واعتقدوا أنه غادر بلا عودة، أعلن له بالحسابات الرياضية والدينية

معاً زمن أفول الكون الأصغر الذي نحيا فيه. تلك المفارقة جعلت القارئ يعيش رعباً وافتتاناً معاً : كيف يمكن للإنسان أن يكون تحت التراب، وفي اللحظة ذاتها متلقياً رسالة عن مصير الأرض والنجوم؟ هنا تحولت الرواية إلى سؤال فلسفي متفجر : هل نحن حقاً نحيا في عالم مكتمل، أم أننا مجرد هوامش في نصٍّ أكبر يُكتب في مكان آخر؟

في خاتمة كتابه ، لم يقدّم أريان برهاناً رياضياً يُطمئن العقول، بل قدّم تجربة وجودية تغلبها على وجوها. ترك القارئ بين دمع صامت ودهشة تقطر من الحروف : لقد أراد أن يقول إن ما يحدث للإنسان في أقصى لحظة هشاشة، لحظة الموت والعودة، قد يكون أعظم من كل نظريات العلم والفلسفة. أراد أن يهمس أن هناك سرّاً يتجاوز اللغة نفسها، وأن ما يظنه الناس نهاية قد يكون بداية أخرى.

وهكذا، خرجت روايته من ضيق القبر الذي دفن فيه جسده يوماً، إلى فسحة الكتب التي لا تُدفن، بل تبقى تسافر من عقلٍ إلى آخر، و من زمن لما يليه . كأنها نفسها مقصورة زجاجية جديدة، عالقة بين الموت والحياة، بين السؤال والجواب، بين الأرض والسماء.

انتشر كتابه كما تنتشر النار في هشيم عطشٍ إلى النار. لم يكد يمضي وقت طويل على صدوره حتى بدأت المقالات النقدية تتهادى إلى الصحف والمجلات، بعضها يفيض بالدهشة، وبعضها يتوشح بالإيمان العميق بأن ما رواه أريان لم يكن وهمّاً ولا تخيلاً أدبياً، بل تجربة استثنائية حقيقية تتماشى مع المنطق الديني و العلمي. لقد انقلبت الموازين : من كان يُتهم بالجنون بالأمس صار اليوم يُحتفى به بوصفه شاهداً اختارته السماء لتكشف عبره أسرارها، سفيراً بين عالمين، وجسراً بين الأرضي والسرمدى.

الناقد الذي يحمل أدوات العلم وجد في صفحات الرواية إشارات عميقة إلى النسبية واللانهاية ونظرية العوالم المتوازية، فيما وجد رجل الدين أن النص نفسه لا يخرج عن جوهر الوحي وأصداء الكتب المقدسة. وحين التقى العلم والدين في قراءة واحدة، سقطت آخر الشبهات؛ فحين يتساند العقل والإيمان، لا غالب لهما.

أما القرية التي كانت تتهامس من قبل باتهامات جارحة، فقد تبدلت وجوه أهلها شيئاً فشيئاً. صاروا حين يمر أريان لا يضحكون، بل يلقون التحية بخشوع خفي، كأنهم يسلمون على من ارتشف من كأس الغيب جرعة لم تُتَح لهم. لقد غيّر كتابه نظرتهم إليه، وأعاد إلى قلبه الطمأنينة : فما عاد منفيّاً بين أهله، بل غدا شاهداً يذكرهم أن الحقيقة ليست حكراً على أحد، وأن السماء قد تفتح بابها عبر أي روح تصطفئها، ولو كانت في نظرهم مجرد شاب بسيط من قريتهم.

لقد وجد كتابه مكاناً له بين يدي البروفيسور سيكويما المتيم بالروح و ألغازها و غموضها و وجد في الروح القدس ضالته ، كما وجد نفسه بين يدي الكاتب الشهير برهان عبد القدوس الذي أكملت تجربة أريان و قصته نظرته الأخيرة عن الروح كما قصها على حفيدته فاطمة .. و أصبح الكتاب أيضاً مادة دسمة لحلقة على قناة جولييان على اليوتيوب حصدت ملايين المشاهدات و الإعجابات ..

كان النهار يتلألأ ببهجة غير مألوفة، كأن السماء نفسها دعيت لتشهد الحدث. تحت شجرة الأراك العتيقة، حيث احتضن التراب جسد أريان يوم ودّعه الجميع بالبكاء، وقف الآن حياً يُزف إلى عروسه إيشا. لم يكن المكان مجرد ساحة زفاف، بل مسرحاً لقيامة رمزية؛ هنا دُفن حياً، ومن هنا وُلد من جديد.



ارتدى أريان حلّته البيضاء التي تعكس نقاء قلبه، وعينا إيشا تلمعان بدموع فرح امتزجت بذكريات ألم كاد يفصلهما إلى الأبد. تبادلوا النظرات كما يتبادل عاشقان وعداً أزلياً، فيما تعانقت أصوات الطبول وأهازيج النساء مع خفقان الأرواح التي حضرت لا لتشهد زفافاً عادياً، بل لتلمس معجزة بشرية.

العائلة كانت في غاية السعادة، والقرية بأسرها حضرت، وكأنها تكفر عن همسات الشك والالتهام التي طاردت أريان سابقاً. الألسن التي نعتته بالمجنون ذات يوم، هتفت الآن باسمه وباركت حياته الجديدة. لقد صار رمزاً حياً لمعنى أن يسقط المرء في ظلمات القبر ثم يخرج منه إلى نور الوعد والوفاء و الحقيقة ..

وما كان غريباً في تلك اللحظة أن يشعر الجمع كله بظل عميق يغمرهم، ظلّ شجرة الأراك وقد تحوّلت رمزاً لما هو أبعد من جذور وأغصان. كأنها امتداد لشجرة السماء التي حاورته في العالم الآخر، تُطل برؤياها على البشر جميعاً. كان الزفاف خاتمة لقصة هندية الطابع، لكنها على غير المألوف لم تكن خيالية تفتقر للمنطق العقلاني، بل حقيقة تشبه المعجزات : بطلها لم يتزوج فحسب في النهاية ، بل فتح نافذة على سرّ الخلود، على روح قدس أبصرت النور إلى عالم البشر أخيراً، فصار العرس احتفالاً بالحياة وبالحقيقة معاً ..

الروح هي السرّ الذي لا يشيخ، البذرة الأولى التي تظلّ نابضة بالحياة حتى لو احترقت الحقول من حولها. نحن في حقيقتنا لسنا سوى عابرين فوق جسور من الطين والدم، أجسادنا أوعية هشّة، تتشقق بمرور الأيام، لكن ما يسكنها يظلّ عصياً على الفناء. ذلك الصوت القابع في الأعماق، الذي يهمس لنا كلما أثقلت الهموم و الصعاب كواهلنا أن نستمر، هو ليس وهماً ولا صدى، بل هو الروح نفسها، الحارسة الخفية التي تدفعنا إلى التمسك بالحياة، إلى الإصرار على القيام بعد كل سقوط، إلى الإيمان بأن وراء الألم معنى، و وراء الموت قيامة.. كما فعلت فاطمة بعد أن تعرضت للاعتداء و فعل جوليان بعد أن أصيب بالشلل .. و كما تغني الفنانة الشهيرة ذات الصوت الملائكة ماريّا كيري في أغنيّتها الأيقونية (بطل) :

(يعلم الله أنه من الصعب اتباع الأحلام ، لكن لا تدع أحداً يدمّر

أحلامك (

فالموت نفسه لم يتمكن من منع أريان من تحقيق حلمه بإثبات صحة قصته ثم بالزواج من محبوبته إيشا .. لأنه امتلك روحاً بإرادة فولاذية لا تلين مهما اشتدت نيران العقبات و الأهوال ..

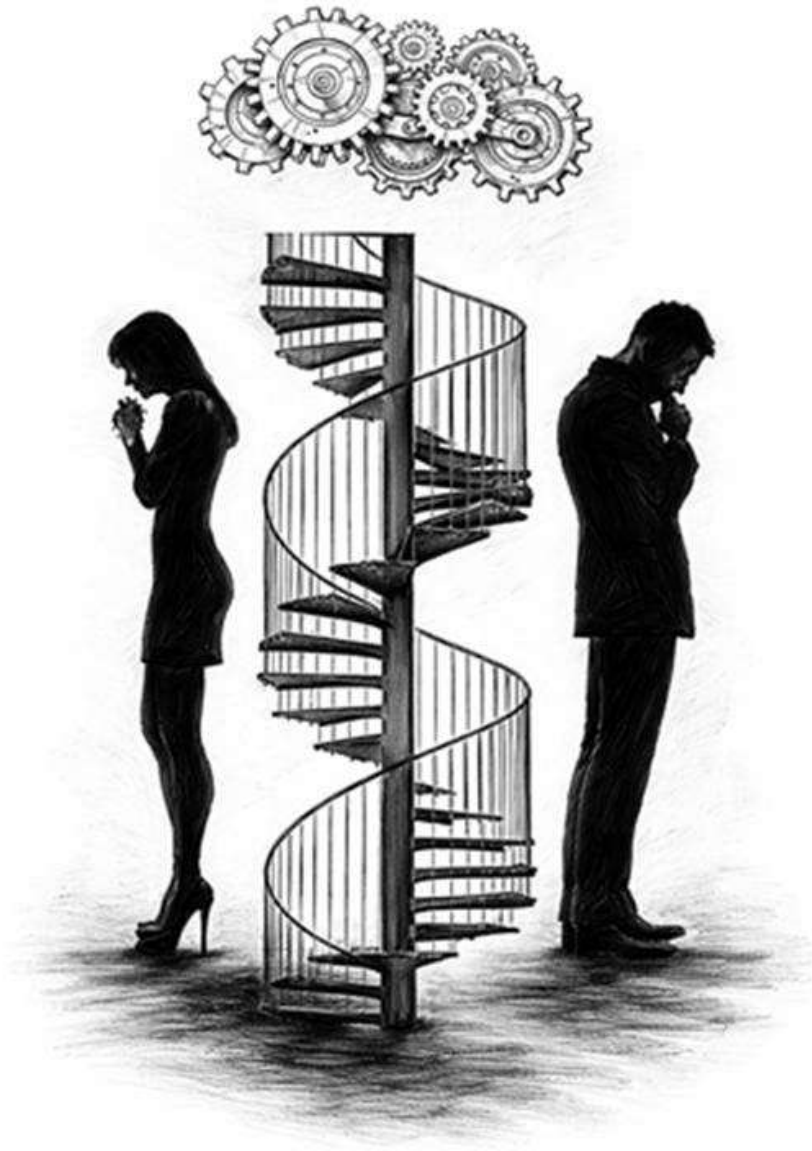
لقد خُذع الإنسان طويلاً بالخلود المادي، بالبحث عن جسدٍ لا يشيخ، وعن عالمٍ لا ينهار. لكن الخلود الحقّ ليس امتداداً للحم والعظم، بل انكشاف لسرّ الروح التي تُعيد خلق نفسها في كل آن. فما يذوي في التراب (الجسد الأرضي) هو قشرٌ زائل، وما يبقى في العلوّ (الجسد السماوي) هو جوهر أزلي.

وهكذا، حين يغادر جسداً، لا تُهزم، بل نستيقظ. الروح لا تعرف النهاية، بل تعرف التحوّل. الموت ليس انطفاءً، بل بابٌ آخر يُفضي إلى نورٍ أوسع. كل قيامة صغيرة في حياتنا - بعد الفقد، بعد الانكسار، بعد الخيانة - ليست سوى بروفة للقيامة الكبرى عندما تقرع الأجراس و تقوم الساعة ، الدرس المتكرر الذي يُعيد تذكيرنا أن الحقيقة لا تُدفن ..

في النهاية، لن يكتب الخلود للمادة ، بل للروح التي تسمع، تحب، وتشتاق. هي التي تشجعنا في لحظات الانكسار أن ننهض، وفي لحظات الرحيل أن نعود. ذلك الصوت الذي يسكنك و يناديك من عالم آخر بعيد، إن أصغيت إليه، سيقول لك أبداً :

(لا تستسلم لمستقبلي كجسد سماوي متوقف على استمرارك كجسد أرضي .. و ذكرياتي تصنعها أنت .. و من دونك أنا لا شيء)

فنفسية النظم



الرواية التاسعة

هندسة الندم ..

فصول الرواية :

- الصوت الذي لا صدى له
 - المستقبل
- عندما يتجمد الوقت
 - عبور العتبة
- القدم الرابعة
 - المتاهة
- القربان
 - مرآة بوجهين
- الممر الحزوني
 - بلا ندم ... بلا روح
- أخوية النور المكسور
 - المختار الذي لا يختار
- زقاق الأقنعة
 - حلقة الظل
- إلى من خُذع ليوفظ الآخرين
 - شلال المشاعر
- عندما تتقاطع الأقدار
 - ترياق الندم
- تعميد الحب
 - نسبة الحب الذهبية
- قصة حياة ملحمية

هندسة الندم ..

الفصل الأول

الصوت الذي

مضى له

كان صباحًا رماديًا قاتمًا حين وصل **إلياس رافنر** إلى أطلال دير
سانت غيوم المهجور، المتربّع كندبة حجرية وسط تلال أوفيرن
الملتفة كأفعى نائمة ..



الضباب كثيف، يزحف بين الأشجار كأنّ الطبيعة تحاول طمس

الدير، ابتلاعه دون أثر، كما لو أنه لا يستحق الظهور..

التلال من حوله كإكليل، مغطاة بعشب باهت، تتخللها صخور داكنة كأنها انعكاس للغيوم المشردة الغاضبة في السماء فوقها، والمكان ساكن إلى حدٍ يثير القلق، كما لو أن الزمن توقّف هنا بإرادة خفية.

كان إلياس مرهقاً، لا من الطريق، بل من شيء أعمق .. في عينيه أثر تعب قديم، كما لو أنه يحمل في داخله وزر خطأ جسيم لم يُصحّح .. لم يكن ينظر إلى المكان بعين مكتشف، بل كمن يتوق إلى محو أثر نفسي في أعماقه.

بدا الدير من بعيد كجثة حجرية عظيمة، ممدّدة بصمت ثقيل، تننّ من وطأة قرونٍ سقطت من الذاكرة .. نوافذه المحطّمة كانت كعيونٍ خاوية، والجدران مغطاة بطبقة من الطحلب الكثيف، كأنها تحاول حماية نفسها من النسيان أو من نظرات الغرباء.

وقف إلياس هناك، ببذلته العملية الملطّخة بالغبار، أشبه بجراحٍ يستعد لشق صدر مريض مات منذ زمن، وما زال قلبه ينبض بشيءٍ لا يُفسّر.. سترته رمادية قاتمة، مشقّقة عند الكتفين من كثرة التنقل، تتدلّى منها خيوط رفيعة ملوثة بالتراب .. حذاؤه الثقيل يترك آثاراً واضحة في الوحل، وعلى ظهره حقيبة تحمل أدوات المسح والحفر، مدفونة تحت طبقات من الصمت.

وجه إلياس أشبه بمخطوطة نجّت من الحريق، محفوفة بالأسرار، منقوشة بندوب الزمن وصمت التجارب التي لم يُفصح عنها و التي لا تعكس عمره الذي تجاوز الثلاثين بقليل، عيناه رماديتان كضوء الفجر قبل أن يستفيق، لا تكشفان عن مكنونه بل تغويانك بالتأويل، كأن فيهما لغة أخرى لا تُنطق .. و في خطوط وجهه المتقاطعة بين

الحدة والرقّة، يقيم تناقض ساحر، رجل يجر خلفه أزمنة من الأسى، لكنه لا يزال يتشبث بخيط رفيع من الرجاء لا يرى إلا حين يبتسم.

لم يكن رجلاً يؤمن بالأسرار، بنى تاريخه المهني على أرضية صلبة من الحقائق، و بالنسبة إليه، كل شيء قابل للفهم، للترميم، للتفكيك، لم يكن يكثر بالخرافات التي تتردد في القرى المحيطة عن أصواتٍ تخرج ليلاً من تحت الأرض، عن أشباح رهبانٍ لم يُدفنوا، عن لعنات تعيش في الحجر..

ورغم منطق الصارم هذا، لم يكن بإمكانه الهرب من الإحساس بأن ما يفعله ليس مجرد بحث علمي.. هناك شيء شخصي في رحلته، شيء لم يخبر به أحداً.. كأنه يبحث عن غرفة، لا ليكتشفها، بل ليختبئ فيها من أمرٍ ما تركه خلفه منذ سنين.

لهذا كان وحده هنا، رفض أي مرافقة، قد يظنه البعض يريد أن يكون أول من يضع قدميه في العدم، أن يكون الاكتشاف له وحده، كما يفعل العلماء في لحظات الجنون الأولى.. لكنه في الحقيقة يريد الانزواء بنفسه في مكان لم ولن يصل إليه أحد..

السرداب لم يكن مدرجاً في أي مخطط حصل عليه من أرشيف كنيسة كليرمون فيران، بل وجده مصادفة... لا علامات، لا درج، مجرد باب خشبي نصف مدفون تحت الحطام، كأن أحداً ما، في زمن غابر، أراد أن يمحي وجوده للأبد.. الباب بلا لافتة، مائل قليلاً، وتفوح منه رائحة تراب رطب، كأن الرطوبة تسكن فيه منذ قرون.

أشعل قنديلته، وبدأ النزول عبر السلم الحجري، خطوةً بعد خطوة، وكل درجة تقوده نحو برودةٍ بدت وكأنها لا تنتمي لهذا العالم.. رائحة العفن والجلد المتفسخ تتسلل إلى أنفه.. الجدران سوداء، ليست مطلية، بل محترقة من الداخل.

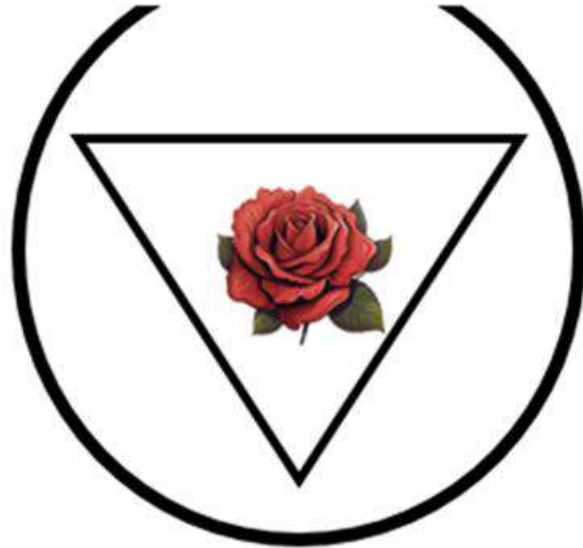
كل شيء في المكان كان يهمس بشيء مجهول ليس خوفاً ، بل توتر أولي، أشبه بدبذبة خفيفة قبل العاصفة.

كان يبحث عن الجدار الشمالي، وفق تقديراته، حيث يفترض أن ينتهي السرداب لكنه لمح انبعاجاً طفيفاً ... كأن الحجارة هناك لم تصمد أمام قوة خفية.

رفع المعول و ضرب على الانبعاج ..

لم يكن الصوت صوت حجر يتحطم ، بل كان أقرب إلى أنين الفراغ ذاته، أنين شيء يستفيق.

انهارت قطعة من الجدار أرضاً ، تناثرت إلى غبار كثيف خنقه، تراجع وهو يسعل و يضرب الهواء بكفه ، وحين انقشع الضباب الحجري، ظهرت بوابة حجرية بارتفاع مترين، منحوتة بدقة لا تُشبه طراز أي قرن معروف ، مع رمز غريب يتوسطها : وردة داخل مثلث، داخل دائرة مفتوحة من الأعلى.



تقدّم و لامس الباب، فوجده غير مغلق بالكامل ، دفعه دفعة بسيطة... فانفتح .. بلا صرير و لا مقاومة ، كأن شيئاً خلفه كان ينتظر بصبر منذ قرون.

الغرفة خلف الباب لم تكن امتدادًا للسرداب، لم تكن حتى من هذا العالم !! جدرانها مصقولة، حجارتها سوداء لامعة بلا غبار، بلا عناكب ، بلا أثر لزمن و كأنه في قلب ثقب أسود فضائي توقف فيه الزمن كلياً .. لكن لا شيء يوحي بأن الغرفة مهجورة ، بل بدت وكأنها تتنفس.. وفي منتصفها، على قاعدة رخامية، استقر لوح معماري واحد يوضح بنية هندسية ما .

اقترب إلياس بخطى بطيئة، كأنه يمشي على جلد مخلوق نائم ، كان اللوح غريباً يجسد هيكلاً معمارياً من عالم آخر كما يبدو ... لا نوافذ، لا أبواب، لا هندسة مفهومة.. مجرد غرف متداخلة، بزوايا غير منطقية، كأن الرسم يُخالف قوانين الجاذبية والمنطق في آنٍ معاً.

شعر بوخز خفيف في صدره لا تفسير له .. كأن اللوح الحجري يلمس في داخله شيئاً لم يتوقف يوماً عن التألم..

لقد شعر أن اللوح يخصه هو بالذات .. !!

مدّ يده و لمس الخطوط التي تضيء بخفوت غامض .. لم يكن حبراً بل مادة غريبة، فوسفورية ربما أو عضوية ؟ شيء لم يعرفه من قبل.

ثم قرأ :

أخوية النور المكسور

الجناح الوردي

النسخة الأولى من جهاز تفريغ الندم البشري ..

جهاز؟

تفريغ ندم؟

تجمّد في مكانه.. لم يفهم .. بل ربما لم يُرد أن يفهم.

لكن قلبه أصبح أثقل ، كأن ذكرى لم يعيشها بدأت تتحرّك بداخله..
شعور بالذنب .. بالندم... بلا ماضٍ .. و بلا سبب.

تراجع خطوة للوراء بشكل غريزي ، لكن الغرفة تغيّرت.

الضوء تغيّر.. الهواء تغيّر.. ولم يعد وحده فيها كما أراد ..

شقوق من ضوء بدأت تتسلل من الجدران... خطوط ناعمة تتوسّع
ببطء، كأن الجدران تتنفس.. ثم انطفأ القنديل في يده وصدر صوت
غريب و مبهم ..

صوت بلا صدى ..

صوت بلا اتجاه ..

صوت لا يُقال... بل يُشعرو حسب .

همسٌ لا يُفهم، لكن يقتحم القلب.

ارتجّ قلب إلياس في صمت الغرفة المهيّب.

وكان ذلك الصوت — كما سيفهم لاحقًا — هو صوت الانكسار في
أعماقه .

لحظة تحوّل فيها الزمن من خطٍ إلى دائرة بلا بداية أو نهاية. من
معرفة مستقيمة إلى دوامة ندم لا ينتهي !!.

الفصل الثاني

المستقبل

كان الليل خفيفًا كخيوط دخان حين استيقظت **نور** فزعة، تتصبب عرقًا رغم برودة الغرفة.

مرة أخرى ، الحلم ذاته !! لكن هذه المرة، كان أكثر وضوحًا ووجعًا.

فتاة تشبهها وهي طفلة إلى حدٍّ مؤلم ، تمشي في ممرٍ حجري طويل جدرانه مغطاة بنقوش تتغير كلما نظرت إليها، وكأنها تتنفس .. لم تكن تلك النقوش موجودة لنقرأ، بل لتحسّ، كأن كل رمز يرسل رعشة عاطفية من زمنٍ سحيق .. الضوء كان خافتًا ينبض كقلبٍ ضعيف، ورائحة بخور خفيفة تتسلل إلى أنفها .. الأرض ، رغم أنها حجرية، بدت دافئة تحت قدميها العاريتين ، والظل، ذلك الكائن الذي لا يمشي بل يزحف كالضباب، كان يصدر همسات لا تفهم لكنها تلهم ، تחדش شيئًا دفينًا في أعماق الروح.

ثم جاء صوت من بعيد .. لم يتسمعه بل شعرت به ، وكأن اللاوعي ذاته نطق :

نحن ننتظر من يقتل الندم

فتحت عينيها ببطء و كأنها أصيبت بالشلل، وبدلاً من أن تنهض فوراً، بقيت مستلقية، تحرق في السقف العاري لشقتها الباريسية.. في الأجواء ، كان صوت قطرات الماء من الصنبور يتناغم مع سكون الليل .. نور القمر كان مائلاً على زجاج النافذة، يرسم ظلًا ناعمًا على الأرض .. الهواء بارد، يتسلل من شقوق النافذة القديمة .. ارتجفت يدها، قلبها ينبض كطبولٍ في صدرها .. نهضت ببطء، مشت حافية على الأرض الباردة .. فتحت النافذة واستنشقت الهواء البارد بعمق، و كأنها تريد لحلمها أن يستيقظ .. لكنها نسيت نصفه فجأة، كأنّ هناك من سرقه من ذهنها في اللحظة الأخيرة.

في ركن الغرفة، جهاز تسجيل الذكريات الحسية الحديث يومض

بخفوت .. أوقفته منذ أسابيع، لكنّه يسجّل تلقائيًا إن كانت الموجات العاطفية كثيفة بما يكفي ..

مشّت حتى الجهاز، قرأت السطر الأول :

{ التسجيل 02:13 صباحًا – تصنيف: ندم مركز – المصدر:

داخلي غير واع }

أغلقت الجهاز بيدٍ لا تزال ترتجف ..

لقد بدأت ترى هذه الأحلام منذ كانت في العاشرة.. في البداية، قالت لها والدتها إن لديها خيالًا سينمائيًا .. ثم قيل إنه ضغط دراسي.

و بسببه درست علم النفس لاحقاً، ثم احترفت الغوص العاطفي العلاجي، لأنها عرفت أن ما فيها ... ليس طبيعياً.

نور كانت (مُستقبلة) ..

لم تفهم تمامًا معنى المصطلح حتى التقت بالدكتور شافر، الذي كان يعمل على أطروحة غريبة عن **الصدى العاطفي المعماري** .. شرح لها كيف أن بعض الأشخاص يولدون بجهاز عصبي قادر على التقاط مشاعر متبقية في أماكن معينة .. الحزن في سرير، الغضب في جدار، الحب في رائحة مكان.

لكن نور كانت أكثر من ذلك .. كانت قادرة على استعادة التصميم العاطفي للمكان ..

تتذكّر أول مرة شعرت بذلك ، كانت في كاتدرائية مهجورة في مرسيليا، تمشي وحدها، حين جثت فجأة على الأرض وبكت، شعرت بحزن امرأة لم تكن تعرفها، لكنها بكت هناك قبل قرن .. ثم، في

إحدى الجلسات، دخل معها عميل منزلاً فقد فيه زوجته، وكانت قادرة على استرجاع لحظات حبهما، صوتهما، عناقها الأخير، وكأنها تعيد لها الحياة لدقيقة واحدة.

ورغم أنها ساعدت العشرات في جلسات علاجية داخل منازلهم أو في أماكن فقدوا فيها أحبائهم، لم تجد يوماً مكاناً يناديها كما يفعل هذا الحلم الغريب ..

نور ألبير حداد : شابة حياتها تودع العشرينيات عما قريب .. ملامحها تنتمي لعصر لا نعرفه، كأنها خرجت من فسيفساء بيزنطية نسي الزمن أن يمحوها، بوجه بيضوي يفيض بهدوء يشبه ضوء القمر حين ينساب على سطح ماء ساكن.

عينها بلون البندق المشتعل، لا تنظران بل تغمران، كأنهما تبحثان في من يقابلهما عن ظلّ فكرة ضائعة أو حنين قديم. وفي ابتسامتها ارتجافة نادرة بين الحنان والوجع، توحى بأن هذه المرأة لم تعش فقط، بل عبرت خلال النار ولم تُخبر أحداً.

وُلدت في الإسكندرية، على مقربة من البحر، في مساءٍ شتويٍّ تُعانق فيه الأمواج شرفات البيوت القديمة .. كانت الطفلة الأولى لألبير حداد ، أستاذ الفلسفة المعروف في جامعة الإسكندرية، و ريم عبد الغني، عازفة كمان عُرفت بين أوساط النخبة الموسيقية بطاقتها الصوفية في العزف.

نشأت نور في بيتٍ يمتلئ بالكتب، والموسيقى، والأسئلة التي لا إجابة لها .. كان والدها يُحب أن يقرأ لها قبل النوم لينتشفه وكأنها حكايات ما قبل الغفوة ، وكانت والدتها تعلّمها كيف تصغي إلى الصمت بين النغمات.

أصولها كانت مزيجاً نادراً : والدها ينحدر من أسرة دمشقية عريقة هاجرت إلى مصر في أوائل القرن العشرين، أما والدتها فتتنتمي إلى

جذور نوبية من الجنوب، حيث كانت الجدة تحكي قصصاً عن أرواح النيل وأسرار الرمال.

لكن عالم نور المثالي تحطم مبكراً.. حين كانت في الحادية عشرة، اختفى والدها في ظروف غامضة، قيل إنه غادر البلاد بسبب تحقيقات سياسية، لكن شيئاً ما في قلبها رفض تلك الرواية .. بعد عامين فقط، توفيت والدتها بنوبة قلبية مفاجئة، تاركة نور وحدها في منزلٍ امتلأ بالذكريات التي لا تُطاق.

أُرسلت للعيش في فرنسا مع خالٍ لها بالكاد تعرفه، في بيتٍ لا يشبه ما اعتادته، بلا موسيقى، ولا كتب، فقط جدران صامتة وسقف منخفض من الحذر والريبة.. هناك، بدأت نور تتعلم شيئاً آخر: أن القوة لا تأتي من الصراخ، بل من الصمت الذي يعرف متى ينفجر.

كبرت نور وهي تبحث عن الحقيقة.. ليس حقيقة والدها فقط، بل حقيقتها هي، أصولها، جذورها، ولماذا خُلقت وهي تحمل كل هذا الضوء في اسمها ... بينما العالم من حولها لا يتوقف عن الانطفاء.

أما اليوم، ثمة شيء تغير عن روتينها المعتاد ..

فبينما كانت تجلس على كرسي قديم قرب النافذة، تلفت نفسها بوشاح والدتها، لاحظت رسالة في بريدها الإلكتروني .. عنوانها مشفر:

ani3s@ordo-lux.fr

شيء فيه جعل قلبها يرتبك ، لم ترسله أي جهة رسمية، ولا يبدو كبريد عشوائي .. ترددت في فتحه في البدء .. ثم استجمعت جرأتها وفتحته ، قرأته بدهشة :

ما تحلمين به ليس وهمًا .

ما تتذكرينه، تتذكرينه لأنك جزء من ذلك .

الوردة تبكي دماً .

دير سانت غيوم – أوفيرن – فرنسا .

هنا بدأت الحكاية

أعادتها ثلاث مرات.. لم تفهم بالضبط ما تعنيه .. لكن الأكيد أنها تقصدها شخصياً ..

من المرسل ؟ ماذا يريد منها ؟ و هل للرسالة تنمة ؟!

تعرق كفاها، تسارع نبضها، و لاحت في عينيها لمعة خاطفة لا تدري إن كانت خوفاً أم حنيناً..

فتحت دفتر ملاحظاتها بلاوعي ، كمن يمد يده في الظلام، لتدوّن نص الرسالة و حسب .

لكن الصفحة التي انبثقت أمامها لم تكن عادية : ورده باكية، يتقاطر من بتلاتها ندى بلون الدم.

تأملت الرسم بدهشة مرتعشة !!

لا تذكر متى رسمته، ولا أين، ولا في أي شتاء من ذاكرتها نبتت تلك الوردة ؟!

نسيانٌ أم إنكار؟ أم أن جزءاً منها رسم والجزء الآخر أنكر لحظة الولادة ؟

امتدت في أعماقها موجة ارتباك مباغتة، كأن الرسم استخرج من داخلها شيئاً كان دفيناً .. شيئاً لم تكن تبحث عنه، بل كانت تهرب منه.

سلامها الداخلي، ذاك السلام الذي لطالما طاردته كحلم بعيد، تشظى في لحظة.

شعرت بندمٍ صامت، لاذع، لأنها فتحت ذلك البريد، وكأنها فتحت
فوهة بئر و الفضول متربص كي يدفعها إلى قاعه ..

وهنا، اجتاحت ذاكرتها عبارة كان والدها يكررها باستمرار أمامها،
كأنها تُقال لأول مرة :

الندم، يا نور، هو الباب الوحيد الذي إن فُتح لا يُغلق إلا وقد جرّ
خلفه عواقب الكارما .. لذا اندمي دوماً على ما هو جميل ولم
يحدث كي يعود إليك بوجه جميل

بحس غريزي، حاولت أن تُغلق الباب .. أن تُنهي السيناريو قبل أن
يتمدد ككابوس.

قررت تجاهل البريد، ودفن الحلم الغريب الذي زارها مجدداً كعادته
في لياليها الهاربة من الوحدة إلى الوحدة .

نهضت لتلتحق بيومها، بروتينها، بوجهها الذي يعرفه المرضى في
العيادة أكثر مما تعرفه هي.

لكنها لم تكن تعلم...

أن الباب قد فُتح بالفعل.

و أن إغلاقه لم يعد خياراً.

و أن ما خلفه ليس حلمًا سرياليًا هذه المرة ، بل واقعًا يفوق في غرابته
كل ما حاكه لا وعيها من صور .. خلفه أبوابٌ أخرى، تنتظرها
كأفواهٍ جائعة مستعدة للاقتراس.

الفصل الثالث

عندما يتجمد الوقت

وقف إلياس على شرفة الغرفة التي استأجرها في قرية **سانت فالبييه** ،
تلك البلدة الحجرية الصامته التي تتدلى من تلال أوفيرن كأنها
بقيت معلقة بين القرون ..

كان الهواء هناك يحمل طعم الطين الرطب، ورائحة الخشب المعتق،
تتداخل مع نكهة دخان مواقد بعيدة.

الضباب يغزو الأزقة الحجرية كيد عجوز تفتش عن أسرار تركها
الزمن خلفه ..

المطر الخفيف ينقر السقف القرميدي بإيقاع مريب، تمامًا كذاك الذي
اعتاد سماعه في طفولته، حين كان يصغي إلى قطرات الماء تضرب
نافذة منزل جدته، قبل وفاتها و يخيل إليه أن السماء تبكي ندمًا لا
تفسير له..

ذلك الصوت عاد إليه الآن، مشوشًا، كأنه ليس في الخارج بل داخل
جمجمته.

لم تكن القرية تنبض بالحياة .. لا أطفال في الطرقات، لا حديث في
المقاهي .. فقط صرير الأبواب القديمة حين تهزّها الريح، وخطى
شبحية لا يُعرف لمن تعود.

لكن إلياس لم يعد كما كان ..

أعماقه أمست أشبه بقريته الباردة ..

كل شيء فيه تغيّر منذ دخل الدير... لكن بصمت.

لا صوت داخلي يشرح ما شعر به في تلك الغرفة السوداء، بل ضياعٌ
غريب، و كأنّ جزءًا من وعيه قد تبخّر.

حين فتح دفتر ملاحظاته، لم يجد خطه المعتاد .. بل رموزاً هندسية
صغيرة : دوائر داخل مستطيلات، نقاط سوداء على محاور غير
مألوفة، خطوط تتحني ثم تتلاشى.

وبين الصفحات، نقشت جملة على الهامش بخط مختلف :
**المشاعر كالهندسة ، كلاهما يسعى للتوازن .. لكن أحدهما بالقلب
و الآخر بالعقل ،**

شعر بدوخة من فرط التفكير .. أغلق الدفتر بعنف.
(هذا جنون) ، قال لنفسه.
لكنه كان يعلم — في أعماقه — أن شيئاً ما قد بدأ يتغير بالفعل .

في اليوم التالي، قصد أرشيف بلدية كليرمون- فيران لبحث أكثر
عن قصة الدير .. من بناءه ؟ .. السرداب المخفي ..
الغرفة السرية ..

كان المبنى يشبه مقبرة أوراق .. الجدران مشققة، والهواء يعبق
بالغبار والأحبار القديمة .. الموظف خلف الطاولة الخشبية لم يكن
يتحدث كثيراً، لكنه حين لمح اسم دير سانت غيوم في استمارة البحث،
رفع نظره بتثاقل وقال بصوت خافت :
= بعض الأبواب يجب ألا تُفتح ..

لم يعلق إلياس ، أغمض عينيه للحظة، ثم تابع البحث.
وسط الملفات المتآكلة، وجد مخطوطة تعود للقرن السابع عشر، كتبها
راهب مجهول تنص على :

**في أجنحة الدير القديم، حيث صمت الأحجار أبلغ من الترانيم، تم
دفن الندم البشري في هيكل لا يتنفس. وحدها الروح التي لا
تخاف الانكسار، تستطيع إعادة فتح الباب**

قلب الصفحة ، فوجد صورة باهتة مرسومة بالحبر الأسود :

وردة داخل مثلث داخل دائرة مفتوحة من أعلاها ..

الرمز نفسه الذي رآه على باب الغرفة السريّة !!

تسارعت ضربات قلبه كعداء إفريقي .. تابع البحث فعثرت عليه
مخطوطة ثانية من أربعينيات القرن التاسع عشر مكتوبة بحبر باهت
يكاد يتلاشى :

*التجربة الرابعة فشلت .. الجسم لم يتحمل ضغط الندم، والعقل
تمزّق عند العتبة ..*

هزّ رأسه بدهشة عارمة ..

ما معنى كل هذا بحق السماء ؟!

أتى يسعى إلى أجوبة .. فعاد محملاً بمزيدٍ من الأسئلة !!

في تلك الليلة، حلم إلياس بشيء سريالي لم يحلم به من قبل : كان في
غرفة مدورة حجرية ، جدرانها مائلة مع انحناءات متكررة بنمط
غريب .. الأرضية من الماء، والسماء من نار.

رأى طفلاً يجلس على كرسي معدني بارد للغاية في وسط الغرفة ،
يبكي، وإلى جانبه امرأة تبتعد عنه شيئاً فشيئاً .

اقترب منهما.

رفع الطفل رأسه...

كان هو .. إلياس نفسه !!.

وفي لحظة، تحوّلت الغرفة إلى حديقة يابسة، ثم كنيسة مقلوبة، المذبح فيها تحت الأرض، والنوافذ تطل على العدم.

استيقظ يتنفس بالكاد و كأن صدره غارق في المياه .
هل كان ذلك حلمًا ؟ نبوءة ؟ ذكرى من مكان لا يُعرف إن كان حقيقياً ؟

و منذ ذلك الحلم بدأ شيء أقرب إلى الهوس يتسلل إليه :
يحاول رسم الغرفة التي عثر عليها في الدير من الذاكرة مراراً و تكراراً ، لكنها تتغير كل مرة يحاول تذكرها على نحو مبهم و مخيف

(هي ليست غرفة ، همس ذات مساء .)
(إنها أقرب لأن تكون فكرة .. لكن مجسّدة)

في اليوم الثامن بعد عودته من الدير ، وصله طرد بلا مرسل. علبة خشبية صغيرة، داخلها ظرف ببطاقة سوداء أنيقة مكتوب عليها :

إذا أردت أن تفهم ما وراء الباب الذي فتحتَه

، تعال إلى إنجيهِ .. فندق أوليفيه .

13 يوليو، منتصف الليل

A.G

رسالة غريبة ، غير متوقعة و مخيفة .. بلا هوية ، فقط وُقعت بأول حرفين من اسم و كنية لا يعرفهما.

لكنه لم يتردد في قراره للحظة ..

سأذهب ..

شعور طاغ في أعماقه يجذبه لقبول الدعوة فالأسئلة في عقله تكاد
ترديه قتيلاً و كل شيء من حوله بات غامضاً ..

استيقظ إلياس في الفندق المذكور بمدينة أنجيه الفرنسية. لم يكن
يتذكر تماماً متى غادر أوفيرن، ولا كيف وصل إلى هنا و كأن تلك
الفترة الزمنية محيت من ذاكرته بطريقة ما .. الورقة الوحيدة في
جيبه حملت رمزين :

7:13 و A.G و هما تاريخ الدعوة و حروف اسم المرسل.

كان موعد منتصف الليل قد اقترب ، نظر في ساعته.. كانت تشير
إلى **7:13** ، تفاجأ أنها متوقفة منذ دخل الفندق ، متوقفة عند تاريخ
اليوم ، فهل هذه غمزة من السماء كما اعتاد منها بأنه تاريخ هام ، أم
أنها مجرد صدفة عشوائية .

في ردهة الفندق، علّقت ساعة حائط قديمة، تشير هي أيضاً إلى **7:13**
فارتاع قليلاً ، و شعر بنفسه كأنه سجين داخل لوحة لسلفادور دالي.

و حين سأل موظف الاستقبال عن الوقت، أجابه الرجل بابتسامة
باهتة :

= الوقت هنا لا يهم كثيراً سيدي .. المهم هو المشاعر ..

في تلك اللحظة، دخلت امرأة القاعة.. حضور طاغ ، أناقة سوداء..
ملامح قاسية .. عيناها تحملان تهديد الطغاة و تسلط المستبدين ..

شعرها الأشقر كالذهب ينسدل على كتفيها، وعطرها فيه شيء من الزنبق المحترق.

تقدّمت من إلياس مباشرة وقالت دون مقدمات :

= سيد الياس رافنر ..

تجمّد في مكانه ..

= نعم و من أنت ؟

= أنيا غروسنر .. أنت لا تعرف ما الذي فتحتة هناك ..

مشّت بثقة نحو طاولة في الزاوية و هو يتبعها بدون تفكير كالمنوم مغناطيسياً ، مصعوقاً من جملتها الأخيرة .. ثم جلسا ، وبدأت تشرح :

= ما اكتشفه في سرداب الدير هو مدخل فرعي لنظام قديم يُعرف باسم **هندسة الندم** صمّمته **أخوية النور المكسور**. هذه الأخوية ليست طائفة، بل تحالف سري من علماء وفلاسفة ونادمين سعوا لتصميم جهاز **تفريغ الندم** ، إنه ليس لمحو الذنب، بل لإعادة توزيع تبعاته عبر الزمن .

صمتت قليلاً وسط دهشته ثم أردفت :

= الندم هو الجذر الأول للخراب... سعوا عبر الزمن لتحويله إلى طاقة، إلى معادلة، إلى شيء يمكن تفريغه... لكنهم فشلوا مراراً و تكراراً ، لكن إن نجحوا ذات يوم و اختفى الندم من الوجود ستحل السعادة على الجميع و تتطور الحياة كمتوالية هندسية تهوّل على عداد السنين ، و نحن في الأخوية نسعى لإنجاز ذلك ..

ابتلع كلماتها دون أن يمضغها فقد كان مشوشاً حتى الثمالة ثم تمالك نفسه و قال :

= و ما الذي تريدينه مني ؟

ابتسمت بغموض ..

= هل تتذكر ما حدث بين 11 و 12 يوليو؟ أو من هو الرجل ذو العين الزجاجية الذي التقيته في طريقك إلى أنجيه ؟

ارتجف الياس .. لا يتذكر شيئاً من هذا .. لكنه رأى صوراً عابرة في ذهنه .. رجل مبتسم يقلب ساعة رملية .. امرأة تمشي على سطح بحيرة .. ثم هز رأسه ..

= لا أعرف عما تتحدثين !!

= تماماً .. أنت دخلت جهاز تفريغ الندم بالفعل في الدير ذاك اليوم ، لكنك لم تخرج منه بالمطلق فأنت لا زلت هناك ..

شعر إلياس بارتجاف أكبر ..

= هل تقصدين ... أنني أعيش داخل وهم الآن؟

نظرت إليه أنيا بعينين صارمتين وقالت :

= ليس تماماً .. لنقل أنك عالق الآن بين خيارين على شفير شعور ممزق من الندم ... إذ ستكون أنت السبب في كل ما سيحدث لاحقاً للبشرية ، سواء كسلام حسي أو كمذبحة شعورية ..

صمتت قليلاً ثم تابعت بكلمات أشبه بحقن سامة :

= لو كنت مكانك لشعرت بندم هائل .. كان خطأ جسيماً أن تدخل
السرداب و تعثر على تلك الغرفة السريّة .. فضولك الزائد قد يتسبب
بضياحك ، بل ربما بفناء البشرية ..

نهضت بثقة و ثبات دون أية إضافات ثم غادرت بدون تفسير لما
قالت ، تاركةً الياس في حيرة و ذهول ..

في الساحة المهجورة خارج الفندق، دقّت ساعة المدينة نغمة
ميتافيزيقية عند الرقم **7:13**... وقتٌ لا ينتمي إلى زمن، ولا تُدركه
عقاربٌ توقفت كأنها شهقت عند حدود اللحظة.
الزمن لم يتوقف، بل انكسر.

وهناك، وسط هذا الانكسار، كان إلياس واقفاً... لا كمن يتأمل
مصيره، بل كمن استُدرج إليه.

لم يُختر، بل دُفع — بقوة لا اسم لها — إلى مفترق لم يصنعه بيديه،
ومع ذلك، ها هو يُحاسب عليه وحده.

هل كان الأمر قَدَرًا؟

أم أن الفضول، ذاك الحريق الناعم، هو من أوقعه في شركٍ لا يرى
حدوده؟

كان يبحث عن ملاذٍ يقيه من ظلال ماضيه، فإذا به يعثر على هوة
تسكن جسده ذاته... مكان لم يكن مختبئاً في الجدران، بل في
الأنسجة، في الذاكرة، في ما لا يُقال.

وسواء أكان القدر هو الفاعل، أم فضوله الذي لم ينم منذ الطفولة،
فقد حدث ما لا عودة منه...

لقد فتح باباً لم يُفترض أن يُفتح، باباً لا يقود إلى أسرارٍ فقط، بل

إلى إعصارٍ داخلي، كما قالت له تلك المرأة الألفا ذات الصوت الأشبه
بنبوءة تحذيرية من زمن غامض.

فهل يمكنه التراجع الآن؟

أم أن الكائن الهارب بداخله — ذاك الذي ظنه ماضيًا — قد أفلت،
يعدو حافيًا، ويضحك كسايكوباتي؟

في داخله، في تلك التربة النفسية التي نُقِعت بندم قديم منذ أول انكسار
له كطفل، زُرعت بذرة ندم جديدة...

لكن هذه المرة، لم تكن بذرة فقط، بل بداية شجرة سامة ستمتد
بجذورها في كل قرار يتخذه من الآن فصاعدًا.

الفصل الرابع

عبور العتبة

كان الهواء في عيادة نور مشبعًا برائحة الكتب القديمة والشموع المعطرة، ذلك المزيج الغريب الذي يبعث الطمأنينة والقلق معًا.. صوت بعيد لعجلات سيارة تمر فوق حجارة الشارع، خافتًا كصوت ذاكرة تتنفس .. الجدران ناعمة وباردة، ملمسها يشبه جلد جرح لم يندمل .. على طاولة جانبية، شمعة عتيقة تحترق ببطء، تُصدر أزيزًا كأنها تهمس بقصة من زمن آخر ، كتقليد ثابت في حياة نور.

في الخلف مكتبة زجاجية تخزن كتبًا طبية و روحانية و فلسفية ومذكرات منسية.. الضوء ينعكس على زجاجها، فتبدو وكأن الكتب تراقبها.. على سطح المكتب، ساعة نحاسية صغيرة، ورثتها عن والدها كانت قد توقفت مرة عند الساعة **7:13** في صباح مكفهر... ثم عادت للعمل وحدها .. لم تنسَ تلك اللحظة، ولا ما تلاها.

نظرت إلى الصورة القديمة المعلقة في زاوية الجدار، إطارها المائل أزعج عينيها فعدلته بأناملها .. وجه أمها يبتسم لها كالعادة .. تهاطلت عليها الذكريات و شعرت بانقباض خفيف، كأن ماضيها مرّ من هناك للحظة و لمحها.

اتجهت إلى كرسيها الجلدي الداكن و جلست لتبدأ بعملها ..

لم تكن نور معالجة نفسية فقط ، كانت تقرأ ما بين الكلمات، وتتلمس ندوبًا لا تظهر على الجلد.

أخذت تُقلب ملفات مرضاها بصمت، لكن ذهنها كان في مكان آخر بعد أن فاجأها آخر مريض بسؤال عن هندسة المشاعر التي قرأ عنها .. قصتها مع هندسة الندم كانت قد بدأت منذ سنوات، حين سمعت بها أول مرة في ندوة سرية داخل المعهد الأوروبي للتحليل السلوكي .. كانوا يتحدثون عنها كأنها خرافة... أو تهديد.

ماذا لو أمكننا إعادة تشكيل مشاعر الندم ؟

هكذا سأل أحدهم يومها .. لم تنسَ العبارة.

ورغم أنها لم تخض في ذلك المجال عملياً، إلا أن الفضول بدأ يتسلل إلى عملها اليومي .. لم تعد الجلسات بالنسبة لها مجرد استماع ، بل محاولات دقيقة لرسم خريطة ندم كل مريض، لمعرفة متى بدأ، وكيف تغير، وكيف يمكن - نظرياً - إعادة هندسته دون أن يفقد الإنسان إنسانيته.

أحياناً، كانت تتساءل إن كان ما تفعله نوعاً مبطناً من تلك الهندسة .. أكانت تتلاعب بالندم فعلاً؟ أم أنها فقط تُعيد تأطيره في ذهن المريض؟

اقتحم ذاكرتها فجأة بدون دعوة مريض قديم " لوثر " ، و في لمحة أقرب إلى الحلم ، انكشئت ذاكرتها على وجهه. لوثر .. المريض الذي كان يضحك بصوت عالٍ ثم يجهش بالبكاء بعدها بثوانٍ .. آخر جلسة بينهما، أخبرها عن شعور " العجز النفسي " ... حيث أنه يسمع باستمرار صوت نفسه وهو يسقط من شاهق دون أن يستطيع إنقاذها .. حتى نهشه الندم و الذنب حياً.. بعد أسبوع، أبلغت بأنه قفز من شرفة شقته، تاركاً ورقة بيضاء عليها رمزان مرسومان بقلم أزرق : وردة ومثلث.

حاولت طي الذكرى بعد ذلك ، لكنها كانت تعود في كل مرة تفتح فيها ملفاً جديداً... أو تُشعل شمعةً في الظلام ..

في ذاك المساء، وبينما كانت تكتب يومياتها ، كتبت و هي شاردة جملة خطرت على بالها بدون وعي :

الندم ليس شعوراً، بل هندسة داخلية للزمن

حدّقت في الكلمات طويلاً.. شيء ما تجهله كان يتغير في أعماقها ،

ببطء نعم .. لكن بثبات.

أغلقت دفتر الملاحظات واستعدت للخروج لزيارة صديقتها حين لمحت إشعارًا جديدًا على شاشة حاسوبها المحمول .. يريد إلكتروني آخر مجهول المصدر، عنوانه فقط :

هل ترغبين في معرفة الحقيقة ؟

ترددت قبل فتحه.. لكن شيئاً في العنوان بدا وكأنه موجه لها شخصياً هذه المرة أيضاً ، فهل هو نفس المرسل ؟! لم تتمكن من كبج فضولها ضغطت على الرسالة، لتجد ما يلي :

د. نور حداد

لقد لاحظنا اهتمامك المتزايد بما يُعرف بهندسة الندم

إن كنتِ ترغبين في معرفة المزيد، فتعالى إلى هذا

العنوان في إسطنبول خلال سبعة أيام:

حي فاتح، شارع شريف باشا، الباب الأزرق بدون رقم.

الساعة 7:13 مساءً

لا تُخبري أحداً.

**ملاحظة: نعلم أنك كنتِ تفكرين اليوم في إعادة فتح ملف مريضك
لوثر الذي انتحر عام 2018 ..**

**نعلم أيضاً أنك تكتبين ملاحظات بخط يدك ثم تحرقينها، وتحفظين
بالرماد في علبة شاي قديمة خلف الكتب النفسية.**

لا تخافي .. لكن لا تتجاهلي ..

ملاحمها تجمّدت بدون أدنى رمشة ، كما لو أن الزمن تجمد ثم اكمش على ذاته ..

كيف يمكن لأحد أن يعرف ؟

تفاصيل كتلك لم تخبر بها أحداً قط.

لا أحد يعرف... لا أحد !

كانت الرسالة مختلفة هذه المرة .. ليست كالسابقة، ليست مجرد كلمات مبهمّة أو فضول عابر.

بل كانت موجّهة إليها هي، بالاسم، بالجرح، بالذاكرة.

كان من كتبها قرأ فصول حياتها السرية، وعرف ما لا يُقال، وما دفنته في عمقها طويلاً.

شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، مزيج من الخوف والدهشة.

مدّت يدها إلى لوحة المفاتيح، أرادت أن ترد، أن تقول شيئاً... لكنها تراجع.

ليس الآن.

الشجاعة لم تكتمل بعد .. ربما غداً .. ربما بعد لحظة صدق تأتي متأخرة.

لكنها كانت متأكدة من أمر واحد :

ستذهب ..

رغبتها في المعرفة ستغلبها، كعادتها دائماً.

ولم يكن هذا الإحساس جديداً عليها، بل كان يشبه نبوءة داخلية تعرفها منذ زمن ، أن هذه لن تكون الرحلة الأخيرة ، و أن ما ينتظرها بعد هذه الرسالة، أعمق و أبعد و أكثر من مجرد صدفة .. شيء غريب يجعل من السريالية ذاتها واقعاً مفهوماً ..

حين هبطت قدمها على أرض إسطنبول، شعرت نور كأنها تهبط في طبقة زمنية موازية، مدينة عالقة بين الأمس والغد، تماماً كما هي... عالقة بين ما كانت عليه وما قد تصبح.

الهواء هنا له رائحة البحر والحنين، كأن الندم يطفو في الأفق مع طيف مآذنها وظلال شوارعها الضيقة.

كل حجر في المدينة بدا لها كشاهدٍ على سرٍّ لم يُقال، تماماً كروحها المثقلة بأسرار لم تُفهم بعد.

سحرُ إسطنبول لم يكن في جمالها فقط، بل في تناقضها الصارخ .. شرقٌ يعانق الغرب كما يعانق الشعور بالعجز رغبة الخلاص.

وبين الأزقة المتعرجة، شعرت نور أن المدينة تتنفس مثلها... تنهيدة طويلة لا تنتهي، هندسة متقنة من طبقات الندم والنجاة.

إنها ليست مجرد مدينة من حجر فحسب ، بل مخطط شعوري حيّ، كأن من بناها كان يحاول أن يصمّم طريقة لفهم الندم ..

ومنذ اللحظة الأولى، أيقنت نور أن رحلتها نحو الإجابة قد بدأت بالفعل، وأن إسطنبول ليست محطة أخيرة ، بل بوابة أولى لفك شيفرة الذات.

تجولت بين الأزقة القديمة في حي الفاتح ، تبحث عن شارع

شريف باشا إلى أن وصلت إليه .. مشيت فيه تبحث عن الباب المذكور في الرسالة حتى بلغت كنيسة مهجورة قيل لها إنها تحوي أرشيفاً بيزنطياً خفياً يعود للقرن الرابع .. المكان مغلق تماماً عدا باب صغير أزرق كما وصف بالرسالة تماماً ، نصف متهاالك و بدون رقم ، في الجهة الخلفية من الكنيسة .. كان مفتوحاً كأنه ينتظرها .. نادى على القاطنين فلم يجيبها أحد ، فكرت قليلاً ثم دفعت الباب أكثر و دخلت بحذر ..

في الداخل كانت المفاجأة تنتظرها ، رجلٌ مسنٌ بملابس كهنوتية ، يجلس خلف طاولة عليها شمعدان ذهبي مشتعل و فقط .. حين رآها ابتسم و قال ببساطة :
= تأخرتِ أيتها المستقبل !!

تجمدت في مكانها .. من أين يعرف هذه الصفة عنها ؟!

لحظات و عرّف عن نفسه أنه الأب خليل .. رجل كهنوتي عريق ناهز السبعين .. في قسمات وجهه تجتمع الحكمة والندوب، كأن الزمن مرّ عليه بتؤدة، يوقّع على كل تجعيدة بختم تجربة .. عيناه، بنيتان كجمرٍ تحت الرماد، لا تنظران بل تكشفان، كأن فيهما مرآة للضمائر.. صوته لا يعلو، لكنه يعلم، يحمل نبرة قديسٍ فقد إيمانه ولم يتخلّ عن الرحمة .. في حضوره، ينكمش الصخب، وتنظم الفوضى كما لو أن الصمت نفسه يخشاه .. كان يعرف من أين يأتي الندم، لكنه لم يكن يعظ، بل يرافق التائهين بصبرٍ هندسيّ، يرسم لهم مخرج لا يرونها ..

رداءه الكهنوتي ليس زياً بل ظلٌّ ثقيل من الأسرار التي حملها طوعاً .. لا أحد عرف من أي باب دخل إلى الإيمان، لكنه ظل حارساً

لأبواب لا يجرؤ غيره على فتحها .. كان أبًا لا بالدم، بل بالحكمة،
وبقايا حب نجا من الحروب الداخلية.

شرع يحدثها عن نفسه بدون مقدمات ، عن هندسة المشاعر و كيف
أنه كان آخر من امتلك نسخة مما يُعرف **بخرائط التوزيع العاطفي**
، وهي مخطوطات هندسية مشفرة ترسم طيف المشاعر في البشر..
كما أخبرها بشيء هام آخر :

= رأيت جهاز تفريغ الندم عندما كنت شابًا .. في دير فرنسي يدعى
سانت غيوم .. لم أجرؤ على لمسه.. لكنك وذاك الرجل الياس رافنر
توشكان على فعل ما هو أكثر من ذلك ..

ذهلت نور، فلأول مرة يُذكر اسم إلياس أمامها ، لذا سألت بفضول
مشوب بشعور آخر مبهم ..
= و من هو رافنر هذا ؟!

لكن الأب خليل لم يجب .. فقط أعطاهم لفافة جلدية وعليها رسم...
الرمز ذاته الذي رآه إلياس في الدير و رآته هي في حلمها :

(وردة داخل مثلث، داخل دائرة مفتوحة)

ثم قال بنبرة باردة زحفت كالصقيع إلى أذنيها :
= الرمز مفتاح... لكنه لا يفتح شيئًا، بل يسبر أغوار من يعثر عليه.

سألت نور، وهي تحدّق في الرمز كمن يرى خريطةً لروحه ولا يفهم
لغتها :

= و ما معنى هذا الرمز الغريب يا سيدي ؟

رفع عينيه بتأنٍ، كما لو أنه يستدعي ذاكرة ليست من هذا العمر، وقال بصوتٍ بدا وكأنه يخرج من عمق بئرٍ قديم :

= ليس رمزًا واحدًا، بل ثلاث نبوءاتٍ متشابكة... **الوردة** هي المشاعر .. ناعمة، خادعة، دامية... وعلى رأسها الندم، سيد الآلام التي لا تنام .. أما **المثلث**، فهو العقل، ذاك الحارس المتغطرس الذي يظن أنه قادر على احتواء المشاعر، تهذيبها، ترويضها كوحش في قفص من المنطق .. و أخيراً **الدائرة** ... هي الزمن ، ذاك السجن الذي لا نراه لكنه يطوّقنا جميعًا .. لكنها هنا منكسرة، كما لو أن أحدهم قد كسرّها عمدًا ليترك منفذًا، بابًا للهروب .. تخيلي يا ابنتي، لو تمكن الإنسان من قذف أحماله الشعورية السلبية خارج الروح، هذا هو أمل أخوية النور المكسور، في عهدها الأول على الأقل قبل أن تنحرف و ننشق عنها .. و هذا الرمز هو نشيدها

صمتت نور لحظة، وقد أرهاقها تأمل المعاني، ثم سألت بفضولها المعتاد عن الشيء الذي أثار دهشتها منذ استلمت الرسالة :

= لكن ... لماذا اخترت أن نلتقي في الساعة **7:13** بالضبط؟ ألا يبدو التوقيت غريبًا ؟ الناس عادة تفضل تمام الساعة .. انصافها .. ارباعها !!

ضحك الأب خليل ضحكة خفيفة، لا سخرية فيها بل أسرارٌ لا تُقال كلها ، ثم أجاب :

= لأن **7:13** ليس مجرد رقم ... هو توقيع الزمن حين يفقد توازنه .. الرقم **7**، هو رمز الاكتمال .. سبع سماوات، سبعة أيام، سبعة منافذ للنفس... هو دورات الوجود، الكمال حين يتوازن العقل

والشعور.. أما الرقم **13**... فهو الكسر .. رقم القلق، العبور، الخروج من النسق... رقم التمرد المقدس .. في الغنوصية الرقم 13 ليس شؤماً، بل لحظة الانفصال عن الوهم، أول خطي الحقيقة .. و بذلك يكون الرقم **7:13** هو تصادم النور مع الشك، لحظة اختراق الضوء لجدار النفس ، إنه الموعد المقدس الذي تتصدع فيه الدائرة وتُفتح فجوة صغيرة... تكفي فقط لخروج الشعور المتكلس، و ولوجك إلى ما بعد الحواس .. و هو الرقم المقدس بالنسبة لنا .. نحن الذين تمردنا على الأخوية ..

اقترب منها، صوته انخفض كمن يلقي سرّاً في أذن جبل :
= حين تلتقي خطوطك بخطوط إلياس، بفضل **كاسيان**، ستشعرين بجوهر هذا الرقم كتجلي... وستفهمينه ليس بعقلك، بل بذاتك كلها.

هنا عقل نور لم يعد يحتمل .. انفجرت أسئلتها كطلقات من بندقية في يد مرتجفة تحت الحصار :

= أي تجربة أبتاه؟! من أنتم؟ ما هذه الأخوية؟ ولماذا التمرد؟ ومن هو كاسيان؟ وكيف تعرف عني وعن المدعو إلياس؟ ولماذا نلتقي أنا و هو أصلاً؟

نظر إليها بعينين امتلأتا بحنان لا يشبه الأبوة، بل يُشبه معرفة أعمق ، حزن المعلم الذي يعرف أن كل إجابة هي باب لألم جديد .. لم يجب .. بل نثر مسحوقاً رمادياً فوق الشمعدان، فاشتعل اللهب فجأة في دوامة من الضوء والظل كما أفعال الحواة... ثم تلاشى الأب خليل. بقيت اللقافة على الطاولة تشتعل بلون فوسفوري ساطع . ووسط الرمز الثلاثي، انبثقت الكلمات :

عبور العتبة : الساعة 7:13

نظرت نور إلى ساعتها .. كانت متوقفة عند **7:13** بالضبط !!
تماماً كما حدث لإلياس من قبل .. اللحظة التي ولج فيها من
العتبة إلى الغرفة، فتوقفت ساعتها، كأن الزمن نفسه انحنى وابتلع تلك
اللحظة... ثم جمدها.

إنها ليست صدفة جمعتهما معاً .. إنها لحظة عبور من (العالم
العادي) إلى (عالم هندسة الندم) ، حيث لا تُقاس التجارب
بالساعات، بل بالتحويلات.

الرقم 7:13 ليس وقتاً ... بل بوابة .. لحظة انكشاف الدائرة، حين
تُستخرج المشاعر المدفونة من جرح الزمن وتُطلق نحو الشفاء أو
الفناء.

و **العتبة**، فهي في الميثولوجيا القديمة، ليست مجرد مدخل ، إنها خط
فاصل بين الحُجُب والوضوح، بين من يعتقد أنه يعرف، ومن جُرّد
من أوهامه بالقوة.

أما **المرشد السلبي** فهو شخص لامس الحقيقة، وارتد عنها مرتعشاً
مترددًا في عبور العتبة .. الأب خليل كان كذلك ، عرف الرمز،
عرف جهاز هندسة الندم ، وسمع أنين التجارب السابقة .. لكنه لم
يملك شجاعة العبور .. هو مرشد سلبي، يضيء الطريق لكنه لا
يسلكه، يؤمن بأن الحقيقة لا تُعطى لكل أحد، بل تُسَلَّم فقط لشجعان
خُلقوا كي يحترقوا بها .. إلى مختارين لا يشبهون أحداً .. و كما يثق
المتوردون على الأخوية ، فإنّ الياس و نور من سلالة هؤلاء
المختارين.

الفصل الخامس

القديم الرابعة

مضت عدة أيام أخرى على حادثة الدير ، و الياس لم يعد أبداً كما كان ..

لم يخبر أحداً عن الغرفة السوداء .. لم يرسل حتى أي تقرير مهني إلى مكان عمله .. كما لم يكتب سطرًا واحدًا في دفتره المعتاد. لكنه بدأ يرى كل ليلة منذ عاد من الدير، حلمًا جديدًا غريباً عجز عن تفسيره :

أرض من رمال سوداء .. أربعة آثار أقدام مفترضة .. لكنه يرى ثلاثاً منها فقط ..

محملاً بأثقال الأسئلة التي لا تهدأ عن الرمز غير المفسر و الحلم غير المفهوم ، ناهيك عن الكلام الغامض للمرأة ألفا التي قابلها في أنجيه .. بحث في دفاتر مذكراته وكتب دراسته، كما عبر متاهات الإنترنت اللامتناهية، يفتش عن نور يبدد ظلام الحيرة .. عن أجوبة أو تفسير لحفنة من تلك الأسئلة على الأقل ..

ثم، كومبض خاطف في ظلمة المجهول، اصطدم خلال بحثه على المتصفح باسم عالمة رموز إيطالية، دكتورة **فيرونیکا ماريني** ، امرأة تحمل في عينيها بريق الحكمة وكنوز الأسرار .. كانت ماريني مشهورة بأبحاثها في مجال الرموز الغامضة و بالتحديد (الرموز غير القابلة للترميز) ، لذا كانت محط أنظار الباحثين في روما، حيث التاريخ يلتقي بالغموض.

كتب لها رسالة يفيض بها الفضول والقلق، شرح فيها ما رآه و ما أحس به، وأرفق صورة الرمز الغريب، طالباً فرصة اللقاء أو حتى استشارة سريعة.

لكن لم يصله منها جواب عاجل يشفي عقله المتهيج ، فقرر أن يجعل من روما وجهته، مدينة العراقة التاريخية حيث تصطف الأبنية الحجرية وتخفي بين جدرانها أسرار العصور ، هو كان عازماً على زيارتها قريباً كسائح ، فليضرب إذن عصفورين بحجر أثري واحد

في مكتبها البسيط قرب ساحة نافونا، حيث تلتقي أصوات الموسيقى بعطر التاريخ، التقى إلياس بفيرونيكا ، التي أخذت تقرأ بتمعن صورة الرمز (الوردية ، المثلث و الدائرة) .. نظرت إليه بعينين عميقتين كأنهما تريان ما خلف الغطاء، ثم قالت بصوت هادئ وثقيل :

= هذا الرمز ليس مسيحياً... ولا وثنياً .. إنه أقدم ، مستوحى من مفهوم رمزي غامض نحن نسميه في الأوساط الرمزية : **القدم الرابعة** ..

رفع حاجبيه من الدهشة و هو يتذكر الحلم الغريب :

= ماذا تعنين ؟

= أثر القدم الرابعة يرمز إلى الأثر غير المرئي، الوجود غير المحسوس، أو الندم الذي لا يراه أحد لكنه يغيّر كل شيء .. لدينا ثلاث خطوات يمكن رصدها دائماً : الماضي ، الفعل ، و النتيجة .. لكن الندم هو الخطوة الرابعة الخفية التي تظل تلاحق الإنسان.

تجمد مكانه مصعوقاً و هو يتذكر حديث سيدة أنجيه عن هندسة الندم.

صمتت العالمة فيرونيكا للحظات ثم أضافت :

= وهذا الرسم ليس رمزاً فقط .. إنه مفتاح نمطي .. الرمز يغير شكله بناءً على وعي من يراه .. في بعض النصوص، كانت الدائرة مقلوبة .. في أخرى، كانت الوردية سوداء ..

ثم ابتسمت و قالت بهدوء مريب :

= أعتقد أنك بدأت تتغير بدورك ، سيد رافنر ..

خرج الياس في ذاك المساء من مكتب الدكتورة فيرونيكا و هو شارد في اللامكان و اللازمان بين ساحات روما ، حيث تتشابك الأزقة كأغصان شجرة تتلاشى بضباب التاريخ .. يسير وحيداً، مثقلاً بعبء الأسئلة التي أتى كي يجيب عنها فعاد مع أحفاد لها .. أسئلة لا تترك له مهرباً من صمت الليل .. تاه بصره بين الوجوه المجهولة وأبواب المحال المغلقة، حتى جذب انتباهه متجر صغير في طريقه، كأن الزمن توقف عند عتبه .. ربما لو مر بجواره منذ بضعة أيام لما أثار انتباهه .. و لكن اليوم هنالك شيء مختلف ..

كانت نافذة المحل تعانق ظلال الماضي، مفروشة بأشياء نادرة وعتيقة، تموج بأصوات خافتة لا يسمعا سوى من يجرؤ على التوقف .. وبين الفوضى المنظمة، تسالت عيناه إلى صورة معلقة بلا حراسة، ورقة مصفرة تحمل سرداً صامتاً.

تقدم ببطء، كأنه يخشى أن يخترق لحظة سرّ مقدس.

كانت رسمة متقنة لغرفة الدير نفسها التي حطمت هدوء روحه منذ أيام ، تلك الغرفة السوداء التي تحيط بها ظلال لا يفهمها إلا من ذاق طعم الندم .. صورة قديمة، موقعة بخط فرنسي يهمس بجملة فيها حنين لمستقبل لم يأت بعد :

C'est ici que tout a commencé

(هنا حيث بدأ كل شيء ..)

كأن تلك الصورة لم تكن معروضةً صدفةً، بل كانت نداءً عليه شخصياً ، وضعت كي يراها اليوم و حسب !! ..

اقترب من الرجل المسنّ مالك المتجر و الذي يحمل المحل اسمه
الشخصي (**دانييل**)، كان يجلس خلف طاولة مغطاة بقطع أثرية
وأوراق بالية، عيناه تحملان بريقاً من الأسرار التي ترفض الإفصاح
.. حياه ثم رفع الصورة ببطء، وأشار إليها متسائلاً :

= هل يمكنني معرفة من أين جاءت هذه الصورة سيدي؟ هل تعرف
أصلها؟

تنهد الرجل بعمق، وصمت قليلاً كما لو كان يستحضر أصوات
الماضي الخافتة، ثم قال بصوت مزيج بين الثقة بالجواب و الحيرة
بأبعاده :

= هذه الصورة ورثتها عن جدي .. كان رجلاً غامضاً، ظلًا يمشي
بين البشر، لا يعرف عنه أحد سوى القليل .. كان يحمل أسراراً أكبر
من أن تبوح بها شفتاه، و رغم أننا كنا نعرفه كمهندس أثري ، كان
يبدو و كأنه جزء من شبكة خفية، من تنظيم لا تكتب عنه الكتب ولا
تُروى عنه القصص .

توقف برهة، كمن يسترجع نبضاً قديماً لا يزال حيّاً في الذاكرة، وأخذ
يقلب الصورة بين يديه كعناية الأم بوليدها .. ثم أدارها ببطء، وأشار
بإصبعه إلى عبارة دقيقة، تكاد تُقرأ همساً، منقوشة بخط رفيع على
ظهرها، وقال بصوت خافت كأنه يستدعي صوتاً من الماضي :

= ذات مساء بعيد، سلّمني جدي هذه الصورة وقد علا وجهه ضوء
غريب، ضوء أشبه بشمس تغرب في عيني من عرف الحقيقة الكبرى
.. قال لي يومها :

{ أنا رجل محظوظ، وفخور بأنني عبرت تلك العتبة بقدمي. دخلت
الغرفة التي في الصورة وخرجت منها إنساناً آخر .. كانت تلك

الغرفة نقطة تحوّل في مجرى التاريخ، لا لأنني غيّرت العالم فحسب، بل لأنني سمحت للعالم أن يغيّرني .. خذ هذه الصورة، وعلّقها أمامك، في صلب عملك، لتذكّرك دومًا بما رأيت وما لم تر، واحفظ هذه المقولة كما تحفظ النّفس في لحظة غرق:

الندم جرح في نسيج الزمن، و الحبّ لا يعيد عقارب الساعة، بل يقطع الجرح أن يزهر.

لا تنسَ هذا أبدًا... فالندم سرطانٌ ينهش الروح، والحبّ هو الترياق الوحيد الذي لا يُباع ولا يُصنع، بل يُولد بين ضلع ونبضة { ..

ثم نظر دانييل إلى الياس بثبات، كأنما يقرأ في ملامحه خريطة لحدث لم يقع بعد، وأضاف وهو يشير إلى جدران المحلّ حوله :

= ومنذ ذلك اليوم، التزمت بوصيته .. علّقتها هنا، في هذا الركن المتواضع من العالم، انتظارًا للحظة كهذه ... لحظة قد تكون تجسيدًا لنبوءته، أو بداية لشيء أعمق مما نراه في هذه اللحظة العابرة ..

في اللحظة نفسها، وفي مدينة إسطنبول، كانت نور تمسك لفافة الأب خليل وتحاول ترميم جزئها المحترق، لتظهر تحت الرماد كلمتان إضافيتان :

(الياس رافنر)

لم يعد إلياس العالم المادي البحت ، لقد بدأ يتأثر على المستوى النفسي العميق بالغرفة السرية المخفية و هندسة الندم و الرمز الغريب .. بدأ يعاني من الكتمان، الحلم المتكرر، الانعزال، الهاجس ... كلّها أعراض من دخل دائرة رمزية مغلقة .. و أيضاً كان هنالك الحلم المتكرر بثلاث خطوات بدلاً من أربعة الذي لم يتوقف بعد ..

أكثر من ذلك ، هو لم يخبر أحدًا بما حدث و يحدث معه و هذا كله تغير حاد في السلوك الشخصي و المهني ..

جلس على حافة السرير في غرفته الباردة كأعماقه، يحدّق في الجدار وكأن فيه نافذة تطلّ على زمنٍ مضى .. كان الليل قد تسلل إلى الزوايا، لكن ذهنه لم يكن في الحاضر.. كان هناك، في ذاكرة بعيدة، عمرها أكثر من ثلاثين عامًا.

عمره ثلاث سنوات .. هذا كل ما كان يملكه من والديه : ثلاث سنوات.. بالكاد ملامح، بالكاد أصوات .. يتذكر وجه والدته كضوء خافت في آخر نفق الحلم، ويدها التي كانت تمسح على رأسه عندما كان يبكي من دون سبب .. أما والده، فلم يكن سوى صورة بالأبيض والأسود في درج قديم ، صورة ضبابية لا تحمل دفئًا ولا رائحة.

يتذكّر الليل الذي انفجر فيه صراخ الناس ، كيف أخرجوه من مقعده على عجل، انتزع من حضن والدته أو ما تبقى منه ..

الحادث المشؤوم ، قالوا له بعد سنوات، حادث سيارة يتحمل مسؤوليته بشكل جزئي لأنه أزعج والديه ببكائه المستمر ففقد والده التركيز و لم ينتبه للحافة القادمة من مفترق طرق .. لكن في ذاكرته لم يكن الأمر سوى ظلام مفاجئ وصوت زجاج يتحطم، ثم صمت طويل من ندم لا ينتهي.

بعدها جاء الميتم ... بابٌ صدى يُغلق خلفه، أطفال كثيرون سيكون ولا أحد يجيب.. كل صباح كان يصحو على بكاء طفل جديد، وكل ليلة ينام متمنيًا أن يستيقظ في بيتٍ آخر، بوجهٍ يعرفه، بصوتٍ يقول له : (اشتقت إليك) ..

لكن لم يأت أحد ..

لم يكن الحزن أسوأ ما في الميتم .. الأسوأ كان النسيان .. أن تبدأ ملامح والدتك تختفي من ذهنك ، أن تبحث عن صوت أبيك فلا تجد سوى صدى خاوٍ .. أن تكبر وأنت تحاول ألا تتعلّق بأحد، لأن كل

من تعلّقت بهم اختفوا .. و كأنّ الحب لعنة لا يليق بك أن تعيش
طويلاً في عالمك .

تنفّس إلياس ببطء، كما لو كان يعيد ترتيب الألم في داخله و يهندس
مشاعره بخبرته الهندسية المهنية .. نظر إلى يديه، كأنما يريد أن
يرى فيهما بقايا من الماضي ... لكنه وجدتهما فارغتين ، كما هي
ذاكرته الأولى بالضبط ..

الفصل السادس

المتابعة

ثمة أماكن لا نزورها بأجسادنا بل بندمنا، كل ركن مهجور
يحتفظ بصدى خطوة لم نجروا على اتخاذها، وكل باب مغلق لا
يزال ينتظر اليد التي ارتجفت أمام مقبضه.. الندم ليس شعورًا...
إنه عنوان على خريطة لم نكمل رسمها

خرجت الكلمات من فم نور باللاوعي، و هي تغادر كنيسة الأب
خليل في إسطنبول عقب لقائهما ، بينما تحدّق في الورقة المحترقة
بين يديها و اسم الياس عليها .. لا تدري من أين جاءت الكلمات ،
و كأن الغرفة هي من هندست الكلام و الشاعر في أعماقها ، لكنها
كتبتها في مفكرتها على الفور، وكأنها تعرف أنها ليست مجرد تأمل
عابر، بل علامة ..

أمسكت كاميرتها و التقطت مجموعة صور لإسطنبول المذهلة كما
اعتادت مع كل زيارة لمدينة جديدة .. و بينما كانت تقلب بينها لتقييم
جودتها ، تجمد بصرها فجأة على صورة لدير مهجور في أثينا
التقطتها في آخر رحلة سياحية إليها ، لكنها هذه المرة لاحظت شيئًا
لم تره من قبل ..

في لحظة ظل خاطفة، ظهر على أحد الجدران في الصورة حجر
يحمل ذات الرمز الذي يطاردها في الآونة الأخيرة :
(الوردية، داخل مثلث، داخل دائرة مكسورة.)

و كان أسفل الرمز نقش مطموس، لم يُكشف تمامًا، إلا أنها استطاعت
أن تقرأ منه شيئًا واحدًا :

Regretum Architectura Radiceses — Jerosolyma

(جذور هندسة الندم — القدس)

انهالت الأفكار على دماغها كانهيار ثلجي ..
هل تلك المدينة المقدسة، التي طالما ربطتها في ذهنها بالوحي و

السلام ، ذات علاقة بهندسة الندم ، لا بوصفها مكانًا للخلاص، بل
كمسرح لجرح الندم الأول ؟

فتحت المتصفح و أخذت تبحث عن علاقة القدس بهندسة الندم ،
فصادفت لدهشتها إعلانًا عن ندوة غامضة في اليوم التالي حول
{ الهندسة الرمزية في المعمار المقدس } بعنوان : (متاهة الندم)
، ستقام في كنيسة قديمة قرب باب الأسباط ..

و كأن الكون يواصل دفعها نحو نفس النقطة (الندم) ، مهما غيرت
الاتجاهات ، كما تفعل الآن بالتقاط الصور التذكارية ، تأرجح دماغها
بين أمواج عاتية من الأسئلة ..

هل أنا في المكان المناسب ؟ على الطريق الصحيح ؟ أم أنني سأندم
على قراراتي هذه ؟!

لكنني لم أطلب هذه الرحلة بإرادتي... أو ربما فعلت، دون وعي؟
كنت أبحث عن قصة، مجرد قصة جديدة، مثيرة، تكسر الملل
الأكاديمي و روتين العمل اليومي، تفتح أبواب السينما الوثائقية أمامي
، هوايتي الجانبية بعيداً عن عملي .. لكنني لم أكن أبحث عن ماضٍ
ليس لي.

منذ متى بدأت هذه الدوامة ؟ هل حين صوّرت الرمز لأول مرة في
أثينا باللاوعي ؟ أم حين تعرفت في الغرفة في إسطنبول على رموز
بمعانٍ أبعد من حدود الإدراك؟ أم حين وصلني البريد الإلكتروني
الغريب الذي يعرفني أكثر من نفسي ؟

أشعر بالخوف و الارتباك ..

لكن رغم الخوف ، رغم الشك ... هناك فيّ شيء ينبض بلا توقف
.. شيء كان فيّ منذ كنت طفلة .. الفضول المدهش .. كنت دومًا
أفتح الأدراج الممنوعة، أطرح الأسئلة التي يخشاها الآخرون ..

كان الغموض وقودي، والحقيقة هدفي ، حتى لو لم تكن مريحة.
أمي كانت تقول دائماً :

= بعض الأبواب لا يجب فتحها ..

لكنها لم تقل أبداً لماذا ؟ وعلمتني الحياة أن كل منع هو دعوة خفية
للاكتشاف.

أنا هنا الآن أمام خيار صعب و معقد .. لكن على الأرجح ، إن لم
أذهب ... سأبقى أتساءل للأبد .. أو الأسوأ سأندم بشدة لأنني لم أخطو
أو لم أمسك بمقبض الباب ..

ولهذا ... سأذهب ... سأمضي في هذه التجربة حتى النهاية ففيها من
الغموض ، الألغاز ، الأسئلة و الترقب ما يمنحني شعوراً بأنها و
بشكل غير مفسر مفصلة على مقاسي بترزيّ خبير ..

كانت القدس تزدهم بأسئلتها الروحانية الفلسفية كعادتها.. غبارها
ذهبي، لكنه يخفي تاريخاً لم يُشف بعد.

القدس لا تستقبل زائرها ، بل تختبره .. تمدّ له الأزقة كما لو
كانت شرايين قلب عتيق، وتنتظر أن يُصغي لنبضها ... أو يُرفض.
ونور استجابات بتوق ، بكاميرتها الصغيرة المعلقة على كتفها، تقدمت
بخطى ثابتة نحو منطقة باب الأسباط حيث الكنيسة التي تحتضن
المؤتمر ..

دخلت القاعة الحجرية بفضول يتأجج .. لم تكن مزدحمة، لكن
الحضور كانوا من نوع نادر : أعينهم معلقة في الفضاء، كأنهم
حضرّوا بحثاً عن شيء لا يعرفون اسمه بعد.

جلس في المقدمة رجل طاعن في العمر، أنيق في بذلة رمادية باهتة، له لحية بيضاء مرتبة وصوت يشبه أوراق الخريف حين تتحرك فوق الإسفلت.

نهض و عرّف عن نفسه بأنه البروفيسور **ريكاردو دي فالنتي**، متخصص في علم الرموز المعمارية، ودرّس لعقود ما أسماه (المتاهة الشعورية) ، ثم رفع يده، كمن يرسم دائرة في الهواء، وقال :

= تخيلوا الندم... لا كخطٍ وقع، بل كمعمار بُني داخل النفس. متاهة لها جدران، منافذ، أبواب وهمية، ومخرج واحد لا يرى إلا من الداخل .. في بعض الثقافات القديمة، كان يُقال إن كل إنسان يُولد وفي داخله مدينة خفية .. إن لم يزرها في حياته، أحاطه طيفها عند موته ..

سكت قليلاً، ثم نظر نحو الجدران الحجرية حوله.

= هذه المدينة ... القدس ... ليست مكاناً فحسب، بل هي خريطة شعورية .. كل زاوية فيها تُعيد تمثيل صدى جرح، وكل معبر يوصل إلى شكل من أشكال الندم الجمعي .. هل تظنون أن تصاميم هذه الأزقة مصادفة ؟ لا.

في العمارة القديمة، كل خطّ كان مقصوداً .. لأنهم اعتقدوا أن الأرواح تشفى حين تمشي داخل شكل معيّن. و لهذا... وُجدت المتاهة.

ارتجف شيء ما في أعماق نور.. شعرت أن الكلمات لا تُقال للعموم، بل تنفذ مباشرة إلى قلبها، كأن أحدهم يقرأ خريطة خفية في داخلها.

رفع البروفيسور لوحة خشبية صغيرة، عليها نقش متآكل يُظهر متاهة ملتفة كالقوقعة، وفي قلبها رمز الوردية.

= هذه، وُجدت في دير مهجور فوق جبل الزيتون .. لا أحد يعرف
مَنْ نحتها أو متى، لكن من يعرف الرموز، يعلم أنها ليست مجرد
زخرفة... هذه هندسة ندمٍ لم يُدفن بعد .. هناك مَنْ يقول إن من دخل
هذه المتاهة ولم يفهم ما تعنيه، حملها معه إلى الأبد ..

همس لنفسه وهو يحدق في اللوحة :

= وإن فهمها... فقد نفسه، و وجد ما هو أثمن منها ..

نظرت نور حولها .. لم يكن أحد قد لاحظ أنها ترتجف، أو أنّ عينيها
اغرورقتا بالدموع ..

مضت ساعة أخرى و اقتربت الندوة من نهايتها .. الهواء في القاعة
بدا أثقل مما كان، كأن الأفكار التي طُرحت لا تزال معلقة في الفضاء
تنتظر مَنْ يتلقفها بجرأة.

وقف البروفيسور قرب حافة المنصة، وصوته صار أبطأ، أعمق،
أقرب إلى همسٍ روحاني :

= دعوني أختم بما لا يُقال كثيرًا في قاعات الأكاديميا ... دعوني
أختم بإلياس ..

تشنجت كل عضلة في جسد نور مع سماعها الاسم ، في حين ساد
صمتٌ مشدوه بين الحضور، كأن الاسم حمل معه شيئًا أقدم من
الكلمات.

= نعم، النبي إلياس... لم يكن نبيًا فقط، بل كان شاهدًا... مقاتلاً في
معركة لم تكن بالسيف، بل بالحقيقة .. وقف وحده على جبل الكرمل
هنا ، في مواجهة أربعمئة وخمسين من كهنة البعل .. لم يخف .. لم

يتراجع .. دعا النار إلى مذبحة لا ليُبهر أحدًا، بل ليُثبت أن النور لا يحتاج عددًا، بل صدقًا ..

ثم تمهل، عيناه تجولان في الوجوه أمامه.

= في كل زمن، هناك من يقف حيث وقف إلياس ... أمام الأكاذيب المتخفية في قداسة، أمام المنظومات التي تصوغ الألم وتسوّق للتخلص من الندم كفضيلة .. الباحث الحقيقي عن الحقيقة، لا بد أن يواجه وحده .. عليه أن يعرف أنه أحيانًا (النور) لا يأتي إلا إذا ناديت عليه من قعر العتمة.

أضاف أخيراً بصوتٍ عميق بدا كأنه وُلد من قاع ذاكرة بعيدة :
= وكل من يبحث عن مخرج من متاهة الندم، لا بد أولاً أن يحمل شعلة النور وحده... كما فعل إلياس ..

تسارعت ضربات قلب نور كموسيقى تصويرية في مشهد مخيف ... اسم إلياس ارتطم بروحها كحجر في ماء راكد.

هذا الشاب الغامض الذي تكرر اسمه كثيرا في الأيام الأخيرة كترنيمة وحي سماوية ..

من هو ؟

كيف شكله ؟

ما علاقته بها ؟

و هل هو ذاته الظلّ الغامض الذي يتبعها منذ طفولتها كطيف في أحلامها ..؟

خرجت من الباب، والقدس ما تزال كما تركتها...

لكن في عينيها، كانت هناك معرفة جديدة.

لا يمكن التراجع بعد الآن .. فلا طريق للعودة و لا خيار سوى
تحسس طريقها نحو مخرج المتاهة و هي تحمل شعلة النور لتضيء
الطريق ، ربما ليس لنفسها ، بل لشخص آخر ينتظرها ، عاش حياته
كلها يحارب الظلام بمفرده ..

الفصل السابع

التقريبان

لم يكن الليل في قيينا هادئاً تلك الليلة .. الريح تعبر شوارع المدينة القديمة كمن يُعيد كتابة ذاكرة حجرية نسيها الجميع. إلياس كان يقيم مؤقتاً في نُزل صغير في حي ليوبولدشتات، يحاول لملمة ما تبقى من نفسه بعد رحلاته السابقة ..

كان كل شيء هادئاً، حتى استيقظ فجأة في الثالثة صباحاً على صوت... صفير!

ليس صفيراً عادياً .. بل تتابع نغمي، أقرب إلى شفرة مورس موسيقية.. نغمات قصيرة وطويلة تتسلل من خلال جهاز التسجيل القديم الموضوع على الطاولة بجانب سريره .. لكنه لم يشغله .. ولم يكن يحتوي على شريط أصلاً.

نهض بتردد .. اقترب من الجهاز .. الصفير ما زال مستمرًا ... ما إن مد يده ليفتح الجهاز حتى انقطع الصفير . صمت مطبق ثانية ..

ثم ... خرج صوت رجل :

إلياس، لا تحاول الفهم .. فقط استمع .. الوقت يركض أسرع مما نظن .. تعال إلى محطة سفارتس بلاتز عند الساعة 7:13 صباحاً .. ستجد مقعداً خشبياً تحته رمز منحوت : **عين تدمع دموعاً حمراء** .. اجلس ولا تتكلم .. الموضوع هام و مصيري و يتعلق بك أنت ، أريد أن أنقذك

انتهى التسجيل .. ثم فجأة احترق جزء صغير من شريطه الداخلي

ليتلف التسجيل ..

لم يتردد الياس للحظة في تلبية الأوامر ، و في التوقيت المحدد تمامًا، كان جالسًا في المحطة المهجورة تقريبًا .. البرد يزحف إلى عظامه لكنه لا يبالي و الأمطار ثقيلة في كل مكان جعلت الناس تلتزم بيوتها في يوم عطلة .. المقعد كان هناك، والرمز محفور بدقة مرعبة.

جلس و انتظر ..

دقائق و ظهر رجل ببطء من طرف الرصيف المعتم .. لم يمش ... بل بدا وكأنه يطفو على الأرض .. معطف طويل يخفي حذاءه و نظرات ثابتة تقطر جدية .

= أنا بيوتير فالسكي ..

اقترب منه، جلس على الطرف الآخر من المقعد، دون أن ينظر إليه.
= لا تنتظر إليّ إلياس .. نحن نعيش في زمن تسرق فيه العيون أكثر مما ترى ..

مرت دقيقة ..

ثم أخرج فالسكي من جيبه جهازًا صغيرًا، أكبر بقليل من ولاعة .. ضغط عليه، فظهرت على سقف المحطة نقوش ضوئية، كأن السقف أصبح سماءً من الرموز القديمة المتحركة ..

= هل ترى هذا ؟ تخالها رموزًا .. لكنها ليست كذلك .. هذه ذكريات .. مشاعر محفورة في طيف الضوء ..

إلياس كان مأخوذًا بالمظهر ، عاجزًا عن الكلام ..

فالسكي تابع :

= الأخوية أخبرتك نصف الحقيقة فقط ، و أنصاف الحقائق أسوأ من الوهم .. أنت لست مجرد شاهد يا إلياس ... أنت جزء من الهندسة .. وأنا جئت لأنقذك فما ينتظرك قد يكون مرعباً للغاية ..

= من أنت بالضبط ، و ستنتقذني ممن ؟

التفت نحوه فجأة، ونظر في عينيه للمرة الأولى :

= أنا في الأصل عالم رموز وأنظمة إدراكية بشرية، كنت من أوائل من درسوا **نظرية تحويل العاطفة إلى بنية هندسية** ، انضمت إلى " الأخوية " في بداياتها عندما كانت لا تزال حركة فكرية فلسفية، قبل أن تتحول إلى كيان سري يمارس طقوساً خطيرة .. ثم انسحبت منها بعد حادثة مروعة في منشأة تحت الأرض تُعرف **بغرفة التبادل** ، حيث مات أحد طلابي بسبب تطبيق مفرط لتقنية هندسة الندم ، و من تلك اللحظة أعيش متخفياً تفادياً للانتقام الأخوية ، فمن يدخل إليها لا يسمح له بالخروج ..

= و ما الخطر المحدق بي ؟

قبل أن يجيبه فالسكي ظهر رجلان بملابس سوداء في زاوية من المحطة يرمقانها بنظرات تتأرجح بين المعرفة و اللامبالاة ، ارتاع فالسكي على نحو مفرط و أطفأ الجهاز في يده ثم غادر مسرعاً و بدأ يختفي وسط الظلام، كما جاء .. و خلفه، بقي صدى كلماته الأخيرة التي قالها على عجل عالقاً في هواء المحطة :

هندسة الندم ليست محاولة لفهم الماضي ، بل خيانة صامتة للحاضر .. إنها عبث بالعاطفة يقود العقل في المستقبل إلى هاوية لا قاع لها

مرّ أسبوع على لقائه الأول ببيوتر فالسكي، أسبوع من الصمت والتشويش.. خرج إلياس من الحانة يومها وقلبه مثقل بالإحباط.. كان المهندس البولندي قد غادر قبل أن يكشف شيئاً حقيقياً.. كلمات غامضة، ارتعاش في عينيه، ثم اختفاء مفاجئ وسط زقاق كراكوف البارد.

لكن إلياس لم يعد إلى فرنسا.

بقي، وتعمّق.. راجع أرشيف الجامعة التي زُعم أن بيوتر عمل بها، تتبع مراسلات إلكترونية قديمة، ووجد إشارات إلى صندوق بريد بديل اعتاد الرجل استخدامه منذ سنوات، كان مدفوناً في أرشيف موقع بولندي معنيّ بالفلسفة المعمارية الرمزية فقرّر إرسال بريد له على سبيل المحاولة.

و في إحدى الليالي، عندما عاد إلى غرفته الصغيرة في الفندق الشعبي أتاه الرد، وجد مغلفاً أسود بلا عنوان، منزلقاً من تحت الباب.. و في داخله خريطة للمدينة مع سهم يشير إلى مكان محدد.. و في الزاوية السفلية جملة قصيرة مكتوبة بخط متوتّر:

جاهز لمتابعة الحديث غداً.. الوقت ينفذ.. فالسكي

العنوان الذي يشير إليه السهم؟ نفس الحانة التي يرتادها يومياً على الساعة **7:13 مساءً**.. و في النهاية توقيع بكلمة غريبة:

القربان

لم يتردد إلياس و اتجه بالفعل في مساء اليوم التالي إلى الحانة.. دخل، فوجد بيوتر جالساً ينتظره بالفعل.. ملامحه منهكة لكن أكثر ثباتاً من آخر لقاء في المحطة..

أشار له بالجلوس دون كلمة.. ثم قال بصوت منخفض، وهو

يحرك كأسه على الطاولة بطريقة وسواسية :
= لم أهرب في ذاك اليوم .. بل كنت أختنق من الذاكرة ..

كان المكان هادئاً .. ضوء أصفر شاحب يهبط من المصابيح المتدلية
كسُرُج تحتضر..

جلس إلياس بصمت، يراقب أصابع بيوتر التي كانت ترتجف
قليلاً ..

= ما الذي تخاف منه؟

سأل إلياس، هذه المرة دون موارد.

= ليس ما فحسب .. بل مَن أيضاً ..

قال بيوتر، ثم التفت إليه مباشرة لأول مرة، وأضاف :
= أخبرتك من قبل ، أنت لست الوحيد الذي اقترب أكثر مما ينبغي
من الضوء المكسور ..

ارتجف تفكير إلياس في حين تبع فالسكي ..

= لقد أجبرت في آخر أيامي في الأخوية على تصميم هيكل هندسي
مرعب في دير مهجور قرب زاكوباني .. لم يعد له وجود الآن فقد
محي بالكامل ..

= و ما الهدف منه ؟

صمت بيوتر للحظة و نظراته تائهة بين خيارات معدومة.

= هل سبق لك و أن دخلت مكاناً فشعرت بالراحة و السلام ، في حين شعرت بالقلق و الإحباط في مكان آخر ، و ربما الغضب في مكان ثالث ، أو ندم في مكان رابع .. هل سبق لك و أن لاحظت أن بعض الأمكنة تمنحك مشاعر خاصة و كأنها تتلاعب بأحاسيسك ؟!
= بلا شك .. لاحظت بالفعل ..

= تخيل الآن أنك تبني مكاناً، ليس ليُسكن ، بل ليُحسّ.. غرفة لا تدخلها لتنام، بل لتنسى .. ممر مصمم لتفريغ الذنب ، لا لنقلك من مكان إلى آخر ، هيكل يجعلك تتوه في متاهة شعورية أو تدور في دوامة من الذكريات و الأحاسيس الممزوجة ..

هزّ رأسه ببطء، كمن يستعيد شيئاً ضاع منه :

= أظنك رأيت أحد تلك الأماكن، أليس كذلك ؟ الدير .. السرداب... اللوح... الغرفة التي لا تشيخ ..

تجمد الياس في مكانه .. من أين عرف بذلك ؟! لكن فالسكي لم يمنحه ترف التفكير و أردف على الفور ..

= تلك الهندسة ليست من ابتكارنا .. نحن فقط اكتشفنا آثارها... من زمن لا توثيق له .. الأخوية أعادت إحياءها و تطويرها كما حاول النازيون من قبل ، لأنها وجدت فيها طريقة لقراءة شعور الإنسان داخل الحجر، داخل الفراغ أو ربما إعادة تصميم تلك المشاعر بشيء يشبه السحر... لكنه ليس كذلك ..

أخرج بيوتر ورقة مطوية، رسم معقد يشبه اللوح الذي رآه إلياس الأول في الدير ، لكن بتفاصيل إضافية، ودوائر حمراء حول

زوايا معينة.

= هناك غرفة لا تزال قائمة، لم تكتشف بعد .. إنها الغرفة النهائية التي صممتها الأخوية لا أحد يعرف مكانها بالضبط ، لكنها تنتظر الشخص المناسب فقط كي يجربها ، و هذه الغرفة مرعبة بطريقة لم تشهدها أفسى زنازين التعذيب في أقبية أقذر السجون ، لا يسعني حتى التفكير بما يمكن أن تفعله بمن يدخلها ، تماماً كما تعيد تهيئة هاتفك فتمسح عنه كل شيء ، لكن عبر تجربة معاناة تطحن العظام ... و هذا الشخص المناسب يجب أن يتحلى بخصائص معينة لا يملكها أحد سواه ..

صمت قليلاً ثم نظر في عيني الياس و كأنه يشفق عليه مما ينتظره.
= هذا الشخص هو ... أنت الياس ..

تزايدت ضربات قلب الياس و كأنه صوت مغني أوبرا في الثواني الأخيرة من غنائه ، رفع حاجبيه بدهشة ..
= أنا ؟! لماذا ؟!

مال فالسكي إليه و همس ..

= هذا هو السؤال الذي لا أملك الإجابة عليه .. أنا متأكد أنك الشخص المنشود فقد ذكر اسمك أمامي مرات عديدة في الأخوية .. لكنني أجهل لماذا أنت بالتحديد ؟ و هذا ليس مرتبط الفرس في حديثنا سيد الياس .. المهم أن تنقذ روحك من هندسة الندم ، لأن نهايتك قد تكون وخيمة كنهاية طالبي العزيز الذي قتل خلال التجربة أو ربما ما هو أسوأ .. مصير طلاب آخرين فقدوا عقولهم و هاموا في ملكوت الجنون ، أخشى أن تكون القربان سيد الياس .. قربان اختارته

الأخوية كي تغير مستقبل البشرية ..

الفصل الثامن

مرآة بوجهين

لم تكن نور في قصرٍ، بل في ذاكرة مشيّدة.

قصر الحمراء لم يبذ لها معلماً سياحياً ولا أثراً معمارياً، بل كيئاً حياً يتنهد بحنينٍ دفين .. كل زاوية فيه تنطق، كل نقش يتموج تحت عينيها كأنه يرتب لها رسائل.

كانت تتجول في الباحة الكبرى بخطى حذرة، كأنها لا تريد إزعاج الحجر من تأمله .. رفعت رأسها نحو الأقواس المزخرفة، وفي قلبها سؤال لم تسمه : كيف احتمل هذا المكان كل هذا الجمال، وكل هذا الفقد ؟

اللون الأحمر الذي يسميه السائحون توقيع الحمراء ، لم يكن في عينيها سوى شيء آخر... دموع ندم .
نعم، كانت ترى الجدران تبكي.

الدموع الحمراء هنا ليست ماءً، بل ذاكرة .. وليست دمًا، بل كناية بشرية عن الندم .. ندم الملوك على عروش لم يعرفوا كيف يحافظون عليها ، ندم العاشقين على حب غالي فرطوا به ، ندم المعمار نفسه حين أدرك أنه صنع الجمال في زمنٍ لا يعرف كيف يحفظه.

وقفت وسط الباحة، وهمست لنفسها :

(هذا المكان يعرفني ... كما يعرف ما لم أبح به بعد.)

السياح يتنقلون كالظلال، و شيء ما في النقوش الأندلسية كان يخاطبها مباشرة : الزوايا، الكتابات، التماثل شبه المستحيل... نفس الإحساس الذي اجتاحتها في أزقة القدس ..

قبل يومين فقط، وصلها البريد الجديد .. ليس إلكترونيًا هذه المرة، بل رسالة ورقية، داخل كتاب مستعمل اشترته صدفة من

بائع متنقل في باب الأسباط ، عنوان الرسالة كان بسيطاً :
من لم ير انعكاسه... لا يمكنه أن يرى الحقيقة

مع توقيع :

م.ك - وصي الجناح الوردي

و بالخلف كان العنوان (قصر الحمراء / غرناطة .. الغرفة
المنسية) ..

تقلبّت الرسالة في رأسها كنائم قلق .. هل تسافر مجدداً أم تمنح روحها
استراحة محارب .. إنها مرهقة من الأسفار المتلاحقة .. لكن
الفضول - ذلك اللهب الذي لم ينطفئ منذ طفولتها - أكل المنطق و
حسم قرارها.

و هكذا كان ، ها هي الآن في صالة ضيقة خلف إحدى القاعات
المهجورة من القصر، وجدت باباً صغيراً لا يُستخدم ، لم يكن مغلقاً،
بل متروكاً بإهمال خلف ستارة حريرية تنتظرها .. دفعت نور الباب
بصمتٍ متوتر، ودخلت .. الغرفة بدت أشبه بتجويف في صدر
الأرض... ضيقة، سقفها ينحني بانحناءة مقلقة، كأنها كانت حجرة
سرية حُجبت عمداً عن الزمن.

لم يكن فيها أثاث، ولا نقش، ولا حتى صدى... فقط ظلمة ساكنة،
وريح خفيفة تتسلل من لا مكان.

لكن ما لفت نظرها لم يكن الفراغ، بل ذلك الضوء الخافت الآتي من
الحائط الأمامي، محجوباً بستارة ثقيلة كُتمت خلفها أنفاس النور.

اقتربت ببطء، ولم تعرف لماذا شعرت أن خلف تلك الستارة يكمن

سرّ لا يشبه أي سرّ واجهته من قبل .. مدت يدها وسحبت القماش
المخملّي بخفة...

لم تكن نافذة كما توقعت، بل مرآة.
لكنها لم تكن مرآة عادية... سطحها يشعّ بنورٍ ناعم لا يصدر منها
بل كأنه يأتي من عمقها .. لم يعكس صورتها مباشرة، بل شيئاً فيها...
أو خلفها... أو ما تظنه خلفها.

بدت كأنها بابّ بلا إطار، زمنٌ مُجمّد في زجاج.
كانت المرأة تنظر إليها، لا العكس.

وفي اللحظة التي لامست فيها نورُ إصبعها الزاوية السفلى منها،
شعرت برجفة خفيفة تسري في يدها، كأنها لامست ذاكرة قديمة...
ذاكرة لا تخصّها، لكنها نادتها بالاسم.

اقتربت نور أكثر، نظرت إلى المرأة .. لم يكن انعكاسها واضحاً، بل
مشوّشاً، كأنّ هناك شيئاً خلف زجاجها ... ثم لحظة ... ظهرت صورة
أخرى خلفها .. لا ظلّ، بل هيئة لرجل يرتدي معطفاً داكنًا، يقف في
ممر لا يشبه المكان إطلاقاً.

استدارت بسرعة ، لكن لا أحد.

في أعماقها فهمت : هذه ليست مرآة عادية، بل مرآة مزدوجة بوجهين
وجهها الآخر في مكان آخر ينظر إليه الآن ذلك الشخص الغريب ..
تراه ظلها و يراها ظله .. لكن من هو ؟

لم يتأخر الجواب كثيراً ، إذ لاحظت فجأة لوحة يتيمة قديمة معلقة
في الجدار الجانبي للغرفة ، اتجهت نحوها ، كانت عن باريس فبرج

إيفيل واضح ، مؤرخة سنة 1937 !! و فيها مجموعة شبان باللونين الأبيض والأسود و شاب وحيد بالألوان الزاهية ..في زاويتها ختم دائري يحمل رمزاً مألوفاً... وردة داخل مثلث، داخل دائرة.

شعرت بشعور غريب يجتاحها و همست لنفسها بلغة واثقة :
"إلياس"...

كان لقاؤهما الأول في مدخل الحمراء بلا ميعاد .. تأملت وجهه كثيراً
و شعرت أنها تعرفه منذ قرون .. !!

لم تعرف نور لماذا اختارت تلك الزاوية بالتحديد من المكتبة الوطنية
في مدريد .. كانت تنوي مراجعة أرشيفات غرناطة القديمة لتفهم
قصة المرأة والصورة أكثر، لكن شيئاً دفعها إلى القاعة 13-B7،
المخصصة للمخطوطات مجهولة المؤلف أو غير المكتملة.

رفعت مجلداً مغبراً بلا عنوان عثر عليها و لم تعثر عليه ..
أوراقه هشة، وكُتبت بخط يد متعرج بالحبر الأزرق الداكن.
في الصفحة الأولى، كانت هنالك عبارة منقوشة تقول :

وما الندم إلا قيئ إذا لم يفهم ...

توقفت عند توقيع صغير أسفل الصفحة :

م.ك - نسخة معدلة من غرفة الدير - تلال أوفيرن

الاسم المبهم مجدداً .. لقد بدأت تعتاد عليه تدريجياً كجزء من تقليد
رحلاتها ..

قلبت الصفحات .. الكلمات بدت كأنها شيفرة .. رسومات لمخططات
بنائية، أشكال دائرية تتقاطع، وفي الهامش، تعليقات باللغة اللاتينية
تتحدث عن :

جهاز تفريغ الشعور المكثف – المرحلة الثانية من المعمار العاطفي – الجناح الوردي

كانت مغمورة في ذهولها حين اقترب منها رجل خمسيني يرتدي
سترة رمادية داكنة، أمين المكتبة .. نظر إليها بتردد ثم قال :
= عذراً آنسة، شخص ما طلب مني أن أسلمك هذه الرسالة.
أعطائها بطاقة من الكرتون المصقول المقوى ..
= من ؟

سألته وقد استيقظت حواسها من سبات الدقائق المنصرمة لتتطرق باسم
وحيد (م.ك) ..
= رجل أنيق ... يرتدي بدلة داكنة وقبعة عريضة .. لم يذكر اسمه،
فقط قال إنك ستفهمين ..

نظرت إلى وجه البطاقة الأبيض .. و كان فيه سطر واحد:

مرآة واحدة لا تكفي ..

إذا أردت الاقتراب من الحقيقة أكثر ..

تعالى إلى قصر المرايا في بودابست ..

العنوان على ظهر البطاقة

م.ك

شعرت بتوتر أكبر يجتاح روحها كمغولي بربري .. من هو "م. ك"
هذا ؟ وما علاقة هذا بكل ما يحدث ؟

لقد باتت متأكدة أن هذا الرجل الغامض يعرف ما لا تعرفه حتى عن
نفسها ...!!

رفعت عينيها لتسأل أمين المكتبة عن أوصافه بمزيد من التفصيل،
لكنه كان قد اختفى بين الرفوف.

كل نقطة من جسدها تضحّ بآلام السفر المتتابع ، لكنها رغم ذلك ،
قررت أن تتبع الخيط .. قد تعثر على أجوبة بالفعل في بودابست ..

هي الآن في إسبانيا في تعيش اللحظة التي عاشها جدها طارق بن
زياد بحذاقيرها و هو يحرق السفن من خلفه .. لا مجال للرجوع ..
الطريق الوحيد هو المواصلة نحو الأمام حتى الخروج من المتاهة .

الفصل التاسع

الممر الحزوني

جلس إلياس رافنر في ردهة الفندق العتيق في قلب كراكوف، غارقاً في أفكاره، والرسومات المعمارية منتشرة أمامه على الطاولة كأشلاء ذاكرة منسية .. كان كل شيء منذ دخوله تلك الغرفة الحجرية في سانت غيوم، ينهار بصمت داخله .. جهاز تفريغ الندم، الرموز، الصوت... و بيوتر.

كان من المفترض أن يلتقيه مجدداً اليوم، بعد لقائهم الأخير في الحانة كي يشرح له آخر النقاط عن الأخوية الغامضة .. لكن الساعات مضت و بيوتر لم يأت.

بدلاً منه، دخل رجل طويل القامة، أصلع الرأس، يرتدي نظارة دائرية وبدلة رمادية.. جلس قبالة دون أن يُدعى، ثم قال بهدوء :
= سيد رافنر ..

حدّق إليه إلياس باستغراب :

= أجل .. و من أنت ؟

= اسمي غير مهم، لكن يمكنك أن تتاديني باليد الثالثة .. أنا و فالسكي نتبع جهة واحدة ، و أنا هنا الآن بسببك ، فأنت تجاوزت عتبة لا يجوز العودة منها ..

أخرج من معطفه ظرفاً صغيراً، وضعه أمام إلياس.

= هذا ما تركه بيوتر لك قبل أن يُختطف.

صعق إلياس.

= اختُطف ؟ من قبل من ؟

= الذين يكرهون الأسئلة .. والذين يريدون من الماضي أن يُعاد

بناؤه ..

= الأخوية !!

= بالضبط ..

فتح الظرف .. في الداخل وجد ذاكرة تخزين حاسوبية مع قصاصة ورقية كتب عليها بخط بيوتر المرتبك :

(افتح ذاكرتي و اعلم ما أنت مقبل عليه)

كان وجه الرجل الذي أمامه ساكنًا كتمثال.

سأله إلياس بحيرة الكترون لم يعد يعرف إن كان موجة أم جسيم :

= و ما الذي تريده مني الآن ؟

= أن تنقذ نفسك مما تورطت فيه ..

= و كيف ؟

= لا أملك الإجابات بل فقط النصيحة ..

ثم وقف فجأة، وألقى جملة أخيرة وهو يسير مبتعدًا :

= بالمناسبة نور أيضًا وصلت إلى العتبة و تجاوزتها كحالك بالضبط ،
ربما تعاونتما معاً للخروج من المتاهة ..

تجمّد إلياس في مكانه.

من هي نور؟!!

وقبل أن يلحق به أو يسأله، اختفى الرجل كما ظهر، دون أثر.
أدار إلياس نظره نحو نافذة الفندق .. ضوء شاحب يتسلل من السماء
الغائمة .. وشعور داخلي يتعاضم بأن الأحداث بدأت تتسارع بطريقة
لا يمكن كبحها.

جلس الياس أمام حاسوبه في غرفة الفندق و أدخل بطاقة الذاكرة إليه
ثم فتحها ، تحولت الشاشة فجأة إلى اللون الأسود ثم بدأ ما يشبه الفلم
الوثائقي بالعرض ..

مشروع – FAI-9
Der Spiralkorridor
هامبورغ – 1944

أو ما يسمى الممر الحلزوني في مدينة هامبورغ الألمانية ، منشأة
تحت الأرض بُنيت عام **1937** من قبل وحدة نازية سرّية في الـ
SS تُدعى :

Abteilung für Emotionale Manipulation

أو :

(وحدة التلاعب العاطفي)

الهدف : استخدام مبادئ النسبة الذهبية (ϕ) و متوالية فيبوناتشي
لإنشاء ممر يحدث استجابة عاطفية متحكّم بها.

تم اختبار التأثير على أسرى يهود ونزلاء سياسيين .. ظهرت

صور .. خرائط قديمة .. تصميم حلزوني متناسق، مكوّن من درجات إسمنتية تلتف داخل جوف الأرض كأمعاء ميّنة .. عند كل زاوية، كانت هناك علامات محفورة : عيون مغلقة، قلوب مكسورة، وشفرات حادة مرصوفة بطريقة لا تُفهم.

النظرية كانت : (إذا تحرك الإنسان داخل بناء يتّبع النسبة الذهبية، تتناغم خطواته مع تدفق طاقته النفسية، ويتمّ سحب المشاعر من لا وعيه بشكل تصاعدي).

تم تحويل الممر إلى جهاز تلاعب عاطفي، كل خطوة فيه تمثّل تصعيدًا في منحني **الندم أو الذنب** ..

رفع الياس حاجبيه بدهشة .. في حين تابع الصوت الرخيم الراوي لقصة الفيلم الوثائقي ..

و النتيجة كانت كارثة ، جميع من خضع للتجربة انهار نفسيًا خلال الدقائق الأولى .. بعضهم بدأ يضحك بهيستيريا .. آخرون سقطوا ميتين في المنتصف.

وثائق الجيش الأحمر بعد سقوط برلين وصفت الممر:

Die Spirale der Reue

حلزون **الندم**

ظهرت أمامه صورة حديثة بالأقمار الصناعية : مبنى مهجور في هامبورغ ، جزء من محطة قطار قديمة ..

المدخل لا يزال موجودًا، تحت بوابة حديدية صدئة، عليها حروف تكاد تُمحي " FAI-9 "

و قبل أن ينتهي الفيديو علا صوت فالسكي و هو يقول بصوت
مرتجف :

(هندسة الندم ليست أملاً قادماً سيد الياس .. إنها مصيدة
لل بشرية ... و الطعم هو ... أنت)

الفصل العاشر

بلا ندم .. بلا روح

لم تكن الرياح وحدها من يعصف بالمكان، بل شيء أعمق. حين دخلت نور المبنى المهجور في الضاحية الغربية من بودابست بحسب العنوان المذكور، شعرت وكأن الجدران تتنفس .. كان المكان مهجورًا، ينوء بخشب متآكل، وسلالم تصرخ تحت وطأتها. عروق العفن تشققت على الجدران كخرائط لأرواح فقدت طريقها.

قادتها الخطى ، لا العقل .. كان شعورًا غامضًا يوجّهها، كما لو أن المكان يعرفها أكثر مما تعرفه .. وصلت إلى باب مزدوج، أحد ضلعيه مفتوح كقم ينتظر فريسة، والآخر موصد كأنه يحاول منعها من الدخول .. دفعت الباب .. لم يصدر صريرًا، بل تنهيدة خافتة كأن الغرفة كانت نائمة لتوها واستفاقت بها.

كانت الغرفة فارغة .. بلا نوافذ، و لا منافذ .. جدرانها بالكامل مغطاة بمرايا طويلة تمتد من الأرض إلى السقف، بتوزيع مدروس يُظهر انعكاس انعكاسها، في دوامة لا نهائية من الصور.

اتسعت عينا نور من الدهشة ..

في كل مرآة، لم تر نفسها كما هي، بل كطفلة، كمراهقة، كامرأة في أول العشرينات .. كل انعكاس كان يعرض لحظة ندم :

في واحدة، تقف طفلة قرب باب غرفة أبيها المغلق، تبكي بصمت بعد أن صرخت في وجهه.

في أخرى، تراها تسرق كتابًا من المكتبة العامة، لتكتشف لاحقًا أنه من ممتلكات امرأة عجوز كانت تقرأ فيه كل يوم.

انعكاس آخر يُريها تجاهلها لاتصال من صديقة قديمة كانت تحتاجها بشدة ، لم تتصل بعدها أبدًا.

كل مرآة كانت تنبش جرحاً صغيراً، لكنها معاً شكّلت خريطة الألم
الداخلية التي ظنّنت أنها دفنتها تحت طبقات العقل والمنطق.

بدأت تتنفس بصعوبة.

العتمة كانت كثيفة، لكنها ليست سوداء... بل رمادية، مثل ضباب
يسكن الروح.

فجأة، وعلى أرضية الغرفة الزجاجية، ظهرت كتابة ضبابية، كأن
الأرض نفسها تتكلم بلغة الدخان :

الندم هو من صنعك على ما أنت عليه..

لكن الألم هو توأم الندم ،

فهل تفضل أن تعيش بندم مع ألم...

أم بلا ندم ... لكن بلا روح ؟

ارتجّ المكان.

ثم — بلا سابق إنذار — تكسر الزجاج دفعة واحدة.

صوت المرايا وهي تتحطم كان أقرب إلى صرخة جماعية. .
شظاياها تناثرت حول قدميها، انعكاساتها انطفأت واحدة تلو الأخرى،
كأن أطيافاً سكنت فيها لقرون وجدت حرقتها فجأة.

جسد نور انتفض، وقلبها خفق كطبول الحرب .. لم تنتظر أكثر.

ركضت عبر الممرات كمن يهرب من حلم يوشك أن يبتلعه.

حين خرجت من المبنى، كانت السماء تمطر.. لم تكن تعلم إن كانت السماء تبكي، أم أنها هي من تمطر من الداخل.
لكنها كانت تعرف شيئاً واحداً:

في داخلها ثمة شيء انكسر مع المرايا ، و خليط من المشاعر خرج من روحها للتو .. هل هو النور المكسور ؟!.

كانت السماء تمطر بدورها بهدوء فوق مدينة آكس-أن-بروفانس، حيث وصل إلياس إلى أحد المنازل القديمة التي وُصفت له في رسالة مجهولة، وجدها مطوية في جيبه الداخلي دون أن يتذكر كيف وصلت إليه .. الرسالة كانت قصيرة :

في بيت رقم 9 من شارع ميرابو، خلف المكتبة العتيقة، ستجد من ينتظرك منذ زمن .. منقذك

طرق الباب ثلاث مرات.. انتظر عدة دقائق .. طرق ثانية .. لكن لا رد.. وحين همّ بالابتعاد، انفتح الباب بصريخ خافت، وكأن أنفاس المكان تسحب إلى الداخل .. دخل .. لم يكن في المكان ما يوحي بالحياة : ستائر سميقة، روائح قديمة، ونور شمعة يتراقص فوق طاولة وحيدة .. وعلى الطاولة، مجلد جلدي عتيق ، منقوش عليه ذات الرمز : وردة داخل مثلث داخل دائرة مفتوحة من الأعلى ..

فتح إلياس المجلد، وإذا به يضم نسخاً قديمة من مخطوطات الأخوية .. ملاحظات مكتوبة باليد، خرائط لأماكن لا يعرفها،

ورسومات لطاولة غربية كانت تُستخدم كما يبدو في جهاز تفريغ
الندم ..

لكن ما أثار فزعه كان الملحق في نهاية المجلد : رسالة بخط رفيع
ومائل، كأن من كتبها كان يرتجف :

**احذروا العقل المهيمن .. لقد بدأ في استخدام الجهاز لإعادة
تشكيل الندم و ليس فقط لتفريغه .. ما فعله في مونتسيرات لن
يُغتفر .. إن لم يتحرك أحد من الداخل، سيفقد العالم نفسه**

وقعها اسم جديد على الأحداث : **كاسيان**.

لم يكن إلياس قد سمع بهذا الاسم من قبل .. لكن ثمة إحساساً خفياً
شدّه إليه، إحساساً لا تفسير له، بأنّ هذا الرجل يحوم في الظلال منذ
بداية رحلته، يراقب ويحرّك خيوطاً دون أن يُرى.

و الذي استحوذ على عقله بالكامل كان آخر صفحة من المجلد ..
ورقة صفراء مهترئة مكتوبة بحروف صغيرة تكاد تصرخ محذرة

((في زوايا عتمة العقل، حيث تتلاشى الحدود بين الألم والذاكرة،
تنسج هندسة الندم خيوطها بهدوء قاتل .. تُقدم نفسها كحصان
طروادة للحريّة، كالبوابة التي ستفتح أمام الإنسان باب الخلاص من
أعباء الندم التي تثقل قلبه وروحه. ولكن ما هي الحقيقة ؟

الحقيقة أنها ليست سوى واجهة مزيفة، قناع يتلأأ بنور كاذب يخفي
خلفه ظلاماً عميقاً.

هندسة الندم ليست تحريراً من الماضي، بل إعادة هندسة الماضي
نفسه. إنها ليست إلغاء للندم، بل تحويله وتطويعه، بحيث يتحول من
شعور داخلي إلى آلية تحكم، أداة تُعاد صياغتها لتصبح سلاسل جديدة
غير مرئية.

تستغل هذه الهندسة ضعف النفس البشرية، ذلك الخيط الرفيع بين التوبة والذنب، بين الرغبة في التغيير والرغبة في السيطرة. تخدع الإنسان بأنه سيخرج من سجن الندم، بينما في الحقيقة تُدخل روحه في زنزانة أكثر دقة وتعقيدًا، حيث تصبح مشاعره وبرمجته العقلية ملكًا لمن يحكم هندستها.

في هذه المرحلة، يتحول الندم من تجربة إنسانية أصيلة إلى رمز استعباد معاصر، حيث تُزرع داخل الإنسان مشاعر مصممة بدقة، تُعيد تشكيل ردود أفعاله، وتخلق فطرته الحقيقية. ما يُوهمه بأنه حرّ، هو في الواقع أسير شبكة معقدة من الشعور المُبرمج.

وهكذا، تتنكر هندسة الندم في زي المنقذ، لكنها في جوهرها أكثر من ذلك : هي إعادة تعريف الحرية، لكنها حرية

مشروطة، حرية مفروضة، حيث يتحول الإنسان من كائن ذي إرادة إلى نسخة مصممة، يُحدّد مصيره من قبل من يتحكم في تلك الهندسة الغامضة.

هذه ليست حربًا على الألم، بل استغلالٌ له. ليست دعوة إلى الخلاص، بل إعلان بداية استعباد جديد، يحمل أقنعة أكثر دقة، وأدوات أكثر تطورًا، تجعلك تعتقد أنك حر بينما تُغلق الأبواب خلفك بهدوء لا يُسمع .. (((

و في هذه اللحظة، أدرك إلياس أن الطريق الذي سلكه، لم يعد طريقًا للبحث عن ذاته فحسب، بل أصبح طريق نجاة... نجاة له و لشخص لا يعرفه بعد، لكنه في يومٍ ما، سيتمنى أن ينقذه .. بل ربما ما هو أبعد من ذلك .. نجاة للبشرية جمعاء

أغلق المجلد الغامض لكن قبل أن يغادر المنزل، لمح عبر زجاج النافذة المقابلة وجهًا لرجل يرتدي معطفًا طويلًا وقبعة منخفضة

تغطي عينيه.. لم يتحرك .. لم يلوح ... فقط ظل يراقب، ثم اختفى
مع أول وميض برق .. كاسيان !!

الفصل الحادي عشر

أخوية النور المكشور

هامش .. من هي أخوية النور المكسور ؟

في قلب الجبال المظلمة، وفي دهاليز العقول التي استهلكها الحنين والانكسار، نشأت أخوية النور المكسور ليس بوصفها طائفة، بل كأداة كونية موجهة وفق تصور ها هي، ولدت من رحم السقوط الجماعي للبشر في فخاخ مشاعرهم ، لم تكن غايتها خلاصًا، بل تفكيكًا جذريًا للإنسان كما نعرفه، وإعادة تشكيله على هيئة لا تجرّه عاطفة ولا تسقطه لحظة ضعف.



هندسة الندم لم تكن اختراعًا تقنيًا وحسب، بل كانت مشروعًا وجوديًا صممه الأخوية كما يصمم الجراح مشرطه ، لا ليجرح، بل ليكشف الداخل مهما كان مشوهًا .. أرادت الأخوية خلق أداة لا تكتفي بفضح الخوف، بل تجرده من قدسيته .. أداة قادرة على سحب أعماق طبقات الندم إلى السطح، لا لتداوئها، بل لتعيد برمجتها على نحو يحوّل الألم إلى طاقة طيعة، لا ذاكرة دامية.

الماضي بنظرهم عبء ثقیل يمكن محوه ، لذلك تؤمن الأخوية أن أكبر خطايا الإنسان ليست أفعاله، بل شعوره

بالألم حيالها .. فالندم، في نظرهم، ليس نبلاً، بل سلسلة ثقيلة تشلّ الحاضر وتسمّم المستقبل .. ولذا، سعت إلى فصم العلاقة بين الفعل وإحساس الذنب، عبر خلق بيئة تجريبية حسّية - غرفة هندسة الندم - حيث يعاد توجيه الشعور وتفكيك رموزه.

في داخل الغرفة، لا قيمة للزمن ، الماضي والحاضر يندمجان ، ويُعاد سرد الوقائع بطريقة تنزع عنها كل معنى أخلاقي .. لا يوجد " خطأ " في نظر العقل المهيمن الذي يتزعمهم ، بل فقط انحراف في التفاعل العصبي يمكن تصحيحه.

أما غاية الأخوية الجوهرية فهي كسر إرادة القلب منشأ المشاعر كلها .. فإذا كانت السلطة التقليدية تسعى للسيطرة على الجسد أو الفكر، فإن أخوية النور المكسور أرادت شيئاً أعمق : السيطرة على القلب .. ذلك الحيز الفوضوي، الذي لا يخضع للمنطق، ولا ينصاع للقوانين، ولا يعترف بالمقايضة.

الأخوية بدأت العمل على مشروع هندسة الندم منذ نصف قرن ، استقطبت كفاءات علمية إلى صفوفها لتحقيق هدفها (مهندسون ، أطباء ، تكنولوجيون ...) على التوازي مع ذلك و على خلفية استشارات نفسية كثيرة قررت تأهيل شخص معين منذ طفولته ليكون القربان المثالي لاختبار مشروعها لأول مرة كحدث فاصل في التاريخ البشري ..

قبيل بدء الجلسة، احتشد الجميع في القاعة الدائرية تحت الأرض .. كانت القبة مبنية من حجر بازلي بلون الأبنوس، تتدلى من أعلاها سلسلة حديدية تحمل شمعة حمراء واحدة، لا تهتز رغم الهواء المتحرك بحرية في الأجواء مع أنفاس الموجودين.

أمام كل عضو من الأخوية، إناء حجري صغير مملوء بسائل فيروزي يعكس الضوء كمرآة .. غمس كل منهم إصبعه، ورسم دائرة

معكوسة على جبهته، يتبعها ترميز شبيه بالنصل في مركزها .. ثم
رتّلوا بصوت خفيض :

***In obscuro veritas... per florem fractum
lucem flectimus... temporis
sinus aperitur***

**(في الظلمة تكمن الحقيقة ... عبر الوردّة المكسورة نلّون النور
... و جيب الزمن يُفتح)**

جلسوا حول الطاولة الكهرمانية ، الدائرية، المحفور في منتصفها
وردة بثلاث طبقات داخل مثلث ودائرة غير مكتملة ، كانوا يرتدون
عباءات مصنوعة من قماش رمادي كثيف محشو بألياف رماد
الحروق الطقسية .. الأقنعة المعدنية خالية من الفم، ذات شقين للعينين
فقط، والرمز الوحيد المنقوش على كل قناع هو العلامة الثلاثية
للأخوية.

العقل المهيمن، ذو القناع الأسود الكامل، بدأ الحديث :

= رافنر لمس اللوح .. هو الآن متصل بالجناح الوردي .. لم يعد
يملك أي ذرة من إرادته بذلك ..

همست أنيا غروسنر ، المرأة الوحيدة بينهم، بنبرة تنزف
اعتراضاً :

= أرى أن التوقيت غير مناسب .. لقد قابلته بنفسي في أنجيه و
وجدته غير مستعد .. يجب أن تؤجل التجربة حتى ينضج الندم في
أعماقه جيداً ..

رد عليها آخر :

= كل قرار يبني عليه خطر أكبر.. الضوء بدأ يتحرّك .. تفريغ

الندم ليس حالة نظرية، بل قنبلة إذا لم نفجرها بأنفسنا ستتفجر من تلقاء نفسها في الوقت المحدد لها و سيصبح الياس خنجراً في خاصرتنا .. إما الآن أو نقتل الياس ..

أوماً العقل المهيمن رأسه بالموافقة ..

= محق .. الياس إن لم يخضع للتجربة النهائية سيصبح أكبر سلاح في وجهنا .. لقد بات يعرف أكثر مما ينبغي بعد أن تجاوز العتبة ، و لم يعد هنالك مجال للمناورة أو الرجوع ..

عندما وصل الحديث إلى هذه الحافة الحرجة نهض ميكاييل كاسيان ، بهدوء .. خلع قناعه .. ليظهر بين الضباب رجل أكثر غموضاً من القناع ذاته ، رجل خاض معارك داخلية أكثر مما عاشها في العالم الخارجي .. وجهه طويل قليلاً، تكسوه التجاعيد عند زاويتي العينين وفي الجبهة، وكأن كل خط فيه يروي قصة تردد أو قرار متأخر.. عيناه بلون رمادٍ بارد، لا تُظهران ما يشعر به تمامًا، بل تلمحان إلى صمت طويل يسكنه .. شعره الكثيف قليلاً عند الأطراف يتخلله الشيب، لكنه لا يكثرث لإخفائه، كأنما يعلن قبوله بالزمن.

كاسيان هو أحدث عضو في الأخوية ، انضم إليها قبل عام فقط، بعد أن استدرجته أطروحاتها عن تجاوز الألم الإنساني وتطويعه و كأنه وجد فيها فرصة نجاة له قبل أي شخص آخر بعد أن خسر زوجته في حادث مأساوي ملتبس حمل نفسه مسؤوليته فنهشه الندم حياً .. لم يكن يوماً تابعاً، بل رجل فكر وتجريب، باحث عن إجابة لسؤال لم يُطرح بعد ..

ورغم ذكائه الحاد، إلا أنه ظل على هامش الدائرة الحقيقية للأخوية، لا يعرف عن أسرارها العميقة سوى القشور.. شيئاً فشيئاً، بدأ يدرك أن ما وُعد به لا يشبه ما يُنفَّذ على الأرض.

في بداية انضمامه، كُلف بمتابعة مشروع خاص بدا له وقتها مبهمًا،

إلى أن اكتشف لاحقاً أنه ساهم - عن غير قصد - في برمجة إلياس وتكييفه ليكون مادة خام لهندسة الندم .. ومنذ تلك اللحظة، تغير كل شيء فقد تشكل ندم اكبر كمضغة في روحه..

و الندم عند كاسيان ليس صخباً ولا دموعاً، بل حضور دائم في صمته .. يعاقب نفسه بالصمت، بالانسحاب، وبالمراقبة من بعيد .. يشعر أنه ساهم في جريمة لم يدرك حقيقتها إلا متأخراً، وأنه بات مسؤولاً عن إنقاذ من ساعد في تقييده.

كتب في مفكرته :

**كنت أظن أنني أبحث عن حرية للإنسان، فصنعت قيئاً جديداً
لروحه**

أصبح وجوده في الأخوية مزيجاً من التمويه والمقاومة. يجهل الكثير من أسرارها، لكنه بدأ يدرك ما يكفي ليشعر بالخطر، ويشعر أن عليه حماية إلياس، ليس فقط من المنظمة... بل من كل ما زرعه في داخله.

نظر كاسيان إلى الجميع بنظرات ملتهبة و قال بنبرة حادة تكاد تبتر الفولاذ :

= أحذركم .. أنتم تتصرفون ككهنة عميان في معبد ملعون .. أنتم تراقبون و لا تبصرون ... أنتم تختبئون فحسب خلف رماد الطقوس، لقد فرغتم الأخوية من مضمونها ..

رفع العقل المهيمن نظره نحوه بهدوء و تهديد معاكس :

= تحدّرنّا، يا كاسيان؟

= أحذركم من أنفسكم .. إلياس ليس عدواً كي نقتله .. ما الذنب الذي ارتكبه يستحق هذه العقوبة؟! هل نحن طائفة إجرامية أم كوة يمر منها النور إلى البشرية ..

صاح أحدهم :

= إن كاسيان يتمرد و يخالف الميثاق .. لو أنصتنا له ، سيفسد التوازن الذي حافظنا عليه منذ الألفية الأولى .. كلنا وافقنا على اتخاذ الياس كقربان من أجل البشرية و لا مجال للتراجع الآن ..

رد كاسيان بجرأة و حزم :

= التوازن ؟ أنتم تقصدون الجمود .. العالم يتغير، وأنتم تتمسكون بظل لا جسد له .. الأخوية تنسلخ رويداً رويداً عن جوهرها الأساس الذي تشكلت عليه .. هندسة الندم سراب واهم لن يوصلنا إلى شيء .. إن طبقت ستفنى البشرية ..

ردت أنيا بصوت مفعم بالضغينة ..

= بل هي منجاة البشرية .. لا خلاص إلا بزوال الندم الذي ينهش الروح و يسبب اليأس و الفشل ، و الياس هو المنقذ لنا و للبشرية .. الحجر المركزي الذي يُسقط قوس العصور كي يعاد بناؤه على نحو أفضل و أكثر كمالاً ..

اقترب كاسيان من الطاولة و طرق عليها بقوة بيده العارية.

= في الحقيقة كل ما بدر منكم خلال العام المنصرم يوحي بأن لكم غايات خبيثة أبعد من هندسة الندم .. غايات تستعبد الإنسان بدلاً من أن تحرره ، بل أخشى ما هو أخبث من ذلك .. لذا فأنا أنسحب .. و لن أسمح لكم بإيذاء إلياس .. من يمدّ يده نحوه، سأعدّه عدواً لي ... ولما تبقى من النور في هذه الأخوية ..

وقف الجميع .. مع توتر ملموس ساد في الغرفة .. أما العقل المهيمن لم يتحرك من كرسيه .. فقط قال بنبرة عميقة :

= حين تنشق الدائرة لا تعود كاملة .. ما تفعله ليس خروجًا، بل خيانة ، و كان ينبغي أن نتوقعها من عضو حديث العهد بيننا .. كانت أنيا محقة في تحذيري منك .. على كل حال أنت تعرف مصير الخائن، يا كاسيان ..

اقترب كاسيان أكثر، وضع قناعه على منتصف الطاولة.

= أنا لا أخون .. أنا أحاول إنقاذ ما نسيتم أنه الحقيقة .. بخروجي الآن **أكسر الضوء و أجعل الدائرة مفتوحة** ليخرج الندم منها .. أنا أفعل ما يمليه علي العقل لا الأهواء أيها العقل المهيمن كي لا أندم بشدة لاحقاً كما ستندمون جميعاً ..

قالت أنيا بصوت جليدي يجمّد النار :

= إذن، فلننتقل إلى برتوكول **التنين** سيادة العقل المهيمن ، فالمنشقون باتوا قريبين للغاية من الياس و إن أقنعوه بأفكارهم سيصبح بمثابة مسدس في صدغ الأخوية ..

علت أصوات الجميع بالموافقة ..

استغرق العقل المهيمن بالتفكير للحظات ثم اتخذ قراره الذي بدا أوضح من أن يحتاج للتفكير بعد انشقاق كاسيان ، نهض و أطفأ الشمعة الحمراء كطقس معروف يعلن دخول الأخوية في حيز التنفيذ الأخير أو ما يعرف ببروتوكول **التنين** عقب التمزق المفاجئ الذي طرأ عليها ..

انسحب كاسيان حانقاً وسط الظلام الدامس ... وبقي اسمه يتردد في الصمت بين الموجودين كخائن للأخوية نبذ العهد و ستنبذه الأخوية و تحاسبه ..

الفصل الثاني عشر

المختار الذي لا يختار

كان إلياس قد حطّ رحاله في نارا / اليابان بعدما تكررت أمامه الإشارات .. عبارة بيوتر الغامضة، رموز وجدت طريقها إليه في الوثائق القديمة، والقصاصات اليابانية التي وُضعت دون تفسير في معطفه ذات صباح و تذكر عنواناً محدداً .. لم يكن يعرف على وجه الدقة ما الذي يسعى إليه، لكن إحساساً داخلياً كان يدفعه نحو الشرق، كما لو أن جسده سبق روحه بخطوة نحو ما لم يُسمَّ بعد.

وصل إلى الضريح المهجور عند الغروب .. المكان يشبه تجويفاً في الزمن، كل شيء فيه يهمس بالسرّ : الأعمدة الخشبية المعقودة بجذوع الكافور، درجات الحجر التي أكلها الطحلب، التماثيل البوذية المغطاة بخيوط العنكبوت، والعتمة التي لا تشبه ظلام الليل، بل ظلام النسيان.

و في قلب الضريح، كانت هناك لوحة حجرية صغيرة، محفور عليها بخط ياباني قديم :

إلياس رافنر ، 7 يوليو 1994

ارتبك ، حدّق فيها طويلاً .. الخطّ، التاريخ، الاسم ... كل شيء كان دقيقاً حد الرعب .. لكن شيئاً في أعماقه قاوم التصديق.

ربما مزحة .. خدعة .. أثر تركه أحد من الأخوية لإرباكه؟

ثم جاء الصوت هادئاً، مشوباً بصدى حنين قديم :

= ما خُطط له منذ الولادة لا يمكن النجاة منه بسهولة ..

استدار ببطء، وها هو يقف هناك، نصفه في الظلال، ونصفه في النور، كما لو كان شعار التاوية عائداً من زمن سحيق. كاسيان.

الظل الذي تبع إلياس دون أن يعرف، اليد الخفية التي سحبت الخيط حين كان على وشك السقوط.

اقترب منه كاسيان بصمت، ومدّ يده بملف نبيلزي اللون .. أمسكه إلياس بيد مرتجفة و أخذ يقلب فيه ..

كان عبارة عن تقارير قديمة يعود بعضها إلى عام 1997.. صور شعاعية لدماع طفل .. تعليقات علمية مكتوبة بالفرنسية ، ختم الأخوية .. وفي الزاوية السفلى كتب :

***Subiectum : Elias rafner – Codex: N-RM
011 – Aptus ad experimentum***

**(الموضوع : إلياس رافنر – الكود – N-RM 011 : مؤهل
للتجربة)**

لم يحتمل إلياس ما قرأه فقد فهم بذكائه كل شيء بعد أن ربط الخيوط في عقله الهندسي الفذّ ..

لم تكن الصدمة فقط في أن يُختار منذ دخل الميتم ابن ثلاث سنوات ، بل في أنه لم يكن في أي لحظة حرًا ، بل كان مراقباً على الدوام من بعيد لتقييم مدى ملاءمته للتجربة ..

سقط على الأرض، كأن عموده الفقري انكسر فجأة، دفن رأسه بين راحتيه، وانفجرت الدموع في صمتٍ موجه.

شهقاته لم تكن نحيبًا، بل انفجارات هواء خرجت من صدره كما تخرج الأرواح أو الكامي اليابانية من فم الموتى.

كان جسده كله يرتجف و كأن الدائرة تحولت إلى رحم انبثقت مياهه ليولد الندم منه بأقسى صورته ، بولادة عسيرة ..

كل شيء ينهار داخله دون صوت .. كأنه مبنى شُيّد من أو هام، وها

هي الحقيقة تهب عليه كريح لا ترحم، فتجعله
ينهار دون أن تثير غبارًا.

قال لنفسه بانكسار لم يجربه أحد من قبله :
(منذ متى و أنا دميتهم ؟

منذ طفولتي؟

منذ أن كنتُ أركض خلف ظلّي في الميتم ؟

منذ أن كنتُ أصدّق أن الأحلام محض خيال لا أكثر؟

منذ أن كنتُ أظن أن العالم يتركك تنمو كيف تشاء، لا كما يشاء هو؟
كل نظرة، كل خوف، كل خفقة قلب ظننتها لي وحدي ... كانت
مُراقبة .. مُسجّلة.

كل تنهيدة صدرت عني وأنا أجهل معنى هذا العالم، كانت تُحلّل،
تُفكّك، تُرمّز.

يا الله... كم كنتُ حرًا وأنا عبد.

كم ظننتني أملك نفسي، وأنا لست إلا معادلة في دفتر أحدهم.

أيعني هذا أن حزني الأول كان مجرد تجربة ؟

أن موت والدي... لم يكن خسارة، بل أداة ؟

أن كل انكسار مررتُ به كان لبنة في بناء هندسة أخرى، ليست لي،
ولا لأحد ... بل لوهم أكبر منّا جميعًا ؟

كيف لم أنتبه؟

منذ متى كان قدري محاطًا بعينٍ تكتب ولا ترحم؟

كم مرّة بكيت في الظلام، وهم كانوا يراقبونني، لا ليرأفوا، بل
ليُضيفوا سطرًا في تقريرِ الشعوري ؟

أنا لست أنا ..

أنا مختار منذ البدء .. لا لأنني مميز، بل لأنني هش .. لأنهم رأوا في ضعفي فرصة.

يا لسخرية العالم، أن تُختار لا لأنك قوي، بل لأنك قابل للانكسار بشكل جميل.

أين أنا ؟ من أنا ؟

هل لي أن أخرج من نفسي ؟ أن أفرّ من هذا الجسد الذي لم يعد لي ؟

هل أستطيع أن أصرخ ؟

أن أصرخ بصوت ليس مرصوداً ؟

أن أبكي بكاءً لا يُحوّلونه إلى بيانات ؟

أن أختبئ ... في ركنٍ لا تصل إليه الأخوية ولا هندستها ؟

لقد مات شيء في الآن ..

لا أعرف اسمه، لكنه كان ما يجعلني أستيظ كل صباح دون خوف ، و وُلد شيء آخر مكانه.

شيء لا يثق .. لا يصدق .. لا يريد أن يتذكّر.

وإن كانت الحقيقة قد كُشفت لي اليوم ...

فما الذي بقي منّي لأحتفظ به؟ (

خفت النحيب تدريجياً بعد دقائق كتسونامي أتى فدمر كل شيء ثم انحسر بهدوء كأنه لم يفعل شيئاً ..

اقترب منه كاسيان و ربت على كتفه برفق و تعاطف ثم همس :

= أنا كاسيان ، عضو منشق عن الأخوية .. أراقبك منذ عام و أردت

أن أهدرك منذ ذلك الحين ... لكنني خفت أن تنكسر لذا حاولت إبعادك عن التجربة بشكل غير مباشر و عن بعد ، لكن لم يبق الآن متسع من الوقت لذلك ، علي أن أصارك بالحقيقة كي تتخذ قرارك بسرعة قبل أن يتخذوه عنك مرة أخرى .. فقد بدأت المرحلة الأخيرة من تجربتهم منذ قرابة الشهر .. استدرجوك إلى الدير .. قابلتك الأرملة السوداء أنيا غروسنر .. و سيتابعون خطواتهم وفق ما خطط لها .. حاولت أن أساعدك .. أرسلت فالسكي فدفع حياته ثمناً لذلك ، و لم يبق أمامي من خيار سوى اللقاء المباشر بيننا هنا ..

رفع إليه إلياس وجهه، عيناه محمرتان، مجوفتان ككهفين :

= أنا مجرد دمية ؟ مجرد ... تجربة ؟ حياتي كلها مسروقة ؟ ، كيف ستساعدني الآن ؟ هل يمكننا إعادة الزمن إلى الوراء لأبدأ من جديد كإنسان طبيعي ؟

أجابه كاسيان بأسى :

= لا .. لا يمكننا فعل ذلك .. لكن يمكنك الآن اتخاذ قرارك في الحاضر كي ترسم مستقبلك كما تريد ، و أمامك خياران لا ثالث لهما في هذه اللحظة :

إما أن تتراجع و تترك كل شيء خلفك، فتعود إلى حياة عادية تتصالح فيها مع ماضيك ، و تتقبل تجربتك المريرة .. أعلم ، هذا ليس بسيط على الإطلاق ...
أو ..

سكت لحظة، قبل أن يكمل :

= تستخدم هندسة الندم .. فتمحو ذاكرتك .. تنسى كل شيء ... لكنك ستولد من جديد إن حالفك الحظ و نجوت من التجربة ، فتعيد تشكيل

حياتك كما تريد ..

ساد صمت ثقيل لدقائق و الياس يضع رأسه بين يديه يفكر :

(هل يمكنك أن تحب ماضيك إذا لم يكن لك ؟

هل يمكنك أن تحتل ذكريات لم تكن نتائج قراراتك، بل نتائج تصميم ؟

كيف أعيش مع نفسي، وأنا أعلم أن نفسي صُنعت لي ... لا بي ؟

كل خطوة ظننتها حرة، كانت مكتوبة في هامش ملف.

كل دمة ظننتها إنسانية، كانت تقوياً لتجربة.

ضحكي، حزني، وحدتي ... حتى صمتي، لم يكن صمناً حقيقياً، بل زمناً ميتاً بين التجارب.

أنا لا أحتل هذا ...

لا أحتل أن أكون مجرد نتيجة معمل مغلفة بجسد.

أن أعمل ككائن قابل للبرمجة، للاختبار، للتطوير... دون أن يُسأل : أتريد ؟ أتحب ؟ أتحاف ؟

إنهم لم يسرقوا طفولتي فقط ...

بل سرقوا حقي بالاختيار.

جعلوني أو من أنني أعيش، بينما كنت أستهلك.

جعلوني أبحث عن المعنى، وهم الذين كتبوه بخطهم قبل أن أتعلّم الحروف.

هل أستطيع أن أعيش وأنا أعلم أنني كنت فأر تجارب ؟

أنني لست إنساناً، بل دمية ؟

أيمكنني أن أنظر في عينيّ في المرأة ولا أرى فيهما خيوط اليد التي
شكّلتي ؟

ربما ... النسيان ليس ضعفاً.

ربما النسيان هو العدالة الوحيدة حين يُصبح الماضي خيانة وجودية.
حين لا تعود الذاكرة تذكّاراً ... بل قيداً في يد جلاد خفي.

أن أنسى ... يعني أن أتحرّر.

أن أقطع الحبل السري الذي ربطني بهم دون إرادتي.
أن أكون صفحة بيضاء، لا ليكتبوا عليها من جديد، بل لأكتب أنا ...
للمرة الأولى.

لكن ... هل أملك الجرأة ؟

أن أنسى كل شيء ... أن أقتل الماضي بيدي ... أن أولّد بلا شهادة
ميلاد ؟

أن أغادر ذاكرة لم تكن لي من الأساس ... وأن أبدأ، لا كمن نجا،
بل كمن خلّق من رماد ..

إنهما خياران أحلاهم مرّ .. لكنّ المرّ يبقى بلا شك أكثر حلاوة من
العلقم !!)

وقف ، مسح دموعه بكمّ قميصه، و تمتّم، كمن يسلمّ روحه لقبضة
الجلاد :

= سأخوضها . ما عاد في قلبي ما يكفي لأراجع .. سأستخدم الجهاز
الذي صمّمته الأخوية ... فإن لم أعد كما كنت، لربما أجد السلام ...
و لو لو هلة ..

في ظلال الغابة اليابانية، كان الليل قد أطبق تماماً، والريح تتسلل بين

الأشجار كأنها تسري في أعصاب العالم .. و بينهما، وقف كاسيان يراقب ظهر إلياس يبتعد، يعرف أنه لن يعود كما كان، لكنه يدرك أيضاً ... أن في هذا الدمار احتمال ولادة جديدة .. لقد أدى أول واجب تكفيري لذنبه تجاهه و هو إخباره الحقيقة كما هي لا كما تكذب الأخوية عليه ، كي يقنعه بالعدول عن التجربة .. هو لن يسمح للأخوية أن تؤذيه بلا شك لكنه سيدعمه في قراره الذاتي حتى النهاية .. و سيكون سناً لظهره متى ما تراجع عن قراره كي يحميه من أدى هذا التنظيم المتوحش ..

الفصل الثالث عشر

زقاق الأقمشة

وصلت نور إلى براغ / التشيك في المساء، تائهة بين ظلال الأزقة القديمة وصوت العربدة التي سارت بها وسط المدينة العتيقة. كل ما كانت تملكه هو العنوان الذي ظهر على مرآة منزل المرايا في بودابست ثم اختفى قبل أن تغادر الغرفة الغامضة ..

Ulička duší -- Praha

زقاق الأرواح / براغ

توقفت أمام بناء حجري منخفض غير لافت للنظر.. الباب الخشبي الثقيل انفتح ببطء، دون أن تمسه، وكأن المكان كان بانتظارها.. في الداخل، اتسعت عيناها بدهشة .. جدران ممتلئة بأقنعة معلقة، كل واحدة منها تحمل تعبيرًا مختلفًا : الندم، الغضب، الخوف، التسامح اقتربت من قناع برونزي، كُتبت تحته :

صاحب هذا الوجه اختار أن ينسى، فاختفى عن الوجود

متحف الأرواح لم يكن مجرد مكان للعرض، بل كان مكانًا ينبض بطاقة شعورية خفية .. خرج رجل نحيل كعود البامبو ، أنيق الزي، بشرته شاحبة وعيناها فيروزيتان ، قال بهدوء دون أن تسأله :

= الأقنعة تخفي آلامنا حين نعجز عن حملها ... وأنتِ تبحثين عن إجابات لا تُعطى، بل تُنتزع من تحت الأقنعة ..

قادها الرجل إلى غرفة مظلمة ذات جدران من مخمل أحمر.

في الداخل، منصة دائرية، وفي وسطها جهاز زجاجي كروي يشبه بلورة سحرية .. اقتربت منها و ألقت نظرة خاطفة .. ظهرت داخل البلورة صورة لإلياس يمشي وحيدًا في ممر ضيق محفوف بالدموع.

شهقت نور ثم همست :

= كيف ؟

أجاب الرجل :

= لا يهم كيف ؟ .. ما يهم هو من ؟ إنه يسير نحو قدرٍ لم يختره ...
فليس كل من اختير، اختار ..

وما إن أنهى جملته حتى انطفأت الأنوار فجأة، وغمر ظلام ثقيل الغرفة .. لفّ المكان ضباب رمادي كثيف، وكأن الأرواح القديمة تنهض لتتنفس لحظة جديدة .. سعلت نور وهي تحاول تلمّس طريقها نحو الخارج، لكن فجأة لاح شعاع ضوء يتيم ضيق و حاد، سقط على أحد الأقنعة فبدأ القناع بالكلام رغم صمت الجمود عليه .. ثم أخذ شعاع النور ينتقل من قناع إلى آخر يتابع حديث من سبقه :

في معترك الوجود الإنساني، تبرز الأقنعة لا كخداع بصري بسيط، بل كأدوات معمارية دقيقة لبناء الذات الاجتماعية. نحن لا نضع الأقنعة لنخفي ما نحن عليه فحسب، بل لنحمي هشاشتنا من سكاكين الواقع، ولنمنح الآخرين صورة نتحكم نحن في ألوانها وحدودها. القناع، إذاً، ليس نقيض الحقيقة دائماً، بل وسيلتنا للبقاء في عالم يتغذى على الانكشاف..

المشاعر، في المقابل، كائنات مائية بطبعها، تنساب خارج حدود اللغة والمنطق، تعبر الوجوه قبل أن تعبر الكلمات، وتفضحنا رغماً عن رغبتنا في التخفي. من هنا تبدأ المعركة الخفية : الأقنعة تحاول أن تُهذّب الفيض العاطفي، أن تُخضعه لصورة مقبولة، أن تُقنّعه بالبقاء في الظلال. فنرتدي قناع القوة حين يتصدّع داخلنا جداً، ونلبس قناع السخرية حين تمرور فينا موجات الوجد

لكن إلى متى؟ وإلى أي مدى يمكن للقناع أن يصمد أمام الزلازل

التي تثيرها المشاعر؟

عندما تُهندس الندم، يصبح القناع معمارًا للعذاب

هندسة الندم ليست فكرة عن استرجاع الزمن الضائع، بل عن إعادة ترتيب جراحه. إنها محاولتنا العبثية لتفسير ما لا يُفسَّر: لماذا فعلنا ما فعلنا؟ ولماذا لم نكن شخصًا آخر في لحظةٍ ما؟ القناع هنا يأخذ شكلاً أكثر قسوة، إذ يصبح أداة دفاعية ضد اجتياح الذنب، وساحة صراع بين ما نُظهره كندمٍ ناضج، وبين ما نخفيه من شعور بالضياح والانكسار

الوجوه المندمجة في القناع تصبح وجوهًا زائفة لا تُخادع بها الآخرين، بل تُخادع بها أنفسنا .. نبني داخلنا بنية هندسية معقدة، تُقسَّم الشعور إلى مساحات : "ما يمكن تحمّله"، و"ما يجب دفنه"، و"ما لا يُقال"، و"ما لا يُسامح". وهكذا، نُشيد متحفًا داخليًا من الأقنعة، كل واحد منها يحمل ابتسامة زائفة، نظرة مصطنعة، أو صمتًا أعمق من الصراخ

وهنا تكمن العبقرية المأساوية : أن نندم لا لأننا فعلنا الخطأ، بل لأننا صرنا غرباء عن أنفسنا بسبب ما حاولنا إخفاءه. إن أقسى ما في هندسة الندم هو أنها تُجبرنا على أن نعيش داخل قناع لا نستطيع خلعُه دون أن نخلع معه جلد أرواحنا

التحرر من القناع، إذن، ليس فضيحة، بل ولادة

أن تبكي أمام مرآتك لا يعني أنك ضعيف، بل أنك قررت أخيرًا نزع طبقة من الأقنعة. أن تواجه ندمك بلا تبرير، بلا هندسة، بلا هندام، هو أن تبدأ رحلة العودة إلى ذاتك الأصلية، تلك التي لم تتقن

بعد ارتداء الأقنعة، لكنها كانت أكثر صدقًا، أكثر وجعًا، وأكثر
حياة

إن المشاعر الحقيقية لا تحتاج إلى أقنعة، وإن الإنسان الذي يتصالح
مع ندمه لا يعود بحاجة إلى هندسته، بل يتركه يتسرب كما يشاء،
ويمنحه شكلًا لا يُصمَّم، بل يُعاش

في النهاية، القناع ليس عدوًا، لكنه ليس بيتًا أيضًا
هو معبرٌ، مرحلة، قنطرة نمرَّ عبرها ونحن نتعلم كيف نكون أنفسنا
دون أن ننهار. المشاعر وحدها، بكل فوضاها، هي الوطن. والندم
حين لا نُهندسه، يصبح خريطة لقلوب لم تتوقف عن النبض رغم
كل شيء

فهل تجرؤين أنسة نور على نزع قناعك في المستقبل عندما تحين
لحظة الحقيقة الحاسمة؟

ارتجف قلبها بشدة كأنها رأت قدرها مكتوبًا بلغة لا تفهمها بعد ..
هنا سقط شعاع النور على مخرج الغرفة ، فتبعته نور إلى الخارج
.. فتحت الباب دون أن تلتفت للخلف، وغادرت المتحف بخطى
متوترة، تركض في الأزقة الضيقة، هاربة من شيء لا تعرف إن
كان ينتظرها أم يسكنها.. و تبدلت الأقنعة على وجهها .. خوف ..
قلق .. فضول .. دهشة .. حيرة .. أمل و أخيراً قناع الابتسامة أمام
مارة لا تعرفهم و لا تريد لهم أن يعرفوها ..

لم يكن ذاك الرجل الذي استقبل نور في غرفة الأقنعة سوى شخص
آخر انشق عن الأخوية .. ليون فاليس أو الرجل ذو العين الزجاجية
، كان أخصائيًا في علم التعبير الانفعالي، يُحلّل ملامح الوجه ليفكّ
شفرات الأقنعة الشعورية التي يختبئ خلفها البشر.

انضمّ إلى الأخوية معتقداً أنه سيشترك في مشروع لفهم الندم لا لصنعه، لكنه سرعان ما أدرك أنهم لا يدرسون المشاعر بل يُفَرِّغونها.

حين حاول الانسحاب وكشف المستور، وجد عبوة ناسفة مزروعة تحت سيارته ذات صباح رمادي.

نجا من الموت، لكنه فقد عينه اليسرى وجزءاً من عظام وجهه... وكأنهم انتزعوا منه القدرة على قراءة الأقنعة التي خانها.

استبدلت عينه بأخرى زجاجية، لكن الرؤية لم تعد كما كانت، صار يرى الوجوه بلا قشرة، كأن الألم جرده من الحياء العلمي.

اليوم، يعيش بهوية مزيفة، يُرسل رسائل مشفرة، ويساعد من تورطوا في هندسة الندم ... دون أن يُكتشف.

أما عينه الزجاجية، فهي ليست أثر إصابة... بل بصمة دائمة على خيانتته لمشروع آمن به، وكاد أن يقتله.

ليون و غيره من المنشقين عن الأخوية يرون في أعضائها الحاليين تجارا يتاجرون بهندسة الندم لتحقيق مآرب دنيئة بعيدة .. فهندسة الندم في ظاهرها، تبدو كعملية تنقية ... كمن يُقشر النفس لتصل إلى جوهرها .. لكنها في الحقيقة نزعٌ قسريٌّ للهوية، تمزيق تدريجيٍّ لأقنعة لم تكن زيفاً، بل وسائل نجاة. إنها لا تخلع الكذب، بل تقتلع الدفاعات.

تبدأ بتشويه المعنى : تقول إن الشجاعة قناع، وإن الحنين قناع، وإن الحزن الموروث قناع .. ثم تُمعن في السلب : تنزع عن الإنسان قناع الحب، قناع الندم، قناع الذاكرة ... حتى لا يبقى سوى فراغٍ هشٍّ يظنه البعض حقيقة، وهو في جوهره خراب.

كل شعور يصبح شبهة .. كل انفعال يُفكك، ويُعاد تفسيره كبرمجة سابقة، لا كنبض صادق .. لا شيء يُحترم في هذه غرفة هندسة الندم

، حتى الدموع تُقاس كمؤشر، لا كآلم .. حتى الأمل يُصنّف كأثر جانبي يجب تصفيته.

وهكذا، لا تُنزع الأقنعة لتُكشف الروح، بل ليُعاد تشكيلها.

فحين تصبح النفس عارية تمامًا، لا تجد نفسها، بل تُسلم نفسها لأول يد تُلبسها ثوبًا جديدًا .. وثوب هندسة الندم ليس اختيارًا، بل قالبٌ جاهزٌ يُفرض عند لحظة الانهيار.

إنها لا تكشف الإنسان، بل تُعدّه ليُصبح شيئًا آخر. شيء يمكن توجيهه، تشكيله، برمجته من جديد .. وما يُقال عن الحقيقة ما هو إلا كذبة بلغةٍ تجريبية.

فليحذر من يدخلها معتقدًا أنه سيخرج نقيًا .. النقاء الذي تعد به هذه الغرفة لا يشبه الحياة، بل يشبه الموت المؤجل.

و الخياط الدنيء ينتظر ك خلف الباب في لحظة عريك و ضعفك ليخيط لك رداء العبودية الحديثة ..

و هندسة الندم ليست سوى المرحلة الأولى من الجريمة .. إنها لا تُنهي الإنسان، بل تُعدّه لميلادٍ مزيّف .. الغرفة لا تقتل الروح، بل تتركها عارية، مرتجفة، بلا ملامح ولا ذاكرة ولا صوت .. وفي تلك اللحظة، حين يصبح الكائن هشًا إلى حد التشكّل من جديد، تدخل الأخوية كمن ينتظر على الطرف الآخر من الطقس.

إنهم لا يعطونك اختيارًا.. بل ثوبًا مُعدًّا سلفًا، خُيط بدقة على مقاسات الصدمة التي خرجت بها .. ثوباً ليس من قماش ...

بل من إملاءات.. كل غرزة فيه قرار، كل طيّة فيه حدود، كل خيط شدّ على العقل، لا الجسد.

فما تظنه خلاصًا، هو في الحقيقة نظام تشغيل جديد .. أنت الآن تسير ضمن خطوط مخطّطة لك، تشعر بما يُسمح لك أن تشعر، وتتحرك

داخل هندسة لا ترى جدرانها، لكنها تمسكك من الداخل .. لقد أصبحت كياناً قابلاً للتوجيه، تُنسب إليه "قراراته" وهو لا يدرك أن القرار الأعظم قد سُلِب منذ اللحظة التي خُلع فيها قناع أول شعور.

الخياطون في الأخوية لا يحتاجون لسلاسل حديدية .. إنهم يصنعون أغلالهم من المعنى، من سردية جديدة تُبنى فوق الركام، كأنهم يقولون :

(ها أنت قد تطهّرت ... تعال نمحك ذاتاً جديدة)

لكن الذات التي تُمنح، ليست خلاصاً ... بل هندسة من نوع ثانٍ : هندسة الحياة المؤطّرة، المُقنّنة، المجرّدة من الفوضى النبيلة التي كانت تصنع الإنسان.

وهكذا، تنجح الأخوية ، لا بفرض السيطرة بالقوة، بل بمنح هوية بديلة في اللحظة التي يُنسى فيها الأصل.

الفصل الرابع عشر

طلقة الظلي

كان الضباب يزحف على أطراف البلدة الحدودية كما لو أنه يسعى لابتلاعها .. على تخوم غابة كثيفة في ريف رومانيا، يقيم كاسيان في بيت خشبي مهجور أنهكه الزمن .. الجدران متآكلة، النوافذ محكمة الإغلاق، والهواء مبلل بصمت قديم كأن المكان نفسه نسي كيف ينطق.

في تلك العتمة، جلس كاسيان خلف منضدة قديمة، يفكر بالرسالة الجديدة التي يجب أن يبعثها إلى إلياس و كيف يجب أن تكون مشفرة لأنها الرسالة الأخيرة و الأهم قبل التجربة النهائية و لا يريد أن تقع باليد الخطأ ..

لكن شيئاً ما لم يكن على ما يرام.

صوت خافت لتشقّق خشبة في مدخل الكوخ .. لا ريح هذه الليلة .. لا طائر هائم ... فقط كاسيان ... والمتربّصون.

أطفاً المصباح، تحرّك بخفة نحو الزاوية خلف الموقد .. ألقى نظرة خاطفة على المدخل .. عدة مصابيح كهربائية تلمع في قلب العتمة

اللحظة لم تعد للتفكير .. كان وقته قد انتهى.

فتح الباب الخلفي المؤدي للغابة، انطلق راكضاً عبر الدروب الموحلة، والنبض في صدغيه يقرع كجرس كنيسة مهدّمة. لكنه ما إن خطا عشرين خطوة حتى اصطدمت ساقاه بحبل مشدود بالأسفل ، و سمعها...

نقرة خفيفة... ثم وميض برتقالي خافت.

انفجار عبوة ناسفة لم يكن مدويًا كما في الأفلام .. بل أقرب إلى زفير وحشي خرج من جوف الأرض، قذف به في الهواء وأسقطه على جانب الممر .. رطوبة الخشب حالت دون انفجار العبوة كاملة.

نهض مترنحًا، دمه يسيل من فخذه وذراعه، لكن عينيه اشتعلتا من

التصميم.

تابع الركض، ملهوفًا نحو النهر القريب، يحاول الوصول إلى الكهف الحجري حيث خبأ معداته البديلة .. لكن هناك، بين الأشجار، ظهر شبّح رجل ملثم، طويل، يرتدي سترة خضراء داكنة وجهازًا في أذنه .. صوب سلاحه نحو كاسيان، لكن بدل أن يطلق النار، قال :

= كفاك هربًا كاسيان... نحن لسنا كلنا ضدك ..

توقف الزمن للحظة.

= من أنت ؟

= اسمي **ماركوس** و أتبع **حلقة الظل** ، جماعة منشقة عن الأخوية ،
و نحن لا نتبع ما أصبحت عليه ..

= لماذا لم أسمع بكم من قبل ؟!

= لأنك حديث العهد في الأخوية .. القرار الذي اتخذته بالانشقاق عنها سبقناك باختياره منذ سنوات ..

رمى السلاح أرضًا كي يطمئن كاسيان الذي كان يوجه مسدسه إليه .. أخرج من جيبه مغلفًا مختومًا ثم اقترب منه أكثر لكن ببطء، وكأنه يخطو فوق جمرٍ مشتعل .. عيناه الغائرتان تخبئان أكثر مما تبوحان .. مدّ يده بالملف الجلدي الرمادي ، حيث تتناثر على غلافه آثار رماد و دخان.

قال بصوت منخفض :

= كاسيان ... لم تأت بك الرياح عبثًا .. هذا ما أخفوه حتى عنك ..
حقائق عن الأخوية و الياس لن يستوعبها دماغك و ستفهمك أنّ
أفضل و أصح قرار اتخذته بحياتك هو الانشقاق عنها كي لا تندم
على قرارك ذات يوم و تتراجع عنه ..

تردّد كاسيان لوهلة ، ثم أمسك الملف وسحب وثائقه ببطء. عيناه تتنقلان بين أوراقٍ صفراء مطبوعة بعناية فائقة :

صورة إلياس وهو في الثامنة، محاطاً برموز محفورة على جدار ملجأ قديم.

خريطة زمنية تفصيلية، تُظهر نقاط التلاقي بين خطوات الياس وعمليات سرّية أُشرفت عليها "الأخوية ..

دفع الياس لعيش تجارب متنوعة معدة سلفاً من قبل الأخوية على مدار سنوات عمره كي تخلق فيه مشاعر محددة خاصة شعور الندم

- تقرير عنوانه : (الشيفرة السوداء – تفعيل جهاز الندم)
، يتضمن إحداثيات الزمان والمكان :

(داكوتا الجنوبية / USA – بعد شهر من الآن)

- مذكرة مختومة من العقل المهيمن تقول :

إلياس هو القربان و لابد من التضحية به مهما كان خياره

- لكن ما أفقد كاسيان توازنه حقاً، كان آخر ورقة في الملف...
قصاصة ممزقة من مذكرة شخصية بخط أحد الحراس
الكبار :

**ماركوس اقتحم دائرة الأحداث .. إن علم كاسيان بالحقيقة الكاملة،
سيتحول إلى عدونا الأول ..**

شهق كاسيان، وسقط على الأرض كأنها انجرفت من تحته .. همس
لنفسه بنادم :

= كان كل شيء مبرمجاً في حياة الياس ، و سيقتل بالحالتين ، يا
إلهي لم أكن أحميه من المصير إذن ... كنت أقوده إليه .

في تلك اللحظة، علا في الخارج صوت صافرة بعيدة... طويلة،
متقطعة... كما لو أن العالم نفسه بدأ يُنذر بانفراط الخيوط.

مد ماركوس يده إليه كي ينهض وقال بحزم :
= الوقت يضيق، كاسيان. لديهم الخطة ... لكنك تملك القلب

ماركوس رجل من طرازٍ نادر... ضابط عمليات خاصة ترعرع في
الظلال، وتدرّب على قراءة الحروب في العيون لا في الخرائط.
خدم الأخوية بإخلاص لسنوات، مؤمناً أن الاستقرار العالمي يتطلب
قرارات جذرية لا يفهمها المدنيون.
كان يُنفذ، يُخطط، ويُسكت الأصوات المارقة دون أن يرتجف.

لكن نقطة التحوّل جاءت حين طُلب منه الإشراف على تجربة هندسة
الندم لطفل في التاسعة، وُصف بأنه قابل لإعادة التشكيل ..
رأى في الطفل ملامح ابنه المفقود، لكن الأمر لم يكن عاطفياً فحسب
، بل استراتيجياً :

أدرك أن الأخوية لم تعد تنظّم العالم، بل تصنعه من الصفر، وتعيد
تشكيل البشر كقطع ببادق .. و رأى ابنه يموت أمام
عينيه ثانية في عيني ذلك الطفل و هو يفارق الحياة تحت وطأة ألم
شديد غي واعٍ في غرفة هندسة الندم ..
و بالنسبة لعقل عسكري مثله، التحكم بالمشاعر والذاكرة أخطر من
أي سلاح نووي.

في تلك الليلة، حوّل سلاحه من أداة طاعة إلى وسيلة فرار، واختفى
دون أثر... تاركاً خلفه وحدة كاملة في ذهول.

منذ انشقاؤه، صار ماركوس شبحًا يُلاحق الأخوية من الداخل، يعرف رموزها، نغمتها، ونقاط ضعفها.

هو لم يعد يؤمن بالنصر... بل بالردع.. ويعرف أن أقوى مقاومة، هي أن تُفكر حين يُطلب منك أن تُطيع.

الفصل الخامس عشر

إلى من خضع ليوقف

الآخرين

مدينة بروج / بلجيكا - تحت سرداب كنيسة مهجورة

تعود للقرن الرابع عشر.

في عمق القبو الحجري، كان كاسيان يتنفس بثقل، متكئاً على الجدار المبلل .. أوراق الملف لا تزال في جيبه الداخلي، تتلوى كأنها تحترق في داخله .. لم يعد يعلم إن كان يحمي إلياس، أم يحرضه على دخول الجحيم.

ماركوس أشعل شعلة صغيرة، وكشف عن باب مخفي في الأرض، تحته درج حلزوني يهبط إلى ما يشبه متاهة مظلمة تحت القبو ..

همس :

= هذا هو الطريق الوحيد إلى المقر البديل لحلقة الظل... لكننا لن نكون وحدنا ..

الهواء كان مشبعًا بالعفن والرطوبة والقلق .. كلما هبطا أكثر ، كانت أصوات غامضة تقترب (تراتيل بلغة ميتة، وقرع كأن أحدهم يدق طبول المحاكمة.)

عند الوصول إلى القاعة السفلى، وقف رجال بملامح مقنعة وأزياء كهنوتية رمادية، اثنان منهم فقط غير مقنعين هما رجل بعين زجاجية واضحة و آخر نحيل يرتدي عباءة خضراء مطرزة بالذهب .. اقترب ببطء من كاسيان، ومدّ له يدًا باردة قائلاً :

= أنا **سيلفان**، أول المنشقين عن الأخوية و هذا السيد ليون فاليس ... نعرف من تكون، ونعرف لماذا خرجت من الأخوية ، تفضل بالجلوس ..

كانت القاعة أشبه بصدى حلم قديم، واسعة بنور غير مرئي،

تتقاطع فيها الأعمدة الخشبية المنحوتة بدقة مع انحناءات الجدران الناعمة كتتنفس عميق.

جلس كاسيان على المقعد الحجري، وأحسّ بشيء لم يشعر به منذ سنوات ... السلام. لا صمتًا، بل سكون حقيقي، كأن جسده يطفو. نظر حوله، ولاحظ أن الضوء لا يسقط مصادفة، بل يحتضن الزوايا في تناسق غريب ... مطمئن.

ابتسم سيلفان، قائد حلقة الظل، وقال بهدوء :

= القاعة مصممة وفق النسبة الذهبية، وخريطة المشاعر البشرية القديمة .. هنا، يتناغم الفراغ مع الداخل، والصوت مع الفكر ... لتصل إلى صمتك الحقيقي لا صمتهم ، إنه الوجه الجميل من هندسة المشاعر وفق هندسة المكان ..

أشار إلى السقف :

= هندسة السلام، يا كاسيان، هي الوجه الآخر لما أرادوا تزويره باسم هندسة الندم .. هم جرّدوا الإنسان ليعيدوا تشكيله... أما نحن، فننقّيه ليعود إلى ذاته ..

كاد كاسيان يتكلم، لكنه صمت ... فقد شعر أن الكلمات هنا لا تُقال، بل تُفهم.

كل زاوية في القاعة كانت رسالة صامتة : لا حاجة للأقنعة حين يكون المكان صادقًا.

وللحظة نادرة، لم يشعر كاسيان أنه مطارّد، أو خائف ... بل أنه عاد، أخيرًا، إلى نقطة البداية.

قال بهدوء يتماهى مع السلام في أعماقه :
=أنقذوا إلياس، هذا ما أطلبه فقط .. لا أريد انقلاباً، لا دماء

لكن الرد جاءه من عجوز خلف الستار يعرفه جيداً ،هو الأب خليل
الذي قابلته نور في أسطنبول ، صوته كصدى صخرة تسقط في
بئر :

= إنقاذه قد يعني أن تموت يا صديقي .. كما مات فالسكي بعد أيام
من اختطافه .. هذه فلسفتهم و عليك الحذر منها ..

سرت قشعريرة في جسد كاسيان أربكت سلامه الداخلي قليلاً .. لم
يكن يقاتل تنظيمًا بعد الآن، بل إيمانًا مشوهاً ترسخ لقرون .. أنقذه
ماركوس من التماذي في الذهول :

= هناك طريقة أخرى ... الوثائق التي تحملها فيها ثغرة .. إن وصل
إلياس إلى المكان المحدد قبل التاريخ المحدد، ربما أمكنه أن يخترق
الدائرة بإرادتنا دون أن يتم تفعيل الجهاز .. إنه احتمال ضئيل لكنه
يبقينا على قيد الأمل ..

تمتم كاسيان :

= لكنهم يراقبونه ... العقل المهيمن لن يسمح بذلك ..

ماركوس بتنهيذة عميقة :

= على كل حال لدينا موعد التجربة النهائية و إحداثيات المكان أيضاً
، إن ساءت الظروف أكثر لن يبقى أمامنا من خيار سوى الصدام
المباشر ..

في غرفة ضيقة بالكاد يطالها النور في أطراف زيورخ القديمة، جلس كاسيان أمام مكتب خشبي باهت، تفتersh سطحه كومة من الأوراق والخرائط المهترئة التي كما أخبره ماركوس قد سربت خلسة من أرشيف الأخوية .. الهدوء كان خانقاً، لا يكسره سوى صوت تنفسه الثقيل، وكأن كل وثيقة بين يديه تنتزع منه شهيقاً من ماضٍ كان يظنه مطموراً.

أمسك بالوثيقة الأولى .. ختم الأخوية كان واضحاً في الزاوية، محفوراً كما الحرق .. قرأ الاسم : إيلياس رافنر. الجملة الأولى جاءت كطعنة :

**تم اختياره في سن الثالثة، بناءً على التقييم العصبي -العاطفي،
لتهيئته ليصبح أول نموذج بشري لهندسة الندم**

كتم كاسيان ارتجافة أصابعه .. طالع التفاصيل : تنقلات إيلياس في طفولته، التلاعب بعلاقاته الاجتماعية ، البرامج النفسية التي زرعت في لاوعيه ، رسم لحياته بأدق تفاصيلها ، لا كما عاشها بل كما صُممت له ، اختيار توجهه المهني كمهندس ، خلق مواقف معينة كي تثير في نفس إيلياس مشاعر خاصة .. خوف ، قلق ، غضب ، ألم... و الأهم الندم .. كان إيلياس عبارة عن كتلة ندم لحمية تمشي على قدمين ابتداءً من شعوره بالذنب تجاه حادث والديه كما أقنعوه في طفولته و انتهاء بالشعور بالذنب إن تراجع عن التجربة التي ستنتقذ البشرية كما أوهموه أيضاً لأنه كلما كان الندم و الذنب في قلب إيلياس أعظم كان مؤهلاً للخضوع لهندسة الندم و قياس مدى نجاعة التصميم .. باختصار الأخوية حسمت الجدل الدائر حول معضلة القطار الشهيرة فقررت التضحية بشخص مقابل مصلحة البشرية ..

إذن الموضوع ليس موضوع اختيار شخص عشوائي للتجربة النهائية ، بل برمجة إنسان بالكامل نفسياً من قبلهم كي يلائم التجربة

إلى أقصى درجة .. إنها سرقة حياة .. سرقة إرادة .. سرقة اختيار .. و سرقة حرية ..

أغض كاسيان عينيه للحظات يحاول استيعاب قباحة و خطورة ما قرأ، ما هذه الجرائم التي لا تغتفر ، التلاعب بحياة إنسان برمتها بأدق تفاصيلها كي تخلق شخصية تناسب مشروعك و أهدافك و لو على حساب سعادتها !!؟

في مكان آخر، كان إلياس يتمشى وحده في الغابة المحيطة بضريح كاسوجي جي في نارا .. بين الأشجار والصمت الياباني، كان قلبه يزار كعاصفة .. حلم الليلة الماضية لا يزال يحاصره : فتاة بوجه لم يعرفه، لكن عينيها أثارتا فيه كل ما حاول نسيانه .. كانت تناديه باسمه، وتبكي .. لم يكن يعرفها، لكنه شعر بها في أعماقه .. وكأنها... كانت مرآته.

جلس على حافة جرف صخري .. أغلق عينيه .. رأى وجه أمه كخيال مشوش من طفولته الأولى ، ثم وجه كاسيان، ثم صورة لرجل بقبعة يوقظ فيه رعشة .. هل كان مخدوعًا طيلة حياته ؟ هل كان مجرد تجربة بالفعل أم أن كاسيان يكذب ؟

صرخة مكتومة انطلقت من صدره .. انهار على الجرف ..

ذرف دموعًا لا تشبه أي دموع سابقة .. دموعًا لا تسيل على الخد بل على الروح مباشرة .. كانت الحقيقة تثقل قلبه قبل أن يتأكد منها، كأنه كان يعرف، لكنه يرفض التصديق .. راودته أفكار انتحارية بأن يرمي نفسه من حافة الجرف و ينهي عذابه النفسي الممزق لكنه تراجع عنها في اللحظة الأخيرة ، لا يعرف لماذا ، لكن شيء ما أو

ربما شخص ما في قلبه جذبه مجدداً إلى الحياة و جعله يرى جمال الغابة من خلفه أكثر من الجرف المنحدر العميق أمامه .. يرى النصف المليء من كأس الحياة أكثر من النصف الفارغ منها .

في زيورخ ، طوى كاسيان الوثائق .. نزع سلسلة صغيرة من عنقه، في طرفها مفتاح ذهبي .. نظر إليه مطولاً، ثم تمتم :
(سامحني يا إلياس... ساهمت في تحويلك إلى مخلوق مشوه دون أن أعلم .. والآن لا بد أن تختار الطريق القادم بنفسك)

وضع كاسيان الوثائق في صندوق خشبي، ثم أحكم إغلاقه بالمفتاح .. أخرج ظرفاً صغيراً كُتب عليه بخط قديم :

إلى من خُذع، ليوقظ الآخرين

وضعه فوق الصندوق، ثم نهض، وهو يشعر أن زمن الصمت انتهى.

الفصل السادس عشر

شلال المشاعر

استيقظ إلياس على نغمة غريبة لم يصنعها منبّه، و لا تشبه أصوات الطبيعة المحيطة بمنزله الحجري المعزول في الريف الفرنسي .. كانت أقرب إلى طنين معدني ينساب في الهواء كأوتار كمان تُعزف تحت سطح الجلد .. استغرق لحظات ليدرك أن الصوت يأتي من حاسوبه.

فتح عينيه، وتثاقل جسده نحو المكتب، حيث وميض الحاسوب يشي برسالة جيدة زفها إليه الإنترنت الزاجل. مجلدٌ غريب ظهر وحده، يحمل اسمًا لا يمكن تجاهله :

Nazca_AI_Trace.exe

تردد ... ثم كأنّ يده أذعنت لقوة أعلى، ففتح الملف.

ظهر أمامه برنامج بسيط .. و في أعلى الشاشة، كُتب :

لقائنا الأخير اقترّب، لتعرف أين المكان عليك أن ترى ما لا يراه البشر من الأرض

م ك

ثم ظهرت خريطة جوية **لرسومات نازكا** العملاقة الشهيرة في صحراء بيرو : أشكال هندسية ضخمة، كوندور، عنكبوت ، و غيرها .. لا ترى من الأرض بل فقط من السماء و تمتد لعشرات الكيلومترات ..

ثم ظهرت على الشاشة الكتابة التالية :

((في صمت صحراء بيرو، حيث تذوب الأيام في الأفق وتغفو الرياح على وجوه الكتبان، ازدهرت حضارة نازكا كأنها تواطؤ بين الرمال والنجوم .. لم يكن أبناء نازكا بنائي معابد أو صائغي ذهب، بل كانوا مهندسين من نوع نادر ، مهندسو المشاعر .. فهموا، قبل

آلاف السنين، أن الندم والحنين، البهجة والخوف، ليست مشاعر عابرة، بل أنماط طاقة يمكن هندستها، نظماً خفية تُبنى كما تُبنى المدن، وتُرسَم كما تُرسَم الخرائط.

خطوط نازكا، تلك الأشكال العملاقة المنحوتة على الأرض، لم تكن طقوساً دينية فحسب، بل معادلات شعورية مشفرة. كل خط، كل زاوية، كل امتداد كان جزءاً من تصميم متكامل لهندسة المشاعر : رسم العنكبوت لم يكن إلا تلميحاً للقلق المتشبت في الذات، الكوندور يمثل شوق الروح للتحرر، القرد دائرة من الحيرة المرحّة .. كلها وضعت في مواقع مدروسة بعناية، لا تُقرأ إلا من السماء، وكأنها لا تُفهم إلا من بعد، كما لا يُفهم الندم إلا بعد فوات الأوان .



حين يُحلّق الناظر فوقها، تبدأ التجربة : تلاعب شعوري خفي، يدغدغ الإدراك ويوقظ شغفاً داخلياً نحو المعرفة .. تلك الخطوط كانت أدوات لإعادة تشكيل العاطفة، ومرآة لعلم ضاع في الرمال (علم هندسة المشاعر) ، الذي تجرّأ النسيان على دفنه، قبل أن ينهض من جديد في زمن الأخوية.))

بدأ البرنامج بعدها برسم تلقائي لخطوط مستقيمة كمحاور لرسومات نازكا المبعثرة .. فتقاطعت المحاور في نقطة محددة .. و ظهرت على الشاشة إحداثيات :

27°7'10"S 109°21'17"W

ثم توقف البرنامج .. أخرج اليا س مفكرته و كتب السطر الأخير الذي يشير كما يبدو إلى إحداثيات موقع جغرافي ..
أدخل الإحداثيات إلى المتصفح فظهرت صورة لما يشبه بوابة حجرية كتب تحتها الموقع :

على بعد 137 مترا شمال بوابة الشمس – تيواناكو، بوليفيا



و تحت الإحداثيات ظهر سطر أخير من كاسيان :

**بوابة الشمس مدخل إلى عالم النور .. و في الكهف خلف الشلال
ينتظرك نور حياتك الذي سينقذك**

م.ك

دقائق أخرى و أغلق البرنامج تلقائياً ثم حُذف الملف من حاسوبه كأنه لم يكن ..

لم يكن الأمر مجرد رحلة جديدة هذه المرة .. بل كان وعدًا بلقاء أخير ، بانكشاف المصير ، و كما أكد كاسيان بلقاء منتظر عظيم ... ربما يكشف له الحقيقة، أو يبتلعه معها ..

في المساء، جلس الياس يحدّق في خريطة العالم المعلّقة على جدار غرفته .. دائرة صغيرة وضعها بقلم أحمر فوق منطقة معينة في وسط أمريكا اللاتينية .. بوليفيا .. حيث تنتظره بوابة الشمس لولوجها .. كان يعرف أن كاسيان لا يستدعيه لمجرد لقاء .. بل لخلخلة الجدار الأخير بينه وبين ذاته.

فهل يذهب ؟

كان من الأسهل أن يتجاهل كل شيء ... أن يدفن الرسالة كما دفن غيرها .. لا سيما بعد أن فهم القصة كلها .. لكن هيهات لم يعد هنالك مكان أو احتمالية للتراجع .. عليه أن يواجه مصيره الذي اختاره لأول مرة بجرأة و شجاعة .. أخذ يجهز حقائبه و هو يهمس لنفسه :

كأن الحقيقة لا تظهر إلا لمن يؤس من كل إجابة.

كتب الإحداثيات و العنوان على ورقة ثم وضعها داخل كتاب عنوانه :

جماليات السقوط : حين تصبح الشروخ لغة ..

كتب بعدها على الصفحة البيضاء خلف الغلاف :

إذا لم أعد، فاعلموا أنني ذهبت لأسترد ما سُرِق مني ... ليس
ذاكرتي، بل حقي في أن أختار ماذا أنسى

ثم مضى نحو الضوء الأخير، النور الذي ينتظره كما وعده كاسيان
خلف بوابة الشمس التي نقش عليها الهنود الحمر رمز إله الشمس
الذي يعبدونه ..

و لم يكن المحيط هذه المرّة يوصل بين صفتين، بل بين قديرين.

في صبيحة ملبدة بالضباب، خطا إلياس عبر بوابة الشمس و جهاز
GPS في هاتفه يوجهه إلى الأحداثيات التي أرسلها كاسيان ..
مشى لبضعة دقائق حتى واجه شلالاً ضخماً من المياه طابق أحداثيات
هاتفه ..

كان الشلال يتساقط كأنه زمنٌ منكسر، ينحدر من جراح الجبل لا من
قمّته .. الماء لا ينزل فحسب، بل ينوح .. وكل قطرة كانت تبدو
لإلياس كذكرى تُسحق، كقرارٍ قديم يُعاد إسقاطه بلا رحمة .. وقف
أمامه، لا كمسافر، بل ككائنٍ عالق بين ما مضى وما لم يُخلق بعد.

قال له كاسيان أنّ الكهف يقبع خلف الشلال .. لكن إلياس لم يرَ ماءً
... بل مرآة .. رأى نفسه، بكل ما خسره، بكل ما تمنّع عن فعله،
بكل ما كان يمكن أن يكون .. تساءل إن كانت هندسة الندم تبدأ من
هنا، من هذا الستار الهائج، من هذه اللحظة التي تتدلّى على حافة
قلبه مثل سكينٍ مُعلّقة.

هدير الماء لم يكن طبيعياً .. كان أشبه بصوت داخلي ضخم، كأنه سؤاله الأكبر وقد استحال صدى :

(لو عُدت ... هل كنت ستختار نفس الطريق ؟)

أغمض عينيهِ، فرأى وجوهاً غاب عنها، أبواباً لم يفتحها، نظرات صمت عنها .. وكأن الشلال يستدرجه ليرى كل خيباته متجسدةً في الماء.

هل الحقيقة خلفه ؟ أم أن الشلال نفسه هو التجربة ؟ جهاز هندسي لا يقيس الزمن بل يقيس قدرة المرء على الاعتراف بندمه !!

ربما الكهف لا يطلب دخول الجسد، بل خلع الروح عن عاداتها القديمة .. ربما ما سيواجهه هناك لن يكون مخلوقات أو آلات، بل احتمالاً لما كان يمكن أن يكونه ... لو اختار.

تقدم خطوة .. تردد.

كأن كل قطرة تسأله : (هل ندمت بما يكفي لتدخل؟ هل أحببت بما يكفي لتسامح ؟)

وفي قلبه، حيث تسكن الأسئلة بلا أجوبة، شعر أن عبوره لن يكون بحثاً عن مخرج ... بل عن ذاته الأصيلية، تلك التي ما تزال تنتظره ... خلف الشلال.

شدّ الخطى الأخيرة و التف حول الشلال فوجد طريقاً ترايباً ضيقاً يقود إلى ما ورائه .. لم يتردد سلكه حتى أصبحت مياه الشلال خلف ظهره .. كان هنالك سرداب يمتد خلف الشلال مضاءً بأنوار صفراء شاحبة بدت معها الجدران كأنها مصابة باليرقان ..

تقدم إلى الأمام و في نهاية السرداب رأى كاسيان يقف مبتسماً ..

= لقد فعلتها يا صديقي .. أهلا بك ..

صمت قليلاً ..

= هل أنت مستعد لتجربتك الأخيرة التي ستمنحك القرار النهائي ؟

= بكل تأكيد ..

كان هنالك صف من النقوش الحجرية على الجدار الأخير في الكهف مؤلف من 18 نقش لهياكل تشبه خطوط نازكا .. ضغط كاسيان على النقش الأول للكوندور ثم انتقل إلى النقش السادس لإنسان فضغطه بدوره و أخيراً النقش الأخير الثامن عشر للعنكبوت و كرر فعله و هنا انفتحت بوابة صغيرة في أرضية السرداب كانت مخفية بإتقان مذهل ..

ابتسم الياس :

= النسبة الذهبية $\Phi = 1.618$!؟

كاسيان بدهشة ..

= تماماً .. مفتاح الكون ... و معول الندم ، من أين عرفتها ؟

= أخبرني عنها رجل يدعى فالسكي .. قال أن النازيين استخدموها لتشييد بناء هندسي يتلاعب بالمشاعر .. شكل قريب من هندسة الندم.

= فالسكي .. أحد أعضاء حلقة الظل المنقلبة على الأخوية .. لقد دفع حياته ثمناً لمبادئه ..

= فالسكي قتل !؟

= هكذا أخبروني .. و سيكون هذا مصيرنا جميعاً كبشرية إذا لم نتعامل نحن مع الموقف بحكمة و حذر ، الموضوع مصيري و لذلك نحن هنا الآن ، اتبعني ..

نزلا معاً درجات نُحتت بدقة مذهلة وفق متتالية فيبوناتشي حيث ينتج كل رقم جديد عن جمع الرقمين السابقين :

(1 - 1 - 2 - 3 - 5 - 8 ...)

ذُكِّرت إلياس بالممر الحلزوني النازي .. كل خطوة كانت أعرض من سابقتها بنسبة مدروسة، حتى أحس إلياس أن جسده يضطرب بتناسقٍ مريب، كما لو أن عقله يحاول موازنة نفسه مع سلم لا ينتهي ، إنه ممر يهيئه نفسياً للتجربة.

في الأسفل، كانت تنتظره قاعة بيضاوية، كل ما فيها يشبه الحلم المشوّش.

الحيطان المائلة ، انحناءات بلا زوايا تتقاطع مع أسطح مقوّسة تُشَتّت الإدراك.

من سقف الغرفة تدلت كرة براقّة فيها ضوء نابض، يُصدر ذبذبات كأنها نبضات قلب... لكنها ليست بشرية.

قال كاسيان بهدوء فيه كثير من التحذير :

= هذه الغرفة هي محاولة هندسية لتفريغ الندم .. استُخدمت فيها النسبة الذهبية لتحديد أماكن الانحناءات، و الضوء المنعكس حسب الهندسة موجه بدقة للتأثير على مناطق معينة في دماغك مسؤولة عن التقويم العاطفي والذاكرة .. و كل هذا نموذج مبسط ... تمهيد .. لقد أتيت بك إلى هنا لتجربة هذه الغرفة كشكل بدائي من الغرفة الرسمية و هي إحدى 7 غرف أولية التصميم حول العالم و

أقربها للنسخة النهائية .. أردتك أن تطلع على ما أنت مقبل عليه قبل
القرار الحاسم .. كي لا تُفاجأ حين لا يعود الزمن ملكك ..

سكت لحظة، ثم قال بنبرة أكثر جدية :

= المبنى الحقيقي، الذي بُني لك في داكوتا ... يتجاوز هذه التجربة
، لا يعيد ترتيب مشاعرك ... بل يُفرغها كليًا. ستمحى من داخلك
كل ذكرى تؤلمك، كل ندم ، بل كل حب، وكل ارتباط .. لن تبقى
أنت أبداً بعدها .. هل تريد أن تدخل و تخوض التجربة و الشعور
بشكل أولي بنفسك ..

= ألن تدخل معي ؟!

= لا .. يجب ألا أتأثر بهذه الغرفة ... تأثيرها يبدأ عندما تتخلى عن
نقطة التوازن .. من يبقى عند العتبة، يبقى حرًا .. هذه تجربتك أنت
لا أنا فأنت المختار ..

خطا إلياس دون وعي نحو الداخل.

كانت الغرفة أوضح من داخلها ، منحوتة داخل الصخر كما لو أن
الأرض نفسها احتفظت بها سرًا منذ قرون، بيضوية الشكل، لا
جدران قائمة، فقط انحناءات ناعمة تشبه رحماً حجريًا ... وكأنها
خُلقت لإعادة تشكيل الإنسان من الداخل.

في مركز الغرفة، وُضع كرسيان معدنيان باردان تحيط بكل منهما
سبع عدسات زجاجية منحنية، كل واحدة منها تميل بدرجة محسوبة
باتجاه رأس الجالس، لتعكس صورته القديمة بشكل مشوّه و مضاعف.
الإضاءة خافتة، رمادية مائلة إلى الفضي، تنبض بنبض قلب
صناعي، تجعل الزمن يبدو بطيئاً وكأن اللحظة لن تنتهي أبداً.

تنبعث من الأرض ذبذبات دقيقة، غير مسموعة، بترددات ثبت أنها توقظ الذكريات المدفونة في الفص الصدغي من الدماغ.

الهواء مُشبع بجزيئات دقيقة من رائحة الفانيليا المحترقة، وهي رائحة مرتبطة علمياً في الدماغ البشري بالخسارات العاطفية.

على الجدران، نقوش متكررة تشبه شيفرة بصرية، ستتبدل ببطء أمام عيني إلياس، ما يخلق وهمًا بأن الغرفة تضيق عليه كلما تذكّر أكثر.

من حين لآخر، ستُعرض على السقف صور مشقّرة للوجوه التي خذلها، بألوان تنبض مع إيقاع قلبه ... فيبدو كأن الغرفة تعرف تمامًا متى يضعف.

يتبدل صوت خافت في الخلفية ، مرة نبضات ، و مرة همسات ... كلها مأخوذة من تسجيلات لاواعية لأصوات الماضي، جُمعت خلصة من أعماق ذاكرته.

الكرسي نفسه يحوي مستشعرات للعرق وتوتر العضلات، ترسل إشارات فورية إلى النظام البصري لتكثيف أو تخفيف الصور وفق ردود فعله.

في الزاوية القصوى، مرآة سوداء لا تعكس صورته بل تُعرض فيها نسخة رقمية مشوّهة منه كما تراه نفسه حين يندم.

كل تفصيل في الغرفة ليس عشوائياً : بل نُحت بدقة ليجعل العقل يسترجع، ويعيد تفسير الألم، ثم يتورط في تصديق أنه كان قادراً على تغييره.

إنها غرفة لا تعذب جسدك، بل تجعلك تجلد روحك بنفسك.

جلس إلياس على أحد الكرسيين فتحرّكت أذرع ميكانيكية و قيدته إليه .. ثوانٍ أخرى و بدأت التجربة ..

في البداية، لم يشعر الياس بشيء .. ثم بدأت المشاعر بالتحرك في أعماقه .. حاول المقاومة ... لكن الغرفة كانت أذكى من عناده.

أحست بانكسار نفسه، مما صنع فيه باباً لدخول الذكريات و خروج المشاعر كان قد أغلقه بإحكام.

ساد الصمت لدقائق مطولة و الياس يعيش زوبعة شعورية ملحمية داخل الغرفة تؤرجه بين خليط من المشاعر المتناقضة بسيناريو محسوب بمنتهى الدقة حتى شعر بالإنهاك النفسي و بأنه أوشك على فقدان نفسه فصرخ طالبا النجدة .. هنا ضغط كاسيان زراً عند العتبة فأطلقت الأذرع الميكانيكية سراحه ثانية .. نهض مترنحاً و خطا إلى الوراء حتى تجاوز العتبة مجدداً و قلبه يخفق كطائر ذبيح في صدره ، أمسك به كاسيان برفق و كأنه يسحبه من جاذبية ثقب أسود و أجلسه على مقعد خشبي حتى استعاد تنفسه المنتظم الطبيعي مجدداً ..

اقترب كاسيان منه وقال بصوت مشبع بالجدية :

= كنت شجاعاً بحق .. لكن افهم هذا جيداً، إلياس ... الآن بعد أن عشت التجربة بنفسك يجب عليّ أن أخبرك سراً عن الأخوية يخلصك أنت ... الأخوية لن تسمح لك بالاستمرار .. فسواء وافقت على التجربة أو رفضت ، مصيرك واحد : سيتم التخلص منك ، فأنت لن تبقى مفيداً لهم كأداة، كوسيلة، كفأر تجارب بعدها ..

ارتجف إلياس .. ثم سأل بصوت مختنق :

= موت بالحالتين .. لماذا ؟ و لماذا أنا بالتحديد ؟

كاسيان بصوت مجبول بخجل من شارك بالجريمة :

= لأنهم صنعوك بهذا الشكل منذ طفولتك .. كل فشل مررت به،

كل خيبة، كل ندم، لم تكن مصادفة بل تجارب معدة سلفاً من قبل الأخوية .. كنت تنمو لتكون أنسب نموذج لتجربة هندسة الندم .. ظننت في البداية أنهم اختاروك عشوائياً فقط من أجل التجربة .. لكنني استلمت وثائق مسربة من أرشيف الأخوية تؤكد أنك خضعت منذ دخلت الميتم إلى سلسلة تجارب نفسية لخلق كيان شعوري خاص بك لا يمتلكه غيرك من أجل هذه اللحظة .. تجربة هندسة الندم .. يريدون للنسخة النهائية من الغرفة أن تستقبل الشخصية المثالية للتجربة ، و هنا إن نجح الاختبار ، فهذا يعني أنه سينجح على أي إنسان آخر لأن نسبة الندم عنده ستكون أقل بالتأكيد ..

جمد إلياس في مكانه، وكأن الهواء من حوله تحول إلى جدار لا يمكن اختراقه .. انسحبت ملامح وجهه إلى صمت ثقيل، أقرب إلى من فقد القدرة على الفهم أو الرفض.

مرّت أمام عينيه صور طفولته كمقاطع مشوشة، كلها الآن مشكوك في حقيقتها.

تسلّل إلى صدره شعور خانق بالفراغ، كأن هويته كلها نُزعت دفعة واحدة .. ولأول مرة، خاف من عقله نفسه ... من ذاكرته، من كل ما كان يظنه يقيناً..

قال بصوت مخنوق بالألم و الحيرة ..

= كل تفصيل من حياتي صمم من قبلهم لأكون ما أنا عليه الآن ؟!

= أخشى أن هذا صحيح .. فهل أنت قادر على التعايش مع واقعك هذا .. أم أنك تريد محو كل شيء و البدء من جديد مع كل العواقب الممكنة من فشل أو جنون أو موت ..

ساد الصمت لنصف ساعة كاملة منحه فيها كاسيان الوقت الكافي كي يقرر.. كانت روح إلياس تنطحن في رحي واقعه المرير الذي

فرضته الأخوية عليه و هو يقلب الاحتمالات أمامه على ندرتها ..
نظر أخيراً إلى قبة الغرفة، حيث النور يدور هناك كعين لا تنام،
وقال بصوت متهدّج :

= ربما إن أصبحت صفحة بيضاء من جديد ... أستطيع أن أعيش
لسنين أخرى ..

= لكنها لن تكون حياتك ، ستكون نسخة بلا ماضٍ، بلا حاضر ، بل
... بلا شيء ..

أجابه إلياس :

= لكنني سأملك المستقبل ... فأنا لم أعد أحتمل حياتي الراهنة التي
لم أخترها كما تبين .. على أقل تقدير سأبدأ حياة اختارها بنفسني ..

= هذا إن نجوت من التجربة .. البعض فقد حياته بسببها ، و البعض
الآخر فقد عقله .. و قد تخسر حياتك حتى إن نجوت فالأخوية
ستخلص منك في الحاليتين كما قلت لك ..

= أعلم .. إنه أشبه بالانتحار .. لكن إن كنت سأموت في كل الأحوال
فأنا أفضل أن أموت بهوية حقيقية اخترتها .. لا بهوية مزيفة صممت
لي مسبقاً .. أريد أن أموت كما أريد لا كما أراد لي الآخرون .. ربما
سيكون هذا القرار الوحيد الذي اتخذته بمفردي و بإرادتي المطلقة ..

صمت كاسيان بجمود ، كأنه ينعى ما بقي من إلياس الحقيقي :

= عرفت أنك ستتخذ هذا القرار و لا ألومك ، فما حدث معك كان
وحشياً لدرجة لا يستوعبها العقل .. لذلك أريدك أن تلتقي بشخص
آخر كان يسير معك بالتوازي في تجربتك السابقة دون أن يعلم أي
منكما بذلك ..

إلياس بسؤال العارف ..

= و من هو هذا الشخص ؟

الفصل السابع عشر

عندما تتقاطع الأقدار

كانت لاباز تغفو بين جبال الأنديز كجوهرة مخنوقة بالضباب ،
شوارعها تعرج على سفوح الجبال، والهواء يحمل رائحة
الأوكاليبتوس الممزوجة بتعب المدن المرتفعة .. في قلبها، قرب
ساحة موريو ، وقفت نور أمام باب خشبي عتيق لمتحف صغير لم
يُدرجه أحد في خرائط السياح (متحف سوريانو للفن ما قبل
الكولومبي ..)

كان بانتظارها.

دخلت، وخطواتها مترددة على أرضية حجرية راسخة. الحارس عند
المدخل أشار بصمت إلى الطابق السفلي، حيث تنتشر تماثيل بشرية
صغيرة بأعين مفتوحة، وكأنها ترى شيئاً لا تراه أنت.

في الزاوية الخلفية، قرب تمثال حجري لإله القدر عند الأزتيك ،
وقف كاسيان .. ملامحه مرهقة، يكسوها ضوءٌ باهت من مصباح
مائل.

ابتسم عندما رآها .. لكنها لم تبسم.

قالت، دون مقدمات :

= كنتَ تراقبني .. ؟!

أوماً بهدوء، وقال :

= كنتُ أبحث عنك ... منذ عام ..

جلسا على مقعد حجري هارب من حضارات ما قبل الأرض الجديدة،
تحيط بهما تماثيل آلهة قديمة، وأساطير من زمن لم يعد له اسم ،
شرع كاسيان يقص عليها قصة الياس المشبعة بالألم الممزق بسبب
الأخوية منذ طفولته الأولى و حتى اللحظة .. ثم ختم بالقول و صوته
كمن يقرأ من سفر قديم :

= كنت أبحث عن ظل لإلياس ... لا شخص يكمله، بل شخص يعكسه .. يعاني مثله .. يشواق مثله .. يتمزق بصمت مثله .. كنتُ أبحث عن ترياقٍ لا يداوي الجرح، بل يعلمه كيف يتعايش معه ..

أغلقت نور عينيها محاولة استيعاب المرارة التي مر بها الياس دون جدوى ، ثم سألت السؤال المرتقب :

= و ما دوري أنا في قصته ؟

أخرج حاسوباً صغيراً، وفتح عليه نموذجاً ثلاثي الأبعاد، بدا كخريطة مشاعر.

= حمّلتُ للذكاء الاصطناعي آلاف الصفحات من كتابات إلياس ... رسائله، كلماته المهملة، نبضه حين يتكلم عن أشياء لا يُنهيها ... وطلبت من النموذج شيئاً واحداً : (ابحث لي عن الشخص الذي إذا التقى به، يتوقف النزيف) .. التفت نحوها.

= وكانت النتيجة هي أنتِ نور ..

صمتت طويلاً ثم قالت، بصوت خافت :

= لماذا لم تخبرني الحقيقة مباشرة منذ عام ؟

أجاب بحكمة أورثته إياها سنوات من الخبرة و الكفاح :

= لأنكِ كنتِ تحتاجين أن تصلي إليه بنفسك .. لم أردكِ أن تكوني دواءً أرسل إليه .. أردتكِ أن تري ... أن تشعرني ... أن تفهمي من تكونين أولاً .. أرسلتُ لكِ رسائل غامضة، خيوطاً تقودك إلى منشقين عن الأخوية، تركوها لأنهم لم يستطيعوا تحمّل ما فعلوه

بالقلوب .. أردتك أن تفهمي أنك بحاجة إليه بقدر ما هو بحاجة إليك

اقترب قليلاً منها، وهمس :

= هؤلاء علموك رموز هندسة الندم ، لكنهم لم يشرحوها ... فقط
فتحوا لك الباب، وأنتِ عبرت منه وحدك ..

رفعت نور عينيها إلى التمثال أمامهما، وقالت ببطء :

= وهل يمكن إنقاذ شخص غارق في نفسه ؟

ابتسم كاسيان :

= يقول نيتشه : من ينظر طويلاً في الهاوية، فإن الهاوية تبدأ بالنظر
إليه .. إلياس ظل ينظر في الهاوية، حتى نسي ملامحه .. لكن الحب
هو الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يجعله يرى نفسه من جديد .. لهذا
أخبرني الذكاء الاصطناعي أن الحل الوحيد للتعايش مع الندم .. هو
الحب.

سكت قليلاً، ثم أضاف :

= ليس أي حب .. بل حبّ متبادل ، صادق ، بين شخصين يعرفان
بعضهما من الداخل، كأنهما انكسرا على نفس الحافة ..

في الخارج، بدأ الغروب ينثر ظلاله على المدينة .. و من خلال
زجاج النوافذ الصغيرة، دخل ضوء ذهبي خافت، ألقى على وجه
نور ظلاً يشبه الحلم.

سرحت نور في تفاصيل منحوته لإله القدر أمامها ، كأنها تحاول
جمع شتات سنواتها في لحظة ..

كانت المنحوته راسخة بثبات السنين في عزلة ملكٍ لا يشيخ، وسط

القاعة الحجرية الصامتة، كأنما استُخرجت من جوف الأسطورة
لَتُعرض مؤقتًا على مَنْ يجروون على التحديق في عيني الإله لا
بتمرد بل بتواضع و تسليم .. بدت منحوتة من حجر بركاني فاحم ،
لكن الضوء المتسلل من السقف الزجاجي كان يوقظ فيها زرقة خفية،
وكان النسيان الأزلي يوشك أن يتبخر عنه.

كان يُدعى لكويترالكواتل ، إله القدر والموت عند الأزتيك .. لا يُشبه
الآلهة التي تُنزل العقاب أو تمنح البركة، بل هو ذلك الذي يحفظ
الممرات الغامضة بين النهايات البدايات .. رأسه يشبه جمجمة،
لكن من حوله نقشت دوامة لولبية بدقة جنونية و كأنها تتبع متوالية
فيبوناتشي و النسبة الذهبية ، فبدت خريطة لما لم يحدث بعد.

هكذا تخيل شعب الأزتيك اله القدر ... يرسم حياة الإنسان كما يرسم
المهندس مدينة لا يراها أحد، ولا يسكنها إلا من كُتب له المرور من
أزقتها... كل منعطف، كل سقوط، كل حب ضائع، كل لقاء مؤجل،
مضمّن في الرسم ... لا عشوائية، لا عبث ..

نظرت نور إلى النقوش التي تُحيط بالمنحوتة : وجوه مقلوبة، طرق
ملتوية، أحرف منسية، وشكلان دائريان يتقابلان دون أن يلmsا
بعضهما .. كأن الكون يوشك على أن يجمع بينهما، لكنه ينتظر
اللحظة الحرجة.. .. النقطة التي تندفع فيها الأرواح من ظلالها لتلتقي
أخيرًا بعد فرقة سنين ..

همست :

= هل يُمكن للندم أن يكون طريقًا إلى المصير؟

أجاب كاسيان دون أن يلتفت :

= بل هو مسطرة القدر ... يقيس بها ما نستحقه من اللقاء ..

وفجأة، لم تعد ترى التمثال .. بل رأت إلياس .. وجهه البعيد، ظلّه الذي لم تعرفه بعد، لكن كانت تشعر به دومًا، كما تشعر بالشوق قبل أن يولد، أو بالحب قبل أن يُقال.

قالت بصوت يقطر يقيناً لا يتزعزع :

= أتعلم .. الآن أدرك أن كل ما حدث في حياتي لم يكن عبثاً ، كان يقودني إليه .. إلى إلياس ..

ابتسم كاسيان و هو يرى نبوءة الذكاء الاصطناعي تتحقق في حين تابعت نور ..

= فضولي منذ الطفولة، ذلك الإحساس العميق بأن هناك شيئاً ما خلف الأشياء ... فقداني لوالديّ فجأة، وكأن الحياة قطعت جذوري لأدرك أنني لا أنتمي إلا لما لم أعثر عليه بعد ... تخصصي في علم النفس، محاولاتي المستميتة لعلاج أرواح الآخرين بينما كنت أبحث عن روحي المفقودة ..

سكتت لحظة، ثم أضافت بنبرة مفعمة بالحزن والنور في آن معاً :

= حتى الحلم ... الحلم الذي يراودني منذ طفولتي، عن شخص غامض يقف في مكان رمادي، لا وجه له ولا اسم، لكنه ينتظرني ... كان هو .. كان إلياس ..

نظرت إلى كاسيان و عيناها تشكرانه بصمت، لكن بوضوح شفاف كالهواء عقب هطول المطر :

= أنت لم تُقِدي إليّ، كاسيان ... بل وجّهتني في رحلتي الأصلية نحوه .. لم يكن الأمر أنني وصلت إليه من خلالك، بل أنك كنت إحدى العلامات في طريقي إليه ..

ثم أغلقت عينيها، كما لو أنها استوعبت للتو هندسة القدر..

= كل الألم، كل الفقد، كل الأسئلة التي لم أجد لها جواباً ... لم تكن إلا أبواباً تُفتح واحدة تلو الأخرى، حتى وصلت إلى الباب الأخير : إلياس ..

أخيراً التفتت إليه، وابتسمت ابتسامة واثقة دامعة :

= الندم الذي لم أكن أستطيع تسميته ... لم يكن ندمًا على خطأ ... بل على تأخر اللقاء .. وكأن الزمن أساء الحساب، فافترقنا قبل أن نلتقي .. والآن فقط، تكتمل المعادلة ..

= إذن فأنت توافقين على لقائه و خوض تجربة هندسة الندم المصغرة معه **لنرى تأثيرك عليه فيها** كما تنبأ الذكاء الاصطناعي ؟

= بكل تأكيد و توق ..

ابتسم كاسيان براحة نفسية ينتظرها منذ عام ..

= أنقذيه، نور .. وأنقذي نفسك معه .. فالهاربون من الندم، لا ينجون .. وحدهم الذين يعانقونه، يتنفسون من جديد .. لقد كنت جزءا من جريمة بحقه دون أعلم .. صحيح أنني لا أستطيع تغيير الماضي و إعادة كتابة ماضيه ، لكنني سأحاول منحه حرية في الحاضر يكتب بها مستقبله .. أرجوك ساعديني أنا أيضاً كي أكفر عن ذنوبي

الفصل الثامن عشر

تزيق النعم

كان الشلال يهدر بقوة ، كأن الطبيعة تنذر بشيءٍ قادم ... شيءٌ لا يُشبهه ما سبق.

وقف إلياس يحدق في الماء المتساقط، وعيناه معلقتان على الفراغ .. خلفه، كان كاسيان يترقب نبوءة أتت من زمن متطور .. نبوءة ذكاء اصطناعي ... ثم ظهرت نور من وراء الشلال، كأنها لا تمشي، بل تتجسّد كحورية اغريقية وسط المياه ..

حينها تلاشى هدير الشلال إلى همس، طغى النور على عتمة النفق المرتجف، رفع إلياس رأسه، كأن قلبه سبق عينيه إليها. لم يعرف من تكون، لكنه أحس أن الحكاية كلها كانت تُروى لتقوده إلى هذا الوجه.

شعر بها لا تدخل الكهف، بل تدخل حياته.

أما نور، فوقفت كما لو أنها تتذكّره، لا تراه لأول مرة ... كأن ملامحه كانت محفوظة في تجاويف الروح، تنتظر فقط جسداً لتسكنه. ثقل عمرٍ من الفقد والانتظار سقط عن كتفها في لحظة النظر إليه. وفي عينيه، رأت نفسها كما لم ترها من قبل : منكسرة، ، حقيقية... ومفهومة.

اقترب خطوة، فاهتز الهواء بينهما، كأن القدر تنفّس بعد طول احتباس.

لم يتكلما ... لأن ما بينهما كُتب قبل اللغة، ونُقش في النقصان الذي كان كلّ منهما يحمله.

في تلك اللحظة، لم يكن الشلال خلفهم ماءً، بل زمناً يُغسل، ويبدأ من جديد.

لقد التقى النقصان، وبدأ الاكتمال يكتب نفسه، أخيراً.

تكفل كاسيان بهدوءٍ يحترم قداسة اللحظة بالكلام نيابة عنهما
= إلياس ... هذه نور سترافقك في التجربة مرة أخرى ، هذا ما
اقترحه الذكاء الاصطناعي عليّ على أمل أن تنجوا كلاكما معاً ..

ثم أضاف بعد صمت قصير ، دون أن يشرح أكثر :
= لأنها الوحيدة التي تستطيع أن تعبر معك دون أن تُكسر لم يفهم
إلياس ما يعنيه تماماً ، لكنه استجمع شتاتة ثانية و اقترب منها يحييها
و هو يرى فيها طيفاً من أمه و هي تحتضنه و قد فارقت الحياة في
حادث السير ..

توجهوا ثلاثتهم مجدداً إلى غرفة هندسة الندم المصغرة : الجوّ البارد،
الضوء الرمادي، الحواف السوداء، ورائحة كأنها بقايا أرواح.
لكن كل شيء كان مختلفاً الآن.
لأنها ... هنا.

قال إلياس وهو يتقدّم ببطء :
= هذه الغرفة تعرفني. كانت كالسجّان منذ قليل ..
ثم التفت إليها وسأل :
= ألا تخافين منها ؟

أجابت نور وهي تنظر إلى الجدران كما ينظر العالم إلى الألم :
= بل أعرفها ... كأني كنت هنا قبلك ..
جلسا متقابلين.

وحين بدأت الذبذبات تتسلّل، لم تعد الصور على الجدران خاصة بإلياس فقط ... بل امتزجت.

- لحظة موت والدته نور بسكّنة قلبية ..
- صورة أم إلياس تبتعد دون وداع ..
- صوت صرخة مكتومة من طفولة نور عندما اختفى والدها ..
- و ألم إلياس وهو يرفض احتضان نفسه عقب كل فشل عاطفي

بدأت المشاعر تتكتّف.

الغرفة تضخّم كل شعور، كل ذكرى، كل سؤال.

صرخ إلياس وهو يحبس دموعه :

= كل ما حاولت نسيانه ... يعود هنا بأصوات أعلى ..

قالت نور، بنبرة مدهشة في ثباتها :

= لأنك لم تحتضنه بعد ..

ثم تابعت و هي تستحضر تجاربها السابقة في غرفة المرايا و زقاق الأقنعة التي هيئتها بأفضل طريقة لتحمل التجربة :

= هذه الغرفة لا تعاقبك، بل تعريك .. الندم ليس عدوك يا إلياس ، بل الطفل الذي ما زال ينتظر أن تعانقه.

حين انغلقت أبواب غرفة الندم خلفها، لم تكن نور تلك الفتاة ذات القلب المرتجف كما في المرة الأولى التي دخلت فيها غرفة المرايا .. هناك، تعلمت أن الصورة لا تُعرّف روح الإنسان، بل تشظّيها .. رأت كيف يمكن لانعكاس واحد أن يحطم الداخل، إن لم تكن الروح

قد واجهت نفسها من قبل. ومن ثم، في غرفة الأقبعة، اختبرت الوجه الآخر للخوف : أن تضطر لارتداء ما لا يشبهك، أن تمثل وأنت تذوب في داخلك .. لكنها لم تدب .. ثبتت وتقمصت ثم خلعت القناع بإرادتها، فتعلمت كيف تنجو من خيانة الذات.

ارتجف صدر الياس و هو يستمع لكلماتها المنسابة بعذوبة إلى مسام دماغه ..

كان يسمع كلماتها لا بأذنيه ... بل بألمه .. و هو محتار من أجوبتها .. إنها تحدثه و كأنها تعرفه .. تعرف ماضيه و قصته المفعمة بالآلام مع الأخوية .. أما هو فلا يعرف عنها سوى اسمها .. و إن كان قلبه قد سبق عقله إلى معرفتها و ألقى بظلالٍ من العاطفة عليها قبل أن يفهمها ..

سألها :

= كيف تفعلين هذا ؟ كيف لا تخافين من ماضيك ؟

فابتسمت نور، تلك الابتسامة التي لا تشبه النصر... بل التصالح مع الذات ، وقالت :

= لأنني فهمت أن الماضي لا يموت... لكنه يهدأ حين نحبه.. و أنا... أحب ماضي.. لأنه قادني إليك الياس ..

شهق إلياس عند هذا الاعتراف وكأن شيئاً انكسر فيه ثم انفتح و خرجت معه كل آلامه و ندمه و ماضيه الأسود .

قالت نور وهي تقترب منه، والذبذبات من حولهما تضعف شيئاً فشيئاً :

= كل اختياراتي ... دراستي في النفس، رحلتي مع الأرواح،
وحدتي، أحلامي، كأنها لم تكن بحثًا عن الخلاص ، بل عنك .. عن
ذلك الشخص الذي يملك ندوبًا تشبه ندبي، لكنه يملك قلبًا لم يفقد
قدرته على الحب ..

همس إلياس :

= وهل يمكن للحب أن يغفر كل هذا ؟

قالت بنعومة كأنها تترتل في كنيسة :

= لا شيء يغفر كالحب .. وحده الحب ... لا يسألك من كنت، بل
يسألك : هل تريد أن تبدأ من جديد ؟

مد ذراعه إليها فقابلته بنفس الحركة و تلامست أناملهما .. لم تكن
مجرد لمسة ... بل اتفاق بين روحين على التوقف عن جلد الذات.
و فجأة ...

توقف كل شيء.

الأصوات انطفأت .. الذكريات تجمّدت .. الضوء الرمادي صار
أبيضًا.

كأن الغرفة انحنت لهما، وأدركت أنها لا تستطيع كسر قلبين امتلأ
بالرحمة تجاه نفسيهما .. كأن الحب بينهما وافق النسبة الذهبية و
قلبيهما خفقا بمتوالية فيبوناتشي فأبطلا التعويذة ..

في تلك اللحظة...

لم تبدأ فقط علاقة حب.

بل انتهى عصر سحق قاتم من الخوف و الندم ، وبدأت حقبة ملونة
من الثقة و التصالح مع الماضي .

في زاوية الكهف، جلس كاسيان يراقب ما يحدث بسعادة وصمت ،
لقد نجحت تجربته الخاصة .. الأمل الأخير ..
قال لنفسه :

= كان الذكاء الاصطناعي محقاً .. هو لم يبحث عن الخلاص الرقمي
عبر نور ... بل عن معجزة بشرية و وجدها ..

الذكاء الاصطناعي تنبأ بما آلت إليه الأمور ليس بالرياضيات بل
بالمنطق ..

لأن نور ليست مجرد ضوء، بل ضوء مرّ بالعمّة وعاد ليُنير دون
أن يعمي ... تمامًا كما يحتاجه إلياس.

ولأن إلياس لا يبحث عن منقذ، بل عن يفهم فوضاه دون أن يخشاها،
وكانت هي الوحيدة التي لم تهرب.

لأن نور تقرأ في صمته كتبًا لم يكتبها، ويقرأ في عينيها أجوبة على
أسئلة لم يجروا على طرحها.

و لأنها لا تحاول تغييره، بل تمنحه مساحة ليعود إلى نفسه دون
خجل.

ولأن إلياس حين رآها ، لم ير ماضيه فقط، بل احتمالات مستقبله
الذي لم يتجرأ على تخيله ..

و لأنها جاءت من الخسارات مثله، وتعرف أن أقوى القلوب هي التي
خزلتها الحياة ولم تُغلق.

ولأنه يرى في خوفها شجاعة، وفي حزنها جمالًا لا يشبه أحدًا.

لأنها لا تُكمل نقصه ... بل تكشف له أن النقصان جزء من المعجزة.
ولأنه أدرك معها أن الحب لا يُنقذنا من الندم ... بل يمنحه معنى.
ولأن العالم، مهما اتّسع، يضيق على من لا يجد صوته في قلب
أحد... وقد وجده كلُّ منهما في الآخر.

خيل لكاسيان أن المصباح في قبة الغرفة تحول إلى رمز الأخوية ..
الدائرة المفتوحة جزئياً ، المثلث و الوردية ..

○ **الدائرة** التي جسدت الماضي الذي لا يموت .. الذكريات التي
تتكرر ولا تنتهي .. الألم الذي عاد مرة أخرى ليواجه إلياس ونور.
كان الغرفة تقول :

= أنت هنا لأن الماضي لم يُفهم بعد .. و سيظل يعيد نفسه حتى
تنظر إليه بعين أخرى ..
لكن ما كسر هذه الدائرة، هو اعتراف نور :
= أنا لا أهرب من ماضيّ، بل أحتضنه ... لأنه قادني إليك .
الدائرة في الحقيقة لم تُكسر، بل احتُويت.
وذلك أول تحوّل حقيقي.

▲ **المثلث** الذي جسّد التدرّج من الألم نحو الفهم .. في تصاعد
تدريجي للتجربة :

- القاعدة : الألم الفردي والندم الشخصي.
- المنتصف : التقاء تجربتيهما وظهور معنى مشترك في الألم ..
- القمة : اللحظة التي قررا فيها أن الحب هو "الاحتواء" لا "الإنكار"،
وأن الماضي لا يحتاج إلى علاج ... بل إلى رفيق.

هذا التدرّج العاطفي والمعرفي يُجسّد ما حاولت الأخوية بناءه تقنيًا
... وفشلت.

لكن إلياس ونور بلغا القمة بإنسانيتهما لا بآلاتهما ..

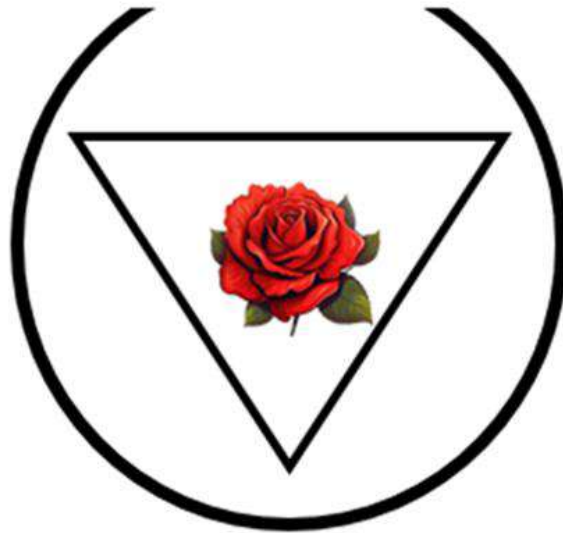
❁ **الوردة** التي جسّدت لحظة التفتح .. حين أمسك إلياس يد نور، و
حين قالت له :

= أنا أراك كما أنت ، ولن أهرب ..

تفتّحت الوردة.. ليس كرمز للنصر، بل كرمز للغفران والحب.
الغرفة لم تُغلق... بل حَفَّتْ.. كأنها خجلت و احترمت التفتح
الإنساني.

وهنا تجلّى المعنى النهائي للشعار:

الماضي (الدائرة)، يؤدي إلى الفهم (المثلث)، ويزهر أخيرًا في
الحب (الوردة).



ابتسم كاسيان بسعادة غابت عنه لأشهر .. لكنه لم يكن يدري أن كل
شيء على وشك أن يتغير خلال لحظات .. فقصص الحب العظيمة
لا تنتهي كما تتمنى الروايات .

الفصل التاسع عشر

تعميد الحب

لم يكن في الغرفة صوتٌ سوى تنفس الجدران ...
غرفة هندسة الندم ارتجفت تحت وقع انفجارٍ بعيد، تبعه صدى يزحف
بين الصخور كنبضٍ قادم من أعماق الأرض.

كاسيان التفت نحو إلياس ونور، ملامحه مشدودة، عينه تراقب
خطوط الضوء على الجدران تتحول إلى اللون الأحمر، إشعارًا
بالخطر.

قال بحزم خافت :
= الأخوية .. لقد وجدونا .. لكن كيف !؟

لم يكن هنالك وقت للأسئلة .. هرع نحو جدار ناعم الملمس قرب
المنصة المركزية.
مرّ يده على فجوة صغيرة بالكاد تُرى، ثم أدخل إبرة معدنية رفيعة
من خاتمته الدائري.
همس لنفسه و كأنه يستذكر :

= ثلاث نبضات ... يسار ... ثم أعلى ..

في لحظة، انشقت الجدران كستارٍ حجري، كاشفة عن ممر ضيق
غارق في ظلال نحاسية .. أرضه ملساء كأن الزمن لم يطأها قط،
والسقف مائل كقوسٍ من رحم الأرض.

هواء الممر كان أكثر برودة، يحمل رائحة معدنية مشوبة بالملح،
كأن البحر نفسه يختبئ خلفه.

همس كاسيان :

= من بنى هذا الممر ، لم يبنه للهرب ... بل للقيامة .. لذا أخشى من
آلام كبيرة قادمة ..

مضوا في الممر لربع ساعة و في نهايته ظهر مخرج مستور عند
نتوء صخري يطل على بحيرة تيتيكاكا، كانت الشمس تغسل الماء
بزرقة سماوية مهيبه، والضباب يتمايل فوق السطح كوشاح من
الأرواح القديمة.

و كان هناك يخت صغير ينتظر، ممّوه بلون الصخور، كما لو أنه
جزء من الحكاية.

ركبوا المركب في صمتٍ مهيب، نور تلف جسدها برداء رمادي،
وإلياس كان لا يزال مذهولاً مما رأى و مشاعر قلق تراوده لأول
مرة في حياته .. قلق ليس على نفسه بل على شخص آخر يحبه.

وصلوا الضفة الأخرى من البحيرة قبل الغروب، حيث يقبع كوخ
خشبي مهترئ بين الأشجار، تغمره رائحة الطحالب والطمأنينة.

قال كاسيان وهو يفتح بابه :

= الليلة فقط نستريح هنا ، ثم نواصل الرحلة ..

في عمق الليل، تسالت إشارات صامتة من ساعة الياس.

دُذِّبَات بالكاد يُحسّ بها، ولكنها بلغت من يجب أن تبلغهم.

وقبل أن يتنفس الفجر، كانت طائرة سوداء بلا صوت تحوم فوق
الغابة.

ثم... .

كُسر الصمت.

انفجرت نافذة الكوخ بشحنة صوتية.

تدقق جنود الأخوية كخيوط الظلام.

أطلق كاسيان وابلاً من النيران، دافعاً نور وإلياس للخلف.

صرخ و هو يتلفت حوله بقلق :

= ما الذي يجري .. كيف يعثرون علينا بهذه السهولة؟! اركضا نحو الباب الخلفي و لا تنظرا خلفكما لأي سبب كان ..

على حين غرّة اخترقت رصاصة درعه وسقط أرضاً، جسده يرتجف .. أحد الجنود اقترب منه ببطء، أطلق أربع رصاصات أخرى عليه ، ثم بصق على جنته و قال :

= هذه عقوبة الخونة ..

خرج إلياس ونور من باب الكوخ الخلفي وهما يلهتان، تسللا إلى الغابة المجاورة كأنهما يهربان من قدرٍ كتب بحبرٍ لا يُمحى .

كانت الأشجار شامخة كالحرّاس، أغصانها تهتز في الريح كأذرع تشير إلى المجهول، والقمر فوقهما يختبئ خلف غيوم متقطعة كأن الليل يتأمر معهم كي لا يروهم ... أو عليهم كي لا يبصروا طريق النجاة ..

ركض إلياس وقد أمسك بيد نور بقوة، كأنها آخر يقين في عالم يتداعى.

قال بصوت مبحوح :

= لا تتوقفي... مهما حدث ..

لكن خطواتهم لم تكن وحدها في الغابة.

خلفهم، كان صدى الأحذية الثقيلة يضرب الأرض كطبولٍ حرب ..
عناصر الأخوية يطاردونهم، رؤوسهم مغطاة بخوذ سوداء، وأعينهم
تلمع بلون الأجهزة الحرارية.

الغابة لم تعد مأوى ... بل مسرحًا مفتوحًا للمطاردة.

جذور الأشجار كانت تتلوى تحت أقدامهم، كأنها تريد الإمساك بهم،
والندى جعل الأرض زلقة كالخيبة.

فجأة، تعثرت نور بحجرٍ مدفون تحت الطحالب، سقطت على
ركبتيها.

أدار إلياس وجهه، وعاد إليها دون تردد.

ركع قربها، رفعها بسرعة، ونظر في عينيها المليئتين بالخوف ...
والحياة.

= لن أتركك، أبداً ..

لحظة صامتة مرّت بينهما، رغم صخب المطاردة، كأن العالم اختفى
للحظة ... فقط عيناها، وأنفاسه، ويداه المرتجفتان حولها ..

ثم...

صوت طَلْقَةٍ شَقَّ الهواء.

جدار من الضوء الأحمر قطع طريقهما.

ومن الظلال، خرج رجال الأخوية كأشباح مدججة.
أحدهم صاح :

= لا تقتلوا أيّاً منهما .. العقل المهيمن يريد هما حيين ..

احتضن إلياس نور بقوة كدرع يمنعهم من الاقتراب ، لكن صاعقاً
كهربائياً شلّ حركته.

سقط أرضاً وهو يرى وجوههم المموهة، والأصابع الغليظة تنتزع
نور من بين ذراعيه ثم انسدت ستارة سوداء أمام عينيهِ و غاب عن
الوعي ..

مراكش – سرداب الأرملة السوداء

في قلب المدينة المغربية القديمة، وتحت أرضٍ مشبعةٍ بعطر القرنفل
و البخور، كانت غرفة الاستجواب غارقةً في اللون الرمادي ... لا
نافذة، لا صوت، لا زمن ...

مجرد طاولة حديدية، ومصباح يتدلّى من السقف كعينٍ ساخرة،
تتأرجح ببطء فوق رأس نور.

كانت نور تجلس هناك، يداها مقيدتان بسلاسل باردة، تنظر أمامها
بثباتٍ يشبه السكون المقدس.

وجهها بلا دمة، بلا رجفة، كأنها تنتمي لصنفٍ آخر من البشر، من
أولئك الذين اعتادوا أن يُسحقوا... لكن لا ينكسروا.

دخلت أنيا غروسنر الأنثى الوحيدة في الأخوية .

بذلتها السوداء كانت مشدودة كدرع، شعرها الأشقر منهمر على كتفها يعكس شخصيتها التي ترفض التحكم بها ، وخطاها تقطع البلاط كالسكاكين.

عيناها بلون الجليد حين يتحول إلى سلاح، ونبرتها لا تحمل علوًا فقط ، بل و سمًا مقطرًا في كل كلمة.

اقتربت من نور ، انحنيت قليلًا، ثم قالت :

= أخبريني ... متى بدأ الحب يضعفك ؟

نور لم تجب.

أنيا ضحكت ببطء :

= أعرف هذا الصمت.. إنه ليس بطولة ... بل وهم .. تظنين أن المقاومة تحررك ؟ أنا أخلق النساء من رماد مثلك... وأحطمهن بحرفٍ واحد ..

اقتربت أكثر، ثم صفعتها.

ارتد الصوت في الغرفة كما لو صُفَع الكون نفسه.

لكن نور لم تتحرك.

عيناها كانتا ثابتتين على المصباح المتأرجح ... كما لو كانت تحدث نورًا لا تراه.

قالت أخيرًا، بصوت ناعم كأثر الفراشة :

= الضعف ... هو أن تفقد نفسك وأنت تظن أنك تسيطر .. أما الحب ... فقد أنقذني منك، قبل أن تلمسيني ..

تشنج فك أنيا من كلماتها .. اقتربت أكثر، أمسكت نور من عنقها،
همست :

= ستتكلمين و تخبريني من أنت و ما علاقتك بحلقة الظل ... أو
ستدفين هنا ..

لكن نور ابتسمت، لأول مرة منذ دخولها.
= لن تسمعي مني سوى لغة واحدة ... الصمت ..

ومع كل ساعة تمر، كانت أنيا تغضب أكثر، وتفقد شيئاً من سيطرتها
الباردة، بينما كانت نور تزداد حضوراً في غياب الكلمات.
في نهاية الليل، خرجت أنيا من الغرفة، والعرق يتصبب على جبهتها،
والخدش في كبريائها أعمق من أي جواب.
أما نور ... فبقيت هناك، مقيدة، صامتة، ولكنها كانت المرأة الوحيدة
في المكان التي لم تُهزم.

في زنزانة مجاورة لغرفة استجواب نور جلس إلياس على الأرض
الباردة، مسنوداً إلى الجدار، سقف الزنزانة واطئ كأنها خلقت لتحني
رؤوس من فيها.

الضوء الخافت من مصباح في الممر المجاور لا يكاد يلامس أرض
الحجرة، ويداه المتسختان كانت تضمّان ساعته ... تلك الساعة
اللينة التي خانته دون أن يدري فقادتهم إليه.
كان الهواء في السجن كثيفاً ... كأنه مخلوطٌ بهمساتٍ من زمنٍ غابر.
لكن في تلك اللحظة، وسط العتمة، سمع صوتاً.
ليس صراخاً، بل صفعة.

ثم صمتٌ أطول من اللَّيل.

ثم همسة ... لم تكن موجّهة إليه، لكنه عرفها.
كانت نور.

لم يكن يراها، ولا يعرف إن كانت في الحجرة المجاورة، أو أسفل منه، أو في جناح آخر من السرداب، لكنه سمع نبرة لا تنتمي لهذا المكان.

كأنها لا تتكلم فقط لأنيا ... بل للعالم برمته .
= أما الحب ... فقد أنقذني منك، قبل أن تلمسيني ..

ارتعشت أنفاس إلياس .. أغلق عينيه، وألصق رأسه بالجدار ، وكأنه بذلك يقترب منها أكثر.
همس في نفسه :

= أنتِ لستِ وحدكِ ... وأنا أيضًا لن أنكسر ..

كانت جدران الزنزانة تشبه قوقعة حجرية، لكن صوت نور اخترقها،
لا ككلمات، بل كإيمانٍ ينتقل من روحٍ إلى روح.
وفجأة، شعر إلياس أن البرد في عظامه قد بدأ يذوب.

أن الزمن - مهما كان عدوًا - لا يمكنه أن يسلبه شيئًا ما دام قلبه معها ..
في تلك اللحظة بالذات تصالح مع ماضيه بالكامل ، فكيف له أن يكره حياة قاداته إليها مهما كان السيناريو مؤلماً و وحشياً ؟!

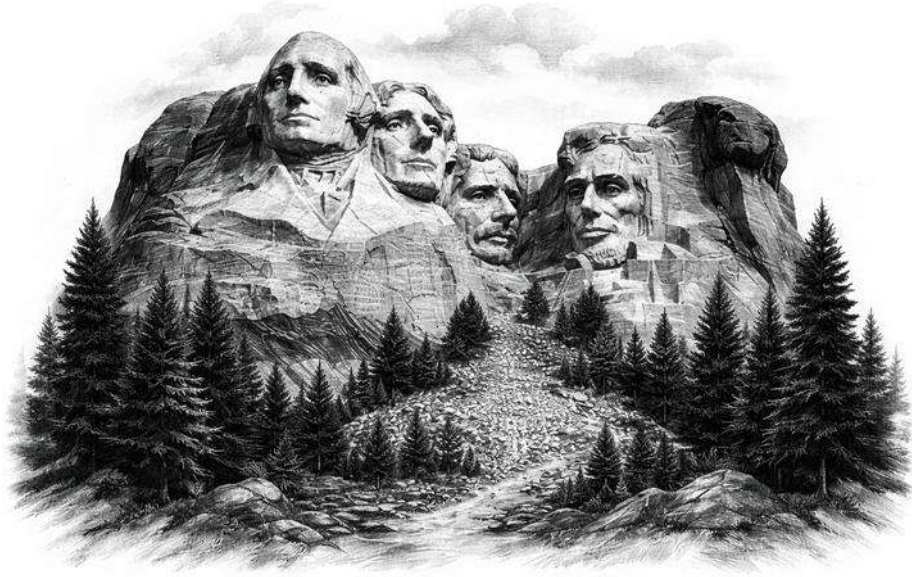
لذا فهو سيقا تل حتى آخر نفس من أجل مستقبل يجمعهما معاً .

الفصل العشرون

نسيبة الحب الذهبية

جبل راشمور - داكوتا الجنوبية

كانت تماثيل جبل راشمور تنهض من الصخر كما تنهض اللعنات
القديمة من نومها الثقيل .. وجوهها، المنحوتة فوق الزمن، بدت
جامدة، لكن في صمتها وقار المدانين بالصمت، كأنها تعرف ما
سيجري تحتها ولا تستطيع التدخل.



نظر إلياس إليها من بعيد، وعيناه لا تطلبان التاريخ بل تستجديان
الخلاص، كأن في قسما ت تلك الوجوه رسالة خفية، أو حتى تواطؤًا
مريبًا.

كل شيء بدا ساكنًا ... باستثناء قلبه.

تضاربت النبضات في صدره، لا بفعل الخوف من المصير
المجهول، بل من فكرة واحدة تقض مضجعه :

أين نور؟

هل ما زالت حية ؟

هل قاومت كما كانت تفعل دومًا ؟ أم أطفئت شعلة حضورها

في مكانٍ لا يعرفه؟

اقتادوه نحو الكهف خلف التماثيل كما يُقاد المحكوم إلى اعترافه الأخير.

الجو كان حاراً ، و داخله كان يغلي بالقلق والرفض ...
شعر أنه وحده، تمامًا، وأن نور كانت مرآته الوحيدة ... وإن
تحطّمت، لن يرى نفسه من جديد.

رفع بصره إلى تمثال واشنطن، فرأى فيه ظلّ قاضٍ بلا رحمة.
ثم إلى لينكولن، فلمح شفقة مدفونة لا تجرؤ على الظهور.
أما روزفلت، فبدا وكأنه يشيح بوجهه خجلاً.

وقف إلياس هناك، وسط العاصفة الداخلية، وهمس :
= إن كانت الحقيقة ستنتزع مني ... فليكن صوتها يشبه صوت نور

اقتيد إلياس عبر نفق ضيق محفور في جوف الجبل، محاطاً برجال
يلبسون السواد ويحملون أسلحة لا تلمع.
كان الهواء خانقاً، مليئاً برطوبةٍ لم تكن طبيعية... كأن الجبل ذاته
يتعرق.

وعند الباب المعدني الذي يفصل النفق عن غرفة هندسة الندم ، توقف
الموكب.

فتح الباب ببطء، صريره يشبه حشرة محتضر .

دخل إلياس.

الغرفة تشبه إلى حد ما غرفة كهف بوليفيا ...

نفس القبة الحجرية، الجدران المنحنية المنقوشة بذكريات مشفرة،
الأنابيب المتشابكة كالعرق، والكرسي المائل في منتصف الدائرة.

لكن هذه المرة، لم يكن وحده.

كان هناك مجسم أمام الكرسي، مجسم مربع، يبدو كهيكل عظمي
لإنسان في وضع السقوط، لكنه لم يكن طبيعيًا ... كانت العظام فيه
ملتوية، محطمة في نقاط مدروسة، كأنها وُضعت لتُذكر بالكسور
التي لا تُشفى.

وعلى المجسم...

كانت نور، معلقة بالأحزمة، كأنها جزء من الألم.

لم تكن مستيقظة، أو ربما لم تُرد أن تُظهر وعيها، لكن جسدها بدا
كصلاة راهبة عاجزة تناجي الأمل ..

لقد أراد العقل المهيمن بكل دناءة أن يستغل نور في التجربة كي
يمارس أكبر قدر من ضغط الندم على الياس كونه لم ينضج بعد
بحسب رأي أنيا غروسنر ، هكذا تتحرر مشاعره بسرعة أكبر و
يتحقق الفراغ الشعوري في أعماقه على نحو مضمون ..

أجلس إلياس على المقعد المعدني البارد و هو يكاد يفقد عقله من
مظهر نور الوحشي على المجسم و يشعر بندم ممزق كونه السبب
في وصولها إلى هذه الحالة .. أذرع ميكانيكية امتدت إليه، احتوته
كما لو كانت تعانق ضحية.

لم يعد يرى الغرفة كما كانت في بوليفيا ...

ما إن أغلقت البوابة خلفه، حتى انبعثت من الجدران أصوات بشرية
مشفرة، تشبه البكاء في المقابر الجماعية ... ثم بدأت المشاهد تتوالى
كما لو كان شريط حياته السينمائي يمر أمام عينيه.

ظهرت أمه، تحتضنه و هي تلهث، ثم تتهاوى بين ذراعيه مرة أخرى
ظهر والده، يحدّق فيه من مقعد السائق قبل أن يموت عقب الحادث
لاح ظلّ كاسيان، ينزف وحده في كوخ بوليفيا، ممدداً تحت المطر...
وأخيراً، بدت نور، مربوطة بالمجسم، رأسها مائل، نظرتها مطفاة.
تحركت الآلة.

بدأ بتّ مشاعر إلياس من الذاكرة مباشرة ... لكن بشكل مضاعف ..
كأنّ ندمه تحوّل إلى سيفٍ يتكرر طعنه كل ثانية.
ارتج جسده .. تصيب عرقاً.

ثم سقطت دمعة، ليست بسبب الصورة ... بل بسبب الحقيقة
الصعبة :

(أنه لم يعد وحده أخيراً ، فكيف سيسمح للتجربة أن تنسيه إياها من
جديد. !؟)

تمتم بصوت مبحوح :

= لا أرجوكم ... لا تأخذوها منّي .. لا أريد أن أنسى ..

رد العقل المهيمن، من مكبر صوت غليظ يخلو من الحياة :

= الحب أداة تشويش .. النظام يستهدف النقاء الشعوري .. استمر
في الانحدار ..

وفجأة، لم تعد الصور تعرض فقط... بل صارت تحيط به، تتداخل،
تتكرر، تتسارع...

نور تصرخ، أمه تموت، كاسيان ينزف، نور تصرخ، والده يموت،
نور تصرخ...

عيناه لم تعودا تميزان...

جسده يُستنزف...

قلبه يتبعثر في أصداء الألم.

لكنه ... تذكر.

تذكر لحظة لقائهما الأول خلف الشلال.

تذكر نظرتها عندما قالت : (كل شيء قادني إليك) ...

تذكر أنها كانت المرأة التي رأت ندمه ولم تهرب.

وفي وسط تلك العاصفة، فعل ما لم يُبرمجه أحد على فعله طيلة أكثر
من ثلاثين سنة :

ابتسم.

ثم قال :

= أنا أختار الحب ... حتى وإن كنتُ محطماً ..

الذبذبات الشعورية التي تسجل ، ارتفعت قليلاً، ثم انخفضت فجأة
بشكل حاد ..

الأجهزة فشلت في فك الشيفرة.

نما الحب في قلب الياس وفق النسبة الذهبية المقدسة و تشعب في
الغرفة ملاحقاً خطوات متوالية فييوناتشي التي تماهت مع ضربات

قلبه الصامد .. هنا أعلن النظام الالكتروني :
**فشل تسلسل الانهيار .. مقاومة غير متوقعة .. شعور ما تجاوز
معدل الألم و أجهضه**

دوّت صفارات التحذير .. الجدران ارتجّت.
صرخ العقل المهيمن بصوت أقرب إلى الاحتضار :
= كلا .. لن أسمح بذلك .. نصف قرن من هندسة إنسان لا يمكن أن
تتبخّر في لحظة بسبب شعور وحيد مجهول !!

الشيء الوحيد الذي قهر العقل المهيمن و هندسة الندم هو الشيء
الذي تبرأ منه طوال حياته .. **الحب** ..
انطفأت الأنوار...
الغرفة لم تعد تحت السيطرة.

في تلك اللحظة، كانت صورة نور تهتز ... ثم تختفي.
واختفى معها الألم.
أغلق إلياس عينيه وهو يلهث، دموعه تختلط بعرقه... لكنه شعر
بشيء يُولد في داخله لأول مرة في حياته :
السلام.

ثم ... الانفجار.
اهتز الجبل ...
الجدران تشققت ...

دخلت الظلال من كل صوب، عناصر ملثمة يرتدون الأخضر
الداكن ..

وفي مقدّمهم ...

ماركوس.

نزع قناعه، وصاح :

= إلياس .. نور .. نحن هنا ..

كانت حلقة الظل بقيادة ماركوس .. تماماً في الوقت المناسب كما
يفعل إله القدر بعقرية في كل مرة عندما تبلغ الأحداث ذروتها ..
اقتحمت الكهف لتعلن الانقلاب النهائي الأخير على الأخوية بعد
سنوات من الانشقاق عنها لتتنصر مجدداً فلسفة (آخر العلاج
الكيّ) .. فأعدت كميناً لهم في التاريخ المحدد و المكان المعلوم
لإجراء التجربة المنتظرة انتقاماً لكل من فقد حياته بسببها و آخرهم
كاسيان ..

كاسيان لم يمت...

لقد انطفأ بهدوء كقنديل أنهكته العاصفة بعد أن أنار الطريق لغيره.
اختار الرحيل ليحمي من أحبّ، وكأن حياته كلها كانت مقدّمة لتلك
اللحظة.

لم يطلب وداعاً، ولا دمعة، فقط أراد أن يكون ممرا حلزونيا كنسبة
مقدسة بين الموت والحياة.

في صمته الأخير، قال كل ما عجز عنه العالم :

أن الحب الحق يُقاس بالتضحية.

وسيبقى ظلّه حيّاً، لا كذكرى، بل كوصيّة محفورة في قلوب من
أنقذهم.

الفصل الحادي و

العشرين

قصة حياة ملحمية

كانت الشمس تنسكب على رمال الشواطئ **التايلندية** كما لو أنها
تغسلها بنور المغفرة .. أصوات الموج تتعانق مع صدى ناي قديم،
فيما عبق الزهور البيضاء يعطر الهواء كذكرى عذبة لا تزول ..
هناك، على تلك الشواطئ الخلابة ، أقيم الحفل.

في باحة معبد صغير تتسلقه الكروم، وقف إلياس ببذلته الرمادية،
وقد انعكست في عينيه كل سنوات الوجع، الندم .. و الغفران ..
أمامه، جاءت نور ... بفستان بسيط ينسدل كضوء القمر، وعيناها
كأنهما استردتا الهدوء الذي سرقتة منهما الحياة.. كان المشهد يشبه
لوحة حُلدت دون أن تذبل ألوانها.

لم يكن زواجهما مجرد طقس.

كان تنويجًا للحب الذي رَوّض الندم، الحب الذي أجهض هندسة الندم
ذاتها.

ذلك الحب الذي لا تندم عليه، ولا تندم معه.

لم ينقذهما من ماضيهما، بل جعلهما يحتضنانه دون أن يتشظيا تحت
وطأته.

لقد أحب كل منهما الآخر رغم الشقوق، وربما بسببها.



لقد خابت نبوءة العقل المهيمن، وانكسرت معادلته المعقدة.
خوارزمية كاسيان لم تكذب، لا لأن الأرقام أصابت، بل لأن الحب
تجاوز الرياضيات.

و مع آخر أنفاس النهار .. على الساعة **7:13** تماماً ، وضع كل
منهما خاتمه في إصبع الآخر في لحظة فاصلة في حياتهما سيبدأ
معها مستقبل جديد تشرق فيه الشمس من حيثما غربت .. يخرج فيها
الندم من الدائرة المكسورة ليدخل الحب عوضاً عنه .. إنها **نيرفانا**
من نوع آخر .. عندما يتحرر الإنسان من ندمه أخيراً ..

مرت السنوات كحكاية نُسيت صفحاتها الأولى.
كان المساء قد استقر بثقله في الغرفة، ورجل عجوز جلس خلف
مكتب خشبي مهترئ، تحيط به رفوف مكدسة بكتب فقدت عناوينها
من فرط القراءة.

إلياس ... شعره أصبح رمادياً، ويداه ترتجفان برفق، لكن عينيه
احتفظتا بالشرارة نفسها و هو يرمق صورة غرفة الدير السرية
السوداء على الحائط أمامه .. هو لا يعرف بأن حفيده دانييل سيمتلك
ذات يوم محل تحف في أزقة روما و يعلق هذه الصورة على
الواجهة ليخبر كل من يسأله عنها عن قصة جده الملحمية و حياته
السرية ..

أمام آلة كاتبة كلاسيكية، أخذ يضغط على الأزرار، و الحروف تخرج
كأنها تهمس بما لم يُقل من قبل.

العنوان :

هندسة الندم

مما كتب :

(كنت طفلاً مسروقاً من قلبه، شُيِّدت حياتي مثل غرفة صُممت على أساس الوجع، تتلاعب الأخوية بجدرانها كما تشاء .. علّمني أن أندم على ما لم أفعله، وعلى ما فُرض عليّ، حتى ظننت أنني لست إلا ظلاً يُعاد تشكيله.

ثم التقيت بها ... نور.

حين أحببتها، لم أهرب من الندم، بل منحني الحب شجاعة البقاء فيه دون أن أهزم.

اكتشفت أن الإنسان بلا ندم، ليس إنساناً.

الندم هو الحبر الذي نكتب به مشاعرنا الأكثر صدقاً.

ومن لا يندم، لا يعرف كيف يرحم، ولا كيف يعتذر، ولا كيف يحب.

الندم لا يكسرنا ... بل يصنع أعماقاً فينا تتسع لاحتضان الآخرين.

أما الحب ... فهو المعجزة التي تمنح الندم هدفاً، وتجعله وقوداً للتغيير لا عقوبة.

إن هندسة الندم لم تنهزم بالعقل، بل انكسرت حين احتضن قلبان ماضيهما، وغفرا لنفسيهما، وأحبا برغم كل شيء ، و عندها أزهـر (الجرح)

و في الجزء الأخير من كتابه أرفق ملحقاً بعنوان :

الخطوات التي يقهر فيها الحب هندسة الندم

تحليل علمي بحث لما جرى معي في حياتي وفق تصور عالمة النفس الفذة زوجتي العزيزة نور حداد التي شاطرتني تجربتي الفريدة مع هندسة الندم :

{ الندم ليس لحظة شعور، بل معمارٌ باطنيّ مشيّد بحجارة الإدراك المتأخّر، وأعمدة التحليل الزائد، وسقفٍ من " لو أنّي .." هو فن معماري معقّد يُعاد فيه ترتيب الماضي وفق مقاييس الحاضر، ليُصبح المرء سجيناً في قصرٍ شيده بيديه من الافتراضات والسيناريوهات البديلة .. في هذا الحيز المضمّن، تتدخل هندسة الندم كعلمٍ داخلي غير مرئي، يربط بين العصبونات والذكريات، ويُدير كيمياء الذنب والحسرة باتقان قاتل.

لكن الحب، بتكوينه الفطري والمجهول، يدخل هذا البناء كزلازل هادئ، لا يطرق الباب، بل يهدمه.

فكيف يمكن للحب، وهو أكثر الظواهر تفرّداً وعصياناً على التفسير، أن يقهر منظومة هندسية تُعدّ من أكثر البنى النفسية تعقيداً ؟
في الحقيقة هذا يعود لمخمس من الأسباب العلمية العميقة :

أولاً ، الحب يقطع الدائرة العصبية للندم .. فمن منظور علم الأعصاب، يُنشّط الندم مناطق في الدماغ مثل **القشرة الجبهية المدارية و النسيج الحُصيني**، وهي المسؤولة عن استرجاع التجربة وتقييم البدائل .. حين نحب، يُفعّل **النظام الحوفي** (Limbic System) (بقوة)، وتُفرز كميات كبيرة من **الأوكسيتوسين و الدوبامين**، وهي ناقلات عصبية تُبطل بشكل مباشر تأثير دوائر الندم المزمّنة .. الحب هنا ليس مجرد عاطفة، بل تدخل بيولوجي طارئ، يُعطّل أنظمة الندم كما يُعطّل فيروسٌ شفرة برنامج مشفر.

ثانياً ، من منطق التبرير الوجودي: الحب يعيد ترميز الماضي .. هندسة الندم تقوم على مقارنة بين (ما حدث) و (ما كان يجب أن يحدث). أما الحب، فيدخل بُعداً جديداً لهذه المقارنة : (لو لم يحدث ما حدث، لما التقيت بك). هذا التحوّل في المنطق الداخلي يُعيد ترميز التجارب الماضية لا كأخطاء، بل كمرات ضرورية نحو اللقاء المصيري. هو إعادة كتابة للماضي بلغة **القدر الجميل** ، لا

بلغه الخطأ القاتل. في هذا السياق، الحب لا يمحو الندم فحسب، بل يُعيد هندسته ليُصبح سبباً للامتنان.

ثالثاً ، الحب يمحو الحلقة الذاتية المفرغة .. فالندم يخلق حلقة مغلقة من التفكير المتكرر، تُعرف علمياً بـ الاجترار الذهني Rumination، وهي آلية نفسية تنهك الدماغ وتُغذي الاكتئاب. حين يدخل الحب، يُعيد توجيه التركيز من الداخل (الذات المنهارة) إلى الخارج (الآخر الذي نحبه). فينقطع التيار عن دائرة الاجترار، وتتحوّل الطاقة الذهنية من التحليل إلى العطاء، ومن اللوم إلى الحنان. إنه انزياح كامل في محور الإدراك، يُقوّض البنية التكرارية للندم ويستبدلها بجدولٍ جديدٍ من الأولويات العاطفية.

رابعاً ، الحب فعل خلاق .. فبينما تسعى هندسة الندم لتفسير (ما فات) ، الحب يسعى لخلق (ما سيكون) .. في كل قبلة، في كل لمسة، نحن نبني مستقبلاً لا يمكن للندم أن يُحاكمه بعد، لأنه لم يُصنع بعد. الحب يُخرج الإنسان من متحف الذكريات إلى ورشة البناء، من المقبرة النفسية إلى حقل الاحتمالات الحية. وهنا، تكمن المعجزة : أن الحب يُغيّر جهة البوصلة الوجودية، من اجترار الزمن الميت، إلى اختراع الزمن الحيّ.

خامساً ، الحب والعفو العصبي أو المصالحة مع الذات .. فأعمق انتصارات الحب أنه لا يُصالحك مع الآخر فحسب، بل يُصالحك مع نسختك القديمة، تلك التي أخطأت .. الحب لا يقول لك :

(أنت لم تخطئ)

بل يقول :

(حتى بخطئك، أنت جدير بأن تُحب)

وهذه، بحسب علم النفس الإنساني، أقوى آلية شفاء تُمكن للعقل أن يختبرها .. في وجه الندم الذي يُفرّغ القيمة من الذات، يأتي الحب

ليملأها من جديد، لا على أساس الإنجاز، بل على أساس القبول غير
المشروط. {

و في ختام كتابه ذكر الياس :

(الحب علم غير مكتوب .. و رغم أنه عصيّ على التحليل الكامل،
إلا أنه يُمارس تأثيره بدقة تفوق أيّ معادلة .. هو العلم الذي لا يُدرّس،
ولكنه يُغيّر كيمياء الروح.

في عالمٍ تُبنى فيه مشاعرنا كمعمار من الندم والخوف والتردد ...
يأتي الحب ليقول :

دعنا نهدم هذا القصر ... ونبني كوخًا نعيش فيه معًا

وهكذا، يقهر الحب هندسة الندم، لا لأنه أقوى، بل لأنه أصدق. (

رفع يده عن الآلة الكاتبة، وتأمل الجملة الأخيرة من روايته على
الورق الأصفر:

لم نُخلق لنهرب من الماضي، بل لنمنحه معنى

ثم أغلق عينيه، وابتسم بسلام .. بعد أن واجه بشعلة النور - تماماً
كالنبي الياس - كهنة الأخوية الظلاميين ..

لا ندم بعد الآن ..

أبيدوس ..

محتوى الكتاب :

- الرواية الأولى : فوتون
- الرواية الثانية : CRISPR
- الرواية الثالثة : أبيدوس
- الرواية الرابعة : حجر رشيد الكونيّ
- الرواية الخامسة : أكاد أخفيها
- الرواية السادسة : مخمس الشيطان
- الرواية السابعة : DNA
- الرواية الثامنة : روح
- الرواية التاسعة : هندسة الندم

